الان نيفنز
هنرى ستيل كوماجر

موجز تاريخ الولايات المتحدة

ترجمة
محمد بدر الدين خليل



موجز تاريخ
الولايات المتحدة

تصميم الغلاف : محمد رشدى المنير

موجز تاريخ الولايات المتحدة

تأليف
الان نيفينز
هنرى ستيل كوماجر

ترجمة
محمد بدر الدين خليل

الدار الدولية للنشر والتوزيع
القاهرة - الكويت - لندن

الطبعة العربية الأولى

الدار الدولية للنشر والتوزيع
٣٨ ش الأهرام – روكسى – مصر الجديدة
ص . ب : ٥٥٩٩ هليوبوليس غرب – القاهرة
ت : ٢٥٨٢٨٨٧
تلكس : ٢٠٠٧٠/٢٠٠٧١ PBCRB UN
فاكس : ٠٠٢٠٢/٢٩١٨٠٥٩

أشرفت الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية بالقاهرة على ترجمة وإخراج هذه الطبعة من الكتاب ، كما قامت بأعمال الجمع التصويرى وإعداد الأفلام .

The Egyptian Society for the Dissemination of Universal Culture and Knowledge (ESDUCK), Cairo, supervised the translation and production of this edition. Phototypesetting and films were done by ESDUCK.

مقدمة

برزت أمريكا من غمرة الخفاء إلى صفحات التاريخ ، منذ حوالى أربعة قرون فحسب . فهى أحدث الأمم الكبيرة ، وأكثرها جدة ، وإن كانت ــ لاعتبارات كثيرة ــ أدعاها لإثارة الاهتمام . فهى مثيرة للاهتمام لأن تاريخها يوجز تاريخ الأجناس ، ويلخص تطور النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وهى مثيرة للاهتمام لأن معظم تلك القوى والعوامل التاريخية التى صاغت العالم الحديث ، عملت على أرضها : الاستعمار ، والقومية ، والهجرة ، والتصنيع ، والعلم ، والدين ، والديمقراطية ، والحرية . . ثم لأن أثر هذه القوى على المجتمع يتكشف فى تاريخها بأجلى مما يتكشف فى تاريخ الأمم الأخرى . وهى مثيرة للاهتمام لأنها اليوم أقدم جمهورية وأقدم دولة ديمقراطية ، بالرغم من حداثة عهدها ، كما أنها تعيش فى ظل أقدم الدساتير المكتوبة فى العالم . وهى مثيرة للاهتمام لأن أهلها ، منذ باكورة بداياتها ، يفطنون إلى قَدَر خاص يلوح أمامها ، ولأن آمال الجنس البشرى وتطلعاته ترتبط بها ، ثم لأنها لم تخفق فى تحقيق ذلك القدر ، ولا فى إرضاء هذه الآمال .

إن قصة أمريكا هى قصة تأثير ثقافة عريقة على بيئة قفر . فلقد طوت الآلاف الستة الأولى من أعوام التاريخ بوثبة واحدة ، فى الواقع ، وبرزت على مسرح التاريخ جريئة ناضجة (مكتملة النمو) . ذلك لأن المستوطنين الأوائل لم يكونوا بدائيين ، وإنما كانوا متحضرين ، فغرسوا فيها ثقافة لها من العمر قرون . ومع ذلك فإن العالم الجديد لم يكن يوماً مجرد امتداد للعالم القديم ، بل كان ما توقعه مستوطنوه الأوائل ، وما صممه الآباء المنشئون . . كان شيئاً جديداً فى التاريخ . ذلك لأن البطاح غير الممهدة التى قابلت الرواد الأوائل من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهادى المتألق ، عدّلت وحورت نظماً

وأعرافاً موروثة ، كما أن المخالطة بين الأقوام والعناصر عدلت وحورت ثقافات موروثة . وأصبحت أمريكا أكثر التجارب طموحاً بين كافة التجارب : فى المزج بين الأقوام ، وفى التسامح الدينى ، والمساواة الاجتماعية ، والعدالة فى الفرصة الاقتصادية ، والديمقراطية السياسية .

ومع إقرار المؤرخين والرحالة الأوربيين ، عن طيب خاطر ، بما للشعب الأمريكى من فضائل راسخة ، فقد طال إصرارهم على أن التاريخ الأمريكى رتيب ، غير ممتع ولا مثير ، يفتقر إلى التنوع والدسامة والأبهة . ولكنه فى الواقع على النقيض من ذلك : فهو مفعم بالحركة والشعور ، وبالصور المثيرة ، وهو مصوغ فى قالب بطولى . فليس فى التاريخ الحديث شبيه للقصة الممتعة ، قصة الانتشار السريع الذى قام به قوم صغيرو العدد ، ضعاف ، فى عرض قارة كاملة ، وقصة نمو بضع مستعمرات قليلة متناثرة لتصبح أقوى أمة . وممراتنا الجبلية لا تقل رواءً عن الحصون الإقطاعية ، كما أن الاجتماعات فى مدننا الصغيرة لا تقل جلالاً عن البلاطات الملكية ، ولا يقل تدفق الناس على جوف القارة إثارة عن انتشار جحافل النورمان والمسلمين Saracens . وإن أبطالنا القوميين ــ واشنطن وجيفرسون ولنكولن ــ ليقفون جنباً إلى جنب مع أبطال أى شعب آخر .

إننا نكتب هذا التاريخ للعامة وليس للدارسين ، فهو معد لإرضاء الحاجة إلى تاريخ موجز ، فى قالب قصصى ، للشعب الأمريكى . وإذا كان ثمة موضوع رئيسى ، فهو ذاك الذى يتضمنه العنوان . . نمو شعب هنا ، أوتى من الذكاء ما يجعله ينشد الحرية ، ويجعله راغباً فى العمل من أجلها ، وفى النضال فى سبيلها .

المؤلفان

ألان نيفينز

هنرى ستيل كوماجر

١٩٤٢

المحتويات

موجز تاريخ
الولايات المتحدة

الفصل ١

تأسيس المستعمرات

المعالم الطبيعية لأمريكا الشمالية

بدأ تاريخ التوطن الانجليزى فى أمريكا ، فى صباح يوم بديع من أيام شهر أبريل سنة ١٦٠٧ ، عندما رست سفن الربان كريستوفر نيوبورت الثلاث ، التى أضنتها العواصف بالقرب من مدخل خليج تشيزابيك ، وأوفدت إلى الشاطىء رجالاً ، وجدوا « مروجاً بديعة ، وأشجاراً سامقة ضخمة ، فضلاً عن مياه عذبة بوفرة كانوا يتمنون أن تقع عليها أبصارهم » . وكان من مرافقى هذه السفن جورج بيرسى ابن إيرل نورثمبرلاند ، الذى كان يتسم بالنشاط والوسامة ، والكابتن جون سميث . ويسجل بيرسى كيف وجدوا غابات وارفة ممتازة ، والأرض مكسوة بالزهور ، والفراولة البرية البديعة « تضارع فى الحجم أربعة أمثال ما لدينا فى انجلترا ، وتفضلها » ؛ والمحارات البحرية « الكبيرة جداً ، واللذيذة المذاق » ، وكثيراً من الحيوانات الصغيرة الصالحة للصيد ، ووفرة من « مأوى الديوك الرومية ، وكثيراً من البيض » ؛ وبلدة هندية أحضر لهم البدائيون فيها خبزاً مصنوعاً من الأذرة ، وطباقاً (تبغاً) يدخن فى قصبات من الطين ذات قصاع من النحاس . ولقد بدت هذه التجارب الأولى فى فيرجينيا باهرة ، لفترة من

الزمن . ويصف بيرسى فى كتابه الذى نشره بعنوان « مشاهدات » اغتباط الوافدين الجدد بالطيور الوفيرة الألوان ، والفواكه ، وأنواع التوت ، وسمك الحفش الضخم البديع ، والمناظر الطبيعية الممتعة . بيد أن روايته الرائعة ، الزاخرة بالشعر المتحمس ، تنتهى بما يشبه الصرخة المرتاعة : إذ يروى كيف كان الهنود يهاجمون المستوطنين « وهم يزحفون من التلال على أربع ، كالدببة ، وأقواسهم بين أسنانهم » ، وكيف أن الرجال كانوا يصابون « بأمراض قاسية ، كالأورام ، وحالات الإسهال ، وأنواع الحمى المصحوبة بحرارة متأججة » ؛ وكيف أن الكثيرين ماتوا من مجرد الجوع ، « فكانت أجسادهم تجر إلى خارج أكواخهم كالكلاب ، لكى تدفن » .

لم يكن غرس أمة جديدة فى أمريكا مشروعاً للهو والترفيه ، وإنما كان معناه عملاً ضارياً ، قذراً ، مضنياً ، خطراً . فقد كانت هذه قارة شاسعة ، وعرة ، تكسو ثلثها الشرقى غابات لا تتخللها مسالك ، وكانت جبالها وأنهارها وبحيراتها وسهولها المترامية جميعاً بالغة الاتساع كبيرة الأحجام ، وبطاحها الشمالية ضارية البرد فى الشتاء ، ومساحاتها الجنوبية لاهبة القيظ فى الصيف ، كما كانت مليئة بالوحوش الكاسرة ، ومسكونة بقوم محبين للحرب ، قساة ، غادرين ، باقين بعد فى العصر الحجرى للثقافة . كانت بلاداً منفرة ، من عدة اعتبارات ، ولا سبيل إلى بلوغها إلا برحلة بحرية محفوفة بالمخاطر ، حتى إن بعض السفن كانت تدفن من ركابها عدداً يساوى من توصلهم إلى البر . ومع ذلك ، فقد كان مقدراً لها أن تصبح ، برغم نقائصها ، وطناً لشعب موفور النشاط ، مزدهر النجاح .

وتشبه قارة أمريكا الشمالية فى الشكل مثلثاً ، يمتد أكبر أضلاعه ــ وهى مساحة غنية بالخيرات ، متباينة النعم ، موفورة المياه بوجه عام ــ بين خطى العرض السادس والعشرين والخامس والخمسين . والمناخ هنا صحى ، ذو صيف حار يتيح محصولات بديعة ، وشتاء بارد يدفع البشر إلى النشاط . فكان فى وسع الأوربيين أن يستقروا فى هذه المنطقة دون عملية تأقلم مضنية . وكان فى مقدورهم استنبات محصولاتهم الغذائية الرئيسية ، من قمح ، وشوفان ، وجودار ، وبقول ، وجزر ، وبصل . كما وجدوا فى البلاد الجديدة محصولين غذائيين جديدين ممتازى القيمة ، هما الأذرة والبطاطا . فكانت الأذرة الهندية إذا زرعت فى شهر مايو ، آتت ثمارها (أكوازاً) صالحة للأكل فى شهر يوليو ، وتوفرت بعد ذلك علفاً للماشية ، كما تستخدم أوراقها حشواً لفرش المستوطنين ،

فضلاً عن غلة من الحبوب لا يضارعها مثيل . وكانت حيوانات الصيد متوفرة فى كل مكان ، فالوعول والثيران الأمريكية تهيم بالملايين ، وأسراب الحمام المهاجرة تغطى صفحة السماء . وكانت المياه الساحلية غنية بالأسماك . وعندما حان الوقت للبحث تبين أن أمريكا الشمالية تحتوى من الحديد ، والفحم ، والنحاس ، والبترول أكثر مما تحتوى أية قارة أخرى . ولقد أتاحت الخلجان والمرافىء مأوى كثيرة للسفن على طول الشاطىء الشرقى ، الذى كان منخفضاً بوجه عام . . فى حين أن الأنهار العريضة ــ سانت لورنس ، وكونكتيكت ، وهدسن ، وديلاوير ، وسسكويهانا ، وبوتوماك ، وجيمس ، وبى دى ، وسافاناه ــ تيسر التغلغل إلى مسافات كبيرة فى داخل القارة . فكان من الممكن الظفر بمركز ، والتوسع فيه ، دون ما عناء مفرط .

وكان مقدراً لبعض التضاريس الطبيعية فى القارة أن تكون ذات أثر بارز على سير مستقبل الأمة الأمريكية . فإن الخلجان والمسالك المائية الكثيرة ، على ساحل المحيط الأطلنطى ، أدت إلى قيام مستوطنات صغيرة وعديدة ، بدلاً من مستوطنات كبيرة الحجم وقليلة العدد . فسرعان ما بلغ مجموع ما أنشىء منها خمس عشرة إذا حسبنا بينها نوفا سكوشيا وكويبيك وقد أضفت على أمريكا فى باكورة تاريخها مجموعة وفيرة التنوع من النظم ، وتشبثت كل منها بطابعها الخاص فى حرص . فلما أقبل الاستقلال ، لم يكن للأمة المشيدة من ثلاث عشرة وحدة من هذه الوحدات بد من أن تصبح اتحاداً فيدرالياً .

ووراء السهل الساحلى ، قام حاجز من الجبال الوعرة ، هى سلسلة جبال أبلاش . وكان من العسير اجتيازها ، مما جعل المستوطنات الساحلية تزداد كثافة واستقراراً ، بطرق وثيقة الرسوخ ، قبل أن يبذل المستوطنون أى جهد كبير للتوسع عبر جبال أبلاش . حتى إذا قدر للناس الاتجاه إلى الغرب ، عبروا الجبال ليجدوا أمامهم سهلاً رئيسياً شاسعاً ، هو حوض المسيسيبى . وكان هذا السهل ، الذى يؤلف حوالى نصف مساحة الولايات المتحدة وما يزيد على نصف أراضيها الزراعية ، من الانبساط بحيث أن المواصلات كانت سهلة ، ولاسيما إذ تتخلله شرقاً وغرباً جداول كثيرة صالحة للملاحة ــ ويسكونسين ، وإيووا ، وإللينوى ، وأوهايو ، وكمبرلاند ، وتينسى ، وأركنساس ، وريد ــ وتمتد شمالاً وجنوباً الشبكة العظيمة المؤلفة من نهرى المسيسيبى والميسورى وروافدهما . وانتشر المستوطنون فى هذا الحوض الخصيب بسرعة وسهولة قياسيتين ، وامتزج فيه الناس من كافة أرجاء الساحل وكافة دول أوربا الغربية على أسس من

المساواة ، فأصبح مجمعاً شاسعاً تولدت فيه ديمقراطية جديدة ، وعاطفة أمريكية جديدة .

وإذا أوغلنا إلى الغرب ، كانت هناك سهول مرتفعة ، ذات مناخ بلغ من جفافه أن هذه السهول وجبال روكى الشاهقة ، القائمة خلفها مباشرة ، صدت التدفق الاستيطانى فترة طويلة . ثم قدر لتربة وذهب أراضى حوض المحيط الهادى النائية أن تجتذب كثيرين من الرواد المغامرين ، قبل انتزاع هذه السهول المقفرة من الهنود بعدة عشرات من السنين . وأصبحت كاليفورنيا ولاية زاخرة بالسكان ، موفورة النفوذ ، فى الوقت الذى ظل يفصلها وولاية أوريجون عن الأجزاء الأقدم عهداً ، من أجزاء الولايات المتحدة ، حزام واسع من أراض غير مستوطنة . بيد أن هذا الحزام لم يظل قفراً موحشاً أمداً طويلاً . فإن مربى الماشية ما لبثوا أن أقبلوا فى أعقاب صائدى الجاموس فسرعان ما انتشروا فى السهول ، بينما أخذ السكان يزدادون كثافة ، إذ أخذت السكك الحديدية تجلب المواد التى تدعو إليها الحاجة لتذليل الإقليم الخالى من الأشجار : من الأسلاك الشائكة ، إلى طواحين الهواء ، إلى الأخشاب ، إلى الأدوات الزراعية . وكذلك أخذ عدد المزارع المجهزة بوسائل الرى فى الازدياد . ولم تحن سنة ١٨٩٠ ، حتى كانت الحدود الفاصلة بين العمران والقفر قد تلاشت إلى حد كبير ، ولم يعد الغرب القفر قائماً .

كان محتوماً من البداية ، أن تسير حركة الاستيطان فى أمريكا على خطوط من الشرق إلى الغرب بوجه عام . فإن نهر سانت لورنس وممر البحيرات الكبرى المائى ، اللذين أتاحا منفذاً ميسوراً إلى داخل القارة ، يجريان فى اتجاه يربط بين الشرق والغرب تقريباً . كما أن خور وادى موهوك فى جبال أبلاش الشمالية ، الذى هيأ فيما بعد موقعاً لقناة إيرى أتاح طريقاً آخر بين الشرق والغرب . ويمتد وادى أوهايو ، وهو شريان استيطانى ثالث ، بين الشرق والغرب تقريباً . فكانت الهجرة الداخلية من المحيط الأطلنطى إلى جبال روكى تميل إلى السير فى خطوط موازية لخطوط العرض إلى درجة تستلفت الانتباه . ولم يكن ثمة مناص كذلك من أن تتلاشى السيادة الفرنسية على لويزيانا ، والسيادة المكسيكية على كاليفورنيا والجنوب الغربى ، أمام زحف الأمريكيين الناطقين باللغة الانجليزية . وكان المراقبون الثاقبو البصر يتبينون ، حتى فى أيام الاستعمار ، أن الذين يسيطرون على وادى أوهايو ، لابد أن يسيطروا يوماً على المسيسيبى . ولم يقلّ عن هذا صحة أنه كان مقدراً للمسيطرين على المسيسيبى ألا يلبثوا أن يسيطروا على كافة المنطقة

الممتدة إلى الغرب منه . وقد استغل الأمريكيون ، بأعدادهم وطاقتهم الفائقة ، الميزات الجغرافية لهذه الأماكن إلى أقصى مدى .

وكان من حظ المستوطنين البيض ، أن هنود أمريكا الشمالية كانوا قلة ضئيلة ، وكانوا أكثر تخلفاً من أن يشكلوا عقبة كؤوداً للاستعمار . ولقد عرقلوه ، وعاقوه فى بعض الأحيان ، بيد أنهم لم يوقفوه زمناً طويلاً قط . ولعل عدد الهنود فى شرق المسيسيبى لم يكن يتجاوز مائتى ألف ، عندما وصل الأوربيين الأوائل . أما فى كافة أرجاء القارة شمالى المكسيك ، فلم يكونوا يزيدون قطعاً على خمسمائة ألف . ولم يكونوا عادة أنداداً للمجموعات الجيدة التسلح والتدرب من البيض اليقظين ، إذ لم يكونوا مسلحين بغير القوس والسهم ، والفأس ، وهراوة الحرب ، كما أنهم لم يكونوا على دراية من الفنون العسكرية بغير الكمائن . ومن جراء هذا ، فإنهم لم يكشفوا عن مقدرة تذكر فى تذليل الطبيعة ، وكانت مواردهم غير مكفولة ، إذ كانوا يعيشون على صيد الحيوان ، وصيد السمك فى المقام الأول . فكان معظم مئات القبائل فى العشائر التسع والخمسين المعروفة فى شمال المكسيك ، من الصغر بحيث لا تملك أن تحشد شراذم حربية قوية . وكان أقوى تنظيم هندى هو الشُعب الخمس (الست فيما بعد) لأسرة إيروكوى الذين كان معقلهم فى القطاع الغربى من ولاية نيويورك ، والذين أوتوا مجلساً عاماً ، وينتهجون سياسة عدائية جعلتهم مبغوضين من قبائل ألجونكين المجاورة . وفى الجنوب الشرقى ، كان هنود الكريك قد أقاموا اتحاداً قوياً آخر للأسرة المسكوجية . وفى السهول العليا ، فى أقصى الشمال الغربى ، كان السيوكس قد أقاموا تنظيماً آخر أقل ترابطاً إلى حد ما .

ولقد سار الصراع بين المستوطنين والهنود ، فى عهد الاستعمار ، فى عدة مراحل محددة : فما إن أقيمت المستوطنات الأولى ، حتى اضطر معظمها إلى الاحتكاك الحاد محلياً بالقبائل الصغيرة المجاورة . وتقدم لنا الحرب ضد قبيلة بيكوت الضارية ، القصيرة ، مثالاً طيباً . فقد دارت فى نيو إنجلاند ، وانتهت فى سنة ١٦٣٧ بالقضاء التام على قبيلة بيكوت التى كانت تسكن وادى كونكتيكت . وهناك مثال آخر فى الحرب بين مستوطنى فيرجينيا وقبائل البوهاتان ، وقد بدأت فى سنة ١٦٢٢ ، وانتهت هى الأخرى بهزيمة ساحقة للهنود . غير أن الهنود كونوا أحلافاً قبلية كبيرة للمقاومة ، إذ أخذ الوافدون البيض فى الزحف والاستيلاء على مساحات متزايدة من الأراضى . فحشد الملك فيليب ــ مثلاً ــ عدداً من قبائل نيو إنجلاند المهمة ، التى ظلت عامين تقاتل فى

بسالة قبل أن يتم سحقها ، فى حين أن مستوطنى كارولينا الشمالية واجهوا تجمعاً شبيهاً بهذا فى حرب توسكارورا ، وكذلك فعل مستوطنو كارولينا الجنوبية فى حرب ياماسى . وكانت هذه الصراعات شديدة ، وقاسية ، فكبدت البيض كثيراً من الخسائر فى الأرواح والممتلكات . وجاءت أخيراً مرحلة من الحرب وجد فيها الهنود حلفاء أوربيين ، فانضمت بعض القبائل الشمالية إلى الفرنسيين ، وأخذت بعض القبائل الجنوبية تتلقى أسلحة وتشجيعاً من الإسبانيين . وشاء حظ المستوطنين الناطقين بالإنجليزية ، أن يتخذ اتحاد إيركوى القوى موقفاً وديًا نحوهم ، وأن يعاونهم فى عمليات ضد الفرنسيين . وفى نهاية الأمر ، باء الهنود المعادون بهزيمة ماحقة فى المرحلة الثالثة من الحروب ، كتلك التى منوا بها فى المرحلتين السابقتين .

المستوطنون الأوائل

أقبل المستوطنون البريطانيون الأوائل على القارة الجديدة الفجة فى جماعات جريئة . وكانت السفن التى دخلت هامبتون رودز ، فى ١٣ مايو سنة ١٦٠٧ ، تحت قيادة كريستوفر نيوبورت لا تحمل غير رجال ، بغير معدات . ولكن لم يلبث هؤلاء أن أقاموا بلدة جيسمتاون ، التى لم تكن تتألف فى بادىء الأمر إلا من حصن ، وكنيسة ، ومخزن ، وصف من الأكواخ الصغيرة ، وعندما حاقت بهم كارثة ، أبدى الكابتن جون سميث من رباطة الجأش ، وسعة الحيلة والجهد ، ما جعله فى العام التالى رئيساً وديكتاتوراً حقيقياً للمستعمرة . وأخذت الزراعة تتقدم وئيداً ، ففى سنة ١٦١٢ شرع جون رولف فى زراعة الطباق (التبغ) ، فلما حقق أسعاراً عالية فى سوق لندن ، أقبل الكل على زراعته ، حتى لقد زرعت ساحة سوق البلدة به .

غير أن النمو كان بطيئاً ، فلم يكن فى فيرجينيا ما يزيد على ألفى نسمة فى سنة ١٦١٩ . وقد امتازت هذه السنة بثلاثة أحداث ، كان أحدها وصول سفينة من انجلترا تحمل تسعين حسناء شابة ليصبحن زوجات للقادرين من المستوطنين على دفع نفقات نقلهن ، بواقع مائة وعشرين رطلاً من الطباق عن كل واحدة . وقوبلت هذه الشحنة بفرح شجع على إيفاد شحنات مماثلة فى وقت قصير . ولم يكن إدخال الحكم النيابى فى

أمريكا أقل أهمية من هذا الحدث ، فلقد اجتمع أول مجلس تشريعى فى القارة يوم ٣٠ يوليو ، فى كنيسة جيمستاون ، حيث كان جون رولف قد دعم سلاماً مؤقتاً مع الهنود ، بأن تزوج بوكاهونتاس قبل ذلك بسنوات . وكان المجلس مؤلفاً من الحاكم ، وستة من أعضاء الكنيسة ، واثنين من الأهالى يمثل كل منهما عشر مزارع . أما ثالث الأحداث الهامة فى ذلك العام ، فكان وصول سفينة هولندية ، فى شهر أغسطس تحمل عبيداً من الزنوج ، بيع عشرون منهم للمستوطنين .

وبينما كانت فيرجينيا تعمل جاهدة ، على هذا النحو ، للبقاء والنمو ، كان حشد من أتباع كالفين من الإنجليز الذين استقروا فى هولندا ، يضعون الخطط للانتقال إلى العالم الجديد . فإن هؤلاء المهاجرين الذين اضطهدوا لإنكارهم على الملك السيادة الكنسية ولرغبتهم فى إقامة كنيسة مستقلة لهم ، كانوا قد جاءوا أصلاً من قرية سكروبى فى مقاطعة نوتينجهام الإنجليزية . وكانوا مجموعة ممتازة من كل النواحى ، إذ كان لهم ثلاثة من الزعماء ذوو كفاءة بارزة ، هم : المدرس جون روبنصن ، وهو عالم واسع العقل ، كريم القلب ، تخرج فى جامعة كمبريدج . . وشيخهم الحكيم وليم بروستر ، وهو الآخر من خريجى كمبريدج . . ووليم برادفورد ، وهو مثالى من أصحاب المبادىء ، أريب ، قوى الشخصية . وكان عامة القوم ممن أوتوا نزاهة ، وأدباً جاداً ، ورصانة ، فضلاً عن الشجاعة والجلد . فقد احتملوا عداءً شعبيًّا فى إنجلترا ، كما صمدوا للعزلة والعمل الكادح فى هولندا . أما وقد ظفروا بإذن يخولهم الاستقرار فى أمريكا ، وبسفينة تدعى **مايفلاور** ، وأكداس من المؤن ، فقد استعدوا لمواجهة مصاعب البرارى . وأبحر المهاجرون من بلايموث وعددهم مائة واثنان ، فوصلوا إلى ساحل مساشوستس فى ١١ ديسمبر (بالتقويم القديم) من عام ١٦٢٠ . وفى ذلك الشتاء ، مات أكثر من نصفهم من البرد وداء الاسقربوط . وما أروع الصورة التى كتبها وليم برادفورد عن تلك المغامرة :

> ولكنى لا أملك سوى أن أمسك عند هذه النقطة ، وأن أتريث وأقف متأملاً فى عجب حال القوم المساكين الراهنة . . . فهم وقد عبروا المحيط الشاسع ، واجتازوا قبله بحراً من المتاعب تأهباً لذلك . ليس لهم من أصدقاء يرحبون بهم ، ولا فنادق تسرى عنهم أو ترد النشاط إلى أجسادهم التى أضنتها العوامل الجوية ، ولا ديار بل ولا مدن يأوون

إليها ، وينشدون ملاذاً وملجأ . . . ثم إن السفر فى هذا الفصل ، فصل الشتاء ـــ والذين يعرفون فصول الشتاء فى هذه البلاد ، يعرفون أنها قاسية عنيفة ، معرضة لعواصف هوجاء ضارية ـــ السفر فى هذا الفصل إلى أماكن معروفة أمر خطير ، وهو أشد خطراً إذا كان للسعى إلى ساحل غير معروف . ثم ، ما الذى يمكن أن يشهدوه اللهم إلا برارى بشعة موحشة ، زاخرة بالوحوش والآدميين المتوحشين ؟ . . ما الذى يمكن أن يشد أزرهم ويعينهم والحال هذه سوى روح الله وفضله ؟

غير أنهم فى الصيف التالى أنتجوا محصولات جيدة . وفى الخريف أحضرت إحدى السفن مستوطنين جدداً ، فإن عزمهم لم يهن قط . وعندما أرسل لهم زعيم هنود الناراجانسيت ـــ واسمه كانونيكس ـــ حزمة من السهام داخل جلد أفعى كدعوة إلى الحرب ، حشا برادفورد جلد الأفعى بالرصاصات ورده مع رسالة تحدٍّ .

وما لبثت المستعمرات الإنجليزية الأخرى أن ظهرت فى تتابع سريع ، فإن الخلية الأم [1] كانت على استعداد لأن توفد أسرابها . إذ شهد أحد أيام شهر مايو سنة ١٦٢٩ أرصفة ميناء لندن تعج بالحركة والانفعال المبتهج ، إذ كانت خمس سفن تقلع إلى خليج مساشوستس حاملة ٤٠٠ مسافر ، و١٤٠ رأساً من الماشية ، و٤٠ عنزاً ، فكانت هذه أكبر دفعة أرسلت حتى ذلك الحين عبر المحيط الأطلنطى فى آن واحد . وقد وصلت قبيل نهاية شهر يونيو إلى سالم حيث كان جون إنديكوت وفريق صغير من الأعوان قد أقاموا بلدة ، فى الخريف السابق . وكان هؤلاء القوم من المتطهرين (البيوريتان) ـــ أى أعضاء كنيسة إنجلترا ، الذين ودوا فى بادىء الأمر أن يصلحوا أو يطهروا تعاليمها ، ثم انتهوا بالانسحاب منها ـــ ففتحوا السبيل إلى هجرة بيوريتانية كبيرة . وفى ربيع ١٦٣٠ ، وصل جون وينثروب إلى سالم مع إحدى عشرة سفينة ، حملت تسعمائة مستوطن ، كانوا كافين لإنشاء ثمان مدن جديدة ، منها بوسطن . ولقد نمت مستعمرة خليج مساشوستس بسرعة كبيرة ، حتى إنها سرعان ما أخذت تمد فروعها إلى الجنوب والغرب . ولقد اضطر روجر ويليمز ـــ وكان قساً بروتستانتياً من سالم راح يدعو بشجاعة إلى الفصل بين الكنيسة والدولة ، مع بعض الآراء الجذرية الأخرى ـــ إلى النزوح إلى بطاح رود آيلاند .

(١) يقصد المؤلف بالخلية الأم « إنجلترا » ـــ المترجم .

وهناك أنشأ بلدة بروفيدنس ، فى سنة ١٦٣٦ ، كموطن للتسامح الدينى المثالى . وفى ذلك العام ، بدأ كذلك أول نزوح إلى كونكتيكت تحت قيادة الأب توماس هوكر ، الذى نقل قسماً كبيراً من أبريشته دفعة واحدة من كمبريدج إلى الغرب . وفى سنة ١٦٣٤ ظهرت إلى الوجود مستعمرة أخرى جديرة بالذكر ، إذ تم لأول مرة استيطان ميريلاند تحت توجيه سيسيليوس كالفيرت ، بارون بلتيمور الثانى ، ذى العقلية المتحررة . وكان معظم السادة الذين ذهبوا إلى هناك من الكاثوليك الإنجليز ، على شاكلة منشىء المستعمرة ، فى حين كان معظم عامة القوم من البروتستانت . ومن ثم فقد كان التسامح الدينى أمراً لا غنى عنه ، فكانت ميريلاند موطناً للحرية الدينية ، تجتذب الناس من مختلف العقائد . ولقد اتجه المستوطنون من فيرجينيا إلى آلبيمارل ساوند ــ إحدى مناطق كارولينا الشمالية حالياً ــ من أوائل الخمسينات (١٦٥٠) . بيد أن الملك تشارلز الثانى لم يلبث أن منح ثمانية من المقربين إليه تفويضاً يبيح لهم امتلاك المنطقة الشاسعة التى تضم ولايتى كارولينا وولاية جورجيا حالياً . وكان أن أطلق المنتفعون بهذا التملك اسم الملك الذى آثرهم بفضله ، على أول مستعمرة وأول مدينة ، وحملوا جون لوك على أن يضع لهم دستوراً أساسياً ، لم يقدر له أن ينفَّذ قط ، لحسن الحظ . وأقبل المستوطنون من فيرجينيا وغيرها ، وبينهم كثيرون من الهيجونوت الفرنسيين الذين وفدوا من انجلترا وجزر الهند الغربية إلى الساحل مباشرة . وسرعان ما أصبحت تشارلستون ، التى أنشئت فى سنة ١٦٧٠ ، العاصمة الثقافية والسياسية للمستعمرة .

ولقد تسنى بالفتح الظفر بعاصمة إحدى المستعمرات الغنية . ذلك أن الهولنديين كانوا قد أوفدوا هنرى هدسُن ، وهو أحد رجال البحر الإنجليز ، لاستطلاع النهر الذى يحمل اسمه . . وقد قام بالمهمة فى سنة ١٦٠٩ ، وتبعه تجار الفراء من الهولنديين ، فلم تلبث أن تشكلت على جزيرة مانهاتان مستوطنة صغيرة ، فى سنة ١٦٢٤ . وأخذ إقليم نيو نيذرلاند (هولندا الجديدة) ينمو حولها فى بطء ، وقد قعد عن أن يقيم نظماً ومؤسسات للحكم الذاتى ، بيد أنه ترك أثراً باقياً فى نظام المزارع الإقطاعية على طول نهر هدسن ، وفى فن العمارة ، وفى عائلات المهاجرين الهولنديين الأوائل ــ النيكربوكر ــ التى قدر لها أن تقوم بدور قيادى فى تاريخ نيويورك والأمة كلها . وفى هذه الأثناء ، لم يتخل الإنجليز قط عن ادعاء الحق فى الساحل كله ، فكانت مستوطنات كونكتيكت تواقة للاستيلاء على جارتهم المزعجة . فلماذا السماح بوجود هذا العنصر الأجنبى فى قلب

وسط أمريكا البريطانية ؟ ومنح تشارلز الثانى المنطقة لأخيه دوق يورك ، الذى أقدم على تصرف شديد . ففى صيف سنة ١٦٦٤ ، وصلت إلى خارج ميناء نيو أمستردام ثلاث بوارج حربية ، حملت قوة من الجنود عُززت بجنود كونكتيكت ، كما وعدت بتعزيزات من مساشوستس ولونج آيلاند . ولم يعارض معظم المستوطنين الهولنديين تغيير السيادة ، إذ ضاقوا بالحكم الاستبدادى . وبالرغم من أن المناضل بيتر ستويفسانت أعلن أنه يؤثر الموت على التسليم ، فإنه لم يكن يملك خياراً ، فارتفع العلم البريطانى على المدينة ، التى بدِّل اسمها إلى نيويورك ، وظلت فى حوزة الإنجليز ، فيما عدا فترة وجيزة أثناء حرب لاحقة (بين سنتى ١٦٧٢ ، ١٦٧٤) كانت فيها بين الإنجليز والهولنديين . والواقع أن العلم البريطانى أصبح مرفوعاً من كنيبك حتى فلوريدا .

على أن من أهم المستعمرات مستعمرة لم تتخذ شكلاً محدداً حتى أواخر القرن ، إذ كان عدد من المستوطنين البريطانيين والهولنديين والسويديين قد شقوا سبيلهم إلى المنطقة التى أصبحت فيما بعد ولايتى بنسلفانيا وديلاوير . وعندما تولى وليم بن التقى البعيد النظر حكم المنطقة ، فى سنة ١٦٨١ ، أعد العدة لإقامة دولة ديمقراطية كومنولث على مبادىء الكويكرز . . تلك الطائفة التى وصفها فولتير فيما بعد بأنها أصدق الناس مسيحية . ولقد هدأ تمسك الهنود بحقهم فى الأرض ، بمعاهدات شراء ودية ، جرياً على طريقة وليم بن المطبوعة على الخير . وعرض هذا شروطاً متحررة لاجتذاب المستعمرين ، مطمئناً كل القادرين على الحصول على أراض ، وإنشاء بيوت مناسبة ، ومعايشة جيرانهم بالعدل والمساواة . فما كان لمسيحى أن يعانى من الاضطهاد الدينى ، وكانت السيادة للقانون فى الشؤون المدنية ، كما كان للشعب نصيب فى وضع القوانين . وتولى بن توجيه إنشاء فيلادلفيا لتكون « مدينة الحب الأخوى » التى كان يحلم بها ، حيث تحيط الحدائق بكل بيت ، حتى تكون « بلدة ريفية خضراء . . وتكون صحية دائماً » . ثم جاء بنفسه فى سنة ١٦٨٢ ، جالباً معه حوالى مائة من المستعمرين . وازدهرت بنسلفانيا ازدهاراً رائعاً ، فاجتذبت مجموعة كبيرة متباينة الأصول من المستوطنين ، من بريطانيا وأوربا ، وإن ظلت محتفظة بسمات الكويكرز .

ويمكن القول بوجه عام أن هناك أداتين استخدمتا فى عملية نقل البريطانيين وغيرهم عبر البحار وإنشاء ولايات جديدة . فكانت الشركة التجارية التى خولت حق امتلاك الأراضى ، والتى أنشئت أصلاً للكسب من وراء ذلك ، هى الأداة الأولى ،

وهى التى عمرت فيرجينيا ومساشوستس . ذلك أن شركة لندن ــ كما كانت تسمى ، لأنها تشكلت من مساهمين مقيمين فى لندن ــ كانت قد منحت تفويضاً فى سنة ١٦٠٦ بتعمير مستعمرة بين خطى العرض الرابع والثلاثين والواحد والأربعين . أما شركة بلايموث ، التى كان مساهموها يقيمون فى بلايموث وبريستول ومدن أخرى ، فقد خولت فى العام ذاته إقامة مستعمرة بين خطى العرض الثامن والثلاثين والخامس والأربعين . فكان لهاتين الشركتين حق توزيع الأراضى ، واستغلال المناجم ، وسك النقود ، وتنظيم الدفاع عن مستعمرتيهما . واحتفظ الملك ، الذى كان يمنح التفويضات ، بالسلطة العليا على حكومتى المستعمرتين . وفى سنة ١٦٢٤ ، سعت شركة لندن إلى إلغاء تفويضها بعد خسائر مالية فادحة ، وجعل الملك فيرجينيا مستعمرة تابعة للتاج . ولقد أقامت شركة بلايموث عديداً من المستوطنات ومصائد الأسماك الشمالية ، بيد أنها لم تحقق أرباحاً ، فما لبثت بعد أن أعادت تنظيم ذاتها أن طلبت إلغاء تفويضها فى سنة ١٦٣٥ ، واصفة ذاتها بأنها ليست سوى « جثة هامدة » .

ومع ذلك ، فإن شركتى لندن وبلايموث قامتا بعمل باقى الأثر فى التعمير والاستعمار ، وإن لم يكن مربحاً مالياً . فكانت شركة لندن أم فيرجينيا بكل ما للكلمة من معنى . وأنشأت شركة بلايموث ــ ومجلس نيو إنجلاند الذى خلفها ــ المدينة إثر المدينة فى مين ونيو هامبشاير ومساشوستس . كما كانت هناك شركة ثالثة ، هى شركة خليج مساشوستس أوتيت طابعاً ممتازاً ومصيراً خاصاً . فلقد أنشئت أصلاً كهيئة من المساهمين ذوى الحوافز التجارية والوطنية ، وكان معظمهم من البيوريتان . ولم يثنهم فشل الشركتين اللتين سبقتاها فى تحقيق أرباح ، عن الإيمان بأن الإدارة الحسنة كفيلة بأن تنتج أرباحاً . ومنحها تشارلز الأول تفويضاً بامتلاك الأراضى فى أمريكا ، فى سنة ١٦٢٩ . ثم حدث تطور غريب : فعندما أصبح الملك ، وفريق الكنيسة العليا تحت رئاسة الأسقف لود ، المسيطرين على كنيسة إنجلترا ، رغب كثير من الزعماء البيوريتان فى الهجرة . كانت لهم ثروات ، ومكانة اجتماعية ، وروح استقلالية ، فلم يشاءوا الذهاب إلى خليج مساشوستس كمجرد أتباع لشركة فى لندن ، فضلاً عن أنهم كانوا يطمعون فى تحقيق الحرية التى تمكنهم من إقامة حكومة كنسية من النوع الذى كانوا يودون . ومن ثم فإن البيوريتان الرئيسيين فى الشركة عمدوا إلى شراء كل أسهمها ، وأخذوا تفويض امتلاك الأراضى ، وأبحروا به إلى أمريكا . وهكذا تحولت شركة تجارية

إلى مستعمرة ذات حكم ذاتى . . مستعمرة خليج مساشوستس .

أما الأداة الرئيسية الثانية للاستعمار ، فهى منحة التملك . وكان المالك هو الرجل الـذى ينتمى إلى الطبقة الراقية أو النبلاء فى بريطانيا ، والذى أوتى مالاً فى حوزته ، والذى منحه التاج قطعة من الأرض فى أمريكا كما كان يمنح الإقطاعيات فى بريطانيا . وكانت القاعدة القديمة فى القانون الإنجليزى تقضى بأن كافة الأراضى غير المملوكة بطريقة أخرى ، تكون ملكاً للملك ، وقد خضعت أمريكا لهذه القاعدة . وهكذا تلقى لورد بلتيمور ميريلاند ، وتلقى وليم بن ــ وهو ابن قائد بحرى كان الملك مديناً له بمال ــ بنسلفانيا ، وحظى فريق من المقربين إلى الملك بولايتى كارولينا ، فى عهد تشارلز الثانى . ولقد منح كل هؤلاء الملاك سلطات واسعة لإقامة حكومة فى أقاليمهم . فكان اللورد بلتيمور يعتنق بعض آراء آل ستيوارت فى الحكم المطلق ، ومن ثم كره أن يعطى مستوطنى المستعمرة أية سلطة لسن القوانين ، ولكنه انصاع أخيراً لمجلس نيابى أنشأه الشعب . أما بن فكان أكثر منه حكمة ، إذ دعا فى سنة ١٦٨٢ مجلساً تشريعياً إلى الاجتماع ، وكان كافة أعضائه ممن انتخبهم المستوطنون ، وقد سمح لهم بأن يضعوا دستوراً أو « ميثاقاً أعظم » أضفى على ممثلى الشعب كثيراً من سلطات الحكومة . . وتقبل بن هذا المشروع .

وما إن ثبت أن الحياة فى أمريكا من الممكن أن تكون رخية زاخرة بالأمل ، حتى بدأت حركة هجرة تلقائية كبيرة من أوربا . ولقد جاءت على دفعات غير منتظمة ، وببواعث متباينة . فكان البيوريتان فى إنجلترا ، فيما بين سنة ١٦٢٨ و١٦٤٠ ، فى حال من القنوط والتوجس ، يعانون كثيراً من الاضطهاد الفعلى . إذ أن السلطات الملكية آلت على نفسها بعث الأوضاع القديمة فى الكنيسة ، وأصرت على أن تجعل الكنيسة تابعة تبعية كاملة للتاج وللأساقفة . ولقد استشرى الهياج السياسى والكنسى (الإكليريكى) فى البلاد ، فحل الملك البرلمان ومارس الحكم بدونه عشر سنوات ، وسجن كبار معارضيه . ولما بدا أن حزب الملك عاكف على القضاء على الحرية فى إنجلترا ، أيقن كثير من البيوريتان أن خير مسلك هو النزوح عن الجزيرة وإقامة دولة جديدة فى أمريكا . فغادر إنجلترا حوالى عشرين ألفاً من أشد أهلها جلداً وأصلبهم عوداً ، فى الهجرة الكبرى بين سنتى ١٦٢٨ و١٦٤٠ . ولم يقل عدد الرحلات البحرية التى نقلت المستوطنين ، والأنعام ، والأثاث ، عبر المحيط الأطلنطى عن ألف ومائتين . وأصبحت بوسطن من

أهم الموانىء البحرية فى العالم ، إذ كانت تخدم منطقة حافلة بالحركة والحيوية . وأنشئت فيها كلية هارفارد . وكان بين المستوطنين أجداد فرانكلين وآدامز ، وإيمرسون ، وهوثورن ، وأبراهام لنكولن . وكان من أبرز مميزات هذه الحركة هجرة البيوريتان لا فرادى ، ولا كعائلات ، وإنما مجتمعات بأكملها ، حتى إن بعض مدن إنجلترا خلت من نصف سكانها . ولم تكن المستوطنات الجديدة مؤلفة من تجار ومزارعين فحسب ، وإنما من أطباء ، ومحامين ، ومدرسين ، ورجال أعمال ، وحرفيين ، ورجال دين كذلك . وأصبحت نيو إنجلاند صورة مصغرة من إنجلترا ــ موطنهم القديم ــ مثقلة ببذور النمو المقبل ، إلى درجة غير عادية .

وخفّت هجرة البيوريتان عندما بدأت الحرب الأهلية فى إنجلترا ، فى عام ١٦٤٢ . بيد أن ما يمكن أن يسمى تجاوزاً بهجرة الفرسان المدللين بدأت بعد ذلك بقليل ، واشتدت فى عام ١٦٤٩ ، عندما أعدم الملك تشارلز الأول ، ثم واصلت اشتدادها حتى إعادة الملكية فى سنة ١٦٦٠ . وكما أن هجرة البيوريتان رفعت عدد سكان نيو إنجلاند فوق ثلاثين ألفاً ، فإن هجرة الفرسان كانت العامل الرئيسى فى زيادة سكان فيرجينيا حوالى سنة ١٦٧٠ إلى أربعين ألفاً تقريباً . وقد جلب هذا السيل قدراً ملحوظاً من الثروة ، ذلك لأن الفرسان لم يكونوا سوى فئة قليلة من الوافدين ، وكان الكثيرون من أبناء الطبقات المثرية . وبفضل امتلاكهم الأموال ، ابتاعوا ضياعاً كبيرة وزرعوها . كما أنهم كثيراً ما كانوا قادرين على توسيع رقاع هذه الضياع من الأراضى الملكية بفضل ما لهم من سلطان أو نفوذ . فأصبحت فيرجينيا مليئة بذوى اليسار ، وكانت فى بادىء الأمر مستعمرة يغلب على سكانها الفقر . ولقد جلبت هذه الهجرة بعضاً من أعظم الأسماء فى التاريخ الأمريكى . فقد وصل أجداد لى إلى فيرجينيا فى الأربعينات من القرن السابع عشر ، ووصل جون واشنطن ، الجد الأكبر لواشنطن ، فى سنة ١٦٥٧ . وتبين وثائق أسرة مارشال أن أول أمريكى من أسلافهم كان ضابطاً بالقوات الملكية أثناء الحرب الأهلية الإنجليزية ، وجاء إلى فيرجينيا عندما غُلب الملكيون على أمرهم . وإننا لنصادف فى تاريخ فيرجينيا بعد الهجرة الكبيرة أسماء بعض العائلات المبرزة ، مثل آل هاريسون ، وآل كارى ، وآل ميسون ، وآل كارتر ، وآل تايلر ، وآل راندولف ، وآل بيرد .

بيد أنه لا سبيل إلى استخلاص أى فارق اجتماعى حقيقى بين مستوطنى كل من مساشوستس وفيرجينيا ، فإن القوم الذين جعلوا كلاًّ من الدويلتين عظيمة كانوا من عين

الطبقة الوسطى الواسعة النطاق . فكان آل واشنطن فى إنجلترا من أعيان الريف فحسب ، وقد كانت لهم ضيعة صغيرة تدعى سلجريف فى نورثهامبتونشاير ، وكان أحدهم عمدة لنورثهامبتون . ويبدو أن الجد الأكبر لجون مارشال كان نجاراً . وكان أول راندولف فى فيرجينيا ينحدر من أسرة من أعيان ووريكشاير ليست ذات شأن كبير . فلم يكن أحد من هؤلاء الفرسان أفضل مولداً أو عراقة من جون وينثروب البيوريتانى ، الذى انحدر من أسرة ميسورة الحال ، كانت تمتلك ضيعة غروتون فى سفولك بانجلترا . وما من شخص كان أفضل أصلاً من سير ريتشارد سالتونستال ، الذى خلف كثيراً من النسل المبرزين فى نيو إنجلاند ، أو وليم بروستر الذى كان كوكيل وزارة ذى أثر كبير فى القضاء . ولقد كانت الأغلبية الكبرى من المهاجرين إلى مساشوستس وفيرجينيا ، قبل سنة ١٦٦٠ ، من صغار الضباط والملاك ، ومن الميكانيكيين ، وأصحاب المتاجر ، وصغار الموظفين الكتابيين ، فى حين أن الكثيرين فى كافة أرجاء أمريكا كانوا من الخدم المرتبطين بعقود ، إذ دفعوا نفقات سفرهم بالتعاقد على العمل لفترة محددة . وكانت ثروتهم الحقيقية فى صدق نزاهتهم واستقامتهم ، واعتمادهم على النفس ، ونشاطهم .

قيام الحكم الذاتى

كان المستعمرون أينما ذهبوا يحملون معهم ، من الناحية النظرية ، حقوق البريطانيين الأحرار المولد ، وتراثهم من الصراع الإنجليزى من أجل الحرية . ولقد تأكد هذا بوجه خاص فى أول تفويض لتمليك وتعمير فيرجينيا ، إذ أعلن أن المستوطنين سيحظون بكافة الحريات ، والحقوق السياسية ، والحصانات ، « كما لو أنهم كانوا مقيمين ومولودين فى داخل هذه المملكة . . إنجلترا » . فكان لهم أن يحظوا بحماية الماجنا كارتا والقانون العام . وكان هذا مبدأ أساسياً عظيم القيمة . على أنه كان لابد لتنفيذ هذا من أن يبدى المستعمرون يقظة مستمرة ، وأن يشنوا صراعاً حامياً من أجلها . وقد بدأوا منذ بداية تاريخهم تقريباً يعكفون على نسيج خاص لنظام الحكم الدستورى الذى يسودهم ، مكافحين من أجل نظام نيابى أقوى ، وإشراف على خزانة الدولة ، وضمانات أكمل للحرية الشخصية .

ولقد شرع المجلس التشريعى لفيرجينيا ، الذى ولد فى سنة ١٦١٩ ، فى سن مجموعة من القوانين المتباينة ، على الفور . وعندما ألغى التاج التفويض الذى كان لشركة فيرجينيا ، واصل مجلس مندوبى المواطنين إبداء نشاط عارم لم يتضاءل . ولم يلبث أن وضع فى بضع سنوات بعض قواعد جوهرية بصدد حقوقه . فأعلن أنه لم يكن للحكومة حق فرض أية ضرائب بدون تخويل من الهيئة التشريعية ، وعليها استخدام الأموال المحصلة من الضرائب وفقاً لتوجيهات الهيئة التشريعية ، وأن مندوبى المواطنين معفون من التوقيف والاعتقال . وبعد ذلك بقليل ، أعلن المجلس أنه ليس لشىء أن يعترض تنفيذ قانون تشريعى ، كما اتخذ خطوات ليكفل عدالة المحاكمات عن طريق المحلفين . ولقد ظل المجلس التشريعى فى فيرجينيا قوى السلطان طيلة أمد احتمال الدولة فى إنجلترا ذلك . بيد أنه أخذ يضعف بعض عودة آل ستيوارت إلى العرش ، لسوء الحظ . غير أن خضوعه للحاكم المعين من الملك لم يلبث أن قوبل برد فعل عنيف .

وسرعان ما تكون نظام نيابى فى خليج مساشوستس كذلك . وكانت نصوص وثيقة التخويل تتيح لجون وينثروب وأعوانه الاثنى عشر سلطة حكم كافة المستوطنين . وفى خريف سنة ١٦٣٠ تقدمت هيئة كبيرة من المستعمرين إلى هذه المجموعة الحاكمة بالمطالبة بجعلهم أعضاء أحراراً فى الشركة [١] . وتقرر فى العام التالى الاستجابة للطلب ، ولكن « بحيث تقصر هيئة النواب على الرجال الصالحين ، الأمناء » ، وبالتالى فلا « يضم لحرية هذه الهيئة السياسية إلا من يسمح بضمهم إلى بعض الكنائس ، وفى الحدود التى يقبلون فيها » . وهكذا أقيمت دولة دينية أو كنسية ، وقرر المعاونون الاثنا عشر أن يحتفظوا ، فى الوقت ذاته ، بعضويتهم للهيئة عاماً بعد عام ، إلى أن يقصوا عنها بتصويت خاص من الأحرار (أعضاء المجلس) . ولما كانوا يتولون كافة السلطات القضائية والتشريعية فى الواقع ، فإن توطد هذه الولاية خلق شيئاً من الأوليغاركية [٢] (Oligarchy) . وشدد الحاكم والمعاونون ورجال الكنيسة قبضاتهم على المستعمرة .

على أن الوقت لم يطل قبل قيام ثورة . فعندما فرضت على مدينة ووترتاون ضريبة للدفاع فى سنة ١٦٣٢ ، جازف المواطنون غير الممثلين فى المجلس ، ورفضوا أن

(١) Freemen : يقصد بها الذين يتمتعون بالحريات السياسية ــ المترجم .

(٢) نظام حكم تتولاه أقلية ضئيلة لا تحفل بغير استغلال مراكزها لتحقيق منافع خاصة ــ المترجم .

يدفعوها ، « خشية أن ينساقوا وذرياتهم إلى ربقة الاستعباد » . ولتهدئة هؤلاء المتذمرين ، لم يلبث أن تقرر أن يسترشد الحاكم ومعاونوه فى وضع الضرائب بمجلس يتألف من مندوبين عن كل مدينة ، وبهذا تسنى وضع أساسَ هيئة تشريعية حقيقية . والواقع أن هذه الهيئة من مندوبى المدن كانت ، باجتماعها بالحاكم ومعاونيه ، تؤلف هيئة تشريعية من مجلس واحد . وعندما التأمت فى سنة ١٦٣٤ ، استولت على زمام السلطة التشريعية ، فسنت القوانين ، وقبلت ضم أحرار جدد ، وأصبحت تتلقى اليمين بالولاء . وبهذا برزت إلى الوجود ثانية الهيئات النيابية فى القارة . ولما بدا نظام المجلس التشريعى الواحد غير موفق ، انقسمت هذه الهيئة فيما بعد إلى مجلسين ، فكان المعاونون يؤلفون المجلس الأعلى ، ومندوبو المدن يؤلفون المجلس الأدنى . وظلت مستعمرة خليج مساشوستس جمهورية بيوريتانية يحكمها أعضاء منتخبون من أهلها زهاء نصف القرن . وعندما جُعلت إقليماً تابعاً للتاج فى سنة ١٦٩١ ، بموجب وثيقة تفويض جديدة ، ظلت الهيئة التشريعية هيئة قوية . وكان التاج بعد ذلك هو الذى يختار الحاكم ، ولكن الشعب كان يختار أعضاء المجلس النيابى ، الذى احفظ برقابة قوية على الخزانة .

وفى الوقت ذاته ، برزت على الأرض الأمريكية جمهوريتان صغيرتان راسختان ، هما : رود آيلاند وكونكتيكت ، إذ كان الرعيل الأول من الذين انسابوا من خليج مساشوستس ، قد أقاموا عدداً من المدن فى وادى كونكتيكت الأدنى . وقد اجتمع أحرارهم فى هارتفورد فى سنة ١٦٣٩ ، ووضعوا « النظم الأساسية لكونكتيكت » ، وهذا أول دستور مكتوب وضعته إحدى الدويلات الأمريكية (الكومنولث) لنفسها . . بل الأول فى العالم الغربى ، فى الواقع . وقد نص على حاكم ، وهيئة من المعاونين ، ومجلس أدنى يتألف من أربعة نواب عن كل مدينة ، ينتخبون جميعاً بوساطة الشعب . وبعد عودة آل ستيوارت للعرش ، حصلت كونكتيكت من التاج على وثيقة تفويض (١٦٦٢) ، ولكنها اشتملت على نصوص متحررة بدرجة تثير الدهشة : فللأحرار السلطة فى أن يحكموا أنفسهم كما يحبون ، لا يخضعون إلا لقيد مبهم هو ألا تكون أية قوانين يسنونها معارضة لقوانين إنجلترا . وكذلك سارت رود آيلاند موفقة ، فعندما ضمت مدنها صفوفها لأول مرة ، كان روجر وليمز قد حصل لها على وثيقة تفويض يكفل أكمل سلطات ممكنة للحكم الذاتى . وكانت عودة الحكم الملكى فى إنجلترا مدعاة لطلب تفويض جديد ، ولكن التفويض الذى صدر فى سنة ١٦٦٣ ، جعل رودآيلاند

جمهورية صغيرة فى نطاق الإمبراطورية البريطانية ، على غرار كونكتيكت ، وظلت هكذا حتى الثورة . ولعلها كانت أكثر المجتمعات حرية على وجه البسيطة ، إذ كانت تنتخب كافة موظفيها الحكوميين ، وتسن كل قوانينها .

لم يحن عام ١٧٠٠ حتى كان ثمة نظام عام للحكم فى المستعمرات قد تبلور . وكان لكونكتيكت ورود آيلاند وضع خاص ، كجمهوريتين تتمتعان بالحكم الذاتى الكامل ، فتختاران كافة موظفى حكومتيهما . أما المستعمرات الأخرى فكانت إما ملكاً لأفراد أو هيئات ، أو ملكاً للتاج ، ولكنها على أى الحالين ذات إطار سياسى واحد تقريباً . فكان الملك أو المالك يعين الحاكم وكان يحيط بالحاكم ، ويساعده إلى حد ما ، مجلس يعينه التاج أو المالك ، إلا فى مساشوستس . ولكن بينما كان الحاكم بريطانياً باستمرار تقريباً ، فإن أعضاء المجلس كانوا من الأمريكيين . ومع أنهم كانوا يمثلون الطبقة الموسرة بوجه عام ، فإن آراءهم كثيراً ما كانت جد مختلفة عن وجهات نظر الحاكم . وكانت وظائفهم فى البداية إدارية وقضائية ، بيد أنهم أخذوا يزدادون تطوراً بمجلسهم نحو أن يكون مجلساً تشريعياً أعلى [1] . وكان لكل مستعمرة مجلس للنواب خاص بها ، يختار أعضاؤه البالغون من الذكور الذين تتوفر لهم ثروة معينة أو مؤهلات أخرى . وكان هذا المجلس الشعبى يضع القوانين ، ويحدد الاعتمادات المالية ، ويفرض الضرائب . وكانت سطوته تكمن فى سلطته كممثل للرأى العام ، وفى سيطرته على الخزانة . . وهما عين العاملين اللذين جعلا البرلمان فى بريطانيا قوى السلطان بعد سنة ١٦٨٩ .

ولقد حقق المستعمرون لأنفسهم ولذريتهم نفعاً كبيراً بالظفر بالمؤسسات النيابية والاحتفاظ بها ، وكانت تميز نظامهم السياسى ثلاث حقائق جوهرية : أولاها القيمة الرفيعة التى أضفوها على الوثائق المكتوبة كضمانات لحرياتهم . وما كان لانجلترا دستور مكتوب ، بيد أن المستعمرين تعلموا منذ السنين الأولى أن يقدسوا الحقوق المكتوبة فى وثائق التفويض المعطاة لشركات التجارة أو للمالكين أو للناس أنفسهم . وكان مقدراً لهذه النظرة لأية مجموعة مكتوبة من القوانين الأساسية أن تكون ذات أثر عميق فى التاريخ الأمريكى . وثانية الحقائق المهمة هى النزاع شبه المستمر بين الحكام والمجالس النيابية .

(١) المجلس الأعلى : مجلس الشيوخ أو الأعيان . . والأدنى : مجلس النواب ــ المترجم .

فقد كانا يمثلان عنصرين متضادين : فالحاكم يقف منافحاً عن الحقوق المكتسبة ومصالح الإمبراطورية ، بينما يقف المجلس ذائداً عن حقوق الشعب والمصالح المحلية . وأخيراً ، كان من المعالم البارزة للسياسة فى المستعمرات إصرار المجالس النيابية على الإشراف على الاعتمادات المالية . ولقد صادفت كثيراً من المعارضة ، بيد أنها كانت تحقق هذا المطلب عادة .

ولم يكن من الحقيقة فى شىء أن المستعمرات البريطانية عانت ظلماً وطغياناً . فهى بوجه عام كانت تستمتع بحرية سياسية لا مثيل لها فى أى جزء من الكرة الأرضية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . بيد أنها عانت الكثير من الحكم الطبقى ، فكانت هناك الفئة القليلة الحاكمة فى الدولة الدينية فى نيو إنجلاند ، التى كان تحطيم سلطانها أمراً لازماً . ولقد حاول النبلاء من ملاك الأراضى والتجار إقامة احتكار سياسى فى الجنوب .

وكان طغيان الطبقة يرفع رأساً بالغ البشاعة من وقت لآخر ، فكان سكان المستعمرات يدقونه . وقد وقعت أول ضربة من هذا القبيل فى فيرجينيا ، فى تمرد بيكون فى سنة ١٦٧٦ . فإن الخدم المرتبطين بعقود ، والذين أدوا المدد المتعاقد عليها ، والمهاجرين الذين كانوا يفلحون المزارع على الحدود ، وأصحاب المزارع الصغيرة ، والعديد من العمال ومن ملاحظى العبيد شعروا بأنهم يلقون معاملة سيئة . ذلك لأنه لم يكن لمن لا يملك أرضاً أى صوت انتخابى بعد سنة ١٦٧٠ . وقد حُرموا بطرق متعددة أخرى من أن يكون لهم صوت فى الشؤون السياسية . وكانت المجالس النيابية تبقى دون تغيير لمدد طويلة فى الواقع ، حتى لقد ظل واحد منها أربع عشرة سنة ، من عام ١٦٦١ حتى عام ١٦٧٥ ، وكانت المناصب توقف على ذوى الحظوة لدى الحاكم ولأصحاب المزارع الأثرياء . وكان التعليم فوق متناول الفقراء ، كما أنهم لم يكونوا ينعمون بحراسة كافية ضد اعتداءات الهنود ، لأن الحاكم ومعاونيه كانوا يصادقون الهمجيين مراعاة لتجارة الفراء . وكانت الضرائب باهظة ، والأسواق بعيدة عن المزارع القائمة فى الأطراف ، وقد ترك المزارعون فى أسوأ المآزق عندما هبط سعر التبغ .

أخيراً ، أدى اعتداء هندى على المستوطنات المكشوفة إلى ثورة عارمة . وجأر المستوطنون مطالبين بحمايتهم ، فلما أعطاهم الحاكم بيركلى وأصحاب المزارع الساحلية إجابات مماطلة ، هاجت ثائرتهم . ووضع ناثانييل بيكون نفسه على رأس الغاضبين من

رجـال البطاح العليا لنهرى جيمس ويورك ، ووجه ضربة قضت على المعقل الرئيسى للهنود ، وقتلت مائة وخمسين همجياً . حتى إذا ذهب بعد ذلك لحضور اجتماع المجلس النيابى فى وليمسبيرج ، قبض عليه الحاكم المتعجرف ، ولكن تمرداً فورياً نشب فى أعالى النهرين ، أدى إلى إخلاء سبيل بيكون ، الذى بادر إلى الفرار . وعندما عاد ، كان على رأس أربعـمائة من الرجال المدججين بالسلاح . وأسرع بيركلى والمجلس إلى استقبال المزارع الشاب المعقود العزم خارج مبنى المجلس النيابى . وشق الحاكم ثيابه كاشفاً عن صدره ، وصاح : « هيا . أطلق رصاصك ! . . أشهد الله على أن الهدف واضح . أطلق ! » ولكن بيكون أجاب : « كلا ، فقد يرضى فخامتك أننا لن نمس شعرة من رأسك ، ولا من رأس أى إنسان . إنما جئنا نطلب تفويضاً لننقذ أرواحنا من الهنود ، وهـو ما وعدتنا به كثيراً ، ولسوف نظفر به الآن ، قبل أن ننصرف » . فصاح زملاؤه مرددين معـاً ، وهم يهزون بنـادقهم المعـدة للإطلاق ، عند نوافذ المجلس النيابى : « سنظفر به ! » . وإلقى بيكون خطاباً صاخباً فى المجلس استغرق نصف الساعة ، مطالبـاً بحـماية المستـوطنـين ، وبمـراجعـة سليمـة للحسـابـات العامة ، وبتخفيض الضرائب ، وبإصلاحات أخرى .

وسرعان ما انتشر التمرد كعاصفة صيفية اجتاحت حقول فيرجينيا المتربة . وقطع الحاكم بيركلى وأعوانه وعوداً ، لم يصدق المراقبون الحصفاء أنهم سيبرون بها . وما لبث الحاكم أن استدعى ألفاً ومائتين من ميليشيا جلوسستر وميدلسيكس ، طالباً أن يساعدوه على قمـع المتمـرد بيكـون . وإذ ذاك انبعثت تمتمـة مستنكـرة ، عميقة : « بيكون ، بيكـون ، بيكـون » . وغـادر رجـال الميليشيا الميدان فى استهجـان ، وهم لا يزالون يدمـدمـون : « بيكون ، بيكون ، بيكون » . وأعقبت ذلك حرب صريحة ، فاجتاح بيكون جيمستاون ، وفى أحد أيام الصيف المعتدلة الطقس أحرقها عن آخرها ، واستولى على سفينة مجهزة بعشرين مدفعاً فى نهر جيمس . ثم مات فى أوج عملياته بالملاريا ، فانهار تمرده الذى كان قد بدأ كتأكيد عادل كل العدالة لحقوق صغار المزارعين والعمال وأهل الحدود فى الحماية من الهمجيين ، وفى معاملة سياسية ومالية منصفة ، وأفضى إلى عصيان صريح للحكومة الملكية . وما لبث بيركلى المتحرق للانتقام أن انحنى فى هزء لأحد مساعدى بيكون وهو يساق أسيراً ، وقال : « أهذا مستر درموند ؟ . . مرحباً بك . إن سرورى برؤيتك يفوق سرورى برؤية أى رجل فى فيرجينيا . لسوف تشنق خلال

نصف الساعة يا مستر درموند ! » . على أن العصيان وإن بدا فاشلاً ، كان مثالاً لروح الاستقلال والاعتداد الوطيد بالنفس لدى أهل الحدود . . للروح الأمريكية إذ تجلت بطريقة لا تُنسى . . وهى أبداً لم تُنس .

الكنيسة والدولة فى المستعمرات

وكما ازداد الظمأ إلى الحرية السياسية فى أمريكا ، نمت روح التسامح الدينى . كانت المستعمرات من باكورة الأوقات مأوى لكثير من الطوائف التى تعلمت أن تعيش معاً فى انسجام .

لقد انتقلت دوحة كنيسة انجلترا إلى فيرجينيا مع المستوطنين الأوائل . وكان بين البنايات الأولى التى أقيمت فى جيمستاون مبنى الكنيسة البسيط ، الذى أعيد تجديده بشكل جميل ، والذى لايزال مشرفاً على النهر . وعندما جاء لورد ديلاوير حاكماً ، فى سنة ١٦١٦ ، أمر بإصلاح المبنى وتوسيعه ، فأصبح صرحاً مهيباً ، ذا مقصورات من خشب الصنوبر ، ومذبح من خشب الجوز ، ومنبر طويل ، ومنصة للكتاب المقدس ، وحوض للمعمودية . وفى هذه الكنيسة كان المزارعون يتزوجون الفتيات اللائى كن يأتين فى السفن مشحونات ، وفيها كان أطفالهم يعمّدون . ومع نمو فيرجينيا أقيمت أبرشيات جديدة ، وأنشئت كنائس . وكانت تتلقى العون من الضرائب العامة ، كما كان شأن الكنيسة الأساسية فى انجلترا . فظل كل مستوطن بضع سنين يؤدى لرجال الكنيسة ضريبة مؤلفة من بوشل من الأذرة وعشرة أرطال من التبغ . ولم يكن هذا كافياً ، فأجاز المجلس التشريعى ، فى سنة ١٦٣٢ ، قانوناً يلزم كل مستوطن بأن يخصص للقس — إلى جانب المساهمة السالفة — العجل العشرين ، والعنز العشرين ، والخنزير العشرين مما تنجب أنعامه . وبعد عودة آل ستيوارت ، زيدت حصة التبغ كمية وإلزاماً . وفضلاً عن هذا كان من المتاح لرجال الدين الحصول على منح من الأرض دون مقابل ، تسمى الوقف أو مخصصات الكنيسة ، وعلى عطايا أخرى . كان نظام الكنيسة الإنجليكانية الرسمية حقيقة واقعة فى فيرجينيا إلى حد كبير ، كما أصبح فى أرجاء أخرى من الجنوب ، لا سيما ميريلاند وكارولينا الجنوبية .

ومع ذلك ، فإن كنيسة فيرجينيا لم تكن هيئة ذات ازدهار مادى ، ولا هى فرضت نفوذها روحياً أو فكرياً على المستوطنين ، إذ أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية لم تكن مواتية لنموها . فكانت معظم الأبرشيات ممتدة على مساحات هائلة من أراض قليلة المستوطنين ، وكانت حدود كثير منها تمتد متاخمة لضفاف النهر ، لما بين ثلاثين وستين ميلاً ، طولاً . فكان على الذين يذهبون إلى الكنيسة أن يقطعوا مسافات طويلة على طرق متعبة ، أو أن يجدفوا تجديفاً مضنياً عدة ساعات ، فى ذهابهم وإيابهم بالنهر . فكان التردد على الكنيسة غير منتظم بطبيعة الأمر ، حتى إن جورج واشنطن ــ وهو من المترددين الأوفياء للكنيسة ــ كان معرضاً للاتهام بعدم الانتظام . وكان القس خليقاً بأن يجد معظم المقصورات خاوية ، فى الطقس الشتوى السيىء . ولقد اشتكى أحدهم من أنه كان يقطع خمسين ميلاً ، فى بعض الأحيان ، ليقيم قداساً فإذا به لا يجد من الحضور سوى نفر قليل . وكذلك كانت هذه المساعدات للقس هزيلة ، فى أغلب الأحيان ، فى الأبرشيات القليلة السكان . ومع هبوط الأسعار ، فإن الضرائب المحلية ، التى كانت تُجمع تبغاً ودواجن ــ بدون ارتباط بالأسعار ــ لم تكن كافية ، فإذا حاولت الهيئة التشريعية رفعها ، كانت الأبرشيات الفقيرة تضج بالشكاوى .

وإزاء انخفاض الرواتب ، وعدم الاطمئنان لمدة تولى المنصب ، والصعاب الكثيرة ، كان من العسير الحصول على قساوسة ذوى كفاءة وتقوى وحمية . وما كان خيرة رجال الكنيسة ليرتضوا الهجرة من إنجلترا إلى المستعمرات ، إذ كان بوسعهم العثور على مناصب أفضل فى وطنهم . أما الذين كانوا يفدون على المستعمرات ، فكثيراً ما كانوا من متبلدى الذهن ، أوكسولى الجسم ، أوذوى الأخلاق المثيرة للشك . وسرعان ما نجد أن الحكام وسواهم كانوا يشتكون من أن رجال الكنيسة فى فيرجينيا كانوا شرذمة من ذوى السلوك المخزى ، المقبلين على كثير من الشرور التى لا تليق بأزيائهم ، المدمنين للسباب ، والشراب ، والعراك . كانوا على غرار شخصية القس تروليبر كما صورها فيلدينج فى روايته . ولقد نظمت حركات إصلاحية أدت إحداها إلى إنشاء ثانية الكليات فى المستعمرات ، فى سنة ١٦٩٣ ، وهى كلية وليم وميرى ، كمدرسة لتعليم القساوسة الشبان ، فى بادىء الأمر . بيد أن المؤسسة الكنسية ظلت غير مُرضية حتى قيام الثورة .

كانت الكنيسة الإنجليكانية تتقبل المعونات من الأموال العامة فى فيرجينيا وأنحاء أخرى من الجنوب ، ولكنها لم تؤت أية سيطرة على الدولة . أما فى مساشوستس

وكونكتيكت فقد ظلت الكنيسة البيوريتانية مرتبطة بالدولة إلى حد كبير ، لعشرات من السنين ، فكانت تمارس سيطرة ملحوظة على الحكومة ، وقد ظلت طويلاً تفرض طغياناً كنسياً فى الواقع .

كان السبب الأساسى لهجرة البيوريتان إلى مساشوستس هو إنشاء دولة كنسية وليس السعى إلى الحرية الدينية . فلم يكن البيوريتان تقدميين دينيين ، بل كانوا محافظين دينيين . وكانوا قد آمنوا فى إنجلترا بكنيسة إنجلترا ، بيد أنهم رغبوا فى تعديل السلطان المطلق للمسيطرين عليها ، وفى تغييرها بإلغاء التقاليد الشكلية الكاثوليكية ، والالتزام التام بعطلة يوم السبت ، وفرض رقابة وثيقة على الأخلاق . وإذ أخفقوا فى تحقيق أمل السيطرة على المؤسسة الكنسية ، سعوا إلى البرارى الأمريكية ليقيموا « كنيستهم الخاصة » ، التى ينفق عليها من الضرائب العامة ، والتى تندمج فى نسيج الدولة ، ولا تتسامح إزاء أية معارضة . وعندما أنشأ إنديكوت أول كنيسة بيوريتانية فى سالم ، أخرج اثنان من مرافقيه كتاب صلوات إنجليكانى من متاعهما ، وأرادا أن يقرآ منه الصلوات ، فبادر إلى وضعهما وكتابهما المنكر على سفينة ، وشيعهما إلى إنجلترا . وأقام الزعماء البيوريتان على الفور دولة كنسية وثيقة النسيج ، قُصرت سلطاتها على طبقة أرستقراطية من الحكام الكنسيين المستبدين ، ذوى الإرادة الحديدية والمقدرة .

وكان انتصار هذه الدولة الكنسية الكالفينية ، بنظامها القاسى ، يعنى أن الغاية المثالية للهجرة أو الانفصال ، أى إقامة أبرشيات ذات حكم ذاتى ، قد توارت واحتجبت . ففى بلايموث أنشأ المهاجرون الدينيون كنيسة ديمقراطية صغيرة ، تولى فيها القوم شؤونهم الدينية دون مراعاة لأساقفة أو لمجمع كنسى . بيد أن البيوريتان وجدوا أن هذا عمل فوضوى ، غير خلقى ، إذ كانوا يؤمنون بالسيطرة المركزية القوية .

وكانت إقامة هذه الدولة الكنسية فى مساشوستس على أربع خطوات : أولاها تتمثل فى شرط أساسى ، بأنه ليس لإنسان أن ينتخب مرشحاً أو يتولى منصباً ما لم يكن عضواً فى الكنيسة البيوريتانية وطيد العضوية . أما الخطوة الثانية فجعلت الذهاب إلى الكنيسة إجبارياً على كل امرىء ، حفاظاً على الكنيسة والمستعمرة من غير المؤمنين . وأما الثالثة فكانت تتطلب أن تقر الكنيسة والدولة معاً تكوين أية كنيسة جديدة . فليس لأية مجموعة من المارقين أو غير المؤمنين أن تقيم معبداً لنفسها فى أى مكان من مساشوستس ، وعلى الراغبين فى كنيسة لا تطابق الطراز البيوريتانى أن يهاجروا إلى صقع آخر من أمريكا .

والخطوة الأخيرة تمثلت فى نص على معونة الدولة ، جعل من الممكن للدولة أن تتعاون مع رءوس الكنيسة فى معاقبة أى عصيان أو خرق للنظام . وفى سنة ١٦٤٦ أصدر مجمع الكنائس البيوريتانية ما سمى برنامج كمبريدج ، الذى نص على أنه إذا تمردت أبرشية أية كنيسة على المجمع ، أو على القواعد الكنسية ، فعلى الحكومة أن تمسك مرتب القس ، وأن تفصله ، وأن تعين فى مكانه رجلاً يلتزم بالقواعد وبالطاعة للمجمع .

هذه الدولة الكنسية فى مساشوستس ، وهذا الحكم تمارسه مجموعة من القساوسة والحكام المدنيين استمر مع تضاؤل عنفوانه تدريجياً حتى سنة ١٦٩١ ، عندما أصدر الملك وليم والملكة مارى وثيقة منقحة ، فصارت مساشوستس مقاطعة ملكية . ولقد حقق الحكم الدينى نصراً عظيماً واحداً يسجل له . فإن الحكومة الدينية البيوريتانية الصارمة قاومت المحاولات التى بذلها تشارلز الثانى لبسط نفوذه بإصرار وطيد كان له أثر قوى فى نمو الحرية السياسية فى العالم الجديد . فقد أدت هذه المقاومة الكثير إلى تعبيد الطريق لتحقيق الاستقلال السياسى فيما بعد ، فى القرن التالى . بيد أن للحكومة الدينية عدة أشياء تُحسب عليها ، فقد كانت طاغية ظالمة ، وقد ارتكبت بعض تصرفات اضطهادية مشينة ضد الكويكرز وغيرهم ، وكانت معادية لحرية الفكر والقول ، وقد ساعد تطرفها على تفشى فضيحة شعوذة السحر فى سالم ، التى شُنق خلالها تسعة عشر رجلاً وامرأة . ومع تكاثف السكان وتغلغل مبادىء جديدة ، قام حزب تحررى ليبرالى قوى لمصارعة المحافظين ، يقوده إنكريز ماثر ، وابنه الواسع المعرفة كوتون ، وكان كلاهما قسيسين ذائعى الصيت فى بوسطن . وكان تضاؤل نفوذ نظام الحكم الدينى مناسبة سعيدة لأمريكا .

ولقد أبرزت مساشوستس داعيتين عظيمين للحرية الدينية فى شخص روجر وليمز وآن هتشينسون . وكان وليمز راقى التعليم ، تخرج فى جامعة كمبريدج بإنجلترا ، ومن أتقى المسيحيين ، وخصماً عنيفاً لمبدأ الحكم الدينى البيوريتانى بأكمله ، إذ كان يؤمن بوجوب الفصل تماماً بين الكنيسة والدولة ، وأن من الخطأ محاولة إجبار البشر على التردد على الكنيسة ، وأن من الواجب التسامح مع المارقين . وكان على الحكومة فى رأيه أن تحمى كافة الطوائف ذات السلوك الحسن على السواء . ولقد أمرت سلطات مساشوستس وليمز بالعودة إلى إنجلترا ، ولكنه بدلاً من ذلك هرب مجتازاً الثلوج ليجعل من رودآيلاند بلاداً من الممكن تطبيق مبادئه فيها . أما آن هتشينسون فكانت أصلاً من

سالم ، وكانت أول امرأة تضطلع بدور بارز فى المسائل الدينية والسياسية ، فراحت تبشر بتعـاليم شبيهـة بتلك التى أطلق عليهـا فيما بعـد ، فى أيام إيمـرسـون ، الفلسفـة المتعالية [1] . فكانت تقول إن واجب كل امرىء أن يتبع إيعازات صوت داخلى خارق للطبيعة (غيبى) ، وأن خلاص أى فرد يرجع إلى وجود الروح القدس فى أعماقه ، وليس إلى أى قدر من الأعمال الطيبة أو التطهر من الخطايا . وبعد أن عاشت ردحاً فى ريف رود آيلاند ، لقيت مصرعها فى مذبحة قام بها الهنود فى نيويورك .

ولقـد أصبـح التسـامح هو القاعدة فى كافة مستعمرات الوسط منذ زمن مبكر . ولم يبذل أى جهد جدى لتوطيد الكنيسة الإنجليكانية إلا فى نيويورك وحدها ، ومع ذلك فقد أخفقت هناك إخفاقاً تاماً تقريباً . فقد كانت الأغلبية العظمى من الناس تنتمى إلى طوائف أخـرى . كان القوم ، كما كتب المؤرخ وليم سميث فى القرن الثامن عشر ، يميلون إلى « تسـامح شامل ، على قدم المساواة ، نحو البروتستانت » . وكان اليهود ينفقون على معبد لهم . وفى مستعمرتى الكويكرز ، بنسلفانيا وديلاوير ، كانت جميع الـطوائف تلقى ترحيباً ، وقد ثبتت كثير من الطوائف الصغيرة ، والعجيبة ، أقدامها هناك . . وكانت ألمانية إلى حد كبير . ولم يتعرض الكاثوليك للإزعاج ، كما كان القداس يجرى فى حفلات عامة فى فيلادلفيا . كما أن ميريلاند كانت هى الأخرى موطناً لعقائد كانت متعادية لزمن طويل فأصبحت تعيش فى وفاق عام . وفى سنة ١٦٤٩ ، أجازت جمعية تشريعية ، ضمت كاثوليك وبروتستانت ، قانوناً للتسامح الدينى أصبح من المعالم الكبرى للحرية الدينية . ولقد كان قاسياً بالنسبة لغير المسيحيين وللموحدين [2] ، ولكنه ساوى بين الكاثوليك والبروتستانت . ولقد اشتمل قانون ميريلاند للتسامح على عبارة مثقلة بالمعانى ، فقد أعلن واضعوه أن التسامح أمر حكيم ، « لأن إجبار الضمير فى مسـائـل الدين كثيراً ما تكشف عن عاقبة خطيرة » . ومع مرور عقود الزمن ، أصبح معـظم المستعمـرين يوقنـون من أنه كان من الإنصاف والحكمة ترك الناس يتعبدون كما يروق لهم .

(١) transcendentalism : فلسفة تقول بأن دراسة العمليات الفكرية ، وليس التجربة أو الاختبار ، هى الطريق إلى كشف الحقيقة ــ المترجم

(٢) Unitarians · طائفة مسيحية ترفض التثليث ، وتصر على وحدانية الله ــ المترجم .

الفصل ٢

تراث عهد الاستعمار

روح قومية أمريكية مطردة النمو

من الممكن تمييز عاملين رئيسيين فى نمو وتطور قومية أمريكية واضحة المعالم خلال عهد الاستعمار ، وهذا طابع كان قد أخذ يتبلور عندما بدأت الثورة . وكان أحد هذين العاملين : شعباً جديداً . . مزيجاً من سلالات مختلفة القومية . أما العامل الآخر فكان : أرضاً جديدة . . بلاداً غنية ، خالية ، لا تتطلب من الوافدين ثمناً لخيراتها سوى أن يجلبوا إليها الجد والإقدام . ولم تحن سنة ١٧٧٥ حتى كان ثمة مجتمع أمريكى قد بدأ يبرز ، بسمات اجتماعية واقتصادية وسياسية خاصة به . وكان فى بعض النقاط يقترب اقتراباً وثيقاً من النسق الأوربى : فلم يكن من اليسير تمييز التجار ، والمهنيين ، والميكانيكيين فى بوسطن ونيويورك عن الفئات المشابهة فى لندن وبريستول . بيد أن الأغلبية الكبرى من العامة الأمريكيين ، كانوا يزدادون تميزاً عن النمط الأوربى فى الوطن القديم .

وكانت الهجرة إلى أمريكا قد حدثت بطريقة جعلت ـــ لحسن الحظ ـــ اللغة الإنجليزية والنظم الإنجليزية غالبة فى كل مكان ، فكانت البلاد تحظى لذلك بوحدة

عامة . فلم ينشىء الألمان ولا الهيجونوت الفرنسيون مستعمرة خاصة منفصلة ، كما كان ينبغى أن يفعلوا ، بل اختلطوا بالوافدين البريطانيين الأوائل ، متخذين لغتهم ومعتنقين وجهات نظرهم . وما لبثت الهجرة الإنجليزية أن طغت على الهولنديين فى وادى هدسُن والسويديين فى ديلاوير . ومع ذلك فإن هذه الوحدة الموفقة فى اللغة والمبادىء الأساسية تعايشت مع تباين ملحوظ فى الأصول القومية .

ولا يجدر بنا أن نبالغ فى اندماج الأقوام فى عهد الاستعمار ، ولا أن نبخسه قدره . ومن المحتمل أن ما يزيد على ثلاثة أرباع المستعمرين البيض كانوا ، فى عهد الثورة ، من ذوى الدم البريطانى ، بيد أن اندماج السلالات الهولندية والألمانية والفرنسية وغيرها من السلالات الأوربية كان ملحوظاً . ولقد كانت الدفعات الكبرى الأولى من المستوطنين إنجليزية ، وظلت نيوإنجلاند والأراضى المنخفضة فى الجنوب محض إنجليزية تقريباً . على أنه مع استمرار انسياب السيل الأصلى ، وفدت من أوربا فى القرن الثامن عشر موجتان هائلتان أخريان من الهجرة ، هما : الموجة الألمانية ، والموجة الاسكتلندية الأيرلندية . وكان يمثل كلاً منهما ، عند انبثاق الثورة مئات الألوف من المستوطنين .

وكانت الهجرة الألمانية هى التى تبدت أهميتها أولاً . فلقد كانت المناطق الغربية من ألمانيا ، لاسيما الراينلاند ، تزخر بالبؤس والتذمر . إذ كانت عمليات التخريب والإتلاف التى قامت بها الجيوش الفرنسية ، فى عهد لويس الرابع عشر ، من أقسى العمليات طابعاً . وقد أعقبها اضطهاد دينى مدروس ومنسق لأتباع لوثر ولطوائف أخرى ، عززه الاضطهاد السياسى الصادر عن صغار الأمراء الألمان . وعندما بسطت حكومة الملكة آن وخلفائها الأمان والحرية الدينية تحت العلم الإنجليزى ، تدفق الألمان على إنجلترا ومستعمراتها بعشرات الآلاف . وكانت طلائع منهم قد أقبلت من كريفيلد إلى ممتلكات وليم بن من زمن مبكر يرجع إلى سنة ١٦٨٣ ، فجعلت من جيرمانتاون ــ ومعناها المدينة الألمانية ــ قاعدة مزدهرة للحرف اليدوية . فأقامت أسرة ريتنهاوز هناك أول مصنع للورق فى المستعمرات ، كما قامت صناعة البيرة والأقمشة . بيد أن السيل العارم بدأ فى التدفق بعد عام ١٧٠٠ . فذهب بعض الوافدين إلى وادى موهوك فى نيويورك ، وذهب بعض إلى (برونزويك) فى نيوجيرسى ، ولكن الأغلبية ذهبت إلى بنسلفانيا . ومع مرور الزمن ، أصبح عدة آلاف من الألمان والسويسريين يفدون فى العام الواحد .

وكـان هذا السيل من الضخـامـة بحيث أن بنجامـين فرانكلين قدر أن ثلث سـكـان بنسلفـانيا قبيل الثـورة كانـوا من الألمـان . وتنـاثـرت فى الإقليم مستوطنات اللوثـريين ، والمـورافيين ، والمينونيين ، والإخـوة المتحدين . وكانت اللغة الإنجليزية تستعمل بقلة فى مناطق كبيـرة ، حتى إذا كانت سنة ١٧٣٩ ، أنشئت صحيفة ألمانية فى جيرمانتاون . واكتسب مصنعا البـارون شتيجل لسبك الحديد وللزجاج ، وكذلك مؤسـسة ساور للطباعة ، شهرة . بيد أن معظم الألمان كانوا من المزارعين البارعين ، الـذين أحال اجتهادهم تربة بنسلفانيا المكونة من الحجر الجيـرى إلى مزارع شـاسعة للقمح . وذلك أنهم لم يقبلوا على ارتياد الأصـقاع غير المعمورة ، بل كانوا يؤثرون شـراء منطقة استقر فيها الاستيطان ، فيتولون حمايتها وتحسـينها إلى حد ما ، ويمهـدون الأرض تماماً ، ثم يقيمون مخازن للحبـوب وحظائر للماشية بديعة ، قبل أن ينفقوا جهداً كبيراً فى إقـامة البيـوت . كما كانوا يحرصـون على سمنة مواشيهم وصحـتها ، وعلى ارتفاع أسـوارهم ومتـانتها . وإذ كانوا مقتصدين فى معيشتهم ، فقد اعتـادوا أن يبيعوا أكثر ما يتسنى لهم بيعـه من منتجاتهم . وكانت النسـوة يعملن فى الحقول ، ويربيـن مـع ذلك عائـلات كبيـرة .

أمـا الاسكتلنـديون والأيرلنـديون ، فكـانـوا صـنفـاً أكثـر نضـالاً : كانـوا عنصـر الارتياد الـرئيسى فى بنسلفانيا ، ووادى شيناندواه ، والمرتفعات فى كارولينا ، وكـانـوا هـم الآخـرون قد فروا من الـظـلـم فى وطنهم ، إذ عانوا الكثير من الكنيسة الإنجليكانية فى أيرلندا ، كما أن القوانين الإنجليزية ضـد الصناعات الأيرلندية أودت بصـناعة النسـج عندهم . وقد جاءوا متزاحمين على السـفن ، وحملوا معهم شعوراً مريراً ضـد الإنجليز . وكان الاسكتلنديون فيهم أكثر عـدداً من الأيرلنديين ، ومعظمهم مـن الـبريسبيتـاريان (أتباع الكنيسة المشيخية) ، الذين هـاجروا إلى مقاطعة ألسـتر قبل ذلك ، أثناء القرن السـابق ، فبثت فيهم الكنيسة المشيخية فهمـاً وحباً طبيعيين للنظم الـديمقراطية . ولقد استقر بعضـهم فى نيو هامبشاير ، وبعضـهم فى مقاطعتى ألستر وأورانـج بـولاية نيويورك . على أن مـلاذهم الأول تمثل فى بنسلفانيا والوديان المترامية جنوبـاً حتى فيرجينيا وكارولينا . وفى إيغالهم فى البرارى أخذوا يعيشـون على الصـيد ، ويمهـدون الأرض ، ويقيمـون أكواخاً من الكتـل الخشبية ، ويقتطعون من الغابات مزارعهم الفجة الأولى . وكان هؤلاء « الأغراب ذوو الجرأة والشمم » ــ كما وصفهم أحد

رجال الحكومة فى ينسلفانيا ــ يضيقون بالقيود القانونية ورسوم الإعفاء من الخدمات التى فرضها بن وغيره من أصحاب الأراضى ، كما كانوا يكرهون الهنود ويبادرون إلى الاشتباك بهم . وكانت روح التملك عندهم تبرر القول المأثور : « كانوا يحرصون على عطلة يوم السبت وعلى كل ما يمكن أن تقع عليه أيديهم » . وقد أثبتوا أنهم طلائع للاستيطان رائعة الكفاءة ، إذ انتشروا غرباً وجنوباً ، فوصلوا إلى مرتفعات جورجيا ، ونفذوا إلى كنتكى قبل الثورة ، منشئين عائلات كبيرة ، مبدين مواهب ملحوظة فى السياسة وقتال الهنود ، وبهذا بدأ الاسكتلنديون والأيرلنديون يطبعون أثراً قوياً على الحياة الأمريكية . وكانت بينهم أسماء اكتسبت ذيوعاً فيما بعد ، مثل : كالهون ، وجاكسون ، وهيوستون ، وبولك ، وماكنيلى ، وويلسون .

أما فى وادى شينانـدواه والوديان الداخلية الأخرى ، فسرعان ما امتزجت دماء الاسكتلنديين ــ الأيرلنديين ، والإنجليز ، والألمان ، والهولنديين وغيرهم لتنتج شعباً أمريكياً جديداً . كذلك كانت آخر مستعمرة أنشئت ، وهى جورجيا ، تمثل خليطاً من الأقوام . وقد حصل الجنرال جيمس أوجليثروب بمعاونة غيره من أهل الخير الإنجليز ، على تفويض ملكى لتعميرها فى سنة ١٧٣٢ ، لتكون مأوى للفقراء المدينين ولغيرهم من البؤساء ، ولتكون مركزاً أمامياً لصد العدوان الإسبانى والهندى . وأحضر هؤلاء المفوضون المحسنون إلى جورجيا أناساً انتقوهم بحرص من الإنجليز ، ومجموعة كبيرة من البروتستانت الألمان ، وعدداً من أبناء المرتفعات الاسكتلندية . وكان الرق محظوراً فى بادىء الأمر ، كما كانت كافة العقائد غير الكاثوليكية تلقى تشجيعاً ، فكان الإنجليكانيون ، والمورافيون ، والبريسبيتاريان ، والأنابابتيست ، واللوثريون واليهود يؤدون شعائرهم جنباً إلى جنب . وقد برزت الكنيسة الإنجليكانية فى سهول المراعى (السافانا) بقسيسين ذائعى الصيت ، هما : جون ويسلى وجورج هوايتفيلد .

وكانت الجماعات من غير الإنجليز أصغر من الجماعات الإنجليزية ، بيد أنها لم تكن أقل منها أهمية . فإن إلغاء مرسوم نانت [1] ، جلب إلى المستعمرات الإنجليزية

(١) مرسوم أصدره هنرى الرابع ملك فرنسا ، فى سنة ١٥٩٨ ، يمنح الهيجونوت حرية أداء شعائرهم الدينية ، وحقوق تولى كافة المناصب الحكومية التى كانوا محرومين منها ــ المترجم .

مئات ــ بل ربما آلافاً ــ من الهيجونوت الفرنسيين ، وظهرت أسماء مثل لوران وليجاريه فى كارولينا الجنوبية ، وموري ولاتانيه فى فيرجينيا ، وديلانو وجاى فى نيويورك ، وريفير وفانوى فى مساشوستس ، مما يوحى بمدى اتساع انتشارهم . كما جاءت شراذم قليلة من السويسريين مع الألمان ، وكان ثمة أعداد ليست بالقليلة من السويديين والفنلنديين فى كافة أرجاء ديلاوير ، كما كانت ثمة جماعات قليلة من اليهود الإيطاليين والبرتغاليين هناك ، وفى المدن بوجه خاص . ولقد دفعت هزيمة الاسكتلنديين فى كلودن ، فى سنة ١٧٤٥ ، إلى نزوح كثير من أهالى المرتفعات منهم إلى أمريكا . وتذكرنا أسماء مدن مثل رادنور ، وبراين مور فى بنسلفانيا ، وويلش نك فى كارولينا الجنوبية ، بأن أهل ويلز أسهموا هم الآخرون بنصيب . وهذا يبين أن أمريكا أشبه ببوتقة لصهر الأقوام ، حتى فى عهد الاستعمار .

وكانت الأرض ، لاسيما عند حدود العمران ، هى ثانى العاملين الكبيرين فى صوغ قومية أمريكية واضحة المعالم . فعند طرف الشريط الساحلى ذاته ، كانت الحدود تتناثر متخللة الغابات المظلمة . ذلك أن المستوطنين الأوائل كانوا عديمى التجربة إلى حد لا يصدقه العقل . فكان المهاجرون الدينيون يبحثون فى أدغال بلايموث عن التوابل ، ويخالون أن الوحوش التى كانوا يسمعونها أسود أو سباع ! وكان بعض المتأنقين فى جيمستاون يظنون أن بوسعهم أن يعيشوا هناك كما كانوا يعيشون فى شوارع لندن . بيد أن الوافدين كانوا مضطرين إلى أن يؤهلوا أنفسهم وفقاً للبرارى البدائية وإلا ماتوا . وإنا لنصادف فى باكورة البداية رجالاً مثل الكابتن جون سميث ومايلز ستانديش ، تذكرنا جرأتهم وجلدهم بأبطال ظهروا فيما بعد ، مثل روبرت روجرز ، ودانييل بون ، وكيت كارسون . وتعلم المستوطنون من الهنود كيف يزرعون ويسمدون الأذرة ، وكيف يستنبتون التبغ ، وكيف يطهون السكوتاش succotash [1] ، ويصنعون القوارب وأحذية السير على الجليد ، ويطاردون حيوانات الصيد ، ويصبغون جلود الوعول ، ويكتسبون خبرة بكل ما يتصل بالغابات . وأصبح الرائد بالتجربة الشاقة صائداً ، وزارعاً ، ومقاتلاً فى آن واحد . وظهرت زراعة جديدة ، وفن معمارى جديد ، واقتصاد منزلى جديد . وإن هو إلا عقد من الزمن ، حتى كان فى العالم الجديد أناس لا تكاد

(١) Succotash صنف من الطعام يصنع من الأذرة واللوبيا ــ المترجم .

تجمعهم بالجيران الذين خلفوهم فى إنجلترا سوى صفات مشتركة قليلة ، أخذت تزداد قلة لدى أطفالهم . فقد أوتوا نظرة إلى الحياة أخشن مما لأولئك ، وأكثر اتصافاً بأنها عملية ، من نسج البيئة . وقد سجل الأديب ستيفن فينسنت بنيت هذا فى تصويره شخصية ديكون هيرون :

ما قطعت عهداً ، ولا أقسمت يميناً ،
ولكنهم يسموننى الآن الكابتن هيرون
وهذا عالم يبدأ الإنسان فيه متحرراً من كل شىء ،
بمجرد أدائه ثمن الوصول إلى هنا . . .
فها هنا فارس نبيل ومدين مفلس من نيوجيت ،
ترى أى الاثنين سيثبت أنه أفضل ؟
أفتستطيع أن تحل اللغز ؟ أما أنا فلن أحاول ،
ولكنا نعيش هنا تحت سماء أخرى ،
غير سماء الرجال الذين اجتازوا البحار .

ولم تحن سنة ١٧٠٠ ، أوحواليها ، حتى كانت حدود العمران قد زحزحت إلى أقصى نقطة للملاحة فى الأنهار ، وبلغت جبال ألليجنى فى سنة ١٧٦٥ ، ثم تجاوزت الجبال قبيل الثورة . ولقد تعرضت أجيال متعاقبة لتأثيرها ، وخرجوا من التجربة وقد تشكلوا تشكيلاً جديداً ، وكأنما صيغوا فى قالب هائل لا سبيل إلى مقاومته .

وكانت القاعدة عند الحدود هى : مساواة خشنة فى الحال الاجتماعية . . والواقع أن مثل هذه المساواة كانت غالبة خارج المدن الكبيرة القليلة بوجه عام . فلم تكن كعكة المجتمع الأمريكى موشاة بغطاء الحلوى . فالمسرحون من السجون الإنجليزية الذين تعهدوا بالعمل لخمس سنوات ، كثمن لعبورهم المحيط ، والمدينون الفقراء المعفون من السجن ، والألمان الهاربون من مقاطعة بلاتينيت التى عمها الفساد والخراب ، والاسكتلنديون والأيرلنديون الذين اضطرتهم القوانين التجارية الإنجليزية إلى النزوح عن ديارهم . . هؤلاء جميعاً وفدوا وليس لديهم شىء ما ، وكان عليهم أن يكافحوا بجد ليجمعوا ثروة . ونظراً لأنهم كانوا من العامة ، فقد كانوا يكرهون الأرستقراطيين الذين

ظفروا بمساحات كبيرة من الأرض كمنح دون مقابل ، أو الذين كونوا ثروات من التجارة والمضاربات . على أن المستوطن العادى شعر ، أياً كان مدى فقره ، بشعور انفساح الفرصة والاستقلال ، وهو شعور لم يكن قد عرفه فى أوربا ، وقد تولد عن المساحات الشاسعة ، والثروة الطبيعية الوافرة فى البلاد . وقد كتب سان جون كريفكير ، وهو سيد فرنسى راق جاء إلى المستعمرات الأمريكية حوالى سنة ١٧٥٩ ، واستوطنها كمزارع أمريكى . . كتب أن « الأغنياء يبقـون فى أوربا ، فليس يهاجر سوى متوسطى الحال والفقراء » . وأردف قائلاً : « كأن كل شىء يبعثهم بعثاً جديداً ، من قوانين جديدة ، وأسلوب معيشة جديد ، ونـظام اجتـماعى جديد . . إنهم هنـا يصبحـون بشراً » . ووصف فى فقرة بليغة الروح الأمريكية الناشئة ، والقائمة على نشاط غير مقيد ، فى بلاد ذات موارد طبيعية هائلة :

يبدو الأوربى ، عندما يصل لأول مرة ، محدوداً فى نواياه وفى آرائه ، ولكنه فجأة يبدل أبعاده . فما إن يستنشق هواءنا حتى يكون مشروعات جديدة ، ويستقر على خطط ما كانت لتخطر ببـالـه قط فى وطنـه . فهناك يطوى اكتمال المجتمع كثيراً من الأفكار النافعة ، بل ويخمد أجدر المشروعات بالتحبيذ ، فى حين أنها تستوى هنا وتنضج . . . ويبدأ المهاجر فى الشعور بتأثيرات نوع من البعث ، فهو حتى الآن لم يكن قد عاش ، بل نما خاملاً فحسب ، أما الآن فهو يحس بنفسه إنساناً ، لأنه يلقى معاملة الإنسان . . لقد أغفلته قوانين بلاده فى تفاهة وجوده ، أما قوانين هذه البلاد فتكسوه بعباءتها ، فقدروا أى تحول لابد أن يطرأ على عقل هذا الإنسان وأفكاره . إنه يبدأ بنسيان ربقته وتبعيته السابقتين ، ويكبر قلبه ويمتلىء حرارة دون إرادة منه ، فإذا أول ارتفاع لشأنه يلهمه تلك الأفكار الجديدة التى تميز أى أمريكى .

على أن قلة من المستعمـرين ظلوا حتى عشية الثورة لا يفطنون إلى أن شخصية أمريكية كانت فى تطور ونمو . كانوا يرون أنفسهم رعايا بريطانيين ذوى ولاء أولا ، ثم فيرجينيين ، أو نيويوركيين ، أو أبناء رود آيلاند . وفى هذا كتب مؤلفـ « قلوب بلوط فيرجينيا » سنة ١٧٦٦ :

بالرغم من أننا نستمتع بالأطايب ونسمن على أرض أمريكا :

فإننا ننتمى إلى جزيرة بريطانيا الجميلة كرعايا ،
ومن الذى يبلغ به السخف أن ينكر علينا هذا ،
وثمة دم بريطانى أصيل فى كل عرق من عروقنا .

ولم يحن عام ١٧٥٠ ، حتى كانت دعائم المستعمرات الثلاث عشرة قد توطدت ، محتوية على ١ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة . وكانت تمتد على طول الساحل من صنوبرات وادى أندروسكوجين إلى نخيلات سانت جونز المروحية السعف . وكانت لكل منها ميزاتها الخاصة ، وإن انطوت جميعاً فى أربعة قطاعات محددة إلى درجة كبيرة .

كان القطاع الأول نيوإنجلاند . . بلاد ذات مزارع صغيرة ، صخرية ، جيدة الحرث ، وتقوم بها صناعة الأخشاب ، ومجموعة كبيرة من الأعمال البحرية : إنشاء من النوع الذى وصفه لونجفيلو فى « بناء السفينة » ، وصيد سمك القُدّ على شاكلة ما وصفه كبلنج فى روايته المشهورة « الربابنة البواسل Captains Courageous » ، وصيد الحوت كما صوره ملفيل فى « موبى ديك » ، والاتجار مع الخارج بما يشبه ما وصفه آر . إتش . دانا فى كتابه « عامان أمام الصارى » . وكانت المستعمرات الوسطى قطاعاً آخر ، بعضه من المزارع الصغيرة ، وبعضه من الضياع الكبيرة ، مع حظ لا بأس به من الصناعات الصغيرة النطاق ، ومشروعات ملاحية نشيطة فى نيويورك وفيلادلفيا . وكانت المستعمرات الجنوبية قطاعاً ثالثاً ، حيث المزارع الواسعة ، تعمل فيها جماعات من العبيد السود . وكان إنتاج النيلة ، والأرز ، والتبغ ، أبرز معالم القطاع وإن لم يكن أعمها رواجاً . وأخيراً كان هناك أكثر القطاعات جميعاً اتساماً بالروح الأمريكية : وهو الشريط الساحلى أو الريف القائم خلفه ، من مين إلى جورجيا ، حيث طلائع الصيادين المستوطنين سكان الأكواخ المصنوعة من كتل الخشب ، وشراذم من المزارعين الأشد صلابة ، الذى أوغلوا فى داخل القارة . وكان هذا القطاع الساحلى نمطاً واحداً فى الشمال والجنوب . ففى مساشوستس الغربية ، وفى بنسلفانيا الغربية ، وفى كارولينا الغربية على السواء ، أنتج رجالاً شديدى المراس ، واسعى الحيلة ، لا يحفلون بالدراسة فى الكتب ، ولا يطيقون القيود ، ولا يهن تفاؤلهم أو يلين .

مستعمرات نيو إنجلاند

كانت المستوطنات الساحلية فى نيو إنجلاند تكشف عن نفوذ وسلطان واسعين . ولقد رأينا كيف أن حركة واحدة للهجرة قام بها أهل مساشوستس أوجدت رود آيلاند ، وكيف أن حركة أخرى أنشأت مستعمرتى كونكتيكت ونيو هافن التوأمين اللتين اندمجتا فيما بعد فى وحدة . وانتشرت مجموعة ثالثة من البيوريتان شمالاً إلى مين ونيو هامبشاير ، وكانتا منطقتين استحل تملكهما أصلاً معمرون من غير البيوريتان ، وسرعان ما سيطر عليهما البيوريتان . ولم يحن عام ١٦٥٠ حتى كانت مساشوستس تفرض سيطرتها السياسية على المستوطنات فى مين ونيو هامبشاير ، بيد أن أولاهما صارت فى أواخر القرن مقاطعة ملكية منفصلة . وكان مقدراً لهذه الصفة التوسعية لنيو إنجلاند أن تستمر جيلاً بعد جيل ، وأن ترسل موجة إثر موجة من نسل البيوريتان للتوغل غرباً حتى وصلوا إلى المحيط الهادى .

ولقد ظلت نيو إنجلاند طيلة عهد الاستعمار محتفظة بتجانس أصل سكانها إلى درجة ملحوظة ، إذ كان سكانها السبعمائة ألف ، عند قيام الثورة ، من أصل إنجليزى قح تقريباً . فكانوا بوجه عام سواء فى اللغة ، والطباع ، والتقوى ، وطرق التفكير ، لا يشذ عن ذلك إلى حد ما ، سوى رود آيلاند الصغيرة ، إذ أن المتطرفين السياسيين والجماعات الكنسية المنشقة خلعوا عليها طابعاً خاصاً . ولقد انبعث اليانكى [1] فى الأغلب من أصل إنجليزى ذى قوة واستقلال وذكاء رائع ، وقد نشأوا على الفخر الشديد بأصلهم . وقد تناثرت هذه النخبة المنتقاة كما وصفها أحد القادة ، لتزرع البرارى المقفرة . فكان الذين يفلحون الأرض أو يصيدون أسماك البحار يهيئون لأنفسهم عيشاً رغيداً ، فى حين أن التجار وأصحاب السفن وصغار أصحاب المصانع يجمعون فى أكثر الأحيان ثروات صغيرة . ولم تحن سنة ١٧٧٠ ، حتى كانت التجارة الخارجية لبوسطن وحدها تستخدم ستمائة سفينة . أما مصائد الأسماك فى مساشوستس ، فكانت مصدر صادرات كبيرة إلى أوربا وجزر الهند الغربية قدرت قيمتها بحوالى ٢٥٠٠٠٠ ١ دولار سنوياً . فكان ثمة

(١) Yankee : اسم اصطلاحى تقليدى أطلق على أبناء (نيو إنجلاند) ، ثم اتسع فأصبح يطلق على أبناء الولايات المتحدة الأمريكية عامة ــ المترجم .

مبـرر قـوى لجعـل سمـك الـقُـدّ شعـاراً ورمـزاً للدويلـة . وكـانت معـظـم بيـوت نيو إنـجـلانـد تحظى بكفـاية ذاتيـة : ينسـج أهلهـا ثيابهم ، ويستنبتـون ويربـون غـذاءهم ، ويصـنعون أثـاثهم وأحذيتهم . فكـانت أبرز سمـات اليـانكى الكـد ، والاقتصـاد ، والإقـدام الـدءوب ، وحـداً ضـيقـاً من التقـوى . وإذا لم يكن القـوم يحـظون بكثير مـن الحب فى القطـاعات الأخـرى ، فإنهم كانـوا يلقـون الاحترام فى كل مكـان .

وكـانت كل من الكنيسة والمدرسة تحتل مكانة محترمة ، خاصة فى نيو إنجلاند . فكـانت كافـة المجتمعـات البيوريتانية تتطلع إلى قسيسها كمرشد ثقافى كما أنه مرشد دينى ، وإلى قاعـة الاجتـمـاعـات بالكنيسـة لإجـراء القسط الأوفـر من مداولاتهم الاجتماعية . وكـان رجـال الكنيسـة أقوياء قادرين على النضال ، أكفاء لا فى العلم وحده ، بل فى قيادة الجماعة كذلك ، فكانوا موضع تبجيل من أتباعهم . وكانوا يلقنون النـاس التعـاليم الخاصة بموجبات اللعنة وغضب الله بأسلوب قوى التأثير ، فكانت الصور الوصفية التى كتبها جوناثان إدواردز للآثمين وهم يتلوون من آلام العذاب فى جهنم ذائعة ، وقد قال جون كوتون إنه كان يجب أن يرطب فمه بفقرة من تعاليم كالفين الصارمة قبل أن ينام كل ليلة . على أن رجال الكنيسة كانوا مضطرين لأن يكونوا ذوى سلطان ، واستقامة ، وسعة اطلاع . فكانوا متفقهين فى اللاهوت واللغات القديمة . وكان رئيس جامعة هارفارد المدعو تشونسى يطلب أن يقرأ « العهد القديم » عليه باللغة العبرية فى الصباح ، و« العهد الجديد » باللغة اليونانية بعد الظهر ، ويعلق عليهما باللغة اللاتينية . ومن المحتمل أن كثيرين من القساوسة ورجال الدين كانوا على غراره . ولقد حرص البيوريتـان من البـداية على تخصيص الأموال للتعليم العام . ذلك لأن تقدم التعليم ، وكفالة استمراره للنسل ، من الأمور التى كنا نصبو إليها ، ونعنى بها ، كراهية منـا لأن نخلف للكنيسـة أبرشية أمية ، عندما يقدر لقساوستنا الحاليين أن يرقدوا فى التراب ، كما ينبئنا مؤلف « الثمار الأولى لنيو إنجلاند » . ولقد افتتحت مدرسة بوسطن اللاتينية فى سنة ١٦٣٥ ، فلما كان العام التالى « شاء الرب أن يحرك قلب شخص يدعى السيد هارفـارد ، فيجود بنصف ضيعته لإنشاء كلية ، وبكل مكتبته » . ثم أصدرت المحكمة العامة فى مساشوستس ، فى سنة ١٦٤٧ ، قانون « أيها الشيطان الغرور منذ القـدم » مطالبـاً كل بلدة تضم خمسين أسرة بأن تنشىء وتعول مدرسة أولية ، وكل مدينة

تضم مائة أسرة بأن تقيم مدرسة متوسطة [١] . وسرعان ما سنت كونكتيكت قوانين مشابهة . ومع أن هذه القوانين الخاصة وما أعقبها لقيت تهرباً ومراوغة ، فمن المحتمل غالباً أن التعلم ومعرفة القراءة والكتابة كانا أوسع انتشاراً فى نيو إنجلاند منهما فى أى مكان آخر فى عالم القرن السابع عشر .

ومع مرور الزمن ، تخففت حياة نيو إنجلاند من صرامتها بشكل سار . فإن المصالح الحرفية والتجارية الناهضة لم تجلب الثراء وحده ، بل جلبت آراء جديدة كذلك . فقد ازداد عدد المحامين والأطباء وغيرهم من الحرفيين . وفى مساشوستس وكونكتيكت ظلت عطلة السبت [٢] موضع مراعاة متزمتة ، بادئة من الساعة السادسة من يوم السبت حتى غروب شمس يوم الأحد ، فلا يباح سفر ، ولا يجوز لحانة خدمة زائر ، وكانت الألعاب تحرم ، بل قد يلقى القبض على ثلة من الناس إذا تجمعوا فى الطرقات ليتبادلوا الكلام . بيد أن التزمت لم يحل دون وفود أنماط جديدة فى الأزياء ، مثل الشعر المستعار ، وأدخل أتباع الكنيسة الإنجليكانية مرحاً فى الاحتفال بعيد الميلاد ، وبدأت السياسة واكتساب المال بالمقامرة ، وممارسة الهوى ، وإقامة المآدب الحافلة بالمأكولات تحتل دوراً معترفاً به جهاراً فى الحياة .

ويوميات صمويل سيوال وثيقة تتيح صورة لا تبارى للانتقال العظيم من النظام القديم للنظام الجديد فى مساشوستس . وقد تخرج سيوال فى هارفارد سنة ١٦٧١ ، وبدأ بعد أعوام ثلاثة تسجيلاً للحياة واظب عليه حتى سنة ١٧٢٩ . كان هذا البيوريتانى المتزمت فى الحفاظ على القديم ، والذى أصبح كبيراً للقضاة ، يستمرىء قدحاً من النبيذ ، ونزهة فى مركبته ، ولكنه كان يكره كل مستحدث . وإذ نقرأ أجزاء يومياته الثلاثة ، تتمثل أمامنا رؤية كثيرة الألوان . فنرى مدينة بوسطن الصغيرة ، متينة البيان على رقعة ضيقة من الأرض بين تلال ثلاثة ، بأبراجها ، وحصنها ، والمرفأ المزدحم بالنشاط الملاحى . ونسمع الحارس يرفع عقيرته مؤذناً بالساعات ، والمنادى العام يقوم

(١) Grammar School : مدرسة تجمع بين المرحلتين الابتدائية والثانوية ، فهى وسط بين الأولية والعليا أو الجامعة ــ المترجم .

(٢) الأصل فى عطلة السبت أنها عطلة دينية يهودية يحرم فيها على المرء ممارسة أى عمل ، وتبدأ من غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت ، ولكنها اتخذت شكلاً آخر فى أمريكا ورد شرحه فى العبارات التالية ولم تعد تشمل يوم السبت ، بل كانت تبدأ عند غروب شمس ذلك اليوم ــ المترجم .

بجولاته . ونحس بالقشعريرة التى تسرى فى المدينة عندما تفد أنباء القراصنة عند الساحل ، أوعن تأهب الكونت دو فرونتناك للانقضاض على نيو إنجلاند بقواته من الفرنسيين والهنود . ونرى أهل المدينة يطاردون الأبقار الشاردة ، كما فعل سيوال نفسه « من أول المدينة إلى آخرها » ، ونراهم يتجمعون لمناقشة الترشيحات للمجلس ، ونراهم يتدفقون لتلك التسلية المحببة إليهم ألا وهى الجنازة . وعندما يتجمد الجليد فى المرفأ حتى جزيرة كاسل نرتعش مع رواد الكنيسة المساكين ونحن نسمع الخبز المقدس المتجمد « إذ يحدث رنيناً كاسفاً وهو يسقط فى الأطباق » . ويستشرى مرض الجدرى فى المدينة . والمواليد كثيرون ، فكل زوجة صالحة فرع مثمر ، ولكن وفيات الأطفال تحفظ التوازن . ونتمثل يوم التدريب العسكرى موضع احتفال عام ، والمدفعية العريقة والمكرمة وغيرها من الفرق فى أبهى أزيائها الرسمية ، وإطلاق النيران والهرج الطروب ، وعلية القوم سادة وسيدات يتناولون الغداء فى خيام ضربت على الحشائش . وننظر إلى الجنود ذوى السترات الحمراء (الجنود البريطانيين) فى استهجان ، ونسمع فى استنكار أن الحاكم الملكى أقام حفلاً راقصاً فى قصره امتد حتى الثالثة صباحاً . وننضم إلى الحشود الذاهبة إلى تل بروتون لمشاهدة الأشرار وهم يشنقون . ونرى رجال الشرطة وهم يفرقون حلقات لعبة القوارير [1] على تل بيكون ، أوجبل الدعارة كما كان يسميه البيوريتان الساخطون ، ونشاهد سيوال على صهوة جواده ، يجوس خلال تشارلستون أوبوسطن ــ بوصفه قاضياً ــ عند غروب شمس يوم السبت ، آمراً بإغلاق أبواب الحوانيت . ولكنا نرى التزمت البيوريتانى ينحسر رويداً رويداً أمام العصر الحديث .

كانت الجريمة والإملاق أندر فى نيو إنجلاند المزدهرة النشاط ، المستتبة النظام منها فى المستعمرات الأخرى . ولم يكن الخدم المقيدون بعقود للعمل لفترات محددة مقابل نقلهم عبر المحيط إلى أمريكا معروفين فى البداية ، ولكنهم انتشروا فى القرن الثامن عشر ، وقد تبينوا هم وغيرهم من الكادحين أن من السهل الحصول على استقلالهم . وتضاءل الرق اللهم إلا فى رود آيلاند . وكان نظام حكم المدينة يعزز الاعتماد على النفس ، فكل الشؤون العامة تعالج فى اجتماع للمدينة يتسم بتساوى الأصوات . وقدر لبوسطن ونيو هافن والمراكز الكبيرة الأخرى أن تضم عديداً من الأرستقراطيين ذوى

(١) تسع قطع خشبية على شكل قوارير ، تقف منتصبة ، وعلى اللاعب أن يدحرج كرة فيوقع أكبر عدد منها ــ المترجم .

البيوت الفخمة ، وشعارات النبالة ، واللوح المعدنى الحامل لرمز المكانة ، فى حين أن تعدد الطبقات كان حقيقة واقعة وظاهرة . على أنه لم يتح لعامة الناس فى أى مكان فى العالم أن يظهروا احتراماً للذات يفوق رزانة ما كان يبديه العامة هناك .

المستعمرات الوسطى

أوتيت المستعمرات الوسطى مجتمعاً أكثر تبايناً وتعداداً للعناصر وتسامحاً ، من مجتمع مستعمرات نيو إنجلاند بكثير ، كما أنه كان أقل رقياً ، وإن كان كذلك أقل تزمتاً . وكانت بنسلفانيا وشقيقتها ديلاوير تضم حوالى ٣٥٠٠٠٠ عند قيام الثورة ، ولم تكن نيويورك ونيوجيرسى تضمان معاً أقل من هذا العدد . وكانت الكثرة الغالبة من الناس هناك ، كما فى أى مكان من أمريكا ، تعتمد فى عيشها على الأرض . فأخذ أصحاب الأراضى فى أفضل أجزاء هذه الأقاليم يثرون بسرعة . وكانت مزارع الكويكر فى بنسلفانيا مثلاً تزدهى ببيوت كبيرة من الطوب ، ذات حجرات مكسوة الجدران بالخشب أو الورق ، وأثاث ضخم الحجم ، وأدوات خزفية وزجاجية جيدة . وكانت الموائد التى اعتاد المزارعون وخدمهم أن يتناولوا غذاءهم عليها تئن لوفرة الأطعمة البسيطة ، وإن كانت متنوعة . وكان اللحم ــ النادر فى أوربا ــ يؤكل ثلاث مرات يومياً . وبلغ من سرعة ازدياد الآلات الزراعية أنه لم تحن سنة ١٧٦٥ حتى كانت بنسلفانيا تتيه بتسعة آلاف عربة . وكانت الزراعة فى المستعمرات الوسطى أكثر تنوعاً منها فى القطاعات الأخرى ، فكانت هناك أنواع متباينة من الغلال والخضر وبساتين الفواكه البديعة ، وكافة أنواع الدواجن ، كما كان كثيرون من أصحاب الأراضى يمتلكون بركاً خاصة بهم لصيد الأسماك . وكان وادى هدسن مجمعاً فى ضياع واسعة لعائلات فان رينسيلير ، وكورتلانت ، وليفنجستون ، وغيرهم من الأرستقراطيين الذين أوتوا بيوتاً هائلة وجحافل من الخدم ، والذين كان لدخولهم السنوية من تأجير أراضيهم صفة إقطاعية . بيد أن لونج آيلاند وأعالى نيويورك كانتا زاخرتين بالمزارع الصغيرة كذلك .

وكانت بنسلفانيا ونيويورك تضمان إلى جانب المشتغلين بالزراعة عدداً مطرد الازدياد من التجار وأصحاب الحرف والميكانيكيين . وكانت حرفة النقل واسعة المجال وفيرة

الربح ، مخصصة فى المقام الأول لتصدير الخشب والفراء والغلال وغيرها من المنتجات الزراعية ، واستيراد المصنوعات ، والسكر ، والخمور . ولقد شقت طريقها إلى خارج خليج ديلاوير ـ قبيل الثورة مباشرة ـ حوالى خمسمائة سفينة ، عليها ما يزيد على سبعة آلاف بحار . فى حين أن خليجى هدسن ولونج آيلاند كانا زاخرين بحركة الملاحة . ولقد أصبحت كل من فيلادلفيا ونيويورك مركزاً كبيراً لتوزيع تجارة الداخل . وكان من طرق الإثراء إرسال الغلال والأسماك المجففة إلى جزر الهند الغربية ، لتعود السفن بالرقيق ودبس السكر (العسل الأسود) . ومن تلك الطرق كذلك إرسال الفراء من ألبانى لتستبدل بها المنسوجات الرقيقة ، أو الأوانى الصينية أو الأثاث من لندن . وانتشرت فى بنسلفانيا ونيو جيرسى أفران صهر الحديد ، فأدى تصدير المنتجات الحديدية إلى أن يصدر البرلمان الإنجليزى قانوناً لوقف انتشار مصانع الحديد . وكان أهل نيويورك يصنعون الزجاج والقبعات اللبادية ، بينما تخصص أهل رودآيلاند فى صنع الروم . وبازدياد الثروة ازداد عدد أصحاب المهن ، وتوصل محامو المدن الرئيسية إلى الزعامة السياسية ، وساهموا بقدر ما ساهمت أية فئة من الناس فى قيام الثورة .

وكان من الممكن أن نجد فى نيويورك ، بل فى فيلادلفيا المحافظة ، مجتمعاً أكثر اختلاطاً وصقلاً مما فى نيو إنجلاند . فإن التجار والمشتغلين بالملاحة كانوا يقيمون حفلات بهيجة وراقية ، نظراً لاتصالهم الوثيق بأوربا . وعندما توقف جون آدامز فى نيويورك ، وهو فى طريقه إلى فيلادلفيا ، بُهر بفخامة البيوت ، وأدوات المائدة الفضية الراقية ، وألوان الطعام المتقنة والبذخة . وكانت هذه المدينة تتيه بمنتدياتها ، ومراقصها ، وحفلاتها الموسيقية ، وحدائف اللهو فى الهواء الطلق ، والمقاهى ، والمسرحيات التى تعرض فى حفلات خاصة ، والجنازات التى كانت تتكلف أحياناً عدة آلاف من الدولارات . وكان الهولنديون يبدون تذوقاً لأيام العطلات والراحة اكتسبه عنهم الانجليز تدريجاً . فأصبح الأثرياء يرتدون أحدث أزياء لندن ، من حرير ومخمل ، والشعور المستعارة الموشاة بالمساحيق (البودرة) ، وسيوف المبارزة (الشيش) . وساعد اختلاط الطوائف والعناصر على رواج الآراء بسرعة . وكانت فيلادلفيا بطرقاتها الواسعة ، وأرصفتها المعنى بنظافتها ، تتمتع بأناقة أهدأ . بيد أنها كانت محط الانتباه بسبب مؤسساتها العامة ـ لاسيما الكلية والجمعية الفلسفية الأمريكية ـ كما أنها بثت تلك الدراسات العلمية التى اكتسب فيها فرانكلين وبنجامين رش ، والعالم النباتى وليم

برترام مكانة ممتازة . وبوصفها أكبر مدينة فى المستعمرات فقد كانت نظيفة ، عامرة ، مثرية . فبدت لتوماس جيفرسون أشد تأثيراً على النفس من لندن وباريس . وما كان جيفرسون بحَكم يستهان به . ولقد ازدادت التعاليم الدينية تحرراً فى نيويورك ، حتى إن رجال الكنيسة أخذوا يشتكون من « التفكير الحر » ، فى الوقت الذى أثارت فيه السياسة من التحمس فى هذا الإقليم أكثر مما أثارت فى أى مكان آخر فى أمريكا البريطانية . ولقد كان الرأى فى بنسلفانيا ، التى سيطر عليها الكويكر أكثر ميلاً للطابع المحافظ ، بيد أن مكانة الكويكر العالية فى السياسة اهتزت بعنف ، قبيل الثورة ، على أيدى الألمان والاسكتلنديين والأيرلنديين .

ولقد أضاف عدد كبير من السكان الزنوج لوناً جديداً للحياة فى كافة أرجاء المستعمرات الوسطى . وكان الكويكر شديدى العداء للرق ، وقد أنجبوا فى أواخر عهد الاستعمار زعيماً معادياً للرق ذا شهرة عالمية . . « تلك النفس الجميلة » ـــ كما وصفه لام ـــ جون وولمان . كذلك لم يزدهر الرق بين الاسكتلنديين والأيرلنديين ولا الألمان الذين كانوا يمارسون أشق الأعمال بأيديهم . بيد أنه كان شائعاً فى المدن ، وفى الضياع القائمة على نهر هدسن . وبوجه عام ، كان للحياة فى المقاطعات الوسطى طابع أوفر وأوسع مما كان لها فى نيو إنجلاند . وكان المناخ ، والتربة ، والقوم ، أكثر اعتدالاً وكرماً . فما كان فى الشمال شىء يضارع عيد رأس السنة فى نيويورك ، حين كانت المدافع تنطلق بالتحية فى الفجر ، وكان علية القوم يجوسون خلال المدينة ، يتزاورون ، ويتناولون الحلوى ، ويشربون من النبيذ والكحوليات ما يدعو فى كثير من الأحيان إلى نقلهم إلى بيوتهم فى المركبات . وما كان ثمة شىء يشبه الاستقبال الذى كانت نيويورك تقيمه لحاكم جديد يعينه الملك ، من حيث الأبهة والاحتفاء ، ولا ما يشبه الاحتفال الذى كان يقام فى إحدى الضياع عند زواج الابن الأكبر لصاحبها .

المستعمرات الجنوبية

وكانت للمستعمرات الجنوبية ، لاسيما فيرجينيا وكارولينا الجنوبية ـــ وهما أغناها وأوفرها نفوذاً ـــ ثلاث صفات مميزة ، هى : الطابع الريفى الشامل تقريباً لحياتها ـــ فكانت

تشارلستون وبلتيمور هما المدينتين الوحيدتين اللتين أوتيتا أية أهمية ــ والمكانة البارزة التى احتلتها الضياع الشاسعة ــ بجيوش العبيد والقصور المهيبة وبذخ المعيشة ــ وانقسام المجتمع إلى طبقات ذات مستويات مميزة . فبين البيض ، كانت الطبقة العليا تتألف من أصحاب المزارع الموسرين والأرستقراطيين فى الغالب ، الذين كانوا يوفرون زعامة سياسية ذات كفاءة فذة . وكانت الطبقة الوسطى مؤلفة من أصحاب المزارع الصغيرة ، والمزارعين ، وقلة من التجار وأصحاب المصانع والميكانيكيين . أما الطبقة الدنيا فكانت من العامة و« فقراء البيض » . وتحت هذه الطبقات الثلاث ، كان ثمة العبيد الذين لم يكن عددهم يقل فى فيرجينيا ، حوالى سنة ١٧٧٠ ، عن نصف مجموع السكان الأربعمائة والخمسين ألفاً ، وفى ميريلاند عن ثلث السكان الذين بلغوا حوالى مائتى ألف ، وفى كارولينا الجنوبية ما يتجاوز عدد السكان البيض ، بمعدل ٢ إلى ١ .

وكان انتشار السكان فى مساحات شاسعة (عدم تكاثفهم) ناجماً ، من ناحية ، عن نظام المزارع ، إذ كانت كل ضيعة من الكبر بدرجة تمكنها من الاكتفاء الذاتى ، ومن ناحية أخرى عن نفور الجنوبيين من المدن . وكان كبار أصحاب الأراضى الذين تمتد مزارعهم على الأنهار المتصلة بالمحيط ، يمارسون تجارة مباشرة مع انجلترا أو مع المدن الشمالية ، دون احتياج إلى تجمع تجارى كبير . ولقد ضعضع الرق شبكة للصناعات اليدوية حتى أزهقت الحياة الحرفية تقريباً . وعبثاً أخذت فيرجينيا تصدر القوانين التى تهدف إلى خلق مدن كبيرة . . ومنها ، على سبيل المثال ، قانون يلزم كل مقاطعة بإقامة دار تمثلها فى وليمسبيرج . وكانت نورفولك هى أكبر مركز عمرانى فى المستعمرة ، عند قيام الثورة ، وبها حوالى سبعة آلاف نسمة ، فى حين أن وليمسبيرج لم تكن تضم سوى مائتى بيت متناثرة . ولقد كتب الكولونيل بيرد عن فردريكسبيرج ، نحو سنة ١٧٣٢ ، فقال إنها لم تكن تضم بجانب « صاحب السلطة فى المكان » سوى « تاجر واحد ، وخياط ، وحداد ، وبدال عادى ، وسيدة تقوم بعمل طبيبة وصاحبة مقهى فى آن واحد » . وكان الأمر ذاته فى كل مكان آخر فى الجنوب تقريباً . فكانت تشارلستون قبيل الثورة مجرد بلدة ريفية الشكل تضم خمسة عشر نسمة ، نصفهم من الزنوج ، وذات طرقات رملية غير مرصوفة . أما بلتيمور فكانت ميناء فجاً تقريباً ، فى حوالى حجم تشارلستون ، تعتمد على اتجارها فى المنتجات الزراعية المستجلبة من « الريف الداخلى » . وكان للافتقار إلى المدن عواقب غير طيبة . أما من حيث الصحف فقد

كانت لبوسطن صحيفة من عهد مبكر يرجع إلى سنة ١٦٩٠ ، بيد أن صحيفة « فيرجينيا جازيت » لم تظهر قبل سنة ١٧٣٦ . ولم تكن ثمة عروض مسرحية تؤديها فرق محترمة فى فيرجينيا حتى وقت متأخر خلال سنوات الثورة الخمس والعشرين ، وقد أثار الشكوى بين القادة بعيدى النظر اعتماد القطاع ذى الاتصال بالمحيط على أرجاء من الإمبراطورية أكثر إقبالاً على المشروعات التجارية والصناعية ، للحصول على كل سلعة مصنوعة . . حتى المكانس ، والمقاعد ، والمعازق الزراعية ، والأوانى الفخارية .

وكانت المزارع الكبيرة فى ميريلاند وفيرجينيا وكارولينا الجنوبية متناثرة فى الأراضى المنخفضة على نهر أو « مجرى مائى » بوجه عام ، يكفل إمكانيات النقل المائى . وكان لكل منها قصر عائلى من الطوب أو الحجر عادة ، ومخازنها ، وحانوت للحداد ، وورشة لصنع البراميل ، وغير ذلك من البنايات الإضافية ، وأكواخ متناثرة فى غير نظام لسكنى الزنوج . ولقد كان الكثير من البيوت الكبيرة ذا تصميم جميل وكمال فى البناء ، مثل قصر فاونتين روك للجنرال رينجولد ، وويستوفر لوليم بيرد ، وغنِستُن هول لجورج ماسون ، وقصر ضيعة جون رتليدج بالقرب من تشارلستون . . فكانت فى داخلها أبهاء مبطنة الجدران بالخشب ، ودرج بديع ، وحجرات واسعة . وكانت خير البيوت تضم أثاثاً أنيقاً من خشب الماهوجانى ، صنع بعضه فى أمريكا ، ولكن أغلبه استورد من إنجلترا ، وفيها أطقم من الأوانى الفضية الثقيلة تحمل علامات صناع لندن ، وستائر من الحرير والمخمل ، ولوحات بديعة لأفراد الأسرة ، ولوحات محفورة (وكانت لوحات الفنان هوجارث ذات حظوة أولى) ، ومكتبات ليست بالصغيرة ، فكان روبرت كارتر صاحب قصر نومينى هول مثلاً يقتنى ما يزيد على ألف وخمسمائة كتاب ، كما كان لدى وليم بيرد الثالث ما يزيد على أربعة آلاف . كذلك كان لكثرة كبيرة من أصحاب المزارع بيوت فى آنابوليس ، أوليمسبيرج ، أو تشارلستون ، ينزحون إليها فى مركبة الأسرة فى كل خريف ، لحضور موسم حفلات الرقص ، والعشاء ، ولعب الورق ، والسباق ، وألوان النشاط فى الهيئة التشريعية . وكان أصحاب المزارع ــ فى مجموعهم كطبقة ــ يتعرضون للاتهام بالكسل . بيد أن العناية السليمة بالمزارع الكبيرة كانت تتطلب الكثير من الجهد البدنى والذهنى . فكان واشنطن يعمل جاهداً فى الإشراف على ماونت فيرنون ، بينما كان روبرت كارتر ، سيد ضيعة نومينى ، فى شغل لا ينقطع ، إذ كانت ممتلكاته تشتمل على ستة آلاف دونم متناثرة فى أرجاء فيرجينيا ، ومصنع للمنسوجات ، ونصيب فى مصنع

للحديد ، وعدد من المناجم وورش الحرف اليدوية . كذلك كان أصحاب المزارع متهمين بالافتقار إلى الميول الذهنية ، بيد أنهم أولوا السياسة اهتماماً حاراً ، وشغلوا معظم المناصب التى ينتخب من يتولونها ، وكانوا يتحدثون ويكتبون فى مسائل الحكم بمقدرة خارقة ، ولقد شغف منهم بالعلم عدد يدعو إلى الدهشة ، ووفقوا فى أن يُنتخبوا للجمعية الملكية .

أما أصحاب المزارع الفلاحون الأقل شأناً فى الجنوب ، فكان خير مثال لهم هو بيتر ، والد توماس جيفرسون ، الذى ظفر بأرض رخيصة عند الحدود الغربية للعمران نتيجة العمل فى مسح الأراضى ، وساعد على تمهيدها للزراعة بنفسه ــ كانوا أهل عمل جاد ، وذكاء ، وحسن تدبير . فأزالوا القفر ، وشيدوا منازل متواضعة ، واكتسبوا ثروة . وحرث كثير منهم مساحات واسعة بمعونة العبيد ، كما تزوج بعضهم من بنات الطبقة الأرستقراطية ، كما فعل بيتر جيفرسون . كانوا عنصراً قوياً ، ذا اعتماد ذاتى واستقلال فى الطبع ، وذا إصرار على الاحتفاظ بحرياتهم البريطانية . وإذا أعوزهم الصقل والتعليم ، فإنهم أوتوا الكثير من قوة الإدراك ، وأنجبوا زعماء سياسيين لامعين ذوى آراء ديمقراطية ، مثل جيفرسون ، وجيمس ماديسون ، وباتريك هنرى . والواقع أن الفوارق بين الطبقتين العليا والوسطى فى الجنوب أخذت تزداد إبهاماً ، كما أن التزاوج بينهما أفضى إلى اندماجهما . ولقد شهد القرن الثامن عشر ، فى ميريلاند بوجه خاص ، اتجاهاً شديداً لتفتيت الضياع الكبيرة المضنية إلى مزارع صغيرة ذات كفاءة . وكان التجار والمحامون فى مستوى أدنى نوعاً ما من أصحاب الأراضى ، فى حين أن أصحاب الحوانيت ظلوا أجيالاً يحظون بما كانت تلقاه طبقتهم فى انجلترا من تعاطف . وكانت مجتمعات التجارة والمشروعات ــ مثل بلتيمور ونورفولك ــ على صعيد أقل بدرجة ظاهرة من مجتمعات عواصم المستعمرات . بيد أن المضاربة على الأراضى ازدهرت بين أفضل الأوساط فى الجنوب والشمال على السواء . ولقد أنشأ وليم بيرد الثانى ولاية ريتشموند فى سنة ١٧٣٧ ، بأن قسم ضيعة فى أعالى نهر جيمس وباعها قطعاً للبناء تؤلف مدينة .

وكان أدنى مستوى أبيض للمجتمع فى الجنوب مميزاً بخطوط واضحة . فإن بعض المسجونين السابقين ، والمدينين الذين سرحوا من السجن حيث كانوا قد أودعوا لعجزهم عن تسديد ديونهم ، والخدم المقيدين بالخدمة فترة لقاء نقلهم عبر المحيط ، ممن جاءوا من أوربا . . كل هؤلاء تداعوا تحت ظروف الحدود وكونوا هيئة أمية ، مبتذلة ، خاملة ،

تلقى ازدراء حتى من الزنوج . والواقع أنه ما كان الهوان محتوماً على الخدم المقيدين ، فإن كثيراً من المهاجرين ذوى الخلق الرفيع دفعوا نفقات انتقالهم إلى أمريكا بالتقيد بعقد للخدمة فترة . وكان منهم حرفيون إنجليز وأوربيون ــ من نجارى الأثاث ، والخياطين ، وصاغة التحف الفضية ، وصناع المجوهرات ، وصناع البنادق ومن إليهم ــ فكان من الممكن أن يتيحوا للجنوب درجة من التصنيع أكبر بكثير مما توفر فيه ، لولا الانتشار السريع للرق . وكم من رجال ذوى مكانة أفلتوا من سجن فليت بلندن بفضل الهجرة الميسرة بالمساعدة . وكثيراً ما كان المسجونون ينقلون إلى أمريكا لأتفه المخالفات ، وكان بعض البريطانيين يقدمون فى أوقات المحن على ارتكاب جرائم صغيرة ليرسلوا عبر البحار . فإذا ما وصلوا كان وقتهم يباع لمن يدفع الثمن الأعلى . ومع ذلك فقد اكتسب الجنوب عنصراً كبيراً من القوم الميالين للغلظة ، غير المقدامين على عمل ، والمشاغبين الذين صاروا مزارعين كسالى ، ومواطنين فقراء . وما لبث العلم أن كشف أن المناخ ، ونقص التغذية ، وديدان الإنكلستوما أشد أثراً من العيوب الكامنة فى خلق الخمول والشراسة . كذلك هبط استخدام العبيد بالعمل اليدوى إلى درجة الازدراء . وفى الكتاب الذى سجل فيه وليم بيرد خواطره ومشاهداته فى بعثة لمسح الأراضى « تاريخ الخط الفاصل » ، وصف فيه مبالغة فكهة لهؤلاء المشردين من أهل الريف ، القانعين بخشن العيش ، المعادين للقانون والضرائب والكنيسة الرسمية ، المشغوفين « بمتعة الكسل والبطالة » .

وكان العبيد الزنوج يستجلبون فى الغالب من الساحل الغربى لأفريقيا ، من سنغامبيا فى الشمال ، إلى أنجولا فى الجنوب . وبعد ختام القرن السابع عشر ، عندما انتهى احتكار الشركة الأفريقية الملكية ، انتقلت تجارة الرقيق إلى أيدى مجموعة كبيرة من الشركات والأفراد ، أمريكيين وبريطانيين على السواء . وكم من ثروات قامت فى بوسطن ، ونيويورك ، ونيوبورت ، وموانىء الجنوب على هذه التجارة . ولعل أكثر أسواقها رواجاً هى التى كانت تعقد فى تشارلستون ، حيث كان يتزاحم عدد كبير من الشركات . ولقد كتب هنرى لورنز ، الذى برز فى هذه التجارة بعض السنين فيما بعد ١٧٥٠ ، أن أصحاب المزارع كانوا يفدون من مسافات طويلة ، ويقدمون بتحمس ما يصل إلى ٤٠ جنيهاً إسترلينياً مقابل الشباب من الزنوج . وبينما كان العبيد يباعون عادة فى الشمال من المستجلبين إلى المشترى مباشرة ، ونقداً ، كانوا كثيراً ما ينتقلون فى

الجنوب جماعات إلى التجار وغيرهم من الوسطاء الذين كانوا يبيعونهم بالمقايضة ، مقابل التبغ أو الأرز أو النيلة . وكان رقيق الحقول يلبسون ملابس خشنة ، وينزلون فى أكواخ حقيرة ، ويمارسون أشق العمل فى الحقول تحت إمرة ملاحظين قساة القلوب . أما خدم البيوت فكانوا يحظون بمعاملة أكرم . وسرعان ما أصبح الخلاسيون [١] أعداداً كبيرة فى الشمال والجنوب على السواء . وبازدياد العبيد فى الجنوب ، قل العثور على خدم مقيدين أو عمال من البيض فى مزارع التبغ أو الأرز الكبيرة .

ومن الجلى أن نيو إنجلاند والسهول المنخفضة فى الجنوب كانا جد مختلفين ، فى حين أن المستعمرات الوسطى أوتيت سمات من كل منهما . ولم تأخذ نيو إنجلاند إلا بنظام المزارع الصغيرة ، أما فيرجينيا الواطئة ، وكارولينا الجنوبية ، وجورجيا ، فأخذت بنظام المزارع الكبيرة . وكان الناس فى نيو إنجلاند يعملون بأيديهم ، فى جو يحفز على العمل . أما فى فيرجينيا فكان العمل الشاق تحت الشمس الحامية تقوم به فرق من العبيد يسوقهم الملاحظون . وكانت الممتلكات الصغيرة ، والمساحات المترامية من الأراضى الخالية تشجع الآباء فى نيو إنجلاند على تقسيم ضياعهم بين أولادهم بالتساوى . أما فى الجنوب ، فكانت الضياع الكبيرة ، التى يعمل فيها العبيد ، نادراً ما يتسنى تقسيمها دون خسائر اقتصادية ، فكان الناس يحافظون على تماسكها بقانونى توريث الابن الأكبر ، والوقف . وكان الناس فى نيو إنجلاند يتجمعون فى قرى متقاربة الأطراف حفاظاً على أبرشيات كنيستهم ، أما فى معظم الجنوب ، فلم يكن للأبرشيات شأن يذكر ، فكانت المزارع تترامى على أبعاد شاسعة ، حتى إن قيام القرى كان مستحيلاً . وبينما كانت المدينة هى الوحدة الطبيعية للحكم فى نيو إنجلاند (وإن كانت المقاطعات قد أنشئت) ، فإن المقاطعة كانت أهم وحدة فى الجنوب . ومع أن القاعدة العامة فى نيو إنجلاند هى أن تختار الناس الموظفين ، المحليين فإن بعض هؤلاء فى الجنوب كانوا يعينون من قبل السلطات الإقليمية ، وكانت الصفوة الأرستقراطية تختار البعض . ولم يكن أبناء الأبرشيات ينتخبون أعضاء مجالس كنائسهم مثلاً ، وإنما كان هؤلاء هم الذين يختارون خلفاءهم . ومع أن البيوريتان لم يكونوا متزمتين ، متطرفين ، عزوفين عن المتع كما يوصفون أحياناً ، فإنهم غالباً ما كانوا متشددين فى إرضاء ضمائرهم وترويض

(١) الخلاسى أو المولد ، هو المولود من أبوين أحدهما أبيض والآخر زنجى .

أنفسهم . أما الجنوبيون فكانوا أكثر إشراقاً وتحرراً ، وأكثر حباً للهو . وكانت المستعمرات الوسطى تقف بين الفريقين ، فى كثير من الاعتبارات .

ومع ذلك فإن التجمعات الاقتصادية والاجتماعية أخذت تتشكل فى قطاعات عرضية ، مع انطواء القرن الثامن عشر ، وازدياد الثراء ، وزيادة تعقد المجتمع وتراكبه . فكان التشابه كبيراً بين تجار تشارلستون وبورتسماوث ونورفولك وبوسطن ، من حيث أن مكاتبهم كانت حافلة بالمستخدمين ، ومن حيث علاقاتهم بلندن وبريستول وجزر الهند الغربية والساحل الإفريقى ، ومن حيث بيوتهم الأنيقة الغنية بالأثاث الماهوجانى ، والأوانى الفضية ، والمرايا التى كانت تكسو الجدران . وكان الفرد من آل لورنز والفرد من آل هانكوك يتآلفان كل مع الآخر على الفور . وكان التشابه كبيراً بين ميكانيكيى الموانىء البحرية ، من كاروليـنا إلى مساشوستس ، بما لهم من غلظة ، وصخب ، وامتلاء نفوسهم بالوعى الطبقى المتطرف ، واستعدادهم لأن ينسابوا من حاناتهم فى تجمهرات غوغائية عند أتفه استفزاز . وكان صغار المزارعين ــ سواء فى نيوهامبشاير أوميريلاند ، فى بنسلفانيا أو فيرجينيا ــ متشابهين من حيث التدبير ، والجد ، واكتمال اكتفائهم الذاتى فى مناسبات لا حصر لها . كما أن الرواد فى منطقة الحدود كانوا مطبوعين على صفات واحدة فى كل مكان .

الريف الداخلى

وقد برز القطاع الرابع إلى الوجود ــ وهو الحدود أو الريف الداخلى ــ خلال القرن الثامن عشر . وكان يمتد من مشارف جرين ماونتين بويز الوعرة ، والمساحات الخشنة التى انتزعت من الغابات فى وادى موهوك ، إلى الأطراف الشرقية لجبال ألليجنى ضامة وادى شيناندواه فى فيرجينيا ، حتى منطقة بيدمونت فى ولايتى كاروليـنا وجورجيا . وفى هذا القطاع عاش قوم خشنون ، بسطاء ، جسورون ، ذوو مظهر أمريكى قح .

ولقد اشتروا الأرض رخيصة ، بشلن أو اثنين للدونم ، أو أخذوها بوضع اليد ، فأخذوا يمهدون المساحات فى القفار ، ويحرقون الأدغال ، ويزرعون الأذرة والقمح بين بقايا الأشجار . وأقاموا أكواخاً خشنة من جذوع شجر القارية (من فصيلة الجوز) ،

أو البرسيمون ، فيشدون كتل الخشب بعضها إلى بعض فى الأركان الأربعة ، ويملأون الثغرات بينها بالطين ، ويثبتون فى أرضها ألواحاً مصقولة من الخشب ، ويتخذون زجاج النوافذ من ورق مغموس فى دهن الخنزير أو دهن الدب . وكان الرجال يلبسون أقمصة للصيد تنسج فى بيوتهم ، ويحمون سيقانهم بجلد الوعل . أما النساء فكن يكتسين أنسجة تصنع على المغزل والمنسج اللذين كانا فى كل دار . وكانوا يصنعون مقاعدهم وموائدهم من كتل خشبية معشقة ، ويسحقون موادهم الغذائية فى هاونات حجرية يصنعونها بأيديهم ، ويتناولون الطعام بملاعق من قطع مجوفة من أشجار الصنوبر ، ويمشون حفاة أو فى نعال من الجلد . وكان غذاؤهم من لحم الخنزير الصغير ، مع شواء من لحم الغزال ، ومع ديوك رومية أو طيور الحجل ، وأسماك من أقرب جدول مائى . وكان المستوطنون المتناثرون ينشئون حصناً عند نبع يتوسط بقاعهم ، للدفاع ضد الهنود ، ويجعلون له معاقل وحواجز واستحكامات منيعة على الرصاص . وكانت لهم تسلياتهم الزاخرة بالطرب . . مثل عمليات الشواء المرحة فى المهرجانات السياسية ، حيث كانت الثيران تشوى بأكملها دون تقسيم ، وحفلات تكريم العروسين الحديثى الزواج ، بما يتخللها من رقص ، وشراب ، ومباريات صيد ، وجماعات تضريب اللحاف ، وحفلات الرقص حيث تمارس رقصة فيرجينيا [1] . وكانت المنازعات والقتال المتقطع تثير كثيراً من الانفعال كما هى الحال فى أكثر أرجاء اسكتلندا وأيرلندا بداوة وضراوة . فكان الاسكتلنديون والأيرلنديون والألمان يشنون معارك للثأر . وكانت الاشتباكات الشخصية فى فيرجينيا وكارولينا لا تخضع لقواعد ، وقد أدى التبارى فى اقتلاع العيون إلى أن أصبح منظر الرجال العور عادياً . وكان جميع سكان الحدود يرقبون الهنود بعداوة ، ومع أن بعض القبائل كانت صديقة ، فإن المستوطنين عامة كانوا يشنون حرباً لا تنقطع مع البرارى والقفار والرجال الحمر ، ومن ثم فقد كانوا مدربين على اليقظة ، والمشاق ، والتضامن العشائرى .

ولقد أنجبت الحدود تجاراً رائعين وموفورى النشاط مع الهنود ، مثل جورج كروغان فى الشمال ، وجيمس آدير المثقف ، المتعدد المواهب والخبرات ، فى الجنوب الغربى . وكان كلاهما صديقين للهمجيين ، ومغامرين على نطاق واسع ، كما كانا يوقنان من سرعة

(١) reel : نوع من الرقص الاسكتلندى الأصل ، يدور فيه الراقص حول نفسه بخفة وسرعة ــ المترجم .

تقدم الغرب الأمريكى . وقد نشط كروغان ــ فى الأيام الأخيرة من عهد الاستعمار ــ لبقاء هنود الإيروكوى آمنين فى نيويورك ، وفى فتح أبواب الريف ، عند أعالى نهر أوهايو . أما آدير فكان يفخر بأنه على تعارف بهنود ينتشرون على طول ألفى ميل . كذلك أنجبت الحدود مضاربين بالأرض ، مثل ريتشارد هندرسون فى كارولينا الشمالية ، الذى رأى قبيل الثورة بقليل أن يشترى قسماً كبيراً من المنطقة التى أصبحت فى الوقت الحاضر كنتكى ، من هنود التشيروكى ، وأن يحولها إلى ما يشبه مستعمرة ملكاً لشخص واحد . وقد أنجبت محاربين جسورين مثل روبرت روجرز ، وهو اسكتلندى ــ أيرلندى من نيو هامبشاير أبلى بلاء بطولياً فى الحدود الشمالية الشرقية ، أثناء الحرب مع الفرنسيين والهنود . . وجون سيفيير الذى كان يتيه فى إقليم تنيسى بـ « خمس وثلاثين معركة ، وخمسة وثلاثين انتصاراً » . كما أنجبت المستعمرة النموذج الأصلى لطراز الرواد الذين لا يركنون لراحة ، ألا وهو دانييل بون ، وهو من أهل كارولينا الشمالية ، من ديفون ، وقد اجتاز فى سنة ١٧٦٩ الباب السحرى الذى يفضى خلال جدار جبال أبلاش الوعرة إلى كنتكى ، والذى يسمى ثغرة كمبرلاند . وبفضل سلسلة من الاستطلاعات التى قام بها وحيداً فى هذه الأراضى الهندية الغنية ، الموفورة الصيد ، أدى دوراً كبيراً فى إذاعة المفاتن الطبيعية لإقليم كنتكى ، وقدم خدمة جليلة لهندرسون وعديد من الجماعات المستعمرة . بيد أن الأهم من هذا كله ، أن الحدود أنجبت مزارعين رواداً أشداء ، دأبوا على توسيع رقعة الاستيطان والعمران .

وإذا كان الريف الداخلى أرض محن ومخاطر ، فإنه كذلك كان منطقة ذات جدة وفتنة لا تقاومان بالنسبة للكثيرين . وإن صفحات كتاب وليم بيرد لتشع أثراً من مفاتنها الطبيعية . ففى حديثه عما فعله من مد خط الحدود إلى داخل القفار ، يصف كروم العنب الأسود والأبيض ، الملتوية على الأشجار ، والديوك الرومية البرية وهى تحوم هاربة فى أسراب فى كل جانب ، وجحافل الحمام تغطى كبد السماء فى مرورها بين الخليج وكندا ، وتهبط أحياناً على أغصان أشجار التوت والبلوط . وهو يصور الدببة البدينة تسبح متخبطة فى عرض الأنهار ، وحيوانات الأوبسوم القارضة وهى تتغذى على الفواكه البرية ، والذئاب التى كانت « تطربهم » شطراً كبيراً من الليل ، والجاموس الذى يرعى متبلداً ، والذى قتل رجال بيرد منه عجلاً فتياً عمره عامان . وهو يتحدث عن أسماك الحفش إذ تستمرىء الشمس على صفحة الأنهار فى الصيف ، ويذكر الكتل الناتئة من

الرخام الذى يختلط فيه اللونان الأرجوانى والأبيض ، والجداول النميرة تتدفق فى أحواض رملية تلمع خلالها مادة الميكا تحت الشمس كالذهب ، وغابات البلوط الكثيفة ، وأشجار القارية ، والجراد ، والقمم النائية تلمع تحت الشمس الآفلة فى الغرب . وهو يشير إلى السماء فوق ستائر رقيقة من الدخان الناشىء عن إحراق هنود الكاتوبا والتوسكارورا الأحراش ليجبروا حيوانات القنص على الخروج منها . . ويتحدث عن رجفة الانفعال عند مصادفة مضرب لخيام الهنود ، ويبين ما لهؤلاء البسطاء من سلوك رصين ، أبى ، كثيراً ما تصحبه مسحة من العظمة والوقار فى قسماتهم ، وملاحة العذارى ذوات اللون النحاسى ، اللائى لا يمتزن بكثير من النظافة ولا كثير من الزينة ، ولكن الحياء يتملكهن أمام الرجال البيض . وكم من الرواد الأوائل آثروا البرارى على أية بيئة أخرى ، بمجرد أن تذوقوا مباهجها .

الثقافة

بدأت الثقافة تزدهر وتنتشر فى المجتمعات الأثيرة ، فى الشطر الأخير من عهد الاستعمار . ولقد أولت نيو إنجلاند بوجه خاص التعليم اهتماماً كبيراً . وبينما كانت المستعمرات بعد فى حداثتها ، كانت رود آيلاند قد جعلت قدراً من التعليم الأولى إلزامياً . وازدهرت المدارس المتوسطة والعليا . وأقيمت كليتان هما هارفارد وييل ، كما كانت أقدام جامعتين أخريين تتوطد ، وهما كلية رود آيلاند (براون حالياً) ودارتماوث . وكانت ثمة مكتبة تضم خمسة آلاف كتاب ، وأجهزة علمية جيدة ، فى هارفارد ذات البنايات الضخمة من الطوب ، كما كان تدريس اللاهوت ، والفلسفة ، والآداب القديمة لا يتخلف كثيراً عن مستوى أحسن الجامعات الأوربية .

وكانت ميريلاند هى الوحيدة بين المستعمرات الوسطى ، التى أوتيت نظاماً للتعليم العام ، وكان سيىء التنظيم ، ضعيفاً . ولقد كان الكويكر والألمان يديرون مدارس تحت إشراف الكنيسة إلى درجة ما ، فى حين أوتيت بنسلفانيا كثيراً من المدارس الخاصة ، لاسيما فى فيلادلفيا وعلى مقربة منها . أما نيويورك فكانت فيها بعض المدارس التابعة لمجالس المدن فى لونج آيلاند ، وبعض المدارس المتوسطة فى مدينة نيويورك ، ولكنها

لم تؤت نظاماً عاماً للتعليم . وكان التعليم فى الجنوب فى أيدى هيئات خاصة إلى حد كبير . فكان القساوسة يتولون عدداً لا بأس به من المدارس الخاصة ، وكان جوناثان باوشر أسقف فيرجينيا ، مثلاً ، يقبل الغلمان مقابل عشرين جنيهاً عن الواحد . وقد كان ابن زوجة واشنطن منهم . وكان أصحاب المزارع الأثرياء هناك وفى ولايتى كارولينا ، يستأجرون مدرسين خصوصيين من بريطانيا العظمى والمستعمرات الشمالية يلازمون أولادهم ويعلمونهم القراءة والكتابة والرياضيات التطبيقية واللاتينية واليونانية . ولم تكن هناك سوى مدرستين بالمجان ، إحداهما فى فيرجينيا ، والأخرى فى كارولينا الجنوبية . ولقد أنشىء عدد من الكليات فى المستعمرات الوسطى والجنوبية ، فأقيمت كلية وليم آند ميرى فى فيرجينيا ، فى سنة ١٦٩٣ ، حيث تعلم جيفرسون وكثير من الشخصيات الهامة ، وكلية فيلادلفيا جامعة بنسلفانيا حالياً فى سنة ١٧٥٥ ، التى بذل فرانكلين الكثير لإقامتها ، وكلية برينستون فى سنة ١٧٤٨ ، وكلية الملك (جامعة كولمبيا حالياً) فى سنة ١٧٥٤ ، حيث تعلم جون جاى ، وألكسندر هاملتون وجوفرنير موريس . وكثيراً ما كانت العائلات الموسرة فى نيويورك والجنوب توفد أبناءها إلى أكسفورد وكمبريدج ، فكان المحامون منهم يتناولون وجباتهم فى مطاعم محكمة لندن ، والأطباء والجراحون ييممون شطر أدنبره بطبيعة الحال .

وكانت الصحف ، والمجلات ، والكتب السنوية (التقاويم) ، بل وكتب ذات جدارة باقية ، تنشر فى المستعمرات . فإن العهد بإقامة أقدم مطبعة فى أمريكا يرجع إلى سنة ١٦٣٩ ، فى كمبريدج ، ولم تتوقف عن النشاط قط . وقد كان فى بوسطن ، عشية الثورة ، خمس صحف يومية ، وفى فيلادلفيا ثلاث . وأصبح تجار الكتب من الشخصيات المهمة فى عهد الاستعمار ، كما أنشىء عدد من المكتبات أنشئت مكتبة بوسطن سنة ١٦٥٦ . ولقد استورد أحد الناشرين فى فيلادلفيا ، فى سنة ١٧٧١ ، ألف مجموعة من أجزاء كتاب بلاكستون « التعليقات » ، وأصدر بنفسه ألفاً أخرى . واكتسب رجلان شهرة باقية فى أوربا ككاتبين ، هما جوناثان إدواردز فى الفلسفة واللاهوت ، وبنجامين فرانكلين فى العلوم والآداب . وحرص كل من القاضى اليانكى المثرى صمويل سيوال ــ وهو إدارى محافظ ، عنيد ، دءوب ــ والمزارع المثقف الكولونيل وليم بيرد ، من فيرجينيا ، وكان زميلاً فى الجمعية الملكية ورجلاً ذا ثروة وعراقة فى المقام الأول . . حرص كلاهما على تدوين يوميات قدر لها ــ كما قدر ليوميات جون وولمان ــ

ألا تروح فى أدراج النسيان . . ولقد قال ليناوس عن جون برترام ، وهو فاحص علمى دقيق ، إنـه أعظم علماء النبات الطبيعى فى العالم . واكتسب كادوالادر كولدن ، ذو الدأب الذى لا يفتر ـ وكان من أهالى نيويورك ـ صيتاً ذائعاً بفضل كتابه « تاريخ خمس أمم من الهنود » . وظفر ديفيد ريتنهاوز ، من بنسلفانيا ، بصيت دولى كعالم فى الفلك والرياضيات . وأحرز جون ميتشل ، الزميل فى الجمعية الملكية من فيرجينيا ، مكانة مبرزة فى علم النبات ، والطب ، والزراعة . ونشر القس العالم كوتون ماثر ، الذى كان يسمى العملاق الأدبى الجبار فى نيو إنجلاند ، ما لا يقل عن ٣٨٣ كتاباً وكتيباً ، منها كتابه « عجائب المسيح الأمريكية » الذى يكاد يكون مكتبة فى حد ذاته . وهناك مؤرخ من أواخر عهد الاستعمار ، لا يزال من الممكن قراءة إنتاجه بمتعة وانتفاع ، هو توماس هتشينسون من مساشوستس . وكان ثمة فنانون موفقون يعملون فى المستعمرات ، وقد ذهب بنجـامين ويست المبرز إلى إنجلترا قبيل الثورة ، فخلف سير جوشوا رينولدز فى رئاسة الأكاديمية الملكية .

وقد يجوز أن نستخلص من « السيرة الذاتية » لفرانكلين فكرة حية عن الطريقة التى ازداد بها الإقبال على الممارسات الثقافية . فقد ولد فرانكلين فى بوسطن سنة ١٧٠٦ فى أسرة عديد أفرادها ، حتى إنه ليتذكر ثلاثة عشر طفلاً يحيطون بالمائدة فى آن واحد ، وكان فرانكلين ذاتى التعلم إلى حد كبير ، إذ كان أبوه الذى وفد من نورثهامبتونشاير فى انجلترا ، يمتلك مكتبة احتوت إلى جانب الكتب الدينية المتبحرة كتب : « بحث فى الحقـائق المـوضـوعية » لديفو ، و« مقالات لفعل الخير» لكوتون ماثر ، و« الحيوات » لبلوتـارك . وإذ عمل الفتى النابه لدى أحد أصحاب المطابع فى سن الثانية عشرة ، توصل إلى كتب أخرى لبنيان ، ولوك ، وشافتسبيرى ، وكولينز ، وإلى بعض المؤلفات العريقة مترجمة . وببنسات معدودات ابتاع نسخة من كتاب إديسون « المتفرج » ، الذى أذكى فيه الطموح إلى كتابة مقالات . فلما ذهب إلى فيلادلفيا لتحسين أحواله ، وجد الأدب قد بدأ يوطد أقدامه فى تلك المدينة . وكان كيمر الطبّاع مجهزاً بآلة للطباعة قديمة مضعضعـة ، وطاقم حروف إنجليزية واحد ، صغير ، بال . وبعد أن قضى فترة فى إنجلترا ، شرع فرانكلين المقدام الذى لا يكل فى تحسين مدينة الكويكر .

أنشأ عصبة أو « منتدى لتبادل تحسين المستوى » ، بدأ بتسعة أعضاء ، وبث فروعاً ذات نفـوذ . وأسس مكتبة تعير الكتب لمشتركيها ، كانت الأولى فى أمريكا (١٧٣١)

وسرعان ما اتسع نطاقها . وأصدر صحيفة صُممت بحيث تتفادى المقالات الجدلية ، وتنشر الأخبار الواقعية ، هى « ستردای إيفننج بوست » ، كما أنشأ الجمعية الفلسفية الأمريكية فى سنة ١٧٤٣ . وهذه الجمعية التى ضمت بين أعضائها أبرز الممتازين من الأمريكيين فى ذلك الجيل وكثيرين من الأوربيين ذوى السمعة العالمية ، احتضنت بحوثاً واستطلاعات واسعة المدى ، لا فى العلوم فحسب ، بل فى التعليم والفلسفة والفنون . ولقد أنشأ أكاديمية ، ما لبثت أن حظيت باشتراك آل بن وسواهم ، وأن أثرت من عطاياهم ، فنمت وأصبحت جامعة . ويحدثنا فرانكلين عما كان لخطب الوعظ البليغة ، التى كان يلقيها جورج هوايتفيلد ، من أثر فى استدرار النقود من جيوب الكويكر المترددين . كما يصف لنا كيف أن بعض الكماليات ــ كأدوات المائدة الصينية والفضة ــ أخذت تزحف لتحتل مكان الأدوات الفخارية والخشبية فى بيوت مثل بيته ، وكيف أدخل التحصين ضد الجدرى ، ولقد أنحى على نفسه بأقسى اللوم عندما مُنى فى ابن بديع من أبنائه الأربعة لإهماله التطعيم . وكانت العلوم تستهويه دائماً ، وما لبث بإطلاق طائرة ورقية نحو السحب الرعدية أن أجرى التجربة الشهيرة التى دعت ناقداً فرنسياً إلى أن يقول هازلاً إنه اصطاد البرق من السماء . أما الأنشطة السياسية التى بررت الشطر الثانى من الملاحظة ــ « وهى والصولجان من الجبار » ــ فبدأت بإقبال صادق عندما مثل بنسلفانيا فى سنة ١٧٥٤ ، فى أول اجتماع مشترك للمستعمرات ، وهو مؤتمر ألبانى . وشغل من سنة ١٧٥٣ حتى ١٧٧٤ منصب نائب المدير العام للبريد فى المستعمرات ، وقد أسهم تحسينه للخدمات البريدية بقسط ليس بالقليل فى الوحدة الثقافية الأمريكية . ولقد أظهرت أعمال فرانكلين ، فى مجموعها ، مدى ما يمكن الإفادة منه من الموارد الثقافية للمستعمرات ، ومدى ما كان بوسع زعيم قدير أن يفعله لتدعيمها .

وأخذ الثراء يتدفق بسرعة مطردة ، فإذا بيوت أرقى من سابقتها ترفع ، وإذا البذخ فى المأكل والملبس يزداد ، وإذا الاجتماعات الحديثة الفخمة تزداد شيوعاً . فلم يحن عام ١٧٥٠ ، حتى تسنى وجود مجتمع راق ، على دراية بأرقى الفكر الأوربى ، على طول الساحل الشرقى . فكان المرء يشاهد من الأناقة والوجاهة فى بوسطن ، ونيويورك ، وفيلادلفيا ، وتشارلستون قدر ما يوجد فى أية مدينة بريطانية أو فرنسية خارج لندن وباريس . بيد أن حدود العمران كانت فى تزحزح دائب فى اتجاه الغرب ، فى الوقت ذاته ، وقد بدأت الدفعات الأولى من المهاجرين تتدفق خلال ممرات جبال أبلاش إلى

إقليم أوهايو وكنتكى . وما كان رواد الحدود الشجعان الخشنون ، ببنادقهم الطويلة وفؤوسهم الحادة ، يحفلون بالترف ، أو الأزياء الحديثة ، أو الآراء ، إذ كانت رسالتهم فى الحياة هى تذليل الفياق . وبين المزارعين والتجار المترفين من جانب ، ورجال الحدود المقبلين على الفتك بالهنود من الجانب الآخر ، كان الحشد الكبير من أبناء الطبقة المتوسطة غير الموسرين ، الذين كانوا الطراز المثالى للأمريكيين فى سنة ١٧٧٥ . كان عامة المزارعين ، وصغار ملاك الأراضى ، والميكانيكيون المفتولو العضلات ، وأصحاب الحوانيت الصاخبون المهتاجون ، قد ترعرعوا دون أن يكون لهم علم بأية بلاد سوى أمريكا ، ولا تذوق لأى نهج فى الحياة غير أمريكى . كانوا رعايا أوفياء للتاج ، يعجبون بانجلترا ، ويفخرون بحقوق المواليد البريطانيين . بيد أنهم كانوا يشعرون ، ولو دون أن يفطنوا ، بأن لأمريكا قدراً خاصاً بها .

تراث عهد الاستعمار

إن جزءاً من التراث الذى كان مقدراً للمستعمرات أن تخلعه على الأمة الناشئة جلى لأول وهلة . فإن وجود لغة مشتركة ، هى الإنجليزية ، كان ذا قيمة لا تقدر . كان من العناصر الكبرى التى يسرت قيام أمة حقيقية . وكانت التجربة الطويلة والمطردة الاتساع بأشكال الحكم النيابى جزءاً آخر من التراث يفوق كل تقدير . ويجوز لنا أن نتقبل هذا كقضية مسلمة حتى نتذكر أن المستعمرات الفرنسية والإسبانية لم تؤت تجربة بالحكم الذاتى النيابى ، فإن البريطانيين وحدهم هم الذين سمحوا لمستعمراتهم بأن تقيم مجالس شعبية ، وأن تخلق حكومات للناخبين والمندوبين فيها مسئولية سياسية حقاً . ونجم عن هذا أن أهالى المستعمرات الإنجليزية كانوا ذوى عقليات سياسية وخبرة سياسية . وكان ما أولى من احترام للحقوق المدنية الجوهرية عاملاً مهماً آخر فى التراث ، إذ كان لأهل المستعمرات ما للبريطانيين فى وطنهم من إيمان وطيد بحرية الكلام ، والصحافة ، والاجتماع ، وكانوا يستمتعون بقدر يفوق ما يستمتع به البريطانيون ، أو أية شعوب أخرى فى هذا الصدد ، من الحريات الثلاث جميعاً . ويجب أن تضاف إلى القائمة روح التسامح الدينى العامة فى المستعمرات ، وإدراك إمكان ووجوب أن تتعاشر

الطوائف المختلفة فى محبة خالصة . كانت كل عقيدة تحظى بالحماية تحت العلم البريطانى ، بالرغم من الخوف التقليدى من الكاثوليكية فى إنجلترا . بل إن بعض أبناء المستعمرات اتهموا البرلمان ، بعد سنة ١٧٦٣ ، بإبداء إيثار ضاف لهذا الدين . ولم تكن روح التسامح العنصرى بأقل قيمة بالنسبة لشعب مختلف الأعراق ــ إنجليز ، وأيرلنديون ، وهيجونوت ، وهولنديون ، وسويديون ــ امتزج وتزاوج دون أن يعير أى اختلاف اهتماماً يذكر .

ومن المحقق أن من الجدير بنا أن نضيف إلى هذه الموروثات تلك الروح القوية ، روح المشروع الفردى ، التى كشفت عن ذاتها فى المستعمرات ، وكانت فردية استلفتت الانتباه فى بريطانيا ذاتها ، وقد بلغت ذروتها تحت ضغط الحياة فى بلاد غنية ولكنها غفلة وصعبة . فما سمح البريطانيون فى المستعمرات يوماً باحتكارات كتلك التى سحقت المجهود الفردى فى الممتلكات الفرنسية والإسبانية . ولقد استجاب المشروع (العمل) للفرصة دون شىء يكبحه . وهذه الأجزاء من تراث العهد الاستعمارى ، فى مجموعها ، كنز يفوق فى القيمة ملء سفن من الذهب ، أو دونيات من الماس .

كذلك تغلغل مبدآن أمريكيان أساسيان ، أثناء عهد الاستعمار . أحدهما هو مبدأ الديمقراطية ، بمعنى أن لكل البشر حقاً فى المساواة فى الفرصة . فما جاء عدد كبير من المستوطنين إلى العالم الجديد إلا لاكتساب فرصة لأنفسهم ، ولأبنائهم بوجه خاص . كانوا يأملون إقامة مجتمع لابد لكل إنسان فيه من أن يحظى لا بفرصة فحسب ، وإنما بفرصة طيبة ، ويجوز له فيه أن يرقى من القاع إلى أعلى قمة السلم . ولقد قدر لهذا السعى إلى المساواة فى الفرصة أن يجلب تغيرات متزايدة فى التركيب الاجتماعى لأمريكا ، فيحطم كافة أنواع الامتيازات الخاصة . كان لزاماً لإحداث تغيرات ملحوظة فى التعليم والحياة الفكرية ، مما جعل أمريكا أكثر أمم العالم حظاً من « المدارس العامة » . وكان مقدراً لهذا أن يحدث تغييرات سياسية عظيمة ، فيتيح للإنسان العادى مزيداً من الرقابة المباشرة على الحكومة . كان بوجه عام محركاً جباراً لرفع مستوى الجماهير .

والمبدأ الأساسى الثانى هو الشعور بأن قدراً خاصاً كان يرتقب الشعب الأمريكى ، وأنه كان أمامهم عمل لا يحتمل أن ينجز مثله أية أمة أخرى . فهذا الثراء العام ، وطاقة الشعب ، وجو الحرية الذى احتوى الثراء والطاقة ، بث فى الأمريكيين تفاؤلاً جديداً وعارماً ، واعتداداً بالنفس جامحاً . وفى هذا قال المزارع الأمريكى سانت جون

كريفكير : « الأمريكيون هم المهاجرون الذين حملوا معهم ذلك القدر العظيم من الفنون والعلوم والعنفوان والجد التى بدأت قبل ذلك بزمن طويل فى الشرق ، ولسوف يتمون الدائرة العظيمة » . لقد قدر لفكرة « قدر سعيد ممتاز » أن تكون من القوى الدافعة الرئيسية فى الامتداد السريع للشعب الأمريكى فى القارة بأسرها . وكان مقدراً له أن يؤتى آثاراً سيئة فى بعض الأحيان ، بمعنى أنه كان مقدراً له أن يفضى بالأمريكيين إلى أن يركنوا بكل سهولة إلى « العناية » ، عندما كان ينبغى عليهم أن يستحثوا تفكيرهم للتصدى لما يواجههم من صعاب . . كان مقدراً له أن يجعلهم راضين عن أنفسهم ، فى الوقت الذى كان جديراً بهم أن ينتقدوا أنفسهم . ولكنه بوجه عام ، ومع مبدأ الديمقراطية ، قد أضفى على الحياة الأمريكية جدة واتساعاً وبهجة لا مثيل لها فى أى مكان آخر . لقد كانت البلاد الجديدة بلاد البشرى ، والأمل ، والآفاق المطردة الاتساع .

الفصـــل ٣

المشـكلة الاستعمـارية (الامبريالية)

الحـــروب الفـرنســية

بازديـاد مكانة المستعمرات البريطانية فى أمريكا ونموها ، كان لزاماً أن تصطدم بجـاراتهـا من المستعمـرات الفـرنسية والإسبانية ، فى الشمال والغرب والجنـوب . كذلـك كان من المحقق أن تشمـل اشتباكات بريطانيا وإسبانيا فى العالم القديم ، رعايا تلك الدولة فى العالم الجديد ، فما كانت أمريكا إذ ذاك ، ولا فيما بعد ، بمعزل عن بقية العالم الغربى . ومن القصص البطولية فى تاريخ أمريكا الشمالية ، قصة سلسلة المنـازعات الخطيرة ، التى شبت بين اللاتينيين والأنجلوـ سكسونيين ، وهى منازعات تزداد أهميتها لأنها لم تقتصر على الشعوب ، بل شملت الأفكار والثقافات . كانت حروباً بين الاستبدادية والديمقراطية ، بين حكم مطلق يتسم بنظام صارم وبين الديمقراطية ، بين رجال ذوى عقيدة واحدة لا تعرف التسامح ، ورجال ذوى عقائد كثيرة متسامحة بعضها إزاء بعض . ونظراً لوجود القفار الواسعة كخلفية ، ووجود الهنود كمشـتركين ، ووجود عسكريين ذوى مقدرة عالية ــ فرونتناك ، ومونتكالم ، وولف ، وآمهيرست ، وواشنطن ــ كقادة . . نظراً لهذا ، اتسمت تلك الحروب بفترات قسوة

وحشية ، وشهامة بطولية ، واستراتيجية حاذقة . وكان المغنم المنشود من هذا النزاع هو السيطرة على القارة .

كان الإسبانيون هم أول من ظفر بركيزة منيعة فى أمريكا الشمالية . ففى أعقاب كشف كولمبس العالم الجديد ، سارعوا إلى احتلال جزر الهند الغربية الرئيسية احتلالاً تاماً . وفى سنة ١٥١٩ ، شق العسكرى الذى لا يلين هرنان كورتس طريقه بجيش صغير إلى قلب المكسيك ، فهزم قوات مونتزوما إمبراطور الآزتك [1] ، واستولى على البلاد . وبعد عشرين عاماً ، هبط سيد إسبانى آخر ذو عزيمة حديدية ، هو هرناندو دى سوتو ، إلى فلوريدا (التى كانت قبل ذلك مسرحاً لعدة مغامرات إسبانية فاشلة) ، فهزم الهنود ، وخلف وراءه حامية ، ثم انطلق مع حوالى ستمائة رجل يجوس — لأربع سنوات دون هوادة — خلال ما يعرف حالياً بالولايات الجنوبية ، موغلاً فى الغرب حتى أوكلاهوما وتكساس . وقام مستكشفون إسبانيون آخرون ، لاسيما كورونادو الذى اتخذ المكسيك قاعدة له ، برحلات استطلاعية صوب الشمال بحثاً عن أعاجيب أسطورية مثل المدن السبع الواقعة على مرتفعات شاهقة ولها أبواب مرصعة بالجواهر ، وشوارع بأكملها يُشغل فيها الصاغة بصياغة الذهب . وأقام الإسبانيون أولى مستوطناتهم فى فلوريدا ، وهى سانت أوغسطين ، فى سنة ١٥٦٥ . وقبل أن ينتهى القرن السادس عشر ، كان الجنود والقساوسة الإسبانيون قد وطدوا مركزهم فى نيو مكسيكو (المكسيك الجديدة) ، حيث تولى حكم الإقليم الغافى — أو الناعس — سلسلة طويلة من الحكام العسكريين بدأها سانتا فى . وفى تلك الأثناء كان مبشر جيزويتى من أصل إيطالى ، هو يوسيبيو فرانشيسكو كينو ، قد ارتاد كاليفورنيا المنخفضة وإقليم الأريزونا ، مشيداً كنائس صغيرة ومعمداً الهنود الرحالة . على أنه لم يقدر لكاليفورنيا — قبل سنة ١٧٦٩ — أن تُحتل احتلالاً حقيقياً ، بقوة من الجنود الإسبانيين ، أقبل معهم مبشرون من الفرنسيسكان برئاسة جونيبيرو سيرا للمساعدة على إنشاء سان دييجو ومونتيريه .

ولم يثبت الفرنسيون أقدامهم فى كندا حتى قبيل استيطان المعمرين لفرجينيا . وواقع الأمر أن رحالة من بريتانى ، هو جاك كارتييه ، كان قد حمل العلم الفرنسى فى سنة ١٥٣٥ على نهر سانت لورانس حتى موقع مونتريال ، وقام بعد حوالى ست سنوات

(١) شعب عريق المدنية كان يعمر المكسيك ، حتى أوائل القرن السادس عشر — المترجم .

بمحاولات غير مثمرة لاستعمار جزء من الإقليم الجديد . وأدت عداوة الهنود وبرد الشتاء الفظيع إلى اضطرار المستوطنين للعودة إلى وطنهم وقد ثبطت عزائمهم . ولم يظهر منشىء فرنسا الجديدة صمويل دو شامبلان حتى سنة ١٦٠٣ . كان جندياً وملاحاً سابقاً ، في السادسة والثلاثين من العمر ، وقد روى مغامراته للإسبانى مين ببراعة حملت الملك على أن يجعله الجغرافى الملكى له . وفى سنة ١٦٠٨ ، أرسى أسس كويبك ، أول مستوطنة أوربية ثابتة فى فرنسا الجديدة . وقد صاحب فى العام التالى ، لأغراض استطلاعية ، فريقاً من هنود الهرون والألجونكين ضد الإيروكوى ، فعبر البحيرة المعروفة الآن باسمه ، وأفرغ بندقيته فى الهمجيين المعادين بالقرب من تيكوندروجا . ولقد عزى إلى الحادث أنه سبب العداوة الطويلة التى تملكت الإيروكوى ضد الفرنسيين ، بيد أن الأرجح أن هذه العداوة نشأت عن الجغرافيا وتجارة الفراء ، التى كانت الأمم الخمس وسطاء طبيعيين فيها بين الإنجليز والقبائل الغربية . ولقد بذلت شركة فرنسا الجديدة ، التى تشكلت تحت رعاية ريشيليو فى سنة ١٦٢٨ ، جهداً لتنشيط مشروع الاستعمار . وعندما استكمل لويس الرابع عشر سلطانه على فرنسا فى سنة ١٦٦١ ، ومعه كولبير الأريب رئيساً للوزارة ، قدمت السلطات الملكية معونة سخية للمستوطنين فى كندا .

وكانت مشروعات الاستعمار الإسبانية والفرنسية والبريطانية متشابهة من حيث أنها كانت على الأرجح عشوائية ، وبدون تخطيط ، ولكنها كانت تختلف اختلافاً كبيراً فى النواحى الأخرى . كانت الفتوحات الإسبانية تنطوى على إخضاع كتلة عديدة النفر ، مستقرة ، جادة فى العمل ، من الأهالى الأصليين بوساطة عدد صغير من الجنود والتجار والمغامرين ، الذين عقدوا العزم على جمع الثروات بسرعة . وكان معنى هذا أن إسبانيا نقلت كثيراً من صفات النظام الإقطاعى إلى أمريكا . وسرعان ما كان بضعة آلاف من الغزاة العنيدين ، الشديدى البطش ، القساة فى أساليبهم ، يسيطرون على ملايين من الهنود . ولقد حاول أهل الخير من رجال الكنيسة — مثل لاس كازاس — أن يخففوا من قسوة تسلطهم ، ولكن نجاحهم كان هزيلاً . فقد فتح الإسبانيون المناجم الغنية التى كانوا يجبرون عشرات الآلاف من الهنود على العمل فيها حتى الموت ، وأقاموا مزارع كبيرة لتربية الماشية ، واستنبتات بعض المحصولات الاستوائية : السكر ، والفانيليا ، والكاكاو ، والنيلة . وكان الإسبانيون سادة مستبدين ، بينما كان الهنود ، والزنوج (الذين سرعان ما استُجلبوا بأعداد كبيرة ، لاسيما إلى أراضى الكاريبى والبرازيل

البرتغالية) والنشء المهجَّن من العناصر الثلاثة هم خدم الأرض أو العبيد . ولقد أنتج النظام قدراً كبيراً من الثراء ، ولكنه ذهب إلى فئة قليلة من الأيدى الجشعة ، فى حين أن الجماهير ظلت فى فقر . فلم تنم طبقة وسطى محددة المعالم . كان الإسبانى يحب أن يكون صاحب مزرعة لتربية الماشية ، أو رجل كنيسة ، أو جندياً ، ولكنه لم يمل إلى أن يكون تاجراً أو صانعاً . وكان الأجانب ، لاسيما البروتستانت ، مبعدين بصرامة . ولم يكن للمؤسسات النيابية ، فيما عدا مجالس المدن أحياناً ، أى وجود ، فكان الحكم بأكمله من أعلى .

وفى الوقت ذاته ، أدخل الإسبانيون والبرتغاليون المسيحية لملايين الهمجيين ، وعلموا الأهالى حرفاً جديدة ، وزراعة بدائية ، وأوليات من التعليم الأوربى ، فجعلوا أراضيهم منتجة لملايين الماشية . وأنشأوا جامعات لتدريس الآداب القديمة وتعاليم آباء الكنيسة . ولقد نشروا المدنية فى مساحات شاسعة أدنى ريو جراند ، وإن كان ذلك بطريقة فجة وغير منتظمة .

أما الفرنسيون فلم يفدوا على أمريكا إلا فى أعداد صغيرة ، وكان العامل الأكبر فى تشكيل حضارتهم يتمثل فى الأحوال الجغرافية والاقتصادية ، وأوتوقراطية الحكم الفرنسى ، والكنيسة الكاثوليكية ، ولم يكن الذهب أو مزارع تربية الماشية بغيتهم ، بل كانوا يسعون إلى الأسماك والفراء . ولقد نفذوا إلى بلاد قارسة البرد ، كثيرة المشاق ، ذات سكان من الهنود الرحالة ، كثيرون منهم عدائيون . وكلما أمعنوا فى التوغل فى الداخل ، ازداد ما يظفرون به من الفراء . ولهذا فإنهم بعد أن أقاموا عدداً من المستوطنات الزراعية الضعيفة ، أخذوا يدفعون مراكزهم إلى البرارى باطراد ، متتبعين المسالك المائية الرئيسية : نهر سانت لورانس ، والبحيرات الكبرى ، وأنهار ويسكونسين ، وإللينوى ، وواباش ، والمسيسيبى ، وأخيراً مياه مانيتوبا . وبينما أقام المستعمرون الإنجليز مجتمعات ذات حكم ذاتى ، وكشفوا عن روح مبادرة فردية لا حدود لها ، منحت باريس المستعمرات الفرنسية حكومة جمعت بين الاستبداد والسلطان الأبوى . وبالرغم من ظهور زعماء ذوى جرأة ، فإن الشعب لم يتعلم قط أن يستوى على ساقيه ، وأن يتولى شؤونه . وبينما كانت إنجلترا تشجع أناساً من كل العقائد على الهجرة ، لم تسمح فرنسا لغير الكاثوليك بأن يطأوا أرض كندا . فلما حان الصراع النهائى ، كانت المستعمرات البريطانية تملك حوالى عشرين رجلاً مقابل كل رجل فرنسى ، وكان أهلها قد عمقوا

جذورهم ، فى حين أن الفرنسيين كانوا فلاحين لا يملكون الأرض بل يكدحون تحت تحكم طبقة من النبلاء الإقطاعيين ، فلم تكن جذورهم متغلغلة فى الأرض ، وكان الإنجليز واسعى الحيلة والطاقة ، بينما كان الفرنسيون يعتمدون على سلطة مركزية .

ولقد مر تاريخ فرنسا الجديدة بخمس حقب متميزة . كانت الأولى فترة من خمس وثلاثين سنة ، ذات بدايات متصلة ومشتركة بأعمال شامبلان المكافح . فبعد إبحاره نحو منابع نهر سانت لورانس ، فى سنة ١٦٠٣ ، ساعد فى العام التالى على إنشاء بورت رويال (أنابوليس) فيما يعرف الآن باسم نوفا سكوشيا . ولقد كرس جهده ، حتى موته فى سنة ١٦٣٥ ، لتطوير كندا كمستعمرة فرنسية ، ولدفع أعمال الاستكشاف قدماً ـ فوصل هو شخصياً حتى بحيرات جورج وأونتاريو وهرون ـ ولجعل تجارة الفراء مصدر ربح كبير . أما الحقبة الثانية فأبرز معالمها النشاط التبشيرى لعصبة من الرجال المتفانين فى رسالتهم ، من الفرنسيسكان ، والاستذكاريين ، والأورسوليين ، ومن الجيزويت (اليسوعيين) بوجه خاص . ولقد أبدى بعضهم ، مثل إيزاك جوج وجان بريبيف ، بطولة لا سبيل إلى قهرها ، وقد عُذب هذان حتى الموت على أيدى هنود الإيروكوى . ولقد كتبا فى مؤلفهما « العلاقات » صفحة من أقوى صفحات تاريخ الكاثوليك إلهاماً . ولكن ميدان إقدامهم المثمر أبيد فى ١٦٤٩ - ١٦٥٠ ، عندما اكتسح هنود الإيريكوى هنود الهرون الذين صادف اليسوعيين بينهم أعظم نجاح لهم ، كما أن قبيلة الإيرى أفنيت هى الأخرى ، فى سنة ١٦٥٤ . ولقد كانت المستعمرة فى هذه الفترة فاشلة من الناحية التجارية . ولم تطلع سنة ١٦٦٠ على أكثر من بضعة آلاف من الفرنسيين المستقرين فى كندا بأسرها وسط الأخطار .

وكانت الحقبة الثالثة أينع ثماراً . فقد أصبحت فرنسا الجديدة مقاطعة ملكية ، لها حاكم ، ومدير إدارى ، وموظفون آخرون ، على غرار ما فى الأقاليم الفرنسية . ولقد أصدر لويس الرابع عشر منحاً مالية سخية وأوامر ونصائح ، إذ اهتم شخصياً بأحوالها . وأوفدت سفن محملة بمعمّرين جدد ، ووصل إلى كويبيك ، فى سنة ١٦٥٩ ، أول أسقف ، هو فرانسوا كرافييه دى لافال ـ مونمورنسى ، الذى قرر أن تكون كندا تحت حكم الكنيسة ، وفقاً لنظام صارم ومتقشف كذلك الذى فرضه الحكام الدينيون فى نيو إنجلاند . ولايزال طابعه منقوشاً على حياة كويبيك ، إذ أنه وفق إلى غايته برغم نزاعه مع الحكام واحداً بعد آخر .

على أن رجال الكنيسة الطموحين صادفوا ، فى النهاية ، من هو أقوى منهم إرادة ، عندما وصل الكونت دو فرونتناك ذو العزيمة الحديدية ، فى سنة ١٦٧٢ ، كحاكم للإقليم فافتتح الحقبة الرابعة . فقد كان رجلاً عارم المقدرة والإصرار ، فأكد سيطرة السلطات المدنية على الكنيسة ، وحطم سطوة الإيروكوى إلى أجل ، وأوقع الهزيمة بأسطول من أربع وثلاثين سفينة قاده سير وليم فيبس ضد كويبيك ، فى حرب الملك وليم (١٦٩٠) . وكان أعظم المستكشفين الفرنسيين منهمكين ، فى هذه الحقبة ، فى الغرب الأقصى : فنفذ راديسون وجروزييه إلى ما وراء بحيرة سوبريور ، وحدد جولييه وماركيت شطراً كبيراً من أعالى وادى المسيسيبى على الخرائط ، وانحدر لاسال فى نهر المسيسيبى حتى مصبه . وكان فرونتناك ، قبل موته فى نهاية القرن ، قد شرع فى إعداد فرنسا الجديدة للصراع المستميت الذى كان معظم ذوى البصيرة قد رأوا أنه لابد من خوضه ضد البريطانيين . وهذا الصراع الذى امتد طيلة حرب الخلافة الإسبانية وحرب الخلافة النمسوية (حرب الملكة آن ، وحرب الملك جورج) واستمر خلال حرب السنوات السبع ، يملأ الحقبة الخامسة والأخيرة فى تاريخ فرنسا الجديدة .

وكانت للفرنسيين امتيازات معينة فى الصراع الطويل . فلقد بذلوا جهوداً لاتخاذ مراكز ذات سيطرة استراتيجية . فدأبوا بخط متصل من الحصون ومراكز تجارة الفراء على تحديد إمبراطورية هائلة بشكل الهلال ، تمتد من كويبيك فى الشمال الشرقى مارة بديترويت وسان لويس حتى نيو أورليانز فى الجنوب . وكانوا يتوقعون أن يحتفظوا بهذه الأراضى الداخلية الشاسعة وأن ينموها ، مضطرين البريطانيين إلى ملازمة الحزام الضيق الممتد شرقى جبال أبلاش . وكانت فرنسا أقوى عسكرياً من بريطانيا وبوسعها إيفاد جيوش قوية . كما أن حكومة فرنسا الجديدة ذات السلطة المركزية البالغة كانت أحسن تهيؤاً لإدارة الحرب من المجموعة المفككة من حكومات المستعمرات السيئة التناسق .

بيد أنه كان من المحقق أن يحرز البريطانيون انتصاراً فى النهاية ، لثلاثة أسباب رئيسية : أولاً ، لأن سكان المستعمرات البريطانية ــ وعددهم ٠٠٠ ٥٠٠ ١ ، فى سنة ١٧٥٤ ــ كانوا كتلة سريعة التكاثر ، متماسكة متضامنة ، واسعة الموارد ، فى حين أن فرنسا الجديدة أوتيت عدداً من السكان دون المائة ألف ، شجعاناً ولكنهم متناثرون وغير أكفاء فى القيام بالمشروعات . وثانياً ، لأن البريطانيين كانوا فى وضع استراتيجى أفضل .

فبالتحرك على خطوط داخلية ، كان بوسعهم أن يوقعوا ضرباتهم بإحكام غرباً ، على ما يعرف الآن باسم بيتسبيرج ، وشمالاً بغرب نحو نياجرا ، وشمالاً نحو كويبيك ومونتريال . كما أنهم أوتوا أسطولاً أفضل ، فكان بوسعهم أن يعززوا قواتهم ويمدوها بسرعة ، وأن يفرضوا حصاراً من الماء على كويبيك . وقد أثبتوا ، أخيراً ، مقدرة على الظفر بقادة أفضل . فما لبثوا أن وجدوا فى تشاتهام زعيماً سياسياً ، وفى وولف ، وآمهيرست ، ولورد هاو (الذى أقامت له مساشوستس نصباً تذكارياً فى دير ويستمنستر) قادة عسكريين لم يضارعهم الفرنسيون . فى حين أن الضباط من أبناء المستعمرات حققوا امتيازاً رفيعاً ، مثل واشنطن اليقظ الذى قاد جيش برادوك ، وفينياس لايمان الذى صد الفرنسيين عند بحيرة جورج ، والليفتنانت كولونيل برادستريت الذى استولى على فورت فرونتناك . ولقد اضطر تشاتهام ، وكان عبقرياً حقاً ، أن يقضى عامين تقريباً لينظم المجهود الأنجلو- أمريكى قبل أن تهتدى فرنسا إلى رجل حكم قدير فى شخص دوق دى شوازيل .

وكانت الأعوام السبعون التى دامها النزاع ، وقد بلغ أوجه فى سنة ١٧٦٣ ، مليئة بالأحداث المثيرة . وبرزت خلالها شخصيات تستوقف الانتباه ، ففى الجانب الفرنسى : كاديلاك الذى أنشأ ديترويت ، وإيبرفيل الذى تصدى للبريطانيين من خليج هدسن إلى جزر الهند الغربية ، وبيانفيل الذى أسس نيو أورليانز وطالب بحق فرنسا فى امتلاك وادى أوهايو . وفى الجانب البريطانى : وليم شيرلى حاكم مساشوستس اليقظ ، المناضل ، وسير وليم بيبريل المقاتل الجسور ، وهوراشيو شارب حاكم ميريلاند الداهية . ولقد ضمت قصة الحرب حصارات عنيدة مثل حصار لويسبورج التى استولت عليها القوات الإمبراطورية مرتين ، ومعارك دامية كتلك التى دارت عند تيكوندروجا وانتصر فيها الفرنسيون فى البداية ثم فاز البريطانيون ، وإغارات بشعة من الهنود على مدن الحدود مثل ديرفيلد فى مساشوستس ، والسير المرهق عبر الفيافى المقفرة . وكانت إبادة الفرنسيين والهنود لبرادوك وجيشه ، فى سنة ١٧٥٥ ، وهم يقتربون من موقع بيتسبيرج ، نكبة مهينة . بيد أن الهزيمة ما لبثت أن غسلت باستيلاء فوربس على ذلك الموقع الاستراتيجى .

وفى محاولة للالتحام مع مونكالم فى كويبيك ، أقدم وولف ، فى سنة ١٧٥٩ ، على مغامرة مستميتة ، إذ تسلق التلال العالية ليلاً ، واضطر العدو لخوض المعركة فى سهول

أبراهام المفضية للمدينة . ولقد لقى ولف ومونكالم مصرعهما فى الاشتباك ، وكان القائد البريطانى ـ الذى لم يكن قد بلغ الثالثة والثلاثين من العمر ـ قد قال فى الليلة السابقة إنه كان يؤثر أن يكتب مرثية جراى على أن يكسب مجد إيقاع الهزيمة بالفرنسيين . وكان مجده الحقيقى أن اسمه ارتبط للأبد بغلبة الشعوب الناطقة بالإنجليزية فى أمريكا الشمالية ، إذ أن الاستيلاء على كويبيك حسم الحرب .

وبمقتضى معاهدة الصلح فى سنة ١٧٦٣ ، أخذت إنجلترا كندا بأكملها من فرنسا ، وفلوريدا من إسبانيا التى كانت قد دخلت الحرب ضد الإمبراطورية البريطانية . وأصبحت أمريكا الشمالية من المحيط الأطلنطى حتى نهر المسيسيبى ـ فيما عدا نيو أورليانز ـ بريطانية . وفى الوقت ذاته انتقلت لويزيانا من السيادة الفرنسية إلى السيادة الإسبانية . ويحق لنا أن نلاحظ أن انتصارات البريطانيين فى كندا تصادفت مع انتصاراتهم المعادلة فى الهند بقيادة كلايف ، إذ كانت هذه من الحروب العالمية الحاسمة فى التاريخ ، وقد طُرد الفرنسيون من الهند كما طردوا من أمريكا الشمالية .

العلاقات مع الإمبراطورية

دفعت حرب السنوات السبع المظفرة بالمستعمرات الأمريكية إلى وضع جديد تماماً بالنسبة لبريطانيا العظمى . فلقد أزالت التهديد الحاد الذى كانت الممتلكات الفرنسية الجيدة التسلح تفرضه فى الشمال والغرب ، محيطة المستعمرات إحاطة نصف دائرية كالمنجل المسنّن . كذلك أزالت الضغط الأقل وطأة من الإسبانيين فى الجنوب . ولقد أتاحت حملاتها تدريباً حربياً عظيم القيمة لكثير من ضباط المستعمرات وجنودها ، وأذكت ثقتهم بالنفس . كما كان لها أثر فى خلق شعور ينحو إلى توحيد الأقاليم ، فطرح عدد من المشروعات للاتحاد ، كان أجدرها بالمراعاة ما وضعه مؤتمر ألبانى فى سنة ١٧٥٤ ، الذى حضره مندوبو سبع مستعمرات . وكان هذا المشروع ، الذى صاغ فرانكلين معظمه ، يدعو إلى رئيس عام يعينه الملك ، ومجلس اتحادى (فيدرالى) يجب أن تختار المجالس النيابية فى المستعمرات أعضاءه . وكان على المجلس أن يقرر شؤون الدفاع العام ، ويشرف على العلاقات مع الهنود الحمر ، ويفرض الضرائب للأغراض

العامة ، بينما يتمتع الرئيس العام بسلطة النقض (الفيتو) . ومع أن المشروع أخفق فى إحراز التأييد ، فإنه كان ذا أثر كبير فى تفقه الشعب فى مبدأ الاتحاد . وكذلك فعل منظر الرجال المنتمين إلى مختلف الأقاليم وهم يقاتلون جنباً إلى جنب .

وكما خفضت الحرب الاعتماد القديم على بريطانيا العظمى ، نجدها قللت من الاحترام الذى كان يؤدى لها . فإن جنود المستعمرات ، بالرغم من سوء تجهيزهم وسوء تدريبهم النظامى ، تبينوا أن بوسعهم أن يحاربوا فى عدة ميادين ببلاء الجنود البريطانيين النظاميين ، وبوسعهم أن يفوقوهم فى القتال فى الفيافى . ووجدوا كثيراً من الضباط الإنجليز يخطئون ، كما وجد البريطانيون أن كثيرين من ضباط المستعمرات غير أكفاء . . ولقد رأوا أن برادوك كان باسلاً ولكنه لم يكن كفئاً ، وكان من الخير أن يأخذ بنصح جورج واشنطن الشاب فى مقاتلة الهنود . وكان أهل نيو إنجلاند الذين اعتادوا انتخاب قادتهم على أسس ديمقراطية ، لا يرضون عن النظام البريطانى الأرستقراطى فى تعيين القادة ، ولقد كره الأمريكيون من كل المستعمرات النظام الذى كان أى ضابط بريطانى يحتل بمقتضاه مرتبة تعلو على كافة ضباط المستعمرات .

وأخيراً ، فإن النهاية المظفرة للحرب ، والاتساع الهائل للإمبراطورية أثارا مسائل أصبحت موضوع تذمر فعلى بين أهل المستعمرات والحكومات البريطانية . وما كان « الجور » المتعمد بذى وجود ، ولكن إدارة شؤون الإمبراطورية كانت بحاجة إلى إحكام وتنظيم دقيق ، وكان هذا يعنى جحافل من الموظفين الجدد . وكان لزاماً عليها أن توفر الأموال للدفاع ضد الجارات الحاسدة ، وهذا معناه فرض الضرائب . وكان لزاماً تنقيح وتدعيم قوانينها الملاحية أو « قوانين التجارة » .

وكانت السيطرة الإدارية البريطانية على المستعمرات ، حتى ذلك الحين ، متهاونة للغاية . فكانت الهيئة الرئيسية الإمبراطورية الممثلة للحكومة ، تحت سيطرة التاج ، هى مجلس المفوضين للتجارة والمزارع ، الذى اتخذ شكلاً مكتملاً تقريباً فى حوالى سنة ١٦٩٦ . وكان الوزراء الرئيسيون من أعضاء الحكومة السابقين ، بيد أن الجزء الأكبر من العمل كان بوجه عام فى أيدى هيئة صغيرة من موظفين ذوى خبرة واجتهاد كبيرين . فكانت هذه الهيئة تصون المصالح التجارية للدولة الأم وللمستعمرات ، وتشرف على الشؤون المالية ونظم العدالة للمستعمرات ، وتمنح بعض التوجيه لمشروعات المستعمرات ، وتقترح السياسات الإمبراطورية الجديدة . وكانت لها سلطات تحقيق

خاصة ، كما كانت تضع التعليمات للحكام الملكيين ، وتعين الموظفين من أبناء المستعمرات إذا شغرت مناصب ما ، كما كان لها أن تطلب تقارير من هؤلاء الموظفين . وكان البرلمان يمارس سلطات تشريعية كبيرة على المستعمرات ، وكان فى الواقع الهيئة الوحيدة القائمة ، التى تملك معالجة العلاقات التجارية وغيرها للإمبراطورية البريطانية ، الخارجية منها والداخلية ، بدرجة كبيرة . وكانت للتاج سلطات كبيرة هو الآخر . فلم يكن يقتصر على تعيين حكام الأقاليم الملكية الثمانية (إذ أنه لم تحن سنة ١٧٦٠ حتى كانت رود أيلاند وكونكتيكت وحدهما مستعمرتين تتمتعان بحكم ذاتى بموجب تفويض ، وكانت بنسلفانيا وديلاوير وميريلاند هى المستعمرات المملوكة الوحيدة) ، بل كان يملك أن يجبّ ــ وكثيراً ما فعل ــ قوانين أجازتها المجالس التشريعية للمستعمرات . وكانت حالات النقض هذه تصدر عادة من مجلس شورى الملك ، استناداً إلى رأى يقدمه مجلس التجارة والمزارع . كذلك كان لمجلس شورى الملك أن يجتمع بشكل محكمة استئناف فى قضايا المستعمرات .

ولقد كانت التشريعات البرلمانية الرئيسية حتى ختام حرب السنوات السبع ، هى قوانين الملاحة المتعددة ، تطبيقاً لمبادىء اقتصادية معينة كان المفترض أن صالح الإمبراطورية البريطانية يرتكز إليها . وكانت نظرية مذهب التجاريين فى ذلك العهد تقول بأن ثروة أية دولة تتناسب مباشرة مع ما تدخر من ممتلكات أو ذهب أو فضة ، وأن مشروعات الأفراد أو الشركات يجب أن تكون تحت سيطرة الدولة ، من أجل تعزيز سلطتها . ولم تكن الإمبراطورية تعتبر اتحاداً ، وإنما وحدة ، أى دولة متماسكة . وكان المفترض فى هذه الوحدة أن يكون بوسع المستعمرات أن تساهم فى الثروة والسلطان القوميين بتوفير العمالة للملاحة الإمبراطورية ، وبإنتاج سلع كان على بريطانيا بدون ذلك أن تبتاعها من بلدان أجنبية . . كالسكر ، والتبغ ، والأرز ، ومؤن السفن البحرية ، وغيرها من المواد الأولية . وفى مقابل ذلك ، كانت الدولة الأم تمد المستعمرات بالصناع ، وبهذا يصبح العنصران الرئيسيان فى الإمبراطورية متكاملين .

وكان البرلمان ــ فى جزءه لنمو الملاحة التجارية الهولندية ــ قد أصدر قانوناً للملاحة ، منذ سنة ١٦٥١ ، حتم نقل كافة الصادرات من المستعمرات إلى إنجلترا على سفن يمتلكها إنجليز ، ويتولى تشغيلها إنجليز . ولقد وسعت من نطاق هذا النظام سلسلة من التشريعات التى تلت ذلك القانون . فأتاحت لإنجلترا والمستعمرات احتكار

نقل تجارة الإمبراطورية ، ووفرت لها حماية ضد أصحاب السفن الهولنديين وغيرهم من الأجانب ، واستلزمت أن يعاد شحن صادرات المستعمرات إلى القارة الأوربية فى الموانىء الإنجليزية ، ونظمت استيراد السلع الأوربية إلى المستعمرات بطريقة تعطى إيثاراً للمصنوعات الإنجليزية . ولقد حدّت لندن من نطاق المشروعات فى المستعمرات ، من بعض النواحى ، ولكنها شجعته فى نواح أخرى .

ولم تكن هذه القوانين منفّذة تنفيذاً كاملاً فى البداية ، ولكن قوانين مذهب التجاريين تعرضت للتصحيح فى سنة ١٧٦٣ ، عندما قامت بريطانيا بتنقيح وإحكام نظام المستعمرات .

مشكلة المذهب الاتحادى فى الإمبراطورية

والواقع أن التصحيح شمل النظام الإمبراطورى بأكمله . وأدت العملية ، إذ اشتملت على إعادة دراسة علاقات المستعمرات بالدولة الأم ، إلى التعجيل بالثورة . ومشكلة تنظيم الإمبراطورية هذه ، التى عرضت إذ ذاك بنسق واضح الحدود لأول مرة ، هى التى تضفى وحدة ومعنى على قدر كبير من تاريخ الجيل التالى ، التاريخ المتداخل والمشوش . كانت المشكلة هى : كيف يتسنى تنظيم وحكم إمبراطورية بحيث تصان مصالح السلطة المركزية والسلطة الذاتية المحلية معاً ، وكانت تلك من أصعب المسائل التى واجهت ساسة الحكم فى أى عصر . هل من الممكن ابتكار نظام تستطيع بوساطته الحكومة العامة فى ويستمنستر ممارسة السيطرة على كل الأمور الإمبراطورية العامة بطبيعتها ــ الحرب ، والسلم ، والشؤون الخارجية ، والأراضى الغربية ، والهنود ، والتجارة ، وما إلى ذلك ــ بينما يباح لمختلف الحكومات المحلية فى مساشوستس ، وفرجينيا ، وكارولينا الجنوبية ، وأى مكان آخر ، أن تسيطر على كل الأمور التى تعنى كل إقليم وحده ؟ هل من الممكن رسم خط بين هذه المصالح العامة والمصالح المحلية ببراعة تدع للحكومة المركزية سلطات كافية ، دون انتهاك لحريات الناس فى شؤونهم المحلية ؟

كانت هذه ، فى الواقع ، مشكلة المذهب الاتحادى . لقد كانت الإمبراطورية

البريطانية فى أواسط القرن الثامن عشر إمبراطورية اتحادية (فيدرالية) عملياً وواقعياً ، إن لم يكن وفقاً للقانون أو النظريات . كانت إمبراطورية تتوزع فيها السلطات بين حكومة مركزية وحكومات محلية . وكان البرلمان قد سيطر ، قرناً ونصف قرن ، على كافة المسائل ذات الصالح العام ، بينما مارست المجالس النيابية المحلية ، من البداية ، سيطرة عملية على كافة الأمور ذات الصالح المحلى . وكان هذا خليقاً بأن يتجلى واضحاً ، لو قدر للإمبراطورية أن تتجمد فى وضعها ، فى سنة ١٧٥٠ .

ولكن الإمبراطورية لم تكن من الناحية القانونية اتحادية ، بل كانت مركزية . كانت للبرلمان السلطة كلها ، قانوناً ونظرياً . وعندما آلى رجال الحكم البريطانيون على أنفسهم ، بعد سنة ١٧٦٣ ، مهمة إعادة تنظيم الإمبراطورية ، اتكأوا على السيادة العليا ــ القانونية أو النظرية ــ للبرلمان . وأصروا ، بنص المرسوم البيانى فى سنة ١٧٦٦ ، على أن المستعمرات « كانت ، ولاتزال ، وينبغى أن تكون حقاً تابعة وخاضعة للتاج الإمبراطورى والبرلمان فى بريطانيا العظمى » ، وأن للبرلمان « السلطة والنفوذ الكاملين لسن قوانين ولوائح لها قوة وصلاحية كافيتان لإلزام المستعمرات وشعب أمريكا . . فى كل الحالات ، أياً كانت » .

لقد أفسد رجال الحكم البريطانيون الرجاء ، إذ عرضت لهم الفرصة لإنشاء نظام اتحادى حقيقى . بيد أن المشكلة لم تحل فى سنة ١٧٧٦ ، ولا هى انتهت بانفصال المستعمرات عن الدولة الأم ، بل اكتفى بإحالتها إلى الولايات المتحدة . فقد واجه الأمريكيون ، من سنة ١٧٧٥ حتى سنة ١٧٨٧ ، المشكلة ذاتها . . مشكلة التوصل إلى حكومة موحدة للأغراض العامة ، مع الاحتفاظ بالحكم الذاتى لحكومات الولايات بالنسبة للمصالح المحلية دون مساس . وكان أول مجهود لحل المشكلة ، وهو « مواد الاتحاد الكونفيدرالى » فاشلاً ، وكرر الأمريكيون المحاولة مرة أخرى ، مستهدين بالتجربة المريرة ، فأنشأوا نظاماً فيدرالياً باقياً ، بموجب الدستور الفيدرالى فى سنة ١٧٨٧ .

وكان من الأهداف الكبرى فى هذه الفترة ، هدف يجب ألا نغفل عنه وسط دخان المعارك وفى المسيرة نحو الديمقراطية ، وهو حل مشكلة التنظيم الإمبراطورى وظهور نظام فيدرالى . فهذا النظام ، كما اكتمل فى النهاية ، أقيم على تجربة قرن من الزمن ، فى الإمبراطورية البريطانية ، والمداولات والمناقشات بعد عام ١٧٦٣ فى بريطانيا

وأمريكا ، وبلايا الحرب ومحن الاتحاد الكونفيدرالى . فكان التوصل النهائى إلى النظرية الاتحادية الفيدرالية ، فى دستور سنة ١٧٨٧ ، من أعظم الإنجازات البناءة فى ذلك العصر .

الأسباب العامة للتذمر

ليس من السهل تحديد تاريخ بداية الثورة ، غير أنه من المحقق أنها لم تكن فى سنة ١٧٧٥ . ولقد حاول جون آدامز ، بعدها بسنوات ، أن يميز بين الثورة الخالصة والحرب الثورية ، معلناً أن الأولى انتهت فعلاً قبل بداية الثانية . فكتب : « كانت الثورة فى رءوس الناس وفى اتحاد المستعمرات ، فتحقق كلاهما (ثورة العقول ، والاتحاد) قبل ابتداء الاشتباكات العدائية . كانت الثورة والاتحاد فى تكون تدريجى من سنة ١٧٦٠ حتى سنة ١٧٧٦ » . وهذا صحيح ، غير أنه لا يقل عنه صحة أن الثورة ــ كأمر منفصل عن الحرب ــ ظلت دون أن تكتمل سنوات قد تصل إلى سنة ١٨٠٠ . وقول آدامز إن الثورة كانت « فى عقول الناس » يضع أمامنا ضرورة البحث عن تمييز آخر . فلم يكن بين أهالى المستعمرات الأمريكية ، فى يوليو سنة ١٧٧٦ ، سوى أقلية موقنة بحكمة الانفصال عن الامبراطورية البريطانية . ولعل نصف الأمريكيين ظلوا ، حتى ذلك التاريخ ، يتمنون تفادى حدوث طلاق سياسى . وقد ظل ثلث أهالى المستعمرات تماماً ، طيلة سنوات الحرب ، يعارضون التمرد ، وثلث آخر غير مكترثين ، بشهادة جون آدامز نفسه . لذلك فمن الأدق أن نقول إن الثورة قبل سنة ١٧٧٦ ، كانت فى عقول جزء من الناس ، وأن الصراع الذى جرى من سنة ١٧٧٦ حتى سنة ١٧٨٣ كان صراعاً لفرضها على بقية الناس ، ولحمل الحكومة البريطانية على الاعتراف بها .

وإذا تناولنا الأسباب الاقتصادية ، فعلينا أن نفرق تفريقاً جلياً بين مختلف القطاعات والمصالح : فقد كان التاجر من سكان الشمال يعانى من مظالم تختلف عما يقاسيه المزارع فى الجنوب ، وكان المستغل للأرض من القطاعات الغربية يعانى غير ما يعانيه هذان .

لقد كانت قوانين الملاحة أو القوانين التجارية أكثر إضراراً بالمستعمرات الشمالية منها

بالجنوبية . ولم تكن لهذه المستعمرات الشمالية سلع رئيسية ثمينة تحملها إلى انجلترا مباشرة لاستبدال سلع مصنوعة بها . فكان عليها ، بوجه عام ، أن تدفع مقابل مستورداتها من انجلترا بنقود حاضرة ، وللحصول على النقود كان عليها أن تتجر مع جزر الهند الغربية . فكانت تنقل القمح واللحوم وكتل الخشب إلى جزر الهند الغربية ، وتحصل فى مقابلها على القطن أو النيلة أو السكر . كذلك كانت تحصل على الدبس [١] فتصنع به خمر الروم . وكانت تتاجر فى أفريقيا للحصول على عبيد تبيعهم فى جزر الهند الغربية أو فى المستعمرات الجنوبية . وفى سنة ١٧٣٣ ، صدر قانون الدبس ، الذى فرض رسوماً مانعة قصرت تجارة نيو إنجلاند مع جزر الهند الغربية على الجزر البريطانية وحدها . ولو نفذ القانون تنفيذاً صارماً لأصيبت نيو إنجلاند بخسائر جسيمة . غير أن قانون الدبس تفودى على أوسع نطاق . فكانت رود أيلاند مثلاً تستورد حوالى ١٤ ٠٠٠ برميل من الدبس سنوياً ، منها ٥٠٠ ١١ ترد من جزر الهند الغربية الفرنسية والإسبانية . إذ أن التهريب لم يكن جريمة ، وكانت السلطات الإنجليزية تغمض عينها ، بل كان البعض يقولون صراحة إن النقود المستخلصة من هذه التجارة غير المشروعة ، كانت تذهب فى آخر الأمر إلى التجار والصناع الإنجليز . وقد جمعت أسرة ليفنجستون فى نيويورك ، وجون هانكوك فى مساشوستس ثروة من السلع المهربة .

وكان قانون السكر فى سنة ١٧٦٤ فى واقعه بعثاً لقانون الدبس القديم الصادر فى سنة ١٧٣٣ ، بحيث يجعله نافذ المفعول . فخفضت الرسوم المانعة القديمة ، التى لم يكن من سبيل لتحصيلها ــ بواقع ستة بنسات عن الغالون ــ إلى ثلاثة بنسات ، وأضيف نص للاستيلاء على كل السفن التى تتهرب من القانون . ولعل جعل المعدل بنسين كان أكثر عدالة ، بيد أن جماعة الضغط السياسى المتحمسة لجزر الهند الغربية البريطانية فى البرلمان ، دفعته إلى المستوى الأعلى . وكانت هذه ضربة قاسية للمصالح الاقتصادية لنيو إنجلاند . ولقد احتجت رود أيلاند بأن تجارة جزر الهند الغربية كانت تمثل كافة أسس تجارة هذه المستعمرات مع إنجلترا ، وأن جزر الهند الغربية البريطانية ، ما كانت تملك أن توفر من الـ ١٤ ٠٠٠ برميل من الدبس التى كانت تستوردها ، سوى ٢٥٠٠ على أكثر تقدير . ونصت إحدى مواد القانون على أن القضايا المتعلقة بقانون

(١) Molasse وهو دبس السكر أو العسل الأسود ، وهو مادة لزجة تفصل عن السكر الخام عند صنع السكر .

السكر من الممكن أن تعرض على محكمة يرأسها أى نائب أميرال فى أمريكا ، مما يعنى أن أى تاجر قد يجد سفينته وملاحيه مقتادين مسافة طويلة حتى هاليفاكس للمحاكمة . وما كان له أن يطالب بتعويضات عن الإضرار إذا ما برأ المحلفون ساحته . وقد قال أحد زعماء المستعمرات ــ وهو جاريد إنجرسول ــ إن الإجراء كان أشبه بإشعال النار فى مخزن للغلال من أجل إنضاج بيضة ، فمن المؤكد أن هذا مزعج للرجل الذى يمتلك المخزن .

وكان ثمة باعث آخر للمضايقة ، تمثل فى ضريبة التصدير على السلع الأوربية التى تشحن إلى المستعمرات من بريطانيا العظمى ، فقد رفعت فى سنة ١٧٦٤ من ٢,٥ فى المائة إلى ٥ فى المائة . وصدرت الأوامر لموظفى الجمارك بأن يكونوا أكثر تشدداً ، وعزز تنفيذ القانون بعدة طرق ، مثل إرساء بوارج حربية ترابط فى المياه الأمريكية لاعتقال المهربين ، وإصدار أوامر قضائية مساعدة لتمكين ضباط التاج من تفتيش أية أماكن يشتبه فيها .

وكان الجنوب فى موقف مختلف تماماً . فلم تكن له تجارة تذكر مع جزر الهند الغربية ، بل كان يرسل سلعه الرئيسية ــ التبغ والنيلة والأسماك المحفوظة والخشب والجلود ــ إلى انجلترا مباشرة ، ويأخذ فى مقابلها سلعاً مصنوعة . بيد أن هذه التجارة مع انجلترا كانت تقوم على نظام مناسب للدولة الأم وليس مناسباً لسكان المستعمرات . فقد كان فى أيدى البيوت التجارية البريطانية والعمال أو الوكلاء الذين كانت ترسلهم إلى الأقاليم . فكان العمال يشترون التبغ والسلع الأخرى بأسعار منخفضة بدرجة غير منصفة فى أكثر الأحيان ! ــ وكانوا يبيعون الملابس ، والأثاث ، والخمور ، والمركبات وغيرها من البضائع بأسعار مرتفعة بدرجة غير عادلة فى أكثر الأحيان . وكان أصحاب المزارع ذوو اليسار قد ركنوا إلى عادة طلب ما يودون من لندن ، ودفع الأثمان بصكوك ، تاركين ديونهم ترتفع إلى مبالغ فادحة . وأصبح كثير من الديون وراثية تنتقل من أب إلى ابن ، وفى هذا كتب جيفرسون بعد الثورة : « كان أصحاب المزارع هؤلاء نوعاً من الممتلكات التابعة لبيوت تجارية معينة فى لندن » .

والواقع أن جيفرسون قدر مجموع ما كان على فيرجينيا من ديون للتجار البريطانيين ، فى أوائل الثورة ، بما يزيد على مليونى جنيه ، حاسباً أن هذا قدر جميع النقود المتداولة فى فيرجينيا عشرين مرة أو ثلاثين . ومن الطبيعى أن أصحاب المزارع كانوا

يكـرهـون دائنيهم الإنجليز ، كما كان مزارعـو الغرب يكرهون ، فى مرحلة لاحقة ، الدائنين الذين رهنوا لديهم أراضيهم من أبناء الشرق . وكانوا يدركون تماماً أن أسهل طريقة للتخلص من العبء الفادح هو التمرد على ربقة الإنجليز جميعاً ، واللجوء إلى تأجيل أو إلغاء دفع الديون بسبب الحرب . على أنه كانت للدائنين الإنجليز شكاة هم الآخرين ، إذ أنهم كانوا قد جازفوا بأموالهم إكراماً لأصحاب المزارع ، وما كان مليونا جنيه بمبلغ يستهان بخسارته .

ولقد أصدرت بعض المجالس التشريعية فى الجنوب ، خلال ربع القرن الذى تلا سنة ١٧٥٠ ، قوانين للإفلاس ولتجميد الديون متساهلة فى صف المدينين . فلما نُميت هذه إلى انجلترا أخذ مجلس شورى الملك ينقضها باستمرار تقريباً . ونجم عن هذا شعور ساخط بأن الأغنياء فى انجلترا كانوا يسحقون كرامة الفقراء . كذلك حاول البرلمان أن يوقف لجوء المستعمرات إلى إصدار نقود ورقية . إذ كانت معظم الأقاليم قد أصدرت قدراً كبيراً من الورق النقدى بعد عام ١٧٣٠ ، وأضفت عليه بعض الأقاليم قيمة قانونية لسداد الالتزامات ، ولكنها صادفت معارضة مطردة الازدياد من لندن . وأخيراً ، حظر البرلمان نهائياً ، فى سنة ١٧٦٤ ، على المستعمرات جعل النقود الورقية ذات صلاحية قانونية لسداد الديون ، فأثار بذلك ضغينة جديدة ، وكبيرة ، لدى جماعات المدينين فى كافة أرجاء أمريكا البريطانية .

وثمـة مصلحـة اقتصـادية كبـيرة أخـرى ، تتعلق باستغلال الأرض والتوطين فى الغرب . فقد كانت الثروة تجمع فى البطاح الغربية بطريقتين رئيسيتين : بالاتجار مع الهنود للحصول على الفراء ، وبتنظيم شركات للأراضى تحصل على مساحات كبيرة من القفـار ، وتقسيمهـا ، وبيعهـا . وكـان تاجر الفراء والساعى للاستحواذ على الأرض يطمعان فى تلك الأعوام فى أن يظفرا بحرية التصرف ، كما يطمع المنقب عن البترول وقاطع الأخشاب فى الغرب ، فى أيامنا الراهنة . وإلى جانب هذين الفريقين نجد ، بعد سنة ١٧٦٠ ، فريقاً آخر هم المحاربون من أبناء المستعمرات فى حرب السنوات السبع ، الذين منحوا أراضى فى الغرب مكافأة لهم . وكانت فيرجينيا بالذات قد كافأت جنودها على هذا النحو ، بينما وعد الحاكم دينويدى الجنود الذين يبلغون من البسالة أن يطردوا الفرنسيين من ممتلكاتهم الواسعة فى وادى أوهايو بمائتى ألف دونم .

ولقـد كان الكثيرون من عامة الشعب فى بنسلفانيا وفيرجينيا وإقليمى كارولينا من

المتعطشين إلى الأرض . ومع نهاية الحرب بدا واضحاً أنه لن يلبث أن يكون ثمة إقبال كبير على الغرب . فأخذت شركات الأرض تكون واحدة بعد أخرى ، وكان أعظم رجال القارة ـ وهم بنجامين فرانكلين ، وجورج واشنطن ، وسير وليم جونسون ـ شديدى الاهتمام ، فكانت ثمة ضجة صاخبة من المطالبات وصفقات الشراء ، وعمليات مسح الأراضى .

غير أن الحكومة البريطانية كانت تضع بعزم سياسة جديدة لتشديد السيطرة وفرض الأمن والنظام فى الغرب ، بينما كان هذا السيل من البشر يتخاطفون أراضى الغرب . وفى سبيل إقرار السلام مع الهنود ، ومنع أبناء المستعمرات من الإيغال فى الغرب إلى ما يتجاوز نطاق السيطرة الإنجليزية ، وإنهاء فوضى تداخل ادعاءات ملكية الأراضى ، أعلنت فى سنة ١٧٦٣ أن الاستيطان بأكمله يجب أن يتوقف عند قمة جبال أبلاش ، وأن كافة الأراضى بعد « خط البيان » هذا محجوزة إلى أجل كأملاك للتاج ، ولا ينبغى أن تباع أى من أراضى الهنود ، فى أى مكان ، إلا للتاج . وكان الرأى أن شيئاً من التأخير لا يضير ، وإن من الممكن فتح الأراضى لأبناء المستعمرات بعد ذلك الأجل شيئاً فشيئاً . وما لبث مجلس التجارة والمزارع أن ساند مشروعاً لإنشاء مستعمرة غربية جديدة تدعى فانداليا . غير أن البيان أساء إلى تجار الفراء ، وشركات الأراضى ، والملاك الذين اكتسبوا الأرض على سبيل المكافأة ، وأولئك الذين كانوا فى نهم إلى أراضى الغرب بوجه عام ، إذ بدا أنه أغلق بعنف الباب الذى كان الأمريكيون قد قاتلوا الفرنسيين ليفتحوه قسراً .

وكانت الشكاوى المتعلقة بالكنيسة فى المستعمرات تتركز فى العلاقات بالكنيسة الإنجليكانية ، إذ كانت كنيسة تساندها الدولة فى كافة المستعمرات جنوب ديلاوير ، وتعولها جزئياً فى نيويورك كذلك . وكانت ثمة كنائس ذات سلطات فى ثلاث مستعمرات فى الواقع ، ومع أن هذه السلطات كانت أشد مما تمارسه الكنيسة الإنجليكانية ، فإن هذه هى التى كانت تثير العداء .

ولقد قام هذا العداء على أساسين رئيسيين : أن كثيرين من أبناء المستعمرات كانوا يعارضون بعنف دفع ضرائب للكنيسة ، وأنهم كانوا يخشون قيام سلطة أسقفية بروتستانتية ذات ميول سياسية . وكان لكل راعى كنيسة إنجليكانى بيت ، وأرض موقوفة على الكنيسة ، ومرتب ثابت يدفع من الضرائب ، ورسوم يتقاضاها . ومن

المحقق أن أتباع الكنيسة البروتستانتية فى كافة المستعمرات كانوا أقلية . ولقد كانت كل العائلات الكبيرة فى الأراضى المنخفضة من فيرجينيا ــ ومنهم آل واشنطن ، وآل لى ، وآل راندولف ، وآل كارتر ، وآل ميسون ، وآل كارى ــ من الأسقفيين البروتستانت . بيد أن المنشقين ــ الكويكر ، والمعمدانيين ، واللوثريين ، والمشيخيين ــ كانوا أكثر عدداً فى غرب ريتشموند . ولم يكن فى كارولينا الشمالية سوى حفنة من البروتستانت الأسقفيين ، وإن كانت السلطات قد حاولت أن تجعل الشعب يعول تسعة من القساوسة الأسقفيين . أما فى كارولينا الجنوبية فكانت الكنيسة أقوى مكانة ، ولكن المنشقين كانوا أغلبية كبيرة هناك هم الآخرون ، إذ كانت لهم حوالى ثمانين أبرشية . وما من منشق متدين كان يستسيغ دفع إعانة لرجل دين أسقفى ، استساغته دفعها لواحد من عقيدته .

وكان ثمة سبب آخر للنزاع يتمثل فى مسألة الدفاع عن الامبراطورية . كان من المحقق حدوث بعض القتال مع الهنود ، بينما كان الفرنسيون يتحرقون شوقاً للانتقام ، ولم يكن من سبيل للاطمئنان إلى الإسبانيين فيما وراء نهر المسيسيبى . ولم تكن الحكومة البريطانية تعتقد أن بوسع المستعمرات أن تدافع عن نفسها . فكانت تشكو من أنها مبطئة ومزعجة فى حشد الجنود فى الحرب الأخيرة ، وأنها أخفقت فى العمل بانسجام وتناسق . وكانت الهيئة المركزية الوحيدة هى الحكومة الامبراطورية فى لندن ، برئاسة جورج جرنفيل ، ومن ثم لم يلبث أن تقرر الاحتفاظ بعشرة آلاف جندى فى أمريكا الشمالية ، ودفع ثلث نفقات بقائها من حصيلة ضرائب المستعمرات . وكان معنى هذا تحصيل حوالى ٣٦٠٠٠٠ جنيه استرلينى فى المستعمرات . وبعد أن أمهل جرنفيل المستعمرات عاماً ، وأكد لها أنه سيتخذ خطة أفضل إذا هى قدمت المبلغ ، قدم مشروع قانون لفرض ضريبة تمغة (رسوم طوابع) على الصحف والمستندات القانونية وغيرها . وأجاز البرلمان القانون فى سنة ١٧٦٥ بمعارضة لا تذكر ، وأقر معه إجراء يلزم المستعمرات بإمداد الجنود بالوقود ، والضوء ، ومعدات النوم ، وأوانى الطهو ، ومساعدتهم فى الحصول على مأوى . ولقد بدا الأمر بسيطاً فى نظر انجلترا ، بيد أنه بالنسبة لأهالى المستعمرات كان مثالاً واضحاً لفرض الضرائب دون وجود ممثلين للشعب .

أخيراً ، كانت أمريكا تربة خصبة لتعاليم ومذاهب ذات طابع جمهورى أو شبه جمهورى . إذ ظل السكان قرناً ونصف قرن يعيشون فى جو ديمقراطى أو « محقق

للمساواة » . فكانت الفوارق الديمقراطية قليلة ، وكانت الفرص الاقتصادية مفتوحة للجميع على قدم المساواة . ولم يؤد وجود طبقة أرستقراطية إلا إلى تنشيط نمو المبادىء الديمقراطية . وكانت ثمة طبقة من سكان الساحل ، أو صفوة متضامنة ، قليلة العدد ، تستحوذ على معظم الثروة ، وتقتصر على بعض الأقاليم ، مثل فيرجينيا وكارولينا الجنوبية ، وتستأثر بالنفوذ السياسى ، وقد واجهت الديمقراطية الناشئة فى داخل البلاد صراعاً طويلاً ضدها ، فكان صغار المزارعين فى جوف البلاد ، والمهاجرون الألمان والاسكتلنديون ــ الأيرلنديون ، والعمال والميكانيكيون من أهل المدن ، يعززون أنفسهم باستمرار إزاء التجار وأصحاب المزارع القدامى . وقد فعلوا ذلك طيلة الجيل السابق على الثورة بهمة أذهلت من هم أرقى منهم ، وساهمت هذه الروح ذاتها فى تحمسهم الثورى ضد الدولة الأم .

وعندما نحصى القادة فى الثورة على إنجلترا ، نجد أنهم ينقسمون إلى فريقين رئيسيين : الأول : مجموعة من المتعلمين ، والكتاب ، والمفكرين ، من أمثال صمويل آدمز ، وجون آدمز ، وجون جاى ، وجيمس أوتيس ، وألكسندر هاملتون ، وجون مورين سكوت ، ووليم ليفنجستون ، وبنجامين فرانكلين ، وجون ديكينسون ، وتشارلز كارول من كارولتون ، وتوماس جيفرسون ، وجورج ميسون ، وويلى جونز ، وجون رتليدج . وكانت تؤازرهم مجموعة من المتطرفين قليلى التعليم أو عديميه ، انبثقت من الميكانيكيين وصغار العمال الزراعيين ، من أمثال ألكسندر ماكدوجال ، وإيزاك سيرز ، وجون لام فى نيويورك ، وأمثال دانييل روبردو ، وجورج بريان فى بنسلفانيا ، وأمثال باتريك هنرى فى فيرجينيا ، وتوماس بيرسن وتيموثى بلدويرث فى كارولينا الشمالية ، وكريستوفر جودسدن وتوماس سومتر فى كارولينا الجنوبية . أما الفريق الثانى فكان من المندفعين ، ذوى الطباع المتأججة ، الذين يميلون إلى الأخذ بالآراء المتطرفة فى الحكم ، فهم يريدون ديمقراطية خالصة أو ما يقرب من ذلك . وكانوا يستمدون إلهامهم من مفكرين أمثال جيفرسون وسام آدمز ، بيد أنهم بثوا فى الحركة الثورية ، عندما بدأ عنفوانها ، كثيراً من نشاطها العنيف القاسى . على أن الفريق الأول كان أهم من الثانى بكثير فى إيقاد شعلتها . فكان المتعلمون يستغلون الصوت والقلم بإخلاص صادق ، ويطلقون أسراباً من المنشورات ، ويملأون الصحف بالمقالات ، وينشرون آراءهم السياسية عن طريق الاجتماعات العامة .

ولقد رجع كتاب المستعمرات إلى فريقين قويى النفوذ من المفكرين البريطانيين : الفريق الذى كان قد كتب ليبرر التعاليم الداعية لدولة بيوريتانية ، والفريق الذى برر ثورة الأحـرار (الهويج) فى سنة ١٦٨٨ . أى أنهم استمدوا حججهم من سيدنى ، وهارينجتون ، وميلتون ــ وفوق هؤلاء جميعاً ــ جون لوك . فإن ثانى كتب لوك ، وهو « رسالتان فى الحكم » يحتوى على بذور « إعلان الاستقلال الأمريكى » . فقد كان لوك يرى أن الوظيفة العليا للدولة هى حماية الحياة ، والحرية ، والثروة ، وهى الحماية التى لكل إنسان الحق فيها . وقال إن تقلد السلطة السياسية إنما يكون أمانة من أجل مصلحة الشعب وحده . وعندما تنتهك الحقوق الطبيعية للجنس البشرى ، فإن للشعب الحق فى ــ ومن واجبه ــ إلغـاء أوتغيير الحكـومة . وهذا المبدأ مكتوب فى مقدمة « إعلان الاستقـلال » . ولقـد أكـد لوك أن « العـلاج الحق للقـوة بدون سلطة هو معارضتها بالقوة » . كذلك أرسى حجر أساس كبيراً آخر للثورة ، عندما أوضح فى « رسالة فى التسامح الدينى » الرأى بأن الكنيسة والدولة تشغلان مجالين منفصلين تمام الانفصال ، ويجب أن يظلا منفصلين . وأبـدى أن الكنيسـة ، فى أسلم شخصية لها ، منـظمـة اختيارية ، يعولها أعضاؤها بمحض إرادتهم ، لا الحكومة بقوة فرض الضرائب .

وقد كان لوك والمفكرون الذين وقفوا معه موضع إعجاب عميق من كل الأمريكيين المتعلمين ، المهتمين بالسياسة . والواقع أن الأمريكيين ورثوا فلسفتهم السياسية فى عين الوقت الذى تحول فيه البريطانيون عنها . فإن الممارسة الدستورية فى بريطانيا ، بعد سنة ١٦٨٨ ، ابتكـرت نظامـاً نيابياً مشـوهـاً ، وغـير ديمقـراطى . إذ برزت قلة حاكمـة (أوليجـاركية) ، تقـوم على نظام دوائـر انتخابية غير سليم ، وعلى رفض منح المدن الصناعية الجديدة حق أن يكون لها نواب ممثلون ، وعلى حرمان مدروس ومنظم لأجزاء كبيرة من السكان من حق الانتخاب . وكان الحرمان من حق الانتخاب ، والدوائر غير السليمة أو ما يعادلها موجودة فى أمريكا ، ولكن إلى غير هذا المدى . فالواقع أن صراعاً دائباً استمر فى أمريكا طيلة القرن الثامن عشر لتوسيع نطاق المتمتعين بحق الانتخاب ، وللعمل على أن تحظى المقاطعات الجديدة والمناطق الغربية بتمثيل نيابى عادل ، على نسق المستوطنات الأقدم عهداً . فكان لأمريكا نظام نيابى يزداد تمثيلاً للشعب باطراد . أما إنجلترا فكان نظامها أقل تمثيلاً باطراد . وكان الشعبان يؤمنان بالحقوق الطبيعية ، إذ أن « وثيقـة بيان الحقوق » كانت من التراث البريطانى العظيم ، بيد أن كثيرين من

البريطانيين كانوا يميلون إلى أن يقبلوا قيام سلطة برلمانية مطلقة تقريباً ، فى حين أن معظم الأمريكيين أسرعوا فى رفضها ورفض أية سلطة مطلقة أخرى . وعندما بدأت المتاعب مع الدولة الأم ، فى سنة ١٧٦٥ ، وجد الأمريكيون أنهم أوتوا فلسفة سياسية مصوغة تماماً وفقاً لحاجاتهم .

سوء تفاهم

نادراً ما أساء غريبان فهم أحدهما الآخر ، كما فعل أهالى المستعمرات الأمريكية والتاج البريطانى فى السنوات العشر السابقة على الثورة . فما كانت أى من الخطوات البريطانية الأولى مستلهمة من رغبة فى التعسف بأمريكا . إذ كان الحرص على حل مشكلة الهنود الحمر ، وإقامة حاميات فى المستعمرات الأمريكية لحمايتها ، وتدعيم المرافق الجمركية ، تبدو أموراً عادلة ومعتدلة فى نظر الوزراء فى لندن ، ولكنها بدت فى نظر الأمريكيين أشبه بوسائل محكمة للظلم .

ولقد أعقبت حرب السنوات السبع أوقات عصيبة . فإذا الرجال المتعطلون عن العمل والمحتاجون إلى المال يبغون البحث عن مواطن جديدة وراء الجبال ــ ولكن « خط البيان » كان يمنع ذلك . وكانت التجارة كاسدة ، والنقود الحاضرة نادرة جداً ، ومع ذلك انتهز التاج هذه اللحظة بالذات ليستنزف ما فى البلاد من ذهب وفضة بضرائب جمركية جديدة ، تفرض بصرامة . وفى الوقت ذاته ، كان يفرض على أهالى المستعمرات بقانون التمغة ضريبة بدون رضاهم . وكانت الأموال المحصلة بهذه الطريقة تستخدم للاحتفاظ بجيش مرابط ، لم يكن معظم أهالى المستعمرات يرون حاجة حقيقية تدعو إليه . ثم إن هذه الحامية المبغوضة كانت موكلة بدورها بأن تنفذ اللوائح الجمركية الباهظة وقوانين الضرائب الجائرة . ولقد كان يبدو لضباط التاج ، فى سنة ١٧٦١ ، أن طلب « أوامر قضائية مساعدة » من المحاكم أمر سليم ــ فهى أوامر تفتيش لمعالجة التهريب . ولكن هذه الأوامر القضائية كانت ، فى نظر أهالى المستعمرات ، تنطبق على كل امرىء ، وتمنح الضباط الذين يحملونها سلطة مطلقة ، وتسمح بمداهمة وتفتيش بيت كل امرىء أو حانوته ، فهى لا تطاق . وكانت الحكومة البريطانية قد أقرت قوانين

لتقييد أو تحريم الصناعات فى المستعمرات . وقد ظن التاج أن هذا أمر عادل ، إذ كان يعتقد أن الإمبراطورية تصبح أكثر رخاء إذا انصرفت المستعمرات إلى إنتاج المواد الأولية ، وعكفت بريطانيا على إنتاج السلع المصنوعة . غير أن كثيرين من أهل المستعمرات كرهوا هذا التدخل .

ثم إن ثمة خلافاً نظرياً وراء الخلافات على هذه الأمور العملية ، أضفى على النزاع كله عمقاً ، وأحدث فجوة لا سبيل لسدها .

ذلك أن معظم المسئولين البريطانيين كانوا يعتقدون بأن البرلمان هيئة إمبراطورية ، لها من السلطان على المستعمرات عين ما لها فى الوطن . فبوسعه أن يقر قوانين لمساشوستس كما يقر قوانين ليبركشاير . وكانت للمستعمرات حكوماتها الخاصة حقاً ، ولكن المستعمرات كانت مع ذلك مجرد شركات ، فهى بهذا الوضع تخضع لكافة القوانين الانجليزية ، وللبرلمان أن يحد من حكوماتها أو يوسعها أو يحلها متى شاء . وقال القادة الأمريكيون إن الأمر ليس كذلك ، إذ لا وجود لبرلمان « إمبراطورى » . وذهبوا إلى أن علاقاتهم القانونية الوحيدة كانت مع التاج . فالتاج هو الذى وافق على إنشاء مستعمرات وراء البحر ، والتاج هو الذى أتاح لها حكومات . وكان الملك ملكاً لمساشوستس كما هو ملك لانجلترا ، ولكن البرلمان الانجليزى لم يؤت حقاً لسن قوانين لمساشوستس إلا بقدر ما للمجلس التشريعى لمساشوستس من حق لسن قوانين لانجلترا . فإذا كان الملك راغباً فى أموال من مستعمرة ما ، فقد كان بوسعه الحصول عليها بأن يطلب منها منحة ، ولكن البرلمان لم يؤت سلطة لأخذها بإقرار قانون للتمغة أو أى قانون آخر من قوانين الدخل الحكومى . وموجز القول أنه لا سبيل لفرض ضريبة على أحد الرعايا البريطانيين ، سواء كان فى انجلترا أو فى أمريكا ، إلا عن طريق ممثليه النيابيين .

على أنه من الجدير أن نتبين أن الشعور فى كل من بريطانيا وأمريكا كان منقسماً انقساماً حاداً إزاء المسائل الرئيسية ، وهى أن النزاع المتطور لم يكن صراعاً بين المستعمرات والدولة الأم بقدر ما كان نزاعاً مدنياً فى داخل المستعمرات وفى داخل بريطانيا العظمى كذلك . وكان زعماء الأحرار المبرزون فى البرلمان : تشاتهام ، وبيرك ، وباريه ، وفوكس ، يميلون ميلاً قوياً نحو جانب الوطنيين الأمريكيين . وفى المستعمرات ، كانت كتلة قوية من المحافظين تساند الحكومة البريطانية . كذلك من الجدير أن ندرك أن بعضاً من المتطرفين من الجانبين كان يسعدهم أن يستغلوا الخلاف

لتعزيز وجهات نظرهم الخاصة . فكان اللورد بيوت يغتبط بخشونة الحملة على أهل المستعمرات للنيل من روح الديمقراطية التى كان جون ويلكس وآخرون فى انجلترا ينادون بها . وكان صمويل آدمز فى مساشوستس ، وباتريك هنرى فى فيرجينيا ميالين هما الآخران إلى استغلال النزاع لدفع آرائهما المتطرفة (الراديكالية) فى الشؤون السياسية للمستعمرات قدماً ، ولإعادة تشكيل المجتمع على قاعدة أكثر مراعاة للإنسان العادى .

تنظيم ثورة

لم يكن **الانقضاض** على الحكومة البريطانية حركة واسعة ، تلقائية . بل إنها كانت مرسومة بعناية ، بوساطة رجال أذكياء ، وقد نفذت بجد وحكمة بوساطة بعض من أنشط الأفراد فى القارة الأمريكية الشمالية . وما كانت لتنجح قط لو كانت قد تركت بغير تنظيم . فنظراً لأن الوطنيين من ناحية كانوا ذوى تنظيم طيب ، ولأن المحافظين أو الموالين لبريطانيا لم يكونوا منظمين ، كسب الفريق الأول المعركة .

كانت الخطوة الأولى فى الحركة ، هى ظهور شغب متقطع ، وغير مترابط ، لمقاومة الإجراءات البريطانية . وقد أحدث قانون التمغة الصادر فى سنة ١٧٦٥ هذا الرد فى عدة مستعمرات . واحتجت المجالس التشريعية ، وأصدرت فيرجينيا بوجه خاص مقررات قوية . بيد أن أشد التصرفات مفعولاً ، صدر عن عامة الجماهير الذين أتلفوا طوابع التمغة فى مساشوستس ونيويورك ، وفيرجينيا ، وكارولينا الشمالية وأقاليم أخرى ، واضطروا محصلى الضريبة إلى الاستقالة أو الفرار ، بل إنهم هددوا حياة الحكام الملكيين . ولقد وجد هذا التمرد تأييداً شعبياً كبيراً فى البداية ، ولكن المواطنين المراعين للنظام والموسرين لم يلبثوا أن أبدوا عدم رضائهم عنه . كذلك ظهرت إلى الوجود منظمات تدعى « أبناء الحرية » لتحقق معارضة شعبية للطغيان البرلمانى .

وكانت الخطوة الثانية تنظيم مقاطعة اقتصادية يتولاها التجار ، ويؤيدها فى بعض الأحيان المجالس النيابية للأقاليم . وقد دعا إلى ذلك « القانون المؤقت » الذى صدر فى سنة ١٧٦٧ ، وفرض مكوس استيراد على الشاى ، والورق ، والزجاج ، والطلاء . فانتهج التجار والمواطنون ذوو المكانة فى عديد من المجتمعات اتفاقيات لعدم الاستيراد

أوعدم الاستهلاك ، لمقاطعة المواد التى فرضت عليها ضرائب بريطانية . وقد اتخذ هذا الإجراء فى بوسطن ، فى مارس سنة ١٧٦٨ ، فسرعان ما انتشر فى المستعمرات حتى عمها جميعاً خلال عامين . ولقد هبطت الواردات من انجلترا فى بعض المستعمرات إلى حوالى النصف ، بينما نفذت الاتفاقات فى بعض آخر تنفيذاً سيئاً . وانتهت هذه الحركة فى سنة ١٧٧٠ ، عندما ألغى البرلمان كل المكوس المؤقتة إلا على الشاى .

وكانت الخطوة الثالثة تشكيل شبكة من اللجان المحلية واللجان المشتركة بين المستعمرات للتراسل . وكان الزعيم الرئيسى لهذا المشروع هو سام آدمز من مساشوستس ، وكان رجل دعاية وتنظيم بالفطرة . كما كان أقوى الشخصيات نفوذاً فى الجمعية العامة للأحرار ، التى اجتمعت فى فانويل هول للسيطرة على بوسطن ، بينما كان يقوم بدور قيادى فى الهيئة التشريعية لمساشوستس . وعلم المواطنون فى صيف سنة ١٧٧٢ أن الحكومة الملكية كانت تعتزم منح الحاكم وقضاة المحكمة العليا رواتب دائمة ، فتخلصهم بذلك من سيطرة الشعب . فدعيت المدينة إلى اجتماع ، واتخذت فيه خطوة « اشتملت على الثورة الكاملة » . وأقيمت لجنة للتراسل كى تتصل بالمدن الأخرى فى الإقليم كله . وسرعان ما كان فى كل منطقة لجنة مماثلة ، وأصبح الإقليم يطن كخلية نحل هائجة . ونُظم القوم من خليج مساشوستس إلى المناطق المتطرفة فى حشد جيد التنظيم . وشهد بذلك كاتب من المحافظين ، إذ قال فيما بعد : « كان هذا هو مصدر العصيان . لقد شهدت البذرة الصغيرة عند غرسها . كانت فى ضآلة حبة الخردل ، وقد راقبت النبتة حتى أصبحت شجرة عظيمة » . وأقامت مستعمرات أخرى لجاناً محلية مشابهة ، وعين ممثلو المدن فى فيرجينيا ، فى سنة ١٧٧٣ ، أول شبكة للجان المشتركة بين المستعمرات ، فسرعان ما شملت القارة بأسرها .

وكانت الخطوة الرابعة نحو الثورة ، هى إقامة هيئات تشريعية ثورية ، أو مؤتمرات إقليمية ، كما كانت تسمى بوجه عام . فما كانت الهيئات التشريعية النظامية القديمة لتسعف المتطرفين ، لسببين : أنها كانت تتألف من رجال محافظين إلى حد كبير ، وكان أصحاب الثروات يتشبثون بالنظام القائم ، كما أنها كانت بطيئة التصرف . . أما السبب الثانى ، فإنها كانت إلى حد ما تحت سيطرة الحكام الملكيين الذين كانوا يملكون أن يعطلوها أو يفضوها متى شاءوا . ولقد ظهرت أول مؤتمرات إقليمية فى سنة ١٧٧٤ ، نتيجة نبأ إقرار قانون ميناء بوسطن . وكانت وسيلة إنشائها غاية فى البساطة .

ففى فيرجينيا مثلاً ، وصلت أنباء قانون ميناء بوسطن فى مايو سنة ١٧٧٤ ، فأثارت هزة فى الإقليم . وكانت الهيئة التشريعية مجتمعة إذ ذاك ، فإذا جيفرسون وباتريك هنرى ، وريتشارد هنرى لى ، وأربعة أعضاء أو خمسة آخرين يعقدون اجتماعاً فى قاعة المجلس . وقرروا الدعوة إلى يوم صيام وصلاة . وكانت هذه مناسبة جليلة غير عادية ، إذ لم يحدث مثلها منذ حرب السنوات السبع . ولقد راجعوا السوابق الصادرة عن البرلمان فى عهد كرومويل ، وأغروا ممثلى المدن بتحديد يوم أول يونيو سنة ١٧٧٤ لهذه المناسبة . وبادر الحاكم دانمور إلى إلغاء عضوية الممثلين بوصفهم عصاة . فساروا فى موكب ضم تسعة وثمانين عضواً قوى الشكيمة ، فى الطريق حتى حانة رالى ، وفى قاعة أبوللو ، التى كانت مسرحاً لكثير من الحفلات الراقصة والمآدب ، انتظموا برئاسة رئيس الهيئة التشريعية بيتون راندولف . واقترح الأعضاء الراديكاليون عقد اتفاقية جديدة لعدم الاستيراد . وأراد ريتشارد هنرى لى اتخاذ خطوات إضافية ، بيد أن البعض أمسكوا عن الموافقة ، لأنه « كان ثمة فارق بين وضعهم إذ ذاك ، ووضعهم حين كانوا مجلساً لممثلى المدن » . ولكن إحجامهم لم يطل . ففى ٢٩ مايو ، وصل رسل من بوسطن حاملين رسائل من عواصم مستعمرات أخرى . وقد أحضروا نبأ بأن وقف التجارة بأسرها مع إنجلترا كان مشروعاً مقترحاً . فقرر بيتون راندولف بمشورة خمسة وعشرين من نواب المدن ، دعوة أعضاء المجلس السابق إلى اجتماع فى أول أغسطس . وبهذه الدعوة ولد أول مؤتمر إقليمى ، أو مجلس تشريعى ثورى فى المستعمرات .

الفصل ٤

الثورة والاتحاد الكونفيدرالى

اللجوء إلى السلاح

أخذ الهياج والشغب يزدادان فى المستعمرات شيئاً فشيئاً . فإن وجود الجنود البريطانيين فى مختلف المدن ، أتاح للزعماء المتطرفين فرصة لإثارة خواطر الأهالى . ولقد حدثت فى نيويورك ، فى سنة ١٧٧٠ ، « معركة جولدن هيل » التى لم ترق فيها دماء . وهى كما يصفها كادوالادر كولدن : أذكى الاستياء بين أهل المدينة والجنود بحذق ، وأخيراً « بدأ بعض سكان المدينة يتسلحون ، فهرع الجنود من ثكناتهم لمساعدة زملائهم من الجنود » ، ولم يحل دون الاشتباك سوى توسط ضباط الجيش والقضاة . أما فى بوسطن فحدث تصادم أشد خطراً . فإن تغيير حرس الحامية يوم الأحد ، أغضب بعض أهل المدينة المتمسكين بالتعاليم البيوريتانية ، بينما شاءت بعض العناصر الأكثر ميلاً للخشونة ، أن تسخر من الجنود ، وأن تستدرجهم . وقد أخذ هذا الاستدراج يزداد إلحاحاً وقحة ، إذ صدرت الأوامر إلى الجنود بأن يلزموا أعظم كبح للنفس .

وأخيراً ، هاجم أهل المدينة جنديين وضربوهما فى ٥ مارس . ودقت النواقيس لدعوة

الناس للخروج إلى الطرقات . وتعرض حارس معين عند دار الجمرك للإساءة . ورُجم بالثلج وبقذائف أخرى . وعندما أقبل الكابتن بريستون وشرذمة صغيرة من الجنود لحمايته ، ازدادت السخرية والرجم . وأخذ الجمهور يصيح : « أطلقوا النار إن تجاسرتم . . أطلقوا النار ، عليكم اللعنة ! » وأحسن الجنود التصرف إلى أن ضرب شخص ما ، آخر الأمر ، جندياً بهراوة فألقاه أرضاً . وإذ نهض الجندى ، أطلق بندقيته . وساد هرج عام ، وأطلق ثلاثة من الجنود الآخرين النار دون أوامر . فقتل ثلاثة رجال على الفور ، وأصيب اثنان بجراح مميتة . وإذ انبعثت دقات الطبول لجمع الجنود عامة ، ظهر الحاكم وأعاد النظام . وقال أحد الرجلين اللذين أصيبا بجراح قاتلة ، وهو على فراش الموت إنه « رأى هياج الغوغاء فى أيرلندا ، ولكنه لم يعرف قط جنوداً تحملت كل هذا التحرش دون أن تطلق النار على المشاغبين وتحسم الأمر » ولقد اتهم الكابتن بريستون وجنوده بالقتل ، ووجد جون آدمز الشاب الجرأة على أن يقوم بمهمة المحامى للدفاع عنهم ، وظفر بتبرئة ساحتهم . وقد كتب يقول : « كان خليقاً بالحكم على أولئك الجنود بالإعدام أن يكون وصمة خزى لهذه البلاد ، كما كانت أحكام إعدام الكويكر أو السحرة فى الماضى » . ولقد بدت مذبحة بوسطن فى نظر الكثيرين كحدث ينم عن ذروة الطغيان البريطانى ، فأصبحت ذكراه موضوع احتفال مهيب فى كل عام ، كما أنه أثار الأهالى كما لم يثرهم أى شىء حتى ذلك الحين .

وأخفقت الوزارة البريطانية ، برئاسة لورد نورث ، فى استخلاص الدرس المناسب من الارتياب والعداء الناشبين . ففى سنة ١٧٧٢ ، وقع حادث آخر ذو أهمية ، إذ أن السفينة الحربية الصغيرة ، ذات المدافع الثمانية ، « جاسبى » جنحت إلى الشاطىء ، بالقرب من بروفيدانس ، فى شهر يونيو ، أثناء انهماكها فى تنفيذ القوانين ضد التهريب ، فى مياه رود آيلاند . وإذا بجمع من المدنيين يهاجمونها ، ويتغلبون على رجالها ، ثم يحرقون السفينة المكروهة . وكانت كافة المكوس المفروضة بمقتضى قوانين تاونسيند قد ألغيت ما عدا تلك المفروضة على الشاى ، التى بقيت إلزاماً للمبدأ . وكان تعاطى الشاى قد انقطع فى المستعمرات فى الواقع ، ووقعت شركة الهند الشرقية فى صعاب مالية . ولقد سمحت لها الوزارة فى سنة ١٧٧٣ ، على سبيل المساعدة لها ، بأن ترسل الشاى إلى أمريكا بشروط جعلته رخيصاً ، بيد أن لورد نورث ظل مصراً على استبقاء

المكوس بواقع ثلاثة بنسات عن الرطل ، فى المستعمرات ، قائلاً إن الملك كان يعتبر ذلك محكاً للسلطان . وقد أدى هذا إلى الثورة الأمريكية مباشرة . فلقد أثار السخط الحاد لدى الأمريكيين ما بدا لهم حيلة خادعة . إذ أرسلت الشركة عدداً من السفن . وقرر القوم فى كل ميناء المقاومة بإصرار . ففى تشارلستون وضع الشاى فى أقبية مغلقة ، ومن فيلادلفيا ونيويورك أعيد من حيث جاء على السفن التى أحضرته . ولقد اشتد أوار الانفعال فى بوسطن بوجه خاص ، ففى ليل ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٣ ، تنكرت شرذمة من حوالى خمسين رجلاً فى زى الهنود ، يقودهم سام آدمز نفسه ، وصعدوا إلى السفن ، وفتحوا ٣٤٣ صندوقاً من الشاى عنوة ، وأفرغوا ما فيها فى مياه المرفأ . ولم يحاول أحد من المسئولين فى المدينة أن يمنع إتلاف البضاعة . وقال جون آدمز منتشياً : « هذه أعظم الحركات جميعاً أهمية . ففى هذا المجهود الأخير للوطنيين كرامة وجلال وسمو أعجب بها أعظم الإعجاب . إن إتلاف الشاى هذا عمل بالغ الجرأة ، وبالغ البسالة ، وبالغ الحزم ، والإقدام والصلابة ، ولابد أن تكون له عواقب بالغة الأهمية والبقاء لدرجة أننى لا أملك إلا أن أعتبره عهداً جديداً فى التاريخ » . وبهذا العمل المتسم بالعنف ، والذى قوبل بالإعجاب من مين إلى جورجيا ، طرحت بوسطن القفاز عند قدمى التاج . . وأسرعت الحكومة البريطانية إلى التقاطه .

كان جورج الثالث وأغلبية البرلمان مصرين على معاقبة بوسطن العاصية . ودعا بيرك وتشاتهام إلى مسلك يفسح السبيل للتراضى ، بيد أن الوزارة أجازت عن طريق البرلمان مجموعة من خمسة قوانين شديدة ، أحدث أحدها تغييراً جذرياً فى وثيقة التفويض الخاصة بمساشوستس ، والتى كانت تحظى بإعزاز كبير ، بالقضاء على بعض من أشد معالمه تحرراً . وجعل أحدها من القائد العسكرى البريطانى فى أمريكا ، الجنرال جيج ، حاكماً لمساشوستس ، مع تعيين أربع كتائب لمساندته ، مع سلطة إنزال الجنود فى بيوت الناس . ونص أحد القوانين على أن الضباط الذين توجه إليهم تهمة القتل المتعمد يرسلون مع الشهود إلى انجلترا للمحاكمة . ونص قانون آخر على إغلاق ميناء بوسطن دون التجارة كافة ، إلى أن يدفع تعويض عن الشاى الذى جرى إتلافه ، وأن تقدم الأدلة على أن المكوس ستدفع بولاء وطاعة . وأخيراً ، مد قانون كويبيك حدود كندا فشملت الإقليم الواقع شمال أوهايو وغرب جبال الليجنى ، بأكمله . ولم يكن

هذا الإجراء الأخير تأديبياً فى طابعه ، بل إنه ظل طويلاً موضع تفكير ، وقد أقيم على دراسة تخصصية إلى حد كبير ، واستُهدف به توفير تنظيم أفضل لتجارة الفراء فى الشمال الغربى ، ووضع السكان الفرنسيين الكاثوليك ، فى إقليم متشيجان وإللينوى تحت سلطة مناسبة . غير أنه صدر فى وقت غير ملائم ، فكان من الطبيعى أن يرى سكان المستعمرات الساحلية أنه أغلق الشمال الغربى دونهم .

هذه القوانين القاسية من البرلمان أثارت الغضب والتوتر . وأجمعت لجان التراسل المشتركة بين المستعمرات على العمل ، فعقدت الاجتماعات ، وكتبت المقالات فى الصحف ، ونشرت الدعاية بالمنشورات . وعندما أصدر أعضاء الهيئة التشريعية لفيرجينيا ، فى اجتماعهم بحانة رالى ، دعوات إلى مؤتمر سنوى لمناقشة « المصلحة الموحدة لأمريكا » ، جاء الرد فوراً ومتحمساً . وانتخب مجلس فيرجينيا الإقليمى مندوبين ، فحذت الأقاليم الأخرى حذوه . وفى ٥ سبتمبر سنة ١٧٧٤ ، اجتمع أول مؤتمر للقارة فى فيلادلفيا ، ممثلاً لجميع المستعمرات عدا جورجيا . وكان بين المندوبين الواحد والخمسين : واشنطن ، وبنجامين فرانكلين ، وجون آدمز ، وجون ديكنسون ، وغيرهم من الأكفاء . وعكفوا — فى تجاهل للبرلمان — على توجيه خطب إلى الملك وإلى الشعب فى بريطانيا وأمريكا . ووضعوا بياناً قوياً بحقوق المستعمرات ، أكدوا فيه أن للأقاليم « السلطة الكاملة » لوضع التشريعات المتعلقة بشؤونها ، على أن يكون للملك حق النقض ، ولكنهم وافقوا على القوانين البرلمانية الخاصة بالتجارة الخارجية والمتعلقة بمصلحة حقيقية للإمبراطورية .

على أن المؤتمر القارى تبنى ، فوق كل شىء ، إجراءين كشفا مباشرة عن قطيعة مع الوزارة البريطانية . وكان أحدهما إعداد اتفاقية تنشر على أوسع نطاق ، وتلزم موقعيها بوقف كافة الواردات مع السلع الإنجليزية خلال ثلاثة أشهر ، وجميع الصادرات إلى الموانىء البريطانية ، وبينها جزر الهند الغربية ، فى بحر عام . وكانت فى هذا تضحية فادحة . فلم يعد فى وسع أصحاب المزارع فى فيرجينيا إرسال تبغهم إلى المستهلكين الإنجليز . ولم يعد لربابنة السفن فى مساشوستس الاشتغال بتجارة جزر الهند الغربية المربحة . وصدقت إحدى عشرة مستعمرة (إذ ظلت نيويورك وجورجيا بمعزل) على الترابط ، بينما اتفقت اللجان المحلية الثلاث عشرة كلها على تنفيذها بالقوة . . فأخذت المواثيق ، ونشرت قوائم بالخارجين على الاتفاق ، ولجأت أحياناً إلى سوطهم علانية ،

أو تلطيخهم بالقار والريش . أما الخطوة الثانية فكانت وضع مسودة قرار ــ هو فى الواقع إنذار ــ لم يقتصر فيه البرلمان على الموافقة على معارضته مساشوستس للقوانين البرلمانية الأخيرة ، بل إنه أعلن أن « على أمريكا بأسرها أن تؤيد أهل المستعمرة فى مقاومتهم ، إذا استخدمت القوة ضدهم » .

بهذا لم يعد ثمة مفر من حدوث تصادم : فإما إبطال القوانين البرلمانية ، وإما تستخدم القوة فى تنفيذها . وما كان بوسع أحد الجانبين أن يتراجع . فأعلن البرلمان أن مساشوستس متمردة ، وعرض على التاج موارد الإمبراطورية لقمع التمرد . وساد الإقبال على شراء الأسلحة جميع أرجاء البلاد ، وأخذت السرايا العسكرية فى التدرب . واعتقد القائد البريطانى جيج فى بوسطن أن ربيع سنة ١٧٧٥ سيجلب هجوماً على قوته . فقرر الاستيلاء على بعض مخازن المعدات الحربية غير المشروعة فى كونكورد ، فى مساء ١٨ أبريل ، وأرسل لذلك فيلقاً من ثمانمائة رجل . وكان الوطنيون متربصين ، وصدرت إشارة من مصباح فى برج الكنيسة الشمالية إلى بول ريفير خلف نهر تشارلز ، فانطلق على جواده ليستفز أهل الريف . وتجمع المزارعون المتأهبون للمعركة فى الفجر ، عند ليكسينجتون كومون ببنادقهم . وجرى اشتباك وجيز سقط فيه ثمانية من الأمريكيين صرعى . ودارت عجلة الثورة . ولم يكن سام آدمز بعيداً ، فلما سمع قعقعة البنادق ، صاح : « يالهذا الصباح من صباح مجيد ! » .

الحرب الثورية

وإن هى إلا بضعة أيام حتى كان حشد من الجنود الوطنيين ، غير منظم من الناحية العسكرية ونصف مسلح ، يحاصرون جيج وجيشه فى بوسطن ، وخلال أسابيع قلائل ، كانت آخر الحكومات الملكية فى كافة أرجاء البلاد قد قلبت . واجتمع المؤتمر القارى الثانى فى فيلادلفيا ، يوم ١٠ مايو ، كهيئة ثورية صريحة (وأرسل نداء أخير إلى ملك بريطانيا للتوفيق) ، ونظم الجنود المحيطون ببوسطن فى « الجيش القارى الأمريكى » وعين جورج واشنطن ليتولى القيادة . واستولت قوة بقيادة إيثان آلين قائد فتيان الجبل الأخضر على حصن تيكوندیروجا ، المشرف على السبيل الوحيد إلى كندا ، بانتصار

باهر . وإذ ازداد إحكام الخطوط الأمريكية حول بوسطن ، تبين جيج أن من الممكن تهديد مركزه من مرتفعات دورشيستر فى الجنوب ، ومن التلال القائمة وراء تشارلستاون فى الشمال . وعندما زحف الوطنيون فى ١٦ - ١٧ يونيو لاحتلال الموقع الأخير ، كان زحفهم تعجيلاً لأولى المعارك الكبرى فى الحرب ، وهى بنكر هيل .

كانت لمعركة بنكر هيل ــ كما كانت لمعركة بول رن Bull Run التى وقعت بعدها بسبع وثمانين سنة ــ أهمية تتجاوز كل تناسب مع نتائجها المباشرة . كان الأمريكيون حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، قد اتخذوا مراكزهم أثناء الليل ، على تل بريدز هيل Breed's Hill ــ حيث أقاموا تحصينات ــ وتل بنكر هيل . وجمع جيج مجلس حرب ، وقرر أن يهاجمهم فى المقدمة ، مع أنه كان بوسعه أن يعزلهم عن تحصيناتهم فى المؤخرة . ولعل مبعث هذا الإقدام الجرىء هو تعجل البريطانيين لقتال مواجهة والتحام . وأنزل المشاة تحت موقع الأمريكيين ، فشكلوا صفوفهم ، ثم أُرسلوا للهجوم فى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم قائظ الحر . وزحفوا ببطء ، وبنظام بديع ، وهم فى كامل زيهم العسكرى ، وقد حمل كل منهم على ظهره حقيبته ، ومؤونة لثلاثة أيام ، وذخيرة ، وبندقية ــ أى ما يحتمل أن يبلغ وزنه ١٢٥ رطلاً . فلما صاروا على أربعين ياردة من الاستحكامات ، صوب الأمريكيون بنادقهم نحو خط الوسط ، وأطلقوا النار فأحدثوا نتيجة رهيبة ، وأجفل البريطانيون ، ثم أعادوا تنظيم صفوفهم ، وعادوا للتقدم ثانية ، ليلقوا ناراً قاتلة أخرى حين صاروا على عشرين ياردة ، وتراجعوا مرة أخرى ، ثم نظموا صفوفهم ثانية ، وفى هذه المرة ، اجتاحوا الاستحكامات ، بينما كان الوطنيون يطلقون آخر دفعتين من ذخيرتهم . كان عملاً رائعاً ، ولكنه كان غير ضرورى بدرجة إجرامية . فقد كان بوسع قوة مساوية لهذه ، أن تحتل تشارلستاون نيك Charlestown Neck تحت حماية الأسطول ، فتحاصر الأمريكيين حتى يدفعهم الجوع إلى الاستسلام فى أمد وجيز . وكانت خسائر البريطانيين ١٠٥٤ رجلاً ، وخسائر الأمريكيين ٤٤١ رجلاً فقط .

ولقد أثبتت المعركة للأمريكيين أن بوسعهم ، ولو بدون تنظيم سليم أو تجهيز كاف ، أن يصدوا خير جنود نظاميين فى أوربا ، فاكتسبوا ثقة هائلة فى أنفسهم . ولقد بلغ من تأثر هاو بالمذبحة ــ وكان القائد المباشر للجانب البريطانى ــ أنه لم ينسها قط . فلما خلف جيج ، الذى استُدعى إلى انجلترا مجللاً بالعار ، أبدى جبناً فى دفع الأمريكيين إلى الالتحام ، مما ساعد على أن تخسر انجلترا الحرب .

عيوب الأمريكيين

امتد الصراع أكثر من ست سنوات ، دار القتال خلالها فى كل مستعمرة ، ووقعت اثنتا عشرة معركة كبيرة ذات أهمية . وكان من العسير على واشنطن أن يؤلف جيشاً حقيقياً من خليط القوات الناقصة التدريب ، التى كانت تحت إمرته . . وكان الأشد من هذا عسراً ، أن يستبقى الجيش كاملاً . فإن الشعور بالولاء للملك أخذ يستشرى ، وكان عدم الاكتراث أكثر استشراء . ولقد أظهر الناس فى نيو إنجلاند ، وفيرجينيا ، وأجزاء من كارولينا الشمالية والجنوبية سليقة قتالية عارمة . ولكن نيويورك أظهرت من المحاباة للبريطانيين بقدر ما أظهرت من الوطنية ، وفى بنسلفانيا أبى أتباع مذهب الكويكر أن يقاتلوا ، فى حين أن معظم الألمان كرهوا أن يغادروا مزارعهم . أما فى كارولينا الشمالية فإن كثيرين من مستوطنى المرتفعات كانوا يكرهون سكان الأراضى الدنيا ، فاحتشدوا ليقاتلوا فى صف الملك . كما أن قسماً كبيراً من أهل جورجيا اجتنبوا الصراع تحت تهديد آل كريك ، ومقابل منحة مالية خاصة من الملك . ولقد حمل السلاح فى جانب الملك من الأمريكيين خمسة وعشرون ألفاً ، على أقل تقدير . ولو أن الموالين للملك دربوا تدريباً شاقاً ، ونظموا بعناية ، ووجدوا قيادة قديرة ، لاختلفت نتيجة الحرب .

أما القوات الوطنية فكانت سيئة التنظيم فى بادىء الأمر ، حتى وصل فى عام ١٧٧٨ البارون فون ستوبن ــ وكان من أركان حرب العاهل الألمانى فريدريك الأكبر ــ متطوعاً لتحسين الموقف ، فسرعان ما ارتقى إلى مركز مفتش عام . ولقد وجد أن قوة الفرق كانت تتراوح بين ثلاث وثلاث وعشرين سرية لكل منها ، وكانت نوعية الضباط ضعيفة ، إذ كان بوسع أى رجل مفوّه ذى شخصية مستحبة ، فى بعض المستعمرات ، أن يغرى الرجال بالانضواء تحت قيادته ، أو قد يسعى ــ باستخدام الخمر والمال ــ إلى أن ينتخب لمرتبة أرقى . وقد أدت الديمقراطية فى نيو إنجلاند وغيرها إلى انعدام الطاعة . فقد كان المزارع أو القروى يعاف تلقى الأوامر من قائده حين يعلم أنه جار له . ولهذا كتب واشنطن أن اليانكى لم يكونوا يقيمون لضباطهم وزناً . كذلك لم يكن كثير من الجنود يصدرون عن شعور قوى بالمسئولية ، بل كانوا يشعرون بأنهم انضموا إلى الجيش لمدد من الممكن إنهاؤها عند ما يروق لهم . فكانوا يتسربون من المعسكر إذا ما جاء طقس الشتاء البارد ، أوحين كانوا يسمعون بأن المحصولات أوشكت على

النضج وما من أيد لجمعها ، أوعندما يشتد حنينهم إلى ديارهم وتخور عزائمهم . ولقد سعى واشنطن لدى الكونجرس لتقرير التجنيد الطويل الأجل ، فخوله الكونجرس ذلك فى سبتمبر سنة ١٧٧٦ ، بيد أن هذا لم يعالج السوء معالجة تامة . وأخيراً ، أهاب واشنطن بالكونجرس أن يخول المحاكم العسكرية سلطة إيقاع عقوبة أقصاها خمسمائة جلدة بالسوط على المخالفين ، وذلك لتعزيز صلابة النظام .

ولقد أوشك الجيش أن يتلاشى مراراً . فبعد أن استولى الوطنيون على بوسطن ، فى مارس سنة ١٧٧٦ ، ونقل واشنطن جنوده إلى نيويورك ، وجد أنه لم يؤت سوى ثمانية آلاف رجل صالح للخدمة ، وكان مجموع القوات البريطانية خمسة وثلاثين ألفاً ، وقد هبط هاو فى لونج آيلاند بعشرين ألف من الأكفاء على الأقل . ومن الطبيعى أنه لم يلق عناء فى تحطيم القوة الصغيرة من الوطنيين التى وجدها عند فلاتبوش ، ولم يبق أمامه سوى خمسة آلاف وخمسمائة جندى ، ولو أنه زحف فى الوقت المناسب ، لاستطاع أن يوقع بهم الارتباك وأن يأسرهم جميعاً ، بيد أنه ترك الفرصة تفلت إلى أن هرب واشنطن تحت جنح الضباب إلى جزيرة مانهاتان . ثم وقعت هزيمتا الوطنيين فى مانهاتان وهوايت بلينز ، وفيما كان واشنطن يتراجع عبر نيوجيرسى ، ذاب جيشه حتى أوشك أن يتلاشى ، فلقد هجر رجال المليشيا من نيويورك ونيوإنجلاند الجيش زرافات . ولقد أضاع مؤونته ، وأمتعته ، ومدفعه . وقبل أن يبلغ نهر ديلاوير ، كان رجال المليشيا من نيوجيرسى وميريلاند قد هجروه بدورهم . فلما أقام لجيشه معسكراً لفترة الشتاء ، لم يكن لديه سوى حوالى ثلاثة آلاف وثلاثمائة رجل ، نصفهم ممن لا يكاد يعول على ثباتهم . ولم ينقذ البلاد سوى جرأته وبراعته فى الضربات البارعة التى أوقعها بالبريطانيين فى ترينتون وبرينستون ، فى ذلك الشتاء . ولقد تمكن من أن يبدأ الحملة فى سنة ١٧٧٧ ــ « عام المشانق الثلاث » كما قال المحافظون ــ بأحد عشر ألف رجل ، وهو العدد الذى كان تحت إمرته عندما تقدم فى فيلادلفيا فى ٢٤ أغسطس سنة ١٧٧٧ ، ومعه ما وصفه أحد كتاب ذلك الحين بأنها « ثلاث فرق منهوكة القوى ، مفككة النظام ، عارية » . وزحف هاو على فيلادلفيا بعشرين ألف جندى مدرب ، واضطر واشنطن إذ هُزم فى جيرمانتاون إلى التقهقر ليقضى شتاءً قاسياً فى فالى فورج .

كذلك كان عدم قدرة الوطنيين على تمويل الحرب تمويلاً كافياً ، يشل حراكهم إلى درجة رهيبة . فما كان لهم من سبيل إلى طرح سندات لقرض ما . وكان اللجوء إلى

الضرائب أمراً شبه مستبعد ، فما كان لأية هيئة قارية سلطة فرض الضرائب ، وكان على الكونجرس أن يطلب إلى الولايات الثلاث عشرة إقرار فرض الضرائب ، ولما كانت الولايات تغار بعضها من بعض ، وتتسم بالشح ، وتخضع لحكم سيىء ، فإنها لم تجد بغير معونة مبتسرة ، وعلى كره منها . فإذا كافة ما حُصل للأغراض القومية ، بفضل تشريعات الولايات الضريبية ، حتى سنة ١٧٨٤ ، يقل عن ستة ملايين من الدولارات ، بقيمة العملة ، أو ما لا يصل إلى دولارين عن الفرد الواحد . ولم تحقق القروض سوى مبالغ غير كافية ، فكانت القروض الداخلية زهاء اثنى عشر مليوناً من الدولارات ، والقروض من الخارج (وأغلبها من فرنسا ، مع مساهمات من هولندا وإسبانيا) دون الثمانية ملايين . وكان لزاماً على الولايات المتحدة أن تجعل اعتمادها الرئيسى فى خوض الثورة على النقود الورقية .

ولقد رزحت البلاد تحت سيل من الأوراق النقدية ، فسرعان ما تداعت قيمتها ، حتى إن العائد على خزانة الدولة بقيمة العملة الحقيقية كان أقل من ٣٨ مليوناً من الدولارات ، بالرغم من أن قيمتها الاسمية كانت تصل إلى حوالى ٢٤٠ مليوناً . ولم يحن ربيع سنة ١٧٨١ حتى كانت العملة الورقية القارية قريبة من الصفر ، حتى إن جدران حوانيت الحلاقة كانت تكسى بها ، وحتى إن الملاحين العابثين العائدين من رحلاتهم ، . كانوا يأخذون حزم الأوراق النقدية التى تمثل مستحقاتهم ، فيوجهونها إلى صنع ثياب لهم منها ، ويختالون فى الطرقات فى هذه الأسمال المهلهلة . ومن الطبيعى أن الأوراق المالية المتداعية القيمة كانت مصدر ظلم ، وتذمر ، وسوء تنظيم بالغ . وقد كتب فى هذا مراقب معاصر ، هو بيلاتياه ويبستر يقول : « لقد شوهت الأوراق النقدية عدالة قوانيننا ، وأحالتها إلى أدوات للجور ، وأفسدت عدالة هيئتنا الإدارية العامة ، وقضت على ثروات الآلاف الذين كانوا يثقون فيها ، وأضرت بالتجارة ، والمزارع ، والصناعات فى بلادنا ، ثم ذهبت إلى درجة القضاء على أخلاق شعبنا » .

ومن ناحية أخرى ، عانت القضية الوطنية أشد العناء من حدة عدم ثقة المستعمرات بالكونجرس — كل على حدة — ومن غيرة كل منها من الأخرى . فقد كان من المستحيل إقامة حكومة قارية . كانت المستعمرات متمردة على أية سيطرة مركزية ، وكانت تؤمن بالحكم المحلى فى كل منطقة . وفضلاً عن هذا ، فإن الشعور الأخوى بينها تضاءل بعد انحسار التوهج الأول للتحمس الوطنى . فكانت فيرجينيا تكره اليانكى

بوصفهم زمرة من السوقة ، الطامعين فى السلطان ، والساعين إلى إسفاف فى الديمقراطية . . بل إن واشنطن المتحفظ ، كتب عن سوء سلوكهم بلهجة قاسية . وكان اليانكى يرون أن الجنوبيين يميلون إلى الكبرياء والأرستقراطية ، وكانت كل مستعمرة من مستعمراتهم تعيش بمعزل عن سواها ، حتى إن جون آدمز كان يجهل أسماء الزعماء الرئيسيين لنيويورك وبنسلفانيا تقريباً ، عندما ذهب إلى الكونجرس القارى . وكان على الكونجرس أن يجثو متوسلاً فى طلب تدعيم الجيش والخزانة ، وكثيراً ما ذهبت توسلاته أدراج الرياح .

كذلك لم يكن للأمريكيين قوة بحرية تذكر ، وإن لم يلبث جون بول جونز أن قام ببعض مغامرات رائعة فى البحر ، مغيراً فى جرأة على المياه البريطانية . ولقد كان البريطانيون يحتفظون بسيطرة عامة على المحيط حتى سنة ١٧٧٨ ، ثم بسيطرة جزئية بعد ذلك . كان بوسعهم أن يهاجموا أى مكان تقريباً ، حيثما طاب لهم ، على ساحل طوله ألف وخمسمائة ميل . وكانت لديهم أموال وإمدادات وفيرة ، وقد جلبوا حوالى ثلاثين ألف جندى مرتزق من الألمان ، كما أن ضباطهم كانوا على مران فائق بالمسائل العسكرية . لهذا لم يكن من المستغرب أنهم توقعوا الانتصار فى البداية وكلهم ثقة به .

الميزات الأمريكية

على أن الأمريكيين أوتوا ميزات عظيمة بقدر ما أوتوا من معرقلات ، وقد قلبت هذه الميزات ميزان الصراع فى النهاية ، ومنها مسرح القتال . فقد كانوا يقاتلون فى بلادهم غير المزدحمة بالسكان ــ إذ كان قسط كبير منها بعد قفراً ــ على بعد ثلاثة آلاف ميل من بريطانيا . وكان من الممكن أن ينهزم جيش فى مكان ما ، فيهب جيش آخر على بعد مئات الأميال . وما كان بوسع البريطانيين أن يخضعوا مثل هذه الأراضى الشاسعة ، إذ كان نقل الرجال والإمدادات عبر المحيط الواسع باهظ التكاليف وعسيراً ، فى حين أن الإدارة السليمة للسياسة الاستراتيجية للقوة البريطانية بأسرها ــ من لندن ــ كان أمراً مستحيلاً . وهناك ميزة أخرى هى روح القتال الفائقة التى أبداها الجنود الأمريكيون فى بعض اللحظات الحاسمة . فإن هؤلاء الجنود المزارعين ، الوافدين لفورهم من دروب

الصيد وخطوط المحراث ، قاتلوا فى بعض الأحيان قتال الموهوبين ، بالرغم من أن فرديتهم وأخطاءهم كانت مبعثاً للضيق فى ثلاثة أرباع الوقت . ولقد أثبت جنود الشمال الذين احتشدوا للقضاء على جيش بيرجوين الغازى فى سنة ١٧٧٧ ، وجنود الجنوب الذين تلقوا هزيمة إثر أخرى فى ١٧٨٠ - ١٧٨١ وهم يعودون فى كل مرة إلى الهجوم حتى حان النصر فى النهاية ــ أثبت هؤلاء وأولئك أن فى وسع الوطنيين الأحرار من عامة الناس أن يرتفعوا فوق الهزيمة . ثم كانت هناك ميزة أخرى بعد سنة ١٧٧٨ ، هى التحالف مع فرنسا التى كانت تتحرق شوقاً إلى الانتقام لنفسها من بريطانيا . . وكان تحالفاً جلب المال ، والرجال ، والتشجيع ، والسيطرة على الساحل فى اللحظة الحاسمة الأخيرة . وما كان سوء التدبير الذى قاد به بيرجوين وهاو وكلينتون الجنود البريطانيين بأقل النعم التى حظى بها الوطنيون . وكان وولف قد مات ، ولم يبرز بين البريطانيين ويلنجتون آخر .

وكانت الميزة التى توجت ميزات الأمريكيين ، هى القيادة . . فلقد أوتى الأمريكيون جورج واشنطن . فمع أن الكونجرس اختاره دون دراية تذكر بقدراته ، فإنه أثبت فى كل الأمور أنه خير مرشد ومعين للقضية الوطنية . وهو قد يتعرض للنقد على نطاق عسكرى محدود ، فما سبق له أن تولى جيشاً يزيد على فرقة واحدة من الفرق الحديثة ، فأخطأ فى كثير من الخطوات ، وهُزم مرة تلو مرة . ومع ذلك فإنه أصبح ، إذ تولى القيادة فى سن الثالثة والأربعين ، روح الحرب . كان هذا المزارع الفيرجينى ، وضابط الحدود برتبة كولونيل هو الروح الهادية للحرب ، بسبب وطنيته التى لا تتذبذب ، وحكمته الهادئة ، وشجاعته المعنوية الرصينة ، ولأنه فى أحلك الساعات لم يفقد مهابته ، ولا اتزانه ، ولا قدرته على البت ، ولأن نزاهته ، وترفعه ، وسمو تفكيره لم تتخل عنه لحظة ، ولا اهتزت صلابته وجلده . كان يعرف كيف ينتظر الساعة المناسبة ليوجه ضربته ، حتى إن يقظته المتسمة بالصبر والاناة أكسبته لقب فابيوس .

وكان من الممكن أن يفقد أعصابه فيثور بضراوة إذا ما استثير فوق الطاقة ، كما تبين الخائن تشارلز لى فى معركة مونماوث ، بيد أنه كان يتسم بوجه عام ، بسيطرة فولاذية على نفسه ، بلغ من كمالها أنه عندما حُملت إليه ، فى سنوات لاحقة ، أنباء هزيمة واين الشنيعة على أيدى الهنود ، وكان فى مأدبة عشاء فى قصر الرئاسة ، لم يكشف عن أية اختلاجة أمام ضيوفه . ونظراً لأنه لم يكن يطمئن إلى شىء ، فقد قاد جنوده بشدة ، وقسا

فى عقاب المخالفين للنظام فى الجيش ، بيد أن عدالته وحبه لرجاله أكسباه الولاء التام منهم . ولقد ذرف الكثيرون الدمع ، عندما بدأ خطابه فى الجنود الذين لم يتقاضوا رواتبهم فأعلنوا التذمر فى نيوبيرج ، بهذه الكلمات : « أيها السادة ، اسمحوا لى بأن أستعمل نظارتى ، لأننى لم أزدد شيباً فحسب ، بل أوشكت أن أصبح أعمى فى خدمة أبناء وطنى » . كان من السمات المميزة له أنه لم يقبل شيئاً مقابل خدماته الثورية سوى نفقاته ، وكان يسجل هذه النفقات بحرص دقيق . وعندما انتهت الحرب ، لم يفكر إلا فى العودة إلى مزرعته الحبيبة ، التى كان يبغى أن يجعلها أحسن مزرعة فى أمريكا . ولقد كتب بهذا الصدد : « لقد ظلت الزراعة ملهاتى المفضلة طيلة حياتى » . غير أنه مكث استجابة لنداء الواجب . ومع أنه كان أقل استهواء للنفوس من بعض أبطال الجمهورية الآخرين ، فإنه ظل مبرزاً عن سواه فى كبر شخصيته ، وما اتسمت به أهدافه من ترفع ثابت ، وحكمة واتساع تفكير . ولقد كان جولدوين سميث على حق حين ذكر أن أبدع ثلاثة أمور فى الثورة هى : « شخصية واشنطن ، وسلوك جيشه فى فالى فورج ، وولاء الطبقة العليا من أنصار الملك » .

الاستقلال

فيما يزيد على العام بقليل ، تحول ما بدأ على أنه حرب « لحقوق إنجليز » ولمجرد علاج الشكايات ، إلى حرب من أجل الاستقلال . وكان هذا طبيعياً تماماً . ففى بداية الأمر ، أخذ الكونجرس يعلن بحرارة ولاءه للعرش . ولكن المرارة الناشئة عن إراقة الدماء والدمار ، والاستياء الذى أثاره مسلك جورج الثالث الذى لا ينثنى ، مع شعور بالحق الطبيعى للأمريكيين فى أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم . . كل هذه لم تلبث أن أفضت إلى انفصال تام . فقد رفع جيش واشنطن ، فى أوائل عام ١٧٧٦ ، علماً أمريكياً مستقلاً . وفى الوقت ذاته ، كان ثمة تأثير عميق يتأتى عن كتيب « الإدراك العام » ، الذى كتبه شاب متطرف نابه ، هو توماس بين ، الذى وفد من إنجلترا فى الفترة الأخيرة . فلقد أوضح أن الاستقلال هو العلاج الوحيد ، وأنه كلما تأخر ازدادت مشقة الفوز به ، وأنه وحده الكفيل بأن يجعل اتحاد أمريكا ممكناً . ومع مقدم شهر يونيو ، نفد صبر كثير من

أعضاء الكونجرس . وقدم مندوب من فيرجينيا ، هو ريتشارد هنرى لى اقتراحاً بقرار بالاستقلال ، انضم إليه فى تبنيه جون آدمز . ثم وضعت لجنة من خمسة أعضاء ــ تولى توماس جيفرسون سكرتيريتها ــ إعلاناً رسمياً بالاستقلال ، أجازه الكونجرس فى ٢ يوليو ، وأعلن فى ٤ يوليو سنة ١٧٧٦ .

ولم يقنع الذين وضعوا وتبنوا هذه الوثيقة التى أقامت عهداً جديداً ، بمجرد إعلان الاستقلال . فقد نادوا « باحترام لائق لآراء البشر » ، كما حرصوا على أن يبينوا بتفصيل الأسباب التى « دفعتهم إلى الانفصال » ، والفلسفة التى كانت تبرره . ثم إن هذه الأسباب ــ وقد بلغت حوالى خمسة وعشرين أو ثلاثين سبباً ــ ذكرت بحيث تبرر فى حد ذاتها خطوة بهذه الشدة . وقد أوردت بترتيب مقصود لإثبات « عزم على إردائهم تحت حكم مطلق » من جانب جورج الثالث . ومن الأمور ذات المغزى ، أن الأمريكيين ، منذ البداية الباكرة لتاريخهم القومى ، بنوا موقفهم على مبادىء وأعلنوا فلسفة .

فما هى مبادىء الحكم هذه التى صيغت هنا بتعبير خالد ؟ « إننا نعتبر هذه الحقائق ذاتية الموضوع » ، كما كتب جيفرسون :

> إن كل البشر قد خلقوا سواسية ، وإن خالقهم أولاهم حقوقاً معينة لا مراء فيها ، وإن بين هذه الحقوق : الحياة والحرية والسعى إلى السعادة ، وإنه من أجل صون هذه الحقوق تنشأ الحكومات بين البشر ، مستمدة سلطاتها العادلة من قبول المحكومين ، وإنه إذا ما أصبح أى شكل من أشكال الحكم هداماً لهذه الغايات ، فإن من حق الشعب أن يغيره أو يزيله ، وأن ينشىء حكومة جديدة ، يقيم أسسها على المبادىء ، وينظم سلطاتها بالشكل الذى يبدو له أصلح لتحقيق سلامته وسعادته .

والذى نجده هنا ، هو فى الواقع فلسفة الديمقراطية ــ فلسفة لم يتح لها من قبل بيان بمثل هذا الإيجاز أو هذه البلاغة . فلقد قال الأمريكيون إن هناك أموراً معينة لا يمكن أن يرتاب فيها إنسان عاقل ، فهى حقائق تنطوى على وضوح ذاتى . فهناك حقيقة أن كل البشر خلقوا متساوين . إن كل البشر متساوون فى نظر الله ، متساوون أمام القانون . ولقد كانت فى أمريكا قطعاً ــ وكما كتب جيفرسون ــ كثير من حالات عدم المساواة : عدم المساواة بين الأغنياء والفقراء ، وبين الرجال والنساء ، وبين السود

والبيض . ولكن إخفاق أى مجتمع فى أن يعيش وفقاً لمثل أعلى ، لا يلغى صلاحية المثل الأعلى ، ولقد كان مبدأ المساواة ، منذ إعلانه ، أشبه بخميرة فى الفكر الأمريكى .

وهناك حقيقة أخرى أعلنت فى البيان ، هى أن البشر « أولوا » حقوقاً لا مراء فيها ، وبين هذه الحقوق : الحياة ، والحرية ، والسعى إلى السعادة . فهذه حقوق لم تمنحها للبشر حكومة خيرة ، ولا تقوم وفقاً لهوى تلك الحكومة . بل إنها حقوق يولد بها كافة البشر ، ولا يملكـون أن يفقـدوهـا . ولقد عمل هذا المبدأ كذلك كخميرة فى عقول الأمريكيين وغيرهم ، مغيراً موقفهم نحو السلطة ، إذ أن الحكومات إنما نظمت ــ كما أوضح البيان ــ لصون هذه الحقوق بالذات ، فى المقام الأول . فالذى أوتيناه هنا هو النظرية « المحكمة الموجزة » للحكم ــ النظرية القائلة بأن البشر كانوا يعيشون يوماً فى وضع طبيعى ، وأنهم فى هذا الوضع كانوا فى خطر باستمرار ، وأنهم ليحموا أنفسهم قد تجمعوا وأقاموا حكومات ، ومنحوا هذه الحكومات من السلطة ما يكفى لحماية حيواتهم ، وحـريتهم ، وممتلكـاتهم . وقصـارى القـول ، أن البشر صنعـوا الحكومة لفعل الخير لا الشر ، صنعوها لتحميهم وليس لتضرهم . وفى اللحظة التى تخفق فيها الحكومة فى الأغراض التى من أجلها أقيمت ، لا تعود جديرة بتأييد البشر أو ولائهم .

وإذا كان بوسع البشر إقامة الحكومات ، فهم يملكون هدمها ، إذ أن لهم الحق فى أن يغيروا أو يزيلوا الحكومة السيئة ، وأن ينشئوا أخرى جديدة . وسرعان ما أثبتوا أن هذه لم تكن مجرد نظرية ، فقـد شرعـوا فى ترجمة هذه الفكرة إلى واقع ، حتى والثورة قائمة ، وفى أثناء وطأة الحرب وصخبها . فلقد اجتمعوا فى جمعيات عامة وألغوا فعلاً حكوماتهم القديمة ، وأقاموا حكومات جديدة . ولقد كتبوا فى دساتيرهم ضمانات راسخة للحياة ، والحرية ، والسعادة . فإذا الأفكار التى ظلت قروناً وقفاً على الفلاسفة ، قد نقلت من عالم الفلسفة وجُعلت قانوناً .

سير القوات والمعارك

كانت ساراتـوجـا أكـبر معـركـة حاسمة فى الحرب ، ونقطة التحول فيها من الناحية العسكـرية . ففى بداية سنـة ١٧٧٧ ، كان لدى البريطانيين قوات كبيرة فى كندا وجيش

متين فى نيويورك تحت قيادة هاو . ولو أن هذه القوات ركزت فى نيويورك ، لكان بوسع التاج أن يدفع إلى الميدان خمسة وثلاثين ألف جندى نظامى مجهزين أقوى تجهيز . ولو أن قائداً بريطانياً موفور النشاط استخدم هؤلاء الجنود إذ ذاك ليوجه ضربات لا هوادة فيها لجيش واشنطن الصغير المؤلف من ثمانية آلاف من القاريين (الاتحاديين) فى نيوجيرسى ـ كما فعل جرانت فى سنة ١٧٦٤ إذ وجه ضربات لا تهن إلى لى فى فيرجينيا ـ لكان من شبه المحقق أن تنهار الثورة . وكان أقصى ما يخافه واشنطن هو هذا التركيز للجنود من أجل القضاء عليه . ولكن السلطات فى لندن ، قررت إبقاء قواتها مقسمة ، بفضل سوء مشورة بيرجوين الذى كان قد ذهب إلى الوطن فى عطلة . فكان على أحد الجيوش ـ وكان بقيادة بيرجوين ـ أن يتحرك من كندا ، ويسير جنوباً إلى آلبانى ، عند رأس الملاحة فى نهر هدسن ، وكان على جيش هاو فى نيويورك أن يزحف شمالاً على نهر هدسن إلى آلبانى . وصدق الملك على الخطة . ثم أرسلت التعليمات الوافية من لندن إلى السلطات الكندية لتشن النصف الشمالى من الحملة المشتركة . بيد أن هاو لم يتلق أوامر محددة ، فزحف على فيلادلفيا بدلاً من آلبانى .

وقد كان من العيوب الجذرية فى مشروع بيرجوين أنه حال دون توحيد للقوات البريطانية ما كان من سبيل إلى دفعه . وثمة عيب جذرى آخر ، هو أن الجيش الشمالى بمجرد تقدمه داخل الأرض الأمريكية أصبح بعيداً عن قاعدته أكثر مما كان ينبغى . فقد كان بيرجوين عند وصوله إلى فورت إدوارد ، فى شمال نيويورك ، على بُعد ١٨٥ ميلاً من مونتريال ، وكانت كل خطوة إلى الأمام تزيد من الأراضى الوعرة بينه وبين إمداداته . فكان عليه أن يدبر المؤن من الريف المحيط به . وقد كانت فى بنينجتون ـ فى الجزء الجنوبى من الإقليم الذى يعرف اليوم باسم فيرمونت ـ مخازن كبيرة للدقيق والماشية ، ولم يكن يحرسها سوى نفر قليل من المليشيا . وفى سبيل الاستيلاء عليها ، وإيقاع ضربة قاسية بمنطقة كتب بيرجوين عنها أنها « تزخر بأشد عناصر القارة نشاطاً وعصياناً ، وتخيم على يسارى كأنها عاصفة تستجمع قواها » ، أوفد حوالى ألف وثلاثمائة من الألمان وسواهم ليهاجموا بنينجتون . . وكأنما هاجموا عشاً للزنابير ، فإن الجنود الفلاحين من أبناء نيوإنجلاند ، وكانوا يبلغون حوالى ألفى رجل تحت قيادة أحد المحاربين القدامى فى الحرب الفرنسية ، ويدعى جون ستارك ، تغلبوا عليهم .

وفى الوقت ذاته ، كان ثمة جيش أمريكى سريع التزايد ، يتصدى للقوة الرئيسية

لبيرجوين فى أعالى حوض نهر هدسن . فلما التحم الجيشان عند فريمانز فارم ، فى ١٩ سبتمبر سنة ١٧٧٧ ، كان عدد الأمريكيين حوالى تسعة آلاف ، وعدد البريطانيين حوالى ستة آلاف . وأتمت اشتباكات أخرى خيبة جهود بيرجوين ، الذى سرعان ما تورط فى القفار ، منهوك القوى ، وأخذ يمنى بخسائر فادحة ، بينما ارتفع عدد الجيش الأمريكى إلى عشرين ألفاً . وفى ١٧ أكتوبر ، ألقى جنوده أسلحتهم وقد أحيط بهم . وبذلك أثبت غباء الزحف بجيش حوالى مائتى ميل ، بعيداً عن قاعدته ، فى جوف بلاد تزخر بالمجندين المعادين .

ولقد كانت لهزيمة بيرجوين عواقب بعيدة المدى . إذ فقد جيش الملك ما يقرب من ربع جنوده الأكفاء فى أمريكا بضربة واحدة ، وصار حوض هدسن تحت السيطرة الأمريكية نهائياً ، وظفر الوطنيون بروح معنوية جديدة . ولقد كان بنجامين فرانكلين يناضل باستبسال فى باريس لإغراء فيرجين ، وزير خارجية فرنسا ، بإرسال معونة للأمريكيين . فلما ترامت الأنباء بأن هاو فى فيلادلفيا ، وأن بيرجوين استولى على تيكونديروجا ، فتر تحمس الفرنسيين . أما حين وصلت أنباء معركة ساراتوجا ، فيقال إن بومارشيه ، صديق فرانكلين ، أصيب بالتواء ذراعه ، وهو يهرع فرحاً لإبلاغ الملك . وفى ٦ فبراير سنة ١٧٧٨ ، وقعت فرنسا والولايات المتحدة معاهدة تحالف أضفت على الحرب وضعاً جديداً كل الجدة . كان لافاييت الشهم ، الذى قدم إلى الولايات المتحدة على نفقته الخاصة ليؤدى خدماته فى أى وضع ، قد عين فى درجة ميجر جنرال بقرار من الكونجرس . وكان ملكا فرنسا وإسبانيا قد قدما للأمريكيين قروضاً فى السر ، ابتيعت بها مقادير كبيرة من الذخائر والأسلحة . أما الآن ، فقد تأهب الفرنسيون لإيفاد ستة آلاف من الجنود المتازين بقيادة روكامبو لتعزيز قوات واشنطن ، وقدموا المال والإمدادات بكميات أكبر من ذى قبل ، وأدت عمليات الأساطيل الفرنسية إلى تفاقم صعوبات البريطانيين فى إمداد قواتهم .

وإذ أخفق البريطانيون فى هزيمة الشمال ، تحولوا إلى الجنوب . وكانت خطتهم أن يستولوا على جورجيا ، التى كانت ضعيفة بدرجة شنيعة ، وأن يزحفوا شمالاً بإصرار لا يقاوم ، وهم يظفرون فى مضيهم بعون الموالين للملك . ولقد استولوا على سافاناه فى الأيام الأخيرة من سنة ١٧٧٨ ، واحتلوا مناطق من جورجيا وكارولينا الجنوبية فى سنة ١٧٧٩ . فأرسل الأمريكيون الجنرال بنجامين لينكولن لمعالجة الموقف . ولكنه ترك للعدو

فرصة محاصرته فى تشارلستون ، ثم أسره البريطانيون ورجاله الخمسة آلاف ، واستولوا على الميناء الرئيسى فى الجنوب ، فى آن واحد ، فى مايو سنة ١٧٨٠ . وكانت هذه من أفدح الصدمات للثورة ، فسرعان ما اجتيحت كارولينا الجنوبية بأكملها . وذهب قائد أمريكى ثان إلى الجنوب ليوقف السيل ، هو هوراشيو جيتس ــ بطل ساراتوجا ــ ولكن جيشه الصغير ، المؤلف من ثلاثة آلاف ، نصفهم من المليشيا غير المدربين ، سُحق أمام لورد كورنواليس عند كامدن ، فى ١٦ أغسطس سنة ١٧٨٠ . وبلغ مجموع خسائره ألفى رجل ، بين قتيل وجريح وأسير ، بينما لم يتوقف جيتس فى فراره حتى قطع زهاء مائتى ميل .

بيد أن قوة فرسان الملك ، وكانت تضم ألفاً من الموالين من غرب كارولينا ، هُزمت فى تلك الأثناء على أيدى جيش يفوقها من الوطنيين . ووصل إلى مسرح عمليات الجنوب قائد أمريكى ثالث ، كان يفوق سابقيه مقدرة بكثير ، هو ناثانييل جرين . وقد هُزم هو الآخر ــ عند جيلفورد كورتهاوس ، فى أوائل سنة ١٧٨١ ، بيد أنه أبدى براعة مذهلة فى الزحف الطويل والسريع ، والواقع أنه وإن خسر أربع معارك مهمة فى تسعة أشهر ، إلا أنه أضنى الجنود البريطانيين ، وما لبثت تهديداته ــ مجتمعة مع عداوة السكان ــ أن اضطرتهم إلى التراجع إلى تشارلستون وسافاناه . فكان جرين على غرار واشنطن : خسر اشتباكاته ولكنه فاز فى حملاته .

وبينما كان جرين يطهر أقصى الجنوب ، كان ثمة جيش بريطانى آخر يوشك أن يهلك . إذ أن كورنواليس ترك ريف كيب فير فى أواخر الربيع ، وسعى شمالاً ليلحق بقوة الخائن بنيدكت آرنولد فى فيرجينيا . وبعد مطاردة غير مثمرة للقوات الأمريكية التى كانت بقيادة لافاييت ، انسحب إلى يوركتاون ، عند مصب نهر يورك ، وقام بتحصينها . وكان لدى واشنطن ، فى ذلك الوقت ، حوالى ستة آلاف رجل بالقرب من نيويورك ، كما كان لدى روكامبو حوالى خمسة آلاف فى نيوبورت ، بولاية رود آيلاند . وما أن انسحب كورنواليس إلى الساحل ، حتى جاءته رسالة من الأميرال الفرنسى فى جزر الهند الغربية دوجراس ، بأن بوسعه أن يبسط تعاونه . ورأى واشنطن فرصته المنشودة ، فاستغلها بذكاء لامع . وبعمليات زحف اتسمت بسرعة رائعة ، نقل إلى أمام يوركتاون جيشاً مشتركاً من الأمريكيين والفرنسيين قوامه ستة عشر ألفاً . وسدت الطريق إلى النجاة بحراً أمام رجال كورنواليس الثمانية آلاف ، بفضل أسطول دوجراس . وتم الاستيلاء على

حصـون كورنـواليس الخارجية ، كما هدمت المدفعية الأمريكية استحكاماته الدفاعية الداخلية . وفى ١٩ أكتوبر ، أرسل سيفه إلى واشنطن ، الذى أمر بأن يتسلمه الجنرال لينكـولن ، وألقى الجنـود البريطانيون أسلحتهم ، بينما كانت موسيقاهم تعزف نشيد « انقلبت الدنيا رأساً على عقب » .

وإذ ذاك ، كانت الحرب قد انتهت فى الواقع . ولقد ظل الملك جورج فترة يرفض الاعتراف بالهزيمة فى عناد . ولكن الجلاء تم عن الموانىء الجنوبية بأكملها أثناء سنة ١٧٨٢ ، ولم تلبث القوات الملكية أن أصبحت دون أى سلطان ، اللهم إلا صوت أبواق الحامية فى مدينة واحدة ، هى . . نيويورك .

معاهدة الصلح

ولقد قدمت بريطانيا العظمى نصوصاً سخية فى المعاهدة التى أنهت الحرب ، فى سنة ١٧٨٣ . ولو شاءت حكومتها ، لساقت مساومة عسيرة بشأن الحدود . فإن الأسطول البريطانى بقيادة رودنى كان قد أحرز لتوه نصراً حاسماً على الأسطول الفرنسى فى جزر الهند الغربية ، كما عز إجلاء الجنود البريطانيين عن نيويورك . ومن الصحيح أن حملة البنادق الأمريكيين ، بقيادة جورج روجرز كلارك ، كانوا قد نفذوا إلى إقليم الوعر ، شمالى نهر أوهـايو ، واستـولـوا على المـراكز البريطانية فيما أصبح إنديانا ، وإللينوى ، ومتشيجان ، إلا أن شطراً كبيراً من هذا الإقليم استرده البريطانيون قبل انتهاء الحرب . ولقـد كان من الممكن للوزير البـريطانى شيلبـيرن ، الـذى تولى مفـاوضـة المندوبين الأمريكيين المفوضين بنجامين فرانكلين وجون آدمز وجون جاى أن يحاول تضييق رقعة أمريكا الجديدة . ولكنه بدلاً من ذلك ، نزل للجمهورية الجديدة عن كل الأراضى الواقعة بين جبال ألليجنى ونهر المسيسيبى ، مع جعل الحدود الشمالية حيث هى الآن تقريباً ، بينما أسلم فلوريدا لإسبانيا ، ومنح الأمريكيين حقوقاً واسعة لصيد الأسماك فى مياه الساحل الكندى .

وأثمر السخاء نتائج ثمينة ، فلو أن البريطانيين حاولوا أن يستبقوا شطراً كبيراً من الشمال الغربى ، لكان النزاع بينهم وبين الولايات المتحدة (وهو ما لم يكن مفتقداً على

أية حال) خليقاً بأن يكون دائباً وخطيراً . لقد كان التوسع الطبيعى للجمهورية فى اتجاه الغرب ، مما اضطر الفرنسيين فى النهاية إلى النزول عن لويزيانا ، والمكسيكيين إلى النزول عن المنطقة الواقعة شمال ريوجرانده ــ على أنه لم يسبب كثير قلق للإمبراطورية البريطانية ، لاسيما بعد سنة ١٨١٥ . والواقع أن كندا والولايات المتحدة امتدتا حتى المحيط الهادى جنباً إلى جنب ، وهما اليوم تملكان الشطر الأكبر من القارة ، كصديقتين حميمتين وحليفتين .

نمو الديمقراطية

حققت أمريكا ثورة لن تُنسى ، فى العلاقات الخارجية . كما طرأ تغير مهم على الشؤون الداخلية . فإن التغير الشامل الذى جلبته تلك السنين على المجتمع الأمريكى كان يعادل فى أهميته قطع الارتباط ببريطانيا .

كان من الطبيعى أن يعنى الانفصال عن بريطانيا كسباً فورياً مباشراً فى مجال الديمقراطية السياسية ، فأصبح الحكام يُنتخبون بوساطة الشعب ، ولا يعينون من قبل التاج . وأصبحت المجالس العليا فى الهيئات التشريعية تؤلف بالانتخاب بدلاً من التعيين ، والقوانين التى يطالب بها الشعب بمنجاة من النقض « الفيتو » . ولا تقل الإصلاحات الداخلية عن هذا ، فقد وسعت انتشار الحقوق الانتخابية ، وجعلت التمثيل النيابى أكثر عدالة . ففى بنسلفانيا ، قامت مطالبة هائلة ، فى ١٧٧٥ - ١٧٧٦ ، بخطوتين ديمقراطيتين ، أولاهما منح المقاطعات الغربية ، التى طال غبنها ، تمثيلاً فى الهيئة النيابية يتناسب مع عدد سكانها ، والآخر هو إلغاء شرطى المؤهلات القائمة على الثروة وعلى الجنسية الأصلية ، التى كانت تقصر حق الانتخاب على طبقة أثيرة صغيرة العدد . وقد فاز الشعب بالمطلبين فوزاً حاسماً . فأجازت الهيئة التشريعية ، فى مارس سنة ١٧٧٦ ، زيادة سبعة عشر عضواً إلى أعضائها ، بينما وسع نطاق الحقوق الانتخابية ليسمح لأى دافع ضرائب من الذكور بأن يدلى بصوته . ولاتزال القطاعات القديمة الاستيطان تحظى بتفوق غير عادل فى الهيئة التشريعية فى بعض الولايات ، مثل فيرجينيا ، فى حين ظلت المؤهلات المتعلقة بالثروة مطلوبة لدى

الناخب ، فى بعض ولايات أخرى . أما فى بنسلفانيا ، وديلاوير ، وكارولينا الشمالية ، وجورجيا ، وفيرمونت ، فأطلق حق الانتخاب من كل القيود ، حتى قال أحد المحافظين المستنكرين أن أى دافع ضرائب من وحوش الغابة قد يحظى بحق الانتخاب .

كذلك أدى تشتت أنصار الملك مساهمة عظيمة للديمقراطية ، فإن كثيرين من المحافظين وأنصار بريطانيا من أصحاب الأراضى أبدوا كراهية لأولئك الذين وصفتهم دوروثى هتشينسون بأنهم الرعاع القذرون . وبدافع من الوفاء للنظام القديم ، هجروا البلاد وهم يفيضون بخليط عاطفى من الاستهجان والأسف . فعند جلاء هاو عن بوسطن ، أبحر معه حوالى ألف من أنصار بريطانيا ، وسرعان ما لحق بهم ألف آخرون ، وكان شعارهم : « إما الجحيم ، أو السفينة ، أو هاليفاكس » . وكان كافة أصحاب الثروات تقريباً ، فى إقليم نيويورك ، من الموالين لبريطانيا . وعند جلاء البريطانيين عن تشارلستون ، انطلقت فى الخليج مائة سفينة اتخذت شكل هلال كبير ، حاملة أنصار بريطانيا الراحلين . . وكان منظراً رائعاً ومحزناً . واستقبل شمال كندا والأقاليم المطلة على البحر أكثر من ستين ألفاً من اللاجئين ، كما استقبلت جزر الهند الغربية آلافاً أخرى ، وتلقت إنجلترا حشداً غير محتفى به ، حتى لقد كتب أحدهم : « لن تكون هناك قرية فى انجلترا تقريباً ، دون ما شىء من تراب أمريكى ، عندما نرقد جميعاً رقدتنا الأخيرة » . وفى أعقاب رحيل هؤلاء ، أصبح البسطاء من المزارعين الكادحين ، وأصحاب الحوانيت ، وأصحاب الحرف أحراراً فى صنع حضارة وفق هواهم . ومن ذلك الحين هبطت أهمية المكانة ، والفراغ ، والثقافة ، وازدادت قيمة الطاقة العاملة والاعتداد الفج بالنفس . وأصبح التاجر الطموح والمضارب الجشع أكثر بروزاً فى المجتمع الأمريكى . أصبح كل امرىء متساوياً مع سواه ، وكل امرىء فى عجلة من أمره ، ولم يعد من هم لكل امرىء تقريباً سوى الدولار .

كذلك توفر دافع قوى نحو الديمقراطية ، بفضل الحملة الناجحة على الدعائم الثلاث للامتيازات : القضاء على قصر الوراثة على الابن الأكبر ، ووقف الثروة على شخص واحد وسلالته ، وتفتيت ضياع أنصار بريطانيا الكبيرة ، والإطاحة بالسلطان الرسمى للكنيسة الأنجليكانية أينما وُجدت . وكانت فيرجينيا هى المستعمرة التى توطدت فيها وراثة الابن الأكبر ، ووقف الثروة على شخص واحد وسلالته ، أكثر من توطدهما فى أية مستعمرة أخرى . وكانت نتيجتها صون ضياع العائلات الكبيرة من أى

مساس . وبهذا أتيح للإقليم ، كما قال جيفرسون فى كتابه « ملاحظات عن فيرجينيا » ، كتلة من العائلات الأرستقراطية الكبرى ، التى اتخذت شكل نظام سلطان أبوى ، وامتازت بأبهة مؤسساتها وفخامتها . فكان أصحاب القصور الإقطاعية : ويستوفر ، وشيرلى ، وتكهاو يشرفون على أملاك لا تتاح إلا لأمراء . ولقد شن توماس جيفرسون الحملة على وقف الثروة على شخص واحد وسلالته فى الهيئة التشريعية لفيرجينيا ، واستطاع أن يمحوه فى أول هجوم تقريباً ، فى سنة ١٧٧٦ . فتعرضت كل الضياع بعد ذلك للبيع دون ما قيود . كذلك نجح جيفرسون فى سنة ١٧٨٥ ، فى إلغاء قصر الوراثة على الابن الأكبر . ولقد اقترح البعض وجوب منح الابن الأكبر نصيباً مضاعفاً على الأقل ، فرد جيفرسون قائلاً : « كلا ، اللهم إلا إذا كان يأكل قدراً مضاعفاً من الغذاء ، ويقوم بنصيب مضاعف من العمل » . وعندما قدر للرحالة الفرنسى بريسو دو وورفيل أن يزور فيرجينيا بعد ذلك بقليل ، استطاع أن يكتب : « لقد بدأ التمييز بين الطبقات يتلاشى » . فأخذت الضياع الكبرى تقسم بين الأبناء بسرعة ، أو تباع أجزاء للوافدين ، بينما أخذ الأبناء يتقاضون الأثمان وينزحون إلى الغرب . وسرعان ما حذت ولايات جنوبية أخرى ـــ جورجيا ، وكارولينا الجنوبية ، وميريلاند ـــ حذو فيرجينيا .

كذلك مهدت مصادرة المساحات الشاسعة من الأرض التى كان يستأثر بها الملاك والأغنياء من الموالين لبريطانيا ، لقيام نظام ديمقراطى قوامه صغار الملاك . وكانت أكبر أسرتين رئيسيتين من ملاك الأراضى هما أسرة بن فى بنسلفانيا ، وأسرة اللورد بلتيمور فى ميريلاند . ولقد منحت بنسلفانيا آل بن ١٣٠٠٠٠ جنيه تقديراً لذكرى منشئها ، أما هارفورد ، فلم يتلق من ميريلاند سوى ١٠٠٠٠ جنيه . ولقد صادرت فيرجينيا عدداً من الضياع ، لاسيما ضيعة صديق واشنطن القريب إلى قلبه لورد فيرفاكس السادس . واستولت كارولينا الشمالية على ممتلكات آل جرانفيل ومساحتها ملايين من الدونمات . وأخذت نيويورك كافة أراضى التاج ، وفوقها ضياع نفر معين من أنصار بريطانيا ، منها أراضى فيليبس وكانت حوالى ثلاثمائة ميل مربع . ولقد بيعت ضيعة دولانسى فى ورشيستر وأراضى روجر موريس فى مقاطعة بوتنام إلى أكثر من خمسمائة مالك . أما ضيعة سيرجون جونسون التى صودرت فى شمال نيويورك ، فآوت آخر الأمر عشرة آلاف من المزارعين . واستولت مساشوستس على عدد من الملكيات بينها أراض فى مين لسير وليم بيبريل ، وهو نبيل كان يستطيع أن يمضى راكباً ثلاثين ميلاً ، فى خط

واحـد ، فى أراضيه . وفى كافـة الأصقـاع من نيو هامبشـاير ــ حيث فقـد سير جون وينتويرث إقطاعيته ــ إلى جورجيا ، حيث مُنى سير جيمس راين بالمصير ذاته ، انتقل صغار المزارعين مغتبطين إلى أراض خصبة ما كانت من قبل لتقبلهم إلا كمستأجرين .

ومع أرستقراطية ملاك الأرض وكبار الموظفين ، هوت أرستقراطية رجال الدين التى كانت مرتبطة بالعهد البريطانى . ولقد ظلت الامتيازات الخاصة للكنيسة الأبرشية فى نيو إنجـلانـد ، إذ لم تكن لها علاقـة بالتـاج . بل إن مسـاشـوستس دعمت هذه الامتيازات ، ولكن امتيازات الكنيسة الأنجليكانية فى الجنوب انهارت .

ولقد هدمت الثورة الكنسية الرسمية فى كارولينا الشمالية ، فلم تُبق منبراً من منابرها مشغـولاً . كما أنها أتـاحت ، فى ولايات أخـرى ، للمتـطرفين السياسيين وللطوائف المتذمرة ــ كالمعمدانيين والمشيخيين ــ فرصة ذهبية . واتخذت كارولينا الشمالية ، فى سنة ١٧٧٦ ، دستوراً كفل حرية الدين وحرم أى كنيسة رسمية . وأقدمت كارولينا الجنوبية على الخطوة ذاتها فى دستورها ، سنة ١٧٧٨ . وكذلك فعلت جورجيا فى دستورها ، سنة ١٧٧٧ . ولكن أعنف النضال دار فى فيرجينيا ، إذ كانت الكنيسة الرسمية فيها وطيدة الأركان ، نظراً لأن معظم العائلات الأرستقراطية كانت من الانجليكانيين . . حتى إن ثائراً سياسياً مثل باتريك هنرى كان يعتقد أن معونة الدولة للدين أمر لا غنى عنه بالنسبة للتقوى والأخلاق الحميدة . بيد أن الطوائف المتذمرة وجدت قيادة فى شخصين عظيمين من المتحررين الليبراليين ، ترعرعا فى أحضان كنيسة إنجلترا ، هما توماس جيفرسون ، وجيمس ماديسون .

وكان من السهل على هذين الزعيمين أن يتغلبا على العقبة الأولى ، بالتوصل إلى كفالة التسامح الدينى . فكتب ماديسون فى إعلان الحقوق ، فى سنة ١٧٧٦ ، هذا المبدأ البسيط : « لكل الناس ، على قدم المساواة ، حق حرية ممارسة الدين » . ولكن الكنيسة الرسمية ظلت قائمة ، واحتاج الأمر إلى معركة مداها عشر سنوات للإطاحة بها . وقد وصف جيفرسون الصراع بأنه « أقسى نضال قدر لى أن أشترك فيه » . ولقد وفق ، ابتـداء من سنة ١٧٧٦ ، مع أصدقائه إلى إيقاف الضرائب الكنسية عاماً بعد عام ، ثم ألغـوا فى سنـة ١٧٧٩ ضريبة العشور (عُشر الإنتاج) إلى الأبد . بيد أن خصـومهما أجازوا قرارات ، فى سنة ١٧٧٦ ، تنادى بوجوب الاحتفاظ بمسألة فرض ضريبة عامة لجميع الكنائس ، واحتشد فريق قوى النفوذ لمساندة هذه المطالبة بضريبة

دينية عامة . وكان المشروع ــ فى جوهره ــ كفيلاً بأن يجعل جميع المذاهب المسيحية رسمية ، كديانات للدولة على قدم المساواة ، وأن يعولها من الخزانة العامة . وكان أقوى الدعاة إليه هو باتريك هنرى الخطيب المثير .

وحلت الأزمة فى ١٧٨٤ - ١٧٨٦ ، فإن هنرى بمقدرته الجدلية التى لا تقاوم ، أجاز فى مجلس مندوبى المدن قراراً يقول : « ينبغى على أهل هذه الدويلة أن يدفعوا ضريبة معتدلة ، أو اكتتاباً لمساندة الدين المسيحى ، أو إحدى الكنائس أو المذاهب المسيحية ، أو أية طائفة من المسيحيين . على أن المعارضة حشدت كل قواها ، عندما بدا ثمة مجهود بتنفيذ هذا القول بوساطة مشروع بقانون . ودار نقاش هائل بين هنرى وماديسون ، أحرز الأخير فيه انتصاراً كبيراً ، فأرجىء مشروع القانون ، وأتاح هذا لزعماء الأحرار شن حملة من أجل التعليم . وفى سنة ١٧٨٦ دفن هذا المشروع نهائياً ، وأجيز فى الوقت ذاته ، مشروع القانون الشهير الذى طرحه جيفرسون خاصاً بالحرية الدينية ، وهو مشروع يبين أنه ليس للحكومة أن تتدخل فى شؤون الكنيسة أو المسائل الخاصة بالإيمان ، أو أن تفرض ما يعوق الرأى الدينى . ولقد أصبح هذا التشريع الحاسم حجر الزاوية للحرية الدينية ، لا فى فيرجينيا وحدها ، بل فى كثير من الولايات الجديدة فى الغرب كذلك .

وما أكثر ما ينبغى أن يقال عن الإجراءات التى اتخذت فى عديد من الولايات لتدعيم أسس التعليم أيضاً . فلقد تمكن الأمريكيون خلال سنوات الحرب والقلاقل من إنشاء ما لا يقل عن سبع كليات جديدة ــ منها ديكنسون وفرانكلين فى بنسلفانيا ، وهامبدن سيدنى وواشنطن فى فيرجينيا ، وترانسلفانيا فى كنتكى النائية ــ فى حين أرست ثلاث ولايات أسس جامعات مملوكة للدولة . بيد أن النزاع كان ذا أثر مؤسف على المدارس الخاصة والكليات فى الوقت ذاته . فأغلقت كلية ييل إلى حين ، وكذلك كلية الملك التى أصبحت تسمى كولمبيا . ولقد كان رئيس كلية وليم ومارى يعلم مجموعة من الفتية الحفاة ، إلى فترة متأخرة وصلت إلى سنة ١٧٩٧ ، فى حين أن هيئة التدريس فى هارفارد كانت تتألف فى سنة ١٨٠٠ من رئيس الكلية وثلاثة من الأساتذة وأربعة من المدرسين . ولم يظهر فى الفترة ١٧٨٠ - ١٧٨٤ فى الصحيفة الرئيسية فى بوسطن إعلان واحد للمكتبات .

على أن من الآثار السعيدة للثورة أنها بعثت مطالبة عامة بالتعليم الشعبى ــ

بالمدارس العامة المجانية . فلقد تجلى على الفور أن الحكم الذاتى يتطلب ناخبين متعلمين . ولقد قال جورج كلينتون ، حاكم نيويورك ، فى سنة ١٧٨٢ : « إنه لواجب مبرز ، على حكومة أية دولة أخرى تفتح فيها أعلى المناصب للمواطنين من كل مستوى ، أن تسعى ــ بإنشاء المدارس وحلقات الدرس ــ إلى نشر درجة المعرفة اللازمة لإنشاء مناصب المسئولية العامة » . وكتب جيفرسون : « آمل أن يتسنى الانصراف إلى تعليم العامة قبل كل شيء ، اقتناعاً بأن بوسعنا أن نركن بأقصى درجات الاطمئنان إلى حسن إدراكهم من أجل صون درجة من الحرية لابد منها » . ولقد عرقل الفقر جهود الولايات فى البداية ، ولكن صدور هذا المطلب الجديد فى الوقت المناسب ، أدى إلى تسهيلات للتعليم الأولى أفضل بكثير مما كان موجوداً قبل الحرب . ولقد كانت مواد قانون الأرض الصادر فى سنة ١٧٨٥ ذات أهمية بعيدة الأثر بالنسبة للتعليم ، إذ يسرت ملايين الدونمات من الأراضى العامة منحة للمدارس العامة .

الافتقار إلى حكومة قومية

هكذا كانت الصورة العامة للجمهورية الناشئة ، حافلة بالأمل والتقدم فى نواح كثيرة . ومع ذلك فقد خيمت على الأفق سحابة قاتمة واحدة ، إذ أن الولايات الثلاث عشرة لم توفق قط إلى إقامة حكومة « قومية » حقاً . ولقد اتخذت فى مارس سنة ١٧٨١ بعض مواد معينة لاتحاد كونفيدرالى ، ولكن هذا النظام كان ضعيفاً وغير كاف ، إذ كان مجرد « رابطة صداقة » . فلم تقم أية هيئة تنفيذية حقيقية ، ولم تنشأ أية شبكة محاكم قومية . كان المؤتمر القارى المؤلف من مجلس واحد لكل ولاية فيه صوت واحد ، أضعف من أن يكون ذا فعالية . فما كان يملك أن يفرض الضرائب ، أو يجند القوات ، أو يعاقب الذين ينتهكون ما يقر من قوانين ، أو يجبر الولايات على احترام المعاهدات التى أبرمتها مع دول أخرى . والأسوأ من كل هذا ، أنه لم يملك أن يجمع من المال ما يكفى للقيام بمهام الحكومة أو دفع فوائد القرض الوطنى . على أن المبالغة فى ضعف المواد وعدم كفايتها أمر سهل . فإذا لم يكن المؤتمر قد حل مشكلة الاتحاد ، فإنه قطع شوطاً طويلاً على طريق الحل ، وكان التقسيم الذى وضعه بين السلطات العامة والسلطات المحلية

تقسيماً سليماً . كان خطوة مهمة ، بل ضرورية ، على طريق الانتقال من استقلال وسيادة الولايات فرادى ، إلى الاتحاد الفيدرالى فى سنة ١٧٨٩ .

وموجز القول ، أن الثورة منحت الشعب الأمريكى مكاناً مستقلاً فى أسرة الأمم . ولقد أتاحت له نظاماً اجتماعياً متغيراً ، قلت فيه أهمية الوراثة والثروة والمكانة ، وزادت فيه قيمة الصفة الإنسانية . . خُفضت فيه ــ مؤقتاً ــ مستويات الثقافة وآداب السلوك ، ولكن مستويات المساواة رفعت لمكانة علية . أعطته ألف ذكرى لتعميق الروح الوطنية : واشنطن وهو يجرد سيفه من غمده تحت شجرة فى كمبريدج . . منحدرات تل بنكر هيل المضمخة بالدم . . موت مونتجمرى تحت أسوار كويبيك . . قول ناثان هيل : « لست آسف إلا على أننى لم أوت سوى حياة واحدة أجود بها فى سبيل بلادى » . . السفن التى اتخذت سجوناً فى نهر هدسن . . مصرع بنيديكت أرنولد وهو يحاول أن يخون بلاده . . برد فالى فورج الذى ينخر العظام . . مقاتلو العصابات بقيادة ماريون فى كارولينا الجنوبية ، الذين اكتسبوا له لقب ثعلب المستنقعات . . روبرت موريس رجل المال الوطنى وهو يدبر الأموال بصبر من أجل القضية الوطنية . . ألكسندر هاملتون وهو يجتاح الحصن فى يوركتاون . . الأسطول البريطانى يبحر مغادراً خليج نيويورك ، عند جلائه العظيم .

على أنه ظل لزاماً على الشعب الأمريكى أن يبين أنه أوتى عبقرية حكم نفسه . . وجعل جمهوريته دولة ناجحة . كان عليهم بعد أن يثبتوا أن بوسعهم أن يحلوا مشكلة التنظيم الاستعمارى ــ فإنهم لم يكونوا قد أثبتوا ذلك بعد ــ إذ بدا أن رابطة صداقتهم كانت تتحول إلى رابطة خلاف وشقاق . وكان مؤتمرهم « الكونجرس » يهوى إلى انعدام تام للاحترام . فقد أخذت المنازعات بين الولايات تستفحل بدرجة خطيرة قطعاً . ولم تعان جماعة من فوضى هذه الأحوال أكثر مما عانى الجيش ، الذى لم يستطع الحصول على ما كان يحتاج من طعام وكساء ورواتب . وكثيراً ما كان ضباطه يشربون نخب الأمل فى طوق للبرميل . . فما لم يتوفر الطوق ، كان من المحتمل أن ينهار البرميل إلى كومة من الألواح الخشبية .

الفصـــل ٥

وضـــع الـدســـتـور

إنجاز حاسم

هنــاك اتفاق عام على أن الولايات المتحدة أوتيت دستوراً من أوضح الدساتير التى أعـدت فى يوم من الأيام وأكثرها فعالية . . دستوراً على غير غرار دستور بريطانيا ، فهو مكتوب ولكنه اتسع بمرونة باتساع الأمة . ولقد قال فيه جلادستون : « إذا كان الـدستـور الـبريطانى هو أبـرع كيان قدر له أن يمضى قدمـاً من التـاريخ التقدمى ، فإن الدستور الأمريكى هو أروع عمل انطلق فى وقت معين من عقل الإنسان وعزمه على غايته » . ولقد كان ــ فى الواقع ــ نتاجاً تقدمياً إلى حد كبير كذلك . بيد أنه تشكل فى جمعية من أعجب الجمعيات التأسيسية فى العصور الحديثة .

ولعله كان من يمن الطالع أن مواد الاتحاد الكونفيدرالى ، الذى انتهجته الولايات قرابة نهاية الثورة ، كانت ناقصة إلى حد كبير . فلو أنها نصت على إطار للحكم أفضل ، لكان من المحتمل أن يقنع الأمريكيون برتقها لإصلاح عيوبها ، ولكان من المحتمل أن تشقى البـلاد عشرات كثـيرة من السنـين بدستور ضعيف . ولكنها نُبذت جانباً ، إذ تداعت تداعياً كامـلاً تقريباً . ولأن انهيارها انبعث عن ضعفها ، وضع الدستور الجديد

قوياً بدرجة غير عادية . كذلك كان من حسن الحظ أن انهيار المواد صادف كساداً تجارياً في سنتي ١٧٨٥ و١٧٨٦ . وما كان لغير أزمة ظاهرة أن يفضي بكثير من الأمريكيين المتشككين إلى قبول حكومة مركزية جديدة قوية .

ضعف الحكومة الكونفيدرالية

ذلك أن سنة ١٧٨٦ كانت الذروة العليا للفترة الحرجة . فلم تكن البلاد بدون جهاز حكم قومي قوي حقيقي فحسب ، بل إن الولايات الثلاث عشرة كانت قد أصبحت من التنافر والاضطراب بدرجة دعت الناس إلى أن يتحدثوا عن قيام حرب بين بعضها . ففي بنسلفانيا وفرمونت ، كان القوم في عراك على خطوط الحدود ، بل كانوا يتضاربون من أجلها . ولقد كان من الواجب أن تملك الحكومة القومية السلطة لفرض أية رسوم جمركية تدعو إليها الضرورة لتنظيم التجارة ، ولكنها لم تكن كذلك . وكان من الواجب أن تملك هذه الحكومة سلطان فرض الضرائب للأغراض القومية ، ولكنها لم تكن تملك هذا أيضاً . وكان من الواجب أن يكون لها الانفراد بالسيطرة على العلاقات الخارجية ، بيد أن عدداً من الولايات كانت قد شرعت في مفاوضات مع دول أجنبية . ولقد كان من الواجب أن تملك هذه الأمة الإشراف الأوحد على العلاقات مع الهنود ، ولكن عدة ولايات تولت الأمر مع الهمجيين وفق هواها ، وبدأت جورجيا حرباً هندية وأنهتها .

وعندما هددت القلاقل الداخلية سلامة الممتلكات في مساحات كبيرة ، اشتد ذعر الطبقات الوسطى الرصينة التفكير . فلما استفحل الكساد في ١٧٨٥ - ١٧٨٦ ، نجمت عنه ضائقة شديدة في المناطق التي كان الناس يعيشون فيها في مستوى قريب من الكفاف . فشحت الأموال على طول الحدود ، وشلت الأسواق ، وتلفت المحصولات على أرضها لعدم وجود من يجنيها . ولجأ الناس إلى المقايضة . وطالبت جماعات المدينين حكومات الولايات بإصدار نقود ورقية ليتمكنوا من تصريف محصولاتهم وسداد التزاماتهم . كما طالبوا بقرار لإرجاء تحصيل الديون (موراتوريوم) ، وبتشريعات تجعل الماشية أو القمح أداة قانونية لسداد الديون . ولقد ذكرت مظلمة مدينة جرينويتش ، بولاية مساشوستس ، في يناير سنة ١٧٨٦ ، أن عمليات البيع القضائي

للأراضى نتيجة عدم الوفاء بالديون ، كانت تجرى يومياً وبثلث القيمة الحقيقية ، وأن الماشية كانت تباع بنصف ثمنها ، وأن الضرائب خلال السنوات الخمس السابقة قد عادلت القيمة الإيجارية للمزارع بأكملها . واتخذ التزاحم السياسى شكل صراعات بين الطبقات الدائنة والطبقات المدينة . واستفحلت الكراهية بين الفقراء ومن كانوا فى ميسرة فى كثير من الولايات . ومن أمثلة ما قيل ، هذا القول الذى صدر عن فريق من أهل كارولينا الجنوبية ، فى النيل من الحاكم رتليدج وغيره من الأرستقراطيين : « أثرياء هذه الولاية المتسلطون ، وأتباعهم العبيد آكلو الضفادع ، وصنائعهم من المستعبدين الراضين بالعبودية من لاعقى لعاب الفريقين » .

ولقد انصاعت الهيئات التشريعية فى سبع ولايات لضغط المطالبين بالنقود الورقية ، فى سنة ١٧٨٦ . وأجيزت فى رود آيلاند إجراءات لكل امرىء بمقتضاها أن يفى بالتزاماته بعملة لا قيمة لها فى الواقع . وقد كتب فى هذا أحد مؤلفى الرجز :

يفلسون دائنيهم بإلحاح أهوج
دون توقف ، ولا رحمة من جماعة المدينين

ولما كانت النقود المتردية أداة وافية لسداد الديون المستحقة لأناس فى ولايات أخرى ، فإن مساشوستس وكونكتيكت أقرتا فى إباء إجراءات انتقامية [1] . على أن القوى المطالبة بنقود ورقية أخفقت فى حمل الهيئتين التشريعيتين المسيطرتين على شمال نيو إنجلاند بأسره ، ألا وهما هيئتا مساشوستس ونيو هامبشاير . وهنا اندلعت اضطرابات مسلحة . وكان دستور مساشوستس القائم يضع السيطرة على الحكومة فى أيدى العناصر ذات الثروة فى المجتمع . إذ كان قد أقام تحصينات خاصة للدفاع عن الملكيات فيما نص عليه من مؤهلات للناخبين ومؤهلات لشاغلى المناصب . وكانت الهيئة التشريعية المحافظة قد فرضت إذ ذاك ضرائب لدفع ديون الثورة ، وهى ديون كان معظمها للمضاربين ، وعبثاً التمست اجتماعات البلدية والاجتماعات العامة التخفيف ، فاستمرت عملية البيع القضائى للأراضى المرهونة ونزع الملكية سداداً للضرائب المتأخرة . فلا عجب فى قيام

(١) أى أن لسكانها السّداد لدائنين فى الولايات الأخرى بنفس النقود ـــ المترجم .

تمرد زراعى . فكان انفضاض المحكمة العامة ، فى يوليو سنة ١٧٨٦ ، إيذاناً بقيام ثورة بقيادة أحد من خاضوا معركة بنكر هيل ، وهو دانييل شايز . وكان تمرد شايز ــ كما أصبح يدعى ــ على غرار الانتفاضات الزراعية الأولى ، مثل تمرد بيكون ، أو حركات الإصلاح فى غرب كارولينا الشمالية قبيل الثورة ، فهى لم تكن ثورة ضد الحكومة بقدر ما كانت احتجاجاً عنيفاً ضد أحوال أصبحت لا تطاق .

ونشطت الولاية للعمل بهمة بقيادة الحاكم بودوين ، والجنرال لينكولن ، وبعض الموسرين الذين كانوا يقرضون مالهم فى الأزمة ، فكان من السهل إيقاف زحف شايز عندما حاول أن ينهب ترسانة الأسلحة فى سبرينجفيلد وأن يوزع قواته . بيد أن الصراع الوجيز أزعج الدوائر المحافظة فى كافة أرجاء الأمة أيما إزعاج ، فقد لاحت نذيراً بحركة ثورية نحو اليسار . فكتب الجنرال نوكس لواشنطن أن لدى نيو إنجلاند اثنى عشر أو خمسة عشر ألفاً من المستيئسين الذين كانوا يعتنقون ما يسمى الآن آراء شيوعية : « عقيدتهم أن ثروة الولايات المتحدة قد صينت من أن تصادرها بريطانيا ، بفضل الأعمال المشتركة التى قام بها الجميع ، ومن ثم فينبغى أن تكون ملكاً مشاعاً للجميع » . ولقد أثاروا خوف « كل امرىء ذى مبادىء وثروة فى نيو إنجلاند » . ورأى واشنطن أنه كان على سلطات مساشوستس أن تكون أقسى صرامة ، فكتب فى جزع أشد من جزع الجنرال نوكس : « هناك أمور قابلة للاشتعال فى كل ولاية ، قد توقد النار فيها شرارة واحدة » . وكانت هذه هى وجهة النظر العامة . وكانت النتيجة المنطقية المستخلصة من هذا أن الحاجة تمس إلى حكومة قومية أشد مكانة لتساعد الولايات على معالجة الشغب . وقد كتب ستيفن هيجنسن من مساشوستس إلى ناثانييل دين : « من الجلى فى ذهنى أننا لن نملك البقاء طويلاً تحت نظامنا الحاضر ، وما لم نحرز فى القريب مزيداً من القوة للاتحاد ، بأية وسيلة ، فإن المتمردين سينهضون ولن يلبثوا أن ينتزعوا الزمام منا . ولن يكون ثمة مفر من أن نُدفع إلى تشنجات عنيفة ستؤدى إلى حكومة أو أكثر تقوم على إراقة كثير من الدم » .

وكانت المشاحنات بين حكومات الولايات قد أحدثت عناءً قاسياً للجماعات التى كان عيشها يتوقف على قدر من التناسق . فكان التجار فى يأس بسبب الافتقار إلى عملة رسمية ، إذ كانوا مضطرين إلى التعامل بخليط عجيب من العملات التى سكتها أكثر من عشر دول ، وكثيرة منها متآكلة وناقصة الوزن ، وبقطع نقدية مزيفة ، وبمجموعة

لا يصدقها العقل من النقود الورقية القومية والخاصة بالولايات ، اتسمت بهبوط سريع فى قيمتها . فبات من الواضح أنه لن يكفى للموقف سوى نقد قومى مقنّن . وأخذ المصدرون كافة يئنون من افتقاد الحماية لإقدامهم على محاولة تسويق السلع الأمريكية فى الخارج . كما وجد الكونجرس الضعيف أن من المستحيل إعادة إقامة العلاقات التجارية القديمة مع الإمبراطورية البريطانية ومع جزر الهند الغربية بوجه خاص . وكانت إسبانيا قد أغلقت فى تحدٍّ مصب نهر المسيسيبى فى وجه التجارة الأمريكية ، وكان ثمة خوف عام من أن تقبل الحكومة منصاعة لهذه الخطوة القاضية على مصالح الغرب الأمريكى . وما كانت من وسيلة تكفل للتجار الاطمئنان على تحصيل ما لهم من نقود ، حتى فى داخل البلاد . فكان النيويوركى الذى يقاضى مديناً فى بنسلفانيا تحت رحمة محاكم بنسلفانيا ومحلفيها الذين كانوا ينحازون لمواطنيهم بطبيعة الأمر . وباتت طبقة أصحاب المصانع الأمريكيين ، الذين كانوا فى نمو سريع ، تحت رحمة منافسة من أوربا تنحر الأسعار نحراً .

غير أن أسوأ الشرور انبعث من المعوقات المتعمدة التى أقيمت ضد التبادل التجارى بين الولايات . وعمد عدد من الولايات إلى فرض رسوم جمركية على كافة الواردات ، فى تلهفها على الحيلولة دون إغراق البلاد بالسلع الأوربية وعلى اكتساب إيرادات . وبدت ثلاث خطوات رئيسية فى هذه العملية . ففى أثناء الحرب ، كانت فيرجينيا وحدها هى التى فرضت رسوماً على مجموعة كبيرة من السلع ، إذ كانت لها تجارة كبيرة من جراء تصديرها التبغ واستيرادها مختلف السلع ، ومن ثم فكانت تملك أن تفعل ذلك . ثم فرضت جميع الولايات ، ما عدا نيوجيرسى ، فى الثلاث سنوات الأولى بعد الصلح ، رسوماً على الواردات ، ولكن اكتساباً للدخل فقط ، وليس للحماية . وأخيراً ، لم تحن سنة ١٧٨٥ حتى كانت نيوإنجلاند ومعظم ولايات الوسط قد أنشأت صناعات محلية تبشر بالنجاح ، فعانت من المنافسة الأوربية . ومن ثم فإنها فرضت رسوماً جمركية للحماية .

وسرعان ما دب فى الموقف عنصر بين الولايات من التعامل بالمثل . فإن الولايات الجنوبية ، وبعض الولايات الشمالية الصغيرة لم تؤت سوى مصانع قليلة ، فكانت بحاجة إلى السلع المستوردة . لذلك أنشأت ديلاوير ونيوجيرسى موانىء حرة للبضائع الأوربية ، بينما أصدرت كونكتيكت بدورها قوانين لتشجيع النقل البحرى المباشر للسلع

الأوربية . كذلك وضعت قيود على تنقلات السفن ، فلم يكن بوسع أبناء نيوجيرسى مثلاً أن يجتازوا نهر هدسن لبيع الخضر فى نيويورك دون أن يدفعوا أجوراً باهظة . وأخذت ضراوة المشاعر بين الولايات تستفحل بطبيعة الأمر . فكان أبناء كارولينا الشمالية ــ فى غمرة التشهير بفيرجينيا وكارولينا الجنوبية ــ يشبهون ولايتهم بقنينة كبيرة مخروقة الطرفين . وقال أوليفر إيلسويرث أن ولايته الصغيرة كونكتيكت كانت مثل « يسّاكر [1] فى الماضى ، حماراً جسيماً رابضاً بين الحظائر » .

وكانت مجموعة واسعة التباين من جماعات الدائنين ، بجانب التجار وأصحاب المصانع ، ينعون على البلاد الافتقار إلى أية سلطة قومية تستطيع أن تضع قيوداً فعالة تكبح اتجاهات الهيئات التشريعية المتطرفة نحو « المساواة » . وكان بين أفرادها مقرضو المال ، وواضعو اليد على رهونات ضايقتهم قوانين « وقف البيع » التى فرضتها تلك الولايات ، وبعمليات الإصدار الجزافى للنقود غير ذات القيمة . وكان بينهم أمريكيون ممن لديهم صكوك بديون كانت لبريطانيين وآلت إليهم ، إذ أن الجماعات المتطرفة المسيطرة على بعض الهيئات التشريعية والمحاكم كانت قد قضت بألا تكون الديون المستحقة لبريطانيين قابلة للاقتضاء . وكان بينهم كثير من الضباط والجنود الذين تسلموا صكوكاً لتملك أراض كجزء من رواتبهم عن الخدمات الثورية . وكان بينهم المضاربون على الأراضى ، الذين كانوا قد ابتاعوا مساحات كبيرة ، سواء من أراضى الجنود أو من الأراضى المصادرة ، بأسعار زهيدة ، وكانوا تواقين لإعادة بيعها . كان مالكو الأراضى هؤلاء يبتغون حكومة قومية لها من القوة ما يحمى الحدود من الهنود ، ويكفل النظام فى المناطق الحديثة الاستيطان ، ويحمى حقوق تملكهم .

وأخيراً ، فإن كتلة ذات وزن من حاملى السندات الاتحادية وسندات قروض الولايات ، أخذوا يرقبون فى جزع وأسى الظروف المالية التى دبت فيها الفوضى فى ذلك العهد ، والتهرب الشعبى من الضرائب . ففى الأربعة عشر شهراً الأخيرة من عمر مواد الاتحاد الكونفيدرالى ، بلغت الفائدة على قروض الدولة الداخلية والخارجية قرابة ١٤ مليوناً من الدولارات ، فى حين أن إيرادات الحكومة القومية كانت ٤٠٠ ألف دولار فقط . وقد شرح واشنطن الموقف بإيجاز ، حين كتب إلى جيمس وارين فى سنة ١٧٨٥ :

(١) تكوين ٤٩ : ١٤ .

« إن عجـلات الحكـومة قـد غاصـت فـى الـوحـل » .

قانون الشمال الغربى

قدر لحكومة الاتحاد الكونفيدرالى أن تحرز نجاحاً كبيراً واحداً . فعندما ووجهت بمشكلة ما ينبغى أن تفعله بالأراضى غير المستوطنة غربى جبال ألليجنى (إذ كانت الولايات قد نزلت واحدة بعد أخرى عن مطالبتها بحقوق تملك هذه الأراضى إلى الحكومة العامة) ، ابتكرت خطة حكيمة كان لها أثر كبير فى أن تصبح الولايات المتحدة ما هى عليه . إذ قررت أن تبيح هذه الأراضى للاستيطان المنظم والتقدمى ، وأن تشجع السكان على إقـامة حكم ذاتى على مراحل منتظمة ، ثم أن تنشىء ولايات جديدة ، متشابهة مع الـولايات الثلاث عشرة الأصلية فى السلطات . وهذا المشروع تضمنه قانون الشمال الغربى (سنة ١٧٨٧) الذى شمل المنطقة الواقعة شمال نهر أوهايو ، ونص على المراحل التى تنتهى بإنشاء ما بين ثلاث وخمس ولايات . فحرم دخول الرق إلى المنطقة ، وعين ثلاث مراحل منتظمة للحكم . فكان للكونجرس أولاً أن يقيم إقليماً ، وأن يعين حاكماً وقضاة لهم أن يسنوا القوانين ، على أن يكون للكونجرس حق النقض (الفيتو) . فإذا ما بلغ السكان خمسة آلاف ، تكون لهم بعد ذلك هيئة تشريعية من مجلسين ينتخبون بأنفسهم المجلس الأدنى منهما . وأخيراً ، إذا ما بلغ السكان ستين ألفاً ، يحوَّل الإقليم إلى ولاية كاملة ، تتساوى مع الولايات الأصلية فى كل اعتبار . وبهذا حلت الولايات المتحـدة مشكلة المستعمـرات الخاصة بها ، وأقامت الأمة نسقاً اتبعته فى امتدادها إلى المحيط الهادى ، وأتاح لها آخر الأمر خمسين ولاية .

بيد أن الاتحاد الكونفيدرالى كان مخيباً للآمال فى معظم النواحى الأخرى . وقد كتب واشنطن أن الولايات المتحدة لم تكن متحدة إلا بحبل من الرمال ، كما صرح مراقب آخر بأن « استياءاتنا أخذت تتفاعل لتصبح حرباً أهلية » . كان عدد ذوى الكفاءة من أعضاء الكـونجـرس قد تضـاءل كل التضـاؤل ، وكـانت مكـانته أدنى مما ينبغى بكثير ، مما لم يكن يمكنه من وضع نظام أفضل للحكم . وكان توماس بين قد اقترح قبل وقت طويل « عقـد مؤتمـر للقـارة ، ليصـوغ ميثـاقـاً قارياً » . وقـد أثـار هذا الاقـتراح نفـر

من الزعماء اجتمعوا ليبحثوا مسائل تجارية .

الدعوة إلى مؤتمر قومى

وقصة الخطوات الأولية للمؤتمر الدستورى معروفة . فقد كانت ثمة مشكلة تجارية خاصة تلح على الأذهان ، بينما كان ذوو الفكر الصائب يزدادون برماً بالضعف القومى ، وبمشاكسات الولايات . ذلك أن ميريلاند فرضت السيادة على نهر بوتوماك بأكمله ، من حيث يفصلها عن فيرجينيا حتى شاطئه الجنوبى . وخشى أهل فيرجينيا أن تعترض ميريلاند حرية ملاحتهم فى هذا النهر المهم ، فاجتمع مندوبو فيرجينيا وميريلاند فى سنة ١٧٨٥ مع جورج واشنطن فى ماونت فيرنون لبحث الملاحة فى نهر بوتوماك وخليج تشيزابيك ، وكان ماديسون ، الذى حضر الاجتماع ، فى هم شديد من جراء الفوضى العامة فى التجارة ، إذ كان يعتقد أنه لابد من مؤتمر أكبر ، يعقد بغرض حمل الولايات على أن تعهد بلوائحها إلى الكونجرس . واجتمع هذا المؤتمر فى آنابوليس سنة ١٧٨٦ ، وقد بدا فاشلاً كل الفشل حين لم يحضره سوى وفود خمس ولايات أخرى .

وشاء الحظ أن يكون أحد المندوبين ألكسندر هاملتون المقدام ، الذى انتزع من الهزيمة انتصاراً ، إذ حمل الجمع على أن يدعوا الولايات إلى تعيين مفوضين يجتمعون فى فيلادلفيا فى شهر مايو التالى ، لدراسة موقف الولايات المتحدة و« ليضعوا من النصوص الجديدة ما سيتراءى لهم لازماً لجعل دستور الحكومة الفيدرالية كافياً لمتطلبات الاتحاد الضرورية » . ولقد استنكر المؤتمر القارى هذه الخطوة الجريئة فى بادىء الأمر ، ولكن اعتراضاته المهتاجة اقتضبت عندما ورد نبأ بأن فيرجينيا انتخبت واشنطن مندوباً . إذ ذاك عاد الكونجرس إلى انتظامه ، وحدد يوم الاثنين الثانى من مايو سنة ١٧٨٧ ، تاريخاً للاجتماع . واختارت الولايات جميعاً ، ما عدا رود آيلاند الصغيرة السادرة فى عنادها ، مندوبيها خلال الخريف والشتاء .

كانت الهيئات التشريعية للولايات هى التى اختارت الوفود . وكانت بعض هذه الهيئات تحت سيطرة الجماعات الزراعية المتطرفة ، كما كان الذائدون عن سيادة الولايات فى جميع هذه الهيئات عزيزى الجانب . ومع ذلك فقد طلبت معظمها إلى موفديها إنشاء

حكومة قومية متينة ، وأرسلت إلى فيلادلفيا بمجموعة من الرجال كانوا قوميين فى نظرتهم العامة . وبوجه عام ، كان القوميون جميعاً ــ وقد أطلقوا على أنفسهم فيما بعد : الاتحاديين (الفيدراليين) ــ هم الذين كانوا مهتمين أشد الاهتمام بتصدع الاتحاد الكونفيدرالى ، والذين أطلقوا الدعوة الأصلية إلى عقد المؤتمر القومى . كذلك كان القوميون هم الذين أمسكوا بزمام المؤتمر ، وقد حالفهم الحظ بأن كان واشنطن فى صفهم ، وكان واشنطن هو المختار المحتوم من كافة الوفود لرئاسة المؤتمر . وقد أوتوا من حسن الإدراك ما جعلهم يأتون مستعدين بمسودة لدستور جديد ، وما مكنهم من جعل هذا المشروع موضوع الدراسة بدلاً من المواد القديمة .

وشهدت أوائل شهر مايو المندوبين يسعون إلى فيلادلفيا فرادى وأزواجاً . وكان واشنطن دقيقاً فى موعده بما طبع عليه ، فوصل فى الثالث عشر من الشهر ، متشحاً بالمخمل الأسود ، متقلداً سيفاً لمجرد أبهة المنظر ، فأصبح على الفور معقد الانتباه . وأقام بنجامين فرانكلين فى السادس عشر مأدبة عشاء للوفود التى كانت موجودة بالمدينة إذ ذاك ، قدر لها أن تعلق بالأذهان طويلاً ، ففض لهم قنينة كبيرة من الشراب كان أحد أصدقائه قد أرسلها له ، وقدم إليهم وافراً من نبيذ ماديرا المعتق ولاشك . وكان بين ضيوفه جيمس ماديسون مندوب فيرجينيا ، وكان ضئيلاً فى الجسم ولكنه عملاق فى قدراته على التحليل السياسى . وهو ــ كخريج فى جامعة برينستون ، ومحام من أصحاب المزارع ، يقضى الكثير من وقته فى الأدب الرفيع ــ كان ثانى أعظم أعضاء المؤتمر علماً بعد فرانكلين ، وقدر له أن يثبت أنه كان أكثر المندوبين دأباً ، وأعظمهم عقلية بناءة . كذلك كان بين الضيوف جورج وايت ، البالغ من العمر خمساً وستين سنة ، والذى علم جيفرسون ، وماديسون ، وجون مارشال ، وغيرهم من المحامين اللامعين فى فيرجينيا القانون . ثم كان هناك حاكم فيرجينيا إدموند راندولف ، الذى كان يمتلك حوالى سبعة آلاف دونم ومائتى عبد .

وكان بين مندوبى بنسلفانيا روبرت موريس ، رجل المال الجليل الذى دبر من المال ما مكن جيوش واشنطن من البقاء فى الميدان خلال أحلك أيام الثورة . وفى البيت الأنيق ، بيت موريس ، أقام واشنطن أثناء الاجتماعات . كما كان هناك جوفرنير موريس ، الذى ولد فى أسرة غنية فى نيويورك وأصبح فى طليعة المحامين والمضاربين على الأرض فى فيلادلفيا . وحضر كذلك جاريد إنجرسول الذى درس فى ميدل تمبل وارتقى

ليصبح من أحسن المحامين فى بنسلفانيا ، وجيمس ويلسون ، وكان رجلاً متزمتاً فى صراحته ، ولد وتعلم فى اسكتلندا ، وأصبح أضلع القانونيين وأوسعهم اطلاعاً فى أمريكا . وكان من العسير أن تجمع مواهب وشخصيات تفوق هؤلاء حول مائدة عشاء ، فى أى مكان فى العالم ، فى سنة ١٧٨٧ . بل المحقق أنه ما كان لأية مجموعة فى العالم القديم أن تزهو بشخصيات باهرة تفوق واشنطن الجاد ، الجليل ، وفرانكلين الحكيم والطيب فى بشاشة ولطف ، والذى كان يبدو كأنه « يفيض تحرراً وسعادة منطلقين » ، كما كتب أحد المعاصرين .

ومن الجدير بالملاحظة أن بعضاً ممن كانوا أكثر نشاطاً فى إطلاق الثورة والقتال من أجلها ، لم يشتركوا فى المؤتمر . فقد كان جيفرسون فى فرنسا ، ورفض باتريك هنرى الاختيار ، وكان جون آدمز وزيراً مفوضاً فى انجلترا ، كما أن الاختيار لم يقع على الخطباء الثائرين الثلاثة : توم بين ، وسام آدمز ، وكريستوفر جادسدن . وموجز القول أن المتطرفين لم يكونوا ممثلين تمثيلاً كافياً . ولقد وجه بعض المؤرخين كثيراً من الاهتمام إلى أن النسبة الكبرى من المندوبين كانوا من أصحاب الأراضى ، وممتلكى سندات الحكومة القارية أوحكومات الولايات . ولكن الجدير بنا أن نتذكر أن النسبة الكبرى من الأمريكيين كانوا ينتمون إلى العناصر الوسطى المالكة لثروات . فقد كان فى أمريكا — كما ذكر بنجامين فرانكلين — نفر قليل من فاحشى الغنى ، ونفر قليل من الفقراء المدقعين ، فى القرن الثامن عشر . ومن الواجب أن نضيف أن المؤتمر الفيدرالى كان — فيما يحتمل — أكثر اجتماع سياسى ممثل لشعبه يمكن العثور عليه فى العالم الغربى فى ذلك الحين .

المؤتمر يعمل

هكذا كان المؤتمر خلقاً نادراً ، هيئة معقودة العزم بتصميم صادق . وكان عجيباً من حيث أنه كان لكل ولاية أن توفد أى عدد شاءت من المندوبين ، إذ أن كل ولاية اختارت المندوبين على حدة . بيد أن معظم الولايات أرسلت وفوداً صغيرة لأسباب دعتها للاقتصاد . فلم يكن مجموع الحضور سوى خمسة وخمسين ، ولم يحضر بعضهم إلا لوقت

قصير ، لذلك فلم يكن الحاضرون فى الختام سوى تسعة وثلاثين ، ولم يجنح إلى السكوت أثناء المداولات سوى قلة ، منها واشنطن طبعاً . وكان النصف تقريباً من خريجى التعليم العالى ، كما كانت أغلبية كبيرة من المحامين ، فعبروا عن آرائهم بدقة وإجادة . ولم يُحتفظ بتقرير مفصل للمداولات ، ومما لاشك فيه أن الروايات التى نشرت فى يوميات ماديسون وغيره حذفت كثيراً من الكلام . بيد أن أحداً لا يملك أن يقرأ هذه الملخصات دون أن يُبهر بها لمعظم المتكلمين من قوة إقناع منطقى . ولقد أعانتهم فى مناقشاتهم قاعدة السرية التى حرص عليها المؤتمر بشدة . إذ أن النشر كان خليقاً بأن يضخم الخلافات ، وأن يغرى الأعضاء بإلقاء خطب لترددها المحافل والصحف ، مما كان يعرضهم لضغوط من ناخبيهم . ولقد استحق مواطنو فيلادلفيا العاقلون الثناء لأنهم رفضوا الاطلاع على عمل المؤتمر . ولقد ذكر فرانكلين لأصدقائه فى مأدبته الخرافة القديمة عن أفعى ذات رأسين ماتت جوعاً لأن الرأسين أبياً أن يتفقا على أى جانبى الشجرة تمر الأفعى عنده ، وقال إن بوسعه أن يقدم مثالاً من مناسبة حديثة فى المؤتمر ، بيد أن أصدقاءه ذكروه بقاعدة السرية فأوقفوه عن الكلام .

اتفق المندوبون ضمناً ، فى بداية المؤتمر ، ألا ينقحوا مواد الاتحاد الكونفيدرالى ، بل يضعوا دستوراً جديداً كل الجدة . وقد تجاوزوا بهذا السلطة التى منحهم إياها قرار المؤتمر القارى ، ولكنهم لم يتجاوزوا السلطات التى استخلصها من الهيئات التشريعية للولايات ، إذ أن معظم هذه الهيئات خولتهم وضع دستور « كاف لمتطلبات الاتحاد » . ولما لم يكن مجرد التعديل للمواد القديمة كفيلاً بتحقيق هذه الغاية ، فقد أقدم المندوبون « باعتداد نبيل ببلادهم » ــ كما كتب ماديسون فيما بعد ــ على المضى فى جرأة نحو شكل جديد للحكم .

ومن المهم فى وصف عمل المؤتمر ، إبراز بضعة اعتبارات عامة عظيمة . كان المندوبون يدركون أنه لابد من إقامة جهاز متراكب ، فما كانت أية حكومة بسيطة لتكفى . وكان عليهم فى البداية ، أن يوفقوا فى رفق تحف به الهواجس ، بين سلطتين مختلفتين : سلطة السيطرة المحلية التى كانت تمارسها فعلاً الولايات الثلاث عشرة نصف المستقلة ، وسلطة الحكومة المركزية الحديثة الإنشاء . وكانت مهمة لم يتضمن سابقة لها سوى تاريخ الإمبراطورية البريطانية . فقد كان فى الإمبراطورية ، كما كانت قائمة قبل سنة ١٧٦٣ ، نظام فيدرالى بالنسبة لكافة النوايا والأغراض ، وتقسيم لاختصاصات

الحكم بين السلطات المركزية والمحلية . بيد أن الاتحادات الأخرى التى أنشئت حتى ذلك الحين ، كانت جميعاً ــ دون ما استثناء ــ صغيرة المساحة ، وكادت أن تكون جميعاً ــ دون ما استثناء ــ مفككة للغاية ، ونادراً ما رافقها النجاح لأية مدة طويلة . وكان جيمس ماديسون وبضعة نفر آخرين قد قاموا بدراسة واسعة للحكم بوجه عام ، وللاتحادات فى اليونان ، وهيلفسيا ، وهولندا بوجه خاص . فى حين كان معظم المندوبين من ذوى الاطلاع الواسع فى مجال الفكر السياسى . وكان المبدأ الذى اتخذوه ، هو أن وظائف الحكومة القومية وسلطاتها يجب أن تحدد بعناية ، بينما يكون من المفهوم أن كافة الوظائف والسلطات الأخرى ملكاً للولايات . وكان لابد من ذكر وإثبات سلطات السيادة القومية ــ بوصفها سلطات جديدة ، وعامة ، ولا تقبل التجزئة .

النتاج النهائى للعمل

ومضت عملية إنشاء جهاز قومى تسير قدماً ، جنباً إلى جنب مع عملية تسجيل السلطات هذه . وقد ساند هذا العمل كذلك مبدأ عام . كان من المفهوم أنه لابد من إقامة ثلاثة فروع منفصلة للحكم ، كل منها متساو ومتناسق مع الآخرين : الهيئات التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية ، فتكون متكاملة ومترابطة بدرجة تسمح بانسجام عملها ولكنها ــ فى الوقت ذاته ــ تكون من قوة التوازن بحيث لا يتسنى لأية مصلحة فردية أن تفرض سيطرتها . كانت هذه الفكرة عن توازن السلطات فى القرن الثامن عشر ، مذهباً فى السياسة يرجع إلى نيوتن . ولقد استُخلص المبدأ ، بحكم طبيعته ، من تجربة المستعمرات ، وعُزز بكتابات لوك ومونتسكيو ، التى كان معظم المندوبين على دراية بها . وكان التعريف الأمريكى للحكومة الجائرة ، أنها الحكومة التى يستولى فيها عنصر واحد بمفرده على دور متسلط . كذلك كان من الطبيعى التسليم بأن الفرع التشريعى يجب أن يتألف من مجلسين ، كما كانت الهيئات التشريعية فى المستعمرات وكالبرلمان البريطانى . ولم يكن الإيمان بقيام هيئة تنفيذية واحدة إجماعياً ، ولكن دعاة تعدد الهيئة التنفيذية أفحموا إذ ذُكروا بالمثل العام الذى ضربته المستعمرات والولايات .

ولقد أدى قرار إقامة هيئة تشريعية من فرعين إلى تيسير تسوية النزاع الأساسى ،

وإن لم يكن واقعياً ، فى المؤتمر بصدد سلطات الولايات الصغيرة والولايات الكبيرة . فلقد أكدت الولايات الصغيرة أن من حقها أن تتساوى مساواة تامة مع شقيقاتها الكبرى ، كما كانت الحال فى الاتحاد الكونفيدرالى ، وأن كونكتيكت الصغيرة يجب ألا تداس تحت أقدام نيويورك الكبيرة ، ولا ميريلاند الصغيرة تحت أقدام فيرجينيا الكبيرة . أما الولايات الواسعة ، فقد أكدت أن السلطان يجب أن يتناسب مع الحجم ، والسكان ، والثروة .

وبفضل التوفيق الذى انتُهج فى النهاية ، مُنحت الولايات الصغيرة حق المساواة فى التمثيل فى مجلس الشيوخ مع الولايات الكبيرة . أما فى مجلس النواب ، فوُزعت المقاعد على أساس السكان . وعند الانتقال إلى الهيئة التنفيذية ، كانت المشكلة الكبرى هى الاستقرار على نهج انتخابى . هل يكون اختيار الرئيس بوساطة الكونجرس ؟ إن هذا يميل كثيراً نحو جعله مستنداً إلى الفرع التشريعى ، مما يخل بميزان القوة . هل يختار بتصويت شعبى ؟ لقد كان شعب الولايات المتحدة ، متناثراً فى مساحة هائلة ومطردة الامتداد ، وكانت وسائل المواصلات قاصرة . ومن ثم فسيكون من العسير عليهم أن يركزوا أصواتهم على مرشح واحد أو عدد قليل من المرشحين ، وسيكون هناك عدد كبير من الاختيارات ، فلا يقدر لرجل واحد أن يقترب من إحراز أغلبية الأصوات . لهذا استقر الرأى أخيراً على إقامة مجمع انتخابى ، يكون فيه لكل ولاية من المندوبين بعدد ما لها من شيوخ ونواب . ولم يطبق هذا النظام فى الواقع بالشكل الذى قصد إليه واضعوه ، إذ فاتهم أن يروا مقدماً تطور الأحزاب السياسية التى بدأت على الفور . أما فيما يتعلق بالفرع الثالث ، وهو القضاء الفيدرالى ، فتقرر أن يعين الرئيس القضاة بمشورة مجلس الشيوخ وموافقته ، لمدى الحياة إذا أحسنوا التصرف .

إن براعة واضعى الدستور وحكمتهم لتعلوان على إعجابنا . فلقد أقاموا أكثر الحكومات التى ابتكرها الإنسان ــ حتى الآن ــ تراكباً ، وهى كذلك الأبدع توازناً والأكثر حظاً من الحماية . فكان كل من الفروع الثلاثة مستقلاً عن الآخرين ومتساوياً معهما ، ومع ذلك فقد كان كل منهما تحت إشراف الآخرين ورقابتهما . فما كان للتشريعات التى يقرها الكونجرس أن تغدو قوانين حتى يصدق عليها الرئيس ، وكان على الرئيس بدوره أن يعرض تعييناته للمناصب وارتباطاته وكافة معاهداته على مجلس الشيوخ ، كما كان من الممكن اتهامه ومحاسبته وإبعاده عن منصبه بوساطة الكونجرس . وكان للهيئة القضائية أن تنظر كل القضايا التى تثار تحت القوانين والدستور ، ومن ثم

فقد كان لها أن تفسر القانون الأساسى والقانون التشريعى . بيد أن القضاة كانوا يعينون من قبل الرئيس ويعزز مجلس الشيوخ تعيينهم ، فى حين كان من الممكن للكونجرس أن يوجه إليهم الاتهام هم الآخرين . ولما كان الشيوخ يُنتخبون بمعرفة الهيئات التشريعية للولايات لمدة ست سنوات ، وكان الرئيس يُختار بمعرفة مجمع انتخابى ، وكان القضاة يعينـون ، فلم يكن أى جزء من جهـاز الحكم معرضـاً لضغط من الجمهـور اللهم إلا المجلس الأدنى فى الكونجرس . يضاف إلى هذا أن موظفى الحكومة كانوا يُختارون لمدد واسعة التباين ، تتراوح بين مدى الحياة وعامين ، فلم يكن من سبيل لتغيير الموظفين تغييراً كاملًا إلا بثورة .

ولقـد أعلن بعض الدارسين للمؤتمر ، وقد تناولوه على أنه هيئة اقتصادية وليست سياسية ، أن النتـائـج الـرئيسية له كانت فى صالـح ملاك الثـروات ، وطبقة التجار وأصحـاب القـروض . ولكن علينـا أن نتذكر مرة أخرى أن أمريكا كانت ، فى سنة ١٧٨٧ ، بلاداً يكـاد الجميع فيهـا ــ من مزارعـين ، وأصحـاب مزارع ، وأصحاب حوانيت ، ومهنيين ــ أن يكونوا فى ميسرة ، فكانت الفواصل الطبقية فيها قليلة وباهتة . كما أن الأمن والاستقرار كانا لنفع كل امرىء ، إذ كان الجميع يصبون إلى نقد مستقر ، وتجارة منعشة ، وحماية الأصقاع الغربية ، وتطبيق حازم للعدالة ، وتطبيق كفء لكل شأن من شؤون الحكم اليومية . أما فيما يتعلق بأن الدستور وثيقة طبقية ، فيكفى أن نلاحظ أن نصـوصـه لم تتضمن أية مؤهـلات من ثروة أودين للظفـر بحق الانتخاب أو للترشيح لأى منصب اتحادى .

ولقد كان من الممكن أن تكون القرارات التى كفل بها المؤتمر للحكومة الاتحادية أن تكون من القوة بحيث تصون النظام وتحمى الثروة . . كان من الممكن لهذه القرارات أن تكـون متفجـرة بدرجة خطيرة ، فى أية ظروف أخرى . بيد أن معظمها اتُّخذ بعد منـاقشة موجزة وهادئة . فمُنحت الحكومة الاتحادية السلطة الكاملة ، دون ما قيود ، لفرض الضرائب ، مما كفل لها الوسائل لدفع الديون التى تجاوزت مواعيد استحقاقها بأجـل طويل ، ولتسترد قروضها ، ولفرض الرسوم والضرائب المباشرة والاستقطاعات الرسمية ، وأن تقر قوانين رسمية للإفلاس . ولقد مُنحت سلطة سك النقود ، وتحديد الأوزان والمقـاييس ، ومنح رخص الاختراع وحقوق النشر ، وإقامة مكاتب للبريد ، وطـرق للبريد . ولقـد خُولت سلطة تكوين جيش وأسطول والاحتفاظ بها . وكان لها أن

تنظم التجارة بين الولايات . ولقد عهد إليها بتولى العلاقات الهندية بأسرها ، والعلاقات الخارجية ، والحرب . وكان لها أن تتدخل لإقرار النظام إذا اندلعت أعمال العنف المحلية فى أية ولاية ، وطلبت الهيئة التشريعية أو الحاكم المساعدة . وكان لها إصدار قوانين لمنح الأجانب الجنسية . ونظراً لسيطرتها على الأراضى العامة ، فقد كان بوسعها ضم ولايات جديدة على قدم المساواة مع القديمة . وكان لها أن تتخذ عاصمة خاصة بها فى بقعة لا تتجاوز عشرة أميال مربعة . وقصارى القول أن الحكومة القومية كانت عزيزة السلطان من البداية ، وقدر لها أن تزداد قوة بفضل تأويلات المحكمة العليا للدستور . وكانت هذه القوة رد فعل طبيعى نشأ عن ضعف الاتحاد الكونفيدرالى .

على أن الولايات ظلت هى الأخرى قوية . فقد احتفظت بكافة سلطات الحكم المحلى ، وتولت تنظيم معظم الأمور اليومية التى تهم الشعب . فالمدارس ، والمحاكم المحلية ، وصون الأمن ، وتخطيط المدن الصغيرة والكبيرة ، وإجازة شركات المصارف والأوراق المالية ، والعناية بالجسور والطرق والقنوات . . كل هذه الأمور وكثير غيرها كانت فى أيدى الولايات . وكان للولايات أن تقرر من الذى له حق الانتخاب ، وكيف . وكانت مسئولة ــ فى المقام الأول ــ عن حماية الحريات المدنية . ولقد ظل كثير من الناس أمداً طويلاً يرون أنفسهم أبناء جورجيا أو بنسلفانيا أو فيرجينيا قبل أن يشعروا بأنهم أمريكيون .

أخيراً ، واجه المؤتمر أهم المشكلات جميعاً : كيف ينبغى تنفيذ السلطات التى منحت للحكومة القومية الجديدة ؟ . . كانت الحكومة الكونفيدرالية القديمة تمتلك سلطات كبيرة ــ وإن لم تكن كافية ــ على الورق . ولكن سلطاتها عند التطبيق العملى كانت قريبة من لاشىء ، لأن الولايات لم تولها أى اهتمام . فما الذى كان ينقذ الحكومة من أن تصادف عين العقبات والرفض ؟ لم يقدم معظم المندوبين فى بادىء الأمر سوى رد واحد : استخدام القوة . واقترحت فيرجينيا أن يخول الكونجرس السلطة « لدعوة قوة الاتحاد ضد أى عضو . . يخفق فى أداء واجبه وفقاً للمواد التالية » . وكان هذا خطأ من الناحية النظرية ، لأن القوة أداة للقانون الدولى ، وكان من الممكن أن تكون قاضية عند التطبيق ، إذ أنها كانت بمثابة حرب أهلية . كان تطبيق القوة خليقاً بأن يحطم الاتحاد سريعاً ، وسط الدم المراق والخراب .

فما الذى كان ينبغى عمله إذن ؟ مع استمرار المناقشة ، تبلور حل جديد ، ومثالى .

فقد تقرر ألا توجه الحكومة تصرفها إلى الولايات إطلاقاً ، بل يجب أن تتصرف مع الشعب فى داخل الولايات مباشرة . فتضع التشريعات لمصلحة جميع سكان الدولة ولفرضها عليهم ، متجاهلة حكومات الولايات . وفى هذا كتب ماديسون إلى جيفرسون : « لم يكن من سبيل للأمل فى أن تراعى كافة الأعضاء (الولايات) القانون الاتحادى طواعية . ومن الواضح أنه ما كان من الممكن وضع أى قانون لإلزامها بذلك موضع التطبيق ، فإذا تسنى ذلك فإنه كان سينطوى على كوارث للبرىء والمذنب على السواء ، وعلى مشهد أقرب شبهاً ــ بوجه عام ــ بحرب أهلية منه إلى قيام حكومة نظامية بمهامها . من هنا اعتنق الحل البديل ، الذى يقضى بحكومة تمارس مهامها على الأفراد المؤلفين للولايات ، بدلاً من الولايات ذاتها ، وبدون تدخلها . . » . وأقر المؤتمر المادة الموجزة التالية ، كمبدأ أساسى :

> هذا الدستور ، وقوانين الولايات المتحدة التى ستصدر وفقاً له منذ الآن ، وكافة المعاهدات المبرمة أو التى ستبرم بسلطان الولايات المتحدة ، ستكون الشريعة العليا للبلاد ، وسيكون القضاة فى كل ولاية ملتزمين بها منذ الآن ، بالرغم من أى شىء فى دستور أية ولاية أو قوانينها مخالف لها .

بموجب هذه المادة ، أصبحت قوانين الولايات المتحدة قابلة للتنفيذ فى محاكمها القومية ، وعن طريق القضاة والمسئولين عن التنفيذ القضائى . كذلك كانت نافذة فى محاكم الولايات ، عن طريق قضاة الولايات ومسئوليها القضائيين . وقد بث هذا النص حيوية فى الدستور ما كان من الممكن أن يكتسبها بدونه ، كما أن من المحتمل أنه يقدم خير مثال يصور ما اتسم به هذا الجهاز (الدستور) ــ فى مجموعه ــ من جمع بين الإدراك السليم والإلهام ، بين البراعة التطبيقية ، والتطلع البعيد النظر .

وفى يوم الاثنين ١٧ سبتمبر ، عقد المؤتمر آخر اجتماعاته ، بعد أحسن إنتاج صيفى قامت به أية جمعية فى العالم التأمت للسعى إلى غاية صممت عليها .

ولم يرفض التوقيع سوى ثلاثة من المندوبين الحاضرين فقط ، أما معظم المندوبين فكانوا مغتبطين . وأعلن فرانكلين المسن أنه وإن لم يكن يقرر كافة أجزاء الدستور فإنه كان فى دهشة من أن يجده أقرب ما يكون للكمال . ولقد رجا أى رجال لا يرتاحون إلى

بعض معالمه أن يرتابوا فى عصمتهم الشخصية من الخطأ قليلاً ، فيقبلوا الوثيقة . وأطلق ألكسندر هاملتون ، الشاب المندفع ، رجاء شبيهاً بهذا إلى حد ما . فلقد كان يأمل فى حكومة من نوع أكثر مركزية وأكثر أرستقراطية ، ثم تساءل : ولكن كيف يمكن لأى وطنى صادق أن يتردد بين الفوضى والقلاقل من ناحية ، والنظام والتقدم من ناحية أخرى ؟ وأقبل المندوبون الممثلون لاثنتى عشرة ولاية على التوقيع . وبدا الكثيرون مسوقين تحت جلال اللحظة ، بينما جلس واشنطن فى استغراق واجم . بيد أن فرانكلين خفف من التوتر بإحدى ملحه الفكهة ، إذ أشار إلى نصف قرص الشمس المرسوم بلون ذهبى لامع على ظهر مقعد واشنطن ، وقال إن الفنانين اعتادوا دائماً أن يجدوا عناء فى التمييز بين شمس مشرقة وشمس غاربة . واستطرد قائلاً : « وكثيراً ما تطلعت مراراً وتكراراً ــ خلال الاجتماع ، وتضارب آمالى ومخاوفى بالنسبة لمقرراته ــ إلى الشمس التى وراء الرئيس ، دون أن أملك أن أجزم بها إذا كانت مشرقة أو آفلة . أما الآن ، وأخيراً ، فإنى سعيد إذ أعلم أنها شمس مشرقة وليست جانحة للغروب » .

التصديق

ترى أتصدق الولايات على الدستور الجديد ؟ إنه بدا لكثير من عامة الناس مليئاً بالأخطار . ألن تجور عليهم الحكومة المركزية القوية التى أقامها ، وتظلمهم بالضرائب الباهظة ، وتجرهم إلى حروب فى الخارج ؟ ولقد قرر المؤتمر أن يغدو الدستور سارياً بمجرد أن تقره تسع من الولايات الثلاث عشرة . وقبل أن تنتهى سنة ١٧٨٧ كانت ديلاوير وبنسلفانيا ونيو جيرسى قد صدقت عليه ، ولكن هل تتبعها ست ولايات أخرى ؟ كان واضعو النظام الجديد يشعرون بقلق عظيم .

ولقد أدى الصراع من أجل التصديق إلى مولد حزبين : الاتحاديين (الفيدراليين) ، ومناهضى الاتحاد ، أى الذين كانوا يؤثرون حكومة قوية ، والذين كانوا يبتغون مجرد رابطة للولايات . واستمر النضال فى الصحافة ، والهيئات التشريعية ، والمؤتمرات السياسية فى الولايات . وتدفقت من الجانبين المجادلات الحامية . وكانت أقدرها مفعولاً « البحوث الاتحادية » ، التى كتبها ألكسندر هاملتون ، وجيمس

ماديسون ، وجون جاى دفاعاً عن الدستور ، فكانت مجموعة قدر لها أن تصبح من روائع التأليف فى السياسة . وتجلى أن المعركة كانت أشد أواراً فى ثلاث ولايات ، هى مساشوستس ونيويورك وفيرجينيا . ففى مساشوستس أدى التأييد القوى من عمال الملاحة فى بوسطن ، والمشتغلين بالأعمال المعدنية وغيرهم من الميكانيكيين ، إلى تعزيز المحامين والتجار وقسط كبير من المزارعين ، مما أفضى بالدستور إلى الفوز . وفى نيويورك ، حولت بلاغة ألكسندر هاملتون المجادل الرئيسى فى آخر الأمر ، وصدعت قوات العدو ، وظفرت بالتصديق بأغلبية كبيرة . أما فى فيرجينيا ، فإن نفوذ جورج واشنطن (الذى كان قوياً فى كل مكان) ، وحجج ماديسون القوية ، ظفرت بالفوز . وعندما آن لفيرجينيا أن تبت فى الأمر أخيراً ، كانت تسع ولايات أخرى قد أصدرت موافقتها ، ومن ثم بات من المحقق أن تصبح الحكومة نافذة السلطان ، بيد أن التأييد الكامل من ولاية واشنطن بدا أمراً لا غنى عنه ، وقد استقبل بمظاهر صاخبة للفرح .

ولقد حشدت فيلادلفيا موكباً عظيماً ، يوم ٤ يوليو سنة ١٧٨٨ ، للاحتفال بقبول نظام الحكم الجديد . وأظهرت إحدى منصات الموكب الرمزية سفينة الكونفيدرالية المصدعة (تمثيلاً للحكومة الضعيفة بموجب مواد الاتحاد الكونفيدرالى) ، يقودها الغباء ، وقد امتلأت بالماء وجنحت للغرق . وأظهرت أخرى سفينة الدستور المتينة متأهبة لتخوض أعلى البحار . ولقد كانت مستعدة فعلاً ، فقد اتخذت التدابير لاختيار الرئيس والكونجرس ، ولتحقيق قيام الحكومة الجديدة فى ربيع سنة ١٧٨٩ . ولم يكن على شفاه الجميع سوى اسم واحد كرئيس للدولة ، فاختير واشنطن رئيساً بالإجماع .

وهكذا شهدت البلاد ، بعد ظلمات الأعوام الأخيرة ، الشمس المشرقة التى كان فرانكلين قد حياها فى قاعة الاستقلال . ومن الأحداث البهيجة فى مطلع التاريخ الأمريكى ، حادث شاعرى ومثير للعواطف فى آن واحد ، تمثل فى الرحلة التى قام بها واشنطن من ضيعته الجميلة المطلة على نهر بوتوماك ليتسلم زمام الحكم فى نيويورك . فقد انطلق فى أواسط أبريل ، والربيع المكتمل يتفتح على تلال فيرجينيا . واتجه شمالاً فى طريق كانت شديدة الشبه ، فى بعض مواقعها ، من الطريق التى سلكها فى سنة ١٧٨١ ليأسر كورنواليس . وأخذ الناس يتدفقون فى كل محلة وبلدة ومدينة ليحيوه بهتافات جذلة . وقام الفرسان فى فيلادلفيا بعرض منظم ، كما سارت مركبته تحت أقواس للنصر من النباتات الدائمة الخضرة والغار . وبلغ ترينتون بعد ظهر يوم مشمس ، فى حين أنه

قبل اثنى عشر عاماً عبر نهر ديلاوير الملىء بالثلوج فى جنح الظلام ، وتحت العاصفة ، ليوجه إحدى ضرباته الحربية الشهيرة . وهنا أخذ فريق من العذارى المتشحات بثياب بيضاء ينثرن الزهور فى طريقه وينشدن إحدى القصائد العصماء . وعلى ضفاف خليج نيويورك ، انتقل إلى سفينة عبور جميلة ، تولى أمرها ثلاثة عشر رجلاً فى بزات بيضاء ، حتى إذا اقترب من المدينة ، أطلق ثلاثة عشر مدفعاً ، وهبط ليجد المدينة مليئة بحشود مبتهجة ، بينها كثير من المحاربين فى الثورة . وفى ٣٠ أبريل ، وقف فى شرفة القاعة الاتحادية فى وول ستريت ، أمام جمع هائل من الناس ، ليؤدى يمين المنصب . وتولى مراسم القسم مستشار نيويورك ، ثم التفت إلى الحشد هاتفاً : « ليعيش جورج واشنطن ، رئيس الولايات المتحدة ! » . . ومن الجمع الزاخر تحت الشرفة ، انطلق هتاف مجلجل .

أمريكا فى سنة ١٧٨٩

كانت جمهورية متوثبة تلك التى أصبحت متأهبة لتبدأ حياتها . ولقد كشف تعداد للسكان أجرى فى العام التالى لتنصيب واشنطن ، عن أنها كانت تضم حوالى أربعة ملايين من النسمات ، كان ثلاثة ملايين ونصف المليون تقريباً من البيض . وكان هؤلاء السكان فى الغالب من الريفيين جميعاً . فلم تكن هناك من المدن ما تستحق الاسم سوى خمس : فيلادلفيا وتضم ٤٢٠٠٠ شخص ، ونيويورك وتضم ٣٣٠٠٠ ، وبوسطن ١٨٠٠٠ ، وتشارلستون ١٦٠٠٠ ، وبلتيمور ١٣٠٠٠ . كانت الأغلبية العظمى من السكان يعيشون فى مزارع أو ضياع ، أو فى قرى صغيرة . وكانت المواصلات شحيحة وبطيئة ، إذ كانت الطرق سيئة ، والحافلات (المركبات العامة) غير مريحة ، والسفن غير منتظمة . بيد أن شركات الطرق بدأت تتكون (وسرعان ما أنشىء طريق نموذجى بين فيلادلفيا ولانكاستر) ، وما لبثت القنوات أن حفرت . وكان معظم الناس يعيشون فى عزلة نسبية ، والمدارس قليلة ، والكتب أقل ، والصحف نادرة . كان الطابع الذى خلفته أمريكا لدى الرحالة الأوربيين طابع الخشونة ، وقلة الراحة ، وغلظة الطباع ، وضآلة الثقافة ، مع الاستقلال ، واليسر المادى ، واعتداد

بالنفس لا حدود له . على أن حالها كانت فى تحسن ثقافياً ومادياً .

ذلك أن البلاد كانت فى نمو مطرد دائب . فأخذ المهاجرون من العالم القديم يفدون بأعداد جعلت الأمريكيين يظنون فى بعض الأحيان ، أن نصف أوربا الغربية كان يتدفق على بلادهم . وكانت المزارع الجيدة متوفرة لقاء مبالغ صغيرة ، والطلب شديداً على العمال ، والأجر طيباً . ونظرت الحكومة إلى هذه الهجرة بتحبيذ ، وكان واشنطن بالذات يرتاح إلى فكرة اجتلاب المزارعين ذوى الخبرة من بريطانيا لتعليم الأمريكيين أساليب زراعية أفضل . وسرعان ما أصبحت المساحات المترامية فى واديى موهوك وجنيسى فى شمال نيويورك ، ووادى سسكيهانا فى شمال بنسلفانيا ، ووادى شيناندوا فى فيرجينيا ، مناطق لزراعة القمح . وأخذ الناس من نيو إنجلاند وبنسلفانيا ينتقلون إلى أوهايو ، ومن فيرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية إلى كنتكى وتنيسى .

كذلك كان أصحاب المصانع فى ازدياد ، تشجعهم المنح من الولايات . وأخذت مساشوستس وردو آيلاند تضعان أسس صناعات نسج مهمة ، أخذت تحصل خفية على نماذج الآلات من انجلترا . وكانت كونكتيكت قد بدأت تنتج السلع القصديرية والساعات ، وولايات الوسط تنتج الورق والزجاج والحديد . غير أن أمريكا لم تكن حتى ذلك الحين قد أوتيت مدناً صناعية ينصرف سكانها تماماً إلى العمل فى المصانع . والواقع أن معظم العمليات الصناعية كانت تؤدى فى المساكن : فكان بوسع المزارعين أن يصنعوا ، فى أمسيات الشتاء الطويلة ، أقمشة خشنة ، وسلعاً من الجلد ، وآنية من الفخار ، والأدوات الحديدية البسيطة ، والسكر ، والأدوات الخشبية . وعندما بدأت المصانع والورش فى الظهور ، كان أصحابها كثيراً ما يشتغلون مع عمالهم الأجراء .

وأخذت الملاحة تزدهر ، وشرعت الولايات المتحدة فى احتلال المكانة الثانية بعد انجلترا فى المحيط . وصُنعت السفن بأعداد كبيرة للتجارة الساحلية ، ولصيد سمك القُد وصيد الحوت ، ولنقل الحبوب للخبز والتبغ والخشب وغيرها من البضائع إلى أوربا . ولم تكن الثورة قد انتهت تماماً عندما قامت السفينة إمبريس برحلة إلى كانتون ، وعادت بأنباء إمكانيات الاتجار مع الصين ، مما أثار تحمس أهل نيو إنجلاند . وبرزت تجارة جديدة ، بلغ من نشاطها أن خمس سفن تحمل العلم الأمريكى (النجوم والأشرطة) ذهبت إلى الصين فى سنة ١٧٨٧ . وكان الشرقيون يتلهفون على اقتناء الفراء ، فصمم بعض تجار بوسطن على إرسال سفن إلى الساحل الشمالى الغربى ، لشراء جلود الحيوان

من الهنود ، ونقلها إلى الصين وإحضار الشاى والأقمشة الحريرية فى مقابلها . وتكشف المشروع الجديد عن نجاح . وفوق هذا ، أدى إلى أن الربان اليانكى روبرت جراى ، ربان السفينة كولمبيا ، ولج النهر العظيم عند الساحل الشمالى للمحيط الهادى ، الذى أطلق عليه اسم سفينته ، وبهذا خلق أساساً لادعاء الولايات المتحدة حق تملك أوريجون .

وكان الدافع الرئيسى للطاقة الأمريكية فى اتجاه الغرب ــ الغرب باطراد واستمرار . فمن المساحات التى طُهرت من شجر البلوط فى أوهايو ، إلى المساحات التى اجتثت منها الأعشاب الصنوبرية فى جورجيا ، كانت بلطة القائم بإزالة الغابات على الحدود تدق كدقات طبل جحافل زاحفة . وزحفت مركبات كونيستوجا ذات السطوح البيضاء متسلقة سفوح جبال ألليجنى الطويلة فى قوافل للهجرة الداخلية ، وخلال ممر كمبرلند إلى كنتكى سعى الصيادون وطلائع المرتدين ، وهم يتشحون بفراء الوعول ، مع مركبات الأثاث والبذور وأدوات الزراعة البسيطة والحيوانات المستأنسة . وما أكثر المساحات التى استُخلصت بطزيقة فجة من أشجار الجوز ــ رمز التربة الخصبة ــ بعد القضاء عليها بطريقة الخنق ، ليقيم فيها المزارع من مستوطنى الحدود بمساعدة جيرانه كوخاً من الكتل الخشبية ، تسد الثغرات بينها بالطين ، ويكسى السقف بشرائط رقيقة من البلوط . وأخذ نهرا أوهايو والمسيسيبى يشهدان فى كل عام مزيداً من الأطواف والسفن المسطحة الأمريكية تطفو فى اتجاه المصب نحو نيو أورليانز محملة بالغلال ، واللحوم المملحة ، ورماد الخشب المستخدم فى صناعة الصابون . وعاماً بعد عام ، كانت تزداد أهمية المدن الغربية مثل سينسيناتى على نهر أوهايو ، وناشفيل فى قلب وادى تنيسى ، ولكسينجتون فى كنتكى . ولم يكن ثمة بد من مواجهة إغارات الهنود ، والملاريا ، والوحوش الضارية ، وقطاع الطريق الذين يطوفون بالحدود النائية ، وغير ذلك من أخطار . . ولقد تقاضت المحن والفقر والمرض ضريبة فادحة . ومع ذلك تدفق على القفر عشرة آلاف مجرى للاستيطان ، واستمر خط الحدود النهائية يتباعد ، وظل ما قاله الأسقف بيركلى فى عهد الاستعمار صالحاً للتطبيق : « إن طريق الإمبراطورية يشق اتجاهه نحو الغرب » .

الفصل ٦

الجمهورية تهتدى إلى ذاتها

تنظيم الحكومة تحت رئاسة واشنطن

طلع عام ١٧٨٩ على نيويورك وهى تزدهر متحولة إلى عاصمة قومية مؤقتة . فقد أعيد تجديد خير بيوتها بكل أناقة ممكنة ، وازدحمت طرقاتها فى ذلك الصيف برجال الكونجرس والمرشحين لمناصب الدولة ، وجماعات الضغط السياسى ، والمتفرجين . ولقد شغل الرئيس واشنطن ، فى بادىء الأمر ، مسكناً فى طريق من المدينة ، بميدان فرانكلين ، ثم اتخذ بيت ماكوم الفخم فى أقصى برودواى ، وفيه قاعة استقبال بديعة . أما نائب الرئيس جون آدمز فقد شغل داراً كبيرة على تل ريتشموند . وأخذ الكونجرس يجتمع فى القاعة الاتحادية (الفيدرالية) فى شارعى وول وبرود ، إذ كانت العاصمة السياسية الأولى للدولة فى الموقع الذى أصبح فيها بعد عاصمتها المالية . وكانت حفلات الاستقبال تقام ، والحفلات الراقصة تُنظم . وكان الرئيس يقيم مآدب عشاء تتسم بوقار خال من الدفء ، وكثيراً ما كان يذهب مع أصدقائه إلى المسرح فى شارع جون . وإذا ذهب إلى الكونجرس ، كان يذهب فى موكب رسمى ، مستقلاً مركبة فى لون القشدة الثقيلة « كريم » ، تجرها ستة خيول بيضاء كريمة من نتاج

فيرجينيا ، مع رجال بالزى الرسمى يعتلون الجياد ، ومرافقين يركبون خارجها . ولم يكن من المباح للمواطنين أن يحضروا مداولات الكونجرس ، ولكن شراذم منهم كانت تجتمع فى الطرق خارجه ، لمناقشة المسائل المهمة المطروحة .

وما كان للحكومة الجديدة غنى عن قيادة واشنطن الحكيمة . إنه لم يكن واسع الخيال ، ولا أوتى روح المبادرة الذكية ، من الناحية السياسية ، بل كان كاتباً جامد الأسلوب وخطيباً غير مصقع ، ولم يكن على إلمام يذكر بمبادىء الإدارة ، بيد أنه كان يفرض على سواه طاعته ، بل ونوعاً من التهيب . كان طرازاً يمثل الاتحاد كما لم يكن أحد سواه يملك أن يمثله . فكان المسئولون فى كل حزب وقطاع يثقون فى إنصافه وسعة رأيه وحجاه . ولوقاره الدائم ، كان « البلاط الجمهورى » فى عهده يتسم بالطابع الرسمى الرصين . فكان فى الاستقبالات يدخل فى زى من المخمل والحرير اللامع الأسودين ، ذى مشبكين ماسيين عند الركبتين ، وقد جمع شعره الموشى بالبودرة فى كيس ، وقبعته العسكرية تحت إبطه ، وإلى جانبه سيف للزينة فى غمد أخضر . وكان فى علاقاته بالكونجرس أو الموظفين الحكوميين يحرص على أن يكون بمنأى عن أى حزب أو فريق ، محاولة منه ألا يمثل سوى الرأى القومى وحده ، وإن كانت ميوله مع الاتحاديين (الفيدراليين) . وكان ــ بما طبع عليه من يقظة واجتهاد ــ يعمل ساعات طويلة وفقاً لبرامج وقتية محددة . ولقد عمل جاهداً وبتوفيق على أن يضفى على الحكومة ارتقاء ومبدأ ، وأن يوقر فى نفوس رجال الدولة النصح الذى أورده فى « خطاب الوداع » فى سنة ١٧٩٦ : « كونوا متحدين . . كونوا أمريكيين » .

وانفض الكونجرس فى أغسطس ١٧٩٠ ، ليعود إلى الاجتماع فى ديسمبر من ذلك العام ، فى فيلادلفيا ، إذ كان مقدراً لفيلادلفيا النظيفة ، الهادئة ، الكريمة أن تصبح عاصمة لعشر سنوات . وفى تلك الأثناء ، كان تنظيم الشؤون القومية قد قطع شوطاً كبيراً .

لم يكن تنظيم الحكومة مهمة بسيطة . ولقد أنشأ الكونجرس فى تعاقب سريع وزارة للخارجية ، ووزارة للحربية ، ووزارة للخزانة . وعين واشنطن للمنصب الأول توماس جيفرسون الذى كان قد عاد لتوه من بعثته كوزير لدى فرنسا ، وللمنصب الثانى هنرى نوكس من مساشوستس وكان قائداً عادى المواهب ولكنه ذو شعبية ، وللمنصب الثالث

ألكسندر هاملتون الذى اشتهر بدرايته الخاصة بالشؤون المالية . وأنشأ الكونجرس منصب المدعى العام كذلك ، الذى لم يكن ذا وزارة فى بادىء الأمر ، بل كان مجرد مستشار قانونى للحكومة ، وقد شغله واشنطن بإدموند راندولف ، من فيرجينيا . وكان المفهوم أن لهاملتون ونوكس ميولاً لحزب الفيدراليين ، ولجيفرسون وراندولف آراء تنتمى لحزب المعارضين للاتحاد (الأنتيفيدراليين) . وفى الوقت ذاته سعى الكونجرس لإنشاء هيئة قضائية اتحادية وأن يضع النظم التى تعمل بمقتضاها مع الهيئات القضائية للولايات . وكان الدستور بالذات قد نص على محكمة عليا ، ولكنه ترك لرأى الكونجرس مسألة إنشاء محاكم أدنى . فإذا المرسوم القضائى لسنة ١٧٨٩ ــ وهو مرسوم يكاد يعتبر ملحقاً للدستور ذاته ــ لا يكتفى بإقامة محكمة عليا ، بل أقام كذلك ثلاث محاكم متنقلة ، وثلاث عشرة محكمة منطقية « محكمة خط » ، وكان الرئيس هو الذى يعين جميع القضاة ــ على غرار تعيين الوزراء الاتحاديين ــ على أن يعزز مجلس الشيوخ التعيين . وتضمن المرسوم تفصيلاً أن تلجأ محاكم الولايات إلى المحاكم الاتحادية فى كافة المسائل المتعلقة بتفسير الدستور أوحقوق المواطنين الواردة فى الدستور . وهكذا لم تحن نهاية سنة ١٧٩٠ حتى كانت الوزارات القومية الثلاث الأولى والمحاكم الاتحادية عاكفة على العمل .

وثيقة الحقوق

حقق هذا الكونجرس الأول أكثر مما حقق أى كونجرس آخر فى التاريخ الأمريكى بوجه عام . ولم يقتصر فضله على التنظيم الموفق للحكومة ، والقانون ، وللإدارة ، وللدفاع فحسب ، بل امتد إلى إصدار وثيقة الحقوق .

ولم يكن الدستور الأصلى مشتملاً على وثيقة معينة للحقوق ، وإن كان عدد من الحقوق قد كفل فى سياقه . وما كان هذا الإغفال لضم وثيقة للحقوق دليلاً على عداء أوعدم اكتراث من المزارعين بحقوق الإنسان ، بل الأرجح أنه كان عن اقتناع منهم بأنه ما من ضرورة لضمانات معينة للحقوق . فقد أورد الدستور سلطات الكونجرس وعدّدها بتحديد ، على أية حال ، وما لم يكن ممنوحاً كان غير مباح له . ولما لم تكن ثمة سلطة

منحت على حقوق الإنسان ، فقد ترتب على هذا أنه لم يكن للحكومة أى سلطان عليها . وكانت هذه حجة منطقية سليمة ، بيد أنها لم تحل دون المطالبة العاطفية الشديدة بتأكيدات قاطعة بأنه لن يتاح للحكومة الجديدة أن تمارس البطش والجور . تلك كانت فكرة جيفرسون ، إذ كتب من باريس إلى صديقه جيمس ماديسون أن « من حق الشعب وثيقة للحقوق ضد أية حكومة على وجه الأرض ، عامة كانت أو خاصة ، وهو ما لا ينبغى لحكومة عادلة أن ترفضه ، أو تقعد عنه » .

وكان عدد من الولايات قد صدق على الدستور ، على فهم منها بأنه سيعالج فوراً بإضافة وثيقة للحقوق . وكان كثير من أعضاء الكونجرس يميلون إلى الاستهانة بهذا الفهم ، ولكن ماديسون ـ بدافع من جيفرسون ـ رأى أن هذا التزام مقدس . فما إن عقد الكونجرس اجتماعاته ، حتى قدم مجموعة من التعديلات تضمنت معظم المقترحات التى كانت قد وردت من الولايات . ولم يلبث الكونجرس أن أجاز اثنى عشر منها ، وتم التصديق على عشرة منها ، قدر لها أن تعرف فيما بعد باسم وثيقة الحقوق .

ولقد صيغت وثيقة الحقوق الاتحادية على نسق وثائق الحقوق الأكثر إسهاباً وتفصيلاً ، فى ولايتى فيرجينيا ومساشوستس وبعض الولايات الأخرى . وهى ــ كهذه الوثائق ــ مختلفة عن وثيقتى الحقوق الانجليزيتين التاريخيتين اللتين صدرتا فى سنتى ١٦٢٨ و١٦٨٩ . ذلك لأنه بينما عنيت الوثيقتان الانجليزيتان بالاقتصار تقريباً على مسائل إجراءات العدالة ، لم تتضمن الوثيقة الأمريكية ضمانات إجراءات التقاضى فقط ــ المحاكمة بوساطة محلفين ، وعدم الشطط فى الكفالة لإطلاق سراح متهم ، وتحريم العقوبات القاسية أو غير العادية ، وعدم حرمان امرىء من الحياة أو الحرية أو الثروة بدون الإجراءات القانونية اللازمة ، وغير ذلك ــ بل إنها اتسعت كذلك لأمور مثل حرية الدين ، والقول ، والصحافة ، والاجتماع . فكانت هذه الحقوق ــ بوصفها حدوداً تقيد الحكومة ــ أوسع وأقوى مفعولاً من أى شىء يمكن العثور عليه فى العالم ، فى ذلك الحين ، بدرجة تجل على القياس .

وبالرغم من أن القيمة الأولى لوثيقة الحقوق الاتحادية كانت رمزية فى المقام الأول ، فقد قدر لها أن تكون ذات فاعلية عملية كذلك ، وقد أدرجت ضماناتها ــ بعد سنة ١٨٦٨ ــ فى التعديل الرابع عشر للدستور ، وبهذا أصبحت تنطبق على الولايات مباشرة .

ألكسندر هاملتون

كما أنتجت أمريكا الثورية شخصيتين مسيطرتين اكتسبتا سمعة عالمية ــ هما واشنطن وفرانكلين ــ فإن الجمهورية الشابة رفعت إلى الشهرة رجلين ذوى كفاءة لامعة ، امتدت سمعتهما إلى ما وراء البحار ، هما ألكسندر هاملتون وتوماس جيفرسون . على أن المواهب الشخصية الباهرة لهذين الرجلين ، وإن كانت عظيمة ، ليست أفضل ما يرشحهما لبقاء الذكر . إنما الفضل لأنهما كانا يمثلان اتجاهين قويين ولازمين ، وإن كانا إلى حد ما متعاديين فى الحياة الأمريكية : فكان ميل هاملتون إلى اتحاد أقوى وحكومة قومية أعز سلطاناً ، واتجاه جيفرسون نحو ديمقراطية أوسع مجالاً وأكثر تحرراً . وأهم الوقائع فى التاريخ الأمريكى بين عامى ١٧٩٠ و١٨٣٠ ، التى تأتى فى المرتبة الثانية بعد الزحف الذى لا ينثنى نحو الغرب ، انتصارات أحرزتها القومية والديمقراطية .

وُلد هاملتون فى نفيس Nevis ، فى جزيرة صغيرة تنتج السكر من جزر الأنتيل الصغرى ، لأب اسكتلندى ، وأم من الهيجونوت . وقد نشأ رجلاً من الطراز الاسكتلندى الذى صوره ستيفنسون فى شخصية آلان بريك فى روايته « الاختطاف » . . فكان طموحاً ، سخياً ، مخلصاً ، ذا كبرياء ، سريع الغضب لكرامته وسريع الصفح ، ذا عقل متألق فى وميض ، وطاقة لا تنفد ولا تكل . ولقد انبعثت كل منجزاته من جمعه بين الذكاء ، والطموح المعتد ، والاجتهاد . ومن الجدير أن تلاحظ كيف كشف عن هذه الخصال فى سن مبكرة . فنظراً لأن أباه صادف نكبات فى أعماله ، لم يكن لدى الفتى من المال ما يمكنه من الالتحاق بالدراسة العليا . غير أن إعصاراً فظيعاً اجتاح جزر الأنتيل ، فكتب وصفاً له استرعى قسطاً كبيراً من الانتباه ، دفع عماته إلى إيفاده إلى القارة الأمريكية . فالتحق بكلية الملك فى نيويورك . وكان اختياراً موفقاً ، لأنه دفع به إلى اتصال ميسور مع المتطرفين من أهل المدينة ، الذين كانوا يشنون تمرداً على سلطان الملك . واستطاع بنشرتين طويلتين ــ إحداهما قبيل بلوغه العشرين بقليل ، والثانية بُعيد ذلك ــ أن يتصدى بفعالية للأسقف المحافظ (الموالى للملك) فى الإقليم . فلما أصبح نقيباً لفصيلة من المدفعية فى سن الثانية والعشرين ، كشف عن نهمه العقلى بأن كان يحمل كتبه إلى المعسكر ، ويعكف

على الدراسة إلى ساعة متأخرة من الليل .

ولقد كانت لهاملتون مؤهلات أخرى ، إلى جانب الذكاء والطموح ، ساعدته أيما مساعدة . فلقد أوتى جاذبية شخصية عظيمة . كان بشعره البنىّ الضارب إلى الحمرة ، وعينيه البنيتين المتألقتين ، وجبينه البديع ، وفمه وذقنه الناطقين بالحزم . . كان بهذه كلها مليحاً بدرجة غير عادية ، وكان وجهه يفيض حيوية وإشراقاً إذا ما تكلم ، ويعكس شدة وتفكيراً إذا ما عمل . وكان يحب المآدب الحافلة بالمرح ، ويتألق فى أى وسط يوفر نبيذاً جيداً ، وزملاء من المثقفين ، وحديثاً فكرياً طلياً . ولما كان واسع الحيلة بقدر ما كان سريعاً ، فقد أوتى ميزة حضور البديهة العظيمة . . ميزة فعل الشىء المناسب فى وقته الصحيح . وجعله حضور بديهته زعيماً للوطنيين فى نيويورك ، ولفت إليه انتباه واشنطن فجعله المساعد الرئيسى للجنرال ، ومكنه من أن يقود هجوماً رائعاً لكسر حصار نيويورك ، ورفعه إلى قيادة محاميى نيويورك ، وجعله الشخصية الرئيسية فى حكومة واشنطن ، وأتاح له السيطرة على حزب كبير . كانت له مواهب رائعة كمدير تنفيذى ومنظم . فكان يكتب ويتكلم باندفاع وتحمس . ومع ذلك فقد كشف عن عيوب بارزة كذلك : كان سهل الاستثارة ، سريع الغضب ، يهتاج اهتياجاً لاريب فيه إذا ما اعترضه عائق . ولقد قفز عن جواده فى معركة مونماوث ، عندما أنحى واشنطن باللوم على الجنرال تشارلس لى لتقهقره ، وشهر سيفه ، وصاح : « لقد تعرضنا للخيانة ! » فأسكته واشنطن إذ أمره بهدوء : « امتط جوادك يامستر هاملتون » . ولقد تشاجر مع واشنطن قرابة نهاية الحرب ، وكتب إلى حميه خطاباً يفيض بالخيلاء والغرور حول الحادث ، ورفض مساعى واشنطن لرأب الصدع . ولقد أدى تهوره الغاضب ، واستعداده للاندفاع السريع إلى الشجار ، وروح الشراسة المهتاجة لديه ، إلى تورطه فى نزاعات قاسية لم يكن لها من داع ــ من نزاع مع جيفرسون أوقع الفرقة فى حكومة واشنطن ، إلى نزاع مع جون آدمز أوقع الانقسام فى الحزب الاتحادى ، إلى نزاع مع آرون بير انتهى بوفاته شخصياً فى مبارزة .

وكان العنصر الرئيسى فى أعمال هاملتون العامة هو حبه للكفاءة والنظام والتنظيم ، وهو دافع متسلط يفسر ما أداه للدولة الشابة من خدمة لا سبيل لنسيانها . وقد رأى ــ من سنة ١٧٧٥ حتى ١٧٨٩ ــ دلائل عدم الكفاءة والضعف منتشرة حوله . وكان يكره الفوضى الناجمة عن ذلك كل الكراهية . ولقد كان ــ كسكرتير ــ لواشنطن الوسيط

الذى كان القائد يوجه عن طريقه قسطاً كبيراً من مهامه . ولسنا بحاجة إلى أكثر من نظرة نلقيها على رسائل واشنطن ، فى فترة الثورة ، لنتبين كيف كان ضعف الحكومة يسبب قلقاً مستمراً للقائد . كان فى قلق لأن الولايات لم تمده بقوات كافية ، وكان فى قلق لأنها كانت ترسل الذخائر والملابس والمال بكميات غير كافية ، ولأنه إذا كان جزء من البلاد قد عمل بنشاط ، فإن أجزاء أخرى تقاعست . كان فى قلق من الافتقار إلى النظام العسكرى فى الجيش ، إذ كان الجنود يغادرون مراكزهم ، وينهبون ، وكثيراً ما يحزمون أمتعتهم ويعودون إلى ديارهم لأتفه عذر . وكان هاملتون يشاركه كل هذا القلق . ولقد كان هاملتون فيما بعد ، فى سنوات الاتحاد الكونفيدرالى المظلمة ، محامياً نشيطاً وثيق الاتصال بالجماعات التجارية فى نيويورك ، وعلى دراية دقيقة بالهموم التى كانت تساورهم من جراء العقبات التى تعترض التجارة وعدم سلامة الثروة . ولقد وهبته اطلاعاته مفهوماً أوربياً أكثر منه أمريكياً للشخصية الحقيقية للدولة ، ولقد ظل طيلة حياته يرى أن لون الحكم الانجليزى هو أكثر الأنظمة جدارة بالإعجاب . ومن هنا يسهل أن نتبين السبب فى أنه كان يبتغى الكفاءة والطاقة فى الحكومة ـ كان يبتغى سلطة اتحادية شديدة البأس .

توماس جيفرسون

وإذ ننتقل إلى جيفرسون ، فإننا نتحول من رجل عمل إلى رجل فكر . وإذا كانت مواهب هاملتون تنفيذية ، فقد كانت مواهب جيفرسون تأملية وفلسفية . كان هاملتون يغتبط بإقامة جهاز قوى ومراقبة عمله الكفء ، وكان جيفرسون يغتبط بالناس وبأن يراهم يحظون بالرضى سواء عن كفاءة أو بدونها . ولقد بولغ فى عدم كفاءته كحاكم لفيرجينيا ، بيد أنه ترك المنصب دون أن يحظى بتقدير ، كما أنه لم يكن ذا كفاءة معينة كوزير للخارجية . ولكنه لم يكن يبارى كمفكر ومؤلف سياسى فى أى مكان فى العالم فى جيله ، بعد موت بيرك . وعندما اقترح ما ينقش على قبره ، لم يتجه إلى سجله فى المناصب وإلى أعماله ، وإنما إلى ثلاث مساهمات كبرى قدمها للفكر ، فإن شاهد قبره يحمل هذه العبارات :

دُفن هنا توماس جيفرسون
مؤلف إعلان الاستقلال الأمريكى
وتشريع فيرجينيا من أجل الحرية الدينية
وأب جامعة فيرجينيا

وقد نشأ جيفرسون فى جو فيرجينيا المتسم بالانطلاق المتحرر ، والمرح الطيب ، والإهمال الفكرى . فكان فى شبابه يشترك فى « الرقص ، والمآدب البذخة ، والهوايات الراقية » . فكان مشغوفاً بركوب الخيل ، ومشاهدة الحياة الطبيعية البرية وممارسة الحياة الجامحة الانطلاق ، والعزف على الكمان ، كما كان يقرأ الروايات ــ من تأليف فيلدينج ، وسموليت ، وستيرن ــ وكان شديد الشغف بأوسيان . ولم تؤد حياته اللاحقة ، الزاخرة بالارتباطات الواسعة بالطبيعة ، والكتب ، والبشر ، إلا إلى زيادة نشاط تعدد اتجاهاته الفكرية . ولقد اكتسب معرفة بست لغات ، وبالرياضيات ، والمساحة ، والعلوم الميكانيكية ، والموسيقى ، وفن العمارة ، والقانون ، والحكم . ولقد جمع فى إقبال ملهوف مكتبة كبيرة ، ومجموعة فذة من المطبوعات ، وكتب عن النبات ، والحيوان ، وفى التاريخ والسياسة والتربية ، وكان فى كل ذلك يصدر عن أصالة وبصيرة . . ووضع تصميم بيته المشهور فى مونتسيلو ، وقاعات جمعية فيرجينيا الجميلة . وكان من خير المحدثين فى عصره ، كمحب للكلام ، عميق التفكير . دائم التنقل من موضوع إلى آخر ، متعدد الجوانب فى حديثه . وكثيراً ما كان حكيم مونتسيلو يستضيف خمسين شخصاً فى الليلة ، ويبدى من الحفاوة والود لزنجى متعلم قدر ما يبدى لأوربى نبيل المحتد . كان طيلة عمره يحب الحرية ، والفراغ ، واتساع الاتصالات .

وكانت ميول جيفرسون الغريزية ، من الناحية السياسية ، مضادة لميول هاملتون ، وكان مرانه يعززها . إذ ارتبط سنوات كثيرة بفيرجينيا ، كزعيم بالهيئة التشريعية فى البداية ، ثم كحاكم . فرأى بجلاء كيف أن من العسير على الولايات أن تلبى كافة المطالب الملقاة عليها . وعندما رحل إلى الخارج ليكون وزيراً مفوضاً فى فرنسا ، حيث راح يلح للعودة إلى دفع القروض لأمريكا ، تبين فعلاً أن من الممكن لحكومة قومية قوية أن تكون ذات وزن فى العلاقات الخارجية ، بيد أنه لم يكن يريدها شديدة السلطان جداً فى نواح كثيرة أخرى ، وكان يعلن بصراحة : « لست صديقاً لحكومة شديدة النشاط

والطاقة » . بل إنه قال إن المواد الضعيفة فى الاتحاد الكونفيدرالى كانت « أداة مثالية رائعة » . كان يخشى أن تجور أية حكومة قوية السلطان على الناس . ولقد جاهد من أجل التحرر من التاج البريطانى ، والتحرر من سيطرة الكنيسة ، والتحرر من أرستقراطية ملاك الأراضى ، والتحرر من الفوارق الكبيرة فى الثروة . وكان ديمقراطياً من أنصار المساواة . وكان يكره المدن ، والمشروعات الصناعية ، والمنظمات التجارية والمصرفية الكبيرة ، لأنها تزيد من عدم المساواة . ومع أنه اعترف فى أواخر سنى عمره بأن التصنيع ضرورة لمنح البلاد استقلالاً اقتصادياً ، فقد كان يؤمن بأن أمريكا كانت تكون أسعد حالاً لو أنها بقيت أمة زراعية فى المقام الأول .

على أنه من الخطأ أن نفكر فى جيفرسون على ضوء « حقوق الولايات » أو فرديتها . فهو لم يكن واضع « إعلان الاستقلال » وأحد الآباء المؤسسين فحسب ، وإنما كان طيلة حياته قومياً متحمساً . وما تجلت هذه القومية فى مكان ما قدر ما تجلت فى موقفه إزاء الغرب الأمريكى . وما كان من قبيل المصادفة غير ذات المعنى أنه فى الوقت الذى أقام فيه هاملتون فى مدينة نيويورك الكبيرة الحافلة بالعمل ، وكان يتوق إلى أن يكون فى أمريكا مجتمع واقتصاد على نمط ما فى انجلترا ــ أقام جيفرسون قصر مونتسيلو الجميل على تل يطل غرباً على وادى فيرجينيا . وكان جيفرسون هو الذى وضع الصيغة الأولى لتشريعى سنتى ١٧٨٤ و١٧٨٥ ، اللذين أتاحا أساس تشريع الشمال الغربى فى سنة ١٧٨٧ ــ وكان جيفرسون هو الذى أوفد لويس وكلارك إلى ساحل المحيط الهادى . وكان جيفرسون هو الذى ابتاع لويزيانا فضاعف بذلك حجم الأمة الجديدة ، كذلك كان جيفرسون أمريكياً غيوراً فى الناحيتين الفلسفية والثقافية . كان موقناً بأن العالم الجديد أسمى من القديم بدرجة تجل على القياس ، وكان مصمماً على أن يظل كذلك ، ولو أدى إلى الانفصال عن القديم . كان برغم فلسفته العالمية الشخصية ، يبتغى أمريكا ذات استقلال ثقافى واستقلال سياسى ــ لها قوانينها الخاصة ، وأدبها الخاص ، ومدارسها الخاصة ، ونظمها ومؤسساتها الاجتماعية الخاصة . وإذ كان يألف مؤسسات العالم القديم ــ الملكية ، والدولة ، والكنيسة ، والجهاز العسكرى ، والنظام الطبقى ــ فإنه لم يشأ لأمريكا شيئاً من هذا ، فهنا كان لزاماً أن تجرى التجربة الكبرى للمساواة وللحكم الذاتى . وإذ كان موقناً من أن أمته « تتقدم بسرعة إلى مقدرات أبعد من أن تبلغها عين بشرية » ، فقد كرس عمراً طويلاً لتعليمها وتربيتها من أجل هذا القدر .

كان هم هاملتون الأكبر هو أن يتيح للبلاد تنظيماً أكثر كفاءة ، أما هدف جيفرسون الأكبر فهو أن يتيح للأفراد من البشر حرية أوسع نطاقاً . وكانت الولايات المتحدة بحاجة إلى النفوذين معاً . كانت بحاجة إلى حكومة قومية أقوى ، وكانت بحاجة كذلك إلى عتق الإنسان العادى . وكانت الأمة خليقة بأن تعانى النقص لو أنها حظيت بهاملتون وحده ، أو بجيفرسون وحده . فكان من حسن الحظ البالغ أن أوتيت الاثنين ، وإن استطاعت مع الزمن أن تصهرهما معاً ، وأن توفق بين معتقداتها الخاصة إلى حد كبير .

إجراءات هاملتون المالية

قام هاملتون ، إذ أصبح سكرتير واشنطن للخزانة [1] ، بتنفيذ مجموعة من الإجراءات جعلته أعظم وزير للمالية فى التاريخ الأمريكى . ولم يكن برنامجه باهراً من حيث مداه فحسب ، بل كان ذا طابع خلاق . فكم من أناس رغبوا فى التنكر للدَّين القومى الذى بلغ حوالى ٥٦ مليوناً من الدولارات ، أو دفع جزء منه فقط ، ولكن هاملتون نفذ ــ برغم معارضتهم ــ خطة لإعادة تنظيم الدين ودفعه بأكمله . ونفذ مشروعاً تحملت الحكومة الاتحادية بمقتضاه ديون الولايات غير المسددة ، التى اقترضتها لمساعدة الثورة ، وكانت حوالى ١٨ مليوناً أخرى . وأقام بنك الولايات المتحدة على نمط بنك انجلترا إلى حد كبير . وأنشأ داراً قومية لسك العملة ، وكتب « تقريراً عن الصناعات » مشهوراً ، محبذاً فرض رسوم جمركية معتدلة من أجل تنمية الصناعات القومية ، وقد أقر الكونجرس فعلاً قانوناً للتعريفة الجمركية ، ساعد أصحاب الصناعات الأمريكية حقاً ، بالرغم من أنه اكتفى بفرض رسوم ضئيلة . وأخيراً ، فرض هاملتون ضريبة إنتاج على كافة المشروبات الكحولية .

وكان لهذه الإجراءات مفعول فورى ، امتد فى ثلاثة اتجاهات . فهى قد أرست مكانة الحكومة القومية على أساس فى متانة الصخر ، ومنحتها كافة الإيرادات التى كانت

(١) فى النظام الأمريكى رئيس الجمهورية هو المسئول عن الحكومة ؛ فهو يعين سكرتيرين له يديرون شؤون فروعها ، ويقابلون الوزراء فى النظم الشائعة عندنا ، ولذلك سنلقبهم بالوزراء فى سياق الكتاب ــ المترجم .

تحتاج إليها . وهى قد شجعت الصناعة والتجارة ، وأهم من هذا كله ، أنها اجتذبت إلى الحكومة القوية جماعات قوية النفوذ من الرجال فى كل ولاية . إذ أن العودة لتسديد الدين القومى ، والاضطلاع بديون الولايات ، جعلا حشداً كبيراً من الناس الذين كانوا يقتنون صكوك القرض القومى أو قروض الولايات ، يتطلعون إلى الحكومة الجديدة للحصول على نقودهم . وفى الاتجاه ذاته تطلع رجال الصناعة الذين أخذوا يعولون على قانون التعريفة الجمركية الجديدة أملاً فى الرخاء . ولقد ظفر المصرف القومى بتأييد جماعات قوية النفوذ من رجال المال ، لأنه جعل جميع المعاملات المالية أسهل وأكثر أمناً . أما ضريبة الإنتاج فإنها لم تهيىء لدخل حكومى فحسب ، بل إن تحصيلها من كل معمل محلى للتقطير ، جعل المواطنين العاديين يلمسون سلطان الحكومة الاتحادية . وجملة القول أن سياسات هاملتون خلقت دعامة صلبة من ذوى الثروات الذين وقفوا صامدين خلف الحكومة القومية ، مستعدين لمقاومة أية محاولة لإضعافها فجعلت هذه الحكومة أقوى نفوذاً من ذى قبل .

هنود الشمال الغربى

من أكثر المشكلات إثارة للاستياء فى عهد رئاسة واشنطن ، مشكلة تهدئة القبائل المحبة للحرب فى شمال غربى نهر أوهايو . فلقد شهدت السنوات التى أعقبت الثورة تجدداً نشيطاً لسعى الرواد التواقين إلى أراض رخيصة نحو الغرب . وألف المضاربون على الأرض عدداً من الشركات ، حصلت من الكونجرس على مساحات كبيرة . فظفرت شركة أوهايو التى كونها الجنرال روفوس بوتنام بمليونٍ ونصف مليون دونم ، أقام عليها بوتنام بلدة (مارييتا) فيما أصبح الآن أوهايو الجنوبية . وحصلت شركة تدعى شيوتو على خمسة ملايين من الدونمات ، والقاضى جيه . سى . سيمز من نيو جيرسى ، على مليون دونم ، قامت عليها مع مرور الزمن مدينة سينسيناتى . وهدد المستوطنون خير أراضى الصيد للهنود ، إذ أقبلوا على قطع الأشجار وإنشاء الأكواخ . وبدا من الواضح للحُمْرة أن عليهم أن يكبحوا هذا السيل وإلا فقدوا كل شىء . وسرت رسالة من قرية إلى قرية : « لن يزرع الإنسان الأبيض الذرة شمالى نهر أوهايو » .

وكما قتل المستوطنون البيض هنوداً ، ذبح الهنود رجالاً ونساء وأطفالاً من البيض . وقرر واشنطن إيفاد حملة من ١٥٠٠ من الحرس الوطنى (الميليشيا) من أبناء بنسلفانيا وكنتكى ، لتأديب قبيلة الميامى . وشاء سوء الطالع ، أن القائد القليل الخبرة ، الذى كان موكلاً بالحملة ــ وهو جوزياه هارمر ــ قاد رجاله القليلى الخبرة مثله إلى كمين ، فهزم فيما أصبح الآن إنديانا الشمالية ، واضطر إلى التقهقر ، وقد خسر حوالى ٢٠٠ نفس . وعلى هذا ، أمر واشنطن فى خريف سنة ١٧٩١ ، قائداً مسناً ، معتل الصحة ، سيىء التقدير ــ هو الجنرال آرثر سانت كلير ــ بأن يقود جيشاً أكبر من السابق بكثير ، إذ ضم فرقتين من النظاميين ، إلى أرض الهنود . وكانت النتيجة أسوأ هزيمة منيت بها قوة كهذه منذ انكسار برادوك . ففى كمين على حوالى مائة ميل شمالى سينسيناتى ، وفى أعماق إحدى الغابات ، مُزق جيش سانت كلير شر ممزق ، فقُتل حوالى ٧٠٠ وجُرح الكثيرون . وعندما علم واشنطن بالنبأ أظهر أعمق الحزن واللوعة . وكان التصرف المحتمل الوحيد ، هو العودة للمحاولة مع اختيار قائد أقدر وجيش أقوى . وفى هذه المرة ، تولى القيادة أنتونى واين (المجنون) ، الذى اشتهر فى حوالى ست معارك ثورية بإقدامه وبراعته . فدرب جيشاً أكبر من الجيش السابق على أفضل أساليب قتال الهنود ، وبعد أن تلقى تعزيزاً قوامه ١٤٠٠ من ميليشيا كنتكى الأشداء ، تقدم على رأس أقوى وأعتى مجموعة من المقاتلين شوهدت يوماً غربى جبال ألليجنى . وعند فولن تيمبرز على نهر مومى ، غير بعيد من فورت واين فى أيامنا هذه ، أوقع بالهنود هزيمة فاصلة بحيث توقفت كافة الأعمال الحربية بعدها (٢٠ أغسطس سنة ١٧٩٤) . وأصبح واين بطلاً قومياً .

وفى الحال ، مضى التوطن فى الشمال الغربى بحجم أكبر من ذى قبل . واستولى المهاجرون على مزارع على طول نهر أوهايو بأكمله ، وأقاموا مدناً ، وانسابوا إلى « ويسترن ريزيرف » على بحيرة إيرى ، حيث أنشأوا كليفلاند .

تأويل الدستور : « سلطات ضمنية »

تطلبت إجراءات هاملتون تأويلاً مهماً للدستور . فعندما طرح مشروعه لإنشاء مصرف

قومى ، اعترض جيفرسون متكلماً باسم جميع المؤمنين بحقوق الولايات إزاء السلطان القومى ، وباسم أولئك الذين كانوا يخشون الشركات الكبيرة وقوة نفوذ المال . وقد أرسل إلى واشنطن دفاعاً قوياً ، معلناً أن الدستور يعدد بإيضاح جميع السلطات الخاصة بالحكومة القومية ، ويحتفظ بكافة السلطات الأخرى للولايات ، ولم يرد فى أى جزء منه أن للحكومة الاتحادية أن تقيم مصرفاً . وبدا هذا المنطق سليماً ، وأوشك واشنطن أن ينقض مشروع القانون . بيد أن هاملتون رفع دفاعاً أكثر إقناعاً . فبين أنه لا سبيل لإيراد جميع سلطات الحكومة القومية بكلمات صريحة ، لأن هذا يعنى تفصيلاً مملاً . فكان لزاماً أن تتضمن المواد العامة قدراً كبيراً من السلطات ، وقد خوّلت إحدى هذه المواد الكونجرس أن « يسن كافة القوانين التى ستكون ضرورية ومناسبة بطبيعتها » . وضغط هاملتون وهو يقرأ هذه المادة على عبارة « مناسبة بطبيعتها » . فمثلاً ، من الواضح أن للحكومة بموجب سلطات الحرب الواردة فى الدستور ، الحق فى أن تغزو إقليماً ما . ويترتب على ذلك أن من المناسب بطبيعة الأمر أن تملك « سلطة ناجمة عن ذلك » لإدارة هذا الإقليم ، وإن لم يكن الدستور قد ذكر شيئاً عن هذا . ولقد نص الدستور على أن تنظم الحكومة التجارة والملاحة ، واستتبع هذا أن تكون لها « سلطة ناجمة عن ذلك » لبناء المنارات . ثم إن الدستور أعلن أن للحكومة القومية سلطة فرض الضرائب وتحصيلها ، ودفع الديون ، واقتراض المال . ووجود مصرف قومى يساعد مادياً على جمع الضرائب ، وعلى إرسال الأموال لأماكن بعيدة سداداً لصكوك مستحقة ، وعلى الاقتراض . ومن ثم فمن حقها أن تنشىء مصرفاً قومياً بموجب « سلطاتها الضمنية » . وقد تقبل واشنطن هذا المنطق ، فوقع مصدقاً على إجراء هاملتون .

انتفاضة الويسكى : معاهدة جاى

رأى جيفرسون أن قانون رسوم الإنتاج الذى وضعه هاملتون فى سنة ١٧٩١ ، كان مثيراً للاستنكار ، فكتب إلى واشنطن أنه كذلك غير حكيم ، لأنه يقحم « سلطان الحكومة فى نواح تكون فيها المقاومة أرجح ، والقهر أقل الحلول صلاحية للتطبيق » . وكان يعنى بهذا غرب بنسلفانيا ، فى المقام الأول . فقد كانت هذه المنطقة مليئة باسكتلنديين ــ

أيرلنديين شديدى المراس ، ولم تكن لهم وسيلة لإرسال قمحهم شرقاً إلى السوق ، عبر الجبال ، وكانوا بحاجة إلى نقود ، وإذ كانوا على دراية بالفن الاسكتلندى لصنع الويسكى فقد أقاموا معامل تقطير فى كل مزرعة تقريباً لإنتاج سلعة سهلة النقل . وقد بدا أن ضريبة الإنتاج تلقى عبئاً غير عادل على هذا الإنتاج المربح ، يضاف إلى هذا أنها كانت تستدعى إجراءات قضائية لا مبرر لها . وسرعان ما تعرضت أربع مقاطعات فى المنطقة الواقعة جنوبى بيتسبيرج مباشرة لعنت اضطر الزعماء الغاضبين إلى المقاومة الصريحة . فأصدر واشنطن نداء منذراً ، ولكنه قوبل بعدم اكتراث . وفى سنة ١٧٩٤ ، اندلع العنف عندما حاولت الحكومة إلقاء القبض على رجال تحدوا موظفى الإيرادات العامة . واضطر الغوغاء أحد المفتشين الاتحاديين إلى الفرار للنجاة بحياته ، وهددوا الحامية الصغيرة الموجودة فى بيتسبيرج . وكان جديراً بالحاكم أن يستخدم الميليشيا ، ولكنه تقاعس عن ذلك خشية أن يصرف ناخبى القطاع الغربى عنه .

وعلى هذا ، قرر واشنطن أن يتخذ تصرفاً صارماً ، بمشورة خاصة من هاملتون . وكان من الممكن لقوة من ألف جندى أن تقمع العصيان بسهولة ، فهى لم تكن أكثر من مظاهرة صاخبة . بيد أن هاملتون كان تواقاً لتحقيق مثال لما للحكومة من قدرة قاهرة . لذلك استدعى خمسة عشر ألف جندى من فيرجينيا وميريلاند وبنسلفانيا ــ أى جيش يكاد يعادل ذاك الذى أسر كورنواليس فى الكبر . وسرعان ما أرهبت قوة الجنود المتمردين إذ سارت إلى منطقة القلاقل . ولقد ذهب معهم هاملتون ، واطمأن إلى أن المشاغبين الثمانية عشر قد نقلوا إلى فيلادلفيا لمحاكمتهم . غير أن اثنين فقط هما اللذان أدينا ، وقد عفا عنهما واشنطن .

ولقد أحدثت انتفاضة الويسكى ضجة كبيرة ، فقد اثنى الاتحاديون على إجراءات الحكومة الصارمة ، بينما استنكر معارضو الاتحاد هذه الإجراءات بوصفها استبدادية وعسكرية . ولا مراء فى أن سياسة هاملتون رفعت مكانة السلطات القومية ، غير أنه لا مراء كذلك فى أنها أثارت كثيراً من السخط وعدم الثقة الشعبيين ، فكانت خطأ . وما إن تولى أنصار جيفرسون الحكم حتى ألغيت رسوم الإنتاج .

كذلك لم يلق نهج حكومة واشنطن بالنسبة للشؤون الخارجية رضاء شعبياً لدى الكثيرين . فلقد بدأت حرب فى أوربا ، فى سنة ١٧٩٣ ، بين فرنسا وبريطانيا ، فانبعث شعور قوى فى الولايات المتحدة . كانت طبقات التجار وكثيرون من رجال

الدين ، لاسيما فى نيو إنجلاند ، يخشون الجمهورية ويكرهونها ، إذ قلبت ما للثروة من مصالح وامتيازات ، وجعلت العقل رباً أو إلهاً . وكان المزارعون فى الجنوب والعمال الميكانيكيون فى المدن يتعاطفون مع فرنسا . فأصدر واشنطن — عن حكمة — إعلاناً للحياد . وقوبل هذا باستنكار مهتاج ، حتى إن وزير فرنسا المفوض فى الولايات المتحدة جينيه الأهوج ، ظن أن بوسعه عدم الاكتراث به . وكتب إلى حكومته أن واشنطن كان شيخاً ضعيفاً خاضعاً للنفوذ البريطانى ، وتحدث عن الاتجاه إلى الأهالى ، وعندما حرمت عليه الحكومة استخدام الموانىء الأمريكية كقاعدة عمل للسفن الحربية الفرنسية ، لم يطع الأمر . وتساءل واشنطن مغضباً عما إذا كان يرمى إلى تعريض تصرفات هذه الحكومة لتحد وقح ؟ . وصدر الأمر إلى جينيه بالعودة إلى بلاده ، ولكنه فعل ما هو أفضل : مكث فى الولايات المتحدة إدراكاً منه لأن المقصلة كانت فى انتظاره ، وتزوج ابنة حاكم نيويورك ، وعاش فى رخاء حتى تقدمت به السن . ولقد أحرجت تصرفاته غير المعقولة الفريق المناصر لفرنسا فى أمريكا ، ومع ذلك فقد شرع هذا الفريق ، فى سنة ١٧٩٤ ، فى المطالبة بالحرب ضد بريطانيا ، استناداً فى المقام الأول إلى أن البريطانيين كانوا يستولون على السفن الأمريكية المتجهة إلى جزر الهند الغربية الفرنسية ، وأنهم كانوا يحتفظون بمراكز تجارية فى الإقليم الشمالى الغربى ، بانتهاك شنيع لمعاهدة سنة ١٧٨٣ .

وما من شىء كان أشد نكبة لأمريكا فى ذلك الوقت من حرب كهذه ، فأوفد واشنطن إلى لندن جون جاى ، وكان دبلوماسياً ذا خبرة أصبح إذ ذاك كبيراً للقضاة ، كمبعوث فوق العادة لتسوية مجموعة من الخلافات مع بريطانيا العظمى . وما كان ليختار أفضل منه ، إذ كان جاى يؤمن بأن « شيئاً من الحكمة الصادرة عن طيبة نفس كثيراً ما يؤدى فى السياسة إلى أكثر مما يؤدى إليه الدهاء المعرض للزلل ». وبالاعتدال والذكاء المستنير ، حقق معاهدة فازت بكل ما كان للولايات المتحدة أن ترتقبه عن حق . ذلك أنه ظفر بوعد بأن المراكز الغربية التى كانت بريطانيا تحتفظ بها بعد ، يجب أن تتخلى عنها خلال عامين . وتوصل إلى إحالة مطلب أمريكا بتعويض عن الأضرار الناجمة عن استيلاء بريطانيا على السفن ، إلى لجنة . وحصل — فى النهاية — على امتيازات تجارية مهمة فى جزر الهند الشرقية وجزر الهند الغربية البريطانية . وفى مقابل هذا ، استبعدت المعاهدة اتجار أمريكا مع جزر الهند الغربية البريطانية فى القطن ، والسكر ، والمولاس ، واعترفت بالالتزام بدفع الديون التى كانت على أمريكيين قبل الحرب لتجار بريطانيين ،

وقصرت عن النص على تعـويض عن العبيد الـذين انتزعتهم الجيوش البريطانية من أصحابهم أثناء الحرب . وما كانت هذه بعيوب خطيرة فى الواقع ، غير أن الشعور بأن أمريكا يجب أن تنال خيرما فى جميع المعاهدات ، كان قد أخذ يختمر فى العقلية الأمريكية من ذلك الحين ، فقوبلت المعاهدة بضجة استنكار . وأحرق الغوغاء المهتاجون تماثيل جاى ، وأهـال الخطباء والمحررون الغاضبون السخط على واشنطن . ولكن واشنطن وجاى كانا أكثر حكمة وفلسفة من أن يتأثرا بضجيج شعبى مؤقت . ولقد قبل مجلس الشيوخ المعاهدة ببعض التعديلات ، ووجد التجار وأصحاب السفن مرة أخرى ما يدعو إلى التطلع إلى الحكومة الاتحادية بالعرفان .

جون آدمز

عندما تقاعد واشنطن فى سنة ١٧٩٧ ، تولى الزمام جون آدمز القدير ، الرفيع الفكر ، وإن كان صارمـاً وعنيداً ومليئاً بالميزات الشخصية . ولقد أكدت صلابة رأيه ، وعدم لباقته أن مدة رئاسته ستكون مضطربة . فقد بلغ من شدة استقلاله بالرأى أن أبى تقبل إرشاد هاملتون ، بل إنه تشاجر مع هذا الزعيم قبل أن يبدأ الرئاسة . وهكذا حد من قدراتـه أن أوتى وراءه حزبـاً منقسمـاً على نفسـه ، وإلى جواره مجلس وزراء منقسماً كذلـك ، إذ أن الوزراء (رؤساء الإدارات) كانوا يأخذون بآراء هاملتون فى المسائل المتعلقة بالحزب . وكان كثير من أبناء الجنوب وأبناء نيو إنجلاند يكرهون آدمز ، فاشتد شعـور الحـزب بالسخط . وممـا زاد الأمـور سوءاً ، أن سماء الشؤون الدولية اشتدت اكفهراراً عنها فى أى وقت آخر .

وكانت نذر الحرب فى هذه المرة ضد فرنسا . فإن مجلس إدارة شؤون الدولة (حكومة المديرين) التى كانت تحكم الجمهورية الفرنسية رفضت ــ إذ أغضبتها معاهدة جاى ــ أن تقبل الوزير المفوض الذى أوفده آدمز ، وهددت فعلاً بإلقاء القبض عليه . فأهاج هذا الحدث المهين الشعور الأمريكى أشد هياج ، وأرسل آدمز ثلاثة مفوضين إلى باريس لمحاولة تذليل الصعاب ، فقوبلوا بمزيد من الإعراض . إذ رفض تاليران ــ وكان يتولى الشؤون الخـارجية ــ أن يتعـامـل معهم دون إبـداء أسباب ما . وأشار وسطاء وثيقو

الاتصال به ــ ذكرهم المبعوثون الأمريكيون فيما بعد بالرموز هـ ، و ، ى X, Y, Z ــ إلى أن من الممكن الوصول إلى نتيجة إذا هم تلقوا ٢٥٠٠٠٠ دولار رشوة . أخيراً قطع تاليران المفاوضات تماماً ، برسالة فظة مهينة ، اتهم فيها الولايات المتحدة بالتعامل بوجهين . ولقد أثار نشر « أوراق هـ ، و ، ى » ــ كما أطلق على الرسائل المتبادلة ــ غضبة للكرامة فى أمريكا بلغت درجة الصياح المهتاج . وقال روبرت جودلو هاربر : « إننا نجود بالملايين من أجل الدفاع ، ولكن ما من سنت واحد ندفعه جزية » ، فصادفت العبارة هوى شعبياً . وجُندت القوات ، وعُزز الأسطول ، وجرت فى سنة ١٧٩٨ سلسلة من المعارك البحرية ، أوقعت فيها السفن الأمريكية الهزيمة بالسفن الفرنسية على طول الخط . وبدا لفترة من الزمن أن لا مناص من إعلان الحرب .

فى هذه الأزمة ، كانت فردية آدمز الصارمة ذات نفع للأمة . فقد أعرض عن هاملتون ، الذى كان يبغى الحرب ، وأوفد فجأة وزيراً مفوضاً جديداً إلى فرنسا ــ فاستقبله نابليون ، الذى كان قد تولى الحكم ، بترحاب ودى . وسرعان ما تلاشى خطر الصراع . على أن آدمز لسوء الحظ تصرف فى الشؤون الداخلية ، فى تلك الأثناء ، بضيق أفق وعدم تمييز وجد الشعب الأمريكى أنهما مما لا يُغتفر له . فقد تحمل والكونجرس مسئولية أربعة قوانين غير موفقة ، كان لها نصيب كبير فى القضاء على الحكومة . وقد مد أولها المدة التى ينبغى على أى أجنبى أن يقيمها فى الولايات المتحدة قبل أن يغدو مواطناً من خمس سنوات إلى أربع عشرة . ومنح ثانيها الرئيس السلطة لمدة سنتين لأن يأمر بطرد أى أجنبى خطر من البلاد . ونص الثالث على جواز ترحيل الأجانب ، فى وقت الحرب ، أوسجنهم بمرسوم من الرئيس وبدون محاكمة . أما الرابع ، فجعل التآمر ضد أى إجراء قانونى من الحكومة ، أوالتعرض لأى موظف عام ، بل مجرد نقده ، جناية كبرى .

وبدت قوانين الأجنبى ومقاومة الحكومة هذه قاسية بدرجة ظالمة ، وانتهاكاً منكراً للحريات الشخصية والمدنية . وصمم جيفرسون وماديسون ــ اللذان كانا يعتقدان بأن الاتحاديين أخذوا يركزون فى الحكومة القومية سلطاناً خطيراً ــ على التصدى لهذه القوانين . وكتبا مجموعتين من مشروعات القرارات ، فتبنت الهيئة التشريعية فى كنتكى مجموعة جيفرسون ، والجمعية النيابية لفيرجينيا مجموعة ماديسون . واستناداً إلى النظرية القائلة بأن الحكومة القومية قد أقيمت بناء على اتفاق بين الولايات ، أعلنت مقررات

كنتكى وفيرجينيا هذه أن لأية ولاية أن تتخذ الخطوات لتنقض أى عمل غير دستورى . ولم يكن غرضها المناداة بحقوق الولايات ، وإنما حماية حقوق الناس .

وأقبلت سنة ١٨٠٠ والبلاد مهيأة لتغير جديد ، والواقع أنها تكشفت عن سنة انتفاضة سياسية كبيرة . كان الاتحاديون فى عهدى واشنطن وآدمز قد قاموا بعمل عظيم ، إذ أقاموا الحكومة وجعلوها قوية السلطان . ولم يعد إذ ذاك من يرتاب ــ كما كان الكثيرون يرتابون فى سنة ١٧٨٩ ــ فى أن الأمة والدستور باقيان . بيد أن الاتحاديين أخفقوا فى أن يدركوا أن المقصود بالحكومة الأمريكية أن تكون فى جوهرها شعبية الطابع ، فقد اتبعوا سياسات كانت ذات أثر كبير فى منح طبقات خاصة السيطرة على الحكومة والمنافع المترتبة عليها . وكان جيفرسون ــ وهو زعيم شعبى بفطرته ــ قد دأب على أن يجمع خلفه باطراد الكتلة المؤلفة من صغار المزارعين ، والميكانيكيين ، وأصحاب الحوانيت ، وغيرهم من العاملين . وكانوا معقودى العزم على أن يحققوا للأمة حكومة شعب وليس حكومة مصالح خاصة ، وقد أعلنوا تأكيدهم بقوة نفوذ هائلة . ففى انتخابات سنة ١٨٠٠ ، ظفر آدمز بأصوات نيو إنجلاند ، بيد أن المعارضة اجتاحت الولايات الجنوبية ، وظفرت بأغلبية كبيرة فى ولايات الوسط . وأدى النظام الانتخابى الفج إلى الربط بين جيفرسون ، وآرون بير ، وهو من أبناء نيويورك ، وكان عضواً فى حزب جيفرسون ، وأهلاً للثقة ولكنه ليس من أصحاب المبادىء . ولكن كل الظواهر كانت تبين أن الشعب صمم على أن يكون جيفرسون رئيساً ، وعمل هاملتون ، بتصرف من تصرفاته الرائعة التى كثيراً ما اتسمت بها حياته العامة ، ليكون قرار مجلس النواب لصالح جيفرسون .

ولقد كتب جيفرسون إلى أحد أصدقائه : « لقد جُربت جوانب سفينتنا الكبرى الصلبة أدق تجريب ، وسندفعها فى طريقها الجمهورى ، وسوف تبين الآن بجمال تحركها براعة البناة الذين شيدوها » .

الفصـــل ٧

نهضـــة الوحـــدة القوميـــة

حكومـة جيفـرسـون

كانت الطريقة التى تولى بها جيفرسون الرئاسة فى سنة ١٨٠١ ، تأكيداً وإبرازاً لأن الديمقراطية قد تولت الأمر . وكانت الاحتفالات الرسمية أول ما أقيم من حفلات فى واشنطن ، التى كانت قد أصبحت العاصمة . كانت إذ ذاك مجرد قرية فى غابة على الضفة الشمالية لنهر بوتوماك ، وكانت طرقها الموحلة قد شقت خلال الأحراج وعبر المستنقعات ، وليس فيها سوى بضعة بيوت كالحة . . « معظمها أكواخ صغيرة ، بائسة » ، وفقاً لما قاله أحد الوزراء الراحلين عن الحكم . ولقد أشار جوفرنير موريس فى سخرية إلى أن العاصمة كانت ذات مستقبل عظيم . « فلسنا نريد هنا سوى بيوت وأقبية لتخزين المؤن ، ومطابخ ، ورجال ذوى اطلاع ، ونساء لطيفات ، وبعض التفاهات الأخرى من هذا القبيل ، حتى نجعل مدينتنا مثالية » . أما جيفرسون ، فقد سار فى ثياب غير أنيقة كالعادة ، مغادراً بيته البسيط فوق التل إلى الكابيتول الجديد ــ مبنى الهيئة التشريعية ــ يتبعه عدد من الأصدقاء . وإذ دخل قاعة الشيوخ ، صافح نائب الرئيس بير ، الذى لم يكن من أصحاب المبادىء والذى كان مزاحمه قبل فترة وجيزة .

ووقف على مقربة رجل آخر لم يكن يثق فيه ، هو جون مارشال ، من فيرجينيا . وكان على صلة قرابة بعيدة به ، وقد عينه آدمز فى الفترة الأخيرة كبيراً للقضاة . وأدى جيفرسون يمين المنصب ، ثم ألقى فى هدوء خطاباً من خير ما ألقى رئيس عند توليه منصبه .

وكان جزء من خطاب جيفرسون نداء للوفاق تمس الحاجة إليه : فإن الحملة الانتخابية السياسية التى انتهت من عهد قريب ، كانت متسمة بأقذع التشهير ، حتى إن الكثيرين ، لاسيما فى نيو إنجلاند ، اعتقدوا أن جيفرسون كان ملحداً ، وأداة ، بل وفوضوياً . فرجا المواطنين أن يتذكروا أن التعصب السياسى شر كالتعصب الدينى ، وأن يتحدوا كأمريكيين فى الحفاظ على الاتحاد ، جاعلين الحكومة النيابية ذات فعالية ، وعاملين على تنمية الموارد القومية . وقال : « نحن جميعاً جمهوريون . . نحن جميعاً اتحاديون » ، وأضاف تصريحاً لا ينسى عن الإيمان بالحرية : « إذا كان بيننا من يودون حل هذا الاتحاد ، أو تغيير شكله الجمهورى ، فليصمدوا دون إزعاج ، كنُصب شاهدة بالأمن الذى يجوز به تحمل خطأ الرأى ، حيث يترك العقل والمنطق حراً ليصارعه » . أما بقية الخطاب ، فبسطت المبادىء السياسية للحكومة الجديدة ، فقال إن البلاد يجب أن تنال « حكومة عاقلة ، مقتصدة » تصون النظام بين السكان ، ولكنها « تتركهم فيما عدا هذا أحراراً لينظموا مساعيهم الخاصة بالعمل الجاد والتحسن ، وألا تأخذ من فم العامل الخبز الذى كسبه بجده » . يجب أن تحافظ على حقوق الولايات ، يجب أن تسعى إلى صداقة صادقة مع كافة الأمم ، ولكن « لا ترتبط بتحالف مع أى منها » . هذه عبارة ظلت حاضرة فى الأذهان طويلاً . ووعد جيفرسون بالإبقاء على الاتحاد « بكل عنفوان طاقته الدستورية » ، والحفاظ على « تفوق السلطات المدنية على العسكرية » ، وتدعيم الانتخابات الشعبية بوصفها الفيصل الوحيد فيما عدا الثورة .

ولقد كان وجود جيفرسون فى البيت الأبيض فترتين فى حد ذاته ، مشجعاً بدرجة عظيمة للإجراءات الديمقراطية فى كافة أرجاء البلاد . فألغى كافة المظاهر الأرستقراطية التى كان واشنطن قد أحاط بها رئاسة الجمهورية ، وتم التخلى عن حفلات الاستقبال الأسبوعية ، واقتضبت مراسم (إتيكيت) البلاط إلى أضيق الحدود ، ونبذت ألقاب التفخيم مثل صاحب السعادة ، ففى نظر جيفرسون كان أبسط المواطنين جديراً بالاحترام كأعلى الموظفين . وعلم معاونيه أن يعتبروا أنفسهم أوصياء مفوضين عن الشعب . وشجع الزراعة ، وشجع تعمير الأراضى بشراء حقوق الهنود فيها ومساعدتهم

على النزوح غرباً . وإيماناً بأن أمريكا يجب أن تكون مرفأ وملاذاً للمظلومين ، شجع جيفرسون الهجرة إليها بقانون للجنسية متحرر . وحاول جاهداً المحافظة على السلام مع الدول الأخرى ، لأن الحرب كانت تعنى مزيداً من نشاط الحكومة ومزيداً من الضرائب ، مع الإقلال من الحرية . وإذ عين جيفرسون ألبرت جالاتين ــ وكان من رجال المال البعيدى النظر ، وسويسرى المولد ــ وزيراً للخزانة ، شجعه على تخفيض المصروفات وتسديد الدين القومى ، مما نجم عنه أنه لم تأت سنة ١٨٠٦ حتى كانت الإيرادات القومية ٠٠٠ ٥٠٠ ١٤ دولار ، والمصروفات ٠٠٠ ٥٠٠ ٨ ، والفائض ٠٠٠ ٠٠٠ ٦ دولار ، وحوالى نهاية سنة ١٨٠٧ ، كان جالاتين المقتصد قد خفض الدين القومى إلى أقل من سبعين مليوناً . وساد عامة الشعب جميعاً الاغتباط ، إذ اجتاحت البلاد موجة من الشعور الجيفرسونى ، فأخذت الولايات تلغى الواحدة بعد الأخرى مؤهلات الثروة التى كانت تُشترط لمنح حق الانتخاب ، وحق تولى المناصب ، وحتى أخذت تصدر قوانين أكثر إنسانية لمصلحة المدينين ، والمجرمين .

ومع ذلك فإن القدر دفع جيفرسون والبلاد فى الاتجاه الذى لم يكن يعتزمه . فإنه وهو نبى التكوين المحكم للدستور ، بسط بخطوتين سلطات الحكومة الاتحادية إلى أقصى مدى ، وعندما ترك الرئاسة ، كانت الحرب التى أبغضها تتربص على كثب .

شراء لويزيانا : مؤامرة بير

أدت إحدى **خطوتيه** إلى مضاعفة مساحة الدولة ، إذ كانت إسبانيا قد ظلت طويلاً مستحوذة على الإقليم الممتد غربى نهر المسيسيبى ، مع ميناء نيو أورليانز بالقرب من مصبه . على أن نابليون اضطر الحكومة الإسبانية الضعيفة إلى أن تعيد إلى فرنسا القسم الكبير المسمى لويزيانا ، عقب تولى جيفرسون الرئاسة بفترة قصيرة . وما إن فعل ذلك حتى ارتجف الأمريكيون البعيدو النظر توجساً وغضباً ، فقد كانت نيو أورليانز ميناء لا غنى عنها لشحن المنتجات الأمريكية من زراعة واديى أوهايو والمسيسيبى . كانت خطط نابليون لإقامة امبراطورية استعمارية هائلة غربى الولايات المتحدة مباشرة لتوازن التسلط الأنجلوسكسونى على أمريكا الشمالية ، تهدد حقوق التجارة وسلامة كافة

المستوطنات الداخلية ، بل إن إسبانيا الضعيفة كانت قد سببت متاعب جسيمة للقطاع الجنوبي الغربي . فما بالك بفرنسا ، أقوى دولة في العالم ؟

وأكد جيفرسون أنه إذا استولت فرنسا على لويزيانا « فعلينا من تلك اللحظة أن نقترن بالأسطول والدولة البريطانيين » ، وأن أول طلقة مدفع في حرب أوربية ، خليقة بأن تكون إشارة لزحف جيش أنجلو أمريكي على نيو أورليانز . وكان نابليون في هم من اليقين بأن الولايات المتحدة وأنجلترا لن تحجما عن الهجوم . وكان يدرك أن ثمة حرباً أخرى مقبلة ولابد مع بريطانيا بعد صلح آميان الوجيز ، وأنه سيخسر لويزيانا قطعاً إذا ما بدأت تلك الحرب . كما كان يثبط من عزيمته عن سحق الثورة الكبيرة التي أعلنها الزعيم الزنجي توسان لوفيرتير (الفاتح) في هايتي التي كانت تحت الحكم الفرنسي ، والتي قضى فيها الثائرون والحمى الصفراء على قوة قوامها أربعة وعشرون ألف رجل ، في سنة ١٨٠٢ . ومن ثم ، فقد حزم أمره على أن يملأ خزانته ، ويبعد لويزيانا عن قبضة البريطانيين ، ويسعى إلى صداقة الأمريكيين بأن يبيع المنطقة للولايات المتحدة . وانتقلت هذه المساحة إلى حوزة الجمهورية لقاء ١٥ مليوناً من الدولارات ، وبشرائها « وسع جيفرسون الدستور حتى كاد يتفسخ » ، إذ لم تكن ثمة مادة فيه تخول شراء إقليم أجنبي ، وقد تصرف قبل صدور موافقة مسبقة من الكونجرس .

بهذه العملية الموفقة حصلت الولايات المتحدة على ما يزيد على مليون ميل مربع ، مع ميناء نيو أورليانز الثمينة ، وكانت مدينة جميلة شيدت من الطوب والجص على منحنى هلالي الشكل لنهر المسيسيبي ، تحف بها من الخلف غابة من الشجر القاتم دائم الخضرة . وفي أحد أيام خريف سنة ١٨٠٣ ، شاهد جمع مختلط الألوان والجنسيات ، نزول العلم الفرنسي وارتفاع العلم ذي النجوم والشرائط ، في ميدان الجيوش ــ جمع ضم جنوداً فرنسيين في أزياء عسكرية زاهية ، وإسبانيين وكريول فرنسيين [١] ، في أزياء أنيقة ، ورواداً في أقمصة الصيد ، وهنوداً تخالط سمرتهم صفرة كالحة ، وعبيداً في لون الأبنوس . ولقد اكتسبت الولايات المتحدة سهولاً خصبة مترامية ، لم تنقض ثمانون عاماً حتى كانت من أكبر موارد القمح في العالم . كما اكتسبت السيطرة على شبكة الأنهار الوسطى ــ في القارة ــ بأكملها . ولأول مرة جاز للأمريكيين أن يقولوا ــ كما قال

(١) الكريول هم سلالة التزاوج بين الفرنسيين والإسبانيين ــ المترجم .

لينكولن فيما بعد ، أثناء الحرب الأهلية ــ إن أبا المياه يمضى إلى البحر دون عائق يضايقه . وإن هى إلا أربع سنوات ، حتى أدى إقدام روبرت فولتون على استخدام سفينة بخارية فى نهر هدسن إلى حل مشكلة استخدام هذه المسالك المائية الغربية جميعاً ، ناقلة النازحين للاستيطان فى تلك الأراضى ، وحاملة إلى السوق فى عودتها الفراء ، والغلال ، واللحوم المحفوظة ، وعشرات المنتجات الأخرى .

وعندما اقتربت فترة نهاية الرئاسة الأولى ، كان جيفرسون قد اكتسب شعبية واسعة ، إذ كان قد تجلى أن لويزيانا كسب كبير ، وكانت الأعمال فى رواج ، وكان الرئيس قد سعى إلى إرضاء كافة القطاعات . فكانت إعادة انتخابه محققة ، وفعلاً ظفر فى سنة ١٨٠٤ بجميع أصوات مندوبى مجمع الانتخاب المائة والستة والسبعين عدا أربعة عشر ، فائزاً بتأييد جميع الولايات ، حتى فى نيو إنجلاند ، ما عدا كونكتيكت . وكان بقدرته على السيطرة على حزبه بيد قوية ، قد اتخذ الخطوات لسحق آرون بير الطموح ، الدائب التآمر . وإذ حرم النيويوركى الماكر من كل نصيب عند توزيع الحزب الاتحادى مرشحيه للمناصب ، وفُصل من الحزب فعلاً ، تحول إلى التقرب إلى أشد الاتحاديين خصومة فى نيو إنجلاند . ورشح حاكماً لنيويورك فى قائمة الحزب الاتحادى فى ربيع سنة ١٨٠٤ ، ولكنه منى بهزيمة مزرية ، وكان الفضل الأكبر راجعاً إلى معارضة هاملتون ، الذى ارتاب عن حق فى أن بير وبعض الدساسين اليانكى ، مثل تيموثى بيكيرينج ، كانوا يدبرون انفصالاً يحل الاتحاد . واستفز بير عديم المبادىء هاملتون إلى المبارزة ليثأر لنفسه ، وقد انتهت المبارزة ، التى جرت فى صباح أحد أيام يوليو على شاطىء نهر هدسن عند جيرسى ، بموت هاملتون . وأثار فقدان هذا الزعيم اللامع المحبوب عاصفة من الحزن الغاضب ، حتى لقد اضطر بير إلى الاختباء حرصاً على سلامته . ولقد نُسفت صفحته فى الشرق ، ولكنه بصفاقة شريرة تحول نحو الغرب سعياً إلى مغامرات جديدة .

لم تكن المكافآت والتقديرات المعتادة كافية بالنسبة لطموح طاغ كطموح بير ، فكان شعاره : « احكم أو دمِّر » ، وقد وضع خططاً لإنشاء ولاية خاصة به . أما أين ، وكيف ينشئها ، فهذه أمور لا تزال موضوع تضارب . ويعتقد كثير من الدارسين أنه كان ينتوى جمع جيش صغير فى الغرب ، ويبحر نحو مصب المسيسيبى فيستولى على نيو أورليانز . وبسط مثل هذه النية لمسئولين بريطانيين وإسبانيين ، محاولاً الحصول على مال من لندن

ومدريد . ولقد أخبر البريطانيين بأنه سيضع الولاية تحت حمايتهم ، بينما أخبر الإسبانيين بأنـه سيجعلها منطقة عازلة بين المكسيك والولايات المتحدة . ولكن أياً من الفريقين لم يؤيده . غير أن دارسـين آخرين يعتقدون أن الغاية الحقيقية لبير ، كانت أن يحشد جيشه وأن يقوده ضد السلطات الإسبانية فى فيراكروز ومدينة المكسيك . فيسيطر على تكسـاس والمكسيك . والـواقـع أنه أخبر بعض الزعماء ، مثل أندرو جاكسون ، من تنيسى ، الذى كان يكره إسبانيا ، بأن هذه كانت غايته . ومن المحتمل أنه هو نفسه لم يكن يدرى أكان يستهدف لويزيانا ، أو المكسيك ، بل من المحتمل أنه كان يستهدف الاثنتين .

وعلى كل حال فقد انتهى إلى سقوط تام كسقوط زهرة الصبح (الشيطان) . فقد نميت مؤامرته إلى رجال ذوى ولاء فى الجنوب الغربى ، فاتهموه رسمياً فى أواخر سنة ١٨٠٦ . وقبض عليه وأرسـل إلى ريتشمـونـد ، فى فيرجينيا ، لمحـاكمته عن جريمة الخيانة . ورأس المحاكمة جون مارشال ، فكانت أحكامه الرئيسية فى صالح بير ، نظراً لأن الأدلة كانت مبهمة بدرجة لا مناص منها . ومن ثم برئت ساحة بير ، ولكن سمعته كانت قد تقوضت لدرجة لا سبيل لإصلاحها .

حياد أمريكا : قانون الحظر

استغل جيفرسون السلطان الاتحادى استغلالاً غير عادى للمرة الثانية ، فى محاولة الحفاظ على حياد أمريكا أثناء الصراع الهائل بين بريطانيا العظمى ونابليون . فقد كان يعرف أن الجمهـورية النـاشئة ، التى لم تستكمل نضجها ، بحاجة إلى السلام . ولما كانت الحرب محتدمة فى البر والبحر ، فقد راوده الأمل فى إبقاء الولايات المتحدة خارج نطاق النيران . كانت بريطانيا العظمى تحارب لتمنع غزو دولة كبرى واحدة للقارة الأوربية بأكملها . ومن الطبيعى أن الحرب التجارية كانت من خير أسلحتها . وإدراكاً لقيمتها ، سارعت بريطانيا إلى محاصرة امبراطورية نابليون ، فرد نابليون بمرسومى برلين وميلان لحصـار بريطانيا العـظمى . وأوقعت الـدولتـان فى صراعهـا ضربات قاسية بالتجارة الأمـريكية ، فقد عمل البريطانيون على قطع ما كان للسفن الأمريكية من تجارة نقل

دسمة لمنتجات جزر الهند الغربية الفرنسية ، ولمنعها تماماً عن الساحل الأوربى بأكمله ، من إسبانيا حتى الألب . وأمر الفرنسيون بالاستيلاء على كل سفينة أمريكية تخضع للتفتيش البريطانى أو تمس ميناء بريطانية . أى أن الحرب سرعان ما بلغت درجة لم تعد معها أية سفينة أمريكية تملك أن تتجر مع المنطقة الواسعة التى تحت السيطرة الفرنسية دون أن يستولى عليها البريطانيون ، ولا أن تتجر مع بريطانيا دون أن تستولى عليها فرنسا (إذا قدر لها أن تقع فى متناولها) . فكانت التجارة فى هذه الظروف مستحيلة تقريباً . وكانت الحكومة البريطانية صارمة فى إنصاف ، بينما كانت الحكومة الفرنسية تصادر السفن الأمريكية لأتفه حجة .

وكان الأمر الذى أثار الشعور الأمريكى بوجه خاص ضد بريطانيا العظمى ، هو موضوع التجنيد القسرى . فلقد اضطر البريطانيون إلى زيادة أسطولهم ، من أجل الفوز فى الحرب ، إلى درجة أن أصبح لها ما يزيد على سبعمائة سفينة عاملة ، وحوالى ١٥٠ ٠٠٠ ملاح وجندى بحرى . وحفظ هذا السياج المتين سلامة بريطانيا ، وحمى تجارتها ، وصان مواصلاتها مع مستعمراتها . فكان ذا أهمية حيوية لوجود بريطانيا . غير أن رجال الأسطول كانوا يعانون من سوء الرواتب ، وسوء التغذية ، وسوء المعاملة ، حتى أصبح من المستحيل الحصول على بحريين عن طريق التطوع للجندية . وهرب كثير من البحارة ، وسرهم أيما سرور أن يجدوا ملجأ فى سفن اليانكى الأسعد حالاً ، وأكثر أمناً . فى هذه الظروف ، اعتبر المسئولون البريطانيون أن تفتيش السفن الأمريكية وأخذ من يكون عليها من رعايا بريطانيين ضرورة لا غنى عنها . ولم يدعوا الحق فى أن يجندوا رجال البحر الأمريكيين قسراً ، ولكنهم رفضوا الإقرار بإمكان اكتساب أى بريطانى للجنسية الأمريكية . على أن وجهة النظر الأمريكية كانت معادية لهذا الادعاء تماماً . وكان من الإذلال للسفن الأمريكية أن تقبع تحت مدافع طرادة بريطانية ، بينما يقوم ملازم وشرذمة من الجنود البحريين بإيقاف رجالها صفاً ، وفحصهم . ولقد جندوا قسراً بحريين أمريكيين تماماً بالعشرات والمئات ، وقيل ــ آخر الأمر ــ بالآلاف .

ولحمل بريطانيا العظمى وفرنسا على مسلك أكثر إنصافاً دون حرب ، انتهى جيفرسون إلى استصدار قانون الحظر من الكونجرس ، وهو قانون لتحريم التجارة الخارجية بأكملها . وكانت تجربة قاسية ، فلقد كادت شركات الملاحة أن تفلس من جراء هذا الإجراء ، فى بداية الأمر ، فازداد عدم الرضاء فى نيو إنجلاند ونيويورك . ثم

وجدت المشروعات الزراعية أنها تعانى خسائر باهظة ، لأن الأسعار تداعت عندما لم يعد فى طوق مزارعى الغرب أن يشحنوا الفائض من قمحهم ، ولحومهم ، وتبغهم إلى ما وراء البحار . وشبه المراقبون هذا الإجراء بإقدام جراح على بتر ساق سعياً إلى إنقاذ حياة شخص ما . فقد هوت الصادرات الأمريكية فى سنة واحدة إلى خُمس حجمها السابق . بيد أن الأمل فى أن يؤدى الحظر إلى إجاعة بريطانيا العظمى فتضطر إلى تغيير سياستها لم يتحقق ، إذ أن الحكومة البريطانية لم تحرك ساكناً . فاستُبدل الحظر بقانون منع التعامل . وكان يحرم الاتجار مع كل من بريطانيا وفرنسا والبلاد التابعة لهما ، ولكنه وعد بإيقاف هذا الإجراء بالنسبة لكل منهما بمجرد أن تكف عن الاعتداءات على التجارة المحايدة . فأعلن نابليون رسمياً ، فى سنة ١٨١٠ ، تحوله عن إجراءاته . وكانت هذه أكذوبة ، إذ أنه ظل سادراً فيها . غير أن الولايات المتحدة صدقته ، وقصرت عدم التعامل على بريطانيا العظمى .

حرب سنة ١٨١٢

زاد هذا من سوء العلاقات مع بريطانيا العظمى ، فانساقت الدولتان سريعاً نحو الحرب . إذ أثارت عدة أحداث مشاعر الاستياء ، مثال ذلك أن البارجة البريطانية ليوبارد أمرت البارجة الأمريكية تشيزابيك بتسليم بعض البريطانيين الهاربين من الأسطول . ومع أنه لم يكن عليها سوى واحد ، فإن ليوبارد أطلقت النيران على تشيزابيك ربع الساعة ، حين صادفت شيئاً من التردد ، ثم اعتلت السفينة فإذا سطوحها مخضبة بالدماء ، وأخذت أربعة رجال . وبعد ذلك بقليل ، قدم الرئيس إلى الكونجرس تقريراً مفصلاً تضمن ٦٠٥٧ حادثاً جند فيها البريطانيون رعايا أمريكيين عنوة ، فى فترة ثلاث سنوات . كذلك طرأت قلاقل الهنود على الموقف . وكان المستوطنون فى الشمال الغربى الذين عانوا هجمات رابطة من القبائل الهندية كونها الزعيم القدير تيكومسه ، موقنين من أن العملاء البريطانيين فى كندا كانوا يشجعون الهمجيين .

وكان ثمة حافز أنانى كل الأنانية . فإن أهل الغرب النهمين إلى الأرض ، والذين كان يمثلهم أقدر تمثيل فى الكونجرس هنرى كلاى ، ابن كنتكى البليغ اللسان ، كانوا

يودون الاستيلاء على كندا بأسرها ، وكان يحرضهم على ذلك أهل الجنوب ، بزعامة جون سى . كالهون الشاب ــ الذى كان يرجو غزو فلوريدا وانتزاعها من إسبانيا ، إذ أصبحت حليفة لبريطانيا ــ وصقور حرب آخرون . وكانت النتيجة ، وقد استقر ماديسون فى البيت الأبيض ، أن أعلنت الحرب على بريطانيا فى سنة ١٨١٢ .

كانت حرب سنة ١٨١٢ من أبعد الأمور عن التوفيق فى التاريخ الأمريكى ، من نواح كثيرة . فمن الأسباب أنها كانت عملاً لا داعى له ، إذ أن الأوامر البريطانية موضوع البحث ، والتى سببت أسوأ هياج ، كانت موضوع إلغاء غير مشروط فى اللحظة التى أعلن الكونجرس الحرب فيها . ومن الأسباب أن الولايات المتحدة عانت انقسامات داخلية من أخطر الأنواع . فبينما كان الجنوب والغرب يحبذان الحرب ، كانت نيو إنجلاند ونيويورك ضدها بوجه عام ، ولقد ذهبت جماعات من ذوى النفوذ فى نيو إنجلاند إلى حافة نقض الولاء ، قرابة نهايتها . وهناك سبب ثالث ، هو أن الحرب كانت من الناحية العسكرية بعيدة عن أن تكون مجيدة .

كان الجيش الأمريكى فى وضع سيىء إزاء القتال ، إذ كان الاقتصاد الجيفرسونى قد هبط به إلى أقل من ثلاثة آلاف جندى ، تعززهم قوة من العامة تمثل حرساً وطنياً (ميليشيا) غير مدرب ولا مروض على النظام . وكان كثير من الجنود النظاميين من أرباب السجون والمواخير . ويروى لنا وينفيلد سكوت ، وهو شاب من فيرجينيا كان قد بدأ حياته العسكرية اللامعة قبل بضع سنوات ، إن القادة كانوا ينقسمون إلى فريقين رئيسيين : « كان الضباط القدامى قد انحدروا إلى الكسل ، أو الجهل ، أو الإسراف فى الشراب ، بوجه عام إلى درجة كبيرة » . أما الضباط الأحدث عهداً ، فكانوا فى الغالب قد عينوا لأسباب سياسية ، فكانت القلة من الصالحين ، ولكن الأغلبية فإما « أجلاف وجهلة » ، أو ــ إذا كانوا متعلمين ــ فهم « سادة مغرورون ، متواكلون ، متداعون ، وآخرون لا يصلحون لأى شىء آخر » . وكان أكبر ميجر جنرال ، عندما بدأت الحرب ، هو هنرى ديربورن غير الكفء ، الذى تجاوز الستين من العمر ولم يتول قط قيادة وحدة فى الميدان تزيد على فصيلة . وكان أكبر بريجادير جنرال هو جيمس ويلكنسون ، الذى عرف الآن أنه كان خائناً للولايات المتحدة ، أجيراً لإسبانيا وفرنسا معاً ، ومتآمراً مع آرون بير . فكان مفسوداً ، منحلاً ، غير مطيع ، محتقراً من كل من كانوا يعرفونه . وكان البريجادير جنرال الوحيد الذى أوتى خبرة قيمة هو وليم هل ، الذى

كان قد بلغ مرتبة كولونيل فى الثورة ، بيد أنه كان قد أصبح واهن القوى ، مسناً . وقد بدأ الحرب بتسليم ديترويت دون إطلاق رصاصة واحدة .

ومن ثم تتابعت النكبات . فانتهت جهود الأمريكيين لغزو كندا إلى فشل عام . وكما قال مؤرخ بريطانى : « لم يكن يبدو على الحرس الوطنى والمتطوعين ، فى السنة الأولى ، أنهم قد عقدوا الرأى على أنهم راغبون فى القتال ، أوغير راغبين » . وكانت أشد المعارك على الحدود الشمالية ، هى التى دارت عند لنديز لين بالقرب من نياجرا ، معركة استطال أمدها ، وزعم كل من الطرفين فيها بعد أنه منتصر . على أن البريطانيين والكنديين كانوا أرجح حقاً فى الابتهاج ، إذ أنها صدعت مؤقتاً خطط الأمريكيين للزحف قدماً على كندا .

وعندما انهزمت قوات نابليون فى إسبانيا ، أصبح فى مقدور البريطانيين أن يعززوا جيوشهم تعزيزاً كبيراً بالجنود الذين كانوا يحاربون مع ولينجتون . فنفذت قوة شديدة البأس إلى نيويورك عند بلاتسبيرج على بحيرة تشامبلين ، ولكن الأسطول البريطانى فى تلك المياه منى بهزيمة حاسمة على يدى شاب فى الثامنة والعشرين ، هو الكومودور توماس ماكدونو ، فاضطر الجيش البريطانى إلى التقهقر وقد أصبحت مواصلاته مهددة . وهبط جيش بريطانى آخر ، تألف من أقل من خمسة آلاف رجل ، بقرب واشنطن ، والتقى بقوة تكبره قليلاً ، أغلبها من الحرس الوطنى ، عند بلادينسبيرج . وتخلى المدافعون عديمو البطولة عن القتال بعد أن فقدوا عشرة قتلى ، وأصيب أربعون بجراح ، وهرعوا نحو واشنطن بسرعة كبيرة ، حتى إن كثيرين من البريطانيين أصيبوا بضربة الشمس وهم يحاولون الاستمرار فى ملاحقتهم . وانتقاماً لتدمير الأمريكيين المبانى العامة فى يورك (وهى الآن تورنتو) أطلق البريطانيون قذائفهم على الكابيتول والبيت الأبيض . بيد أن الأسطول البريطانى لم يحقق شيئاً عندما عرض فورت ماكهنرى على مقربة من بلتيمور ، للقصف من مسافة بعيدة ، إذ كانت صخور المياه الضحلة تجعل القصف عن كثب مستحيلاً . وكان على إحدى البوارج البريطانية إذ ذاك محام شاب من واشنطن ، هو فرانسيس سكوت كى ، يحاول تدبير عملية لتبادل الأسرى ، فأوحى له منظر العلم القومى وهو يرفرف فى نسيم الصباح ، أن يكتب قصيدة العلم المرصع بالنجوم .

لم يحظ الأمريكيون بأية انتصارات إلا فى البحر . وكان الأسطول ، الذى بنى وفقاً

لخطة دقيقة فى عهدى واشنطن وآدمز ، قد أبلى بلاء رائعاً فى الحرب القصيرة مع فرنسا ، وفى عمليات ١٨٠٣ - ١٨٠٤ ضد سفن القراصنة الطرابلسيين ، الذين بات عدوانهم على الملاحة الأمريكية لا يطاق . وكان ، على نقيض الجيش ، قد أوتى شخصاً منظماً عظيماً فى مرحلة مبكرة ، هو إدوارد بريبل الذى فرض على جناح البحر المتوسط من الأسطول إدارة قاسية ولكنها تتسم بالكفاءة ، فغرس فى رجاله روح الشجاعة والشهامة والطاعة ، مما أصبح تقليداً لهم ، ودرب شباب الضباط من أمثال ستيفن ديكاتور حتى اكتسبوا مقدرة رفيعة . وكان الأسطول صغيراً ، من حيث العدد ـــ إذ أن جيفرسون اتبع سياسة خرقاء ، تمثلت فى الاقتصار على إنشاء زوارق مسلحة للدفاع الساحلى ، فلم يكن عدده فى سنة ١٨١٠ يتجاوز اثنتى عشرة سفينة من أى حجم . بيد أن قادة السفن من اليانكى ، فى مجموعة من العمليات الفردية (أى التى كانت تقوم بها سفينة واحدة) ، كالتى قامت بها كل من السفينة كونستيتيوشن ، وجيريير ، ويونايتد ستيتس ، وماسيدونيان ، هزموا باستمرار سفناً بريطانية معادلة فى الحجم والقوة أو أكبر . كذلك أثبت الأمريكيون مقدرتهم فى البحيرات الكبرى جريت ليكس . ولقد أنشأ الكابتن أوليفر هازارد بيرى ـــ وهو ضابط آخر دون الثلاثين من العمر ـــ أسطولاً فى بحيرة إيرى ، وسعى وراء قوة بريطانية أصغر ، وبعد عملية اتسمت بالعناد ، هز البلاد برسالته المقتضبة : « التقينا بالعدو ، وهو فى أيدينا » . على أن الأسطول البريطانى القوى بسط فى النهاية سلطانه كاملاً على البحار ، واضطر السفن التجارية الأمريكية إلى أن تلوذ بالبر ، وفرض حصاراً محكماً على الساحل الأمريكى .

وعندما اختتمت الحرب ، لم تذكر معاهدة جنت (سنة ١٨١٤) ـــ التى تفاوض بصددها جون كوينسى آدمز ، وهنرى كلاى وغيرهما ـــ أية كلمة عن التجنيد عنوة ، وحقوق الحياد التى كان من الجلى أنهما السببان الرئيسيان للحرب . ولم يتح للبلاد أية غبطة سوى انتصار ضخم من جانب واحد ، ظفر به فى نيو أورليانز جيش غير نظامى ولكنه شديد ، من رجال الحدود ، تحت قيادة أحد الذين خاضوا حروب الهنود ، هو أندرو جاكسون ، على قوة بريطانية بقيادة مساعد ولينجتون المقدام إدوارد باكينهام . وكان ذلك يوم ٨ يناير سنة ١٨١٥ ، بعد أن أبرمت معاهدة الصلح . ولكن قبل أن يُعرف أمرها فى أمريكا ، فجعل هذا النصر من جاكسون المتأجج الحماس والمتسلط الإرادة بطلاً قومياً هائلاً .

الوحدة القومية

على أن الحرب ساهمت مساهمة فذة فى تطور الجمهورية ، بالرغم من طابعها العسكرى المخزى . فهى وإن بدأت وانتهت فى غمرة التذمر والتشاحن ، قد عززت عاطفة الوحدة القومية الوطنية . ومن الممكن إبداء عدة أسباب لهذا . فإن العمليات الناجحة المتفرقة ، والانتصارات البحرية بوجه خاص ، وهزيمة محاربى باكينهام المتمرسين فى نيو أورليانز ، أتاحت للأمريكيين أساساً جديداً للفخر والاعتداد . فخلعوا عنهم الشعور الذى كانت « سياسة جيفرسون الخانعة » قد ربته فى النفوس . ويلى ذلك أن الرجال من مختلف الولايات قاتلوا جنباً إلى جنب مرة أخرى ، وأن وينفيلد سكوت الفيرجينى كان أقدر قائد وجده جنود الشمال ، مما أنمى شعور الوحدة القومية . ولقد كسب الجنود من أبناء الغرب بعض المواقع التى لم ينسوها ، فأصبحوا أقل ارتباطاً بولاياتهم وأكثر ولاء للدولة من كثيرين من أبناء الولايات الأصلية الثلاث عشرة . ومنذ ذلك العهد ازداد دور الغرب فى الحياة الأمريكية ، فكان الغرب قومياً فى عاطفته دائماً .

وأخيراً ، فإن القوم خرجوا من الحرب مشمئزين من العقلية غير الوطنية التى أبدتها بعض الجماعات الأنانية ، الضيقة الأفق . كان الناقمون من أهل نيو إنجلاند قد تمادوا إلى حافة الخيانة بالذات ، وقد أوفدوا فى مرحلة متأخرة من الحرب مندوبين إلى اجتماع سياسى فى هارتفورد لدراسة إقامة اتحاد منفصل . وقد أصبح اجتماع هارتفورد هذا رمزاً يعبر عن الاحتقار واللوم ، وإن كان فى الواقع لم يتماد إلى درجة الانفصال .

وعلى الإجمال ، فإن هذه الحرب المنحوسة الطالع فعلت الكثير لتصبح الجمهورية أكثر نضجاً وأكثر استقلالاً ، ولربط كيانها ، ولتقوية طابعها . ولقد أكد ألبرت جالاتين أن الأمريكيين قبل الصراع كانوا يزدادون أنانية ، ومادية ، وجنوحاً إلى التفكير على هدى أضواء محلية ، أكثر مما ينبغى . وقال : « لقد جددت الحرب الشعور والطابع القوميين اللذين جادت بهما الثورة ، واللذين كانا يتناقصان يوماً بعد يوم ، وأعادت توطيدهما . فأصبح للناس مزيد من مشاعر الارتباط العامة ، التى ترتبط بها كرامتهم وآراؤهم السياسية . إنهم أمريكيون أكثر من ذى قبل ، وهم أكثر من ذى قبل شعوراً وتصرفاً كأمة ، وآمل أن يكون دوام الاتحاد أفضل تحققاً بهذا » . ولما كان خوض الحرب قد جرى بهذا الترابط الوثيق ، فإنها لم تخلف ضغائن تذكر . وعندما التقى البريطانيون

والأمريكيون فى ميدان للقتال مرة أخرى بعد أكثر من مائة عام ، كان لقاؤهم كزملاء فى السلاح ، وفى مودة وتعاطف .

لقد أثبتت الأحداث أن الوحدة القومية قد نمت ، وأن سلطان الحكومة المركزية ازداد ، بغض النظر عن الحزب الذى فى الحكم : اتحاديى هاملتون ، أو ديمقراطيى جيفرسون . ذلك لأن ظروف النمو القومى تطلب هذا . فإن اقتناء لويزيانا ، وشن تزاحم تجارى مع فرنسا وبريطانيا العظمى ، ومهاجمة قراصنة البربر ، والقيام بحرب مع البريطانيين ــ كل هذه الأعمال كانت تتطلب سلطة مركزية قوية البأس .

كذلك كانت الحكومة البريطانية تزداد تدعماً بدرجة كبيرة فى هذه السنوات ، بفضل قرارات المحكمة العليا . إذ أن جون مارشال الفيرجينى ، المؤمن بالوحدة ، والذى عين كبيراً للقضاة قبيل تولى جيفرسون الرئاسة ، شغل هذا المنصب حتى وفاته فى سنة ١٨٣٥ . ولقد كانت المحكمة ضعيفة ، ولا تحظى باكتراث يذكر ، فحولها إلى هيئة قضائية قوية النفوذ والمهابة ، تحتل مكانة فى أهمية مكانة الكونجرس أو رئيس الجمهورية . ولقد كان مارشال فى أذواقه وأساليب مسلكه ينتمى إلى مجتمع المزارع المتحرر ، فى الولاية التى ولد ونشأ فيها . كان بسيطاً فى ملبسه ، يحمل عشاءه بنفسه من السوق فى عودته لبيته ، يحب لعب الورق ، وشراب البنش [1] ، وممارسة لعبة الروليكينج [2] الصاخبة بحدوات الجياد أو الحلقات المعدنية . ولكنه فى أفكاره كان يمثل دوائر الأعمال والمهن فى المدن من قبيل بوسطن ونيويورك . ولقد أظهرت قراراته الباقية ، وهى نتاج عقل جرىء وثاقب ، أنه كان تحت سلطان مبدأين جوهريين : أولهما سيادة الحكومة المركزية ، والثانى قداسة الملكية الخاصة .

كان مارشال قاضياً عظيماً ، وكانت قراراته تكتب بمنطق قدير يوحى بالإقناع للقارىء فى كل مناسبة تقريباً . كانت بسيطة فى الأسلوب ، تقوم على دراسة هائلة وتحليل شامل دقيق . وكانت عادته أن يثبت مقولته الرئيسية كاملة فى البداية ، ثم يستطرد إلى الاستقراءات ، هادماً كل معارضة لها ، مثبتاً فى النهاية استنتاجه مدعماً إياه بوافر من الأقوال المنقولة والأمثلة . وكرئيس للمحكمة العليا ، وهب هذه المحكمة

(١) شراب من النبيذ واللبن والشاى ، مضافاً إليها السكر والليمون والبهارات ! ــ المترجم .

(٢) لعبة رماية حدوة أو حلقة على شىء ثابت لتحيط به ــ المترجم .

انسجاماً وتنسيقاً ، فكانت وجهات النظر المتنافرة ، والآراء غير المتوافقة ، نادرة . غير أن مارشال كان أكثر من قاض عظيم ــ كان رجل حكم دستورى عظيماً . فهو فى البت فيما يقرب من خمسين قضية تناولت مسائل دستورية جلية ، كان يعالجها على أساس من فلسفة سياسية مكتملة النضج . كانت تتعلق بكافة أجزاء الدستور المهمة تقريباً . وترتب على هذا ، أنه حين اختتم خدمته الطويلة ، كان الدستور كما تطبقه المحاكم فى كافة أرجاء البلاد ، دستوراً من تفسير مارشال إلى حد كبير جداً ، حتى ليجوز القول بأنه أعاد صياغته وفقاً لتصوره وبصيرته الجلية .

ومن المستحيل أن نفعل أكثر من تعداد قراراته الرئيسية . ففى قضية ماربورى ضد ماديسون (سنة ١٨٠٣) ، أرسى ــ بقرار حاسم ــ حق المحكمة العليا فى إعادة النظر فى أى قانون صادر عن الكونجرس أو الهيئة التشريعية لإحدى الولايات ، فكتب : « من المؤكد قطعاً أن مجال الهيئة القضائية وواجبها ، أن تعين ما هو القانون » . وفى قضية آل كوهن ضد فيرجينيا (سنة ١٨٢١) استبعد الحجج التى ساقها أولئك الذين قالوا إن القرار الصادر من محكمة إحدى الولايات ، فى قضايا قائمة تحت قوانين الولاية ، يجب أن يكون نهائياً . فأظهر البلبلة التى يؤدى إليها هذا بالبلاد ــ لأن الولايات قد تتخذ العديد من وجهات النظر المختلفة ، إزاء صلاحية القوانين الواردة فى الدستور الاتحادى أو المعاهدات الاتحادية ــ وأصر على أن الحكم النهائى يجب أن يكون ذلك الصادر عن المحاكم القومية . وفى قضية ماك كلوش ضد ميريلاند (سنة ١٨١٩) تناول الموضوع القديم ، موضوع السلطات الضمنية للحكومة بموجب الدستور . وفى هذا تصدى بجرأة للدفاع عن نظرية هاملتون القائلة بأن الدستور يمنح الحكومة ضمناً سلطات لا يوردها تعبيراً . وفى قضية جيبونز ضد أوجدن (سنة ١٨٢٤) ، ضخم مارشال هذه النظرية . فإن الدستور أعطى الكونجرس حق وضع اللوائح لتنظيم التجارة بين الولايات . وفى هذه القضية ، التى نشأت عن نزاع على حقوق السفن البخارية فى نهر هدسن ، رأى مارشال أن هذا الحق القومى فى التنظيم يجب أن يفسر على أوسع نطاق ، وليس أضيقه . وفى قضية كلية دارتماوث ، طبق مارشال بند التعاقد فى الدستور لتأييد صلاحية مرسوم مخول لشركة ، منكراً على الولاية سلطة تعديله بعد صدوره . وبوجه عام ، فقد فعل مارشال قدر ما فعل أى زعيم لجعل حكومة الشعب الأمريكى المركزية قوة حية ، نامية .

الفصـــل ٨

ثقـافـة قـومـيـة

البحـث عـن شـخصـية قـومـية

كان من الأمـور البـالغة المعنى ، أن الدولة جاءت قبل الأمة فى تكوين الولايات المتحـدة ، فى حين أن الأمـة سبقت الـدولـة بقرون ، فى قيام معظم الدول الجديدة ، كالبرتغال أو النرويج أو ألمانيا أو إيطاليا . أى أن الولايات المتحدة تبلورت سياسياً وإدارياً قبل أن تكون قد اكتسبت معظم العناصر التقليدية للقومية . ومن ثم فإن قسطاً كبيراً من العمل الإنشائى الثقافى كان موجهاً ، سواء عن وعى أو دون وعى ، إلى مهمة توفير هذه العناصر : تاريخ مشترك ، وأغان وقصص وأساطير مشتركة ، وأبطال مشتركين ، وأدب وفن مشتركين .

ولقد أدرك الأمريكيون ــ من البداية ــ أن من المرغوب أن تكون ثمة لغة وأدب وثقـافـة « أمـريكية » . ولقد كتب ذلك المتحمس للقومية نواه ويبستر ، الذى اشتهر بالقاموس : « يجب أن تكون أمريكا مستقلة فى الأدب ، كما هى فى السياسة » . وأشار جوفرنير سوليفان ، من مساشوستس ، أن « الوقت قد حان الآن لكى نتخذ شخصية وآراء قومية خاصـة بنـا » . ولقد وجها القول إلى شطر كبير من الرأى العام المتعلم . ولقد

شهد الجيل الأول من الاستقلال الأمريكى مجهوداً نشيطاً ، يكاد أن يكون متشنجاً ، من أجل « خلق » ثقافة أمريكية . كان لابد من لغة أمريكية ، وقد آلى نواه ويبستر على نفسه فى عزم أن يذود عن الكلام الأمريكى ويثبت تفوقه على الكلام البريطانى . وكان لابد من أدب أمريكى ، فإذا فيليب فرينو وهيو براكينريدج ومجموعة من شعراء كونكتيكت ، الشعراء الذين عرفوا بلقب مضلل نوعاً ما هو « عباقرة كونكتيكت الموهوبون » ، يحاولون جهدهم الخروج على معايير العالم القديم ، وإنشاء معايير أفضل فى العالم الجديد . وكان لابد من تعليم أمريكى ، فعمل جيل جيفرسون ونواه ويبستر وبنجامين رش دائبين على جعل التعليم غير دينى وعاماً فى آن واحد . وكان لابد من عِلم أمريكى — وكان الأمريكيون منصرفين إلى دراسة البيئة بحكم ظروفهم ، وقد ركزوا عناية كبيرة على الجغرافيا ، وعلم النبات ، وعلم أصول الإنسان . . بل كان لابد من حساب أمريكى ، إذ كتب نيكولاس بايك : « الآن وقد أصبحنا أمة مستقلة ، فقد بات من اللائق أن يكون لنا علم حساب مستقل » . ولم تقطع الأمة الجديدة صلتها تماماً بأقليدس (أبى علم الحساب) ، ولكنها حققت طفرة كبيرة على الأقل إلى الأمام ، بنظام النقد (العملة) العشرى .

والواقع أن هذا الاعتداد الذاتى الثقافى لم يسفر عن كثير فى الجيل الأول بعد الثورة ، فإن الأمة الجديدة لم تكن مهيأة بعد لتوفير ثقافة وأدب مستقلين ، وظل الفن والمعمار متشبثين بالاقتباس . وأسفرت اللغة « الأمريكية » عن شبه كبير جداً بالانجليزية ، وبمرور الزمن أخذت الانجليزية تزداد شبهاً بالأمريكية باطراد . واتخذت الصحف الناشئة الكثيرة ، التى كان عليها أن تنمى الأدب الأمريكى ، طراز المجلات الفصلية البريطانية الكبرى ، حتى « مجلة أمريكا الشمالية » التى سادت الميدان سنوات كثيرة . أما الرسامون الأمريكيون ، أمثال بنجامين ويست وجون سينجلتون كوبلى ، فلم يقتصروا على الدراسة فى الخارج ، بل عاشوا فى الخارج . ولعل الأمريكيين لم يسهموا أعظم إسهام إلا فى الميدانين اللذين لم يتملكهم فيهما الاعتداد الذاتى ، وهما القانون والسياسة . فلم يكن أعظم إنتاج الأمة الجديدة الأدبى أثراً فى الأشعار أو الروايات — فقد كانت كلها تقريباً ضعيفة — وإنما الكتب مثل « الإدراك السليم » ، و« البحوث الاتحادية » ، والمذكرات العامة لرجال الحكم من أمثال واشنطن ، وجيفرسون ، وماديسون ، وجون مارشال . كان التفوق الأمريكى فى مجال السياسة فى

هذا الجيل الأول ، أمراً لا ينازع ، مثله مثل تفوق الإيطاليين فى المجال الفنى أو الألمان فى المجال الموسيقى ، فإن فن سياسة الحكم كان التخصص الأمريكى .

مولد أدب أمريكى

لم يبدأ الأمريكيون فى اكتساب ثقافة قومية فى الواقع ، إلا بعد حرب سنة ١٨١٢ . فقد أتمت هذه الحرب دفعة واحدة تبدد أوهام الأمريكيين إزاء « الوطن الأم » ، وأذكت الاعتداد الذاتى الأمريكى ، وحولت اهتمامات الأمريكيين غرباً ، نحو المساحات الجديدة الشاسعة التى أخذت تبدو باطراد ذات أصالة أمريكية . ومع أن واشنطن إرفينج كتب الكثير بأسلوب كتاب المقالات المعاصرين باللغة الانجليزية ، فإنه قصر اهتمامه على الأقل بموضوعات بلده . ولكتابه « تاريخ نيويورك » بعض الحق فى أن يعتبر بداية مزاج أدبى أمريكى . ولقد اقتنص فى كتاب « القصص القصيرة » أساطير وادى هدسن وحكاياته القديمة ، التى كان يعرفها تمام المعرفة ، فصانها وحفظها ، مثل أسطورة « ريب فان وينكل » ، وأسطورة « الغور الناعس » . وبعد أن استغرق فترة طويلة فى البراءة والكتابة عن انجلترا وألمانيا وإسبانيا ، عاد إلى الموضوعات الأمريكية ، فجاد على مواطنيه بأول سيرة موضوعية عرفتهم بكولمبس ، وأول سيرة جيدة لواشنطن ، وثلاثة كتب مهمة وشاملة عن الغرب الأقصى ، ضمت فيها ضمت القصة القديمة عن أستوريا .

وكان إرفينج يرى نفسه عالمياً ، يسعد بالعالم القديم سعادته بالعالم الجديد . ولم يكن جيمس فنيمور كوبر مثله ، بل عالج عن قصد موضوعات أمريكية ومشاهد أمريكية كمادة تتصدى للروايات الأوربية الرومانسية ، واشترك بتحمس قوى فى الحرب الأدبية ضد انجلترا . وكان كوبر هو الذى اكتشف فى الواقع الإمكانيات الأدبية التى تتيحها حياة الهنود وسكان الحدود ، والذى قدم ، فى سلسلة ليذر ستوكينج العظيمة التى كتبها ، سجلاً للصدام بين حضارتى الحمر والبيض ، الصدام الذى استهوى خيال العالم الغربى بأسره . ولقد كان كوبر كاتباً ذا موهبة واسعة النطاق ، فكتب سلسلة من قصص البحر ، قدر لها أن تلهم فيها بعد مؤلفين مثل ماريات وكونراد ، وسلسلة أخرى

من الروايات عن المجتمع الأمريكى فى مدن وريف ولاية نيويورك ، لها بعض الحق فى أن تعتبر النماذج الأولى للقصة القائمة على دراسات اجتماعية فى أمريكا . وفى هذه الأثناء ، كان وليم كولين بريانت ــ الذى بشرت قصيدته « ثاناتوبسيس » ، وقد كتبها فى سن السابعة عشرة ، بظهور موهبة شعرية حقيقية ــ يتغنى بالطبيعة الأمريكية فى قصائد ، وبالديمقراطية الأمريكية فى مقالات لصحيفة إيفينينج بوست النيويوركية .

على أن أول ازدهار كبير للأدب الأمريكى ، تحقق فى نيو إنجلاند ، فيما بين أواسط الثلاثينات من القرن التاسع عشر حتى الحرب الأهلية . ونستطيع أن نحدد تاريخ الازدهار بشىء من التأكيد بظهور ديوان « الطبيعة » لرالف والدو إيمرسون فى سنة ١٨٣٦ ، وقد يكون لنا أن نؤرخ أفوله ابتداء من وفاة هوثورن فى سنة ١٨٦٤ . فإن هى إلا سنوات قلائل بعد ظهور مقالات إيمرسون الأولى ، حتى برز إيمرسون كناطق معبر عن العقل النيو إنجلاندى ، وربما الأمريكى . فقد كان إيمرسون ، كمثالى وتفاؤلى وذى أصالة وجدة ، يتكلم بصفاء وجمال ينفذان إلى العقل ويلهبان خيال الشباب فى كل جيل . وبرغم ما للمثالية الألمانية من أثر عليه ، فقد كان أمريكياً أصيلاً و« يانكى » حقيقياً فى فلسفته ، كما إنه كان فيلسوف كل من لم يكن لهم فيلسوف آخر . وكان كتاباه « الطبيعة » ، و« خطاب مدرسة الألوهية » يؤلفان منبر الدعوة إلى الفلسفة الارتقائية transcendentalism الأمريكية ، وكان كتاباه « الدارس الأمريكى » و« خصال إنجليزية مميزة » (سنة ١٨٥٦) إعلاناً أدبياً وفلسفياً للاستقلال ، وكان شعره يسفر عن مزيد من الأصالة ، وربما كان يكشف عن عمق فلسفى يزيد على أى شىء كتب فى أمريكا قبل ديوان « أوراق العشب » .

كان إيمرسون ، على حد تعبير أحد معاصريه ، البقرة التى كان كل من عداه يستمدون منها اللبن . ولقد كان هنرى ديفيد ثورو ــ وهو الآخر من كونكورد مثله ــ أحد الذين اعتمدوا على إيمرسون ، وبدا لفترة أنه يعيش فى ظلاله . غير أن ثورو أوتى عقلاً كعقل إيمرسون استقلالاً ، وأكثر منه أصالة فى اعتبارات عديدة . وكتابة « والدن ، أو الحياة فى الغابة » الذى يقرأه بشغف كل جيل جديد من الشبان والشابات ، قادر إلى حد كبير على أن يعيش إلى أبعد ما يعيش أى شىء كتبه إيمرسون نفسه . ولقد ألهم مقاله عن « العصيان المدنى » شخصيات عالمية مثل ليو تولستوى ، والمهاتما غاندى ، والبانديت نهرو .

وكان ناثانييل هوثورن شخصية ثالثة من أبناء كونكورد ، وهى بلدة لها بعض الحق فى أن تعتبر بمثابة أثينا الأمريكية . كان روائياً ذا حسن بالغ الإرهاف ، وقد وجد فى تاريخ نيو إنجلاند مادة لقصص اتخذت بفضل خياله الخصب طابعاً عالمياً : « الشارة القرمزية » ، « والبيت ذو السقوف السبعة » ، و« مغامرة بلايثديل » ، ومجموعة من القصص القصيرة ــ مثل « الوجه الصخرى الكبير » ، و« وصمة إيثان » ــ تنتمى إلى الأدب العالمى كالروايات . ولقد أتاح لنا هوثورن فى « الإله الرخامى » [1] أعمق التفسيرات جميعاً للصدام بين خُلق العالم القديم وخلق العالم الجديد . . وهو موضوع استهوى الكتاب الأمريكيين من كوبر إلى هنرى جيمس .

على أن الشعراء ــ وليس الروائيون ولا كتاب المقالات ــ هم الذين كانوا أكثر حظوة لدى المعاصرين ، وهم الأفضل حضوراً فى الأذهان . فقد كان ذلك عهد هنرى وادسويرث لونجفيلو ، أكثر الشعراء الأمريكيين جميعاً استئثاراً بالحب ، وجيمس رسل لويل الذى كشف ديوانه « أوراق بيجلو » الإمكانيات الأدبية للهجة نيو إنجلاند العامية ، وجون جرينليف هويتير شاعر ريف نيو إنجلاند وشاعر حركة إلغاء الرق ، والدكتور هولمز الذى لا قرين له ، فقد كان شاعراً ، وكاتب مقال ، وروائياً ، وأكثر الأطباء تبحراً . ولقد خلق هؤلاء الرجال ، مع رجال الدين ــ من أمثال وليم تشانينج والواعظ الأمريكى العظيم ثيودور باركر ــ ما لايزال يمثل للأذهان العهد الذهبى للآداب الأمريكية .

على أن مركز الثقل الأدبى كان قد أخذ يتحول فى الخمسينات من القرن التاسع عشر إلى نيويورك . وكان إرفينج وكوبر وبريانت قد عاشوا حتى ذلك العقد من الزمن ، بيد أن موهبتهم الأدبية كانت قد نضبت ، إذ كان كتاب الخمسينات ينتمون إلى عالم جديد . كان هيرمان ميلفيل قد نشر ما لا يقل عن خمس روايات قبل سنة ١٨٥٠ ، بيد أنه لم يبدأ ما يمكن اعتباره أدباً أمريكياً متميزاً عن سواه ، إلا برواية « موبى ديك » (١٨٥١) ، فلعل « موبى ديك » كانت أقل انتماء للرواية الانجليزية التقليدية من أى شىء كتب فى أمريكا حتى ذلك الحين . فقد احتوت هذه الرواية الرمزية عن مطاردة الحوت الأبيض فى صفحاتها معالم أمريكية صميمة ، وإن تناولت مسائل خلقية كانت

(١) أصل الاسم : The Marble Faun ، وهو تمثال لإله قديم نصف إنسان ونصف عنزـ المترجم .

عالمية . ولقد انبعث بعد سنوات قلائل صوت أمريكى قح آخر ، إذ نشر والت ويتمان البروكلينى الطبعة الأولى من طبعات عديدة من ديوانه « أوراق العشب » . وكانت هذه القصائد ــ لعدم تقيدها بما كان متعارفاً عليه إذ ذاك ، فى الأسلوب والمادة ــ تعتبر فى تلك الأيام خارجة ومثيرة للاستنكار . والواقع أنها صيغت ببراعة ، وكشفت فى أوجها عن موهبة شعرية أخصب مما أوتى أى شاعر من شعراء القرن العشرين ، كما أنها كانت سليمة ، ملتزمة بالقواعد والأصول فى رومانسيتها (روح الفردية فى الخيال والفكر والتعبير) . والواقع أن الشعر الأمريكى ــ والشعر الحديث بالذات ــ لم يتخلص تماماً من تأثير « أوراق العشب » .

التاريخ

يقال بوجه عام إن من العناصر الجوهرية للقومية الناجحة وجود تاريخ وتراث مشتركين ، وجود شعور مشترك بالماضى . ولو كان هذا صحيحاً ، لكانت الولايات المتحدة فى مركز سيىء ، إذ أنها لم تؤت من التاريخ الخاص بها سوى القليل جداً . ولقد عكف آباؤها المؤسسون ــ فى مجال الفكر ــ على علاج هذا الموقف ، وبعث ماض أمريكى ، وكشف تقاليد أمريكية ، وتمجيد أبطال أمريكيين . ولقد عملت قصة الصراع من أجل الاستقلال ، والجهاد لصياغة الدستور ، عملاً رائعاً فى هذا السبيل ، فإذا الأمريكيون ، قبل أن يقدر لحرب الاستقلال أن تنتهى ، يشبّهون مؤسسى أمتهم برومولس وريمس ، بهورسا وهنجيست ، فى حين أن واشنطن لم يُدرج يوماً ما بين الأبطال الأسطوريين الآخرين مثل ألفريد العظيم ، وفردريك برباروسا . والواقع أن واشنطن لدى بارسون ويمز المنافق قد فاقهم جميعاً فى الفضيلة ، والإقدام ، والمهابة ، والحكمة . وسرعان ما كان المؤرخون الأكثر رصانة يكتبون تاريخ الثورة أو يجمعون أوراق « الآباء المؤسسين » ورسائلهم .

وفى سنة ١٨٣٤ ، ظهر الجزء الأول من مؤلف جورج بانكروفت الضخم « تاريخ الولايات المتحدة » ، الذى تلهج كل صفحة منه اغتباطاً بالحرية والديمقراطية ، ويعلن كل جزء منه سمو أمريكا على كافة الأمم الأخرى . ولقد بدأ بانكروفت العصر الذهبى

للكتابة فى التاريخ الأمريكى ، وظل يتزعمه نصف القرن . وسرعان ما قام وليم بريسكوت ببعث حضارتى الإنكا والأزتك ، وسرعان ما كان جون موتلى يعيد رواية الصراع الهولندى المجيد ضد الإسبانيين من أجل الحرية ، وسرعان ما بدأ فرانسيس باركمان الشاب مؤلفاته التاريخية بمؤلفه « مؤامرة بونتياك » ، الكتاب الأول من سلسلة مؤلفات تسجل الصراع بين إسبانيا وفرنسا وانجلترا من أجل أمريكا الشمالية .

ولقد لقيت مؤلفات بانكروفت وبريسكوت وموتلى رواجاً واسعاً ، بيد أن الأمريكى العادى لم يستمد إدراكه للماضى من صفحاتهم المتألقة ، وإنما من قصائد لونجفيلو المحبوب ، الذى نشر هالة رومانتيكية على الهنود فى قصيدته « هياواثا » ، وعلى طرد الأكاديين فى قصيدته « إيفانجلينا » ، والذى صاغ الماضى الأمريكى صياغة قصصية فى قصائد مثل « بول ريفير على جواده » ، و« غرام مايلز ستانديش » ، وغيرهما من القصائد الكثيرة التى دخلت فى مجرى الذاكرة الأمريكية . . ومن ويتير فى قصائد مثل « رحلة النوتى إيرسون » و« سنو باوند » وغيرهما من الصور الشعرية الباعثة لماضى نيو إنجلاند ، ومن قصص وروايات ناثانييل هوثورن ، ومن مقطوعات المطالعة فى كتاب النحو الذى وضعه نواه ويبستر والذى ظل يستخدم خمسين عاماً فى كل مدرسة فى البلاد ، أو كتب « المطالعة » الكثيرة التى وضعها الأخوان ماكجفى ، ومن الخطب البليغة لدانييل ويبستر الذى استطاع ــ كما صورته الأقوال الأسطورية ــ أن يفحم الشيطان نفسه فى الجدل ، والذى ظل ختام دفاعه عن الاتحاد ، فى رده على السيناتور هين ، قطعة أثيرة من المحفوظات زهاء نصف القرن :

> عندما تتلفت عيناى لتتأملا الشمس فى السماء لآخر مرة ، فآمل ألا أراها مشرقة على أشلاء يجللها الخزى لاتحاد كان يوماً ما مجيداً ، على ولايات مفككة ، غير متفقة ، متحاربة . . على أرض ممزقة بفعل المنازعات الأهلية ، أو لعلها تكون مبتلة بالدم الأخوى ! . . بل لتقع نظرتها الأخيرة ، الواهنة ، المتلكئة ، على راية الجمهورية الزاهية ــ التى أصبحت معروفة وأثيرة بالإجلال فى كافة أرجاء الدنيا ــ وهى بعد فى كامل رقيها ، تنساب أسلحتها وانتصاراتها فى بريقها الأصلى ، فما من شريط ممحو وملطخ ، وما من نجمة واحدة مطموسة ، لا تحمل كشعار لها عبارة استفهامية تعسة مثل : ما جدوى هذا كله ؟ . . ولا تلك الكلمات الأخرى المضللة الطائشة : الحرية أولاً ، ثم

الاتحـاد . . بل لتنشر فى كل مكـان ، فوق البحـر ، وفوق البر ، وفى كل ريح تحت السـماوات جميعاً ، تلك العاطفة العزيزة على كل قلب أمريكى صادق فى أمريكيته : الحرية والاتحاد ، الآن وإلى الأبد ، وحدة لا تنفصل !

الفنون

كذلك حاولت الأمة الجديدة ، عن اعتزاز بالذات إلى حد ما ، أن تحقق فى الفن والعمارة شيئاً قومياً مميزاً عن سواه ، ولكن دون ما توفيق كبير . فقد ظل الرسم والنحت يستندان إلى الاقتبـاس حتى فترة طويلة بعـد الحرب الأهلية . وكان الجيل الأول من الفنانين الأمريكيين يرسم على ضوء سماوات بعيدة . . انجليزية وإيطالية فى الغالب . فكان من الأوائل بنجامين ويست الذى درس فى إيطاليا ، واستقر فى لندن فيما قبل الثورة ، فكان مرسمـه يجتذب معظم الرسامين الناشئين فى الجمهورية الجديدة . . ومنهم ترمبول ، وبيل ، وكوبلى ، وستيوارت . ولقد ولى الرسامون الناشئون وجوههم ، فيما بعد ، نحو إيطاليا التماساً للإلهام والتعليم . . مثل واشنطن آلستون ، أو توماس كول الذى يمكن القـول بأنـه أدخـل الـرومـانسية على فن الرسم الأمريكى ، والذى مهد الطريق إلى الـرومانسية لذلك الفريق من رسامى الطبيعة الذى عرف بمدرسة نهر هدسن . وفى الوقت ذاته ، كان ثمة تأثير أجنبى آخر ، فإن مدرسة من الرسامين تعلمت فى دسلدورف بألمانيا ، فأقبل أفرادها على الإغراق فى الرسم التاريخى الرومانسى ورسم الطبيعة ، على حساب الأمة الجديدة : وإلى هذه المدرسة الفنية تنتمى لوحة لوتز « واشنطن يعبر نهر ديلاوير » ، وكذلك كان كثير من المناظر الطبيعية بريشة ألبرت بيرشتات ، مما ساعد على أن ترسـخ فى الخيال الأمـريكى صورة الغرب كعالم شاعرى وجامح على الترويض . وكانت أقرب منها إلى الطابع القومى المحلى ، لوحات الطيور الأمريكية بريشة العبقرى المهمل الذكر جون جيمس أودوبون ، واللوحات الرائعة للهنود الأصليين بريشتى جورج كاتلين ، وألفريد جاكوب ميلر ، واللوحات المستمدة من الواقعية اليومية بريشتى جورج بينجهام وليم سيدنى ماونت .

ولم تكن الـظروف مواتية لتـطور ونمو فن النحت . فلم يكن لدى العالم الجديد

مدارس ، ولا أساتذة ، ولا نحاتون ، ولا نماذج « موديلات » . ولقد اتجه النحاتون الأمريكيون منذ البداية إلى إيطاليا للدراسة على تلامذة كانوفار ، أو على ثوروالدسن نفسه ، وليتعلموا أن يقلدوا هذين الأستاذين . ويكاد يكون جميع المثالين الأمريكيين الأوائل قد درسوا فى إيطاليا ، وقد ثابروا جميعاً ــ تقريباً ــ على التراث الكلاسيكى زمناً طويلاً بعد أن لم يعد يلقى إقبالاً فى أوربا . فكان منهم هوراشيو جرينوه الذى طار صيته بتمثاله البطولى لواشنطن وهو نصف متشح . وكان منهم توماس كروفورد ، الذى نحت تمثالاً هائلاً لواشنطن على صهوة جواد ، والذى توج مبنى الكابيتول فى واشنطن بتمثال ضخم : « الحرية المسلحة » . وكان منهم هيرام باورز الذى أحدث تمثاله العارى « الجارية اليونانية » نوعاً من الفضيحة فى أمريكا ، وإن أثار هزة إعجاب عندما عُرض فى القصر البلورى فى لندن . على أن مساهمته الحقيقية كانت مجموعة تماثيل نصفية لرجال الحكم والأدب . وكان منهم وليم ويتمور ستورى ، وكان ابن قاض كبير ، ترك مركزاً قانونياً ذا مستقبل فى بوسطن ، ليعيش فى روما حياة مثّال ، وشاعر ، وبوهيمى ، فوفر مادة لرواية كتبها هوثورن وسيرة كتبها هنرى جيمس . . وهى شهرة كافية لأى رجل .

كذلك كان فن العمارة يستمد من أوربا ، وإن كانت البيئة المستجدة تطلبت ، والمواد الجديدة يسرت تباينات طريفة ومهمة عن الأساليب الأوربية . كانت المدينة فى نيو إنجلاند وحدة كاملة الشبه تقريباً بمدن القرون الوسطى ذات الأسوار ، مثل آفنيون أومورا ، فهى جميلة المنظر وصالحة للأغراض المرجوة منها فى آن واحد ، ولم يستطع المهندسون المعماريون ومخططو المدن أن ينتجوا شيئاً مناسباً كهذا طيلة القرن ونصف القرن الماضيين . كان النمط الجورجى ، ويحسن أن يسمى الاتحادى ، تعديلاً للنمط الانجليزى السائد ، وإن لم يكن ثمة مناص من أن يكون أصغر حجماً ، وأكثر تواضعاً ، ومعتمداً على الخشب بدلاً من الحجر . ولقد أنتجت نيو إنجلاند ، فى شخص صمويل ماكينتاير من سالم وتشارلز بولفينش من بوسطن ، مهندسين معماريين أوتيا القدرة على أن يقتبسا أساليب البناء والزخرفة الانجليزية ويعدّلاها وفقاً للاحتياجات الأمريكية . ولقد ترك ماكينتاير طابعه على مدينة سالم بقدر ما ترك بالاديو طابعه على فيشينتسا ، فى حين أن الأثر الباقى لبولفينش كان دار الولاية فى بوسطن ، الذى كان أوليفر ويندل هولمز يعتبر قبتها بمثابة مركز الكون .

ولقد كان ثلاثة من المهندسين المعماريين الذين ولدوا خارج أمريكا ــ وليم

ثورنتون ، وستيفن هاليت ، وبنجامين لاتروب ــ هم الذين اضطلعوا بمبنى الكابيتول القومى ، الذى أقيم على نسق النماذج الرومانية طبعاً ، والبيت الأبيض . وكان لاتروب ، مع توماس جيفرسون ، المسئولين الأولين عن الدعوة إلى بعث الفن اليونانى الذى ازدهر فى كافة أرجاء البلاد إلى قسط كبير من الربع الثانى من القرن ، وأتاح لفن العمارة المحلى فى الجنوب طابعاً مميزاً .

كان توماس جيفرسون ــ فى جيله ــ أوسع المعماريين الأمريكيين خيالاً وحيلة ، فهو الوحيد الذى جمع بين إنشاء الحدائق ذات المناظر الطبيعية وفن العمارة فى التراث الانجليزى العظيم . وكان قد شغف بالبيت المربع فى نيم ، ومنجزات بالاديو الرائعة فى فيشينتسا ، وآلى على نفسه أن يطوع فن العمارة اليونانى ــ الرومانى وعمارة بالاديو وفقاً لاحتياجات الجمهورية الجديدة . فكان بيته مونتشيللو ، الذى أقامه على قمة تل يطل على وادى فيرجينيا ، مشيداً على نمط بيت بالاديو « فيلا مالكونتينتا » ، ثم مجهزاً بإضافات أمريكية الطابع . وكانت جامعة فيرجينيا ــ التى وضع جيفرسون تصميمها وشيدها واختار المناظر الطبيعية المحيطة بها ، وهو فى السبعينات من عمره ــ ولعلها لا تزال أجمل مجموعة من المبانى ، وأكثر المجموعات تناسقاً ، فى الدولة ، من الناحية المعمارية .

التعليم

كان الآباء المؤسسون يعرفون أن تجربتهم فى الحكم الذاتى تجربة لم يسبقها مثيل ، وأيقنوا من أنها ما كانت لتنجح بدون ناخبين متنورين . فكتب جيفرسون : « آمل ، قبل كل شىء ، أن يلقى تعليم العامة عناية ، يقيناً بأن لنا أن نعتمد ، بأقصى درجة من الاطمئنان ، على حسن إدراكهم للحفاظ على الدرجة المنشودة من الحرية » . وأصر جون آدامز على « التعليم لكل درجة وكل مرتبة من الناس حتى أدناها وأفقرها » للتأكد من أن الأمة ستحظى بحكم طيب ، وستكون متحدة . وكان بنجامين رش فى بنسلفانيا ، ونواه ويبستر فى كونكتيكت ، والحاكم كلينتون فى نيويورك يأخذون بهذين الرأيين ، فصرفوا طاقاتهم إلى نشر وترقية التعليم العام والعالى فى مجتمعاتهم . وهكذا

ناضل الدكتور رش من أجل مدارس البنات ، وساهم بنصيب كبير فى التعليم الطبى ، ودعا إلى إنشاء جامعة قومية . كما عمل على إنشاء كلية ديكنسون . وأقام الحاكم كلينتون جامعة ولاية نيويورك ، ووضع ابنه دى ويت أسس شبكة من المدارس العامة فى الولاية . وكذلك عمل نواه ويبستر دون هوادة من أجل التعليم العام ، فأمد المدارس بالقواميس ، وكتب الهجاء ، وكتب المطالعة ، وكتب التاريخ ، وساعد على إنشاء كلية أمهرست . وكان جيفرسون ــ بين الآباء المؤسسين جميعاً ــ هو الذى منح التعليم القسط الأوفر من وقته وتفكيره ، والذى بذل أهم المساهمات . فوضع مخططاً حاول تنفيذه لآخره ، لنظام كامل يوفر التعليم العام لكافة أطفال فيرجينيا ، وكان صاحب الفضل الأكبر فى المواد المستنيرة الخاصة بالتعليم العام فى قانونى الأراضى الغربية ، واضطلع بإصلاح شامل لكلية وليم آند مارى العتيقة ، وأنشأ مكتبة الكونجرس وأمدها بقسط كبير من الكتب ، ووضع مخطط جامعة فيرجينيا وشيدها ، فكانت فى زمنها أكثر المنشآت التى من نوعها فى البلاد تقدماً .

ومع أن العمل على توفير التعليم العام كان أفضل ــ إلى حد ما ــ من أى عمل من نوعه فى أوربا الغربية فى ذلك الوقت ، فإنه ظل غير كاف ــ بالمعايير الحديثة ــ إلى درجة تدعو للأسى . ففى ولايات نيو إنجلاند كان التهرب من المستلزمات القانونية للتعليم الأولى على نطاق واسع ، كما أن ولايات كثيرة أخرى لم تحفل بالمستلزمات . ومع ذلك فإن الأمية كانت أقل بكثير مما فى بريطانيا أو فى أوربا ، فكان بوسع معظم الرجال قراءة الصحف اليومية المحلية ، والتقويم السنوى ، والتوراة . ولم يكن التعليم العالى بالرقى الذى كان موجوداً فى اسكتلندا أو ألمانيا أو إيطاليا فى ذلك الحين ، ولكنه كان أيسر منالاً ، ولأعداد أكبر نسبياً مما فى تلك البلاد . وإذا كانت بعض الكليات ــ مثل وليم آند مارى ، وبرينستون ، وهارفارد ــ قد بدت أقرب إلى الأكاديميات منها إلى الجامعات الحقيقية ، فلنستحضر فى أذهاننا أنها خرّجت رجالاً مثل جيفرسون ، وماديسون ، وجون آدمز .

وبالرغم من هذا الاهتمام البالغ بالتعليم العام ، فإن المجتمعات ــ على نطاق الولاية وعلى النطاق المحلى ــ أهملته بدرجة شنيعة فى الجيل الأول من عمر الجمهورية . فلم تتجه الأمور إلى التحسن إلا فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر فى الواقع ، وتلقى التعليم العام دفعة قوية من الخارج . . من رجال التعليم السويسريين والألمان الذين

كانوا يقومون بثورة فى التعليم فى بلادهم ، ومن المصلحين الذين كانوا يرون أن الجهل عقبة كؤود فى طريق برنامجهم للتنمية الخلقية والاجتماعية . ومن الممكن القول بأن هوريس مان ، من مساشوستس ، كان أشدهم أثراً ، وإن لم يكن الأول فى هذا الميدان . فعندما عين مفوضاً للتعليم للولاية فى سنة ١٨٣٧ ، دعم القوانين القائمة ، وحسّن التسهيلات المادية والمستويات الذهنية فى المدارس ، وأوجد أول برنامج لإعداد المدرسين ، وبسط فى اثنى عشر تقريراً سنوياً مشهورة تفصيلات فلسفة لمكانة ووظيفة التعليم العام فى دولة ديمقراطية ذات نفوذ محسوس فى كثير من أرجاء الكرة الأرضية . ولم يكن ما قام به هنرى بارنارد ، من كونكتيكت ، يقل عن هذا أهمية بدرجة تذكر . فقد فعل من أجل ولايته وولاية رود آيلاند ما فعله مان من أجل مساشوستس ، وعرّف رجال التعليم الأمريكيين بالتطورات التعليمية فى الخارج ، على صفحات مجلته ، وأصبح فى سنة ١٨٦٧ أول مفوض (مدير) للتعليم للولايات المتحدة . وفى هذه الأثناء ، سعى ثاديوس ستيفنز فى بنسلفانيا ــ وكان حديث الوفود عليها من فيرمونت ــ إلى صدور قانون يطالب بمعونة من الأموال العامة للمدارس . ولقد أقامت ولاية نيويورك أول مدارس ثانوية عامة ، وأيدت النصوص الخاصة بالتعليم فى قانون الشمال الغربى ، فازدهر التعليم العام فى كافة أرجاء الشمال الغربى القديم .

ولم يشعر التعليم الأمريكى بأثر الآراء الجديدة الوافدة من الخارج لأول مرة ، إلا فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر . وهى الآراء القائلة بأن التعليم عملية إيجابية وليست سلبية ، فالصغير يكون بالمشاهدة والعمل أفضل تعلماً منه بترديد الدروس من الكتاب ، والمدرس مرشد وصديق وليس آمراً ومهيمناً ، وأن للطفل حياة خاصة به ولا يتقدم وينمو إلا على قدر طاقته الخاصة ، وأن للعب والرياضة ما لحفظ الكتب من أهمية بالنسبة للطفل ــ وكان جان جاك روسو هو أول من نادى بهذه الآراء ، ولكن تطبيقها جاء على يدى بيستالوزى فى سويسرا ، وفروبل فى ألمانيا . وكانت آراء صادفت بطبيعة الأمر هوى من شعب ديمقراطى ، شعب كان قد اكتسب فعلاً عادة رفع الشباب إلى مستوى مثالى . فسرعان ما شرع برونسون آلكوت فى تجربة بعض هذه الآراء فى مدرسته تيمبل سكول فى بوسطن ، وسرعان ما أقامت مسز كارل شورتز وإليزابيث بيبودى رياض الأطفال فى أمريكا ، وقدر لفروبل أن يقول إن رياض الأطفال التى نادى بها لم تحقق أغراضها الحقة إلا فى أمريكا .

وكان التقدم فى التعليم العالى كمياً إلى حد كبير . فلم تحن نهاية القرن ، حتى كانت الكليات التسع ، التى ازدهرت فى عهد الاستعمار ، قد ازدادت إلى أكثر من عشرين ، وبدا أنها أخذت تزداد بعد ذلك بمتوالية هندسية . وكانت معظم الكليات صغيرة وفقيرة ، ذات موارد غير كافية ، ومكتبات هزيلة ، وأساتذة يحظون بالإعجاب لتفانيهم أكثر منهم لكفاءتهم . بيد أن هذه الكليات فعلت ما لم تكن المعاهد الشبيهة بها فى أوربا على استعداد لفعله ــ كانت تقبل كل من يقرع أبوابها تقريباً ، وأولت التعليم الخلقى والمسئولية الوطنية عناية بارزة ، وعلمت طلبتها الموضوعات الصالحة لأن يستعملوها ، إلى جانب الموضوعات ذات القيمة الذهنية والثقافية .

ولقد امتاز التعليم العالى الأمريكى خلال النصف الأول من القرن بثلاث انطلاقات . إحداها : نمو جامعة الولاية ، التى كانت تشاهد فى أحسن مستوياتها فى الولايتين الغربيتين الجديدتين : أوهايو ومتشيجان . وكان ظهور التعليم العالى للبنات انطلاقة ثانية ، وقد جاهدت لأجله بحرارة مارى ليون ، وإيما ويلارد ، وكاثرين بيتشر ، اللائى نجحن فى إقامة أول كليات للإناث فى العالم الغربى . أما الانطلاقة الثالثة فهى تحرير التعليم العالى من مطلب القدرات الأربع التقليدى ، وإنشاء معاهد متعددة الأغراض لأداء المهام المتعددة التى كانت الحاجة تمس لأدائها فى هذه الدولة الديمقراطية الجديدة ــ وقد بلغ هذا التحرير أوجه فى قانون موريل الصادر فى سنة ١٨٦٢ ، والذى خصص أراضى عامة لمساعدة الجامعات الزراعية والهندسية فى كل ولاية .

الفصل ٩

الديمقراطية الجاكسونية تكتسح الميدان

مبدأ مونرو

أفسح جيمس ماديسون « الضئيل الجسم ، المجعد البشرة » منصب الرئاسة ، في سنة ١٨١٧ ، لجيمس مونرو الطويل ، النحيل ، القسيم ، الذى كان مثالاً لهذا الاجتماع غير النادر ، بين إنسان عادى (خلو من الميزات الفذة) وحياة عملية عامة ذات امتياز رفيع . إذ كان قد تقلد منصباً بعد آخر ــ عضواً بمجلس الشيوخ ، فحاكماً ، فوزيراً لدى فرنسا وانجلترا ، فوزيراً للخارجية ــ إلى أن أصبح رئيساً للجمهورية . ومع أن عهده كان ذا أثر سيىء أكثر منه طيباً ، فإن الحزبين السياسيين كانا فى حال من الخمول المؤقت ، فحظى مونرو فى سنة ١٨٢١ ، بامتياز إعادة انتخابه للرئاسة بأصوات جميع الناخبين عدا صوت واحد ، أدلى به ناخب فى نيوهامبشاير كان يبتغى ألا يحظى بشرف الإجماع أحد سوى واشنطن . ومع ذلك فإن مونرو ، الذى كان يفتقر إلى قوة الجاذبية ، لم يكن ذا شعبية كبيرة فى يوم من الأيام ، كما كانت زوجته ــ

وكانت امرأة مليحة ، جافة ، متحفظة ـ أقل نصيباً من حب الشعب من دوللى ماديسون . كانت الصفتان الفذتان لدى مونرو هما إدراك عام ماكر ، وإرادة قوية . كان ـ كما وصفه جون كوينسى آدمز ذا « عقل سليم فى أحكامه النهائية ، وحزم فى استنتاجاته النهائية » .

وكان الحدث الذى صدر عن حكومته ومنحه خلود اسمه ، هو مناداته بما أطلق عليه مبدأ مونرو . وقد اقترنت فكرتان رئيسيتان فى هذا المبدأ ، الذى لم يكن فى الواقع سوى جزء من رسالة مونرو السنوية للكونجرس فى سنة ١٨٢٣ ، إحداهما فكرة اللااستعمار ، تأكداً بوجوب منع أوربا من إقامة أية مستعمرات جديدة فى نصف الكرة الأرضية الغربى . أما الأخرى فهى فكرة اللاتدخل ، إعلاناً بوجوب ألا تعود أوربا للتدخل فى شؤون دول العالم الجديد على نحو يهدد استقلالها . وقد نبعت هاتان الفكرتان من موقفين معينين بالذات .

وكان الداعى للفكرة الأولى ، فى المقام الأول ، ادعاء روسيا حق امتلاك الإقليم الجنوبى من ألاسكا ، الذى يمتد حتى خط العرض الواحد والخمسين . وهو ادعاء كان يتعارض مع تأكيد الأمريكيين والبريطانيين ملكية الشمال الغربى الممتد إلى ساحل المحيط الهادى . أما الفكرة الثانية فأثارها التهديد الصادر من الحلف الرجعى الرباعى فى أمريكا لشعوب أمريكا اللاتينية ، التى كان بوليفار وسان مارتان قد حرراها . وكانت الدول المتحالفة قد اتخذت خطوات لسحق الحركات الديمقراطية فى إسبانيا وإيطاليا . وفى مؤتمر عقدته فى فيرونا سنة ١٨٢٢ ، بحثت إرسال قوات عبر المحيط إلى أمريكا الجنوبية ، لقسر بعض من الجمهوريات الجديدة الضعيفة على الأقل على العودة إلى الولاء لإسبانيا . وكانت فرنسا ستضطلع بالدور القيادى فى حملة كهذه ، وقد تظفر بأراض لنفسها .

وعند سماع هذه الأنباء ، جزع وزير الخارجية البريطانى الذكى جورج كانينج أيما جزع ، فاقترح أن تتخذ بريطانيا العظمى والولايات المتحدة خطوات متناسقة للتصدى لمثل هذا التدخل . وبدا على الحكومة الأمريكية ، لفترة ، أنها ميالة للقبول . وأشار جيفرسون وماديسون على مونرو بتحبيذ العمل المشترك . ولكن جون كوينسى آدمز ، كوزير للخارجية ، أصر عن صواب بوجوب أن تتصرف الولايات بمفردها ، وانتهى مونرو إلى أن مال لرأيه . فأعلن فى رسالته إلى الكونجرس : أولاً ، أن القارتين

الأمريكيتين « يجب ألا تعتبرا منذ الآن عرضة لاستعمار من أى من الدول الأوربية الكبرى فى المستقبل » ، وثانياً ، أن أى تصد أوربى « بغرض الجور على دول أمريكا اللاتينية ، أو السيطرة على مصيرها بأى شكل آخر » سيؤخذ على أنه دليل على مجافاة الصداقة إزاء الولايات المتحدة . وبهذا أقيم أحد المعالم الكبرى فى سياستنا الخارجية ، وقدر له أن يبقى لأكثر من قرن .

اتفاق الميسورى

بالرغم من أن الرق لم يكن حتى ذلك الحين قد حظى باهتمام عام يذكر ، فإنه كان قد نما بسرعة حتى أصبح مشكلة ذات نفوذ عظيم . وفى سنة ١٨١٩ ، وبمباغتة مذهلة ، انفجرت المشكلة على الانتباه العام « كجرس ينذر بحريق فى جوف الليل » ، كما كتب جيفرسون . إذ أن كثيراً من الزعماء افترض أن الرق لن يلبث أن يذوى فى كل مكان ، عندما كانت الولايات الشمالية تضع التشريعات لتحرير العبيد فوراً أو تدريجياً . ولقد كتب واشنطن إلى لافاييت فى سنة ١٧٨٦ ، أنه كان يرجو صادقاً إمكان اتخاذ خطة ما « يتسنى بها إلغاء الرق بدرجات بطيئة ، أكيدة ، غير ملحوظة » ، وقد اعتق عبيده فى وصيته . وكان جيفرسون يرى أن الرق يجب أن يمحى بعملية تجمع بين التحرير والإبعاد عن البلاد . وكان يقول : « إننى أرتجف فرقاً من أجل بلادى ، عندما أفكر فى أن الله عادل » . وصرح باتريك هنرى ، وماديسون ، ومونرو ، وكثيرون غيرهم بمثل هذا . وكان العديدون من الجنوبيين يرون ــ حتى سنة ١٨٠٨ ، عندما ألغيت تجارة الرقيق ــ أن الرق لن يكون سوى شر مؤقت .

بيد أن الجنوب تحول ، أثناء الجيل التالى ، إلى قطاع كان فى الغالب متحداً اتحاداً قوياً وراء الرق . فكيف تسنى هذا ؟ لماذا اختفت تقريباً روح إلغاء الرق فى الجنوب ؟ من الأسباب أن المبادىء التحررية الفلسفية التى ذكت واستقرت فى أيام الثورة ، أخذت تضعف تدريجياً . ومن الأسباب أن روح عداء عام بين نيو إنجلاند البيوريتانية والجنوب المتشبث بالرق ، أصبحت واضحة ، وقد اختلفا بصدد حرب سنة ١٨١٢ ، والرسوم الجمركية ، ومسائل كبرى أخرى ، وأخذت استساغة الجنوب لما أطلق عليه « مبدأ

التحرير لدى الشماليين » تقل باطراد . بيد أن فوق الأسباب جميعاً ، أن عوامل اقتصادية جديدة جعلت الرق أكثر ربحاً ونفعاً مما كان قبل سنة ١٧٩٠ ، فما كان يعتبر أصلاً « شراً لابد منه » أصبح ضرورياً حتى إنه لم يعد شراً .

وهناك عنصر معروف من عناصر التغير الاقتصادى . . ذلك هو قيام صناعة كبرى فى الجنوب ، هى إنتاج القطن . وقد استندت فيما استندت إليه على إدخال أنواع محسنة من القطن ، ذات شعيرات (تيلة) أفضل ، ولكنها استندت بقسط أكبر على اختراع إيلى هويتنى الذى أحدث ضجة فى ذلك العهد ــ اختراع الحلج لتنظيف القطن فى سنة ١٧٩٣ . وسرعان ما زحفت زراعة القطن من كارولينا الشمالية والجنوبية وجورجيا نحو الغرب ، منتشرة فى قسم كبير من الجنوب الأدنى ممتدة إلى نهر المسيسيبى ، وما لبثت أن امتدت إلى تكساس . وكانت زراعة قصب السكر عاملاً آخر أقام الرق على قاعدة جديدة . فإن أراضى الدلتا الخصبة ، الدافئة ، فى الجنوب الشرقى من لويزيانا ، مثالية لقصب السكر . وفى ١٧٩٤ - ١٧٩٥ أثبت رجل أعمال كريولى من نيو أورليانز ، يدعى إيتيين بوريه أن من الممكن أن يدر المحصول ربحاً كبيراً . فأقام آلة وآنية كبيرة ، وما لبثت الجموع التى جاءت من نيو أورليانز لتشاهد العصير المغلى وهو يبرد ، أن انفجرت هاتفة عندما تبدت أولى بلورات السكر فى السائل . وإذا الصيحة « أنه يتحول إلى حبيبات متبلورة » تفتح للويزيانا عهداً جديداً . فقد نجم عن ذلك رواج عظيم ، فلم تحن سنة ١٨٣٠ حتى كانت الولاية تقدم حوالى نصف حاجة الأمة من السكر . وقد تطلب هذا عبيداً ، فاستجلبوا بالآلاف من الساحل الشرقى .

وأخيراً ، انتشرت زراعة التبغ هو الآخر نحو الغرب ، وأخذت الرق معها . كان الإنتاج المتواصل قد أنهك تربة المنطقة المنخفضة من فيرجينيا ، وقد كانت من أعظم مناطق التبغ فى العالم ، فلم يجد المنتجون مانعاً من الانتقال إلى كنتكى وتنيسى ، مصطحبين زنوجهم . وترتب على هذا أن العبيد الذين كانوا يتكاثرون بسرعة فى أعالى الجنوب ، تضاءلوا إلى حد كبير ، إذ انتقلوا إلى أدنى الجنوب وإلى الغرب . ولقد ارتاح كثيرون من المراقبين إلى هذا الانتشار للرق ، لأنه خفض خطر قيام عصيان من الرقيق مثل عصيان نات تيرنر ، وهو تمرد قام به ستون أو سبعون من عبيد فيرجينيا فى سنة ١٨٣١ ، وقدر له أن يكون ذا أثر كبير فى زيادة تخوف الجنوبيين من مبادىء التحرير .

ومع امتداد مجتمع الشمال الحر ومجتمع العبيد الجنوبي نحو الغرب ، بدا من المستحب إقامة نوع من المساواة بينهما . فعندما ضُمت إلّلينوى إلى الاتحاد فى سنة ١٨١٨ ، كانت ثمة عشر ولايات ، تبيح الرق وإحدى عشرة ولاية حرة . وفى سنة ١٨١٩ ، طلبت ألاباما وميسورى الانضمام للاتحاد . وكان لزاماً على ألاباما أن تبيح الرق ، بحكم شروط نزول جورجيا عن الأرض التى كانت لها ، ومن ثم فإن ضمها كان كفيلاً بتحقيق التوازن بين الولايات المبيحة للرق وتلك المحبذة للحرية . بيد أن كثيرين من الشماليين بادروا إلى التكتل لمعارضة انضمام ميسورى إلا كولاية حرة . وقدم النائب تالميدج النيويوركى تعديلاً لمشروع قانون الضم ، مطالباً ميسورى بأن تأخذ تدريجياً بعتق العبيد . واجتاحت البلاد عاصفة هوجاء . وبدا ، لفترة ، أن الكونجرس فى مأزق لا منفذ منه ، إذ كان أبناء الولايات الحرة يسيطرون على مجلس النواب ودعاة الرق يسيطرون على مجلس الشيوخ . بل لقد خشى الناس أن تراق الدماء .

ثم تسنى تدبير حل وسط ، بزعامة هنرى كلاى المحب للسلام . فكان لميسورى أن تنضم كولاية تبيح الرق ، ولكن مين تنفصل ، فى الوقت ذاته ، عن مساشوستس ، وتضم كولاية حرة . وأصدر الكونجرس قانوناً بإقصاء الرق إلى الأبد عن الإقليم الذى تسنى اكتسابه بمقتضى صفقة شراء لويزيانا ، شمالى خط عرض ٣٠َ ٣٦° ، وهو الحد الجنوبى لولاية ميسورى . وعاد الصحو إلى السماء مرة أخرى ، ولكن كل مراقب بعيد النظر ، كان يدرك أن العاصفة لابد أن تعود . وقد كتب جيفرسون أن هذا الحادث الذى كان شبيهاً بجرس الحريق فى بهيم الليل ، بدا له نذيراً بنهاية الاتحاد . واستطرد قائلاً : « ولقد أخرس إلى حين فى الواقع . غير أنه ليس الحكم النهائى ، وإنما هو تأجيل لتنفيذ الإعدام . فإن حلاً جغرافياً ، متمشياً مع مبدأ خلقى وسياسى مبرز ، لن ينمحى قط ، مادام قد تجلى مرة واتخذ لتهدئة مشاعر البشر الغاضبة ، بل إن كل توتر جديد سيزيده عمقاً ورسوخاً » .

وكان من الممكن لسحابتين لا تزيدان عن قبضة الإنسان أن تعلنا للجنوب العاصفة التى كانت تتحفز . ففى سنة ١٨٢١ ، أنشأ شاب من الكويكر يدعى بنجامين لندى صحيفة فى أوهايو معارضة للرق ، تدعى « داعية العتق العالمى » . وفى سنة ١٨٢٣ ، أقام المصلح الانجليزى ويلبرفورس جمعية لمناهضة الرق انضم إليها زاكارى ماكولى وغيره من ذوى المكانة .

ظهور جاكسون

طلع عام ١٨٢٤ وأمام البلاد خمسة من المرشحين المهمين لرئاسة الجمهورية . وكان جون كوينسى آدمز ، وكلاى ، وكالهون ــ من بين الخمسة ــ ذوى مقدرة وشيكة النضوب ، وكان دبليو . إتش . كروفورد ، من جورجيا ، من أدهى السياسيين . ولكن ما من مراء فى أن أكثر المتطلعين للمنصب شعبية ، كان أندرو جاكسون الخامس . كان المعجبون من أهل الغرب ببطل نيو أورليانز يعتبرونه أعظم عسكرى على قيد الحياة . وكان البعض يرون أن قيصر ونابليون ومارلبورو نكرات إذا قورنوا به . وكان كثيرون من المحافظين فى الشرق لا يطمئنون إليه ، ويستعيدون إلى الأذهان مع جيفرسون أن الغضب كان يستبد به فى مناقشات الكونجرس حتى ليختنق حلقه ولا يستطيع الكلام ، ويتذكرون كيف غزا فلوريدا الإسبانية فى تهور ، وهو قائد حربى ، وكيف شنق رجلين اسكتلنديين هناك جوراً واستبداداً . ولقد رأى آدمز أنه صالح لأن يكون نائباً مثالياً لرئيس الجمهورية . فالمنصب يليق بكرامته ، وخليق بسمعته أن تسترد رواءها ، ولن يكون ثمة خطر ما من أن يشنق أحداً .

بيد أن الانتخابات أسفرت عن سبق كبير لجاكسون فى الفوز بأصوات الناخبين ، ولكن أحداً لم يظفر بأغلبية فى المجمع الانتخابى ، وانتقل الاختيار إلى مجلس النواب ، الـذى انتهى إلى اختيار العالم ، المجرب ، المحنك للحكم آدمز ، وإن كان عنيداً ، لا ينساق لأحد .

وأقبل آدمز على المنصب ، يسانده إنجازان قوميان عظيمان : إذ كان مبدأ مونرو ــ فى أصله ــ من نتاجه ، كما أنه هو الذى دفع الحكومة الإسبانية ، فى سنة ١٨١٩ ، إلى معـاهـدة نزلت فيهـا عن فلوريدا للولايات المتحدة . كان رجلاً ذا مواهب خارقة ، وشخصية رفيعـة ، وروح عامـة عظيمـة ، ولكن صرامتـه القـاسية ، وحدة طباعه ، وتحاملاته العنيفة ، كانت تعترض طريقه . ولم يستطع كرئيس أن يحقق الكثير ، إذ أن العداوة الحاقدة من أنصار جاكسون ــ الذين اتهموه بأنه وصل إلى البيت الأبيض بصفقة غير نظيفـة ، أخذ بها أصوات ناخبى كلاى فى مقابل تعيين كلاى وزيراً للخارجية ــ عرقلت كل حركـة له . ونـادراً ما بلغ الحقـد الحـزبى درجـة تفـوق ما بلغه فى تلك السنـوات . ولقد تحدث جون راندولف ــ من روانوك ــ عن آدمز وكلاى بنقد لاذع ،

فشبههما بشخصيتين فى رواية فيلدينج المسماة « توم جونز » ، قائلاً : « إن ائتلاف بليفيل وجورج الأسود . . لهو الائتلاف الذى لم يسمع بمثله من قبل ، بين البيوريتانى والمقامر الغشاش » . ولقد استفزت مثل هذه الحملات آدمز لأن يكتب فى يومياته : « إن حيوانات ظربان السباب الحزبى ، يتسللون حول مجلس النواب لينفثوا سمومهم وينشروا رائحتهم الخبيثة فى جو الاتحاد » . وقد وصف راندولف بأنه « المتردد على حارة الجن ودرب البيرة » .

وخلال حكمه أخذت تكتلات جديدة فى التبلور ؛ إذ اتخذ أنصار آدمز وكلاى اسم الجمهوريين القوميين ، الذى استبدل به فيها بعد اسم الأحرار ؛ وإذ أضفى أنصار جاكسون على الحزب الديمقراطى طابعاً جديداً . ولقد حكم آدمز بأمانة وكفاءة ، وناضل ــ دون جدوى ــ لإقامة مجموعة تشريعات للتحسينات الداخلية . والفقرة التالية من يومياته خير وصف لدأبه الذى لم يهن أو يكل :

> إن الحياة التى أعيشها قد تكون أكثر انتظاماً منها فى أية فترة أخرى . فلقد استقر بحكم العرف أن ليس لرئيس الولايات المتحدة أن يخرج مع أى رفاق شخصيين ، وإنى لألتزم بهذه العادة ، ولهذا أضطر لأن أقوم برياضتى ، إذا قدر لى ، فى الصباح قبل الإفطار . فأنا أستيقظ عادة بين الخامسة والسادسة ، أى ــ فى هذا الوقت من العام ــ قبل شروق الشمس بما بين ساعة ونصف الساعة وساعتين . فأمشى على ضوء القمر أو النجوم ، أو بلا ضوء ، حوالى أربعة أميال ، وأرجع إلى هنا عادة فى وقت مناسب لأشهد شروق الشمس من الحجرة الشرقية بالبيت الأبيض . ثم أشعل مدفأتى ، وأقرأ ثلاثة إصحاحات من الإنجيل ، مع تعليقات سكوت وهيوليت . وأقرأ أوراقاً حتى التاسعة ، فأفطر . ومن التاسعة حتى الخامسة مساء أستقبل الزائرين المتتابعين ، دون ما انقطاع أحياناً ــ وفى النادر جداً أحظى براحة لنصف ساعة ــ وذلك بدرجة لا تمكننى قط من الاضطلاع بأى عمل يتطلب عناية . ومن الخامسة حتى السادسة والنصف نتناول العشاء ، وأقضى بعده حوالى أربع ساعات منفرداً فى حجرتى ، أكتب يومياتى هذه ، أو أقرأ أوراقاً حول بعض المسائل العامة .

كانت انتخابات سنة ١٨٢٨ أشبه بالزلزال ، إذ أن أنصار جاكسون اكتسحوا آدمز

ومؤيديه . وكانت ضغينة النفوس قد استفحلت ، حتى إن الرئيس المنتخب جاكسون ، رفض عند وصوله إلى واشنطن أن يقوم بزيارة التقدير المعتادة للرئيس ، فى حين أن آدمز أبى أن يرافق خليفته فى المركبة إلى الكابيتول .

ولقد اعتبر تنصيب جاكسون فاتحة لعهد جديد فى الحياة الأمريكية ، لفترة طويلة . كان احتفالاً لم تشهد البلاد مثله من قبل قط . ولقد شبهه المراقبون فى واشنطن بغزو الهمجيين لروما . وقد كتب دانييل ويبستر قبل ذلك بأيام عديدة أن المدينة امتلأت بمستغلى الفرص ، وطلاب المناصب ، والسياسيين المنتصرين ، والعامة البسطاء من أهل الغرب والجنوب . ومن الناس من قطعوا خمسمائة ميل ليروا بطلهم يُنصَّب رئيساً ، وكانوا يتحدثون وكأنما أنقذت البلاد من خطر رهيب . وكان الكثيرون منهم ، وهم ينسابون فى الطرق هاتفين « مرحى لجاكسون ! » شديدى الصخب ، حتى إن السادة المهذبين كانوا يجفلون منهم . ولقد ترك أحد المراقبين سجلاً مكتوباً جاء فيه :

فى صبيحة يوم التنصيب ، كانت المنطقة المحيطة بالكابيتول أشبه ببحر عظيم متلاطم ، فقد سد الناس كل طريق إلى البقعة الموعودة ، حتى إن الموكب الرسمى الذى رافق الرئيس المنتخب لم يكد يشق طريقه إلى البهو الشرقى حيث ، كان مقرراً أن يقام الحفل . ولدفع الناس من أمام الموكب ، مُدّ سلك سميك مما يستخدم فى السفن بعرض حوالى ثلثى طريق الدرج الطويل ، الذى يفضى إلى الكابيتول من هذه الناحية ، بيد أنه بدا فى بعض الأوقات كأن هذا لا يكاد يكفى لصد تلهف الجموع ، التى بدا أن كل امرىء فيها كان عاقد العزم على الظفر بمجد مصافحة يد الرئيس . ولن أنسى ما حييت المشهد الذى تمثل فى كل جانب ، ولا اللحظة المشحونة بالانفعال ، عندما وقعت العيون المترقبة فى هذا الحشد الهائل المتباين الألوان ، على القامة الطويلة ، المهيبة لذلك الزعيم الأثير بالإعجاب ، وهو يتقدم بين أعمدة البهو ، فإذا القبعات تُرفع جميعاً فى وقت واحد ، وإذا الظل القاتم الذى يسود عادة منظر خليط من البشر ، يتحول ، وكأنما بعصا ساحر ، إلى المنظر المشرق ، منظر عشرة آلاف من الوجوه المتألقة ، الطافحة بفرحة مفاجئة ، وهى تتطلع إلى أعلى . وإذا دوى الهتاف الذى انبعث يشق الهواء ، ويلوح كأنه يرج الأرض ذاتها .

ولكن أشد المشاهد تميزاً لذلك اليوم ، هو ذلك الذى أعقب الاحتفال . فإن السيل الزاخر من الديمقراطيين المتحمسين اندفع نحو البيت الأبيض . كان كل امرىء يعرف أن المشروبات المرطبة ستوزع هناك ، وكل امرىء يبتغى رؤية الرئيس الجديد فى مقره . وكانت البراميل المليئة بشراب البرتقال معدة ، ولكن الحشد أزاح السقاة بدلائهم وكؤوسهم ، واضطر جاكسون للالتصاق بالجدار ، لكى يعقد أصدقاؤه أذرعهم بعضها فى بعض حماية له . ووقف الناس بأحذية موحلة على الأثاث المكسو بالحرير . وكتب القاضى ستورى يقول : « ما رأيت قط خليطاً كهذا . وبدا أن عهد صاحبة الجلالة الدهماء قد انتصر » .

آراء جاكسون

كان جاكسون من رؤساء قلائل انصرفوا لعامة الشعب بكل الروح والقلب . فكان يعطف عليهم ، ويؤمن بهم ، ومن أسباب ذلك أنه كان واحداً منهم دائماً . فلقد وُلد فى فقر مدقع ، إذ كان أبوه بائع تيل فقير من اسكتلنديى ألصتر ، قدم إلى غابات كارولينا الشمالية ، فأجلى الأشجار عن أرض ليزرعها ، ومات قبل أن يولد آندرو ، فعجزت الأسرة حتى عن شراء شاهد حجرى لقبره . وآوى أمه أحد الأصهار كقريبة فقيرة تتولى تدبير بيته . فنشأ الصبى فى فاقة وعدم اطمئنان ، يرتدى الثياب القطنية والصوفية الخشنة الرخيصة ، وإذ تعرض لمرض عصبى ، فمن المحتمل أنه كان يلقى إذلالاً مراراً وتكراراً . ولعل شعوراً بالنقص لازمه منذ الطفولة يفسر حدة طباعه ، وشدة حساسيته المرهفة ، وعطفه طيلة عمره على المستضعفين . ولقد قاتل فى الثورة ، وهو بعد صبى يافع ، مما جنى على حياة شقيقين له ، فغرس فى نفسه عدم اطمئنان إلى البريطانيين لازمه للنهاية .

كذلك تشبع جاكسون بعدم اطمئنان عارم نحو المنظمات الرأسمالية فى الولايات الشرقية ، يرجع إلى بيئته على الحدود الغربية ، وإلى تجارب شخصية تعسة . وبعد أن درس القانون ، ذهب إلى تنيسى حيث حاول أن يشق طريقه فى الحياة . فعمل فى شراء الأرض وبيعها ، وتاجر فى الخيل والعبيد ، وامتلك لفترة من الوقت متجراً لكل السلع .

وكان لزاماً على المحامى فى تلك المنطقة أن يكون تاجراً . إذ أنه كان يتقاضى أتعابه فى شكل فراء الدببة ، وشمع العسل ، والجلد ، والقطن ، والأرض . ولقد اشترى جاكسون فى سنة ١٧٨٩ سلعاً فى فيلادلفيا قيمتها ٧٠٠٠ دولار تقريباً ، وباع أرضاً ليسدد ثمنها إلى تاجر كانت صكوك ديونه (بكفالة جاكسون) قد قدمت للقضاء . وألقى هذا على عاتقه عبء دين ثقيل ، دفعه وفى نفسه شعور بأن النظام المالى فى الولايات الشرقية قد جنى عليه بطريقة ما . ولم يكن تصرفه مقامرة ، فكل ما هنالك أنه أخذ بعض الصكوك المتداولة بين تجار فيلادلفيا ، وعندما انقشع الضباب ، كان التجار قد استولوا على أرضه ونقوده .

وفضلاً عن هذا ، تعلم جاكسون ، بوصفه محامياً وصاحب مزارع وتاجراً على الحدود ، أن الولايات الشرقية كانت تمارس سيطرة مطلقة على شطر كبير من تجارة الغرب . فقد كان عليه أن ينقل قطنه وقمحه وخنازيره إلى مصب النهر ليبيعها فى نيو أورليانز ، وكان عليه أن يشترى السلع عامة لمتجره فى ناشفيل من فيلادلفيا . وفى كلتا المدينتين ، كانت الأسواق متذبذبة باستمرار . فقد يرسل طلباته إلى فيلادلفيا ، فيجد أن أسعار البضائع قد ارتفعت إلى مستوى باهظ . وقد يرسل إنتاجه إلى مصب المسيسيبى فيجد أن الأسعار هوت إلى الحضيض ، والرجال الذين على طرفى هذا الخط ويسيطرون على الائتمان يزدادون بدانة ، بينما يعانى جاكسون وجيرانه الضيق فى تدبير أمورهم . من هذه الحقيقة انبثق عدم اطمئنان وكراهية للمصارف ــ عين عدم الاطمئنان الذى اتسم به الغرب دائماً . كان جاكسون يعتقد أن سلطة المال تتقاضى عن خدماتها أكثر مما ينبغى . وكان من البشع أن تكون لأصحاب المصارف الميسورى العيش فى فيلادلفيا ونيويورك السلطة لإفلاس الكادحين فى تنيسى .

وثالث الأمور ، أن جاكسون أوتى الإيمان الغربى بأن الإنسان العادى قادر على القيام بما هو غير عادى . كان أهل الغرب يؤمنون بأن أى رجل قائم على ساقيه ، قادر على قيادة سرية من الحرس الوطنى (الميليشيا) ، وإدارة شؤون مزرعة ، وإلقاء خطاب سياسى مناسب ، أهل لأى منصب . فلم يؤمنوا لحظة بأن المراكز العليا فى الحياة وقف على الأغنياء ، وذوى المحتد ، والمتعلمين . بل إن لصائد الراكون [1] فيها حقاً يعادل

(١) حيوان سنجابى فى امريكا الشمالية ، يسكن الأشجار ، وله ذيل ملتف غزير الشعر ، ويصاد من أجل فرائه ــ المترجم .

ما لخريج هارفارد . وكان لهم بعض الحق فى هذا الرأى . فإن محارب الهنود جاكسون فى تنيسى ، الذى كانت زوجته تدخن غليوناً قصيراً ، وتخطىء فى هجاء كلمة أوربا ، تلقى تعليماً جعله قائداً قومياً عظيماً . كان فى يفاعه عامل تحويلة فى السكك الحديدية ، نحيلاً ، جاهلاً كل الجهل بآداب السلوك فى قاعة الجلوس ، وبتصريف الأفعال اللاتينية ، غير أنه كان مقدراً له أن ينقذ الاتحاد . ولقد رأى جاكسون أبناء غابات الحدود يضربون بالسياط جنوداً حاربوا مع ويلينجتون . ورأى رجالاً كونوا أنفسهم ، مثل بنتون وكلاى ، يسيطرون على الكونجرس القومى . وعرف ما للغرب من طاقة نشطة هائلة ، ومدى متانة شخصيته وطابعه .

ومن الممكن ، بوجه عام ، إجمال عقيدة جاكسون فى عبارات قليلة : إيمان بالإنسان العادى ، ويقين بالمساواة السياسية ، ويقين بالمساواة فى الفرصة الاقتصادية ، وكراهية للاحتكار وللامتيازات الخاصة وتعقيدات المالية الرأسمالية .

وكان من الممكن تمييز عنصرين رئيسيين فى الحزب الديمقراطى المتباين العناصر الذى كان يؤيد جاكسون . كان العنصر الأكبر بكثير من الآخر ، يتألف من الناخبين المرتبطين بالزراعة ، فى الأمة ، والرواد الأوائل ، والمزارعين ، وصغار الملاك الزراعيين ، وأصحاب الحوانيت فى الريف . ولقد امتاز الغرب الممتد وراء جبال ألليجنى بصفات خاصة . كان قومياً فى شعوره بدرجة كبيرة ، كانت المناطق الجديدة أقل ميلاً إلى الولاية ، وأكثر تعلقاً بالاتحاد من الولايات الثلاث عشرة الأصلية . يضاف إلى هذا ، أن المساواة السياسية كانت متخذة فى الغرب كقضية مسلمة ، فكان لكل ذكر بالغ من البيض حق التصويت وتولى المناصب . أما فى الشرق فقيود الحقوق الانتخابية كانت قائمة من أمد طويل ، وقد قوبلت حركة إلغاء القيود باستنكار واستبشاع من المحافظين أمثال ويبستر فى مساشوستس ، والمستشار جيمس كينت فى نيويورك ، وجون مارشال فى فيرجينيا . غير أن ألاباما وميسورى وإنديانا وإللينوى أباحت حق الانتخاب لكل رجل أبيض .

كذلك كان الغرب يرتاح إلى لون مباشر من الديمقراطية . وقد هاجم أتباع جاكسون الأسلوب القديم الذى كان يقضى بأن يتولى مؤتمر من أعضاء الكونجرس تعيين المرشحين للرئاسة ، وأيدوا الأسلوب الجديد ــ أسلوب اجتماعات سياسية مباشرة للترشيح ــ الذى استقر ورسخ فى سنة ١٨٣٦ . وكانوا يفضلون القضاة المنتخبين على

القضاة المعينين . ثم ، أخيراً ، كان الناخبون فى المناطق الزراعية من الغرب يعنون بمجموعة جديدة من المطالب السياسية . وكانوا يكرهون النظم المصرفية الخاضعة لسيطرة الشرق ، ويحابون المدين فى مواجهة الدائن ، ويمقتون أى شىء من قبيل الاحتكار ، من الباخرة والوثائق المصرفية حتى حقوق الامتياز .

أما العنصر المبرز الآخر فى الديمقراطية الجاكسونية فكان جماهير الكادحين فى المدن الشرقية صغيرها وكبيرها . كانت المصانع قد شرعت تزداد أهمية فى نيو إنجلاند وولايات الوسط ، وقد أذكى نشاطها الحصار البحرى ، وحرب سنة ١٨١٢ ، والتعريفة الجمركية لحماية المنتجات الأمريكية . فأصبح وادى ميريماك والمنطقة المحيطة ببروفيدانس مركزين مزدهرين لصناعة النسج ، وكان فى لويل بمساشوستس حوالى خمسة آلاف من عمال المصانع فى سنة ١٨٣٠ . وكان قسم كبير من سكان نيويورك المائتى ألف ، حوالى ذلك العام ، من العاملين فى المصانع وفى ورش إنشاء السفن . وقد وجد معظم المهاجرين ـــ من انجليز وأيرلنديين وألمان ـــ أن الحزب الديمقراطى أقرب من الأحرار إلى ميولهم ومشاعرهم . فإذا الطبقات العاملة الجديدة تحول نيويورك ـــ باندفاع قومى ـــ من مدينة مناصرة للحزب الاتحادى الفيدرالى إلى مناصرة للحزب الديمقراطى ، وجعلت من فيلادلفيا وبيتسبيرج مركزين للمشاعر المؤيدة لجاكسون . ولقد أنشأوا نقابات (كانت تدعى جمعيات حرفية فى بادىء الأمر) فى العهد الجاكسونى ، هاجمت بضراوة ، تحت قيادة زعماء مثل وليم ليجيت ذى الحماس النارى ، المحاكم الرجعية التى كانت تعاقب الإضرابات بموجب قانون التآمر القديم . ولقد امتدحت جاكسون بحرارة عندما قرر فى سنة ١٨٣٦ أن يكون يوم العمل فى مصانع السفن بالدولة عشر ساعات (فقد كانت مصانع مساشوستس إذ ذاك تشغل الرجال اثنتى عشرة أو أربع عشرة ساعة فى اليوم ، مقابل خمسة دولارات فى الأسبوع) .

إجراءات جاكسون

ما إن تولى جاكسون الحكم ، حتى وضع آراءه موضع التطبيق بهمة . فأقدم ـــ معارضة منه للطريقة التى كان الكونجرس يجيز بها اعتماد الأموال للطرق والقنوات المحلية ـــ على

كبح هذه الإغارات على الخزانة بشدة ، عن طريق نقض مايزفيل ، إذ رفض التصديق على طريق من مايزفيل إلى ليكسينجتون فى ولاية كنتكى . وعامل كارولينا الجنوبية بشدة حازمة عندما حاولت أن تلغى التعريفة الجمركية الحمائية الصادرة فى سنة ١٨٢٨ . ففى مأدبة للاحتفال بيوم جيفرسون فى سنة ١٨٣٠ ، ثبت نظراته على عينى زعيم كارولينا الجنوبية كالهون ، وهو يدعو لشرب نخب خالد : « نخب اتحادنا . . يجب أن يُصان » . ولما واصلت كارولينا الجنوبية مسلكها المتعمد ، أبدى فى سنة ١٨٣٢ أنه كان جاداً ، بإيفاد الجنرال سكوت مع قوة بحرية إلى تشارلستون ، وبإصدار بيان أعلن فيه أن « الانفصال بالقوة المسلحة خيانة عظمى » . وكان على استعداد لشنق كالهون إذا دعت الضرورة ، ولقد ندم فى سنوات لاحقة على أنه لم يفعل ذلك . وبخطاب ممتاز البلاغة ، أفحم دانييل ويبستر نصير كارولينا الجنوبية الرئيسى فى مجلس الشيوخ روبرت واى . هاين وأصبحت العبارة الختامية لخطابه : « الحرية والاتحاد ، الآن وإلى الأبد ، وحدة لا تتجزأ ! » صيحة قومية مأثورة . وشاء حسن الحظ أن تعجز كارولينا الجنوبية عن توحيد الجنوب ، فتخلت عن إلغاء التعريفة الجمركية عندما دبر كلاى ، الذى كان داعية للسلام دائماً ، حلاً وسطاً بتخفيض التعريفة .

وخاض جاكسون حرباً مستميتة وناجحة مع المصرف الثانى للولايات المتحدة ، فألغى مرسوم تفويضه مصرفاً للدولة ، هذه القلعة للسلطان الشرقى المالى والاحتكارى . وكان رئيسه نيكولاس بيدل الحاذق يلقى تأييداً من هنرى كلاى والأحرار . ومهما يكن ، فإن المصرف كان يسير بإدارة طيبة ، وقد أدى خدمات جليلة للأمة . بيد أن جاكسون ، لكراهيته لأى سلطات مالية متركزة ، اعترض على مشروع قانون لتجديد تفويضه فى سنة ١٨٣٢ . وفى العام التالى نقل الودائع الحكومية من المصرف ، وأودعها المصارف الكبرى فى الولايات ، ليتسنى لهذه المصارف أن تتولى وظائف المصرف المركزى . وما من شك فى أن المصرف كان قد تورط فى السياسة ، وما من نزاع كذلك فى أنه كان احتكاراً خاصاً در الثراء إلى فئة قليلة من أعضائه دون وجه حق . وكان الشعور العام مسانداً لجاكسون . ومع أنه كان لزاماً عليه أن يناضل بشدة ليحمل حزبه على مساندته ، فقد قضى على مصرف نيكولاس بيدل الكبير .

كذلك تصرف الرئيس بحسم صارم فى مسائل أخرى ، فعندما أوقفت فرنسا دفع بعض التزامات إلى الولايات المتحدة ، أوصى بالاستيلاء على الممتلكات الفرنسية

فاضطرها إلى السعى للصلح . ولقد أقصى الهنود عن جورجيا بخشونة قاسية ، ولم يعبأ بمحاولة من المحكمة العليا للتدخل فى صالح الأهالى الأصليين المستضعفين . على أنه كان من الحكمة بحيث اتخذ موقف الانتظار ، عندما ثارت تكساس Texas على المكسيك وتقدمت تطلب الانضمام إلى الولايات المتحدة . وقد ظل محتفظاً بشعبيته الهائلة حتى نهاية المدة الثانية لحكمه .

اتجاهات ديمقراطية أخرى

شملت موجة الديمقراطية الجديدة التى انسابت فى أيام جاكسون جماهير من السكان لم تكن ديمقراطية جيفرسون قد مستهم . فكانت الثلاثينات من القرن التاسع عشر هى العقد الذى انتشر فيه حق الانتخاب للرجال فى معظم الولايات التى كانت حتى ذلك الحين تفرض قيداً على هذا الحق من الملكية أو الثروة . وأدى حق الانتخاب لمن يبلغون مرحلة الرجولة إلى زيادة الاهتمام بالشؤون القومية . ففى سنة ١٨٢٤ لم يتجاوز مجموع الأصوات فى انتخابات الرئاسة ٣٥٦٠٠٠ ، وإذا به فى سنة ١٨٣٦ يرتفع إلى ١٥٠٠٠٠٠ ، وفى سنة ١٨٤٠ ، كانت الأصوات ٢٤٠٠٠٠٠ ــ أى سبعة أمثال ما كانت عليه قبل ستين عاماً فقط . ومع أن جزءاً من هذه الزيادة نجم عن نمو السكان ، فإن معظمها يمكن أن يعزى إلى تحرير حق الانتخاب من القيود ، وإلى الاهتمام المتزايد بالشؤون السياسية . ولقد توقف انتخاب الرئيس بمعرفة الهيئات التشريعية (إلا فى ولاية كارولينا الجنوبية) ، فأصبح ينتخب بالتصويت الشعبى . وأصبحت القاعدة فى الشؤون القومية هى ازدياد سرعة دورة المناصب ، فقد أعلن جاكسون إيمانه بهذا صراحة ، وأقصى كثيرين من خصومه السياسيين . ومع أن عدد من أقصاهم كان أقل مما فعل رؤساء لاحقون ، فإنه تقبل القاعدة التى عرفها وليم إل . مارسى النيويوركى بأن « الغنائم حق للمنتصرين » .

وأخذت تصرفات الناس وسلوكهم تزداد ديمقراطية ، وتقل مراعاة للعرف وتحفظاً . فبهت المراقبون الأجانب لانتشار عادة بصق التبغ بعد مضغه ، وسرعة التهام الطعام على المائدة ، والفضول الوقح ، وشيوع المشاجرات بالأيدى وتبادل الشتائم ، والعجلة

المنفعلة فى مدن الشمال . كذلك أخذت الثقافة الأمريكية تتسم بطابع الاستهتار والعنف . وأصبح العمل الذى فى اليد أهم من حياة الإنسان ، كما هو طبيعى فى بلاد سريعة التطور والنمو . ولم تكن البواخر والقطارات تكترث كثيراً بالسلامة والأمان . وأخذت المبارزة تزداد شيوعاً ، وكثرت فى الجنوب والغرب النزاعات العائلية التى تتسم بحرية استخدام التراشق بالمدى المعقوفة والمسدسات . ومن الطبيعى أن الشنق بمعرفة الأهالى دون محاكمة تغلغل فى المناطق التى كانت المحاكم ورجال القانون فيها غير أهل للركون إليهم . ولقد انتخب الأحرار فى سنة ١٨٤٠ هنرى هاريسون ، فكان على الحزب أن يدعى أن هذا الرجل المتعلم ، المتوسط الثراء ، الذى اعتاد العيش كسيد ريفى فى ألفى دونم يمتلكها فى سنسيناتى ، إنما كان من الرواد الخشنين ، الذين أقاموا فى الأكواخ الخشبية ، واعتادوا شرب السيدر الشديد المفعول . ومع هذا ، فإن المستوى المتوسط للعادات السلوكية لم يكن أدنى مما كان فى الأيام الأولى للجمهورية ، فى الواقع . كانت أسوأ مما كانت عليه أخلاق الطبقة الأرستقراطية إذ ذاك ، ولكنها كانت أفضل من أخلاق الجهلة والعاملين الشرسين . ولقد انمحت إلى حد كبير الثغرة القديمة التى كانت تفصل بدرجة واضحة بين المسلك الطيب للمهذبين من علية القوم ، والمسلك السيىء للغوغاء .

وأخذت الحياة تزداد ديمقراطية فى نواح كثيرة ، إذ بدأت تنهض صحافة رخيصة الثمن . فقد أصدر بنجامين داى فى سنة ١٨٣٣ ، صحيفة « صن » فى نيويورك بسعر فى متناول الجمهور ، مقلداً صحف لندن الزهيدة الثمن ، فى حين حقق جيمس جوردون بنيت نجاحاً أبرز أثراً بعد عامين ، إذ أنشأ صحيفة « هيرالد » النيويوركية المثيرة . كذلك ظهرت أول مجلة شعبية فى عهد جاكسون ، إذ أنشىء « كتاب جودى للمرأة » فى فيلادلفيا فى سنة ١٨٣٠ ، فى حين أن أول مجلة أدبية شهرية واسعة الانتشار ، وهى « نيكربوكر » ظهرت بعد ثلاث سنوات . أما فى التعليم ، فكانت ثمة معركة هائلة دائرة الرحى من أجل المدارس العامة المجانية ، غير الطائفية ، التى تخضع لسيطرة الدولة ، وينفق عليها من الضرائب ، وقد تزعم هذا الصراع هوريس مان من مساشوستس . والواقع أنها كانت حرباً أشد ضراوة مما قد تظن الأجيال التى تلتها ، فقد احتشد فى أحد الجانبين الديمقراطيون وأصحاب الفلسفة الإنسانية ، والعاملون المتنورون ، وأتباع مذهب كالفين الدينى ، وأتباع مذهب التوحيد ؛ وفى الجانب الآخر ، اجتمع ذوو الآراء الأرستقراطية ، والمحافظون الفقراء ، ومؤيدو مدارس

الأبـرشيات من اللوثـريين ، والكاثوليك ، والكويكر ، وكثيرون من أصحاب المزارع والمزارعين ، ومدرسو المدارس الخاصة . واضطرت الولايات واحدة بعد أخرى إلى تأييد الدعوة بعد صراع مرير . وأعلن أحد أهالى نيو إنجلاند استنكاره بقوله : « القراءة تتلف العقـل » ، وطلب أحـد الهنـود أن ينقش على شاهـد قبره « هنا يرقد عدو للمدارس المجـانية » . بيد أن القـوانين التى تبيح لأية مقاطعة أو مدينة فرض ضريبة من أجل المدارس العامة المجانية ، لحقت بها فى ولايات الوسط والغرب قوانين تلزم الوحدات المحلية بأن تفعل ذلك .

بل إن الدين اتخذ الصبغة الديمقراطية ، وهو يتبع الحدود فى اتجاه الغرب . فكانت الطوائف التى ازدهرت فى الغرب أكثر من سواها ، هى البابتيست (المعمدانيون) ، والميثوديست ، وأتباع كامبل ، والبريسبيتاريون ، وكانت كلها تحبذ الشكل الديمقراطى للحكومة ، وقد ازدادت تحبيذاً له . وكانت الطوائف الثلاث الأولى ، بوجه خاص ، تهتم بعنصرين دينيين مال إليهما أهل الحدود ، وهما : استهواء الانفعالات العاطفية ، بكثـير من الصياح ، والإنشاد ، والصلاة الحارة . . وفكرة الإقناع الشخصى ، التى أدت إلى اجتماعات دينية حماسية ، وإلى معسكرات لاجتماعات دينية صاخبة من النوع الـذى ورد فى قصة مارك توين « هكلبيرى فين » . كذلك أسفر الأدب عن اتجاهات ديمقـراطية ، إذ كان بريانت ، وفينمـور كوبر ، وواشنطن إرفينج جميعاً من المؤيدين المتحمسين لجاكسون . وقد رددت كتب كوبر عن المجتمع فى الولايات الشرقية ، وكتب إرفينـج عن الغـرب الأقصى ــ على السـواء ــ أفكاراً ديمقراطية . وكشفت المؤلفات الشعبية عن تأثير الحدود ، مثل « السيرة الذاتية » لديفيد كروكيت (سنة ١٨٣٤) ، و « مشاهد من جورجيا » لأوغسطس بى . لونجستريت (سنة ١٨٣٥) . وكان الجزء الأول من كتاب جورج بانكروفت « تاريخ الولايات المتحدة » بمثابة صوت فى صالح جاكسون لا مراء فيه .

عصر الإصلاح

كتب إيمـرسون فى سنة ١٨٤١ : « لم يكن لنظرية الإصلاح يوماً فى تاريخ العالم ما لها فى

وقتنا الحاضر من مجال » . فإن كافة المصلحين السابقين كانوا يوقرون بعض النظم والمؤسسات . . الكنيسة أو الدولة ، أو التاريخ ، أو التراث . « بيد أن هذه جميعاً ، وكافة الأمور الأخرى ـــ المسيحية والقوانين والتجارة والمدارس والمزرعة والمعمل ـــ تسمع الآن الصور (نفير البعث) ، فلتهرع إلى الحساب ـــ وما من مملكة أو مدينة أو تشريع أو شعيرة أو دعوة أو رجل أو امرأة إلا تهدده الروح الجديدة » ؛ كان زمن تذمر لا نهاية له ، وأمل لا حدود له . ومرة أخرى ، يقول إيمرسون : « تفجر فى أبعد الأوساط عن التوقع نقد قلق ، متهجم ، واع ـــ ألست شخصاً يحظى بحماية بالغة ؟ أليس ثمة فارق كبير بين حظى وحظك يا أخى الفقير ، ويا أختى البائسة ؟ » كان من المحتمل أن يخرج كل امرىء تلقاه فى طرق بوسطن ـــ إذ اتخذت حركة الإصلاح عاصمتها هناك ـــ التماساً من جيبه أو احتجاجاً ، أو دعوة إلى اجتماع سياسى ، أو خطة لدولة مثالية . إذ أن « علينا أن نعيد النظر فى كل بنياننا الاجتماعى : الولاية والمدرسة والدين والزواج والتجارة والعلم ؛ وأن نستكشف أصول طبيعتنا الخاصة » . وهذا بالذات ما فعله المصلحون .

كانت حركة الإصلاح فى هذه الفترة الوسطى ، نتاجاً ـــ إلى درجة مذهلة ـــ لفلسفة . . فلسفة التجاوز أو الاستعلاء . كانت هذه الفلسفة ـــ التى أسهم فيها كل دعاة الإصلاح تقريباً ، بدرجات متفاوتة من الالتزام ـــ قد وفدت أصلاً من ألمانيا ، عن طريق كولريدج فى انجلترا ، بيد أنها تعرضت فى أمريكا لتغير هائل . كانت ترى أن البشر يجب أن يعترفوا بمجموعة من الحقائق الخلقية ، وأن هذه الحقائق فطرية وموضوعية وذات كيان قائم ، وبهذا تجاوزوا أو استعلوا فوق البرهان الحسى . ومن ثم ، فمن المنطقى أنها كانت تنبذ كل سلطان دنيوى ـــ سلطان الكنيسة أو الكتب المقدسة ، سلطان الولاية ، أو القانون ، أو العرف ـــ إلا إذا كان بوسعه أن يتطابق مع تلك الحقائق التى غرسها الرب فى عقل الإنسان وقلبه . وكانت أهم هذه الحقائق الفطرية ، كما عبر عنها الواعظ الأمريكى العظيم ثيودور باركر ـــ هى : ما للرب من كرم لا نهاية له ، وما للطبيعة من خير لا نهاية له ، وربوبية الإنسان .

وبالتالى ، إذا كانت هذه المفاهيم حقيقية ـــ ومن الذى كان يملك أن يتحداها مادامت فطرية ؟ ـــ فقد كان يترتب عليها أن أى زيغ عنها مخالفة للرب وللطبيعة . وإذا كان الإنسان ربانياً ، فمن الشر أن يقضى عليه بالاسترقاق ، أو أن تفسد الخرافات نفسه ، أو يخيم الجهل على عقله . إذن ، فلنرد البشر إلى تلك الربوبية التى خلعها الله

عليهم . لنمنح العبد حرية ، والفقير والتعس رفاهية ، والجاهل علماً ، والمريض صحة . . لنمنح المجتمع سلاماً وعدلاً . وقد عبر إيمرسون عن هذا بقوله : « إن الطاقة التى هى مبعث ومنظم ـ فى آن واحد ـ لكل جهود الإصلاح ، هى الاقتناع بأن للإنسان قيمة لا نهاية لها ، تظهر عند دعوة أهل الجدارة ، وإن كافة الإصلاحات العملية إنما تتمثل فى إزالة بعض العقبات » .

وهذا ما آلى دعاة الإصلاح على أنفسهم أن يفعلوه ، بنشاط عارم ، وانصراف صادق ، وعاطفة ـ تكاد تكون تطرفاً تهوسياً ـ لم يكن لها مثيل فى تاريخنا ، فعكفوا على إزالة العقبات . كانت الخرافات عقبة ، وقد حاولوا ـ بقيادة رجل دين مثل إيمرسون ، وثيودور باركر ، ووليم إيلرى تشانينج ، وجورج ريبلى ـ أن يخلصوا الكنيسة من التعصب والطقوس ، وأن يرجعوا إلى المبادىء الخلقية العظيمة التى توجد فى قلوب البشر . وكان الجهل عقبة ، وقد أخذ هوريس مان وهنرى بارنارد على عاتقيهما خلق شبكة من المدارس العامة الحقيقية ، بينما وجهت مارى ليون وكاترين بيتشر همهما إلى مشكلة تعليم البنات . وكان الفقر عقبة ، فضم المثقفون جهودهم إلى جهود العمال لتحسين حال « الطبقات الخطيرة والسائرة إلى الهلاك فى المجتمع » ، والعاملين والعاملات فى المصانع ، ولحماية النساء والأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة من اندفاعة الثورة الصناعية . وكانت الملكية عقبة ، وقد نبذ عشرون مشروعاً للدولة المثالية الملكية الخاصة تماماً ، فى حين ركز مصلحون آخرون جهودهم على الحل الأنسب للمعقول ، وهو توزيع الأرض على نطاق أوسع . وكان استضعاف المرأة عقبة ، فتكاتف حوالى اثنى عشر من المصلحين ـ بينهم ثيودور باركر ، ووندل فيليبس ، وتوماس وينتويرث هيدجينسن ـ مع الجسورات من النساء على القيام بحملة من أجل حقوق المرأة ، فى المحاكم ، وفى السياسة ، وفى الأعمال ، وفى المدارس . وكان عدم إنسانية الإنسان للإنسان القائم على عدم التدبر ، عقبة . فقادت دوروثيا ديكس حملة من أجل المصابين بالجنون ، وعمل الشيفالييه هاو على إنشاء معهد بيركينز للعميان ، وأقام توماس جالوديت مدرسة للصم . ودعا إدوارد ليفنجستون إلى إصلاح قانون العقوبات . وصور تشارلز لورينج بريس مأساة الأطفال المشردين فى طرق المدن الكبرى ، كما حارب نيل دو الخمر . وكانت الحرب عقبة ، فوضع رجال من أمثال إليهو بوريت ووليم لاد مشروعات لسلام عالمى ، فى حين نادى وليم لويد جاريسون بمبدأ عدم المقاومة ، ونادى

تشارلز سومنر بأنه ما من حرب مشرفة ، وما من سلام غير مشرف . وكانت الدولة عقبة ، وبينما حاول البعض أن يعتزلوا فى عوالم مثالية خاصة ، سعى بعض آخر إلى الحد من سلطان الدولة بقانون أعلى ، أو بالدعوة لمبدأ العصيان المدنى ، كما فعل ثورو . وكان الرق هو أعظم العقبات جميعاً ، فإذا الحرب ضد الرق تستوعب فى النهاية كافة قوات الحركات الإصلاحية تقريباً .

ولقد تساءل إيمرسون ، فى بداية عهد الإصلاح : « لماذا وُلد الإنسان ، إلا ليكون مصلحاً ، منقحاً ما صنعه الإنسان من قبل ، نابذاً للأكاذيب ، معيداً الصدق والخير من جديد ؟ » . وعندما أشرف هذا العهد على ختامه ، مع قيام الحرب الأهلية ، وخلفته الفلسفة المادية ، تطلع المحرر والمصلح العظيم هوريس جريلى خلفه ليتأمله ، وانتهى إلى القول بأنه « بالرغم من أن حياة المصلح قد تبدو شاقة ومضنية ، فإن من العسير القول بأن حياة أخرى تستحق أن يعيشها الإنسان ، على الإطلاق . . وما لم تكن مصلحاً ، فأنت لم تعش حياة حقة » .

الفصل ١٠

الغرب والديمقراطية

الحدود الزاحفة

كانت الحدود من القوى التى كان لها أكبر الأثر فى تشكيل الحياة الأمريكية من البداية . ومن الممكن تعريفها بأنها منطقة الحدود التى كان سكانها القليلو الكثافة (لا يزيدون عن ستة فى الميل المربع) قد انهمكوا إلى حد كبير فى استخلاص الأراضى من الغابات ، وتمهيدها ، وبناء المنازل . ولقد كان للتنقل بعرض القارة ، إذ أخذ السكان يزحفون من المحيط الأطلنطى إلى حافة السهول الكبرى ، أثر شامل على الشخصية الأمريكية . فقد كان أكثر من اتجاه عام ــ كان عملية تطور اجتماعية . فقد شجع روح المبادرة لدى الفرد ، وهيأ للديمقراطية السياسية والاقتصادية ، وأضفى على الطباع السلوكية خشونة ، وكسر شوكة الروح المحافظة ، وربى وغذى روحاً من الاعتداد الذاتى المحلى المقترن باحترام للسلطان القومى .

وعندما نفكر فى الحدود ، يتجه فكرنا إلى الغرب ، بيد أن الشريط الساحلى المطل على المحيط الأطلنطى كان أول حدود ، وقد ظل طويلاً يشتمل على مناطق حدود .

فكانت مين ، التى اجتذبت أربعين ألف مستوطن من نيو إنجلاند القديمة بين عامى ١٧٩٠ و١٨٠٠ ، إقليم حدود لمدة جيل بعد الثورة . وكانت منطقة الحدود الثانية هى الإقليم المحيط بمنابع وأعالى الأنهار الساحلية وما وراء جبال أبلاش مباشرة . ولقد أتى ختام الثورة والحدود فى القسم الغربى من نيويورك ــ حيث حصل اثنان من أصحاب الأموال ، فى سنة ١٧٨٧ ، على حق تملك ستة ملايين دونم [1] من الأراضى الغفل (غير المعمورة) ــ وفى وادى وايومينج فى بنسلفانيا ، حيث أنشأ مستوطنو كونكتيكت منازل لهم ، وحول بيتسبرج التى كانت تضم ١٣٠ أسرة ، و٣٦ ميكانيكياً فى سنة ١٧٩٢ ، وفى القطاع الشرقى من تنيسى ، حيث أقام الرواد ذوو العقلية المستقلة ولاية فرانكلين القصيرة العمر ــ فى سنة ١٧٨٤ ــ وفى أعالى جورجيا . ثم أخذ واديا المسيسيبى وأوهايو يصبحان منطقة حدود كبرى ثالثة ، حوالى سنة ١٨٠٠ ، وباتت أغنية الآلاف من النازحين : « هيا ياهُو ، لننطلق طافين على النهر ، مع الأوهايو » . وكان رفاس بوتنام قد اصطحب المهاجرين الأوائل ، فى الربيع التالى لتأليف الدستور ، صوب الغرب ، لإنشاء ماريتا على الضفة الشمالية لنهر أوهايو ، ففتح بذلك مساحة بلغت حوالى مليونى دونم ، انتقلت إلى أيدى شركة أوهايو بفضل الكونجرس . وفى العام ذاته ، أنشأت جماعة أخرى من مستغلى الأرض سينسيناتى . وكان السكان فى الوقت ذاته يتدفقون على كنتكى وتنيسى بسرعة مذهلة . ففى العام الأول بعد السلام ، دخل كنتكى عشرة آلاف من المستوطنين ، وقدر أول تعداد قومى فى سنة ١٧٩٠ ، أن عدد سكانها وتنيسى معاً تجاوز مائة ألف نسمة .

وانساب سيل المتجهين غرباً دون ما توقف ، على الشمال الغربى والجنوب الغربى . ولم يأت عام ١٧٩٦ حتى كانت كنتكى وتنيسى ولايتين مكتملتين ، كما كانت أوهايو توشك أن تصبح ولاية ، وقد امتدت أراض المستوطنين على طول حدود بنسلفانيا ونهر أوهايو . وفى سنة ١٨٢٠ ، أصبحت إنديانا وإللينوى فى الشمال الغربى ، ولويزيانا وألاباما والمسيسيبى فى الجنوب الغربى ، ولايات . كانت منطقة الحدود الأولى مرتبطة بأوربا ارتباطاً وثيقاً ، ومنطقة الحدود الثانية بالمستوطنات الساحلية ، أما وادى المسيسيبى فكان مستقلاً ، وكان أهله يتطلعون نحو الغرب لا الشرق .

(١) دونم هو الأكر وهو مقياس للمساحة يساوى نحو أربعة آلاف متر مربع ــ المترجم .

مستوطنو الحدود

كان مستوطنو الحدود مجموعة متباينة من البشر ، بطبيعة الحال ، غير أن شهود العيان الأوائل تبينوا فيهم ثلاث فئات . ففى ركب الهجرة كان الصياد ، أو القنّاص . وقد كتب رحالة انجليزى يدعى فوردهام وصفاً حياً لأكثر أنواع الرواد الأوائل ضراوة ، وكان عادة أعزب :

نوع من الرجال يتسمون بالجرأة ، وشدة الاحتمال ، ويعيشون فى أكواخ خشبية بائسة ، يحصنونها فى وقت الحرب مع الهنود ، الذين يكرهونهم بيد أنهم يشبهونهم إلى حد كبير فى الملبس والسلوك . وهم غير مهذبين ، ولكنهم كرماء للضيف ، رحماء بالأغراب ، أمناء ، أهل للثقة . وهم يزرعون شيئاً من الذرة الهندية ، والقرع العسلى ، ويربون الخنازير ، وقد تملك كل أسرة بقرة أو اثنتين ، وفرسين أو ثلاثة . غير أن البندقية هى وسيلة معاشهم الرئيسية .

وكان سماع بندقية أحد الجيران نذيراً لهم بالرحيل . ولقد وصف فنيمور كوبر صورة واضحة للصياد من هؤلاء الطلائع فى ناتى بمبو ، وللحياة فى الغابات النائية على الحدود فى الفيافى The prairie . كان هؤلاء الرجال يحذقون استخدام الفأس ، والبندقية ، والفخ ، وصيد السمك . ولقد شقوا الدروب ، وشيدوا أول أكواخ من كتل الشجر ، وصدوا الهنود ، وبهذا مهدوا الطريق للفئة الثانية .

ويصف فوردهام المجموعة الثانية بأنهم المستوطنون الأوائل حقاً « مجموعة مختلطة من الصيادين والمزارعين » . وبدلاً من الكوخ ، أنشأوا « بيتاً من جذع الشجر » ، له نوافذ زجاجية ، ومدخنة جيدة ، وحجرات تفصل بينها جدران ، فكان مريحاً على شاكلة أكواخ المزارع الانجليزية . وبدلاً من استخدام جدول الماء ، حفروا بئراً . كان المجتهد منهم يخلى الأرض من الأشجار بسرعة ، فيحرق الخشب ليستخدم الرماد فى صناعة الصابون ، ويترك أصول الشجر لتهلك وتتداعى . وفى إقباله على زراعة حاجته من الغلال والخضر والفواكه ، وارتياده الغابات طلباً للوعول والديوك البرية وعسل النحل ، واصطياده السمك من أقرب الجداول ، ورعايته لعدد من الماشية والخنازير ، لا يكاد

يحفل بالوحدة ولا بخشونة الحياة . وكان الأكثر ميلاً إلى المشروعات منهم يبتاع مساحات كبيرة من الأرض الرخيصة ، استناداً إلى أن من الحكمة « أن تحصل على الكثرة وأنت تشق طريقك فى الحياة » ، كما عبر أحد الأشخاص فى رواية إدوارد إيجلستون Hoosier Schoolmaster . ثم كانوا لا يلبثون إذا ما ارتفعت قيمة الأرض ، أن يبيعوا مساحاتهم وينزحوا غرباً . وبهذا أخلوا السبيل لفئة ثالثة ، هى أهم الفئات جميعاً .

لم تكن المجموعة الثالثة تضم مزارعين فحسب ، بل كانت تضم أطباء ومحامين وأصحاب حوانيت وكتاباً وصحفيين وواعظين وميكانيكيين وسياسيين ومضاربين على الأراضى كذلك . . كافة العناصر الأولية اللازمة لنسيج مجتمع قوى النشاط . وكان المزارعون أهم العناصر ، إذ كانوا يعتزمون الإقامة حيث استقر بهم المطاف ، ويرجون أن يقيم أولادهم من بعدهم . فكانوا ينشئون مخازن للحبوب أكبر مما أنشأ أسلافهم ، ثم يشيدون بيوتاً أمتن ، من الطوب ، أو الجدران المتلاحمة . ولقد أقاموا حول أراضيهم أسواراً أفضل مما أقام سابقوهم ، وعنوا بتربية ماشية أحسن ، وحرثوا الأرض بمزيد من الحذق ، واستخدموا تقاوى أكثر إنتاجاً . ولقد أنشأ بعضهم طواحين للغلال ، أو ورشاً لقص الخشب ، أو معامل لتقطير المشروبات . كما أنهم مهدوا طرقاً برية جيدة ، وشيدوا كنائس ومدارس . ولقد أثرى كثيرون من هذه الفئة الثالثة ، إذ أصبحوا مع نمو المدن أصحاب مصارف أو تجاراً أو سماسرة لبيع الأراضى . وموجز القول أنهم كانوا يمثلون أكثر القوى جلداً فى الحضارة الأمريكية . وقد بلغ من سرعة نماء الغرب أن تغيرات لا يكاد يصدقها العقل تحققت فى بضع سنوات قلائل بفضل هذه الموجة الثالثة . ففى سنة ١٨٣٠ ، لم تكن شيكاغو سوى مجرد قرية تجارية حول حصن ، لا يرجى لها مستقبل ، وإذا بها تصبح فى حياة بعض المستوطنين الأوائل من أكبر وأغنى مدن العالم .

وفى الغرب الجديد ، امتزجت دماء كثير من الأقوام المختلفة . وكان مزارعو مرتفعات الجنوب مبرزين ، ومن نسلهم برز أبراهام لينكولن ، وجيفرسون ديفيز ، وقد ولدا فى عام واحد ، فى كوخين من جذوع الشجر ، بولاية كنتكى . وكان للاسكتلنديين ــ الأيرلنديين ذوى الرؤوس الصلبة ، وللألمان بنسلفانيا الذين فطروا على التدبير ، ولليانكى المجازفين فى إقامة المشروعات ، ولرجال من أصول أخرى ، أدوار

أدوها . وقد أوتى هؤلاء جميعاً صفتين مشتركتين : الفردية ، والديمقراطية . ولم تحل سنة ١٨٣٠ حتى كان ما يزيد عن نصف الأمريكيين قد نشأوا فى بيئة غابت عنها تقاليد وعادات العالم القديم ، أو بقيت جد ضعيفة . كان على الرجال فى الغرب أن يعتمدوا على جهودهم ، فلم تكن قيمتهم تقاس بحسبهم ، ولا بالأموال الموروثة ، ولا بسنوات الدراسة ، وإنما بما كانوا يملكون أن يفعلوا ، مثلهم فى ذلك مثل المنبوذين فى مسرحية بارى « كرايتون العجيب » . كان فى طاقة الناس أن يحصلوا على مزارع بأسعار لا تعيى أكثر الناس شحاً ، فقد كان من الممكن الحصول على الأراضى الحكومية لقاء ١,٢٥ دولار للدونم فى سنة ١٨٢٠ ، كما رأينا ، بل لقاء مجرد الاستقرار عليها ، بعد سنة ١٨٦٢ . وكان من الميسور الحصول على الأدوات لاستغلالها . ثم كان بوسعهم « أن ينموا مع البلاد » بعد ذلك ، كما قال هوريس جريلى . هذه المساواة فى الفرصة الاقتصادية أنمت شعوراً بالمساواة الاجتماعية والسياسية ، وأتاحت لمن فطروا على القيادة فرصة التقدم بسرعة . وجدير بنا أن نضيف أن البحر كان فى الواقع أحد الحدود ، من حيث تأثيره على الشخصية الأمريكية . كانت السفن صغيرة ، وتحمل ملاحين قليلين ، فى حين أن كثيراً من سفن صيد السمك والحيتان تعمل على أساس المشاركة . فكانت روح المبادرة والشجاعة والطاقة الفردية والشعور بالجلد ، هى كل ما يتطلبه الرائد الأول ، سواء كان صياداً أو مزارعاً على الحدود أو ملاحاً فى المياه الشرقية .

فضائل الحدود ورذائلها

أصبحت هذه الديمقراطية والفردية من المعالم البارزة لمدن الجمهورية الناشئة ، بفضل التفشى والاقتداء . وبات الاستقلال الخالص ، الذى أطراه وليم كوبيت الانجليزى ، يبهر على الفور زائرى نيويورك وفيلادلفيا من الأوربيين . فلقد لاحظ هؤلاء المراقبون أن العمال لا يرفعون أيديهم إلى قبعاتهم ويقولون : « نعم » ليكسبوا درهماً . بل إن الحمّال يتقبل العمل بمسلك الرجل الذى يؤدى صنيعاً . ولقد ذكر كوبيت باستحسان أن الخدم الأمريكيين لم يكونوا أجراء يتميزون بزى خاص ، وإنما كانوا يتناولون وجباتهم مع الأسرة ، وكانوا يسمون مساعدين . ولم ير فى أمريكا من المتسولين سوى اثنين ، وكان

كلاهما أجنبيين . ومن أكثر مقالات رالف والدو إيمرسون اتساماً بالروح الأمريكية الصادقة ، مقال عن الاعتماد على النفس . فهو يتحدث عن الأمريكى الذى يعتبر مثالاً لليانكى النازح إلى الغرب ، فى ذلك العهد ، فيذكر أنه كان يتقلب بين الأعمال ، من مزارع ، إلى صاحب حانوت ، إلى سمسار للأراضى ، إلى محام ، إلى عضو فى الكونجرس ، إلى قاض ، فهو يمارس كل عمل ، ويثبت جدارة باستمرار . ولم تكن هذه صورة منطوية على مغالاة ، فقد كان واحد من أقدر قادة الحرب الأهلية ــ هو دبليو . تى . شيرمان ــ طالباً عسكرياً ، فجندياً فى حرب المكسيك ، فمصرفياً فى سان فرانسيسكو ، فمحامياً فى ليفينويرث ، فمديراً لمزرعة على حدود كنساس ، فرئيساً لكلية عسكرية فى لويزيانا ، ثم عسكرياً مرة أخرى ، على التوالى .

على أن الحدود وإن عززت الفضائل ، كانت تنمى الرذائل كذلك . فإن أهل الحدود كانوا بوجه عام عسيرى الترويض ، لا يطيقون النظام ، شديدى الاعتداد بالنفس إلى درجة الشراسة ، مفرطين فى الخشونة . وكم من هزيمة عسكرية فى حرب ١٨١٢ ، كانت تعزى إلى كراهية رجال الحدود للتدريب والنظام . إذ كان الأمريكيون المدربون من أهل الحدود ، يميلون إلى عمل كل شىء فى تعجل ودون اكتمال . وقد كانت الحاجة تمس إلى إنجاز كثير من المهام فى عجلة تبدو معها العناية بصقلها مضيعة للوقت . كان الأمريكيون يقيمون فى عجلة بيوتاً خشبية فجة الشكل ، بدلاً من المبانى المصنوعة من الحجر والطوب والتى يقدر لها الصمود أمام الزمن ، وكانوا يشقون طرقاً غير مكتملة التمهيد ، ويقيمون جسوراً موقوتة الأجل ، ويشقون التربة أكثر مما يحرثونها للزراعة . وكانت أجراس الحريق تدق فى نيويورك طيلة الليل ، لأن بيوتها كانت سريعة الاحتراق ، كما أن اثنين من أكبر المبانى التجارية فى المدينة ، انهارا فعلاً فى سنة ١٨٣٦ . وكانت حوادث التصادم بين القطارات ، والانفجارات فى السفن البخارية كثيرة . ومن الطبيعى والحال هذه أن آداب السلوك أو الثقافة لم تكن تحظى بعناية تذكر ، فما كان فى الحدود متسع من الوقت لذلك . والأنكى من هذا ، أن الحياة على الحدود اتسمت بقدر يؤسف له من الإجرام الصريح . فقد انتقل إلى المناطق المتطرفة بعض من حثالة المجتمع ، واستشرى بين الرجال جموح الطباع ، فاستمرأوا فض منازعاتهم بقبضات الأيدى وبالمسدسات . فكان لزاماً على ضباط الأمن أن يكونوا ذوى أعصاب حديدية ، وسرعة فائقة فى استعمال مسدساتهم .

الحروب الهندية

كانت لأخلاق رجال الحدود المتمردة على الترويض عوّاقب مأسوية فى معاملاتهم مع الهنود بوجه خاص . فكانوا يتعدون دائماً على أراضى الهنود بالرغم من المعاهدة ، ويقضون على حيوانات القنص التى كان الهنود يعتمدون عليها فى مأكلهم وملبسهم ، كما أن الكثيرين كانوا على استعداد لقتل ذوى الجلود الحمراء بمجرد وقوع أبصارهم عليهم . فإذا ما حاول الهنود الدفاع عن أنفسهم ، اشتعلت الحرب . ولقد كان الهمجيون عدوانيين فى كثير من الأوقات حقاً ، بيد أن اندفاع البيض نحو الغرب دون هوادة كان السبب الرئيسى لكثير من الاشتباكات . وكانت أكثر الحروب إراقة للدماء ، هى التى جرت مع عشائر الكريك فى الجنوب حيث ظفر أندرو جاكسون بنصر ماحق ، ومع عشائر السيمينول فى مستنقعات فلوريدا وأحراشها ، ومع أتباع تيكومسه فى إنديانا .

وكان أبراهام لينكولن فى شبابه نقيباً فى حرب الصقر الأسود ، وهى حرب كانت بالغة الوحشية . كان بعض المتحدثين بأسماء قبيلة الصقر الأسود وهنود السوك والفوكس قد نزلوا للحكومة عن حق هؤلاء فى ملكية حوالى خمسين مليون دونم . ولكن زعيم القبيلة وقسماً كبيراً من أفرادها أنكروا صحة هذا التنازل . وعمد الصقر الأسود قبل أى تهديد بالقوة ، إلى الانسحاب من أراضيه ــ التى كانت تنبت الذرة ــ فى إلينوى إلى الضفة الغربية لنهر المسيسيبى ، بيد أن قبيلته تعرضت للجوع ، فعادوا إلى عبور النهر فى الربيع التالى ، لينضموا إلى عشائر الوينيباجو الصديقة فى ويسكونسين وليزرعوا الذرة هناك . وكانوا أشبه بالأطفال إذ أيقنوا من أن نواياهم الودية ستكون موضع فهم . بيد أن البيض هاجموهم على الفور ، فتراجع الصقر الأسود وعرض الصلح ، ولكن الميليشيا ــ المؤلفة من ألفى رجل ــ تجاهلت عرضه . ودُفع أتباعه عبر جنوب ويسكونسين إلى المسيسيبى ثانية ، وهم فى يأس ، حتى إذا حاولوا عبور النهر مزقوا إرباً ــ رجالاً ونساءً وأطفالاً ــ دون ما رحمة . ولقد كتب أحد الرماة من حملة البنادق : « كان من البشاعة مشهد الأطفال الصغار جرحى ، يعانون أبشع الآلام ، بالرغم من أنهم كانوا من أبناء العدو الهمجى » . هكذا كان إنسان الحدود فى أسوأ صوره .

كانت فكرة إزاحة الهنود الشرقيين ــ فى حركة عامة ــ إلى السهول الكبرى المترامية

وراء المسيسيبى ، والتى ساد الظن طويلاً بأنها لا تصلح لسكنى البيض ، قد انتُهجت رسمياً فى عهد مونرو وسار تنفيذها بنشاط فى عهد جاكسون . وخول الكونجرس رئيس الجمهورية أن يستبدل الأراضى التى كانت فى حوزة الهنود بأراض فى الغرب . وأنشئت « بلاد هندية » امتدت بادىء الأمر من كندا إلى تكساس . فنقل الهنود إلى هذه المنطقة دون صعوبة كبيرة . ولكن الهنود فى الجنوب ــ حيث كانت العشائر أكبر وأقوى ــ أبدت مقاومة عنيدة ، فكانت النتيجة أليمة . كانت العشائر الملقبة بالعشائر المتحضرة الخمس ــ وهى الكريك ، والشوكتو ، والتشيكاسو ، والتشيروكى ، والسيمينول ــ تحب ديارها ، إذ كان الكثيرون منهم ، لاسيما الكريك والتشيروكى ، قد حذقوا الزراعة ، وأقاموا بيوتاً جيدة ، واقتنوا قطعاناً من الماشية ، وأنشأوا مطاحن الغلال ، وعلموا أولادهم فى مدارس البعثات التبشيرية . فتشبثوا بأراضيهم حتى النهاية ، ولم يبرحها بعضهم إلا بالقوة . وإذ رحل القسم الأكبر منهم بالعربات أو مشياً على الأقدام ، فقد عانوا الجوع والمرض والتعرض للعوامل الطبيعية ، فمات منهم الكثيرون . على أنه لم تحل سنة ١٨٤٠ ، حتى كان جميع هنود شرقى المسيسيبى تقريباً قد نقلوا إلى ديارهم الجديدة ، فيما يعرف الآن بولاية أوكلاهوما .

وأدى هذا الإجلاء إلى تيسير إتمام تعمير وادى المسيسيبى ، أغنى أجزاء البلاد وأكثرها امتيازاً . ولقد ضمت ويسكونسين ــ آخر ولاية فى شرق المسيسيبى ــ إلى الاتحاد فى سنة ١٨٤٨ . وكانت ثمة مجموعة من الولايات قد أنشئت فعلاً فى غرب النهر ، فبعد انضمام ميسورى إلى الاتحاد فى سنة ١٨٢١ ، أصبحت أركنساس ولاية فى سنة ١٨٣٦ ، وأيووا بعدها بعشر سنوات ، بينما انتظم إقليم مينيسوتا ولاية فى سنة ١٨٤٩ . ولم يكبح الفزع الذى حدث فى سنة ١٨٣٧ ــ والذى كان إلى حد كبير نتاج الإفراط فى التوسع غرباً ــ جماح الزحف المستمر إلا لفترة وجيزة . إذ أنشأ سيرس إتش . ماكورميك ، مخترع المسلفة أو المعزقة [1] ، مصنعاً فى شيكاغو ، فى سنة ١٨٤٧ ، وشرع فى إنتاج الآلات بدرجة يسرت زرع الفيافى الغربية بالغلال . وبدأ إنشاء السكك الحديدية ، فسرعان ما امتدت فى المنطقة المستوية شبكة من الخطوط ، فكان ثمة أربعة وسبعون قطاراً تسير يومياً ــ فى سنة ١٨٥٤ ــ إلى شيكاغو ، التى كانت تزهو بأنها أكبر أسواق

(١) آلة حصد الغلال .

الغلال الرئيسية فى العالم . ولقد شهد ذلك العام خط جالينا وشيكاغو الحديدى ، ينقل ثلاثة آلاف مهاجر إلى أيووا فى الشهر الواحد ، فى حين كان آلاف آخرون يسعون إليها بالطرق البرية . وساهم الألمان والاسكندنافيون والبريطانيون فى ملء الوادى الجنوبى ، كما استوطنوا تكساس وأركنساس . ولقد ذهل رحالة انجليزى إذ وجد فى سنة ١٨٥٤ أن سانت بول ــ فى أقاصى مينيسوتا ــ كانت مدينة تضم سبعة آلاف أو ثمانية آلاف نسمة ، وأربعة فنادق أو خمسة ، وحوالى ست كنائس ليست صغيرة ، وأرصفة ميناء تأوى إليها ثلاثمائة باخرة فى العام ، وشوارع وأرصفة جيدة ، ومخازن شاهقة من الطوب ، ومتاجر وحوانيت زاخرة بالسلع كأية متاجر وحوانيت فى أية مدينة بالاتحاد .

وبرز زعماء جدد من الغرب قبل سنة ١٨٥٠ ، من أمثال ستيفن إيه . دوجلاس وأبراهام لينكولن فى إللينوى ، وتوماس هارت بنتون وديفيد آر . آتشيسون فى ميسورى ، وجيفرسون ديفيز فى المسيسيبى ، وسام هيوستون ــ بطل حرب تكساس الاستقلالية ــ فى ولاية النجمة الواحدة .

استيطان الغرب الأدنى

كان لعدد من الطرق الكبرى للنقل دور رئيسى فى تنمية وادى المسيسيبى وتطويره . وكان طريق كمبرلاند هو أول شريان حيوى إلى الغرب ، وقد بدىء فى استخدامه فى سنة ١٨١١ ، وكان لأموال الحكومة الاتحادية النصيب الأكبر فى إنشائه . وقد امتد من كمبرلاند بولاية ميريلاند ، مجتازاً الجبال إلى زينزفيل وكولمبس بولاية أوهايو ، ثم تير أوت فى إنديانا ، وامتد فى النهاية إلى فانداليا فى إللينوى . وكان طوله عند اكتماله حوالى ستمائة ميل ، وعرضه ستين قدماً ، يتوسطه شريط مرصوف عرضه عشرون قدماً ، أنشىء وفقاً لمبادىء ماكدام .

وعلى هذا « الشريط القومى » كان البريد الغربى ينساب ، برسوم بريدية خاصة . وقامت الفنادق الصغيرة على مسافات مناسبة . وأخذ سيل المستعمرين يتدفق حتى لم يعد سالكوه فى الصيف يغيبون عن البصر قط . وكتب أحد الشهود فى سنة ١٨٢٤ : « إن مئات من العائلات تشاهد مهاجرة إلى الغرب فى يسر وراحة . ويشاهد تجار الماشية

من الغرب وهم يتجهون شرقاً بماشيتهم التى من كل وصف ، ينشدون سوقاً . والواقع أن هذا السبيل قد يشبه أى طريق فى قلب مدينة حافلة بالناس ، إذ يرى المارة ، مشاة وعلى ظهور الجياد وفى المركبات ، فى خليط ينساب على سطحه المرصوف » . ويتصل الطريق عند هويلينج بنهر أوهايو ، فأصبح هذا بدوره شرياناً حافلاً بالمسافرين . وكانت الملاحة فيه ، فى بادىء الأمر بالقوارب المسطحة والأرماث والمراكب التى كانت تقوى على السير مع التيار ، وكانت تحمل الغلال ولحوم الغزلان والوعول والفراء ولحم الخنزير ، والدقيق إلى نيو أورليانز . ثم شيد نيكولاس روزفلت ـ من الأسرة التى ذاع صيتها فيما بعد ـ سفينة بخارية ، بدأت فى سنة ١٨١١ فى السير من بيتسبيرج خلال النهر إلى نيو أورليانز مباشرة جيئة وذهاباً ، فسرعان ما حذا حذوه كثيرون .

ولقد كان أشهر الطرق البرية إلى الغرب قناة إيرى ، التى تربط نهر هدسن والمحيط الأطلنطى بالبحيرات الكبرى ، موفرة بذلك طريقاً مائياً إلى صميم قلب القارة . وكان الناس يحلمون بمثل هذه الطريق ـ منذ القرن الثامن عشر ، إذ كانت تمكن المهاجرين والتجارة من تجاوز سلسلة جبال أبلاش القفرة الوعرة . بيد أن عملية شق قناة طولها حوالى أربعمائة ميل كانت عسيرة حتى إن الزعماء أحجموا عنها . وأخيراً ، قام دى ويت كلينتون النيويوركى الذى لا ينثنى ، بحملة لتحويل الحلم إلى واقع . ففاز بمنصب الحاكم ، وشرع فى العمل فى سنة ١٨١٧ ، وبعد سنوات مضنية ، شهد اكتمال قناة كلينتون . وفى سنة ١٨٢٥ ، استقبل أول موكب من السفن باحتفال بهيج ، وأمام جمع من المصفقين ، صب كلينتون ملء وعاء يعادل نصف البرميل من مياه إيرى فى المحيط الأطلنطى . وعززت القناة مركز نيويورك كزعيمة للتجارة والمالية الأمريكيتين ، إذ جعلت بفالو ميناء مزدهراً ، كما قامت على امتدادها مدن جديدة صغيرة وكبيرة .

على أن مساهمتها فى نماء الغرب كانت أهم من هذا أثراً . فقد أخذ أهالى نيو إنجلاند ونيويورك يرحلون عليها غرباً فى سيل مطرد ، وقد أنمى هذا الفيض من المهاجرين كليفلاند وديترويت وشيكاغو ، فجعلها مدناً زاخرة ، وأضفت مسحة لاشك فيها من اليانكى على أجزاء كبيرة من الشمال الغربى . بل إنها كانت فى حد ذاتها صاحبة الفضل فى تحول مذهل فى سكان أمريكا ، وقد قامت بدور كبير فى المساعدة على إنقاذ الاتحاد ، إذ أنها ربطت المسيسيبى الأعلى بالولايات الشمالية المطلة على المحيط الأطلنطى برباط وثيق ، قبل أن يقدر للحرب الأهلية أن تقوم . ولقد عاونتها فى هذا شبكة القنوات

فى بنسلفانيا ، إذ أن نجاح قناة كلينتون حفز أهل بنسلفانيا على أن ينفقوا حوالى أربعين مليوناً من الدولارات لإنشاء شبكة مواصلات ربطت بين فيلادلفيا وبيتسبيرج التى تبعد عنها بأربعمائة ميل . ولقد استخدموا الأنهار والقنوات فى بعض هذه الشبكة ، بينما تغلبوا على مرتفعات ألليجنى الشاهقة بمجموعة من السطوح المائلة التى كانت السفن والبضائع والركاب تسحب عليها بقوة البخار . فكان مشروعاً بطولياً ، ومع أنه أنضب خزائن الولاية تقريباً ، فقد حقق عملاً نافعاً ، وساعد على أن يجعل بنسلفانيا واحدة من كبريات الولايات الصناعية .

وكانت حركات السكان تميل ــ بوجه التقريب ــ إلى الامتداد وفقاً لخطوط العرض فكان الشطر الرئيسى من مستوطنى ولايتى ألاباما والمسيسيبى من أهل الجنوب ، وكان المستوطنون الرئيسيون لميتشيجان وويسكونسين من الشماليين . أما فى أوهايو وإنديانا وإللينوى ، فقد التقى التياران : سيل الجنوبيين الذى عبر نهر أوهايو ، وسيل الشماليين الذى تدفق خلال قناة إيرى والبحيرات الكبرى ، فامتزج التياران فى هدوء ، واختلط الفريقان بالتزاوج أحدهما بالآخر ، وكلاهما بالمهاجرين الأوربيين . فنمت بفضلهم مدن مثل كولمبس ، وإنديانابوليس ، وسبرينجفيلد . وهكذا نجد أن من الخمسة الذين سيطروا على الأمور السياسية فى إللينوى ، فى الفترة الوسطى ، كان أبراهام لينكولن وأورفيل براونينج قد وفدا من كنتكى ، وديفيد ديفيز من ميريلاند ، ولايمان ترمبل من كونكتيكت ، وستيفن إيه . دوجلاس من فيرمونت . ومهما كانت خلافاتهم السياسية ، فإنهم جميعاً كانوا نتاج « وادى الديمقراطية » هذا دون مراء .

الغرب فيما وراء المسيسيبى

عندما نتحول إلى الأراضى الشاسعة المترامية غربى نهر المسيسيبى ، نجد أن الاستيطان فيها يقدم لنا قصة أكثر طرافة وتبايناً مما سبق . فلقد تكشفت لعلم الأمة لأول مرة بفضل البعثة الاستكشافية التى أوفدها جيفرسون ، فى سنة ١٨٠٣ ، لتشق طريقها إلى المحيط الهادى ، بقيادة مريوذر لويس ووليم كلارك ، وكانا شابين من فيرجينيا على دراية كبيرة بمناطق الحدود . وقد رصد لهذا المشروع الشهير الذى سجل فصلاً خالداً فى الكشف

الجغرافى ، من أموال الحكومة الفيدرالية ٢٥٠٠ دولار فقط ! وكان جيفرسون دائماً على اهتمام مشبوب بعجائب الغرب ، فكتب بإسهاب عن الهنود ، الذين كان يعجب بهم ، وعند اكتشاف بقايا حيوان الماموث الذى وجد فى وادى أوهايو . فلما أرسل لويس وكلارك إلى الفيافى ، كانت غايته ذات شقين : فإلى جانب الاستطلاع العلمى ، كان يتوقع أن يفتح هذان الرجلان إقليم نهر ميسورى لتجار الفراء الأمريكيين . إذ كان الهنود ، فى ذلك الوقت ، يحملون فراءهم إلى كندا ، ليبيعوه للتجار البريطانيين ، فخطر لجيفرسون أنهم خليقون بأن يجدوا من الأسهل إرسال الفراء عن طريق النهر إلى المشترين الأمريكيين .

وتسنى إنجاز الغايتين ، فإن لويس وكلارك بإبحارهما نحو منابع ميسورى ، وعبورهما جبال روكى ، وإبحارهما فى نهر كولمبيا إلى المحيط الهادى ، أنجزا عملية اكتشافية بطولية ، وصفت بأنها « أكمل إنجاز لا يضارعه إنجاز من نوعه فى تاريخ العالم » . ولم يصادفا خطراً حقيقياً يذكر ، إذ أنهما تحاشيا عشائر السيوكس المحبة للحرب . ولقد قطعا حوالى ألفى ميل فى الرحلة إلى الساحل ، فى ثمانية عشر شهراً ، وعنيا برسم خريطة للإقليم وبوصفه . كما أنهما أرسيا قاعدة للتنافس الأمريكى مع الشركات البريطانية الغنية لتجارة الفراء ، وأثبتا إمكان إنشاء طريق برى إلى المحيط الهادى . وما إن عادا ، حتى ساعد كلارك على إنشاء شركة ميسورى للفراء ، وسلسلة من الحصون على طول النهر . ولقد أثرت الشركة ونمت ، وسرعان ما دخلت الشركة الأمريكية للفراء النشيطة ، التابعة لجون جاكوب آستور المجال الشمالى الغربى ، وكانت حتى ذلك الحين تمارس القسط الأكبر من تجارتها حول البحيرات الكبرى ، بيد أن آستور لم يلبث أن قرر إقامة مركز تجارى عند مصب نهر كولمبيا . وفى سنة ١٨١١ ، دارت إحدى سفنه ، وتدعى تونكين ، حول رأس هورن ، وأبحرت شمالاً ، وأنشأت آستوريا (التى كتب عنها واشنطن إرفينج فيما بعد كتاباً مشوقاً) ، بينما وصلت بعثة اجتازت عرض القارة براً ، إلى الموقع ذاته فى العام التالى .

كانت هذه بداية طيبة . وقد عجل بتطوير الغرب وتنمية تجارته ثلاثة أحداث رائعة ، فى أوائل العشرينات من القرن التاسع عشر . وكان أولها بداية تجارة نشيطة على درب سانتا فيه إلى أقصى الجنوب الغربى ، الذى كان إذ ذاك فى أيدى المكسيكيين . إذ جمع مغامر جرىء من ولاية ميسورى يدعى وليم بيكنيل فريقاً تجارياً من حوالى سبعين رجلاً ، فحمل

سلعاً على الجياد والبغال ، وقطع ثمانمائة ميل فى إقليم وعر وخطر ، ثم باع بضاعة فى المركز المكسيكى الأمامى سانتا فيه بربح كبير . فلما كان العام التالى ، استخدم العربات فى الرحلة الطويلة . فحذا حذوه تجار آخرون ، وبذلك فتح للتجارة درب سانتا فيه المشهور . وكان التجار الذين يستخدمونه يصادفون أخطاراً كثيرة ، إذ كان شطر كبير من الإقليم شبه صحراء ، قد تشققت أرضه بالحرارة والجفاف ، كما كان عليهم أن يخوضوا أنهاراً وعرة ، فضلاً عن أنهم كانوا معرضين لأن يهاجمهم هنود عشائر الكومانش والأراباهو والتشيين . وبينما كانت الجماعات الكبيرة ، التى تضم ثمانين أو مائة رجل ، فى أمان إلى حد كبير ، كانت الجماعات الصغيرة ، المؤلفة من عشرة أو عشرين رجلاً ، معرضة للعدوان . ولم يلبث الرواد أن مهدوا طريقاً أمريكياً كان له دور كبير فى اكتساب الجنوب الغربى للجمهورية .

أما الحدث الرائع الثانى ، فهو إنشاء شركة جبل روكى للفراء فى سنة ١٨٢٢ ، بوساطة وليم آشلى ، أحد قادة الحرس الوطنى (الميليشيا) فى سانت لويس ، الذى أعلن عن طلب مائة شاب للإبحار فى ميسورى حتى منابعه ، والبقاء عند المنابع ما بين سنة وثلاث سنوات . وكانت هذه أول شركة اعتمدت فى المقام الأول على قيام مستخدميها باصطياد حيوانات الفراء ، بدلاً من شرائه من الهنود . وكان بين رجالها بعض الشخصيات الكبرى فى اكتشاف الغرب ، ومنهم كيت كارسون ، الذى قدر له ــ بوصفه صياداً بالفخاخ وبالسلاح ، ومحارباً للهنود ، وكشافاً ودليلاً ــ أن يصادف مجموعة من المغامرات جعلت قصة حياته أشبه برواية خيالية ، كما كان بينهم جديدياه سميث الذى لم يكن يبزه أحد كمستكشف . أما الحدث الثالث ، فكان حملة عسكرية أبحرت نحو منابع ميسورى فى سنة ١٨٢٣ ، لإرهاب عشائر الهنود الأريكارا وغيرهم من الهنود الشديدى الضراوة وإخضاعهم . وقد جهز فيلق ميسورى هذا بوساطة الحكومة القومية وتجار الفراء فى سانت لويس معاً ، فأوضح بجلاء أن الولايات المتحدة مستعدة لحماية الباحثين عن الفراء .

كذلك أعان نشاط الإرساليات التبشيرية على الإيغال فى الغرب الأقصى . وكانت الكنائس قد نشطت فى مناطق الحدود قبل ذلك بوقت طويل ، بيد أن حدثاً عجيباً وقع فى سنة ١٨٣١ ، فأتاح دافعاً جديداً لحماسها . ذلك أن العشائر الهندية فى أعالى كولمبيا كانت قد تعلمت بعض مبادىء الدين من التجار البريطانيين ، ورغبت فى أن تحرز مزيداً من المعرفة . فأرسلت عشائر الأنف المثقوبة أربعة من كبار رجالها إلى وليم كلارك فى سانت

لويس ، ليطلبوا كتاب السماء . وعندما نشرت صحف الكنيسة القصة ، هب اهتمام حاد . فأوفد البروتستانت عدداً من رجال الدين ، مع جماعات تساندهم ، إلى أقصى الشمال الغربى ، فأقاموا إرسالية فى وادى نهر ويلاميت ، وأخرى بالقرب من ملتقى نهرى سنيك وكولمبيا . وكان صاحب الدور الأول فى هذا المجهود ، هو الدكتور ماركس هويتمان المتفانى فى أداء الرسالة . ولقد قامت هاتان الإرساليتان بدور كبير فى تنصير الهنود ، وأقامتا مزارع نموذجية ، لتعليم معتنقى المسيحية من الهمجيين كيف يشيدون البيوت ، ويمهدون الحقول ، ويزرعون المحصولات . وفى الوقت ذاته ، أذكت الرسائل المتحمسة التى كتبها الإرساليون عن الطبيعة والمناخ اهتمام الأقارب والأصدقاء ، وسرعان ما كانت تجتاز السهول والجبال قوافل سنوية تحمل المستوطنين إلى إقليم أوريجون .

درب أوريجون

كان المستكشفون وتجار الفراء الأوائل ، الذين أخذوا يتنقلون من نهر ميسورى إلى نهر كولمبيا ، قد مهدوا طريقاً غير واضح المعالم ، لم يلبث مع الزمن أن تحدد وأصبح درب أوريجون الذى لم تنتصف الأربعينات من القرن التاسع عشر حتى كان طريقاً برياً كبيراً . وكان بطوله الذى يناهز ألفى ميل ، يجرى وسط أخطار وصعاب . فانطلاقاً من إندبيندانس على نهر ميسورى ، كان الطريق يخترق السهول المترامية حتى جبال روكى ، فيجتاز هذه خلال الممر الجنوبى المنخفض نسبياً ، ويمضى فى مساحات قفراء وجبلية إلى فورت هول على نهر سنيك . ومن هنا ، امتد الدرب خلال جبال بلو (الزرقاء) العسيرة الاجتياز إلى نهر أوماتيلا ، ومنه إلى نهر كولمبيا . وكان ثمة طريق بديل يفضى بعد البحيرات الكبرى إلى كاليفورنيا . وكان جون بيدويل هو الذى نظم أول قافلة هجرة انطلقت إلى ساحل المحيط الهادى ، وكان عددها حوالى ثمانين رجلاً وامرأة وطفلاً ، وقد شقت طريقها بنجاح عبر الإقليم الوعر إلى أوريجون فى سنة ١٨٤١ . وكانت هذه مقدمة أو طليعة حركة مذهلة . فقد حدثت الهجرة الكبيرة فى سنة ١٨٤٣ ، عندما اجتازت السهول والجبال ما لا يقل عن مائتى أسرة ضمت ألف شخص ، وهى تسوق معها مئات من الماشية ، حتى بلغت غايتها . وكانت القوافل التى تجرها الثيران بسرعة ميلين

فى الساعة ، قادرة على أن تطوى خمسة وعشرين ميلاً فى الأيام الطيبة ، أما فى الأيام السيئة فكانت لا تقطع سوى ما بين خمسة أميال وعشرة . ولقد نما الجدول الإنسانى (من المهاجرين) الذى سلك درب أوريجون إلى نهر عريض فى سنة ١٨٤٥ . ففى ذلك العام ، وفد على وادى ويلاميت ما يزيد على ثلاثة آلاف نسمة .

كانت حركة أوريجون ، هجرة بطولية أسطورية . كانت صيحة : « هيا ، انتظموا ! » تتردد عند الفجر ، وتشرع الصفوف الطويلة من العربات المغطاة فى السير ، ينظم سيرها قادة مختارون . وعند هبوط الليل ، كانوا يقيمون معسكراً دائرياً ، فالعربات والأمتعة والرجال فى المحيط الخارجى للدائرة ، والنسوة والأطفال والحيوانات فى داخلها . وكانوا يقيمون الحراس فى مراكز تنتقى بعناية . وفى سياق ذلك كان الطعام يطهى ، والثياب تغسل ، والعلاقات بين الجنسين مستمرة ، والأطفال يولدون ، والضعاف منهم يموتون فيدفنون فى قبور لا تحمل ما يسهل التعرف عليها . وعندما كانت الثيران والبغال المنهوكة القوى تعجز عن المضى فى جر العربات الثقيلة ، كانت الضرورة تدعو للتخلى عن بعض المقتنيات الثمينة بتركها على الدرب . ولعل الرحلة كانت عناء طويلاً بالنسبة للبعض الذين كانوا يصادفون الهنود ، أو دببة الشمال الأمريكى الضخمة ، أو الكوليرا البغيضة ، أو الطقس القاسى . ولكن غيرهم كانوا يرونها مبهجة . وقد كتب أحدهم : « كانت أشبه بنزهة خلوية طويلة ، فالرحلة حافلة بالمناظر الطبيعية المتغيرة ، وحيوانات الخلاء والفيافى ، والهنود ، والتجار ، وقناصى الحيوانات فى الإقليم الجبلى » . وقد أدت هذه الهجرة الكبيرة إلى جعل أوريجون مجتمعاً أمريكياً ، وقد أسهمت بقدر ما أسهمت الدبلوماسية فى اكتسابها إلى الولايات المتحدة فى سنة ١٨٤٦ . وقد عمّرت هذا الإقليم النائى بالسكان بدرجة ناجحة ، حتى إنها نظمت كإقليم فى سنة ١٨٤٩ ، ولم تنقض عشر سنوات حتى أصبحت ولاية مكتملة .

المورمون

كانت أبرز المستوطنات الدينية وأهمها فى الغرب ، حتى ذلك الحين ، هى مستوطنات المورمون فى ولاية يوتاه . وكانت تقاليد الفردية والخلاف والمذهبية الدينية فى أمريكا قد

أدت إلى تكـوين طوائف غريبـة عديدة ، أغلبها متفرعة عن الكتل القائمة . بيد أن المورمون كانوا هيئة جديدة تمام الجدة . وكان مبتدع كنيسة قديسى اليوم الآخر هذه ، جوزيف سميث ، شاباً من أعالى نيويورك ، أكد أنه اعتكف فى الغابات ، فى أحد أيام سنة ١٨٢٠ ، ليصلى لله من أجل الخلاص ، وإذا بشخصيتين جليلتين تتجليان له ، وتطلبان إليه أن يرتقب عودة كاملة لتعاليم المسيح ، وذكر أن ملاكاً يدعى مورونى واتاه فى وقت لاحق ، وأنبأه عن سجل محفور على ألواح ذهبية دفينة ، محتوياً التاريخ القدسى لسكان أمريكا الشمالية القدامى ، وأنه بمساعدة أدوات قدمها إليه الملاك ، ترجم هذا التاريخ . وقد نشر فى سنة ١٨٣٠ بعنوان كتاب المورمون . وأنشئت فى ذلك العام كنيسة أخـذت تنمـو بسرعـة . وقـد انتقلت قيادتهـا ، بعـد تطورات وتغيرات عديدة ، إلى إللينوى . وهنا شيد المورمون على ضفاف نهر المسيسيبى مدينة ناوفو المزدهرة ، وأقاموا جامعـة ، وشرعـوا فى إنشـاء معبد عظيم . وكانوا قد اعتنقوا تعدد الزوجات ، فأدى السخط على هذا ، وعلى ديانتهم ، بجانب الأحقاد الاقتصادية والسياسية ، إلى اندلاع الشغب ضدهم . وانتزع حشد من الناس سميث وأخاه من سجن المقاطعة وشنقوهما ، وسرعان ما أبعد المورمون بعد ذلك من الولاية ، وقد أصبحوا تحت قيادة بريجهام ينج القدير . فاجتازوا المسيسيبى ، وقد عقدوا العزم على أن ينشدوا السلام والأمن فى الغرب الأقصى .

وكانت النتيجة مغامرة رائعة فى تعمير ما كان الكثيرون يظنونها منطقة صحراوية . فقد قاد بريجهام ينج قومه عبر السهول إلى وادى بحيرة الملح الكبرى سولت ليك ، حيث عثر على أرض خصبة محوطة بسلاسل الجبال الشاهقة ، وعلى مناخ صحى ، وماء كاف للرى . فأشرف على تمهيد الحقول ، واختار موقعاً لمدينة ، ودبر المواصلات بينها وبين الشرق . وشهد العام الأول شيئاً من الضيق ، بيد أن يوتاه قدمت بعد ذلك وفرة بدائية لكل امرىء . فسرعان ما امتدت المزارع وقنوات الرى فى طول الوادى وعرضه . وكان بريجهام ينج يمارس سلطاناً استبدادياً ، غير أن حكمته وحبه للخير جعلا استبداده أمراً محتملاً . وتولى هو والمسئولون فى كنيسته تنظيم تسويق منتجات يوتاه ، وسيطروا على المستوطنين ، فأخذوا يختارون المواقع للمدن الجديدة ، ويرسلون إلى كل منها ما تحتاج إليه من أصحاب الحرف ، وأنشأوا مدينة سولت ليك بطرقها الواسعة ، وجداول المياه المتـلألئـة فيها ومعبدها ومذبح قرابينها ، فهى بذلك من أطرف الأماكن فى أمريكا .

وكانت تلك أول تجربة أمريكية للاقتصاد المخطط (الموجَّه) ، وقد كانت ناجحة . واستمر تعدد الزوجات زمناً ، من أجل غاية تعميرية سليمة ، إذ كانت للنساء الأغلبية بين معتنقى الديانة ، ولم يكن فى منطقة الحدود متسع للنساء غير المتزوجات وغير المنجبات . ولم تحل سنة ١٨٥٠ حتى كانت يوتاه قد انتظمت كإقليم معمور ، بيد أن تعدد الزوجات أخر انتظامها كولاية ، فلم يتسن هذا قبل خمسين سنة تقريباً ، فسمح ليوتاه بأن تصبح ولاية بعد أن كانت قد تخلت عن هذه العادة .

ضم ولاية تكساس

أتم ضم تكساس ، وفتح كاليفورنيا والجنوب الغربى وانتزاعهما من المكسيك الضعيفة ، نطاق السيطرة الأمريكية فى الغرب نهائياً . وبسطت الولايات المتحدة خلال سنوات قلائل من أربعينات القرن التاسع عشر حدودها إلى بعض مناطق من أغنى مناطق القارة وأبدعها مستقبلاً . ولقد تناول كُتاب متباينون هذا الانتزاع للأرض من المكسيك على أنه عدوان غير خلقى . فقال جيمس رسل لويل إن الجنوب إنما ابتغى تكساس لمجرد أن يقتنى حظائر أكبر حجماً يزج فيها بالعبيد . وهذا غير صحيح ، فإن عملية طبيعية هى التى حققت إضافة هذه الأراضى إلى الولايات المتحدة . . عملية يعبر عنها أحسن تعبير مصطلح ظاهرة القدر .

كانت تكساس ، كجزء من الجمهورية المكسيكية فى بادىء الأمر ، بلاداً فى مساحة ألمانيا ، ولكنها لم تؤت سوى القليل من مزارع تربية الماشية ومن الصيادين . ولقد اجتذبت كثيرين من الأمريكيين وبعض البريطانيين فى وقت مبكر ، فأقام ستيفن إف . أوستن أول مستوطنة أنجلو ــ أمريكية فى سنة ١٨٢١ . وكان الإغراء الرئيسى يتمثل فى وجود أراض بدون مقابل ، وفى سهولة الوصول إليها من الولايات الجنوبية . ولقد كانت الحكومة المكسيكية معدومة الكفاءة ، مفسودة ، جائرة . فقام المستوطنون الأمريكيون بثورة فى سنة ١٨٣٥ ، وبعد عدد من المعارك ظفروا باستقلالهم . وكان من الأحداث الرئيسية استيلاء المكسيكيين على آلامو ، وهى حصن فى سان أنتونيو ، لقى فيه المدافعون الأمريكيون مصرعهم عن بكرة أبيهم : « لقد كان فى تيرموبليه من حمل نبأ

الهزيمة ، أما فى آلامو فلم يبق أحد » . وما إن استقر الأمر للجمهورية التكساسية ، حتى ازدهرت فاجتذبت كثيرين من المستوطنين الأمريكيين الجدد . ولقد ظلت الولايات المتحدة زمناً ترفض دراسة أى مقترح لضم هذه البلاد ، ولكن كثيرين من الأمريكيين عدلوا عن تفكيرهم تدريجياً بفضل عدد من الأسباب ، منها أنهم رأوا أن التوسع فى الغرب غير المأهول وغير المتطور واجب . ومن الأسباب أنهم شعروا أن أهل تكساس قوم ذوو قربى لهم ، ومكانهم الطبيعى تحت العلم الأمريكى . وهناك سبب ثالث ، هو أنهم خشوا أن تتدخل بريطانيا العظمى فى تكساس وتحاول إقامة محمية لها . وأخيراً ، كانت الدوافع المادية تعمل بنشاط ، إذ كان أهل الشمال راغبين فى بيع المنتجات الزراعية والسلع الصناعية فى تكساس ، ورأى أصحاب السفن أن بوسع سفنهم القيام برحلات مربحة إلى جالفيستون ، ورغب أصحاب مصانع الغزل فى الولايات الشرقية (اليانكى) فى الحصول على القطن التكساسى الرخيص لغزله . وكان كثيرون من أهل الجنوب يودون الهجرة ، ولكنهم يأبون أن يهجروا العلم الأمريكى .

ولقد أبدت أغلبية من الناخبين ، فى الانتخابات القومية سنة ١٨٤٤ ، أنهم على استعداد لضم الجمهورية الصغيرة إلى الاتحاد ، وذلك بتأييدهم المرشح الذى كان ينادى بالتوسع جيمس كيه . بولك . وضُمت الولاية فى أوائل العام التالى .

الحرب المكسيكية
والاستيلاء على كاليفورنيا ونيو مكسيكو

كان كثيرون من الأمريكيين مهتمين كذلك ، وفى الوقت ذاته ، بالظفر بالسيطرة على كاليفورنيا بالطرق السلمية ذاتها . وقد رأوا أن هذا ممكن ، بسبب الوضع الخاص لكاليفورنيا ، إذ لم تكن ، فى سنة ١٨٤٥ ، تضم سوى عدد هزيل من السكان لا يتجاوز أحد عشر أو اثنى عشر ألفاً ، تشبثوا بالبقاء على الساحل . ولم يكونوا يمتلكون مالاً ، ولا جيشاً ، ولا خبرة سياسية . وكان فى عروقهم من الدم الإسبانى أكثر مما أوتيت الجماهير المكسيكية ، فكانوا يرون أنفسهم أرقى من المكسيكيين جسداً وعقلاً ، حتى إنهم لم يكونوا تابعين للمكسيك إلا اسماً . والواقع أنهم كانوا خليقين بأن

يطيحوا بالسلطان المكسيكى تماماً ، لولا أحقادهم العائلية ، ونزاع قديم بين شمال كاليفورنيا وجنوبها . ولم توفر المكسيك ، فى واقع الأمر ، محاكم ، ولا قوات أمن ، ولا مرافق بريدية ، ولا مدارس . وكانت المواصلات بين كاليفورنيا ومدينة المكسيك نادرة وغير مضمونة . وهكذا كانت المكسيك تدرك صراحة أن سيادتها مجرد ظل ، حتى إنها أبدت ميلاً ، فى أواسط الأربعينات ، لأن تبيع المنطقة إلى بريطانيا العظمى . وكان العنصر الأمريكى فى كاليفورنيا ينمو عاماً بعد عام ، من حيث العدد ومن حيث العدوان . فقد ظلت السفن الأمريكية زمناً طويلاً تتجر مع الساحل ، فى حين أن المهاجرين الذين كانوا يرغبون فى الاستقرار فى المناخ الذهبى وجمع ثروة من الماشية والقمح قد بدأوا يجتازون الجبال فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر . فلم يحل عام ١٨٤٦ حتى كان فى كاليفورنيا ألف ومائتان من المقيمين الأجانب ، معظمهم من الأمريكيين . فلا عجب فى أن بعض الناس كانوا يوقنون أن كاليفورنيا ستسقط كالفاكهة الناضجة فى يد الولايات المتحدة الممتدة ، وأن الحاجة لن تدعو إلى قوة .

ولعل هذا ما كان يحدث لولا اندلاع الحرب المكسيكية فى صيف سنة ١٨٤٦ . وكان السبب البعيد لهذا الاشتباك ازدياد انعدام الثقة بين الدولتين ، فى حين أن السبب العاجل كان نزاعاً على حدود تكساس . وتبينت الولايات المتحدة أنها حرب قصيرة وذكية . فقد أوفدت جيشاً أمريكياً ، بقيادة زاكارى تيلور إلى شمال المكسيك ، استولى على مدينة مونتيرى الحصينة ، وهزم قوة مكسيكية كبيرة فى معركة بونا فيستا العنيدة ، وهبط جيش آخر بقيادة وينفيلد سكوت ، بطل حرب سنة ١٨١٢ ، فى فيرا كروز ، فشق طريقه غرباً فوق الجبال ، واستولى بعد قتال شديد على مدينة مكسيكو . وهنا رفع العلم الأمريكى فى أبهاء مونتزوما . وعندما أبرم الصلح فى فبراير سنة ١٨٤٨ ، لم تظفر الولايات المتحدة بكاليفورنيا وحدها ، التى كان المقيمون الأمريكيون فيها قد ثاروا فى تلك الأثناء وأقاموا جمهورية علم الدب ، وإنما ظفرت كذلك بالمساحة الهائلة القائمة بينها وبين تكساس ، والمسماة نيومكسيكو (المكسيك الجديدة) ، وكانت تضم ولايتى نيفادا ويوتاه الحاليتين . وبلغ مجموع ما كسبته الولايات المتحدة فى هذا الإقليم وفى تكساس حوالى ٩١٨ ألفاً من الأميال المربعة .

ولقد ظفرت كذلك بكنز ، إذ بينما كان التصديق على المعاهدة جارياً ، اكتُشف الذهب فى تلال كاليفورنيا . وفى الحال تدفق سرب من متصيدى الثراء ، أقبل بعضهم

بحراً ، وبعضهم بالدرب البرى ، إلى الوهاد والخيران ، حيث كان من الممكن غسل السبائك فى الأحواض الخشبية والأوعية النحاسية . وإذ زخرت الجبال بالمعسكرات الصاخبة ، طفرت سان فرانسيسكو بين عشية وضحاها لتصبح عاصمة صغيرة تنضح حيوية ، وتتخم بالرذيلة ، والرفاهية ، والنشاط . وتحولت كاليفورنيا فى غمضة عين من مجتمع رومانتيكى ناعس ، من أصحاب مزارع تربية الماشية من الأمريكيين الإسبانيى الأصل ، إلى دويلة دائبة الحركة زاخرة بالأنجلو ساكسون . هذه « الأيام السالفة ، أيام الذهب وأيام سنة ٤٩ » كانت من أبهى الأيام فى التاريخ الأمريكى بأسره . ولقد نمت كاليفورنيا سريعاً حتى إنها ضمت فى سنة ١٨٥٠ إلى الاتحاد ، كولاية .

وأجبر ضم هذه المساحات الشاسعة الجديدة فى الغرب ، أهل أمريكا على الاهتمام بعديد من المشكلات المهملة . . مشكلة البحر الكاريبى ، ومشكلة المحيط الهادى ، ومشكلة قناة تصل بين الاثنين ، وفوق هذه جميعاً مشكلة الرق ، التى كانت تنذر بالانتشار فى المنطقة كلها .

الحدود على المحيط الهادى

لم تكن أوريجون وكاليفورنيا فى نظر كثير من الأمريكيين الذين تملكتهم فكرة ظاهرة القدر ، سوى محطتين على الطريق إلى المحيط الهادى وآسيا . فقد أعلن الرئيس بيرس أنه ما كان ليقبل أن يكبحه « عن التوسع أية هواجس رعديدة من قبح السيرة » ، كما أكد توماس هارت بنتون ، عضو مجلس الشيوخ ، أن واجب الولايات المتحدة « أن تعيد الحيوية إلى جسد آسيا الهامد » . وكانت هاواى معبراً طبيعياً إلى آسيا . فعندما اكتشف الكابتن كوك جزر هاواى (وكانت تسمى إذ ذاك جزر ساندويتش) فى سنة ١٧٧٨ ، كان فى صحبته يانكى من كونكتيكت يدعى جون ليديارد . وليديارد هذا بالذات هو الذى كان أول من رأى احتمالات التجارة بين الساحل الشمالى الغربى لأمريكا والصين القارية . وإن هى إلا سنوات قلائل ، حتى كانت سفن نيو إنجلاند تقف فى ميناء هونولولو ، فى طريقها إلى الصين ، حاملة الفراء من إقليم أوريجون ، وسرعان ما كان صائدو الحيتان ، الذين قُدر لهيرمان ميلفيل أن يسجل بطولتهم ، يرسون عند هاواى

لإصلاح سفنهم والتزود بالمؤن . ولم تحن الأربعينات من القرن التاسع عشر ، حتى كانت هونولولو تعج بالسفن التجارية من سالم وبوسطن محملة بخمر الروم وثروات اليانكى ، وبصائدى الحيتان من نانتوكيت ، وبرجال البعثات التبشيرية يعيشون فى بيوت خشبية بيضاء وراء أسوار وقائية بيضاء ، فأصبحت أشبه بمركز أمامى لنيو إنجلاند . وفى سنة ١٨٤٢ ، أعلن وزير الخارجية ويبستر أن الولايات المتحدة ما كانت لتسمح لأية دولة أخرى بضم الجزر إليها . وبعد سنوات قلائل ، أجرى وزير الخارجية مارسى مفاوضات لعقد معاهدة لضمها إلى الولايات المتحدة ، لم يرجع عدم إبرامها إلا إلى وفاة الملك هاميهاميها الثالث ، فى وقت غير مرتقب . وفى هذه الأثناء كانت مصالح أمريكا البحرية والاقتصادية والتبشيرية فى نمو سريع ، فأصبح من الجلى أن الضم مسألة لا تحتاج إلا إلى وقت .

وخلال هذه السنوات أيضاً ، أبدت أمريكا أولى إمارات اهتمامها الرسمى بالشرق الأقصى ، فقد كانت السفن الوافدة من سالم وبوسطن مألوفة فى الموانى الصينية وفى جاوة وسومطرا منذ باكورة أيام الجمهورية ، ولكن العلاقات التجارية مع الصين لم تنظم إلا فى سنة ١٨٤٤ ، عندما تفاوض كاليب كشينج وأبرم معاهدة تسمح للسفن الأمريكية بالرسو فى بعض الموانىء الصينية ، وتمنحها امتيازات فيها . ولقد تضاعف الاهتمام الأمريكى بالصين بعد سنوات قلائل ، عندما عين مغامر من سالم ، يدعى فردريك تاونسند وارد ، قائداً « للجيش المظفر دائماً » ، وأخمد عصيان تايبينج الكبير . وكانت مملكة اليابان — القائمة على الجزر — قد ظلت قروناً مغلقة فى وجه الاتصال مع أوربا ، ولكن الكومودور بيرى — وهو شقيق بطل بحيرة إيرى — أبحر فى سنة ١٨٥٣ على رأس بعثة إلى خليج طوكيو ، ثم عاد فى العام التالى ليبرم معاهدة فتحت اليابان للاتجار مع الغرب ، وكان هذا هو « فتح اليابان » الذائع الصيت ، الذى قدر له أن يغدو ذا عواقب متباينة بعد قرن واحد .

وإذا كان لزاماً على الولايات المتحدة أن تكون قوة كبرى فى المحيط الهادى — وهو أمر لم يكن منه مناص بعد ضم أوريجون وكاليفورنيا — فقد كان لابد من العمل على توفير مواصلات أسرع وأكثر أمناً من الإبحار حول رأس هورن . وكان البديل الواضح هو مد خط حديدى أو شق قناة عبر برزخ بناما . وقد أبرم الرئيس بولك فى سنة ١٨٤٦ معاهدة مع كولمبيا ، تكفل حياد إقليم بناما ، فى مقابل تأمين حرية المرور عبر البرزخ

وإزاء المصالح البريطانية الكبيرة فى أمريكا الوسطى ، أجرى وزير الخارجية كلايتون مفاوضات أسفرت فى سنة ١٨٥٠ عن معاهدة كلايتون ــ بَلْوير ، التى وافقت الولايات المتحدة بمقتضاها على السيطرة المشتركة على أية قناة يقدر لها أن تنشأ عبر البرزخ ، وتخلت بريطانيا عن حقوقها الإقليمية فى أمريكا الوسطى . وكان مقدراً أن ينقضى نصف قرن آخر قبل أن ينشىء المهندسون الأمريكيون القناة ، ولم يتحقق هذا إلا بعد إلغاء معاهدة كلايتون ــ بَلْوير . وفى الوقت ذاته ، أسرع رجال الأعمال الأمريكيون بإنشاء خط حديدى عبر البرزخ الخطر برغم ضيقه ، لتلبية حاجات آلاف من متصيدى الثراء الذين هرعوا إلى حقول الذهب فى كاليفورنيا . وفى عام ١٨٥٥ ، قام المغامر وليم ووكر ــ دون موافقة السلطات ــ بقيادة حملة على نيكاراجوا ، ومن مقعد رئاسة هذه الجمهورية المحدودة العمر ، حاول أن يبث الثورة فى أمريكا الوسطى بأسرها . وخيب أغراضه الكومودور فاندربلت ، الذى قاد عصبة منافسة من المحاربين ، وقد أسره جيش هونداراس فى سنة ١٨٦٠ وأعدمه .

الفصـــل ١١

الصراع بيـن القطـاعيـن

الـرق : « النظـام الفـذ »

زار المراقب النيويوركى الأريب فردريك لوأولمستيد ، قبيل الحرب الأهلية بحوالى ستة أعوام ، إحدى مزارع القطن الممتازة فى ولاية المسيسيبى . فوجد داراً كبيرة أنيقة ، وحوالى ألف وأربعمائة دونم مزروعة قطناً ، وأذرة ، ومحصولات أخرى ، ومائتى خنزير . وكان زهاءسبعين ، من العبيد المائة والخمسة والثلاثين ، يعملون فى الحقول ، وثلاثة من الميكانيكيين ، وتسعة من الخدم فى البيت والحظيرة . كانوا يكدون من الفجر حتى الـظلام ، ويرتاحون فى أيام الأحد ، وأحياناً أيام السبت . هكذا كانت جماعة الحصاد فى الصيف تقضى ست عشرة ساعة فى عمل بطىء مضنٍ ، مع توقف وجيز لفترة ساعة عند الظهيرة للراحة . وكان الغذاء ربع بوشل من الذرة ، وأربعة أرطالٍ من لحم الخنزير للفرد فى كل أسبوع ، بجانب الخضر والبيض والدواجن مما كان العبيد أنفسهم ينتجـون . وفى عيد الميلاد من كل عام ، كان العســل الأســود (المـولاس) والبن ، والتبـغ ، والقنب توزع عليهم بسخـاء . وكان العبيد يحصلون على الوقود لأكواخهم الصغـيرة من مستنقـع تكثر فيه الأشجار ، كما كان لهم أن يقتطعوا منه ، فى أيام الأحد ،

حزماً كبيرة للبيع ، ويستغلوا النقود لشراء كماليات بسيطة . وكان يجوس بين عمال الحقول شخص أسود يستحثهم على العمل ، مقرقعاً سوطه فى الهواء ، وهو يسمح له أحياناً بأن يهوى بلفحات خفيفة على مناكبهم . وقال المشرف الأبيض لأولمستد إن النظام كان حسناً ، وإن كان قد باع لفوره عبداً حاول أن يطعنه . وقال : « إن عبيده لم يكونوا يهربون فى أحيان كثيرة ، لأنهم كانوا شبه موقنين من أنهم لن يفلتوا . ولقد أطلق الكلاب لمطاردة عبد بمجرد أن تبين فراره » .

كانت تلك مثالاً لأحسن المزارع نوعاً . فقد وجد أولمستد ، كما وجد سواه ، مزارع كان الاستعباد فيها أقسى وأشد وحشية ، وكان بوسعه أن يجد بعض مزارع اتسم الاسترقاق فيها بأنه أرق وأرحم . ولقد عاب النقاد الرق بسبب تشغيل الزنوج فوق طاقتهم ، والجلد بالسياط من آن لآخر ، والقطع القاسى لوشائج العائلات بالبيع ، والحرمان من التعلم والارتقاء . أما المدافعون عنه فكانوا يمتدحونه لأنه كان يرعى العامل فى البطالة والمرض والشيخوخة ؛ ولأنه كان يعفى الجنوب من الإضرابات وقلاقل العمال ؛ ولأنه كان يدخل قوماً كفرة فى المسيحية ، ويرفع مستواهم تدريجاً ؛ ولأنه (كما كانوا يقولون) كان يجعل السادة ذوى شهامة ، والخدم ذوى ولاء . وكان للرق ، كنظام اقتصادى ، مهاجمون ومؤيدون . ولقد كان أولمستد يرى أن الرق يؤدى إلى إفقار الجنوب ، مثله فى ذلك مثل كاتب من كارولينا الشمالية ، هو هينتون روان هيلبر ، مؤلف « الأزمة الداهمة » ، بيد أن كثيرين من الزعماء الجنوبيين ، كانوا يفسرون تأخر قطاعهم على ضوء ازدياد ثروة الشمال ونفوذه . ولقد كان الشماليون يعلنون أن الرق ــ من الناحية الاجتماعية ــ يضر بالزنوج والبيض على السواء ، غير أن معظم الجنوبيين كانوا يرون أنه الوسيلة الصالحة الوحيدة للسيطرة على الجموع الكبيرة من الزنوج ، ولصون تفوق البيض وسيادتهم .

والواقع أنه لم يفهم طبيعة هذا النظام الفذ ، الذى كان أحد الجانبين يهاجمه بهذه القسوة ، والآخر يدافع عنه بهذه الحرارة ، سوى قلة من الأمريكيين ، سواء فى الشمال أو فى الجنوب . ذلك أن أهم الحقائق عن الرق الأمريكى ، هو أنه كان استرقاقاً للزنوج ، فأهم المعالم التى اتسم بها هو أنه كان مرتبطاً بالعنصر أكثر مما هو بالوضع القانونى . كان النظام بأسره يرمى إلى حد كبير إلى تنظيم علاقات السود والبيض أكثر مما يرمى إلى تنظيم العلاقات بين السيد والعبد ، ومع أن وضع الزنجى تغير تماماً بفضل

الحرب الأهلية والتعديل الثالث عشر (للدستور) ، فإن الصلات الاقتصادية والاجتماعية بين الزنوج والبيض لم تتغير بدرجة كبيرة قبل ثلاثة أرباع قرن من الزمن . ولقد كان معظم الحجج التى طرحت لتبرير الرق صالحة لأن تطبق بنفس القوة والموضوعية على نظرية تفوق البيض ، التى تبلورت بعد الحرب الأهلية ، كما أن معظم انتقاد دعاة إلغاء هذا النظام الفذ كانت قابلة لأن تهذب لتستخدم فيما بعد الحرب . فإن اليانكى عندما كانوا يرددون الحجج على أن الرق عرقل تقدم الجنوب ، وعندما كانوا يلقون عليه تبعة تأخر الزراعة ، والصناعة ، والتعليم فى الجنوب ، إنما كانوا يتحدثون فى الواقع عن وجود أيد عاملة سوداء ، رخيصة وجاهلة . وهو موقف ظل قائماً بعد تحرير العبيد . وكان بعض الجنوبيين يفهمون ذلك ، ولكن بالسليقة أكثر منهم بالعقل ، فكانوا عاجزين عن أن يبينوا أن الرق مرحلة انتقالية فى ارتقاء العلاقات العنصرية . ولما كان الشماليون لم يقدروا هذا ، فإنهم بدورهم لم يفقهوا ما كان ينطوى عليه تحرير العبيد ، وساقوا أنفسهم إلى خيبة أمل فادحة إزاء نتائجه .

ولم تحن سنة ١٨٥٠ ، التى تجاوز مجموع سكان البلاد فيها ثلاثة وعشرين مليوناً (متعدياً مجموع سكان بريطانيا العظمى فى العقد التالى من الزمن) ، حتى كان مجموع عدد العبيد ٣ ٢٠٠ ٠٠٠ . وكان عددهم فى ولايتى كارولينا الجنوبية والمسيسيبى يفوق عدد البيض ، وفى لويزيانا كانوا يعادلون البيض تقريبا . أما فى ألاباما ، فكانوا حوالى ثلاثة أسباع السكان . وكانت فى الجنوب مساحات شاسعة لا يبلغ العبيد عُشْر معشار السكان ، وكانت جبال أبلاش ــ من ميريلاند حتى ألاباما ــ خالية منهم إلى حد كبير . على أنه كانت ثمة مناطق أخرى ، يغلب عليها العبيد بدرجة كبيرة . فكانوا شمال تشارلستون مباشرة يؤلفون ثمانية وثمانين فى المائة من السكان وعلى ساحل جورجيا ثمانين فى المائة ، وفى ألاباما الوسطى حوالى سبعين فى المائة ، وفى شريط واحد على طول الجزء الأدنى من نهر المسيسيبى كانوا يفوقون تسعين فى المائة . وكان القسط الأكبر من السكان الزنوج حيث المناخ الحار ، والأرض المستوية الخصبة ، أدنى ما يكونون نسبة حيث الأراضى جبلية أوجرداء . ولم يكن يقتنى العبيد سوى أقلية من أهل الجنوب . فقد كشف التعداد فى سنة ١٨٥٠ عن ٣٤٧ ٧٢٥ مالكاً للعبيد من مجموع السكان البيض الذى بلغ حوالى ستة ملايين . ومع أن السود كانوا يُقتنون فى جماعات صغيرة فى مناطق زراعة القطن وقصب السكر والأرز ، فى الجنوب الأدنى ، فإن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف

أسرة ، تقيم فى أفضل الأراضى وتستمتع بثلاثة أرباع الدخل ، هى التى كانت تمتلك السواد الأكبر من العبيد . فكان هاول كوب فى جورجيا مثلاً ، يمتلك ألفاً من الزنوج ، يزرعـون القطن فى عشرة آلاف دونم . كذلك كان النفوذ السياسى والزعامة الفكرية تتركزان فى فريق صغير ، أرستقراطى بوجه عام .

وابتداء من حوالى سنة ١٨٣٠ ، أخذت الاتجاهات تشتد باطراد بصدد الرق ، بين القطاعين الشمالى والجنوبى . وكان نمو الدعوة إلى إلغاء الرق ، والشعور بحرية البلاد أشـد فى الـولايات الشـمالية . فأنشـأ وليم لويد جاريسـون المتأجج الحماس صحيفته « المحرر » Liberator فى بوسطن ، سنة ١٨٣١ . غير أن أهمية جاريسون كانت موضع مبالغة كبيرة ، فلقد قام بدور لا يقل عن دوره أثراً فريق قوى من أوهايو ، تزعمه الواعظ سى . جى . فينى والمتحمس المثير للخواطر ثيودور دى . ويلد ، وفريق من نيويورك تزعمه آرثر تابان . وكانوا أكفاء فى تنظيم المطالبة بالتحرير الشامل للعبيد « عتق الأصل والفـرع » . ولم يؤد الاضـطهاد إلا إلى زيادة النار اشتعالاً . وعندما قتل إليجاه بى . لفجـوى فى سنة ١٨٣٧ ، وهو يدافع عن مطبعته التى كانت تصدر النداءات بإلغاء الـرق ، ضد فريق من الغوغاء ، فى آلكتون بولاية إللينوى ازداد الكفاح شدة . فإن أحداث التدخل فى الحقوق المدنية ، أقنعت كثيرين من ذوى الكفاءة بأن قضية حرية الإنسان كانت ذات شأن كبير فى الصراع . فألهم اعتداء بعض الغوغاء على جاريسون الخطيب البليغ ونديل فيليبس ــ من بوسطن ــ بالانضمام إلى الحركة ، كما أن عدواناً على اجتـماع معـارض للرق فى أتيكـا ألهم جريت سميث ــ وكـان مثريا من أهالى ولاية نيويورك ــ بذلـك ، وأوحت الاعتـداءات على الصحافة فى أوهايو سالمون بى . تشيز القدير ، من تلك الولاية ، بالانضمام للحركة . ولم ينقض وقت يذكر ، حتى كان دعاة الإلغـاء الشـامـل للرق قد استحـوذوا على قوة شعبية كبـيرة . بيد أن دعـاة أرض الحرية (١) ، الذين أصروا على أن الرق يجب ألا يمتد بوصة واحدة أبعد مما امتد ، ازدادوا عدداً . وفى الوقت ذاته ، فإن عديدين من الزعماء فى الجنوب ، كانوا يعلنون أن الرق خير « مؤكـد » . فنشر تومـاس ديو ــ من جامعة وليم آند مارى ــ كتاباً يدافع عنه ،

(١) حركة انتشرت فى الولايات الشمالية والشرقية (اليانكى) لا ترى بدأ من بقاء الرق فى الجنوب ، حيث انتشر ، ولكنها تمانع فى أن يتجاوز ذلك النطاق ــ المترجم .

ووصفه هموند ، حاكم كارولينا الجنوبية فى سنة ١٨٣٥ ، بأنه حجر الزاوية فى صرحنا الجمهورى ، وأكد كالهون أن الرق كان أمتن قاعدة لثقافة رائعة ، مشيراً بذلك إلى أثينا القديمة .

ولقد رأى ذوو البصيرة ، من تاريخ مبكر ، أن هذا النزاع بين قطاعى الدولة يهدد الاتحاد . فأنذر جون كوينسى آدمز الجنوب مراراً ، فى مجلس النواب ، بأن الانفصال صنو الحرب ، وأنه « من اللحظة التى تصبح فيها ولاياتكم المتلكة للعبيد مسرحاً لحرب أهلية أو إرغامية أو أجنبية ــ من تلك اللحظة تمتد سلطات الحرب فى الدستور لتبيح اعتراض نظام الرق » . وكان مقدراً للينكولن أن يثبت صدق هذه النبوءة .

هبوب العاصفة

ما إن جعلت مسألة تكساس والحرب المكسيكية ضم مساحات شاسعة من الإقليم الجنربى الغربى أمراً محققاً ، حتى أقبل النزاع حول مسألة الرق على مرحلة حادة . فقد عاد « جرس الإنذار بالحريق فى جوف الليل » ، على حد تعبير جيفرسون ، يدوى من جديد بالنذير . كان الرق ، حتى سنة ١٨٤٤ ، قد اكتفى بتعزيز حقه فى البقاء دون ما مساس به ، فى الأماكن التى كان موجوداً بها إذ عُينت له حدود بمقتضى اتفاق ميسورى فلم يتجاوزها . حتى إذا ما جاهر بحقه فى الانتشار هبت جمهرة من الشماليين للمعارضة ، إذ كانوا يؤمنون بأنه إذا احتبس فى حدود مغلقة ، فسينقرض فى نهاية الأمر ، وكانوا يؤكدون أن واشنطن ، وجيفرسون ، وغيرهما من مؤسسى الجمهورية قد اعتنقوا هذا الرأى ويشيرون إلى تشريع سنة ١٧٨٧ ، الذى حظر امتداد الرق إلى الشمال الغربى ، كسابقة لها قوة الإلزام . ولما كان الرق موجوداً فى تكساس من قبل ، فقد كان من الطبيعى أن تدخل الاتحاد كولاية تبيح الرق . أما كاليفورنيا ، ونيو مكسيكو ، ويوتاه فلم يكن بها رقيق ، فلما همت الولايات المتحدة بضم هذه المناطق ، أعد ديمقراطى من بنسلفانيا يدعى ديفيد ويلموت مشروع قانون للضم ألحق به شرطاً يبين أن الرق يجب أن يكون محرماً إلى الأبد فى أى إقليم قد يتسنى اكتسابه من المكسيك . ولقد أجاز مجلس النواب شرط ويلموت ، أما مجلس الشيوخ فقد خذله .

وبدا للجنوبيين أن من الإجحاف المرير بالعدالة ألا تباح منطقة ساعدوا بدمائهم على اكتسابها لهم وللشماليين على السواء ، فتكون لأحد الفريقين حرية نقل ما يمتلكون من رقيق وللآخر حرية نقل ممتلكاتهم من الآلات إليها . أما بالنسبة لدعاة « أرض الحرية » فقد بدا من المثير للسخط أن تباح أقاليم بكر لنظام ينال من الاقتصاد الحر ويمس إدراكهم للأخلاق .

ولقد ارتبط بهذه المسألة سؤال دستورى : هل كان الدستور يسمح للكونجرس بأن يمنع أو ينظم الرق فى الأقاليم القومية أو لم يكن ؟ كان الكونجرس قد فعل ذلك مراراً ، بيد أن الأداة كانت مبهمة ، وقد أخذ كالهون وغيره من الراديكاليين الجنوبيين يؤكدون وجوب أن يمتد الرق فى إثر العلم إلى الأراضى العامة للدولة ، ولا سبيل إلى صدها عن دخولها . ولقد ظهر حزب قوى من دعاة « أرض الحرية » لأول مرة ، فى الحملة الانتخابية لعام ١٨٤٨ ، ورشح مارتن فان بورن لرئاسة الجمهورية ، وختم دعايته بهذه الكلمات المدوية : « إننا ننقش على علمنا : ' أرض حرة ، قول حر ، عمل حر ، بشر أحرار ' ، وتحت هذا العلم نناضل ، وسنظل نناضل حتى تكافأ جهودنا بنصر مظفر » . ولقد ظفر الحزب بقدر مدهش من الأصوات . وكان لجهوده الفضل الأكبر فى هزيمة الديمقراطيين ، وفى انتخاب آخر رئيس للجمهورية من حزب الأحرار ، وهو بطل الحرب زاكارى تيلور .

ولقد اتضح خلال الحملة الانتخابية وفى أعقابها ، أن الجنوب الأدنى يؤثر الانفصال على الرضوخ لشرط ويلموت . كما اتضح أن مناهضى الرق من الشماليين ما كانوا لينزلوا عند طلب كالهون بدخول الرق إلى كافة الأجزاء التى تم الاستحواذ عليها حديثاً . وكان لابد من توفيق ما . فاقترح فريق من المعتدلين أن يمتد خط عرض ٣٠ ٣٦° فى صلح ميسورى حتى المحيط الهادى ، وتكون الولايات شماله خالية من الرق ، بينما يباح الرق فى الولايات الواقعة جنوبه . واقترح فريق معتدل آخر ــ بزعامة لويس كاس من متشيجان وستيفن إيه . دوجلاس من إللينوى ــ إحالة المسألة إلى « السيادة الشعبية » . أى أن ترفع الحكومة القومية يديها عن الأمر ، وتسمح للمستوطنين بالتدفق إلى الأراضى الجديدة دون قيد بالنسبة للعبيد ، حتى إذا حان الوقت لتنظيم المنطقة فى شكل ولايات ، كان للقوم أن يبتوا فى المسألة بأنفسهم . وعندما اجتمع الكونجرس فى نهاية سنة ١٨٤٩ ، جاهر الجنوبيون بالتهديد بالانسحاب . وصاح

روبرت تومز من جورجيا بصدد مشروع شمالى بقانون : « إذا أجيز ، فإننى أحبذ الانفصال » .

تسوية سنة ١٨٥٠

فى هذه الأمة ، أوقف هنرى كلاى نزاعاً إقليمياً خطيراً ــ للمرة الثالثة ــ بتسوية حسنة السبك . وتضمن مشروعه أن تضم كاليفورنيا كولاية حرة (خالية من الرق) ، وأن تُجعل نيو مكسيكو ويوتاه إقليميين بدون تشريع محبذ أو محرم للرق ، وأن يقام جهاز أكثر كفاءة لإعادة العبيد الهاربين إلى أصحابهم ، وأن تلغى تجارة الرق فى مقاطعة كولمبيا ، وأن تُعوَّض تكساس عن أراض ضمت إلى نيو مكسيكو . كان على كل من الجانبين أن ينزل عن شىء . ولقد صدر معظم هذه المقترحات عن دوجلاس أصلاً ، بيد أن كلاى صاغها معاً ، ولم يكن ثمة غنى عن مؤازرته . إذ أن الحاجة كانت تمس إلى مكانته فى كافة القطاعات ، وإلى لباقته ، وإخلاصه الصادق العميق ، ونفوذ الملتفين حوله ، وشخصيته الساحرة ، للوصول إلى الفوز .

وكانت المناقشات التى صاغت تسوية سنة ١٨٥٠ فى شكلها النهائى من أبدع المناقشات فى التاريخ الأمريكى . وكان فى مجلس الشيوخ إذ ذاك ثلاثة من العمالقة البرلمانيين ، يقتربون جميعاً من حافة القبر ، هم : كلاى ، وويبستر ، وكالهون . كما كان فيه زمرة من ذوى المواهب الرفيعة الذين يصغرونهم سناً ، هم : ستيفن إيه . دوجلاس ، وجيفرسون ديفز ، ووليم إتش . سيوارد ، وسالمون بى . تشيز . ومن بين هؤلاء الرجال ، عارض كالهون وديفز التسوية بوصفها مجحفة بالجنوب . فكتب الأول دفاعاً مؤثراً ، منادياً بوجوب معالجة شكايات الجنوب فى سبيل تفادى صراع مأسوى . وقال إن الخيوط التى كانت تربط الشمال والجنوب أخذت تتقطع واحداً بعد آخر . وقد انقسمت الكنيستان : المنهجية (الميثوديست) والمعمدانية ، إلى فريقين . . « عندما لا يبقى شىء للإبقاء على تجمع الولايات سوى القوة ، فإن هذه القوة بالذات ستنتهى ، وهى تعمل بنشاط متزايد ، إلى قطع كل خيط ، إذا استمرت الإثارة المهتاجة » . وإذ كان من الضعف بحيث لم يقو على قراءة خطابه . فقد سار مترنحاً إلى مجلس

الشيوخ ، ليسمعه على لسان زميل له من فرجينيا . وعارض سيوارد وتشيز التسوية باعتبارها مجحفة بالشمال . بيد أن كلاى حظى بتأييد رائع من دانييل ويبستر . ففى خطاب قوى ألقاه ويبستر فى ٧ مارس ، وكان آخر خطاب عظيم فى حياته ، دافع عن الوحدة « لا كرجل من أبناء مساشوستس ، وليس كرجل من أهل الشمال ، وإنما كأمريكى » . ولقد أحنق تأييده للمواد الخاصة بالعبيد الهاربين فى التسوية أبناء نيو إنجلاند المتطرفين فى مناهضة الرق . ولكن الخطاب كان مثالاً للحذق فى سياسة الدولة ــ كان آخر خدمة جليلة يقدمها للأمة . وانتصرت آخر الأمر روح كلاى ودوجلاس وويبستر المتسمة بالاعتدال . وتم إقرار إجراءات التسوية فتنفست البلاد الصعداء . وكان من المحتمل أن يرفض زاكارى تيلور التصديق على مشروعات القوانين ، لولا أنه كان قد توفى فى أوائل الصيف ، فوقعها عن طيب خاطر خليفته ميلارد فيلمور المغمور ، المنسى الذكر .

وبدا أن التسوية قد أقرت كافة الخلافات تقريباً ، طيلة سنوات ثلاث قصار . فقد أيدتها أغلبية من حزبى الأحرار والديمقراطيين بحرارة . ومع ذلك فإن التوتر ظل قائماً وأخذ ينمو تحت السطح . فإن القانون الجديد الخاص بالعبيد الهاربين أساء إلى شعور كثيرين من أهل الشمال ، فرفضوا أن يشتركوا فى القبض على العبيد ، بل إنهم كانوا على النقيض ، يساعدون الهاربين على الإفلات . وأصبح « الخط الحديدى الخفى » المفضى من العبودية إلى الحرية أكثر كفاءة وأقل تحرجاً من الظهور . ولقد أفلت بعض العبيد من المناطق الساحلية بالسفن . وسار بعضهم على الأقدام من مزارعهم إلى نهر أوهايو ، متنقلين فى الليل مسترشدين بالنجم القطبى الشمالى ، وتلقوا هناك المساعدات للانتقال إلى كندا . وسلك بعضهم سلسلة جبال أبلاش إلى بنسلفانيا . وانبثت فى أرجاء الولايات الشمالية الأوكار والمخابىء للهاربين ، وأخذ رجال مثل ليفى كوفين ــ الملقب برئيس « الخط الحديدى الخفى » ــ يساعدون العشرات على بلوغ بر الأمان . وفى سنة ١٨٥٠ ، تعرض حوالى عشرين ألفا من العبيد الهاربين ، الذين استقروا فى المستوطنات الشمالية ، للاعتقال ثانية ، بيد أن الجهود للإيقاع بالرجال كثيراً ما أثارت أعمال الشغب .

ولقد ألهم قانون العبيد الهاربين هارييت بيتشر ستو تأليف رواية « كوخ العم توم » ، التى رسمت ــ إذ ظهرت ككتاب فى سنة ١٨٥٢ ــ صورة قاتمة للرق ، بلغ من

قوة وقعها أنها أثارت شعوراً عميقاً فى الشمال والجنوب معاً . وكانت مسز ستو قد أقامت فى مدينة سينسيناتى ، بمنطقة الحدود ، وقامت بزيارات فى داخل بيوت أصحاب المزارع فى كنتكى . ولقد انصفت كل الإنصاف الكثيرين من مقتنى العبيد ، الذين أوتوا رحمة وكرماً ، وكان الموكل بتشغيل العبيد الفظ الوحيد فى روايتها ، وهو سيمون ليجرى من أصل يانكى . بيد أنها أظهرت كيف أن القسوة كانت نداً لا ينفصل عن الرق ، وكيف أن مجتمعى الأحرار والعبيد كانا متناقضين فى جوهريهما فلا سبيل للجمع بينهما . ولقد تُرجم كتابها إلى ما يزيد على عشرين لغة ، وبيع منه فى الإمبراطورية البريطانية أكثر من مليون نسخة ، حتى إذا حول إلى مسرحية إذا بها تذهل أعداداً هائلة من النظارة . وقد هز مشاعر الجيل الناشىء من الناخبين فى الشمال بدرجة كبيرة .

وما لبثت مسألة الرق القديمة فى الأقاليم أن نكئت من جديد ، فى سنة ١٨٥٤ ، ومع احتدام الخلاف ، برز زعماء جدد ليتولوا قياد الفريقين . وإذا المتطرفون من الجنوبيين يعقدون العزم على التخلص من صلح ميسورى ، الذى كان يحرم الرق فى أعالى وادى ميسورى بأكملها . فلما اتخذت خطوات لتحقيق هذا ، هب الشمال كعملاق غاضب .

وكانت البلاد الواقعة خلف نهر ميسورى ، والتى أصبحت مؤلفة من ولايتى كنساس ونبراسكا الخصبتين ، تجتذب المستوطنين ، وتبشر بنهوض سريع إذا ما تسنى إبعاد الهنود عنها ، وإقامة حكومة راسخة الاستقرار . وكان الرائد المستكشف جون سى . فريمونت وغيره قد بددوا الفكرة القديمة عن وجود « صحراء أمريكية شاسعة » فى هذه المنطقة ، وأيقن كثير من أهل الشمال بأن المستوطنين خليقون بأن يتدفقوا على المنطقة إذ تم تنظيمها كإقليم تابع للدولة ، فيتسنى مد خط حديدى خلالها ، يصل بين شيكاغو وساحل المحيط الهادى . وكان هذا كفيلاً بإحباط مشروع جنوبى لمد خط حديدى من نيو أورليانز نحو الغرب . ولم يكن ثمة بد من عمل مبادر ، لأن الطريق الجنوبى كان يمتد خلال ولاية تكساس المستقرة ، وإقليم نيو مكسيكو ، ولا يتعرض كثيراً لعدوان الهنود ، كما كانت الأراضى العامة متوفرة لمنحها لمنشئى الخط الحديدى . وما كان هناك من يفوق ستيفن إيه . دوجلاس ، الذى كان يقيم فى شيكاغو ، تحمساً للتمهيد للخط الحديدى الشمالى . وكان من تجار العقارات النشيطين ، وقد صار رئيساً للجنة الأقاليم بمجلس الشيوخ . بيد أنه صادف معارضة شديدة . إذ أن هذه البلاد

بأكملها كانت مغلقة دون الرق ، وفقاً لاتفاقية ميسورى ، وقد عارضت ميسورى فى أن تصبح كنساس ، التى تتاخمها غرباً ، إقليماً محرماً على الرق ، وما كان أسهل على عبيد ميسورى من الهرب إلى هذه المنطقة المحرمة على الرق . وفضلاً عن هذا ، كان مقدراً على ميسورى إذ ذاك أن تصبح محوطة بثلاث جارات محرمة على الرق ، ومن المحتمل أنها لن تلبث أن تنصاع لحركة كانت قد اشتدت فعلاً ، فتصبح هى الأخرى ولاية محرمة على الرق فى القريب . ولقد ظل زعماء ميسورى فى واشنطن يسدون الطريق فى وجه كافة الجهود لتنظيم المنطقة لفترة من الزمن ، يساندهم فى ذلك الجنوبيون .

ثم دفع السناتور دوجلاس المعارضة قدماً بمشروع قانون أثار سخط كافة أنصار تطهير البلاد من الرق . وكان هذا المشروع تطبيقاً للنظرية المفضلة لديه ، نظرية السيادة الشعبية . وكان المشروع فى صياغته النهائية ينادى بأن بنود تسوية سنة ١٨٥٠ قد جبَّت تسوية ميسورى ، مما يدع ليوتاه ونيومكسيكو حرية البت بنفسيهما فى مسألة الرق ، وينظم إقليمين ــ هما كنساس ونبراسكا ــ بحيث يسمح للمستوطنين باستجلاب الرقيق إليهما ، ويخول سكانهما سلطة البت فيهما إذا كانا يدخلان الاتحاد كولايتين يحرم الرق أو يباح فيهما . ولا مراء فى أن حوافز دوجلاس كانت خليطاً من الأمرين ، فاتهم بأنه كان يلتمس رضاء الجنوب ليظفر برئاسة الجمهورية فى سنة ١٨٥٦ ، وما من شك فى أن مطامحه السياسية كانت قوية . ولقد كان معاونوه من الديمقراطيين من أبناء الجنوب فى الغالب ، كما أنه كان قد تزوج من جنوبية ، ولم يكن يكره الرق أو يعترض على انتشاره . إنما كان اعتراضه الرئيسى هو تعجل تطوير المنطقة ، التى كان يرى أن مناخها غير ملائم للرق على أية حال .

وإذا كان قد اعتقد أن الشعور العام فى الشمال لن يلبث أن يتقبل مشروعه فى دعة ، فإنه سرعان ما تبين الحقيقة . إذ أن فتح هذه البطاح الغربية الغنية للرق بدا للملايين أمراً لا سبيل لاغتفاره ، فاتسم سير مشروع قانون كنساس ــ نبراسكا بمناقشات محتدمة . فأدانته الصحافة الداعية لتطهير البلاد من الرق ، وهاجمه رجال الدين الشماليون من آلاف المنابر فعلاً ، وإذا رجال الأعمال الذين كانوا يولون الجنوب ودهم حتى ذاك الحين يعرضون عنه ، وعقدت الاجتماعات الجماهيرية فى كافة المدن الرئيسية فى الشمال لمهاجمة دوجلاس ومشروعه . ولقد اعترف بأنه كان من الممكن أن يسافر من واشنطن إلى شيكاغو على ضوء النيران التى أشعلت لحرق دمى تمثله . وفى صباح أحد

أيام شهر مارس ، أقر مجلس الشيوخ مشروع القانون وسط هدير المدافع التى أطلقها الجنوبيون المتحمسون . ولقد قال تشيز ، وهو يهبط درجات سلم الكابيتول ، لتشارلز سومنر الماساشوستسى : « إنهم يحتفلون بفوز حاضر ، بيد أن الأصداء التى يثيرونها لن تهدأ حتى يقضى على الرق ذاته » . وعندما عمد دوجلاس إلى زيارة شيكاغو للدفاع عن نفسه ، نكست السفن فى الميناء أعلامها إلى منتصف الصوارى ، وظلت أجراس الكنائس تدق ساعة من الزمن ، وأخذ حشد من عشرة آلاف شخص يصيحون ويزمجرون ، حتى اضطر دوجلاس أخيراً ، وقد أنهكه الجهد لأن يجعل صوته مسموعاً ، إلى أن يخرج ساعته ، ثم يهتف وفقاً لما رواه بعض من سمعوه : « لقد حل صباح الأحد ، وسأذهب الآن إلى الكنيسة ، ولكم أن تذهبوا إلى الجحيم ! » .

وكانت النتائج السريعة لتشريع دوجلاس المنكود عظيمة الأهمية . فإن حزب الأحرار الذى وقف موقفاً مهتزاً من مسألة انتشار الرق إلى الأقاليم ، تردى ميتا ، ونهض مكانه تنظيم قوى جديد ، هو الحزب الجمهورى . وكان عزيز الجانب من البداية ، لمثاليته ، وامتلائه بالتحمس ، واجتذابه الشباب من ذوى الذكاء والحمية ، واستهوائه رجال الأعمال فى الشرق والمزارعين فى الغرب على السواء . وكان مطلبه الأول هو إقصاء الرق عن جميع الأقاليم . وقد رشح فى سنة ١٨٥٦ ، جون سى . فريمونت الجرىء المقدام ، الذى أكسبته رحلاته الاستطلاعية الخمس فى الغرب الأقصى شهرة كان أهلاً لها ، والذى اكتسح قسماً كبيراً من الشمال بصيحته المثيرة « بشر أحرار ، أرض حرة ، فريمونت » . ولو أنه وفق لاستمالة بنسلفانيا بهذه الصيحة فى انتخابات أكتوبر ، لكان من المحتمل أن يتفوق على المرشح الديمقراطى جيمس بوكانان . ولقد ازداد نفوذ زعماء « أرض الحرية » ــ من أمثال سيوارد وتشيز ــ كما لم يزدد فى يوم من الأيام ، وبرز معهم محام طويل ، نحيل من إللينوى ، أظهر قوة منطق مذهلة فى مناقشة المسائل الجديدة . . ذلك هو أبراهام لينكولن .

كان خير بيان لمبادىء أرض الحرية قدم حتى ذلك الحين ، خطاب ألقاه لينكولن فى بيوريا ، فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٥٤ . فقد قال إنه لا يبغى التدخل فى مسألة الرق فى وضعها إذ ذاك . وقال : « لو أننى أوتيت كافة السلطات الدنيوية ، لما عرفت ماذا ينبغى أن أفعل للنظام القائم » . وأعلن أن حق الكونجرس المعنوى فى إلغاء تسوية ميسورى لا يزيد على حقه فى إلغاء القانون المناهض لاستجلاب العبيد من أفريقيا . وأكد أن

جميع التشريعات القومية يجب أن تصاغ فى إطار المبدأ الذى اتخذه الآباء المؤسسون للجمهورية ، وأن الرق نظام لابد من تقييده ثم إلغائه فى النهاية . كما أنه ذهب إلى أن مبدأ « السيادة الشعبية » زائف ، إذ أن الرق فى الغرب لم يكن أمراً يعنى أهل الغرب وحدهم ، بل إنه يعنى الولايات المتحدة بأسرها . . وقال : « كيف يكون لواحد وثلاثين مواطناً من نبراسكا حق معنوى فى أن يحرموا المواطن الثانى والثلاثين من اقتناء العبيد ، ولا يكون لأهل واحدة وثلاثين ولاية أن يحرموا دخول الرق فى الولاية الثانية والثلاثين إطلاقاً ؟ » .

ولقد أدى تدفق مقتنى العبيد من الجنوبيين ومناهضى الرق من الشماليين على كنساس ، إلى صراع حاد ، تخللته فترات من حرب العصابات الضارية . واتخذت إجراءات فى القطاعين لإيفاد طلائع للمستوطنين للاستيلاء على الإقليم ، فكانت « جماعة إعانة الهجرة » فى الشمال ذات كفاءة خاصة . إذ كان موفدوها يذهبون مسلحين تسليحاً جيداً . ولقد جاهر القس البروكلينى ذو الشهرة الشعبية هنرى وورد بيتشر فى اجتماع دعا فيه أحد الشمامسة إلى تزويد إحدى الجماعات بالأسلحة ــ بأن بندقية من طراز « شارب » كانت أعظم من الكتاب المقدس عوناً معنوياً ، وانبثقت عن هذه الإشارة العبارة المألوفة « كتب بيتشر المقدسة » . وسرعان ما تجلى أن الشمال يستأثر بالوضع الأفضل . وساعد على ذلك قرب الإقليم من العدد الهائل من أنصار « أرض الحرية » فى أعالى وادى المسيسيبى ، والأخطار التى كانت تحف باصطحاب العبيد إلى إقليم قد لا يلبث أن يغدو من مناطق تحريم العبيد . على أن كثيرين من « أشقياء مناطق الحدود » عبروا النهر وافدين من ميسورى ، ليدلوا بأصوات غير قانونية ، أو ليرهبوا المستوطنين من الشماليين ، فى الوقت الذى كانت فيه القوى المقتنية للعبيد تحظى فيه بمساندة حكومة بوكانان فى واشنطن . ومن ثم فإن الصراع استطال ، مثيراً شعوراً مطرد الاحتدام فى كافة أرجاء البلاد . وعندما حاول بوكانان المتخبط فى الخطأ أن يغرى الكونجرس ، وكانت الغلبة فى المجلسين للديمقراطيين ، بضم كنساس للاتحاد كولاية ، بموجب دستور ليكومتون الذى يبيح الرق ، اجتاحت الشمال عاصفة جديدة ، وتخاصم دوجلاس نفسه مع رئيس الجمهورية استنكاراً .

وفى الوقت ذاته ، رفض كثيرون من الشماليين تنفيذ قانون العبيد الهاربين ، الذى كان جزءاً من تسوية سنة ١٨٥٠ ، إذ شعروا بأن الجنوب قد خرق هذا الاتفاق . وكتب

الشاعر جون جرينليف هويتير : « لا مطاردة للعبيد على حدودنا ، ولا قرصنة على مياهنا ! لا أغلال فى خليج ولايتنا ، ولا رقيق على أرضنا ! » . وازداد شيوع تدخل الجماهير لصالح الزنوج الهاربين ، وأجازت كثير من ولايات الشمال « قوانين الحرية الشخصية » وأبطلت علانية التشريع الفيدرالى . فلما اعتقل العبد أنتونى بيرنز فى بوسطن ، سنة ١٨٨٥ ، بادر عدد من أبرز زعماء المدينة إلى الذود عنه . وتدفق الغاضبون من كافة الأرجاء الشرقية لمساشوستس ، وملأت الجماهير المتوعدة الشوارع ، وتطلب جر زنجى مسكين واحد لإعادته إلى الرق اتحاد قوة شرطة المدينة ، والحرس الوطنى بالولاية والجيش والأسطول القوميين .

الانسياق إلى الحرب

أخذت الأمة تسير نحو الحرب عاماً بعد عام ، وكأنما كان ثمة طبل ضخم يدق منظماً الخطى نحو الاشتباك ، دقة إثر دقة . ففى سنة ١٨٥٦ ، اعتدى عضو فى الكونجرس عن كارولينا الجنوبية ، يدعى بريستون بروكس ، على سومنر من مساشوستس ، وانهال عليه بعصاه فى عنف ، وهو يجلس إلى مكتبه فى مجلس الشيوخ ، حتى إنه قضى سنوات عديدة فى مرض . كان الاستفزاز عظيماً ، تمثل فى خطاب من سومنر ملىء بالإساءة المقذعة . بيد أن التصرف لم يكن مما يمكن تبريره . وفى سنة ١٨٥٧ أعلن كبير القضاة تانى وأغلبية من أعضاء المحكمة العليا ، فى قضية دريد سكوت ، أنه لم يكن للكونجرس سلطة لتحريم الرق فى الأقاليم التابعة للجمهورية . وكان هذا تأويلاً سيئاً ، قام على حجج سيئة . فبادرت الصحافة والساسة المناصرون لأرض الحرية إلى مهاجمة المحكمة بقسوة لم يسبقها مثيل ، معلنين بأنهم سيعملون مهما طال الزمن على تغيير هذا الصرح الخاطىء . وكتب رئيس التحرير الشاعر وليم كولن بريانت : « إذا ساند القانون هذا القرار ، فإن الرق ، من الآن ، لن يكون ما اعتاد أهل الولايات التى يباح فيها الرق أن يسموه ، نظامهم المميز الخاص ، بل سيكون نظاماً اتحادياً (فيدرالياً) ، سيكون التراث والعار المشتركين لكل الولايات ، ما يتخذ منها لقب الولايات الحرة ، وما يتقبل منها وصمة أن يكون أرض الاستعباد . ومن الآن سيحمل

سلطان القانون معه أينما امتد القيد والنير . وحيثما يرفرف علمنا ، فهو علم الاسترقاق . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن الواجب محو ضوء النجوم وخطوط الصباح الحمراء عن هذا العلم ، وليُصبغ باللون الأسود ، وليكن شعاره السوط والقيد . فهل علينا أن نتقبل هذه التفسيرات الجديدة للدستور دون نقاش . . ؟ أبداً ! أبداً ! » .

وجرت فى سنة ١٨٥٨ سلسلة المناقشات الباقية الذكر بين لينكولن ودوجلاس ، فى إلليـنوى وكلاهما يسعيان إلى مقعد فى مجلس الشيوخ . ولم تكن هذه المناقشات تتسم بتكـافؤ يذكـر ، فقـد كان دوجـلاس قصيراً ، بديناً ، قوياً ، ذا رأس ضخم ، وكان لينكـولن عمـلاقـاً نحيلاً ، هيابـاً ، تعلو قسماته غير المليحة موجة من الشعر الأسود الخشن ، فكـانـا يمثلان تناقضاً صارخاً . ولكن ما من مجادلات فى اللغة الإنجليزية أوتيت ما قدما من حصافة ، أو لماحية ، أو قوة سكسونية . وقد قاما بدور كبير فى إيقاظ البـلاد وتنبيههـا إلى معنى تلك المسـائـل . يضاف إلى هذا أن لينكولن أفلح فى حمل دوجلاس على أن يردد بتأكيد إيمانه بأن قرار دريد سكوت لا يقضى بالضرورة على مبدأ السيادة الشعبية فى الأقاليم . ومن الصحيح أن المحكمة العليا كانت قد قضت بأن كلا من الكونجرس والهيئة التشريعية الإقليمية لا يملك التدخل فى مسألة الرقيق هناك . بيد أن دوجلاس أوضح أن الرق لا يمكن أن يعيش فى المجتمعات المعادية له ما لم تحمه لوائح بوليسية موضوعية ، ففى وسع أية جماعة أن تشوهه وتقضى عليه . وعندما سمع الجنوبيون هذا الإقرار الجرىء من دوجلاس ، آزر الكثيرون بوكانان فى فصل دوجلاس عن الحـزب الديمقراطى ، ولقد فاز بعضوية مجلس الشيوخ ، ولكن لينكولن أصبح شخصية قومية بعد ذلك العام .

ثم جاءت إغارة جون براون على هاربرز فيرى فى سنة ١٨٥٩ . كانت غزوة تهوسية لفيرجينيا بوساطة جماعة صغيرة كانت ترجو أن تحرر العبيد وتسلحهم . ولقد أخفق هذا المشروع الخيالى والإجـرامى إخفاقاً تاماً واهتاجت خواطر الجنوب بحق من جراء هذا الهجوم . ولكن كثيرين من أهل الشمال مجدوا براون عندما شنق مع ستة من أتباعه ، ورفعوا هذا الداعية لإلغاء الرق إلى مرتبة شهداء الحرية . ولم ينقض عامان حتى كان الجنود يسيرون إلى المعركة على أنغام لحن « جسد جون براون » .

ومن الحقائق التى أضفت خطورة بالغة على هذه الأحداث ، أن الشمال والجنوب كانـا قد تطورا إلى قطاعين مختلفين اختلافاً كبيراً من النواحى الاقتصادية والاجتماعية

والسياسية ، كان الجنوب بأكمله ـ تقريباً ـ ريفياً ، فليست به سوى مدينة كبيرة واحدة ، هى نيو أورليانز . بينما انتشرت المدن فى أجزاء كبيرة من الشمال ، وأخذ سكان نيويورك يقتربون حثيثاً من المليون . ولم تكن فى الجنوب صناعة تذكر ، وأن كانت بعض المشروعات القليلة ـ مثل مصانع تريديجار للحديد فى ريتشموند ـ قد ازدهرت ، والواقع أن ما كانت تستهلكه مصانع النسيج فيه من القطن ، كان يقل عما تستهلكه مدينة لوويل وحدها فى مساشوستس . يقابل هذا أن الشمال كان قد أصبح زاخراً بالمنشآت الصناعية : ينتج الحديد والمنسوجات والأحذية والساعات والأدوات الزراعية وألف سلعة أخرى على نطاق كبير ، وينشىء السفن ، ويعبىء اللحوم ، ويطحن القمح إلى دقيق ، وينمو فى البراعة الفنية باطراد . وكان السيل الدافق من المهاجرين الأوربيين بأكمله تقريباً (٢٤٥٢٠٠٠ فى العقد الواقع بين ١٨٥٠ و ١٨٦٠) قد أقام فى الشمال والغرب ، فاستقر الإيرلنديون فى المدن ، وذهب كثيرون من الألمان والاسكندنافيين إلى المزارع ، وتناثر البريطانيون فى كل مكان . وكان هذا القطاع قد بدأ يعانى فعلاً من مشكلة تنظيم القوى العاملة ومن مشكلة الأحياء الفقيرة . وكان الجنوب على استعداد للترحيب بالهجرة إليه ، ولكنه لم يؤت سوى النزر اليسير منها ، لأن المهاجرين لم يكونوا يحفلون بمزاحمة العبيد الزنوج . وكان إنشاء الطرق الحديدية فى الشمال أكثر تقدماً مما كان فى الجنوب بدرجة كبيرة . فقد أنشئت على جبال أبلاش أو حولها ثلاثة خطوط رئيسية من الشرق : فقد اكتمل خط إيرى من نيويورك إلى منطقة بفالو فى سنة ١٨٥١ ، واكتمل خط بنسلفانيا من فيلادلفيا حتى بيتسبيرج فى سنة ١٨٥٢ ، واكتمل خط بلتيمور وأوهايو من بلتيمور حتى هويلنج ، فى سنة ١٨٥٣ . وكان خط إللينوى المركزى هو أعظم الخطوط الغربية ، إذ حظى بمنحة سخية من الأرض مساحتها ٢٦٠٠٠٠٠ دونم ، وتربط شيكاغو بالخليج . وكان الشطر الأكبر من العشرين ألف ميل من الخطوط الحديدية التى أنشئت بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٦٠ ، ممتداً فى الشمال .

وكان قسم مطرد الازدياد من سكان الشمال يؤمنون بالحماية الجمركية ، فى حين أن الجنوب الزراعى كان يكرهها ، إذ كان يرغب فى الحصول على حاجته من السلع المصنوعة بأسعار رخيصة . وكان الشمال معنياً بزيادة سرعة توزيع أراضى الدولة على صغار الملاك ، فأخذت المطالبة بتيسير مسكن تلحق به قطعة من الأرض لكل مستوطن دون مقابل ، تتحول باطراد إلى صيحة شعبية : « أعط صوتك لتظفر بمزرعة » .

أما الجنوب فكان يرغب فى أن تظل أراضى الدولة فى أيدى الحكومة ولا تباع إلا بأسعار مناسبة . وكان الشمال يبغى نظاماً مصرفياً قومياً كفءاً ، أما الجنوب ــ الذى لم يكن يجمع من المال إلا القليل ــ فكان ضد مركزية النظام المصرفى . وبرغم نمو الفوارق الشاسعة بين الغنى والفقر فى المدن الكبيرة فى الشمال ، فإنه كان أكثر ديمقراطية من الجنوب حيث كانت قلة ضئيلة من مقتنى العبيد تستأثر بمعظم الثروة والسلطان .

على أن هذه الفوارق ما كانت ــ بالرغم من أهميتها ــ لتوقع الفرقة بين القطاعين لو لم يضخمها الخوف والتحامل ، ولو لم يستغلها مثيرو الفتن بين عامة الشعب . كان الجنوب يدرك إدراكاً حاداً أن وراء مشكلة الرق مشكلة عنصرية لا يكاد يوجد حل لها . وفى هذا قال جيفرسون : « لقد أمسك الجنوب بالذئب من أذنيه » ، وما كان قادراً على أن يظل ممسكاً به ، ولا على أن يطلقه . وأدى تهيج الخواطر الذى أثاره دعاة إلغاء الرق إلى خوف من أن يقدم الشمال على مهاجمة الرق فى الأماكن التى كان موجوداً فيها من قبل ، وأن يعطل النظام التاريخى للأيدى العاملة فى الجنوب ، وأن يدفع عنصراً ضد عنصر مما يؤدى إلى دمار الاثنين . والواقع أن قسطاً كبيراً من النقد الشمالى كان أنانياً ، من طراز عابث منافق ، فهو غير بناء ومشعل الخصام . يقابل هذا أن الشماليين ، حتى أحكمهم منطقاً مثل لينكولن ، كانوا يخشون أن يعمل المتطرفون الجنوبيون على نشر الرق فى الأمة بأسرها . كما أنهم كانوا يخافون أن يقدم الجنوب الأدنى على محاولة إعادة إباحة تجارة الرقيق إذ كان بعض زعمائه يدعون لذلك ، وفى السعى إلى نشر نظام الرق ، قد يسوق الأمة إلى حروب لغزو كوبا أو المكسيك أو أمريكا الوسطى . وكان بيان أوستند فى سنة ١٨٥٤ ، وهو بيان مجاف للمسئولية ، محبذ لضم كوبا ، وقعه الوزراء الثلاثة ــ من الحزب الديمقراطى ــ الذين كان الرئيس فرانكلين بيرس قد أوفدهم إلى بريطانيا العظمى وفرنسا وإسبانيا . هذا البيان أثار عدم الاطمئنان إلى روح الاستعمار لدى الجنوب . وكذلك فعلت حملات القرصنة غير النظامية التى قام بها المغامر المتهور وليم ووكر فى أمريكا الوسطى .

ولقد بالغ كثيرون من كتاب الصحف ورجال الدين والسياسيين الشماليين فى مساوىء الرق وفى نوايا ممتلكى الرقيق ، وبالغ كثيرون من مثيرى الفتن فى الجنوب فى مساوىء المجتمع الصناعى وأهداف الداعين إلى أرض الحرية . ولقد قال أحد الحكماء من زعماء نيويورك ، إن الوئام بين القطاعين كان خليقاً بأن يصان لوتسنى جمع أسوأ

مثيرى الخواطر من الفريقين وشحنهم فى مركبة وإغراقهم فى نهر بوتوماك لمدة خمس عشرة دقيقة . ولكن وجهة النظر هذه كانت مغرقة فى التفاؤل ، فسرعان ما كان غيرهم خليقين بأن يحلوا محلهم .

انتخاب لينكولن : الانفصال

تيسر فوز الحزب الجمهورى فى سنة ١٨٦٠ ، وهو ما عجل بانفصال الجمهور ، بفضل انقسام فى الحزب الديمقراطى . وتكمن وراء هذا الانقسام قصة من أكثر القصص إثارة فى التاريخ السياسى الأمريكى .

ذلك لأن كتلة مطردة النمو من المتطرفين الجنوبيين ، ظلت أعواماً تطالب بأن يجيز الكونجرس قوانين لحماية الرق فى الأقاليم . فلما أعلن دوجلاس أن قرار دريد سكوت الذى يبيح للرق دخول كافة الأقاليم ، قد يصبح غير ذى قيمة بفضل القوانين المحلية المعادية لذلك ، تضاعفت المطالبة بهذه الحماية . وكان المعبرون عن هذه المطالبة هم جيفرسون ديفز من المسيسيبى ، ووليم إل. يانسى من ألاباما ، وروبرت تومز من جيورجيا ، وهم ثلاثة من المتكلمين بلسان مملكة القطن . وفى أوائل سنة ١٨٥٩ ، ردد : ألبرت جى . براون هذا الطلب فى مجلس الشيوخ ، ثم التفت إلى دوجلاس وسأله عن موقفه ، قائلاً : « هل تنشط إذا رفضت السلطات التشريعية للأقاليم أن تعمل ؟ وإذا هى أجازت قوانين معادية للرق ، فهل تلغونها وتحلون محلها قوانين تحبذ الرق ؟ » وقال إن الجنوب يطالب بعمل . . عمل موضوعى ، قاطع . وقد هب أعضاء آخرون من الجنوب إلى تأييده .

بيد أن دوجلاس لم يؤخذ بالإحراج ، فجهر بأن طلب براون انتهاك للحقوق الشعبية فى الأقاليم . فما أقر الكونجرس يوماً ، فى التاريخ الأمريكى ، قانوناً جنائياً لأى إقليم ، ولا قانوناً يحمى الثروة فى أى إقليم . إذ كان الكونجرس منذ سنة ١٧٨٩ قد ترك هذه الأمور للسلطات التشريعية الإقليمية . فما الذى يدعوه إلى خرق هذه القاعدة السليمة الآن ؟ وكان الحزب الديمقراطى قد ظل أعواماً يجهر بأنه يؤيد عدم تدخل الكونجرس فى الشؤون الإقليمية . فما الذى يدعوه إلى التحول عن هذا المبدأ الآن ؟ .

وقال دوجلاس فى تأكيد : « إذا نبذتم مبدأ عدم التدخل ووضعتم قانوناً للرق بتصرف من الكونجرس بينما يرفضه شعب إقليم ما ، فعليكم أن تتنحوا عن برنامج الديمقراطية . إننى أقول لكم ، أيها السادة الممثلون للجنوب ، بكل صراحة وإخلاص ، إننى لا أعتقد أن أى مرشح ديمقراطى يستطيع يوماً أن يقنع أية ولاية ديمقراطية من ولايات الشمال بالمبدأ القائل بأن من واجب الحكومة الاتحادية أن تجبر أهل أى إقليم على قبول الرق فى حين أنهم يأبونه . فرد عليه جيفرسون ديفز بأن واجب الكونجرس أن يكفل حقوق المواطنين الأمريكيين ، وعندما تتقاعس هيئة تشريعية إقليمية عن أداء وظائفها الصحيحة فى حماية الملكية ، فعلى الكونجرس أن يتولى الحماية . فصاح دوجلاس : « أبدا . إذا لم تصدر أوريجون قانوناً لتشجيع اقتناء البغال فلن أجيز قانوناً فى واشنطن لأفرض عليها البغال قسراً . وإذا أبت أوريجون تشجيع اقتناء الماشية طويلة القرون ، فلن أفرض عليها الماشية غصباً ، وكذلك إذا أبت أوريجون قبول العبيد ، فلن أفرض العبيد على أهلها عنوة » .

كانت هذه هى الصخرة التى انشق عليها مؤتمر الحزب الديمقراطى فى سنة ١٨٦٠ ، هى والنزاع بين دوجلاس ومؤيدى حكومة بوكانان . ولقد اجتمع المندوبون فى تشارلستون ، مركز الشعور العدائى للرق ــ مدينة كالهون ، وهاين ، وأر. بى. ريت وصحيفته « ميركورى » المتطرفة . التقوا لاستئناف المعركة بين دوجلاس وديفز وكان قد انقضى على استعارها فى مجلس الشيوخ عامان . فلو فاز دوجلاس ، تسنى للحزب الديمقراطى أن يستمر كمنظمة قومية حقاً ، متين المركز فى الشمال والغرب كما هو فى الجنوب . أما إذا فاز ديفز فى برنامجه لقسر المجتمعات غير الراغبة على التمكين للرق ، فإن الحزب الديمقراطى خليق بأن يصبح حزباً قطاعياً ، غير عزيز الجانب إلا فى الجنوب . ولقد بدا لفترة من الوقت أن مرشحاً وسطاً قد يتقدم على برنامج غير ملتزم . بيد أن المتطرفين الجنوبيين ، من أمثال ديفز ويانسى وريت وتومز وجوداه بى . بنجامين اللويزيانى ، كانوا يتبعون سياسة سيادة الحزب أو انهياره .

وعندما حاول المتطرفون أن يفرضوا مطلبهم على البرنامج الانتخابى للحزب ، صاح بو ــ من أوهايو ــ وكان المتكلم بلسان دوجلاس : « إنكم تخطئون الظن بنا ، أيها السادة من الجنوب . . إنكم تخطئون الظن بنا ، فنحن لن نقر هذا » . وصمد أغلبية من المندوبين ضد مبدأ ديفز ــ يانسى فعند ذلك نهض مندوبو ألاباما احتجاجاً وانصرفوا

من القاعة . وتبعهم وفد كارولينا الجنوبية ، وحذا حذوهم آخرون من الجنوب الأدنى ، وانفض مؤتمر تشارلستون دون إعلان أى مرشحين ، إزاء هذا الانقسام التام فى الحزب . وسرعان ما انتظم شقاه فى مؤتمرين منفصلين ، فرشح المتطرفون الجنوبيون جون سى . بريكينريدج من كنتكى ، ورشح معارضوهم دوجلاس . وكانت أهمية هذا الانقسام أعظم مما تبين الكثيرون إذا ذاك . فإن الديمقراطيون لم يجعلوا هزيمتهم أمراً يقيناً فحسب ، بل إن حلقة جديدة من الروابط الكبرى التى كانت تجمع بين الشمال والجنوب قد انفكت .

أما الحزب الجمهورى فأقبل على الحملة الانتخابية فى وحدة كاملة . وفى مؤتمر حافل بالحماس ، فى شيكاغو ، رشح أكثر شخصياته شعبية من زعماء الغرب الأوسط ، وهو : لينكولن . وإذا بمزاحميه اللذين خابت آمالهما ــ سيوارد وتشيز ينضمان فى ولاء إلى المؤيدين . كانت روح الحرب قد أذكيت إلى أقصى درجات الاستعار ، فاستولى تصميم جازم ، وحمية عقيدية ، على ملايين الناخبين الذين كانوا قد أعلنوا أنهم لن يسمحوا للرق بمزيد من الانتشار . كذلك كان الحزب موفقاً فى حشد مساندة من الجماعات الرأسمالية بلغ من شدتها أن الأموال توفرت به بدرجة أفضل مما حدث قبل أربع سنوات . وكان الذعر الوجيز ، الذى حدث فى سنة ١٨٥٧ منذراً بكارثة ، قد أذكى المطالبة فى المجتمعات الصناعية بتعريفة جمركية وقائية ، كما زاد المطالبة فى الدوائر التجارية والمالية بنظام مصرفى أفضل . فوعد الحزب الجمهورى بتلبية هاتين الرغبتين . وفى الوقت ذاته ، استمال الشماليين المتعطشين إلى الأراضى بأن تعهد باستصدار قانون يمنح المستوطنين مساكن تلحق بها مساحات من الأرض دون مقابل . وقصارى القول أنه ، فى الناحية الاقتصادية ، عرض على الجماعات الأمريكية المهمة مغريات قوية المفعول . ولقد ساهم بند التعريفة الجمركية مساهمة قوية فى انتصار الجمهوريين فى بنسلفانيا التى كانوا قد فقدوها فى سنة ١٨٥٦ . وكسب برنامج الإصلاح الداخلى آلاف الأصوات فى مناطق الشمال الغربى القديمة العمران . . وكذلك كان أثر مشروع المسكن والأرض الملحقة به فى الغرب الأوسط .

وحصل لينكولن يوم الانتخاب على ١ ٨٦٦ ٤٥٢ صوتاً ، ودوجلاس على ١ ٣٧٦ ٩٥٧ ، وبريكينريدج على ٨٤٩ ٧٨١ ، وجون بيل ــ من تنيسى وقد رشح نفسه على برنامج التقريب بين القطاعين ــ على ٥٨٨ ٨٧٩ . وكان نصيب لينكولن من

التصـويت الشعبى أقلية ، بيد أنـه ظفـر فى مجمـع النـاخبـين بأغلبية حاسمة . كان التصـويت الشعبى فى جانب الحـد من الـرق دون مراء ، وفى جانب السلم والاتحاد كذلـك . فنال بريكينريدج ــ المرشح الوحيد الداعى إلى الانفصال ــ أقل من خمس مجمع الأصوات .

غير أن السيطرة كانت للمتطرفين فى الجنوب . فكتب الاتحادى ألكسندر إتش. ستيفنز من جورجيا : « لقد جُنّ الناس ، إذ استبد الهوى والخبال » . كانتْ كارولينا الجنوبية قد حزمت أمرها على الانفصال . وما الداعى ؟ كان من المحتمل ، فيما يبدو ، أن كلا من الجنوب والرق لم يكن يتعرض لخطر حقيقى . كان لينكولن خليقاً بأن يواجه طيلة مدة رئاسته الأولى تقريباً (لو أن الولايات الجنوبية ظلت فى الاتحاد) أغلبية معادية فى الكونجرس ، كما كان الجنوبيون يتسلطون على المحكمة العليا كذلك ، فكان خليقاً بأن يكون مكتوف اليدين . ولهذا السبب فإن لينكولن نفى بكل وضوح أية نية للنيل من الرق فى الأماكن التى استقر بها . فما كان من الممكن إلغاء الرق فى الجنوب إلا بتعديل دستـورى ، وهـذا ما لم يكن ليتسنى قبـل أجيال . ومـع ذلك فإن الخطوة كانت قد اتُخذت . . واتُخذت بالرغم من أن عاقبتها كانت مؤكدة . فقد قال ستيفنز متنبئاً : « لن يلبث الناس أن يقطع كل منهم رقبة الآخر » .

كانت الخطوة قد اتخذت ، ولكن ما من دليل قاطع على أنها كانت مؤيدة بأغلبية من الشعب خارج كارولينا الجنوبية . كان الشعور الاتحادى قوياً فى كافة أرجاء الجنوب ــ حتى فى ولاية بالميتو ــ وكذلك كان الشعور نحو السلام . ففى انتخابات سنة ١٨٦٠ ، أدلى الناخبون من الولايات الأربع عشرة المبيحة للرق بأصوات للمرشحين الداعين إلى الحلول الوسط ــ وهما دوجلاس وبيل ــ تزيد على ما أدلوا به للمتطرف بريكينريدج بمائة وأربعة وعشرين ألف صوت . ويوحى التحليل الدقيق للأصوات فى بعض الولايات الـواقعـة فى أعماق الجنوب ، بأن موضوع الانفصال كان خليقاً بأن يُهزم لو أنه عرض لاستفتاء عادل وصريح . بل إن جماعات قوية النفوذ فى الجنوب ، ظلت شديدة العداء لاتحاد الولايات المنفصلة ، حتى بعد الانفصال واشتعال الحرب . فانفصلت فيرجينيا الغربية عن مجموعة الولايات التى كانت تابعة للتاج البريطانى قديماً ، ولم يتسن فرض الخدمة العسكرية على الجزء الغربى من كارولينا الشمالية ، ويقال إن بعض مقاطعات تنيسى الشرقية أسهمت بنسبـة من سكـانها ، كمتـطوعـين فى جيش الاتحاد ، تفوق

ما قدمته أيه مقاطعات فى الشمال . على أن علينا أن نتذكر أن الثورة عادة من عمل أقليات مصممة ، وأن الانفصال كان يحظى قطعاً بتأييد شعبى واسع فى سنة ١٨٦٠ ، لا يقل عما حظيت به الثورة على حكم جورج الثالث فى سنة ١٧٧٦ .

كان الجنوب الأدنى مدفوعاً بعدد من الحوافز المتباينة : الكراهية نحو الشمال ، والضغينة من جراء هزيمته فى الانتخابات ، وعدم الرغبة فى تقبل الحكم (بعدم إباحة الرق) الصادر على الأقاليم ، والحلم بتحقيق عهد أحسن وأكثر إشراقاً تحت علمه الخاص . وكان مدفوعاً ، فوق كل هذا ، بالخوف ــ الخوف من أن تطيح حكومة تسيطر عليها فكرة إلغاء الرق ؛ بمؤسسات الجنوب وحضارته المميزة فى غير إشفاق . وفتحت كارولينا الجنوبية الباب ، فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٦٠ ، بأن أعلنت أن الشمال قد انتخب للرئاسة رجلاً « ذا آراء وغايات معادية للرق » . وتبعتها ولاية المسيسيبى فأكدت أن الشماليين قد « اتخذوا موقفاً ثورياً نحو الولايات الجنوبية » . ورأى المتطرفون الجنوبيون ، الذين لم يخطر لهم أن الشمال قد يحارب فعلاً ، أن الفرصة سانحة لهم . كان الرئيس جاكسون قد قضى على أية محاولة لإبطال قانون اتحادى فى ولاية من الولايات . وكان الشمال قد أخذ يزداد قوة بالنسبة للجنوب باطراد . فلو تركت هذه الأزمة تمر دون ما محاولة لإرساء استقلال الجنوب ، فلن تسنح فرصة أخرى لذلك . وقد يتسنى لاتحاد جنوبى أن يكسب مكانة وطيدة بين أمم العالم ، وقد لا يلبث أن يتمكن من التوسع جنوباً حول البحر الكاريبى . وفى أوائل فبراير سنة ١٨٦١ ، اجتمع وفود سبع ولايات منفصلة عن الاتحاد فى مؤتمر فى مونتجمرى بولاية ألاباما ، وأنشأت ولايات أمريكا المتحالفة ، وانتخب جيفرسون ديفز رئيساً مؤقتاً لها .

وسرعان ما لحقت بها ثلاث ولايات أخرى من الجنوب الأعلى المتردد وأركنساس ، وفاء منها لقطاعها . وبذلت محاولات أخيرة للتوفيق . ولكن أفضل هذه المحاولات فرصة ، وهو مشروع جون جيه . كريتندن للعودة إلى خط عرض ٣٠َ ٣٦° وفقاً لتسوية ميسورى ، تحطمت على رفض لينكولن (فى تشبثه بالمبدأ) السماح للرق بدخول أى اقليم . وفى فجر ١٢ إبريل سنة ١٨٦١ ، أطلقت المدافع الجنوبية نيرانها على حصن سومتر فى مرفأ تشارلستون .

الفصل ١٢

حرب الأشقاء

الرجال والموارد

حسبنا أن نجعل العالم بأسره يشرع فى تبين مقدار الموت والخراب الرهيبين اللذين يتفشيان الآن فى الخارج . فلقد أخذ العمل يتقدم يوماً بعد يوم ، طيلة الشهرين الماضيين ، ولست أرى ما ينبىء بأية هوادة ما لم يتم القضاء على أحد الجيشين أوكليهما معاً . . ولقد بدأت أعتبر موت وتشويه ألفى رجل مسألة بسيطة ، نوعاً من تداريب الصباح المنشطة . . وقد يكون من الخير أن تصبح بهذه القسوة والخشونة . هكذا كتب الجنرال وليم هـ. شيرمان إلى شقيقه فى ٣٠ يونيو سنة ١٨٦٤ . وقد أردف قائلاً : « إن أسوأ مراحل الحرب لم تبدأ بعد » . وكانت هذه العبارة صادقة بالنسبة لجورجيا ، التى كان مقبلاً على أن يلقى بمزارعها ومدنها إلى الهلاك ، فى موجة دمار واسعة شملت كل ما بين الجبال والبحر . وكانت صادقة بالنسبة لفيرجينيا ، كما كانت صادقة إلى حد كبير بالنسبة لجيشى جرانت ولى ، اللذين كان القتال العاتى بينهما قد بدأ فعلاً . ومع هذا فقد دخلت البلاد غمرة هذا الصراع بروح راضية ، والشماليون يهتفون : « هيا إلى ريتشموند ! » والجنوبيون يتشدقون بتفوقهم فى الشهامة والفروسية

على اليانكى « الحثالة » ، والجانبان يحلمان بأن يكون النزاع قصيراً ومتوجاً بالمجد .

كانت صدمة الاشتباك عند فورت سومتر قد وحدت الشمال ، كما وحدت الجنوب على الفور . فإذا موجة من السخط تفصل فيرجينيا عن الاتحاد لتنقلها إلى التحالف[1] ، ومنحت الولاية التى كانت ملكاً للتاج فيما مضى الجنوب عاصمته ، إذ وصل جيفرسون ديفز وحكومته إلى ريتشموند فى أواخر شهر يونيو سنة ١٨٦١ ، كما منحته أقدر قادته ، إذ أن روبرت إى. لى بطل شيرو جوردو وتشابولتيبيك ، فى الحرب المكسيكية ، والمدير السابق ويست بونيت ، وقائد قطاع تكساس ــ وجد أن نداء ولايته أقوى من نداء الأمة ، وانحازت ولاية تنيسى إلى تحالف الولايات الجنوبية ، بينما أعلن وادى المسيسيبى الأعلى ، فى الشمال ، أنه لن يسمح قط بـ « صف من مراكز الجمارك » بينه بين الخليج ، وانحاز بقوة إلى الاتحاد . وكذلك فعلت كاليفورنيا النائية ، وترددت ولايات الحدود ــ ميريلاند وكنتكى وميسورى ــ إذ كان الشعور العام فيها منقسماً أشد انقسام . وسيطر الانفصاليون بضعة أيام على بلتيمور ، وبدا لوهلة أنهم موشكون على الاستيلاء على سانت لويس . بيد أن ولايات فرانسيس سكوت كى وهنرى كلاى وتوماس هارت بنتون تشبثت فى النهاية بولائها القديم . وذابت الفواصل الحزبية لبعض الوقت فى الشمال والجنوب . فبحركة رمزية ذات مغزى حمل دوجلاس قبعة لينكولن عندما تقدم رئيس الجمهورية الجديد ليلقى خطابه الأول فى حفل تنصيبه ، بينما أصبح ألكسندر إتش. ستيفنز ــ الذى كان اتحادياً طيلة عمره ــ نائباً للرئيس فى تحالف ولايات الجنوب .

وكانت لكل من الجانبين ميزات حاسمة . كان الشمال أعز من الجنوب جانباً بفارق شاسع من حيث السكان ، والموارد الصناعية ، والثروة . فقد أظهر تعداد سنة ١٨٦٠ أن ثلاثاً وعشرين من الولايات التى تحت علم النجوم والأشرطة (فضلاً عن فيرجينيا الغربية التى لم تلبث أن أنشئت من المقاطعات الموالية للاتحاد فى فيرجينيا ، وعن تكساس التى لم تلبث أن ألحقت عضواً بالاتحاد) أوتيت حوالى اثنين وعشرين مليون نسمة ، فى حين أوتيت إحدى عشرة من الولايات التى تحت علم النجوم والقضبان ما لم يتجاوز

(١) نوع من الاتحاد غير الاندماجى بين بلدين ، يحتفظ كل منهما بأجهزته الإدارية والتشريعية والقضائية ، مع توحيد نواحى السياسات الخارجية والدفاعية والاقتصادية فى الغالب ــ المترجم .

تسعة ملايين من النسمات بكثير . وكان سكان الجنوب يضمون ما يزيد على ثلاثة ملايين ونصف المليون من الزنوج . وكانت شبكة الخطوط الحديدية الشمالية تتألف من حوالى اثنين وعشرين ألفا من الأميال ، وشبكة الجنوب تتألف من تسعة آلاف فحسب . وكان الشمال يستمتع بامتياز هائل فى تقدمه الصناعى ، إذ أنتجت نيويورك وحدها فى سنة ١٨٦٠ من السلع المصنوعة ما يزيد فى القيمة على ضعف ما أنتجته الولايات المتحالفة بأسرها ، وأنتجت بنسلفانيا ما يقرب من الضعف . وكان الشمال فى السنوات الثلاث الأخيرة من النزاع يصنع كل إمداداته تقريباً بنفسه ، فى حين أن الجنوب كان مضطراً للاعتماد على المدافع الأجنبية والعقاقير والمهمات الجراحية الأجنبية ، وكان يعتمد إلى حد كبير على الذخيرة الأجنبية . ولقد احتفظ الشمال بالسيطرة على الأسطول ، وعلى المحيط معه . كان يمتلك اقتصاداً قومياً أكثر قابلية للتكيف وأكثر تنوعاً . كان يمتلك المقدرة التى أضفتها الهجرة ، ولقد تضاءلت الهجرة حتى معركة جيتسبيرج ، ثم عادت إلى الانتعاش سريعاً .

أما الجنوب ، فأوتى لصالحه الروح العسكرية لدى أهله ، وسهولة الاستيلاء على عديد من الحصون ومخازن الأسلحة ، وتفوق زراعته فى الكفاءة والتنظيم ، والواقع أنه كان يقاتل من موقف الدفاع ، ومقدرة جيوشه على القيام بالعمليات على الخطوط الداخلية . وكان يمتلك فوق كل شىء ــ واقع أنه لم يكن مضطراً لأن يكسب الحرب من الناحية العسكرية فى سبيل تحقيق النجاح . . لم يكن مضطراً لأن يغزو الشمال ويهزمه . كان كل ما يحتاج إليه هو أن يقاتل لوقت طويل وبشدة حتى يقنع الشمال أنه لا سبيل إلى أن يُقهر . فكان فى مكنته أن يخسر المعارك ، بل الحملات ، وكان فى مقدوره أن يتحمل الهزيمة إثر الهزيمة . كان خليقاً بالتحالف أن يفوز إذا استطاع أن يقنع الرأى العام الشمالى بأن انتصار الشمال قد يكلفه ثمناً باهظاً جداً ، وأن من الأفضل على أية حال ترك الولايات الشقيقة الضالة لترحل . لقد اعتقد الكثيرون أن الجنوب كان يمتلك ميزة كبرى كذلك ، بالسيطرة على مورد القطن الرئيسى للعالم . . وبأن حاجة بريطانيا إلى هذا القطن لتظل مصانعها عاملة كانت خليقة بحملها على التدخل فى صف الجنوب . ولقد أظهر الزمن أن هذا الحساب كان خاطئاً ، وأن بريطانيا لم تكن أقل حاجة إلى قمح الشمال منها إلى قطن الجنوب .

كان ثمة تحد رفيع يذكى حمية الجنوب ، حتى فى النكبة ، بيد أن الشمال أوتى فى

مقابله تصميماً . وكان القادة الجنوبيون ، بوجه عام ، أقدر وأكثر خبرة وتجربة من قادة الشمال ، بيد أن الرئيس لينكولن أثبت أنه رجل حكم يفوق بكثير جيفرسون ديفز الذى أوتى امتيازاً ومكانة فكريين ، وجداً صادقاً صارماً ، بيد أنه كان يفتقر إلى سعة الأفق ، وكان يترك الغضب ونفاد الصبر والأحكام الشخصية المتحيزة أساساً لحكمه أحياناً . وقصارى القول ، أن الشمال كان أعز جانباً بفارق شاسع ، وإن الأمل الأكبر للجنوب كان يكمن فى صعوبة إخضاع (الشمال) إقليماً كالجنوب هائل المساحة ، وسكاناً بالكثرة وصعوبة المراس كسكانه .

ولقد لقى الشماليون الذين كانوا يعتقدون بأن الحرب قصيرة ، درساً نبههم فى بول رن إذ تشكل جيش يضم حوالى ثلاثين ألفا فى واشنطن ، فى عجلة ، ودُفع ضد قوة تحالفية فى مثل حجمه تقريباً ، كانت وراء أخدود بول رن العميق ، فى فرجينيا الشمالية . وفى ٢١ يوليو ، اخترقت قوات الاتحاد قلب القوات التحالفية ، وإذا بها تصادف هجوماً ساحقاً من الجناح التحالفى الأيمن ، المحتفظ بعنفوانه ، والذى كان تحت قيادة الجنرال جاكسون الملقب بالجدار الصخرى ستونوول . واندفع الشماليون جميعاً ، ما عدا الجنود النظامين ، فى فرار أهوج إلى واشنطن ، فغصت الطرق بالرجال والمدافع ، والأمتعة المهجورة ، ورجال الكونجرس الذين كانوا قد جاءوا بأمل الاستمتاع بنصر أشبه بالنزهة الخلوية . وأعقبت ذلك نكسات أخرى للشماليين فى ميسورى ، وعند بولز بلف على نهر بوتوماك ، حيث جرح أوليفر ويندل هولمز الذى صار فيها بعد من قضاة المحكمة العليا . وأعد الجانبان نفسيهما لصراع مستميت .

وانتهى الأمر بامتداد الحرب أكثر من أربعة أعوام ، فلم تنته إلا حين استلقى الجنوب منهوك القوى تماماً . وكانت تكاليفها من المال ، والممتلكات ، والأرواح رهيبة . إذ يُقدر مجموع ما جنده الشمال من الرجال بمليونين ، وعندما انطلقت آخر الطلقات كان له فى الميدان حوالى مليون . ويُقدر مجموع ما جنده الجنوب بما يقل عن المليون ، ولن يقدر لأحد أن يعرف العدد بدقة . ولقد مات ــ فى جانب الاتحاد ــ حوالى ٣٦٠٠٠٠ رجل أثناء القتال ، من جراء الجراح أو الأوبئة . أما فى جانب التحالف ، فقدر عدد الموتى بـ ٢٥٨٠٠٠ . ولقد حل الخراب بأجزاء كبيرة من الجنوب ، ووقع الدمار بوادى شيناندواه من أدناه إلى أقصاه ، وهدم شيرمان ما قيمته خمسون مليون دولار من البنايات العامة ، وما قيمته مئات الملايين من الممتلكات الخاصة فى جورجيا ، وعاثت الحرائق فساداً فى مدن

مثل كولمبيا ، وريتشموند وأتلانتا ، واقتلعت الخطوط الحديدية ، وهدمت المصانع ، وبفضل القضاء على نظام الأيدى العامة القديم ، وتحطيم الممتلكات المادية ، استنزفت قوى الجنوب اقتصادياً . ومع أن الشمال كان ينعم برواج صناعى كبير عند انتهاء الحرب ، فإنه كان قد تكبد من الخسائر فوق ما تراءى له للوهلة الأولى .

الحمــلات

من الممكن تمييز أربع جبهات أو مسارح للقتال رئيسية : البحر ، ووادى المسيسيبى ، وفيرجينيا والولايات القائمة على الساحل الشرقى ، والجبهة الدبلوماسية . ومن الممكن أن نأتى على الأولى بإيجاز . فلقد كان الأسطول المؤلف من أربعين سفينة بأكمله فى قبضة الاتحاد فى الواقع ، عند بداية النزاع ، ولكنه كان مبعثراً ، مفكك المعنويات والنظام . وسرعان ما استطاع رئيس قدير فى واشنطن ، هو جيديون ويليز (الذى يدين بشهرته إلى اليوميات العظيمة القيمة التى سجلها عن الحرب) أن يعيد تنظيمه وتدعيمه . وقد أعلن لينكولن حصاراً على الساحل الجنوبى ، لم تحن سنة ١٨٦٣ حتى كان بالغ المفعول ، بالرغم من أنه كان بالغ الضعف فى البداية . إذ أنه حال دون تصدير القطن إلى أوربا واستيراد الذخائر والثياب والإمدادات الطبية التى كان الجنوب فى مسيس الحاجة إليها . وفى تلك الأثناء ، كان قائد بحرى لامع قد ظهر وقاد عمليتين فذتين ، وهو ديفيد جى . فاراجت . ففى إحدى العمليتين ، أخذ أسطولاً اتحادياً من المراكب الخشبية وحيدة الشراع إلى مصب المسيسيبى ، فاجتاز حصنين قويين ، وأجبر نيو أورليانز ، أكبر وأغنى مدن التحالف الجنوبى ، على الاستسلام . وفى الأخرى شق طريقه عنوة مجتازاً مدخل خليج موبيل ، فاستولى على سفينة مدرعة تابعة للتحالف ، وأغلق الميناء . وكانت السفن المدرعة قد بدأت تفتك بالسفن الخشبية . وقد حدثت فى مارس ١٨٦٢ لحظة من لحظات الحرب المثيرة للقلق ، عندما قضت مدرعة تحالفية جديدة ، تدعى ميريماك — انطلقت من نورفولك بولاية فيرجينيا على فرقاطتين اتحاديتين عند هامبتن رودز ، فى مصب نهر جيمس ، وبدت على أهبة مهاجمة واشنطن أو نيويورك . ولحسن الحظ ، ظهرت فى الوقت المناسب سفينة اتحادية مصفَّحة ذات تصميم عجب ، « صندوق محكم

فوق رمث » ، تدعى مونيتور ، كانت قد أنشئت فى نيويورك ، وأرسلت على عجل إلى الجنوب ، فهاجمت المدرعة المظفرة وأنهت نشاطها . وظفر الاتحاد بنصر بارع آخر ، عندما أغرقت كيرسارج طرادة تحالفية جوالة ــ كانت قد صنعت فى انجلترا ، وتدعى ألاباما ــ خارج مياه شيربورج . ولقد أفاد الأسطول الاتحادى أيما إفادة فى حصار الجنوب ، وفى المساعدة على الاستيلاء على النقاط الساحلية المهمة ، وفى القتال البرى المائى على المسيسيبى والتينسى وريد ، وغيرها من المسالك المائية الداخلية ، وفى إغراق المدمرات التجارية التحالفية أو الاستيلاء عليها .

ولقد ظفرت قوات الاتحاد بسلسلة من الانتصارات تكاد تكون متواصلة ، فى وادى المسيسيبى . وكان أوليسس إس. جرانت قد عين قائداً لقوات غربية شديدة الوطأة . وهو من أبناء إلِلينوى ، ذوعناد لايلين ، وأفق ضيق الخيال ، بيد أنه كان متمكناً من المبادىء الرئيسية للاستراتيجية ، فبدأ بتحطيم خط طويل للتحالف الجنوبى فى ولاية تنيسى ، وذلك بالاستيلاء على حصنى هنرى ودونيلسن على نهرى تنيسى وكمبرلاند ، مما يسر احتلال معظم القسم الغربى من الولاية . واضطر التحالفيون إلى مغادرة مدينة ناشفيل المهمة ، فتمكنت قوات الاتحاد من الزحف إلى الحدود الجنوبية لولاية تنيسى ، أى أنها توغلت حوالى مائتى ميل فى قلب التحالف . وهنا احتشد الجنود الجنوبيون تحت قيادة ألبرت سيدنى جونستون ، وبى. جى. تى. بوريجارد المقدام ، الذى كان قد تولى القيادة فى تشارلستون وأمر بالهجوم على فورت سومتر . وقد وجها ضربة فى أبريل ١٨٦٢ ، كادت تبيد جرانت . فقد فأجاوا جيشه بهجوم خاطف وهو غير مستعد ، عند بيتسبيرج لاندينج ، على نهر تنيسى ، إذ كان ظهره نحو المجرى الذى ارتفع الماء فيه ، وكانت مقدمته غير محصنة . وأوشك الهجوم المفاجىء أن يربك قوات الاتحاد ، ولكن جرانت تلقى تعزيزات فى الوقت المناسب ، فى حين فقد التحالفيون قائدهم الذكى ، الجنرال جونستون . وكانت النتيجة أن شاع الاضطراب بين التحالفيين ، وانسحبوا إلى كورنث بولاية المسيسيبى . ولقد منى الفريقان بخسائر جسيمة فى معركة شيلوه . . وكانت خسارة القوات الاتحادية ١٣٠٠٠ من ٦٣٠٠٠ رجل ، ولكن لينكولن قال لجرانت : « لا أستطيع أن أفلت هذا الرجل . . فهو يجيد القتال » .

وفى ربيع سنة ١٨٦٣ ، أخذت قوات جرانت برغم خسائرها تتقدم جنوباً باطراد وإن كان بطيئاً . وكانت غايتها الكبرى أن تظفر بالسيطرة التامة على المسيسيبى ، وكانت

مشارفه الدنيا قد طهرت من التحالفيين بعد استيلاء فاراجت على نيو أورليانز . ولقد اضطر جرانت فترة للتوقف عند فيكسبيرج ، حيث تحصن التحالفيون باستحكامات متينة على سفوح أكثر ارتفاعاً من أن ينال منها هجوم بحرى موفق . بيد أنه قاد جيشه بحركة جريئة إلى أسفل وحول فيكسبيرج ، وقام بحصار لستة أسابيع ، حتى إذا كان الرابع من يوليو استولى على المدينة وعلى أشد جيش للتحالفيين فى الغرب . وإذ ذاك قال لينكولن أن « أبا الأنهار »[1] عاد ينطلق إلى البحر دون أن يصادفه ما يعكر سيره . وانقصم التحالف إلى شطرين ، وأصبح من شبه المستحيل استجلاب الإمدادات من تكساس وإقليم أركنساس إلى الشرق عبر النهر .

وفى هذه الأثناء كانت قوات الاتحاد فى فيرجينيا تعانى هزيمة إثر أخرى . لم تكن المسافة بين واشطن وريتشموند ، التى اتخذها التحالفيون عاصمة لهم ، تتجاوز مائة ميل ، بيد أن المنطقة كانت تتخللها مسالك مائية عديدة وفرت مواقع دفاعية منيعة . يضاف إلى هذا أن التحالفيين أوتوا فى شخصى روبرت إى . لى ، وتوماس جيه . « ستونوول » جاكسون قائدين كانا يفوقان قادة الاتحاد الأوائل فى ألمعية القيادة ببون شاسع . ومن المستحيل الإسهاب فى تفصيلات الحملات الدامية المتتابعة التى كانت الجيوش الاتحادية ترتد فيها مرة إثر أخرى ، وهى تحاول الاستيلاء على ريتشموند والقضاء على القوات التحالفية . ولقد دفع جورج بى . ماكليلان فى أوائل سنة ١٨٦٢ ، جيشاً بديع التدريب من ١٠٠ ٠٠٠ رجل ، عن طريق البحر إلى شبه الجزيرة القائمة بين نهرى يورك وجيمس ، وقاده ضد الجيوش الأقل حجماً ، التى كانت تحت قيادة لى ، وخاض به قتالاً مستميتاً أمام ريتشموند ، فى معارك الأيام السبعة . ولقد مرت بقواته فترة كانت تسمع فيها دقات الساعات فى أبراج كنائس العاصمة التحالفية ، ولكنها ارتدت فى النهاية وقد تكبدت خسائر باهظة . ولقد فشل جون بوب المتخبط فى معركة بول رن الثانية (٢٩ أغسطس ــ ١ سبتمبر سنة ١٨٦٢) ، واضطر للارتداد نحو واشنطن ، بينما خشى الشمال على سلامته . ولقد أخفق قائد اتحادى آخر ، هو بيرنسايد المنكود ، وهو يحاول اجتياح المرتفعات القائمة وراء فريدريكسبيرج ، وصُدَّ فى مذبحة فظيعة . وهُزم قائد آخر هزيمة مخزية كهذه فى معركة تشانسيلورزفيل الدامية ، غير أن التحالفيين فقدوا جاكسون الذى

(١) يقصد نهر المسيسيبى ــ المترجم .

لا يُقاوم ، الساعد الأيمن للجنرال لى الذى يحتمل أن تكون إغارته الجريئة على وادى شيناندواه ، فى سنة ١٨٦٢ ، وإيقاعه الهزيمة بمجموعة متتابعة من قوات الاتحاد ، مثيراً للذعر فى واشنطن ، من أروع مغامرات الحرب . ولقد ظل التحالفيون الجانب المظفر فى الشرق ، حتى صيف سنة ١٨٦٣ .

على أنه ما من انتصار من هذه الانتصارات التحالفية كان حاسماً ، إذ كانت حكومة الاتحاد تحشد جيوشاً جديدة ، وتحاول من جديد . وإذا كانت جيوش الاتحاد قد عجزت عن الاستيلاء على ريتشموند ، فإن التحالفيين لم يكونوا أحسن توفيقاً عندما عمدوا إلى الهجوم . ففى أغسطس سنة ١٨٦٢ ، رأى لى أن الوقت قد حان لتوجيه ضربة فى داخل الشمال ، غير أن ماكليلان تصدى له فى أنتيتام ، فى غرب ولاية ميريلاند ، وقاتله حتى شل تقدمه . وكان الفريقان متعادلين فى المعركة ، غير أن لى انسحب ، ولما كان لينكولن فى لهفة مستميتة إلى انتصار ، فقد رأى فى نتيجة المعركة نجاحاً كافياً لأن يبرر إذاعة بيان تحرير العبيد . وعاد لى فى الصيف التالى ، بعد الهزيمة الساحقة التى حاقت بجنود الاتحاد فى تشانسيلورزفيل ، فوجه هجوماً إلى الشمال ، وغزا بنسلفانيا . وكاد جيشه أن يبلغ عاصمة الولاية ، فأصاب ولايتى بلتيمور وفيلادلفيا فزع عظيم ، غير أن قوة اتحادية أشد وطأة عاقت زحفه عند جيتسبيرج . وهناك بذل مقاتلو لى الخمسة والسبعون ألفاً محاولة جبارة ، فى معركة دامت أيام (١ - ٣ يوليو) ، لزحزحة الثمانية والثمانين ألفاً الذين كانوا تحت قيادة جورج إس. ميد . ولو أنهم هجموا بسرعة خاطفة ، بينما كانت قوات الاتحاد تتمركز وتحتشد ، لكان من المحتمل أن يكسبوا المعركة . ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى منازلة جيش أعز قوة ، احتل مواقع أفضل من مواقعهم . وكان هجوم بيكيت المستميت ، فى اليوم الأخير ، وفى مواجهة نيران فظيعة ، من أبسل الجهود فى تاريخ الحرب . ولكنه فشل ، وفى اليوم التالى ارتد محاربو لى إلى نهر بوتوماك ، بعد خسائر شلت قواهم بدرجة لا علاج لها ، فبدا جلياً أن تحول التيار فى جيتسبيرج كان انحساراً لكافة الآمال التحالفية .

كان جيش جرانت إذ ذاك مستولياً على فيكسبيرج ، وقد أصبح الحصار على السواحل الجنوبية طوقاً حديدياً لم تخترقه سوى بضع سفن قليلة . كان التحالف موشكاً على نهاية موارده ، وقد أخذت مصانعه تفتقر إلى الآلات والمواد الأولية ، وراحت خطوطه الحديدية تتداعى . أما الولايات الشمالية فكانت على العكس ، إذ بدت أكثر رخاء من ذى قبل ، وأخذت مصانعه تدور بكل طاقتها ، ومزارعه تصدِّر

محصولات وفيرة إلى أوربا ، وقواه البشرية تتجدد بالهجرة .

كذلك مضت المرحلة النهائية من حملات وادى المسيسيبى فى غير صالح التحالفيين بدرجة حاسمة ، فى جنوب شرقى تنيسى . ولم تكن أهمية تشاتانوجا وهى ملتقى حافل للخطوط الحديدية فى هذه المنطقة ، بأقل أهمية لتحالف ولايات الجنوب من ريتشموند وفيكسبيرج ، إذ كانت تسيطر على الخطوط الحديدية الممتدة فى الجنوب الغربى ، والجنوب الشرقى والشرق ، وتقوم فى موقع كان يسد الطريق على جيوش الاتحاد نحو الجنوب ، حوالى جبال سموكى الكبرى ، ومن ثم فإنها كانت من المنافذ المؤدية إلى الجنوب الأدنى . وقد وصلت إلى تشاتانوجا ، فى أوائل سبتمبر سنة ١٨٦٣ ، قوة اتحادية بقيادة دبليو. إس. روزكرانز فوجدت نفسها فى مواجهة قوة تحالفية منيعة ، بقيادة براكستون براج الذى لا يبارى . وكاد براج يظفر بالفوز فى معركة حامية عند تشيكاماوجا لولا أن أحيط به فى مأزق كبده الكثير ، على يدى الجنرال جورج إتش . توماس . وكان فيرجينيا انحاز للاتحاد . وإذ ذاك انساق روزكرانز إلى حصار فى تشاتانوجا ، فلم يكن ثمة بد من إيفاد جرانت لنجدته . واستطاع جرانت فى نوفمبر ، أن يخوض بتعزيز من شيرمان وتوماس معركة تشاتانوجا ويكسبها ، إذ طرد جزء من قوته التحالفيين من ميشينارى ريدج فى هجوم عات لا سبيل لصده . وهكذا أصبحت قوات الاتحاد فى مركز مكنها من البدء فى الزحف على جورجيا ، وهو زحف أتمه شيرمان مظفراً فى العام التالى .

ففى مايو سنة ١٨٦٤ ، انفصل شيرمان عن قواعده ، وسار إلى جورجيا على رأس مائة ألف محارب . وعندما أخفق الجنرال جوزيف إى. جونستون فى صده ، بسلسلة من المناورات الدفاعية البارعة ، أقدم الرئيس ديفز على تصرف غير حكيم ، إذ عين للقيادة جون هود المقرب إليه . وعبثاً تصدى هود للقوات الغازية واضطر فى أول سبتمبر إلى الجلاء عن أتلانتا ، وأصبحت جورجيا بأسرها مفتوحة أمام شيرمان . وتلا ذلك الزحف إلى البحر ، وهو الزحف المشهور فى الأغانى والقصص ، واستولى شيرمان فى ٢٢ ديسمبر على ميناء سافاناه البحرى ، وقدمه إلى الرئيس لينكولن بمثابة « هدية عيد الميلاد » . وانسحب جونستون ، الذى بادر ديفز إلى إعادته للقيادة ، إلى كارولينا ببراعة ، بينما دفع هود بأربعين ألف رجل إلى تنيسى ، حيث كادوا يبادون فى معركتى فرانكلين وناشفيل الداميتين عن آخرهم ، على يدى توماس الذى أثبت مرة أخرى أنه كان من أعظم قادة الاتحاد العسكريين .

ولـو أن الجنـوب اعـترف بهزيمته الداهمة وسعى إلى الصلح مع لينكولن الواسع الصدر ، لكان هذا أفضل له وأحسن . ولكن المشاعر كانت قد أسفّت فى المرارة بحيث لا تسمح بهذا . فظل التحالف يحارب إلى أن باتت المقاومة شبه مستحيلة . ففى سنة ١٨٦٣ فقد آخر أمل له من تدخل فرنسى وبريطانى . إذ كانت لحكومة الاتحاد ميزات كبرى فى الجبهة الدبلوماسية ، وقد استخدمتها بحذق ، ولم يعد أى وزير أوربى مستعداً للانحياز لقضية خاسرة ، بعد معركة جيتسبيرج ، فضلاً عن أن لينكولن أصدر بيانه لتحـرير العبيد فى سنـة ١٨٦٢ ، فجعـل من استئصال الرق أحد الأهداف الرئيسية للحرب ، وأدى هذا إلى احتشاد الشعور الخلقى لدى الجماهير البريطانية فى جانبه . وقد قدم عمال لانكاشير ، الذين أفقرهم الحرمان من القطن بسبب الحصار الاتحادى ، دليلاً لا ينسى على ولائهم للمبدأ ، عندما اتخذوا فى تأييد الاتحاد موقفاً لا يتزعزع .

ولقد استقدم جرانت فى أوائل سنة ١٨٦٤ إلى الشرق ، وأقيم قائداً لجيوش الاتحاد جميعاً . وأخذ ينزل الضربات دون هوادة على لى فى معركة إثر معركة ، من المعارك التى أطلق على مجموعها اسم الفيافى ، مما أوهن القوة الرئيسية للتحالف شيئاً فشيئاً . وكان الجنرال شيرمان قد بدأ حملته لإخضاع جورجيا . فبعد احتلال أتلانتا فى أوائل سبتمبر ، اتجـه قدماً نحو البحر ، مدمراً بخطة مرسومة المخازن ، والطرق الحديدية وغيرها من الممتلكات فى جبهة عرضها ستون ميلاً ، ثم ظهر أخيراً عند سافاناه ، وتحول بعد ذلك شمالاً ، فاستولى على كولمبيا ، واضطر تشارلستون على الاستسلام . وفى خريف العام ذاته ــ سنة ١٨٦٤ ــ قضى القائد الفارس المقدام فيل شيريدان على الموارد الزراعية لوادى شيناندواه قضاء مبرماً ، حتى إنه كان لزاماً على أى غراب يحلق فوقها أن يحمل معه مؤونته . وأخيراً ، اضطر لى إلى التخلى عن ريتشموند فى ٩ أبريل سنة ١٨٦٥ ، ثم أسلم جيشه عند أبوماتوكس .

خـلافـات داخـليـة

ما أكثـر ما يمكـن أن يقـال عن الخـلافـات الـداخلية فى الشمال وفى الجنوب ، على السـواء ، خلال سنـوات الصـراع الـرهيب هذا . فما أبـدت الحكـومـة فى أى من

الجانبين كفاءة رفيعة . كانت الجيوش مفعمة بأساليب فجة ، فاضحة الأخطاء ، جائرة . فقد سُنّت قوانين للتجنيد ، ولكنها لم توضع بعدالة وديمقراطية . ففى الشمال كان يسمح للرجال بأن يستأجروا بدائل يحلون محلهم ، أدت هذه القوانين إلى اضطرابات من جراء الخدمة العسكرية . ولقد ابتلى كل من الجانبين بمنازعات سياسية داخلية . فإن الجمهوريين المتطرفين بقيادة ثاديوس ستيفينز من بنسلفانيا ، وبن ويد من أوهايو ، وتشارلس سومنر من مساشوستس ، هاجموا لينكولن متهمين إياه بالضعف المفرط فى تسيير دفة الحرب ، شديد البطء فى اتخاذ تحرير العبيد هدفاً من أهدافها ، بالغ اللين فى إجراءاته لإعادة تعمير لويزيانا وغيرها من الولايات المهزومة . أما فى الجنوب ، فإن حكاماً من أمثال جوزيف إى. براون حاكم جورجيا وزيبولون فانس حاكم كارولينا الشمالية ، عرقلوا سلطات ريتشموند بتشبثهم الغبى بحقوق الولايات . ولقد قامت الأغراض السياسية بدور غير موفق فى التعيينات لمناصب الجيش فى كل من الجانبين ، وفى الشمال بوجه خاص ، فدفعت إلى الأمام بأشخاص غير أكفاء مثل بنجامين بتلر وأمبروز بيرنسايد بينما أُهمل قادة شجعان أكفاء مثل توماس . وأخذ الهرب من الجيش يستشرى فى الجانبين ، حتى عرقل جيوش التحالفيين فى آخر الأمر .

وكان الشمال يوجه الاتهامات إلى الجنوب بإساءات رهيبة فى المعاملة فى سجن ليبى بريتشموند ، وسجن أندرسونفيل بجورجيا وغيرهما من السجون ، بيد أن المعسكرات الشمالية لم تكن أقل سوءاً . ولقد انتعشت المحسوبية والتحايل والفساد فى القطاعين . إذ أصبحت واشنطن مليئة بالمتعهدين غير الأمناء ، والمضاربين ، وعناصر الضغط السياسى ، وغيرهم من الطيور الجارحة الانتهازيين ، كما أن بعض الاستغلاليين من أهل الجنوب أثروا على حساب قضيتهم المحتضرة . ولقد أدى انخفاض النقود الورقية فى الجنوب إلى ارتفاع الأسعار بدرجات جنونية ، وقضى بالإفلاس على أعداد كبيرة من الكادحين . أما فى الشمال ، فإن التضخم العلنى شجع على مشروعات تنطوى على مقامرات ومغامرات جامحة ، وساعد على نشوء فريق من أصحاب الملايين الصارخى الغنى . وقصارى القول أنه كان للحرب جانب بالغ السوء . بيد أنها انطوت كذلك على ما لا حصر له من قصص البطولة والوفاء والجهد الإنسانى الخير والتضحية الوطنية .

روبـرت إى . لى و أبراهـام لينكولـن

منحت الحربُ الجنوبَ بطلاً خالداً ، هو روبرت إى. لى ، أكثر القادة فروسية وشهامة . فإن ألمعية قيادته ، وتفانيه فى الخدمة ، والروح الإنسانية التى أبداها طيلة الصراع ، وسماحة نفسه فى تقبل الهزيمة وحثه شعب الجنوب على أن يغدو شريكاً وفياً لأعدائه السابقين ، جديرة بأن تثير الإعجاب فى كل زمن . وكانت أخطاؤه فى جوهرها هى عيوب فضائله بالذات ، إذ كان مفرط المجاملة ، مسرفاً فى مراعاة مشاعر الغير بدرجة لم تكن تحمل أعوانه على أن ينصاعوا لإرادته . وإذ كان أبرع فى رسم الخطط الحربية منه فى إدارة العمليات ، فقد كشف عن حدة ذكاء فى التكهن بخطط خصومه ، ودقة فى تحليل تقارير المخابرات العسكرية والإفادة منها ، وسلامة حكم فى تقدير مقدرة الوحدات العسكرية ومواقعها . وبفضل مقدرته على التنظيم ، وانتباهه الواعى للتفصيلات والدقائق ، وحسن رعايته لرجاله ، وجسارته ومهابته ، بث الثقة فى نفوس جنوده واكتسب ولاءهم . وكان على غرار واشنطن ذا سيطرة على النفس نادراً ما فقدها ، فإذا فقدها فلفترات وجيزة . كان هذا السيد الصالح عظيماً فى الانتصار وفى الهزيمة ، فى الحرب وفى السلم . وقد كرس نفسه خلال السنوات الخمس ، التى عاشها بعد الصراع ، لإنهاض الجنوب من كبوته ، وللتوفيق بين القطاعين .

أما الشمال ، فقد وهبته الحرب بطلاً أعظم ، هو أبراهام لينكولن . وكانت قلة من الناس هى التى تبينت فى الأشهر الأولى من الحرب ، حقيقة تكوين هذا المحامى الخشن المظهر ، القادم من الغرب ، والبعيد عن التكلف وعن التأنق واللباقة ، والذى لم ينل حظاً كبيراً من التعليم . فظل وزير الحرب الثانى فى مدة رئاسته إدوين إم . ستانتون ، يصفه فترة بالغوريلا . . وإن جاهر فيما بعد بأن لينكولن كان أعظم قائد للبشر ظهر فى أى يوم من الأيام . وكانت الصحف المعادية تصفه بأنه أبله . وشيئاً فشيئاً توصلت الأمة إلى إدراك حكمته العميقة ، القائمة على دراسة دقيقة وتفكير جاد ، وحبه الشديد للحقيقة ، وصبره الذى لا ينضب وما اتسمت به روحه من كرم لا حدود له . وإذا كان قد أبدى تردداً وتذبذباً فى بعض اللحظات ، فإن الزمن كان يثبت دائماً أنه كان يعرف كيف ينتظر المصلحة القومية ، وكيف يجمع بين الشدة واللباقة . كان بفهمه للشعب الأمريكى يعرف متى يمسك ارتقاباً لتبلور الشعور العام ، ومتى يقدم فى جرأة . كان

أعظم الزعماء أمانة ، فلم يلجأ إلى إجراءات غير منصفة قط ، برغم حذقه كسياسى . كان دوماً يهيب بذكاء الناخبين وليس بجهلهم . وكان ميالاً للخير والرفق فى تفكيره وأعماله ، فلم ينطق يوماً بكلمة دامغة لشعب الجنوب خلال لوعات الصراع وآلامه جميعاً . كان تواقاً فوق كل الأمور إلى أن يصوغ البلاد فى اتحاد ، لا يقوم على القوة وإنما على القلوب ، حتى إنه اقترح وجيوش الاتحاد تظفر بآخر انتصاراتها أن يعوض الجنوب عن عبيده بسخاء . وكانت سياسته الخارجية تنم عن وقار ، ونزاهة ، وحزم . ومع أنه اضطر لاستخدام سلطات لا مثيل لها من قبل ، فإنه كان صادق الإيمان بالحكم الذاتى الديمقراطى ، وكان قديراً على بث الولاء فى نفوس شعبه . وإذا كان قد مارس سلطان القياصرة ، فإنه كان يستحوذ على ثقة الجماهير . وقد نمت بلاغته بنمو الحاجة إليها ، حتى إن خطابه بمناسبة جيتسبيرج ، وخطابه الافتتاحى لمدة رئاسته الثانية ، وبعض رسائله تدخل فى عداد أبدع ذخائر النثر الإنجليزى . وكان اغتياله فى ١٤ أبريل سنة ١٨٦٥ ، ولما ينقض أسبوع على انتصار أبوماتوكس محنة محزنة للمنتصر والمهزوم على السواء . وفى هذا كتب جيمس رسل لوويل :

> ما قدر قبل صباح ذلك اليوم المروع من أبريل ، لمثل هذه الجموع من الرجال أن تذرف الدمع لوفاة شخص لم يكونوا قد رأوه من قبل ، فكأنما انتزع من حيواتهم بموته وجود يتسم بالود والصداقة ، مخلفاً إياهم فى مزيد من البرودة والظلام . أبداً ما كان الإطناب الرثائى فى بلاغة تلك النظرات الزاخرة بالعاطفة ، التى كان الناس يتبادلونها — على غير تعارف — إذا ما التقوا فى ذلك اليوم . كانت إنسانيتهم المشتركة قد فقدت واحداً من ذوى قرباها .

تركة الحرب

تحت زعامة قائد جديد ، غير مجرَّب ، ولا معد إعداداً كافياً — هو أندرو جونسون — كان على الأمة أن تواجه مشكلات إعادة التوافق وإعادة التعمير المضنية . وما كانت المطالبة بالانتقام ، التى انطلقت منتشرة بعد اغتيال لينكولن مباشرة ، لتخفف من صعوبة هذه

المشكلات . فسرعان مازادت اعتبارات سياسية واقتصادية أنانية من تعقدها منها رغبة الحزب الجمهورى فى استغلال الموقف لترسيخ نفوذه وسلطانه ، ومنها رجاء الجماعات الأنانية لرجال الأعمال فى استخدام الموقف لمصلحتها . فإذا رجال الصناعة الذين كانوا يبغون رفع الرسوم الجمركية ، وحملة الأسهم والسندات الذين كانوا يرتجون الاطمئنان إلى دفع الفوائد بالذهب ، ومنشئو الخطوط الحديدية الذين كانوا يبتغون منحاً من الأرض دون مقابل ، إذا بهم يحتشدون جميعاً وراء الحكومة الجمهورية .

ولقد خلفت الحرب للبلاد تركة جمعت بين النتائج الطيبة والنتائج السيئة . فهى قد أنقـذت الاتحاد ومنحته طابعاً لا سبيل للقضاء عليه . بيد أن الاتحاد الذى خرج من البوتقة الملتهبة لم يكن عين الاتحاد الذى أسسه الآباء . لقد ألغت الحرب الرق نهائياً ولكن بالعنف ، وبغير كثير احتفال بصالح الحرية ورفاهية المجتمع الذى كان على القوم أن يعيشوا فيه ، والاقتصاد القومى الذى كان عليهم أن يتشاطروه . ولقد هدمت سلطان أقلية أرستقـراطية فى الجنـوب ، بيد أنـه لم تكن ثمـة طبقة أخرى متأهبة للاضطلاع بمسئوليات الحكومة التى كانت تلك الطبقة تحتكرها إلى حد كبير ، فظل الجنوب جيلاً من الزمن محروماً من قادته الطبيعيين . كان لينكولن يدعو إلى حكومة للشعب يقيمها الشعب لمصلحـة الشعب ، على أنـه ما كان بوسـع أى مراقب منصف للأحداث أن يستخلص أن الحرب قد ارتقت بالديمقراطية بأى معنى من المعانى المباشرة .

لقـد خلفت الحـرب كراهية بين الشـمال والجنـوب استمـرت عشرات السنين ــ الكراهية التى كان لينكولن يأمل فى أن يمحوها ، إذ جعلت كثيرين من الناس أبعد من ذى قبـل عن التسـامح ، لاسيما فى الشؤون السياسية . فظل الزعماء الغوغائيون من الجمهـوريين فى الشـمال ، يلوحـون أمـداً طويلاً بالقميص الملطخ بالـدم ليقتنصـوا الأصـوات ، بمعنى أنهم كانـوا يتـوسلون بالتحـامـل المتعصب ضد أنصـار الحـزب الديمقراطى الجنوبيين . وفى مقابل هذا ، أصبح القطاع المعارض جنوباً صلباً تحت علم الحزب الديمقراطى ، فظل أجيالاً يرفع شكاواه ، ويصور فى قالب شاعرى الرق ، ونظام الزراعة ، والحرب . وكان هذا التعصب الحزبى الشديد أسوأ الأمور . فلم يقدر لديمقـراطى أن يدخل البيت الأبيض قبل عشرين سنة بعد انتهاء الحرب ، ولا قدّر لرجل جنوبى المولد أن يصبح رئيساً للجمهورية ، حتى فاز وودرو ويلسون بعد انقضاء خمسـين عامـاً . ولقد أتاحت الحرب للشمال كتلة من العسكريين الذين خاضوا الحرب ،

والذين امتلكوا نفوذاً انتخابياً كبيراً . فسرعان ما شرعوا يطالبون الحكومة بمعاشات ، وأخذ السياسيون المستخذون يهيلون عليهم الأموال العامة فى عدم اكتراث مفرط . كذلك كان للصراع أثر سيىء على النسيج الاجتماعى والخلقى للبلاد . إذ أنه أبرز طبقة من الرجال كانوا متلهفين على المال والسلطان ، وكانوا أجلافاً فى أذواقهم وميولهم ، ومجردين من الخلق فى تصرفاتهم ، ولقد ظلت الأغلبية الكبرى من الأمريكيين جادين ، كادحين ، ذوى ضمائر واعية ، ووطنية . بيد أن عنصراً مبتذلاً ، وقحاً ، جشعاً برز أكثر جلاء من ذى قبل .

إعادة التنظيم فى الجنوب [1]

أما وقد هُزم الجنوب ، فقد بات لزاماً أن « يعاد تنظيمه » ، أى أن يرد إلى علاقته الصحيحة بالاتحاد . وقد غلبت هذه العملية الشاقة ، التى كانت تجرى فى ولايتى تنيسى ولويزيانا منذ سنة ١٨٦٢ ، على المسرح السياسى منذ أبوماتوكس حتى سنة ١٨٧٧ . ولو كان قد قدر للينكولن أن يعيش لأصر على سياسته الداعية إلى « ما من أذى نحو أحد ، بل الخير للجميع » ، وعلى رأيه القائل بأن الوضع الدستورى للولايات المنفصلة ــ سواء كانت من قبل فى الاتحاد أو خارجه ، وسواء كانت قد انتحرت انتحاراً قانونياً أو ألغت حقوقها الدستورية ــ كان « غير صالح كأساس للجدال ، وغير صالح لأى شىء ألبتة ، وإنما هو محض فكرة تجريدية خبيثة » . وغالباً ما كان سيكسب الرأى العام والكونجرس معاً إلى جانب هذا الرأى المنطقى الحميد .

بيد أن أندرو جونسون لم يكن يحظى بنفوذ لينكولن ولا سلطانه . فقد تولى الرئاسة بمصادفة عفوية . إذ كان من أتباع الحزب الديمقراطى سابقاً ووصل إلى رئاسة الحزب الجمهورى ، ولم يكن له فى الكونجرس سوى قلة من الأصدقاء ، ولم يكن ذا جاذبية للجماهير بالرغم من ولائه وتشبثه بالنزاهة . وكان قد نشأ فى معمعة السياسة الخشنة

(١) Reconstruction : تعنى إعادة البناء والتعمير أو إعادة التنظيم . وهذا المعنى الأخير هو المقصود فى دراستنا هذه ــ المترجم .

والمتخبطة فى ولاية تنيسى ، ولم يهيىء نفسه قط لظروف الرئاسة المختلفة كل الاختلاف . فلم يكن مسلكه أمام الرأى العام مهيباً ، كما كانت علاقاته بالكونجرس متهورة وخالية من الكياسة . فتنازع مع الكونجرس بصدد مشروعات قوانين لمساعدة الزنوج عن طريق مكتب المعتوقين ، ولحمايتهم بقانون الحقوق المدنية ، إذ رأى أنها تشريعات تسطو على سلطان الولايات بشكل غير مناسب . وإذ استُدرج إلى الانهزام وتشوه السمعة بفضل مناورات الزعماء المتطرفين فى الكونجرس ، فإنه فقد السيطرة على الموقف السياسى ، ونبذت زعامته فى انتخابات الكونجرس سنة ١٨٦٦ .

ولقد أحنق الكونجرس عناده بصدد إعادة التنظيم ومسائل أخرى ، فتجاوز عن رفضه (مستخدماً حق النقض أو الفيتو) مشروع قانون يحرم عليه فصل الموظفين من بعض المناصب بدون موافقة الكونجرس ، ولعل القانون كان مجافياً للدستور ، وقد حاول الرئيس أن يختبره بأن فصل وزير الحرب فى حكومته إدوين ستانتون إذ لم يكن موالياً له . وإزاء هذا ، اتهمه المتطرفون (الراديكاليون) فى فبراير سنة ١٨٦٨ « بجرائم من الدرجة الأولى وجنح » ، وحاكموه أمام مجلس الشيوخ ، ولم ينج من الطرد من البيت الأبيض إلا بصوت واحد . ولم ينقذ الكونجرس والبلاد من العواقب الوخيمة لهذا الهجوم المشين على النزاهة الدستورية لرئاسة الجمهورية سوى شجاعة نفر من المستقلين ، مثل ترمبول من إللينوى ، وفيسيندن من ولاية مين .

وكان غرض إعادة التنظيم ، بوجه عام ، ذا ثلاث شعب : كان يرمى أولاً ، وببساطة ، إلى إنهاء شؤون الاتحاد التحالفى ، وإعادة الولايات الجنوبية إلى الاتحاد ، وإصلاح طبيعة تكوين السياسة والإدارة القوميتين وبث الحيوية فيهما . وكان يرمى — ثانياً — إلى تأكيد وضمان الحرية ، بل والحقوق السياسية والمدنية للزنجى الحديث التحرر . وكان ثمة غرض ثالث ، هو الاحتفاظ وإطالة أجل تشريعات الحرب الأهلية المتعلقة بالرسوم الجمركية ، وأراضى الغرب ، والنظام المصرفى ، ونظام النقد ، والنظام المالى ، والمصالح التى من هذا القبيل ، وذلك بتدعيم مركز الحزب الجمهورى فى الجنوب ، وفى كافة أرجاء الدولة .

وكانت ثمة طريقتان واضحتان لتحقيق هذه الغايات : طريقة دستورية ، والأخرى سياسية . الأولى تضمين الدستور ذاته ضمانات تكفل دوام نتيجة أبوماتوكس والحقوق المدنية والسياسية للزنوج ، وهذا ما كان يتحقق إلا بتعديل الدستور . فأوضح التعديل

الرابع عشر ، الذى أقره الكونجرس فى سنة ١٨٦٦ ، أن الزنجى مواطن ، شريطة ألا يكون لأية ولاية حق اقتضاب امتيازات أوحصانات مواطنى الولايات المتحدة ، أوحرمان أى فرد من الحياة أو الحرية أو الملكية بدون الاجراءات القانونية اللازمة ، أو إنكار المساواة فى حماية القوانين على أى فرد . وفى سنة ١٨٦٩ أقر الكونجرس التعديل الخامس عشر ، الذى يكفل حق الانتخاب للمتمتعين بالحرية ، وفوض للكونجرسات المقبلة فرض هذا الحق المكفول بوساطة التشريعات المناسبة .

أما الأسلوب الثانى لتحقيق غايات إعادة التنظيم فكان يتمثل فى تنفيذ هذه الضمانات الدستورية بوساطة تشريع الحقوق المدنية ، وتعزيز الحزب الجمهورى فى الجنوب بحشد أتباع له من الزنوج وباكتساب السيطرة على التجارة والصناعة ، والسكك الحديدية ، وغيرها من المصالح التى كانت ، فى الأيام الغابرة ، ترتبط بحزب الأحرار الجنوبى [1] .

هل كانت إعادة التنظيم قصاصاً ؟ كان ثمة قدر كبير من الحديث غير المسئول ، عن عقاب الجنوب وزعمائه جزاء الانفصال والحرب ، ولكن العقاب فى ذلك كان أقل من المرتقب فى الواقع . ولقد ظل الجنوبيون زهاء قرن ـ حتى الآن ـ يصفون عهد إعادة التنظيم كعهد قسوة تامة ، ويصرون على أن الشمال المنتصر فرض على الجنوب المنهزم صلحاً قرطاجياً . ومع ذلك ، فما من عصيان كبير آخر ، فى العصور الحديثة ، أُخمد بعقاب رسمى للمنهزم يقل عما حاق بالجنوب ، أو بأقل مما أصابه من التصرفات المنطوية على قصاص ، وما قدِّر لعصاة غير الجنوبيين أن يسمح لهم باستئناف مراكزهم ونفوذهم بعد الهزيمة بمثل هذه السرعة . ونحن إذ نلقى نظرة على القرن الذى مضى من التاريخ ، ونتذكر عمليات القمع الوحشى لحركات العصيان فى الصين ، واسبانيا ، وروسيا ، وكوبا ، لا نجد بدأ من أن نستخلص أن مسالك الشمال المظفر نحو الجنوب المنهزم ، كان يتسم فى مجموعه بالسماحة وسعة الأفق .

ولا داعى لأن نتعقب دقائق عمليات إعادة التنظيم بتفصيل . لقد ورث المعتدلون ، بزعامة الرئيس جونسون ، سياسة لينكولن فى شىء من التعثر والتخبط . وكانوا يبتغون تضميد جراح الحرب ، وإقناع الولايات الجنوبية بأن تجرب منح الحقوق

(١) Whig : حزب أنشىء فى الجنوب ، فى سنة ١٨٣٤ لمقاومة الحزب الديمقراطى ـ المترجم .

النيابية ، واستعادة ولايات الجنوب إلى الاتحاد . أما الأحرار الراديكاليون ، بزعامة خصوم ألداء لطبقة ملاك الرقيق مثل ثاديوس ستيفنز من بنسلفانيا وبن ويد من أوهايو ، ومفكرين مثاليين من أمثال تشارلس سومنر من مساشوستس ــ هؤلاء الراديكاليون لم يكونوا يحفلون كثيراً بالحقوق المدنية والانتخابية للزنوج . بل كانوا يقترحون إرجاء العودة الكاملة للجنوب إلى الاتحاد ، إلى الوقت الذى يتبين فيه الجنوبيون أنهم قد تقبلوا عواقب الهزيمة تقبلاً تاماً ، وأنهم لن يقيموا أية عقبات فى سبيل تحقيق منح الحقوق للزنوج أو أية نواح أخرى من برنامج الأحرار .

ولقد استهل الرئيس جونسون برنامج المعتدلين ، بأن أصدر بياناً سخياً بالعفو وبإقامة حكومات انتقالية فى الولايات الجنوبية . وكان على هذه أن تضع دساتير جديدة وأن تعود بالولايات إلى الأحوال الطبيعية . ومع أن الجنوبيين كانوا على استعداد لقبول الأجزاء التوفيقية المنطوية على استرضاء من هذا البرنامج ، فإنهم أبوا منح الزنوج حق الانتخابات أو أية حقوق مدنية ذات قيمة ، بل إنهم ــ على النقيض ــ أعادوا سريان تشريعات مهدت لسن قوانين للسود تهدف إلى بقاء الزنجى فى مكانه ، أى فى مركز ثانوى طبعاً . ورد الكونجرس على هذا بالتعديل الرابع عشر . ورفضت الهيئات الجنوبية هذا التعديل واحدة بعد أخرى . وانضمت بعضها إلى بعض فى هذا الصدد . فمن الذى كان له أن يملى شروط إعادة التنظيم ، الجنوب أو الشمال ؟

وأدى الفوز فى انتخابات سنة ١٨٦٦ ، إلى تعزيز تصميم الراديكاليين وعدوانيتهم . فلما اجتمع الكونجرس فى الربيع التالى ، محا صفحة إعادة التنظيم وشرع ينشئها من جديد . فأعاد أولاً فرض الحكم العسكرى فى الجنوب ، مقسماً ولايات الاتحاد التحالفى السابق إلى خمس مناطق عسكرية تحت رئاسة قادة عسكريين كبار . وكان على هؤلاء القادة العسكريين بدورهم أن يسجلوا الناخبين ذوى الولاء ، من السود والبيض ، الذين يقيمون بعد ذلك حكومات جديدة مستعدة لأن تنفذ ما يطلب الكونجرس . وجعل إعادة الولايات إلى عضوية الاتحاد ــ أى تخصيص مقاعد لممثليها فى الكونجرس ــ متوقفاً على تصديقها على التعديل الرابع عشر ، ثم على التعديل الخامس عشر الذى حرم على الولايات إعادة حرمان الزنجى من حق الانتخاب لمجرد أنه زنجى .

وسرعان ما انزاحت الحكومات العسكرية لتفسح مكانها لحكومات أعيد تنظيمها

ويسيطر عليها ائتلاف من الزنوج الذين حصلوا على الحقوق السياسية حديثاً ، والبيض الجنوبيين المستعدين للتوافق مع الواقع ، والشماليين من « حملة الخرج » [1] الذين تدفقوا على الجنوب لغايات سياسية أو تجارية لم تكن تتسم فى كافة الأوقات بفحص دقيق . ولقد سيطرت هذه الحكومات الراديكالية بدورها على الولايات الجنوبية لمدد متباينة تراوحت بين سنة وست أو سبع سنوات . وكانت ، فى حالات كثيرة ، مسرفة ، عديمة الكفاءة ، فاسدة ، كما كانت حال بعض حكومات الولايات الشمالية فى سنوات إعادة التنظيم كذلك . بيد أنها نفذت إصلاحات مهمة ، فهى لا تستحق القدح والذم اللذين أهيلا عليها .

وما لبث البيض الجنوبيون أن استردوا الحكم الداخلى شيئاً فشيئاً . ويرجع بعض الفضل فى هذا إلى العنف والإرهاب . فقد أنشأوا جمعيات سرية مثل كوكلكس كلان التى أجبرت كثيرين من « حملة الخرج » على العودة إلى الشمال ، وأرهبت الزنوج لينصرفوا عن مراكز الانتخاب . كان أسلوباً من السرية والعنف أوجد سابقات خبيثة اتُّخذت قدوة فى السنوات المقبلة . ومن هذه الوسائل أنهم « استعادوا » حكومتهم بأن استردوا السيطرة على الجهاز السياسى القديم ــ إذ كان البيض من الأهالى هم الذين عرفوا التجربة السياسية وأوتوا المهارات السياسية ، على أية حال . ومن الوسائل كذلك أنهم وجدوا فى الشمال أصدقاء وحلفاء ، من الديمقراطيين الذين كانوا يبتغون حزباً متحداً من جديد ، ورجال الأعمال الذين كانوا يسعون لبناء السكك الحديدية وترويج الصناعة ، والمواطنين العاديين الذين كانوا قد سئموا طوال الاضطراب فى الجنوب ، وقالوا مع الجنرال جرانت : « فلنحصل على السلام » . وعاد الديمقراطيون الجنوبيون إلى فرض نفوذهم على الولايات ، واحدة إثر أخرى ، حتى لم تبق فى أيدى الراديكاليين ، حوالى سنة ١٨٧٦ ، سوى ثلاث ولايات : لويزيانا وفلوريدا وكارولينا الجنوبية .

كانت انتخابات سنة ١٨٧٦ من أحمى المعارك وأحفلها بالاضطرابات فى التاريخ الأمريكى . وخرج مرشح الحزب الديمقراطى صمويل تيلدن النيويوركى بأغلبية واضحة من أصوات الشعب وبأغلبية جلية من أصوات المجمع الانتخابى كذلك ، كما

(١) Carpetbaggers : أبناء الشمال الذين لم يكونوا يملكون شيئاً ، وسعوا إلى الجنوب للإفادة من ظروفه ، عقب الحرب الأهلية ــ المترجم .

بدا من ظاهر النتائج . بيد أن نتائج أربع ولايات كانت موضع نزاع ، ولو أن هذه الأصوات جميعاً ذهبت إلى مرشح الحزب الجمهورى رذرفورد بى . هايز ، لتم انتخابه . ولقد منحت لجنة انتخابية عُينت لتسوية الخلاف هايز جميع الأصوات ، على أساس حزبى صارم ، أفكان الحزب الديمقراطى ــ وكان من المحتمل أنه أصبح حزب الأغلبية ــ يقبل ما بدا له بمثابة « سرقة » ؟

وصل زعماء الحزبين فى هذه الأزمة إلى تفاهم صريح . إذ انصاع الحزب الديمقراطى لنتائج اللجنة الانتخابية وسمحوا لهايز بأن يصبح رئيساً للجمهورية ، فعليه بدوره أن يقوم بسحب القوات الاتحادية من الجنوب ، وأن يعين فى مجلس وزرائه أحد الجنوبيين ، وأن يؤيد اعتمادات كبيرة لبرنامج للتحسينات الداخلية فى الجنوب . وأدى هايز اليمين ليتولى المنصب ، وما لبثت القوات الاتحادية أن سحبت من الجنوب . وكانت هذه نهاية إعادة التنظيم ، وكانت كذلك ــ من حيث كافة الأغراض المحلية ــ نهاية أى مجهود جدى كبير لحماية الزنجى فى تمتعه بحقوقه الدستورية . ولقد جلبت « الصفقة » السلام ــ أو الهدوء ــ على الأمور السياسية الأمريكية ، ولكنها شلت تقدم الزنوج مدة ثلاثة أرباع القرن ، وأسلمت الجنوب إلى الحزب الديمقراطى .

ونحن إذ نلقى نظرة على فترة الصراع المدنى والقلاقل ، بين عامى ١٨٥٠ و١٨٧٧ ، يبدو لنا أن الفترة تكاد تكون مأساة مفجعة خالصة . فلو أن إلغاء الرق جرى تدريجياً ، مع التعويض المناسب لملاك العبيد ، كما ظل لينكولن يرجو أمداً طويلاً ، لسارت البلاد قدماً ، وبتوفيق كبير جداً . كان هذا كفيلاً بإتاحة الوقت لتعليم الزنوج والبيض ليؤدوا خطواتهم الجديدة نسبياً فى المجتمع ، ولأبقى للأمة الستمائة الألف من الشباب الموفور الفتوة من سكان كان تعدادهم ٣١ مليوناً الذين فقدوا حياتهم فى الصراع ، وملايين الأطفال الذين كانوا خليقين بأن ينجبونهم ، ولأعفى الجنوب من الخراب الهائل ، ولأنقذ القطاعين معاً من النتائج المثيرة للمسالك الخشنة ، والتى تكشفت بجلاء عن « العهد ذى الطلاء الذهبى » ، عهد السعى وراء المال ، والسوقية الفظة ، فى أعقاب الحرب . ومع ذلك فليس ثمة ما يدعو لافتراض أنه كان من الممكن تنفيذ البرنامج . فما كان الجنوب ، فى أى زمن ، على استعداد لأن يتخلى عن الرق بهدوء وسلام ، وفى هذا الصدد يحسن تذكر أن ديلاوير ظلت حتى فبراير ١٨٦٥ ، تصوت ضد عتق العبيد مقابل التعويضات .

على أن قائمة الحساب تبين ، برغم المواد السالف ذكرها ، أرصدة دائنة . فإن العاصفة وحدت الأمة ووصلت بينها فى كيان كلى عظيم بدرجة ما كانت لتصل إليها أية عملية تدريجية بطيئة . فمن الناحية الاجتماعية ، أصبح الجنوب أكثر قربى وتجانساً مع الشمال . ولقد أدت الحرب الكثير لتعميق ونضج الطابع القومى ، وأصبح الأدب والتعليم أكثر نضجاً ، من نواح كثيرة . كذلك أتاح الصراع للبلاد مجموعة من الذكريات المثيرة والمأسوية ، التى تهز مشاعره وتسمو بخياله ويظل يذكرها ـ قروناً فى المستقبل ـ فى انبهار . . كإطلاق النيران على فورت سومتر وإنزال السفينتين ميريماك ومونيتور ، واندفاع ستونوول جاكسون الذى لا يقاوم ، مجتاحاً شيناندواه مخلفاً وراءه سلسلة من الجيوش الاتحادية المهزومة ، وسفن المدفعية تنطلق فى نهر المسيسيبى بعد فيكسبيرج وسط عاصفة من الطلقات والقذائف ، والصراع المميت بين جيش بيكيت التحالفى الجنوبى والخط الذى أقامته قوات هانكوك عند مرتفعات سيمترى ريدج ، واجتياح المرتفعات شمالى تشاتانوجا بقوات لم يقو على إيقافها شىء ، حتى أوامر جرانت ، وهى بطولة فاقت بالاكلافا ، والبسالة المستميتة التى اتسمت بها قوات هود المقاتلة المزقة فى انقضاضها على صفوف الاتحاد عند فرانكلين ، فلم تنقض ساعتان حتى كان ستة آلاف منهم بين قتلى وجرحى ، والسفينة كيرسارج التى ظلت تحوم حول ألاباما حتى غرقت تحت الأمواج ، ولى بسيفه المرصع بالجواهر وجرانت فى زى الجندى العادى وهما يتصافحان فى أبوماتوكس ، ولينكولن وهو يسير فى شوارع ريتشموند وقد خلعت عليها الحرائق سواداً ، والجنازة التى شيعت بها رفات الرئيس الشهيد على طول ألف ميل ، والاستعراض الضخم الذى تتابعت فيه صفوف لا نهاية لها من الجيشين الشرقى والغربى فى طريق بنسلفانيا آفنيو فى المشهد الختامى للحرب . كانت ملحمة بطولية وستظل فى الذاكرة ما ظل الناس يعتزون بالماضى .

الفصل ١٣

بزوغ أمريكا الحديثة

أثر الحرب

أحدثت الحرب الأهلية ثورة فى المجتمع والاقتصاد الأمريكيين ، سواء فى الشمال أو الجنوب . ومع أن جذور أمريكا الحديثة تتغلغل فى السنوات السابقة على الحرب ، فإن بوسعنا أن نرجع بزوغها الواقعى إلى الحرب ذاتها . فإن هذا الصراع أتاح للصناعة تنشيطاً هائلاً ، وعجل استغلال الموارد الطبيعية ، وتنمية التصنيع الواسع النطاق ، ونهضة الأعمال المصرفية الاستثمارية ، واتساع التجارة الخارجية ، ودفع إلى المقدمة بجيل جديد من « قادة الصناعة » و« أصحاب رأس المال » . ولقد زاد من نشاط إنشاء الطرق الحديدية وشبكات البرق بدرجة هائلة ، وبشر بعصر السكك الحديدية ، كما أنه شجع المخترعات وأجهزة توفير العمال ، وشهد تطبيق هذه الأجهزة فى الزراعة وفى الصناعة ، على حد سواء ، على نطاق واسع . ولقد فتح مساحات جديدة شاسعة للزراعة والرعى ، وأوجد أسواقاً جديدة للإنتاج الزراعى ، واستهل الثورة الزراعية ومشكلة الزراعة معاً . لذلك خلق ظروفاً مواتية لنمو المدن ، وأتاح عملاً لمئات الآلاف من المهاجرين الذين سرعان ما تدفقوا على العالم الجديد . ولقد قضت الهزيمة — فى

الجنوب ـ على طبقة أصحاب المزارع الكبيرة إلى درجة واسعة ، وحررت الزنوج ، وأحدثت ثورة فى الاقتصاد والزراعة ، ودفعت إلى المقدمة بطبقة وسطى جديدة ، وأرست أسس ذلك الجنوب الجديد الذى كان مقدراً له أن يظهر فى الجيل التالى . أما فى الشمال ، فإن النزاع فتح ميادين جديدة للاستثمار والمضاربات ، وخلق مجموعة من أغنياء الحرب ، وعجل سير تركيز السيطرة على الموارد والصناعة والمال فى المراكز الحضرية (المدن) الكبرى ، وتبعية الجنوب والغرب للشمال الشرقى أى أصبحا فى الدرجة الثانية بالنسبة إليه ، وخلق فوارق طبقية جديدة تحل محل القديمة .

ولقد تشكل نمط مجتمعنا واقتصادنا الراهنين فى الجيل الذى أعقب أبوماتوكس . وكان النمو هو الحقيقة الوحيدة الأكثر اجتذاباً للانتباه . . النمو فى المساحة ، وفى الأعداد ، وفى الثروة ، وفى النفوذ والسلطان ، وفى تعقد المجتمع ، وفى النضوج الاقتصادى . ولقد رسمت الأقسام السياسية للجمهورية فى أوضاعها النهائية ، وضُمت اثنتا عشرة ولاية جديدة إلى عضوية الاتحاد ، وإقامة إمبراطورية أمريكية . وفى فترة أربعين عاماً ازداد السكان من واحد وثلاثين مليوناً إلى ستة وسبعين مليوناً ، وتدفق خمسة عشر مليوناً من المهاجرين ـ منهم نسبة مطردة الازدياد من أوربا الجنوبية والشرقية ـ على أرض الميعاد ، فتضاعف أكثر من مرة حجم مدن كبيرة مثل نيويورك ، وشيكاغو ، وبيتسبيرج ، وكليفلاند ، وديترويت . وفى حملات سريعة التعاقب أزيح الهنود من مهابطهم فى سهول المرتفعات وفى الجبال والوديان النائية وسيقوا إلى مناطق مغلقة ، ونهضت مملكة التعدين وتربية الماشية ثم سقطتا ، وعمر الغرب بالناس وزرعت أراضيه ، ولم تحن نهاية القرن حتى كانت مناطق حدود العمران قد عفت وتلاشت . وأدت المكتشفات الشاسعة من الحديد الخام ، والنحاس ، والنفط إلى قيام عشرات الصناعات الكبيرة ، ونمت المشروعات التجارية والصناعية الصغيرة فأصبحت كبيرة ، وغدت اتحادات الحرفيين والتجار هى الأدوات الفعالة للاقتصاد القومى الجديد ، والموثّقات أو الاتحادات الاحتكارية والشركات التى تمتلك أسهم شركات أخرى لتسيطر عليها هى الشكل التنظيمى المميِّز لهذا الاقتصاد . وزحفت البيوت المصرفية الكبرى ، كبيت مورجان ، فى هدوء لتحتل مركزاً مهيمناً على الاقتصاد القومى . واكتملت شبكة الطرق الحديدية تقريباً ، فازداد طول خطوطها من ثلاثين ألفاً إلى مائتى ألف ميل ، وأتاحت للبلاد أعظم شبكة للسكك الحديدية فى أية دولة فى العالم . وازدادت عضوية

المنظمات العمالية ، التى كانت قليلة وضعيفة قبل الحرب ، ووطدت مكانتها فى النظام الاقتصادى ، وأصبحت المنازعات الصناعية ــ التى كانت حتى ذلك الحين صغيرة ومتباعدة ــ منظمة وقوية التهديد . وصارت الجمهورية الصغيرة دولة كبرى عالمية ، ممتدة إلى البحر الكاريبى والمحيط الهادى ، فى حين ابتكرت صناعتها التواقة إلى الأسواق وأصحاب مصارفها المتحمسون للاستثمارات ، أساليب للإمبريالية الاقتصادية . وما قدر لجيل آخر فى التاريخ الأمريكى أن شهد تغيرات بهذا التعاقب السريع أو الثورى التى اتسمت بها تلك التغيرات التى حولت جمهورية لينكولن ولى الزراعية إلى إمبراطورية ماكينلى وروزفلت الحضرية الصناعية .

وواجهت مجموعات جديدة من المشكلات المعقدة والمحيرة شعباً أمريكياً بلغ من قلة الخبرة بحيث لم يكن يفهمها ، ومن الانشغال بحيث لم يكن يوليها عناية تذكر . وكانت أكثر هذه المشكلات إلحاحاً هى المتعلقة بإعادة توزيع الثروة ، والسيطرة على تجمعات رأس المال الهائلة ذات النفوذ ، والحفاظ على الديمقراطية السياسية تحت وطأة اقتصاد غير ديمقراطى ، والبطالة والقلاقل العمالية الواسعة النطاق ، واكتظاظ المدن واستيعاب ذوى المولد الأجنبى ، وتضاؤل الدخل الزراعى مع تزايد الملكية الزراعية ، وصيانة الموارد الطبيعية التى تستنزف بسرعة نتيجة الاستغلال دون اكتراث ، ومسئوليات حكم مناطق فيما وراء البحار والسياسة العالمية ، وتنسيق النظم السياسية ــ التى شكلت وفقاً لحاجات جمهورية زراعية صغيرة ــ لتوافق المطالب الداهمة لدولة صناعية كبرى .

تحويل الجنوب

كان وقع الحرب والهزيمة على الجنوب سريعاً مباشراً جائحاً ، فصافح أبصار المحاربين الجنوبيين وهم يعودون إلى ديارهم فى تثاقل وإعياء ــ بعد ناشفيل وأبوماتوكس ــ خراب لا مثيل له فى التاريخ الأمريكى . كانت الجيوش المتقاتلة قد أشاعت الدمار فى أصقاع كبيرة من فيرجينيا وتنيسى ، وكان شيرمان قد شق رقعة عرضها ستون ميلاً فى جورجيا وكارولينا الجنوبية ، كما اجتاح هنتر وشريدان وادى فيرجينيا الخصب ، وأصبحت مساحات واسعة من شمال الاباما ، وولاية مسيسيبى ، وأركنساس أطلالاً . وقد أتت

الحرائق على مدن كانت مزدهرة ، مثل ريتشموند وتشارلستون وكولمبيا وأتلانتا ، أو هدمها قصف المدافع . ولقد هدمت جسور ، وأهملت طرق ، ونزعت مئات الأميال من قضبان السكك الحديدية ، وأتلفت العربات والمركبات وأنزل الدمار بأرصفة الموانىء وأحواض السفن . وباتت الحياة الاقتصادية العادية شبه مشلولة ، والعملات النقدية للتحالف الجنوبى غير ذات قيمة ، فليس من عملات ، ذات شأن إلا ما كان مختزناً فى الخفاء ، أو جلبه الجيش الاتحادى إلى البلاد المهزومة . ولقد أغلقت المصارف أبوابها . وعجزت شركات التأمين عن الوفاء بالتزاماتها ، وأفلست المصانع والمشروعات التجارية ، وأحرقت السلطات العسكرية شطراً كبيراً من القطن الذى كان مكدساً فى مخازن الموانىء أو صادرته .

وكانت أجهزة الحكم المدنى قد تلاشت تقريباً ، فلم تكن سلطة ذات فاعلية لتحصيل الضرائب ، أو إدارة المدارس ، أو صيانة الطرق ، أو فرض القانون على النهابين والعصابات المسلحة ممن أخذوا يغيرون على الريف . وكانت الكنائس قد أحرقت والأبرشيات قد تفرقت ، والكليات قد فقدت موارد المنح المالية ، كما قضى على مكتباتها ومعاملها حتى إن أمين مكتبة جامعة ألاباما لم يستطع أن ينقذ من الحريق سوى كتاب واحد فقط . . هو « القرآن » ولقد أغلقت أبواب معظم المدارس العامة ، وتوقف التعليم تماماً .

وكانت الزراعة هى الأخرى فى حال تدعو إلى اليأس . . فقد هُجرت آلاف المزارع ، وهدمت الأسوار ونمت الأعشاب البرية فى القنوات وتصدعت السدود والخزانات المائية ، ونفقت الخيل والماشية أو سرقت وصدئت المحاريث فى الحقول ، واختل نظام العمالة . ولقد قضى على إنتاج الأرز فى كارولينا قضاء مبرماً ، وغمرت المياه الملحة الحقول ، وأتلف إنتاج السكر فى لويزيانا . وكانت مساحة الأرض المزروعة تبغاً فى فيرجينيا تقل فى سنة ١٨٧٠ عما كانت عليه فى سنة ١٨٦٠ بمليونى دونم ، ولم يقدر للجنوب أن ينتج محصولاً من القطن يعادل عام الانفصال إلا فى سنة ١٨٧٩ . ولقد استشرت المجاعة فى أجزاء كبيرة من الجنوب ، خلال شتاء ١٨٦٥ ، فكان البيض والسود على السواء يتلقون المعونات من الجيش الاتحادى أو مكتب المعتوقين (المحرَّرين) الحديث الإنشاء . وفى هذا كتب الشاعر الجنوبى سيدنى لانيير : « كأنما كانت الحياة بأسرها تحتضر » .

ولقد جلبت إعادة التنظيم بلايا كثيرة تكاد تعادل أعباء الحرب ثقلاً . ولقد تبدد دَيْن التحالف الجنوبى ، وتبدد معه ــ بطبيعة الحال ــ ما ساهم به الجنوبيون من أموال لأجل قضيتهم ، بيد أنه كان من المرتقب أن يتحمل الجنوب نصيبه من الدَيْن القومى ومن النفقات الجارية للحكومة القومية ، فضلاً عن أنه فرضت عليه رسوم ضريبية فادحة على القطن . ولعل هذا لم يكن غبناً أوإجحافاً ، بيد أن هذا لا ينطبق على ديون الولايات والحكومات المحلية وضرائبها . ولقد بددت ملايين الدولارات فى البذخ وأوجه الإسراف أثناء عهد الـخُرْج ، كما سرقت ملايين سرقة صريحة ، وأنفقت ملايين أخرى دون اكتراث على مشروعات للسكك الحديدية ومشروعات للتجارة محفوفة بالشبهات ، ونادراً ما عادت بعشرة فى المائة عن كل دولار . ولقد تضاءلت الثروة فى بعض الأرجاء بما يزيد على النصف ، ولكن الضرائب والديون تصاعدت تصاعداً فاحشاً . فأدى عهدا الخرج والمتطرفين إلى زيادة الدَيْن العام على كارولينا الجنوبية من خمسة ملايين إلى تسعة وعشرين مليوناً ، ودَيْن أركنساس من ثلاثة إلى خمسة عشر ، ودَيْن لويزيانا من أحد عشر إلى ما يقرب من خمسين مليوناً .

وما ينبغى أن يحملنا هذا كله على تعجل الحكم على حكومات إعادة التنظيم . فإن مهمة إصلاح ما خربته الحرب كانت باهظة التكاليف لا محالة ، وكانت معظم الممتلكات التى اعتادت تحمل عبء الضرائب من قبل ــ من طرق حديدية ومصارف وصناعات ــ قد ولت ، ومن ثم فإن عبء الضرائب أناخ بأكمله على الأرض . وأصبح تجديد المرافق العامة ، التى طال إهمالها فى الجنوب ، يزيد من المطالب على الحكومات ، فعلى سبيل المثال ، كانت هذه أول حكومات سعت إلى توفير التعليم العام لجميع الصغار فى الولاية . وما من شك فى أن الفساد وعدم الكفاءة كانا مسئولين عن شطر كبير من الضرائب العالية والديون ، ولكن هذا أيضاً كان شأن ما إعتادته حكومات « المخلص » الأبيض من ضمان سنوات مشروعات السكك الحديدية وغيرها من المشروعات التجارية . ثم إن الفساد كان موجوداً لدى العنصرين ، ولدى الفريقين ، وفى كل الطبقات .

كذلك لا ينبغى أن نغفل تقدير الناحية البناءة فى إعادة التنظيم التقدمية (الراديكالية) : إنشاء المدارس العامة ، والمؤسسات الخيرية والإنسانية ، وتشجيع الهجرة ، وتوزيع الأراضى على الزنوج ، والخطوات ــ التى قدرا لها الإحباط ــ نحو

تحقيق الديمقراطية السياسية . وبقى للحكومات التى جاءت فيها بعد أن تشرع فيما تركته الحكومات التقدمية ، فتحاول ضمان قدر أكبر من المساواة والعدالة لجميع عناصر المجتمع الجنوبى .

وتحول الجنوب بكل همة إلى عملية التعمير المادى ، وإلى إصلاح اقتصاده الزراعى ، وإعادة نظم ومؤسسات المجتمع المتمدين . وقد قال هنرى جريدى ، من كتاب جورجيا ، وهو يستعيد الذكرى فيما بعد : « كما أن الدمار لم يكن يوماً بمثل هذه الفداحة ، فكذلك لم يكن التجديد يوماً بمثل هذه السرعة » . وقامت ريتشموند وتشارلستون وكولمبيا من بين الأطلال ، ولم تنقض ستة أشهر بعد نهاية الحرب ، حتى روى زائر لمدينة أتلانتا أن مدينة جديدة كانت تنبعث بسرعة مذهلة . وأعيد مد الخطوط الحديدية ، ومدت طرق نحو الجنوب الغربى ، وأعيد إنشاء الجسور وتجديد السدود والخزانات ، وأخذت السفن ترسو من جديد فى مرافىء نورفولك وتشارلستون وموبيل ، وشرع تجار الريف وصغار التجار ــ ثم المصارف وشركات التأمين عندما حانت الظروف ــ فى العمل .

ولقد أعيد فتح المصانع ، واستُدرج رأس المال إلى صناعات جديدة بمعدلات فاحشة للفائدة . ووفرت المنشآت الشاسعة من خشب الصنوبر الأبيض والأصفر أساساً لازدهار صناعة قطع الأخشاب . ولقد أعجب التبغ الذى كان يعده واشنطن ديوك جنود الاتحاد الذين مروا بديرهام ، بولاية كارولينا الشمالية ، فكتبوا من ديارهم يطلبون مزيداً منه ، وبذلك توطد مركز صناعة التبغ الكبيرة فى كارولينا الشمالية ، ولم تحن سنة ١٨٨٨ حتى كانت ديرهام تملك أكبر مصنع فى العالم ، وكانت تصدر عشرة ملايين من أرطال التبغ فى كل عام . وانتشرت مطاحن القمح والغلال لتوفير الاحتياجات المحلية ، كما أعيد تعزيز صناعة الأسمدة التى لا غنى عنها لإنتاج القطن واكتشفت مستودعات الفحم والحديد المحلية فى تنيسى وشمال الاباما . وفى عقدين من الزمن أصبحت بيرمينجهام ، التى كانت حقلاً للقطن فى سنة ١٨٧٠ ، مدينة تضم خمسين ألف نسمة ، ومركزاً لصناعة الحديد النامية ، وملتقى لستة خطوط حديدية رئيسية . ولم يحن عام ١٨٩٠ حتى كان الجنوب يُنتج خُمس صناعة الحديد الخام المصهور فى الدولة بأسرها . وتطورت مدن أخرى ، مثل تشاتانوجا وديرهام ووينستون ـ سالم ودانفيل إلى مدن صناعية مطردة النمو .

وفى الجزء الساحلى من الجنوب كانت صناعة النسيج مزدهرة منذ فتح وليم جريج مصانع القطن فى جرانيتفيل ، بكارولينا الجنوبية فى سنة ١٨٤٦ . بيد أنها اختلت تماماً ، كمعظم الصناعات الأخرى ، بفضل الحرب ، ثم عادت للازدهار مرة أخرى ، فى العقد الثامن من القرن ، مستغلة كل الاستغلال اجتماع عوامل الأيدى العاملة الرخيصة ، وقرب موارد الطاقة المتولدة من القوى المائية ، وسهولة الحصول على المواد الأولية . وانبثت على طول الأجزاء الداخلية من ولايتى كارولينا وولاية جورجيا عشرات المصانع الصغيرة الممولة برأس المال المحلى إلى حد كبير . فكان فى كارولينا الجنوبية ، حوالى سنة ١٨٩٠ ، نصف مليون مغزل ، وكان الجنوب بأكمله يفخر بامتلاك أربعة أمثال هذا العدد تقريباً . ودب القلق إلى رجال الصناعة فى نيو إنجلاند من منافسة هذا القطاع ، كذلك لم تحن سنة ١٨٩٠ حتى بدت فى الجنوب بوادر مشكلة عمالية كان مقدراً لها أن تنمو فى الخطورة على مر السنين .

ولقد ظلت صناعة النسيج فى الجنوب محلية ، واتخذت ــ بحكم الضرورة إلى حد كبير ــ طابعاً إقطاعياً عجيباً . فإن ما بدا أنه أجور مرتفعة وعمل ثابت اجتذب عائلات بأكملها فانتقلت من المزارع المخربة إلى أقرب القرى التى قامت فيها مصانع ، مجتلبة معها ما اكتسبه فى الزراعة من عادات وميول فى العمل . فكانت تتقبل ساعات العمل الطويلة كأمر مسلم به ، وتتقبل اشتراك الأسرة بأكملها ــ نساء وأطفالاً إلى جانب الرجال ــ فى العمل كأمر طبيعى كذلك . وكانت قرى المصانع هذه ، وهى تنمو على مشارف المدن ، ملكاً للذين أنشأوا المصانع ، وتحت سيطرتهم . فكان العمال يقطنون فى بيوت الشركة ، ويترددون على كنائس ومدارس الشركة ، ويبتاعون غذاءهم وكساءهم من متاجر الشركة ، ويولدون على أيدى أطباء الشركة ، ويدفنون برعاية قساوسة الشركة فى مقبرة الشركة . فكان هذا نوعاً جديداً من الإقطاع . ومع أنه أفلح فى أعوامه الباكرة ، فإنه كان مثقلاً بالمتاعب للمستقبل .

على أن الطابع الريفى والزراعى ظل غالباً على الجنوب ، بالرغم من نهضة صناعات الحديد وقطع الأخشاب والتبغ والنسيج . فلم يكن يملك أن يفخر بمدينة واحدة تضم مائة ألف نسمة عدا نيو أورليانز ، قبل سنة ١٩٠٠ . بل إن صناعاته كانت مرتبطة بالزراعة ارتباطاً وثيقاً ، وكان إنتاج التبغ والنسيج كبيراً ، بيد أن القيمة الحقيقية التى أضافتها الصناعة كانت صغيرة نسبياً . ولقد مكثت الغالبية الكبرى من سكان

الجنوب فى مزارعهم ، ينتجون المحصولات الصالحة للتصدير . بيد أن الزراعة عانت الارتباك هى الأخرى أثناء الحرب ، وكان لزاماً أن تمر بفترة إعادة تنظيم .

وحل الفقر بأصحاب المزارع الكبرى إلى حد كبير من جراء الحرب والتعمير . فلقد انهارت القوى العاملة لديهم بفضل تبدد ما كانوا يستثمرون من رأس مال فى العبيد ، والارتفاع المطرد للضرائب ، والنفقات العامة ، فاضطر أغلبهم إلى تقسيم مزارعهم وبيع بعض أجزائها ، أو إلى تأجيرها تحت وطأة الضرائب والديون المستحقة الأداء . ونجم عن ذلك ثورة جائحة فى ملكية الأرض ، وإزاء عرض الأراضى الجيدة للبيع بسعر ثلاثة أو أربعة دولارات للدونم ، فإن الآلاف من صغار الزراع وسعوا ملكياتهم ، كما تمكن عشرات الآلاف من فقراء البيض ، والمحرَّرين من السجناء الذين قدموا إلى البلاد ليعملوا لقاء حريتهم ، والميكانيكيين الذين لم يكونوا يملكون أرضاً ، وأصحاب الحوانيت ــ تمكن هؤلاء من إشباع جوعهم إلى الأرض وأصبحوا من أصحاب الأراضى . ففى سنة ١٨٦٠ كان فى كارولينا الجنوبية حوالى ٣٣٠٠٠ مزرعة ، فارتفع هذا الرقم فى عشرين سنة إلى ٩٤٠٠٠ . وفى سنة ١٨٦٠ كان عدد المزارع التى تقل الواحدة عن عشر دونمات ، فى ولاية المسيسيبى ، دون الستمائة . وإن هى إلا عشر سنوات حتى ازداد العدد إلى أكثر من ١١٠٠٠ وهبط عدد المزارع التى تصل مساحة كل منها ألف فدان أو أكثر ، فى كافة أرجاء الجنوب بما يتجاوز النصف ، وهبط متوسط حجم المزارع من ٣٣٥ إلى ١٥٣ دونما ، فى بحر عشرين عاماً . وفى الوقت ذاته ، كان الإقبال كبيراً على الأراضى الخصبة الجديدة فى أركنساس وتكساس ، وسرعان ما فتحت أوكلاهوما أبوابها للمستوطنين . فتوطدت مكانة القطن ــ ملك المحصولات ــ من جديد ، واتسعت إمبراطوريته ، بعد أن هوى زمناً عن عرشه .

وإزاء انقضاء الرق ، بات لزاماً وضع نظام بديل للعمالة . ولم يكن أصحاب المزارع يمتلكون نقوداً لدفع الأجور ولا كان الزنوج يمتلكون نقوداً لاستئجار مزارع ما . فظهر أسلوب ثالث بحكم الضرورة ، يحدثنا عن منشئه عدد لا حصر له من السير الذاتية والمذكرات ، فعندما انتهت الحرب دعا أصحاب المزارع عبيدهم السابقين ، وأخبروهم بأنهم قد أصبحوا أحراراً ، وطلبوا إليهم البقاء للعمل فى مكانهم القديم . ولم يكن ثمة مجال لأجور ما ، ولكن صاحب المزرعة كان على استعداد لأن يقتسم المحصول مع عماله إذا ما نضج . وكان هذا أصل المحاصصة أو المؤاجرة . وبمضى الزمن انتظمت وأصبحت

لها لوائحها الخاصة . وكان أصحاب المزارع يمدون مؤاجريهم بالكوخ وبالأرض والأدوات والسماد وببغل ، ويضطلعون بحاجاتهم المعيشية إلى أن يتم حصاد المحصول . وكان المزارع بالحصة يقدم العمل ، ويتلقى فى مقابلة ثُلث المحصول وبدأ النظام موفقاً وملائماً فسرعان ما امتد فشمل مؤاجرين من البيض إلى جانب السود .

والواقع أن خطة المحاصصة هذه ، التى تغلبت على موقف كان مستحيلاً ، أدت إلى مساوىء كبيرة . فإن صغار المزارعين المعتمدين على محصولات التصدير ، كان يترددون فى الديون عادة فأصبحوا أشبه بالمملوكين المرهونين لأصحاب المزارع الكبيرة والتجار الذين كانوا يمدونهم بحاجاتهم . وإذ لم يكونوا يمتلكون ما يرهنون ضماناً لما يتلقون من إمدادات ، فإنهم كانوا يرهنون محصولهم قبل أن يكتمل نضجه ، وبهذا نشأ نظام الحجز على المحصول المثبط للهمم . إذ أن هذا النظام استل من المزارع العادى المستأجر للأرض أى اهتمام صادق بمحصوله ، وشجع على الزراعة المتخلفة وغير العلمية ، وأصبح أداة يستغلها الدائنون من أصحاب المزارع والتجار ، فأثار ضغينة المستأجرين . ولما كان القطن المحصول الأوحد الذى بدأ استثماراً مأموناً ، فإن أصحاب المزارع أو التجار الدائنين كانوا يصرون على أن يزرع المستأجرين القطن دون أى شىء آخر ، وبهذا حالوا دون التنويع ، وقضوا على قلب الجنوب بنظام اقتصادى يستند إلى محصول واحد . وخلال جيل واحد ، خبا الأمل فى إعادة توزيع الأرض على نطاق واسع وقيام طبقة وسطى راسخة من صغار الملاك . ففى بعض أرجاء الجنوب ، كان سبعون أو ثمانون فى المائة من المزارعين مؤاجرين ، وكان ثمة حجز واحد على المحصول — فى المتوسط — لكل مزرعة . فكان الجنوب فى سنة ١٩٠٠ أقل كفاية ذاتية مما كان فى سنة ١٨٦٠ ، وكانت الثروة الزراعية فى كثير من القطاعات قد انهارت على مر السنين . ولم يتحول الجنوب الزراعى بخطى ثابتة نحو التحسن إلا بعد أن دخله التعليم الزراعى وتحسين المرافق الصحية العامة بفضل مؤسسة روكفلر وقانون سميث — ليفر .

كذلك تبين الزنوج أنهم ليسوا أحراراً فعلاً ، وإن كانوا أحراراً قانوناً . فإن الكونجرس الذى سن تشريعات تحريرهم ، سرعان ما تركهم لسادتهم السابقين ، ولم يفعل شيئاً بعد سنة ١٨٧٧ لتيسير الحقوق السياسية أو المساواة الاجتماعية أو الأمن الاقتصادى لهم ، بل بدد جهوده فى مهمة غير ذات جدوى ، بدلاً من ذلك ، هى كفالة المساواة السياسية لهم . كان السود أشبه بلاجئين فى بلاد عاثت فيها الحرب فساداً ، لمدة

عـام أو اثنين بعد الحرب . فانطلق آلاف منهم فى الطرق هائمين على غيـر هـدى مـن مقـاطعة إلى مقاطعة ، ولا مغالاة فى القـول بأن عدد العائلات التى تفككت كان فى العـام الأول للحـرية أكثر منه فى أى عـام من أعوام الرق . ولقد مات آلاف منهـم بالمرض والجـوع ، أو راحوا ضحـايا للعنف . وأخيراً ، عادت الأمور إلى الانتظام بفضل جهود الجنوبيين الأكثر وعياً بالمسئولية ، وبالتعاون مع السلطات الاتحادية ، وعندما وجد الزنوج أنه لم يكن مقدراً لهم أن يحصلوا على الأربعين دونماً وبغلاً التى كانوا يتشبثون بتخيل أنهم وُعدوا بها ، عادوا إلى الأمر الوحيد الذى كانوا على دراية به ــ إلى العمل فى الزراعة .

ولقد شق بعض من أكثرهم إقداماًطريقه إلى الشمال أو إلى المدن الصناعية الناهضة فى الجنوب ، بيد أن الأغلبية الكبرى منهم تحولوا إلى مزراعين بالحصة ، وفى هذه الحال وجدوا أن الحياة بالنسبة لهم استمرت على ما كانت عليه قبل الحرب . فكانوا يحرثون الأرض ويجمعون القطن ، فى مزارع البيض ، ويعيشون الحياة التى ألفوها دائماً فى عين الأكواخ الرثة ، ويأكلون عين الغذاء المؤلف من الذرة والملفوف (الكرنب) ولحم الخنزير المملح ، ويرتدون عين الأقمصة المهلهلة والسراويل الزرقاء الحائلة . ولم يحاولوا أن يدلوا بأصـواتهم فى الانتخـابـات أو أن يرسلوا أطفـالهم إلى مدارس البيض أو أن يتجـاوزا حدودهم اجتماعياً . . أو أنهم سرعان ما كانوا يتلقون درساً إذا حاولوا .

وكان أكثر التطورات تبشيراً بالخير فى الجنوب ، فى هذا الجيل الذى أعقب الحرب ، هو ظهور طبقة وسطى من صغار المزارعين المستقلين ، وأصحاب الحوانيت ، ورجال الأعمال ، والتجار ، وأصحاب المصارف ، ورجال الصناعة ، وأصحاب المهن . كان هؤلاء قد تخلصـوا من كابـوس الـرق ، فحرروا أنفسهم ، ولو جزئياً ، من الكابوس النفسى الممثل فى « القضية المضيعة » . كانوا على استعداد لأن ينسوا الجنوب المتسم بضـوء القمر وأشجار الجاردينيا ، وأن يستعيدوا ذكرى جيتسبيرج والفيافى بفخر وليس بمرارة . وقد أقبلوا على إدماج اقتصاد الجنوب فى الاقتصاد القومى ، وإعادة بناء نظمهم الاجتـماعية المهشمـة . فأعيد فتح الكليات ، وجعل روبرت إى. لى من نفسه قدوة للجنوب بأسره ، إذ تولى رئاسة كلية واشنطن اليافعة فى فيرجينيا . وأضفت الولايات الصبغـة الـديمقـراطية على نظمها التعليمية ، إذ تكفلت ، على الورق على الأقل ، بتعميم التعليم العـام المجانى فى الصفوف الابتدائية ، وإن كان التعليم الثانوى قد قصر

على البيض إلى حد كبير ، وأعيد إنشاء الكنائس ، وسرعان ما أصبحت تزهو بازدياد رعاياها عما كانوا قبل الحرب ، نظراً لنمو الأبرشيات الزنجية . وكان ثمة خطوات تقدم ملحوظة فى التشريعات الاجتماعية ، فيما يتعلق بالفقراء والعجزة ، كما كانت ثمة اتجاهات واهنة نحو التشريعات العمالية . وعاد الجنوب يدخل نفسه فى النسيج القومى مرة أخرى .

الثورة فى الشمال

بينما كان الجنوب يعيد بناء اقتصاده فى عناء ، ويكيف نفسه وفقاً للنظم الصناعية والزراعية ، مضى الشمال فى تقدمه بحمية وهمة . وكانت الصناعة والدوائر المالية فى الشمال أكثر من أية طوائف أخرى جنياً لثمار النصر . وكان الحزب الجمهورى من بدايته ملتزماً بالتعريفات الجمركية العالية ، وبالإصلاحات الداخلية ، وبمنح الأراضى للسكك الحديدية ، وبتوزيع المزارع دون مقابل . ولقد كان عاجزاً قبل الهجوم على فورت سومتر عن تحويل أى جزء ذى قيمة من هذا البرنامج إلى قوانين . بيد أنه لم تعد ثمة معارضة قوية فى قاعات الكونجرس بعد انفصال الولايات الجنوبية ، وأتاحت الحرب فرصة لسرعة إصدار القوانين المحققة للبرنامج كله . فإذا بقانون موريل للجمارك ، فى سنة ١٨٦١ ، يحول اتجاه الضرائب الجمركية الذى ظل طويلاً فى هبوط ، ويضع معدلات تحقق الحماية بصراحة . وتبعته قوانين زادت سياج الحماية الجمركية ارتفاعاً ، ولم تحن نهاية الحرب حتى ازدادت الرسوم الجمركية فى المتوسط من ثمانية عشر إلى سبعة وأربعين فى المائة . وأصبح أصحاب الصناعات فى الشمال فى مركز منيع إلى حد كبير ، فلم تتمكن أية حكومة حتى سنة **١٩١٣** من إحداث أى تخفيض محسوس فى معدلات الرسوم الجمركية . وزيادة فى تشجيع المصالح التجارية والصناعية ، لم يلبث الكونجرس أن ألغى ضريبة الدخل ، التى لم تكن يوماً مرتفعة جداً ومحا ضرائب الحرب على الفحم والحديد والاتحادات الحرفية . وبموجب سلسلة من القوانين المتعلقة بالسكك الحديدية ، وفر الكونجرس المعونات لإنشاء الخطوط الممتدة عبر القارة عن طريق قروض زادت على ستين مليوناً من الدولارات ، ومنح مباشرة زادت على مائة

مليون دونم من الأراضى العامة ، فضلاً عن المنح التى انهالت بسخاء من الولايات واللجان المحلية .

وازدهرت التجارة والصناعة كما لم تزدهر يوماً من قبل ، بفضل هذه الخيرات ، وبدفع احتياجات الحرب النهمة ، والحاجات التى لا سبيل لإشباعها لسكان مطردى الزيادة . ولقد كتب جون شيرمان إلى أخيه الجنرال : « الحقيقة هى أن انتهاء الحرب ومواردنا لم تمس بسوء ، يتيح لأفكار كبار الرأسماليين ارتفاعاً ، مجالاً أعلى بكثير مما بلغه أى شىء تسنى الاضطلاع به فى هذه البلاد من قبل . فهم يتحدثون عن الملايين بالاعتداد الذى كانوا يتحدثون به عن الآلاف سابقاً » . وكان ثمة مجال ، إن لم يكن ارتفاعاً وتصعيداً ، لأفكارهم حقاً . فلقد تجاوبت الصناعة فى تحمس مع الحاجات التى لا حصر لها للقوات المسلحة ، ومع المطالب الأعظم ، مطالب اقتصاد الحرب . ففى عشر سنوات تم مد عشرين ألف ميل من الخطوط الحديدية ، معظمها فى الغرب ، وتقدمت الخطوط العابرة للقارة بسرعة مذهلة عبر السهول والجبال . ومدت خطوط البرق من مدينة إلى مدينة ، وسرعان ما اجتازت القارة ، فمدت الكابلات عبر المحيط الأطلنطى ، وفى بحر خمس عشرة سنة أضاف الهاتف وسائل جديدة للاتصال العاجل ، ولم تكن مصانع ماكورميك لآلات الحصاد ، فى شيكاغو ، بقادرة على أن تلاحق الطلب الشره على آلات الحصاد الكبيرة ، المنهال من برارى الغرب الأوسط . وأخذت مصانع فى آكرون وكانتون بولاية أوهايو تنتج آلاف الجزازات (آلات الحصاد الصغيرة) ، ولم تحن أواسط العقد الثامن من القرن حتى كانت المصانع التى قامت على طول الحافة الوسطى ترسل الأسلاك الشائكة لسياجات مزارع السهول فى منطقة المرتفعات . وأخذت مصانع ماكاى للأحذية ، والمصانع الكبيرة لتعبئة الأغذية فى شيكاغو وسنسيناتى ، ومطاحن القمح فى المدينتين التوأمين ، ومصانع البيرة فى ميلووكى وسانت لويس ، ومصانع الحديد والصلب فى منطقة بيتسبيرج ، ومعامل تكرير النفط فى أوهايو وبنسلفانيا ، ومائة نوع من المصانع الأخرى . . أخذت تعمل ليلاً ونهاراً لتلبية الطلبات التى كانت تتدفق عليها .

ولم تشهد نهاية الحرب تباطؤاً فى النشاط الصناعى ، فقد حطم كل رقم قياسى للإنتاج الصناعى تقريباً فى السنوات الخمس التالية أبوماتوكس . فاستُخرج من المناجم مزيد من الفحم والحديد الخام ، ومن الفضة والنحاس ، وأنتجت المصانع مزيداً من

الصلب ، ومُد مزيد من القضبان الحديدية ، وأنتجت مصانع نشر الخشب مزيداً ، وشُيد مزيد من المساكن ، ونُسج مزيد من الأقمشة القطنية ، وطُحن مزيد من القمح ، وكُرر مزيد من النفط عما تسنى فى خمس سنوات سابقة فى تاريخنا . وقد ازداد مجموع عدد المؤسسات الصناعية فى العقد المحصور بين سنتى ١٨٦٠ و ١٨٧٠ بحوالى ثمانين فى المائة ، وزادت قيمة المنتجات المصنوعة مائة فى المائة . كانت الثورة الصناعية حقيقة اكتمل إنجازها .

ولقد استفاد أصحاب المصارف ومستثمرو الأموال إلى جانب رجال الصناعة . ولقد محا الكونجرس بقانونى النظام المصرفى القومى لسنتى ١٨٦٣ و ١٨٦٤ النظام المصرفى المستقل الذى كان الحزب الديمقراطى فى عهد جاكسون يعتز به ، وأحل محله نظاماً أكثر ملاءمة للمصارف الخاصة . ولإفساح المجال لأوراق النقد الصادرة عن المصارف القومية ألغى وجود الأوراق المالية التى كانت تصدر عن مصرف الولاية . وكانت الحكومة قد أصدرت خلال الحرب عدة مئات الملايين من الدولارات الورقية ، لم يكن يضمنها سوى قرض الحكومة ، فلم تلبث أن انحدرت بسرعة ، وقد صدق الكونجرس على سياسة أعادت الثبات الذى كان النقد القومى فى مسيس الحاجة إليه ، وذلك بتقرير التوقف عن إصدار قسم كبير من هذه « الأوراق الخضراء الظهر » ، كما كان يطلق عليها ، وبرفع قيمة الأوراق الباقية إلى مستوى القيمة الاسمية . بيد أن هذه السياسة كانت ذات اتجاه انكماشى مثقل بالضيق للجماعات المدينة ، لا سيما المزارعين الغربيين .

ولقد أدت المضاربة فى الأوراق الخضراء الظهر والسندات الحكومية إلى ثروات عديدة لا بأس بها . ففى أحلك فترات الحرب ، فى أواسط صيف سنة ١٨٦٤ ، لم تكن هذه الدولارات الخضراء الظهر تباع بأكثر من تسعة وثلاثين سنتاً للدولار ، بيد أنها ظلت معتمدة لشراء سندات القروض الحكومية . وعندما تعهد الكونجرس بدفع القيمة الأصلية والفوائد لهذه السندات بالذهب ، كان من الواضح أن أولئك الذين كانوا من الدهاء ــ ومن الوطنية كما ينبغى أن نضيف بكل الإنصاف ــ بحيث جازفوا بأموالهم فى هذه السندات ، خليقون بأن يحققوا ربحاً كبيراً . كان الدفع بالذهب هو الوفاء الأمين بتعهد صريح . بيد أن السياسة المالية للحكومة كانت أكثر من أى عامل آخر فى إبراز الفواصل الطبقية ، إذا كان معناها أن حملة السندات يتقاضون دولارات لها قيمتها الكاملة ذهباً ، فى حين أن الجنود كانوا يتقاضون دولارات خضراء الظهر لا تساوى

سوى خمسين أوستين فى المائة من قيمتها ذهباً . وبينما كان المزارعون يتلقون قروضهم دولارات لا تساوى سوى خمسين أوستين فى المائة من قيمتها ذهباً . فإنهم كانوا يطالبون بالسداد بدولارات لها مائة فى المائة من قيمتها بالذهب . وكان معنى هذا أن من الممكن أن تطالب الأمة بأسرها بدفع أى دين قومى بما يصل إلى حوالى ضعف قيمته الأصلية .

كان من الممكن كسب ثروات إذ ذاك بالعمليات المصرفية والمضاربات المالية ، بيد أن الثروات الكبرى كانت تكتسب من السكك الحديدية ، والتعدين ، وقطع الأخشاب ، وتعبئة اللحوم ، والحديد والصلب ، والنفط ، وما إلى ذلك من استثمارات مرتبطة أوثق الارتباط بالحرب أو بفتح الغرب . وسرعان ما أصبحت أسماء منشئى السكك الحديدية مثل فاندربلت وستانفورد وهاريمان ، وأصحاب مصانع تعبئة اللحوم مثل آرمور وسويفت ، وملوك الخشب مثل ويرهاوزر ، وسادة صناعة الحديد مثل أندرو كارنيجى وأبراهام إس. هويت ، وأمراء النفط مثل جون دى. روكفلر . . سرعان ما أصبحت هذه الأسماء تتردد فى كل بيت ، مزاحمة أسماء الساسة والأدباء فى الإجلال الشعبى . لقد أعادت الحرب توزيع الثروة القومية بيد سخية وغير مكترثة ، فخلفت آلافاً من الثروات المحترمة ومئات من الثروات المحفوفة بالشبهات . واكتسب المال نفوذاً متزايداً على الحكومات . . ولائية واتحادية ، ويسر المال السبل إلى الحظوة الاجتماعية ، وسرعان ما كان آل فاندربلت وجولد يحظون بما كانت عائلات النيويوركيين القديمة تلقاه من قبول . وأقام المال الصروح الجميلة التى قامت على جوانب فيفث آفنيو ونيويورك ، ومتشيجان آفنيو ، وشيكاغو . وأغدق المال على الكليات والجامعات مثل جونز هوبكنز ، وستانفورد ، وشيكاغو الجديدة ، كما ساعد الكنائس والإرساليات ، ورعا الفرق الموسيقية والمتاحف الفنية . وكانت الثروة أكثر تركزاً فى المناطق الصناعية بطبيعة الأمر ، وقد دفعت ولايات نيويورك وبنسلفانيا ومساشوستس الثلاث وحدها ستين فى المائة من حصيلة ضريبة الدخل فى سنة ١٨٦٤ . بيد أن مستوى المعيشة ارتفع فى كل مكان ، شرقاً وغرباً ، بل وفى أرجاء كثيرة من الجنوب .

كذلك ظفر المزارعون بشىء من رواج الحرب وما بعد الحرب ، وإن كان أقل مما خطر لهم . فإن الحزب الجمهورى كان قد بنى الدعوة لتأييده على صيحة « ادل بصوتك واكسب مزرعة » ، فما إن تولى الحكم حتى جدد سن قانون البيت الملحقة به أرض زراعية ، وهو القانون الذى كان رئيس من الحزب الديمقراطى قد رفض التصديق عليه

من قبل . فكان بوسع أى امرىء ، بمقتضى مواد هذا القانون ، أن يحصل على ١٦٠ دونما من الأراضى العامة ، إذا وافق على أن يزرعها لخمس سنوات . ولقد أدى هذا التشريع المستنير إلى تمكين عدة آلاف من المزارعين من تعمير أرض الغرب البكر ، فعزز الديمقراطية الاقتصادية . ومع ذلك فإن مساحات كبيرة منحت فى الوقت ذاته ، للسكك الحديدية أو غيرها من الشركات أو بيعت لشركات الأراضى والمضاربين . وما لبث معظم هذه الأراضى أن انتهى إلى المزراعين كذلك . . ولكن لقاء ثمن . وفى الوقت عينه أجاز الكونجرس قانون موريل الذى كفل عدة ملايين من الدونمات ، من الأراضى العامة ، لأوقاف وصيانة الكليات الزراعية والصناعية فى جميع الولايات ، وتقوم جامعات الولايات الكبيرة ، مثل أيووا ومتشيجان ومينيسوتا ، شاهدة على حكمة هذا القانون .

بيد أن التوسع الزراعى أثناء الحرب وبعدها لم يكن متوقفاً على المساعدات أو التشجيع من الحكومة . فإن احتياجات الجيش وسكان المدن المطردى الازدياد ، والملايين الجائعة فى الخارج ، وفرت جميعاً حافزاً لزارعى القمح والذرة ولمنتجى الألبان ومربى الماشية . ويسرت السكك الحديدية السريعة التوغل فى السهول أسباب الوصول إلى أراض لم تمس ، كما أن آلات الحصاد والحرث والعزق والحزم ، التى هبطت إذ ذاك إلى الأسواق ، جعلت من الممكن لرجل واحد ، أو صبى ، أن يؤدى ما كان يؤديه من قبل اثنان . وفى العقدين اللذين أعقبا انتخاب لينكولن ، ازداد إنتاج الذرة والقمح والشوفان والشعير إلى أكثر من الضعف ، وكذلك الأمر بالنسبة للماشية والأغنام والخنازير ، ولما كانت الزراعة قد تقلصت فعلاً فى نيو إنجلاند والجنوب ، فإن معظم هذا الازدهار حدث فى الشمال الغربى القديم والغرب وراء نهر المسيسيبى . ففى أثناء العقد الذى تخللته الحرب ازداد عدد سكان ميسورى بأكثر من خمسين فى المائة ، فكانت الولاية الخامسة فى الاتحاد التى بلغ سكانها المليونين . أما نبراسكا ، التى أصبحت ولاية فى سنة ١٨٦٧ ، فلم تحن سنة ١٨٨٠ حتى اقترب سكانها من نصف المليون . وفى ولايتى داكوتا ، حيث كانت عشائر السيوكس تنتقل دون نزاع أثناء الحرب ، تجاوز عدد السكان الزراعيين فيها نصف المليون بعد الحرب بخمسة عشر عاماً . وانتقل إنتاج الصوف من فيرمونت إلى أوهايو ، ثم لم تلبث ولايات الغرب الجبلية أن بزت سواها فيه ، وشرعت أيووا وكنساس ونبراسكا ومينيسوتا تحتل المراكز الأولى كولايات منتجة للذرة فى الإحصاءات السكانية . كان المجال الزراعى ينتقل غرباً دون ما اعتراض .

ومع هذا ، فقد كان المزارعون أقل ربحاً من أية طبقة أخرى ، اللهم إلا العمال ، بسنوات الرخاء ، وكأنما كان هذا استباقاً لاتجاه الاقتصاد القومى فى المستقبل ، ومن ثم فقد كانوا أول من أحس بوطأة أوقات الضيق . فإن تكاثر السكان فوق ما ينبغى ، أدى إلى الإفراط فى الإنتاج ، وإذا شراء مزارع أكبر حجماً ومعدات زراعية باهظة لفلاحة هذه المزارع يفضى إلى عبء من الديون لا سبيل إلى حمله إلا إذا ظلت الأسعار العالية ميسورة . ولقد شعر مزارعو الشرق الذى استوطن من زمن بحدة المنافسة من أراضى الغرب الجديدة ، بينما كان مزارعو الغرب ، الذين حظوا بالتربية الخصبة ، بعيدين عن الأسواق ، وتحت رحمة السكك الحديدية . فكان المزارعون يشقون ساعات طويلة تحت الشمس الحامية ، ويعيشون محرومين من متع الحياة الاجتماعية ، ثم لا يحظون فى النهاية بشىء يذكر جزاء على جهودهم .

وكان العمال وحدهم ، دون الطوائف الكبيرة ، هم الذين حرموا من أن يجنوا أية مكافآت مادية من الحرب . فلقد أسهموا بقدر كبير فى انتصار الاتحاد ، نتيجة كدحهم عشر أو اثنتى عشرة ساعة فى اليوم فى مناجم الفحم وأمام أفران الصلب ، وفى إدارة المغازل وآلات صنع الأحذية ، وإنشاء السفن ومد الخطوط الحديدية ، كما أن النسبة الكبرى ممن قاموا بالقتال فعلاً كانوا من صفوفهم . وتحت وطأة الحرب والأسعار المتزايدة التأمت بعض منظماتهم التى كانت قد تضعضعت بفضل فزع سنة ١٨٥٧ ، إذ كانت القوى العاملة بحاجة إلى تنظيم . كانت الأجور قد ارتفعت ، ولكن الأسعار كانت أكثر ارتفاعاً ، وتنم التقديرات المتحفظة عن أن أغلبية العمال كانوا فى سنة ١٨٦٥ أسوأ حالاً مما كانوا فى سنة ١٨٦٠ . وبعودة ما يزيد على مليون جندى إلى الحياة المدنية والارتفاع الحاد فى الهجرة ، اشتدت المنافسة على الأعمال ، فبادر المهرة من أصحاب الحرف إلى تنظيم أنفسهم حماية لمهارتهم . وكان من هذه التنظيمات نقابة لصناع الأحذية قصيرة العمر تدعى فرسان سانت كريسبين ، وقد أثبت زوالها السريع عدم جدوى النضال ضد الآلة ونظام المصنع . وكان الأدعى منها للاهتمام ، تجمُّعين أكبر حجماً وأقل تنظيماً ، هما نقابة العمل القومية وفرسان العمل ، ويعود قيام كليهما إلى الستينات ، وهما تمثلان الجهود لتوحيد أكثر الطوائف ثباتاً : العمال ، والمزارعين ، وجماعات الإصلاح .

ومع ذلك فقد ظلت الأغلبية الكبرى من العمال خارج هذه المنظمات ، وعانت

كافة تقلبات صرح اقتصادى سريع التغير . وبإيجاز ، عانت الذعر والانكماش الاقتصادى . ولم تبذل الحكومة جهداً كبيراً من أجل العاملين ، برغم تحمسها لإصدار التشريعات للتجمعات التجارية والصناعية . ومن الصحيح أنها أقرت نظام يوم العمل المؤلف من ثمان ساعات فى المشروعات العامة فى سنة ١٨٦٨ ، بيد أن هذا المثال المثير للإعجاب لم يلق استجابة واسعة النطاق . ومن الممكن أن نحتسب التقاعس عن تنظيم الهجرة ، أوعن توفير أية حماية للمهاجرين ، كعيبين أومظهرين للنقص ، ضد تلك الخطوة .

مسائل سياسية

أهم ما يستلفت الانتباه فى الشؤون السياسية فى السنوات التالية للحرب ، هو تفاهتها . وبينما كانت بعض الحكومات ــ كحكومتى بيرس وبوكانان ــ تتسم بالكسل وعدم الكفاءة ، اختصت حكومة جرانت بعدم الكفاءة والفساد . فإن فن سياسة الحكم ، الذى لم تشتد الحاجة إليه يوماً قدر اشتدادها فى أزمة إعادة التنظيم القومى ، أفسح المجال للمسائل السياسية ، وكانت المسائل السياسية مشوبة بازدياد مطرد بالتشيع ، والإيثار ، والفساد .

كان المبدأ الرئيسى لشؤون سياسة إعادة التنظيم هو تمكين الحزب من السلطان . وخليق بنا أن نتذكر أن هذا الحزب كان مستجداً نسبياً ، وكان قطاعياً (منتسباً للقطاع الشمالى) إلى حد كبير . ولقد كانت كل الأمور وفقاً لهواه خلال الحرب ، فوطد مكانته فى الحكم ــ ولكن الفرص لاستمرار سيطرة الحزب الجمهورى على كافة فروع الحكم خبت بانتهاء الحرب ، وعودة بعض ولايات الجنوب إلى الاتحاد . . وعودتها جميعاً حوالى سنة ١٨٧١ : ذلك لأن الحزب الديمقراطى ظل طيلة تلك الأعوام كبير العدد ، قوى المكانة ، حتى فى الشمال ، فى حين أن الحرب وإعادة التنظيم ــ بوجه خاص ــ كتلت الجنوب فى صف الديمقراطيين ولو كان قد أمكن حمل الديمقراطيين الشماليين والجنوبيين على الاتفاق على المرشحين والمسائل السياسية ، لكان هناك احتمال قوى فى أن يزيحوا الجمهوريين عن المناصب ، وأن يسيطروا على الحكم .

ومـا كان تفـوق الحـزب هو الهـدف وحده ، بل كان الهدف كذلك صون تلك السياسات التى التزم الحزب بها ، والتى كان قد مضى فيها قدماً ببسالة . كان هناك السياج الجمـركى الجـديد ، والنظام المصرفى القومى ، وبرنامج المساعدات للسكك الحديدية ، ثم ــ ولعل هذا أهم الجميع ــ سياسة تثبيت النقد ودفع التزامات الحكومة بالذهب . وكانت هذه المسائل الاقتصادية مشتبكة فى الواقع بمسائل عاطفية ــ مثل مكافأة أولئك الذين كانوا أوفياء ومعاقبة الذين لم يكونوا أوفياء ــ ومسائل اجتماعية مثل مركز الزنوج . وكان الزنوج ، فى نهاية الأمر ، هم أكثر المسائل تعرضاً للتضحية بها ، وكانوا أقل الناس كسباً وأكثرهم خسارة فى الاضطراب السياسى .

كانت الاستراتيجية الكبرى والأساليب التى على الجمهوريين أن يأخذوا بها إذ ذاك واضحة تماماً . وكان الحفاظ على السياسات الاقتصادية ــ بعد أن بدأ تطبيقها بنجاح ــ يتـطلب الإبقاء على الحزب فى الحكم حتى تستقر تلك السياسات وتتوطد فلا يتسنى قلبهـا . فاتخـذت خطوات غير دائمـة لحرمان أعداد كبيرة من زعماء الاتحاد التحالفى الجنوبى مؤقتاً من الحقوق النيابية ومن تولى المناصب ، ولإبعاد ممثلى أشد ولايات الجنوب تمرداً عن قاعات الكونجرس . بيد أن هذا ما كان ليستمر إلى أجل غير محدود فى الواقع . وبدا أن فى إنشاء حزب جمهورى فى الجنوب سياسة تبشر بالخير . وكان لزاماً أن تكون قاعدة تنظيم كهذا تلك العناصر من البيض التى طال اعتراضها على الطبقات الحاكمة فى الجنـوب . . ومن الفقـراء والمستضعفين الذين يرحبون بفرصة لإسماع أصواتهم . وما كان من سبيل لضمان المكانة العددية إلا بإغداق الحقوق السياسية على الزنوج . . والحرص على أن يصيبوا فى استخدام أصواتهم . ولقد جربت هذه السياسة بقوانين إعادة التنظيم فى بادىء الأمر ، ثم بتعديلات دستورية .

كان الـبرنـامـج منسقاً بدقة ، بيد أنه أخفق . فإن إعادة التنظيم العسكرى أثار صلابة المعارضة الجنوبية . وكانت محاولة استغلال الزنوج سياسياً أهم من ذلك . إذ أن سياسة الحزب الجمهورى أصبحت مقترنة بفكرة المساواة العنصرية . . وهى فكرة ما كان ليطبقهـا معظم الجنوبيين فى ذلك الحين ومن ثم فإن هذه السياسات أضعفت الحزب الجمهـورى فى الجنوب بدلاً من أن تعزز نفوذه . فما إن سُحبت السلطات العسكرية الاتحادية ، حتى انهارت منظمات الحزب ، وسرعان ما اهتدى الديمقراطيون إلى طرق لحجب حق الانتخـاب عن الزنوج . وأصبحت الأمور تسير وفق هوى الديمقراطيين

الجنوبيين منذ ذلك الوقت . فما منحت أى من ولايات التحالف الجنوبى صوتها فى المجمع الانتخابى لمرشح جمهورى للرئاسة ، من سنة ١٨٨٠ - ١٩٢٨ .

وإذا كان قد عز توطيد البرنامج الاقتصادى للحزب الجمهورى بفضل إعادة التنظيم عسكرياً أو بما استلزمه الدستور من منح الزنوج حق الانتخاب ، فقد أمكن حمايته بنص آخر أضيف حديثاً إلى الدستور . فبينما كان التقدميون ماضين فى خصامهم مع الرئيس جونسون ، فى المراحل الأولى لإعادة التنظيم ، وضعت لجنة مشتركة فى الكونجرس تعديلاً شاملاً يرمى إلى تعريف المواطنية [1]، وحماية الحقوق المدنية المتعلقة بالحرية ، وحرمان قادة الاتحاد التحالفى من حق الانتخاب ، وضمان الديون الاتحادية وإبطال ديون التحالف الجنوبى . وكان هذا التعديل هو التعديل الرابع عشر المشهور ، الذى نصت مادته الأولى على :

> ليس لأية دولة سن أو تنفيذ قانون ينال من امتيازات أو حصانات مواطنى الولايات المتحدة ، وليس لأية ولاية حرمان أى شخص من الحياة أو الحرية أو الممتلكات ، بدون دعوى قضائية ، ولا حرمان أى شخص فى دائرة سلطانها من المساواة فى الحماية المكفولة بالقوانين .

وقد حققت هذه العبارات الخالدة ، بمرور الزمن ، ما أخفقت سياسة الجمهوريين فى فعله . فأحاطت بالحماية ملكية وعمليات الشركات الكبيرة ، إذا أن المحاكم فسرتها ، فى الوقت المناسب ، على أنها تعنى أنه ليس لولاية أن تصدر تشريعاً لحرمان الشركات من ثرواتها أو من عوائد عادلة على ثرواتها . والحق أن هذا التفسير لم يطبق بأكمل معانيه حتى العقد الأخير من القرن . . فى الوقت المناسب لكبح مبادىء حزب الشعب الأمريكى [2] التى اشتد تيارها .

وكان من أهم ما عنيت به حكومة جرانت الحفاظ على سياسات إعادة التنظيم التى تكفل استبقاء الجنوب تابعاً للشمال ، والديمقراطيين فى المكانة الثانية بعد الجمهوريين .

(١) حقوق وواجبات وامتيازات والتزامات المواطن الذى يتمتع برعاية الدولة ــ المترجم .

(٢) حزب قام فى أمريكا إذ ذاك يدعو إلى الحد من الملكية الخاصة وفرض سيطرة الدولة على المرافق العامة ــ المترجم .

وقد وفقت فى هذا إلى حد كبير ، إذ كانت تساندها المكانة الهائلة الناجمة عن الانتصار ، والناجمة عن شخصية جرانت نفسه ، وقد أطال من بقائها فى الحكم عدم الاطمئنان الدائب إلى أى حزب كان ذا علاقة بالرق والانفصال ، وعززها تأييد المصالح التجارية التى كانت تخدمها . وقد ضاعت هذه الميزات ، على مر الزمن . إذ كان جرانت عسكرياً عظيمًا ، بيد أنه كان رئيساً غير موفق للهيئة الإدارية ، وكان سجل حكومته حافلًا بالفشل الذريع فى غير ميدان الشؤون الخارجية . وقد قال هنرى آدمز الشاب ، وهو يستعرض التاريخ الأمريكى من واشنطن حتى جرانت ، إن جرانت جعل التقدم مدعاة للسخرية .

فبعد توليه الحكم بقليل ، انتشرت قصص الفساد فى المراكز العليا ، ولم تتكشف عن أنها كانت بدون أساس . إذ كان يمول شركة يونيون باسفيك للخطوط الحديدية ، وهى مفخرة الأمة ، جماعة من الممولين غير النزيهين ، الذين كانوا يستأجرون رجالًا من الكونجرس من أجل عطاءاتهم . وكانت وزارة البحرية تبيع العقود للمقاولين جهاراً ، ووزارة الداخلية ملجأ يحتمى به لصوص الأراضى ، ومكتب الشؤون الهندية يبيع ترخيصات الاتجار ذات التواريخ المسبقة إلى من يدفع أعلى ثمن ، ويهمل رفاهية الهنود الذين تحت رعايته ، كما أن وزارة الخزانة كانت تعفى محصلى الضرائب من الضرائب التى لم تسدد فيستغلونها لمصلحتهم ، وانتشر فى دور الجمارك فى نيويورك ونيو أورليانز الكسب غير المشروع ، واحتالت « عصابة للخمور » فى سانت لويس على الحكومة فحرمتها من الملايين المستحقة كرسوم إنتاج ، وبزت عصابة من المرتشين فى العاصمة القومية حكومات الخرج فى الجنوب فى التبذير والتبديد . وفى هذا كتب أحد أعضاء الشيوخ الجمهوريين ، بمبالغة لها ما يبررها : « كأنما أصيب الحزب الجمهورى بالسعار . . واعتقد أنه اليوم أكثر الأحزاب السياسية ــ التى قامت فى أى عهد ــ فساداً وانحرافاً » .

ولقد كان لهذا الفساد ، الذى ملأ الحكومة بالثقوب والثغرات ، ارتباط واضح بفوضى زمن الحرب ، وبعهد التضخم والمضاربة الذى أعقب أبوماتوكس . وهو قد حرم جرانت على مر الزمن ، ثقة أهل الشمال ، وإن لم يحرمه حبهم ، ذلك لأن جرانت كان قد جاء إلى الحكم بسمعة تفوق سمعة أى رئيس منذ جاكسون ، كما جاء الحزب الجمهورى للسلطان ترافقه أعظم فرصة للعمل البناء أتيحت لأى حزب منذ سنة

١٧٨٩ . وفى خلال أربع سنوات ، انشق الحزب على نفسه ، وظهرت فى الميدان هيئة من الجمهوريين الأحرار الليبراليين مكرسة نفسها للإصلاح ، والتوفيق . ومع أن الديمقراطيين انضموا إلى الجمهوريين الأحرار ، فإنهم لم يبلغوا من القوة درجة تمكنهم من خلع جرانت . غير أن الديمقراطيين ظفروا بالنفوذ فى مجلس النواب بعد عامين ، وأحرز مرشح الحزب للرئاسة فى سنة ١٨٧٦ أصواتاً فاقت ما أحرزه مرشح الجمهوريين . ولم تنته الأساليب السياسية لكسب الثروات ، بيد أن الأمة لم تعد معرضة للخزى من جراء الفساد فى الهيئة التنفيذية والكونجرس لمدة نصف قرن .

الفصل ١٤

قيام المشروعات الكبيرة

أسس الإمبراطورية الصناعية

كان جيفرسون يحلم بجمهورية زراعية كبيرة ، تزخر بشعب مستقل من صغار الملاك ، وتخلو من تحلل المدن الكبرى وعبودية المصانع أو مناجم الفحم ، مما كان يشاهد فى إنجلترا ، ومن عبودية الأرض التى أثارت استنكاره فى فرنسا وإيطاليا . وفى هذا كتب : « ما دمنا نمتلك أرضاً نفلحها ، فليس لنا أبداً أن نتمنى رؤية مواطنينا عاكفين على طاولة العمل الحرفى ، أو تطويح فَلْكة المغزل » . ولقد وضع أسس دولة ديمقراطية زراعية ، كما اعتقد ، ووفر لها أسباب الاتساع بشراء لويزيانا . وقال بهذا الصدد إن الأرض متوفرة « لآلاف مؤلفة من الأجيال » . ولقد هزم هاملتون فى الانتخابات ، وظن أنه دحض مشروع هاملتون لإنشاء ولايات متحدة على نسق إنجلترا فى ذلك العهد . كان على الأمة أن تتجه غرباً ، عبر الجبال والبرارى والسهول ، وليس شرقاً عبر المحيط ، وأن تكون جنة للمزارعين وليست موئلاً للتجار والمصرفيين ورجال الصناعة . وبتوالى خلفاء جيفرسون على البيت الأبيض وسيطرة أتباعه على الكونجرس ، لاح أن حلمه كان فى طريقه إلى التحقق . فقد أخذ مجال الزراعة فى

الانتشار بأسرع من انتشار الآلة الصناعية ، مع تزحزح حدود الأمة غرباً نحو المحيط الهادى وريو جراندى . بل إن الأمة ظلت زراعية بنسبة طاغية ، حتى فى سنة ١٨٦٠ ، ورأى كثير من المراقبين أن الحرب الأهلية كانت تزاحماً بين الملك القطن والملك القمح ، وليس بين سياسة صناعية ناهضة وزراعة مطردة الاتساع .

ومع ذلك ، كان هاملتون هو الفائز فى النهاية ، فى الجبهة الاقتصادية على الأقل . فكان رأيه فى المصرف هو الذى لقى قبولاً ، وكان نوع الحرية التجارية الذى تبناه و« تقريره عن الصناعات » هما اللذين أصبحا الميثاق القدسى لأمريكا . وبعد قرن من مصرع هاملتون فى ميدان المبارزة فى ويهوكن كانت الولايات المتحدة قد أصبحت أعظم أمة صناعية فى العالم . فلقد استغلت من مناجم الفحم والحديد الخام ، وصنعت من الصلب ، وضخت وكررت من النفط ، ومدت من الخطوط الحديدية ، وأنشأت من المصانع أكثر مما فعلت أية أمة أخرى على الأرض . وبعد قرن من لجوء حكيم مونتيسيلو إلى الراحة التى كان جديراً بها ، بلغت قيمة المنتجات المصنعة خمسة أمثال قيمة المنتجات الزراعية ، وأصبح أقطاب المال وقياصرة الصناعة يملون السياسات على واشنطن ، وبدا أن المزارع معرض لأن يصبح مجرد فلاح .

كان هذا التحول السريع للاقتصاد الأمريكى طبيعياً تماماً ، وإن عاونته سياسات الحكومة . وكانت أسس التطور الصناعى الأمريكى ستة : مواد أولية أوسع حجماً وأكثر تنوعاً مما أتيح لأى شعب آخر فيما عدا الروس على ما هو محتمل . . والمخترعات والأساليب الفنية لتحويل الخامات إلى منتجات مصنوعة ، وشبكة لنقل الماء وشبكة للسكك الحديدية كافية تمام الكفاية لمتطلبات اقتصاد قومى متسع ، وسوق محلية مطردة الاتساع بازدياد السكان ونمو الأسواق الخارجية ، ومورد من القوى العاملة دائب التجدد بفضل الهجرة ، وغياب حواجز جمركية معرقلة بين الولايات أو القطاعين ، مع الحماية من المنافسة الأجنبية والحرص على مساعدات حكومية مباشرة وغير مباشرة . وقد يجوز أن نضيف إلى هذه العوامل الأساسية روح المغامرة فى المشروعات ، وجو التفاؤل الذى امتاز به الشعب من البداية .

وكانت الثورة الصناعية تستند إلى الفحم والنفط والحديد ، ثم الكهرباء فى آخر الأمر . كانت ثمة كميات لا تنضب من الفحم الإنتراسيت وفحم البيتومين فى جبال بنسلفانيا وفيرجينيا الغربية ، وتحت أعشاب برارى إللينوى ، وعلى سفوح جبال سموكى

الكبرى ، وتحت ملايين الدونمات فى كنساس وكلورادو وتكساس . . بل إن نيو مكسيكو وحدها كانت تفخر بأنها أنتجت من الفحم ما كان يكفى لإدارة المصانع الأمريكية قرناً كاملاً . ولم يحن عام ١٩١٠ حتى كانت البلاد تستخرج من المناجم خمسمائة طن فى العام ، بيد أن ما يقل عن واحد فى المائة من مواردها الميسورة كان قد فتح للاستغلال . ولم تكن الولايات المتحدة أقل من ذلك ثراء بثانى الموارد الرئيسية الكبرى للطاقة : بالنفط . فإن فتح حقوله فى تكساس وأوكلاهوما وكنساس وإللينوى وكاليفورنيا بدد أى تخوف من استنزاف هذا المورد الذى لا غنى عنه . كذلك كان الحديد الخام متوفراً بكثرة . . حول حافة بحيرة سوبيريور بأسرها ، فى الجنوب ، حيث قامت شركة تنيسى للفحم والحديد ، وفى الغرب حيث اشتد ساعد شركة كلورادو للوقود والحديد . وكانت التقديرات المتحفظة ، بعد استمرار نصف قرن ، تشير إلى أن الكميات المختزنة فى جوف الأرض كفيلة بأن تدوم قرنين آخرين من الزمن على الأقل . كما أن الطبيعة أغدقت على الولايات إمكانات للطاقة المتولدة من الكهرباء أعظم مما منحت أية دولة أخرى وهى ، طاقة كانت كافية كل الكفاية للاحتياجات الصناعية لسكان يبلغ تعدادهم ثلاثمائة مليون نسمة .

ومن الحقائق الجديرة بالانتباه فى تاريخ الموارد الطبيعية فى الولايات المتحدة ، أن كثيراً منها لم يؤخذ فى استغلاله على نطاق واسع ، إلا بعد سنة ١٨٥٠ . وكان الحديد يستخرج منذ أوائل عهد الاستعمار ، ولكن فتح ميادين متشيجان الشمالية وبحيرة سوبيريور هو الذى أتاح للولايات المتحدة تفوقاً فى الحديد والصلب . ولقد عثر الكولونيل دريك على النفط فى غرب بنسلفانيا فى سنة ١٨٥٩ . وإن هى إلا سنوات خمس حتى كان الإنتاج السنوى قد ازداد إلى ما فوق مليونى برميل ، إذ اقيمت آلاف البريمات وأنفقت ملايين الدولارات ، وأصبح الإقبال على البحث عن النفط منافساً للإقبال على البحث عن الذهب فى كاليفورنيا ، قبل عقد من الزمن . وبدأ استخراج النحاس فى متشيجان منذ فتح هذا الإقليم ، ولكن استغلال عروق النحاس فى مونتانا وأريزونا لم يتسن قبل الثمانينات من القرن ، وبمجرد فتح منجم أناكوندا فى سنة ١٨٨٢ ، أصبحت مونتانا ميدان صراع فى « حرب ملوك النحاس » الذى لم يكن يرمى إلى الاحتكار الصناعى فحسب ، وإنما إلى السيطرة السياسية كذلك . ولقد أثر فتح مناجم الفضة الغنية فى كلورادو فى سنة ١٨٥٩ ، وفى نيفادا ومونتانا فى الستينات ، تأثيراً عميقاً

على الصرح الاقتصادى والسياسة المالية للبلاد . ولقد كانت مناجم الرصاص الغنية فى ميسورى ذائعة الصيت قبل الحرب الأهلية . بيد أن الازدياد العظيم فى إنتاج الرصاص ــ مما يسر انتشار استخدامه فى صنع الأنابيب وفى الطباعة ــ لم يتسن قبل السبعينات . ولقد هبط اسمنت بورتلاند إلى السوق فى السبعينات ، كما أن عملية التحليل الكهربائى يسرت الحصول على الألومنيوم بمعدل تجارى فى سنة ١٨٨٧ ، وقد تجاوز الإنتاج سبعة ملايين من الأرطال حوالى سنة ١٩٠٠ . وعندما زار هنرى آدمز معرض كولمبيا العالمى فى سنة ١٨٩٣ ، رأى المولد الكهربائى (الدينامو) ، وخرج بأن اكتشافه كان أهم حدث فى التاريخ الحديث ، ولم تحن نهاية القرن حتى كان المهندسون الأمريكيون يسخرونه للخزانات المائية ، ويمهدون السبيل لإحلال الكهرباء محل البخار .

ولعل الأمريكيين قد سجلوا من المخترعات ما يفوق ما سجله أى شعب آخر عدداً وإبداعاً ، فإن عدد براءات الاختراع التى أصدرتها دائرة براءات الاختراع فى الولايات المتحدة ، بين عامى ١٨٦٠ ، ١٩٠٠ لم يقل عن ٠٠٠ ٦٧٦ ، وقد بلغ هذا العدد ، منذ ذلك الحين ، أرقاماً شبه خيالية . ومن المخترعات المهمة التى ترجع إلى نهاية القرن الثامن عشر : آلة حلج القطن لإيلى هويتنى ، وسفينة روبرت فولتون البخارية ، وآلة إيلياس هاو للخياطة ، ومطاط تشارلز جوديير المقسى [1] ، وآلة الحصاد التى اخترعها سايرس ماكورميك وأوبيد هسى فى وقت واحد تقريباً . بيد أن إنتاج الأجهزة الجديدة على نطاق واسع تلكأ حتى نمو صناعة الصلب وإدخال الكهرباء على الصناعة .

وتوحى أية قائمة موجزة لأهم المخترعات الجديدة بصورة عن دورها فى صنع أمريكا الحديثة . فقبل الحرب المكسيكية ، كان صمويل إف . بى . مورس ، وهو رسام أمريكى هجر الرسم إلى العلم ، قد توصل إلى مبادىء البرق (التلغراف) الكهربائى ، وأقنع الكونجرس بتقديم مساعدة مالية لمد الأسلاك من واشنطن إلى بلتيمور . وفى سنة ١٨٥٦ تكونت شركة ويسترن يونيون لاستغلال الاختراع ، فسرعان ما مدت هى وشركات أخرى شبكة فى أرجاء القارة من الأعمدة والأسلاك . وبدأت الجهود فى مد خط عبر المحيط الأطلنطى فى الخمسينات ، بيد أنه لم يتهيأ لشركة جريت ويسترن مد خط دائم وموفق من نيوفوندلاند وإيرلندا حتى سنة ١٨٦٦ ، وبادرت وكالة أنباء أسوشيتيد برس

(١) المطاط المقسى ، نوع من المطاط يعالج بمادة الكبريت لزيادة متانته ــ المترجم .

إلى الإبراق بخطاب وليم إمبراطور بروسيا فى برلمانه كاملاً مقابل ما يناهز ستة آلاف دولار ، حتى يتسنى للأمريكيين تقدير فوائد العلم التطبيقى . ولقد عرض مهاجر إسكتلندى ، هو ألكسندر جراهام بل ، جهازاً للهاتف فى سنة ١٨٧٦ ، ولم تنقض بضع سنوات حتى كان فى كل مكتب تجارى وصناعى جهاز هاتفى ، وكادت الأسلاك تحجب سماء المدن الكبرى . وبعد ربع القرن ، كانت شركة أمريكا تليفون آند تليجراف قد تكونت برأس مال قدره ربع بليون دولار .

وسار التحسن فى النقل خطوة فخطوة مع اتساع الدولة . وأدى استعمال إشارات الحركة الأتوماتيكية ، والفرملة الهوائية ، وأداة الربط بين مركبات القطار ، ثم ــ بعد سنة ١٩٠٠ ــ المركبات المصنوعة من الصلب . . أدى هذا كله إلى الإقلال من خطر السفر بالسكك الحديدية ، كما أن إدخال مركبات بولمان للنوم جعله أكثر إراحة . ولقد ظل الأمريكيون طيلة الشطر الأول من الثمانينات يجرون التجارب على السكك الحديدية الكهربائية ، وقبل نهاية ذلك العقد من الزمن ، كان عدد من المدن ، قد يبلغ العشرين ، يمتلك مركبات الترام ، تدار ببكرة تحملها ذراع وتنقل الكهرباء من سلك علوى . وظهر اختراع السيارات التى تستخدم الجازولين فى التسعينات ، وقد أسهم هنرى فورد ، ببراعته الهندسية وحذقه فى مجال الأعمال ، بقسط كبير فى جعلها ضرورة عالمية . ويقول فى ذكرياته ، إنها فى البداية :

> اعتبرته شيئاً مزعجاً ، إذ كانت تحدث ضوضاء ، وتفزع الجياد . كما أنها كانت تعرقل حركة المرور . ذلك لأن حشداً من الناس كان يجتمع حول سيارتى ، إذا أنا تركتها فى مكان من المدينة ، قبل أن يتسنى لى الشروع فى تحريكها ثانية ولو أنى تركتها وشأنها ، ولو لدقيقة واحدة ، لحاول شخص شديد الفضول أن يديرها . وأخيراً ، اضطررت إلى أن أحمل سلسلة ، وأن أربطها إلى أحد أعمدة الإضاءة كلما تركتها فى أى مكان .

ولقد شهد هذا العقد ذاته من القرن ، تجارب إس . بى . لانجلى الجريئة ، على الآلة الطائرة ، التى قدر لها أن تغير مقادير الدول فى حياة أولئك الذين كان يهزأون بها .

وأدى الاختراع إلى زيادة سرعة نشاط المشروعات التجارية والصناعية ، وأدخل على مكاتب الأعمال أعداد كبيرة من النساء والمستخدمين الكتابيين ، وزادت أهمية

المواصلات . فأصبح الهاتف بخطى سريعة لازمة لا غنى عنها لكل مكتب ومتجر . وطرحت الآلة الكاتبة فى السوق فى سنة ١٨٧٣ ، وكانت نتاجاً مشتركاً لاثنين من المخترعين فى ميلووكى ، هما شولز وجليدن . وفى العام التالى ، كان مارك توين يوقع عليها رسالة جاء فيها : « بوسعك أن تضطجع فى مقعدك وأن تستخدمها . وهى تكدس قدراً كبيراً من الكلمات فى الصفحة الواحدة دون أن تنثر الأمور فى غير تناسق ، أو تبعثر بقع المداد » . وسرعان ما أصبحت الآلة فى كل مكان ، وأصبح كل مكتب للأعمال يضم نسبة من الكاتبات عليها . وكفلت آلات الجمع وآلات تسجيل المدفوعات النقدية الدقة فى المحاسبة ، ويسرت آلات طبع العناوين إغراق الجمهور بمنشورات إعلانية ودعائية دون ارتقاب طلب منه ، كما أن البطاقة الفهرسية أعانت على جعل المكتبات الأمريكية خير المكتبات وأكثرها ملاءمة فى العالم . وأحدثت آلة صف الحروف اللينوتايب ، وآلة هو للطباعة الرحوية ، وعملية النسخ الكهربائى للمطبوعات انقلاباً فى طباعة الصحف والكتب .

ولقد أثرت الكهرباء على الحياة الاجتماعية للأمة تأثيراً مباشراً ، بسبب أهميتها للصناعة والنقل والمواصلات . ولقد سجل مهندس شاب من أوهايو ، يدعى تشارلز برش ، فى سنة ١٨٧٨ ، اختراعه لمصباح قوسى بادرت بعض المدن التقدمية إلى استخدامه فى إضاءة الطرق . وكان المصباح المتوهج اختراعاً أكثر اتساماً بأنه عملى ، وقد أعده توماس إيه . إديسون فى وقت سمح له بإضاءة بيته به عندما انتخب جارفيلد رئيساً للجمهورية . ولقد كانت الإمكانات التجارية للإضاءة الكهربائية هائلة . ففى سنة ١٨٨٢ أنشأ إديسون محطة لتوليد الكهرباء وتوزيعها فى نيويورك ، وإن هى إلا سنوات قلائل حتى كان الدهاة من الساسة يظفرون بإجماع الأصوات فى مقابل إمداد المدن بالكهرباء . وأخذ صراع الطاقة يتطور . ففى التسعينات قام إديسون بتجاربه على آلة للصور المتحركة ، فلم تنقض عشر سنوات حتى كان التاريخ التجارى للسينما قد بدأ ، وإذا بهذا الوسيط القوى التأثير يوجه صوب حملة الغزو التى قدر لها أن تحمل الكلام ، والطباع ، والعادات الأمريكية إلى أقصى أركان الكرة الأرضية . أما الإذاعة اللاسلكية ، التى لم تكن أقل أهمية فى متضمناتها الاجتماعية ، فقد دخلت مجال الاستخدام الفعال بُعيد الحرب العالمية الأولى ، وإن هما إلا عقدان من الزمن حتى أصبح فى كل بيت جهاز للراديو خاص به . وقد زاد الهاتف والمصباح والسينما والراديو

متعة الحياة ومجالها بدرجة تفوق القياس ، وكان لها دور كبير فى تحطيم العزلة وتوحيد العادات الاجتماعية ، مهما يقال فى تقدير قيمة هذا التطور . ولما كان استخدامها عملياً يتطلب أموالاً طائلة ومنظمات واسعة النطاق ، فإنها أسهمت بنصيب كبير فى تعجيل نمو المشروعات الكبيرة .

وبعد أربعين عاماً من إتمام أول خط حديدى يجتاز القارة الأمريكية الشمالية بأسرها ، اكتملت شبكة السكك الحديدية إلى حد كبير ، وأخذت تنقل آلاف الملايين من أطنان البضائع فى كل عام ، ونهضت الملاحة البحرية من ركودها الطويل بدرجة كافية لجعل العلم الأمريكى مألوفاً مرة أخرى فى البحار السبعة ، وأصبح خمسون مليون طن من الخامات والغلال تجتاز قناة سولت سانت مارى ، وكانت قناة بناما على وشك أن تربط بين المحيطين الأطلنطى والهادى . كانت أنوال النسيج الأوربية تصبو إلى القطن الأمريكى ، والعاملون عليها يصبون إلى القمح ولحم الخنزير الأمريكيين ، وفى نصف القرن الذى أعقب أبوماتوكس ، حظيت الولايات المتحدة بميزان تجارى موات لها بازدياد مطرد ، فتجاوز بليونين وربع البليون من الدولارات ، ولم تحن سنة ١٩١٠ ، حتى كانت صادراتها السنوية قد تجاوزت البليونين .

وظل سيل الأيدى العاملة كافياً لإشباع الطلب عليها ، وكان معظمها رخيصاً . فكان يتدفق على المراكز الصناعية ملايين من العمال : من المزارع ومن القرى الريفية ، من صفوف النساء والأطفال ، من مدن إيطاليا والنمسا وبولندا المزدحمة . فازداد مجموع العاملين الأجراء فى الثلاثين عاماً التى أعقبت سنة ١٨٧٠ ، من اثنى عشر مليوناً إلى تسعة وعشرين مليوناً ، غير أن المشتغلين بالصناعة منهم ارتفع من أقل من ثلاثة ملايين إلى سبعة ملايين . ومن الحقائق التى تلقى على الموقف ضوءاً ، أن نسبة النساء العاملات فى الصناعة ارتفعت من الثُمن إلى الخمس ، كما ارتفع فى الوقت ذاته عدد العمال من الأطفال ، بين العاشرة والخامسة عشر من العمر ، إلى مليون وثلاثة أرباع المليون . وجُمع من شعوب أوربا الجنوبية والشرقية ، الأكثر فقراً وأقل مهارة ، عدد مطرد الازدياد من المهاجرين ، فجلب العقد الأول من القرن الجديد مليونين من الشعوب التسعة فى المملكة الثنائية [1] ، ومليونين آخرين من إيطاليا ، ومليوناً ونصف المليون من

(١) النمسا والمجر فى عهد أسرة هبسبورج — المترجم .

روسيا . وكان معظمهم راغبين فى العمل بأى أجر يحصلون عليه ، فكان متوسط الأجر السنوى فى الصناعة فى سنة ١٩٠٩ ، يزيد على خمسمائة دولار بقليل جداً . وكان هذا أقل مما ينبغى ، بالرغم من أن الدولار إذ ذاك كان يبتاع ستة أرطال من اللحم البقرى .

بقى عنصر واحد فى نسيج الحركة الصناعية الناهضة ، جدير بالاعتبار ، ألا وهو دور الحكومة . فلقد تولت المصالح التجارية والصناعية ، طيلة الجيل الذى أعقب الحرب الأهلية ، السيطرة على الهيئات التشريعية فى الولايات ، وليس على الهيئات التشريعية القومية فحسب . واستمر نظام الحماية الجمركية ، الذى أقيم خلال الحرب كإجراء مؤقت طارىء ، وكانت صناعات الحديد والصلب والنحاس والرخام وإنتاج الصوف الخام والنسيج ، والأوانى الخزفية ، الأكثر انتفاعاً بوجه خاص . واقتدت الولايات والمجتمعات المحلية بالكونجرس فى منح المساعدات للسكك الحديدية ، حتى ظفرت الخطوط الحديدية فى مجموعها بما تناهز قيمته سبعمائة وخمسين مليون من الدولارات من الأرض والأسهم والإعفاءات الضريبية وغيرها من الهبات . واتخذت السلطات الحكومية مسلكاً متسامحاً إزاء الاستيلاء على الأراضى ، وإزاء اقتطاع أشجار الخشب ، ورعى الماشية فى الأملاك العامة ، وقامت ثروات عديدة على استغلال ممتلكات الدولة . ولم يبد الكونجرس ميلاً يذكر نحو تقنين تنظيم المشروعات الخاصة ، فكانت المحاكم تمنح استثناءات ليست بالقليلة فى التشريعات المقيدة لتلك المشروعات والصادرة عن الولايات . ولم تواجه فلسفة « الفردية الغشوم » تحدياً فعالاً إلا بعد نهاية القرن .

الحديد والصلب

من الممكن أن نتعقب العلاقات المتبادلة بين هذه العوامل ، فيما قدر له أن يكون أهم فصل فى التطور الصناعى الأمريكى ، فى قصة الحديد والصلب . فقد كان الحديد يُستخرج فى أمريكا من أوائل أيام الاستعمار . وقد أنشأ جون بيركلى فى سنة ١٦١٩ ، مصنعاً لتشكيل الحديد فى فولينج كريك بولاية فيرجينيا ، وقد كتب وليم بيرد بعد قرن من الزمن ، وصفاً حياً فى كتابه « تقدم المناجم » فى الغرب . وقد حصلت شركة تجارية فى باى كولونى على أرض دون مقابل ، وإعفاء ضريبى ، واحتكار لإنشاء مصنع

للحديد ، وأقام ايثان آلين قائد فتية الجبل الأخضر فرناً عالياً لصهر الحديد فى ليتشفيلد هيلز بولاية كونكتيكت . وقد أنتجت مصانع الحديد فى بنسلفانيا الشرقية قذائف المدافع لقوات واشنطن الاتحادية ، كما أن مصانع ستيرلينبج فورج ، بالقرب من ويست بونيت صاغت أعظم السلاسل التى شدت عبر نهر هدسن لاعتراض طريق الأسطول البريطانى . وكانت أهم مصانع الحديد الأول مصانع رامبو فى شمال جيرسى ، الولاية التى قدر لبيتر كوبر ، فى سنوات لاحقة ، أن ينشىء فيها مصانع كبيرة ، وقدر لأبرام هويت أن يبتكر طريقة الأفران المفتوحة لإنتاج الصلب . وظهرت بعد سنة ١٨٠٠ مصانع مزدهرة للحديد فى بيتسبيرج ، غربى جبال ألليجنى ، حيث أتاحت الظروف اجتماع الخام ، والفحم ، والجير ، والغابات لإنتاج الفحم النباتى . وقد قامت مصانع الحديد هناك فى وقت أتاح صب قذائف المدافع للكومودور بيرى والجنرال جاكسون .

على أن مصانع الصهر والتشكيل الأولى هذه كانت مشروعات صغيرة ، فلم يكن إنتاج البلاد كلها من الحديد الخام المصهور يتجاوز نصف المليون من الأطنان فى العام ، ولم تكن صناعة الصلب ذات قيمة تذكر ، حتى سنة ١٨٥٠ . ولم تكن فرص ازدياد الإنتاج مشجعة ، لأن كميات الحديد الخام لم تكن كافية . كما أن تكاليف تصنيع الصلب كانت تصد عن الإقبال عليها . ثم حان انقلاب من أكبر الانقلابات فى تاريخ الصناعة . ففى سنة ١٨٤٤ ، لاحظ القائمون بعمليات المساحة ، على طول الحدود بين ويسكونسين وأعالى متشيجان ، أن بوصلاتهم تتذبذب من جانب لآخر تذبذباً شديداً غير منتظم ، فرفعوا تقارير عن وجود طبقات سطحية كبيرة من الحديد الخام الأسود . وكان الهنود قد ظلوا أجيالاً يروون قصصاً عن جبل خراق من الحديد . وفى سنة ١٨٤٥ ، قاد زعيم لعشائر تشيبيوا يدعى مادجيجيجيج أحد الباحثين عن النحاس إلى سلسلة جبال ماركيت ، والمطلة على بحيرة سوبيريور ، فسرعان ما تدفق على البطاح مئات من الباحثين بجنون عن الثروة ، يسعون للحصول على تصريحات استخراج النحاس والحديد . وكان نقل الخام الثقيل بالسكك الحديدية باهظ النفقات وعسيراً ، فلم يكن ثمة بد من طريق مائى . واقترحت متشيجان مشروع قناة حول شلالات نهر سانت ماريز ، تربط بحيرتى هورون وسوبيريور ، ولكن هذه الفكرة صادفت تسفيهها حتى من هنرى كلاى ، أبى نظام النقل الأمريكى ، وقال : « إنه مشروع يفوق أقدم توطن فى الولايات المتحدة ، إن لم يكن فى القمر » . وأنشأ القناة شركة من القطاع

الخاص والطاقة الدافعة لدى تشارلز هارفى الشاب ، وفتحت للسفن فى سنة ١٨٥٥ ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت تمر فيها من السفن أكثر مما يمر بأية قناة أخرى فى العالم . وأنشئت أرصفة للشحن فى ماركيت وآشلند وإيسكانابا ، ثم أخذت أساطيل من السفن الكبيرة تحمل ملايين الأطنان من الحديد الخام إلى المصانع البعيدة ، بعد فتح سلسلة جبال مينومينى ، المتجمعة على الشاطىء الغربى لبحيرة متشيجان ، وسلسلة جبال جوجيبك الغنية بالحديد ، والممتدة على جانبى حدود متشيجان وويسكونسين .

ولم يمض وقت طويل حتى تضاءلت مستودعات الخام فى شمال شبه الجزيرة بالقياس إلى المناجم التى إلى الغرب من بحيرة سوبيريور ، بل إن الحديد كان يحف بالبحيرة الشاسعة بأسرها . ولقد صادفت أحد رجال المساحة سلسلة جبال فيرميليون فى السبعينات من القرن التاسع عشر ، فأنشىء فى سنة ١٨٨٤ ، برأس مال شرقى ، خط حديدى يصل بينها وبين البحيرات ، وإن هى إلا عشرون عاماً حتى كانت جبال فيرميليون تصدر ثلاثين مليون طن من الحديد الخام . وفى تلك الأثناء كان الاخوة الخمسة ميريت ، من دولوث ، يجوبون الفيافى غرب البحيرة . وعلى بعد خمسة وسبعين ميلاً إلى الشمال الغربى من دولوث ، عند الحد المائى للقارة ، عثروا على سلسلة ميسابى ، أم السلاسل جميعاً ، وأغنى سلاسل العالم بالحديد إلى درجة أسطورية . كان هذا فى سنة ١٨٩٠ ، ولم ينقض عامان حتى كان ثمة خط حديدى يجرى على أرض غير مستوية ، خلال غابات الأشجار والنباتات الشوكية والمستنقعات ناقلاً مليون طن من الحديد الخام . وفى خلال عشر سنوات ، صبت ميسابى أربعين مليون طن فى مصاهر ومصانع بيتسبيرج وشيكاغو .

كان لموارد الحديد الخام هذه ، فى شمال مينيسوتا ، ميزات لا تمتلكها أية مناجم أخرى فى أى مكان من العالم ، وكان لها الفضل الأكبر فى تفوق أمريكا فى إنتاج الحديد والصلب . وما كان لها من نهاية فى الواقع ، ولا يمتد الحديد فيها فى عروق صخرية ، دفينة فى الأرض ، وإنما فى كميات مفككة تحت السطح مباشرة ، وفى هذا قال أحد الاخوة ميريت : « لو أن الجنون دفعنا إلى أن نركل الأرض تحت أقدامنا ، حيث كنا نقف مباشرة ، لكان من المحتمل أن ننثر تراباً يحتوى على أربعة وستين فى المائة من الحديد الخام . . هذا إذا ركلنا بقوة كافية لدفع أقماع الصنوبر عن الأرض » . كان الخام نقياً بدرجة غير مألوفة ، ومن الممكن رفعه بمجارف بخارية ، وكان جد قريب من البحيرات

الكبرى ، مما ييسّر شحنه إلى المناطق الصناعية ومناطق الفحم بنفقات زهيدة .

ولكن ، كيف يتسنى تحويل الحديد الأحمر إلى صلب أبيض ؟ قبيل الحرب الأهلية بسنوات قلائل ، روادت صانع الحديد وليم كيلى ، فى بلدة إديفيل الصغيرة بولاية كنتكى ، فكرة غريبة ، تلك هى أن بوسعه تحويل الحديد إلى الصلب بتمرير الهواء البارد خلاله ، وبرهن على أنها لم تكن خيالية ألبتة . وبعد فترة قصيرة ، خطرت الفكرة ذاتها للمهندس الانجليزى هنرى بيسيمر ، ولم يكتف بإثبات صحتها ، بل إنه طبقها عملياً بنجاح . وكانت عملية بيسيمر ، كما أصبحت عند اكتمالها ، غاية فى البساطة . إذ كان الحديد الخام المصهور يصب فى وعاء كمثرى الشكل ، يمرر فيه الهواء البارد . فكان أوكسجين الهواء والكربون والسيليكون الموجودان فى الحديد يثير صراعاً جباراً مصحوباً بالصراخ والهدير ، بينما تبث فتحة جهاز التحويل ناراً كأن الوعاء وحش أسطورى ، فترتفع ألسن اللهب أربعين أو خمسين قدماً فى الهواء ، ويتغير اللون من أحمر إلى بنفسجى ، ومن برتقالى إلى أبيض . وإن هى إلا عشر دقائق حتى تنتهى معركة العناصر ، وتحترق شوائب الحديد الخام تماماً ، ويقلب وعاء التحويل ليسكب الصلب الملتهب فى قوالب . وبعد زمن ، حلت عملية جديدة لصنع الصلب ، هى الفرن المفتوح ، محل طريقة بيسيمر ، بيد أن الغلبة كانت لبيسيمر طيلة ربع القرن الأخيرة من الزمن .

لقد يسر الخام والفحم والعلم صناعة الصلب ، وكانت روح الإقدام والمهارة ورأس المال هى كل ما تدعو إليه الحاجة . وكان أندرو كارنيجى قد وفد من دنفيرملين باسكتلندا ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، إذ أن ابتكار نظام المصنع قضى على أبيه بالإفلاس ، وكان من أقطاب صناعة النسيج . وكان للأسرة أقارب فى بيتسبيرج ، فيممت شطر هذه المدينة الحافلة بالرخاء ، عند ملتقى نهرى آلليجنى ومونونجاهيلا . وحصل أندرو على عمل كصبى يلف الغزل على البكرات ، ثم تخرج فنياً للمراجل البخارية ، وانتقل للعمل بمكتب للبرق ، وانتهى به الأمر إلى العمل فى السكك الحديدية ببنسلفانيا . وكان أميناً ، حاذقاً ، مجتهداً ، شديد اليقظة ، أكسبه سحر الطباع الذى لم يفارقه قط ثقة من هم أكبر منه سناً وصداقتهم . وقبل أن يبلغ الثلاثين ، كان دخله السنوى أربعين ألف أو خمسين ألف دولار ، درتها عليه استثمارات ذكية فى النفط والحديد وشركات القطارات السريعة ومركبات النوم . ومن الدلائل على بصيرته

وإقدامه أنه قرر فى سنة ١٨٦٥ أن يركز اهتمامه على الحديد ويتخلى عن اهتماماته الأخرى . وإن هى إلا سنوات قلائل ، حتى كان قد أنشأ أو ابتاع أنصبة فى شركات لصنع الجسور والقضبان والقاطرات الحديدية . فلما بلغ الثلاثين من العمر ، انتقل إلى نيويورك ، وبدأ يعمل كمندوب للمبيعات لحساب شركاته العديدة ، وكسمسار لعديد من شركات السكك الحديدية والحديد .

ومع أن كارنيجى تلكأ فى انتهاج طريقة بيسيمر ، فإنه حين فعل جعل تحوله كاملاً ، وكان المصنع الذى أقامه فى سنة ١٨٧٥ ، فى ساحة معركة برادوك ، على ضفاف نهر مونونجاهيلا ، أكبر مصانع الدولة . ولم ينقض عام حتى كان إنتاجه من صلب بيسيمر يفوق إنتاج كل المصانع الأمريكية الأخرى مجتمعة . وكان يقظاً لكل تحسين جديد ، سريعاً فى الإفادة من أوقاته الضائعات ليشترى مصانع منافسيه أو يعمل على إفلاسها ، وتحالف أوثق تحالف مع شركة بنسلفانيا وغيرها من شركات السكك الحديدية ، واستعان بمساعدين من الدهاة ، أمثال إتش . سى . فريك وتشارلز شواب ، مما جعله فى مركز استراتيجى يؤكد زعامته لصناعة الصلب . وأخذت امبراطوريته فى النمو عاماً بعد عام ، فضمت مصانع جديدة للصهر والتشكيل ، وموارد للفحم والكوك والحديد الخام فى سوبيريور ، وأسطولاً من السفن البخارية فى البحيرات الكبرى ، وميناء على بحيرة إيرى يتصل بها خطوط حديدية . كانت فى الواقع شركة مساهمة ذات احتكار رأسى فكانت صناعة الصلب التى تمتلكها متحالفة أوثق تحالف مع عشرات غيرها ، وبوسعها أن تفرض اتفاقات مواتية لها مع السكك الحديدية وخطوط الملاحة ، كما كانت تمتلك من رأس المال ما يكفى للتوسع ، ومن العمال أفضلهم ، ومن المديرين أكثرهم ذكاء ، فلم يشاهد مثيلها فى أمريكا من قبل ، وإن كانت الإمبراطورية التى أقبل روكفلر على إنشائها قد أخذت تسعى لتضارعها سلطاناً . وقد أنشئت فى سنة ١٨٧٨ برأس مال قدره ربع المليون من الدولارات ، فسرعان ما ارتفعت أرباحها إلى خمسة ملايين فى العام . وعندما رفع رأس مال المشروع فى سنة ١٩٠٠ إلى ٣٢٠ مليوناً ، كان ينتج ثلاثة ملايين من أطنان الصلب فى العام ، ويدر أرباحاً سنوية قدرها ٤٠ مليون دولار .

بقى عامل مهم واحد . . القوى العاملة . وهنا أيضاً تعتبر تجربة صناعة الحديد وشركة كارنيجى نموذجية . كان عمال مناجم الحديد يجمعون فى السنوات الأولى من كورنوول وويلز ، فى المقام الأول . ثم جاء السويديون والفنلنديون ، وأعقبهم سيل من

السلافيين والمجريين . وهذا التتابع بالذات يشاهد بين أولئك الذين يوقدون الأفران ، ويرفعون الكرات الملتهبة من الصلب المصهور إلى القوالب . ولقد أظهر إحصاء فى سنة ١٩٠٧ أن أكثر من ثلثى العمال فى مصانع كارنيجى كانوا أجنبيى المولد ، وأن الأغلبية الغالبة من هؤلاء كانوا من جنوب أوربا وشرقها . كانوا أشداء . . ولم يكن ثمة بد من هذا ، إذ كانوا يعملون اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ، وسبعة أيام فى الأسبوع ، فى جحيم من الحرارة والضجيج . ولما كان ثمة سيل وافر من العمال غير المهرة ، فإن النقابات نادراً ما كانت تحرز تقدماً فى الصناعة ، فإذا أحرزت ، فإنها كانت تقمع فى ضراوة .

هكذا توفرت لنهضة هذه الصناعة كل العناصر التى تكفل لها زعامة عالمية ، عدا عنصر واحد : توفرت لها الخامات والنقل والعلم والاختراع والمهارة الإدارية للمشروعات وروح الإقدام والقوى العاملة الرخيصة ، وأخيراً ، أدى نمو السكك الحديدية واستخدام الصلب فى البناء إلى ضمان الأسواق . وكان العنصر الوحيد الذى مست إليه الحاجة فوق هذه العناصر ، هو : الحماية إزاء المنافسة الأجنبية . وقد عنيت بذلك تعريفة جمركية أملى أقطاب صناعة الحديد موادها ، كان فرض رسوم قدرها ثمانية وعشرون دولاراً على الطن من القضبان الفولاذية كفيلاً بمنع استيرادها ، حتى أن كارنيجى نفسه لم يلبث إن اعترف بأن من الممكن تخفيضها .

وأخذت صناعة الحديد والصلب الأمريكية فى التقدم ، فى رعاية هذه الإمكانات . فلم يحن عام ١٨٩٠ ، حتى كان الإنتاج يفوق إنتاج بريطانيا ، ولم يحن عام ١٩٠٠ حتى كانت الولايات المتحدة تصنع من الحديد والصلب ما يزيد على إنتاج بريطانيا وألمانيا معاً . وحوالى سنة ١٩٢٠ كانت أفران الصهر العالى تشكل سبعة وعشرين مليون طن من الخام المصهور ، واثنين وأربعين مليون طن من الصلب ، وقد كشفت مطالب الحرب العالمية الثانية عن إمكان رفع الطاقة الإنتاجية إلى خمسة وثمانين طن عند الضرورة .

كذلك يبين تاريخ شركة كارنيجى ، من ناحية أخيرة ، نهضة المشروعات الكبيرة فى الولايات المتحدة . فإن الاسكتلندى صاحب المشروعات ظل متسلطاً على الصناعة طويلاً ، بيد أنه كان من المستحيل بالنسبة له أن يمارس احتكاراً للموارد الطبيعية والنقل والمنشآت الصناعية المتعلقة بإنتاج الصلب . فكان روكفلر يمتلك أهم مناجم ميسابى وأسطولاً من البواخر فى البحيرات الكبرى ، وكانت شركة تنيسى للفحم والحديد تسيطر

على موارد شاسعة فى الجنوب ، وقامت شركات جديدة للصلب ، مثل الصلب والأسلاك الأمريكية ، والاتحادية . والبنسلفانية ، لتتحدى سيطرة كارنيجى . فهدد هذا ، وقد أثارته المنافسة ، بأن يحصل على مناجم جديدة ، وينشىء أسطولاً كبيراً من سفن النقل ، وينصرف إلى صناعة الأنابيب ، والأسلاك الشائكة ، وألواح الصفيح ، ومائة سلعة أخرى . ودبت فى الصناعة حرب مدمرة ، فتحول رجال الصلب فى جزع إلى الأفكار الرامية إلى الائتلاف والتجمع . وآثر كارنيجى أن يبيع حصصاً من شركاته بالثمن الذى يفرضه ، على أن يخوض معركة ، إذ كان وقد تقدمت به السن يرغب فى التقاعد والنزول عن أمواله . لذلك أصغى بنفس راضية إلى اقتراح بإدماج ممتلكاته فى منظمة جديدة تضم أهم مشروعات الحديد والصلب فى البلاد . وفى سنة ١٩٠١ ، ولدت شركة صناعات الصلب المساهمة فى الولايات المتحدة ، برأس مال قدره ١٤٠٠ مليون دولار ، وهو مبلغ أكبر من إجمالى الثروة القومية قبل ذلك بقرن واحد . وأن يحقق جون دى. روكفلر أرباحاً طائلة من مشروعه الموفق فى جبال ميسابى .

الشركات المساهمة والاتحادات الاحتكارية

كان تكوين شركة صناعات الصلب المساهمة فى الولايات المتحدة مثالاً لعملية ظلت تتطور ثلاثين عاماً ، وكان مقدراً لها أن تستمر دون هوادة حتى الزمن الحاضر . تلك هى تجمع المشروعات الصناعية المستقلة فى هيئات قوية السلطان (إمبراطوريات Empires) اتحادية أو ذات نظام مركزى . وما كانت شركة كارنيجى فى أوج سلطانها سوى مجرد واحدة من حوالى ستمائة مؤسسة للحديد والصلب ، وقد أنشئت شركة صناعات الصلب المساهمة فى الولايات المتحدة لتستوعب أو تقضى على معظم هذه المؤسسات ، وتتولى صناعة ثلثى منتجات الصلب فى البلاد . وخلال جيل آخر من الزمن ، تولت مائتا شركة مساهمة عملاقة للصناعات نصف تجارة وصناعة الأمة ، بينما تولى النصف الآخر ثلاثمائة ألف شركة مساهمة أصغر .

كانت الولايات المتحدة فى عهد لينكولن دولة مشروعات صغيرة ، فما كان الاحتكار معروفاً فى الواقع ، وكانت شركة آستور القديمة للفراء ، والاتحاد الغربى الحديث

الإنشـاء هما أقرب المشروعات إلى الاحتكار منذ الاحتكارات الملكية الضعيفة فى أيام الاستعمار . إذ كانت كثير من المجتمعات ، لاسيما فى الشمال ، تستمتع بكفاية ذاتية إلى حد كبـير فكـان الأثـاث يستمد من النجار المحلى ، والأحذية من صانع الأحذية فى الجـيرة ، واللحم من القصـابين الصغار ، والمركبات من صانع العربات فى المنطقة . وكـانت الصنـاعة والتعدين ينتشران فى شكل منشآت متناثرة ، متباعدة . وكان هناك ما يزيد على مصنـع لصناعة المحاريث وأدوات الفلاحة والحصاد . وكان فى بنسلفانيا وحدها أكثر من مائتى معمل لتكرير النفط ، ومائة من أصحاب الأملاك يقتسمون فيها بينهم ثروة مناجم شركة كومستوك للفضة . وإن هى إلا أربعون عاماً حتى كان هذا كله قد تغـير ، فصـارت شركة إنترناشونال هارفيستر تصنع كل الأدوات الزراعية تقريباً ، واستحـوذت شركـة استاندارد أويل على احتكار فعلى لتكرير النفط ، وامتلك مناجم كومستوك اتحادان أو ثلاثة للشركات الشرقية ، واستأثرت باستغلالها .

كان التغير قد بدأ خلال الحرب الأهلية ، واستمر بسرعة متزايدة بعد السبعينات . فقد فطن رجال الأعمال الأذكياء إلى أن بوسعهم تخفيض نفقات الإنتاج ، والسيطرة على الأسعـار ــ وهـذا هو الأهـم ــ لو أنهم تمكنـوا من جمع الشركـات المتنافسة فى منظمة واحدة . وكانت الوسيلة الرئيسية لتحقيق هذه الغايات هى الشركات المساهمة [١] ، ثم ظهر نظام ائتلاف الشركات [٢] ، ثم الاتحاد الاحتكارى [٣] . كانت الشركة المساهمة ابتكـاراً لإيجـاد شخصية رمـزية تستطيع الاستمتاع بالميزات القانونية ، ولكنها تتفادى معظم المسئوليات الخلقية التى يلتزم بها الكائن البشرى . فكانت تستمتع بحياة دائمة ، وسلطة إصدار أسهم وسندات ، ومسئولية محدودة بالنسبة للديون ، كما كانت تخضع لقيود مرسوم إنشائها ، وكان لها حق ممارسة أعمالها فى كل مكان من الدولة . أما الترست فكان فى الواقع تجمعاً لشركات مساهمة ، يضع بموجبه حملة الأسهم فى كل شركة ،

(١) Corporation : شركة مساهمة ، أى شركة من عدة أفراد ، تعمل تحت اسم مشترك ، وتكون ذات شخصية قانونية منفصلة عن أعضائها ، الذين تمثلهم أسهم أو سندات قابلة للتحويل دون المساس باستمرار وجود الشركة ــ المترجم .

(٢) Pool : تجمع عدد من المشروعات المتنافسة ليكون عملها جماعياً ، وأرباحها جماعية تقسم فيما بينها حسب أنصبتها ــ المترجم .

(٣) Trust : اتحاد عدد من المشروعات الكبيرة ، بالنزول عن سندات هذه الشركات وقبول نصيب فى هيئة تسيطر على كل هذه المشروعات ، وتكون من قوة النفوذ عادة بحيث لا يتسنى مزاحمتها ـ المترجم

أسهمهم فى أيدى أوصياء يديرون أعمال الجميع . وما لبث الترست أن أصبح يعنى أى تجمع تجارى وصناعى كبير . كذلك كانت ميزات ائتلافات الشركات ـ الترستات ـ واضحة ، فقد يسرت التجمع على نطاق واسع ، وركزت الإشراف والإدارة ، وقضت على الوحدات الأقل كفاءة . وحشدت حقوق الاختراع ، وأوتيت بفضل مواردها المالية القدرة على التوسع ، ومنافسة الشركات الأجنبية ، ومساومة العمال ، واستخلاص شروط مناسبة من السكك الحديدية ، وممارسة نفوذ هائل فى الأمور السياسية الخاصة بالولاية والقومية على السواء .

كان التجمع ظاهرة شملت العالم كله ، ولكنها كانت فى الولايات المتحدة أبرز منها فى أى مكان ، اللهم إلا ألمانيا . وكان من أسباب ذلك توفر الموارد الشاسعة التى ترتقب الاستغلال . على أنه كانت ثمة أسباب أخرى . فإن اكتمال شبكة السكك الحديدية كفل للمنتجات المصنوعة سوقاً محلية ، وأتاحت قوانين براءات الاختراع احتكاراً للعمليات الصناعية ذات الأهمية الكبرى ، وأصبحت منح الأرض بسخاء والتأويلات المتحررة لقوانين الأرض أداة فى أيدى الشركات التى بلغت من الكبر ما يمكنها من الاضطلاع باستغلال موارد الخشب أو النحاس أو الفحم على نطاق واسع . ولقد أتاح النظام الاتحادى (الفيدرالى) لأية شركة ، أن تحصل على مرسوم بتكوينها فى أية ولاية تكون قوانينها متحررة وأن تمارس أعمالها فى ولايات أخرى ، كما إن سياسة الحماية الجمركية حالت دون المنافسة الأجنبية .

وكانت شركة استاندارد أويل هى التى تقدمت سواها فى هذا الطريق . فبينما كان منتجو النفط فى غرب بنسلفانيا منهمكين فى منافسة قاتلة ، أقبل رجل أعمال شاب ، صامت متقشف ، من كليفلاند بولاية أوهايو ، على شراء معامل التكرير المحلية فى غير ضجيج وإدماجها فى شركة وحدة . وقد كتب ابنه فيما بعد : لا سبيل لإنتاج ملكة الورود الأمريكية فى بهائها وتضوع عبيرها إلا بالتضحية بالبراعم المبكرة التى تنمو حولها . وفى سنة ١٨٧٢ ، أفاد روكفيلر من منظمة شركة تحسين الجنوب (ساوث امبروفمنت كمبانى) القصيرة العمر ، والتخفيضات المواتية من سكك حديد نيويورك سنترال وإيرى ، فى الحصول على سيطرة كاملة على تكرير النفط فى كليفلاند . وإذ تم له هذا ، انتقل إلى السيطرة على التكرير فى نيويورك وفيلادلفيا وبيتسبيرج . وأنشئت شبكة تسويق عالية الكفاءة ، وأعقبت ذلك السيطرة على خطوط الأنابيب ، ولم ينقض عقد من

الزمن ، حتى كان روكفيلر يمتلك احتكاراً فعلياً لنقل وتكرير البترول . وفى سنة ١٨٨٢ ، برزت شركة استاندارد أويل كأول ترست كبير ، ولقد قضت محاكم أوهايو بحله ، ولكنه سرعان ما قام من جديد كشركة مسيطرة [1] ، تحت قوانين نيوجيرسى الأكثر سخاء ، ومضت فى طريقها دون عائق . ولم يحن عام ١٩٠٠ حتى كان روكفيلر قد نظم فوضى صناعة النفط ، وقضى على معظم منافسيه ، وجمع ثروة أسطورية فى الوقت الذى خفض فيه الأسعار وأقام أعظم احتكار فى البلاد .

وسرعان ما تبعت ذلك ترستات واحتكارات أخرى فى : زيت بذرة القطن سنة ١٨٨٤ ، وزيت الكتان سنة ١٨٨٥ ، وترست القصدير وترست الويسكى وترست السكر فى سنة ١٨٨٧ ، وترست الثقاب سنة ١٨٨٩ ، وترست التبغ سنة ١٨٩٠ ، وترست المطاط سنة ١٨٩٢ . وشرع رجال الأعمال المتحفزون ، يرسمون لأنفسهم مجالات للسيطرة ، مقتفين خطوات كارنيجى وروكفيلر . فقام أربعة من كبار المشتغلين باللحوم المعلبة ، هم فيليب دى . آرمور وجوستافس إف . سويفت بإنشاء ترست للحم البقرى ، وسيطرت شركات ججينهايم على مناجم النحاس فى أريزونا ، ومناجم بوت بولاية مونتانا ، حيث أنتج « أغنى تل فى العالم » ما تناهز قيمته ألفى مليون دولار من النحاس فى ثلاثين عاماً . وكان آل ماكورميك قد أرسوا مكانتهم فى طليعة إنتاج آلات الحصاد ، فلما تعرض مركزهم للتهديد ، أنشأوا تجمعاً هو إنترناشونال هارفيستر كمبانى التى احتكرت هذا الميدان تقريباً ، وأنشأت أسرة ديوك ترست كبيراً للتبغ ، وحدث الأمر ذاته فى : الفضة والنيكل والزنك والمطاط والجلود والزجاج والسكر والملح والبسكويت والسيجار والويسكى والحلوى والنفط والغاز والكهرباء . وقد أظهر إحصاء فى عام ١٩٠٥ أن ٣١٩ ترست صناعياً ، برأس مال تجاوز سبعة آلاف مليون دولار ، قد ابتلعت حوالى ٣٥٠٠ مشروع مستقل سابق ، وأن ١٢٧ مرفقاً للمنفعة العامة (ومنها السكك الحديدية) برأس مال تجاوز ثلاثة عشر ألف مليون دولار ، ابتلعت حوالى ٢٤٠٠ مشروع صغير سابق .

تغيرت بهذا التطور الشامل حياة الإنسان العادى ، لاسيما إذا كان من سكان المدن . فإن كل ما كان يأكله أو يرتديه ، وأثاث بيته ، والأدوات التى كان يستخدمها ،

(١) Holding Company : شركة تمتلك أكبر عدد ممكن من أسهم شركات أخرى لتهيمن عليها ـ المترجم .

ووسائل النقل التى يستعملها كانت فى الغالب من صنع ، أو خاضعة لسيطرة ترستات . فإذا جلس للإفطار كان لحم الخنزير من علب عبأها ترست اللحوم ، وكان الملح الذى ينثره على البيض من صنع ترست متشيجان للملح ، والسكر الذى يضيفه إلى قهوته مكرر بوساطة ترست السكر الأمريكى ، وكان يشعل سيجاراً من صنع شركة التبغ الأمريكى بثقاب من إنتاج دياموند ماتش كمبانى ثم كان يستقل للذهاب إلى عمله دراجة من إنتاج ترست الدراجات ، أو حافلة كهربائية تجرى بتصريح احتكارى ، على قضبان فولاذية صنعها ترست الصلب الأمريكى . ومع هذا ، فمن المحتمل أن طعامه كان أحسن ، ووسائل انتقاله أفضل مما كانت قبل جيل ، أما ما كان أكثر استرعاء لانتباه الإنسان العادى ، فهو أثر الترستات على الحياة التجارية والصناعية فى مجتمعه . فإن الصناعة المحلية ذوت ، وتعطلت المصانع أو اندمجت فى سواها ، والممتلكات مرهونة لدى المصارف أو شركات التأمين الشرقية ، وكان الجيران ــ الذين لم يعودوا يشتغلون لحساب أنفسهم وإنما لحساب شركات مساهمة بعيدة ــ معرضين لتقلبات سياسية لم تكن لهم عليها أى سلطان .

ولم تقتصر عملية التجميع والإدماج على الصناعة والتعدين وحدهما . بل إنها كانت أكثر ظهوراً فى مجالى النقل والمواصلات . فبعد الاتحاد الغربى (ويسترن يونيون) ــ وهو أقدم التجمعات الكبرى عهداً ــ جاءت شبكة بل تليفون ، ثم انتهى الأمر إلى أمريكان تليفون آند تلجراف العملاقة . ولقد رأى الكومودور فاندربيلت ، الشيخ الجبار ، من وقت مبكر أن كفاءة السكك الحديدية تتطلب توحيد الخطوط ، فجمع ــ فى الستينات ــ حوالى ثلاثة عشر أو أربعة عشر خطاً منفصلة فى خط واحد يصل ما بين نيويورك وبفالو ، وحصل فى العقد التالى من الزمن على خطوط شيكاغو وديترويت ، وبهذا ظهرت إلى الوجود شبكة نيويورك المركزية . وكانت ثمة إدماجات أخرى ، وسرعان ما انتظمت معظم الخطوط الحديدية فى البلاد ، فى خطوط رئيسية وشبكات تحت سيطرة فاندربيلت ، وجولد وهاريمان وهيل ، والممولين المصرفيين مورجان وبيلمونت . ولقد جمع إى. إتش. هاريمان خط إللينوى المركزى ، وخطوط يونيون باسيفيك وساوذرن باسيفيك وعدة خطوط أخرى ، وأخذ يحلم بخلق مؤسسة موحدة تشمل البلاد كلها وكان المصرفى جيه. بى. مورجان هو أكثرهم اقتراباً من تحقيق هذا الحلم .

وتصور نهضة بيت مورجان التطور الأخير ، وربما الأهم ، فى عملية التجميع . .

ألا وهو إنشاء ما يسمى الترست المالى . ففى سنة ١٨٦٤ ، عمد جونيوس سبنسر مورجان ــ الذى ظل طويلاً يعمل فى بيع السندات الأمريكية للمستثمرين الأمريكيين ــ إلى تعيين ابنه جيه. بيربونت مورجان على رأس فرع أمريكى لمؤسسته . وإن هى إلا سنوات قلائل حتى أقدم مورجان الشاب على مشاركة البيت المصرفى العريق دريكسيل ، فى فيلادلفيا ، وأصبحت شركة دريكسيل ومورجان آند كمبانى فى سنة ١٨٧٣ من متانة المركز بحيث انشقت على جاى كوك وجددت تمويل الدين القومى بثلاثة أرباع البليون من الدولارات . وأدى فشل جاى كوك ، المدوى فى ذلك العام إلى بقاء بيت مورجان فى مركز متين ، وعندما طرحت بعد سنوات قلائل كمية هائلة من أسهم نيويورك سنترال فى الخارج ، ذاع صيتها . وحدد هذا الارتباط بشركة نيويورك سنترال اتجاه النشاط المالى الأكبر لهذا البيت المصرفى لعشرين عاماً تالية . ظل مورجان طيلة الثمانينات يعيد تنظيم وتمويل السكك الحديدية ، موغلاً بنفوذه على أوسع نطاق فى هذا الميدان الرئيسى . ولقد أدى فزع سنة ١٨٩٣ إلى إلقاء نصف خطوط البلاد الحديدية فى أيدى الحراس القضائيين ، فتحول رجال السكك الحديدية إلى الملاذ الأكبر مورجان لينقذهم من الشدائد . ولقد استجاب لأن الصناعة كانت عالية المكاسب من ناحية ، ولأنه كان لزاماً عليه أن يحافظ على سلامة الأسهم والسندات التى باعها فى الخارج ، من ناحية أخرى . وعندما انقشعت غيوم الفزع أخيراً ، كان نفوذ مورجان وسلطانه يهيمن على أكثر من عشرة من الخطوط الحديدية الكبرى : خطوط نيويورك المركزية والخطوط الجنوبية وخطوط تشيسابيك وأوهايو وسانتافيه وروك أيلاند ، وكثير غيرها .

وفى الوقت ذاته ، امتد نفوذ مورجان وسلطانه إلى ميادين أخرى ، فلم يحن العقد الأول من القرن العشرين ، حتى ندر أن يوجد مشروع كبير لم يكن بيت مورجان يفرض عليه نفوذاً حاسماً . كان قد قدم الأموال لشركة الصلب الاتحادية (فيدرال ستيل) ، وإبرام الاتفاقية الضخمة التى أدت إلى شركة الولايات المتحدة للصلب (يونايتد ستيتس ستيل) . وكان قد جمع مصانع الأجهزة الزراعية المتنافسة وصاغ منها شركة إنترناشونال هارفيستر . وكان قد نظم الملاحة الأمريكية فى شركة الشحن البحرى الدولية المنكودة الحظ (إنترناشونال ميركانتيل مارين كمبانى) ، وساعد على تمويل جنرال إليكتريك ، وأمريكان تليفون آند تليجراف ، ونيويورك رابيد ترانسيت كمبانى ، وأكثر من عشرة مرافق ضخمة أخرى . ولقد تبينت لجنة من الكونجرس فى سنة ١٩١٢ ، أن البيوت

المصرفية التى هيمن عليها نفوذ مورجان وليم روكفيلر كانت تسيطر على ٣٤١ إدارة فى السكك الحديدية والملاحة والمرافق والمصارف وشركات النقل السريع والفحم والنحاس والحديد والصلب والتأمين ، بلغ مجموع مواردها المالية اثنين وعشرين بليون دولار . وقد قال وودرو ويلسون فى شىء من البلاغة : إن أكبر احتكار فى هذه البلاد هو احتكار المال .

ما الدلائل التى كانت لنمو التجمعات وقيام الترستات ؟ لقد خلقت نظاماً من الملكية الغيابية أبعد مدى من أى شىء عرف فى التاريخ الأمريكى حتى ذلك الحين ، فكانت شركات نيويورك المساهمة تمتلك وتدير ممتلكات شاسعة من الفحم والنحاس والحديد والخشب والسكك الحديدية . وركزت فى أيدى نفر قليل من الرجال سلطاناً على أقدار ملايين من الناس يفوق ما كان فى أيدى كثيرين من الملوك . وبذلك تركز ما للأمة من سيطرة اقتصادية فى قطاع صغير من الشمال الشرقى ، مما أدى إلى خلق قطاعية ــ أو إقليمية ــ جديدة حلت محل القديمة . وفصل هذا النظام الملكية عن الإدارة ، فاستقرت الأولى فى عشرات الآلاف من حملة الأسهم الذين لم يؤتوا نصيباً يذكر من الشعور بالمسئولية ، ولا كانوا يعرفون شيئاً عن السياسات المالية أو سياسات العمالة فى شركاتهم . كما خلق تجمعات لرأس المال لها من المقدرة ما يمكنها من التأثير على سياسات الولايات ، بل وعلى الهيئات التشريعية القومية ، سواء فى الشؤون الخارجية أو الداخلية . ولامراء فى أنه قضى على المنافسة المحتدمة ، وحقق قدراً أكبر من الكفاءة ، وجاد بالأموال للتحسينات والبحوث اللازمة ، ويسر الإنتاج الكبير وخفض الأسعار . ولكن هذا كله كان بثمن باهظ ، حتى ألمَّ المجتمع بضرورة التنظيم المقنن وأساليبه .

الحكومة تتدخل

كان آندرو كارنيجى يصف هذا كله بأنه « الديمقراطية المظفرة » . وكان غيره على استعداد لأن يقروا بأنها مظفرة ، ولكنهم لم يكونوا مطمئنين البتة أنها ديمقراطية . والواقع أنهم بدأوا يرتابون فى مقدرة الديمقراطية على البقاء ، وهم يتلفتون حولهم فيرون شطراً

كبيراً من الموارد الطبيعية والصناعات والسكك الحديدية والمرافق الأخرى ، تخضع لإشراف يرمى إلى درّ الربح على حفنة من الرجال . وإذا التكاليف الباهظة والتفرقة والأراضى التى كانت السكك الحديدية تغتصبها بنفقات إجمالية ، وسوء تصرفات روكفيلر وكارنيجى وغيرهما فى القضاء على منافسيهم ، والسلطان الضارى الذى كانت كثير من الشركات المساهمة العملاقة تخضع بها العمال ، واستئثار الترستات بما يوفره العلم والاختراع من أموال ، ومشهد عملاء الشركات المساهمة وهم يضغطون سياسياً لإجازة القوانين المواتية لها فى المجالس التشريعية للولايات ، وبحث محامى الشركات المساهمة عن الثغرات فى قوانين الضرائب أو لوائح التنظيم فى الولايات ــ كل هذه أثارت جزعاً وذعراً واسعى النطاق .

ولقد كانت الاحتكارات منافية للقانون العام من عهد بعيد ، فتضمنت دساتير كثير من الولايات مواد تحرم وجودها . غير أن هذه التحريمات الدستورية . كانت عديمة المفعول تماماً ، فى الوقت ذاته . ولقد سنت كثير من الولايات ، خلال الثمانينات ، قوانين أشد تقيداً ، ضمنتها مجموعاتها القانونية الأساسية ، بل إن بعضها ذهبت إلى حل الترستات ذات السجل المريب بدرجة ملموسة . بيد أنه كان من الممكن لأى ترست يُحل فى ولاية من الولايات أن يتكون فى ولاية أخرى ، تكون القوانين فيها أكثر تساهلاً ، فتواصل العمل فى عين وضعها الأولى ، ومن الواضح أن الأمر كان يتطلب قوانين منظمة على مستوى الاتحاد لا على مستوى الولاية .

ولقد أنذر المليونير الفيلسوف بيتر كوبر ــ المرشح للرئاسة فى قائمة حزب الدولارات الخضراء الظهر [1] ــ من وقت مبكر ، يرجع إلى سنة ١٨٧٦ بأن الخطر الذى يتهدد نظمنا الحرة حالياً ، لا يفوقه شيء سوى بوادر عصيان مدنى . ففى هذه البلاد ظواهر تكوّن سريع لأرستقراطية الثراء ، وهى أسوأ أشكال الأرستقراطية التى يمكن أن تحيق لعنتها برخاء أية دولة . وخبا القلق بعودة الرخاء فى أواخر السبعينات ، غير أن البلاد عادت إلى التوجس من الترستات مرة أخرى ، فى الثمانينات . فلم تحن سنة ١٨٨٤ حتى ظهر حزب مناهض للاحتكار ، بيد أنه لم يجتذب سوى أصوات ضئيلة ، فى غمرة القلق

(١) حزب سياسى أنشئ سنة ١٨٧٥ للعمل على إلغاء قانون التعويض عن الدولارات الخضراء الظهر بقيمتها الاسمية ابتداء من أول يناير سنة ١٨٧٩ ــ المترجم .

من احتمال عودة الديمقراطيين إلى الحكم . وإن هى إلا أربع سنوات أخرى ، حتى نبه البلاد إلى الخطر قيام عدد من الترستات الكبرى . فأبلغ الرئيس كليفلاند الكونجرس أن الشركات المساهمة ، التى يجب أن تكون خاضعة لقيود القانون المفروضة بحرص ، والتى يجب أن تكــون فى خدمـة الشعب ، تتحـول بسرعـة إلى سادة مسيطرين على الشعب ، ومضى الحزبان الرئيسيان يتنافسان فى معارضة الاحتكارات فى أى شكل من أشكالها .

وتمثلت أولى نتـائج هذا الانفعال كله ، فى القوانين المنظمة للسكك الحديدية . إذ كان المـزارعـون قد أثـاروا ضجيجـاً ، منـذ السبعينـات ، ضد احتكـار السكـك الحديدية ، متهمين إياه بفرض أجور شحن باهظة عليهم ، وبسوء الخدمة ، وبالاستئثار بملايين من الدونيات وحرمان سوق المضاربات منها . واستجابة للمنظمات الزراعية ، مثل جرانج ، ضمّنت ولايات الغرب الأوسط قوانينها الأساسية لوائح تحد من الرسوم التى يجوز للسكـك الحـديدية والطرق أن تفرضها ، وتحرم إجراءات من قبيل الحسم (الخصم) وفئـات الرسوم الخاصة لشركات الملاحة ذات الحظوة ، وفرض رسوم على النقـل لمسـافات قصيرة تزيد على ما يفرض للمسافات الطويلة على الطريق الواحد ، وإعفاءات المرور . وتعرض هذا التشريع على الفور للتحدى من السكك الحديدية ، بحجـة أنـه حرمها من حقوق التملك « دون الإجراء القانونى اللازم » ، وأنه تعدى سيطرة الكونجرس على التجارة بين الولايات .

وعـززت المحـاكم تشريعـات الـولاية ، فى سلسلة من الأحكـام الرائعة فى سنة ١٨٧٧ ، لاسيما فى قضية مَنّ ضد ولاية إلليـنـوى ، على أسـاس أن أية ملكية تتعلق بالصالح العام أو تخصص للاستخدام العام ، تخضع للوائح تضعها الحكومة . بيد أن موقف المحاكم كان مبهماً إزاء عدوان الولايات على مجال اللوائح التنظيمية الاتحادية . غير أن الأحكام أوضحت ، فيما بعد ، أن الولايات لا تمتلك أن تمس التنظيم التجارى إذا كان له أى طابع متبادل بين الولايات ، وإن كانت تملك تنظيم التجارة ذات الطابع المحلى المحض . إذ كان التنظيم الأول خاضعاً لسيطرة الحكومة القومية . ولما كان معظم التجارة مشتركة بين الولايات ، فقد أدى هذا إلى إحالة الموضوع بأكمله للكونجرس .

ورد الكونجرس على ذلك بقانون سنة ١٨٨٧ للتجارة المشتركة بين الولايات . وكان هذا القـانـون يرمى إلى إنقاذ السكك الحديدية من النتائج السيئة لحرب فئات أجور

الشحن وفئات الحسم بقدر ما استهدف حماية الجمهور ، وحرم اتفاق الشركات لغير صالح الجمهور ، وعمليات الحسم ، والتفرقة فى فئات الأجور أو الخدمات ، وطالب بأن تكون كل الأجور عادلة ومعقولة . وكان النص على إقامة لجنة للتجارة المشتركة للإشراف على تنفيذ القانون ، أهم من هذه التحريمات والمتطلبات المبهمة إلى حد ما . وكانت هذه أولى لجان إدارية كثيرة قدر لها أن تبلغ من الأهمية ما جعلها تتحول إلى قسم رابع من أقسام الحكومة . ولقد ظل قانون التجارة المشتركة بين الولايات غير ذى فاعلية زمناً طويلاً ، غير أن عدداً من القوانين الجديدة ـ مثل قانون إيلكنز فى سنة ١٩٠٣ ، وقانون هيبيرن سنة ١٩٠٦ ـ اشتملت على مزيد من الشدة لتنفيذها بوساطة اللجنة والمحاكم ، جاءت فى الوقت المناسب لاجتثاث أسوأ التصرفات التى كانت السكك الحديدية تمارسها ، ولإقرار إشراف فعال على فئات الأجور والخدمات .

كانت مهمة التنظيم القانونى للسكك الحديدية بسيطة نسبياً ، إذا قورنت بتقنين اللوائح المنظمة للترستات . ولعل الصعوبة الرئيسية كانت ترجع إلى بلبلة العقلية الأمريكية وليس إلى اتساع وتعقد الصناعة والتجارة ، إذ كان الأمريكيون يخشون المشروعات الكبيرة ، ولكنهم كانوا يعجبون بها كذلك . فكانوا يبغون حماية أنفسهم من أخطار الاحتكار ، ولكنهم كانوا يرجون كذلك الاستمتاع بفوائد الإنتاج الكبير ، والقضاء على ازدواج التكلفة . كانوا يؤمنون بالتنظيم المقنن الحكومى للمشروعات ، ولكنهم كانوا يؤمنون بنفس الحرارة بفضائل المشروعات الخاصة ، والروح الفردية الصارمة . فكان ما يسعون إليه فى الواقع ، هو تطهير الترستات وليس سحقها . وفى هذا ، قال الرئيس ثيودور روزفلت فى إحدى رسائله عن الترست ، فى وقت لاحق :

> ليس هدفنا القضاء على الشركات المساهمة ، بل العكس هو الأصح ، فهذه التجمعات الكبيرة جزء ضرورى من فلسفتنا الصناعية الحديثة . . فنحن لا نهاجم الشركات المساهمة وإنما نسعى إلى محو أى سوء فيها .

ولقد ألهمت مشكلته هذه معلّق الأمة الساخر بيتر دن تعليقاً فكهاً : « الترستات وحوش هائلة ، تنشئها المشروعات المستنيرة لرجال بذلوا الكثير لدفع عجلة التقدم فى بلادنا الحبيبة . فأنا ـ من ناحية ـ أود أن أدهسها بقدمى ، ولكن بدون شدة ، من ناحية أخرى » .

وكان هذا يمثل الموقف فعلاً . . بدون شدة . ولم يقس الكونجرس حقاً ، وإذا اتضح أن الولايات ما كانت لتستطيع أن تتغلب وحدها على مشكلة الترست ، فقد اضطر الكونجرس إلى العمل . فإذا قانون شيرمان المناهض للترست ــ فى ١٨٩٠ ــ يقضى بعدم قانونية جميع العقود أو التجمعات أو المؤامرات المعرقلة للتجارة والاحتكارات كافة . وكان الافتراض الشائع أن هذا التشريع كفيل بأن يهب الحكومة إدارة للسيطرة على الشركات المساهمة العملاقة ، مثل استاندارد أويل ، والتجمعات التى من قبيل ترستات الويسكى والسكر . على أن المحاكم أوقفت الحكومة عندما حاولت ، فى ضعف ، أن تحل احتكارات مثل ترست السكر ، فمضت فى طريقها مبتهجة . وقال دن الذى لا سبيل لكبح سخريته : « إن ما يبدو لرجل الشارع جداراً من الحجر ، يكون بالنسبة للمحامى قوس نصر » . وكان هذا الخذلان القضائى من الضخامة بحيث أن العقد الذى تلا قانون شيرمان شهد تكون بعض من أكبر الترستات وأسوأها سمعة .

وعند تكوين شركة الصلب فى الولايات المتحدة ، انفجرت عاصفة الاستهجان من الرأى العام . وانهالت سيول النقد من الصحافة ومنابر النقاش . وبيعت عشرات الآلاف من كتب مثل كتاب إيدا تاربيل المسمى « تاريخ شركة استاندارد أويل » ، وكتاب رسل « أعظم ترست فى العالم » (ترست اللحوم) ، فى حين أن فضائح خطايا المشروعات الكبيرة ملأت المجلات الشعبية الجديدة مثل مجلة « ماكليور » و« إيفريبودى » و« كوليير » ، وشقت طريقها إلى صفحات الصحف المحترمة القديمة . وبلغ من انتشار النقد وعنفه أن العقد الأول من القرن العشرين سمى « عهد مروِّجى الفضائح » .

كانت المطالبة بمزيد من الكفاءة فى فرض القوانين المناهضة لنظام الترست أقوى من أن تقاوم ، فاستجاب ثيودور روزفلت بتحمس ، وقال : « سنفرض القوانين المناهضة للترست إلى أبعد ما تذهب إليه ، وإذا رفع الأمر إلى القضاء ، فلن يكون هناك تراض إلا على أساس فوز الحكومة » . ولدهشة وول ستريت (حى المال) ، أصدر رئيس الجمهورية تعليماته إلى المدعى العام لحل تجمع السكك الحديدية عبر نهر المسيسيبى ، الذى كان من تكوين أقطاب السكك الحديدية الثلاثة : مورجان ، وهاريمان ، وهيل . . كما أفلح فى قضية نورذرن سيكيوريتيز كمبانى . وأعقب ذلك بسرعة العمل ضد ترست تعبئة اللحوم ، وترست التبغ ، وشركة استادندارد أويل ، وخرجت الحكومة من كل قضية مظفرة .

غير أن هذه الانتصارات كانت دوياً مثيراً للمشاعر أكثر منها مكاسب مادية . فما إن حُلت الاحتكارات الكبرى حتى وجدت العناصر المكونة لها طرقاً أخرى للحفاظ على تنظيم لمصالحها المشتركة . ولم يفعل روزفلت شيئاً لتعزيز القوانين المناهضة للترست ، فيما عدا إنشاء مكتب الشركات المساهمة ليستخدم أكفأ استخدام « النشر فى غير إشفاق » لسوء تصرفات الشركات المساهمة . وبالرغم من نجاحه فى المحاكم ، واستنكاره العلنى « للأشرار ذوى الثراء الكبير » ، فإنّ الترستات كانت عند مغادرته منصبه أقوى منها حين تولاه . ومن الواضح أن جون دى. روكفلر كان على صواب حين قال : « إن التجميع وجد ليبقى ، فقد ولت الفردية ، إلى غير رجعة » .

الفصل ١٥

العمالة والهجرة

العامل واستخدامه

أدى استغلال موارد البلاد الغنية ، وإدخال الآلة فى الصناعة ، وقيام الاحتكارات ، إلى تدفق سيل لا ينقطع من الثروة فى أيدى مجموعة صغيرة من رجال الأعمال البعيدى النظر ، وعدد أكبر من المستثمرين ذوى الذكاء الحاد . غير أنه لم يعد بكسب كبير على العمال الذين كان الكدح كله من نصيبهم . فلقد كان العمل من العوامل الأساسية فى نمو المشروعات الكبيرة ، ولكنه عند تقسيم الأرباح كان يلقى إغفالاً مزرياً . كذلك كان يهمل عند توزيع المكآفات الاجتماعية . فنادراً ما كان العمال يعيشون فى الوضع الصحيح ، ولم يكونوا يدعون إلى الالتحاق بمنتديات الضواحى ، كما كان زعماؤهم يلقون تجاهلاً من الكليات والجامعات التى كانت تغدق الشهادات الفخرية على أصحاب رأس المال فى كل عام . كان خليقاً بموارد الثروة الجديدة أن تؤدى إلى مزيد من التوسع فى توزيعها ، ولكن تحقيق هذا استغرق زمناً طويلاً . وكان خليقاً باستخدام الآلات التى تقتصد فى العمل أن يؤدى إلى إنقاص ساعات العمل ، بيد أن هذا أيضاً ظل غاية مثالية استغرق تحقيقها أمداً طويلاً . وكان خليقاً بالعلم أن يكفل

للعمال أحوال عمل أكثر متعة وأمناً ، غير أن معظمهم استمر يعمل فى مصانع حارة ، حافلة بالضجة ، سيئة التهوية ، أو محاطين بالأخطار فى المناجم والمحاجر ، وكان نصيبهم من حوادث وأمراض الصناعة فى ارتفاع مخيف عاماً بعد عام . كان نصيب العمال لا يحسد ، إذ كانوا يكتظون فى الأحياء الفقيرة من المدن الكبيرة ، معرضين للضائقة الاقتصادية والبطالة ، متنافسين مع جحافل العمال غير المهرة المتدفقين من الخارج أو من الجنوب . كما أنهم لم يجدوا أن تحسين أحوالهم سهل ، إذ كان تنظيم صفوفهم والإضرابات موضع اشتباه ، لم يكن للكادحين ممثلون فى المجالس التشريعية والكونجرس سوى نفر قليل .

والواقع أن بعض التطورات التى أسهمت أكثر من سواها فى نمو أمريكا الصناعية ، كانت ضرراً أكيداً للأيدى العاملة . وبوسعنا أن نتناول اثنين منها فى إيجاز ، ألا وهما : إدخال الآلة على الصناعة ، وقيام الشركات المساهمة . فإن إدخال الآلة (الميكنة) عمل على تخفيض معايير العمل ، والمهارات التى اكتسبها العمال بعناء لم تعد تحتفظ بقيمتها القديمة ، إذ أنه كان بوسع الآلة أن تصنع معظم الأشياء ــ التى كان الحرفيون يصنعونها ــ بأداء أفضل ، وأرخص ، وأسرع . مما قضى إلى حد كبير على ما للمهارة الحرفية من غريزة إبداعية ، فانحدر العمال إلى مجرد جزء من عملية ميكانيكية ، إلى ممارسين آليين يؤدون عملية رتيبة ، وقاتلة للحيوية ، فى كل دقيقة من اليوم . وقد وصف أبتون سينكلير هذا فى روايته « الدغل » قائلاً :

> كان كل جزء من مئات الأجزاء فى أية آلة للحصاد يصنع على حدة ، ويتداوله أحياناً مئات من الرجال . وكانت فى المكان الذى يعمل فيه يورجيس آلة تقطع وتسوى قطعة معينة من الصلب ، مساحتها بوصتان مربعتان تقريباً ، فكانت القطع تنهمر على صحفة ، وكان كل ما على تلك الأيدى البشرية أن تفعله هو أن تصفها فى صفوف منتظمة ، وتبدل الصحاف من وقت إلى آخر . وأصبح صبى واحد يؤدى ذلك ، فيقف وقد تركزت عيناه وأفكاره عليها ، بينما تعمل أصابعه بسرعة بالغة ، حتى إن أصوات ارتطام هذه الرقاع الفولاذية بعضها ببعض كان أشبه بموسيقى القطار السريع كما تبدو لأذن المرء فى إحدى مركبات النوم ، بالليل . . كان يتناول ثلاثين ألفاً من هذه القطع يومياً ، أى تسعة ملايين أو عشرة فى كل عام . . والله وحده يعلم كم قطعة فى مدى عمره . وعلى مقربة منه ، كان

ثمة رجل يجلس عاكفاً على مجلخة (حجر الشحذ) دائرة ، ليضيف اللمسات الأخيرة على السكاكين الفولاذية لآلة الحصد ، فيلتقطها من سلة بيده اليمنى ، ويضغط أحد الجانبين أولاً ، ثم الجانب الثانى على الحجر ، ثم يسقطها آخر الأمر بيده اليسرى فى سلة أخرى . وقد قال أحد هؤلاء الرجال ليورجيس إنه ظل ثلاثة عشر عاماً يشحذ ثلاثة آلاف قطعة فولاذية كل يوم .

كذلك كانت الآلة تتجه إلى اغتصاب مكان العامل فى الاقتصاد الصناعى . كانت تمثل استثماراً مالياً هائلاً ، وبوسعها أن تعمل أربعا وعشرين ساعة فى اليوم ، طيلة أيام الأسبوع السبعة ، فانتهى بها الأمر إلى أن تحدد أحوال العمل ، فإن ضرورة استبقاء الأفران مشتعلة باستمرار كانت حقيقة حاسمة فى استبقاء يوم العمل اثنتى عشرة ساعة ، فى صناعة الحديد والصلب ، لمدة نصف قرن . وأخيراً ، فقد كانت الآلة من العوامل المسئولة عن قدر كبير من البطالة . وقد يكون من الصحيح أن الآلات خلقت ــ آخر الأمر ــ من الأعمال أكثر من تلك التى قضت عليها ، بيد أن الفائزين بالأعمال الجديدة لم يكونوا دائماً نفس الذين فقدوا القديمة ، فكانت ثمة فترات من العوز الأليم تسبق عادة عثور العمال القدامى على عمل جديد . فالبطالة على نطاق واسع من نتاج عصر الآلة .

كذلك كثيراً ما كان نمو الشركات العملاقة فى غير مصلحة الأيدى العاملة . ذلك لأن الصناعة الصغيرة كانت وثيقة الصلات بعمالها وبالوسط الذى تقوم فيه . فكان بوسع العمال أن يتساوموا مع مخدوميهم المحليين بنجاح يفوق نجاحهم فى مساومة هيئات بعيدة عنهم وليست ذات شخصية مجسدة ، وقد أجاد ثيودور روزفلت فى وصف هذا بقوله :

. . . كانت العلاقات القديمة المألوفة بين المخدوم والمستخدم لديه فى طريقها إلى الزوال . فقبل بضعة أجيال ، كان المخدوم يعرف كل رجل فى حانوته ، وينادى رجاله بأسمائهم : بيل ، توم ، ديك ، جون . . . ويسأل عن زوجاتهم وأطفالهم ، ويتبادل معهم الفكاهات والقصص ، وربما بعض من التبغ . كانت ثمة علاقة إنسانية ودية بين المخدوم والمستخدم فى المؤسسة الصغيرة .

ولم تكن ثمة علاقة من هذا القبيل بين كبار أقطاب السكة الحديدية ، الذين كانوا يسيطرون على صناعة الفحم (الأنتراسيت) ، والمائة والخمسين ألفاً من الرجال الذين

يعملون فى مناجمهم ، أونصف مليون من النساء والأطفال الذين كانوا يعتمدون على عمال المناجم هؤلاء فى عيشهم .

ولقد قال أحد أصحاب المصانع فى نيو إنجلاند بإيجاز بليغ ، فى شهادة أدلى بها أمام إحدى لجان الكونجرس : « إننى لا أوجه كلاماً إلى العمال قط ، إنما أوجه كلامى إلى مراقبى العمال » .

وهناك عدة عوامل أخرى أثرت على رفاهية العمال ، وانفردت بها الولايات المتحدة . وأولها انتهاء الأرض الخصبة الرخيصة بعد الحرب الأهلية بجيل أومايقرب من الجيل . ومن المبالغة أن يقال إن الغرب كان « صمام أمن » بالنسبة لتذمر الأيدى العاملة ، أوملاذاً لكثير جداً من العمال . ولكن من الجلى أن الأرض التى ظلت مباحة جيلين أو ثلاثة امتصت فائض السكان فى الريف والقرى ، بل والمدن ، فضلاً عن المهاجرين الوافدين من الخارج . ولوأن المهاجرين الذين وفدوا فيما بين سنتى ١٨٥٠ و ١٨٧٠ ، وعدتهم خمسة ملايين ، أقاموا جميعاً فى المدن الصناعية فى الشرق ، بدلاً من أن ينتشروا فى أرجاء البلاد ، لكان وضع المال أسوأ مما صار إليه فعلاً بكثير . وبارتفاع نفقات الزراعة واختفاء الأرض الخصبة الرخيصة ، عمد فائض السكان إلى البقاء فى المناطق الصناعية . ولم تعد الزراعة بديلاً عملياً للعمل فى المصنع . فلم يعد فى وسع العامل أن ينجو من مشكلات المجتمع الصناعى ، بل اضطر إلى أن يواجهها مباشرة .

وهناك عامل آخر ، تختص به الولايات المتحدة دون الدول الصناعية ، هو استمرار الهجرة غير المقيدة . ففى الأربعين عاماً ، من ١٨٧٠ إلى ١٩١٠ ، تدفق على البلاد ما يزيد على عشرين مليون نسمة . وكان معنى هذا ، حتى إذا استبعدنا النساء والأطفال وقد كان كثيرون منهم يعملون ، أن عدة مئات من الآلاف كانوا ينضمون إلى صفوف العمال فى كل عام ، تواقين للعمل فى المصانع والمناجم ، بأى أجر ، وفى أية أحوال تقريباً . وما كانت هذه هى المزاحمة الوحيدة التى واجهت عمال الشمال . فبعد نهاية القرن التاسع عشر ، وفد من الجنوب مئات الآلاف من الزنوج الأشداء ، متأهبين ليتخذوا لأنفسهم مكاناً بجانب البولنديين والإيطاليين والمجريين . ولم يكن أى وافد جديد من الخارج أومن الجنوب يحل محل عامل من الموجودين ، فقد كانت ثمة أعمال للجميع فى أوقات الرواج ، وكان الوافدون يدفعون العمال المحليين إلى القمة بنفس

القدر الذى كانوا يزيحونهم به عن أعمالهم ، ومع ذلك فقد ظل الاتجاه العام لهذه الحركة الكبيرة لسنوات عديدة ، هو دفع الأجور إلى الانخفاض ، وهبوط المعايير والمستويات ، وتفكك نقابات العمال .

وهناك عامل ثالث ، تنفرد به الولايات المتحدة هو الأخر ، هو وجود اقتصاد قومى ونظام سياسى اتحادى ، جنباً إلى جنب . فكانت مشكلات العمال ــ فى صناعة الفحم ، فى مصانع المنسوجات ، فى مصانع الحديد والصلب ــ واحدة إلى حد كبير فى الأمة بأسرها ، غير أن سلطة علاجها كانت مقصورة على الولايات وحدها ، إلى سنوات جد قريبة . كانت المنافسة تشمل الدولة كلها ، ولكن حق التقنين المنظم للأجور وساعات العمل كان على نطاق الولاية فقط . فكان من الممكن أن يكسب العمال تنازلات فى صناعة النسيج فى نيو إنجلاند ، أو مصانع الثياب فى نيويورك ، فإذا بها تتلاشى نتيجة انتقال هذه المصانع إلى ولايات تكون القوانين فيها أقل تشدداً . ولقد تغير هذا كله قطعاً ، بعد البدء فى التشريع الشامل الجديد . إذ وجدت الحكومة الاتحادية طرقاً لفرض السيطرة القومية على ميدان العلاقات الصناعية بأكمله .

بقى اعتبار أخير جدير بالانتباه ، هو : الارتياب العميق الذى داخل كثيراً من الأمريكيين نحو النقابات ، وعدم استعدادهم لمعالجة مشكلات العمال بعين العطف الذى كانوا يولونه مشكلات الصناعة . وتذكر ليليان والد ، رئيس بيت لتسوية المشكلات معروف فى نيويورك ، أنه فى سنواتها الأولى فى الحى الشرقى كان يخشى من نقابات العمال ، « شأنها شأن الاشتراكيين فيما بعد ، والشيوعيين حالياً » .

وطبق قانون شيرمان لمناهضة الترستات لأول مرة ، وبأكبر قدرة من الفعالية بالنسبة للعمال : وكان هذا أمراً نموذجياً فى الموقف كله . إذ أن كثيرين من الأمريكيين كانوا يرون ، إلى سنوات قريبة ، أن التجمع فى الصناعة والتجارة فكرة سليمة ، ولكنهم كانوا ينظرون إلى تجمع العمال بغير رضى . كانوا يسلمون باشتراك التجارة والصناعة فى الأمور السياسية ، ولكنهم يرون أن من المنافى للروح الأمريكية أن يفعل العمال ذلك . . كانوا يحبذون مساعدة الحكومة للصناعة ، ولكنهم كانوا يصرون على أن مساعدة الحكومة للعمال عمل اشتراكى أو خضوع لجماعات الضغط . . كانوا يعتقدون بأن للمستثمرين حقاً طبيعياً فى عائد طيب لاستثماراتهم ، ولكنهم كانوا يرون أنه ليس للعامل أى حق فى أى عائد لعمله اللهم إلا ما يستطيعون انتزاعه من صاحب العمل ، وأن البطالة أمر من

عند الله . وقد تغيرت هذه المواقف عندما أصبحت الأمة على دراية بمشكلات التصنيع الحديث ، غير أنها تلكأت زمناً طويلاً كان كافياً لإقامة عراقيل فى طريق تنظيم العمال .

على أنه ليس لنا أن نستخلص من هذا صورة بالغة القتامة لأحوال العمل خلال الحقبة الصناعية . فقد كان ثمة عمل كاف ــ فى الأغلب ــ للأيدى الراغبة فى العمل ، وأجور عالية بدرجة تمكن من إعالة الأسرة فى قدر من الغذاء والكساء والمأوى ، وإن كانت غير ملائمة تماماً . لم تكن فى الولايات المتحدة طبقة عاملة بالمعنى الذى كانت توجد به فى كثير من الدول الأوربية ، بينما الفرصة متوفرة دائماً للانتقال من عمل إلى عمل ، بل ومن فئة من فئات الدخل إلى أخرى ، وقد علق إنجليزى زار الولايات المتحدة عقب الحرب الأهلية مباشرة على ذلك فقال بألمعية ثاقبة :

> يحتل العامل فى هذه البلاد وضعاً يختلف جداً عن وضع الفرد من عين طبقته فى بلادنا ، فإن له إذا توفرت الأسباب أن يذهب حيث يشاء دون حاجة إلى شهادة بحسن السير والسلوك فى جيبه . والواقع أنه كان من المسموح به فى العرف الاجتماعى لمن يبحث عن عمل أن يطلب من المخدوم الذى يتقدم إليه شهادة بنفس ما كان مسموحاً لصاحب العمل أن يطلب منه . فإن العامل فى مثل هذه الأمور على قدم المساواة مع مخدومه . . لقد أتيحت لهذه البلاد ميزة نادرة ، ميزة الارتقاء إلى العظمة القومية دون أن تضطر لاجتياز محنة الإقطاع ، أو أن تتعثر فى تقدمها بفضل النفوذ الجائر المنبعث عن الكرامة الطبقية .

ولقد قدر لعلماء الاجتماع اللاحقين أن يكتشفوا أنه كانت ثمة طبقات فى الولايات المتحدة فعلاً ، وأن يميزوا بجلاء بين طبقة وسطى ، وطبقة وسطى عليا ، وطبقة وسطى دنيا . بيد أن المجتمع الأمريكى لم يكن فى يوم من الأيام مقسماً إلى طبقات تفصل بينها حواجز جامدة ، كما كان المجتمع الأوربى . فلم تكن ثمة فواصل أو فوارق قانونية ، ولم تكن أية طبقة تنم عن نفسها بلهجة ، أو باتباع مناهج دينية ، وكان المجتمع المفتوح يوفر سهولة نسبية للفرد الأكثر إقداماً كى ينتقل من طبقة إلى أخرى ، ولقد مكن التعليم العام المجانى أبناء العمال من الارتقاء فى دنيا الأعمال أو المهن ، وكان الانتخاب سلاحاً قادراً يستطيع به العامل ، إذا ما استثير الإثارة الصحيحة ، أن يضطر المشرعين إلى إجازة قوانين فى صالحه .

فى الاتحــاد قــوة

لم يغفـل العـمال إدارك الإمكـانـات المعنوية لتنظيم المشروعات . ولقد قامت نقابات للعمال ، بشكل من الأشكال ، منذ الأيام الأولى لقيام الجمهورية ، ولكنها فى الغالب كانت محلية وضعيفة . وفى الخمسينات أنشىء عدد من النقابات الحرفية القوية ، كانت الطباعية أقدمها وأهمها . غير أن هذه النقابات لم تضم سوى نسبة ضئيلة من الطبقة العاملة ، وقد اختفى كثير منها خلال إعادة التنظيم والضائقة السوداء التى أعقبت فترة الفزع فى سنة ١٨٧٣ .

وظهرت فى سنوات ما بعد الحرب ثلاثة أنواع من التنظيمات العمالية . أولها النقابة الصناعية ، وكان فرسان العمل خير مثل لها . والثانى النقابة الحرفية وما تبعها من إدماج النقابات الحرفية فى اتحاد العمل الأمريكى . أما النوع الثالث فكان جماعات الاشتراكيين المتـطرفـين (الراديكاليين) أو الجماعات العمالية الثورية ، التى لم تكن ذات أهمية من حيث العدد ، ولكنها كانت صامدة . ولم يقدر لأى من هذه التنظيمات أن يضم أغلبية من العمال الأمريكيين قبل أواخر الثلاثينات من القرن العشرين . فقد ظلت قطاعات كبيرة من القوى العاملة ــ عمال الزراعة ، والعمال المتنقلين (التراحيل) والعاملين فى البيوت ، والمستخدمين ذوى الرواتب (ذوى الياقات البيضاء) ــ خارج دوائر التنظيم .

وكان أهم وأطرف التنظيمات العمالية الأولى ، جماعة فرسان العمل السامية ، التى أنشئت سنة ١٨٦٩ ، ولكن تاريخها الحقيقى يبدأ من سنة ١٨٧٩ ، عندما أصبح تيرنس باودرلى المعلم الأعظم . وكانت أبرز صفات الفرسان المميزة هى ديمقراطيتها ونظرتها التطلعية الاجتماعية والاقتصادية العريضة . فقد كانت مباحة لجميع العمال ، مهرة وغير مهرة ، مزارعين وعمال مصانع ، وعمال مناجم ، وحرفيين يدويين ، فلم تحرم إلا على المقـامـرين ، وأصحـاب الحانات ، ورجال المصارف ، والمحامين ، وسماسرة الأوراق المـالية ! وكـانت غايتها أن « تحقق للكادحين نصيباً مناسباً من الثروة التى يخلقونها ، ومزيداً من وقت الفراغ الذى يحق لهم قانوناً ، ومزيداً من الميزات الاجتماعية . . جميع الحقوق والامتيازات اللازمة لجعلهم قادرين على الاستمتاع . . . وبالحكم الصالح ، وتقـديره ، والـذود عنـه ، والإبقـاء عليه » . وما كانت هذه الأغراض البراقة لتُحقَّق بالإضرابـات أو بالعنف ، وإنما بالإثارة السياسية ، والتعليم ، والتعاونيات العمالية .

كان برنامج الفرسان متطرفاً ، ولكنه براق : يوم عمل من ثمانى ساعات ، وإلغاء تشغيل الأطفال ، والملكية العامة للمرافق ، وضرائب على الدخل والتركات ، وإصلاح زراعى بإعادة توزيع الأرض . ولم يكن الجمع بين المثالية الحالمة والإقناع المهذب لتحقيق التغيرات الاقتصادية المتطرفة (الراديكالية) ذا فاعلية ، بيد أن الفرسان استطاعوا أن يحرزوا توفيقاً حقيقياً عندما لجأوا إلى الإضرابات بعد سنة ١٨٨٥ . فقد ازداد عدد أعضائها بطفرات واسعة ، فلم ينقض عام حتى كانت تزهو بأنها تضم سبعمائة ألف عضو . وفى نشوة النجاح ، أيدت إضراباً عاماً سيىء التخطيط ، من أجل جعل يوم العمل ثمانى ساعات . وقد ساعد الإضراب فى شيكاغو على الإيحاء باجتماع كبير فى ميدان هايْمارِكت ، ألقى فيه فوضوى مجهول قنبلة أودت بكثير من رجال الشرطة . ومع أن الفرسان لم يكونوا مسئولين عن العدوان البشع ، فإن الرأى العام ربط بينهم وبينه . وأدى هذا ، بجانب إخفاق عديد من الاضطرابات ، والعنف الكامن فى التنظيم ، إلى انهيار الجماعة ، حتى إذا ارتبط الفرسان بالحزب الشعبى ، فى سنة ١٨٩٢ ، أصبح الانهيار فناءً .

وفى تلك الأثناء ، كان ثمة تنظيم جديد يرقى إلى النفوذ والسلطان ، هو اتحاد العمل الأمريكى . ففى سنة ١٨٦٣ ، قرر يهودى هولندى يدعى سولومون جومبرز أن يتخلى عن معمل له لصنع السيجار فى لندن ، ليجرب حظه فى أمريكا . واصطحب إليها ابناً فى الثالثة عشرة من العمر ، يدعى صمويل ، لم يلبث أن عمل فى لف السيجار . وفى العالم التالى ، انضم الفتى إلى اتحاد صناع السيجار ، ومن ذلك الحين اقترنت حياة صمويل جومبرز بنقابات العمل ، واقترن تاريخ النقابات العمالية فى الولايات المتحدة بصمويل جومبرز . ولم يكن قد حظى بتعليم منهجى نظامى ، ولكن معمل صنع السيجار أتاح له إلماماً شاملاً بتاريخ العمل والاقتصاد . وقد كتب فيما بعد :

> كانت طبيعة عملنا تنمى زمالة قل أن استمتع بمثلها عمال . كان عالماً فى حد ذاته . عالماً ضم عناصر من مختلف أرجاء الأرض . إذ كان زملاء العمل قد جاءوا من كل مكان ، وزاروا كل مكان تقريباً . . . كذلك كانت فى المعمل قراءة . إذ كان من تقاليد صناع السيجار أن يكتتبوا لتوفير مال لشراء الصحف والمجلات والكتب . ثم يقبل واحد منا على القراءة لنا لفترة قد تصل إلى ساعة ، وأطول من ذلك أحياناً ، بينما يمارس الباقون

عملهم . ولكى لا تحيق بمن يقرأ خسارة مالية ، كان كل من الآخرين فى المعمل ينزل له عن عدد محدد من السيجار .

وهكذا اطلع جومبرز على كتابات دعاة الإصلاح البريطانيين ، والاشتراكيين الألمان والروس . كذلك كان هناك تعليم عملى : فبالخبرة المريرة بالإضرابات والضائقات وعدم ملاءمة النقابات القائمة ، أدرك جومبرز ضرورة وجود سياسة للعمل عملية واقعية . ولقد رأى ضرورة النظام ، وتكوين أموال احتياطية وفيرة للإنفاق على الإضرابات وللتغلب على ضائقات الكساد ، وتفادى أية اتصالات بالسياسيين أو المتطرفين أو أصحاب النظريات غير العملية . وفى سنة ١٨٨١ ، جمع ممثلين لمختلف النقابات فى اتحاد النقابات الحرفية والعمالية المنظمة فى الولايات المتحدة وكندا . وأصبحت هذه المنظمة بعد سنوات خمس : اتحاد العمل الأمريكى .

كان اتحاد العمل الأمريكى أقرب إلى التنظيمات العمالية البريطانية المعاصرة من فرسان العمل . كان على غير شاكلة الفرسان ، فهو اتحاد حِرَفى ، قُصرت عضويته على الفئة الارستقراطية من العمال ، وتألف من مجموعة من النقابات ذات الحكم الذاتى ، اتحدت فيما بينها على غرار اتحاد الولايات المتحدة الأمريكية . كذلك كان يختلف عن الفرسان فى أن سياساته كانت عملية وانتهازية بشكل بارز . وقد قال أحد الناطقين بلسانه : « ليست لنا غايات نهائية . فنحن نمضى من يوم إلى يوم ، ونناضل من أجل أهداف عاجلة » . وقد كانت هذه الأهداف فى الغالب ترمى إلى رفع الأجور وتخفيض ساعات العمل ، وإن لم تغفل المسائل المرتبطة بها ، مثل تشغيل الأطفال ، والقوانين المتعلقة بالصحة العامة وصحة الأفراد ، وتحريم العمل بعقود جماعية والعمل بموجب أحكام بالسجن ، وإقصاء المهاجرين الصينيين عن العمل . على أنه قدر لاتحاد العمل الأمريكى طيلة تاريخه الطويل الناجح ، أن يكون محافظاً ، وانتهازياً نفعياً ، ومحصور العضوية إلى حد ما . وتغلب اتحاد العمل الأمريكى على الخصومات ، وأوقات الضيق ، والمزاحمات بتفاديه الأمور السياسية ، والتعاون مع رأس المال ما أمكن ، ومساندة الإضرابات بالأموال المدخرة المتجمعة من المتحصلات العالية ، والحفاظ على نظام محكم ، وكسب ثقة الرأى العام بفضل سياساته الرزينة . وعندما قبل جومبرز رئاسته لآخر مرة ، فى سنة ١٩٢٤ ، كان له أن يشعر بالارتياح ، إذ اقترب عدد الأعضاء من ثلاثة ملايين .

أما النوع الثالث من تنظيمات العمال ، فقد ظل ضعيفاً بدرجة ذات مغزى . ذلك أن للاشتراكية والشيوعية خلفيات طويلة الأمد فى التاريخ الأمريكى ، بيد أن ظواهرهما الأولى تمثلت فى الغالب فى تجارب يوتوبية مثالية ولكنها غير عملية مثل مزرعة بروك . ولعل أقرب الأشياء إلى النظام الاشتراكى عرفته أمريكا ، هو دويلة المورمون بولاية يوتاه ، وقد كان للعمال دور ضئيل فيها . ولقد أثارت الإرهارب فى حقول الفحم بولاية بنسلفانيا ــ حيث كانت ظروف العمل فظيعة فى السبعينات من القرن التاسع عشر ــ منظمة سرية أحيطت بالإبهام ، وعرفت باسم مولى ماجوايرز ، إلى أن تسنى قمعها بالقوة . وفى السبعينات أيضاً ، حاول مثقفون من الألمان أكثر دراية بتعاليم كارل ماركس وفرديناند لاسال منهم بحركة العمال الأمريكية ، أن ينشئوا اشتراكية أمريكية ، ولكنهم لم يصادفوا نجاحاً يذكر . ولقد أتاح وصول جوهان موست فى سنة ١٨٨٢ ، اتجاهاً ثورياً للجناح اليسارى من الحركة العمالية ، وكان موست قد طرد قبل ذلك من ألمانيا ومن إنجلترا ، وقد حاول عبثاً أن يستميل العمال الأمريكيين نحو سياسة العنف .

ولقد خلصت الجماعات العمالية نفسها من شراك التورطات الأجنبية فى وقت مناسب : كانت منظمة عمال العالم الصناعيين التى أنشئت سنة ١٩٠٥ محلية تماماً ، وإن استعارت شيئاً من تعاليم فوريل النقابية . ولم يقدر لها يوماً أى نفوذ يقوم على عدد المنضوين تحت لوائها ، بالرغم من بعض النجاح الذى أحرزته فى معسكرات اقتطاع الخشب والتعدين فى الغرب ، وفى مراكز النسيج فى الشرق . وقد أدى عداؤها للحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) إلى الانصراف عنها وخمودها ، اللهم إلا فى معسكرات اقتطاع الخشب فى الشمال الغربى ــ وبين عمال الزراعة المترحلين (التراحيل) .

منازعات العمال

تتناثر الإضرابات والعنف فى قصة حركة العمال فى أمريكا . فقد كان على العامل أن يناضل من البداية للحصول على معظم مكاسبه : للحصول على حق تنظيم النقابات ، وعلى حق الإضراب . وعلى حق التحريض على الإضراب ، وعلى تخفيض ساعات

العمل ورفع الأجور ، وعلى ظروف للعمل أكثر أمناً ، وعلى تعويض عن الإصابات أثناء العمل ، وعلى إلغاء كل من تشغيل الأطفال ، والأوامر القضائية لمنع الإضراب ، والعقود الاستغلالية الخارجة على النقابات ، وتكليف العمال بعمل إضافى دون أجر مناسب ، وتهديد العمال بالفصل لمنعهم من الإضراب . وكذلك ناضل العمال للحصول على تقييد الهجرة من الخارج ، وعلى تحريم تشغيل غير النقابيين . ولقد دار الصراع فى أغلبه داخل المجال الصناعى ، وأحياناً كان يجرى فى مجال السياسة . وكان العمل طيلة هذا الجهاد الطويل والمرير يقف وحيداً فى الغالب ، فى حين أن المشروعات التجارية والصناعية كانت تحظى بحلفاء ذوى نفوذ قوى يتمثلون فى الرأى العام والشرطة والمحاكم . وإزاء هذه المعارضة المنيعة ، كانت الإضرابات التى خسرها العامل ، أو قبل حلولاً وسطاً فيها تفوق تلك التى انتصر فيها ، بيد أن انتصاراته كانت من الكثرة بدرجة كافية لتشجيع الإضراب واستمرار استخدامه كسلاح . على أن اللجوء إلى القوة فى العلاقات الصناعية لا يقل عن اللجوء إلى القوة فى العلاقات الدولية دليلاً على الفشل .

ولقد وقع ما لا يقل عن سبعة وثلاثين ألف من الإضرابات من سنة ١٨٨١ حتى سنة ١٩٠٥ ، وكان معظمها إضرابات قصيرة ومحلية ، بينما طال أمد بعضها وشملت البلاد كلها . وكان أبرز الإضرابات فى هذه الفترة إضراب السكك الحديدية فى سنة ١٨٧٧ ـ الذى كان أول عنف صناعى واسع النطاق بين الأمريكيين ـ والإضراب الذى حدث فى مصانع ماكورميك للآلات الزراعية فى سنة ١٨٨٦ ، وأفضى إلى مأساة الشغب فى ميدان هايماركت ، وإضراب هومستيد سنة ١٨٩٢ ، الذى اقترن بمعركة ضارية على ضفاف نهر مونونجاهيلا ، وإضراب بولمان الكبير فى سنة ١٨٩٤ ، الذى شل نصف الخطوط الحديدية فى البلاد ، وحرب كريبل كريك الفظيعة فى حقول الفحم بكلورادو ، وإضراب عمال الفحم (الأنتراسيت) فى سنة ١٩٠٢ ، الذى هدد بشل النشاط الصناعى فى البلاد بأسرها ، والذى لم تتسن تسويته فى النهاية إلا بتوسط الرئيس تيودور روزفلت . ولا سبيل ، ولا جدوى من تعقب تاريخ الإضرابات بالتفصيل ، ولكن نختار واحداً منها ، هو إضراب بولمان فى سنة ١٨٩٤ ، كمثال يمثلها فى كثير من الاعتبارات .

كانت بدايته فى مدينة بولمان النموذجية بولاية إللينوى ، حيث كان العمال يقيمون فى بيوت مناسبة تمتلكها الشركة (لقاء إيجار يزيد على إيجارات المساكن المشابهة فى أى

مكـان آخـر بمقـدار الـربع) ، كما كانوا يشترون الغاز والماء من الشركة ، ويبتاعون حاجـاتهم من متاجر الشركة ، مما كان يدر ربحاً دسماً على جورج بولمان وحملة أسهم شركتـه . وإزاء الكسـاد الـذى حدث فى أوائل التسعينات من القرن التاسع عشر ، خفضت الأجـور للإبقاء على أرباح سخية للمساهمين ، وعندما طالب مندوبو العمال بولمان بأن يكون فيصلاً بينهم وبين الشركة فى مسألة الأجور ، صرفهم دون أن يسمح لهم بالنقـاش ، فبادر العمال إلى التوقف عن العمل ، وتبنت نقابة السكك الحديدية الأمـريكية الحديثة التكوين ، بزعامة يوجين فى . دبس الشاب ، قضية عمال بولمان ، وأمرت عمالها بألا يتولوا أياً من مركبات بولمان . وبهذا التصرف دارت الحرب بين السكك الحديدية والعمال . وشملت نصف البلاد . فإن هى إلا أسابيع قلائل حتى شلت حركة النقل فى كثير من أرجاء الشمال والغرب ، ومهدت إحدى الصحف اليومية بالعاصمة للأسلوب الذى استخدم لفض الإضراب ، مجاهرة بأنه كان حرباً ضد الحكومة وضد المجتمع . وفى غمرة الجزع من النجاح الظاهر للإضراب ، وتصميماً على تحطيم نقابة السكك الحديدية الناشئة قبل أن يتسنى لها إحداث مزيد من المتاعب ، طالبت جماعة المديرين العامين ، وهى منظمة لأصحاب العمل ، بتدخل الحكومة الاتحادية للحفاظ على خدمة مستمرة فى السكك الحديدية .

وكـانت الجـماعـة موفقـة فى هذا النداء . وكان المدعى العام فى حكومة الرئيس كليفـلانـد هو ريتشارد أولنى ، الذى كان محامياً سابقاً للسكك الحديدية يعطف كل العطف على وجهة نظر أصحاب السكك الحديدية . فاستجاب لمطلبهم باستصدار أمر قضائى مانع لحركات الإضراب عامة . وعلى التو شاعت القلاقل ، وإن لم يستطع أحد أن يجزم أكان ذلك بفعل المضربين ، أو العملاء المحرضين ، أو الأشرار المجرمين . وكان آلتجليد ، حاكم إلليـنـوى ، على استعـداد لفـرض النظام باستخدام الحرس الوطنى للولاية ، لولا أن الرئيس كليفلاند أمر القوات الاتحادية بالانتقال إلى شيكاغو ، دون أن يتيح له فرصة لذلك . ولقد فض الأمر القضائى الإضراب ، وكاد الجنود أن يقضوا على حركـة العـمال . ولقـد رفض دبس إطـاعـة الأمـر القضـائى ، فسجن بجرم احتقار المحكمة . واحتج آلتجليد لأن الدستور امتهن عندما أوفد الجنود الاتحاديون إلى الولاية بهذا الشكل ، ولكن كليفلاند أنحى عليه بالتقريع ، كما خذلته المحاكم . وهكذا بدا أن شركات السكك الحديدية انتصرت على طول الخط .

بيد أن التحقيقات التى أجرتها بعد ذلك لجان تابعة للكونجرس ، وجماعات من الطلبة ، ناصرت المضربين ــ وآلتجليد كذلك ــ فى كل نقاط الخلاف تقريباً . فأدينت الإقطاعية الصناعية فى مدينة بولمان . وبُرىء المضربون إلى حد كبير من مسئولية القلاقل ، ودمغت جماعة المديرين العامين بالتعنت ومجافاة القانون ، ووصفت سياسة أولنى بأنها غير لائقة ، واستخدام الأمر القضائى بمنع الإضراب بأنه تصرف قانونى محفوف بالشبهات ، واستخدام القوات الاتحادية بأنه غير ضرورى وغير لائق . وأدى هذا الحادث المؤسف إلى تسليط الأضواء على كثير من القوى التى كانت تملى وضع العمال طيلة تلك السنوات جميعاً : تعنت الشركات الكبيرة ودور الإضراب المتعاطف [1] ، واستخدام قانون مناهضة الترست ومنع الإضراب بحكم قضائى لكبح الحركة العمالية ، ومسلك المحاكم العدائى ، وميل سلطات الحكومة لمناصرة رأس المال دون العمل .

ولم يحن عام ١٩٠٠ حتى كان العمال قد ظفروا بمعظم حقوقهم الأساسية ــ حق تنظيم النقابات ، وحق الإضراب ، وحق المساومة الجماعية ــ وأحرزوا بعض التقدم فى المطالبة بأحوال أفضل للعمل والمعيشة . على أنه كان من الجلى أن هذه المكاسب اقتصرت على قطاع صغير من الطبقة العاملة ، وأنها لم تكد تمس المسائل الأوسع نطاقاً والمتعلقة بأمن العمال ورفاهية المجتمع بأكمله . وبدأ يتجلى رويداً رويداً أن مشكلة العمل ليست بمعزل عن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية الأخرى ، وأن على المجتمع واجباً مشروعاً فى العمل على رفاهية وأمن عماله . فإذا أخفقت الصناعة فى دفع أجر يفى بنفقات المعيشة ، فعلى المجتمع أن يتكفل بالفرق بطريقة ما . وإذا عجزت عن توفير العمالة ، فعلى المجتمع أن يعنى بالمتعطلين . وإذا تسببت فى عاهة تعجز العمال أو إذا استنفدت قواهم قبل الأوان ، فعلى المجتمع أن يعولهم . وما كان تشغيل النساء والأطفال مسألة مقصورة عليهم وعلى من يستخدمونهم ، إذ أنها كانت تتعلق بمستقبل الجنس البشرى . كذلك ثمة مسألة مهمة للمجتمع : إلى متى يستطيع المجتمع تحمل التبديد المتمثل فى الحرب الصناعية ، إذ أن المجتمع هو الخاسر دائماً ، مهما يكن الفائز فيها .

ولقد حظيت الحركة العمالية ، فى صراعها من أجل الاصلاحات الاجتماعية ، بحلفاء ذوى نفوذ بين الأخصائيين الاجتماعيين ــ ورجال الكنيسة البروتستانتية ، وأهل

(١) إضراب عمال لمناصرة وتأييد عمال آخرين اضطروا للاضراب ــ المترجم .

العلم والمثقفين . وفى أى تاريخ للحرب ضد عيوب الصناعة والأحياء الفقيرة ، لابد أن تتألق بحروف كبيرة أسماء جاكوب ريس ، المخبر الصحفى الممتاز ، وجين آدمز من هل هاوس بشيكاغو ، وواشنطن جلادين من رجال الدين المبشرين بمذهب الموحدين ، وجون آر. كومنز الأستاذ بجامعة ويسكونسين ، فلقد عملوا دون هوادة لإطلاع الرأى العام على ما يتكبده المجتمع من جراء تشغيل الأطفال أو خطر المساكن المؤجرة ، ولتحريك الهيئات التشريعية الخاملة . وكان المصلحون موفقين لدرجة ملحوظة فى بعض الولايات ــ مساشوستس ، ونيويورك ، وويسكونسين ، وأوريجون ــ بيد أن المشكلة كانت عويصة . فحيثما أقامت الولايات المتقدمة معايير عالية ، كانت الصناعة تنتقل إلى الولايات المتخلفة ، حيث لا توجد مثل هذه القيود .

ومع هذا فقد كان ثمة تقدم حقيقى . فلم تحن الحرب العالمية الأولى حتى كانت معظم الولايات قد حرمت ــ ولو نظرياً على الأقل ــ تشغيل صغار الأطفال ، وحددت كثير منها ثمانى ساعات حداً أعلى لشغل المرأة ، وأقامت نظماً للتعويض عن الحوادث ، ووضعت لوائح للتفتيش الدقيق على المصانع والمناجم ، ومنعت العقود الاستغلالية أو استخدام المخبرين السريين الخاصين ورجال الأمن الخاصين فى المنازعات الصناعية ، وكشفت فى أمور أخرى عن يقظة اجتماعية . ولا نملك أن نتعقب هذه التشريعات تفصيلاً ، ولكن تاريخ قوانين تشغيل الأطفال يصورها لنا بجلاء .

لم يحن عام ١٩٠٠ حتى كان تشغيل الأطفال قد أصبح فضيحة عامة . فكان هناك مليون وثلاثة أرباع المليون من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٠ و١٥ سنة يشتغلون من أجل التكسب إذ ذاك . فكان الكثيرون منهم يعملون فى المصانع والمناجم ، وآخرون فى مؤسسات التعليب ، أو حقول البنجر ، أو مواطن نمو التوت البرى . ولقد وجد أحد المحققين ٥٥٦ طفلاً دون الثانية عشرة من العمر يعملون فى ثمانية مصانع للقطن ، ووجد آخر أطفالاً فى السادسة والسابعة من العمر يعملون فى تعليب الخضر فى الساعة الثانية صباحاً . ويصف جون سبارجو الذى هز كتابه « صرخة الأطفال الملتاعة » الأمة كلها ، ما رآه فى مناجم الفحم ببنسلفانيا وفيرجينيا الغربية ، فى أوائل القرن ، فيقول :

> كان الصبية ينحنون على قنوات تصريف الماء ، ساعة بعد ساعة ، يلتقطون قطع الإردواز وغيرها من الفضلات المتخلفة من الفحم ، وهى تندفع من المغاسل . ومن جراء الوضع

غير السليم الذى كانوا يضطرون إلى اتخاذه ، تتشوه أجسام معظمهم بدرجات متفاوتة ، ويصبحون ذوى ظهور منحنية كالشيوخ . . والفحم صلب حاد ، وإصابات الأيدى ـ كالقطوع والكسور والتهشمات التى تصيب الأصابع ـ شائعة بين الصبية . وأحياناً تكون هناك إصابات أسوأ ، فتسمع صرخة مذعورة ، وإذا صبى قد اشتبك فى الآلة وتمزق ، أو اختفى فى القناة ، ليُلتقط بعد ذلك جثة هامدة . وتملأ آلات التكسير سحباً من الغبار يستنشقها الصبية ، لترسى أسس الربو ودرن المناجم . ولقد وقفت مرة فى قسم التكسير نصف الساعة ، وحاولت أن أؤدى العمل الذى كان صبى فى الثانية عشرة من عمره يؤديه يوماً بعد يوم . . وما كان بوسعى أن أؤدى ذلك العمل وأظل على قيد الحياة ، بيد أن هناك صبية فى العاشرة أو الثانية عشرة من العمر يمارسونه لقاء خمسين أو ستين سنتا فى اليوم . وبينهم من لم يدخلوا المدرسة قط ، وقليل منهم من يستطيعون قراءة كتاب المطالعة للصف الأول .

كانت هناك قوانين فى الولايات ضد هذه المساوىء فى الواقع ، بيد أنها لم تكن كافية ، وكان من السهل التهرب منها . فانتهى الأمر بكارولينا الجنوبية إلى جعل الثانية عشرة حداً أدنى للعمل فى المصانع ، ولكنها سمحت باستثناءات حيث كان هذا الحد يفرض على العائلات ضائقة . وعندما اشترطت ميريلاند من كافة الأشخاص الذين دون السادسة عشرة ، الراغبين فى العمل أن يحصلوا على إجازة ، إذا بالطلبات تزيد عدداً عن مجموع عدد من كانوا فى السادسة عشرة وفقاً للتعداد السابق . ونادراً ما كانت التشريعات تتناول سوى عمال المصانع ، تاركة بلا حماية مئات الآلاف من الأطفال العاملين فى نقل الرسائل ، وطلاء الأحذية ، وفى جمع التوت فى الحقول ، وفى مؤسسات التعليب التى لم تكن تعتبر مصانع . ولم تفرض ولاية أمريكية واحدة ـ سوى ديلاوير ـ حتى سنة ١٩٠٩ أنه لا يجوز تشغيل أى طفل دون الرابعة عشرة ، أو إكراهه على ممارسة أى عمل يدر كسباً .

وأدى عدم كفاية قوانين الولايات إلى مطالبة الكونجرس بالتصرف . فاستجاب الكونجرس فى سنة ١٩١٦ بقانون يحرم شحن منتجات الأطفال العاملين فى الاتجار بين الولايات . وبدا أن المشكلة حلت بهذا ـ بيد أن المحاكم أعلنت صراحة أن هذا القانون خارج عن سلطات الكونجرس ، فهو باطل . وكرر الكونجرس

المحاولة بعد ثلاث سنوات ، محاولاً فى هذه المرة أن يحرم وجود منتجات من عمل الأطفال . ومرة أخرى ، أشهرت المحاكم سلاح النقض : ليس للكونجرس أن يبرم بطريقة غير مباشرة ما ليس له أن يبرمه مباشرة . وصحيح أن المحكمة العليا اعترضت بعد عشرين عاماً بأن هذا كله كان خطأ ، ولكن الضرر كان قد وقع . فاستمر تشغيل الأطفال طيلة العشرينات من القرن الحالى المتسمة بالرخاء ، وأظهر تعداد سنة ١٩٣٠ أن أكثر من مليونين من الصبية والبنات دون الثامنة عشرة كانوا مستخدمين لقاء أجور . ثم جاء البرنامج الجديد فقطع الحوار الدستورى وأنهى الفضيحة عملياً .

بهذين الأسلوبين ــ المساومة الجماعية والتشريع ــ حسن العمل وضعه تحسيناً كبيراً . كذلك بدأت المشروعات تتخذ نحو مشكلة العمل رأياً أكثر استنارة ، وتصلح من أمرها وفقاً لذلك . فلم يعد أى رجل أعمال يشارك جاى جولد داهية السكك الحديدية : « إن العمل سلعة لن يسيطر عليها فى الأجل الطويل سوى قانون العرض والطلب وحده » . وكان قانون العرض والطلب قد عدل لمصلحة أصحاب المصانع والمصارف والمزارع ، فبات لزاماً أن يعدل لمصلحة العمل .

بوتقة الصهر

لم يقدر معظم الأمريكيين يوماً دور الهجرة فى تاريخهم التقدير الصحيح . فهم ينظرون إلى الهجرة بوصفها « مشكلة » . ويرون عادة أنها مشكلة لم تبرز إلى المقدمة إلا فى نصف القرن الأخير أو حوالى ذلك . وهم عندما يفكرون فى الهجرة ، يتمثلون فى خيالهم صورة الإيطاليين السمر ، أو اليهود ذوى اللحى ، أو الفلاحات البولنديات بالشيلان الزاهية وهم يهبطون معابر السفن إلى جزيرة إيليس . وهم لا يفكرون فى الآباء المهاجرين ، ولا فى الهيجونوت الفرنسيين ، ولا فى الاسكتلنديين ــ الأيرلنديين ، ومن المؤكد أنهم لا يفكرون فى السود المساكين الذين كانوا يعانون أهوال مرحلة الانتقال .

ومع هذا فإن الأمريكيين كافة ــ فيما عدا الهنود ــ مهاجرون ، أو أنسال من مهاجرين : سواء فى ذلك سيدات العهد الاستعمارى وأعضاء جماعة سنسيناتى ، وعمال

الصلب البولنديين فى جارى ، وزنوج هارلم . والواقع أن المهاجرين توافدوا فى فترات مختلفة ، وظروف مختلفة ، ومن أرجاء مختلفة من المعمورة . بيد أنهم جميعاً اجتازوا تجربة واحـدة ، اقتلعتهم من أوطـانهم الأولى وغرستهم فى وطن جديد . ولقد جلبوا معهم جميعاً ، حتى الجهلة والسفلة منهم ، مقدرتهم وثقافتهم وإيمانهم . فإذا بهم جميعاً عناصر فى بوتقة أمريكا العملاقة .

ولقد اطلعنا على شىء من التيارات المتباينة التى عملت على تكوين سكان أمريكا فى عهد الاستعمار . واستمرت الهجرة من الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة طيلة الأعوام الأولى للجمهورية ، وكانت اختيارية طواعية . فمن عام ١٨٢٠ ، عندما بدأ الاحتفاظ بسجلات إحصائية لأول مرة ، حتى بداية الحرب الأهلية ، ربط حوالى خمسة ملايين من الـوافدين من أيرلندا وإنجلترا وألمانيا أقدارهم بأقدار الأمريكيين . بل إن الحرب الحرب ذاتها لم تعرقل تدفق المهاجرين بدرجة كبيرة ، ثم اشتد إقبالهم بعد أبوماتوكس فأصبـح سيلاً جارفـاً ، ومن ثم فإن سكـان أمريكا فى سنة ١٨٧٠ كانوا قوماً متباينى الأصول جداً . ففى ذلك الحين ، كان من بين كل ألف أمريكى ٤٣٥ من الأمريكيين البيض بحكم المولد ، الذين ولدوا لآباء من الأهالى الوطنيين ، و٢٩٢ من الوطنيين بحكم المـولد من آباء أجانب أو مختلطين ، و١٤٤ من البيض الأجانب المولد ، و١٢٧ من الزنوج ، وكان تمام الألف واحداً من الهنود وواحداً من الصينيين . ولقد وفد بين عامى ١٨٧٠ و١٩٢٠ عشرون مليوناً آخرون تقريباً من المهاجرين . ومع ذلك فقد بقيت نسبة الأجنبيى المولد والوطنيى المولد واحدة إلى حد كبير . ولعل أبرز التغيرات تمثل فى تضاؤل العدد النسبى للزنوج ، وازدياد عدد المكسيكيين .

غير أن حقيقة مهمة جداً عن الطابع المتغير لسكان أمريكا ، استرعت انتباه كل مراقب . تلك هى الزيادة الحادة فى عدد أولئك الذين كانت أوطانهم أو أوطان آبائهم فى دول أوربا الجنوبية والشرقية . ولقد ظلت أغلبية المهاجرين فى السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر ، من الوافدين من تلك الدول التى أمدت البلاد بالكثيرين فى الماضى . . وهى بريطانيا العظمى وألمانيا والدول الاسكندنافية . بيد أنه كان ثمة تيار بسيط من مصادر الهجرة « الجديدة » ، حتى فى تلك السنين . ولقد أنشأت شركات الملاحة المغامرة اتصالات مباشرة مع نابولى ودانزج وممل وفيومى وأثينا ، واتخذت آلافاً من الـوكـلاء فى إيطاليا وبولندا والمملكة الثنائية لاجتذاب المسافرين بالأجور الرخيصة .

وكانت شركات البواخر المغامرة تدبر مقابلة المهاجرين فى جزيرة إيليس ، وأخذهم إلى مناطق التعدين أومدن المصانع . وإذ خفت حدة ضغط السكان فى بريطانيا العظمى وألمانيا واسكندنافيا ، خف تسرب المهاجرين إلى الدنيا الجديدة . ولكن الهجرة « الجديدة » ازدادت بطفرات واسعة ، فأقبل فى العقد الأول من القرن العشرين ــ على سبيل المثال ــ ٣٤٠٠٠٠ فقط من أيرلندا ، و ٣٤٠٠٠٠ غيرهم من ألمانيا ، بينما أقبل من إيطاليا مليونان ، ومن مقاطعات النمسا والمجر مليونان آخران ، وقبل أن توضع الحواجز نهائياً لصد هذا السيل ، كانت إيطاليا قد أرسلت إلينا ما يزيد على أربعة ملايين ونصف المليون من أبنائها وبناتها ، وأرسلت النمسا والمجر أربعة ملايين ، وروسيا وبولندا ثلاثة ملايين وربع المليون .

كل هؤلاء الوافدين ــ أولئك الذين فروا من الاضطهاد الدينى ينشدون حرية العبادة كما يبتغون ، وأولئك الذين هربوا من الخدمة العسكرية والحروب ، وأولئك الذين كانوا يتوقون إلى مجتمع أكثر ديمقراطية ، وأولئك الذين كانوا يرجون النجاة من الفقر المدقع والمشاركة فى ثروات الدنيا القديمة ــ كانوا جميعاً يتطلعون إلى أمريكا كأنها « أرض الميعاد » . ولقد انغمسوا جميعاً فى المغامرة الكبرى ، أيا كانت أسبابهم للإقدام ، وهم يحلمون بحياة أفضل ، وعمل معظمهم على إقامة هذه الحياة لأنفسهم ولأبنائهم .

كانت الهجرة « القديمة » قد انتشرت بقدر كبير من الانتظام فى الشمال والغرب ، وتوزعت بين الزراعة والصناعة بأعداد متساوية تقريباً . ولكن المهاجرين « الجدد » تجمعوا فى المراكز الصناعية فى الشرق وفى الغرب الأوسط ، إذ أن إنشاء مزرعة كان يتطلب مالاً ، وإذ أن أجود الأراضى كانت قد نفدت ، لأنه كانت ثمة أعمال فى المدن والمستوطنات التى أنشأها أبناء أوطانهم والكنائس الكاثوليكية . ولم يحن عام ١٩٠٠ حتى كان ثلثا الأجنبى المولد يقيمون فى المدن كبيرها وصغيرها ، ولم يحن عام ١٩٢٠ حتى كانت هذه النسبة قد ارتفعت إلى ثلاثة أرباع ، فكان فى مدينة نيويورك مئات الآلاف من الإيطاليين والبولنديين والروس واليهود ، وكان الإيطاليون والكنديون الفرنسيون يعيشون بأعداد كبيرة فى بوسطن الرزينة ، والروس فى فيلادلفيا التى يغلب عليها مذهب الكويكر ، والروس والبولنديون فى كليفلاند ، والاسكندنافيون فى سانت بول ومنيابوليس ، فى حين أن شيكاغو كانت تضم من متباين العناصر ما تضم أية مدينة أخرى فى العالم ، بل إن نسبة الأجنبى المولد كانت فى المدن الصناعية الصغيرة ، مثل

فول ريفر أو سكرانتون أو هامترامك أعلى منها فى المدن الكبيرة . وكان معنى هذا أن الوافدين من جنوب وشرق أوربا وجدوا عملاً فى المناجم والمعامل والمصانع . فكان ثلاثة أرباع عمال مناجم الفحم فى بنسلفانيا ــ مثلاً ــ حتى سنة ١٩١٠ من الأجنبيى المولد ، وكانت أغلبية طاغية منهم من الإيطاليين والبولنديين والسلوفاكيين . وفى سنة ١٩٢٠ ، كان الأجنبيو المولد يؤلفون ثُمن المجموع الكلى للسكان ، ولكنهم كانوا يؤلفون الثُلث فقط من العاملين فى المصانع ، وأكثر من نصف العاملين فى المناجم .

بماذا أسهم المهاجرون ؟ . . كان أهم ما أسهموا به ، أنفسهم ــ مقدرتهم وعملهم وإيمانهم . إنهم يدينون بالكثير للبلاد التى تبنتهم ، كما تدين البلاد لهم بالكثير . كانوا يؤدون العمل الشاق المضنى الذى كان لابد منه إذ أريد تنمية موارد الأمة بسرعة وبنفقات زهيدة . فمهدوا تربة الفيافى الجرداء ، ومدوا القضبان للخطوط الحديدية عابرة القارة ، واستخرجوا الحديد الخام والفحم والنحاس ، واقتطعوا الخشب من غابات الشمال الغربى . بيد أن مساهمتهم لم تكن مقصورة على العمل الذى لا يتطلب مهارة ، فقد أضفوا ثراء ودسامة على الحياة الأمريكية ، وأضافوا الكثير إلى ثرائها الثقافى فى بعض الميادين : فقدموا قسطاً كبيراً من الحفز الإبداعى فى الموسيقى والفنون . وما من فرقة موسيقية فى البلاد ، فى سنة ١٩٣٠ ، إلا كان قائدها يحمل اسماً أنجلوسكسونياً .

على أن الهجرة خلقت مشكلات كذلك ، شعرت بها القوى العاملة فى شكل التنافس على الأعمال ، مما عبر عنه أحد زعماء العمال بقوله : « بما أن حياتنا محكومة بمعايير الهجرة ، فإن أجورنا تقوم على أساس الهجرة ، كما أن أحوال أسرتنا تقاس بمقاييس الهجرة » . . وشعرت بها حكومات المدن فى مشكلات جديدة متعلقة بالإسكان والصحة العامة والأمن ، وشعر بها النظام المدرسى فى مشكلة الأمية والتوافق الاجتماعى . ومع هذا فلم يكن استيعاب الأجنبيى المولد عسيراً ، بالرغم من مخاوف الكثيرين من ممثلى العنصر الأهلى الذين كانوا يرتجفون فرقاً من « نبرة منذرة غريبة عن جوننا » . كان المهاجر العادى يذوب لهفة على أن يصبح أمريكياً . والتجربة التى تصفها ميرى آنتين فى كتابها « أرض الميعاد » ، تجربة خاضها مئات الآلاف منهم :

بلغت ذروة اعتدادى كمواطنة وطمأنينتى الشخصية فى صباح يوم مشرق من شهر سبتمبر ، عندما دخلت المدرسة العامة . جدير بى أن أذكر هذا اليوم دائماً ، ولو عشت

إلى عمر أعجز معه عن ذكر اسمي . فإن اليوم الأول فى المدرسة مناسبة لا تنمحى من ذاكرة معظم الناس . وقد كانت أهمية اليوم ــ فى حالتى ــ أضخم منها لدى سواى مائة مرة ، بسبب السنوات التى اضطررت لقضائها فى الانتظار ، والمسلك الذى سلكت ، والآمال الواعية التى كانت تخالجنى . . ولقد أقلنا والدى إلى المدرسة بنفسه ، وما كان ليعهد بهذه المهمة لرئيس الولايات المتحدة نفسه . فلقد كان يرتقب هذا اليوم بحين ما كنت أرتقبه به من نفاد صبر ، وكانت الرؤى التى تمثلها وهو يمضى بنا مسرعين على الأرصفة التى تزركشها أشعة الشمس تفوق أحلامى قاطبة . وأخيراً ، وقفنا نحن الأربعة حول مكتب المعلمة ، وفى إنجليزية لا تكاد تكون مفهومة ، عهد أبى بنا إليها ، مع بعض كلمات ركيكة عن آماله لنا التى لم يعد قلبه المفعم قادراً على الاحتفاظ بها .

كان أطفال المهاجرين ، وليس المهاجرون أنفسهم ، هم الذين أثاروا مشكلات الاستيعاب والتوافق . كان كثيرون منهم قد انتزعوا من مواطن جذورهم ، فتولاهم الارتباك وضعفت معنوياتهم . كانوا فى أوطانهم يعيشون فى عالم ، وخارج أوطانهم فى عالم آخر غريب . كانوا بعد مشدودين إلى الدنيا القديمة عن طريق آبائهم ــ وعن طريق كنائسهم فى كثير من الأحوال ــ غير أن صلتهم هذه كانت غير مباشرة ، وغير واقعية . وكثيراً ما كانوا يثورون على تراثهم القديم قبل أن يكونوا قد تعلموا اعتناق الجديد . كانت المدرسة العامة هى الحل الأكبر ، بيد أن المدرسة كانت تبرز الفوارق أحياناً بدلاً من أن تمحوها . وكان الأمريكيون من الجيل الثانى أكثر من الجيل الأول إظهاراً لمشكلات سوء التوافق (التكيّف) الاجتماعى والعنف والجريمة .

ولقد تولد حوالى سنة ١٩٠٠ شعور واسع الانتشار بأن الوقت قد حان لوقف الهجرة غير المقيدة . فقد كره العمال مزاحمة العاملين غير المهرة ، والذين يسهل استغلالهم : كان أمريكيو « الرعيل القديم » يخشون أن يكون النسب العنصرى فى انحطاط بفضل الوافدين من البلاد السلافية والبحر المتوسط . وكان الإنسان العادى يرى أن الولايات المتحدة قد أوتيت من الناس والمشكلات ما يجعلها فى غير حاجة إلى مزيد . وكان الكونجرس منذ سنة ١٨٨٢ قد أوقف الهجرة من الصين ، كما استبعد فى الوقت ذاته أولئك الذين يعتبرون « غير مرغوب فيهم » ــ المرضى والمتخلفون عقلياً واللا أخلاقيون والفوضويون وغيرهم . ولعل هذا كان ذا أثر كيفى ولكنه لم يكن

ذا نتيجة كمية ، والشيء الذى كانت الحاجة تمس إليه ، هو غربال يحقق النتيجتين الكيف والكم . وكان الحل المقترح هو اختبار الإلمام بالقراءة والكتابة ، إذ لم يكن للأمية وجود تقريباً فى الجزر البريطانية وألمانيا واسكندنافيا ، فى حين أنها كانت مرتفعة فى إيطاليا وبولندا وروسيا وغيرها من دول جنوب وشرق أوربا . وبدا أن لهذا ميزة تخفيض العدد الإجمالى للمهاجرين « الجدد » ، دون أن يؤثر تأثيراً قوياً على الهجرة القديمة .

ولقد رفض ثلاثة رؤساء للجمهورية ــ كليفلاند وتافت وويلسون ــ التصديق على مشروعات قوانين تحبذ اشتراط الإلمام بالقراءة والكتابة للسماح بدخول الولايات المتحدة ، باعتبار أن هذا لم يكن اختباراً للمقدرة وإنما هو اختبار للفرصة . على أن الكونجرس نفذ رغبته أخيراً ، فى سنة ١٩١٧ ، ونص فى قوانين الهجرة على الإلمام بالقراءة والكتابة . ومع انتهاء الحرب العالمية ، واحتمال الهجرة على نطاق واسع من الدول المخربة فى أوربا ، تبدت المشكلة كمسألة استبعاد أكثر مما هى مجرد تقييد . فوضع الكونجرس ، فى سلسلة من القوانين تتابعت فى سنوات ١٩٢١ و ١٩٢٤ و ١٩٢٩ ، حداً كمياً ــ بلغ ١٥٠٠٠٠ ــ بالنسبة لمن يسمح لهم بالمجىء من الخارج . ولم يطبق هذا التحديد على الهجرة من كندا أو المكسيك أو دول أمريكا الجنوبية ، ولكن التشدد فى تفسير النصوص التى تحرم دخول أى ممن قد يصبحون عبئاً على الدولة ، خفض الهجرة من تلك الدول كذلك بدرجة محسوسة .

وهكذا ، لم تحن سنة ١٩٣٠ ، حتى انتهت حقبة من التاريخ الأمريكى . ظلت الولايات المتحدة بوتقة لصهر العناصر ، بيد أنها أصبحت مكتظة فى كثير من المناطق ، فلم يعد من سبيل إلى أن تكون « أرض ميعاد » بالمعنى القديم المطلق للفقراء والمضطهدين من الدول الأخرى .

الفصل ١٦

الغرب يبلغ سن الرشد

فتح القسم الأخير من الغرب

في الوقت الذى كان الجنوب يفيق فيه من آلام الحرب وفوضى إعادة التنظيم ، وكان الشمال يربط اقتصاده بالمصنع والآلة ، كانت ثمة تطورات أشد إثارة للاهتمام تجرى فى الغرب المترامى وراء نهر المسيسيبى ، إذ أن هذا الإقليم ، الذى يضم نصف المساحة الإجمالية للولايات المتحدة تقريباً ، كان حتى سنة ١٨٦٠ يتألف من بطاح مقفرة . صحيح أن ولاية كاليفورنيا الجديدة كانت تزهو بسكان يناهزون أربعمائة ألف ، وكان فى وادى ويلاميت فالى حوالى خمسين ألفاً من طلائع الوافدين على أوريجون ، وكانت مستوطنة المورمون التى تحف ببحيرة جريت سولت ليك تأوى أربعين ألف آخرين ، بينما عاش على ضفاف أعالى نهر ريو جرانده تجمع غير كثيف تألف من حوالى تسعين ألف من هنود البويبلو والمكسيكيين والبيض المغامرين . وكانت بقية هذه المساحة الشاسعة موئلاً للهنود . . عشائر السيوكس والبلاكفوت والكراو المحبة للحرب ، فى السهول الشمالية . . وعشائر الأوت والشيين والكيوا فى المنطقة الوسطى ، وعشائر الكومانش والأباش القاسية فى الجنوب المجدب . . العشائر العديدة التى فرضت أسماءها على الفولكلور الأمريكى ،

فترددت فيه . كانت تهيم فى السهول والجبال والصحارى على صهوات الجياد ، متعيشة على قطعان هائلة من الجاموس تمدها بكل شىء ، من القوت حتى الوقود ، لا يعترضها أحد اللهم إلا إذا اعترضت بعضها بعضاً أو اعترضتها أسود الجبال وذئابها .

بعد ثلاثين عاماً ، كان هذا كله قد تغير . كان الهنود قد هزموا وأخضعوا لعملية التمـدين المحفوفة بالشبهات . وتلاشت قطعان الجاموس ذات الخوار . وانتشر عمال المناجم فى كافة أرجاء الإقليم الجبلى ، ينقبون عن المعادن فى الجداول الصافية التى كان لأسمائها ذاتها وقع شاعرى ـــ سان جواكان ، وبيفرهيد ، وبيل فورش ، وبيتر روت وسويتووتر ـــ ويحفرون الأنفاق فى جوف الأرض ، وينشرون المجتمعات الصغيرة ذات النشاط المحموم فى نيفادا ، ومونتانا وكلورادو ، بل وتلال داكوتا السوداء (بلاك هيلز) . ومضت السكك الحديدية فى إقدام تشق أرض الفيافى المقفرة ، لتكون مسالك خلال جبال روكى الشاهقة ، رابطة بين المحيطين الأطلنطى والهادى . واستغل مربو الماشية الحشائش المباحة ، والسكك الحديدية ، والأسواق الجديدة ، فاستأثروا بإقليم شاسع من الأراضى المعشوشبة ، امتد من بانهاندل فى ولاية تكساس إلى أعالى ميسورى ، وعلى سفـوح الجبـال . ثم تدفق المزارعون على السهول ووديان الجبال ، فسدوا الثغرة بين الشرق والغرب . ولم يحن عام ١٨٩٠ ، حتى كانت مناطق الحدود الغربية قد تلاشت ، فامتـد بعـرض القارة نطاق متماسك من الولايات ، وانهمك خمسة ملايين أو ستة من الرجال والنساء فى فلاحة الفيافى التى كانت مرتعاً للبقر والكلاب الوحشية .

لماذا تأخـر هذا الإقليم الشـاسـع كل هذا الـزمن ، ولماذا جرى فتحه ، عندما حـان ، بهذه السـرعة المضنية ؟ لقد ظل الأمريكيون قرنين وهـم يمضـون قدماً فى اتجاه الغـرب من ساحـل المحيط الأطلنـطى إلى « الغرب القديـم » الذى كان معروفاً أيام الاستعمار ، عبر جبـال أبلاش ، هابطين إلى أوهايـو ، وإلى وادى المسيسيبى . ولـم يحن عام ١٨٥٠ حتى كانت حدود العمـران قد وصـلت إلى ما يقرب من خط الطول ٩٥ . . وهناك ، ولأول مرة فى التاريخ الأمريكى ، أوقفت مسيرتها الزاحفة الموغلة . وبدلاً مـن أن تمضى قدمـاً بانتظام ، إذا بها تثب عبر السهول وجبـال روكى ، وتسـتقر على طول ساحل المحيط الهـادى . إن الإيضاح يكمن فى الجغرافيـا والمناخ . كان الأوربيون قد أقبلوا من دول حافلة بالغابات والأنهـار ، فوجدوا فى الدنيا الجديدة غابات وأنهاراً وأمطاراً وفيـرة لمزروعاتهم . ولكن السهـول الكبرى واجهتهم ، لأول مـرة فى قرنين من التجارب

والخبرة ، بشىء جديد ، تمثل فى الأراضى قليلة الماء . منسوب ضئيل للمطر ، وكانت ثمة فترات طويلة من الجفاف ، وجداول ضحلة لا سبيل للاطمئنان إليها ، وأخشاب قليلة لإقامة البيوت والأسوار ، فلا عجب فى أن الرواد الأوائل تجاوزوا هذه المناطق ، مواصلين سعيهم إلى ساحل المحيط الهادى الغزير المياه الوفير الأخشاب .

وما كان للمزارع أن يأمل فى أن يذلل السهول الكبرى حتى يبتكر أدوات لكى يتأقلم وفقاً للبيئة الجديدة ، وقد جاء هذا التأقلم ، فى موعد مناسب . فهيأت السكك الحديدية النقل ، ويسرت الأسلاك الشائكة للأسوار ، ووفرت الآبار المحفورة فى الأرض وطواحين الهواء الماء ، وساعدت الفلاحة الجافة والرى على حل مشكلة الزراعة حيث كان منسوب المطر غير كاف للنوع الذى كان المزارعون متعودينه من الزراعة . وبهذه الأدوات الجديدة بات فى وسع الرواد الأوائل أن يعيشوا ، وأن يستنبتوا المحصولات ، وأن يقيموا مجتمعات دائمة فى السهول . ولم تسفر التجربة عن طرق جديدة للزراعة فحسب ، بل نجمت عنها طرق جديدة للمعيشة . . نظم اجتماعية واقتصادية وثقافية جديدة .

أما الغرب الشاسع وراء نهر الميسورى ، فلم يكن مجهولاً وإن لم يكن مأهولاً بدرجة كبيرة . كان الرواد المستكشفون البواسل ، مثل لويس وكلارك وجون سى . فريمونت قد ارتادوها ، وكان صيادو حيوانات الفراء وتجار الفراء الذين يعملون لحساب شركتى نورث ويست أو آستور للفراء ، أو لحسابهم الخاص ، قد تعرفوا عليها ، وكان التجار على طول درب سانتا فيه قد شقوا الطريق إلى الجنوب الغربى الاسبانى ، وأضنى المبشرون الكاثوليك والبروتستانت على السواء أنفسهم مع الهنود . وكان الرواد الأوائل لدرب أوريجون ، والأتقياء على درب المورمون ، والمغامرون فى سبيل الثراء على درب كاليفورنيا قد شقوا طرقاً برية عبر الإقليم ، وأنشأ الجيش حصوناً لحماية المهاجرين والتجار ، ورسم رجال المساحة الخرائط للإقليم لتعيين مسارات الخطوط الحديدية ، ومع مطلع العهد الجديد كان الرئيس لينكولن يوقع مرسوماً لإنشاء أول خط حديدى عبر القارة .

فلقد كان ذوو الأفق الواسع يحلمون ، منذ أربعينات القرن التاسع عشر ، بخط حديدى يربط طرفى القارة ، بيد أن المشكلة لم تصبح ملحة حتى اندفع الناس إلى كاليفورنيا . فبعد ذلك احتدم النقاش بصدد مسار هذا الخط ، إذ كان الجنوبيون يريدون طريقاً يربط جنوب كاليفورنيا وتكساس بنيو أورليانز أو ممفيس ، والشماليون

يطنطنون ابتغاء طريق يربط الشمال الغربى بسانت لويس أو شيكاغو . ولقد أجريت عمليات المسح ، ولكن الجدل لم يهدأ إلى أن انسحبت ولايات التحالف الجنوبى ، مما جعل للشماليين الكلمة العليا . وتضمن مشروع قانون السكك الحديدية للمحيط الهادى (باسيفيك ريلواى) فى سنة ١٨٦٢ خطين : يونيون باسيفيك وسنترال باسيفيك ، على أن ينشأ اليونيون باسيفيك إلى الغرب من كاونسيل بلفز بولاية أيووا ، والسنترال باسيفيك فى اتجاه الشرق من كاليفورنيا ، ويمدا حتى يلتقيا . ولكى تيسر الحكومة الاتحادية هذا المشروع الهائل ، منحت الخطين حوالى أربعة وعشرين مليون دونم من الأراضى العامة التى تملكها الدولة ، وقروضاً وصلت فى آخر الأمر إلى حوالى خمسة وستين مليون من الدولارات .

وبدافع من هذه المنح ، ومن هبات أخرى من الهيئات التشريعية للولايات ، مضى المديرون بهمة فى مخططاتهم . وكانت تواجههم مهمة جبارة ، فقد كان لزاماً مد القضبان حوالى ١٧٠٠ ميل فى برارى مقفرة ، وجبال وصحراء لا يسكنها سوى هنود معادين . وكانت المشكلة الهندسية لخط سنترال باسيفيك ذات وعورة خاصة ، فلم تكن ثمة أيد عاملة ميسورة ، وانتهى الأمر باستجلاب عشرة آلاف عامل غير ماهر من الصين النائية . وكان لزاماً نقل كل طن من القضبان الحديدية ، وكل مركبة ، وكل قاطرة ، وكل آلة ، بالسفن حول رأس هورن ، أوعبر برزخ بناما ، حتى لقد بلغ عدد السفن التى كانت تستأجرها فى فترة من الفترات لهذا الغرض خمسين سفينة . ولم تكن هناك طرق فى مرتفعات سيرا ، فكانت آلاف الأطنان من المعدات ، وبينها قاطرات ، تجر على زحافات ضخمة عبر ركامات الثلج . وسلكت الأغذية والبارود وجميع أنواع الإمدادات عين الطريق المضنى . وكان لابد من نسف مسار للخط الحديدى فى المرتفعات ، ومد جسور فوق الوهاد ، وحفرت فى جوف مرتفعات سيرا خمسة عشر نفقاً ، فى مسافة طولها ستون ميلاً . وعندما هدد الجليد الغزير بوقف كل عمليات الإنشاء ، أقام المهندسون البارعون حظائر واقية من الجليد طولها سبعة وثلاثون ميلاً ، استمر العمل تحتها .

أما العمليات الهندسية لخط يونيون باسيفيك فكانت أقل صعوبة . . ولعل من أسباب ذلك أنها حظيت فى شخص الجنرال جرنفيل دودج بواحد من أعظم المهندسين . وكانت قوته العاملة مؤلفة من عمال أيرلنديين ، ومن مقاتلين سابقين من جيوش الاتحاد والاتحاد التحالفى ، الذين كانوا يستبدلون البنادق بالمعاول بسرعة إذا ما ظهر الهنود .

وتحت قيادته الدافعة امتد الخط بمعدل ميلين ، وثلاثة بل أربعة فى اليوم ، فكانت إحدى جماعات الإنشاء تضع الروافد الرابطة [١] ، بينما تطرح أخرى القضبان وتثبتها .

وفى ١٠ مايو سنة ١٨٦٩ ، التقى الخطان عند برمونتورى بونيت بولاية يوتاه ، فالتقت الأمة بأسرها فى الاحتفال بوصل الخطين بمثبتات من الذهب والفضة . كان عملاً هندسياً عظيماً ، قصة بطولية للدأب ، والذكاء العبقرى ، والجلد . وفى هذا كتب روبرت لويس ستيفنسون يقول :

عندما أتمثل كيف مد الخط الحديدى خلال هذه البطاح الخالية من الماء ، التى ترتادها العشائر الوحشية . . كيف انبثقت فى كل مرحلة من مراحل الإنشاء مدن صاخبة ، دون تخطيط أو إعداد ، مليئة بالذهب والشهوة والموت ، ثم ذوت وماتت مرة أخرى . كيف كان القراصنة الصينيون ذوو الضفائر يعملون فى هذه الأماكن الغريبة جنباً إلى جنب مع أوغاد من مناطق الحدود ومفلسين من أوربا ، يتكلمون معاً بلهجة مختلطة ، أغلبها سباب وشتائم ، ويقامرون ، ويشربون الخمر ، ويتعاركون ، ويقتل بعضهم بعضاً كالذئاب . . ثم عندما أوغل فى التفكير فأتذكر أن كل هذا النشاط الملحمى الصاخب كان يوجه بوساطة سادة فى سترات (فروك) ، لا يتطلعون إلى شىء غير عادى يتجاوز الحصول على ثروة وزيارة لباريس بعد ذلك ، يتراءى لى أنه إذا كان هذا الخط الحديدى هو الإنجاز المثالى الأوحد للعصر الذى نعيش فيه . . إذا كان ما نبتغى هو الخيال الشاعرى ، التناقض ، البطولة ، فكيف تقاس طروادة بهذا ؟

كان هناك خيال شاعرى وبطولة حقاً ، ولكن كان ثمة ثروة وزيارة لباريس كذلك . والواقع أن الإنجاز الذى جلب مثل هذا الزهو ، جلب فى الوقت ذاته شعوراً بالعار . فإن مديرى يونيون باسيفيك لم يقنعوا بسخاء الحكومة ، فأقاموا شركة وهمية للإنشاءات ، وأجازوا عقوداً احتيالية درت عليهم أرباحاً بلغت ملايين الدولارات . وأنشأ الأقطاب الأربعة لخط سنترال باسيفيك شركة إنشاءات خاصة بهم ، واستخلصوا لأنفسهم ما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات ، وقد خلف كل منهم عندما مات

(١) العوارض الخشبية الفلنكات والقضبان المستعرضة لتثبيت القضبان الطويلة ــ المترجم .

ما يتجاوز أربعين مليوناً . ولقد أقبل كل من الفريقين من المديرين على الرشوة الجماعية ، وأثقل كل من الفريقين خطة الحديدى بديون اضطرت الحكومة معها إلى أن تطالب دون طائل بقروضها ، واضطرت المجتمعات التى كان الخطان يخدمانها إلى أن تدفع أجوراً باهظة للنقل لمدة جيل تال .

وفى تلك الأثناء ، وضعت مشروعات كثير من الخطوط الحديدية الأخرى العابرة للقارة ، اكتمل منها أربعة . فبمساعدة منحة من الكونجرس قدرها أربعون مليوناً من الدونمات من الأراضى العامة ، بدأ جاى كوك خط نورذرن.باسيفيك الذى ربط بين بحيرة سوبيريور وبوجيت ساوند فى سنة ١٨٨٣ ، والذى أكمله فريدريك بيلينجز وهنرى فيلارد . ولم يكن خطان آخران عابران للقارة أقل حظاً من السابقين من المنح المتمثلة فى الأراضى ، وذلك هما : خط سانتا فيه الذى امتد على طول الدرب القديم من كنساس إلى نيومكسيكو ، وخط سوذرن باسيفيك الذى امتد من نيوأورليانز إلى لوس أنجلس وسان فرانسيسكو . ولم تكن هذه الخطوط ، والخطوط الأخرى التى اتجهت إلى الغرب ، تتلقى الهبات من الحكومة الاتحادية وحدها ، بل من الولايات والمقاطعات كذلك . ولم ينشأ من الخطوط العابرة للقارة دون ما مساعدة حكومية سوى خط واحد ، هو جريت نورذرن . وهذا الخط ، الذى أنشأه جيه . جيه . هيل الكندى المولد ، يوازى خط نورذرن باسيفيك من سانت بول حتى سياتل . وقد أثبت من الناحية المالية أنه أسلمها جميعاً ، ومن ناحيتى السياسات الاقتصادية والاجتماعية أنه أكثرها نفعاً . فالواقع أن هيل كان من بناة الإمبراطورية ، وقد أدت شركة جريت نورذرن خدمات لا تقل عما أدته شركة خليج مساشوستس فى القرن السابع عشر ، وشركة أوهايو فى القرن الثامن عشر ، إذ نقلت المستوطنين إلى الإقليم ورعتهم طيلة العام الأول . وشيدت الكنائس والمدارس ، ونمت بنمو الإقليم .

مملكتا التعدين والماشية

كان عمال المناجم هم الذين أنشأوا المراكز الأمامية الأولى فى الغرب الأقصى . ولقد أدى اكتشاف الذهب فى كاليفورنيا إلى تحويل تلك الولاية من مركز أمامى رعوى لتربية الماشية

فى اسبانيا الجديدة ، إلى ولاية أمريكية ناهضة وفتح السبيل إلى أنشطة اقتصادية متباينة : زراعة ، وملاحة ، وسكك حديدية ، وصناعة . وقدر لهذه التجربة أن تتكرر مراراً متتابعة فى تاريخ مملكة التعدين ، عند الاندفاع إلى منطقة بايكس بيك فى سنة ١٨٥٩ ، وإلى ألدر جلش ولاست تشانس فى مونتانا ، وضفاف الماء العذب فى وايومينج فى أواسط الستينات ، وإلى بلاك هيلز فى داكوتا فى السبعينات . فكان رجال المناجم يفتحون المناطق غير المعمورة فى كل مكان ، ويقيمون مجتمعات سياسية ، ويرسون الأسس لمستوطنات أكثر استقراراً . ومع نضوب الذهب والفضة أو وقوعها فى أيدى الشركات الشرقية ، وهبوط حمى التعدين ، أخذ المستوطنون يفطنون إلى احتمالات الزراعة وتربية الماشية فيما حولهم ، أو يسعون للعمل فى الخطوط الحديدية التى كانت ، تمتد موغلة من الشرق والغرب . ولقد ظلت بعض المجتمعات مقتصرة على التعدين تقريباً ، غير أن الثروة الحقيقية لمونتانا وكلورادو ، ولوايومينج وإيداهو ، وكاليفورنيا ، كانت فى حشائشها وتربتها . وفى مجال الثروة المعدنية ، لم تلبث قيمة النحاس والفحم والنفط ــ التى كانت متوفرة بكثرة ــ أن فاقت قيمة المعادن النفيسة التى أغرت المغامرين فى البداية .

وكان تداعى مملكة التعدين سريعاً كقيامها ، ولكنها تركت أثراً لا يمحى فى العقلية الأمريكية . كانت لمعسكرات التعدين صورة بديعة بدرجة رائعة . فإن العثور على مصدر جديد كان كفيلاً بأن يجتذب آلافاً من الساعين للثراء فيتدفقوا على أحد المراكز الأمامية فى البرارى المقفرة . وإن هى إلا أيام قلائل حتى تقوم مئات الخيام والأكواخ الخشبية على ضفاف أحد الجداول ، أو تتناثر على سفح الجبل الذى تتوارى الثروة فيه . وقد يكون أى منزل آخر حانة أو قاعة للرقص ، حيث تقدم الخمر الرديئة لقاء خمسين سنتاً للكأس ،وحيث تسامر عمال المناجم ذوى السوالف الطويلة غانيات مترهلات . وما كان خرق القانون مسيطراً بالدرجة التى تصورها كتاب القصص الخيالية ، بيد أنه لم يكن هناك من نعم المدينة سوى القليل ، وكانت حياة المعسكر تولد الهمجية فى النفوس . ومع ذلك فإن المنازل والمدارس والكنيسة والقانون لم تلبث أن زحفت إلى هناك ، وأصبحت مجتمعات التعدين تنعم بالنظام إلى حد كبير .

ولقد أدت مملكة التعدين إلى نتائج تتجاوز إعلان الثراء الزراعى فى الغرب ، واجتذاب المستوطنين ، وإمداد الروائيين والمخرجين السينمائيين ــ فيما بعد ــ بالمادة . . فلقد عجلت تطور مشكلة الهنود ، وجلبت السكك الحديدية إلى هناك ، ودفعت سيلاً

من الشراء إلى خزائن المستثمرين الشرقيين ، وأضافت ما قيمته حوالى بليونين من الدولارات من المعادن الثمينة إلى ثروة الأمة ، وبهذا مكنتها من تعويض العملة الخضراء الظهر بقيمتها النوعية ، وأدخلت مشكلة النقود على المسائل السياسية الأمريكية .

كان ثمة فصل جديد ، وأكثر أهمية مما سبق ، يسجل فى تاريخ الحرب ، حتى فى الوقت الذى كان المعدنون ينقبون خلاله فى تلال نيفادا ومونتانا . ذلك هو قيام مملكة الماشية . وكان الأساس المادى الطبيعى هو أراضى الحشائش فى الغرب ، الممتدة فى استرسال من ريوجرانده إلى الحدود الشمالية ، ومن كنساس ونبراسكا إلى وديان جبال روكى . فهنا كان ملايين من الجاموس تهيم على هواها ، بيد أن الجاموس أوشك على الانقراض خلال عقدين من الزمن ، وحلت محله أكثر من أبقار تكساس اللونجهورن ، وثيران وايومينج ومونتانا .

وكان ثراة الإسبان ومبشرو الإرساليات قد ظلوا قرناً من الزمن يربون الماشية فى شمال المكسيك ، وعلى طول ريوجرانده ، وفى وديان كاليفورنيا الجنوبية ، بيد أنها لم تكن ذات قيمة إلا للاستهلاك المحلى ولتوفير الشحم والجلود لهم . وبمقدم السكك الحديدية ، وإقامة دور التعليب فى سانت لويس ، ومدينة كنساس ، وأوماها ، وشيكاغو ، وابتكار عربات التبريد ، أصبح تحسين سلالات الماشية وقيادتها شمالاً إلى الأسواق عملية مربحة . وابتداء من بعد الحرب الأهلية مباشرة ، أصبح سوق الماشية فى الرحلة الطويلة نظاماً سنوياً . فكانت عشرات الآلاف منها تقطع دروب تشيزولم وبيكوس وجودنايت وبوزمان ، وتهدر صاخبة فى مدن الماشية ــ مثل آبيلين وتشيين ــ التى قامت عند نهايات الخطوط الحديدية الجديدة . وفى هذه الأثناء ، كان مربو الماشية قد تبينوا أن بوسعهم أن يغذوا أنعامهم فى الشتاء على حشائش الشمال الوفيرة ، وامتدت الإمبراطورية إلى كلورادو ، ووايومينج ، ومونتانا . وكانت تكساس تمتلك معظم الماشية ، ولكن وايومينج كانت أعظم مثال لموطن رعاة البقر . فلم تكن من حرفة فيها تزاحم الماشية لسنوات ، ومن ثم فرضت جمعية مربى الماشية فى وايومينج سيطرتها دون منازع .

كان فى وسع أى امرىء تقريباً فى البداية أن يشرع فى تكوين قطيع ، بأن يحصل على بضع بقرات وعجول ثم يتركها ترعى فى الأرض العامة . على أن كبار المربين وشركات الماشية ــ وقد أنشىء معظمها فى الشرق أو فى بريطانيا ــ سيطروا على الصناعة بأن استباحوا المراعى العامة أو استأجروا أراضى من العشائر الهندية ، وضربوا أسواراً

حول آبار الماء والجداول . فاستأثرت إحدى الشركات بمليون دونم من الأراضى العامة فى كلورادو ، وأحاطت شركة أخرى مقاطعة جونز ــ بولاية تكساس ــ بأسرها بالأسوار . كما أجّرت عشائر تشيين الهندية أربعة ملايين دونم من أراضيها لمجموعة واحدة من شركات الماشية ، ونزلت العشائر المتحضرة فى الإقليم الهندى عن ستة ملايين دونم لشركة واحدة . ولقد تصدى كبار مربى الماشية لصغار المنافسين فى غير رحمة ، وشنوا حرباً لاهوادة فيها ضد مربى الأغنام الذين كانت أغنامهم توغل فى التهام الحشائش بدرجة أتلفت المراعى .

ولمملكة الماشية جانبها الخيالى الشاعرى ، كما لمملكة التعدين ، وقد ظلت ذكرى هذا الجانب باقية فى الوعى الأمريكى بعد زوال مملكة الماشية ذاتها : الحياة الموحشة فى السهل ، مطاردة الماشية على صهوات الجياد لجمعها وسوقها ، العلامات الغريبة التى كانت تدمـغ بها ، سوق الماشية فى رحلات طويلة ، تشتت القطعان هاربة فى ذعر ، الحـرب ضد سارقى الماشية ، البراعة الرائعة فى ركوب الخيل ، الزى الملفت للأنظار الذى صمم بمراعاة نفعه وليس وقعه على النفوس . . الحياة الفظة الجامحة فى مدن الأبقار مثل آبيلين و تشيين . كل هذه وجدت طريقها إلى الأدب الشعبى والأغانى الأمريكية . ولقد أصبح الأطفال يرتدون ثياباً تشبه زى رعاة البقر ، والأفلام السينمائية تظهر رجال مزارع تربية الماشية وهم يطلقون الرصاص على اللصوص فلا يخطئون الهدف ، والبلاد كلها تردد الأغنية التى اشتهرت بأنها كانت المفضلة لدى فرانكلين روزفلت :

إلى المواطن ، إلى مزرعة الماشية . .
حيث الأيل والبقرة الوحشية يلعبان . .
وحيث نادراً ما تسمع كلمة مثبطة للهمة . .
وحيث تخلو السماء من السحب طيلة النهار .

مقـدم المـزارعـين

كانت تربية الأغنام والماشية عملية طبيعية فى السهول الشمالية ، فكان كثير من مربى الماشية موقنين بأن من الخطأ للمزارعين أن يحاولوا الاستقرار فى تلك البلاد . ولقد نشر

زبولون بايك ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، أنه « يبدو لى أنه لن يتسنى إلا إدخال عدد محدود من السكان إلى أحواض أنهار كنساس ، وبلات ، وأركنساس ، وروافدها العديدة . . وسيجد السكان أن من الأنفع أن يوجهوا عنايتهم إلى الإكثار من الماشية ، والجياد ، والأغنام ، والماعز » . ولقد قال أحد أعضاء مجلس شيوخ الولايات المتحدة ، بعد نصف قرن ، معارضاً ضم كنساس كولاية إلى الاتحاد ، إنه « لا يوجد إقليم للاستيطان أو السكنى ، بعد أن نجتاز نهر المسيسيبى ، اللهم إلا أحواض جداول قليلة » . ولقد أثبت هذا التعميم أنه خاطىء ، وإن كانت الأحداث التى تلت قد كشفت عن أن الزراعة فى قطاعات كبيرة من الغرب الأجرد غير مربحة . وعلى أية حال ، فإن مربى الماشية كانوا موقنين من أن الطبيعة ذاتها خولتهم ملكية كافة أراضى الرعى فى الغرب ، فأغفلوا قوانين الأرض سواء بحق أو باطل ، وضربوا الأسوار حول مساحات شاسعة ، واحتكروا المجارى المائية ، وحاولوا أن يصدوا زحف المزراعين .

غير أنها كانت حرباً خاسرة ، فقد كان بوسع مربى الماشية أن يرهبوا « المتسللين للاستقرار » فرادى ، بيد أنهم لم يكونوا يملكون تحدى الحكومة الاتحادية باستمرار . وعندما أمر الرئيسان آرثر وكليفلاند بقطع الأسوار المضروبة من الأسلاك الشائكة ، وإباحة أراضى المراعى لواضعى اليد ممن يقيمون بيوتاً تلحق بها قطع من الأرض ، انتهت هذه الخطة . ولقد فتحت السكك الحديدية أثناء السبعينات والثمانينات السبل إلى جميع إقليم السهول ، واشتركت فى جهود التعمير على نطاق واسع . فأغرقت شركة نورذرن باسيفيك أوربا بإعلانات تصف ما لتربة الغرب من خصب المناطق الحارة (وهذا منشأ ما أسماه جاى كوك « حزام الموز ») ، إذا كانت تريد النزول عن أربعين مليون دونم ، وقد جاء وقت كان لفيلارد ــ خليفة كوك ــ فيه ما يزيد على ثمانمائة وكيل فى الخارج يروجون لصفات الأرض . أما شركة سانتا فيه فجلبت آلافاً من الروس المينونيين [1] ، واجتذبت شركة سوذرن باسيفيك الألمان والاسكندنافيين ، وأقام هيل نفوذه وسلطانه عن طريق إقراض المزراعين المعدمين ، وتقديم المساعدات للزراعة بالطرق العملية ، وبناء الكنائس والمدارس . وتم القضاء على مقاومة الهنود ، وأقصيت بقايا العشائر المهزومة عن الإقليم أو سيقت إلى مناطق أفردت لها . وأخذت المصانع التى

(١) Mennonites أتباع مذهب من مذاهب الكنيسة البروتستانية نشأ فى سويسرا أصلاً ــ المترجم .

تناثرت على حافة إقليم السهول فى إنتاج ملايين الأميال من الأسلاك الشائكة ، وآلاف من طواحين الهواء وبريمات حفر الآبار ، مما يسر الزراعة فى الأراضى القاحلة . ولقد تدفق على الإقليم ملايين من المهاجرين ، وازداد السكان اثنين وعشرين مليوناً ، واشتد الضغط على المناطق الأقدم عهداً بالتوطن ، بينما اتسعت السوق المحلية للمنتجات الزراعية .

إزاء غلبة هذه التوقعات المشجعة ، شهدت السبعينات والثمانينات انتشاراً جامحاً حقاً فى إقليم السهول . وقد تذكر هاملين جارلاند هذا عندما ذهب ليطلب تخويلاً بامتلاك أرض فى داكوتا فكتب يقول :

> كانت القطارات الزاخرة بالمهاجرين من كل بلد فى العالم تزحف ببطء فى الأراضى المستوية . فكان هذا السيل من الساعين لامتلاك الأراضى يضم خليطاً من النرويجيين والسويديين والدنمركيين والاسكتلنديين والبريطانيين ينسابون جميعاً نحو السهول الغربية ، حيث أفرد العم سام وادياً خصب التربة لإثراء كل إنسان . . كان الشارع يعج بالمنتفعين بالرخاء . ولا حديث إلا عن حصص الأرض . وساعة بعد أخرى ، ومع انحدار الشمس للمغيب ، كان الساعون لتملك الأرض يعودون إلى الفندق من جولاتهم فى الأراضى التى لم يتم تملكها ، وهم جوعى ، مكدودون ولكنهم متهللو الأسارير .

كانت أمثال هذا المشهد تجرى فى كافة أرجاء السهول . ففى عقدين من الزمن ازداد عدد سكان منيسوتا إلى ثلاثة أمثالهم ، سكان كنساس إلى أربعة أمثالهم ، وسكان نبراسكا إلى ثمانية أمثالهم ، بينما وثبت داكوتا من أربعة عشر ألفاً إلى نصف مليون ، أما تكساس الهائلة ، ذات المليونين والربع من السكان ، فقد أزاحت مساشوستس عن المكانة السادسة فى قائمة السكان . وبوجه الإجمال ، ازداد سكان الولايات التى تغلب عليها الزراعة ــ وهى مينيسوتا ، وكنساس ، ونبراسكا ، وولايتا داكوتا ، وكلورادو ، ومونتانا ــ فى تلك السنوات العشرين من مليون إلى خمسة ملايين . . وهو معدل يبلغ ثمانية أمثال معدل الزيادة فى البلاد بأسرها . كان الأمر كما قال توكفيل العظيم ، قبل ذلك بنصف قرن : « هذا التقدم التدريجى المستمر لزحف العنصر الأوربى فى اتجاه

جبال روكى ، أوتى مهابة توحى بأنه من تدبير العناية الإلهية . كأنه طوفان من البشر ، يفيض فى تدفق لا يهن ، ويندفع فى كل يوم قدماً بتوجيه الله » .

وما إن حانت نهاية الثمانينات ، حتى كان سيل الهجرة الدافق على السهول قد استنفد عنفوانه ، وبدأ فى بعض الأماكن ينحسر . فإن الضائقات ونوبات الجفاف دفعت كثيرين من المزارعين الطموحين إلى مغادرة الأراضى الجرداء غربى كنساس ونبراسكا وشقى داكوتا عائدين إلى الشرق . وانخفض معدل تزايد السكان بطفرات : فلم تزدد نبراسكا مثلاً سوى أربعة آلاف نسمة أثناء التسعينات ، ولم تزدد كنساس سوى أربعين ألفاً . . فى حين أن الزيادة فى أى مكان آخر لم تكد تتجاوز التكاثر الطبيعى لسكان ولودين .

ومع ذلك ، لم يكن أروع الفصول فى تاريخ فتح الغرب قد كُتب بعد . كان الرواد الأوائل قد ظلوا نصف قرن يتطلعون بنهم إلى المنطقة الغنية القائمة بين تكساس وكنساس ، والتى كانت ممنوحة كمكان إقامة دائم مقصور على خمس عشائر من الهنود المتحضرين . ولم تحن الثمانينات ، حتى كان الضغط للحصول على الأراضى المنخفضة الخصبة فى أحواض أنهار أركنساس ، وكنيديان ، ورد ، وواشيتا قد بلغ أشده فلم تعد الحكومة تقوى على مقاومته . وتم شراء حقوق التملك الهندية . ثم فتح الإقليم فى أبريل سنة ١٨٨٩ للتوطين . وكان الاندفاع إلى الأراضى الجديدة جنونياً . وبعد سنوات قلائل ، جرى اندفاع مشابه عند فتح شريط الأرض الذى كان موطناً لعشيرة الشيروكى فى شمال أوكلاهوما للتوطين . وهذا ما يصفه ماركيز جيمس فى كتابه « قطاع شيروكى » بقوله :

> أجل يا سيدى ، كان فى هذا السباق آلاف من الجياد ، وآلاف من الراكبين والسائقين ، وقد انتشروا فى صف عبر البرارى إلى أقصى ما يبلغ بصرك . وسألنى أبى أن أتطلع شرقاً وأن أتطلع غرباً وأن أتصور كل هذه الجياد وقد صفت جنباً إلى جنب ، متأهبة للانطلاق . كان معظم الجياد تحمل سروجاً للركوب . أما الباقية فكانت مشدودة إلى نوع من المركبات . . وكانت المركبات الخفيفة هى أفضلها ، من البكبورد [١] ، إلى العربات

(١) البكبورد Buckbard عربة يزود مقعدها وحده بالزنبركات .

ذات الـزنـبركـات [١] ، إلى الصلكى [٢] ، بيد أنـه كان ثمة مركبات كبيرة مغطاة غير مكشوفة ، كثيرة العدد ، كما كان ثمة سائرون على الأقدام .

وكـانت تنطلق مع صرخة عالية ، فلا تستطيع فى البداية أن تتبين شيئاً ، بسبب الغبار الذى يثار عندما تسحق سنابك الخيل الحشائش على طول خط الانطلاق . وفى هذه السحـابـة الكثيفـة ، كانت عجـلات المركبـات تلتحم فيسقط بعضها فى بداية التحرك . فإذا ما تقدم المتسابقون على الأعشاب ، انحسر الغبار ، اللهم إلا على طول درب شيزولم . وكان راكبو الجياد فى الطليعة ، فى غالب الأحوال ، تليها أسرع الجياد التى تجر المركبات الخفيفة . وعلى هذا النسق يمضى الركب . ولا تنس أنه لم تكن ثمة طرق ، عدا الـدرب ، ولا جسـور . وعليك أن تهبط الـوهاد وتصعد منها ، وأن تعبر الجـداول والـوديان الشـديدة الانحـدار والأخاديد بما وسعك من حيلة ، أوعليك أن تتفـاداها . وكانت المركبات الكبيرة تنغرز فى الجداول ، أوتتعطل فى الوهاد أوتصاب بعطب من جراء الرحلة الشاقة . وشيئاً فشيئاً ، كانت الجياد التى يركبها أفراد أويسوقها الحوذيون بشدة تبدأ فى التباطؤ منهوكة ، وتشرع الجياد التى بدأت بسرعة أقل فى التقدم عليها . . وفى الأميال الخمسة إلى إنيد ، ظل فى المقدمة حوالى مائة من الآلاف التى انـطلقت . وتخلف معـظم الجياد الأخـرى مسـافات طويلة ، وكان بعضها يخرج من الركب ، على طول الطريق ، ليضع أصحابها أيديهم على أراض على طول الدرب ، أو لينحرفوا بها شرقاً أو غرباً . أما الباقية فكانت تواصل السيرلتقترب من إنيد . وتضاءل المائة الذين فى الطليعة إلى خمسين ، وجميعهم تقريباً على صهوات الجياد ، وإن ظلت بعض المركبات البكبورد متقدمة معهم .

ولم يحن عام ١٩٠٠ ، حتى كان فى هذا الإقليم سكان يناهرون ثمانمائة ألف . اختفت مملكـة التعدين ومملكة الماشية ، ثم اختفت الحدود كذلك . ولقد ظلت هناك مناجم فى الغرب حقاً ، ولكنها كانت مشروعات تجارية جيدة التنظيم ، تملكها وتديرها شركات شرقية ، وظلت ملايين الماشية تربى فى مناطق الأعشاب من تكساس

(١) Spring Wagon : مركبة كبيرة يقوم جسمها على زنبركات

(٢) Sulky : مركبة بها مقعد لراكب واحد ، ويجرها جواد واحد ـ المترجم .

ونيو مكسيكو ، حتى مونتانا وشطرى داكوتا ، غير أن المراعى المباحة كانت قد تلاشت ، وأصبحت تربية الماشية واحداً من عدد من المشروعات الاقتصادية . كذلك ظلت فى الغرب أرض ، ولكنها غالباً ما كانت فى الجبال ، أو فى مناطق قفراء لا تكون الزراعة فيها مربحة بغير الرى . وأخذ الغرب يمتزج باطراد ، من حيث البنيان الاقتصادى ، ببقية البلاد .

كذلك تقدم الامتزاج ، من الناحية السياسية ، بخطوات سريعة . فأصبحت نيفاداً ولاية فى سنة ١٨٦٤ ، وكان الفضل الأكبر هو شعور لينكولن بأنه قد يحتاج إليها من أجل الأصوات الانتخابية . وبلغت نبراسكا مرتبة الولاية فى سنة ١٨٦٧ ، وأصبحت كلورادو ولاية فى العيد المئوى لإعلان الاستقلال فى سنة ١٨٧٦ . وأعقبت ذلك فترة تلكؤ طويلة ، تطور خلالها آخر أجزاء الغرب ، وأخذت الأحزاب السياسية تتسابق للسيطرة على الأقاليم الجديدة . وأخيراً ، أسقطت آخر الموانع فى سنة ١٨٨٩ - ١٨٩٠ ، وبقانون شامل ، ضمت ست ولايات غربية للاتحاد : شطرا داكوتا ، ووايومينج ، ومونتانا ، وإيداهو ، وواشنطن . ومع أن يوتاه كانت مأهولة من أمد طويل يجعلها جديرة بأن تصبح ولاية ، فإنها كانت موضع توجس نظراً لسيطرة المورمون عليها ، فلم ترق لمكانة الولاية إلا بعد بضع سنوات . وأصبحت أوكلاهوما ولاية فى سنة ١٩٠٧ ، وولايتا أريزونا ونيو مكسيكو الجنوبيتان الغربيتان فى سنة ١٩١٢ . وهكذا اتخذت الحدود السياسية للدولة شكلها الدائم ، واكتملت العملية التى بدأت بقانون الشمال الغربى فى سنة ١٧٨٧ .

وكانت الولايات الغربية شبيهة بالشرقية فى تنظيمها السياسى . فكان الشكل المألوف للحكم متبعاً فى كل مكان : ثلاث سلطات منفصلة ، وهيئة تشريعية ذات مجلسين ، نظام الحكومة المحلية فى المدينة وفى المقاطعة . على أن دساتير الولايات الجديدة اختلفت فى بعض النواحى عن الدساتير القديمة . فقد كانت أكثر تفصيلاً ، وكانت موضوعة بمزيد من الدقة . وأكثر تحرراً وتقدمية بوجه عام . ولقد نص معظمها على منح المرأة حق الانتخاب بشكل من الأشكال ، وحرمت الترستات والاحتكارات ، وأحاطت السكك الحديدية بلوائح منظمة ، وأقامت معايير تقدميه للعمل والحركة العمالية . على أن الفلسفة التى أوحت بها ، والهمة التى بثت فيها الروح ، لم تكونا تختلفان فى جوهريهما عن تلك الشائعتين فى الولايات بأسرها .

الحياة فى المنطقة الأخيرة لحدود العمران

كانت حدود العمران دائماً تتسم بالصعاب والأخطار ، ولم تشذ عن ذلك الحدود الأخيرة . كانت الحياة قاسية ومخيبة للآمال بدرجة مريرة باستمرار ، بالنسبة للرجال والنساء الذين تركوا المدن أو المزارع التى اقتطعت من الغابات فى الشرق . كان العمل أشق ، والجزاء أقل منهما فى مزارع وادیی أوهايو والمسيسيبى . كانت البرارى المترامية دون نهاية حتى أبعد الآفاق ، والسحب الكبيرة المثقلة بالأمطار ، وغروب الشمس الرائع ، مناظر لها جمالها الخاص فى نظر البعض ، ولكن السهول كانت تبدو جرداء ورتيبة الاسترسال بدرجة مملة فى نظر الأغلبية . كانت الشمس الحامية تنصب فى غير إشفاق على المنهمكين فى الحرث أو الحصد فى الصيف ، وكانت الرياح الجافة الحارة تهب من الجنوب فتجعل الحياة ، حتى فى الليل ، أقسى من أن تطاق . وكان الشتاء يهبط مسرعاً ، ببرودة قارسة ، فتهبط درجة الحرارة إلى عشرين وإلى ثلاثين تحت الصفر ، كما كانت العواصف الثلجية التى تحجب الرؤية تهب متواصلة لعدة أيام ، فتخلف وراءها جثث آلاف من الماشية متناثرة على السهول ، وتقضى أو تشوه أجسام الرجال والنساء الذين يرميهم الحظ العاثر إلى التعرض لها ، كان الرجال أحياناً يضيعون وهم يتلمسون طريقهم من بيوتهم إلى حظائر مواشيهم .

كان للرجال عملهم وآمالهم ، وكانت مشقة العمل والوحدة الموحشة تثقل على أصلب النساء جلداً . كان الكثيرون منهم قد نشأوا نشأة مريحة فى الشرق ، ثم قدر لهم أن يقيموا بيوتهم الأولى فى مغارات أو أكواخ من الطين ، معتمة ، سيئة التهوية ، تغطى نوافذها وأبوابها بالملاءات أو جلود الحيوان ، والأمطار تخلف بركاً من الماء على أرضها العارية . وكانت البيوت الخشبية غير المصقولة التى خلفت هذه البنايات البدائية أكثر مناسبة ولكنها لم تكد تقل عنها قبحاً . كانت تقام على بطاح لا أشجار فيها ، وكانت صغيرة بنيت بعجلة ، وطليت بلون رمادى كئيب ، حارة فى الصيف ، وباردة فى الشتاء ، غير بهيجة باستمرار . ولم يكن ثمة وجود للأشجار والأدغال والزهور التى لا تخلو منها المزارع فى الشرق ، حتى أفقرها ، وإن كان بعضها قد غرس فى بعض الأوقات ، وأحيط بالعناية عند تيسر الحصول على الماء . على أن الماء الذى يخصص لزراعة الحدائق ، بل ولتنظيف البيت وغسل الثياب ، كان قليلاً . وكان أكثر الناس

بسـالـة يفقدون عزيمتهم فى أوقات الجفاف ، عندما تذوى الذرة ، وتذبل الكروم ، وتنضب الآبار ، وتدفع ريح الجنوب غباراً صلب الذرات إلى أركان البيوت وفجواتها ، وترتفع درجة الحرارة إلى ما بين تسعين ومائة ليلاً ونهاراً .

وكانت الوحدة والعزلة أسوأ من الحرارة والغبار وقسوة العمل . فكم من زوجة فى مناطق الحدود فقدت اتزانها العقلى ــ مثل بيريت فى رواية « عمالقة فى التراب » العظيمة للكاتب أول رولفآج ــ فى انعزالها عن متع الاتصال الاجتماعى ، وسلوى الكنيسة ، ومسـاعـدة الأطبـاء . كان الأطفـال يولـدون بمساعدة الجارات الرحيمات ، أوبدون مسـاعـدة فى كثير من الأحيان . وكانت الوفيات بين الأطفال الحديثى الولادة مرتفعة بدرجة فظيعة . كما تشهد المقابر الصغيرة المثيرة للأسى . وكان المرض مبغوضاً لصعوبة مجىء المعـونة الطبية وفداحة النفقات . وكان الماء الملوث يسبب التيفويد ، كما كانت الكـوليرا ، وذات الرئة ، والحصبة متفشية ، وبينما كان للحوادث نصيب كبير . كان الأطباء المكدودون يقومون بعمليات بطولية ، بدون مخدر فى كثير من الأحوال ، وبأسوأ الأدوات الجراحية . ويروى إيفريت ديك قصة طبيب شاب قام بأول جراحة مارسها لاستئصال الزائدة الدودية دون مخدر ، وعلى ضوء مصباح يشعل بالكيروسين ، وعندما انطفأ المصباح ، استؤنفت الجراحة على ضوء فتيلة يتصاعد من لهيبها الدخان .

كانت الحياة فى المـدن الصغـيرة تتيح قدراً أكبر من التنوع والصلات الاجتماعية ، ولكنهـا كانت كئيبـة وموحشة . كانت البلدة النموذجية فى السهول ، فى تلك الفترة ، صغيرة ، غير مكتملة ، يحلم أهلها بمستقبل باهر ، ولكنهم على استعداد دائماً لأن يحزموا أمتعتهم فى أوجز وقت لينتقلوا إلى موقع آخر أفضل حالاً . تصور شارعاً ضيقاً موحلاً ، ذا رصيفين من الخشب ينتهيان فجأة عند حافة الخلاء ، وعلى كل من الجانبين صف من البيوت الخشبية الرثة التى لوحت الشمس طلاءها الرمادى . وكانت أبرز البنايات هى الحانات ، والمتجر العام ، وحظيرة إيواء الجياد بالأجر [1] ، والفندق ، والمحطة التى يجتمع فيها أهل البلدة كل يوم فى انتظار القطار الذى يجلب الصحف والمجلات والقوائم المصورة (الكتـالـوجات) للسلع الممكن طلبها بالبريد ، والرسائل من الأصدقاء وأفراد الأسرة البـاقـين فى الشرق ، والبـائـع المتجـول أووسيط القـروض أومشـترى الغـلال ممن

(١) حظيرة يترك فيها زائر البلدة جواده ريثما يؤدى مهامه ، لقاء أجر ــ المترجم .

يترددون على البلدة من وقت لآخر . وفى أحد طرفى الشارع تقوم الكنيسة ــ وهى عادة منهجية (ميثوديست) أو معمدانية أو مشيخية ــ حيث يعتق المترددين من نيران الجحيم قس ينوء بالفاقة وبسوء الراتب ، يزورها فى الشهر مرة . وفى الجانب المقابل ، فى ساحة مربعة سيئة التنسيق ، تقام المدرسة الأولية ، وهى عبارة عن مبنى فج ذى حجرتين مؤثثتين بمقاعد خشبية طويلة للتلاميذ ، ومقعد ومكتب للمدرس . . وهو عادة فتى قضى عاماً فى مدرسة المعلمين ، أو سيدة عانس أو أرملة تدفعها الحاجة إلى العمل . وتغرس فئة قليلة من أكثر أهالى البلدة تقدمية بعض الأشجار ، وهنا وهناك يتراءى صف من شجيرات عباد الشمس أو زهور الخطمى أو كرمة من زهور نجمة الصباح ، حيث تكون إحدى ربات البيت قد بذلت محاولة صادقة للتجميل . وفى الساحات الخلفية للبيوت ، يلعب أطفال يكتسون ثياباً من الشيت الخام أو التيل الأزرق ، أو هم يتجمعون أمام حانوت الحداد يتأملون عمله مبهورين . وفى المتجر العام ، أو حظيرة الخيل ، يجلس فى تراخ رجال ذوو سوالف طويلة ، فى زى موحد أشبه بالأوفرول ، يتحدثون عن الفرص المرتقبة للمحصولات أو أسعار الذرة ، أو يتدبرون الأحوال السياسية .

ولم يكن للجريمة أو الرذيلة حظ كبير ، ولكن كان ثمة إفراط فى الشراب ، وعدد من المشاجرات فى أمسيات السبت ، عندما يتوافد عمال الزراعة على البلدة بعد أسبوع من العمل . ومن وقت لآخر ، كان ثمة تجمع كبير ، كما كان يحدث فى الرابع من يوليو ، أو فى النزهات الخلوية ، عندما كان جميع أهل البلدة والمزارع المحيطة بها ، يشدون الجياد إلى المركبات وينطلقون إلى ضفاف أقرب نهر ، ليقضوا النهار طوله . ويصف إيفريت ديك فى كتاب « منطقة الحدود ذات البيوت الطينية فيما بين ١٨٥٤ ــ ١٨٩٠ » ، مناسبة كهذه ، فى الرابع من يوليو ، فى بلو سبرينجز بولاية نبراسكا ، فيقول :

> عينت لجنة من ثلاثة لاصطياد سمك الصلور . . ولم يحن الرابع من يوليو حتى كان هؤلاء الرجال قد جمعوا أكثر من ألف رطل من الصلور الكبير ، حبسوها فى مدخل خور قريب . . . وأقامت لجنة ثلاثية أخرى مظلة من أغصان الشجر ، وحصلت من مصنع لنشر الخشب على ألواح لعمل طاولة أربعون قدماً ومنصة للرقص . وجمعت كومة من

جذوع الأشجار من الغابة للوقود . وأوفد المتعهدون إلى براونزفيل ، على مبعدة أربعين ميلاً ، لشراء خنزير وزنه مائتان وخمسون رطلاً ، وفر كثيراً من الشحم لقلى السمك . واتخذ لوح من الحديد كوسيلة لجرش الذرة . فكان ثمة خبز جيد إلى حد كبير من الذرة ، وإن لم يكن الدقيق قد سحق جيداً ولا نخل ليصير ناعماً . كانت ثمة وليمة سخية من السمك وفطائر الذرة ، وقليل من الخبز الأبيض الذى جىء به للتحلية . وبدأ القوم يتوافدون بعد ظهر الثالث من الشهر . ولم يحن اليوم التالى حتى كان ثمة مائة وخمسون شخصاً . جاءوا مشاة وركوباً فى مركبات تجرها الثيران وبأية طريقة كان من الممكن أن يصلوا بها . وكانت السيدات يرتدين قلنسوات واقية من الشمس وثياباً بسيطة . فلم يكن فى الجمع كله سوى ثوب واحد من الحرير ، كما كان بعض الرجال حفاة . ورفع العلم على صار طوله سبعون قدماً . وقرىء إعلان الاستقلال ، وبعد غداء شهى وفير ، أرسل عدد من الكمان ــ استجلبت من مسافة ثمانين ميلاً ــ أنغامها ، وبدأ الرقص .

ولقد ازدهرت بعض المدن الصغيرة وأثرت ، فعبدت الطرق ورصفت الأرصفة ، وحل الطوب والحجر مكان الخشب فى بناء الدور ، وأقيم فندق جديد ، ودار للأوبرا ، ومصارف ومتاجر ، ومدرسة ثانوية ، كلها تشهد بالرخاء وبالزهو المحلى . بينما تضاءلت بلدان أخرى واندثرت . ففى كنساس وحدها ، اختفى ألفان من أسماء المواقع من الخريطة ، وكان نجاح أية بلدة على الحدود أو فشلها يرجع إلى حد كبير إلى السكك الحديدية . . والسياسة ، كما كان النضال بين المدن للفوز بأن تكون واحدة منها عاصمة للمقاطعة شائعاً فى إقليم السهول .

كانت منطقة الحدود الأخيرة هذه ديمقراطية تماماً ، على غرار مناطق الحدود السابقة . واختارت بعض المجتمعات الجديدة منح المرأة شكلاً من أشكال حق الانتخاب . . وسبقت وايومينج سواها فى ذلك ، فى سنة ١٨٦٩ . ونصت بعض الدساتير الجديدة على حق الناخبين فى اقتراح سن أو تعديل القوانين ، وعلى الاستفتاء الشعبى فى المسائل العامة ، كما كان معظم الموظفين المسئولين ــ حتى القضاة ــ يختارون بانتخاب شعبى . على أن الديمقراطية كانت أكثر ظهوراً فى العلاقات الاجتماعية منها فى السياسية . فكانت الشبهات تحيط بأى امرىء أحسن ثياباً من جيرانه ، وأى امرىء يبدو متعالياً ، وأى امرىء يزهو باستخدام خدم فى بيته . وكان المصرفى ، وصاحب

المتجر ، والمحامى ، والزارع ، وصاحب حظيرة الخيل يجلسون معاً ، فى أقمصة مشمورة الأكمام ، فى ميدان البلدة ، ويشغلون مقاعد كالتى يشغلها سواهم فى الكنيسة ، وكل الأطفال يذهبون إلى المدارس العامة ، كما يذهب الطموحون من الشباب رجالاً ونساء إلى أقرب الكليات الطائفية ، أومدارس المعلمين أو جامعات الولايات التى أقامتها كل ولاية غربية فى مرحلة مبكرة من عمرها . ولقد امتزجت عناصر كثيرة فى هذه المجتمعات التى قامت فى منطقة الحدود . فاختلط البريطانيون ، والألمان ، والنرويجيون ، والوافدون من بوهيميا ، وحفنة من اليهود ، مع الأمريكى المولد من أبناء الولايات المحيطة ، فكان هناك تسامح عام شامل إزاء الفوارق العنصرية واللغوية والعقيدية . كانت منطقة الحدود الأخيرة هذه أكثر من سابقاتها جميعاً ديمقراطية واتساماً بالطابع الأمريكى ، من عدة اعتبارات .

الفصل ١٧

المزارع ومشكلاته

الثورة الزراعية

ظلت الثورة الصناعية تعتبر الحقيقة الأساسية للتاريخ أمداً طويلاً . غير أن الثورة الزراعية لم تكن تقل عنها أهمية . ولقد أثارت خيال جيلين من الأمريكيين انتصارات صناع الحديد ، ومنشىء السكك الحديدية ، والمهندسين ، وقادة الصناعة ، وأقطاب الشؤون المالية ، غير أن انتصارات المزارعين « ومكافحى الجوع » ليست أقل روعة ، وإن كانت أقل إثارة للانبهار . والواقع أن الثورتين ــ الصناعية والزراعية ــ متكافلتان ، تستند كل منهما إلى الأخرى . فلولا الآلات والسكك الحديدية ما تسنى للثورة الزراعية أن تحدث ، ولولا سيل الغلال المتدفق على مخازن المدن الكبرى ما أمكن قيام الثورة الصناعية . فلقد ظل البشر قروناً يناضلون لإنتاج ما يكفى من القوت لعيشهم ، بل إن نمو السكان ذاته كان يخضع لمقدار الأغذية الميسورة . ولقد ظل شبح المجاعة مألوفاً على مر القرون ، بل إن المجاعة تقاضت ضريبتها من البشر ممثلة فى ملايين من الأرواح . كانت أحد الفرسان الأربعة الواردين فى رؤيا النبوءة (سفر الرؤيا) ، ولعلها أبشعهم رهبة ، ولقد أعفى القرن التاسع عشر معظم الجنس البشرى

من الخوف الذى يراوده من نقص الأغذية ، وكانت المزارع الأمريكية مسئولة عن هذا التحرير بدرجة كبيرة .

ففى الأربعين عاماً ، من ١٨٦٠ إلى ١٩٠٠ ، استزرع من الأرض ثلاثة أمثال ما كان فى المائتى عام من التاريخ الأمريكى التى سبقتها . وكان الإنتاج متمشياً باطراد مع ازدياد المساحة . فقد أنتجت المليونان من المزارع التى كانت موجودة فى سنة ١٨٦٠ ، ما لا يقل بكثير عن ٢٠٠ مليون بوشل من القمح ، وما يقل قليلاً عن بليون بوشل من الذرة ، وحوالى أربعة ملايين بالة من القطن ، وفى سنة ١٩٠٠ ، كانت ثمة ستة ملايين من المزارع ، أنتجت ما يزيد على ٦٥٥ مليون بوشل من القمح ، وما تجاوز بليونين ونصف البليون بوشل من الذرة ، وما ناهز عشرة ملايين بالة من القطن . وفى هذه الفترة ذاتها ، ازداد سكان الدولة إلى أكثر من الضعف ، وكان معظم الزيادة من حظ المدن ، ولكن المزارع الأمريكى أنتج من القمح والقطن وقدم من اللحم البقرى ولحم الخنزير ، واجتز من الصوف ما لم يكف لإمداد العمال الأمريكى وحدهم ، بل مكن من إرسال فائضات متزايدة لتغذية الأوربيين وكسائهم .

وهناك عاملان أساسيان يفسران إلى حد كبير هذا الانجاز غير العادى . أولهما توسع مجال الزراعة فى اتجاه الغرب ، وثانيهما إدخال الآلة والعلم على عمليات الزراعة . وقد ألممنا بالأول إلى حد ما . فإن الغرب الجديد ، المؤلف من سهول ومن وديان جبلية ، كان فى الغالب منطقة زراعة ، وفى وقت قصير بدرجة لا يكاد يصدقها العقل ، أصبح فى طليعة الإنتاج الزراعى فى البلاد كافة ، وانتقل حزام القمح غرباً من الولايات القائمة على نهر أوهايو إلى وادى نهر ميسورى ، فكانت إللينوى ، وإنديانا ، وويسكونسن ، وأوهايو ، وفيرجينيا ، وبنسلفانيا فى مقدمة الولايات المنتجة للقمح فى سنة ١٨٦٠ ، ولم تحن سنة ١٩٠٠ حتى كانت أوهايو وحدها هى التى ظلت تحتل مكانة متذبذبة بين الولايات الأولى ، وإن هى إلا عشر سنوات حتى اختفت هى الأخرى من القائمة . ولم يكن انتقال إنتاج الذرة ظاهراً بهذه الدرجة ، ولكن الحركة فى هذا الانتقال أيضاً كانت من أوهايو إلى وادى المسيسيبى . وكذلك كان أمر القطن تقريباً ، فلم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت تكساس تسبق الولايات الأخرى بكثير ، كان ما لا يقل كثيراً عن نصف محصول القطن ينمو فى غرب وادى المسيسيبى ، وخلال هذه السنوات ذاتها ، كانت جحافل الماشية والغنم تنتقل باطراد مستمر إلى أراضى الرعى فى السهول والجبال .

كان هذا الانتقال للزراعة نحو الغرب ، ينطوى على ضائقة لمزارعى الشرق والجنوب المتاخم للبحر ، فى الواقع . فإن الزراعة فى هذه المناطق أقبلت على فترة انهيار لم تبرأ منها قط تماماً لعجزها عن منافسة تربة الغرب الخصبة العذراء ، ولما تحملته من الضرائب المرتفعة وأعباء التمويل الاستثمارى . وترك قسط كبير من فيرجينيا المتاخمة للبحر لأعشاب سمار المكانس ، فأصبحت تلك الأرض المقفرة التى وصفتها إيلين جلاسجون فى روايتها ، كما تحولت مناطق كبيرة من بنسلفانيا ونيويورك إلى أراض جرداء أو ملاعب للناس فى عطلاتهم . وهجرت مئات الآلاف من الدونمات فى نيو إنجلاند لتحتلها الأعشاب البرية والغابات . وفى نصف القرن التالى للحرب الأهلية ، تضاءلت الأراضى المزروعة فى ذلك القطاع بحوالى خمسين فى المائة . وفى هذا كتب مسافر اجتاز نيو إنجلاند فى ١٨٨٩ :

> فى منتصف الطريق بين وليمزتاون (مساشوستس) وبراتلبورو (فيرمونت) رأيت على قمة تل ، انتصب نحو سماء الغروب ، ما لاح أنه كاتدرائية كبيرة . وإذ يممت إلى هناك ، وجدت كنيسة قديمة ضخمة ذات طابقين ، ومدرسة كبيرة ، وقرية ذات شارع واسع ، قد يكون عرضه ١٥٠ قدماً . وواصلت التقدم فتبينت أن الكنيسة مهجورة ، والمدرسة خالية ، والقرية خاوية . وكان صاحب المزرعة القائمة فى شمال القرية يقيم على حافة الشارع العريض ، وصاحب المزرعة القائمة فى الجنوب يقيم على الحافة الأخرى ، وهما الساكنان الوحيدان ، أما الباقون جميعاً فقد رحلوا . . إلى قرى المصانع ، وإلى المدن الكبرى ، وإلى الغرب . كان العمل الجاد والتعليم والدين والراحة والاطمئنان هنا فلم يبق سوى وحدة موحشة تسيطر على الدور المهجورة .

ولايمكن أن يكون التوسع الإقليمى وحده هو السبب فى التحول الحاد للإنتاج الزراعى ، الذى لم يكن يتناسب مع الزيادة فى الأرض المستزرعة أو فى الرجال العاملين فى الزراعة . بل إن التفسير قد يكون فى الكفاية المتزايدة لطرق الزراعة . كان من العجيب أن تتلكأ ميكنة الزراعة كثيراً عن ميكنة الصناعة . كان عامل المصنع أو المنجم فى سنة ١٨٠٠ يستخدم أدوات لم يعرفها آباؤه وأجداده ، ولكن المزارع فى سنة ١٨٠٠ كان يحرث التربة على غرار ما كان يحرثها أسلافه قبل ألف عام . كان محراثه أداة خشبية

أوحديدية غير مصقولة ، يجرها حصان أو ثور واحد ، وكان يبذر القمح ويزرع الذرة والبطاطا بيده ، ويجتث الأعشاب بالمعزقة ، ويحصد غلاله بالمنجل أو المسلفة ، ويدرسه على أرض جُرنه ، وينزع قشور الذرة ويفكك حباتها بيده . وما كانت الأسرة تملك أن تفلح سوى ثمانية أو عشرة دونمات ، ولو أقدمت النسوة والأطفال على المساعدة .

وكان أول اختراع أمريكى مهم ، هو آلة إيلى هويتنى لحلج القطن . وقد أثرت على الزراعة تأثيراً عميقاً ، وأحدثت ثورة فى اقتصاد الجنوب بأكمله . على أن حلج القطن كان من عمليات معالجته وليست زراعته . والواقع أن القطن ظل طويلاً فى مناعة من الميكنة ، فيما عدا عمليات الحرث ، والغرس ، والرش . وكانت المحصولات الأخرى أسعد حظاً ، بيد أن استخدام الآلات تأخر طويلاً بالنسبة لمعظمها . وقصة المحراث مثال لذلك . ولقد صدرت أول براءة لاختراع محراث فى سنة ١٧٩٧ ، ومنذ ذلك الحين صدرت حوالى اثنتى عشرة براءة أخرى . كانت المشكلة الأولى هى الوصول إلى محراث يشق التربة ويقلبها بدقة ، دون أن ينحشر فى التربة ، أو ينكسر إذا اصطدم بالجذور أو الأحجار . ولقد أجرى جيفرسون تجارب ، وظفر الدجر [(١)] الذى ابتكره ، ويهدف إلى تقليل المقاومة إلى أدنى حد ، بالميدالية الذهبية للجمعية الزراعية الملكية فى باريس . وفى سنة ١٨٣٧ ، كسا جون دير ، فى برارى إللينوى ، محاريثه الخشبية بصلب ذى متانة كافية لشق الطبقة العليا للتربة العذراء ، وسرعان ما انهالت الطلبات على منتجاته . أما محراث أوليفر المقسى [(٢)] ، الذى طرح فى السوق فى أواخر الستينات ، فكان يجمع بين سطح من الصلب الناعم وقاعدة من الحديد المتين ، ولاح أنه حل لكل ما كان مزارعو البرارى يحتاجون إليه . وتتابعت التحسينات بعد ذلك .

وقصة أداة الحصد أكثر بياناً وإيضاحاً . فإن مزارع عام ١٨٠٠ ، الذى كان يستعمل منجلاً يدوياً ، ما كان يطمع فى أن يحصد أكثر من نصف دونم فى اليوم ، إذا هو اشتغل بجد واجتهاد . وكان من الممكن بالمنجل ذى الأصابع ، بعد ثلاثين عاماً ، أن يحصد دونمين فى اليوم . بيد أنه ما كان ليستطيع إنتاج الغلال على نطاق واسع ، ولا كان بوسعه غزو أرض السهول فى الغرب ، بهذه الأدوات البدائية . وفى أوائل

(١) Mold board : وهى زائدة معقوفة من الحديد ، يجهز بها المحراث ــ المترجم .

(٢) الذى يكتسب صلابة بالتبريد المفاجىء بعد صبه ــ المترجم .

الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، أجرى مزراعان هما أوبيد هسى وسايرس ماكورميك — تجارب على آلة حصاد ميكانيكية ، ولم يحن عام ١٨٤٠ ، حتى قاما بمعجزة حصد خمسة دونمات أو ستة من القمح فى اليوم ، بآلتيهما الغريبتين . وانتقل هسى إلى بلتيمورلتسويق آلته . أما ماكورميك فكان أبعد نظراً ، فيمم شطر الغرب ، قاصداً بلدة شيكاغو الصغيرة فى السهول . وهناك ، أقام فى سنة ١٨٤٧ مصنعه لإنتاج آلات الحصاد ، وشرع فى إنتاجها . ولم تحن الحرب الأهلية حتى كانت مصانع ماكورميك قد باعت ربع مليون من حصاداتها . وبتوفير آلات تمكن الرجال من الانصراف إلى الجيش ، بذل هذا الفيرجينى المزارع لضمان انتصار الاتحاد ما بذله أى قائد عسكرى .

وأخذ كل عام يشهد تحسينات فى آلة الحصد ، فخففت مهمة جمع الغلال وربطها فى حزم — وهى عملية تقصم الظهر — بفضل منصة متحركة كانت الغلال تنتهى فوقها إلى أيدى رجال يقفون على حافة جانبية فيربطونها حزماً . ثم ظهرت فى سنة ١٨٧٢ أداة أتوماتيكية للربط بالسلك ، وبعد سنوات ظهر جهاز أبلباى للربط بخيط القنب المجدول . وفى هذه الأثناء ، كانت آلات الدرس قد بلغت أكمل درجاتها ، وأخذت هذه الأجهزة العملاقة فى الستينات والسبعينات تنتقل مع جماعة الدرس من مزرعة إلى مزرعة ، على طول خط الحدود الأوسط . ويصف هربرت كويك المشهد فى إحدى مزارع أيووا بقوله :

> كانت كل القواعد توقف خلال وقت الدرس . ففى الصباح الذى بدأ فيه آل ماكونكى الدرس ، أوقظ أهل البيت ودب النشاط فى الساعة الثالثة ، وقد أعجلهم وصول الآلة ، التى كانت أديرت فى وقت متأخر من الأمسية السابقة لدى مزرعة مجاورة ، ودفعت إلى هنا قبيل الفجر . . وقفت الآلة الحمراء الضخمة بين الأكوام العالية المكدسة على شكل الخلية . وكانت الجياد العشرة تقف مشدودة إلى الكاسحات الخشبية الخمس المحركة للآلة . وكان السائق قد وقف على المنصة فى الوسط ، وسوطه الطويل فى يده . أما الموكلون بدفع الأعواد فكانوا قد تسلقوا الأكوام ومعهم مذراواتهم (جمع مذراة) ، وقد أصبحت مقابضها مصقولة لطول احتكاكها بالأيدى الخشبية ، وأسنانها الثلاث غائصة فى الأكداس العليا من الكومة . . . وانبعثت زمجرة كأنها زمجرة كلب بولدوج مضخمة خمسين مرة ، فملأت الهواء ، حتى إذا اشتدت سرعة الأسطوانة (السليندر) ، ارتفع

الصوت من خفيض عميق ، إلى عال رفيع ، ثم إلى جهير صادح بلغ من حجمه أن تردد فى مساحة أربعة أميال مربعة من البرارى الملتفة بالضباب . وتطلع الموكل بتغذية الآلة إلى الموكلين بدفع الحزم ، فشهد الرجل الذى دفع أول حزمة إلى الآلة ، والحزمة الثانية معدة للإسقاط على الطاولة ، رأى فرانك وبيده السكين قاطعة أربطة الحزم ، متأهبة لتشق بسرعة رباطها ، ثم دفع الحزمتين الأوليين برفق إلى شفتى الآلة الفاغرتين ، ولف أعقابها برشاقة إلى أعلى ، وبدأت العملية الكبرى .

وفى الثمانينات ، ظهرت الآلة التى أحدثت انقلاباً ، الحاصدة ــ الدراسة ، أو الآلة المشتركة التى كانت تحصد الغلال وتدرسها وتنظفها وتعبئها فى الأكياس ، فى عملية واحدة متواصلة . وكان يجرها ما بين عشرين وأربعين فرساً ، ثم أصبح يجرها فيما بعد جرار يدور بالبخار أو الجازولين ، وبوسعها أن تحصد سبعين أو ثمانين دونماً فى اليوم الواحد .

ولقد خفت الآلات لمساعدة المزارع فى كل نواحى الزراعة ، ماعدا جنى القطن . . غارسات الذرة الآلية ، حاصدات الذرة ، آلات نزع قشور عرانيس الذرة ، آلات تفكيك حبات الذرة ، جهاز دى لافال لنزع قشدة اللبن ، جهاز نشر الأسمدة الطبيعية ، غارسات البطاطس ، مجففات التبن ، أجزة تفريخ الدواجن ، المخصبات . . كل هذه ومائة من المخترعات الأخرى خففت جهد الرجل العامل بدرجة هائلة ، وزادت من كفاءته . فبفضل الآلات المشتركة ، أصبح فى وسع أربعة رجال أن يؤدوا ما كان يؤديه من قبل ثلاثمائة . . وأن يؤدوه على وجه أفضل . وأصبح الرجل الواحد يحل محل ثمانية بفضل آلة تقشير عرانيس الذرة ، ومكان خمسين بفضل آلة تفكيك حبات الذرة ، وانخفض الوقت للازم لحصد طن من القش (التبن) إلى الخُمْس ، وباستعمال البخار والجازولين والكهرباء ، فى القرن العشرين ، أطلق للزراعة ملايين من الدونمات التى كانت تخصص من قبل لرعى الماشية ، كما خفضت العمل البشرى بدرجة أكبر ، وزادت الكفاية الزراعية .

وكان الغرب الأوسط والغرب الأقصى هما اللذين استوعبا آلات الحصاد والدرس والحرث الجديدة ، بأسرع مما كانت تصنع . فإن المزارع فى الشرق كانت أصغر مساحة ، وكانت الزراعة أكثر تنوعاً من أن تبرر إنفاق الأموال على الآلات الباهظة

التكـاليف . أمـا فى الجنوب ، فإن القطن والتبغ لم ينصاعا للميكنة ، كما أن الأيدى العاملة كانت رخيصة . ولقد زادت قيمة آلات الزراعة من ربع بليون دولار فى سنة ١٨٦٠ ، إلى ثلاثة بلايين ونصف البليون فى سنة ١٩٢٠ ، ولكن معظم هذه الزيادة تحققت فى غرب المسيسيبى . ولقد زاد ما كان مزارعو أيووا وحدها قد أنفقوا على الآلات فى سنة ١٩٢٠ ، على ما أنفقه مزارعو نيو إنجلاند بأسرها وولايات ساحل الأطلنطى الوسطى مجتمعة ، وكان متوسط قيمة الآلات فى المزرعة الواحدة بولاية داكوتا الجنوبية ١٥٠٠ دولار ، وفى كل مزرعة من مزارع حزام القطن ٢١٥ دولاراً .

ولقد يسرت ميكنة الزراعة للمزارع أن يمد بالأغذية عدداً متزايداً من سكان المدينة ، وأن يرسـل إلى الخـارج فائضـاً ساعـد بدوره على تمويل التـوسـع فى الصناعة والسكك الحـديدية . ولم تكن هذه ميزة خالصـة بالنسبـة للمـزارعـين أنفسهم ، إذ أنها ورطت كثيرين منهم فى نفقات أفدح مما كان فى وسعهم ، واضطرتهم إلى التوسع فى عملياتهم لتـبرير تلك الاستثمارات ، وأن يركزوا جهودهم على المحصولات الرئيسية للتصدير . وأتاح هذا لكبار المزراعين امتيازاً على منافسيهم الصغار ، وعجل على الفور نمو الزراعة الكبيرة الموفورة الربح ، واستئجار الأراضى . فأفسحت المزرعة الصغيرة ، ذات الكفاية الذاتية ــ التى كانت شائعة فى الخمسينات ــ بحقول القمح والذرة والشوفان فيها ، ورقـاع الخضر ، وحظيرتى الدجاج والخنازير ، والثمان أو العشر بقرات التى ترعى فى أراضى الرعى العامة . . أفسحت مكانها لمزارع القمح أو القطن الكبيرة ، التى شاعت فى القرن العشرين ، والتى كانت تعتمد على متجر البدالة ، حتى فى حاجاتها الغذائية .

ولا يكاد العلم أن يقل عن الآلة أهمية . فلقد كانت الزراعة الأمريكية من البداية انتشارية (واسعة) أكثر منها كثيفة ، إذ كان الحصول على أرض جديدة أسهل من صيانة الأرض القديمة فيما يبدو . على أن الإنهاك السريع لتربة الجنوب المتاخم للساحل أفزع أصحـاب المـزارع الكبـيرة ، وكـان واشنـطن وجيفرسون مجرد أبرز اثنين من كثير من الجنوبيين الذين حاولوا التصدى لهذه الأزمة بإدخال نباتات جديدة ، ومحاصيل دورية (متنـاوبـة للإبقـاء على خصـوبـة الأرض) ، وبتحسـين ماشيتهم . وفى هذا كتب جيفرسون : « أعظم خدمة يمكن أداؤها لأية دولة هى إضافة نبات نافع لزراعتها » . بيد أن هذه الإصـلاحات كانت غير ذات جدوى إلى حد كبير ، إذ أن فتح الأراضى الشـاسعـة فيما وراء جبال أبلاش ، واختراع حلج القطن جعل الانتقال إلى أرض خصبة

أكثر ربحاً للمزارعين من محاولة تجديد خصوبة التربة القديمة بمزيد من العناية العلمية . ولعل فلاحة الأرض الجديدة ، كان جزءاً لامناص منه فى اقتصاد مناطق الحدود ، قدر له أن يتكرر مراراً فى مناطق الحدود المتعاقبة .

ولقد اعتمدت الحكومة الاتحادية أول مخصصات معينة للزراعة فى سنة ١٨٣٩ ، ولكن البداية الحقيقية لاهتمام الحكومة ترجع إلى إقرار قانون موريل لمنح الكليات أراضى ، فى سنة ١٨٦٢ . وهو ينص على هبات من الأملاك العامة للكليات الزراعية والصناعية ، ذلك لأنه كان لكل ولاية الحق فى ثلاثين ألف دونم من الأرض عن كل عضو فى الكونجرس ترسله لتمثيلها فى واشنطن ، وبموجب هذا القانون أنشأت الولايات ، واحدة بعد أخرى ، كلية زراعية مستقلة أو مرتبطة بجامعة الولاية ، وما لبثت هذه الولايات أن دفعت البحث فى الزراعة العلمية قدماً . ولا يقل عن هذا أهمية قانون هاتش ، سنة ١٨٨٧ ، الذى خصص أموالاً بسخاء لإنشاء محطات للتجارب فى أرجاء الولايات المتحدة . وفى الوقت ذاته ارتفعت الاعتمادات المخصصة مباشرة لجهود وزارة الزراعة فى الأبحاث إلى ملايين من الدولارات . ولم يحن عام ١٩٣٠ ، حتى كان ثمة سبعة آلاف أو ثمانية آلاف عالم يعملون لحساب هذه الوكالات الحكومية (الأقسام الإدارية) فى مشروعات للبحث متباينة لدرجة مذهلة ، وأخذت مساهمات لها أعظم أهمية بعيدة المدى تنساب من المزارع التجريبية والمعامل .

ومن الأمثلة النموذجية لهؤلاء « المكافحين ضد الجوع » مارك ألفريد كارلتون ، الذى أدخل سلالات قمح كوبانكا وخاركوف العظيمة إلى غرب أمريكا . ففى أثناء ممارسته الزراعة والتعليم فى كنساس ، أخذ كارلتون يرى عاماً بعد عام كيف كان الجفاف والصدأ الأسود يقضيان على كافة القمح الذى كان مزارعو السهول يستنبتونه ، ماعدا أشدها صموداً واحتمالاً . غير أنه رأى كذلك أن الروس المينونين الذين أحضرتهم شركة سكك حديد سانتا فيه ليستقروا فى أرضها ، كانوا أسعد حظاً فى زراعة القمح ، وتبين أنهم كانوا يستنبتونه من تقاوى أحضروها معهم من وطنهم . كان القمح بوجه عام مستورداً فى الأصل ، وقد أيقن كارلتون أن سر القمح الشديد الاحتمال ، الصامد للجفاف وللصدأ ، لابد أن يوجد فى مكان ما من أوكرانيا أو منطقة الاستبس أو أوراسيا .

ويمم شطر أرض الخير هذه فى سنة ١٨٩٨ ، بتشجيع من وزارة الزراعة . وأخيراً ، وفى سهول تورغاى ، غرب نهر الأورال مباشرة — حيث كان المناخ وطبيعة الأرض

شبيهين بها فى كنساس الغربية بدرجة مدهشة ــ عثر على ما كان ينشد . . على قمح كوبانكا . كان ينتج فى السهول من البوشلات أكثر مما تنتج سلالتا فايف وبلو ستيم ، وقد أوتى مناعة تفوق التصور ضد وباء الصدأ الأسود . على أن قمح كوبانكا سجل أعظم انتصاراته فى المنطقة الممتدة من مينيسوتا شمالاً إلى ساسكاتشيوان . ومن عجب أنه لم يفلح فى السهول الجنوبية . ومن ثم اتجه كارلتون مرة أخرى إلى روسيا . وفى أوكرانيا ، بالقرب من خاركوف التى قدر للروس والألمان أن يقتلوا بعضهم بعضاً بالآلاف بعد أربعين عاماً ، وجد قمح خاركوف . ولم يحن عام ١٩١٤ حتى كان نصف القمح الشتوى فى البلاد من الأنواع المشتقة من سلالتى كوبانكا وخاركوف .

ولم تكن مساهمات مكافحى الجوع الآخرين بأقل أهمية من هذه . فلقد تغلب ماريون دورسيت على كوليرا الخنازير الرهيبة ، وهزم جورج موهلر وباء الحافر والفم الغامض الذى استشرى فى الماشية . وأحضر جيه . إتش . واتكنز من شمال أفريقيا سلالة ذرة الكافير ، كما جلب نيلز هانسن من تركستان الفصفصة (البرسيم الحجازى) ذا الزهرة الصفراء . وأنتج لوثر بيربانك فى معامله بكاليفورنيا عشرات من الفواكه والخضر الجديدة ، وأثبت ديفيد آر . كوكر ، فى مزرعته التجريبية بجنوب كارولينا ، أن من الممكن للقطن الطويل التيلة أن ينمو فى السفوح والمرتفعات . وفى جامعة ويسكونسين ، توصل ستيفن بابكوك إلى اختبار للبن لتقرير نسبة الزبد والدسم فيه . ووجد العالم الزنجى جورج واشنطن كارفر ، أثناء عمله فى معهد تسكجى مئات من الاستعمالات الجديدة لمنتجات معروفة مثل الفول السودانى والبطاطا وفول الصويا . كما أنقذ سيمان ناب صناعة الأرز من الانهيار الذى أصابها بعد الحرب ، بإدخال أنواع جديدة من الشرق ، وبدأت شبكة اتسع انتشارها من المزارع النموذجية التى أرشدت إلى أساليب محسنة للزراعة فى كافة أرجاء الجنوب .

الضائقات تكتنف المزرعة

أخذ المزارع الأمريكى يفلح التربة بكفاءة متزايدة عاماً بعد عام ، منتجاً محصولات أوفر . وكان خليقاً ــ وهو دؤوب ، ذكى ، أوتى أرضاً خصبة ، وآلات بارعة ، وأسواقاً

مستعدة ــ أن يكون فى سعة وهناءة . ولكن حظه كان قاسياً ، وأخذ يزداد قسوة باطراد . فلم ينته أروع قرن للتوسع الزراعى فى التاريخ كله ، حتى كان المزارعون قد أصبحوا مشكلة اقتصادية كبرى ، بدلاً من أن يكونوا « شعب الله المختار » ، كما وصفهم جيفرسون . فما تفسير هذا التناقض ؟

إن مشكلة الزراعة معقدة ، تمثلت فى أشكال جد مختلفة لصاحب المزرعة فى الجنوب ، وزارع القمح ، ومنتج الذرة والخنازير ، ومربى الماشية ، وصاحب مزرعة الألبان ، وصاحب بستان الفواكه . ففى وقت من الأوقات بدت فى شكل ما ، مشكلة تتعلق بالسكك الحديدية ، وفى وقت آخر كمسألة مالية ، وفى ثالث كمسألة متعلقة بسياسة الأرض . ولقد انطوت على مصالح قطاعية ، وبرامج حزبية ، وعلاقات دولية . ومع ذلك فقد ظلت ثمة عوامل معينة غير متغيرة ، تقوم بدور أساسى فى كل وجه من وجوه مشكلة الزراعة . ومن أهمها إنهاك التربة ، وتقلبات الطبيعة المفاجئة ، والإفراط فى إنتاج محصولات التصدير الرئيسية ، وانخفاض فى الكفاية الذاتية ، والافتقار إلى الحماية التشريعية والمعونة الكافيتين .

كانت تربة الجنوب قد أنهكت من زمن طويل من جراء زراعة التبغ والقطن ، وباستخدام الأيدى العاملة الزراعية الجاهلة . ولقد انتكست ملايين الدونمات فى الأجزاء القديمة من القطاع الجنوبى فلم تعد تنتج سوى الشجيرات القليلة القيمة ، بينما كانت سيول الأمطار ، التى لا تقوم على مساراتها سدود ، تجرف ملايين الأطنان من تربة السطح الخصبة ، فى كل عام . ومن الأمور التى تصور الإفقار المتوالى للتربة الجنوبية ، أن الجنوب يستخدم سبعين فى المائة من كافة المخصبات التى تباع فى هذه الدولة ، وأن ما ينفقه المزارعون فى كارولينا الجنوبية على المخصبات يصل إلى ربع قيمة محصولاتهم من القطن . كذلك اتلفت التعرية والرياح العاصفة أراضى الغرب . ولقد كان قسط كبير من سهول المرتفعات غير مناسب للزراعة ، بل ولا لنوع الرعى الذى يمارس هناك ، وقد انتشر الجفاف ومنطقة التراب فى الأماكن التى تعرضت للإفراط فى الزرعة والرعى .

ولقد أوقعت نوبات الجفاف المتكررة نكبة بمزارعى السهول . ففى طول فترة دامت ستة عشر شهراً فى عام ١٨٥٩ - ١٨٦٠ لم تهطل الأمطار بكميات مناسبة مرة واحدة لنجدة مزارعى كنساس ونبراسكا ، وكان لابد من هبات خيرية من الولايات الشرقية لمعونة من أفلسوا من الرواد الأوائل الذين جاءوا إلى هذه المناطق مصطحبين آمالاً

جساماً . ومرة أخرى ، حل جفاف طويل من سنة ١٨٨٦ حتى سنة ١٨٩٠ ، رد حدود العمران فى كنساس ونبراسكا إلى الداخل مائة ميل . وقد وصفت ذلك ميرى ساندوز فى الصورة القلمية التى رسمتها لأبيها الشيخ جولز ، فقالت :

لقد تجاوز الجفاف كل احتمال . فلم تنبت أوراق الذرة . وعلى الحافة الصلبة الأرضية لمنطقة مراعى الجاموس ، ظهرت الحشائش وذوت محترقة قبل أول مايو . بل إن الأراضى الأخف تربة ، فى جنوبى النهر ، لم تنبت شيئاً . ولم تظهر الخضرة فى الكثبان الرملية إلا فى شرائط متناثرة ، إذ كانت الخضرة تنبت حيث كان الماء يركد ولا يجد منفذاً . ولقد ابيضت قيعان البحيرات وتشققت بأشكال متواترة ، وأصبح طائر الطيهوج نادراً ، واسود لحمه . ونحلت الأرانب وازدادت ضراوة ، بينا ازدادت الذئاب (الكويوت) جرأة . وأخذت المركبات المغطاة تتجه شرقاً كما كانت تتجه الحيوانات الهزيلة الكالحة . وكثيراً ما كان ركابها يتعرضون لهجمات علنية فى الطريق .

وبينما أحرقت نوبات الجفاف الطويلة المزارع ، اجتاحت العواصف الثلجية العنيفة الماشية فى السهول المرتفعة وفى وديان الجبال وقضت عليها .

ولم تكن الحشرات المؤذية والأوبئة النباتية أقل شراً مما سبق . وما من شك فى أن خنفساء القطن كانت أسوأ هذه الحشرات . ولقد أصاب بلاؤها مملكة القطن بأسرها ، إذ عبر ريوجرانده وافداً من المكسيك فى سنة ١٨٩٢ ، وأخذ يزحف بعد ذلك منتشراً بسرعة تقرب من خمسين ميلاً فى العام . ولقد أقام مزارعو إنتر برايز ، بولاية ألاباما ، نصباً تذكارية له ، وذلك لنجاحه فى أن فرض تنويع المحصولات عنوة . ولقد أخفقت كل الجهود لإبادة هذه الحشرة ، فليس فى مقدرة زراع القطن أن يكبحوا جماحها إلا بالتبكير فى الزراعة ، وبالإسراف فى استخدام السم القاتل لها .

ولقد كانت الحشرات الوبائية فى السهول وفيرة ، ولكن الجراد أبشعها إثارة للجزع دون ما شك . وقد عرف مزارعو السهول بلاء الجراد لأول مرة ، فى سنة ١٨٧٤ . . . وكانت تجربة قدر لها أن تتكرر مراراً . وقد قال ستيوارت هنرى فى وصفها :

> التهم الجراد النطاط كل أثر للخضرة اليانعة من جبال روكى إلى ما وراء نهر الميسورى . وأذكر أننى إذ كنت عائداً للبيت فى ساعة متأخرة من أصيل أحد الأيام ، لأتناول العشاء ، إذا بى أتراجع مأخوذاً إذ رأيت ما أصبح معروفاً بجراد جبال روكى يكسو جانب البيت ، كان قد أتى فى الداخل على الستائر . وسرعان ما هبطت على الإقليم كله غمامات منه . . فى كل مكان ، دون ما سبيل لتفاديها . ولقد شرع الناس فى قتله إنقاذاً للبساتين ، ولكن سرعان ما تبين عدم جدوى ذلك . واستحدثت آلات خاصة ، تجرها الجياد ، فكانت تجمع الجراد من حقول القمح بالبراميل لإحراقه . ولم تكن هذه الطريقة بدورها ذات أثر محسوس . فقد كانت الأسراب هائلة ، لا تعد ولا تحصى . وإن هو إلا أسبوع حتى كانت حقول القمح والحدائق والشجيرات والكروم قد التهمت عن آخرها ، حتى منبتها أو حتى اللحاء . فما من حيلة سوى أن تجلس وأن تشهد كل شىء يتلاشى .

ولم تكن السوسة الصينية التى تنخر الذرة ، ولا خنفساء البرسيم أقل من ذلك تخريباً .

كان المزارع يبيع إنتاجه فى سوق عالمية ، منافساً مزارعى روسيا والأرجنتين وكندا وأستراليا ، وكان يشترى لوازمه من سوق تتمتع بالحماية . وكان السعر الذى يظفر به للقمح أو القطن أو اللحم البقرى يتحدد فى ليفربول ، أما السعر الذى يدفعه مقابل آلة الحصد أو السماد أو الأسلاك الشائكة أو الأحذية أو الثياب أو الخشب أو الأثاث ، فكانت تحدده ترستات تعمل متمتعة بتعريفة جمركية للحماية . فكانت نفقاته فى ارتفاع لا هوادة فيه . . نفقات ما كان يستخدم فى المزرعة ، ونفقات الشحن ، وفوائد المال الذى يقترضه ، وما يدفع للحكومة . وكانت الأرض الجديدة والآلات تمكنه من زيادة الإنتاج فى كل عام ، ولكن دخله لم يكن يزداد بدرجة تذكر . ففى سنوات أكبر توسع زراعى ــ من ١٨٧٠ إلى ١٨٩٠ ــ لم تزدد قيمة المنتجات الزراعية الأمريكية بأكثر من نصف بليون دولار ، فى حين ازدادت قيمة المصنوعات فى الفترة ذاتها ستة بلايين من الدولارات . كانت أسعار معظم المنتجات الزراعية فى هبوط غير منتظم . فالقمح الذى كان يدر دولاراً مقابل كل بوشل طيلة السبعينات ، هبط إلى خمسين سنتاً فى أواسط التسعنيات من القرن التاسع عشر . وهبط القطن من سبعة عشر سنتاً للرطل فى سنة ١٨٧٣ إلى تسعة سنتات بعد ذلك بعشرين عاماً ، ثم تردى إلى ستة سنتات ، والأمر

ذاته يمكن أن يقال إلى حد كبير عن الذرة والشوفان والشعير والتبغ وغيرها من منتجات الزراعة . كان متوسط قيمة إنتاج الدونم الواحد من عشرة محصولات رئيسية أربعة عشر دولاراً فى أوائل السبعينات ، فهبط إلى تسعة دولارات فى أوائل التسعينات .

ولعل أخطر العقبات الاقتصادية التى كان المزارع يكدح فى مواجهتها ، هو ارتفاع تكاليف المال . كان حين يذهب إلى المصرف المحلى أو وكيل الرهونات ليقترض مالاً ، يجد أن المطلوب أن يدفع فائدة عن القرض تتراوح بين ٨ و ٢٠ فى المائة . وتجلى له الموقف بطريقة أكثر إيذاء ، تمثلت فى تدهور الأسعار . وقد نكون أكثر سرعة فى تفهم الأمر إذا فكرنا على ضوء تكلفة الدولار وليس تكلفة السلع الزراعية . ففى سنة ١٨٧٠ ، كان بوسع المزارع أن يبتاع الدولار ببوشل من القمح ، أو بوشلين من الذرة ، أو عشرة أرطال من القطن . ولم تحن سنة ١٨٩٠ حتى كان شراء الدولار الواحد يتطلب بوشلين من القمح ، أو أربعة بوشلات من الذرة ، أو خمسة عشر رطلاً من القطن . كان بوسع المزارع الذى يقترض ألف دولار فى سنة ١٨٧٠ أن يسدد دينه بألف بوشل من القمح . وإذا ترك مزرعته رهناً مقابل الدين إلى سنة ١٨٩٠ ، فقد كان تخليصها يكلفه ألفى بوشل .

إزاء هذه الظروف المعاكسة ، لم يكن من المدهش أن تزداد ديون المزارع الأمريكى المكفولة بمرهونات ، فى طفرات واسعة . ولم تحن سنة ١٨٩٠ ، حتى كان أكثر من تسعين ألفاً من مزارع إللينوى مرهونة ، ومائة ألف فى نبراسكا ، وأكثر منها فى كنساس ، وكانت معظم هذه المرهونات فى أيدى الشرق ، فكان فى أيدى سكان نيو هامبشير وحدها حوالى خمسة وعشرين مليون دولار من مرهونات الغرب . كذلك كان استئجار الأراضى فى ارتفاع . كان متوسط النسبة فى الدولة بأسرها ثمانية وعشرين فى المائة ، أما فى الجنوب والغرب فكان أعلى بكثير .

كانت هذه هى العناصر الرئيسية فى مشكلة الزراعة . وكان إخفاق المزارع فى استخدام الحكومة كأداة لحماية مصالحه نتيجة لبؤسه بقدر ما كان سبباً فيه . فبالرغم من أن المزارعين كانوا يؤلفون نصف سكان الأمة ، فإنهم نادراً ما كانوا يرسلون واحداً من صفوفهم ليمثلهم فى الكونجرس ، أو حتى فى الهيئات التشريعية للولايات ، وعندما قُدر فى أوائل التسعينات لمزارعين مثل السيناتور بيفر والنائب سمبسون أن يصلوا إلى واشنطن ، فإنهم اعتبروا تحفاً غريبة أكثر منهم مشرعين . كان الذين يسنون القوانين

القومية أكثر تحمساً لخدمة مصالح رجال المصانع والمصارف والسكك الحديدية منهم لرعاية المزارعين ، وقد عكست التشريعات هذا التحمس . وكان من الممكن للتعريفة الجمركية القائمة على الحماية أن تساعد الزراعة ، بيد أنها اضطرت المزارع لأن يدفع ثمناً أعلى لكل ما كان يشتريه تقريباً . وكانت تشريعات العمليات المصرفية والعملة ، الواردة فى مجموعة القوانين ، نعمة لأصحاب المصارف ومستثمرى الأموال ، ولكنها كانت عبئاً فادحاً على المزارعين . وكانت القوانين الرامية إلى تنظيم الترستات والسكك الحديدية مصوغة ، أو كانت تفسَّر بحيث أنها لم تكن تسبب إزعاجاً يذكر لتلك المصالح ، وعندما حاولت الولايات الزراعية أن تصدر قوانين أشد إحكاماً ، خذلتها المحاكم . بل إن التشريعات التى كانت تهدف ظاهرياً إلى مساعدة المزارع ، مثل قانون المزرعة الصغيرة (بيت محوط بقطعة من الأرض) ، أسفرت عن تثبيط للآمال . فإن الأراضى التى بيعت مباشرة أو عن طريق السكك الحديدية والمضاربين ، كانت حتى سنة ١٩٠٠ أكثر مما آل للمنتفعين بهذا القانون . وهكذا لم تحن نهاية القرن ، حتى كان أصحاب المزارع الصغيرة هذه قد سجلوا ملكية حوالى ٨٠ مليوناً من الدونمات ، ولكن السكك الحديدية كانت قد تلقت ــ من الحكومة الاتحادية ــ وحكومات الولايات ــ ١٨٠ مليوناً من الدونمات ، وكانت الولايات قد وهبت ١٤٠ مليون دونم دون مقابل ، كما أن ٢٠٠ مليون أخرى ــ معظمها من أراضى الهنود ــ طرحت للبيع لمن يدفعون أعلى الأثمان .

وعلى هذا ، فإن المزارع الأمريكى بعد أبوماتوكس بثلاثين عاماً ، كان قد بسط مجاله فى كافة أنحاء القارة ، واستطاع بأحدث الآلات وبمساعدة العلم أن يزيد إنتاجه إلى الدرجة التى كانت تجعله مستعداً لتغذية العالم الغربى . وكان فى الطريق إلى تنظيم الفلاحة .

المزارعون ينظمون مهنتهم

كانت التجارة والعمليات المصرفية بل والعمل فى تنظيم لشؤونها ، والوقت قد حان للمزارع كى يحذو حذوها . ومع هذا ، فما كان من شىء أصعب من ذلك . كانت مهنة الزراعة تتألف من ملايين من الوحدات ، تعمل كل منها على حدة ، فكل منها منافسة

لأخرى من ناحية من النواحى. كان المزارع بطبيعته فردياً ، لا يقبل السيطرة الخارجية بارتياح ، كما أنه لم يكن من سبيل لتنظيم التربة والطقس بلوائح . ولم تأت السيطرة على الإنتاج الزراعى ، فى آخر الأمر ، حتى تدخلت الحكومة الاتحادية . وفى تلك الأثناء ، كان على المزارع أن يتصرف بنفسه إذا شاء إنقاذ نفسه من استغلال السكك الحديدية والترستات وشركات الرهن له .

كانت أول منظمة للمزارعين على نطاق الأمة هى الجمعية الزراعية التعاونية أو أنصار العناية العلمية بالزراعة . ففى سنة ١٨٦٦ ، قام موظف حكومى يدعى أوليفر كيلى برحلة طويلة فى الجنوب الذى نُكب بالحرب ، فأقنعه ما رآه بأن من الممكن علاج فقر المزارع وتخلفه وعزلته بعمل مشترك ، فأنشأ مع نفر من أصدقائه « أنصار العناية العلمية بالزراعة » ، وهى جماعة اجتماعية وتربوية ترمى إلى « تنمية رجولة وأنوثة أعلى مستوى وأحسن فيما بيننا ، تعزيز أسباب الراحة والجاذبية فى بيوتنا ، وتعزيز ارتباطاتنا بغاية . . جعل مزراعنا ذات كفاية ذاتية » . وأقيمت فى ولايتى نيويورك وبنسلفانيا بضع جمعيات تعاونية زراعية ، كما أطلق على الفروع المحلية . بيد أن الجماعة لم تحقق تقدماً يذكر طيلة بقائها فى الشرق . فلما كانت سنة ١٨٦٩ ، نقل مركزها الرئيسى إلى الغرب الأوسط ، وانتشرت كالنار فى الهشيم أثناء الضائقات التى حدثت فى أوائل السبعينات . ولم يحن عام ١٨٧٣ حتى كانت الجمعيات التعاونية الزراعية فى كل ولاية تقريباً ، ووصلت عضويتها إلى ثلاثة أرباع المليون . وكان الغرب الأوسط أعز مناطق نشاطها ، غير أنها ازدهرت كذلك فى الجنوب وعلى طول ساحل المحيط الهادى .

وكان كيلى يرى أن تكون الجمعية التعاونية منظمة اجتماعية فى المقام الأول ، فضمت النساء إلى جانب الرجال ، ووضعت لها لوائح مفصلة نقلت بعضها عن الطقوس الماسونية ، فكانت هناك اجتماعات شهرية مخصصة للتعليم ، واحتفالات بالمناسبات الوطنية والأعياد . فكانت الغاية الكبرى هى تحطيم عزلة المزارع وإدخال البهجة والتسلية على حياته ، وتحقيق تبادل الآراء ، وإنشاء تضامن قائم على المصالح . وقد كانت الجمعية التعاونية موفقة فى كل هذا بدرجة كبيرة ولقيت صحف الجمعية التعاونية رواجاً واسعاً ، وأخذت مكتبات الجمعية التعاونية توزع المطبوعات الزراعية . وراح محاضرو التعاون الزراعى يحاضرون فى اجتماعات بمدارس المقاطعة ، وأصبحت النزهات والمآدب التى تنظمها الجمعية فى الخلاء تقليداً راسخاً . وقد

كتب هاملين جارلاند يصف إحدى هذه النزهات :

كان من بواعث الفخر والإلهام . . لنا ، أن نرى تلك الصفوف الطويلة من المركبات تندفع فى الدروب ، وينضم بعضها إلى بعض عند ملتقيات الطرق ، حتى التحمت فى النهاية جميع الجمعيات التعاونية من الطرف الشمالى للمقاطعة فى صف هائل واحد واصل التقدم إلى أرض المأدبة ، حيث كان ثمة خطباء فى انتظار اقترابنا بجلال هادىء وعزم رفيع . ما من شىء أكثر روعة وأكثر عوناً من هذا الذى انبعث من الحياة الريفية الأمريكية .

على أنـه لم يكن منـاص للمزارعين إذا اجتمعوا ، ولو للهو ، من أن يتحدثوا فى الأعمال والسياسة . وكان الحديث يفضى إلى العمل ، وسرعان ما أقامت التعاونيات الزراعية على مستوى الولايات هيئات تسويقية تعاونية ومتاجر ووكالات للإقراض ، بل ومصانع . وما كانت هذه لتحظى بإدارة حسنة فى كل الحالات ، كما أنها لقيت معارضة فى المشروعات التجارية القائمة ، منذ البداية . ومع ذلك فقد وفرت على أعضائها قدراً كبيراً من المال ، فنقلت تعاونية أيووا ــ مثلاً ــ خمسة ملايين بوشل من القمح بالسفن إلى شيكاغو ، موفرة ما بين عشرة وأربعين فى المائة من النفقات ، كما أنها بالشراء التعاونى وفرت على أعضائها مائة دولار من ثمن كل آلة حصاد ابتاعوها . وللتصدى لهذه المنافسة وتلبية حاجـات الجمعيات التعـاونية مباشرة ، أنشئت دار « مونتجمرى وورد » للبيع بالمراسلة البريدية .

ولقد خاضت الجمعيات التعاونية فى السياسة كذلك ، بالرغم من تحريم العمل السياسى فى دستورها . فقد انتخبت فى عدد من ولايات الغرب الأوسط من أعضائها للهيئة التشريعية ، وعملت على إقرار ما سمى قوانين التعاونيات الزراعية متضمنة لوائح منظمة لأجور السكك الحديدية ومستودعات تخزين السلع ، وقاضية بعدم قانونية بعض مساوىء للسكك الحديدية أبشع من تلك ، مثل تعوّد فرض أجور للنقل لمسافات قصيرة تزيد على ما يفرض للمسافات الطويلة ، أو الرشوة غير المباشرة المتمثلة فى منحها أعضاء الهيئات التشريعية والقضاة اشتراكات للسفر بالمجان . وعندما تعرضت هذه القوانين للتحـدى فى المحـاكم ، فإنها أُيدت بسلسلة من الأحكام عرفت فى مجموعها باسم قضايا

التعاونيات الزراعية ، فى سنة ١٨٧٧ ، وهى قرارات قامت على أساس المبدأ الدستورى العظيم ، القائل بأن :

> عنـدمـا ترتبط ثروة خاصة بمصلحة عامة فإنها لا تعود حقاً شرعياً خاصاً فحسب . . تصبح الملكية متشحة بمصلحة عامة عندما تستخدم على نحو يجعلها ذات شأن عام ، ويؤثر على الجماعة بوجه عام . لهذا فعندما يخصص امرؤ ثروته لاستعمال يكون للجمهور مصلحة فيه ، فإنه فى الواقع يمنح الجمهور نصيباً فى ذلك الاستعمال . . .

ومـع هذا ، فإن التعـاونيات الـزراعية لم تنظم فى مكان ما كحزب سياسى ، ولا هى أفلحت فى إنشاء ما يشبه كتلة زراعية فى الكونجرس .

وتلاشت التعاونيات الزراعية بسبب فشل كثير من مشروعاتها التجارية ، وإحباط التشريعات المتعلقة بها ، وعودة رخاء نسبى فى أواخر السبعينات . ولقد أعيد إحياؤها ولكن كهيئـة محض اجتـماعية وتعليمية . وفى تلك الأثنـاء تحول بعض المـزارعين غير الـراضين إلى حزب العملة الخضراء الظهر ، وهو تجمع سيىء التنسيق ضم مزارعين وعـمالاً ومصلحـين نظريين ، اختـار فى سنـة ١٨٨٠ مرشحـاً من أعضـائـه لرئـاسـة الجمهورية ، هو الزعيم التعاونى القديم جيمس بى . ويفر من ولاية أيووا .

على أن المنـظمات التى خلفت التعــاونيات الـزراعية حقـاً ، وهى « تحالفـات المزارعـين » ، أشـد المنـظمات الـزراعية نضالاً فى التاريخ الأمريكى . ويرجع منشأ التحالفات إلى الأزمة الاقتصادية التى حدثت فى أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات . وكـانت الأوقـات أشـد عسراً من أية فترة سابقـة . فقد انقض الجفاف على السهول المكـويـة ، واستمـر عامـاً بعـد عام . كما أن نظامى الاستزراع بالمشاركة ، والحجز القضائى على المحصولات دفعا بالجنوب إلى أعماق الفاقة ، فهبط سعر القمح إلى خمسين سنتاً للبوشل ، والقطن إلى ستة سنتات للرطل ، وصار حرق الذرة وقوداً أرخص من شحنهـا إلى السـوق . أما فى واشنطن ، فإن أعضاء من الكونجرس قاصرى الفكر ، لا يستجيبـون إلا لمطالب التجـارة والصنـاعـة ، فرضـوا على البـلاد تعـريفـة ماكينلى الجمركية ، فى سنة ١٨٩٠ ــ وهى أعلى تعريفة عرفت ــ وأبقوا على نظام للمصارف والائتـمان عديم المـرونـة ، وأقـروا إنفاق مئات الملايين من الدولارات على المعاشات

وتشريعات تعود على أنصار الحكومة بالمكاسب . وأدى هذا الغبن الحكومى إلى تنشيط حركة التحالف فانتشر بسرعة فائقة ، ولم يحن عام ١٨٩٠ حتى كان أعضاء التحالفات العديدة لا يقلون كثيراً عن المليونين .

لم تكن التحالفات فى الشمال الغربى والجنوب تختلف عن التعاونيات الزراعية الأولى فى كثير من الاعتبارات . فقد اضطلعت ببرامج تعليمية واسعة ، وروجت كتباً مثل « التقدم والفقر » لهنرى جورج ، و« التفاتة متأملة للوراء » لإدوراد بيلامى ، ونشرت صحفاً ناطقة بلسان التحالف ــ كان فى كنساس وحدها مائة منها ــ وأوفدت المحاضرين ليرشدوا المزراعين إلى أحدث تطورات الزراعة العلمية ولإثارة الشعور العام من أجل تشريعات علاجية : وأنشأت معاهد ومنتديات دراسية للمزراعين . كذلك انصرفت إلى برامج اقتصادية بعيدة المدى . فعنيت جماعة تحالف تكساس بالشراء والتسويق والتخزين تعاونياً ، وقام التحالف فى شطرى داكوتا بالتأمين على المحصولات ، ونظم فى إللينوى مجموعة من دور البورصة للمزارعين . وكان بعض هذه المشروعات موفقاً ووفر للمزارعين ملايين الدولارات من الأرباح وعمولات الوسطاء ، بينما أخفق بعضها إزاء العداء المستحكم من المصارف والسكك الحديدية .

ولم يطل الوقت حتى أنجبت التحالفات حزباً سياسياً مناضلاً . إذ كانت من البداية تدعو إلى برنامج للإصلاح السياسى ، وتملك الحكومة للسكك الحديدية ، والقروض بفائدة زهيدة ، وإلغاء المصارف القومية ، وتحريم تملك الأجانب للأراضى ، وتخفيض التعريفة الجمركية ، وإنشاء مشروع تابع للخزانة لتوفير القروض الميسرة للمزارعين . وكان هذا الأخير بالذات مشروعاً مثيراً للاهتمام ، إذ كان يدعو إلى أن تنشىء الحكومة الاتحادية مستودعات للتخزين فى كل مقاطعة زراعية ، يجوز للمزارعين أن يودعوها إنتاجهم ، وأن يحصلوا لقاء ذلك على شهادات تعادل قيمتها ثمانين فى المائة من سعر السلعة فى السوق . وكان هذا المشروع كفيلاً بأن يتيح للمزارع قرضاً بفائدة منخفضة جداً ، ويمكّنه من أن يحتفظ بمحصولاته دون تسويق إلى أن تسنح أسعار مجزية ، ويخفف من تضخم النقد . . وبهذا يُحسن قيمة المحصولات . ولقد رفض المشروع عندما قدم لأول مرة باعتباره شططاً وحيلة اشتراكية . وخلال جيل من الزمن ، لم تلبث الحكومة الاتحادية أن تبنت مبادئه الجوهرية بأكملها .

ولقد تحول التحالف فيما بين سنتى ١٨٩٠ و١٨٩٢ إلى الحزب الشعبى . . أكثر الأحزاب السياسية الأمريكية نشاطاً وحيوية . ولقد كانت غالبية أعضائة من مزارعى الجنوب والغرب ، ولكنه ضم كذلك مجموعات أقلية أخرى كثيرة ، من بقايا فرسان العمل وحزبى خضراء الظهر واتحاد العمل ، ودعاة منح المرأة حق الانتخاب ، والاشتراكيين ، ودعاة اتخاذ الفضة أساساً للعملة ، ومحترفى الدعوة للإصلاح وتركزت قوة نفوذه فى منطقة الحد الأوسط كما كان زعماؤه من هذه المنطقة ، وأبرزهم إيجناتيوس دونيللى ، وهو أيرلندى من مينيسوتا ، كان مزارعاً ، وخطيباً ، ومثيراً للرأى العام ، ومكتشفاً لقارة أتلانتيس المفقودة ، ونصيراً للنظرية البيكونية [١] ، ومؤلفاً للرواية الشعبية « رتل قيصر » ، وقد ظل عشرين عاماً يثير الاضطراب فى مياه السياسة الأمريكية . ومن كنساس ، موئل مبادىء الحزب الشعبى ، ظهر السيناتور وليم بيفر الذى كانت لحيته الطويلة المسترسلة تذكّر مشاهديه بالأنبياء العبريين ، والذى وصفه ثيودور روزفلت فى شبابه مستهجنا بأنه « فوضوى مذبذب مأفون حسن النية » . كذلك برزت من كنساس أعظم النساء اللاتى تصدرن الدعوة لإحياء التقاليد الدينية والعادت القديمة ، وهى مارى إيلين ليز ، التى كانت تناشد مزارعى السهول ببلاغة كى « يقللوا من إنتاج الذرة ويزيدوا من إثارة الاحتجاج » . وفى جورجيا ، تولى حشد المزارعين المستأجرين والعاملين فى مصانع القطن تحت لواء الحزب الشعبى توم واطسون المتهور ، الشديد الهزال ، حكيم هيكورى هيل ، الذى أقام نفسه خليفة لتوماس جيفرسون ، والذى كان يثير قشعريرة الخوف فى المحافظين المتعنتين البوربون فى الجنوب . أما فى نبراسكا ، فإن شاباً من الحزب الديمقراطى يدعى وليم جنينجز بريان راح يدعو حزبه إلى الاندماج فى التنظيم الشعبى الجديد .

وما عرفت السياسة الأمريكية من قبل شيئاً مثل الانتفاضة الشعبية التى اجتاحت البرارى وأراضى القطن فى أوائل التسعينات من القرن التاسع عشر . وقد كتب واحد ممن شاهدوها يقول : « كانت بعثاً دينياً ، حملة جهاد ، عيد عنصرة [٢] فى السياسة ،

(١) نظرية تزعم أن فرانسيس بيكون هو المؤلف الحقيقى لمسرحيات شكسبير ــ المترجم .

(٢) عيد يهودى يدوم ٥٠ يوماً بعد الحصاد ، وفى أول احتفال به بعد قيامة السيد المسيح ، تلقى الحواريون ــ على ما ورد فى المعتقدات ــ قدرة من الروح القدس على الكلام بعديد من الألسن ، وصحبت ذلك ألسن من اللهب وعزيف ريح جائحة ــ المترجم .

يهبط فيه على كل إنسان لسان من لهب ، ويتكلم فيه كل امرىء بما ينطقه به الروح القدس » . وقال آخر : « كانت تطرفاً متهوساً كالحرب الصليبية » . كان المزارعون بعد عناء العمل اليومى فى الحقول ، يشدون الخيل إلى مركباتهم ، وينطلقون مصطحبين زوجاتهم وأطفالهم إلى الجمعية التعاونية أو مبنى المدرسة ، ويصفقون استحساناً للخطب الحماسية التى يلقيها قادتهم المحليون ، ومنها ما كانت مارى ليز تقوله مستنكرة : « إن وول ستريت (حى المال فى نيويورك) يملك البلاد . فلم تعد الحكومة حكومة الشعب ، يتولاها الشعب ، من أجل الشعب ، وإنما هى حكومة وول ستريت ، يتولاها وول ستريت ، لمصلحة وول ستريت . إن قوانيننا نتاج نظام يكسو الأوغاد ثياباً ، والأمانة أسمالاً » . وأعطى المزارعون المهتاجون أصواتهم تأييداً لإعلانات جديدة للاستقلال ، جاء فى أحدها إن تاريخ الولايات المتحدة فى السنوات الثمان والعشرين الماضية ، تاريخ أحداث متكررة من الظلم ، والطغيان ، والاستغلال لا مثيل لها فى تاريخ العالم . كما أن جميع القوانين التى سنت ، ترمى إلى غاية واحدة ، تلك هى : إقامة أرستقراطية غنية بالمال على أنقاض أمريكا التى كانت يوماً حرة .

ولقد دفعت انتخابات سنة ١٨٩٠ الحزب الجديد إلى النفوذ والسلطان فى اثنتى عشرة ولاية جنوبية وغربية ، وأرسلت إلى الكونجرس شيوخاً ونواباً شعبيين روعوا أبهاءه الرصينة . وفى نشوة هذا النجاح ، راح الحزب يرسم الخطط لانتصارات أعظم . ففى عيد الاستقلال من عام ١٨٩٢ ، اجتمع فى أوماها ألف مندوب متحمس ، متأجج المشاعر لاختيار مرشح لرئاسة الجمهورية ، وللتصديق على المقدمة النارية التى وضعها إيجناتيوس دونيللى لبرنامج سياسى تقدمى جرىء :

> إننا نجتمع وسط أمة دفعت إلى حافة الخراب الخلقى والسياسى والمادى . . فثمار كدح الملايين تُسرق فى جرأة لتكوين ثروات هائلة لنفر قليل . . . ومالكو هذه الثروات من ناحيتهم يزدرون الجمهورية ويعرضون الحرية للخطر . من نفس رحم الظلم الحكومى المثمر ، ننجب الطبقتين الكبريين . . المتشردين المتسولين ، وأصحاب الملايين .

وأدلى الشعبيون بمليون صوت ، ولكن جروفر كليفلاند وليس جيمس بى . ويفر ــ الذى تصدر كثيراً من القضايا الخاسرة ــ وهو الذى ذهب إلى البيت الأبيض ، لقد هبت

رياح التمرد من حقول القطن التى شققت الشمس تربتها فى الجنوب ، ومن البرارى الحارة المتربة فى الغرب ، ولكن الأحزاب القديمة مضت فى طريقها المعهود . فما كان ليوقظها من عدم المبالاة المغرورة شيء أقل من زلزال يهز الأرض . ولم يطل الزمن قبل مقدم هذا الزلزال .

سـنة ١٨٩٦

كانت الأحوال سيئة فى سنة ١٨٩٢ ، وقد أخذت تزداد سوءاً باطراد . فما إن أدى جروفر كليفلاند اليمين فى احتفال مهيب ليتولى الرئاسة للمرة الثانية ، حتى انقض على البلاد فزع عظيم . فانهارت البيوت التجارية ، وأغلقت المصارف أبوابها ، وانتقلت السكك الحديدية إلى أيدى الدائنين ، وتوقفت المصانع ، وتقلصت التجارة ، واستولى الدائنون على المرهونات . وفى المدن ، أخذت صفوف طويلة من المتعطلين تقف أمام مطابخ الحساء [1] ، وازداد جيش المشردين فى الريف آلافاً جداً . كان هذا أسوأ من فزع سنة ١٨٧٣ ، وأوسع انتشاراً ، وأشد تدميراً فى آثاره .

واتبعت الحكومة إزاء هذه النكبة سياستها التقليدية القاضية بعدم التدخل فى الاضطرابات الاقتصادية . كان كليفلاند قائداً قديراً ، أميناً ، شجاعاً ، حسن النوايا . نصيراً رائعاً لليبرالية مانشيستر فى محاربة الفساد والامتيازات الخاصة . وكان قد قام بأعمال جديرة بالإعجاب فى فترة رئاسته الأولى (١٨٨٥ - ١٨٨٩) . بيد أنه كان شديد التشبث بفلسفة عدم التدخل الحكومى فى الشؤون الاقتصادية . ومع أن برنامجه كان يقوم على تخفيض التعريفة الجمركية والإصلاح الإدارى ، فقد رفض معظم المقترحات لإصدار تشريع اقتصادى علاجى . كان يؤمن بأن العاصفة يجب أن تُترك لتنقشع بنفسها ، وأن خير علاج للكساد الاقتصادى هو ما يقوم على القوى الذاتية فى الاقتصاد . وظلت الأمور تزداد سوءاً مدة عامين . وشهد عام ١٨٩٤ إضراب بولمان الكبير ، ومسيرة جيش كوكسى من المتعطلين إلى واشنطن ، ومزيداً من التدهور فى أسعار

(١) مراكز تابعة للحكومة والهيئات الخيرية لتقديم شيء من القوت للمعدمين ــ المترجم .

المنتجات الزراعية . ومن حقول القطن والذرة والقمح انبثقت منطقة متخمة بالثورة . وهـدد الجناح الجنوبى والغربى للحزب الديمقراطى بالانفصال عن الحزب القديم . وعندما تصدى كليفلاند فى سنة ١٨٩٤ ليسد الطريق على إجراء يؤدى إلى التضخم ، أعلن داعية الحـرب القـديم ريتشـارد بلانـد من ميسورى : « لقد وصلنا إلى مفترق الطرق » . وفى خريف ذلك العام ، تكاتف جمع من الديمقراطيين مع الشعبيين الذين جمعوا ما يقرب من مليون ونصف المليون من الأصوات .

وتوقع الكثيرون تكرار أزمة ١٨٥٤ - ١٨٥٦ ، عندما تفكك حزب الأحرار الذى أثقلتـه الشيخـوخـة ، وخلفه حزب الجمهوريين الشاب الموفور الفتوة . غير أن زعماء الديمقراطيين الغربيين الدهاة لم يكونوا بعد على استعداد للتسليم بالهزيمة فى حين أن الديمقراطيين الجنوبيين كانوا قد أصبحوا مقترنين تماماً بسيادة البيض ، فلم تكن لأى حزب ثالث فرصة لمزاحمتهم . ومن ثم ، فإن الزعماء المتطرفين من الغرب والجنوب زحفوا للاستيلاء على التنظيم الحزبى ، بدلاً من أن ينضموا إلى الشعبيين . . . « وإذ ذاك بدأ الصراع . وفى حماسة تقرب من الحماسة التى ألهمت الصليبيين الذين ساروا وراء بطرس الناسك ، مضى ديمقراطيونا ذوو الفصاحة المقنعة من نصر إلى نصر ، كما كتب بريان فيما بعد .

واختـار الـديمقـراطيون من المناطق الزراعية أن يخوضوا الانتخابات على أساس المسألة النقدية . وكثيراً ما اعتبر هذ خطأ ، غير أنه من المشكوك فيه أن أية مسألة أخرى كانت خليقة بأن تستهوى الناخبين أو أن تتصاعد بهذه السهولة لتثير المشاعر . كانت مشكلة النقود فى تلك المرة معقدة ، ومع ذلك فلن يكون مجانباً للصواب كثيراً أن نقول إنها كانت مسألة صراع بين التضخم والانكماش . كانت الحكومة تتبع لسنوات سياسة الإقلال من النقد ، بينما كان المشتغلون فى تجارة الأمة يتكاثرون . وفى سنة ١٨٧٣ ، قبيل شروع إنتاج مناجم الفضة فى الغرب فى التهديد بتخفيض قيمة النقد ، أقصى الكونجرس الفضة عن النقد بإجراء روتينى محض . . أى أنه رفض شراء أوسك أى مزيد من العملات الفضية . ثم اضطرت الحكومة فى سنة ١٨٨٧ ، ومرة أخرى فى سنة ١٨٩٠ ، إلى شراء كميات كبيرة من الفضة إلى حد عرض الاحتفاظ بقاعدة ذهبية لنقد الـولايات المتحدة لخطر جسيم . وصمم عدد من الرؤساء المتعاقبين على تدعيم هذه القـاعدة ، تؤيدهم فى ذلك كل القوى المحافظة فى الأمة . ولقد شن كليفلاند بوجه

خاص حملة جبارة ، وناجحة ، من أجل ذلك . وكان كثيرون من المزارعين يوقنون بأن هذه السياسة النقدية هى المسئول الأول عن انخفاض الأسعار . فكان دعاة العملة الفضية يقولون : أعيدوا العملة الفضية ، وسكوا كل ما يستخرج من المناجم ، وافتحوا دور السك لجميع المعدن النفيس فى العالم ، ترتد قيمة النقد إلى مستواها الطبيعى ، فترتفع الأسعار ويرجع الرخاء .

أما المحافظون من أنصار النقود العسيرة [١] ، فقد ظلوا مقتنعين بأن سياسة كهذه كفيلة بأن تكون نكبة مالية . فإن التضخم إذا ما بدأ ، عزت السبل إلى إيقافه ، ولا تلبث الحكومة ذاتها أن تجنح للإفلاس . وليس يكفل الثبات سوى قاعدة الذهب . بل إنهم فوق هذا ، أقنعوا أنفسهم بأن قاعدة الذهب سلوك خلقى سليم ، وليست سلوكاً مالياً سليماً فحسب . ووصموا الدولار الفضى فى ظلم بيِّن بأنه دولار « غير أمين » . هذا الخلاف على النقود الرخيصة [٢] كان نزاعاً قديماً . . دائم التجدد .

ولقد كانت هناك دواع كثيرة للنزاع المتعلق بإطلاق إصدار العملة الفضية ، وذلك لأسباب استراتيجية . إذ كان من الممكن الاعتماد على أصحاب مناجم الفضة المهددين بالإفلاس ، للمساعدة فى تمويل حملة لذلك . وكان نفوذ الفضة مسيطراً تماماً فى ست من الولايات الغربية غير كثيفة السكان ، وكانت مناصرة للحزب الجمهورى عادة ، وتسيطر على أصوات فى المجمع الانتخابى غير متناسب مع قلة سكانها . فلو أمكن تحويل هذه الولايات إلى صف الحزب الديمقراطى ، لقلبت ميزان الانتخابات . والنقود السهلة [٣] خليقة بأن تروق لطبقة المدينين الشاسعة فى كافة أرجاء البلاد ، ولبعض العمال وللمزارعين . وأخيراً ، كانت الفضة صفة عاطفية من السهل استغلالها . إذ كان الذهب نقود الغنى ، والفضة صديق الفقير . كان الذهب نقود وول ستريت ولومبارد ستريت ، أما الفضة فنقود البرارى والمدن الصغيرة .

على أن إثارة الجدل لم تكن كافية ، بل كان لابد لأنصار الفضة من مرشح . فكتبت صحيفة « ويرلد » النيويوركية تقول : « كل ما يحتاج إليه أنصار الفضة هو موسى (أى

(١) العملات التى تفوق قيمتها الاسمية قيمتها المادية ، كالعملات الورقية ـ المترجم .

(٢) النقود التى تنخفض قيمتها الحقيقية عن قيمتها الاسمية ، أى تنخفض قوتها الشرائية بسبب التضخم ـ المترجم .

(٣) العملات التى لها من قيمتها المعدنية ما يتناسب مع قيمتها الاسمية ـ المترجم .

نبى مرشد) . فهم قد أوتوا مبدأ ، وأوتوا العزم ، وأوتوا الدعاة والمؤيدين والشعارات ، وأوتوا الصوت المدوى والوسيلة ، وأوتوا الأصوات الانتخابية ، وأوتوا الزعماء كما يسمون . ولكنهم يتيهون فى القفر كفريق من الأغنام التائهة ، لأنه لم يظهر بعد بينهم شخص ذو شجاعة ، وجرأة ، وسحر شخصية ، وحكمة ليكون قائداً حقيقياً .

ووجدوا موسى المنشود فى شخص وليم جنينجز بريان ، من نبراسكا . وكموفد إلى مؤتمر شيكاغو الانتخابى الصاخب ، فى سنة ١٨٦٠ ، تقرر أن يتحدث فى المسألة النقدية . وإذ راح يصعد الدرجات إلى المنصة ، فى تلك الليلة القائظة ، مساء ٨ يونيو ، كان يخطو نحو الشهرة القومية .

> إننا لا نأتى كمعتدين . فحربنا ليست حرب غزو ، وإنما نحن نقاتل دفاعاً عن ديارنا ، وعن عائلاتنا ، وعن ذريتنا . لقد رفعنا المطالب فقوبلت بالاستهزاء ، ولقد رجونا فقوبلت رجاءاتنا بالإغضاء ، ولقد توسلنا فسخروا عندما حلت محنتنا ، فنحن لن نتوسل ثانية ، ولن نرجو بعد الآن ، ولن نلتمس المطالب ، إننا نتحداهم ! . . .

هكذا تكلم « الخطيب الفتى ابن حوض نهر بلات » ، فأثارت كل جملة عاصفة جنونية من التصفيق . فلما ألقى الختام المشهور لخطابه ، اهتزت القاعة بسيل من التصفيق المدوى الذى لم يُر مثله من قبل فى أى اجتماع أمريكى آخر .

> إذا تجاسروا على نزول الميدان علناً ، ودافعوا عن مستوى الذهب باعتباره شيئاً جيداً ، فسوف ننازلهم إلى أقصى مدى . فبمساندة الجماهير المنتجة من الأمة والعالم لنا ، وبتأييد المصالح التجارية ، والمصالح العمالية ، والكادحين فى كل مكان ، سنجيب مطالبتهم بمستوى الذهب بأن نقول لهم : لن تفرضوا على جبين العمل هذا التاج من الأشواك ، ولن تصلبوا الجنس البشرى على صليب من الذهب .

وكان من الممكن أن يُرشح بريان ولو لم يلق خطابه ، إذ كان قد قام بحملة متقنة قبل المؤتمر ، فكان مرشحاً معقولاً من كل الاعتبارات . وكان اختياره مقرراً سلفاً عقب الخطاب . واكتمل انتصار جناح الفضة فى الحزب الديمقراطى ، فكتبوا البرنامج ،

وعينوا المرشح ، واضطروا الشعبيين على أن يسعوا إليهم .

وبهذه الحملة تخطو شخصية بريان الأسرة إلى الحلبة القومية ، وظل يجتذب الأضواء من فترة إلى أخرى طيلة عقدين من الزمن . كان من بعض النواحى أكثر الزعماء السياسيين استئثاراً بالاهتمام منذ هنرى كلاى . وببهاء منظره ، وشعره الفاحم ، وعينيه السوداوين المتألقين ، وصوته ذى الجمال الرخيم ، وسرعة بديهته ، وذكائه ، وعدم خوفه ، أسر عقول الملايين من البسطاء وولائهم المفعم بالتبجيل . وكان قد نشأ فى مزرعة ، والتحق بكلية ريفية ، ونزح إلى إقليم السهول ، حيث مارس المحاماة والسياسة ، كما كان تقياً من أتباع المذهب المشيخى ، فكانت خطبه مرصعة بمقتبسات مناسبة من الكتب المقدسة . وكان ديمقراطياً بسيطاً ، لم يفسده النجاح ، كما كان صادق الإخلاص للصالح العام كما كان يراه ، وموقناً من أن صوت الشعب هو صوت الله . ولقد كان مثلاً رفيعاً للشخصية الأمريكية ، برغم أن نواحى نقصه كانت كثيرة ، إذ لم يكن واسع الاطلاع ولا عميقه ، وكان بعيداً عن اعتباره مفكراً أصيلاً ، مبدعاً ، شامل النظرة .

وكان النضال فى حملة عام ١٨٩٦ الانتخابية أشد احتداماً منه فى أية حملة منذ أيام جاكسون . وبدا من أول وهلة أن مهمة بريان متعذرة . إذ كان حزبه منشقاً على نفسه بدرجة كبيرة ، وكان زعيمه الشرقى الأعلى كليفلاند فى المعارضة ، ومعظم زعمائه الشرقيين يتحولون إلى معسكر الحزب الديمقراطى ، كذلك كان الحزب الديمقراطى يرزح تحت لوم غير منصف بأنه المسئول عن الكساد الذى استمر ثلاث سنوات . وكانت جميع القوى ذات الوزن تقريباً متكاتفة ضد بريان : قوى دوائر الأعمال والجامعات والصحافة والمال . ودعا مارك حنا ، رئيس الحزب الجمهورى ، إلى اكتتاب لتمويل الحملة الانتخابية قدر بها بين ثلاثة ملايين وسبعة ملايين من الدولارات ، ولم يستطع الديمقراطيون أن يجمعوا فى مقابل هذا ما يصل إلى نصف مليون . ولم تكن للديمقراطيين ميزة واضحة ، إلا فى ناحية واحدة . . فى بريان نفسه . وقد قام بأروع حملة فى التاريخ الأمريكى ، جائساً خلال البلاد طولاً وعرضاً ، من نيو إنجلاند حتى الغرب ، مستقلاً المركبات النهارية (غير المزودة بأسرّة للنوم) الحارة الجو ، المتربة ، ملقياً خطبه ثمانى بل عشر مرات فى كل يوم ، مناشداً العمال والمزارعين ، الأحرار والتقدميين ، لتأييده .

كان مجهوداً رائعاً ، ولكنه لم يكن كافياً . وتعلق مسز هنرى كابوت لودج على ذلك بقولها :

تحقق الفوز فى المعركة العظيمة ، معركة أدارتها قوى مدربة ، خبيرة ، منظمة ، امتلأت يداها بالمال . . كان كل سلطان الصحافة ـــ والنفوذ العالى ـــ فى جانب ، وفى الجانب الآخر دهماء غير منظمة فى البداية ، انبثق منها للأنظار والأسماع والقوة ، رجل واحد ، ولكن . . أى رجل ! لقد ناضل هذا الرجل وحيداً معدماً ، بدون مساندة ، وبدون مال ، وبدون صحيفة تذكر ، وبدون خطباء يدعون له . . ناضل نضالاً لا يملك معه أحد ، حتى أولئك الذين فى الشرق سوى أن يصفوه بأنه مجاهد صليبى ، مارق ملهم . . نبى ! كان نضالاً عجيباً . وكاد أن يفوز برغم ما كان يعوقه من أتباع ومن برنامج .

وفاز وليم ماكينلى آخر الأمر بما يزيد على نصف مليون من الأصوات . وأخفق الغرب والجنوب ، هذا التجمع الذى دفع جيفرسون إلى الحكم ، وساند جاكسون ودوجلاس . ذلك أن ماكينلى والجمهوريين ظفروا بأصوات ولايات من الغرب الأوسط مثل إللينوى ، وأيووا ، وويسكونسين وولايات من الغرب الأقصى مثل كاليفورنيا وأوريجون . بيد أنه قدر لبريان وحملة بريان أن يغدوا أسطورة . وفى هذا يقول فاشيل ليندساى :

المنتقم للغرب ، أسد الجبال . .
بريان ، بريان ، بريان ، بريان .
الشاعر الغنائى (التروبادور) الهائل ، المتكلم كأنه مدفع حصار . .
مهشماً صخرة بلايموث بكتفيه من الغرب .

كذلك قدر لآراء الشعبيين وديمقراطيى المناطق الزراعية أن تسجل أخيراً بأكملها ، دون أى استثناء واحد يذكر ، فى التشريعات . وقدر لها أن تغير مجرى التاريخ الأمريكى .

الفصل ١٨

عصر الاصلاح

التحدى الذى اعترض الديمقراطية

عندما أقدم بريان على كتابة تاريخ الحملة الانتخابية لسنة ١٨٩٦ ، أطلق على كتابه اسم « المعركة الأولى » . وكان ملهماً فى هذا العنوان . ذلك لأن المعركة ، وإن انتهت بهزيمة لقوات الديمقراطية الزراعية ، كانت البداية للحملة التقدمية . وقبل أن تنتهى الحرب ، كانت جيوش المزارعين والعمال قد اجتاحت الولايات واحدة بعد أخرى ، فى حملات انتخابية مظفرة متوالية ، مكتسحة معاقل الرجعية ، رافعة علمها فوق البيت الأبيض بانتصار ، وأعادت الحكومة القومية إلى طريقها الديمقراطى التقليدى .

ذلك كان العهد التقدمى . . عقدين من الزمن بين معركة بريان . . المعركة الأولى ، ومعركة وودرو ويلسن ، المعركة الثانية . وقد اتسم هذا العهد بالتمرد والاصلاح فى كل قسم من أقسام الحياة الأمريكية تقريباً . فأُقصى زعماء سياسيون قدامى ، ودُفع بزعماء جدد ، وأجرى فحص شامل وتجديد حديث للجهاز السياسى ، ووضعت العادات التطبيقية السياسية تحت فحص دقيق ، فنبذ منها ما عجز عن أن

يكون متفقاً مع المبادىء المثالية للديمقراطية . وسيقت النظم والأعراف الاقتصادية ــ الملكية الخاصة ، الشركة المساهمة ، الترست ، الثروات الكبيرة ــ لمحكمة العقل ، وطُلب إليها أن تبرر وجودها أو أن تغير أساليبها . وأعيد النظر فى العلاقات الاجتماعية ــ أثر المدينة ، الهجرة ، ألوان عدم المساواة فى الثروة ، نمو الطبقات . . كل هذه تعرضت لاهتمام ناقد دقيق . وتكاد كل شخصية بارزة فى هذه المرحلة ، سواء فى السياسة أو الفلسفة أو الثقافة أو العلم أو الأدب ، أن تكون قد أخذت بعض شهرتها عن ارتباطها بالحركة الإصلاحية : ويفر ، وبريان ، لا فوليت ، ودبس ، وروزفلت ، وويلسن فى حلبة السياسة . . وليم جيمس ، وجوزياه رويس ، وجون ديوى فى الفلسفة . . ثورستاين فيبلين ، وريتشارد إيلى ، وليستر وارد فى العلم . . وليم دين هاولز ، وفرانك نوريس ، وهاملين جارلاند ، وتيودور درايزار فى الأدب . كان أبطال هذا العهد مصلحين عن بكرة أبيهم . قادوا بشجاعة وتحد استحكامات الديمقراطية ، بل وانطلقوا مهاجمين للقيام بفتوحات جديدة . وما حدث مثل هذا التفاعل فى العالم الفكرى منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر ، ولا قدر للإصلاح أن يوطد مكانته فى الميدان كما وطده من ذلك الحين .

وما الذى دار حوله هذا النشاط المتلهف الرائع للإصلاح ؟ ما كنه هذا الذى أشاع الاضطراب فى مياه الحياة الأمريكية ؟ لقد رأينا من قبل طرفاً من مشكلات المزارع والعامل . ولكن هذه المشكلات ، على إيلامها ، كانت أعراضاً أكثر منها أسباباً . فالمعضلة لم تكن اقتصادية فحسب ، ولا هى كانت مقتصرة على هذين المجالين الكبيرين : الزراعة والقوى العاملة . بل إنها مست كل وجه من وجوه المجتمع الأمريكى .

الواقع أن الخير الذى كان مرتقباً من الحياة الأمريكية لم يكن يلقى تحقيقاً . كان المرجو فى هذه الدنيا الجديدة إقامة مجتمع تكون فيه الحرية والمساواة مكفولتين للجميع ، مجتمع تحظى فيه الحرية بالحماية . ومن المؤكد أن هذا كان حلماً ، ولكنه لم يكن حلماً وهمياً ، ولا كان مبتدعو تطلعات الجمهورية الأمريكية ممن يلوذون بأفيون الآمال الكاذبة . فإن الطبيعة لم تكن قد أتاحت للبشر يوماً من قبل مثل هذه الفرصة السخية ، ولا كان ثمة سبب مقبول ــ فى يوم من الأيام ــ للاعتقاد بأن بوسع البشر أن ينشئوا لأنفسهم جنة على الأرض ، كالداعى الذى ترتب على ذلك . فكان الشعب الأمريكى فى البداية « أمل الجنس البشرى » كما قال تيرجو حقاً .

هذا الأمل لم يتحقق . كان الأمريكيون أحسن حالاً من معاصريهم فى الخارج ، ولكنهم كانوا أسوأ مما كان ينبغى لهم . كانت المنجزات المادية للأمة هائلة ، ولكن المنجزات الثقافية والاجتماعية كانت مخيبة للرجاء . وفى هذا قال الرئيس ويلسن فى الخطاب الافتتاحى لفترة رئاسته الأولى :

لقد جاء الخبيث مع الطيب ، وكم من ذهب بديع المنظر صدأ . فمع الثراء أقبل تبذير لا مبرر له ، وبددنا شطراً كبيراً مما كنا خليقين بأن نفيد منه ، ولم نكف لكى نصون سخاء الطبيعة الفياض . . مستهجنين أن نكون حريصين . فنحن مسرفون بدرجة تدعو للخجل ، بقدر ما نحن أكفاء بدرجة تدعو للإعجاب . إننا نفخر بمنجزاتنا الصناعية ، ولكننا حتى الآن لم نتوقف متدبرين بدرجة كافية لنحسب التكلفة البشرية ، تكلفة النفوس التى ضُحِّيت دون تقدير ، والطاقات التى حملت فوق وسعها فتحطمت ، والتكلفة البدنية والروحية من الرجال والنساء والأطفال الذين وقع عليهم دون ما إشفاق ما لكل هذا من ثقل مميت وعبء ، على طول السنين . . . ومع الحكومة العظيمة ولت أمور كثيرة خفية كل الخفاء ، تقاعسنا أطول مما ينبغى عن تأملها بعيون سريعة الاستيعاب ، مبرأة من الخوف . وما أكثر ما تعرضت الحكومة العظيمة التى أحببناها للاستغلال ، لأغراض خاصة وأنانية ، وقد تناسى الذين استغلوها الشعب .

لم يكن هذا لأن أناساً خبيثين ارتكبوا شروراً ، ولا كان لأن رجالاً أقوياء النفوذ قد عافوا وآلوا على أنفسهم أن يقضوا عليها ، ولا كان لأن الطغيان والاستبداد قاما بدلاً من الحرية . كلا ، بل إن الأسباب كانت أكثر حذقاً من كل هذا . كانت المحنة الأساسية شائعة فى العالم الغربى بأسره . فلقد طغى العلم والآلة على علم الاجتماع والجهاز السياسى . ولم تعد العادات والمبادىء الموروثة عن أمة ريفية قامت فى القرن الثامن عشر كافية لمتطلبات حالة العمران المدنى فى القرن العشرين . وكان هذا حقيقياً فى المجال السياسى ، حيث ألح الخوف من الحكومة فى فترة لم يكن فيها من يقدر على السيطرة على القوى التى أطلقتها الآلة على المجتمع سوى الحكومة . وكان حقيقياً فى المجال الخلقى ، حيث هدد قيام الشركات غير ذات الطابع الشخصى المعتقدات القديمة عن المسئولية الشخصية . وكان حقيقياً فى المجال الاجتماعى ، حيث لم تعد عادات الحياة الريفية فى

مجتمع متجانس صالحة للتطبيق إزاء مطالب حياة المدن فى مجتمع متباين العناصر بدرجة عالية .

ولقد خلق النماء فى حد ذاته طائفة من المشكلات . فإن مجال الزراعة تجاوز فى نموه الحدود التى كانت الطبيعة قد أقامتها ، وأخذ المهاجرون يتدفقون أسرع مما كان يمكن استيعابه ، وراحت المدن تنمو بسرعة لتؤوى سكانها المتكاثرين ، أو تحكمهم حكماً مناسباً ، وازداد إنتاج المصانع متجاوزاً الاستهلاك الفعلى ، وتضخمت الأعمال التجارية حتى لم يعد بوسع أحد أن يفهمها أو يسوس أمورها بدراية كاملة ، وأثرى نفر قليل بدرجة أنهم لم يكونوا يدرون ما يفعلون بأموالهم . . ولم يكن المجتمع قد تعلم بعد كيف يخفف عنهم هذا العبء .

كانت هذه هى الصعاب الأساسية ، ولكن ما أقل من أوتوا بصيرة ثاقبة لتقديرها . وبدلاً منها كان المصلحون يرون الفقر والغبن والفساد . . كانوا يرون مسألة الأرض ، ومسألة القوى العاملة ، ومسألة المرأة ، ومسألة النقود . ومن ثم فقد انصرفوا للقضاء على الأحياء الفقيرة ، وطهروا السياسة ، وكسروا سطوة الترستات ، وحاربوا الأشرار ذوى الثراء العظيم ، وشنوا الحرب على « شيطان الخمر » ، وعلى تشغيل الأطفال ، وعلى سوء أحوال العمل ، وقاموا بحملات من أجل الهنود ، ومن أجل الزنوج ، ومن أجل « الأشقاء السمر الصغار » فى الجزر الجديدة التى امتلكناها ، وابتكروا أنظمة جديدة للحكم . . روح المبادرة ، والاستفتاء الشعبى ، وحق الانتخاب للمرأة ، والانتخابات الابتدائية ، وقوانين أعمال الفساد ، ونظام الأهلية ، كما أنقذوا الغابات والموارد المائية ، وقاموا بتجميل المدن . وبرزت مئات من الجمعيات لعمل الخير وازدهرت . وضجت المطابع بكتب تعرض شرور النظام الحاضر ، وتقدم مشروعات لنظام أفضل . وحارب محررو المجلات الفساد بمقالات تفضح كل شىء ، فى كل مكان ــ شركة ستاندارد أويل ، أو ترست اللحم البقرى ، أو « العمليات المالية المسعورة » ، أو « تاريخ الثروات الأمريكية الكبيرة » ، أو « عار المدن » . وتحول روائيون مثل تيودور درايزر وفرانك نوريس وبراند هويتلوك عن الخيال واللون المحلى إلى الروايات التى تعالج مشكلات ، وإلى المواعظ الخلقية . وعاف الشعراء قصائدهم على تباين مقاطعها وقوافيها ، وراحوا مع إدوين ماركهام يكتشفون « الإنسان العامل بالمعزقة » . وبرز العلماء الدارسون من أبراجهم العاجية ليعالجوا المشكلات الاجتماعية . . ليناقشوا مع

فيبلين نظرية المشروعات التجارية والصناعية ، أولينهالوا مع ليستر وورد طعناً فى نظرية حرية العمل laissez faire . وأعاد الوعاظ اكتشاف رسالة التعاليم الاجتماعية ، وأزعجوا أبناء الأبرشيات المحترمين بقراءة كتاب « العهد الجديد » قراءة موضوعية ، أو بالتكهن بما يحدث « إذا جاء المسيح إلى شيكاغو » .

كان هذا كله مما راق للمزاج الأمريكى . فقد كان الاحتجاج والتمرد على الأحوال فى انجلترا القديمة هما اللذين حملا المهاجرين الأوائل والمتطهرين (البيوريتان) على المجىء إلى انجلترا الجديدة (نيو إنجلاند) ، ولقد ثار الزعماء فى عهد الاستعمار تباعاً ــ روجر وليمز ، وناثانييل بيكون ، وجاكوب ليسلر ــ على الطغيان والتعصب عندما قاما هنا . لقد ولدت الأمة من ثورة ، وكان أبطالها القوميون ــ جيفرسون ، فرانكلين ، سام آدمز ، توماس بين ــ ثواراً ليس ضد الوطن الأصلى فحسب ، بل ضد الطبقات الحاكمة فى الوطن الجديد كذلك . ولقد جاهد كبار الكتاب والوعاظ والفلاسفة فى نيو إنجلاند ، فى الأربعينات والخمسينات من القرن الثامن عشر ــ إيمرسون وهويتير ، جاريسون وباركر ــ فى النضال من أجل المساواة والحرية . فقد كان التحرى ، والتحدى ، والاحتجاج ، وتجربة كل الأمور والتشبث بما هو طيب . . كانت كلها من طبيعة الشخصية الأمريكية .

ولقد كانت حركة الإصلاح الجديدة تختلف اختلافاً واضحاً عن الحملة الكبرى فى الربع الثانى من القرن ، من حيث الفلسفة والأساليب . فإن الحملة السابقة كانت منبثقة من فلسفة دينية ، وتضمنت إصلاحاً عالمياً شاملاً ، ولم تكن تكترث للسياسة . أما حركة الإصلاح فى الفترة بين ١٨٩٠ و ١٩١٢ ، فكانت مدنية غير دينية إلى حد كبير ، وكانت تفتقر إلى أية فلسفة منسقة ثابتة ، وكانت مستندة إلى المصادفة وتكاد تكون عشوائية فى أهدافها واهتماماتها ، كما أنها كانت تعتمد على الصحافة ، وكانت سياسية إلى درجة كبيرة . ولقد كان ثمة إيمان مشترك بالديمقراطية وطبيعة الإنسان قطعاً ، بيد أن هذا كان أقل شيوعاً فى الحركة الأخيرة منه فى الحملة الأولى . وهناك ما يوحى بأنه إذا كان كل مجاهدى « العصر الذهبى » تقريباً قد ظلوا أوفياء لمبادئهم الأصلية ، فإن كثيرين من الصحفيين والسياسيين الذين ارتبطوا بالحركة التقدمية فى التسعينات لاذوا فيما بعد بمعسكرات العدو .

ولقد ظهر خلال هذه الأعوام تياران رئيسيان للإصلاح . أحدهما نابع من المناطق الزراعية فى الغرب ، وقد عنى فى الغالب بالموضوعات الاقتصادية ، وكشف من وقت

لآخر عن ومضات من الراديكالية الحقيقية . وكان فيلسوفا هذا الاحتجاج الغربى هما : هنرى جورج مؤلف « التقدم والفقر » ، وإدوارد بيلامى الذى كان كتابه « النظر إلى الخلف » (التفاتة متأملة لما مضى) يتمثل اقتصادياً يوتوبياً (خيالياً فى مثاليته) ، أما الدعاة السياسيون فهم آلتجيلد ودونيلى ، وبريان ولا فوليت . وكان التيار الثانى شرقياً ، بل إنجليزياً فى أصله ، وقد عنى بمشكلات مثل إصلاح التعريفة الجمركية ، ونظام الأهلية ، ومكافحة الإمبريالية . وكان المفكرون الناطقون باسمه هم : إى . إل . جودكين رئيس تحرير صحيفة « نيشن » النيويوركية القوية النفوذ ، جورج وليم كيرتس ، تشارلز دبليو . إليوت رئيس جامعة هارفارد . وكان ممثلوه السياسيون هم : كارل شورز ، أبرام إس . هيويت ، جروفر كليفلاند ، وودرو ويلسن .

الجهاد من أجل العدالة الاجتماعية

أصدر جاكوب ريس ، وهو مهاجر من الدنمرك أثناء عمله كمخبر لصحيفة « صن » النيويوركية ، سنة ١٨٩٠ ، كتابه « كيف يعيش النصف الآخر » . كان عرضاً غير منمق للظروف فى الأحياء الفقيرة المكتظة من نيويورك ، صور الازدحام والقذارة والمرض والجريمة والرذيلة والبؤس التى يعيش فيها النصف الآخر ، الذى تخلف عن ركب الديمقراطية . وسرعان ما أقبل الصحفيون فى مدن أخرى على إعداد تقارير مشابهة ، فتنبهت الأمة لإدراك أن الخطر الذى يتهدد المدينة ليس أقل إلحاحاً مما يتهدد المزارع .

كانت المدينة ، كما أشار لورد برايس فى كتابه « جمهورية الديمقراطية الأمريكية » ، مظهر العجز الواضح الوحيد للديمقراطية الأمريكية . فهنا كان طرفا النقيض ، الثروة والفقر ، فى أبشع صورهما ، فالأحياء الفقيرة تزاحم قصور الأغنياء المرمرية ، والمتسولون يحومون حول أبواب المطاعم الفخمة . هنا كان الفساد فى أوقح مظهر ، فالثُلل والجماعات الاستقلالية تثرى على موارد الخزانة العامة ، إذ تبيع الامتيازات والتراخيص العامة ، مستغلة الجريمة والرذيلة . هنا كان الماخور والدار السيئة السمعة يلقيان الحماية والتشجيع من السياسيين وأصحاب المصالح الذين يفيدون منهما ، بينما كانت العصابات الإجرامية ــ مثل الهوايوز فى ملبيرى بيند بولاية نيويورك ، أوليك شور بوش بولاية

كليفلانـد ــ تمضى فى أسـاليب النهب والسلب دون أن يزعجهـا تدخل من سلطان الأمن . هنا كانت الورش التى تجور على حقوق العامل شهوداً على استغلال النساء ، وكان الصبية من باعة الصحف ومنظفى الأحذية شهوداً على العجز عن رعاية الأطفال . هنا كانت مشكلات الصحة العامة ، والإسكان ، والتعليم ، والحكم أشد ما تكون .

كانت مشكلة الإسكان هى التى استأثرت أولاً باهتمام المصلحين ، إذ أنها لم تكن مقتصرة على التعسـاء سكـان الأحياء الفقـيرة فحسب ، بل كانت تعنى سكان المدن جميعاً . ففى العقدين التاليين للحرب الأهلية ، كان سكان المدن قد نموا بمعدل أسرع من معدل نمو المرافق الإسكانية ، مما نجم عنه تزايد المبانى التى تؤجر للسكنى . . وهى بنـايات خشبية ضعيفـة الأسس ، ترتفـع إلى خمسـة طوابق أو ستـة ، معتمة ، سيئة التهـوية ، قذرة ، مأوى للأمـراض ، ومبـاءات للرذيلة . فكـان فى مدينـة نيويورك وحـدهـا ، فى سنـة ١٨٩٠ ، ما قد يصل إلى نصف مليون شخص يعيشون فى هذه « الأحياء الفقـيرة » ، حيث كان معدل الوفيات أربعة أمثاله فى أحياء المدينة الأسعد حظاً . ففى مجموعة من هذه المساكن ، تعتبر مثالاً لحى الجانب الشرقى (إيست إند) ، كان ثمة ٢٧٨١ شخصاً ، ولكن ما من حوض واحد للاستحمام . وكان ثُلث حجراتها ــ وعدتها ١٥٨٨ ــ بدون ضوء ولا تهوية ، وثُلث آخر يطل على « المناور » . فلندع ريس يصف إحدى المجموعات ، فى الطرف الأدنى من مانهاتان :

ما رأيك فى تأمـل إحـدهـا ؟ رقم (. .) فى تشـيرى ستريت . أرجو أن تأخذ بعض الحذر ، فالبهـو معتم ، وقد تتعثـر فى الأطفال وهم يلعبون برماية قطع النقود على هدف هناك . ولسـت أخشى أن تؤذيهم ، فالركلات واللكمـات غذاؤهم اليومى . ولا ينالون سـواهـا شيئـا يذكر . هنـا حيث ينحرف البهو ويغوص فى ظـلام تام ، توجـد درجة سـلم ، فأخـرى ، وأخـرى ، مجمـوعة من الدرجات . بوسعك تحسـس طريقك إن لم تكن تراهـا . مغلقة حبيسة ؟ أجـل ، فماذا كنـت ترجو ؟ كل الهواء الطـلق الذى يقدر له دخول هذا السـلم ، يأتى من باب البهو الذى لا يكف عـن الاصطفاق ، ومن نوافـذ حجـرات النـوم المعتمـة التى تتلقى بدورهـا من السـلم قسطها الوحيـد من عناصـر الـطبيعـة . . تلـك كانت امـرأة تملأ دلـوهـا من الصـنبـور الـذى ارتطمت بـه . إن الأحـواض فى ممر البهـو ، ليستطيع جميـع المستأجرين أن ينفـذوا إليهـا . . وليتسمموا

جميعاً ، على السواء ، بنتنها فى الصيف . أتسمع صرير المضخة ؟ إنها الأنشودة التى ينام عليها أطفال المستأجرين .

وكانت « معركة الأحياء الفقيرة » حملة طويلة حقاً ، استعرت فى جبهات كثيرة . وبالشكوى من الأخطار الطارئة ، من حرائق وأوبئة ، أقنع مصلحون مثل ريتشارد واتسون جيلدر المشرعين المتقاعسين بأن يقضوا باعتبار أسوأ هذه البنايات مخالفة للقانون ، وبأن يشترطوا توفير التهوية والوسائل الصحية العامة اللائقة فى غيرها . ولإبعاد الأطفال عن الطرق وعن العصابات ، وإتاحة فرصة أفضل ليحظوا بالصحة والأدب ، أقيمت ملاعب فى أشد قطاعات المدينة ازدحاماً ، وأتاحت الأموال التى جمعت لإمتاعهم بالهواء الطلق إرسالهم فى العطلات إلى الريف ، وأخذت مراكز اللبن توزع اللبن بالمجان لمن لا يملكون شراءه ، وأعفت دور الحضانة النهارية الأمهات العاملات من القلق على أطفالهن ، وهيأت جماعات الممرضات الزائرات رعاية طبية وعلاجية دون مقابل ، ووفرت هيئات مثل جماعات الشبان المسيحيين والكشافة منافذ صحية وطبيعية للطاقات الفنية .

وأنشأت العاملات دون كلل فى الخدمة الاجتماعية ، مثل جين آدمز ، وليليان والد ، بيوتاً للإيواء فى الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى ، على غرار توينبى هول فى لندن . وتولت هذه البيوت ، التعامل فى إنسانية ورحمة مع أولئك الذين كان تيودور باركر قد وصفهم بأنهم الطبقات الهالكة والخطيرة فى المجتمع . . من مهاجرين حديثى الوصول ، حائرين فى عالم غريب ، إلى متعطلين عن العمل ومعدمين من ضحايا الصناعة التى لم تتحمل أية مسئولية من أجل خيرهم ، بل ولا من أجل أجسامهم التى أصابتها آلاتها بعاهات معجزة . . إلى شيوخ ونساء محطمين هجرهم أولادهم ، إلى الأطفال المشردين فى الشوارع والحارات ، والشباب الذين يتعرضون لمشكلات مع آبائهم أو كنيستهم أو القانون ، إلى المهملين والمنبوذين فى المدن الجديدة التى كانت تنمو بسرعة لا تدع سبيلاً إلى التفكير فى عدالة ، أو رحمة ، أو جمال . كانت دور الإيواء ، كما قالت جين آدمز « مجهوداً تجريبياً للمعاونة على حل المشكلات الاجتماعية والصناعية الناجمة عن ظروف الحياة الحديثة . وهى فى الوقت ذاته محاولة للتخفيف من التكدس المفرط للمال فى أحد طرفى المجتمع ، والفاقة فى الآخر » .

وكان أكثر بيوت الإيواء نجاحاً وشهرة هَلْ ـ هاوس ، فى الجانب الغربى من شيكاغو . ومن الممكن أن يعزى هذا إلى عبقرية جين آدمز ، أكثر العاملات فى الخدمة الاجتماعية فهماً ، وقوة إقناع ، وفعالية . فهى قد أنشأت هل ـ هاوس فى سنة ١٨٨٩ ، ولم تجعله ملاذاً للفقراء والمشردين فحسب ، بل جعلته كذلك مدرسة تدريب للشباب ، ومعملاً لعلماء الاجتماع والفلاسفة . فأصبح هل ـ هاوس مركزاً اجتماعياً لشيكاغو بأسرها ، ومدرسة فنية ، ومدرسة للموسيقى ، ومدرسة للتمثيل ، ومسرحاً ، ومركزاً للتأهيل ، كما كان ــ على مستوى آخر ــ مركزاً لتدريب الباحثين الاجتماعيين على أساليب الخدمة الاجتماعية ، وتحقيق الأهداف الاجتماعية عن طريق التشريع . ومن هل ـ هاوس انطلقت إشعاعات كافة أنواع الأنشطة الإصلاحية : فقد عمل كمركز مقاصة وتصفية للحريات المدنية ، وتبنى التشريعات التى تحمى النساء والأطفال فى الصناعة ، وساعد على إقامة أولى محاكم الأحداث فى البلاد . وقد أصبح هل ـ هاوس معهداً عالمياً ، وأصبحت جين آدمز ــ القديسة جين ، كما كانت تعرف لدى الآلاف ــ شخصية عالمية ، إذ كانت الأولى فى الحرب ضد الفقر والجريمة ، والأولى فى السلام قطعاً (إذ كانت أول امرأة فازت بجائزة نوبل للسلام) ، والأولى فى قلوب مواطناتها ومواطنيها .

ومن أكثر المشكلات العاجلة التى شغلت المصلحين ، مشكلة الجريمة ، لا سيما ما يتعلق بتزايد انحراف الأحداث . فقد شهد عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر ازدياداً فى نزلاء السجون بنسبة ٥٠ فى المائة ، وكان الأطفال يمثلون خمس هذا العدد . وللولايات المتحدة تاريخ طويل ومشرف فى الاهتمام بإصلاح قوانين العقوبات والسجون ، على أنه بالرغم من جهود النقاد والمتنورين ، مثل إدوارد لفينجستون ودورثيا ديكس وفردريك واينز ، فإن قوانين العقوبات ظلت قاسية فى كثير من الولايات ، كما أن ظروف السجون فى بعض الولايات كانت تذكر الزائرين بـ « جُحْر كلكتا الأسود » بدرجة كبيرة . وبجهود شاقة ماتت الفكرة القديمة القائلة بعقاب المخالفين للقانون وليس بإصلاحهم ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لوحشية سلطات الأمن ، والتعذيب ، وتطبيق قانون على الأغنياء وذوى النفوذ وآخر على الفقراء والذين لا حول لهم . ولقد نادى آلتجيلد حاكم إللينوى ــ الذى أصدر عفواً عن فوضويى هايماركت ــ بأن المجتمع هو الذى يكون مذنباً إذا ما ارتكبت جرائم ما ، وليس الأفراد . ولقد قام بجهد بطولى فى إصلاح قانون العقوبات فى الولاية . وقد تتلمذ عليه عمدة توليدو « جونز صاحب

الحكم الذهبى » ، وسلك مسلكه . . ووجد الفرصة لإبراز رأيه :

> كان دائم التردد على سجون المدينة أو الإصلاحيات ، والتحدث إلى الأشقياء المساكين فيها وكأنه واحد منهم . . وكان يعمل باستمرار على إخراجهم من السجن ، ودخل معى آخر الأمر فى اتفاق صغير ، يدفع بمقتضاه كافة النفقات اللازمة لمحاكمتهم . . إذا توليت بنفسى قضاياهم . فإذا قبض على فتاة فقيرة مثلاً ، وطلب محاكمتها أمام محلفين ، وأوليت قضيتها من العناية ما كانت تلقاه لو أنها كانت على شىء من الثراء ، فإن الشرطة إذا ما وجدوا أنهم لا يملكون إدانتها ، خليقون بأن يصبحوا أكثر حرصاً على حريات الأفراد ، فيشرعون فى أن يولوا حقوق الإنسان وحياة الإنسان شيئاً من الاحترام .

غير أن هذه الإجراءات كانت علاجات مسكِّنة أكثر منها إصلاحات فى الواقع . وكان الأخذ بنظام الحكم غير النهائى ، والحكم مع وقف التنفيذ أو وضع المتهم تحت المراقبة ، حوالى نهاية القرن ، أهم من تلك الإجراءات . وبوحى من المثال الذى ضربه توماس موت أوسبورن ، طُهر بعض من أسوأ السجون ، وشُنت حملة لا هوادة فيها على تقييد المجموعات من المسجونين بسلسلة واحدة ، وتأجير العمال المسجونين ، كما كان شائعاً فى الجنوب على نطاق واسع . كذلك أقيمت محاكم خاصة للخارجين على القانون من الأطفال ، وقد اجتذب القاضى بن ليندساى ــ الذى رأس محكمة دنيفر للأحداث ، بولاية كلورادو ، حوالى ربع قرن ــ انتباه الأمة كلها بتوفيقه فى تخفيض انحراف الأحداث . غير أن الحملة ضد عقوبة الإعدام أخفقت .

وكانت الحانة من الأسباب الجلية للجريمة والفقر ، فى ظن الناس ، فشهدت تلك الأعوام هجوماً جماعياً على « شيطان الخمر » ، انتهى آخر الأمر بتحريمها على نطاق الأمة كلها . وترجع أصول حركة الحد من الخمر إلى الأعوام الأولى للجمهورية ، وقبل الحرب الأهلية وقع آلاف من الرجال التعاهد على الامتناع عنها كما جربت عدة ولايات فى نيو إنجلاند تحريمها قانونياً . غير أن السنوات التى أعقبت الحرب اقترنت بازدياد فى استهلاك الجعة (البيرة) والكحول المقطر ، وتكاثر الحانات فى المدن . ولم يحن عام ١٩٠٠ ، حتى كان فى مدن مثل نيويورك ، وبفالوا ، وسان فرانسيسكو حانة لكل مائة من السكان . ولم يكن بعضها سوى « منتدى للرجل الفقير » ، بيد أن كثيراً منها كانت

تسير فى غير مراعاة البتة للامتناع ، أو حتى الاعتدال فى تعاطى الخمر . وتجوهلت قوانين إغلاق المشارب فى أيام الأحد ، وشاع التهرب من دفع الرسوم العالية للحصول على ترخيص بتقديم الخمر ، ودخلت صناعة التقطير فى تحالف للإفساد مع أسوأ العناصر فى السياسة والمجتمع .

وللتصدى لهذه الأحوال ، هبط إلى الميدان فى سنة ١٨٦٩ حزب يدعو لتحريم الخمر ، بيد أنه لم يكن ذا أثر . وكانت بعض منظمات مثل اتحاد النساء المسيحيات لمنع تعاطى الخمور ، ورابطة مناهضة الحانات ، والكنائس الإنجيلية لا سيما المنهجية منها ، أكثر مفعولاً من الحزب . فهى لم تكتف بإثارة الخواطر سياسياً ، وإنما شنت حملة دعائية متواصلة ، فى الصحافة والكنائس وقاعات المحاضرات والمدارس . وقد ظل القائد المناضل لقوات التحريم سنوات عديدة فرانسيس ويلارد الذى نقل القتال إلى موطن العدو ، بأن كان يقود السيدات الداعيات إلى الامتناع عن الخمر إلى الحانات ، حيث كن ينشدن المزامير ، ويركعن مصليات .

ولم تحن نهاية القرن حتى كانت هذه الأساليب قد طهرت سبع ولايات كلها ريفية ، من الخمر ، وقدمت « بديلاً محلياً » لولايات كثيرة أخرى . وفى السنوات الأولى من القرن الجديد ، قطعت حركة التحريم شوطاً طويلاً ، فلم تحن الحرب العالمية الأولى ، حتى كان ثلثا سكان الولايات المتحدة خاضعين لقوانين تحريم الخمر . فلم تتمرد عليها سوى المدن . ولا سبيل للجزم بأن أنصار التحريم كانوا قادرين على مواصلة المعارك فى الأوقات العادية ، ولكن المؤكد أن الحرب العالمية ساعدتهم . ففى بداية الحرب ، حرم الكونجرس صنع أو بيع المشروبات المسكرة ، لأسباب تتعلق بالاقتصاد والكفاءة والأخلاق ، وقبل أن ينتهى أجل سريان هذا القانون ، كان التحريم قد أدرج فى الدستور الاتحادى . وظل النص قائماً أكثر من عقد من الزمن ، ثم أخفقت « التجربة السامية » . وفى سنة ١٩٣٣ ألغى القانون ، وعادت المشكلة إلى الولايات لتتولاها .

الولايات ترشد إلى الطريق السليم

يشير تاريخ كل هذه الحركات الإصلاحية إلى مغزى لا يخطئه متأمل : أنه ما كان بوسع

الأفراد والهيئات الخاصة أن تحقق شيئاً يذكر بدون مسالك تشريعية . فقد قررت جوزفين شو لوويل منشئة جمعية المؤسسة الخيرية بنيويورك ، والعضو العاملة فى كثير من المنشآت الخيرية ، أن تنسحب منها جميعاً ، إذ ثبطت عزيمتها تجاربها فى هيئات البر الخاصة . وقد عللت ذلك بقولها : « أرى أن هناك أعمالاً أهم من ذلك بكثير ، يجب أن تؤدى للعمال . فإن خمسمائة ألف من الأجراء المتكسبين فى هذه المدينة ، بينهم ٢٠٠ ٠٠٠ امرأة منهن ٧٥ ٠٠٠ يعملن وسط ظروف مروعة ، أو لقاء أجور لا تقيم الأود . هؤلاء أهم من ٢٥ ٠٠٠ عالة على المجتمع . . فلو أن العاملين أوتوا كل ما ينبغى أن يؤتوه ، لما كان لدينا معوزون ولا مجرمون . وأن تنقذهم قبل أن يتردوا أفضل من أن تقضى عمرك فى انتشالهم عندما يصبحون مشرفين على الغرق ، ثم تعنى بهم بعد ذلك » .

ومن الجلى أن العمل الخيرى كان مجرد علاج مسكن ، حتى إن أكثر العاملين فى ميدان الإصلاح الاجتماعى — لعدم اطمئنانهم إلى العمل السياسى — كانوا ينتهون فى مطافهم عادة إلى قاعات الهيئة التشريعية ، باسطين أيديهم يطلبون العون . كان تطهير الأحياء الفقيرة ، وإصلاح السجون ، وتعويض العمال ، وصيانة الموارد الطبيعية وإنقاذ الأطفال ، وتحريم الخمور . . كل هذه كانت تتطلب نشاطاً تشريعياً . وإذا كانت الحاجة تدعو لمزيد من الإصلاحات الجوهرية ، فكان لابد لهذه أيضاً أن تأتى عن طريق الولايات .

ذلك أن المعارك الكبرى الأولى لحركة الإصلاح دارت فى الولايات ، وقد استمرت الولايات ميادين كفاح من أجل الإصلاح ، حتى بعد تحويل كثير من المسائل إلى الحلبة القومية . فلسنا بحاجة إلى أن نكرر أكثر مما ينبغى ، أنه كان من المسلم به ، وفقاً للنظام الدستورى الأمريكى ، أن يكون للولاية السلطان التشريعى على كافة المسائل ذات الطابع الاجتماعى . فساعات العمل وأجور العمال ، وظروف العمل فى المصنع ، ورفاهية النساء والأطفال والسجون ، وإصلاح المدارس والمؤسسات الخيرية ، والتعليم ، وحق الانتخاب للمرأة ، والحكم المحلى فى المدن . . كل هذه الأمور كانت من اختصاص الولاية ، وليست من شؤون الاتحاد . ولقد بدل البرنامج الجديد هذا كله حقاً ، غير أنه كان لابد من كارثة قومية لتبرير هذا التغيير ، وكان لابد من حكومة جريئة لتحاول الإقدام عليه ، وألا يتحقق إلا بتخطى المقاومة العنيدة من المحكمة العليا .

ومن ثم كانت الولايات هى معامل التجارب للإصلاح . ففيها جربت أولاً معظم الإصلاحات القومية التى حققت بعد ذلك ، وفيها أبرزت الإصلاحات وجودها من حيث المبدأ ، وعدم كفايتها من حيث التطبيق . كذلك كانت الولايات مدارس التدريب للمصلحين الذين قاموا بعد ذلك بأدوار على النطاق القومى . فلقد درس ثيودور روزفلت فى مدينة نيويورك ثم فى ألبانى قبل أن يمضى فى طريقه إلى واشنطن ، وتعلم لا فوليت اقتصاديات السكك الحديدية وتنظيم الترست فى ويسكونسين قبل أن يحاول تطبيقها على نطاق الأمة ، واكتسب ويلسن سمتعه كمتحرر (ليبرالى) وهو حاكم لنيوجيرسى ، قبل أن يثبت جدارته بها وهو رئيس للولايات المتحدة ، وكذلك قضى تشارلز إيفانز هيوز ، وجورج نوريس ، وفرانكلين دى . روزفلت جميعاً ، فترات دراسة وتدرب فى ولاياتهم .

فماذا كانت طبيعة الإصلاحات التى حققتها الولايات ؟ كان الكثير منها يتعلق بتحقيق ديمقراطية الجهاز السياسى : حق الناخبين فى المبادرة باقتراح القوانين والاستفتاء الشعبى ، والاقتراع السرى ، والانتخاب الأولى المباشر ، والانتخاب المباشر لأعضاء مجلس الشيوخ القومى ، وقوانين مناهضة أعمال الفساد ، وتوفير الحكم المحلى ، وحق الانتخاب للمرأة . وكانت هناك إصلاحات موجهة نحو غايات اقتصادية : السكك الحديدية وتنظيم الترست ، ولجان الإشراف على المرافق العامة ، والإصلاحات الضريبية ، ولوائح تحديد ساعات وظروف العمل ، وتعويض العمال ، وتحريم تشغيل الأطفال . ثم كانت هناك إصلاحات ذات صبغة اجتماعية أوسع : إصلاحات التعليم ، وبرامج الصحة العامة ، وصيانة الموارد الطبيعية .

وكانت المشكلة العاجلة هى مراقبة الحكومات . كان من المفيد التساؤل عن أيهما أشد فساداً ، حكومات الولايات أو الحكومات المحلية . كان مجال الفساد متسعاً فى كل مكان ، ومغرياً ، وتكاد ثماره أن تكون بلا حدود . كان فى سلطة المجالس التشريعية ومجالس المدن منح امتيازات كبيرة القيمة للمرافق العامة ، وتحديد أجور السكك الحديدية والمرافق ، والإشراف على أعمال التأمين ، وتقدير الضرائب وتحصيلها ، ومنح عقود عظيمة الربح لإنشاء الطرق العامة ، وسلطة حماية الحانات أو القضاء عليها . وكلها أمور تتعلق بمئات الملايين من الدولارات ، ودوائر الأعمال على استعداد لأن تجزل العطاء من أجل المحاباة ، أو الإعفاءات ، أو الحماية . ولم يكن ذلك فى شكل رشاوى

صريحة فى كل الأوقات ، فربما اتخذت شكل تأييد سياسى ، أو اكتتابات للحملات السياسية ، أو عقود دسمة لأقارب أعضاء الهيئة التشريعية المرغوب إرضاؤهم ، أو عمليات قانونية مربحة للمحامين الناشئين . ومهما يكن الشكل ، فإنها كانت دائماً قوية المفعول ، كما تبين المصلحون فى جزع لما تردت إليه الأمور .

ولقد قامت هيئة قضائية كبرى بتحرى الأحوال فى ولاية ميسورى ، عند نهاية القرن التاسع عشر ، فخرجت بأنه « لاثنتى عشرة سنة . . كان الفساد هو الأمر المعتاد والمقبول فى تشريع الولاية ، ودون ما تدخل أو عائق كذلك » . وهذا الحكم كان ينطبق بنفس الصدق ، فى فترات متفاوتة ، على كل ولاية فى الاتحاد تقريباً . فلقد كان أعضاء الهيئات التشريعية على استعداد لبيع ذممهم لمن يدفع الثمن الأعلى ، من نيو هامبشاير إلى كاليفورنيا ، ومن نيو مكسيكو إلى مونتانا . كان للشركات الكبيرة فى كل مكان عملاؤها للتأثير على أعضاء الهيئات التشريعية بالرشوة غير المتوارية ، أو بالابتزاز إذا ما أخفقت . ففى ولاية نيو هامبشاير ، فى الشرق ، كانت السيادة العليا للسكك الحديدية ، كما ينبئنا وينستون تشيرشل [1] فى روايته « كونيستون » « وصحيفة عمل مستر كرو » ، ولشركة سوذرن باسيفك فى رواية فرانك نوريس « الأخطبوط » ، وهى رواية عن كاليفورنيا أحدثت دوياً قوياً ، وأفسد ملوك النحاس ولاية مونتانا ، واشترت شركات السكك الحديدية والتأمين ذمم الهيئة التشريعية لولاية نيويورك . حتى ولاية نيو مكسيكو الصغيرة ، القائمة فى منطقة الحدود ، سيطر عليها تماماً تحالف غير شريف بين شركتين أو ثلاث للسكك الحديدية ، وشركات مناجم الفحم والنحاس ، وشركات الاتجار فى الأخشاب والأرض وأصحاب مزارع تربية الماشية الكبرى ، فاستحوذت شركات الفحم على آلاف الدونمات من أراضى الثروة المعدنية الثمينة ، ونهبت شركات الأخشاب الغابات القومية ، وأطلق أصحاب مزارع تربية الماشية آلافاً من مواشيهم وأغنامهم للرعى فى الأراضى العامة ، وداست السكك الحديدية والمناجم قوانين العمل ، وتهربت جميعاً من الضرائب .

ومن التكرار المشوش للذهن أن نحاول عرض تفصيلات الحرب على الفساد ، أو تتبع ظهور الإصلاحات السياسية فى مختلف الولايات . فتاريخ ولاية واحدة يرسم لنا

(١) كاتب روائى أمريكى ، وهو غير وينستون تشيرشل الزعيم السياسى البريطانى ــ المترجم .

صورة ــ وإن شابها شيء من التفاؤل ــ ما كان يجرى فى كافة أرجاء الاتحاد . فقد كانت ولاية ويسكونسين فى الثمانينات من القرن التاسع عشر ولاية مزدهرة ، مستنيرة ، ولكن حكومتها كانت فى أيدى ثلاثة من الشخصيات ذات السيطرة : بوس كيز المليونير المهيمن على صناعة الأخشاب ، وفيليتس سوير محامى السكك الحديدية ، وجون سبونز الذى تسلط على الشؤون السياسية للولاية عن طريق المؤتمر الحزبى لاختيار المرشحين . وفى هذا يقول فريدريك سى . هاو إن الولاية بأسرها . .

كانت إقطاعية لمصالح السكك الحديدية والأخشاب والشؤون الانتخابية ، وكانت بالتعاون مع جهاز أصحاب المناصب الاتحادية ، ترشح وتنتخب المحافظين ، وشيوخ ونواب كونجرس الولايات المتحدة ، فكان هؤلاء بدورهم يستخدمون كل سلطانهم لإثراء الذين صنعوهم . وكانت سلطات الاتحاد والولاية فى الرعاية والمحسوبية تستغل للغايات عينها . فكانت دورة الهيئة التشريعية ــ التى تمتد عامين ــ برنامجاً ترفيهياً لصالح نفر قليل . كانت السياسة حرفة ذات امتيازات ، لا يدخلها ذوو الطموح إلا إذا رضى عنهم جهاز حكم الولاية . وما أقل من كانوا يعتقدون أن من الممكن انتهاج أساليب أخرى ، وما من أحد تحدى قاعدة الأوليجاركية التى كانت توزع المناصب الانتخابية والتعيينية على السواء للحفاظ على سلطانها السياسى والصناعى . لم يكن ثمة احتجاج منظم . وكانت الصحافة إما غير مبالية وإما خاضعة للسلطان .

كان روبرت إم . لا فوليت شاباً حديث عهد بالتخرج من جامعة الولاية ، عندما هزته تيارات الإصلاح التى اجتاحت ولايات البرارى فى الثمانينات من القرن التاسع عشر ، فقرر أن يسهم فيها . وبدون تأييد الجهاز المسيطر على الأمور ، كافح حتى وصل إلى الكونجرس ، وأثبت فى أربع مدد انتخابية متعاقبة أنه أهل للثقة التى أخذ عامة الناس يكنونها له . وإذ هزم لا فوليت فى موجة الفوز الساحق الذى ظفر به الحزب الديمقراطى فى سنة ١٨٩٠ ، تحول إلى الشؤون السياسية للولاية . وكان الشعب معه ، ولكن أصحاب النفوذ لم يكونوا يريدونه ، فخذلته مؤتمرات حزبية متعاقبة تسلط عليها أصحاب النفوذ ، لتختار مرشحين أكثر منه انصياعاً . وتعلم لا فوليت من هذه التجربة ضرورة إلغاء نظام المؤتمرات الحزبية للترشيح ، وإدخال نظام الانتخاب المباشر فى الدرجة الأولى .

أخيراً ، فرض روبرت المكافح على مؤتمر متقاعس ترشيحه فى سنة ١٩٠٠ ، وفاز فوزاً هائلاً بمنصب الحاكم ، وظل طيلة ربع القرن التالى ، الذى تخللته فترة حرب وجيزة ، مسيطراً هو وأتباعه على الولاية ، فجعلوها أكثر ولايات الاتحاد ديمقراطية وتقدمية ، وأحسنها حكماً . لم تكن « فكرة ويسكونسين المثلى » ، كما صاغها لا فوليت وطبقها فى السنوات العشر أو الاثنتى عشرة الأولى من القرن مجرد خطة مثالية خيالية ، بل كانت برنامجا عملياً مترابطاً . فقد أنمت الديمقراطية عن طريق انتخابات الدرجة الأولى المباشرة ، وحق الناخبين فى المبادرة باقتراح القوانين ، والاستفتاء الشعبى ، وإقالة جميع أصحاب المناصب التى تملأ بالانتخاب عدا القضائى منها بالتصويت الشعبى ، وتحريم الأساليب الانتخابية الفاسدة ، ونشر نفقات الحملات الانتخابية والحد منها ، والحكم المحلى ، وإصلاح الخدمة المدنية (الوظائف) ، وإقامة هيئات من الخبراء لتقديم المشورة للسلطة الإدارية . ولحماية مواطنى الولاية من الاستغلال الذى تمارسه الشركات ، أقام لا فوليت لجاناً لتنظيم لوائح أجور السكك الحديدية وغيرها من المرافق العامة ، وأجبر السكك الحديدية وشركات الأخشاب الكبيرة على دفع نصيبها الكامل من الضرائب والأداء الرجعى للضرائب التى هربت منها ، وسن القوانين بضريبة دخل تؤدى للولاية ، وبالتأمين لدى الولاية على ودائع المدخرات المصرفية . ولصيانة حقوق القوى العاملة كانت ثمة قوانين لتعويض العمال ، وتحريم تشغيل الأطفال ، والحد من ساعات العمل للمرأة . وحظيت الزراعة بتشجيع بفضل تخفيض معدلات أجور السكك الحديدية ، وبرنامج بعيد المدى لصيانة الموارد الطبيعية والطاقة المائية ، وتدعيم قوى لمحطات التجارب والمزارع النموذجية المرتبطة بجامعة الولاية .

ولم يكن ثمة ما هو أدعى للاهتمام من الطريقة التى جعل لا فوليت بها الجامعة المركز العصبى للولاية . ولقد جلب رئيس الجامعة فان هايز ـــ وهو عالم مرموق ـــ إلى المدرسة القائمة على ضفاف بحيرة مندوتا أكفأ هيئة للتدريس كان من الممكن أن توجد فى أى معهد للتعليم العالى فى العالم . وأهم من هذا أنه أرسى الفكرة القائلة بأن وظيفة الجامعة هى خدمة أهل الولاية . فعمل علماء الاقتصاد التابعون لها فى اللجان التى تولت تنظيم السكك الحديدية والضرائب . ووضع علماء السياسة مسودات مشروعات القوانين ، ونسق علماء التاريخ ـــ تاريخ الولاية ، ووضع مهندسوها برامج إنشاء الطرق ، وعلّمت مدرسة الزراعة الفلاحين العاملين تهجين الحيوان ، وقامت باستطلاعات وفرت على

مزراعى الولاية ــ والأمة كلها ــ مئات الملايين من الدولارات ، وكانت العامل الأول فى جعل ويسكونسين دانمرك الدنيا الجديدة .

كانت هذه تجربة فى التقدمية العلمية أثارت اهتمام الأمة كلها . فقد أثبت لا فوليت أنه ليس من المحتوم أن يقوم الإصلاح على نظريات ومذاهب ، وأن فى وسع المتفقهين والعلماء أن يسهموا فى المسائل العملية ، وأظهر كيف استطاعت ولاية إخضاع المرافق العامة للوائح تنظيمية دون أن تثير على نفسها الاتهام بالاشتراكية ، وكيف تسنى لهذا التنظيم المقنن أن يكون مصدر ربح للمرافق وللجمهور معاً . كما أنه كشف إمكانات أن تكون أية ولاية معملاً للتجارب السياسية ، وأرشد الأمة بأسرها ، لا الولايات الأخرى فحسب ، إلى الطريق الصحيح .

ثيودور روزفلت والإنصاف

كان ما أنجزته ولايات مثل ويسكونسين مدعاة للإعجاب ، إذ كان من الجلى أن معظم المشكلات التى انصرف المصلحون إليها ليست مما يمكن حله فى الأقسام المعزولة فى النظام الاتحادى . ولا سبيل لأن تكون الإصلاحات ذات فعالية إلا إذا انعكس إشعاعها على نطاق قومى ، وإلا إذا كانت الحكومة القومية قوية النفوذ بدرجة تكفل نجاحها . وكان الكونجرس قد سن من قبل فعلاً بعض قوانين ذات طبيعة تقدمية معتدلة : قانون بندلتون للخدمة المدنية سنة ١٨٨٣ ، وقانون التجارة بين الولايات سنة ١٨٨٧ ، وقانون مناهضة الترست سنة ١٨٩٠ ، وقانون إردمان للتحكيم فى منازعات العمال المتعلقة بالسكك الحديدية ١٨٩٨ . بيد أن هذه القوانين وما شابهها كانت غير فعالة إلى حد كبير ، لسببين : أنها كانت قاصرة ، وأنها لم تنفذ بإحكام وشدة . كانت بإيجاز لمحات ، ترضيات صغيرة قدمها كونجرس متخاذل لتهدئة الرأى العام .

وكانت الحكومة قد ظلت جيلاً من الزمن فى أيدى زعماء الجمهوريين إلى حد كبير ، وقد كانوا ميالين لفلسفة حرية العمل التى كانت تسود الفترة ، فلم يكترثوا لمعظم المطالب الاجتماعية والاقتصادية الجديدة . كانوا جميعاً ، بدون استثناء ، يولون المشروعات الكبيرة ودهم ، بينما أولوا المقاتلين القدامى فى الحرب الأهلية تشريعات

تكفـل لهم معـاشات سخية ، وقد احتفظت جماعات الضغط والمصالح الخاصة بنفوذ مسيطر نادراً ما تصدع . ولقد كان رؤساء الجمهورية من الحزب الجمهورى جديرين بالاحـترام : جرانت ، وهايز ، وجارفيلد ، وآرثر ، وهاريسون ، وماكينلى . . وكانت لهايز وجارفيلد ميول ليبرالية قوية ، ولكنهم فى مجموعهم كانوا يفتقرون إلى البصيرة وإلى الأقـدام الإبـداعى . وقـد أوتى الـرئيس الـوحيد الديمقراطى فى ذلك الجيل ـــ وهو كليفلاند ـــ قوة شخصية ، وشجاعة لاتلين ، وبرنامجاً إصلاحياً للنفع العام . فأصلح أقسام (وزارات) السلطة التنفيذية الاتحادية ، واسترد مساحات شاسعة من الأراضى العـامـة من سيطرة الشركـات ، وكافح قوانين نهب المعاشات وغيرها من التشريعات الخـاصة ، وجدد قوى الخدمة المدنية ، بل إنه اضطر الكونجرس إلى تخفيض الرسوم الجمـركية بقـانون لضريبة الدخل يرتبط بها . . وهو قانون بادرت المحكمة العليا إلى الحكم ببطلانه . ولكن فترة حكمه كانت متصدعة ، مليئة بالمتاعب . فكانت السيطرة الحقيقية فى الولايات الصناعية الكبرى ، وفى واشنطن إلى حد ما ، فى أيدى رجال من أمثال : بلات فى نيويورك ، وكاى فى بنسلفانيا ، وحنا فى أوهايو . . رجال كان مفهومهم عن فن الحكم هو خدمة الشركات المتسلطة عليهم ومكافأة أتباع حزبهم . وكان معظم رجـال الكـونجـرس فى هذا الجيل من مأجـورى الحـزب ، فكـانـوا يملأون مضبطة الكونجرس بخطبهم ، ويزينون منصات المساجلات ، باصطفافهم وهم يرتدون الفراك والقبعـات الغـالية ، غير أنه من العسير على الأمريكى العادى أن يتذكر قانوناً واحداً أجازوه وأحدث تغييراً محسوساً فى مجرى تاريخ الأمة .

ولقد بعث قوى الإصلاح الزراعى بقيادة ويفر ثم بريان ، خوفاً حقيقياً فى نفوس الجناح المحافظ فى كل من الحزبين ، وأخذ تضخم دواعى التمرد فى كثير من الولايات يشـير إلى أنه لا سبيل إلى إرجاء الإصلاح وقتاً أطول . ثم قامت الحرب الإسبانية ، فنسى القـوم الإصـلاح مؤقتاً . ولقد دارت الحملة الانتخابية فى عام ١٩٠٠ ، حول موضـوع الاستعـمار غير الواقعى ، واستطاع ماكينلى أن يناصر جانبى الموضوع معاً ، لا بفضـل الحـذق بقـدر ما كان بفضل اضطراب الآراء ، فظفر بإعادة انتخابه رئيساً للجمهورية ، بينما خذل بريان للمرة الثانية . وإذ كان الرخاء فى أوجه ، فقد بدا أن البلاد مقبلة على تجربة طويلة أخرى لفلسفة الرضى بالوضع الراهن .

ثم أطلق أحد الفوضويين الرصاص على ماكينلى فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٠١ ، وبموته

بعد أسبوع ، تغيرت صورة السياسة الأمريكية بأكملها . إذ وجدت البلاد فى ثيودور روزفلت ــ الذى ارتقى لكرسى الرئاسة بفضل المأساة ــ قائداً ذا نشاط متحفز وقوة نفوذ رائعـين ، كما وجـدت الحـركة التقدمية فيه زعيماً قومياً . كان روزفلت قد ولد وسط الثراء ، وترعرع بين موسرين من أهل الولايات الشرقية ، وتعلم فى هارفارد . ومع ذلك كان ديمقراطياً عميق الديمقراطية ، ذا اهتمام متحمس حار بالإصلاح . وكان فى الوقت ذاته سياسياً واقعياً ، وقومياً متوقد المشاعر ، وجمهورياً مخلصاً لحزبه . وكان أكثر الرؤساء الأمريكيين ــ بعد جيفرسون ــ انطلاقاً وتشعباً فى جهوده ، وإن لم يناهز جيفرسون تماماً فى عمق التفكير أوحدة الذهن ، ولا أوتى مثاليته الفلسفية ولا بصيرته وسعة أفقه . كان قد مارس تربية الماشية ، واصطياد الوحوش ، وألف عديداً من الكتب ، وقضى فترات فى السلطة التشريعية لولاية نيويورك ، وتولى إدارة شرطة مدينة نيويورك ، وساعد على تنظيم الخدمة المدنية للحكومة الاتحادية ، ورأس إدارة الأسطول ، وقاد الفرسان غير النظاميين فى كوبا ، وأثبت أنه حاكم من الدرجة الأولى حين تولى منصب الحاكم . وكان نهمـاً فى القـراءة ، يهتم بكل امرىء ، وله آراء فى كل شىء . وكان يشغف بصياغة العبارات التى لا تنسى ، وقد جعله صدق إخلاصه ، ودأبه ، وروعة منظره داعية قوى التأثير ، لا يضاهيه أحد ، فى الاستقامة فى خدمة الوطن . إذ أوتى ــ على غرار أندرو جاكسون ــ موهبة فذة لاكتساب ثقة الانسان العادى ، وإسباغ مظهر الإثارة والشعور المفعم على معاركه . كذلك كان يعتقد مثل جاكسون أن الرئيس أوثق صلة بالشعب وأقرب إليه من الكونجرس ، وأن اتقان قيادة السلطة التنفيذية أمر لا غنى عنه لتنفيذ الأمـور . ولكنـه لم يكن مثل جاكسون فى عدم الاطمئنان الذى يداخل الخبير بجهاز الخدمة المدنية .

ولم ينقض عام حتى كان روزفلت قد أثبت أنه كان على فهم بالتغيرات الكبيرة التى هبت على أمريكا ، وأنه كان يعتزم أن يفعل الكثير إزاءها ببراعة رجل الحكم الذى يحذق فنه . وما كان روزفلت متطرفاً (راديكالياً) ، ولكنه كان محافظاً مستنيراً ، فهو لم يشأ إحداث ثورة فى النظام الاقتصادى القائم ، وإنما كان يبتغى إنقاذه باجتثاث العيوب التى تسللت إليه . كان معقـود العزم على التجارة والصناعة ، وأن يمنح الإنسان العادى مزيداً من الإنصاف .

ولقد استغل روزفلت ، فى هذه الغايات ، الشعور العام المتولد عن حركة الحزب

الشعبى ، وعن قوة الدفع التقدمية من الولايات والمدن ، وعن عصبة جريئة من « كاشفى الفضائح » ، الذين كانت كتبهم ومقالاتهم فى الصحف تفضح الكسب غير المشروع والفساد ، وسوء تصرفات الشركات والمشروعات ، و« البشر الاجتماعى » ، وقمع الأقليات العنصرية ، وكثير من الشرور الأخرى التى حاقت بالحياة الأمريكية . ولم يكن كاشفو الفضائح فى حد أنفسهم فحسب أداة للإصلاح ، بل إن الشعبية المذهلة التى اكتسبوها كانت عرضاً من أعراض نضوج الجمهور لرسالتهم .

لقد قال روزفلت : « إن النمو العظيم للاقتصاد الصناعى ، يعنى أنه لابد من وجود ازدياد فى الإشراف الذى تمارسه الحكومة على المشروعات التجارية والصناعية » . وكان قد قدم من قبل مثالاً على هذا « الازدياد فى الإشراف » إذ فرض تنفيذ قوانين مناهضة الترست . كما أن حملاته التى أشرنا إليها من قبل على تجمع شركات الأوراق المالية فى نوردرين سكيوريتيز ، وترستات النفط والتبغ ، وإنشاءه مكتب الشركات كإدارة للمراقبة والإشراف اليقظين ، علمت الشركات الكبيرة أن تحترم الحكومة .

بيد أن الترستات لم تكن المصالح الوحيدة التى شعرت « بالقبضة الشديدة » . فقد كان بسط الإشراف الحكومى على السكك الحديدية من المنجزات الإيجابية لحكم روزفلت . فقد وصف روزفلت شخصياً تقنين اللوائح المنظمة للسكك الحديدية بأنه « مسألة عليا » . ووفق بالضغط المتواصل إلى إجازة مشروعين لقانونين تنظيميين كبيرين . إذ أن قانون إلكنز لسنة ١٩٠٣ جعل الأسعار المنشورة هى القياس القانونى للنقل ، وجعل الشاحنين عرضة للمساءلة كالسكك الحديدية سواء بسواء فيما يتعلق بعمليات الحسم (الخصم) . وبموجب مواده أفلحت الحكومة فى مقاضاة دور التعبئة والشحن وشركة ستاندارد أويل . وكان قانون هيبرن لسنة ١٩٠٦ أهم منه ، إذ منح لجنة التجارة بين الولايات سلطة واقعية فى تنظيم لوائح أسعار النقل ، ومد اختصاص اللجنة إلى التخزين والتسهيلات فى المحطات النهائية ، وإلى مركبات النوم ، وشركات النقل السريع ، وخطوط الأنابيب ، كما أجبر شركات الطرق البرية على النزول عن مصالحها المتشابكة مع خطوط الملاحة بالبواخر وشركات الفحم . ولم تحن نهاية عهد روزفلت حتى كانت عمليات الحسم قد اختفت فعلاً ، ولم تعد أسعار السكك الحديدية مشكلة ملحة .

وكان استخدام « القبضة الشديدة » فى مسائل العمالة عظيماً ، ولنتائجه المعنوية أثر كبير . فإزاء إلحاح الرئيس أجاز الكونجرس قانون تعويض العمال من مستخدمى

الحكومة ، وقوانين تشغيل الأطفال فى منطقة كولمبيا ، وتشريع أجهزة الأمن والسلامة للسكك الحديدية . كما حرص الرئيس بنفسه على تنفيذ قانون تحديد ساعات العمل اليومى بثمان فى العمل الحكومى ، وقد كان موضوع استهزاء من قبل . وأروع من هذا أن تدخل روزفلت فى إضراب سنة ١٩٠٢ الكبير لعمال الفحم (الأنتراسيت) . وكان اتحاد عمال المناجم ، بزعامة جون ميتشيل الفتى ، قد أفلح بعد نضال طويل فى الفوز بامتيازات هامـة ، فلما ألغى مديرو المناجم هذه الامتيازات ، أضرب العمال . وكان المديرون بقيادة جورج باير ، ممثل العصر الحجرى فى الصناعة الأمريكية ، الذى أعلن أن « حقوق ومصالح العامل لن يحميها ويرعاها مهيجو خواطر العمال ، وإنما الاتقياء الذين منحهم الرب بحكمته التى لا حدود لها السيطرة على مصالح الملكية الخاصة فى البلاد » . وعندما رفضوا التحكيم ، بدا أن البلاد ستواجه الشتاء بدون وقود . وعند هذه النقطة تدخل روزفلت مهدداً بأنه سيستولى على المناجم ويديرها بوساطة الجنود إذا لم يتفق المـديرون مع العمال . وكان التهديد قوى المفعول ، وظفر عمال المناجم برفع الأجور وتخفيض ساعات العمل .

ومن التشريعـات الأبقى أثراً لدى الأمريكى العادى ، تشريع الأغذية والعقاقير النقية ، الذى ضم إلى مجموعة القوانين فى سنة ١٩٠٦ . فقد ظل معبئو اللحوم والأغذية وصنـاع الأدوية يبيعـون الجمهـور أطعمـة مغشوشة وعقاقير خطرة وأدوية لا تستعمل إلا بأمر الطبيب . وقد أثير سخط شعبى بفضل سلسلة من الفضائح كشف عنها الدكتور هارفى وايلى ، رئيس كيميائيى وزارة الزراعة ، وما أماط عنه الكاتب أبتون سنكلير اللثام من ظروف فى مذابح (سلخانات) أومجازر شيكاغو . واستجاب الكونجرس بأن أصدر قانون التفتيش على اللحوم ، وقانون الأغذية والعقاقير النقية ، الذى كان ذا أثر بعيد فى محو أسوأ العيوب .

وأهم منجزات روزفلت طراً فى الجبهة الداخلية ، هو صيانة الموارد الطبيعية . فلقد ظلت البلاد طويلاً منساقة لوهم الوفرة التى لا حدود لها بالنسبة لغاباتها وتربتها . ثم انتبهت فى نهاية القرن التاسع عشر إلى أن ثلاثة أرباع غاباتها قد تلاشت ، وأن قسطاً كبيراً من ثروتها المعدنية قد تبدد ، وأن الطاقة المائية كانت تستغل للربح الخاص ، وأن التربة كانت تنمحى بفعل الفيضانات أو تتطاير بقوة العواصف الترابية . ولقد أدى حب روزفلت للطبيعة ، ودرايته بالغرب إلى اهتمام شخصى لديه بالصيانة . وقد أعلن فى أولى

رسائله إلى الكونجرس أن « من المحتمل أن مشكلتى الغابات والماء من أهم المشكلات الداخلية للولايات المتحدة » ، وأوصى ببرنامج بعيد المدى للصيانة والاستصلاح . وقد استغل قانون سنة ١٨٩١ للحفاظ على الغابات ، فاقتطع حوالى ١٥٠ مليوناً من الدونمات خصصها للغابات ، وسحب من المناطق المسموح للجمهور بدخولها ٨٥ مليون دونم أخرى فى ألاسكا والشمال الغربى ، بغية دراسة غاباتها وثروتها المعدنية . وفى الوقت ذاته ، وضع صيانة الغابات تحت إشراف جيفورد بينشوت المثقف الموفور الحمية . ونص قانون استصلاح الأراضى فى سنة ١٩٠٢ على إنشاء مشروعات للرى واسعة النطاق على حساب الحكومة الاتحادية وتحت إشرافها ، وسرعان ما نشط العمل بموجب مواد هذا القانون فى سد روزفلت العظيم فى أريزونا ، وسد آروروك فى إيداهو ، وسد إليفانت بت على نهر ريوجرانده . ولم يكن هذا كله سوى بداية ، فى الواقع . فقد استقرت هذه الإصلاحات كسوابق ، ويسر إيقاظ اهتمام الرأى العام إلى برنامج أوسع نطاقاً قامت به الحكومات التالية .

وفى سنة ١٩٠٨ ، كان روزفلت قد قضى فترتين فى الرئاسة ، واحدة كخليفة لماكينلى ، وواحدة بانتخابه شخصياً للرئاسة . وكان فى أوج شعبيته ، وما من شك فى أنه كان يستطيع البقاء فترة أخرى لو أنه طلب . ولكنه تردد فى التصدى لتقليد الفترة الثالثة ، وآثر بدلاً من ذلك أن ينتقى خليفة « ينفذ سياستى » . ووقع اختياره على وليم هوارد تافت القدير ، المتبحر فى العلم ، وصدق على الاختيار مؤتمر الحزب الجمهورى للترشيح أولاً ، ثم الانتخاب الشعبى بعد منافسة فاترة مع بريان .

كان تافت قاضيا للمحكمة المتنقلة ، وحاكماً عاماً للفلبين ، ووزيراً للحربية . وقد أبدى جدارة فى كافة هذه المناصب الإدارية ، ولكنه لم يكشف فى أى منها عن موهبة سياسية أو ليبرالية خلاقة . وكان صادق النزوع إلى مواصلة البرنامج الروزفلتى ، ولم تكن منجزاته مما يمكن إغفاله . فزاد من نشاط محاكمة الترستات ، وعزز لجنة التجارة بين الولايات ، وأنشأ صندوق مدخرات بريدية ونظاماً للطرود البريدية ، وتوسع فى نظام الجدارة والأهلية فى الخدمة المدنية ، وتبنى إجازة تعديلين للدستور الاتحادى . . أحدهما نص على الانتخاب المباشر للشيوخ ، والآخر خول الرئيس فرض ضريبة على الدخل . على أنه لابد فى مقابل المنجزات التقدمية من ذكر سياسات وبوادر ذات طابع رجعى . وكان أبرزها قبول تعريفة جمركية أثارت القوائم الخاصة بالحماية فيها سخط الليبراليين ،

وفصل جيفورد بينشوت عن رئاسة مرفق الغابات ، ومعارضة دخول أريزونا الاتحاد لأن دستورها تضمن فصل القضاة بالاقتراع الشعبى ، وازدياد الركون إلى الجناح المفرط فى المحافظة فى الحزب .

ولم يحن عام ١٩١٠ حتى كان تافت قد أفلح فى وقوع تصدع كبير فى حزبه ، وعودة الديمقراطية للسيطرة على الكونجرس بأغلبية ساحقة . وكان رزوفلت فى حرصه على أن يترك مجال العمل حراً لخليفته ، قد ذهب إلى أفريقيا ليصيد الأسود ، فإذا بأغنية شعبية تعبر عن آمال أتباعه :

عد يا تيدى للوطن وانفخ بوقك . .
فالغنم فى المرج والبقر فى الذرة .
والفتى الذى تركته ليعنى بالغنم . .
مستغرق فى النوم تحت التبن .

وعاد روزفلت فعلاً ، بعد جولة فى أوربا استقبل فيها استقبال المظفرين ، فأسرع الجمهوريون الأحرار (الليبراليون) — من أمثال لا فوليت وبينشوت — إلى صب سخطهم فى أذنه الواعية . ولم يكن روزفلت قد استعد بعد للعمل ، ولكن لا فوليت كان مستعداً ، فبدأ فى سنة ١٩١١ حملته ليظفر بترشيح الجمهوريين إياه . وقد أثارت هذه الحملة تأييداً واسع النطاق ، دعا روزفلت إلى أن يفيد منه ، فأعلن فى أوائل سنة ١٩١٢ أنه ينزل إلى الحلبة . وتبعت ذلك حملة حامية بين روزفلت وتافت . كسب فيها الأول كل التأييد الشعبى ، وكسب الثانى معظم الوفود . وفى مؤتمر الحزب الانتخابى فى شيكاغو ، فإذا جهاز الضغط الداهم يسحق مؤيدى تيودور روزفلت ذوى الدعاية الصاخبة ويؤثر تافت بالترشيح . ولقد طعن روزفلت فى هذا العمل ووصفه بأنه « سرقة صريحة » ، ووعد بأن يدخل المعركة بقائمة مستقلة . وبعد أسابيع قلائل ، اجتمع عشرون ألفاً من أتباعه المتهوسى التحمس فى شيكاغو ، وكونوا الحزب التقدمى ورشحوا زعيمهم المحبوب عنه .

وكان الديمقراطيون يراقبون هذا كله بتحمس طاغ . فقد ظلوا سنوات عديدة يهيمون مع بريان فى البيداء السياسية ، فإذا بهم فى الحال يلمحون ومضة من أرض

الميعاد . كان التنافس على الترشيح لرئاسة الجمهورية حاداً فى معسكرهم . فقد احتشد المحافظون وراء مناضل قديم هو تشامب كلارك من ميسورى ، وكان رئيساً لمجلس النواب . أما الليبراليون فنادوا بعضو جديد وأولوه أصواتهم ، هو وودرو ويلسن حاكم نيوجيرسى . وفى النهاية ، كان بريان هو الذى حسم الاختيار . . بريان المسكين الذى لم يتمكن قط من أن يظفر برئاسة الجمهورية لنفسه ، ولكنه فى أروع لحظات تاريخه ، ألقى بكل طاقة تأييده فى صف وودرو ويلسن . وهكذا كفل الترشيح ، الذى كان معادلاً ــ فى انتخابات سنة ١٩١٢ ــ للانتخاب نفسه للرئاسة .

١

الفصل ١٩

الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى

قوى وآفاق جديدة

عندما نتأمل تاريخ أمريكا السياسى فى الجيل الذى أعقب الحرب الأهلية ، فإننا نصادف فيضاً من الأحداث المثيرة : إعادة التنظيم ، حركة التعاونيات الزراعية ، القضاء على نظام النهب ، معارك التعريفة الجمركية ، انتشار حركة الحزب الشعبى ، قيام الحركة التقدمية . وعندما نتأمل التاريخ الصناعى ، نصادف مرحلة لا تقل ازدحاماً بالأحداث عن هذه : شبكات السكك الحديدية المتسلطة ، نمو الترستات ، مولد الصناعات الضخمة الجديدة ، أعمال الأقطاب من أمثال روكفلر ، وكارنيجى ، ومورجان ، وهيل . وعلى النقيض من هذا ، فإن سجل العلاقات الخارجية هزيل . فلا يوجد سوى حدثين أو ثلاثة ذات أهمية ، تضفى لوناً على السنوات التى مرت بين الجلاء الفرنسى عن المكسيك تحت الضغط الأمريكى فى سنة ١٨٦٧ ، وغرق السفينة مين ، أمام ساحل هافانا فى سنة ١٨٩٨ . حتى ليمكن القول بأن أى عضو فى الكونجرس ذا أفق محدود ، كان خليقاً بأن يصيح متذمراً : ما شأننا بالخارج ؟ .

على أن المجال كان أهم مما تراءى ، بسبب حقائق ملحة معينة أخذت تبرز . .

حقائق تعنى كل أمريكى بصفة مباشرة . كانت الولايات المتحدة فى طريقها إلى أن تكون دولة عالمية كبرى ، ذات مصلحة كبيرة فى سلام وهدوء ورخاء أسرة الدول التى تزداد تكافلاً واعتماداً بعضها على بعض باطراد . كذلك كانت تزداد شعوراً بوجود صلة خاصة لها ببريطانيا العظمى . ولما كان مبدأ مونرو ، والتوسع التجارى ، و ــ بعد سنة ١٨٩٩ ــ سياسة الباب المفتوح فى شرق العالم ، تتطلب جميعاً محيطاً تسيطر عليه دول كبرى محبة للحرية ، ونظراً للروابط الطبيعية بين الشركات التجارية والصناعية وخير عملائها ، ولوجود مصلحة مشتركة فى تعزيز الديمقراطية ، فإن الولايات المتحدة اتجهت إلى إنشاء ترابط أوثق بالإمبراطورية البريطانية . وفى الوقت ذاته ، اتخذت الولايات المتحدة مسلكاً ينطوى على حماية أشد نحو أمريكا اللاتينية . ولما كانت السلع المصنوعة والمواد الأولية تتطلب منافذ ، فقد أولت تنمية الأسواق الخارجية مزيداً من الاهتمام . ولأسباب تجارية واستراتيجية من ناحية ، ولدوافع مثالية من ناحية أخرى ، ولزهوة القوة والسلطان من ناحية ثالثة ، تحولت إلى توسع هائل فيما وراء البحار .

ولقد بدأت الولايات المتحدة تكشف عن إدراك لمركزها كدولة كبرى فى العالم ، قبل الحرب الأمريكية الاسبانية بأمد طويل . فشرعت تنشىء أسطولاً بحرياً حديثاً ، قوياً ، فى عهدى الرئيسين آرثر وكليفلاند ، فلم يحن عام ١٨٩٠ حتى كان « الأسطول الأبيض » موضع اعتزاز قومى بالغ . ولقد كان مجموع صادرات الولايات المتحدة ، حوالى سنة ١٨٨٠ ، يتجاوز ٨٣٥ مليوناً من الدولارات بقليل ، فإذا به بعد عشرين سنة يناهز ١٤٠٠ مليون دولار . ولا تملك أية أمة تصدر هذا القدر إلى الخارج سوى أن تهتم اهتماماً حياً قوياً بالشؤون الخارجية . ولقد مضت فترة بعد الحرب الأهلية لاح فيها أن حمى الرغبة القديمة فى التوسع قد تلاشت تماماً . وشعر معظم المواطنين ، بعد شراء ألاسكا فى سنة ١٨٦٧ ، بأن العلم الأمريكى كان يرفرف على مساحة أكثر من كافية ، فقوبل مجهود جرانت لضم سانتو دومينجو بخذلان ساحق فى مجلس الشيوخ . بيد أن الشعور التوسعى أعاد النمو تدريجاً . فلما حاولت ألمانيا أن تضع يدها على ساموا فى جشع ، وقفت الولايات المتحدة مع بريطانيا العظمى فى تأكيدها لحقوقها هناك فى حزم . فأقيمت حماية من الدول الكبرى الثلاث ، وعند تقسيم الجزر فى نهاية القرن التاسع عشر ، أخذت الولايات المتحدة جميع الجزر عدا أكبر جزيرتين منها ، وظفرت بمرفأ باجو ــ باجو الذى طال اشتهاؤها للحصول عليه . وفى هاواى ، كانت الولايات المتحدة

قد حصلت على السيطرة على صناعة استنبات قصب السكر . ثم ظفرت فى سنة ١٨٨٧ بحق الانفرد باستخدام بيرل هاربور — التى تفوق قيمتها كل تقدير — كمحطة للأسطول . وكاد مجهود لتحقيق ضم هاواى أن ينجح ، بعد ذلك بستة أعوام ، لولا أن عودة كليفلاند للحكم أوقفته ، إذ رأى عن حق أن الأساليب التى استخدمت لم تكن سليمة . بيد أن جزر هاواى ظلت بعد ذلك تحت سيطرة أمريكيين مقيمين بها ، حتى سنة ١٨٩٨ حين انضوت نهائياً تحت العلم الأمريكى . وفى تلك الأثناء كانت الولايات المتحدة قد استقدمت ، فى سنة ١٨٨٩ ، وفوداً من حوالى عشرين جمهورية من أمريكا الجنوبية ، لأول مؤتمر لرابطة الدول الأمريكية فى واشنطن ، فكان النفوذ الأمريكى مطرد الامتداد خارج الوطن .

ومن الطبيعى أن كل المنازعات الدولية للولايات المتحدة ، فى السنوات الثلاثين التى أعقبت الحرب الأهلية ، كانت مع الدولة الكبرى الوحيدة الأخرى فى نصف الكرة الأرضية الغربى ، وهى بريطانيا العظمى . وكان بعضها خطيراً ، بيد أن الحقيقة تمثلت فى أنها جميعاً كانت تحل بالتحكيم ، أو بالتقاضى ، وعلى وجه أدى إلى تحسن المشاعر الأنجلو ـ أمريكية .

وقائمة التسويات الودية حافلة . فلقد ثار عداء شديد نحو بريطانيا فى الشمال أثناء الحرب الأهلية ، وكان الكثير منه غير قائم على أسس ، إذ أن الاعتراف البريطانى باشتراك الاتحاد التحالفى لولايات الجنوب فى حرب كان سليماً ، وقد انتهج الأسطول البريطانى سياسة كانت فى مجموعها محابية للشمال ، وقد آزرت الجماهير البريطانية لينكولن ، حتى فى مناطق حلج القطن فى لانكشاير ، التى أصابها أبلغ الضرر . غير أن تصرفات المؤيدين الأمريكيين للحكم البريطانى غير الودية ، والأعمال التخريبية التى قامت بها طرادات صنعت فى بريطانيا أوجهزت بأسلحة بريطانية تحت علم الاتحاد التحالفى علقت بالذاكرة مثيرة للغضب . وبدا أن من المحتمل حدوث صدام مع بريطانيا لفترة بعد الحرب ، إذ راح زعماء مثل تشارلز سومنر الشديد التطرف ، فى المطالبة بتعويضات عن أضرار مغالى فيها . وشاء الحظ أن يكون فى الولايات المتحدة إذ ذاك وزير من أحكم وزراء خارجيتها ، هو هاملتون فيش . وبقيادته وضعت خطة لعرض المطالبة الأمريكية بتعويض عن الأضرار التى أوقعتها المدمرة آلاباما — وغيرها من المدمرات — للتحكيم . واجتمعت فى جنيف أول محكمة دولية كبيرة فى الأزمنة الحديثة ،

وختمت النزاع كله فى سنة ١٨٦٩ بمنح الولايات المتحدة ٠٠٠ ٥٠٠ ١٥ دولار ، فدفع البريطانيون هذا المبلغ المعتدل على الفور . وفى الوقت ذاته ، سوى بالتحكيم نزاع أصغر متعلق بالحدود بين الولايات المتحدة وكندا ، ومنها بضع جزائر عند الساحل الشمالى الغربى . وبعد ذلك بسنوات قلائل ، تمت تسوية نزاع على حقوق صيد الأسماك فى شمال المحيط الأطلنطى بوساطة لجنة مشتركة للتوفيق . ولقد قام فى أواخر الثمانينات من القرن التاسع عشر ، نزاع حول حق الكنديين فى المشاركة فى اصطياد عجول ألاسكا البحرية ذات الفراء ، فى بحر بيرينج . ولقد أصرت وزارة الخارجية فى عجرفة على أن هذه المياه بحر داخلى تحت السلطان الأمريكى المطلق . ومرة أخرى ، عرض النزاع على مجلس دولى ، أصدر قراره لصالح بريطانيا .

وكانت أجدر التسويات الودية بالذكر ، هى الخاصة بالنزاع حول حدود فنزويلا ، الذى نشب بدرجة مثيرة وخطرة فى الأيام الأخيرة من سنة ١٨٩٥ . وقد اتخذ هذا النزاع صدارة بين الأحداث فى فجائية مذهلة . فما أقل من كان يتصور فى أمريكا أو بريطانيا ــ يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٨٩٥ ــ نشوب احتكاك بين الدولتين . وفى ١٧ ديسمبر ، صعق الرأى العام فى الدولتين لنبأ إرسال الرئيس كليفلاند رسالة إلى الكونجرس اشتملت على إنذار ضمنى بحرب ضد بريطانيا . فكيف تسنى صدور رسالة كهذه ؟

كانت ثمة حدود لم تسوَّ من عهد بعيد بين غيانا البريطانية وفنزويلا . وقد عرضت الولايات المتحدة مراراً مساعيها الطيبة للوصول إلى البت فى أمرها . ولكن ادعاءات فنزويلا كانت مغالية بدرجة غير معقولة ، وقد رفض البريطانيون قبول التحكيم إلا بصدد المطالب المتعلقة بغرب ما يسمى خط شومبورجك ، الذى رسم قبل نصف قرن . ولقد ارتاب كثير من الأمريكيين فى أن البريطانيين كانوا يرمون إلى انتهاب أرض على حساب دولة ضعيفة . وأخيراً ، أرسلت وزارة الخارجية الأمريكية فى صيف سنة ١٨٩٥ إلى لندن ما سماه كليفلاند « مذكرة بمثابة مدفع عيار عشرين بوصة » ، إذ كانت فى الواقع اتهاماً لبريطانيا العظمى بانتهاك مبدأ مونرو ، ومطالبة برد صريح بصدد التحكيم . وقد أكدت المذكرة أن « الولايات المتحدة اليوم هى صاحبة السيادة الفعلية على هذه القارة » . وعندما وصل الرد البريطانى بعد طول تأخير ، أنكر أن للحدود موضع النزاع أى شأن بمبدأ مونرو ، وأبرز بعض أخطاء تاريخية فى المذكرة الأمريكية ، ورفض التحكيم مرة أخرى . وجن جنون كليفلاند ، فأرسل على الفور إلى الكونجرس

رسالة أعلن فيها وجوب إيفاد لجنة للتحقيق على جناح السرعة إلى فنزويلا لتحدد الخط الحقيقى للحدود ، فإذا ما أتمت مهمتها ، فعلى الولايات المتحدة « أن تقاوم بكل وسيلة فى طاقتها » أى عدوان على الأرض المخصصة لفنزويلا .

وظل الكثيرون فترة من الزمن يخشون أسوأ التوقعات ، ووجدت العناصر الشديدة التطرف مجالاً تصول فيه وتجول . بيد أن النتائج النهائية للأحداث كانت سعيدة . فقد أبدى الشعب البريطانى وحكومته سيطرة رائعة على الأعصاب ، بينما جاءت برقية قيصر ألمانيا لزعيم البوير كروجر فى أوائل سنة ١٨٩٦ ، فحولت الانتباه إلى موضوعات أخرى . واستهجنت الصحف الأمريكية القوية النفوذ ، تتقدمها « ويرلد » النيويوركية ، تصرف كليفلاند المتهور . وقامت هيئات تجارية ودينية تعارضه . وأبدت الأوساط المهنية أسى واستياء . وأعلنت جموع حاشدة على جانبى المحيط الأطلنطى أن الحرب لا تخطر ببال . وتبودلت رسائل الصداقة والثقة . وناشد ١٣٠٠ من المؤلفين البريطانيين مودة أمريكا وتفاهمها ، وطالب أكثر من ٣٥٠ عضواً بالبرلمان بالتحكيم فى جميع المنازعات . وانتهى الأمر بأن وافقت بريطانيا وفنزويلا ، بفضل مساعى الولايات المتحدة الحميدة ، على التحكيم الذى لا يمس المناطق التى ظلت فى حوزة كل من الطرفين لخمسين عاماً أوتزيد . وأدت القضية بأسرها إلى تصفية الجو بين انجلترا وأمريكا ، وزيادة الاحترام المتبادل بينهما ، وأظهرت مدى قوة الروابط التى راحت تعمل تحت سطح السياسة .

ومن الخير أن الأمر انتهى على هذا النحو . فقد أخذ يتضح باطراد أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى قبضة قوى جديدة ذات نفوذ متين . كانت الجمهورية على وشك أن تقوم بدور على مسرح أوسع نطاقاً ، وكان لابد من نبذ العداء الأنجلو أمريكى ، ليحل محله وئام أنجلو أمريكى .

الحرب الأمريكية الإسبانية

شهد العقد الأخير من القرن التاسع عشر ارتفاع الشعور الاستعمارى لدى معظم الدول الكبيرة . فكان تقسيم أفريقيا يجرى على قدم وساق ، وبدا أن الصين كانت موشكة

على أن تتمزق إرباً لمنفعة الدول الكبرى . وكانت بعض جذور الاستعمار الحديث (الإمبريالية) اقتصادية ، إذ كان التكاثر السكانى والنظم الصناعية المتوسعة تتطلب أسواقاً جديدة . كما كانت بعضها سياسية ، لأن الدول المتزاحمة كانت تنشد دعماً فى دول خارجية تتبعها . وكانت بعضها بحرية ، وقد أكدت كتب ألفريد تى . ماهان قيمة وجود سلسلة من القواعد البحرية . كذلك كانت بعضها دينية وخلقية ، إذ شعر رجال الكنائس الانجيلية أن من الواجب الدينى نشر الضوء فى البلاد المظلمة ، بينما راح المصلحون يتحدثون عن رسالة الإنسان الأبيض للارتقاء بالشعوب المتخلفة . ثم إن من الأسباب ما كانت محض عاطفية ، فإن الصحف المثيرة للمشاعر أذكت ميلاً إلى المغامرة فى المجالات الأجنبية . ولقد أدى فزع عام ١٨٩٣ وإعادة انتخاب كليفلاند ، المعادى للاستعمار ، فى الولايات المتحدة إلى كبح روح المغالاة فى التطرف الوطنى وسياسة التوسع . ولم تحن سنة ١٨٩٧ ، حتى أخذت هذه الروح فى الانتعاش ، بتلاشى الكساد الاقتصادى ، وخذلان كليفلاند . وقد صادفت فرصتها عندما اشتد استفحال عصيان دموى فى كوبا .

كان الحكم الإسبانى فى كوبا فاسداً ، وطاغياً ، وقاسياً منذ أمد طويل . وقد استنزف عاماً بعد عام خُمسى الدخل السنوى للجزيرة على الأقل ، وخفض طاقتها الإنتاجية ، وأفقر أهلها . كان الإسبانيون يحتكرون الحكم فى الواقع ، مؤثرين أنفسهم برواتب تثير النقمة ، ومنهمكين فى نظام للسرقة المتواصلة . ففرضت على الصناعة والتجارة ضرائب لا تكاد تطاق . وأثقلت الضرائب عاتق الزراعة والتعدين ، فى حين أن التعريفة الجمركية منحت الصناع والتجار الإسبانيين احتكاراً استغلوه بأن فرضوا أسعاراً لسلعهم تستنزف موارد الأهالى . ولم تكن الحياة ولا الثروات فى مأمن . فكان من الممكن القبض على أى كوبى بإجراءات موجزة ورميه بالرصاص بحجة محاولة الفرار . وكانت المحاكم أدوات فى أيدى الحكام الإسبانيين ، وكانت المقاضاة عادة تعنى السرقة . أما الصحافة فكانت مكمّمة . والكنيسة التى كانت فى أيدى المطارنة الإسبانيين ــ مفسودة ، عديمة الكفاءة ، بعيدة عن التعاطف مع عامة الناس . وكان الأساقفة الرجعيون يستأثرون بقبضة خانقة على التعليم ، حتى إن الأمية كانت عامة . وكان ثمة جيش مقيم كبير العدد ، يعيش على حساب الشعب . فكان التمرد يكمن دائماً تحت السطح ، وكانت ثمة حرب عصابات مدمرة طال مداها معظم العقد الثامن

القرن التاسع عشر ، حتى إذا حدث كساد اقتصادى شديد فى سنة ١٨٩٥ ، زادته التعريفة الجمركية الأمريكية بالنسبة للسكر حدة ، لم تعد الجماهير التى برحت بها المعاناة تقوى على كبح سخطها ، ورفع المناضل الوطنى جوزيه مارتى علم الكفاح فسرعان ما دبت نار الثورة فى البلاد بأسرها .

وبالرغم من أن حكومتى كليفلاند وماكينلى بذلتا جهداً صادقاً فى التزام الحياد ، فقد اتضح بجلاء أن أمريكا ستضطر إلى التدخل إذا طال أمد الحرب . فقد كانت الآثار الاقتصادية على الولايات المتحدة فادحة ، إذ كان خمسون مليون دولار تقريباً من الأموال الأمريكية مستثمرة فى كوبا ، كما أن التجارة مع الجزيرة قبل الثورة وصلت إلى ١٠٠ مليون دولار فى العام . وعندما استخدم الثوار الكوبيون الولايات المتحدة قاعدة تنطلق منها حملاتهم العسكرية ، اشتكت مدريد . غير أن الموقف كان متعذر العلاج ، وكان الحصار الإسبانى غير الفعال عاملاً مهما لذلك . وتعرض المواطنون الأمريكيون فى كوبا لخسائر فى الأموال ، والحرية ، بل والأرواح ، فقدمت واشنطن احتجاجات شديدة على المعاملة التى يلقونها . وأهم من هذا كله . أن الضراوة التى أبداها الطرفان فى الحرب ، ووحشية السياسة الإسبانية أثارتا الشعور الأمريكى أيما إثارة . وبعد إيفاد فاليريانو ويلير — القدير ولكن فى غير رحمة — لسحق الثورة ، أخذ الصراع يزداد وحشية وهمجية . فعاث الطرفان فى البلاد فساداً ، وأعملا الذبح فى الأسرى لدى كل منهما . وأطلقا العنان للاعتداءات الغاشمة على غير المحاربين الذين لم يكن لهم حول ولا قوة . وفى خريف عام ١٨٩٦ ، حول ويلير بعض المدن الصغيرة والكبيرة إلى مناطق اعتقال ، وساق النسوة والأطفال والمسنين إلى مناطق محصورة كانوا يهلكون فيها كما يموت الذباب . فلم تحن نهاية عام ١٨٩٧ حتى كان ما يزيد على نصف سكان إقليم هافانا الذين سيقوا لمناطق الاعتقال ، وعدتهم ١٠١٠٠٠ نسمة ، قد ماتوا . وأورد القنصل العام الأمريكى فى تقاريره أن ٤٠٠٠٠٠ امرأة وطفل عزل ، فى الجزيرة بأسرها ، قد حرموا كل مورد للعيش ، وتردوا إلى مصاف الحيوانات المتوحشة ، وكانوا يُدفنون بالمئات يومياً من جراء الموت جوعاً أو بالحمى .

وأرسلت الحكومة الاسبانية أفواجاً كبيرة من الجنود إلى كوبا ، حتى إنه لم تحن بداية عام ١٨٩٨ إلا ولها ٢٠٠٠٠٠ رجل هناك . وحاولت وزارة الخارجية بها أن تكوّن رابطة من الدول الأوربية الكبرى لمنع الولايات المتحدة من التدخل . ولقيت تأييداً أكيداً من

روسيا ، ومعارضة نشيطة من بريطانيا العظمى ، وبعض التشجيع من ألمانيا والنمسا والمجر وفرنسا . غير أن الفرصة لجدوى هذه المحاولة كانت قد انقضت فى سنة ١٨٩٨ ، إذ أن الكونجرس كان يزداد صخباً وحدة فى المطالبة بعمل حاسم . وكان الشعور مستعداً للحرب ، استجابة للحقائق الصريحة للموقف من ناحية ، ولصخب الصحافة المثيرة للعواطف بقيادة صحيفة وليم راندولف هيرست « جورنال » النيويوركية من ناحية أخرى . وكان الرئيس ماكينلى وفريق الشيوخ الممثل لمصالح المشروعات التجارية الكبرى ، والذين كانوا أقرب المستشارين إليه ، يودون تفادى نشوب صراع . بيد أن الاعتبارات السياسية ، مع إيمان بحق الإرادة الشعبية فى الحكم ، جعلت لمقاومة ماكينلى للضغط حدوداً . وزاد الطين بلة ، أن الوزير المفوض الإسبانى فى واشنطن دوبوى دى لوميه الغبى ، يسر فى شهر فبراير لصحافة هيرست أن تحصل على خطاب وصف به ماكينلى بأنه « كان من الممكن أن يصبح سياسياً ، وأنه يسعى لشراء إعجاب الجموع ، وأنه مذنب إذ يكن لإسبانيا سوء النية . وبعد أسبوع ، نسفت البارجة مين فى ميناء هافانا ،وبلغت الخسائر ٢٦٠ نفساً . وسواء كان هذا من عمل إسبانيين لا يقدرون المسئولية ، أو كوبيين أرادوا الاستفزاز والتحريض ، فإن الحادث جعل الحرب أمراً لا يكاد يكون منه مفر . وبادرت الحكومة الإسبانية بتنازلات متعجلة ، فى اللحظة الأخيرة . ولو أنها استغلت على وجه سليم ، لكان من المحتمل أن تقضى إلى تحرير كوبا سلمياً . غير أن ماكينلى رأى أنه لم تعد فرصة لمزيد من التأخير ، وأرسل إلى الكونجرس فى ١١ أبريل رسالة حرب . وما من مراء فى أنها كانت حرباً أملاها الشعب ، كما كان من الواضح أنها حرب ليس لها من داع .

وما من صراع أمريكى جلب نتائج سريعة تمثل نوعاً من المجد ، كالتى جلبتها الحرب الإسبانية الأمريكية . فقد بدأ القتال فى أول مايو سنة ١٨٩٨ ، وانتهى فى عشرة أسابيع . ولم تتخلله أية نكسة ذات قيمة . ففى عيد مايو[1] ، انطلق ديوى فى مياه خليج مانيلا الخالية من الألغام ، عند الفجر ، وأخذ يقترب من الأسطول الاسبانى مطمئناً إلى أنه يفوقه فى مدى الرماية ، إلى أن أصبح على المسافة المثلى ، ثم قال : « لك أن تطلق نيرانك عندما تكون مستعداً يا جريدلى » ، وقضى على مقدرة العدو دون أن

(١) May Day : عيد الربيع فى كثير من بلدان العالم ، وقد أصبح عيد للعمال ـ المترجم .

يفقد رجلاً واحداً . وقد مجد هذا الحدث حق التمجيد ، فيما كتبه الشاعر الكنساسى :

كان الصباح ندياً . .
فى اليوم الأول من مايو . .
وكان ديوى قائد الأسطول . .
هناك ، فى خليج مانيلا
وكانت عيون الإسبانيين منداة [١] . .
كانت أفلاكاً من سواد وزرقة . .
فهل ترانا شعرنا بخور ولين ؟ . .
لا أعتقد أننا أخلدنا للين .

وأنزل عدد من الجنود يعادل فيلقا من الجيش إلى البر بالقرب من سانتياجو فى كوبا ، وكسب سلسلة من الاشتباكات السريعة ، وجعلوا الميناء فى متناول رمايتهم . وفى تهور ، اقتحم أسطول الأميرال سيرفيرا الإسبانى المؤلف من أربعة طرادات ، طريقه إلى خارج خليج سانتياجو ، فإن هى إلا سويعات حتى كان ثمة صف من الهياكل المهشمة على طول الساحل . . دون أن يخسر الأمريكيون سوى قتيل واحد . وهبط جيش الجنرال مايلز فى بورتوريكو فجاس خلالها كأنه فى استعراض فى يوم عيد . وقد كتب مستر دولى يصف غزو الجزيرة بأنه « النزهة الخلوية الفخمة التى قام بها الجنرال مايلز ، وجولة فى بورتوريكو فى ضوء القمر » .

ولقد تقبل الشعب الأمريكى الحرب بروح وطنية راضية . فكانت كل فرقة موسيقية تعزف لحن سوسا الجديد « النجوم والأشرطة إلى الأبد » ، وكل بيانو يعزف لحن الراجتايم [٢] العسكرى : « سيسود البلدة العتيدة الليلة جو صاخب » . وتنوسيت الحزازات الحزبية ، حتى إن بريان تولى منصب ضابط برتبة كولونيل فى فرقة من

(١) Dewey : اسم القائد البحرى جورج ديوى ، وهو شبيه فى النطق بكلمة Dewy أى ندى أو مندى ، وبكلمة Dew بمعنى اللين والتراجع عن التشدد . ومن هنا نفهم بلاغة الشاعر فى التلاعب باللفظ الذى شاء القدر أن يتيحه اسم الاميرال ديوى ــ المترجم .

(٢) الراجتايم . نوع من الموسيقى الأمريكية مأخوذ عن أصل زنجى ــ المترجم .

نبراسكا . وانصهرت فى نار الشعور القومى آخر آثار العداء الذى قام بين الشمال والجنوب من مدة الحرب الأهلية ، حتى إن جو هويلر القائد الشهير لفرسان الاتحاد التحالفى الجنوبى ، صاح وهو يقاتل أمام سانتياجو ، أن معركة واحدة من أجل العلم الأمريكى تستحق خمسة عشر عاماً من العمر . وانطلقت الصافرات من بوسطن حتى سان فرانسيسكو ، ورفعت الأعلام ، فى اليوم القائظ من شهر يوليو ، الذى وصل فيه نبأ سقوط سانتياجو . ودفعت الصحف بمراسليها إلى كوبا والفلبين ليشهدوا الأحداث البهيجة ، وقد أذاع هؤلاء ذكر عدد من الأبطال القوميين الجدد . فهناك « بوب المقاتل » إيفانز من أيووا ، الذى نقل سيرفيرا إلى سفينته بعد هزيمته . . والكابتن فيليب من تكساس ، الذى قال أثناء غرق سفينة إسبانية : « لا تهللوا ابتهاجاً يا أولاد ، فإن المساكين يموتون » . . والملازم فيكتور بلو الذى توغل فى أدغال كوبا ليظفر بمعلومات عن القوات الإسبانية . . والكابتن آر . بى . هوبسون ، الذى أغرق ناقلة الفحم مريماك فى محاولة عقيمة لسد مدخل خليج سانتياجو . وفوق هؤلاء الأبطال جميعاً ، تطاول ذكر جورج ديوى الذى منحته الأمة بيتاً فى واشنطن عرفاناً ببطولته ، وتيودور روزفلت قائد الفرسان غير النظاميين ، الذى حمله بلاؤه فى الحرب إلى بيت فى واشنطن أكثر شهرة [1] . ولقد بدت الحرب مثالية ، إذ كانت قائمة الخسائر فى الأرواح فيها قصيرة ، ولم تكلف الدولة ديوناً كبيرة ، ورفعت مكانة أمريكا فى الخارج ، وخرجت الأمة منها بجيوب مليئة بالغنائم .

على أن تأملها عن قرب يبين أنه كانت لها جوانب أقل تشريفاً . فإن مجدها اكتسب على حساب عدو عاجز ، إذ أن مقاومة العدو كانت مثيرة للإشفاق . كان الأسطول الإسبانى سيىء التسليح ، خائر القوى المعنوية حتى إنه لم يكد يحدث خدشاً فى السفن الأمريكية . وكان الجنود المائتا ألف فى كوبا معوقين بسوء القيادة وسوء النقل ، حتى إنه لم يتسن حشد أكثر من اثنى عشر ألفاً فى سانتياجو عندما اقتربت القوات الأمريكية من تلك المدينة . ومن الممكن القول بأن بعض الفضل فى انتصاراتنا كان راجعاً إلى الإقدام والشجاعة ، ولكن الفضل الأكبر برغم ذلك كان راجعاً إلى ضعف الإسبان . وكانت خلفية هذه الانتصارات مثالاً قياسياً لفساد وعدم كفاية وسوء أداء بيروقراطى ، مما كان

(١) يقصد البيت الأبيض ، مقر رئيس الجمهورية ــ المترجم .

يبدو للمواطن المتأمل فوق ما يصدقه عقل . كانت وزارة الحرب من سوء الإدارة بحيث أن وزيرها لم يلبث أن اضطر للاستقالة من حكومة ماكينلى ، مفسحاً مكانة لقائد رفعها والجيش إلى مستوى رفيع من الكفاءة ، هو إيليهو روت . . كان معدل الوفيات من الأمراض فى الجيش يعكس صورة قاتمة لا للقسم الطبى فيها فحسب ، وإنما لمرافق الصحة العامة والصحة البشرية الأمريكية عامة . وبالرغم من سلسلة من الانتصارات ــ من جانب واحد ــ على الإسبانيين ، فإن براعة الأسطول فى الرماية كشفت عن قسوة فظيعة ، فكان لابد من كبح جماح المدفعية بشدة . وتكشفت مرة أخرى قبضة السياسة التى كانت تشل الدوائر الحربية فى واشنطن . فكان تيودور روزفلت على صواب إذ وصف هذا الصراع بأنه حرب أمريكا غير المستعدة . فسرعان ما رفع عدد أفراد الجيش إلى ١٠٠ ٠٠٠ ، وأنشئت هيئة أركان حرب دائمة ، وزيد الأسطول بسرعة ، وعززت القوات المحترفة فى الفرعين (الجيش والأسطول) ، وساعد استيعاب دروس الحرب الولايات المتحدة على أن تستعد استعداداً كافياً لمحنة ١٩١٧ — ١٩١٨ .

وتم تدبير الصلح مع إسبانيا بسرعة ، باجتماع المفوضين فى باريس . ولم تصطدم الآراء إلا بصدد نقطتين فقط . فقد حاول ممثلو إسبانيا أن يصروا على وجوب تحمل كوبا مسئولية الديون التى كانت إسبانيا قد عقدتها على أن تخصص لسدادها عائدات الجزيرة ، كما جادلوا من أجل احتفاظ إسبانيا بكل جزر الفلبين أوبجزء منها . ولكن الوفد الأمريكى وقف موقفاً حازماً من النقطتين . فبعثت كوبا من جديد دولة متحررة من الديون . وسلمت جزر الفلبين بأكملها إلى الولايات المتحدة ، ومعها بورتوريكو . وبهذا الاستحواذ على أقاليم فيما وراء البحار ، تسكنها أجناس أجنبية فى اللغة والثقافة والتقاليد السياسية ، بدا أن أمريكا مقبلة على طريق جديد . وأثار مناهضو الامبريالية ، بقيادة بريان وكارل شورز و إى . إل . جودكين ومارك توين والسيناتور جورج فريسبى هور ، اعتراضات حامية . وصاح الشاعر وليم فوجان مودى فى لوعة :

أكاذيب ! أكاذيب ! . . هذا غير ممكن !

لا تستثيروا ضعفنا ، جشعنا !

فما لم ندع رجال الجزر مطلقى الحرية . .

فإن أشباح الذين ماتوا عبثاً ولم يكللوا بالغار . .
ستلعننا من السواحل الباعثة على الأسى . .
حيث يسير الموتى والإحباط يثقلهم . .

على أن انتخابات سنة ١٩٠٠ كانت دليلاً على أن المعاهدة قوبلت بالرضى ، إذ أعيد ماكينلى إلى الحكم بأغلبيات زادت عن المرة السالفة . وكان مقدراً أن تثبت الأيام أن المسئوليات التى أخذتها الولايات المتحدة على عاتقها كانت محض مؤقتة من ناحية ، وأن الأمة ــ من ناحية أخرى ــ ظلت فى الصميم غير استعمارية . فعلى مر الأعوام آثرت أن تخفض ممتلكاتها فى الخارج لا أن تزيدها .

ومع ذلك فإن الحرب الإسبانية الأمريكية لم تكن نقطة تحول فى التاريخ الأمريكى . فقد أدركت الأمة فى نهاية الأمر أنها دولة عالمية كبرى ، وأخذ شعورها بالعزلة والعكوف على نفسها يقل باطراد ، بينما كان يزداد قيامها بدور قيادى فى التنسيقات الدولية الواسعة النطاق . وأصبحت عن وعى ودراية من الدول المرشدة للشعوب المتخلفة . واضطلعت بقيادة حكام عامين من أمثال الجنرال ليونارد وود ، بمهام ضخمة لإعادة التنظيم ، والإصلاح ، والتطوير فى الفلبين ، وكوبا ، وبورتوريكو ، ثم فى بناما بعد ذلك بقليل . وإزاء عناصر مثل الايجوروت والموروس تولت تدريب من سماهم كيبلينج « الشعوب الحديثة الوقوع فى الأسر ، الحرون ، فأهلها نصف شياطين ، نصف أطفال » . وجاء التغلب على الحمى الصفراء نتيجة تجارب الدكتور وولتر ريد وغيره من أطباء الجيش فى كوبا ، انتصاراً يساوى وحده كل نفقات الحرب . فلقد ظلت الحمى الصفراء قروناً تقضى على الحياة فى كافة المناطق الحارة ، وكانت خطراً قائماً باستمرار على موانئنا الجنوبية . ولقد كانت الولايات المتحدة حتى فى حربها مع إسبانيا تعتمد اعتماداً ضمنياً على الأسطول البريطانى فى الحفاظ على مبدأ مونرو ، ولكنها أصرت بعدها على أن يكون لها أسطول قادر على مراعاة المبدأ دون ما عون . ولقد أدت الحرب ، لا سيما رحلة البارجة أوريجون من ساحل أمريكا على المحيط الهادى حول رأس هورن إلى المياه الكوبية ، مستغرقة ثمانية وستين يوماً . . أدى ذلك إلى إقناع كل امرىء بضرورة شق قناة فى الخليج بين المحيطين الهادى والأطلنطى . وأخيراً ، كان للصراع أثر فى زيادة الصداقة الأنجلو أمريكية ، إذ احتفل البريطانيون بالانتصارات الأمريكية كما لو كانت انتصاراتهم ، بينما

كان الأسـطول الألمانى الـذى جثم فى مانيلا يرقب المـوقف فى غيرة ، موقعـاً القلق والاضطراب فى نفس ديوى .

البـاب المـفتوح : الدبلـومـاسـية الروزفلـتية

كان إعلان مبدأ الباب المفتوح أول إشارة إلى اتجاه جديد فى شؤون العالم . كانت الصين قد أصبحت بهزيمتها من اليابان فى ١٨٩٤ - ١٨٩٥ فريسة للدول الأوربية الكبرى ، التى انقضت عليها لتستولى على امتيازات اقتصادية وتنازلات إقليمية . فاستولت روسيا فعـلاً على منشـوريا الشمالية ، واستأجرت ألمانيا ميناء كياوتشاو مكتسبة بذلك سيطرة اقتصـادية على مقـاطعـة شانتـونـج ، وحصلت فرنسا على امتيازات متباينة . وكانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ترقبان هذا النهب فى جزع . فقد كانتا تعلقان أهمية على التجـارة مع الصين ، وتخافان إقامة حواجز اقتصادية عالية . وقبيل بداية الحرب الإسبانية الأمريكية بقليل ، اقترح البريطانيون عملاً أنجلو أمريكياً مشتركاً للحفاظ على الفرص التجارية الحرة فى الصين ، بيد أن وزارة الخارجية الأمريكية كانت فاترة . ثم تحولت واشنـطن فى سنـة ١٨٩٩ إلى موقف مختلف . إذ سلطت المصـالـح الصناعية والتجارية ضغطاً من أجل سياسة أشد حزماً فى الشرق ، وأعادت إلى الأذهان أن مكتب التجارة الخارجية كان قد وصف الصين بأنها « من أكثر البقاع التى تبشر » بمستقبل من أجل « غزو أمريكى لأسواق العالم » . وضمت مصالح الارساليات التبشيرية صوتها . وأثار المشاعر بدرجة كبيرة ، كتاب صدر فى الوقت المناسب للورد تشارلز بريسفورد باسم (تقطيع أوصال الصين) . وأخذ العديدون يعملون من وراء ستار ، وأخيراً طلب جون هاى وزير الخارجية ، فى سبتمبر ، إلى الدول التى لها مجالات مصلحة فى الصين ، أن تتعهد بألا تفرض تعريفات جمركية أو رسوم مرافىء أو أجور للسكك الحديدية خاصة فى داخل تلك المجالات . ومع أن معظم الردود اشتملت على بعض الاشتراطات ، فإن هاى أعلن فى أوائـل سنة ١٩٠٠ الموافقة النهائية والحاسمة من الدول الكبرى ، على سياسة الباب المفتوح فى الصين .

بعـد أن تبـوأ تيودور روزفلت الـرئاسة فى سنة ١٩٠١ ، متخذاً هاى أولاً ، ثم روث

وزيراً للخارجية ، تشعبت السياسة الخارجية الأمريكية إلى قسمين رئيسيين . فتركز شطر منها على الممتلكات الجديدة من الجزر وعلى منفذ بناما ، وكان فى المقام الأول ناشئاً عن الحرب الإسبانية الأمريكية وما ترتب عليها من انتقال الولايات المتحدة إلى مركز شعرت فيه أنها أكثر مناعة من ذى قبل فى المحيطين الأطلنطى والهادى . أما الشطر الآخر فكان يمثل بعض مغامرات شخصية لروزفلت فى الدبلوماسية العالمية ، وكان مؤذناً بوصول الولايات المتحدة إلى مركز دولة عالمية كبرى . ومن أهم هذه المغامرات الجديرة بأن نوليها بعض الاهتمام ، استخدام روزفلت مساعيه الحميدة فى سنة ١٩٠٥ لإنهاء الحرب الروسية اليابانية ، ومشاركته فى مؤتمر آلجيسيراز [١] فى سنة ١٩٠٦ . وكانت هاتان التجربتان رائعتين ، وموفقتين فى رأى روزفلت . والواقع أنه ما كان ثمة داع لأى منهما . فقد كان من الممكن أن تسوى روسيا واليابان نزاعهما فى مكان غير بورتسماوث ، بنيو هامبشاير ، كما أنه لم تك ثمة ضرورة لإيفاد هنرى هوايت لتأييد فرنسا فى صراعها التاريخى مع ألمانيا على الموانىء والامتيازات فى شمال أفريقيا . وإنما كانت الأهمية الحقيقية بالنسبة للأمريكيين لسياسات روزفلت الخارجية المتعلقة بالفلبين ، وجزر البحر الكاريبى ، وبناما .

وقد يكون لنا أن نضيف إلى هذه سياساته بالنسبة للعلاقات الأنجلو أمريكية ، إذ كان مقدراً لآمال الديمقراطية ، بل للحضارة نفسها ، أن تعتمد بعد وقت قصير على تعاون الدولتين الكبيرتين الناطقتين بالإنجليزية فى حربين جبارتين ، وإن لم يخطر هذا ببال أحد إذ ذاك . فقد رأت الولايات المتحدة بجلاء ــ وهى تُقبل مرتجفة على حلبة الشؤون العالمية القارسة الموحشة ــ أن مساندة الأسطول البريطانى كانت مرغوبة إلى درجة كبيرة . وكانت بريطانيا العظمى من ناحيتها تواجه من كل ناحية خطر قوة ألمانيا الجبارة : المنافسة الألمانية فى التجارة الدولية ، والمطالب الألمانية بنصيب فى أفريقيا ، والعداء الألمانى لسياسة الباب المفتوح فى آسيا ، وتحالف ألمانيا الثلاثى والمطامع البحرية الألمانية فى أوربا . وليس ثمة ما يجزم بأن ألمانيا كانت غير ذات مطامع إقليمية فى جزر الهند الغربية أو أمريكا اللاتينية . . فلقد كان بعض قادتها خليقين بأن يتمنوا الحصول على قاعدة بحرية هناك . ووجدت الولايات المتحدة وبريطانيا نفسيهما ــ لأسباب

(١) Algeciras : ميناء فى مقاطعة قادش بإسبانيا . ويبدو أن الاسم من أصل عربى هو الجزيرة ــ المترجم .

واضحة ــ على وفاق مطرد التجلى فى الشرق الأقصى ، والبحر الكاريبى ، والمسالك البحرية الرئيسية ، حيث تمسكتا بما أطلق عليه فيما بعد النظام الأطلنطى .

وإذ وضح أن الولايات المتحدة عقدت العزم على إنشاء قناة فى خليج بناما ، قدمت الحكومة البريطانية تنازلات سخية لتمهيد الطريق أمامها . إذ كانت معاهدة كلايتون ـ بولور قد اشترطت ــ فى سنة ١٨٥٠ ــ على أن تمتلك الدولتان امتيازات متساوية فى أية قناة وأن لا تقوم أى من الدولتين بإنشاء استحكامات عليها . فأفضت مفاوضات بين وزير الخارجية هاى والسفير البريطانى فى واشنطن إلى معاهدة هاى ــ باونسفوت ، التى تم التصديق عليها فى سنة ١٩٠١ ، والتى مثلت تنازلاً من البريطانيين عن كافة حقوقهم فى المعـاهـدة القديمة ، إذ نصت على أن للولايات المتحدة أن « تنشىء ، وتصون ، وتسيطر » على القناة ، (وإن لم يكن مسموحاً بأى تمييز بين الدولتين فى رسوم المرور) . ولم تطلب بريطانيا مقابلاً لذلك ، وهو أمر قدره الأمريكيون حق قدره . وبعد ذلك بأمد وجيز ، اتخـذت بريطانيا مسلكـاً آخـر ارتـاحت له واشنـطن بصـدد موضـوع الدين الفنـزويلى . فلقد طالبت ثلاث دول كبرى ــ هى بريطانيا وإيطاليا وألمانيا ــ حكومة الرئيس كاسترو السيئة السمعة بالدين . وفى خريف سنة ١٩٠٢ ، اتفقت على انتهاج « إكراه تعاونى » ، إذ أخفقت فى الحصول على السداد بأية طريقة أخرى . فحاصرت ألمانيا وإيطاليا ساحل فنزويلا ، واستولت على بعض سفن المدفعية ، وقصفت حصنين . وكانت الولايات المتحدة على استعداد لأن ترى فنزويلا معرضة للخوف . ولا شىء أكثر منـه . ولـما لمحت بريطانيا العظمى أن مسلكها أخذ يضايق الرأى العام الأمريكى ، تراجعت . فدبرت مناقشة فى مجلس العموم لشجب العمل المشترك مع ألمانيا ، وأعلنت الوزراة رغبتها فى تفادى استعمال القوة . رضى الشعب الأمريكى عن موقف بريطانيا إذ قارنه بمناورات ألمانيا وأساليبها . وقد روى روزفلت فيما بعد قصة مؤثرة (غير دقيقة ولكنها قد لا تكون عديمة الأسس) عن أنه كان قد أمر ديوى والأسطول بالاستعداد للتحرك لإقناع القيصر بالتراجع .

وفى أوائل القرن العشرين ، عادت الحكومة البريطانية فساعدت على تسوية الحدود الكندية المتاخمة لولاية ألاسكا بطريقة أرضت الأمريكيين بقدر ما أسخطت الكنديين . إذ أن حدود لسان ألاسكا الشبيه بيد المقلاة ، كان ــ وفقاً للمعاهدة الانجليزية الروسية فى سنة ١٨٢٥ ــ يتبع قمم الجبال الموازية للساحل ، بطريقة تترك لروسيا شريطاً ساحلياً

عرضه ثلاثون ميلاً . وقد ورثت الولايات المتحدة هذا الشريط . وكانت المشكلة هى ما إذا كان يمتد فى خط متعرج حول رؤوس الخلجان الصغيرة أو أنه يمتد مستقيماً عبر هذه الرؤوس . وكان الكنديون يأملون فى الحصول على مرافىء عند بعض هذه الرؤوس . وبعد نقاش ، أحيل الأمر إلى لجنة من القانونيين الكنديين والبريطانيين والأمريكيين . وإذ كان روزفلت معقود العزم على الفوز ، فقد لوح بالقوة . غير أنه لم يكن ثمة داع لذلك فى الواقع ، فإن الحق كان مع الأمريكيين ، فكان القانونى البريطانى ، اللورد آلفيرستون ، يدلى بصوته فى جانبهم باستمرار . وأخيراً ، استدعت بريطانيا جناح أسطولها المتمركز فى برمودا لحماية جزر الهند الغربية ، عندما أعادت توزيع الأسطول البريطانى فى سنة ١٩٠٦ ، فقسمته إلى ثلاثة أساطيل : للبحر المتوسط ، وللقنال الإنجليزى (المانش) ، ولشرق المحيط الأطلنطى . وكانت تهديدات ألمانيا هى السبب فى سحب ذلك الأسطول ، ولكن الولايات المتحدة قابلت بالتقدير إطلاق يدها فى البحر الكاريبى بعد أن بات لها أسطول قوى .

وقد أطلقت يدها هناك فعلاً ، وكان من أسباب ذلك أن مشروع قناة بناما كان يسير بخطوات جادة . وقد قال روزفلت فى خطاب ألقاه فى جمهور من الغرب ، فى سنة ١٩١٢ : « لقد أخذت بناما . . فقد كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى يتسنى بها إنشاء القناة » . ويكاد يكون الشطر الأول من هذا التصريح صحيحاً بحذافيره . فبموجب قانون صدر فى سنة ١٩٠٢ ، كان الكونجرس قد خول الرئيس شراء حقوق الشركة الفرنسية القديمة لشق القناة فى بناما ، والحصول من كولمبيا على حق السيطرة الدائمة على قطاع من هذه الولاية يصل بين المحيطين الأطلنطى والهادى ، والشروع فى حفر القناة . وبدأت المفاوضات مع كولمبيا ، ولكن هذه الجمهورية كانت تدرك أن بناما من أكبر أرصدتها ، فلم تشأ أن تفرط فيها لقاء مكاسب زهيدة . وخذل مجلس الشيوخ فى بوجوتا معاهدة صيغت فى واشنطن لمنح أمريكا السيطرة على شريط عرضه ستة أميال . وكان مثل هذا الخذلان شائعاً فى الولايات المتحدة ، حيث أقدم الكونجرس على تهشيم أكثر من اتفاق مهم واحد . غير أن روزفلت شجبه باعتباره إهانة مزرية ، واصفاً سياسيى كولمبيا بالجشع والفساد . وكان مصمماً على أن يظفر بموقع القناة قبل استئناف الكونجرس اجتماعاته فى ديسمبر ، إذ كان يخشى أن تنهار بعض خططه إذا لم يتحقق ذلك . إذ كان ثمة عنصران قويا النفوذ فى حاجة إلى تصرف فورى . وكانت الشركة

الفرنسية أحد العاملين ، وكانت تسعى فى عرض سابق للبيع إلى أربعين مليوناً . أما العنصر الآخر ، فهو شعب بناما الذى كان يخشى أن تنشأ القناة فى نيكاراجوا بدلاً من بناما إذا لم تشرع الولايات المتحدة فى إنشائها فى وقت قريب . ونجم عن ذلك أن قفزت فكرة قيام ثورة فى بناما فى أذهان عدد كبير جداً من الأشخاص فى وقت واحد . وظهرت مجلة « ريفيو أوف ريفيوز » ــ التى كان يرأس تحريرها صديق حميم لروزفلت ــ وقد تصدرها مقال بعنوان : « ماذا يكون إذا قدر لبناما أن تثور ؟ » وملأ الحديث عن نشوب ثورة جو واشنطن . فأرسلت الطرادات إلى ساحل بناما . وكان عملاء فرنسا يعملون بنشاط فى الخليج . وعقب وصول البارجة ناشفيل إلى كولون ، فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٠٣ ، أبرقت وزارة الخارجية الأمريكية إلى القناصل الأمريكيين هناك ، تقول :

« وصلت أنباء عن ثورة فى الخليج . وافوا الوزارة بالمعلومات الكاملة ، فوراً ــ لوميس ، عن الوزير » .

ولم يكن القنصل الأمريكى فى بناما غبياً ، فرد ببرقية قال فيها : « لا ثورة بعد . سنوافيكم بالأنباء الليلة . الموقف خطير» . وبعد ساعة أو اثنتين ، أبرق قائلاً :

« حدثت الثورة الليلة ، ١١/٦ ، لم ترق دماء ما . اعتقل ضباط الجيش والبحرية . ستؤلف الحكومة الليلة » .

وأنزل جنود البحرية الأمريكية إلى البر ، فأوقفوا القوات الكولمبية عن التصدى للثورة . وسرعان ما استقبل وزير من بناما فى واشنطن ، وبسرعة خارقة أبرمت الجمهورية الصغيرة الجديدة معاهدة تمنح الولايات المتحدة الشريط المنشود من الأرض ، مقابل عشرة ملايين من الدولارات دفعت فوراً ، وايجار سنوى معقول . وقد قال روزفلت فيها بعد : « لو أننى انتهجت الأساليب المحافظة التقليدية ، لكان لزاماً أن أقدم إلى الكونجرس مذكرة رسمية تليق بالمقام ، وقد تتألف من مائتى صفحة ، ولكانت المناقشات دائرة للآن . ولكنى أخذت منطقة القناة وتركت الكونجرس فى نقاشه ، وبينما يسير النقاش ، تسير القناة هى الأخرى » . وهذا ما حدث . وفى خلال سنوات عشر ، كانت القناة معدة للعمل ، بفضل نابغة الهندسة الكولونيل جورج دبليو . جوثال ، وعبقرى الهندسة الصحية وليم سى . جورجاس . ولقد هزت أساليب روزفلت الخارجة عن العرف الشعور العام فى أمريكا اللاتينية بأسرها وأفزعته .

كان تيودور روزفلت مدفوعاً برغبة صادقة فى تحسين العلاقات مع الجمهوريات

اللاتينية ، بيد أن سياساته ونتائجها لم تكن صافية الوضوح تماماً . فعندما عقد المؤتمر الثالث لرابطة الدول الأمريكية فى ريو دى جانيرو ، أوفد وزير خارجيته روت فى جولة ودية لأمريكا الجنوبية كى يوضح صداقتنا لأمريكا اللاتينية . ولقد اعتبر مبدأ مونرو حماية لا غنى عنها للجمهوريات اللاتينية ، غير أنه أضاف إلى هذا المبدأ تذييلاً مشهوراً أثار قلق كثير منها أيما إثارة . فقد أوضح أنه لما كانت الولايات المتحدة تأبى أن تسمح للدول الأوربية الكبرى بأن تتخذ مسلكاً خشناً مع الدول الصغيرة التى تتمرد على سلطانها ، أو تتخلف عن تسديد ديونها ، أو تستولى على ممتلكات الأجانب لديها ، أو تسىء معاملة المقيمين من الأجانب فيها ، فإنه يعلن أن هذا يلقى على عاتق الولايات المتحدة مسئولية لا مهرب منها . ومن ثم فإن العم سام مضطر إلى أن يحرص بنفسه على أن تسلك هذه الجمهوريات مسلكاً طيباً . وضرب مثلاً لذلك بمعاملته لسانتو دومينجو . فعندما كانت هذه الدولة مهددة بتدخل أجنبى فى سنة ١٩٠٤ ، أغراها بأن تسمح له بإنشاء هيئة أمـريكية تكون بمثابة حارس مالى [١] . وكانت هذه سابقة لإقامة عدد من المحميات الحقيقية فى منطقة البحر الكاريبى . وكانت هذه السياسة ترمى لإقرار السلام والنظام ، بيد أنها بعثت فى أمريكا اللاتينية المخاوف من أن الولايات المتحدة كانت تنتهج مسلكاً فيه سلب لحرياتها .

كذلـك انتهـج روزفلت فى حوض المحيط الهـادى منهجاً أثار الهواجس . كانت العلاقات اليابانية الأمريكية قد أخذت تتحول إلى مصدر للقلق . وتدخل الرئيس فى خلاف بين اليابان ومدينة سان فرانسيسكو التى كانت تولى اليابانيين فى المدارس معاملة تقـوم على التفرقة العنصرية . واستطاع بمساعيه الحميدة أن يهدىء مشاعر اليابانيين الغاضبة ، وحصل على « اتفاقية جنتلمان » لمنع هجرة العمال اليابانيين ، وحمل سلطات سان فرانسيسكو على انتهاج مسلك أكثر لباقة وحكمة . غير أنه رأى أن التحذير أمر لائق ، فأوفـد أسطولاً فى جولة حول العالم ، توقف فيها فى الموانىء اليابانية ، حيث حظى باستقبال ودى . وكانت روح هذا المسلك منه تتمشى مع رأى من أكثر الآراء تردداً عنه : « ترفق فى كلامك ، واحمل عصا كبيرة » .

(١) أشبه بـنظام الحراسة المالية التى تفرض بحكم قضائى فى حالات الأفراد ، تتولى مراقبة الشؤون المالية ، وتحصيل الإيرادات ، وتسديد الديون ــ المترجم .

وبمرور الأعوام ، أخذ يتضح بجلاء مطرد أن الولايات المتحدة ليست إحدى الدول الكبرى فى العالم ، بل أنها إحدى أعظم ثلاث أو أربع دول كبرى فى العالم . فقد اضطلعت بدور بارز فى مؤتمرى لاهاى لتعزيز السلام العالمى . وبذلت التأييد المعنوى للمبادىء الديمقراطية وحرية التبادل التجارى فى كافة أرجاء الأرض . وبالرغم من مجافاة اللباقة لروزفلت فى بعض المناسبات ، و« دبلوماسية الدولار » التى انتهجها تافت ــ أى ترويج التجارة والاستثمارات الأمريكية بوسائل دبلوماسية ــ فإنها قطعت شوطاً فى كسب ثقة أمريكا اللاتينية . كذلك أخذت تزداد صلته ببريطانيا والكومنولث البريطانى الكبير ، فيما وراء البحار ، بالرغم من بعض خلافات بسيطة من وقت إلى آخر . وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى ، كانت الولايات المتحدة بعد فى شيء من العزلة ، ومع ذلك فإنها سرعان ما استدرجت إلى المعمعة الفظيعة ، بالرغم من عزلتها .

الفصــل ٢٠

أمـريـكا تبـلـغ الـرشـد

الخـط الفـاصـل فى التسعـينـات

تؤلف السنوات الواقعة بين سنة ١٨٩٠ تقريباً والحرب العالمية الأولى خطاً فاصلاً فى التـاريخ الأمريكى . فعلى أحد جانبى الخط كانت الصفة الغالبة على أمريكا أنها ريفية زراعية ، وأنها تلتزم عزلة تقليدية ، وأنها بعد متشبثة بتفاؤلية القرن الثـامن عشر ، وبروح المساواة التى اقترنت بالقرن الثامن عشر . وعلى الجانب الآخر للخط نجد أمريكا فى الشؤون العالمية ، عميقة الانشغال بمشكلات ظلت طويلاً تبدو مقصـورة على الـدنيا القـديمـة ، وهى تمر بتغيرات مصحوبة باختلاجات تشنجية فى الاقتصاد والمجتمع والثقافة .

فمع العقد العاشر من القرن التاسع عشر ، أقبلت أمريكا جديدة ، وكأنها كان يحملهـا سيل طاغ . إذ شهد ذلك العقد تلاشى منطقة حدود العمران ، ونهاية جيل الحرب الأهلية . والمسائل التى صاحبت إعادة التنظيم والتى ظلت طويلاً تعكر الشؤون السياسية الأمـريكية ، ونهوض الجنـوب الجـديد . كذلـك شهـد العقد مقدم الهجرة الجديدة ، واكتمال الخطوط الحديدية العابرة للقارة ، والتنظيم السياسى لآخر الأقاليم

الغربية ، وأزمة فى الزراعة ، والتنظيم الواسع المدى للصناعة وما صاحبه من تنظيم مواز للعمالة ، وأول اعتراف جدى من الحكومة بمسئوليتها عن الاقتصاد القومى ، وبداية التوسع فى منطقتى البحر الكاريبى والمحيط الهادى ، وتقدم أمريكا كدولة عالمية كبرى .

كما شهد ذلك العقد ثورة مشابهة فى عالم الآراء والأفكار ، وإن لم يكن من الميسور ربطها بهذا التاريخ تماماً . فلقد ظل الأمريكيون فى معظم القرن التاسع عشر يعيشون فى الشفق الذى خلفته حركة التنوير [١] . ظلوا ــ أو ظل معظمهم ــ يؤمنون بفكرة جيفرسون عن وجود عناية إلهية مسيطرة ، تثبت بكل تدابيرها أنها تبتهج بسعادة الانسان فى الدنيا ، وسعادته الكبرى فى الآخرة . وكانوا يتقبلون دون نقاش أوشك نظرية التقدم ، وما قدر للشعب الأمريكى من إعفاء خاص من أعباء التاريخ ، وما قدر له من حظ خاص وواضح فى التاريخ .

وخيم على هذه الرؤية المشرقة ، حوالى أواخر القرن ، تعاليم جديدة فى العلم والفلسفة . فإن الكون الذى تنظمه قوة عليا ، وفقاً لفلسفة التنوير ، تصدع تحت وطأة البيولوجية الداروينية ونظريات علم الطبيعة الحديثة ، والآراء الأدبية والفلسفية الوافدة من القارة الأوربية . وقد أدت هذه جميعاً إلى تفاعل فكرى ، وتشكل جدل فى كافة النواحى المألوفة ، وسعى إلى صيغ جديدة بدرجة لم تعهد منذ الأربعينات ، فى القرن التاسع عشر .

وكان مقدراً للمشكلات التى برزت فى التسعينات ، وللآراء والنظريات الجديدة التى تبلورت لتفسيرها والتصدى لها ، أن تسيطر على المشهد الأمريكى نصف قرن آخر . . ونقصد مشكلات العزلة الدولية ، ومشكلات التقلص الزراعى والنمو الحضرى ، ومشكلات صيانة الموارد الطبيعية ، ومشكلات الترستات والاحتكارات وخطر قيام حرب طبقية ، ومشكلات التناقضات بين التقدم والفقر ، ومشكلات التوفيق بين الفكر الاجتماعى وتعاليم النشوء والارتقاء .

(١) فلسفة التنوير التى انبثقت فى القرن الثامن عشر ، وقوامها مناقشة وفحص النظريات والقيم التقليدية ، والاتجاه إلى الفردية ، وإبراز فكرة عالمية التقدم البشرى ، وحرية العقل ، والمشاهدة والتجربة فى العلم ــ المترجم .

الديـن والفلسـفة

فى سنة ١٨٥٩ ، نشر تشارلز داروين كتابه « أصل الأنواع » ، فشقت نظرية الارتقاء طريقها فى العالم الغربى بأسره ، وإن تباينت معدلات سرعة الانتشار . ووجدت الفكرة الجديدة على الفور تحبيذاً من العلماء الأمريكيين ــ بل إن آسا جراى سبق ما توصل إليه داروين ــ كما وجـدت قبـولاً لدى الفـلاسفـة . بيد أن وقتاً طويلاً ، ونزاعاً متواصلاً ومريراً ، سبقا قبول علماء اللاهوت داروين فى دائرة رضاهم . على أن أدهش ما فى الأمر هو الاذعـان للنـظرية فى آخـر الأمر ، وليس التصدى لها بالعداء فى أوله . ذلك لأن متضمنات الارتقاء كانت ثورية برغم كل شىء . فهى قد أحلت التطور الطبيعى وبقاء الأصلح محل الخلق الخاص والتوجيه الإلهى . ولم يكن النقد الأعلى ، ولا كانت تعاليم الفلسفة المتعالية [1] قد هيأت العقلية الأمريكية لذلك .

ولقد ظلت الكنيسة البروتستانتية جيلاً من الزمن ممزقة بالمشادة بين القائلين بالعصمة الحرفية للكتاب المقدس ، المتشبثين بما ورد فى التوراة عن الخلق ، والمحدثين الذين كانوا يميلون إلى تفسـير الكتاب المقدس على ضوء العلم . بل أن السلطة الدنيوية دخلت المعمعة هى الأخرى ، إذ حرمت بعض الولايات الجنوبية تدريس الارتقاء فى المدارس . وفى الوقت ذاته ، وُفق المتنورون من علماء اللاهوت ــ من أمثال هنرى وورد بيتشر من بروكلين ، وجيمس فريمان كلارك من بوسطن ــ مع الفلاسفة العلماء كتوماس هكسلى فى انجلترا وجون فيسك فى أمريكا ، إلى التقريب بين الدين والارتقاء . فقد رأوا أن النشوء والارتقاء « طريقة من طرق الله فى عمل الأشياء » لا تجل عن الخلق الخاص على قدرتـه ، وهى أسهـل فهمـاً لدى الانسان العادى . وشيئاً فشيئاً ، أخذت الكنائس البروتستانتية الأكثر تحرراً بالنظرية ، بيد أن الكنيستين المشيخية واللوثرية ظلتا إلى مرحلة من القـرن العشرين متشبثـتين بمعـارضـة التعـاليم الجـديدة ، فى حين أن الكنيسة الكاثوليكية ، المطردة الازدياد عدداً ونفوذاً فى كل عام ، شجبت الحركة « العصرية » بأكملها .

(١) النقد الأعلى : الدراسة الأدبية والتحليلية للتوراة على ضوء النظرة التاريخية دون تحرج من المعتقدات الدينية . والفلسفة المتعالية هى القائلة بأن دراسة عمليات الفكر وليست التجربة هى التى تؤدى إلى كشف الحقيقة ــ المترجم .

وكانت الذرائعية أو البراجماتية [1] كما أصبحت تعرف فى أمريكا ، هى الجواب الفلسفى للنتائج الجديدة المستخلصة بالتفكير العلمى . ولقد غزا هذا الجواب ، الذى توصل إليه فريق من مفكرى نيو انجلاند ــ كان وليم جيمس وجون ديوى أبرزهم ــ معظم قلاع الفلسفة الجامعية (الأكاديمية) وظفر بشعبية لم تحظ بها معظم الفلسفات ، فى وقت وجيز . ولم تكن البراجماتية فلسفة بقدر ما كانت طريقة للتفكير فى الفلسفة . فهى لا تنظر إلى الحقيقة كأمر مطلق ، وإنما هى تراها نسبية . وقد أوجزها وليم جيمس أقدر إيجاز بعبارته المأثورة : « سحقاً للمطلق » . فالحقيقة ، كما رآها البراجماتيون ، ليست ثابتة ولا نهائية ، وإنما هى لا تزال فى طور التكوين . وقد كتب جيمس يقول : « ليست حقيقة أية فكرة صفة جامدة كامنة فيها . إنما الحقيقة تحدث للفكرة . فالفكرة تصبح حقيقية ، والأحداث هى التى تجعلها حقيقية » . وخير محك للحقيقة يُلتمس فى نتائجها ، إذ أن « المحك الأخير لما تعنيه حقيقة ما ، هو التصرف الذى تمليه أو توحى به » ، كما يقول جيمس .

وكان معنى هذا أن تأكيد البراجماتية كان منصباً فى كل مجال على الارتقاء والنمو والتغير . فتقبل البراجماتيون كل متضمنات الارتقاء العضوى ، وخلصوا من هذا إلى أن النظام الاجتماعى كان كالنظام الطبيعى عرضة للتطورات الارتقائية . ومن ثم فإن « سحقاً للمطلق » لا تنطبق على عالم الفلسفة الموضوعية وحدها ، بل تنطبق كذلك على عوالم القانون ، والسياسة ، والاقتصاد ، والفكر الاجتماعى ، والفن ، والجماليات ، بل والأخلاقيات . هذه الطريقة الجديدة فى تأمل الفلسفة ، والنظام الاجتماعى بأسره ، سرعان ما أحدثت ثورة فى الفكر الأمريكى . فقد جلبت معها تحولاً لا سبيل إلى رده عن الاستقراء إلى الاستدلال ، عن البداهة إلى التجربة ، عن المبدأ إلى التطبيق العملى ، عن الشكل إلى الوظيفة أو العمل .

الفكر الاجتماعى

من الممكن أن نرى هذه الثورة فى كل قسم من أقسام الفكر الاجتماعى . فقد اعتنق

(١) الكلمتان ترمزان لمعنى واحد ، هو فلسفة الحكم على قيم الأفكار الفلسفية بالنتائج العلمية والواقعية ــ المترجم .

التربويون ، بقيادة جون ديوى ، ما أصبح يعرف بـ « التعليم التقدمى » ، الذى أدى إلى التحول عن فكرة اعتبار الطفل مادة للتلقين إلى اعتباره موضوعاً تدرس ردود فعله لما يتلقاه ، عن التعلم بالاستظهار إلى التعلم بالممارسة . . أى بالفعل . ولم يعد المحامون ورجال القانون ــ من أمثال لويس برانديس والقاضى هولمز ــ ينظرون إلى القانون على أنه « كائن كلى العلم يستوى فى السماء » ، فنبذوا المطلقات القانونية ، ونظروا فى تشكك إلى جور السالفين ، واستخلصوا أن القانون من وضع المجتمع ، وأن غايته هى خدمة حاجات المجتمع . وهجر علماء السياسة ، مثل وودرو ويلسون وولتر ليبمان المصطلحات التجريدية كالسيادة أو الدولة أو القانون الطبيعى ، وولوا اهتمامهم إلى الأحزاب والحكومة والرأى العام بدلاً منها . وخلصوا مع ويلسون إلى أن :

> الحكومة ليست جهازاً ، بل هى كائن حى ، فهى لا تدخل تحت نظرية الكون ، وإنما تحت نظرية الحياة العضوية . ويمكن تفسيرها على ضوء تعاليم داروين لا تعاليم نيوتن . . ليست الحكومة كتلة من القوى العمياء ، وإنما هى هيئة من البشر . فيجب أن تكون الدساتير السياسية الحية داروينية فى مبناها وفى تطبيقها .

كذلك نبذ علماء الاقتصاد القوانين التقليدية التى وضعتها الأجيال الماضية ــ مثل قانون العرض والطلب ــ وبقيادة متفقهين مثل تورستاين فيبلين وجون آر . كومنز ، درسوا بدلاً منها عمل النظم الاقتصادية وتطبيقاتها وسوء تطبيقاتها . كما أن علماء الاجتماع ، وكان أبرزهم بلا مراء هو العالم والموظف الحكومى ليستر وارد ، انصرفوا عن أوسع التعاليم انتشاراً : « الداروينية الاجتماعية » . . وهى تعاليم كان يبدو أنها تقضى بأن الانسان مخلوق لا حول له ولا قوة من نتاج بيئته ، وأخذوا يعلنون بدلاً منها أن الإنسان مسيطر على البيئة ، وبوسعه أن يستخدم الوسائل السياسية والقانونية لتغييرها . وفى هذا قال وارد :

> يقال لنا إن علينا أن ندع الأمور وشأنها ، وأن ندع الطبيعة تجرى فى مجراها . ولكن ، أليست الحضارة ذاتها ، بكل ما حققته ، نتيجة لعدم ترك الانسان الأمور على أعنتها ، وعدم ترك الطبيعة تجرى فى مجراها ؟ . . إن كل أداة ، أو عدة ، وكل آلة ميكانيكية . .

هى انتصار للعقل على القوى المادية للطبيعة فى منافسة مستمرة لغير هدف بينه وبينها . إن كل النظم البشرية ــ من دين وحكومة وقانون وزواج وعرف ــ مع ما لا حصر له من أساليب وأشكال تنظيم الحياة الصناعية والتجارية ، ليست سوى طرائق متعددة للتصدى لمبدأ المنافسة والتغلب عليه .

الأدب

كان إيمرسون قد أطلق بياناً باستقلال فكرى منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، بيد أن ظهور أدب أمريكى ذى طابع متميز استغرق وقتاً . ولنا أن نرجع ، بشىء من الاطمئنان ، ظهور أدب أمريكى إلى ديوان هويتمان « أوراق العشب » فى سنة ١٨٥٥ ، وأن نرجعه بمزيد من الاطمئنان إلى كتاب مارك توين « سذج فى الخارج » فى سنة ١٨٦٩ . فقد كان مارك توين أول من استغل إمكانيات اللغة العامية الأمريكية ، وفهم شخصية الرجل الأمريكى العادى ــ والصبى ــ فى الشمال والجنوب والغرب ، وعبر عن روح الفكاهة الأمريكية الحقة . كان أمريكياً حقاً ودون ما نزاع . وفى ذلك كتب وليم دين هاولز : « إيمرسون ، لونجفيلو ، لويل ، هولمز . . لقد عرفتهم جميعاً ، وعرفت سائر الباقين من الحكماء ، والشعراء ، وذوى البصيرة ، والنقاد ، وأهل الفكاهة ، بيد أن توين كان وحيداً فى نوعه ، لا قرين له . . كان لينكولن أدبنا » . وكان قسط كبير من مؤلفاته من قبيل السيرة الذاتية . فكتابه « بإيجاز وغير تنميق » يصف تجاربه كسكرتير للحكومة الاقليمية فى نيفادا فى سنوات الحرب . وكان « الحياة على المسيسبى » وصفاً لتجاربه كمرشد أو دليل يتعرف على النهر العظيم والبلاد التى يجتازها ، والمجتمع الذى كان يعيش على السفن التى تمخر عباب النهر أو على ضفافه . وفى عام ١٨٨٤ ، صدر أعظم مؤلفاته « هكلبيرى فين » ، وقد قال إيرنست هيمنجواى إن كل الأدب الحديث انبعث عن « هكلبيرى فين » ، وهذا القول أقرب إلى الصدق من معظم ما قيل ، فقد كان هذا الكتاب أول رواية كبيرة ــ اللهم إلا إذا جاز أن نستثنى موبى ديك ــ ذات طابع أمريكى لا سبيل إلى إغفاله ، بحيث إنه ما كانت لتكتب فى أى مكان آخر عدا أمريكا .

و« وادى الديمقراطية » الذى أنجب مارك توين ، أنجب كذلك صديقه وزميله وليم دين هاولز ، أكثر الأدباء الأمريكيين طراً فى تعدد نواحى الانتاج ، وفى تمثيل أمريكا . ففى حوالى أربعين رواية ، وثلاثين تمثيلية ، وأكثر من عشرة كتب فى النقد والسيرة ، ومئات المقالات والصور القلمية فى كبرى الصحف ، رسم هاولز أشمل وأدق صورة لمجتمع الطبقة الوسطى الأمريكية يمكن أن توجد فى أدبنا كله . ولعل أحداً من الروائيين المحدثين ــ فيما عدا بلزاك ــ لم يصف مجتمعه وصفاً مفصلاً صادقاً بالدرجة التى وصف بها مجتمعه هذا الكاتب الرقيق ، الذى نشأ فى أوهايو ، ثم انتقل إلى بوسطن ، ثم إلى نيويورك . فلقد رسم صوراً أدبية لريف نيو إنجلاند ، وأحسن اللوحات لرجل الأعمال العصامى ، وللحياة الجامحة فى منطقة حدود العمران فى أوهايو ، وللحياة والعمل المتسمين بالخشونة وعدم الاستقرار فى مدينة نيويورك ، ولخصائص ومميزات ضواحى المدينة ، ولتصادم الثقافات فى المصايف والمدن السياحية الأوربية . ولقد كتب إليه هنرى جيمس قائلاً : « كان مقدراً لعملك ، كلمة إثر كلمة وكتاباً بعد كتاب ، أن يصبح أعلى درجات التسجيل لكل ديمقراطية ضوئنا وظلالنا ، وعطائنا وأخذنا » . ولم يكن هاولز واحداً من أكثر روائيينا الأمريكيين تمثيلاً لحياتنا فحسب ، بل إنه كان الناقد الأدبى الأمريكى الأول كذلك ، وفى الوقت ذاته . وقد رأس تحرير مجلة « أتلانتيك » الشهرية الأدبية العظيمة ، وقدم إبسن وزولا وتورجنيف للقراء الأمريكيين ، وأسبغ رعايته على الكتاب الناشئين ، مثل ستيفن كرين وفرانك نوريس .

وكان ثالث الروائيين الكبار الذين ظهروا فى السبعينات من القرن التاسع عشر واستكملوا نضجهم فى تلك السنوات الانتقالية : هنرى جيمس ، شقيق الفيلسوف وليم جيمس . وإذا كان مارك توين قد كتب عن حياة النهر العظيم ، ومعسكرات التعدين ، والمزارع المتداعية المنهوكة التربة ، وإذا كان هاولز قد كتب عن طبقة أمريكا الوسطى ، فإن هنرى جيمس اختار الروابط الثقافية الرفيعة المتبادلة بين المجتمعين الأمريكى والأوربى موضوعاً لكتاباته . فإن خير رواياته ــ « صورة سيدة » و« الأمريكى » و« السفراء » و« جناحا الحمامة » ــ استطلاعات لموضوعات المعايير والعادات والأخلاق المتضاربة فى المجتمعين ، مصوغة فى أكثر الأحيان فى نسيج سذاجة الدنيا الجديدة وفساد الدنيا القديمة . فكان جيمس أكمل الروائيين الأمريكيين جميعاً ، من هوثورن حتى فوكنر ، اهتماماً بالمشكلات الخلقية . ونظراً لأنه كان يكتب عن

شخصيات وموضوعات غريبة على الأمريكى العادى ، وبأسلوب معقد رفيع ، فإنه لم يحرز شعبية كبيرة خلال حياته ، ولكنه منذ موته فى سنة ١٩١٦ ، تعرض لإعادة اكتشاف دقيقة مفصلة ، وأصبح معترفاً به واحداً من أعظم الأدباء الأمريكيين .

ولقد بلغ مارك توين ، وهاولز ، وجيمس ، نضوجهم قبل أن يصبح الأثر الكامل للفلسفة الداروينية محسوساً . فكان الجيل التالى هو الذى استجاب فى اختلاجات تشنجية تقريباً لتلك الفلسفة ، أو بالأحرى لتيارى الطبيعيين (الواقعيين) والفرويديين الأدبيين الأوربيين ، اللذين يدينان بالكثير إلى تلك الفلسفة . وكان من الممكن الاطلاع على هذه الاستجابة فى الروايات الواقعية لجاك لندن ، وفرانك نوريس ، وستيفن كرين ، وفى قصص الثورة الزراعية لهاملين جارلاند ، وفى الأشعار والقصص الفرويدية من قبيل « مختارات نهر سبون » الأدبية لإدجار لى ماسترز ، و« واينسبيرج ، أوهايو » ، رواية شيروود أندرسون التى ذاعت شهرتها فى فترة من الزمن . ولعل درايزر كان أكثر المستجيبين لهذين التيارين الفكريين الجديدين ولغيرهما ــ مثل الماركسية ــ إرهافاً فى الحس . ففى سلسلة من الروايات العظيمة المتتابعة فى غير انتظام ــ « الأخت كارى » ، و« الجبار » ، و« المالى » و« المأساة الأمريكية » ــ نسج درايزر نسيجاً من خيوط متضافرة من موضوعات البقاء للأصلح ، وعلم النفس الفرويدى ، والحياة الصاخبة فى المدن الكبيرة ، والصراعات الضارية لأقطاب السرقة من رجال الأعمال والمال .

ولقد ظلت قصة الشعر الأمريكى تروى لوقت طويل ، وإلى حد كبير ، على ضوء والت ويتمان الذى أخذ يزداد مقدرة باطراد أثناء الحرب وفى السنوات التالية للحرب . ولكن ويتمان ظل راسخاً فى مثالية إيمرسون ، حتى فى قصائده التى أعقبت تلك الحقبة ، مثل « على شاطىء أونتاريو الأزرق » ، و« أنت أيتها الأم وصغارك المتساوون » ، و« الرحلة إلى الهند » . أما الشعراء الجدد ، الذين بلغوا النضوج فى التسعينات من القرن التاسع عشر ، وفى أوائل القرن الجديد ، فقد عكسوا بمثل صدق الروائيين ، أثر الداروينية والفرويدية . وكان أبرزهم إى. ايه . روبنس ، إذ كان على غرار هاردى وفرانسيس طومسون فى انجلترا ، يشعر بالمصير المأسوى للإنسان وبواجب التصدى له بصلابة وصمود ، وانتزاع شىء من الانتصار الروحى من الهزيمة المادية . ولقد عرض هذا الرأى عن الحياة فى سلسلة من القصائد القصيرة وضعها فى بلدة تيلبيرى الخيالية ولكنها جد حقيقية ، ثم فى ثلاثية الملك آرثر العظيمة ــ « ميرلين »

و« لانسيلوت » و« تريسترام » ـ التى يمكن أن تقاس بأية أعمال شعرية أخرى فى هذا الموضوع . أما المؤلف المسرحى والشاعر وليم فوجان مودى ـ الذى كانت قصائده الشعبية الغنائية « برابرة جلوسستر» وقصائده فى الاحتجاج على حرب الفلبيين ، من أكثر إنتاجه اقتراناً باسمه ـ فقد أخذ عن فلسفة روبنس ، وكذلك الشعراء الناشئون الذين بلغوا نضوجهم فى العقد الثانى من القرن العشرين .

تلك كانت النهضة الحقيقية للشعر . . كانت ازدهاراً لم يعرف له مثيل منذ عهد نيو إنجلاند الذهبى . وقد كتب جون بتلر ييتس : « إن القيثارات ترسل أنغامها فى أمريكا بأسرها » . وكان هذا صحيحاً ، ولكنه كان فى الغرب الأوسط أصح . فهناك كان كارل ساندبيرج . . عملاق شاب أمريكى من أصل سويدى ، اكتشف شاعرية المدينة ، وأرصفة الشحن ، والمصنع ، والمنجم ، واستجاب لها بديوان على نمط دووابن ويتمان : « نعم ، الشعب » . وهناك إدجار لى ماسترز الذى كان ديوانه « نهر سبون » مقطوعات إغريقية فرويدية ، وفاشيل ليندساى الشاعر الغنائى الذى كان يكتب القصائد للغناء ، والذى أضاف بعداً جديداً إلى شعرنا بدواوينه « بلبل من الصين » و« الجنرال وليم بوت يلج الجنة » و« الكونغو » . أما تى . إس . إيليوت الذى ولد فى ميسورى ، وإيزرا باوند الذى ولد فى إيداهو ، فقد اكتسبا صيتاً عالمياً ، فى اغترابهما عن الوطن . وهناك الشعراء الغنائيون مثل إدنا سامنت فنسنت ميلاى ، وإيلينور وايلى الأنيقة المرهفة ، التى كتبت ما يمكن اعتباره أروع أغانى الحب فى الأدب الأمريكى . وبظهور « إرادة فتى » فى سنة ١٩١٣ ، تجلى أبرز شعراء الجيل الجديد : روبرت فروست ، وفروست يجل على كل تعريف أو وصف ، إذ كان من أنصار القديم والحديث ، كان مقلداً ومجدداً . فلم يكن ينتمى لأية مدرسة ، ولا اشترك فى أية حركة ، وإنما شق طريقه لنفسه فى هدوء ، مبدعاً أسلوباً خادعاً فى بساطته ، وهو ينمو عاماً بعد عام فى مقدرته الخلقية وعمقه الفلسفى . ولم يلق شاعر أمريكى منذ لونجفيلو ما لقيه فروست من إقبال ، ومن حب عميق .

الفنـــون

كتب النـاقد **لويس ممفورد** إنه لم تكد تحين الستينات ، حتى كانت فوضى العمارة قد

بلغت حداً نجم عن عدم النظام عنده وحشية ودمامة ماديتان لاتفتآن تهاجمان المرء وتصدمان شعوره أينما ولى عينيه . ولقد استمر فن العمارة بدون أسس ، ومشتقاً من مصادر غريبة إلى ما قبل القرن العشرين . فكان النمط من أنماط الدنيا القديمة ــ أو نمط مقتبس منه ــ يعقب نمطاً فى فوضى تبعث على الحيرة . فنشر جيفرسون ولاتروب فن النهضة الاغريقية ، الذى أفسح مكانه ، فى الأربعينات والخمسينات ــ لطراز الفيلا الإيطالية ، ثم لأشكال متباينة من العمارة القوطية . وأدخل هنرى إتش . ريتشاردسن الطراز الرومانى ، الذى كان غير ملائم للوسط الأمريكى بدرجة مضحكة . بيد أنه فى كنيسة الثالوث (ترينيتى) فى بوسطن ، وفى مستودع مارشال فيلد قدم مثالين توفر لهما الامتياز البارز والتكامل . ولقد عاد ريتشارد موريس هنت من باريس وهو مشغوف بفن النهضة الفرنسية ، وهو فن العمارة الذى لقى حظوة لدى الأغنياء المحدثين ، فبنى قصوراً فخمة على نسق القصور الريفية الإقطاعية فى فرنسا أو بيوت المدن الشبيهة بقصور علية القوم فى باريس وبوردو . وفى سنة ١٨٩٢ ، اختار هنت وأعوانه النمط الكلاسيكى للعمارة فى تصميم معرض كولمبيا فى شيكاغو ، وحشد أقدر رجال الفن فى البلاد ليشاركوا فى بعث الفن الكلاسيكى ، وهم : لويس سوليفان ، وستانفورد هوايت ، ودانييل بيرنهام ، ولفن المناظر الطبيعية فردريك لو أولمستد الذى كان قد صمم متنزه سنترال بارك فى مدينة نيويورك . وكان المعرض أجمل معارض العصر الحديث ، ولكن جماله كاد أن يكون مقتبساً عن آخره . وفى هذا قال أحد المعماريين لفرانك لويد رايت الشاب : « لقد رأى الشعب الأمريكى الفنون الكلاسيكية على نطاق كبير لأول مرة ، وأكاد أرى أن أمريكا بأسرها ستبنى على نسق المعرض ، على الطراز الكلاسيكى الأشم المهيب » . وسرعان ما تحقق هذا . فقد تبنى واشنطن العمارة الكلاسيكية كطراز رسمى للبنايات العامة ، وانتشرت الكلاسيكية فى البلاد إلى الكليات والمكتبات ومحطات السكك الحديدية والمصارف .

وبدأ ظهور فن أمريكى متميز عن سواه فى العمارة ، على يدى فرانك لويد رايت الذى كان قد آلى على نفسه من قبل الدعوة إلى أن يكون الشكل وفقاً للوظيفة ، والذى كان يرى أن البنايات ليست وحدات معمارية منفصلة ، وإنما هى أجزاء من مجموع عضوى يضم الأرض ، والوسط ، والمجتمع . ولقد كانت الدور فى نيو إنجلاند ــ فى عهد الاستعمار ــ وفى بعض المزارع الجنوبية وظائفية أو عملية بشكل واقعى جداً .

بيد أن رايت كان أول مهندس للعمارة جعل الوظيفة أو الأدائية المبدأ الغالب بالنسبة للبنايات العامة والخاصة . وكان قد أنشأ فى سنة ١٩٠٦ معبد الوحدة فى أوك بارك ، أول الكنائس التى قامت بدور كبير فى قلب عمارة البنايات الكنسية فى أمريكا . ولقد وجه عبقريته من ذلك الحين إلى منشآت واسعة التباين والتعدد ، مثل بيوت مناطق البرارى ، والمدارس ، والبنايات المكتبية ، والمصانع ، ومنها مبنى لاركين فى بفالو ، ومصانع جونسون للشمع فى راسين بولاية ويسكونسين . وكما كان رايت أكثر المعماريين الأمريكيين جميعاً أصالة وابتكاراً ، فإنه كان أكثرهم فلسفة ، وأعمقهم وأثبتهم اهتماماً بالمعانى الاجتماعية التى تتضمنها مهنته .

كذلك ظل فن الرسم الأمريكى معتمداً لأمد طويل على الإلهامات الفرنسية الايطالية ، غير أن طائفة من الرسامين ظهرت تباعاً فى سنوات ما بعد الحرب ، بطراز أمريكى صميم . وقد أنجبت سنوات الحرب الأهلية أول هؤلاء الرسامين وأطولهم وأعظمهم شهرة ، وهو وينسلو هومز وكانت مجلة « هاربرز » الأسبوعية قد أوفدت هومر إلى الجبهة ليرسم لوحات تخطيطية لحياة المعسكرات وللمعارك ، فأدى المهمة ببراعة لا تزال تستهوى خيالنا . ولقد تحول بعد الحرب إلى رسم اللوحات المستمدة من الحياة اليومية ، وقد رفع هذا الفن إلى أعلى مستوياته فى لوحات مثل « ناقوس الصباح » ، و« دع السوط يفرقع » و« الكرنفال » . وكانت الأعوام الوسطى والأخيرة أعظم سنى عمره إبداعاً ، كما كان شأن ويتمان . وفى الثمانينات استقر به المقام على الساحل فى مين ، وهناك راح يرسم البحر والقفار ، وقد تجلت فى لوحات : « التيار تحت السطح » ، و« ثمانية نواقيس » و« تيار الخليج » قوة حركة وإصالة لم يعرفها فن الرسم الأمريكى قبل ذلك .

وكان معاصره العظيم توماس إيكينز مفتوناً بالشخصيات افتتان هومر بالطبيعة كما كان متحرر الفكر ديمقراطياً على غرار ويتمان الذى رسم لوحة له . ولم يكن يجد شيئاً غريباً على فرشاته ، مثله فى ذلك مثل الرسامين الهولنديين فى القرن السابع عشر ، فرسم الشباب يسبحون أو يجدفون ، والجراحين أثناء إجراء عملياتهم ، والأساتذة وهم يحاضرون ، والمغنين على منصات قاعات الموسيقى ، والعلماء فى معاملهم ، والملاكمين المحترفين فى حلبة الملاكمة . وقد قال والت ويتمان عنه : « ما عرفت قط فناناً يقوى على أن يقاوم إغراء ما يرى أنه كان يبغى ، بدلاً من أى

يـرى ما هـو كائـن ، سـوى واحـد ، هـو تـوم إيكيـنز » .

ومع نهاية القرن ظهرت مدرسة من الواقعيين الذين كانوا فى الفن أنداداً لستيفن كرين ودرايزر فى الأدب ، مثـل روبـرت هنـرى ، وجون سلوان ، وجورج لوكس ، وجورج بيلوز . وكان أغلبهم من تلاميذ إيكينز ، فكانوا يرسمون الحياة حيث وجدوها : الأطفال يلعبون تحت جسور الخطوط الحديدية العالية ، والفتيات يجففن شعورهن على سطوح البنايات السكنية ، ومرتادو حانة ماكسورلى ، ومعَدِّية العبور إلى جزيرة ستاتن . وقــد عرفـوا على سبيل السخـرية ــ ثم فى إعـزاز ، فيما بعـد ــ باسم مدرسـة وعـاء الرماد [1] ، وكانوا الأنداد الأمريكيين لتولوز لوترك وإدفار مونش .

ولقد كان أبرز الرسامين الأمريكيين امتيازاً يؤثرون الاقامة والانتاج خارج البلاد . وكان جيمس ماكينيل هويسلر السباق إلى ذلك ، حتى قبل نشوب الحرب الأهلية ، فقد استقر فى السبعينات فى لندن ، حيث رسم لوحات « المشاهد الليلية » و« السيمفونيات » التى جلبت عليه الاستهجـان فى البـداية ، ثم الشهرة العالمية . ومن المغتربين جون سينجـر سارجنت ، أبهر الفنيين ، وأكثر رسامى اللوحات الشخصية أناقة فى جيله ، فكـان الـذى يُرسم بريشة سارجنت صنواً للذى يحظى بوسام ! ومن المغتربات مارى كاسـات المـوسرة الفيلادلفية . وكـانت الوحيدة بين أهل الفن الأمريكيين التى قبلها الانـطباعيون واحدة منهم . وكانت تلميذة لديجا ، وصديقة وداعية لمانيه وغيره ، وقد اقـترن بذكـرهـا رسـوم الأطفـال الفخمـة الأنيقـة ، ورعايتها الناجمة عن سعة خيال للانطباعيين ، فى وقت كانوا لا يلقون فيه اكتراثاً بوجه عام .

التعلـيم

جدير بنا أن نتذكر أن الآباء المؤسسين كانوا يسلمون بأنه لا سبيل إلى نجاح التجربة الـديمقـراطية بدون ناخبـين مستنيرين . ومن ثم فإن التعليم أصبح من البداية نوعاً

(١) Ash-Carn : المعنى الأصلى هو الوعاء المعدنى للرماد أو النفايات ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت مصطلحاً يطلق على الفنان الواقعى الذى يعنى بنقل صور الحياة اليومية ــ المترجم .

من العقيدة الدينية للأمريكيين ، وله أعياد كالتى تُراعى فى الديانة . . وقد ظل كذلك حتى يومنا هذا . ولقد عرقلت الحرب الأهلية التعليم فى الجنوب ، بيد أنها أذكت نشاطه بدرجة كبيرة فى أرجاء أخرى من البلاد .

وقد جاء التنشيط فى مجال التعليم العالى بوجه خاص : أولاً ، خصص قانون موريل للأراضى الممنوحة ، فى سنة ١٨٦٢ ، لكل عضو فى الكونجرس ٣٠٠٠٠ دونم من الأرض ، لتعزيز الفنون الزراعية والصناعية ، وقد خُصصت بموجب مواده المستنيرة منح من الأرض للكليات فى كل ولاية من ولايات الاتحاد . وتدين المعاهد العتيدة ، مثل كورنيل ، ومعهد مساشوستس للتكنولوجيا ، وبيرديو ، وجامعة ولاية متشيجان ، بالمؤازرة فى باكورة قيامها لهذا القانون . وثانياً ، شهدت سنوات إعادة التنظيم نشأة أول جامعات بالمعنى الحقيقى فى أمريكا : هارفارد، التى حولها تشارلز دبليو . إيليوت من كلية إلى جامعة ، فى سنة ١٨٦٩ ، وجامعة كورنيل التى أنشأها إيزرا كورنيل وتولى قيادها رجل العلم والحكم المبرز أندرو دى . هوايت ، فى سنة ١٨٦٨ ، وجامعة جونس هوبكينس وهى منشأة جديدة تماماً ، خصصت للدراسات العليا وللبحوث المهنية ، وقد افتتحت فى بلتيمور ، فى سنة ١٨٧٦ . وقد جاءت فى إثرها بعد ذلك : جامعة كلارك فى مساشوستس ، وجامعة ليلاند ستانفورد فى كاليفورنيا النائية ، وجامعة شيكاغو التى أسسها جون دى . روكفلر وأغدق عليها الهبات فى سنة ١٨٩٢ .

ولقد طرأ على التعليم العالى ثلاثة تطورات ذات أهمية باقية ، فى نصف القرن الذى أعقب أبوماتوكس . أولها النمو السريع للتعليم التكنولوجى والمهنى استجابة للمطالب العاجلة لمجتمع صناعى وحضرى معقد . . فأقيمت مدارس جديدة للتكنولوجيا والهندسة والعمارة والقانون والطب . وثانيها توفير دراسات عليا كتلك التى كانت موجودة من عهد طويل فى فرنسا وألمانيا ، وسرعان ما تقدمت هارفارد بعد تحويلها إلى جامعة ، وجامعة جونس هوبكينس الجديدة سواهما فى هذا الميدان ، بيد أن جامعات الولايات لم تتخلف عنهما طويلاً . وثالثها توفير التعليم للإناث بدرجة أكثر كفاية ، وإنشاء كليات نسوية جديدة مثل فاسار وويليسلى وسميث ، وانتهاج التعليم المشترك فى الجامعات الجديدة التى أنشأتها الولايات خارج الجنوب ، وفى كثير من المعاهد الخاصة . وفى الوقت ذاته ، تكفلت معاهد دراسية حديثة النشأة ، مثل جامعة هوارد فى العاصمة القومية ، وجامعة فيسك فى ناشفيل ، ومعهد هامبتون فى فيرجينيا ، بتوفير التعليم العالى والمهنى للزنوج .

ومما يسر هذه التطورات ، ظهور فريق من رجال الحكم التربويين فى ذلك الجيل ، كانوا أبرز من ظهروا فى تاريخنا : أندرو ديكسون هوايت ، من كورنيل ــ الذى توصل إلى فكرة قيام جامعة يستطيع فيها أى طالب للعلم أن يدرس أى موضوع ، وتشارلز دبليو . إيليوت ، الذى حول هارفارد من كلية إلى جامعة ، وأدخل النظام الاختيارى ، ورفع المستويات فى جميع المدارس المهنية ، ودانييل كويت جيلمان ، الذى خطط ووجه غايات جامعة جونس هوبكينس الجديدة ، وجيمس بى . آنجيل الذى جعل جامعة متشيجان نموذجاً لجامعات الولايات ، وتشارلز فان هايز المسئول عن « فكرة ويسكونسين » عن تكامل الجامعة مع البلد الذى تقوم فيه ، ووليم رينى هاربر الذى جعل من جامعة شيكاغو الجديدة أحد المراكز المتزعمة للتعليم فى العالم ــ فى فترة وجيزة ــ وبوكر تى . واشنطن الزعيم الزنجى العظيم ، الذى أنشأ معهد تسكجى فى سنة ١٨٨٢ .

ولقد كان التعليم العام فى ركود ، بالرغم من الجهد الرائد الذى بذله هوريس مان وهنرى بارنارد فى الجيل السابق على الحرب الأهلية . فإلى سنة ١٨٧٠ ، كان عدد المسجلين رسمياً فى المدارس العامة ٧ ملايين ، فى حين أن متوسط عدد المواظبين على الدراسة لم يتجاوز ٤ ملايين ، ومتوسط عدد أيام الدراسة ٧٨ ، ولم يكن فى المدارس الثانوية سوى ٨٠ ٠٠٠ طالب فحسب . ولم يتحسن الموقف تحسناً ملموساً إلا مع بداية القرن العشرين . فلم يحن عام ١٩٢٠ ، حتى كان فى المدارس الأولية حوالى ٢١ مليون صبى وصبية ، وفى المدارس الثانوية ما يتجاوز مليونين .

وكان أهم تطور ، هو ما لقيته هذه الاصلاحات ، التى لم تلبث أن عرفت باسم التعليم التقدمى ــ وإن كان فى هذا بعض التجاوز ــ من تقبل عام . وتدين هذه الفلسفة الجديدة فى التعليم بشىء من الفضل إلى تعاليم التربويين الألمان فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، كما تدين بقدر أكبر للفلسفة وعلم النفس الجديدين اللذين عزياً إلى وليم جيمس . وكان الفيلسوف البراجماتى جون ديوى هو الذى صاغ المجموعة الجديدة من الأفكار فى واحد من أشهر المؤلفات التربوية قاطبة ، هو « المدرسة والمجتمع » ١٨٩٩ ، والذى أوفد مئات من أشد تلاميذه تحمساً لنشر مذهبه التعليمى الجديد ، أثناء توليه منصبه المهنى فى جامعة شيكاغو ، ثم جامعة كولمبيا . ولقد حول التعليم التقدمى الاهتمام عن التعليم إلى التعلم ، وعن المادة النظرية إلى

التدريب للطفل ، وعن التعليم بوصفه « إعداداً للحياة » إلى التعليم كجزء من الحياة ذاتها لا غنى عنه . وإن هو إلا جيل واحد تقريباً ، حتى كان التعليم التقدمى قد غزا البلاد ، ولقد تضاءلت سمعته بعض الشيء ، فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . غير أن هذا كان راجعاً ، فى المقام الأول ، إلى أن تعليماته أصبحت تقبل على أنها الوضع البدهى للموضوع ــ وهو ما يحدث لكثير من الفلسفات الناجحة .

الفصـــل ٢١

وودرو ويلسون والحرب العالمية

وودرو ويلسون

كان وودرو ويلسون ، فى كثير من الاعتبارات ، أبرز شخصية فى السياسة الأمريكية بعد جيفرسون . كان رجل علم وفكر ، لم يتعوّد جلبة الحياة العامة وضجيجها ، ولكنه مع ذلك كان بارع الذكاء ، واقعياً ، واسع الحيلة . ومع أنه كان حالماً ومثالياً ، فقد كان فى الوقت ذاته أكثر الزعماء السياسيين بعد لينكولن واقعية ودهاء . كان من المتمسكين بالأخلاق فى السياسة والشؤون الدولية ، وقد بُعِثَت فيه روح أسلافه من أصحاب العهد [1] . فاجتمعت فيه حفاوة مجاملة عتيقة الطراز مع حب للنزال شديد الأوار ، وولاء حار للمبدأ مع ضراوة عنيدة فى التمسك به . فلم تتسم خطبه بشىء من اللطف الأليف الذى كان فى خطب بريان ، ولا العنف الصريح الذى خالط خطب

(١) جماعات ظهرت فى فترات من تاريخ اسكتلندا ، كان أفرادها يتعاهدون على التساند والتكاليف للدفاع عن مبدأ من المبادىء ، وأشهرهم جماعة « الميثاق القومى » ــ سنة ١٦٣٨ ــ للحفاظ على نقاء العقيدة المشيخية ومقاومة البدع المستحدثة ــ المترجم .

روزفلت ، وإنما اتسمت ببلاغة رفيعة ، وجمالاً شاعرياً لا نظير لهما منذ لينكولن . وكان دارساً للعلوم السياسية ، وقد وضع عدة كتب فى الحكومة تعتبر حجة ، كما كانت له آراء خاصة تامة النضوج فى طبيعة منصب الرئاسة ، والنظام الحزبى ، ومكانة الولايات المتحدة بين دول العالم ، كما كان مستعداً لتنفيذ هذه الآراء عملياً . ولقد وصفه الوزير لين بأنه « نظيف ، قوى السيطرة ، رفيع الفكر ، هادىء الجنان » ، وكان بجانب ذلك شرساً ، لا يلين فى المسائل الفكرية ، شديد الاستياء والتصدى إذا صادف معارضة . وكان متجرداً من الطابع الشخصى فى علاقاته فكانت جاذبيته للناس أشبه بجاذبية المبدأ المجرد ، ولم يسمح قط للعاطفة الشخصية بالتدخل فى سياسته . ولا صفح يوماً عن صديق عجز عن الارتقاء إلى معاييره السامية .

ولقد قضى ويلسون الشطر الأكبر من عمره فى الأروقة الأكاديمية ، كأستاذ للسياسة ورئيس لجامعة برينستون . وفى سنة ١٩١٠ ، أبرزه كبار المسيطرين على الحزب الديمقراطى فى نيوجيرسى ، ليكون « نافذة عرض ناطق » لهم ، فإذا به يستولى على « الحانوت » السياسى بأكمله . ولم ينقض عامان حتى كان قد طرد المسيطرين من المعابد السياسية ، وحول نيوجيرسى من ساحة ثانوية عفنة للسياسة الأمريكية ، إلى ولاية مثالية ، وصقل فى هذه العملية كثيراً من الأساليب التى قدّر له فيها بعد أن يستخدمها ببراعة : الإقدام الجرىء ، والإخلاص الصادق الذى يأسر المشاعر ، والمثالية البارزة ، والإصرار على مركزه كزعيم حزبى ، ومخاطبة الشعب نفسه متجاوزاً السياسيين ، واستراتيجية الهجوم الخاطف ، المتواصل . وكانت منجزاته اللامعة فى نيوجيرسى ، هى التى جعلته شخصية قومية ، واجتلبت له تأييد رجال من أمثال بريان وأتاحت له الترشيح لمنصب رئاسة الجمهورية . وكان صدقه الشفّاف ، وبلاغته التى لا تبارى فى الحملة الانتخابية ، هما اللذين مكناه من الانتصار على روزفلت .

وكان الخطاب الذى افتتح به عهده تحدياً ووعداً ، فى آن واحد ، وقد قال فيه : « ما من أحد يخطىء الغاية التى من أجلها تسعى الأمة اليوم إلى استعمال الحزب الديمقراطى . إنها تبغى استعماله لأداء تغيير فى خططها ووجهة نظرها » . وأعقب ذلك برنامج للاصلاح البنّاء لتحقيق « الحرية الجديدة » ، برنامج جسور وشامل فى آن واحد . فقال : « لقد فصّلنا الأمور التى ينبغى تغييرها » ، وذكر منها تعريفة جمركية تجعل الحكومة أداة سهلة فى أيدى ذوى المصالح الخاصة ، ونظاماً مصرفياً ونقدياً مهيئاً

أكمل تهيؤ « لتركيز النقود السائلة وتقييد القروض » ، ونظاماً صناعياً يقيّد الحريات ويحد من فرص العمالة ، واقتصاداً زراعياً عديم الكفاءة وغير معتنى به ، واستغلال الموارد الطبيعية للكسب الخاص . وكان على الحكومة ، من الناحية الايجابية أن ، « تكون فى خدمة الانسانية » ، وتصون صحة وخير النساء والأطفال والمستضعفين .

وقدر لهذه الاصلاحات أن تتحقق بحذافيرها ، وبكفاءة ، بيد أن عملية الاصلاح لم تكن « مجرد عملية هادئة قائمة على العلم وحده » ، وإنما :

> سرت فى الأمة هزة عميقة . . هزها شعور عاطفى جليل ، هزهاً إدراك الخطأ ، إدراك المثل العليا المضيَّعة ، إدراك حكومة تُعَاب أكثر مما ينبغى ، وتُتَّخَذ أداة للشر . إن المشاعر التى نواجه بها هذا العصر الجديد ، عصر الصواب والفرصة تهب على أوتار قلوبنا كأنها هواء منبعث من وجود الرب ذاته ، حيث يربط الوفاق العدالة بالرحمة ، وحيث القاضى والأخ واحد . إننا لندرك أن واجبنا ليس مجرد مهمة تتعلق بالسياسة ، وإنما هى تسبر أعمق أغوارنا . . .

« الحرية الجديدة » تنشط للعمل

تلك كانت مثلاً علياً رفيعة ، صيغت ببلاغة ، أفكان فى طوق ذلك العالم المتفقه ، الذى ارتقى الرئاسة بما يشبه المعجزة ، أن يترجمها إلى قانون ؟ إنه سرعان ما أبدى أنه كان يعتزم العمل . فاستدعى الكونجرس إلى دورة خاصة ، حتى إذا اجتمع ، أحيا ويلسون تقليداً كاد أن يكون منسياً ، إذ خاطبه شخصياً ، فقال : « إن الرسوم الجمركية يجب أن تعدَّل . يجب أن نلغى كل ما يوحى ولو بشبهة الامتياز » . وكان الأمر خطيراً . فما تعرض نظام الحماية الجمركية لأى خرق حقيقى منذ الحرب الأهلية ، ولم يظفر كليفلاند من أنصار الحماية بغير تنازلات طفيفة ، كما أن روزفلت الداهية تفادى الموضوع تماماً . على أن أندروود نائب ألاباما ، وهل نائب تنيسى ، كانا قد أعدا مشروعاً بقانون ، وتحت صرامة السلطة التنفيذية ، أجاز مجلس النواب المشروع بسرعة كافية . غير أن عملاء الضغط السياسى تدفقوا على العاصمة كجيش من النّهابين ، عندما تلقف

مجلس الشيوخ مشروع القانون ، وتوقع المراقبون تكراراً للفشل المدّوى الذى حدث فى سنة ١٨٩٠ ، عندما خرج مشروع لإصلاح التعريفة الجمركية من الكونجرس مشوهاً مبتوراً ، حتى أن كليفلاند استنكره ، واصفاً إياه بأنه خيانة حزينة ، وخزى حزبى ، وأبى أن يوقعه باسمه . إذ ذاك هاجم ويلسون الضغط للتأثير على الهيئة التشريعية ، فى رسالة للجمهور ، قائلاً : « من المهم لمصلحة البلاد ، أن لا يكون ثمة ضغط مؤثر على الشعب بوجه عام . . . فى حين أن هيئات كبيرة من الدهاة يسعون لخلق رأى عام مصطنع ، ولتخطى مصالح الجمهور من أجل نفعهم الخاص » . وكان اللوم قوى المفعول ، فلم ينقض ستة أشهر على تولى ويلسون الحكم ، حتى وقع وهو راضى النفس قانوناً للتعريفة الجمركية ، عكس بصورة صادقة الوعود التى تضمنها البرنامج والعهود التى تضمنتها الحملة الانتخابية ، إذ حقق أول تنقيح حقيقى فيما يزيد على خمسين عاماً لتخفيض الرسوم الجمركية .

واعتدلت البلاد وتأملت ، فها هو ذا رئيس للسلطة التنفيذية يعنى ما قال ، ويفعل ما اقترح عمله . ولم يمهل ويلسون حزبه ، بل راح يذكّره ــ حتى أثناء مناضلة الكونجرس فى اقرار الجداول الجمركية ــ بما تعهد به فى خطابه الافتتاحى من اصلاح « نظام مصرفى ونقدى قام على حاجة الحكومة لبيع سنداتها قبل خمسين عاماً ، ومهيئاً أكمل تهيؤ لتركيز النقود السائلة وتقييد القروض » . وكان هذا الموضوع كموضوع التعريفة الجمركية ، محشواً بالديناميت السياسى . فلقد عانت الأمة طويلاً من نظام ائتمانى ونقدى غير مرن ، وكان كل الناس تقريباً متفقين على تشخيص الداء ، ولكن الذين اتفقوا فى الرأى بصدد العلاج كانوا قلة . ولقد صدر فى عهد حكومة روزفلت قانون لرتق النقص ، إذ سمح للمصارف القومية بإصدار عملة للطوارىء ، وقدمت لجنة لبحث نظام النقد سلسلة مفصلة من التقارير عن الأعمال المصرفية فى الدول الأخرى . بيد أن الوقت كان قد حان من عهد طويل لتحقيق إصلاح شامل للنظام المصرفى . واحتشد أصحاب المصارف ليضعوا قانوناً يستمرون بمقتضاه فى السيطرة . أما بريان الذى طال جدله بأن مسألة المال مسألة ذات أهمية عليا ، فقد صمم على وجوب سيطرة الحكومة على الائتمان . وقد انحاز إليه ويلسون الذى لم يكن على دراية واسعة بالنواحى الفنية للنظام المصرفى ، ولكن دراسته لتاريخ مصرفى الدولة الأول والثانى لم تكن عبثاً . فقال : « إن السيطرة يجب أن تكون عامة وليست خاصة . . يجب أن

توكل للحكومة ذاتها ، حتى تكون المصارف أدوات وليست سادة للسيطرة على التجارة والصناعة والمشروع الفردى وروح المبادرة » . ولقد حقق هذه المطالب قانون الاحتياطى الاتحادى ، الذى صدر بعد نقاش طويل . فقد قضى على مركزية النظام المصرفى ، وهيأ تسهيلات مصرفية أفضل للجنوب والغرب اللذين كانا مُهمَلَين ، ووفّر بالأوراق المالية للاحتياطى الاتحادى عملة مرنة تحت سيطرة الحكومة . وقد جاء نظام الاحتياطى الاتحادى فى الوقت المناسب ، فلولاه لما كان مقدَّراً للحكومة أن تنجو من أزمة الحرب العالمية .

وتمثل إنجاز تشريعى رئيسى ثالث للحكومة الجديدة ، فى تنظيم الترستات . ذلك أن قانون شيرمان كان أشد أثراً على العمالة منه على التجمعات الصناعية الكبرى . وكانت التحريات الحديثة قد كشفت عن أن حركة تركيز السيطرة فى الصناعة والنقل والعمليات المصرفية تسير بسرعة كبيرة . فما إن فرغ ويلسون من التشريعات الجمركية والمصرفية ، حتى سار فى تنفيذ تعهداته الانتخابية . وإذا قانون كلايتون لمناهضة الترست ــ الصادر فى سنة ١٩١٤ ــ يحدد بعناية عدداً من إساءات التصرف ، ويحرم التفرقة فى الأسعار مما ينحو إلى خلق احتكارات ، ويمنع الربط بين الشركات الكبيرة و« إدارات متداخل بعضها فى بعض » ، ويجعل مديرى الشركات مسئولين شخصياً عن انتهاكات القوانين المناهضة للترستات . ولقد أحبطت المحاكم إلى حد كبير حركة ــ لعلها كانت صادرة عن قصد ــ لإقصاء العمالة عن دائرة تطبيق القانون . وأقيمت فى الوقت ذاته لجنة اتحادية للتجارة ، لتحقق فى العمليات التجارية والصناعية ، وتنصت إلى الشكايات من الأساليب غير العادلة ، وتوقفت الاجراءات الضارة عن طريق إصدار أوامر « الكف والارتداع » .

ولم يكن المزارعون والعمال نسياً منسياً . فقد يَسّر قانون اتحادى للاقراض الزراعى القروض للزراعيين بأسعار للفائدة منخفضة ، كما أن قانوناً لمخازن الإيداع ، حقق إلى حد كبير مشروع الشعبيين القديم بأن تيسر خزانة الدولة القروض للزراعيين ، إذا خوّل تقديم القروض بضمان المحصولات الرئيسية . أما قانون لا فوليت للعاملين فى البحار ــ الصادر فى سنة ١٩١٥ ــ فقد حرر المغلوبين على أمرهم من العاملين فى البحار من الظلم الذى طال عناؤهم منه . فى حين أن قانون آدمسون ــ الصادر فى العام التالى ــ أقر أن يكون يوم العمل لعمال السكك الحديدية ثمانى ساعات . ولقد أجاز الكونجرس قانونين

يهدفان إلى وضع نهاية لفضيحة تشغيل الأطفال فى الصناعة ، بيد أن المحكمة العليا أبطلتهما بحجة أن الكونجرس لم يؤت سلطة إصدار لوائح للعمل سواء بمقتضى سلطته الضريبية أو سلطته فى الإشراف على التجارة . وفى حركة تكفير عامة نادراً ما تصدر عن المحكمة ، أقدمت بعد ذلك باثنين وعشرين عاماً على الاعتراف بأنها ضلت عن الصواب بقرارها السابق ، وسمحت للكونجرس بأن ينهى تشغيل الأطفال .

وهكذا دفع ويلسون فى ثلاث سنوات من التشريعات الهامة أكثر مما فعل أى رئيس منذ عهد لينكولن . وكشف عن إمكانات لا تحوم حولها شبهات فى قيادة السلطة التشريعية للكونجرس وفى قيادة رئيس الجمهورية للحزب . وبرهن على أن بوسع الديمقراطية أن تعمل بسرعة وكفاءة إبان الأزمة .

سياسة خارجية ديمقراطية

* **انحرفت سياسة ويلسون** الخارجية انحرافاً حاداً عن سياسة سلفه ، كما كان الأمر بالنسبة للسياسة الداخلية . إذ أن روزفلت كان قد لوّح مبتهجاً بـ « العصا الغليظة » فى السياسة الخارجية ، فى حين شجع تافت ما أصبح معروفاً بـ « دبلوماسية الدولار » . وما من مراء فى أن هاتين السياستين قد عادتا على الولايات المتحدة بمزيد من النفوذ فى الشؤون العالمية ، ولكن فى مقابل إثارة عداء دول أمريكا اللاتينية ، وتعريض رفاهيتنا للخطر نتيجة إقحامنا فى مغامرات دبلوماسية وتجارية عشوائية لم تكن لنا فيها مصلحة حقيقية . وكان أول الأعمال الرسمية لويلسون ، هو سحب الموافقة الرسمية على مشروع قرض مصرفى للصين ، بسبب أنه « لم يكن يقر شروط القرض أو ملابسات المسئولية » . وفى الأسبوع ذاته ، أعلن غرضه الرامى إلى « تنمية الصداقة والظفر بالثقة » لدى جمهوريات أمريكا اللاتينية . وبعد ذلك بقليل ، أوضح فى خطابه فى موبيل شجباً موضوعياً لدبلوماسية الدولار بالذات ، ووعداً بأن الولايات المتحدة لن تسعى قط مرة أخرى إلى اكتساب أراض بالغزو . وكان مقدّراً أن تدفع الظروف الولايات المتحدة إلى التورط فى شؤون عدد من جمهوريات حوض الكاريبى وأمريكا الوسطى ، بيد أن ويلسون رفض بإصرار طيلة حكمه أن يجعل التدخل عذراً للاستغلال .

ولقد كانت العلاقات مع المكسيك مثالاً وافياً لمصاعب السياسة الويلسونية . فلقد ظلت تلك البلاد التعسة خمسة وثلاثين عاماً تئن تحت وطأة حكم بورفيريو دياز الطاغية الذى هبط بشعبه إلى مصاف العاملين بالسخرة ، بينما كان يبيع بلاده للشركات التعدينية والتجارية الأجنبية . وفى سنة ١٩١١ ، ثارت الطبقات الوسطى والكادحون ، وطردوا دياز ، وأقاموا ليبراليا يدعى فرانشيسكو ماديرو رئيساً للجمهورية . وبدا كأن فجْر عهد جديد بزغ فى المكسيك ، بيد أنه لم تكد تكتمل سنتان حتى قامت حركة ثورية مضادة بزعامة فيكتوريانو هورتا ، وأطاحت بماديرو واغتالته . واغتبطت الشركات الأجنبية للبترول والسكك الحديدية والمناجم والأراضى ، إذا توقعت عودة أيام دياز المثقلة بالخيرات ، كما أن معظم الدول الكبرى سارعت إلى الاعتراف بالرئيس الجديد . ولكن ويلسون لم يحذ حذو سواه ، فقد شعر بأن الاعتراف بهورتا بمثابة الرضى عن القتل ، ولم يزحزحه عن موقفه إلحاح أصحاب الأعمال الأمريكيين الذين كانت أرباحهم هى الغاية الأولى ، وقال وهو يستبق الموقف الذى قدِّر له أن يتخذه فيما بعد ، فى أزمة أكبر من هذه : « أننا نؤمن بأن الحكم العادل يقوم دائماً على رضى المحكومين ، وأنه لا يمكن أن توجد حرية بدون نظام يستند إلى القانون ، وإلى وعى الجماهير ورضاها » . ولقد تعرضت هذه السياسة التى تقيم الاعتراف على اعتبارات خلقية ، للنقد إذ ذاك وفيما بعد ، بوصفها تحولاً عن العادة الصحيحة ، وعن إملاءات النفعية . ولقد قال امبراطور ألمانيا : « لا بأس بالقواعد الخلقية ولكن ما مصير حصص الأرباح ؟ » غير أن ويلسون تبين ــ كما تبين فرانكلين دى . روزفلت بعده بجيل ــ مدى خطورة العواقب القاضية التى قد تترتب على الانصياع للأعمال غير القانونية أو الاعتراف بثمار العنف ، ولعله لم يقدِّر تمام التقدير مصاعب جعل الاعتراف مستنداً إلى حكم الاختلافات الخلقية بين الأطراف المتضادة ، وهى فوارق دقيقة ومعقدة دائماً ، وروّاغة خادعة عادة .

ولم يكتف ويلسون برفض الاعتراف بهورتا المخضب اليدين بالدم ، بل استدرج بريطانيا إلى تأييد سياسته . . وهو تأييد كسبه بتنازلات جاءت فى وقتها بالنسبة لمسألة رسوم قناة بناما . ومع ذلك فإن العلاقات مع المكسيك أخذت تسوء بسرعة ، حتى إذا قبض هورتا على بعض ملاحين أمريكيين فى تامبيكو بادر ويلسون إلى إنزال مشاة البحرية فى فيرا كروز . وبدا أن الحرب محتومة ، ولكن ويلسون لم يكن ينتوى أن يسمح للموقف

بأن يفلت من يده ، وبفضل إقامته فاصلاً مميزاً بين الشعب المكسيكى ــ الذى كان يرجو صداقته ــ والحكومة المكسيكية التى عقد العزم على القضاء عليها ، نجح فى كبح صيحة الحرب الغاضبة فى بلاده ، وهو يستدرج هورتا إلى وضع لا يستطيع الصمود فيه . ثم استغل فرصة الأزمة المكسيكية ، فأخذ يبرز سياسته القائمة على معاملة جمهوريات أمريكا اللاتينية على قدم المساواة ، بأن أوعز إلى الأرجنتين والبرازيل وشيلى بالمعاونة فى تسوية النزاع . وعندما وقفت هذه الدول فى صف الولايات المتحدة ، اضطر هورتا إلى الفرار من البلاد ، وتولى الحكم كارانزا ، زعيم أنصار الدستور . ولقد استمرت المتاعب بعد ذلك . وعندما أغار زعيم قطاع الطريق المكسيكى بانشو فيلا على كولبس ، فى نيومكسيكو ، أوفد ويلسون حملة بقيادة الجنرال بيرشينج لتأديبه . فأبى كارانزا هذا الغزو ، وتصاعدت صيحات الغضب من أنصار العنف الأمريكيين مطالبة بالحرب ، بيد أن السلام ساد الموقف ، وسُمح للمكسيك بأن تتولى إنقاذ نفسها بنفسها . ونجحت سياسة « الانتظار والمراقبة » ، التى كانت تُرمى بأنها سياسة تخاذل ، فى تحقيق هدفها المزدوج : مساعدة المكسيك وكسب ثقة جمهوريات أمريكا اللاتينية .

على أن سياسات ويلسون أخفقت فى أن تتطابق مع المبادىء فى أى مكان آخر فى حوض البحر الكاريبى . وعلى أية حال ، فلم يكن ثمة فارق يُذكر بين مسلك ويلسون نحو نيكاراجوا ، وسانتو دومينجو ، وهايتى ، وتصرفات الحكومات السابقة . فإن المعاهدة التى توصل إليها بريان مع نيكاراجوا انتقصت سيادة هذه الدولة اللاتينية انتقاصاً قاسياً ، حتى إن محكمة الصلح فى أمريكا الوسطى استنكرتها رسمياً ، فقد أخذ الوزير المفوض الذى أوفده بريان إلى سانتو دومينجو يتصرف كأنه حاكم عام لتلك البلاد ، كما أن مشاة الأسطول الذين نزلوا فى هايتى وتقاضوا ضريبة باهظة من أرواح أهلها ، لم يبارحوها نهائياً إلا فى سنة ١٩٣٠ .

وكشفت حكومة ويلسون فى ميدانين آخرين عن حرصها على صون السلام وقداسة الاتفاقات التعاهدية . فإن بريان الذى تربع على رأس وزارة الخارجية ، كان موقناً من عهد بعيد بأن كافة المنازعات الدولية قابلة للتحكم ، ووضع وأبرم بتشجيع من ويلسون معاهدات لتهدئة الخواطر مع دول أجنبية . وقد نص فيها على التحكيم والتراضى فى كل المسائل ــ دون استثناء لما يمس منها الكرامة القومية ــ وإرجاء كل استعداد حربى

لمدة عام يكـون فترة تهدئـة للخـواطـر . ولقد دارت المفاوضات حول ثلاثين من هذه المعاهدات ، ولم تبرم سوى اثنتين وعشرين منها . فقد رفضت ألمانيا بصلف قبول واحدة منها . وعندما قدمت اليابان ، فى سنة ١٩١٥ ، إلى الصين مطالبها الواحد والعشرين المستهجنة ، وهى ماضية فى سياستها المتهورة التى أدت آخر الأمر إلى حرب مع الولايات المتحـدة ، قدمت وزارة الخارجية الأمريكية احتجاجاً بأن هذه المطالب كانت انتهاكاً شنيعاً لسياسة الباب المفتوح وللقانون الدولى .

الحـرب العـالمية والحـياد

كـانت أوربـا هى مصـدر أشـد تهديد للسـلام الأمريكى . ففى ٢٨ يونيـو ، أطـلق أحـد الـوطنيين الصربيين رصاصـة تـردد صـداها فى كـافة أرجـاء العـالم . وإن هى إلا خمسة أسابيع ، حتى كـانت أوربـا كلهـا مشتبكـة فى أكبر حروب العصـر الحديث . وكـان رد الفعـل الأمريكى يجمع بيـن عدم التصـديق والحيرة . وعندما أعـلن الرئيس ويلسـون حياد أمريكا رسمـياً ، كان ينطق بإجمـاع مـن الأمة ، بـل إنـه كـان يعبر عـن مـوقف أغلبية الأمريكيين ، حتى عنـدما دعـا إلى الحيـاد الفكـرى بجـانب الحيـاد العملى .

ومع ذلك فما كان بوسع الأمريكيين أن يكونوا أكثر انصرافاً عن صراع سنة ١٩١٤ ، منهم عن صراع سنة ١٩٣٩ ، وتجلى فى النهاية أن الحياد مستحيل ، سواء فى الفكر أو فى السياسة الحكومية . كان الشعور الأمريكى محشوداً على أشد وجه منذ البداية . وكانت الأغلبية الساحقة من الشعب تأمل أن يكون الفوز لبريطانيا وفرنسا وبلجيكا . فقد كانت تربطه بالشعب البريطانى مائة رابطة من ثقافة وتقاليد ونظم مشتركة وتطلع مشترك . ولم تكن ذكـرى المساعدة الفرنسية فى الثورة ، والاعجاب بمقاومة الشعبين الفرنسى والبلجيكى الباسلة ، أقل من ذلك قوة . وكان المتعاطفون مع دول أوربا الوسطى قلة نسبياً ، مؤلفة من عناصر قليلة ، فى مقدمتها الأمريكيون من أصل ألمانى الذين استجابوا لنـداء الدم ، والأمريكيون من أصل إيرلندى الذين ورثوا الكراهية لبريطانيا . كانت السياسـة الألمـانية فى حوض المحيط الهـادى ، وفى الصـين ، وفى البحر الكاريبى ،

والتصرفات القاسية للعسكريين الألمان ، وغطرسة المثقفين والساسة الألمان . . كانت هذه جميعاً قد ألّبت مشاعر الأمريكيين قبل الحرب بزمن طويل ، وأدى غزو بلجيكا دون ما استفزاز إلى تأكيد أسوأ الهواجس إزاء ألمانيا . كما تجلى أن الألمان كانوا يناصرون الآراء الاستبدادية فى الحكم والمجتمع ، وأنه إذا قدِّر لهم التسلط على أوربا فلن يلبثوا قطعاً أن يتصادموا مع أمريكا الديمقراطية ، عاجلاً أو آجلاً .

هذان الاعتباران ــ التعاطف مع الحلفاء والخوف من عواقب انتصار ألمانيا ــ كانا حاسمين فى السيطرة على السياسة الأمريكية فى آخر الأمر . ولقد عززت الاعتبارات الاقتصادية الاعتبارين العاطفى والسياسى . فأقرض الشعب الأمريكى بريطانيا وفرنسا مبالغ هائلة من المال . وسارعت الصناعة الأمريكية إلى تهيئة نفسها وفقاً لحاجات بريطانيا وفرنسا الحربية ، فأخذت تمدها بكميات ضخمة من المدافع والقذائف والمتفجرات الشديدة وغيرها من المواد ، وتجنى من ذلك أرباحاً باهظة . وكانت المصارف الأمريكية تعمل كوكلاء للحلفاء فى الشراء ، وطرحت قروض الحلفاء للاكتتاب ، وأقامت حسابات ائتمانية للحلفاء فى الولايات المتحدة . كما أن الزراعة الأمريكية أفاقت من كساد حاد سبق الحرب ، فوجدت أسواقاً مهيَّأة ومربحة للقطن والقمح ولحم الخنزير فى انجلترا وفرنسا . وفى تلك الأثناء ، كان الاتجار مع الدول الوسطى غير ذى بال ، كما أن الحصار البريطانى حدّ بكفاءة من الاتجار مع الدول المحايدة هى الأخرى .

ومع ذلك ، فلم تكن الاعتبارات الاقتصادية هى التى أقنعت ويلسون والشعب الأمريكى بحتمية الحرب ، بل كانت السياسة الألمانية الزاخرة بـ « التخويف » هى التى أقنعتهم . فقد استخدمت الغواصات لإغراق السفن التجارية ، ولم يكن بالوسع إنقاذ أرواح الملاحين أو المسافرين . وعندما أغرقت الباخرة البريطانية لوزيتانيا ــ فى سنة ١٩١٥ ــ وراح معها ما يزيد على ألف ومائة شخص ، منهم ١٢٨ من الأمريكيين ، غشيت البلاد موجة من الجزع والغضب . ووعدت ألمانيا بأن تصلح نهجها ، وهدّأ ويلسون من ثائرة الشعب ، بيد أن الذين كانوا يعتقدون أن على أمريكا أن تستعد للحرب ازدادوا عدداً وعزماً . وفى تلك الأثناء كان ويلسون قد انتهى إلى أن الطريقة الوحيدة لاستبقاء الولايات المتحدة خارج الحرب ، هى فى إنهاء الحرب ذاتها . فراح يعمل دون هوادة طيلة سنة ١٩١٦ لاقناع المتحاربين بأن يطرحوا عنهم أهدافهم من الحرب ، وأن يمهدوا الطريق لتنظيم عالم ما بعد الحرب .

ونجح ويلسون فى انتخابات الرئاسة ، سنة ١٩١٦ ، وكان الفضل الأكبر راجعاً إلى أنه « استبقانا خارج الحرب » . غير أنه لم يقدم أى تعهدات بشأن المستقبل ، ولا هو وعد بشراء « السلام بأى ثمن » . بل إنه حتى يناير سنة ١٩١٦ كان يحذّر الشعب الأمريكى بكلمات كان جديراً بسادة الحرب فى ألمانيا أن يحفلوا بها :

> إننى لأعرف أنكم تعتمدون علىّ لاستبقاء هذه الأمة خارج الحرب . ولقد فعلت هذا حتى الآن ، وإنى لأعاهدكم ــ وليساعدنى الرب ــ على أننى سأفعل هذا . . إذا أمكن . بيد أنكم ألقيتم على كاهلى واجباً آخر . لقد طلبتم منى أن أعمل على ألا يلطخ شىء شرف الولايات المتحدة أو يمسه ، وهذه مسألة ليست فى طوقى ، بل إنها تتوقف على ما يفعله الآخرون ، وليس على ما تفعله حكومة الولايات المتحدة .

وفى أوائل سنة ١٩١٧ ، أعلن الألمان العودة إلى حرب الغواصات بشدة غير محدودة ، وهم واثقون من أن بوسعهم أن يقضوا على انجلترا جوعاً فى ستة أشهر ، وأن المساعدة الأمريكية ما كانت فى ذلك الحين قديرة . وفى بضعة أسابيع ، أُغرقت ثمانى سفن أمريكية ، وثارت ثائرة الشعب بانكشاف مؤامرة لتوريط الولايات المتحدة فى حرب مع المكسيك واليابان . وتجلى أن صون الكرامة والسلام معاً قد أصبح « مستحيلاً ومتناقضاً » . وفى ٢ أبريل ، وقف ويلسون فى الكونجرس ، وطلب إعلان حالة الحرب :

> إنه لأمر مخيف أن نقود هذا الشعب المسالم العظيم إلى الحرب ، إلى أفظع الحروب جميعاً وأحفلها بالدمار ، حتى أن الحضارة ذاتها تبدو مؤرجحة فى الميزان . بيد أن الحق أغلى وأثمن من السلام ، وسنقاتل من أجل الأمور التى اعتدنا أن نعتز بها دائماً ايما اعتزاز . . من أجل الديمقراطية ، من أجل حق أولئك الذين يخضعون للسلطة لكى يكون لهم صوت فى حكم بلادهم ، من أجل حقوق وحريات الدول الصغيرة ، من أجل سيطرة عالمية شاملة للحق عن طريق اتفاق بين الشعوب الحرة يجلب السلام والسلامة لجميع الأمم ، ويجعل العالم نفسه آخر الأمر حراً . لمثل هذا الواجب نستطيع أن نكرس حياتنا وأقدارنا ، وكل ما نحن عليه وكل ما نملك ، مع عزة أولئك الذين يعلمون أن اليوم قد

حان لأن تحظى أمريكا بامتياز إنفاق دمها وقوتها من أجل المبادىء التى تدين لها بمولدها ، ومن أجل السعادة والسلام اللذين تعتز بهما . وهى لا تملك أن تفعل غير هذا ، والله فى عونها .

وفى يوم الجمعة الحزينة ، السادس من إبريل سنة ١٩١٧ ، دخلت الولايات المتحدة الحرب .

الحـــرب

القـوة ، القـوة إلى أقصى مدى ، القـوة دون حصر ولا حدّ » . وهكذا وعد الرئيس ويلسون ، وقد سارعت الأمة للوفاء بوعده . وما أبدت الحكومة فى أية حرب سابقة من الـذكـاء والكفاءة ، ولا كشف الشعب الأمريكى عن طاقة ، وسعة حيلة ، وعبقرية إبـداعية ، أعـظم مما حدث فى هذه الحـرب . وأثبت ويلسـون أنه من أعظم رؤساء الحرب ، وهو يسيطر على كل ناحية من نواحى المجهود الحربى ، ويحرص على الروح المعنوية فى الداخل وفى الخارج ، ولا يغفل عن الغايات النهائية التى كانت الأمة تقاتل من أجلها ، يعاونه بمقدرة وزير حربه نيوتن دى . بيكر ووزير ماليته وليم ماكادو ورئيس مجلس الصناعات الحربية برنارد باروك . كان على الحكومة أن تتخذ خطوات أشد وأقسى من كل ما خطر بالبال فى أية حرب سابقة ، وقد فعلت ذلك بسرعة وهمة . فأصبحت ديكتـاتـوراً على الصنـاعة والعمالة والزراعة . واستولت على خطوط السكك الحديدية والبرق . وكانت الحاجة ماسة إلى الطعام فازداد إنتاج المزارع بحوالى الربع ، وكانت الحاجة ماسة إلى الفحم فارتفع إنتاج الفحم بحوالى الخُمْسَين ، وجمعت الحكومة عن طريق القروض والضرائب حوالى ستة وثلاثين بليوناً من الدولارات ، أقرضت الحلفاء عشرة منها وأنفقت الباقى فى الداخل . ولقد ركزت الحكومة جهودها ، فوق كل شىء ، على الفـوز فى معركة الأطلنطى . . التى كان يبدو فى ربيع وخريف سنة ١٩١٧ أنها خاسرة . وكسبت المعركة فعلاً ، بفضل الاستيلاء على السفن الألمانية فى مياه المحيط ، ومصـادرة السفن المحـايدة للأغـراض الحـربية ، والاستحـواذ على السفن المـلاحية

الخاصة ، والقيام ببرنامج هائل لبناء السفن ــ إذ صنعت ما يزيد على ثلاثة ملايين من الأطنان فى عام واحد ــ والإجراءات البطولية فى مقاومة الغواصات .

ولقد أقر الكونجرس التجنيد فى وقت مبكر ، وقبل أن تنتهى الحرب كان تسجيل حوالى ٢٥ مليون رجل يوحى بشىء عن ضخامة موارد القوى البشرية لهذه الدولة الديمقراطية الغربية . ولكن ، أكان بوسع الولايات المتحدة أن تدرب جيشاً وتجهزه وتوفده إلى فرنسا فى وقت كاف لصد تيار الزحف الألمانى ؟ كانت هذه هى المشكلة الكبرى فى سنتى ١٩١٧ و١٩١٨ .

لقد هبطت أول دفعة أمريكية إلى فرنسا فى يونيو سنة ١٩١٧ . . وقد أوفدت على عجل ابتغاء تأثيرها المعنوى ، أكثر مما كانت تُزْجى لأغراض عسكرية . وفى ٤ يوليو ، قام الجيش الصغير بعرض عسكرى فى الشانزليزيه ، وعلمه الأحمر والأبيض والأزرق يرفرف فى الهواء . وقد وصف براند هويتلوك المنظر قائلاً :

> سمعت الموسيقى العسكرية ، وكانت تعزف « زحفاً فى جورجيا » . ولم أتمالك نفسى ، فهبطت إلى الطريق ، وخرجت عارى الرأس إلى شارع ريفولى . وكانت الجماهير تنساب على طول الطريق ، تحت السياج الحديدى الكبير لقصر التويلرى ، من رصيف إلى رصيف ، دون ما نظام ، فالرجال والنساء والأطفال يركضون فى تحمس وانفعال ، يحاولون متابعة الصف النحيل المؤلف من جنودنا النظاميين فى زيهم « الكاكى » ، وهم يسيرون بخطوة عسكرية نشيطة . وكان الجنود الفرنسيون فى زيهم الخفيف الزرقة يركضون بجوارهم ، مقتربين منهم قدر الإمكان ، محملقين فيهم بما يشبه اهتمام وعجب الأطفال ، كما يفعل الصبية وهم يهرعون بجوار عرض لفرقة السيرك . كان جنودنا مكّللون بالأزهار . . وخرير جلبة الحشد مستمر لا ينقطع ، تتخلله من وقت إلى آخر صيحات : لتَعِش أمريكا

بيد أن هذه لم تكن سوى قوة رمزية ، فإن الجيش الأمريكى الحقيقى كان بعد فى معسكرات التدريب فى الولايات المتحدة . وكانت الحاجة ماسة إليه ، لأن الحرب كانت تتجه فى سنة ١٩١٧ إلى الأسوأ . ففى أكتوبر ، تحطم الجيش الايطالى فى كابوريتو ، وكان على الحلفاء أن يعجلوا بالتعزيزات ليوقفوا تقدم النمسويين . وبعد شهر ، انسحب

الروس ، وقد مزقتهم الثورة ، وطلبوا الصلح . فأرسلت على عجل أربعون فرقة ألمانية جديدة ، سحبت من جبهتى روسيا والبلقان ، إلى فرنسا . ولم يحن ربيع عام ١٩١٨ ، حتى كان للألمان تفوق عددى واضح فى الغرب ، وعززوا أنفسهم تأهباً للضربة القاضية ضد جيوش بريطانيا وفرنسا المرهقة المضناة ، وفى مارس سنة ١٩١٨ ، حان الهجوم الكبير الأول ، وفى أسبوع كان الألمان قد شقوا طريقهم خلال خطوط الجيش الخامس البريطانى ، مستولين على تسعين ألف أسير ، وعلى مخازن هائلة . ثم حان هجوم كبير آخر فى شهر أبريل ، وأصدر الجنرال هيج نداءه الذى لا يُنسى : « على كل منا أن يقاتل حتى النهاية ، وظهورنا إلى الحائط ، ونحن موقنون بعدالة قضيتنا » . ثم شُنّ هجوم ثالث فى يونيو ، وإزاء وجود الألمان على الضفة اليمنى للمارن ، رفع الحلفاء المارشال فوش إلى القيادة العليا ، فأشار على الرئيس ويلسون بأن « ثمة خطراً كبيراً قد يؤدى إلى خسران الحرب ما لم يتسن علاج النقص العددى لدى الحلفاء بأسرع ما يمكن ، عن طريق إيفاد الجنود الأمريكيين » .

وكان السباق مع الزمن قد بدأ فعلاً . فاستجمعت حكومة الولايات المتحدة قواها لبذل مجهود جبار . ومنح النقل البحرى أولوية على كل شىء ، وأبحرت القوافل الضخمة من الموانى الأمريكية واحدة بعد أخرى ، محملة بالمشاة ذوى الزى « الكاكى » . فأُرسل إلى ما وراء البحار فى مارس ٨٠٠٠٠ ، وفى أبريل ١١٨٠٠٠ ، وفى مايو ما يقرب من ٢٥٠٠٠٠ . ولم يحن شهر أكتوبر حتى كان الجيش الأمريكى فى فرنسا يتجاوز مليوناً وثلاثة أرباع المليون من الجنود .

ولقد جاءوا فى الوقت المناسب تماماً . ولقد أثبتوا صلابة معدنهم فى مونديدييه وكانتينى أولاً ، ثم فى غابة بيلّو . وإذا القيادة الألمانية ، التى كانت قد أسقطت المساعدة الأمريكية من حسابها ، تقر بأن « الجندى الأمريكى يثبت شجاعة وقوة جلد ومهارة . ولا ترهبه الخسائر فى الأرواح » . بيد أن الأزمة الكبرى لم تكن قد حدثت بعد . ففى منتصف ليل ١٤ يوليو ، شن الألمان هجومهم الذى طال انتظاره على المارن ، والذى كان يرمى إلى تصديع آخر خط للحلفاء ، وفتح الطريق إلى باريس ، التى لم تكن تبعد بغير خمسين ميلاً . وتدافعوا عبر المارن ، موفّقين فى كل مكان عدا النقاط التى صادفوا فيها فرقاً أمريكية حديثة الوصول . وكتب فالتر راينهارت ، رئيس هيئة أركان حرب الألمان : « هنا ، على المارن ، بلغنا جميع أهدافنا المعيّنة لفرق الصاعقة لدينا تقريباً . . . ولقد

حققت جميع فرق الجيش السابع ــ بوجه خاص ــ نجاحاً مبدئياً باهراً ، فيما عدا الفرقة الواحدة التى كانت فى جناحنا الأيمن ، فقد صادفت هذه وحدات أمريكية . وهنا فقط واجه الجيش السابع . . . عقبات خطيرة . فقد التقت بشدة مراس ومقاومة نشيطة ــ لم تكونا مرتقبتين ــ من الجنود الأمريكيين الحديثى الوصول . وبينما وفقت بقية الفرق . . . فى اكتساب مواقع وغنائم هائلة ، فقد ثبت أن من المستحيل علينا زحزحة رأس خطنا الأيمن فى جنوب المارن إلى موقع موات لتطور القتال الدائر . وكانت الصدمة الكابحة التى تلقيناها ، من نتائج القتال الهائل الذى دار بين فرقة المشاة العاشرة من قواتنا والجنود الأمريكيين » . ثم أضاف فى غيظ : « يبدو أن الأمريكيين فوق كل إرهاق » . ولم يحن ١٨ يوليو حتى كان الهجوم الألمانى قد انحسر ، ودعا فوش الأمريكيين إلى القيام بهجوم مضاد . وقد فعلوا ، وبنجاح رائع . وكتب الجنرال بيرشينج : « لقد تحول مسار الحرب تحوّلاً حاسماً لمصلحة الحلفاء » .

وفى سبتمبر حدث الهجوم على النتوء بالبارز من خط الدفاع عند سان ميهييل . وكتب الجنرال بيرشينج بهذا الصدد : « أدت السرعة التى تقدمت بها فرقنا إلى ارتباك العدو » . وبلغت الخسائر فى الأرواح سبعة آلاف ، بيد أن الأمريكيين اكتسحوا النتوء ، وأسروا فوق هذا ستة عشر ألفاً . وفى الشهر التالى ، قام جيش أمريكى يزيد على المليون بدور طليعى فى هجوم الموز ــ آرجون الواسع النطاق ، والذى انتهى بتحطيم خط هيندنبيرج الذى طال التشدق به ، فتصدعت روح الألمان المعنوية .

ولم يكن جهد ويلسون ــ فى هذه الأثناء ــ بأقل من دور القوات المسلحة فى تأكيد النصر ، بفضل تحديده البليغ المسهب لأهداف الدول الديمقراطية . إذ كان قد حاول ، من البداية ، إيقاع الفرقة فى ألمانيا بترديد أن قتالنا لم يكن ضد الشعب الألمانى وإنما ضد حكومته الاستبدادية الطاغية . كذلك أصر على أنه لا ينبغى أن تتضمن شروط الصلح ضم شعوب على غير رغبة منها ، أو دفعات من المال على سبيل العقاب . وفى رسالة إلى الكونجرس ، فى يناير سنة ١٩١٨ ، عرض النقاط الأربع عشرة المعروفة ، كأساس لصلح عادل . وقد تضمنت اتفاقات صريحة يتم التوصل إليها علانية ، وحرية البحار فى السلم والحرب ، وإزالة الحواجز الاقتصادية بين الدول ، وتخفيض الأسلحة ، وتعديل غير متحيّز للمطالب المتعلقة بالمستعمرات ، والتعاون مع روسيا لإرساء سياستها القومية بمؤسسات من اختيارها الخاص ، وإعادة تعديل الحدود فى أوربا مع العناية

اللازمة بمبدأ حق الشعوب فى تقرير المصير ، وإقامة « جمعية عامة للأمم » لتوفر « الضمانات المتبادلة للاستقلال السياسى وسلامة وحدة الأراضى » .

ورأت الحكومة الألمانية ، وقد اندحرت جيوشها وأوشك حلفاؤها على الانهيار ، وإزاء تدفق القوات الأمريكية على الجبهة بأعداد لا تبدو لها نهاية ، أن صلحاً فورياً هو الوسيلة الوحيدة لمنع غزو التراب الألمانى . ولهذا ولت وجهها شطر ويلسون وناشدته التفاوض على أساس النقاط الأربع عشرة . وبينما كان النزال الدبلوماسى دائراً ، إذا بالعصيان والثورة فى ألمانيا يجعلان المقاومة الألمانية مستحيلة . ونزل القيصر عن عرشه وفر من بلاده . وفى ١١ نوفمبر ، بلغت الحرب ختامها .

العصبة والعزلة

كان ويلسون قد أثبت حتى ذلك الحين أنه قائد ذو براعة من الطراز الأول . بيد أنه أقدم على عدة أخطاء متعاقبة بمجرد انتهاء الحرب . فقد ناشد الشعب أن ينتخب كونجرس ديمقراطياً ، فاختار الشعب أغلبية من الجمهوريين فى المجلسين امتعاضاً من تصرفه الحزبى . ولقد قرر أن يذهب شخصياً إلى مؤتمر الصلح ، مما آذى شعور كثير من الأمريكيين الذين كانوا يؤمنون بأنه ليس للرئيس أن يبرح التراب القومى قط ، وقد انتهى بهذا العمل إلى الحط من مكانته فى أوربا . ولقد تقاعس عن أن يعين فى لجنة لمؤتمر الصلح أحداً من الجمهوريين البارزين ، أو أى امرىء ذا مقدرة من الدرجة الأولى فى الواقع . وبينما كان يرتكب هذه الأخطاء التقديرية ، أخذ يكتنف البلاد ملل من الحرب ، وتجدد للشك فى أوربا ، وشعور بتبدد الآمال ، وعداء حزبى . وإذ أبحر إلى فرنسا ، أقدم الرئيس السابق روزفلت ، فى مرارة وتحد ، على إنذار « حلفائنا وأعدائنا » بأنه « ليست لمستر ويلسون سلطة ، أياًكانت ، ليتكلم باسم الشعب الأمريكى فى هذا الوقت » .

والتقى صانعو المعاهدة ــ ويلسون ، ولويد جورج البريطانى ، وكليمنصو الفرنسى ، وأورلاندو الإيطالى ، وعدد من رجال الحكم الأقل مكانة ــ فى باريس ، فى جو من الكراهية ، والطمع ، والخوف . . والكراهية للعدو ، والطمع فى المستعمرات

والتعـويضات ، والخوف من البلشفية . وكان الصلح الذى أبرم ، صلحاً جاء نتيجة الامـلاء لا التفـاوض . فقـد أحكمت معاهدة فرساى إلقاء وزر الحرب على ألمانيا ، انتزعت منها كل ما كانت تمتلك من مستعمرات ، ونصت على تعديلات لكل حدودها ، وفرضت عليها تعويضات باهظة . وأدت معاهدات أخرى إلى خلق دول أو الاعتراف بدول جديدة ظهـرت إلى الـوجـود وفقـاً لمبدأ ويلسون الخاص بتحديد المصير ، ومنها تشيكـوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا ، وبولندا ، وفنلندا . وبقبول هذه الشروط ، اضطر ويلسون إلى التساهل بصدد بعض نقاطه الأربع عشرة ، وما كان على استعداد لذلك إلا يقيناً منه بأن كل هذه الأخطاء من الممكن تصحيحها عن طريق عصبة الأمم .

ذلك أن ويلسون كان قد أفلح فى ربط عصبة الأمم بتدابير المعاهدة برغم المعارضة القوية . ولم تكن فكرة إنشاء جمعية للأمم بالجديدة ، وقد ساهم كثيرون ، من كثير من الدول فى بلورة هذه الفكرة . بيد أن عصبة الأمم التى أنشئت فى النهاية ، كانت من ابتـداع ويلسـون . وكـانت وظيفتهـا « تدعيم التعاون الدولى وتحقيق السلام والأمن الدوليين » . وكانت العضوية مفتوحة لجميع الدول ، على أن يعهد بالاشراف إلى مجلس تسيطر عليه الـدول الكبرى وإلى جمعية عامة يُمثل فيها جميع الأعضاء . ولقد تعاهد أعضاء العصبة على أن « يحترموا ويصونوا الوحدة الإقليمية والاستقلال السياسى القائم » لكل الأعضاء « ضد العدوان الخارجى » ــ وهى المادة العاشرة المشهورة ــ وأن تُطرَح كل الخلافات للتحكيم ، وأن تستخدم العقوبات العسكرية والاقتصادية ضد الدول التى تلجأ إلى الحرب غير ملقية للعصبة بالاً . وفضلاً عن هذا ، فقد أوردت نصوص بشأن نزع السلام ، وحكم المستعمرات التى تحت الانتداب ، وإقامة محكمة عدل دولية دائمة ومكتب دولى للعمل .

وعنـدمـا رجـع ويلسون إلى الولايات المتحدة بمعاهدة فرساى وبالعصبة ، وجد معـارضة مستشرية وضارية . فقد وجد كثير من الزعماء الجمهوريين ــ مثل السيناتور لودج الموغر الصدر ، الموغل فى الحزبية ــ فى الأمر فرصة لهزيمة الديمقراطيين وإذلال ويلسـون . ولقـد حادت الكـراهية الشخصية للرئيس بعـدد من منـاصريه . ووجـد الأمريكيون من أصل ألمانى ، والأمريكيون من أصل إيطالى ، والأمريكيون من أصل إيرلندى من الأسباب ما يدعوهم إلى شجب شروط الصلح . فقد بدت المعاهدة لبعض الناقمين غاية فى التساهل مع ألمانيا ، ولكثير من الليبراليين غاية فى القسوة . وخشى

عـدد لا بـأس به مـن المحـافـظين الأمريكيين من التورط فى المنازعات الأوربيـة وأخـذوا يرددون أن الأمــة ظلت أكثـر من قرن فى منـأى من شؤون الـدنيا القـديمـة بوجـه عام .

على أن هنـاك ما يدل على أن أغلبية الشعب ـ وأغلبية الفئـات الأكثـر استثـارة بالتـأكيد ـ كانـوا يحبـذون عصـبة الأمم ، وعلى أن المعاهدة لم تفتقر إلى الأغلبيـة فى مجلس الشـيوخ فى أى وقـت . بل إن أغلبية الثلثين الـلازمة للتصديق على المعاهدة كان من الممكن الظفـر بها لو أن ويلسـون أبدى رغبة فى التفاهم بصـدد المادة العاشـرة التى أوّلها المتطرفـون على أنها تحـد من السيـادة القومية . بيد أن ويلسون لم يكن مسـتعداً لذلـك ، وقـال للجنـة الشيـوخ : « إن المادة العاشرة تبدو لى بمثـابة العمود الفقرى للاتفـاق بأسـره . فبـدونها لا تكـاد العصبـة تكـون أكثـر من جمعية قوية النفـوذ للتـداول » . ولكن المعارضـة الجمهورية أبـت الاقتناع ، فحمل ويلسـون الموضـوع إلى الشعب . وبينمـا كان يجوب الغرب مناضـلاً ، انهارت صحتـه ، وأصـيب بنوبة من الشلل فى ٢٥ سبتمبر ، لم يبـرأ منها قط . كانت القضـية الكبـرى التى اعتنقها قـد خُذلت . وفى ٢٠ مـارس ، قضى مجلس الشـيوخ فى التصويت النهائى برفض المعاهدة وميثاق العصـبة ، فألزم الولايـات المتحدة بأن تلوذ بعزلة عقيمة وغير مجيدة لسـنوات مقبلة .

ودفعت انتخابات سنة ١٩٢٠ الجمهوريين إلى الحكم من جديد ، بأغلبية لم يسبقها مثيل ، فبـادروا بجعل العزلة من مبادىء حزبهم . واعتكف ويلسون ، وقد تحطمت صحته وإن لم تتحطم روحه ، ليرقب بخيبة أمل غامرة ، تعطل الأمن الجماعى الذى كان يتكهن به . كان قد عاش على غرار جيمس بيتجـرو ، الـذى كان يعجب بالأبيات المنقوشة على قبره :

لا يُرهبه رأى . .
ولا يستهويه ملق . .
ولا تفزعه نكبة .

وعلى غراره كذلك :

واجه الحياة بشجاعة القدامى . .

والموت بأمل الأتقياء .

ولم يقدّر للبشر أن يدركوا سلامة المبادىء التى ناضل من أجلها بشهامة ، إلا بعد أن هزت أسس الكون ذاته حرب عالمية ثانية ، أكبر من الأولى .

الفصـــل ٢٢

من الوضع السوى إلى الكساد الاقتصادى

الوضـع السـوىّ والعـزلة

بهزيمة ويلسون ، ورفض الحرية الجديدة والدولية أصبح المسرح مهيئاً لظهور العزلة وسياسة عدم تدخل الحكومة فى الشؤون الاقتصادية Laisser Faire ، فسيطرت هاتان القوتان عليه طوال عقدين من الزمن . والواقع أن الحزب الجمهورى لم يكن قد اتخذ موقفاً جلياً من عصبة الأمم ، ولكنه بدلاً من ذلك لجأ إلى تمييع بارع للمسألة . غير أن الأغلبية الحاسمة التى فاز بها الحزب فى الانتخابات سنة ١٩٢٠ ، أقنعت معظم الزعماء ــ لاسيما الرئيس هاردينج الضعيف الإرادة ــ بأن أنصار العزلة هم المعبرون عن رأى الشعب ، ورفعت رجالاً مثل أعضاء الشيوخ جونسون وبوراه ولودج إلى مراكز ذات نفوذ استراتيجى ، بينما اتجهت إلى إضعاف الثقة فى ذوى العقلية الدولية من الجمهوريين ، أمثال هيوز وروت وتافت . وما إن تبوأ الجمهوريون حتى أضفوا على العزلة وضعاً رسمياً .

وكـان هذا أمـراً جديداً فى تاريخ كل من الحزب الجمهورى والأمة . فما خذلت الولايات المتحدة فى أى يوم من الأيام آمال الجنس البشرى بمثل هذا التعنت ، بل إن السياسـة التقليدية الأمـريكية كانت أقرب إلى تحقيق الرجاء فى قيادة عالمية . ولم يكن الحزب الجمهورى قد التزم يوماً من الأيام قبل ذلك بالعزلة . فقد كان جرانت وسيوارد يحثان على التوسع فى البحر الكاريبى والمحيط الهادى ، ولقد اعتنق بلين فكرة الرابطة الأمريكية ، وقاد ماكينلى الأمة إلى الحرب من أجل أهل كوبا ، وأحرز مستعمرات جديدة فى المحيط الهادى . ولقد سعى تيودور روزفلت ليكون للأمة مركز مسيطر فى سياسات النفوذ العالمى . فكان تاريخ الحزب الجمهورى تاريخاً تسوده الإمبريالية والدولية .

غير أن الحزب فى هذه الفترة التزم سياسة القومية الضيقة ، وتفادى مسئولية من قبيل تلك التى حاقت ببريطانيا فى أواسط القرن التاسع عشر . ومع هذا ، فقد كانت العزلة الحقيقية مستحيلة ، ولم يكن فى وسـع الـولايات المتحـدة أن تظل بمبعدة عن الأمور الجارية فى أى مكان آخر من العالم . والواقع أن الحكومة فى هذه السنوات من الحكم الجمهورى اتخذت دوراً نشيطاً فى الوصول إلى حل لبعض المشكلات البالغة الإزعاج ، والتى عكّرت العلاقات الدولية . فبسط الرئيس هاردينج رعايته على مؤتمر لنزع السلاح البحرى ، بشىء من التوفيق . وحصل خليفته كوليدج على تأييد اثنتين وستين دولة لميثاق باريس ، الذى قضى بعدم شرعية الحرب كأداة فى العلاقات الدولية . ويرجع مشروع ينج ومشروع دووس للتعويضات فى أصلهما إلى الولايات المتحدة ، وقد كانت للرئيس هوفر الصدارة فى اقتراح تأجيل دفع ديون الحرب . ولقد حث جميع الرؤساء الجمهوريين على انضمام أمريكا لعضوية المحكمة العالمية ــ وإن ذهبت محاولاتهم سدى ــ كما أنهم جميعاً قاموا بخطوات على سبيل التجربة نحو التعاون مع بعض جهود عصبة الأمم .

غير أن كفة هذه المحاولات ، التى اتجهت إلى نزع السلاح والسلام ، كانت أخف من أن تتوازن مع كفة العزوف الأمريكى عن العمل الحقيقى للعصبة ، والنمو المطرد للقومية الاقتصادية . والواقع أن العزلة آتت أشد عواقبها فى المجال الاقتصادى . فإن الأمة فى خوفها من المنافسة الأجنبية ، وتلهفها على الأسواق الخارجية ، وإصابتها بفكرة السيادة الاقتصـادية المـطلقة ، أقبلت على سياسة عمادها المذهب التجارى الجديد ، وكانت سياسة محملة بالخطر للعالم كله وليس لها وحدها .

ففى سنة ١٩٢٠ ، اندفع كونجرس يسيطر عليه الجمهوريون إلى إجازة مشروع

قانون بتعريفة جمركية للطوارىء ، تهدف إلى إقامة سياج لحماية المنتجات الأمريكية ضد المنتجات الأجنبية . وفى رسالة أعلن فيها الرئيس ويلسون نقضه هذا القانون ، حث على مراعاة الإدراك السليم فى هذا الصدد . وقال : « إذا كان قد جاء على أمريكا يوم ــ فى أى عهد ــ وجدت فيه ما يدعو للخوف من المنافسة الأجنبية ، فإن هذا اليوم قد ولّى . وإذا كنا نريد أن تسدد أوربا ديونها ــ سواء الحكومية منها أو التجارية ــ فإن علينا أن نكون على استعداد للشراء منها . ومن الجلى أن هذا ليس بالوقت الملائم لإقامة حواجز تجارية عالية » . ولكن الجمهوريين آثروا تجاهل هذا النصح الحكيم ، وما إن استولوا على السيطرة الكاملة على الحكم ، حتى أصدروا تعريفة فوردني ــ ماك كمبر التى رفعت الرسوم الجمركية إلى مستويات لم سبقها مثيل ، فمنعت دول أوربا من بيع سلعها لأمريكا . وبعد ثمانية أعوام ، كانت الأغلبية القوية لا تزال للجمهوريين ، وقد أجازت تعريفة سموت ــ هولى ، وهى أعلى التعريفات فى التاريخ الأمريكى ، وقد صدق عليها هوفر بالرغم من احتجاج كل اقتصادى ذى شأن فى البلاد تقريباً . ولم تغلق هاتان التعريفتان السوق الأمريكية فى وجه المنتجات الزراعية والصناعية الأوربية فحسب ، بل أفضتا إلى تعريفات انتقامية أغلقت الأسواق الأوربية فى وجه السلع الأمريكية .

ولم يكن هذا سوى وجه واحد للمسألة الاقتصادية . وكان هناك وجه آخر لا يقل عنه أهمية ، هو الوجه المالى . فقد شهدت سنوات الحرب وما بعد الحرب تحول الولايات المتحدة من دولة مدينة إلى دائنة . وكانت الحكومة خلال فترة الحرب وإعادة التعمير قد أقرضت الحلفاء والدول المرتبطة بهم حوالى عشرة بلايين من الدولارات ، ثم أغدق المستثمرون الخاصون خلال العشرينات عشرة أو اثنى عشر بليون دولار أخرى على أسواق الاستثمار فى أوربا وآسيا وأمريكا اللاتينية . فكيف كان من الممكن رعاية هذه الديون وتسديدها ــ فى النهاية ــ إذا لم تسمح الولايات المتحدة للمدينين بأن يبيعوها سلعهم ؟ لم يكن لدى ساسة الجمهوريين جواب حاضر عن هذا السؤال الوثيق الارتباط بسياستهم .

ولقد ظلت سياسة الجمهوريين طيلة العشرينات خاضعة لهذين الاعتبارين المتناقضين . فانتهجت الحكومة نحو مديونية العالم الخارجى موقف العناد المتعنت . كان لابد من وجود تنازلات سخية بالنسبة للفائدة ، أما بالنسبة لتسديد أصول الديون ، فقد كان موقف الحكومة ثابتاً ، وقد عبر عنه الرئيس كوليدج بقوله : « لقد استخدموا الأموال ، أليس كذلك ؟ » غير أن التسديد كان مستحيلاً ما دامت أسوار التعريفة الجمركية

الأمريكية قائمة لم تمس . فلم يكن من سبيل فى الواقع لكى تتمكن ألمانيا من الاستمرار فى دفع التعويضات ، والدول الأخرى كى تبتاع سلعاً أمريكية ، إلا بالإمعان فى الاقتراض .

أما فى الساحة الداخلية ، فقد ابتدأت حكومة هاردينج عهد « الوضع السَّوىّ » . . وكانت فكرة هاردينج عن الوضع السَّوىّ هو العودة إلى أيام مارك حنا وماكينلى الماضية . ولم تكن هذه سياسة عدم تدخل الحكومة فى الشؤون الاقتصادية بحذافيرها ، وإنما كانت خليطاً موفقـاً من سياستـين . . إحـداهمـا : حرية المشروعـات الخـاصـة من القيود الحكومية ، والأخرى : مساعدات سخية للمشروعات الخاصة . فتراجعت الحكومة عن المشروعـات التجـارية والصناعية ، ولكن المشروعات التجارية والصناعية تدخلت فى تشكيل معظم السياسات الحكومية .

وكـان السجـل باهـراً فى النـاحية الإيجـابية . فقد قامت التعريفتان الجمركيتان الصـادرتان فى سنتى ١٩٢٢ و ١٩٣٠ ضماناً عملياً ضد المنافسة الأجنبية . فانهمكت وزارة التجارة ، بقيادة هربرت هوفر الذى لم يكن يعرف الكلل ، فى فتح أسواق جديدة فى الخـارج ، وبـرّرت بذلـك التشدق بأنها كانت « أمتن جهاز فى العالم لغزو التجارة الخارجية » . أما فى المجال الداخلى ، فقد تعاونت الوزارة بهمة فى تنظيم حوالى مائتى جمعية تجارية واتحـاد للمنتجين (كارتِل) أشبه بتلك التى أنشئت فيها بعد ، فى عهد حكومة الانعاش القومى . وفى هذا قال هوفر فى إيجاز بليغ : « إننا ننتقل من مرحلة نشاط فردى للغاية ، إلى مرحلة أنشطة متشاركة » . فأقر الكونجرس إعانات مالية سخية للملاحة التجارية ولشركات الطيران التى كانت تنقل بريد الولايات المتحدة . وتوصلت وزارة الخـزانـة فى عهـد الوزير آندرو ميلّون إلى إلغاء ضريبة الأرباح الفائضة ، وإلى تخفيضات كبيرة فى الضرائب الاضافية وضرائب الدخول المتوسطة (العادية) ، وإلى تخفيض الضرائب العقارية . وكانت النظرية المبررة لهذا أنه سينشط التجارة والصناعة ، بيد أنه لسوء الحظ أذكى جنون المضاربة الذى ساد أواخر العشرينات .

وفى الـوقت ذاته ، كانت سياسة عدم التدخل الحكومى مراعاة بنفس القدر من الاخلاص . فأعيدت الخطوط الحديدية ، التى كانت الحكومة قد أدارتها بنجاح باهر أثناء الحرب ، إلى أصحابها بشروط سخية . كذلك أحيل شطر كبير من السفن التجارية التى صنعت أثناء الحرب إلى الشركات الخاصة بأسعار زهيدة لا يكاد يصدقها العقل . وأوقف العمل بقانونى شيرمان وكلايتون لمناهضة الترستات فعلاً ، إذ اتخذت السلطتان

التنفيذية والقضائية موقفاً يعفيها من المطالبة بأن « تبطلاً القوانين الاقتصادية » . أما أبرز تعبير لسياسة عدم التدخل الحكومى ، فقد جاء مرتبطاً بمشروعات قيام الحكومة بإنشاء وإدارة محطات توليد الكهرباء من القوى المائية . إذ كان الرئيس ويلسون قد خوّل الحكومة فى سنة ١٩١٦ إنشاء سدين نهريين عند مَصِل شولز ونهر تنيسى لتوليد الطاقة لمصانع النترات . ولقد أصبح التصرُّف فى هذه المحطات والسَّدَّيْن بعد الحرب موضوع جدل طويل ومرير . فكان المحافظون يرون تحويلها إلى شركات خاصة ، وأصر التقدميون ــ بقيادة جورج نوريس الجسور ، عضو الشيوخ عن نبراسكا ــ على استمرار بقائها ملكاً للحكومة وتحت إدارتها . وفى سنة ١٩٢٨ ، أقر الكونجرس قانوناً يقضى بأن تديرها الحكومة ، ولكن الرئيس كوليدج رفض التصديق عليه . واتخذ قرار مشابه فى سنة ١٩٣١ فخذله الرئيس هوفر ، الذى شرحت رسالته الخاصة برفض القانون فلسفة « الفردية الخالصة » ، التى كان وحزبه يرونها ، أكمل شرح :

> إننى أعارض بكل حزم دخول الحكومة فى أى عمل تجارى وصناعى غرضه الأكبر منافسة مواطنينا منافسة مقصودة . . فإن هذا يقضى على ما لشعبنا من مساواة فى الفرص ، وهو إنكار للمثل العليا التى قامت عليها حضارتنا . . وإنى لأجفل من تصور مستقبل نظمنا ، وبلادنا إذ لم يعد همّ المسئولين فيها هو نشر العدالة والمساواة فى الفرص ، وإنما يُكرِّس همهم للمقايضة فى الأسواق . فهذه ليست ليبرالية وإنما هى تحلُّل .

وكان هذا الاهتمام بالمساواة فى الفرص خليقاً بأن يلقى تكريماً أفضل ، لو أن حكومتى هاردينج وكوليدج أظهرتا اهتماماً صادقاً ومعززاً لرفاهية فئات العمال والمزارعين . بيد أن هاتين الحكومتين لم تكونا تهتمان بغير « رجل الأعمال » ، وكان مفهومها للتجارة والصناعة ضيقاً . فلم يحظ المزارعون ولا العمال بنصيب من الرخاء المتدفق فى العشرينات . ولقد طرأ انخفاض وجيز وحاد على أسعار المنتجات الزراعية فى سنة ١٩٢١ ، ولم تحن أواسط العشرينات حتى بدأ انهيار تدريجى ومتواصل دون ما انقطاع إلى أن بدأ تطبيق وسريان إصلاحات النظام الجديد . فانخفض الدخل الزراعى فيما بين سنتى ١٩٢٠ و١٩٣٢ من خمسة عشر بليوناً ونصف البليون من الدولارات إلى خمسة ونصف من البليونات . ففى سنة ١٩٢٠ ، درّ حوالى ثمانمائة مليون بوشل من القمح

ما يقرب من بليون ونصف البليون من الدولارات . بينما در محصول يقل عن ذلك بدرجة ضئيلة ما يقل عن ثلاثمائة مليون دولار فى سنة ١٩٣٢ . ولقد بيعت ثلاثة عشر مليون بالة من القطن فى سنة ١٩٢٠ بما تجاوز بليون دولار بقليل ، بينما بيع نفس المقدار بعد اثنتى عشرة سنة بأقل من نصف بليون دولار . ونفس القول ينطبق على معظم المحصولات الأخرى . وظلت الأسعار التى كان المزارع يدفعها لآلاته ومخصباته ومرهوناته على ما كانت عليه . وتجلت النتيجة فى تصاعد أرقام تأجير المزارع وبيع المرهون منها لقاء الديون . ولم يحن عام ١٩٣٠ حتى كان ٤٢ فى المائة من مزارع البلاد تدار بواسطة مستأجرين ، وكان مجموع المديونية لقاء رهن قد ارتفع فوق تسعة بلايين من الدولارات ، فى حين أن ما لا يقل عن عُشْر الممتلكات الزراعية ، بيع فى المزايدات العلنية بين سنتى ١٩٢٧ و١٩٣٢ لقاء ديون كانت مرهونة فى مقابلها .

ومع هذا ، فإن حكومتى هاردينج وكوليدج فى حرصهما على وضع الحكومة رهن المشروعات التجارية والصناعية ، أظهرتا فى هذا الموقف عدم اكتراث بالمصالح الزراعية . وكان أول حل من الجمهوريين لمشكلة الزراعة ، هو إصدار تعريفة جمركية للمنتجات الزراعية . وأقل ما يقال بصدد هذا الحل أنه لم يكن مناسباً ، لأن الولايات المتحدة كانت تصدر من المنتجات الزراعية أكثر مما تستورد . واستخدم الرئيسان حق النقض (الفيتو) لرفض مقترحات سليمة كانت تدعو إلى مساعدات مالية وإشراف على المحصولات ، برغم أنها كانت مقترحات مؤيدة من الهيئات الزراعية . وقبل فوات الفرصة ، أنشأ الرئيس هوفر مجلساً زراعياً مجهزاً بسلطة واعتمادات لمساعدة التسويق المنسق للمحصولات . ومع أن هذا حقق بعض الخير ، فإنه لم يكن كافياً .

ولقد كان عهد « الوضع السَّوى » هذا فترة خمول ورتابة لم تخفف منها سوى فضائح هاردينج المثيرة ، والمعارك الحزبية المهلكة التى تخللت فترتى حكم هوفر . وما كانت حكومة الولايات المتحدة من قبل أداة فى أيدى الجماعات ذات النفوذ بعلانية أكثر جرأة منها إذ ذاك ، فنادراً ما خضعت إدارة شؤون الدولة لحكم الاعتبارات السياسية إلى هذا الحد من عدم التحفظ . ولقد كان وارين جى . هاردينج عضواً بمجلس الشيوخ عن ولاية أوهايو ، امتاز باللطف ولكنه كان ضعيفاً . وقد رشح للرئاسة لمجرد أن أحداً لم يعرف عنه ما يعيبه ، وتم انتخابه لأن البلاد كانت قد سئمت المثالية الويلسونية . وكان انصياعه السهل لاستغلال المصالح التجارية والصناعية الكبرى للحكومة ، وتسامحه إزاء

الفساد الشنيع ، خلال العامين ونصف العام التى تولى فيها المنصب ، محققين لآمال أولئك الذين كانوا يتطلعون إلى إنهاء المثالية . وكان كالفين كوليدج الذى خلفه سياسياً محدوداً للغاية ، غشيماً ، غير واسع الأفق ، مُقلاًّ فى الكلام والآراء ، مكرساً جهوده للإبقاء على الوضع القائم ، شديد التوجس من الليبرالية فى أى أشكالها . أما هربرت هوفر ، الذى تولى الرئاسة فى سنة ١٩٢٩ ، فكان ذا مقدرة تفوق ما لسلفيه بكثير ، وذا شهرة كإدارى كفء ، ورجل حكم ذا عقلية دولية ، ومصلحاً اجتماعياً عظيماً ، ولكنه فقد كل هذه الصفات فى أربع سنوات ، وعمد إلى ارتكاب أخطاء فى الحكم على الأمور أشد خطراً مما ارتكب أى رئيس منذ عهد جرانت .

المجتمع والثقافة
فى سنوات ما بعد الحرب

هؤلاء الرؤساء الثلاثة ، الذين اختلف كل منهم عن الآخر فى الشخصية والطباع بهذه الدرجة ، كانوا يمثلون تمام التمثيل القوى المتسلطة على المجتمع الأمريكى خلال سنوات ما بعد الحرب . كانت مثالية عهد ويلسون قد ولّت ، وكان الشغف الروزفلتى بالإصلاح الاجتماعى فى علم الغيب بعد . فكان عقد العشرينات من القرن العشرين خاملاً ، معتماً ، يتسم بالاغراق فى المصالح المادية ، والقسوة فى غير رحمة . وقد قال الرئيس كوليدج فى إيجاز بليغ : « المشروعات التجارية والصناعية فى أمريكا لا تعرف المجاملة » ، وكانت هذه العبارة صحيحة وإن لم تكن شاملة . فإن الأمريكيين فى ضيقهم بالمثالية ، وخيبة أحلامهم بشأن الحرب وعواقبها ، انصرفوا فى تحمس غير مستتر إلى جمع المال وإنفاقه . فما كان المجتمع الأمريكى مادياً بهذا القدر فى يوم من الأيام حتى فى عهد ماكينلى ، وما كان فى أى وقت سابق خاضعاً تماماً لتسلط مفاهيم ومبادىء ساحة السوق ، أو لأساليب الآلة كما كان فى تلك السنوات . كان عهد التضخم فى الحجم وعهد الكفاءة ، فاتجه الاعجاب الجماهيرى إلى هذه الأمور ؛ فكان الأبطال الشعبيون هم : سمسار الأوراق المالية ، ومندوب البيع ، ومندوب الإعلان ، ونجم الأفلام السينمائية . ولقد نمت الأمة ــ من حيث السكان ــ إلى سبعة عشر مليوناً ، ومن حيث

الثروة إلى درجة تفوق هذه ضخامة . وإذا لم تكن الثروة موزعة توزيعاً عادلاً ، فقد بدا أن هناك منها ما كان كافياً للتداول ، وأخذ الناس يتشدقون بـ « العهد الجديد » ، الذى لا تخلو فيه قِدْر من دجاجة ولا حظيرة من سيارتين . وصارت المدن أكبر ، والبنايات أكثر ارتفاعاً ، والطرق أطول ، والثروات أعظم ، والسيارات أسرع ، والكليات أوسع ، والملاهى الليلية أكثر بهجة ، والجرائم أكثر عدداً ، والشركات أقوى نفوذاً ، والمضاربة أشد احتداماً فى التاريخ مما كانت إذ ذاك . وكانت الإحصاءات الجامحة الازدياد تمنح معظم الأمريكيين شعوراً بالرضاء إن لم يكن بالأمن .

كانت فترة تماثل وتطابق بين القوم ، وعدم تسامح مع أى خروج على التطابق والتماثل . وكانت الشخصية الأدبية التى تقبلها معظم الأمريكيين باعتبارها أكثر الأعمال تمثيلاً لهم ، هى شخصية جورج بابيت التى ابتكرها سينكلير لويس ، والتى كان صاحبها يصدق كل ما يسمع وما يقرأ . ومن الحقائق الداعية للدهشة أن الجمهور لم يكن عنيفاً فى رد فعله إزاء فضائح حكومة هاردينج ، ولا طلب القصاص من الحزب المسئول عنها ، بل إنه على النقيض ، آثر باستيائه أولئك الذين كشفوا هذه الفضائح أو انتقدوا نهج الحياة « الأمريكى » . ولقد غرست بذور عدم التسامح فى أثناء الحرب ، فنمت بعد الحرب وترعرعت بشكل غريب ومثير للذعر . فإذا القومية تعصبية فى مغالاة ، وإذا مبدأ العزلة يتخذ طابعاً خلقياً وفكرياً إلى جانب طابعه السياسى . فكان ثمة عداء واسع النطاق للأجانب وللأفكار الأجنبية . وأحيط بالأجانب الذين حامت حولهم شبهة النوازع الراديكالية ، وأبعدوا عن البلاد بالعشرات ، وطُهِّرت المجالس التشريعية من الاشتراكيين ، وحاولت الولايات أن تفرض الولاء للنظم السياسية والاقتصادية بحكم القانون . وكرست « الكوكلكس كلان » ــ التى كانت تزهو بعضوية بلغت المليون ــ نفسها لنزوة تفوُق العنصر الآرى ، التى قدَّر للحكام الديكتاتوريين الأوربيين أن يعتنقوها بعد عقد من الزمن ، وأشاع أعضاؤها ذوو القلانس السابغة الخوف لدى الكاثوليك والزنوج واليهود . ولقد وُجِّهت الروح العدائية نحو منتقدى الأوضاع التجارية والصناعية الأمريكية ، لا تفريق فى ذلك بين قادة العمال ، والاقتصاديين الليبراليين ، ودعاة السلام ، و« المهيجين » من أى لون ، ممن كانوا يجسرون على إثارة الريب فى أخلاقيات التجارة والصناعة . ولقد لاح إجهاض مأسوى للعدالة فى قضيتين ذاعت لهما سمعة سيئة ، هما قضيتا مونى وبيلّينجز فى كاليفورنيا ،

وساكّو وفانزيتّى فى مساشوستس . وقد بدا الادعاء مصمماً ، فى الثانية بوجه خاص ، على معاقبة المتهمين ــ الذين كانوا من أشياع الفلسفة الفوضوية وواضعى المنشورات ــ جزاء أنشطتهم الراديكالية وليس عن أية جرائم تتسم بالعنف ويقوم عليها الدليل . ولقد أعدِم ساكو وفانزيتى فى سنة ١٩٢٧ . وأقنعت المراجعة الدقيقة للقرائن ــ فيما بعد ــ الكثيرين بأن ساكو كان مذنباً ، يحمل وزر جريمة القتل التى حوكم من أجلها ، أما فانزيتى ــ وهو داعية بليغ للمبادىء المثالية ــ فكان بريئاً .

على أنه من السهل الشطط فى مدى وعمق هذا التعصب . ومن اللائق أن نتذكر أنــه كان من وحى تحمس للديمقــراطية ضلّ التــوجيه ، ولم يكن صادراً عن عداء للديمقراطية . وقد ظل تيار المعارضة له والاحتجاج عليه يجرى قوياً وعارماً طيلة هذه الفترة بأكملها . فما من تعصب مضى دون لوم وتقريع ، وما من ضحية للظلم كان من الـذلـة بدرجة لا تمكنه من استنهاض رجال لمناصرة قضيته . ولعل أطرف الأمور عن قضيتى مونى وبيلينجز ، وساكو وفانزيتى ، أنهما أثارتا احتجاجات بليغة وجريئة ، قدِّر لها أن تُفلح فى أولى القضيتين وأن تخفق فى الأخرى وأحرزت المجلات الليبرالية ــ مثل « نيشن » و « نيو ريببليك » ــ رواجاً ونفوذاً كبيرين ، وحظى الشعراء والروائيون الذين راحوا يروجون لرسالة التمرد والثورة بشعبية واسعة ، وظلت الكليات والجامعات مراكز لحرية الفكـر والبحث والتحـرى . ووقفت المحاكم طيلة هذه السنوات صامدة لحماية الحـريات الشخصية والضـمانـات التى كفلتهـا قوانـين الحقوق . ولمع فى ذلك العهد برانديس ، وكاردوزو ، وهولمز .

وكـان نمـو المـدن وازدياد سرعة التغيرات التكنولوجية أهم عاملين حكما التطور الاجتـماعى أثناء هذا الجيل . فلم تحن سنة ١٩٣٠ حتى كان أكثر من نصف سكان البلاد يعيشون فى المدن الصغيرة والكبيرة ، وكان قسم ليس بالصغير منهم يقيمون فى مناطق العواصم الكبرى . فقد كانت المدن مراكز الصناعة والتجارة والأعمال والحكومة والـترفيه والتعليم والأدب والفنـون . وانتشرت أفكار وأساليب حياة الحضر فى الريف كله . وأفسحت الإقليمية الريفية الطريق لتعميم التناسق وتوحيد الأساليب ، تحت تأثير الأفـلام السينـمائية والـراديو والسيارة والمواد الصحفية التى توزعها الوكالات لتنشر فى صحف مختلف البلدان فى آن واحـد ، والإعلان على مستوى الدولة ، وغير هذه من مؤثـرات عديدة . . بل إن الفكـاهـة ــ ولعلها أبرز أشكال التعبير القومى ــ والقصة

الطويلة التى تدور أحداثها فى منطقة حدود العمران ، أفسحتا الطريق للنوادر المتكلّفة أو الرسوم الكاريكاتورية التى روّجت مجلة « نيويوركر » لها .

وكانت السيارة والسينما والراديو هى أهم القوى الكثيرة التى كانت تعمل على تعميم التناسق . بل إنها كانت أهم العوامل فى الحياة الاجتماعية لهذا العقد من الزمن . وكانت السيارة أسبق الثلاثة عهداً ، بل كانت فى عدة اعتبارات أعظمها شأناً . إذ كان هنرى فورد قد صنع « مركبة بالبنزين » فى أواسط التسعينات من القرن التاسع عشر ، ولكن طراز « تى » الذى أنتجه فورد ، وغيره من السيارات الرخيصة ، لم تدرج على الطرق بمئات الآلاف قبل العقد الثانى من القرن العشرين . ففى سنة ١٩٢٠ ، كان المستعمل من السيارات حوالى تسعة ملايين ، وإن هى إلّا عشر سنوات حتى كان العدد قد تضاعف ثلاث مرات . وقد حطمت السيارة العزلة ، وزادت من سرعة الحياة ، وكشفت طرقاً جديدة لقضاء الفراغ ، وأتاحت للشباب حرية جديدة ، وخلقت صناعات جديدة واسعة المجال ، ومنحت عملاً لملايين الناس ، وحثت على برنامج لإنشاء الطرق يشمل الدولة كلها ، وأقامت منافسة خطيرة للسكك الحديدية ، وتقاضت من الأمة ضريبة من الأرواح والأطراف فى كل عام ، تعادل ما تقاضته الحرب الأهلية . ولم تمر سنوات حتى لم تعد السيارة شيئاً كمالياً ، بل أصبحت من الضرورات ، بل لعلها الضرورة اللازمة .

ولم تكد السينما والراديو تكونان أقل أهمية من السيارة ، وإن كانتا جديدتين نسبياً . وترجع السينما إلى السنوات الأولى من القرن العشرين ، بيد أنها لم تصبح صناعة وتجارة ذات رواج كبير حتى الحرب العالمية الأولى ، ولا توصلت إلى نفوذها الهائل قبل ابتكار « الأفلام الناطقة » فى سنة ١٩٢٧ . ولم تحن نهاية العقد حتى كان عدد المترددين على السينما ٨١٠٠ مليون شخص فى الأسبوع . . وكان شطر كبير جداً منهم من الأطفال . ومن السينما استمد الجيل الناشىء كثيراً من آرائه عن الحياة ، وهى عادة آراء خيالية ومضلِّلة إلى حد كبير . وكان عهد العنف قادماً فى الطريق . فلقد وفرت السينما للكثيرين مهرباً من الواقع الكئيب إلى عالم خيالى شاعرى ، ينتهى فيه الشر دائماً إلى العقاب ، والفضيلة إلى الجزاء ، وجميع النساء فيه جميلات ، وجميع الرجال ملاح ويجيدون الأساليب البهلوانية ، والثراء فيه يجلب السعادة بينما يجلب الفقر القناعة ، وكل القصص فيه ذات نهاية سعيدة . ففرضت السينما لنفسها نفوذاً مباشر أوغير مباشر يجل على

الحسبان ، وأقامت الأطرزة فى الثياب وتصفيف الشعر ، وفى الأثاث والزينة الداخلية (الـديكور) ، وابتكرت أغانى شعبية ، ولقّنت الناس عادات فى السلوك ، وغرست فيهم أخـلاقـاً ، وخلقت أبـطالاً وبطلات شعبيين . ولقد امتد نفوذها فى كافة أرجاء العـالم ، وأثبتت أنها قد تكـون أقـدر أداة للإمبيرالية الثقافية والاجتماعية الأمريكية . وتضمنت برامجها صورة ــ كاريكاتورية أحياناً ــ للحياة الأمريكية ، إرضاء واستهواء لجمهور السينما فى الجزر البريطانية ، وروسيا ، والملايو ، والأرجنتين .

كذلـك كان الـراديو ذا نفـوذ مماثل ، كأداة للترفيه ، والتعليم ، وتوحيد أساليب الحياة . ولقد نما الراديو وتطوّر بسرعة أثناء الحرب العالمية الأولى ، وقد بدأت أول محطة تجارية للإذاعة ، عملها فى سنة ١٩٢٠ . وإن هو إلا عقد من الزمن ، حتى كان بوسع كل أسرة فى الأمة تقريباً ، أن تستمع إلى عروض مضحكة مثل « آموس » و « آندى » ، أو الأنباء المذاعة ، أو الموسيقى . وأصبح الراديو كالسينما مشروعات تجارية كبيرة ، كما أنـه أصبـح كالسينما موجهاً للاستهلاك الجماهيرى ، وكان لزاماً عليه أن يهيىء برامجه للتشويق الشعبى ، حتى أن أية دراسة لبرامج الراديو كفيلة بأن تكشف بقدر ما تكشف أية دراسـة أخـرى عن العقلية الشعبية . وقد اضطلع ــ بدرجة ضعيفة فى الواقع ــ بالـبرامـج التعليمية ، كما أنه يذيع الأنباء ، والحملات السياسية . ومن الطريف أن نلاحظ أن الراديو ظل ــ فيما عدا استثناءات معدودة ــ مشروعاً خاصاً ، لا يُنْفَق عليه من الضرائب ، وإنـما يُنْفِق عليه المعلنـون ، كما هو الشأن فى الدول الأوربية كافة . وتختلف الآراء بصدد ما إذا كان الأمريكيون قد دفعوا ثمناً باهظاً للغاية لقاء التحرر من سيطرة الحكومة على الراديو .

الكسـاد الاقتصـادى الكـبير

تولى هربرت هوفر الحكم فى ظروف مواتية تفوق تلك التى رافقت أى رئيس للجمهورية بعد تافت . فقد كانت كل المظاهر توحى بأن البلاد لم تكن أكثر رخاء ، ولا كان المجتمع أكثر ازدهاراً ، عما كانا إذ ذاك . كانت الأوراق المالية قد ارتفعت إلى مستويات شاهقة ، فكـان مئـات المـلايين من الدولارات تدفع شهرياً من سندات وأسهم جديدة ، من

المستثمرين الطامعين فى أن يشتركوا فى اللعبة الجديدة ، لعبة تكوين ثروة من لا شىء . ولم تعد المصانع قادرة على أن تنتج من السيارات ، والبرادات (الثلاجات) ، والمذياعات (الراديو) ، والمكانس الكهربائية ، والمواقد البترولية ما يلاحق الطلب النهم على الأجهزة الجديدة . وأخذت السكك الحديدية ترزح بأحمالها ، وبرزت مئات الآلاف من المنازل الجديدة ، فى خليط عجيب من الأطرزة : طراز عهد الاستعمار ، والتيودورى ، والقوطى ، والإسبانى ، والمكسيكى ، والمستحدث ، فى ضواحى المدن الكبرى ، أو فى مدن الصناعات الجديدة فى الجنوب والغرب . واكتظت الكليات ودور السينما ، وأصبح تزويد الرجال بسلع الأناقة والنساء بمعاجين التجميل تجارة كبيرة ، بينما ارتقى الإعلان من مستوى مهنة تجارية إلى أعلى المستويات كعلم وفن . وفى كل يوم أخذ يظهر تحسين تكنولوجى جديد وروائع أو تقدم علمى مطمئناً إلى أن ثمة أزمان أحسن وأفضل فى الطريق . كان هذا هو العهد الجديد . وإذا كان المزارعون أو العمال غير المهرة لم يحظوا بنصيب من خيراته ، فقد كان هذا مقدّراً لهم فى وقت لاحق . وكان من المناسب أن يأتى استهلال ذلك العهد الجديد على يدى رجل كسب شهرته بوصفه مهندساً ، وأثبت أنه مصلح اجتماعى ، وكشف عن فهمه للحضارة القائمة على التجارة والصناعة بخدماته الجليلة وهو وزير للتجارة . ولقد قال هوفر مزهوّاً : « إننا فى أمريكا أقرب إلى الانتصار النهائى على الفقر مما كان سواناً فى أية بلاد ، فى أى وقت سابق من التاريخ » . ولقد كان كل امرىء تقريباً يتوقع أن يحتفل هوفر نفسه بهذا « الانتصار النهائى » . ولكن القدر كان قاسياً .

ذلك أن انهيار اكتوبر سنة ١٩٢٩ ، جاء بفجاءة درامية ومثيرة . ففى الرابع والعشرين منه ، انتقلت ملكية ما يزيد على اثنى عشر مليوناً من الأسهم ، من يد إلى يد ، فى إقبال محموم على البيع . وفى التاسع والعشرين منه جاءت الطامة . وخسرت الأسهم المتينة المكانة ــ كأسهم « أمريكان تليفون آند تليجراف » و« جنرال إليكتريك » و« جنرال موتورز » ــ ما بين مائة ومائتى بنط فى أسبوع واحد . ولم تحن نهاية الشهر ، حتى كانت خسارة حملة الأسهم المحسوبة قد تجاوزت ١٥ بليوناً من الدولارات . ولم تحن نهاية العام حتى كان الانكماش فى قيمة الأوراق المالية من كافة الأنواع قد بلغ مبلغاً خيالياً ، قدره أربعون بليوناً من الدولارات . وخسر ملايين من المستثمرين مدخرات أعمارهم . بيد أن دوامة الكساد الاقتصادى لم تتوقف عند هذا الحد . فإذا دور الأعمال

تغلق أبوابها ، والمصانع تتوقف عن العمل ، والمصارف تهبط إلى الحضيض ، وملايين المتعطلين يذرعون الشوارع بحثاً عن عمل . وفقدت مئات الآلاف من العائلات بيوتها ، وهبط تحصيل الضرائب إلى الدرجة التى عجزت عندها المدن والمقاطعات عن دفع رواتب المدرسين ، وتوقفت أعمال الإنشاء والبناء تماماً ، وتقلصت التجارة الخارجية ــ التى كانت قد أضيرت من قبل أيما ضرر ــ إلى درك لم تنحدر إليه من قبل .

ما أسباب هذا الفزع والكساد الطويل الذى أعقبه ؟ ليس من المقنع ولا من المفيد أن نقول أن ذلك الكساد جزء طبيعى من الدورة التجارية ، وإن كان هذا صحيحاً إلى قدر كبير عندما تعاف الحكومة التدخل للسيطرة على جموح المشروعات الفردية . ففى حالة فزع عام ١٩٢٩ ، كانت ثمة عوامل من الواضح تماماً أنها أفضت إلى الانهيار . وأول كل شىء أن الطاقة الإنتاجية للأمة كانت أعظم من طاقتها الاستهلاكية . وكان هذا راجعاً إلى حد كبير إلى أن قسطاً من الدخل القومى أكبر مما ينبغى أخذ يتجه إلى نسبة ضئيلة من السكان الذى كانوا يحولونه على الفور إلى مدخرات أو إلى الاستثمار ، بينما كان نصيب طبقات العمال والمزارعين والمستخدمين من الدخل غير كاف ، فى الوقت الذى كان نظام المشروعات يستند إلى مقدرتهم المستمرة على الشراء . وكان ثانى العوامل أن سياسات الحكومة فيما يتعلق بالتعريفة الجمركية وبديون الحرب اقتضبت بدرجة كبيرة السوق الخارجية للسلع الأمريكية ، فلما حدثت الضائقة الاقتصادية التى سادتُ العالم فى أوائل الثلاثينات ، انهارت تلك السوق . وكان ثالث العوامل أن سياسات الائتمان السهل كانت قد أفضت إلى توسع مشتط فى الاقراض ، وتوسع هائل فى الشراء بالنسيئة (التقسيط) وإلى مضاربات جامحة . وقد بلغ مجموع الديون الحكومية والخاصة ما بين مائة بليون ومائة وخمسين بليوناً من الدولارات ، كما أن المضاربة دفعت الأوراق المالية والعقارات إلى أبعد من قيمتها الحقيقية . وأخيراً ، فإن الكساد الزراعى المطرد ، والبطالة المستمرة فى الصناعة ، والاتجاه المتواصل نحو تركيز الثروة والنفوذ فى كثير من الشركات الكبرى ، أدت إلى اقتصاد قومى غير سليم فى جوهره .

ومهما تكن الإيضاحات ، فلم يلبث أن اتضح أن الأمة فى قبضة أشد كساد مدمر فى تاريخها . فإن فزع عام ١٨٣٧ استمر ثلاث سنوات أو أربعاً ، وفزع عام ١٨٧٣ امتد إلى خمس سنوات ، كما أن كساد سنة ١٨٩٣ الفظيع انتهى فى ربيع سنة ١٨٩٧ ، فى حين أن فترات الفزع الاقتصادى فى أعوام ١٩٠٤ و١٩٠٧ و١٩٢١ كانت قصيرة

الأجل . بيد أن الكساد الكبير فى سنة ١٩٢٩ استمر قرابة عقد كامل . فلم يسبقه مثيل فى طول الأمد ، وفى الفقر الشامل والمأساة التى صبّها على المجتمع . كذلك كان يختلف عن نوبات الكساد السابقة ، فى ناحية أخرى . إذ من الواضح أنه كان نتاج الوفرة لا العوز . كان مثالاً أكمل من أى كساد آخر لانهيار نظام توزيع الثروة وتوزيع السلع وفشل قيادة التجارة والصناعة .

وما دام الكساد لم ينبعث عن أسباب طبيعية ، وإنما عن أسباب مصطنعة ، فإنه كان يدعو بالحاح إلى تصرف حكومى نضالى . بيد أن هذا لم يحدث . إذ أن الرئيس هوفر كان كملايين غيره يؤمن بقوى الانعاش التلقائية ، فلم يستبعد تماماً التزام الحكومة بالتصرف ، بيد أنه ظل مؤمناً بأن النجدة كانت مهمة المبرات الخاصة والحكومات المحلية وحدها . وقد قال فى هذا : « علينا كأمة أن نصدّ الجوع والبرد عن أولئك الذين يعانون الضائقات الحقة من شعبنا » . بيد أنه كان يرفض فى إصرار المشروعات الموضوعية للإغاثة القومية المباشرة للمتعطلين والمتضورين جوعاً . وانتهج من البداية سياسة التهوين من مدى الكساد ، فلما لم يعد هذا ممكناً ، اعتنق نظرية أن الرخاء قريب لا ريب فيه . وفى الناحية الإيجابية ، قنعت حكومة هوفر بسلسلة من العلاجات النوعية الجزئية : برنامج لإنشاء الطرق ، والبنايات العامة ، والخطوط الجوية ؛ واعتماد ٣٠٠ مليون دولار للقروض الزراعية ؛ وقانون « جلاس ــ ستيجال » لتوسيع التسهيلات الائتمانية فى نظام الاحتياطى الفيدرالى ؛ وفوق كل هذا إنشاء شركة لتمويل التعمير ، مع بليونين لإقراض المصارف والسكك الحديدية وشركات التأمين والمؤسسات الصناعية .

ولكن هذه الإجراءات لم تكن كافية لسوء الحظ ، فأخذ الموقف ينحدر من سىء إلى أسوأ باطراد . ولم تحن سنة ١٩٣٢ حتى كان عدد المتعطلين قد تجاوز اثنى عشر مليوناً ، وحتى أغلق ما يزيد على خمسة آلاف مصرف أبوابها ، وبلغت الافلاسات التجارية اثنين وثلاثين ألفاً ، وهبطت أسعار المنتجات الزراعية إلى أدنى مستوى فى التاريخ ، وتعرضت الطبقة الوسطى لخطر الزوال ، وهبط الدخل القومى من أكثر من ثمانين بليوناً فى سنة ١٩٢٩ إلى أربعين بليوناً ، وبدا أن الاقتصاد القومى للبلاد بأكمله يتصدع ويتحلل ، وصار الشعب فى حالة نفسية بشعة .

والأمريكيون ليسوا ميالين للثورة ، لذلك تطلعوا فى هذه الأزمة نحو قيادة مختلفة ،

بأمل . وكان فريق من التقدميين الجمهوريين قد هاجموا ــ بقيادة الشيوخ نوريس ، ولا فوليت ، وكوستيجان ، وكتنج ــ سياسات هوفر ، ولكنهم لم يكونوا من المقدرة بدرجة تمكنهم من انتزاع السيطرة على الحزب من المحافظين ، ودعت الضرورة البلاد إلى التطلع إلى الديمقراطيين من أجل الخلاص . وفى سنة ١٩٣٠ ، فاز الديمقراطيون فى انتخابات الكونجرس بأغلبية ساحقة . ولم يفد محافظو الحزب الجمهورى من دروس الكساد ، فأعادوا ترشيح الرئيس هوفر فى تحدٍ . وعاد هوفر يهيب بـ « الفردية الخالصة » لحل الأزمة القومية . وقدم الديمقراطيون فرانكلين دى . روزفلت ذا الشخصية الفائرة التحمس ، الشديدة الجاذبية ، وكان كمحافظ للامبايرستيت قد كشف عن شخصية واسعة الحيلة ، جسور ، وعن أنه زعيم ومصلح إنسانى ، وسياسى داهية ، وقد وعد الأمة بـ « نظام جديد » . وفى انتخابات نوفمبر ، شق روزفلت طريقه مظفراً إلى البيت الأبيض ، على سيل جارف من أغلبية شعبية بلغت سبعة ملايين من الأصوات .

الفصـــل ٢٣

فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد

الرجـل والمشـكلة

وفقت الديمقراطية الأمريكية دواماً فى الاهتداء إلى قادة عظام فى أوقات الأزمات الكبرى ولقد كان الاختيار أحياناً مبنياً على منطق ومقصود ، كما فى حالة واشنطن . وفى أوقات أخرى كان الاختيار مصادفة ، كما فى حالات لينكولن وتيودور روزفلت وويلسـون . وليس من الممكن القـول بأن فرانكلين روزفلت كان كَمـاً غير معروف عندما انتخب لرئاسة الجمهورية ، بل من الجائز أن نؤكد أن فئة قليلة من الذين منحوه أصواتهم والأمل يحدوهم ، كانوا يدركون أنهم أوتوا فى شخص روزفلت زعيماً كان فى الدفاع عن الديمقراطية والقومية نداً للينكولن ، وفى القيادة نحو نظام عالمى أفضل كان زصيفاً لويلسون .

كان روزفلت قد بنى شهـرته كحاكم لنيويورك ذى كفاءة وذى عقلية اجتماعية ، بيد أن وراء ذلـك اجتهـاداً طويلاً فى التلمذة السياسية . كان كموسر من أسرة مرموقة ،

وخرّيج فى مدرسة غروتون وفى جامعة هارفارد قد قرر من سن مبكرة أن يقتفى خطوات قريبه فى البيت الأبيض ، بأن يقبل إقبالاً نشيطاً على الأمور السياسية . وقد امتازت جهوده الأولى بصفتين أصبحتا طابعين له فيما بعد : الولاء للمبادىء التقدمية ، وموهبة تيسر له الاستحواذ على ثقة الناس من كافة مناحى الحياة . ولقد خدم فى الجمعية التشريعية لولاية نيويورك ، وكان مساعداً لوزير البحرية فى عهد ويلسون ، ورشح لمنصب نائب الرئيس فى سنة ١٩٢٠ . ثم أصيب بشلل الأطفال وقد ناضل فى تؤدة حتى استرد صحته ، وأخذ يدرس خلال سنوات الاعتكاف عن النشاط السياسى ــ التاريخ السياسى الأمريكى ، واكتسب بالمراسلة والاتصالات الشخصية أتباعاً كثيرين وأوفياء . وفى سنة ١٩٢٨ ، سبق المرشحين معه إلى الفوز بمنصب حاكم ولاية نيويورك ، ثم أعيد انتخابه بعد عامين بأغلبية أكبر . ومن المحتمل أن روزفلت ــ بهذه الخلفية والخبرة ــ كان أفضل زعيم من الديمقراطيين معرفة واطلاعاً فى البلاد ، فى سنة ١٩٣٢ .

بيد أن الرئيس الجديد أوتى صفات ومؤهلات أخرى بجانب الخبرة والمعرفة . وكان ذا ثقة غريزية بعامة الناس لا تقل عما كان لبريان ، وذا إيمان نابع عن العقل والمنطق بالديمقراطية يعادل فى العمق ما كان لويلسون . وكان ذا دهاء سياسى ، وفهم لفن القيادة ، وغريزة تهديه إلى الشريان الحيوى للمسائل الكبرى . ثم كان على غرار جيفرسون ، انتهازياً بالنسبة للوسائل ، وذا مثابرة دائبة بالنسبة للغايات ، قابلاً للتفاهم بالنسبة لغير الجوهريات ، ولكنه نادراً ما يتزحزح بالنسبة للجوهريات . كما أنه كان على بيِّنة من أن السياسة فن كما هى علم . ولم يكن يغتر بالفكرة التى تزيِّن أن من الممكن إعادة تشكيل المجتمع بمشروعات على الورق ، أو أن مهنة الحكم من الممكن تذليلها لتكون نوعاً من الإدارة العلمية للسياسة ، أو نوعاً من المشروعات الهندسية . كان على علم بالماضى الأمريكى ، وعلى فهم للعالم الذى كان يعيش فيه ، كما أنه أولى شطراً من تفكيره لتنظيم عالم الغد . وكان يثق بالسياسيين ، ولكنه لم يمسك ثقته عن الخبراء والأخصائيين ، وكان مرهف الحس بالنسبة للرأى العام ولكنه لم يكن يتردد عن أن يصوغه ، ولا كان يخاف من أن يتصدى له . ولقد كان يبدو عفوياً بصدد قرارات كبرى إلى درجة تثير الأسى فى بعض الأوقات ، بيد أنه كان ذا اهتمامات واسعة النطاق ، وطاقة لا تعرف الكلل ، وروح استبشار سريعة العدوى ، كان ينقلها إلى المحيطين به ، وإلى الشعب بأسره فى نهاية الأمر . وهذه الحسنات العظيمة ترجح أخطاءه بكثير ، وهى

أخطاء تمثلت فى : طريقة عفوية فى معالجة المسائل البالغة الخطورة ، وازدراء ارستقراطى للمال ولأصحاب المال ، ومسلك متعال نحو مشكلات المالية العامة .

وكان الخطاب الافتتاحى لروزفلت وعداً بما هو مقبل ، حافلاً بالمعانى كخطاب ويلسون فى استهلال فترة حكمه الأولى ، وإن لم يكن فى بلاغته . فأكد أن الأمة سليمة فى جوهرها وأسسها ، وأن « على أعتابنا وفرة وافرة ، حتى أن أى سخاء فى استعمالها يتضاءل إزاء مشهد الوفرة ذاتها » إنما كان العيب فى « الصيارفة » و« الساعين من أجل أنفسهم » ، وهؤلاء قد طردوا من المعابد [1] ، والواجب المرتقب هو مهمة تجديد وإعادة الوضع السليم . ولهذه المهمة كرس الرئيس نفسه . . لتخفيف الفقر والعوز ، وإعادة التوازن بين الزراعة والصناعة ، والاشراف على الأعمال المصرفية والأوراق المالية ، وإعادة تصحيح العلاقات الاقتصادية الدولية ، وبدء سياسة حسن الجوار . وقال فى جرأة : « إننى على استعداد لأن أوصى بالاجراءات اللازمة لأمة منكوبة وسط عالم منكوب . هذه الإجراءات . . . سأسعى فى نطاق سلطتى الدستورية ، لتحقيق سرعة انتهاجها » . فإذا تخاذل الكونجرس فى الاستجابة « فسأطلب إلى الكونجرس الأداة الوحيدة الباقية للتصدى للأزمة . . . سلطة تنفيذية واسعة لشن حرب ضد الظروف الطارئة ، تعادل فى كبرها السلطة التى يجدر ايكالها لى لو أن عدواً أجنبياً غزا بلادنا فى الواقع » . وانتهى إلى القول :

> إننا نواجه الأيام العصيبة التى ترتقبنا بالشجاعة الحارة المستمدة من الوحدة القومية ، بوعى جلى يدفعنا للسعى إلى القيم الخلقية القديمة والغالية ، بارتياح صاف ينبع من الدقة الصارمة فى أداء الواجب من المسن ومن الشاب على السواء . إننا نهدف إلى أن نكفل حياة قومية شاملة متماسكة ودائمة . إننا لا نتحرز فى الثقة بمستقبل الديمقراطية التى لا غنى عنها .

كان هذا الخطاب الاستهلالى بمثابة تنبيه رسمى إلى الأمة بأن ثمة نظاماً جديداً مقبل . وكانت الحاجة تدعو إلى ذلك النظام الجديد من أمد طويل . إذ أن رجال

(١) إشارة إلى طرد السيد المسيح للمرابين وطلاب الذهب من المعبد ــ المترجم .

السياسة كانوا قد قضوا ما يزيد على عقد من الزمن ، بأوراق مغشوشة ، وقد جمعت المشروعات التجارية والصناعية كل المكاسب تقريباً . ولقد اعتزم روزفلت أن يعيد قواعد اللعب الديمقراطى . وبدا النظام الجديد لكثير من المعارضين بمثابة ثورة . والواقع أنه كان نظاماً محافظاً إلى حد بعيد . . محافظاً بالقدر الذى كانت به الديمقراطية الجيفرسونية والويلسونية محافظة . كان يهدف إلى حماية الضرورات الجوهرية للديمقراطية الأمريكية من العنف الصادر عن اليسار أوعن اليمين . . إلى صون الموارد الطبيعية والبشرية . . إلى حفظ التوازن فى المصالح فى ظلال الدستور والأمن والحرية .

كان النظام الجديد من ناحية الفلسفة ديمقراطياً ، ومن ناحية الأسلوب ثورياً . ولما كانت الإصلاحات التشريعية قد احتجزت خمسة عشر عاماً ، فإنها لم تلبث أن تفجرت على البلاد بما بدا أنه عنف ، غير أنه اتضح حين هدأت المياه أنها تسير فى قنوات مألوفة فكانت سياسة صيانة الموارد فى النظام الجديد قد بدأت على يدى تيودور روزفلت ، وكانت قوانين تنظيم السكك الحديدية والترستات ترجع إلى الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وكانت بعض الإصلاحات المصرفية والنقدية قد أنجزت على يدى ويلسون . أما برنامج الإغاثة الزراعية فقد استعار الكثير من الشعبيين ، واستعار تشريع العمالة الكثير من إجراءات تطبقها ولايات مثل ويسكونسين وأوريجون . بل إن الإصلاح القضائى الذى أثار ضجة عاتية ، كان مما تطلع إليه لينكولن وتيودور روزفلت . وفى مجال العلاقات الدولية ، كانت سياسات النظام الجديد استطرادات واضحة للسياسات التقليدية الرامية إلى تدعيم الأمن القومى ، والحفاظ على حرية البحار ، ومساندة القانون والسلام ، والدفاع عن الديمقراطية فى العالم الغربى .

تطبيق النظام الجديد

كان الكساد الاقتصادى فى دركه الأسفل ، عندما تولى فرانكلين روزفلت الحكم ، فى ٤ مارس سنة ١٩٣٣ ، وكان النظام الاقتصادى للبلاد على شفا الانهيار التام . وتصدى روزفلت للأزمة بجرأة وحمية ، وقبل أن تنتهى مدة حكمه الأولى ، كان قد دفع إلى حيز الوجود بمجموعة من التشريعات أكثر تنوعاً وأهمية مما صدر عن أى واحد من سابقيه

منذ واشنطن . وكان النظام الجديد الذى أتاحته حكومة روزفلت للبلاد ، مكوَّناً من إجراءات للإنعاش والإغاثة ــ من ناحية ــ ومن إجراءات للإصلاح ، من ناحية أخرى . والواقع أن كثيراً من الإجراءات يجمع بين الغرضين ، فليس من الممكن باستمرار تعيين حد فاصل بين انتهاء الإنعاش وبداية الإصلاح . ففى مجال الإغاثة ساعدت الحكومة المشروعات التى برحت بها الضائقة ، بقروض اتحادية سرعان ما وصلت إلى بلايين من الدولارات . ولقد أرست دعائم برنامج واسع للإنفاق على الإنشاءات العامة ولإقراض مشروعات الإسكان والطرق والجسور والتحسينات المحلية ، لكى تنشط التجارة والصناعة وتوفر العمالة . ولقد أنشأت نظماً فضفاضة لإغاثة المتعطلين ، فلم تحن سنة ١٩٤٠ ، حتى كانت قد أنفقت حوالى ستة عشر بليوناً من الدولارات على الإغاثة المباشرة ، وسبعة بلايين أخرى على مشروعات عامة متباينة . كما أنها بدأت برنامجاً واسع المدى للحفاظ على الموارد الطبيعية ، كان من أدواته الرئيسية « فيلق الصيانة المدنى » ، الذى أتاح عملاً لحوالى ثلاثة ملايين من الشباب . ولقد خفت لمساعدة السكك الحديدية ، وحققت تدعيم التسهيلات ، وموّلت تحسينات تأخرت كثيراً عن موعدها . وبفضل الرعاية الاتحادية لمشروعات التأليف ، وللمسارح والفرق الموسيقية ، ولزخرفة وزينة البنايات العامة ، ساعدت الحكومة الكتّاب والفنانين والموسيقيين الذين عضّتهم الضائقة ، وبهذا أثرت الحياة الثقافية للأمة بدرجة كبيرة . ولقد كان كثير من الإصلاحات الطويلة المدى فى الزراعة والصناعة ، مرسوماً كذلك للإغاثة السريعة .

وكان من الطبيعى أن تحدث أخطاء ، بعضها خطير . فقد أثبتت إدارة الإنعاش القومى فشلاً ، حتى قبل أن تقضى عليها المحكمة العليا فى سنة ١٩٣٥ . ولم يؤد تخفيض الدولار إلى رفع الأسعار ، وهو غايته الرئيسية ، بدرجة تذكر . ولقد بددت كثير من الأموال دون جدوى ، ونما الدَّين القومى بمعدل سريع . كما اتسمت الحكومة بكثرة المنازعات الداخلية فيها ، بيد أن السجل العام للنظام الجديد كان طيباً .

وفى اتجاه الإصلاح الدائم . اتجه نظر الحكومة إلى العمليات المصرفية ، وتوليد الطاقة من القوى المائية ، والزراعة ، والعمالة ، والتأمين الاجتماعى ، والتشريع السياسى . فأغلق النظام الجديد المصارف ، ثم أعاد فتحها تحت أشد رقابة وبضمانات حكومية للودائع المصرفية . ولقد هجر قاعدة الذهب وخفّض قيمة الدولار لتحقيق

تضخم معتدل وتحت سيطرة موجهة ، وبذلك رفع أسعار السلع . وأقام رقابة دقيقة على بيع الأسهم والسندات وغيرها من الأوراق المالية . كما أنه كسر شوكة الشركات الكبرى التى كانت تفرض سلطانها على شركات أخرى ، والتى كانت قد ظفرت بسيطرة على قطاع كبير من عمليات إمداد البلاد بالإنارة الكهربائية ، والتى ما كانت تدار فى كثير من الأحيان إلا لمنفعة فئة قليلة من المهيمنين عليها . كذلك وضع مجموعة من القوانين بقواعد عادلة لممارسة التجارة والصناعة ، ترمى إلى القضاء على المنافسة المتْلافة . ورفع الضرائب على دخل الأغنياء والشركات ، وسد ثغرات التهرب فى القوانين الضريبية ، وبدد كثير من الارتباك الذى طال وجوده بالنسبة إلى السياسات الضريبية لحكومات الولايات والحكومة الاتحادية .

إعادة انتخاب روزفلت : انصراف جديد إلى الإصلاح

فى أواخر الحملة الانتخابية لرئاسة الجمهورية فى سنة ١٩٣٦ ، تنبأ جيمس إيه . فارلى المؤيد المتحمس لروزفلت ، بأنه سيفوز بأصوات جميع الولايات ماعدا مين وفيرمونت . وقد تحقق تفاؤله . ففى تنافس مع حاكم لولاية كنساس ــ جدير بالاحترام ولكنه بدون لون سياسى ، هو ألفريد إم . لاندون ــ فاز روزفلت بأكبر أغلبية شعبية فى التاريخ ، إذ نال ٢٧ ٤٨٠ ٠٠٠ صوت فى مقابل ١٦ ٦٧٥ ٠٠٠ نالها لاندون ، وأحرز فى المجمع الانتخابى ٥٢٨ صوتاً فى مقابل ٨ لمزاحمه . وكانت متانة مكانة الرئيس فى المدن بارزة بوجه خاص ، كما أن الولايات العشر التى تضم أكبر اثنتى عشر مدينة فى الدولة ، أوشكت أن تسيطر على أى انتخاب قومى . ولم يهزم روزفلت الجمهوريين وحدهم ، بل إنه هزم مجموعة كانت تسمى رابطة لينكولن ، ضمت المحافظين الديمقراطيين من أمثال جون دبليو . ديفيز وألفريد إى . سميث .

وقد أعلن روزفلت ، فى آخر خطاب مهم فى حملته الانتخابية ، أن قوى رجعية شديدة البأس كانت تحاول أن تعيد إقامة حكومة « لا أسمع ، ولا أرى ولا أفعل شيئاً » . وقال : « إنهم على قلب رجل واحد فى كراهيتهم لى . . وإننى لأرحب

بكراهيتهم » . وكان من الصحيح أن الجماعات التى تخصصت فى الكراهية والتحامل ، والزعماء الذين كانوا يدعون إلى العاطفة بدلاً من العقل والمنطق ، قد احتلوا مكانة بارزة ، مثيرة للجزع ، فى البلاد . وقد خلقتهم الآلام التى ترتبت على الكساد ، والإغراء الطبيعى الموحى بتجربة ألوان العلاج الشاملة لكافة العلل ، وانفعالية أشد المؤيدين بل وأشد المعارضين ، لإجراءات روزفلت الكاسحة ، والمخاوف من أى تغير مقبل . وكان لمنظر الاضطراب والقلاقل فى الدنيا القديمة نصيب فى ذلك ، فقد شهد عام ١٩٣٦ عدواناً يابانياً ضد الصين ، وقيام الحرب الأهلية الإسبانية .

وكانت إحدى الجماعات المتطرفة ، وهى جماعة « مجتمع المشاركة فى الثروة » التى أنشأها هيوى لونج ، تمثل اختلاجة احتضار . إذ كان لونج ــ أول حاكم للويزيانا ، ثم عضو مجلس الشيوخ ــ قد اغتيل فى خريف سنة ١٩٣٥ ، فانتهى بذلك خطر قيام نظام حكم شبه فاشى فى الولاية . ولقد تمسكت فئة ضئيلة من أتباعه بآرائه الغوغائية ، واشتركت مع الجماعتين اللتين كانتا تحت قيادة دكتور فرانسيس تاونسيند والأب تشارلز كوغلين ، فى طرح قائمة للمرشحين فى انتخابات سنة ١٩٣٦ ، تصدرها وليم ليمك ، نائب داكوتا الشمالية . وكان تاونسيند قد ابتكر مشروعاً لدفع معاشات متغيّرة لكل امرىء بلغ الستين من العمر أو تجاوزها . أما كوغلين فقد استخدم الإذاعة فى الدعوة إلى العزلة وكراهية الدول الأجنبية أو عدم الاطمئنان إليها . وعندما أخفق مجموع الأصوات التى نالها ليمك فى بلوغ ٩٠٠٠٠٠ ، تمزقت منظمته المتعددة الألوان . ولقد كان هو شخصياً مثل الدكتور تاونسيند ، حسن المقصد ، غير مؤذ ، فى جوهره . بيد أن هذا لا يمكن قوله عن كوغلين أو الانتهازى جيرالد كيه . سميث ، وهو قس من لويزيانا ، اعتنق قسطاً من أسوأ آراء لونج . أما « رابطة الحرية » ، فإن استخدام هربرت هوفر إياها للنيل بعنف من سياسات روزفلت ساعد على إفقادها ثقة الناس ، ثم قضت عليها الانتخابات .

ومن الطبيعى أن فوز روزفلت الساحق فى عام ١٩٣٦ ، منح حكومته اعتداداً ذاتياً متزايداً . كان سير الأحداث فى داخل البلاد وخارجها يبلْور تغيراً فى السياسة . وكانت أولى الملابسات القاسية للكساد قد انقضت ، فأصبح بوسع الحكومة أن تمنح الإصلاح ــ منفصلاً عن الإنعاش ــ مزيداً من العناية ، وقد اضطرتها القلاقل العالمية إلى أن تنتهج سياسة خارجية أكثر فاعلية ونشاطاً .

وجدير بنا أن نولى اهتماماً خاصاً للميادين الأربعة الكبرى للنظام الجديد : الزراعة ، والعمل ، والتأمين الاجتماعى ، والإدارة الحكومية . فكانت الغايات فى الزراعة هى رفع أسعار السلع إلى مستوى ما قبل الحرب العالمية ، وتخفيض الإنتاج الزراعى إلى الحد الذى يمكن عنده تقليل الفائضات المسببة للتلف ، وتشجيع الحفاظ على خصوبة التربة ، وزيادة تيسير القروض للمزراعين ، وإنقاذ المزارعين المستأجرين للأراضى والمزارعين فى الأراضى الحدية [1] ، وفتح أسواق جديدة فى الخارج وفى الداخل للمنتجات الزراعية . وقد حُقِّقت كل هذه الغايات إلى حد كبير . فصدر فى سنة ١٩٣٣ قانون التعديل الزراعى ، بغية التخفيض الاختيارى لإنتاج بعض محصولات رئيسية معينة ، فى مقابل مساعدات مالية من الحكومة . وقد أبطلته المحكمة العليا بعد ثلاث سنوات ، وإذ ذاك أقر الكونجرس قانوناً ثانياً أفضل للإعانة الزراعية . وقد نص على أن تقدم الحكومة مبالغ من المال للمزراعين الذين يخصصون جزءاً من أرضهم لمحصولات تُبْقى على التربة . ولم يحن عام ١٩٤٠ حتى كان ستة ملايين من المزارعين قد انضموا إلى هذا البرنامج ، وأخذوا يتلقون إعانات مالية زاد متوسطها على مائة دولار لكل مزارع . كذلك نص القانون الجديد على قروض سلعية على فائض المحصولات ، وتيسيرات فى التخزين لضمان « مصدر كاف باستمرار للقمح » ، مع التأمين على القمح . وقد أفلح التناقض فى إنتاج المحصولات الرئيسية ــ المترتب على هذه السياسة ــ وفتح أسواق جديدة فى رفع أسعار السلع الزراعية : فلم يحن عام ١٩٣٩ حتى كان الدخل الزراعى يفوق ضعف ما كان فى سنة ١٩٣٢ . ويسّرت دائرة ائتمان زراعى القروض بمعدلات اسمية للفائدة ، وتولت دائرة الضمان الزراعى تمويل عملية تمليك المستأجرين لأراضى واستصلاح المزارع الحدية .

ومن النظام الجديد ، فى ميدان العمالة ، مجموعة من القوانين التى تؤدى إلى عهد جديد . فحاول قانون الإنعاش القومى فى سنة ١٩٣٣ نشر العمل ، وتقصير ساعاته ، ورفع الأجور ، وإنهاء تشغيل الأطفال ، كما كفل المساومة الجماعية ، وحرم العقود الخارجية على نقابات العمال . ولقد أبطلته المحكمة العليا فى سنة ١٩٣٥ ، بيد أن مواده نُقِّحت فى قانونين أساسيين عظيمين : قانون واجنر لسنة ١٩٣٥ ، وقانون مستويات

(١) التى يتعادل إنتاجها مع نفقات زراعتها ، فهى لا تحقق ربحاً ولا تحقق خسارة ــ المترجم .

عادلة للعمل فى سنة ١٩٣٨ . فقد كفل قانون واجنر للعمال حق المطالبة والمساومة عن طريق نقابات من اختيارهم هم ، وحرم على أصحاب العمل التفرقة التى تغبن أى عضو نقابى ، وأقام مجلساً لعلاقات العمل لفض كل النزاعات العمالية . ولقد أثار القانون معارضة عنيفة ، بيد أنه منح العمال معاملة أفضل مما حظوا بها فى أى وقت سابق . فتجددت حيوية اتحاد العمل الأمريكى تحت رعايته ، وظهر إلى الوجود تنظيم جديد وقوى النشاط للعمال ، هو مؤتمر التنظيم الصناعى . وقد بعث مؤتمر التنظيم الصناعى هذا النقابية الصناعية التى كانت فيما مضى لفرسان العمل ، وأفلح فى تنظيم عمال الصلب والنسيج والسيارات وغيرها من الصناعات التى كانت منيعة على الحركة النقابية . ولم يحن عام ١٩٤٠ حتى كان عدد أعضاء النقابات قد ازداد إلى تسعة ملايين ، ولم تحن نهاية الحرب حتى كان العدد قد بلغ خمسة عشر مليوناً تقريباً . أما قانون مستويات عادلة للعمل فكان المقصود به وضع حد أعلى لساعات العمل وحد أدنى للأجور . فحدد أربعين ساعة كحد أدنى أسبوعى سوىّ ، وأربعين سنتاً للساعة كحد أدنى سوىّ للأجر ، وقدّر لتحديد الساعات أن يظل على حاله إلى الجيل التالى ، أما الحد الأدنى للأجور فأخذ يرتفع باطراد . كذلك حرم القانون تشغيل الأطفال فى صناعات مشتركة فى التجارة بين الولايات . . وهو تحريم أبقت عليه المحكمة العليا لحسن الحظ .

ومن التشريعات ذات الأهمية الجوهرية كذلك ، تشريع لحماية المتعطلين والمسنين والعجزة . وكانت هذه الأمور قد تركت حتى ذلك الحين للولايات . فسنت بعض الولايات قوانين بمشروعات كافية لتأمين البطالة ومعاشات الشيخوخة . بيد أنه كان من الواضح أن الولايات كانت عاجزة عن أن تعالج المشكلة بمفردها ، إذ أنها كانت مشكلة قومية فى أبعادها . فسن الكونجرس فى سنة ١٩٣٥ ، بإلحاح من الرئيس ، مجموعة من قوانين الضمان الاجتماعى ، توفر معاشات للمسنين ، وتأمينات للبطالة ، وإعانات مالية للعميان ، وللأمهات غير العاملات ، وللأطفال الكسيحين ، واعتمادات لخدمات الصحة العامة . وكان على أصحاب العمل أن يوفروا جزءاً من تمويل هذه البرامج ، وعلى العمال توفير جزء آخر ، على أن تديرها الولايات ، تحت إشراف الحكومة الاتحادية . وسرعان ما ظفر برنامج الضمان الاجتماعى بتأييد شامل ، بالرغم من المعارضة الأولية الواسعة النطاق . وقد زيد سخاء مواده ووُسّع مجاله فى السنوات التى تتابعت بعد ذلك .

وقد كان من أهم منجزات النظام الجديد إنشاء هيئة وادى تنيسى لتنمية موارد حوض من أكبر أحواض الأنهار الداخلية فى البلاد ، عن طريق استخدام السدود التى تمتلكها الحكومة لتوليد الطاقة الكهربائية ، وعن طريق برنامج واسع للإصلاح الاقتصادى والزراعى . وقد أُردِف هذا المشروع الجرىء البالغ النجاح بمشرعات مشابهة ، وإن كانت أقل طموحاً ، فى الغرب الأقصى ، واقْتُبس على نطاق واسع فى الخارج .

وأخيراً ، أدخلت حكومة روزفلت إصلاحات مهمة وبعيدة المدى على الجهاز الإدارى . فأعيد تنظيم الشعبة التنفيذية ــ التى كانت قد نمت عشوائياً وبدون تنسيق ، والتى اتسمت بعدم الكفاءة وبالإسراف ــ تنظيماً جزئياً وإن ظل ثمة الكثير الذى لابد من إصلاحه . ولعل أهم إجراء لإصلاح الخدمة المدنية منذ قانون الإصلاح الأصلى الصادر فى سنة ١٨٨٣ ، هو قانون هاتش لسنة ١٩٣٩ ، وقد حرم على المستخدمين الحكوميين الأنشطة السياسية الضارة ، ووجه الضربات إلى فساد الأحزاب السياسية وشططها . وفى سنة ١٩٣٧ ، اقترح الرئيس مشروعاً لإصلاح المحكمة العليا ، إذ أقلقه أعمق القلق سلسلة القرارات التى لم يسبقها مثيل ، والتى كانت تلغى معظم إجراءات « النظام الجديد » . وكان أسلوبه هو تحقيق تقاعد القضاة المسنين ، وتزويد المحكمة بدم جديد ، بغية إقناع المحكمة بالعودة إلى التقليد العظيم الذى وضعه مارشال ، وستورى وهولمز . . تقليد تفسير الدستور على أنه أداة مرنة للحكومة ، وليس حاجزاً فى طريق الحكومة . وقوبل اقتراح روزفلت الموضوعى بانتقاد حاد ، وما لبث أن هُزم . على أن رجال المحكمة بدأوا ــ فى تلك الأثناء ــ يتغيرون ، ولم يطل الوقت حتى أخذوا ينظرون نظرة أكثر استنارة إلى التشريعات التى يصدرها فرعا نظام الحكم الآخران [1] ، المساويان للقضاء ، والمستقلان عنه . فعكست معظم قراراتها السابقة التى كانت تشل الحكومة ، وإذا الجدل الكبير الذى أثاره روزفلت بصدد المحكمة ، وإن أنتج كثيراً من الارتباك والسخط ، ينتهى إلى خطوة نحو تلقين الأمة الطابع الحقيقى المميز للنظام الدستورى الأمريكى ، وحمل المحكمة على أن تبدى احتراماً أكثر واقعية للنصوص الدستورية القاضية بفصل سلطات الحكم الثلاث وتساويها ، وأن تتكيف مع الديمقراطية الأمريكية .

(١) الهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية ــ المترجم .

شبح الحرب

قطع صخب الشؤون الخارجية استرسال البرنامج الداخلى لروزفلت على نحو مزعج ، كما حدث لبرنامج ويلسون . وقبل أن يقطع شوطاً فى فترة حكمه الثانية ، كان قد اتضح أن المشكلات الدولية خليقة بأن تتقدم على المشكلات الداخلية . كان نظام الأمن الجماعى الذى وضعه الرئيس ويلسون وهو مفعم بالأمل ، قد تصدع ابتداء من العشرينات ، وواصل تصدعه فى الثلاثينات دون علاج شاف . ولابد من أن تتحمل الولايات المتحدة بعض مسئولية هذا التصدع . إذ أن سياسة العزلة التى اعتنقتها بكل اعتداد حرمت عصبة الأمم من الدعم المعنوى والعملى من أعظم الدول الكبرى العالمية وأكثرها استقلالاً . وساهمت سياساتها الجمركية فى الانهيار الاقتصادى العالمى ، كما لاح أن انسحابها من الشرق الأقصى شجع استمرار العدوان اليابانى ، وأدى السعى المهتاج إلى نزع السلاح إلى صرف الدول الديمقراطية عن اتخاذ موقف واقعى إزاء مشكلات الاستعداد البحرى والحربى .

وتتغلغل أصول الحرب العالمية الثانية فى عقد العشرينات من القرن . فقد شعرت اليابان بأن عصبة الأمم قد صفقت الباب بشدة فى وجه المضى فى التوسع ، وكانت تعاف بشمم سلطان بريطانيا والولايات المتحدة فى الشرق . ولم تكن إيطاليا راضية عن ثمار اشتراكها المتأخر فى الحرب العالمية الأولى فى جانب الحلفاء ، كما كان زعيمها المتهور الجعجاع بنيتو موسولينى فى جوع وظمأ إلى المجد . وكانت ألمانيا مفعمة بالامتعاض من هزيمتها ، ومتململة من قيود معاهدة فرساى . ثم كان هناك الكساد الاقتصادى ، وضغط التزايد السكانى ، والفوضى الاجتماعية والخلقية ، وقد مهدت هذه جميعاً لظهور قيادات جديدة ، نافذة الصبر إزاء بطء عمليات التوافق السلمى ، ولظهور فلسفات تحدّت مُسَلَّمات واستنتاجات الفلسفات القديمة . ولم تكن اليابان فى الواقع بحاجة تذكر إلى فلسفة جديدة ، فما كانت بحاجة لغير أسلحة تنفذ بها فلسفتها القديمة . وتحوّلت إيطاليا إلى الفاشية . وسمحت ألمانيا ، بعد عقد حافل بالارتباك ، لمتعصب متهوس نمسوى من مقاتلى الحرب الأولى ، هو أدولف هتلر ، بأن ينظم حزباً ثورياً هو الحزب الاشتراكى القومى ، وبأن يستولى على مقاليد الحكم . فلم تحن أوائل الثلاثينات ، حتى كانت الدول الثلاث جميعاً قد شكلّت حكومات ديكتاتورية ، وحتى كانت ثلاثتها

متأهبة لإلغاء معاهدة فرساى والمعاهدات التى ترتبت عليها ، بل وكيان القانون والنظام الدوليين بأكمله .

وأخذت الأحداث من ذلك الحين تجرى بسرعة مخيفة . فقد سلكت كل من الدول الديكتاتورية طريق العدوان . وأخذت كل منها تنمى وتعزز جهازها الحربى ، وتهدد جاراتها الضعيفة ، وأقبلت على مجازفات استعمارية (إمبريالية) . وقد بُنِيَت معظم هذه المجازفات منطقياً على أسس معقولة ، ونُفِّذت بطريقة عززت مكانة المعتدين بدرجة كبيرة ، بيد أنها لم تستفزّ بشدة معارضة الدول الديمقراطية . فغزت اليابان ، فى سنة ١٩٣١ ، منشورياً وأقامت دولة مانشوكو التى كانت دمية لها ، ومن هذا المنطلق الممتاز أصبحت تتاخم سيبريا الروسية شمالاً ، والصين جنوباً . أما إيطاليا التى كانت قد دعمت مركزها فى الدوديكانيز من قبل ، فاستولت على فيومى ، ووسّعت حدودها فى ليبيا ، وبدأت إحياء الإمبراطورية الرومانية بشن الحرب على الحبشة فى سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ وأخضعت هذه الدولة العريقة ، وإن كانت ضعيفة ، لتبعيتها . أما ألمانيا فألغت معاهدة فرساى ، وعادت إلى احتلال إقليم الراين ، وأقبلت بجسارة على التسلح على نطاق واسع . ولقد احتجت عصبة الأمم ، وأبدى الدبلوماسيون أساهم لما حدث ، واستنكره الزعماء الديمقراطيون ، وعانت منه الضحايا ، ولكن ما من أمة أو مجموعة من الدول اعترضت وأقامت حاجزاً فعالاً فى وجه الأطماع الديكتاتورية .

وكان معظم الأمريكيين يرقبون هذه التطورات فى غير اكتراث . . وإن خالط هذه اللامبالاة استهجان فى الواقع . ولقد أيقنوا أن هذا ليس سوى فصل جديد فى قصة قديمة ، قصة إحياء الإمبرياليات . ولم يدركوا ما للقوى التى أُطلقت فى العالم إذ ذاك من طبيعة ثورية بأكثر مما أدركها معظم الإنجليز . فلم يفطنوا إلى أنهم كانوا إذ ذاك فى مواجهة شر أشد خطراً ، وأشد تفجّراً ، من أى شر سابق فى التاريخ الحديث . بل إنهم كانوا يهنئون أنفسهم عن أنهم بمأمن خارج هذه التطورات جميعاً ، ويحميهم محيطان شاسعان ، ويتمتعون بكفاية ذاتية ، وغنى ، وقوة سلطان .

كان من العسير على معظم الأمريكيين أن يفهموا الكُنْه الحقيقى للخطر المعلّق فوقهم وفوق العالم بأسره . فهو لم يكن مجرد خطر عسكرى . ولقد تصدت الولايات المتحدة من قبل لأخطار عسكرية وخرجت منتصرة . إنما كان هذا شيئاً جديداً ومبهماً .

وكان الأمريكيون شعباً وادعاً طليقاً ، لم يعرف الهزيمة ولا ثبوط المعنويات ، كما كانت نوازع الشرّ غريبة على العقلية الأمريكية ، كما أشار سانتايانا . فلم يكن بوسعهم أن يصدقوا أن ثمة فلسفة جديدة قد ظهرت ، فلسفة رفضت نهجهم فى الحياة وقيمهم الموروثة وأعلنت الحرب عليها .

والفرد هو لُبّ فلسفة الحكم الأمريكية والإنجليزية . فالفرد هو مصدر الحكم ، وله حقوق وحريات فى المجتمع : حق العبادة كما يشاء ، حق القول والكتابة ، وحق التنقل حيث يلائمه ، وحق اختيار عمله ، وحق الزواج بمن يشاء ، وحق تكوين أسرته وفق رغبته ، دون مضايقة من الدولة . وكيفما يكن تفكيره ، أو تدبيره ، أو عمله مكيَّفاً وفقاً للمجتمع ، فإن الهدف النهائى لحكومته ومجتمعه واقتصاده القومى هو خلق الإنسان الحر وحمايته .

وإزاء هذه الفلسفة فإن الديكتاتورية ، كما طبقت فى إيطاليا وألمانيا واليابان ، كانت تقيم فلسفة مختلفة تمام الاختلاف . فالفلسفة الاستبدادية تخضع الفرد للدولة أو العنصر . ففى النظامين الفاشى والنازى ، كان الفرد غير مهم نسبياً ، ولم تكن لحرياته ، وحقوقه ، وممتلكاته ، ومطامحه وآماله ، وعلاقاته الاجتماعية والعائلية ، قيمة .

وإذ تجلى كنه الديكتاتورية الحقيقى ، أخذ توجس الأمريكيين يزداد باطراد ، ثم تحول إلى سخط إذ جددت ألمانيا وإيطاليا واليابان اعتداءاتها ، وأخذت تنقضّ على الدول الصغيرة واحدة إثر أخرى . وفى ١٩٣٦ - ١٩٣٨ حدثت محنة إسبانيا ، حيث ساعدت جيوش وطائرات موسولينى وهتلر القوميين فى الإطاحة بنظام الحكم الجمهورى ، بينما وقفت الدول الديمقراطية مكتوفة الأيدى ، يشل التردد حراكها . وفوق هذا ، فبينما كانت الفيالق الأجنبية المنتصرة تدق أبواب مدريد ، بادرت اليابان بتعجيل « حادث الصين » الذى قدِّر له أن يمتد سنوات عديدة حتى دخل فى حرب عالمية عامة . ثم حدث أن ضم هتلر النمسا إلى الرايخ بالعنف ، فى سنة ١٩٣٨ ، وبدأ تحقيق ألمانيا الكبرى . وتلتها تشيكوسلوفاكيا ، فقبل أن تكون الدول الديمقراطية قد أفاقت من صدمة ضم النمسا ، أخذ هتلر يطالب بضم إقليم السوديت ، المنطقة الديمقراطية الصغيرة ، التى كانت بريطانيا والولايات المتحدة قد ساعدتا على قيامها . وفى غمرة الانزعاج ، دعا قادة بريطانيا وفرنسا إلى التحكيم فى الموضوع ، فلما رُفض التحكيم طار مستر تشمبرلين إلى ميونيخ ، وهناك أسلم تشيكوسلوفاكيا إلى سادة الحرب الألمان . وقال

تشمبرلين عند عودته : « هذا سبيل السلام فى عصرنا » ، ولكن وينستون تشيرشل قال : « كان على بريطانيا وفرنسا أن تختارا بين الحرب أو الخزى . وقد اختارتا الخزى . وستُفرض عليهما الحرب » .

ولم يكن رد فعل أمريكا إزاء هذا كله تصرفاً تذكره الأجيال المقبلة بالفخر . فقد انتهجت فى بادىء الأمر سياسة تدعو للسلام بأى ثمن ، وقد بددت أحلامها نتائج الحرب السابقة ، وخشيت من التورط فى حرب جديدة ، ووقر فى نفسها أن فى يدها هى القرار الذى يؤدى إلى الحرب أو إلى السلام . وفى تسرع هجرت كثيراً من تلك الحقوق التى حارب آباؤها وأجدادها مرتين للحفاظ عليها ، وأعلنت على العالم أنه ليس لأية دولة محاربة ، فريسة أو معتدية ، أن تتطلع إليها طلباً للعون ، مهما تكن الظروف . وقد أدرج هذا كله فى تشريع الحياد فى ١٩٣٥ – ١٩٣٧ ، الذى حرم الاتجار مع أية دولة محاربة أو إقراضها .

ولقد أخطأ الرئيس روزفلت بالتصديق على هذا التشريع ، الذى لم يكن يقره ، ولا كان وزير خارجيته كوردل هل يقره . فلما ازداد الموقف الدولى سوءاً ، آلى على نفسه أن يبث فى الشعب الأمريكى إدراكاً لطبيعة ما كان يحدث فى العالم الخارجى ، وأن يسلح أمريكا معنوياً ومادياً لتتصدى لهذا الموقف وتتغلب عليه . وفى خطاب ألقاه فى شيكاغو ، عام ١٩٣٧ ، دعا إلى حَجْر خلقى ومعنوى ضد الدول المعتدية ، فلم تقابل دعوته إلا باتهامه بأنه يتلاعب بالسياسة ويعرض البلاد للتورط فى حروب « أجنبية » . ولقد استنكر عدوان اليابان على الصين ، ووطد علاقات ودية مع دول أمريكا اللاتينية ومع كندا ، وأخذ يهيب بالكونجرس أن يقر اعتمادات أكبر من أجل الأسلحة ، كضرورة لازمة . وحذّر الديكتاتوريين بأن « السلام بقوة الخوف ، لا يتسم بميزة أرفع ولا أكثر بقاء من السلام بقوة السيف » . ورفض أن يعرب عن خوف ، أو عن أنه يتأثر بإرهاب القوة . ومع ازدياد السياسة الاستبدادية عدواناً ، ازدادت الروح الأمريكية صلابة ضدها .

مقدم الحرب

كذلك أخذت بريطانيا تتسلح بعجلة محمومة ، وقد نال لقاء ميونيخ من كرامتها ، وأهاج غضبها ما ترتب عليه من القضاء على تشيكوسلوفاكيا . إذ تبدى أخيراً إفلاس سياسة

التهدئة . بيد أن هتلر لم يشأ الانتظار حتى تحرز بريطانيا والولايات المتحدة تعادلاً عسكرياً مع ألمانيا . فقد ظل طيلة ربيع سنة ١٩٣٩ وصيفها يهدد بولندا ويتوعدها ، مطالباً بضم دانزج والممر البولندى . وازداد مركزه عزة وقوة بدرجة لا سبيل إلى قياسها ، عندما أبرم فى أواسط الصيف تحالفاً مع أقوى دول أوربا ، وهى روسيا . ثم ، وجه ضربته إلى بولندا ولا تزال المفاوضات جارية . ففى أول سبتمبر تدفقت قواته مجتازة الحدود ، بينما كانت طائراته تمطر المدن البولندية موتاً وخراباً . وبعد يومين ، أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا ، وفاء بالتزاماتها .

ولم ينقض أسبوعان حتى كانت ألمانيا قد اكتسحت بولندا ، وزحفت روسيا من الشرق لتكمل هزيمة الأمة المنكودة . ثم حدث المأزق الطويل الذى وصفه كثير من الأمريكيين ، فى غباء سخيف ، بأنه حرب « زائفة » . فما إن حان الربيع ، حتى كان هتلر مستعداً لجولة ثانية . وبدون أى إنذار ، دخلت جيوشه الدنمرك والنرويج . وانتهت محاولة بريطانيا إرسال المعونة العاجلة إلى النرويج الصامدة بالفشل ، وفى أقل من شهر كانت موارد الشطر الأكبر من اسكنديناوة تحت سيطرة ألمانيا . وفى ١٠ مايو ، اتجهت ألمانيا غرباً لتهاجم هولندا وبلجيكا المحايدتين ، ثم فرنسا . ولم يدم الهجوم الخاطف أكثر من شهر ، فلما انتهى كانت هولندا قد هُزمت ، والجيش البلجيكى قد استسلم ، وفرنسا ذاتها قد سقطت ، فى حين أن الحملة البريطانية اندفعت فى عجلة عبر القناة (المانش) ، ولم تنج إلا بمعجزة من الطاقة النشيطة والبطولة .

ووقفت بريطانيا وحيدة . ولكنها لم تعد بريطانيا التى ذهبت إلى ميونيخ ، ولا بريطانيا التى فشلت حملتها لنجدة النرويج . كانت بريطانيا التى تذكرت أن ما من غاز حكم أرضها منذ ألف سنة . وقد قال شكسبير مزدهياً : « لتأت ثلاث أركان العالم مدججة بالسلاح ، فسوف نصعقها » . وقد أخذ يردد هذا الازدهاء الأشم ونستون تشيرشل ، الزعيم العظيم الذى آل إلى يديه مصير الأمة وقضية الحرية :

سنثبت مرة أخرى أننا قادرون على الذود عن وطننا الجزيرة ، وأن نعلو عاصفة الحرب ، وأن نتغلب على نذر الطغيان ، ولو قضينا سنوات ، ولو حاربنا وحدنا . . . وبالرغم من أن مساحات كبيرة من أوربا ، وكثيراً من الدول العريقة والشهيرة قد سقطت أو قد تسقط فى قبضة الجستابو وكافة الأجهزة البغيضة للحكم النازى ، فإننا لن نتزحزح ولن نسقط ،

بل سنمضى حتى النهـاية ، وسنحـارب فى فرنسا ، وسنقاتل فى البحار والمحيطات . سنقـاتل بثقة متزايدة ومقدرة مطردة فى الجو . سندافع عن جزيرتنا مهما يكن الثمن . سنقاتل على السواحل الرملية ، وسنقاتل فى مناطق هبوط العدو . سنقاتل فى الحقول وفى الشوارع . سنقاتل فى التلال . ولكنا لن نستسلم ، وحتى إذا ــ ولا أصدق هذا لحظة واحد ــ أُخضعت هذه الجزيرة أو جزء كبير منها وتضورت جوعاً ، فإن امبراطوريتنا فيما وراء البحـار ، مدججـة بالسـلاح ومحـروسـة بالأسـطول البريطانى ، كفيلة بمواصلة الصراع ، إلى أن يأذن الله للدنيا الجديدة ، بكل مقدرتها وسطوتها ، أن تتقدم لنجدة الدنيا القديمة وتحريرها .

أمـريكا تهـجر الحـياد

« إلى أن يأذن الله » . ولكن متى يكون هذا ؟ لقد دفع الهجوم على بولندا عجلة أكبر نقاش منذ أيام الرق . وهو نقاش لم يجر فى قاعات الكونجرس فحسب ، وإنما فى كل صحيفة ، وفى كل قاعة عامة ، وفى كل بيت فى البلاد . وأخذ روزفلت يعمل بنشاط لإبـطال تشريع الحياد ، وبعـد جدال طويل ، استطاع أن ينتزع من كونجرس متردد تشريع « ادفـع وتسلـم » ، الـذى جعـل موارد أمـريكا فى متناول الدول الديمقراطية المحاربة ، مادام بوسعها أن تدفع الثمن ، على الأقل . فإن سقوط فرنسا أقنع معظم الأمريكيين أخيراً بسطوة وجبروت الجهاز الحربى الألمانى ، كما أن الهجوم الجوى على بريطانيا فى صيف وخريف ذلك العام ألقى فى روعهم ما جعلهم يتحققون من أن أمريكا ستقف وحدها ــ إذا ما سقطت بريطانيا ــ ضد أعتى تحالف عسكرى فى التاريخ .

إزاء هذا الاحتـمال ، أقـر الكـونجـرس مبـالغ هائلة للتسلح ، وأُبرم اتفاق مع جمهوريات أمريكا اللاتينية لبسط الحماية الجماعية على ممتلكات الدول الديمقراطية فى الدنيا الجديدة ، وأقامت الولايات المتحدة وكندا مجلساً مشتركاً للدفاع ، وبدىء فى تجنيد ما يقرب من مليون رجل وتدريبهم عسكرياً فى وقت السلم . ولكن الاتفاق الخطير الذى تم بين روزفلت وتشـيرشل كان يفوق هذه الخطوات جميعاً أهمية ، إذ أجّرت بريطانيا بمقتضـاه للولايات المتحـدة مجموعة من القواعد البحرية الممتدة من نيوفوندلاند إلى غيانا

البريطانية ، في مقابل خمسين مدمرة عتيقة . وقد قال روزفلت إن هذه كانت أهم خطوة فى دفاعنا القومى منذ شراء لويزيانا ، وأضاف تشيرشل إلى ذلك : « إن هاتين الهيئتين من هيئات الديمقراطيات الناطقة بالإنجليزية ــ الإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة ــ مضطرتان إلى أن تمتزجا إلى حدٍّ ما فى بعض شؤونهما من أجل النفع المشترك والعام » . وكان قوله لمحة انطوت على تنبؤ .

كان روزفلت قد رسم الطريق الذى لابد للأمة من أن تسلكه ، فهل كان فى مقدرته أن يلزمها هذا الطريق ؟ لقد دُعى الشعب الأمريكى فى صيف عام ١٩٤٠ إلى اختيار رئيس الجمهورية الذى سيقوده خلال الأعوام الخطيرة المقبلة . واختار الديمقراطيون فرانكلين روزفلت مرشحاً عنهم مرة أخرى ، نابذين فى جرأة مادرجوا عليه من مناهضة تربع الرئيس لثلاث فترات متعاقبة . أما الجمهوريون ، فاختاروا ــ فى اجتماع ساده جو من الارتباك ــ شخصية جديدة على السياسة ، شخصية ويندل ويلكى من إنديانا ونيويورك . وكان الديمقراطيون وزعيمهم قد التزموا التزاماً لا رجعة فيه بسياسة معونة بريطانيا . . وهى سياسة كان من المحتمل أن تفضى إلى الحرب . أفكان الحزب الجمهورى ومرشحه الجديد ، عديم الخبرة ، يقدمون على اعتناق السياسة المضادة ؟ لقد هاجم ويلكى النظام الجديد فى الناحية الداخلية ، ولكنه أبى فى تصميم أن يقحم موضوع معونة بريطانيا فى المعركة السياسية . ففى هذا الموضوع الخطير ، آثر أن يتخذ جانب الرئيس ، وأيد التجنيد ، وأطرى صفقة المدمرات ، وتعهد بأنه لن تكون ثمة رجعة عن الطريق التى اختطها الرئيس وانتهجها الكونجرس ، إذا هو انتُخِب . وكان هذا قراراً عظيماً ، نمّ عن حذق لفن الحكم ، وكشف عن أن الحزب الجمهورى وجد فى ويندل ويلكى زعيماً ذا شجاعة ، وحكمة ، وسعة أفق .

وأعيد انتخاب روزفلت فى انتخابات نوفمبر ، فمضى بهمة فى سياساته وقد أصبح واثقاً من التأييد الشعبى . فلما اجتمع الكونجرس فى شهر يناير قدّم إليه مشروعاً كان يرمى إلى الإفلات من القيود الباقية لتشريع الحياد . . ذلك هو مشروع قانون الإعارة والتأجير . وقد نص هذا المشروع على أنه يجوز للولايات المتحدة أن تعير أو تؤجر أية معدات أو تسهيلات دفاعية لأية دولة يكون الدفاع عنها حيوياً بالنسبة للدفاع عن الولايات المتحدة . وبعد نقاش مستطيل ، أقر الكونجرس المشروع ، وبمقتضى مواده الحكيمة بدأ يتدفق إلى بريطانيا وحلفائها سيل من الطائرات والدبابات والخامات والمواد

الغـذائية وغـيرهـا . ومن الجلى أن هذا الإجراء لم يكن من الحياد فى شىء ، غير أن الولايات المتحدة كانت قد أصبحت ملتزمة بهزيمة ألمانيا . وأعقبت ذلك إجراءات غير حيادية أخـرى : الاستيلاء على سفن المحـور ، وتجميد أمـوال المحور ، ونقل ملكية ناقلات النفط لبريطانيا ، واحتلال جرينلاند ثم آيسلند فيما بعد ، ومدّ نطاق الإعارة والتأجير إلى الحليفة الجديدة ، روسيا ، ثم ـ فى النهاية ، وبعد سلسلة من اعتداءات الغـواصـات الألمانية على الملاحة الأمريكية ـ الأمر الرئاسى « بإطلاق النار » على أية غواصات للعدو بمجرد رؤيتها .

ومن إمـارات المشـاركة المتزايدة التوثق بين أمريكا وبريطانيا ، الصياغة المشتركة لأهـداف الـديمقـراطية فى الحـرب . فقد اجتمع روزفلت وتشيرشل فى وسط المحيط الأطلنطى ، فى ١٤ أغسطس ، ووضعا « ميثاق الأطلنطى » ، متضمناً بعض المبادىء المعينة التى بنيا عليها « آمالهما المتعلقة بعالم أفضل فى المستقبل » . وكانت هذه المبادىء : لا توسـعّ إقليمياً ، ولا تغييرات إقليمية لا تتفق مع رغبات الشعب المعنى بها ، وحق الناس جميعاً فى اختيار شكل الحكم الخاص بهم ، واستمتاع كل الدول بحرية الوصول إلى التجارة والمواد الأولية ، والتعاون الاقتصادى بين الأمم ، وحرية البحار ، والابتعاد عن استعمال القوة كأداة للعلاقات الدولية . وهنا نجد نقاط ويلسون الأربع عشرة فى ثوب جديد ، أكثر بساطة .

هكـذا بدا أن الولايات المتحدة كانت تنساق إلى الحرب مع ألمانيا ، بيد أنه بدا كذلـك أن هذا الانسياق كان من المحتمل أن يستغرق وقتاً طويلاً . كانت الولايات المتحدة قد اتخذت قرارها ، غير أنها لم تكن بعد من الجرأة بحيث تسلمه لمقادير الحرب . وفى تلك الأثناء ، كان التوتر قد تصاعد فى الشرق الأقصى . كانت اليابان قد انضمت رسمياً إلى المحور . ثم انتهزت فى هذه الفترة التورط البريطانى والأمريكى فى الحرب الأوربية ، فأخـذت تمضى بجرأة فى « تدبيرها الجديد » . . وهو تدبير كان اليابانيون يسعون بمقتضاه إلى حكم الشرق بأكمله وحوض المحيط الهادى . وإذ ثبت أن سياسة التهدئة غير مجدية ، فإن بريطانيا والولايات المتحدة اتخذتا إزاء اليابان موقفاً أكثر تشدداً وحزماً . وكان هذا بدوره غير مجد ، إذ أن القادة الحربيين كانوا قد وطدوا سيطرتهم ، وذاقوا طعم الانتصار ، فأصبحوا موقنين من أن انتصارات أعظم ترتقبهم . وفى نوفمبر سنة ١٩٤١ ، وبينما كان الروس يحاربون ببطولة أمام موسكو ولنينجراد ، والبريطانيون

يقاتلون للإبقاء على مسالك المحيط الأطلنطى مفتوحة ، دفع اليابانيون بسيل من الجنود إلى الهند الصينية الفرنسية ، وأعدوا قواعد جوية على طول تايلاند . واشتدت خطورة الموقف فى ٦ ديسمبر ، حتى إن الرئيس روزفلت وجه نداء شخصياً إلى إمبراطور اليابان ، ليشترك معه فى الوصول إلى حل يبقى على السلام .

ولا يحتمل أن يكون الإمبراطور قد تسلم هذه الرسالة إطلاقاً . إذ كانت اليابان قد أصبحت متأهبة لأكبر مجازفة متهورة فى التاريخ الحديث . ففى يوم الأحد ٧ ديسمبر ، أغارت بضراوة مدمرة على المراكز الأمامية الأمريكية فى هاواى ، وجوام ، وميداوى ، وويك ، والفليبين . وهكذا حانت الحرب .

الفصـــل ٢٤

الحـــرب العـالميـــة الثـــانيـــة

النظـرة القـاتمـة إلى المسـتقبل

بلغ أعـظم الصراعـات فى التاريخ جبروتاً ، وقد تعلّق به مصير النظم الديمقراطية ، ما أسـماه وينستـون تشيرشل إحدى نقاط تحوله الكبرى ، بوقوع حادث بيرل هاربور . ومن الجلى أن اليابانيين أحرزوا نصراً مذهلاً فى بيرل هاربور وفى الفلبين ، ولكن من الجلى كذلك أنهم بمهاجمتهم إقليماً أمريكياً انتهكوا مبدأ من مبادىء الحرب الأساسية . ذلك هو : أنك إذا هاجمته ملكاً ، فلتكن ضربتك قاتلة . والذى حدث هو أن الانقضاض على بيرل هاربور صرع أسطول الولايات المتحدة فى المحيط الهادى ، ولكنه لم يصرع الولايات المتحدة . بل إنه على النقيض ، وحّد هذه الأمة كما لم يكن بوسـع أى شىء آخـر أن يوحدها ، فكرست كل مواردها وطاقتها للحرب ، ودفعت مقـدرتها الإنتاجية العملاقة إلى أعلى درجاتها ، وبثت فى شعبها تصميماً لا يلين على القتـال حتى النصر . وإن هى إلا ستة أشهر بعد بيرل هاربور ، حتى كانت القوات البحرية والجوية المشتركة للولايات المتحدة قد أوقعت باليابانيين فى ميدواى أول هزيمة بحـرية كبرى حاقت بهم فى أى وقت من الأوقـات . وفى خلال سنة واحدة ، كانت

الأمة التى أريد لها أن تُصرع قد شنت هجمات كبرى موفقة فى جانبين متقابلين من الكرة الأرضية . . فى جزر سولومون وشواطىء أفريقيا الشمالية .

ومع ذلك ، فقد كان الموقف بعد خطيراً ، فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، وكان المستقبل المرتقب معتماً . ففى كل مكان ، كان الحلفاء المضعضعون من جراء الهجمات المتتابعة يلتزمون الدفاع ، وفى كل مكان كانت دول المحور منتصرة ، فكان هتلر يسيطر على أوربا الغربية بأسرها ماعدا شبه جزيرة أيبريا ، وكانت جيوشه الجبارة قد اندفعت مئات الأميال داخل روسيا ، التى بدا أنها على وشك التداعى . وكانت إيطاليا تتسلط على البحر المتوسط ، وفيالقها تجتاح شمال أفريقيا ، مهددة مصر وقناة السويس . أما اليابانيون ، فكانوا قد أخضعوا شطراً كبيراً من الصين ، وأصبحوا متأهبين لينسابوا مكتسحين الملايو ، ومتدفقين عبر جزر الهند الشرقية ليهزموا الفليبين ، مهددين الهند فى الشرق ، وأستراليا فى الجنوب ، وجزر ألوشيان وألاسكا فى الشمال .

ولم تبق صامدة فى وجه المحور ، فى الدنيا القديمة ، سوى بريطانيا وروسيا : بريطانيا ممزقة ، تنزف الدماء من جروحها ، تتلقى الضربات دون انقطاع من السماء ، ومهددة بالمجاعة . . وروسيا جاثية تحت الضربات ، وقد خُرِّبت أراضيها ، ودمرت مدنها ومصانعها ، وهلك قسم كبير من جيوشها . ولم يكن من المحتمل فحسب فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، بل كان يبدو من المرجح أن تندفع ألمانيا فى شمال أفريقيا أوفى القوقاز نحو الشرق ، وأن تشق اليابان طريقها عبر الصين وبورما نحو الغرب ، وأن تلتقى دولتا المحور الكبريان فى الهند ، وثلاثة أرباع العالم تحت أقدامها .

ومع ذلك فلو أمكن بطريقة ما تفادى النكبة الفورية ، لما كانت الصورة المرتقبة فى الأجل الطويل داعية لليأس إلى هذا الحد . إذ كانت حوالى أربعين دولة قد اشتركت فى « الأمم المتحدة » ، بينها أعظم دول الأرض ، وأكثرها سكاناً ، وأقدرها ، وهى : الولايات المتحدة . وبريطانيا ، وروسيا ، والصين ، والهند ، والممتلكات البريطانية . فكان للحلفاء التفوق ، لا فى القوى البشرية وحدها ، بل فى الطاقة الإنتاجية ، و — كما قام الدليل — فى العبقرية العلمية والابتكارية كذلك . ولم يكن ينقصهم لضمان النصر النهائى سوى شىء واحد ، هو : الوقت . كان المحور قد استغرق عقداً من الزمن فى الاعداد لهذه الحرب ، وقد أشعلها فى الصين وإسبانيا وأفريقيا نصف هذه المدة . فاستولى على المبادرة فى كل مكان واحتفظ بها . وكان فى طوق الحلفاء ،

إذا أتيح لهم الوقت ، أن يحشدوا مواردهم الهائلة ، وإن يوجهوا وطأتها إلى العدو . فهل يتاح لهم الوقت ؟

كان للحلفاء امتياز ملحوظ على دول المحور فى ناحيتين . فهم أولاً كانوا متحدين واقعياً ، اتحادهم اسمياً . فهم لم يتقاسموا مواردهم واساليبهم الفنية العسكرية والعلمية فحسب ، ولكنهم فيما عدا روسيا والصين أدمجوها فى الواقع . وعلى النقيض من هذا ، لم يكن للمحور وحدة فعلية . كانت كل من ألمانيا وإيطاليا واليابان تخوض حروباً منفصلة ومستقلة ، فلم تكن ثمة استراتيجية كبرى ، ولا رئاسة أركان حرب مشتركة ، ولا تبادل للأسلحة ، بل ولا للمعلومات ذا قيمة فعالة . أما الميزة الثانية للحفاء فكانت فى القيادة . ففى هذه الأزمة التاريخية الكبيرة ، وجدت كل من بريطانيا والولايات المتحدة قادة صالحين لمسئولياتهم ، وأهلاً للقضايا التى كانوا يمثلونها . فقد أثبت وينستون تشيرشل أنه أعظم قائد حرب عرفه الشعب البريطانى منذ بيت الذى كان يصغره سناً . ولقد برز فرانكلين دى . روزفلت كأكفأ الرؤساء جميعاً الذين حكموا فى فترات الحرب . وكان كل منهما يظفر بالتأييد ويثير الإعجاب لا فى بلاده وحدها ، بل فى كافة الأصقاع المتحضرة من العالم .

كذلك كانت ثمة ميزة ثالثة ، أخذت قيمتها فى الاتضاح مع مر السنين : كانت دول المحور تخوض الحرب بأسلحة الطغيان ، والقمع ، والاستعباد ، فكان عدم الامتثال والخنوع يُعاقَب بالتشهير وتشويه السمعة ، وكان النقد يُخرسَ ، والاستقلال وروح الأصالة تُخنَق ، والمعارضة تقابل بالإعدام أو الاعتقال . أما فى جميع الدول الناطقة بالإنجليزية ، فقد ازدهرت الحرية فى الحرب ازدهارها فى السلم ، فلم ينقطع سير الإجراءات الديمقراطية ، وكان النقد يلقى تشجيعاً ، والأصالة والاستقلال يكافآن . وبهذا اكتسبت دول المحور كراهية الشعوب التى تغلبت عليها قاطبة ، فلم تكن قادرة على حماية نفسها من أخطائها المحتومة . أما الحلفاء فكان بوسعهم الركون إلى تأييد الشعوب التى سعوا إلى تحريرها ، وكانوا يستمتعون بميزة تفوق كل تقدير ، تتمثل فى حوار صريح بصدد السياسات والاستراتيجية ، وتأييد من تلقاء النفس وبجماع القلب من كافة قطاعات سكانها ، ومساهمات من عقول ذات أصالة واستقلال .

ولقد اتخذ الحلفاء قرارين أساسيين منذ بداية الحرب ، بل قبل بيرل هاربور فى الواقع . أولهما أن تكون الأولوية لهزيمة ألمانيا . وكانت الحجة المبررة بسيطة ، هى أن

من الممكن لليابان أن تنتظر . أما الانتظار فلم يكن ممكناً بالنسبة لألمانيا . فلو أن الولايات المتحدة انصرفت إلى هزيمة اليابان ، كما كان كثيرون من قصار النظر من الأمريكيين يرون ، لكان من المحتمل أن تصرع كلاً من روسيا وبريطانيا ، فتبقى هذه الدولة لتقاتل وحيدة ضد ثلاثة أرباع المعمورة . أما إذا أمكن إنقاذ روسيا وبريطانيا ، وتيسرت هزيمة ألمانيا ، فلا بد من أن تسقط اليابان لا محالة أمام ما للحلفاء المنتصرين من مقدرة موحدة . وهذه هى الخطة التى اتُخِذت . . وهذه هى الخطة التى أفلحت .

أما القرار الثانى ، فكان جعل الحرب عملية مشتركة : التخطيط المشترك لكافة السياسات العسكرية والسياسية والدبلوماسية والاقتصادية الرئيسية ، وتجميع الموارد ، وإدماج الجيوش تحت قيادة واحدة إلى أقصى ما يمكن . وكان النمط لهذا كله قد رسم من قبل باتفاقية القواعد والمدمرات وقانون الإعارة والتأجير . وقد نما هذا النمط وتطور أثناء الحرب ، عن طريق رئاسة الأركان المشتركة ، دون تعاون من روسيا . وقد حقق أعظم نجاح بالتعاون على إنتاج القنبلة الذرية .

وهكذا واجهت الدول المتحالفة المستقبل لا يخالجها أى إحساس بالتورط أو القنوط ، واجهته بشجاعة لا يخالطها خوف ، وبثقة ، وبإدراك لا يقتصر على مقدرتها التى تفوق كل قياس ، بل يمتد إلى ما عبر عنه روزفلت بقوله « الأغلبية الشاسعة من أعضاء الجنس البشرى فى صفنا » ، وإنها كانت تحارب من أجل قضية عادلة .

الإعداد العسكرى والصناعى

مهما يكن ما يقال عن الحرب فإننا نخلص إلى أن نتيجتها تتوقف على أمرين : الأسلحة والمعدات ، والرجال الذين يستخدمونها . ذلك لأنه فى القرون الماضية ، كما قال فرانسيس بيكون « كانت المدن المحوطة بالأسوار ، والأسلحة المختزنة ، والدروع ، والصافنات من الجياد ، وعجلات الحرب ، ومصانع العتاد ، والمدفعية وما إلى ذلك . . كل هذه ليست سوى حَمَل فى جِلْد أسد ، ما لم تكن نشأة القوم وفطرتهم شديدتى البأس » . وقد كانت نشأة البريطانيين والأمريكيين وفطرتهم شديدتى البأس لحسن حظ قضية الحرية . ولحسن الحظ أيضاً ، إنهم وإن لم يكونوا قد تجهزوا تجهيزاً كافياً

بـ « الأسلحة والدروع ، ومصانع العتاد ، والمدفعية وما إليها » ، فقد كانوا على استعداد لأن يصنعوا كل شىء آخر تتطلبه الحرب الحديثة بوفرة غزيرة .

ومن المحقق أن الولايات المتحدة كانت أفضل تجهُّزاً لهذا منها فى أية حرب خاضتها من قبل . كان الاستعداد قد بدأ فى الثلاثينات ، مع تخويل بإعداد أسطول يكفى محيطين ، حتى إذا اشتعلت الحرب فى أوربا ، أدى سيل مستمر من الطلبات من الخارج ومن واشنطن إلى دفع عجلة الصناعة الأمريكية لما يلائم الإنتاج الحربى . وكانت صفقة « المدمرات فى مقابل القواعد » ، وما ترتب عليها من احتلال جرينلاند وآيسلند ، قد أتاحت للولايات المتحدة قواعد جوية وبحرية فى منتصف الطريق فى الأطلنطى ، كما أن « الإعارة والتأجير » لم يقتصر على إمداد الحلفاء بالغذاء والعتاد الحربى اللذين كانت الحاجة ماسة إليهما فقط ، بل حوّل المصانع الأمريكية إلى الإنتاج الحربى ، كما أن قانون التجنيد فى زمن السلم ، الذى صدر فى سنة ١٩٤٠ ، ثم أعيد إقراره بأغلبية هزيلة فى العام التالى ، كان قد وفّر جيشاً مدرباً مؤلفاً من مليون ونصف المليون من الضباط والجنود . وفوق هذا ، فإن الولايات المتحدة وبريطانيا كانتا قد أخذتا تتبادلان الأسرار والأساليب الفنية العلمية فعلاً ، وكانتا تتعاونان فى أمور مثل الرادار والبحوث الذرية .

لهذا فإن وطأة الحرب الفعلية لم تداهم الولايات المتحدة على غرة ، ولا تطلبت تغييراً جذرياً فى الاقتصاد الأمريكى ، كما حدث فى سنتى ١٨٦١ و١٩١٧ مثلاً ، بل اقتصرت على زيادة ما كان يجرى فعلاً . وكانت أولى المهام زيادة القوات المسلحة إلى مستوى حاجات الحرب ، وتجهيزها بكميات هائلة من أحدث أسلحة الحرب . وقد تم هذا بسرعة وكفاءة . وامتد التجنيد ليشمل كل الرجال بين الثامنة عشرة والخامسة والأربعين من العمر ، فكان مجموع من سُجِّلوا أثناء الحرب حوالى ٣١ مليوناً ، ومن فُحِصوا ١٧ مليوناً ، ومن ضموا إلى الخدمة ١٠ ملايين . فإذا حسبنا المتطوعين ، نجد أن ١١٥ ١٤٥ ١٥ رجلاً وامرأة قد خدموا فى القوات المسلحة ما بين بيرل هاربور ويوم الانتصار فى أوربا ، منهم حوالى ١٠,٤ من المليون فى الجيش ، وحوالى ٣,٩ من المليون فى الأسطول ، وحوالى ستمائة ألف فى مشاة الأسطول ، وما يناهز ربع المليون فى حرس السواحل . وكان لابد من إيواء هذا الجيش الشاسع ، وإطعامه ، وتدريبه ، وتجهيزه ، ونقله واستبقائه فى درجة عالية من المقدرة والصحة والكفاءة والروح المعنوية ، على بُعد آلاف الأميال من الوطن ، وأن يكون هذا

كله على نطاق يتضاءل إزاءه أى شىء قامت به الولايات المتحدة من قبل .

ولقد استطاعت الولايات المتحدة ، فى الحرب العالمية الأولى ، أن تنقل حوالى مليونين من الجنود إلى فرنسا ، ولكنهم كانوا يعتمدون على بريطانيا وفرنسا فى شطر كبير من أسلحتهم ومعداتهم . أما فى الحرب العالمية الثانية ، فقد كان على الولايات المتحدة أن تنقل ما يزيد على ضعف هذا العدد بكثير من الرجال ، إلى ميادين قتال متناثرة فى شتى أرجاء الأرض ، ومعظمها فى أيدى العدو . ولم يكن عليها أن تجهز هذه الجيوش وحدها وتواصل إمدادها ، بل كان عليها أن تسهم فى مواصلة إمداد جيوش بريطانيا وروسيا والصين وفرنسا الحرة وغيرها ، وقواتها الجوية واقتصادياتها المدنية كذلك . ولم يكن هذا كله يتطلب قوى بشرية وأسلحة فحسب ، بل كان يتطلب نقلاً بحرياً من الضخامة بحيث يكفل استمرار تدفق الإمدادات إلى البلدان النائية ، وتيسيرات هندسية لإقامة معسكرات ، وطرقاً ، وموانى ، ومطارات ، وخطوط أنابيب . كما كان يتطلب سلاحاً طبياً لوقاية الجنود والبحارة من طائفة من الأمراض الجديدة وللقضاء على الأوبئة . وكان لابد — فوق كل شىء — من أسطول قدير بدرجة تكفل السيطرة على البحار السبعة ، وسلاح جوى قادر على أن ينقل الحرب الجوية إلى العدو .

وكانت الطاقة الإنتاجية لأمريكا أكبر من طاقة كل دول العدو مجتمعة لحسن الحظ ، وقد برهنت أنها كفء للمسئوليات التى ألقيت على عاتقها . فقد أهاب الرئيس روزفلت بالولايات المتحدة أن تصبح مصنع ومستودع الأسلحة للديمقراطية « ترسانة الديمقراطية » ، فاستجابت الأمة . واتجهت الجهود الهائلة للشعب كله إلى الإنتاج الحربى فى وقت وجيز ، فإذا كل أنشطتهم — من صناعة ، وزراعة ، وتعدين ، ونقل ، ومواصلات ، وتمويل ، بل وعلوم وتعليم — تدخل بقدرٍ ما تحت إشراف حكومى جديد أو موسَّع . وبين عشية وضحاها أنشئت صناعات كبيرة جديدة ، لاسيما فى مجال تصنيع المغنيسيوم والمطاط الصناعى ، فى حين وسِّع نطاق صناعات أخرى كالطائرات والسفن بدرجة هائلة . واستطاع الغرب الأمريكى الأقصى ، لقربه من حرب المحيط الأطلنطى ، أن يقطع خطوات لم يسبقها مثيل ، فى التصنيع ، وفى السكان كذلك . ووجهت مبالغ هائلة من الأموال الاتحادية إلى بناء وتوسيع المنشآت الصناعية من أجل الأغراض الحربية ، وأصبحت الحكومة الاتحادية مالكة لما دعت إليه الطوارىء من مصانع للسفن ومن تيسيرات ومرافق لصنع المطاط والألومينيوم ، مع عدد كبير من

المؤسسات الأقل شأناً . وجُنّدت معامل البحوث بالجامعات والصناعات للتوصل إلى مئات من الأساليب الفنية الجديدة ، وأجزاء الآلات ، والمخترعات ، وكذلك للبحوث فى موضوعات مثل الرادار ، وأجهزة اكتشاف الأجسام تحت الماء بوساطة الموجات الصوتية ، والتفجير الزمنى والمكانى ، والقنبلة الذرية .

ومع ارتفاع نسبة العمالة إلى معدل لم تبلغه فى أى وقت ، أضيفت ثلاثة ملايين امرأة إلى قوائم العاملات ، وانتُهجت سياسة ساعات العمل الإضافية ، وجهود استباق الزمن ، والتعاون الشامل بين العمل والإدارة ورأس المال والحكومة ، مما أدى إلى أن تحطم الصناعات الأمريكية كل الأرقام القياسية للإنتاج ، متجاوزة توقعات الأصدقاء والأعداء على السواء .

وفى السنوات الخمس ، من يوليو سنة ١٩٤٠ حتى هزيمة اليابان فى أغسطس سنة ١٩٤٥ ، ناهز ما أنتجته المصانع ومؤسسات بناء السفن الأمريكية ٣٠٠ ٠٠٠ طائرة حربية ، و ٨٦ ٠٠٠ دبابة ، و٣ ملايين من المدافع الرشاشة ، و ٧١ ٠٠٠ سفينة حربية من جميع الأنواع ، وما حمولته ٥٥ مليون طن من السفن التجارية . وأنتجت من براميل النفط ، وأطوال الخشب ، وأطنان الصلب والألومينيوم ما يتجاوز ما أنتج فى أى وقت سابق فى التاريخ . فأنتجت من الطائرات ، والدبابات ، وسيارات « الجيب » ، وسيارات النقل ، وأجهزة الهاتف الميدانية ، والإطارات المطاط للعجلات ، وأجهزة الرادار ، وأشرطة الألومينيوم لمدارج هبوط الطائرات ، وألف شيء آخر ما لا يقتصر على إمداد الجهاز الحربى الأمريكى وحده ، بل يفى بحاجات بريطانيا ، و ــ إلى حدٍّ ما ــ روسيا كذلك . وهكذا أرسلت إلى بريطانيا آلاف الطائرات ، وما يزيد على ١٠٠ ٠٠٠ سيارة نقل و« جيب » ، و٦ ملايين طن من الصلب ، وما قيمته بليون دولار من العتاد ، فى حين حصلت روسيا على ما يزيد على ٤٠٠ ٠٠٠ سيارة نقل ، و ٥٠ ٠٠٠ سيارة « جيب » ، و ٧٠٠٠ دبابة ، و ٤٢٠ ٠٠٠ طن من الألومينيوم . ولم تحن نهاية الحرب ، حتى كان حساب « الإعارة والتأجير » يبين أن الولايات المتحدة قدمت من المواد الغذائية والمواد الحربية ما تبلغ قيمته ٥٠ بليوناً من الدولارات . أما الجانب المدين من حساب « الإعارة والتأجير » ، وهو فى الغالب خدمات وتسهيلات ، فوصل إلى حوال ٨ بلايين .

ولاشك فى أن أبهر الإنجازات كانت فى صناعتى الطائرات والسفن . كان هيرمان جورينج قد قال إن « الأمريكيين لا يستطيعون صناعة الطائرات ، فكل ما يحذقونه هو

صنع البرادات الكهربائية وشفرات الحلاقة » ، وقدِّر لهذه النبوءة وكثيرات غيرها أن تُدحَض . ومع أن إنتاج الطائرات بدأ بداية بطيئة ، فإنه لم يكد ينطلق حتى تخطى كل التوقعات . فلم تكن خطوط التجميع قد أخرجت أكثر من حوالى ٢٣٠٠٠ طائرة حربية فى الثمانية عشر شهراً التى سبقت بيرل هاربور ، ولكن الإنتاج وصل فى سنة ١٩٤٢ إلى ٤٨٠٠٠ طائرة ، وفى ١٩٤٣ إلى ٨٦٠٠٠ ، وتجاوز ٩٦٠٠٠ فى سنة ١٩٤٤ . كذلك كانت الطائرات المنتجة فى مؤسسة ويلو رَن أوجلين مارتن خارج بلتيمور ، أومؤسسة « دوجلاس » فى كاليفورنيا الجنوبية ، تزداد حجماً وسرعة وإحكاماً سنة بعد أخرى . وقد كفل الإنتاج الأمريكى ، يكملّه الإنتاج البريطانى ، للحلفاء السيادة على جو أوربا والمحيط الهادى حوالى سنة ١٩٤٤ . ولم تحن نهاية هذه السنة حتى كانت صناعة الطائرات تستخدم ما يزيد على مليونين ونصف المليون من العمال ، وتنتج من الطائرات ما تقدر قيمته بحوالى ٢٠ بليوناً من الدولارات ، فأصبحت كبرى الصناعات جميعاً فى البلاد . هكذا كان الشوط الذى قطعته الولايات المتحدة منذ أيام الشقيقين رايت فى كيتى هوك ! .

ولا يقل عن هذا روعة نجاح برنامج صناعة السفن الذى استندت إليه نتيجة الحرب إلى حد كبير . فعلى طول عامى ١٩٤١ و ١٩٤٢ ، قضت الغواصات الألمانية على قدر كبير من السفن الملاحية ، أمريكية وبريطانية على السواء ، فى المحيط الأطلنطى . ولاح لفترة من الزمن أن خطة هتلر التى كانت ترمى إلى عزل بريطانيا وحرمان أمريكا من الوصول لأى جزء من الدنيا القديمة ، قد تفلح . ولم يقو إنتاج الحلفاء من السفن على تعويض الخسائر القائمة قبل نهاية سنة ١٩٤٢ . وقد تسنى تخفيض الوقت اللازم لإنشاء سفينة النقل حمولة ١٤٠٠٠ طن من شهور إلى أسابيع ، ببناء السفن على شكل قطاعات أو أجزاء كبيرة ، واستعمال اللحام الكهربائى ومخترعات أخرى . وكانت أولى هذه السفن ، التى أطلق عليها اسم سفن الحرية ، هى باتريك هنرى ، وقد أنزلت إلى الماء فى سبتمبر سنة ١٩٤١ ، وبعد عامين من بيرل هاربور ، كانت مصانع السفن الأمريكية قد قدمت ٢٧٠٠ سفينة تجارية من جميع الأنماط ـ سفن الحرية ، والنصر ، وناقلات النفط وغيرها ـ بلغ وزنها الإجمالى ٢٧ مليون طن ثابت . وأدت هذه مع المساهمات الكبيرة من مصانع السفن البريطانية ، وانتصار الحلفاء فى حرب المحيط الأطلنطى ، إلى تأكيد سيادة الحلفاء على أعالى البحار ، ومكّن من بقاء بريطانيا ومن غزو القارة فى النهاية .

ولقد أسهم العمل ورأس المال بنصيبيهما كاملين فى كسب الحرب . فبعد بيرل هاربور مباشرة دعا الرئيس إلى مؤتمر يمثل العمال والإدارة ، واتخذ عهداً متسامياً نحو الكمال بعدم إضرابات أو اعتصامات حتى نهاية الحرب ، وقد قبل التنظيمان العماليان الكبيران ــ اتحاد العمل الأمريكى ، ولجنة التنظيم الصناعى ــ هذا على أساس استبقاء نفقات المعيشة منخفضة كذلك . بيد أن ارتفاع الأسعار كثيراً وبسرعة ، لم يلبث أن اضطر « مجلس العمل خلال الحرب » ، الذى كان حديث الإنشاء ، إلى أن يطبق ما سمى حل ليتل ستيل . . زيادة الأجور بحوالى ١٥ فى المائة ، بغية التصدى للأسعار المرتفعة . واشتكى العمال ، وكانوا على شىء من الحق ، من أن هذه الزيادة لم تكن كافية ، ومن أن المشروعات الصناعية والتجارية والمزارعين كانوا يجنون من الحرب أرباحاً كبيرة . ومع أن الأجور لم ترفع بالسرعة التى كان العمال يرونها مناسبة ، فإن العمالة الكاملة والسخاء فى الدفع مقابل الساعات الإضافية ، رفعا دخول العمال إلى مستوى لم تبلغه فى أى وقت ، وجعل منظمات العمل فى مركز أعز من ذى قبل . وراعت النقابات الكبرى التعهد بعدم الإضراب بإخلاص تام . ولم تقع متاعب عمالية خطيرة إلا فى مناجم الفحم ، حيث قاد جون إل . لويس أعضاء عمال المناجم المتحدين إلى الإضراب أربع مرات ، ومع ذلك فقد ظل إنتاج الفحم مناسباً برغم هذه الاضطرابات .

كذلك قام المزارعون بمعجزات فى الإنتاج فى سنوات الحرب ، وساعدتهم فى ذلك مواشيهم ، وخنازيرهم ، ودواجنهم أيما مساعدة . وقد ضرب المزارع الأرقام الزراعية القياسية ، بالرغم من أنه كان يعمل فى ظروف قاسية لنقص الأيدى العاملة ، وعدم كفاية ما يتلقى من آلات زراعية . فقد ارتفعت الطاقة الإنتاجية للمزارع الأمريكية ــ بين سنتى ١٩٣٩ و ١٩٤٤ ــ بحوالى الربع ، وزاد ما أنتجه المزارعون فى سنة ١٩٤٤ على ما أنتجوه فى سنة ١٩٣٩ بما مقداره ٤٧٧ مليون بوشل من الذرة ، و ٣٢٤ مليون بوشل من القمح ، و ٥٠٠ مليون رطل من الأرز ، فى حين أن الزيادة فى الماشية والخنازير ومنتجات الألبان كانت أكثر إذهالاً .

وكان لابد للتركيز على الإنتاج الحربى أن يخل بالاقتصاد المدنى ، ومع ذلك فإن الأمريكيين تعرضوا لأقل مما تعرضت له شعوب أية دولة كبرى محاربة أخرى من الاضطرابات ، وعانوا أقل مما عاناه سواهم من الضائقات . فلم يكن التجنيد كاملاً لكل القوى الرجلية والنسوية كما حدث فى بريطانيا وروسيا ، ولا كانت ثمة رقابات

شاملة للاقتصاد القومى ، ولا كانت ثمة أزمات لنقص خطير للضروريات التى لا غنى عنها . ولقد فرضت الحكومة نظام الحصص (البطاقات) لأنواع مهمة من المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية ، بيد أن غذاء الأمريكيين كان أفضل من ذى قبل بوجه عام ، وكذلك كانت معيشتهم فيما عدا مضايقات أزمات النقص فى المساكن . ولقد رُفِعت الضرائب على الدخل والشركات إلى معدلات لم يسبقها مثيل ، بيد أن الأرباح لم تكن محدودة بحد ، فتضاعف الدخل المتبقى بعد الضرائب فيما بين عامى ١٩٤٠ و١٩٤٥ ، وراح الكساد فى أدراج النسيان تقريباً . لأنه كان من الأمور الماضية . فتمتع كافة قطاعات المجتمع الأمريكى تقريباً ــ فيما عدا الفئات الكتابية والمهنية ــ برخاء لم يسبق حدوث مثله . ولقد ارتفع الدَّيْن القومى إلى أكثر من ٢٥٠ بليوناً من الدولارات ، ولكن تسديد الدَّيْن ترك للأجيال اللاحقة ، وفقاً للنظريات الاقتصادية القائمة والتى كانت شائعة لدى كل الطبقات على السواء لأول مرة ، وظل الائتمان الأمريكى شامخاً شأنه فى أى وقت من أوقات التاريخ الأمريكى .

الدفاع عن المحيط الهادى

كانت بيرل هاربور تؤلف نكبة كبرى مع تدمير معظم السلاح الجوى الأمريكى فى الفلبين ، وإغراق البارجتين البريطانيتين ريبَلْس وبرينس أوف ويلز . على أن الأحداث كانت تخبىء ما هو أسوأ . فإن هما إلا شهران حتى كان اليابانيون قد اجتاحوا الهند الصينية وتايلاند ، واندفعوا إلى شبه جزيرة الملايو ، مستولين على سنغافورة ، المعقل الكبير ، مخترقين حاجز الملايو ــ المؤلف من سومطرا ، وجاوه ، وبورنيو ، وجزر سليبس ، وتيمور ــ ليستولوا على راباول شرقى غينيا الجديدة ، ويندفعوا إلى جزر سولومون ، ويهددوا أستراليا . وكانت قوات يابانية أخرى قد شقت طريقها فى بورما ، وعزلت الصين ، ووقفت على حدود الهند . وبعد بيرل هاربور بثلاثة أيام ، كان اليابانيون قد تدفقوا على لوزون فى الفلبين ، ولم يحن شهر يناير حتى كانوا قد استولوا على مانيلا ، وتغلبوا فى الأربعة الأشهر التالية على المقاومة الأمريكية والفليبينية الباسلة فى باتان ، واجتاحوا جزيرة كوريجيدور الحصينة ، فتمت لهم هزيمة الفلبين بأسرها .

وهكذا لم يحن ربيع عام ١٩٤٢ حتى كانوا السادة المهيمنين على شطر كبير من آسيا ، وسيطروا على حوض المحيط الهادى الغربى ، وعلى الملايين من الأهالى ، وعلى الموارد الخيالية من النفط والمطاط والقصدير فى إندونيسيا . وما قدّر لغزاة آخرين فى التاريخ أن يظفروا بمثل هذه الانتصارات العظيمة مقابل تكاليف زهيدة .

على أن المحيط الهادى شهد حشداً سريعاً للقوات البريطانية والأمريكية والاسترالية . ومع أن أسطول الباسيفيك المقاتل كان قد هُزم ، فقد تسنى انتشال اثنتين من بوارجه المفقودة فى نهاية الأمر فاشتركتا فى القتال من جديد ، فى حين أن معظم مدمراته وحاملات الجنود الثلاث الكبيرة لم تمس . وباتخاذ هذه القطع نواة ، سرعان ما تجمعت قوة بحرية ، ونقلت التعزيزات الجوية إلى هاواى وأستراليا والجزر النائية التى ظلت فى حوزة الحلفاء . وبصدّ الهجمات الجوية اليابانية على سيلان ، وإنشاء قوة مقتدرة على طول حدود بورما ، أنقذ البريطانيون المعقل الحصين الرئيسى ، الممثل فى الهند . فى حين أفلت الجنرال ماك آرثر من كوريجيدور وأقام مركز قيادة فى أستراليا وشرع ينشىء قوات برية وجوية هناك للقيام بهجوم مضاد .

وكانت الاستراتيجية الأمريكية تدعو إلى إرجاء العمليات إلى أن يتسنى جمع قوة كافية لهجوم برى مائى على الساحل الشمالى لغينيا الجديدة إلى « هالماهيرا » وجنوب الفلبين ، ومجموعة من الهجمات البحرية على « السُّلَّم » المؤلف من جزر سولومون وجيلبرت ومارشال وماريانا وبونين إلى مسافة مناسبة لقصف اليابان ذاتها . بيد أنه كان لابد من انقضاء عام قبل أن يجمع الأمريكيون من القوة البرية والجوية والبحرية ما يكفى لشن هذه الهجمات .

وفى تلك الأثناء ، وضع اليابانيون خطة للقضاء على ما بقى من سطوة الحلفاء فى المحيط الهادى ، وقد أصابهم ماسمّاه أحد قادتهم البحريين « مرض الانتصار » . ففى مايو سنة ١٩٤٢ ، ضربوا الأسطول الأمريكى فى معركة بحر المرجان Coral Sea ، فى المياه الممتدة خارج شمال أستراليا مباشرة . وكان صراعاً فذّاً فى طابعه ، قال عنه الأميرال كينج : « أول اشتباك بحرى فى التاريخ ، لم تشترك فيه السفن الطافية على السطح بطلقة واحدة » ، وقد أرسى نمطاً للقتال فى المستقبل . إذ قامت بالقتال كله طائرات كانت تنطلق من حاملات بحرية . ولقد أغرق اليابانيون حاملة الطائرات ليكسينجتون ومدمرة وناقلة للوقود ، فى حين أعطب الأمريكيون حاملتى طائرات يابانية ، وأغرقوا

الحاملة شوهو وعدداً من السفن الأخرى . وبعد بضعة أسابيع ، حدثت معركة ميدواى الفاصلة (٤ - ٦ يونيو) . ففى ٤ يونيو ، اهتدت الطائرات الأمريكية إلى قوة يابانية هائلة ، مؤلفة من حوالى خمسين سفينة نقل وثلاثين بارجة ، بينها أربع حاملات للطائرات . وكانت تزحف إلى قاعدة ميدواى الجوية والبحرية الأمريكية ، وهى جزيرة مرجانية على مسافة ١٥٠٠ ميل إلى الغرب من هاواى . وبينما كانت الطائرات اليابانية تزأر فى طريقها إلى ميدواى ، قصفت الطائرات المنطلقة من الحاملات الأمريكية أسطول الغزو فأغرقت حاملات الطائرات الأربع جميعاً ، وطرادتين ثقيلتين ، وثلاث مدمرات ، وأعطيت ثلاث بوارج . وفى اليوم التالى ، لاذ اليابانيون بالفرار ، تطاردهم قاذفات القنابل الانقضاضية ، التى ألحقت بالأسطول المعطوب مزيداً من الضرر . فكانت أول هزيمة بحرية كبرى لليابان ، ومقدّمة لما كان مقدَّراً أن يتلوها . كما كانت إحدى نقاط التحول فى حرب المحيط الهادى . ولم تكن الولايات المتحدة مستعدة بعد لتصعيد الهجوم ، بيد أن قوة اندفاع الهجوم اليابانى كانت قد كُبحت قطعاً .

غير أن اليابانيين لم يكونوا راغبين فى الاعتراف بأنهم قد رُدِعوا . فتحركوا نحو جزر سولومون معتزمين مهاجمة قوات الحلفاء الصغيرة على الطرف الشرقى لغينيا الجديدة ، وشرعوا فى إقامة قاعدتين جويتين فى تولاجى وجوادالكنال . فهبطت قوة صغيرة من مشاة الأسطول الأمريكيين فى ٧ أغسطس على جوادالكنال ، واستولوا على المطار المقام هناك ، وغيروا اسمه إلى « مطار هندرسُن » . وكان رد اليابانيين حاداً : فبعد يومين ، باغتت قوة من الطرادات اليابانية الأسطول الأمريكى والاسترالى الذى كان يحمى عملية الإنزال ، وأبادته تقريباً . غير أن معركة جزيرة سافو هذه ، كانت بداية قتال امتد ستة أشهر من أجل جوادالكنال ، وكان من أشد الحملات الحربية فى التاريخ العسكرى الأمريكى ، ومن أبقاها ذكراً . وكانت حملة اتسمت بمجموعة من الاشتباكات البحرية الكبرى ، وحوالى اثنتى عشرة عملية أرضية ضارية ، ومعارك جوية فى كل يوم تقريباً . وجرت العملية الحاسمة فى نصف نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، فى معركة جوادالكنال البحرية التى كبدت العدو بارجتين وطرادة ومدمرتين وستاً من سفن النقل . وكان مقدَّراً أن يستمر القتال الكثيف شهرين آخرين ، على أنه لم يحن فبراير سنة ١٩٤٣ ، حتى كان اليابانيون قد غادروا

المنطقة . ومن ذلك الحين ، انتقلت المبادأة فى جنوب المحيط الهادى إلى الأمريكيين .

لم يحن ربيع سنة ١٩٤٣ حتى كان التفوق البحرى فى المحيط الهادى قد انتقل إلى الولايات المتحدة ، بفضل بُعد نظر واشنطن التى أنزلت إلى الماء كثيراً من السفن فيما بين سنتى ١٩٣٨ و١٩٤١ ، وبفضل النجاح الرائع لبرنامج بناء السفن ، وإصلاح السفن بعد ذلك . وكان من مظاهر الموقف الجديد العمليات التى أجريت فى جزر آلوشيان المحوطة بالضباب ، حيث طُرد اليابانيون من آتو فى مايو ، ومن كيسكا فى أغسطس التالى . وبهذين الانتصارين تلاشى كل خطر للهجوم عن طريق آلاسكا . وكانت معركة بحر بيسمارك (٢ مارس سنة ١٩٤٣) مظهراً آخر ، وقد كبدت اليابانيين قافلة كاملة من ناقلات الجنود ، وحياة الأميرال ياماموتو ، أقدر قائد حربى يابانى . كذلك كان من المظاهر شن هجوم كامل فى جزر سولومون الوسطى ، وسلسلة من الغارات المدمرة على معقل اليابانيين فى راباول دبّرت لحماية قوات ماك آرثر من أى تدخل من هذه الناحية . وقد مهدت هذه العمليات جميعاً الطريق لبلوغ الذروة فى إعادة فتح الفليبين ، والاستيلاء على إيواجيما وأوكيناوا .

معركة المحيط الأطلنطى

وهكذا استطاع الأمريكيون ، مع ما كان بوسع الممتلكات البريطانية والهولندية أن تسهم به ، أن يعرقلوا بمجهود خارق وقوع نكبة فى المحيط الهادى ، وأن يمهدوا للنصر . وفى الوقت ذاته ، كانت الحرب فى الميدان الأوربى تسير سيراً حسناً هى الأخرى . وكان القرار الأساسى ، كما رأينا ، هو حصر توسع اليابان إلى أن يتسنى القضاء على ألمانيا . بيد أنه كان على الولايات المتحدة ، أو بريطانيا على الأقل ، حل المشكلة الكبرى — مشكلة نقل الجنود وإيوائهم وإمدادهم — قبل أن تلتحما بالنازيين . ومن الجلى أنه لم يكن من سبيل إلى مهاجمة ألمانيا من أمريكا . كذلك لم يكن من سبيل لمهاجمتها من بريطانيا ، ما لم تكفل الولايات المتحدة استمرار إمداد بريطانيا بالغذاء والسفن والطائرات وغيرها من عتاد الحرب ، ثم تحويل هذه الجزيرة إلى قاعدة عسكرية منيعة من أجل عملياتها .

ومن ثم ، كان الواجب الأول هو الظفر بالسيطرة على المحيط الأطـلنطى .

ولقد بدأت معركة الأطلنطى ، التى كان النصر أو الانكسار يتوقف على نتيجتها ، قبـل بيرل هاربـور بوقت ليس بالقصـير ، فى الواقع . وكانت البداية ، مهما يقال فى دوافعهـا ، هو القـرار الـذى اتخـذ ببُعـد نظر ، وبتخـويل محوط بالشك ، للمقايضة بمدمرات عتيقة فى مقابل قواعد فى الميحط الهادى والبحر الكاريبى ، وما ترتب عليه من اكتساب قواعد فى جرينلاند وآيسلند . بل إن مرحلة القتال فى هذه المعركة بدأت قبل دخـول الحـرب رسمياً بثلاثة أشهر ، عندما انتهز الرئيس روزفلت اعتداء الغواصات الألمانية على الباخرة الأمريكية جرير ليصدر أمراً إلى الأسطول الأمريكى بضرب القطع الألمـانية « بمجـرد رؤيتها » . وبهذا بدأت المعركة بين الغواصات ، وسفن الإغارة ، وبـاثّاث الألغام الألمانية ، والأسطولين والسلاحين الجويين البريطانيين والأمريكيين . واستمرت هذه المعركة حتى نهاية الحرب . وانحاز النصر فى النهاية إلى جانب الحلفاء ، ولكن بأضيق فارق . وكانت المرحلة الأولى من هذا الصراع ، من ١٩٤١ إلى ١٩٤٣ ، من المعارك الحاسمة فى التاريخ .

كان من أشق المهام دحر الغواصات الألمانية التى تدفقت كقطعان الذئاب على شمال المحيط الأطلنطى ، ثم على جنوبه ، وعلى طول المياه الساحلية فى المحيط ، بل وعلى البحر الكاريبى . ولقد حاول البريطانيون أن يتصيدوها على طول السواحل الفرنسية والألمانية والنرويجية ، أو أن يقصفوا أوكارها فى سان نازير وبريست وبريمرهافن وغيرها من الموانى ، ولكن بدون نجاح كبير . وظلت الخسائر الناجمة عن الغواصات فى تصاعد أثار الذعر طيلة عامى ١٩٤١ و١٩٤٢ ، فضلاً عن الخسائر الناجمة عما بثه العدو من ألغـام بغـزارة فى المسـالـك المحفوفة بالأخطار والمحدقة ببريطانيا . ولم تحن نهاية سنة ١٩٤٠ ، حتى كان مجموع الخسائر فى السفن قريباً من خمسة ملايين من الأطنان . ثم أودت الغواصات والألغام الألمانية بأربعة ملايين أخرى من الأطنان فى سنة ١٩٤١ . وزاد دخـول أمـريكا الحرب من استهداف الغواصات الألمانية للأخطار ، بيد أنه زاد كذلك من الفرائس المحتملة . ففى الأربعة الأشهر الأولى من سنة ١٩٤٢ ، أغرقت الغواصات الألمانية ٨٢ سفينة مجموع حمولتها نصف مليون طن ، فى المحيط الأطلنطى الشمالى وحده . ثم نقلت هجومها الرئيسى إلى الخليج والبحر الكاريبى ، وقضت على ١٤٢ سفينـة أخـرى يناهز مجموع حمولتها ثلاثة أرباع المليون من الأطنان . وفى هذه

المدة ، التى بلغت ستة أشهر ، تمكن الحلفاء من إغراق عشرين غواصة ألمانية فقط ، أى أقل من إنتاج شهر واحد .

ويحدثنا « إس . إى . موريسون » ــ مؤرخ الأسطول الأمريكى فى الحرب العالمية الثانية ــ عن قيمة القضاء على هجمات الغواصات بقوله :

لنأخذ قافلة متهجة نحو الغرب ، فى شهر فبراير ، يحرسها زورقا حراسة السواحل الأمريكيان « سبنسر » و« كامبيل » ، وخمس طرادات كندية وبريطانية ، ومدمرة بولندية . وكان الكابتن بى . آر. هينمان ، من رجال أسطول الولايات المتحدة ، هو القائد . وخفضت الريح المعاكسة سرعة التقدم إلى ٤ عُقَد ، ومع ذلك فإن السفن المرافقة وُفِّقت فى التزوّد بالوقود من ناقلات فى القافلة ، أثناء وجودها فى المياه الهائجة . وفى ٢١ فبراير ، أغرق الزورقان المسلحان وطائرة ليبريتور أقبلت من المملكة المتحدة غواصة ألمانية . وفى الأيام الثلاثة التالية ، تعرضت القافلة وهى خارج نطاق الحماية الجوية لست هجمات من سرب كبير من الغواصات النهمة ، وخسرت خمس سفن . وأصابت المدمرة البولندية « بورزا » غواصة ألمانية بقذيفة أعماق فغاصت إلى ١٣٠ قامة . ثم نسف قائدها جميع الخزانات ، وصعد إلى السطح بزاوية شديدة الميل ، فسرعان ما ضربته « كامبيل » فأغرقته . وواصل بقية السرب مهاجمة القافلة يومين آخرين ، ولكن مقدرة قطع الحراسة وحذقها أوصلت السفن دون أن تفقد أكثر من واحدة . ولم تكد وحدة الحراسة التى يقودها هينمان تنعم بالمأوى غير الآمن الذى أتاحه مرفأ أرجنتيا ، إذ حلت البحرية الكندية محلها جنوبى نيوفوندلاند ، حتى اضطرت للخروج ثانية لتتولى حراسة قافلة من ٥٦ سفينة متجهة شرقاً . وظلت الأنواء والرياح الغربية مع البَرَد المنهمر تعصف بهذه القافلة تسعة أيام تباعاً . ومع أن سفن الحراسة كانت قد اكتسبت خبرة ، وكان ملاحو السفن التجارية يبدون شجاعة ونظاماً ، فإن ست سفن فُقدت فى هذا البحر الهائج ، ولم يتسن إنقاذ سوى نفر قليل من أفرادها .

وكانت روسيا منذ اللحظة الأولى للغزو ، قد أخذت تجأر طلباً للمعونة من كل من بريطانيا والولايات المتحدة ، وبرغم ما كانت فيه الحليفتان الغربيتان من ظروف ضيقة ، فإنهما بذلتا غاية وسعهما لتلبية هذه الطلبات . وإلى أن فُتح طريق الخليج العربى فى سنة

١٩٤٣ ، كان لابد من إرسال كل العتاد الحربى إلى روسيا عن طريق المحيط المتجمد الشمالى إلى مينائى مورمنسك وأرشانجل . وكان ذلك أكثر طرق القوافل خطراً ، لتعرضه لهجمات لا تنقطع من الطائرات والغواصات والطرادات الألمانية التى اتخذت قواعد فى المياه النرويجية . ففقد فيه ما لا يقل عن رُبع جميع السفن التى سلكته فى سنة ١٩٤٢ ومع ذلك فإن تسع عشرة قافلة شقت طريقها ، فى ذلك العام ، خلال الثلوج والضباب والهجمات النازية إلى الموانى الروسية الشمالية .

وشيئاً فشيئاً ، صارت للحلفاء اليد العليا فى هذه المعركة البحرية القاسية بين سفن تطفو على السطح والغواصات المتربصة تحت الماء . وأنشأوا قوافل لحماية سفنهم التجارية وحاملات الجنود فى المياه المليئة بالأخطار ، فلم تغرق سوى اثنتى عشرة سفينة تقريباً من آلاف السفن التى كانت تحرسها الطرادات والمدمرات والزوارق المسلحة وغيرها من السفن الحربية . كذلك أقاموا داوريات جوية تنطلق من نيوفوندلاند ، وآيسلند ، والبرازيل ، وبرمودا ، وجزيرة اسينشن ، ثم من جزر الآزور أخيراً . واستعملوا أجهزة الاستطلاع بالموجات الصوتية للاهتداء إلى الغواصات الألمانية وتوجيه قذائف الأعماق لإغراقها ، وخصصوا ما لا يزيد على ألف سفينة لاكتساح الألغام ، وجهزوا سفنهم بالقضبان « الممغنطة » لتنبه إلى وجود الألغام أو الغواصات . وبهذه الأساليب وغيرها انخفضت الخسائر بدرجة كبيرة ، ولم يحن صيف سنة ١٩٤٣ حتى كان الحلفاء يغرقون للعدو غواصة فى اليوم ، فى المتوسط .

ولقد ظلت هناك عقبات مرتقبة دون شك . فبالرغم من غارات القصف التى لم تنقطع ، على المدن الصناعية الألمانية ، كان إنتاج الغواصات فى ازدياد مطرد ، حتى بلغ ذروته فى سنة ١٩٤٤ بإنزال ٣٨٧ غواصة ألمانية إلى الماء . وكان علماء هتلر يعملون بهمة محمومة للبدء فى إنتاج غواصات « شنوركل » الجديدة ، التى يبلغ طولها ٢٥٠ قدماً ، وتسير بالكهرباء ، والتى كان بوسعها أن تقطع ١٧ عقدة فى الساعة ، وأن تبقى تحت الماء أمداً غير محدود . ولم يتسن لحسن الحظ الإنتاج الكامل لهذه الغواصات قبل نهاية الحرب . . ففاتت فرصة الإفادة من إنتاجها . ولم تحن أواسط صيف سنة ١٩٤٣ حتى كان الحلفاء قد فازوا فى معركة الأطلنطى فوزاً أكيداً ، وأصبحوا فى موقف يمكنهم من الحشد لهجوم واسع النطاق على القارة الأوربية .

شمال أفريقيا وإيطاليا

في الوقت الذى كان أسطول المحيط الهادى يردع فيه اليابانيين عند ميدواى ، وقوافل الحلفاء تكافح للمضى فى المحيط الأطلنطى المفعم بالخطر ، تقابل روزفلت وتشيرشل ـ فى يونيو سنة ١٩٤٢ ـ فى واشنطن مع رؤساء الأركان المشتركة لرسم خطة سقوط هتلر . كان الأمريكيون يريدون فتح « جبهة ثانية » فى أوربا فى سنة ١٩٤٢ أو١٩٤٣ على الأكثر ، وكان البريطانيون الذين جعلوا جزيرتهم منيعة على الغزو ، وكانوا يدركون كل الإدراك أخطار أى هجوم سابق للأوان المناسب على أوربا المحتلة ، راغبين فى إرجاء الجبهة الثانية إلى أن يكون الحلفاء قد حشدوا احتياطات كافية وظفروا بالسيادة الجوية كاملة . وكان قرار القيام بهجوم على شواطىء أفريقيا الشمالية حلاً وسطاً بين هذين الرأيين .

ومع ذلك ، فقد كان قراراً جريئاً . إذ لم تترك سوى أربعة أشهر لرسم وتنفيذ المشروع الكبير . . لتدريب الجنود على الحرب البرية المائية ، وتكديس الإمدادات ، وتوفير مئات من السفن التجارية ، وسفن النقل ، والسفن الحربية ووقايتها فى المياه الموبوءة بالغواصات ، والسير فى مفاوضات حساسة مع فرنسا الحرة ، وفرنسا حكومة فيشى ، وإسبانيا فرانكو . يضاف إلى هذا أن المشروع كان يتطلب أدق تنسيق بين قوات الغزو ، بحيث تبحر من موانى فى الولايات المتحدة والجزر البريطانية وتصل فى وقت واحد إلى موانى على مسافة آلاف الأميال ، فضلاً عن التنسيق مع الجيش الثامن بقيادة الجنرال ألكسندر فى مصر .

على أنه إذا كانت المخاطر جسيمة ، فإن النتائج كانت مغرية . فلو قدر للخطة أن تنفَّذ بنجاح ، لكان من الممكن أن تحول دون دخول إسبانيا الحرب فى صف المحور ، وأن تلم شمل قوات فرنسا الحرة فى الوطن وفى أفريقيا ، وأن تشجع قوات المقاومة فى كل مكان ، وتكفل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط فتقصِّر المسافة لبلوغ الشرق الأدنى بدرجة كبيرة ، وتطهر شمال أفريقيا من قوات المحور ، وتوفر نقطة الانطلاق لغزو إيطاليا والمواطن الحساسة من أوربا .

وعهد بقيادة عملية « المشعل » Operation Torch ، كما أطلق عليها ، إلى الجنرال دوايت دى . أيزنهاور ، الذى كان يقود القوات الأمريكية فى الساحة الأوربية إذ ذاك .

وما إن بدأت الخطة المعقدة ، حتى تتابعت خطواتها فى دقة الساعة . . ما عدا ذلك الجزء منها ، الذى كان يسمى : التعاون الفرنسى . فحوالى منتصف ليل ٧ نوفمبر ، وقفت ثلاثة أساطيل كبيرة للحلفاء ، خارج مرافىء الدار البيضاء ووهران والجزائر . وبينما أخذت السفن والطائرات تدك الاستحكامات فى الصباح التالى ، أقبل الجنود يخوضون الماء إلى الشاطىء . وكانوا يتوقعون أن تتفتح الأحضان لاستقبالهم ، ولكنهم بدلاً من ذلك قوبلوا بالرصاص والقنابل . كانت عمليات النزول فى الجزائر سهلة نسبياً ، أما فى وهران فقد تخللها قتال شديد ، فى حين أن الدار البيضاء لم توقف المقاومة إلا بعد أن أغرق الأميرال هويت معظم الأسطول الفرنسى الذى كان يذود عن مرفئها . وشاء الحظ الحسن للموقف العسكرى ، أن الاميرال دارلان ، أحد كبار المسئولين فى حكومة فيشى ، وكان فى شمال أفريقيا إذ ذاك ، أصدر أمراً فى ١١ نوفمبر بوقف إطلاق النار ، وأسلم قواته إلى الحلفاء . وعلى الفور تبرأ منه الشيخ المخرف بيتان الذى كان بعد موقناً من أن دول المحور لن تلبث أن تكسب الحرب . ولقد ظلت مضاعفات هذه « الصفقة » مع دارلان السىء السمعة تهدد فترة بتطورات خطيرة ، بيد أن اغتياله بعد بضعة أسابيع أعاد للجو صفاءه . وبعد محاولة فاشلة لإيكال القيادة إلى الجنرال هنرى جيرو الأسطورى ، اعترف الحلفاء بمطالب شارل ديجول ذى الموقف البطولى ــ الذى كان أول من رفع لواء المقاومة ــ فى أن يرأس حكومة شمال أفريقيا الفرنسية المؤقتة ، وأن يكون الناطق باسم قوات فرنسا الحرة فى كل مكان .

كان الغزو مفاجأة باغتت الألمان ، بيد أنهم بادروا بسرعة وكفاءة إلى الرد . فاستولوا فوراً على فرنسا فيشى بأكملها ، وإن أخفقوا فى الظفر بالأسطول الفرنسى فى طولون قبل أن ينسحب منها . وأرسلوا بالطائرات عشرين ألف رجل ، عبر مضايق صقلية إلى تونس ، فاستولوا على أكبر ميناءين فيها : تونس وبيزرت ، وأقاموا مطارات فى الداخل وتأهبوا لأن يتقاضوا من الحلفاء ثمناً باهظاً من أجل رمال أفريقيا .

ثم بدأ السباق للاستحواذ على تونس . وكان الجنرال برنارد مونتجمرى قد شن الهجوم الشهير ، الذى قدّر له أن ينقل الجيش الثامن من مصر إلى تونس ، وما بعدها . فقد سحق جيش روميل الخليط من الألمان والإيطاليين عند « العلمين » فى إحدى معارك الحرب الفاصلة (٢٣ أكتوبر ــ ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٢) ، ثم انطلق فى مطاردة بقاياه بدون كلل عبر برقة وطرابلس . وبادر الجنرال أيزنهاور ــ عقب الغزو ــ بالزحف عبر

خمسمائة ميل من الأراضى الوعرة ، من الجزائر إلى تونس . ولم تحن نهاية نوفمبر حتى كان قد وصل إلى مطير التى لا تبعد عن غايته بغير ٥٥ ميلاً . بيد أنه كان قد نشر قواته أكثر مما ينبغى ، فطالت خطوط مواصلاته ، بينما ساء الطقس ، وكان الألمان يسيطرون على المطارات الجيدة جميعاً . وصمد المحور . ثم قام فى فبراير سنة ١٩٤٣ بهجوم مضاد فى ممر قصرين ، وأوقعوا الاضطراب بين الأمريكيين الذين لم يتمرسوا بالقتال بعد ، وهددوا بشطر جيوش الحلفاء . وأرسلت التعزيزات إلى مسرح الأحداث بسرعة ، وأقبل السلاح الجوى بقوة شديدة ، فضم الحلفاء صفوفهم واستردوا المبادأة .

وكـان مونتجمـرى فى تلك الأثنـاء قد اضطر روميل إلى الاعتصام بخط ماريت الشـديد التحصينـات ، وراء حدود تونس مبـاشرة . وفى عملية من أذكى عمليات الحرب ، ضرب مقدمة العدو ومؤخرته ، فاضطره إلى الخروج من استحكاماته ، ودفعه إلى الارتداد نحو صفاقس وخليج قابس . وإذ ذاك ، اكتملت حلقة الجيوش الأمريكية والبريطانية والفرنسية حول الفريسة . ففى ٧ مايو سقطت تونس وبيزرت معاً ، وبعد ستة أيام استسلم ربع مليون من الجنود الألمان والايطاليين المذهولين ، عند رأس بون . وتم غزو شمال أفريقيا ، وأصبحت الطريق إلى أوربا مفتوحة .

ولم تكن النتيجة المواتية التى ترتبت على هذه الحملة مفاجأة لقادة الحلفاء . إذ أنهم كانوا قد رسموا خططهم لكى يناضلوا للفوز بالنصر . ففى يناير سنة ١٩٤٣ ، التقى روزفلت بتشيرشل وأركان حربهما فى الدار البيضاء ، حيث عقدوا أحد مؤتمرات الحرب المهمة . وكانت النذر مبشرة بالخير لأول مرة منذ سنة ١٩٣٩ . إذ كان الأمريكيون قد ظفـروا بجـوادالكنـال وانتزعوا المبادأة من اليابانيين فى المحيط الهادى . وكان الروس المحاصرون فى ستالينجراد ، مقبرة جيش ألمانى كبير وآمال ألمانية جسيمة ، قد أحرزوا نصراً حاسماً ، وأصبحوا فى موقف لشن هجوم مضاد كبير . وكان مونتجمرى قد هزم روميل ، كل الاحتـمالات توحى بأن المحور سيُطْرد من أفريقيا ، وسيتم تطهير البحر المتـوسط . كانت تلك ، كما قال تشـيرشـل ، « نهاية البـداية » . وكانت ، كما نراها الآن ، نقطة التحول فى الحرب . وإزاء هذه الخلفية ، اتخذ الحلفاء قراراتهم الحاسمة : غزو صقلية وإيطاليا فى أول لحظة تسنح ، وزيادة الحرب المضادة للغواصات شدة ، وحشـد قوة فى المحيط الهادى إعداداً لهجوم كبير ، وعدم إنهاء الحرب إلا على أساس التسليم غير المشروط .

ولقد ظفرت هذه الخطة بموافقة عامة فى ذلك الوقت ، وإن تعرضت لقدر كبير من الانتقاد فيما بعد . وكانت الحجة المبررة هى أن عدم ترك أى مجال للتفاوض ، وعدم ترك أى أمل فى شروط أيسر ، ثبّطا همة الجماعات المتمردة فى داخل دول المحور ، وزادا من صلابة مقاومة المحور ، مما أطال أمد الحرب . ولن يقدر لنا أن نعرف فى الواقع « ما كان يحتمل أن يجرى » فى التاريخ . بيد أن الخطة لم تؤخر استسلام إيطاليا ، وليس ثمة دليل على أن القوى المضادة لهتلر فى ألمانيا ، أو القوى المضادة للإمبراطور فى اليابان كانت على مقدرة تمكنها من شىء ، ولا كان قادة الحرب لدى هتلر أو فى اليابان على استعداد للتفاوض . والأرجح أن التسليم غير المشروط لم يعجل بنهاية الحرب ولا أطال أجلها .

وسرعان ما وضعت الخطط التى رسمت فى الدار البيضاء موضع التنفيذ . ففى أوائل يونيو شن الجنرال أيزنهاور هجوماً كبيراً على صقلية ، فنزل الأمريكيون بالساحل الجنوبى الغربى ، ونزل البريطانيون إلى الشرق فى سيراكيوز . ولم تكن المقاومة الإيطالية ذات قيمة ، بيد أن الألمان تصدوا فى قتال شديد . وفى أربعين يوماً اجتاح الحلفاء الجزيرة بأسرها ، واستولوا على مائة ألف أسير إيطالى وكميات هائلة من العتاد الحربى ، بينما بلغت خسائرهم ٢٥٠٠٠ رجل .

وبينما كانت فلول الفرق الألمانية تُنْقل إلى إيطاليا عبر مضيق مِسينا ، كان الحلفاء يرسمون خطتهم لإخراج إيطاليا من الحرب . فإن هذه الدولة كانت أضعف شريكة فى المحور . كانت تترنح من الضربات التى انهالت عليها ، وكان أهلها قد سئموا الحرب والطاغية موسولينى الذى قادهم إلى سلسلة من النكبات التى لم يسبقها مثيل فى تاريخهم . وفى ٢٥ يوليو ، خُلع موسولينى ، وبدأت فى الشهر التالى حكومة انتقالية مفاوضات للصلح مع الجنرال أيزنهاور . وبمجرد أن اندفع الحلفاء المظفرون عبر مضيق مسينا إلى كالابريا فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٤٣ ، سلمت إيطاليا بدون شرط . هكذا سقط واحد وبقى اثنان ، كما قال روزفلت .

على أن هذا كان بعد سابقاً للأوان ، إذا راعينا أن إيطاليا وإن كانت قد خرجت من الحرب ، فإن الألمان كانوا بعد فى إيطاليا ومستعدين للقتال من أجل كل ياردة من الأرض . وقد تكشفت حملة إيطاليا عن أنها من أوعر حملات الحرب . فقد بدأت ، والظروف تبشر بالخير ، بقتال ضار قوبلت به القوات البرية المائية وهى تنزل على شاطىء سالسيرنو ، على بعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب من نابولى . وما إن تم تعزيز رأس الجسر على

هذا الشاطىء ، حتى اندفع الجيشان الخامس الأمريكى والثامن البريطانى بسرعة ويسر للاستيلاء على نابولى ذاتها ، وعلى مطارات فودجيا التى لا تقدر بقيمة ، والتى كان بوسع قاذفات القنابل المنطلقة من مدارجها قصف البلقان والنمسا وجنوب ألمانيا . بيد أن الحملة فقدت قوة اندفاعها بعد سقوط نابولى ، إذ كان الألمان قد استغلوا أرض الجنوب والوسط الإيطاليين الجبلية ، فأقاموا مجموعة من خطوط الدفاع الشديدة البأس : خطوط فولتورنو ، ووينتر ، وجوستاف ، وهتلر . وقد اجتمعت هذه مع الطقس والتضاريس الجغرافية على إقامة عقبات كؤود فى وجه الدبابات والطائرات والمصفحات المتحالفة . واستغرق قطع الأميال الثمانين من نابولى إلى روما ثمانية أشهر من أشد أنواع القتال ، وعدداً من المعارك الالتحامية الضارية ، كانت أشدها وطأة معركتا ساحل آنزيو ومونت كاسينو . ولم يتسن للحفاء أن يهشموا استحكامات كاسينو نهائياً وأن ينفذوا خلال الطوق الذى ضربه الألمان حول ساحل آنزيو قبل مايو سنة ١٩٤٤ . وبينما كان أسطول الغزو الهائل يتأهب للإبحار إلى سواحل نورماندى ، دخل الحلفاء المنتصرون روما ، فى ٤ يونيو .

الغـزو الكـبير

كانت الاستراتيجية الكبرى للحرب ولغزو القارة قد رسمت فى سلسلة من المؤتمرات ضمت قادة الحرب المتحالفين فى سنة ١٩٤٣ . فأقام مؤتمر الدار البيضاء هيئة تخطيط مشتركة فى لندن ، وحدد المؤتمر الثلاثى الذى عقد فى واشنطن ، فى مايو سنة ١٩٤٣ ، التاريخ المبدئى للغزو بعد عام واحد . وفى أغسطس ، درس مؤتمر عسكرى أنجلو أمريكى كامل العناصر ـــ فى كويبك ـــ « مسرح العمليات فى العالم بأسره » ، وكما جاء فى البيان الرسمى « اتخذ القرارت اللازمة . . للتمهيد لعمليات تقدم الأساطيل والجيوش والقوات الجوية » . وتسنى لأول مرة ، فى سبتمبر ، استدراج روسيا بنجاح إلى الخطة العامة ، بفضل اجتماع وزراء الخارجية فى موسكو . فقد أقام هذا الفريق لجنة استشارية أوربية مركزها فى لندن ، لتضع الخطط والتوصيات للعمل المشترك فى المجال الدولى ، وأصدر الوزراء بياناً تعهدوا فيه بإقامة منظمة دولية للسلام بعد الحرب . وجاء

أهم مؤتمرين فى نهاية العام ، فى طهران وفى القاهرة . ففى طهران (فى فارس) ناقش تشيرشل وستالين الاستراتيجية الكبرى للحرب ، ووضعا خططاً محددة لمجموعة من التحركات الجبارة تقوم بها القوات الروسية والأنجلو أمريكية فى العام التالى . أما مؤتمر القاهرة ، فانصرف فى معظمه إلى خطط الحرب فى المحيط الهادى والتسوية النهائية لشؤون الشرق الأقصى .

وهكذا كانت عملية السيد الأعلى ، كما عُرف الغزو ، قد رسمت من حيث المبدأ الاستراتيجى العريض ومن حيث التفصيلات قبل القيام بها بعام كامل . ومن الأمور الأخرى التى تقررت ، أن يكون القائد الأعلى أمريكيًا ، نظراً لأن الولايات المتحدة ستسهم بالقسط الأوفر من الرجال والعتاد . وأدى نجاح إيزنهاور فى أفريقيا وصقلية وإيطاليا ، ومكانته لدى القادة المدنيين والعسكريين فى جميع الدول المتحالفة ، إلى أن يكون أصلح مرشح لهذا المنصب . وفى يناير ، نقل أيزنهاور مركز قيادته إلى لندن ، وبدأ الإعداد التفصيلى للغزو بمعاونة الجنرال سير فردريك مورجان كرئيس لجهازه التخطيطى .

وما واجهت يوماً القوات الحربية لأمة ما أو مجموعة من الأمم مهمة بهذه الضخامة والمشقة . فإن هتلر نفسه عجز عن أن يتخطى القنال الإنجليزى (المانش) ، حتى فى عامى ١٩٤٠ و١٩٤١ عندما كان له التفوق الطاغى فى الرجال والطائرات ، وعندما كانت الاستحكامات البريطانية مؤقتة بعد إلى حد كبير . ثم أنه أوتى أربع سنوات جعل فيها وسائل دفاعه على الساحل الفرنسى منيعة . وكان اختراق هذه الاستحكامات ، والنزول ، واستبقاء جيش فى أرض معادية ، وتعزيزه وتدعيمه حتى يستطيع ملاقاة الجيش الألمانى فى أى مكان من أوربا على قدم المساواة معه . . كان كل هذا يتطلب من الحلفاء جمع قوة برية وبحرية ضخمة ، ومختزنات هائلة من الإمدادات والعتاد الحربى .

كذلك كان الأمر يتطلب شيئاً آخر لا غنى عنه : السيطرة على الجو . . لا على جو القنال والساحل الفرنسى فحسب ، بل على القارة بأسرها حتى برلين وفيينا شرقاً . وكان على الحلفاء قبل أن يشرعوا فى غزو يحف به أى أمل فى نجاح ، أن يدكوا المصانع الألمانية ، وأن يقطّعوا المواصلات الألمانية ، وأن يضطروا القوات الجوية الألمانية إلى ملازمة الأرض . وكان هذا همهم الرئيسى وإنجازهم العسكرى الأول فى الساحة الأوربية ، فى سنة ١٩٤٣ والشهور الأولى من عام ١٩٤٤ .

وحدثت البداية الحقيقية للهجوم الجوى على ألمانيا فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢ ، إذ أغارت ألف قاذفة للقنابل على المدينة الصناعية الكبيرة كولون . وأعقبتها سلسلة كاملة من الإغارات الرادعة على مدن أقليم الراين والرور وأعمق أعماق ألمانيا . ولم يشترك السلاح الجوى الأمريكى فى المعركة اشتراكاً حقيقياً قبل سنة ١٩٤٣ ، وإن كان قد اشترك فى غارات رمزية فى العام الذى سبقها . وهكذا بلغ مجموع ما أسقطه السلاح الجوى الملكى البريطانى خلال سنة ١٩٤٢ على أوربا الخاضعة للاحتلال الألمانى ٧٥٠٠٠ طن من القنابل . أما السلاح الجوى الأمريكى المستقر فى قواعد بريطانية ، فألقى ٢٠٠٠ طن من القنابل . على أن التصاعد الأمريكى كان سريعاً ، ففى عام ١٩٤٣ ، ألقت القاذفات الأمريكية ١٢٣٠٠٠ طن من القنابل على العدو ، وألقت البريطانية ٢١٣٠٠٠ طن أخرى . وفى عام ١٩٤٤ ، اشتد تصاعد القصف من جانب الحلفاء . وكان البريطانيون فى هذه الأثناء قد توصلوا إلى أسلوب للقصف التشبُّعى ، وتوصل الأمريكيون إلى أسلوب لدقة التصويب والقصف خلال الغيوم . ويوماً بعد يوم كانت القلاع الطائرة الجبارة ، وليلة بعد ليلة كانت الطائرات الهاليفاكس واللانكاستر والستيرلينج تنطلق محلقة فوق ألمانيا والنمسا وفرنسا المحتلة ، مهشمة المدن الكبيرة إلى انقاض ، ومدمرة المصانع والطرق الحديدية والقنوات وأوكار الغواصات ، وغير ذلك من الأهداف . وقبل أن تنتهى الحرب كانت هامبورج ، كولون ، وفرانكفورت ، وإيسن قد مُحيت تقريباً .

كانت ضخامة الهجوم الجوى على ألمانيا فى حد ذاتها تزرى بأى شىء تمكن الألمان من أن يفعلوه ضد بريطانيا فى العامين الأولين من الحرب . ففى الغارة الكبيرة على كوفنترى فى عام ١٩٤٠ ، ألقى « اللوفتفافة » Luftwaffe (السلاح الجوى الألمانى) ٢٠٠ طن من القنابل ، فإذا اتخذنا هذا قياساً ، تكون برلين قد عانت قدر كوفنترى ٣٦٣ مرة ، وكولون ٢٦٩ ، وهامبورج ما يزيد على ٢٠٠ مثل ، وعلى وجه الإجمال ، أرسلت الأسلحة الجوية للحلفاء طيلة الحرب ما يقرب من مليون ونصف المليون من طَلْعات قاذفات القنابل ، ومليونين وثلاثة أرباع المليون من طَلْعات المقاتلات ، وأسقطت حوالى ٢٧٠٠٠٠٠ طن من القنابل على أهداف العدو فى الساحة الأوربية . ولم تكن المدن ذاتها هى الأهداف الرئيسية ، وإنما كانت هذه هى الصناعات الرئيسية كالنفط ، ووقود الطائرات ، والمطاط الصناعى ، و« رمان البلى » ، وشبكة النقل .

ومع ضخامة هذا الإنجاز ، فمن الخطأ الزعم بأن ألمانيا إنما هُزمت من الجو ، أو أن السطوة الجوية وحدها كانت قادرة على كسب الحرب . والواقع أن ألمانيا أظهرت جلداً وسعة حيلة غير عاديين فى مواجهة القصف . ومع أن الخسائر فى الأرواح كانت كبيرة ، كما أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية العادية اختلت وتمزقت ، فإن إنتاج العتاد الحربى لم يتـأثر بدرجة خطيرة حتى الشهور الأخيرة من عام ١٩٤٤ . بل إن الإنتاج الحربى الألمانى كان فى سنة ١٩٤٤ أعلى بدرجة كبيرة منه فى أى عام سابق : فقد ازداد إنتاج الطائرات والغواصات والأسلحة جميعاً فى ذلك العام . على أن الحرب الجوية أتت بنتيجتين حاسمتين فى ناحيتين : فإن إنتاج النفط ووقود الطائرات مع الاستيلاء على حقول النفط الرومانية ، أعجزا قسماً كبيراً من السلاح الجوى الألمانى عن الطيران . والنتيجة الثانية هى أن تمزيق شبكة النقل فى شمال فرنسا وغرب ألمانيا شل تنقلات الجنود تقريباً فى وقت الغزو .

ولم يحن ربيع عام ١٩٤٤ ، حتى كانت خطط ذلك الغزو قد اكتملت . وحدّد يوم البدء ليكون ٥ يونيو ، وإن ظل هذا باستمرار متعلقاً بتقلبات الطقس . وحدّدت منطقة الغزو ــ استناداً إلى حد كبير إلى اعتبارات المسافة والتيارات والسواحل والدفاعات الشاطئية ــ لتكون ساحل نورماندى عند ملتقى شبه جزيرة كوينتان بالقارة ، فخصص القطاع الشرقى من هذه المنطقة للبريطانيين ، والقطاع الغربى للأمريكيين . وكان الحلفاء قد جمعوا حشداً كبيراً ، ناهز الثلاثة ملايين من الجنود والملاحين ورجال الطيران . وكان ثمة أسطول كبير من أربعة آلاف بارجة وسفينة من كافة الأنواع معدة لنقل جيش الغزو عبر القنال ومواصلة إمداده بقدر هائل من العتاد اللازم لحملة كاملة ، وأُعِدت إحدى عشرة ألف طائرة لحماية الغزاة وإلزام السلاح الجوى الألمانى الأرض . وكانت هناك أسلحة جديدة ، وقوارب خاصة بالإنزال ، ومرافىء صناعية ، ومائة شىء وشىء ابتكرت لتكفل النجاح لعمليات الإنزال . وقد بلغ من ثقل الإمدادات المكدسة فى بريطانيا ، أن قيل أن ستار المناطيد المعلقة هى التى صانت الجزيرة من الغرق فى البحر . وقد كتب الجنرال أيزنهاور فى « الحملة العسكرية فى أوربا » ، أن جنوب إنجلترا بأكمله . .

كان معسكراً حربياً هائلاً ، زاخراً بالجنود فى انتظار الأمر النهائى بالانطلاق ، ومكدساً بالإمدادات والعتاد فى ارتقاب نقلها إلى الشاطىء الآخر للقنال . كانت المنطقة بأسرها

قد اقتطعت عن بقية إنجلترا . . . كان كل معسكر ، وثكنة ، ومستودع للسيارات ، وكل وحدة محددة على حدة وبعناية على خرائطنا الرئيسية . وكان موعد تحرك كل وحدة قد حسب بحيث إنها تصل إلى نقطة التعبئة على السفن فى الموعد الذى تكون السفن مستعدة لاستقبالها فيه تماماً . كان الحشد الجبار مشدوداً كأنه زنبرك ملفوف ، وهكذا كان تماماً فى الواقع . . كان زنبركاً بشرياً عظيماً ، ملفوفاً فى انتظار اللحظة التى تُطلق فيه طاقته ، فيعبر القنال الإنجليزى فى أعظم انقضاض برى مائى حاوله البشر .

وهدد الخطة كلها طقس متقلب ، ولكن أيزنهاور غامر استناداً إلى صحو السماء ، وأصدر الأمر بالانطلاق فى ٥ يونيو . وفى تلك الليلة دكّت الطائرات شمال فرنسا بأكمله من بلجيكا حتى بريتانى ، وأبحر أسطول زائف نحو منطقة رأس كاليه لخداع الألمان ، وهبطت بالمظلات ثلاث فرق من الجنود المحمولة فى الطائرات خلف خطوط الألمان على ساحل نورماندى . وفى الصباح الباكر من ٦ يونيو ، اقترب أسطول الغزو من الشواطىء ، واخترق استحكامات العرقلة المقامة تحت الماء ، واندفع الجنود إلى البر كالسيل .

وبوغت الألمان الذين كانوا قد توقعوا أن يجرى الهجوم الرئيسى فى رأس كاليه . ومع أنهم ظلوا وقتاً ينظرون إلى غزو نورماندى باعتباره هجوماً لتشتيت قواهم ، فإنهم قابلوه بشدة . بيد أن سيطرة الحلفاء على الجو حالت دون أى تعرض جوى لأسطول الغزو ، فى حين أن تدمير الخطوط الحديدية والجسور على طول المسافة إلى باريس ، جعل من المستحيل للقائد الألمانى فون روندشتد أن يرسل التعزيزات بالسرعة الكافية لحرمان الحلفاء من إقامة رأس جسر على الشاطىء . ولم ينته نهار يوم الغزو حتى كان الحلفاء قد اخترقوا جدار الأطلنطى ، وأنزلوا جنوداً بلغ مجموعهم ١٢٠٠٠٠ شرعوا يشقون طريقهم موغلين فى البلاد ليتقابلوا مع جنود المظلات البواسل . وإن هو إلا أسبوع حتى كان لهم على البر ما يزيد على ٣٠٠٠٠٠ رجل و ١٠٠٠٠٠ طن من الإمدادات ، وحتى كانوا يسيطرون على منطقة طولها سبعون ميلاً وعرضها ما بين خمسة أميال وخمسة عشر . ثم اندفع الأمريكيون غرباً ، شاقين طريقهم بعرض شبه جزيرة كوتنتان ، ولم يحن ٢٦ يونيو حتى استولوا على ميناء « شربور » العظيم .

وفى خلال الشهر التالى ، كسب الحلفاء معركة نورماندى . ففى الشرق استولى البريطانيون على مدينة كان الرئيسية ، وفى الغرب استولى الأمريكيون على سان لو ،

الباب المفضى إلى الجنوب . وقبل نهاية الشهر كان مليون رجل قد هبطوا على الشاطىء الفرنسى ، وكانت مشكلة الإمداد قد ذُلِّلت إلى حد كبير بإنشاء مرافىء صناعية كبيرة ، وخطوط أنابيب لنقل الوقود للفرق الآلية . أما وقد توفر للأنجلو أمريكيين تفوق عددى واضح على العدو ، وسيطرة جوية لا منافس لها ، فقد أصبحوا مستعدين لاختراق الاستحكامات الألمانية ، والانتشار فى الشمال الفرنسى بأسره .

وفى ٢٥ يوليو انتهت معركة نورماندى وبدأت معركة فرنسا . واخترق الجيش الثالث بقيادة الجنرال باتون الاستحكامات الدفاعية للألمان فى غرب سان لو بقوة لا سبيل إلى مقاومتها ، إلى كوتانس ، على عشرة أميال إلى الجنوب ، واستولى على أفرانش ، وأحبط هجوماً ألمانياً مضاداً فيما سُمِّىَ ثغرة « فاليز » . وبينما كانت فلول الألمان تندفع هاربة صوب خط « سيجفريد » اكتسح جناح من قوات الأمريكيين بريتانى بأسرها اللهم إلا بضع مدن ساحلية صغيرة ، بينما سار آخر شرقاً على طول نهر اللوار إلى باريس ، فى حين تدافع البريطانيون والكنديون على طول الساحل إلى بلجيكا وهولندا . وتم تحرير باريس فى ٢٣ أغسطس . وإن هى إلا أيام معدودات حتى كان البريطانيون قد استولوا على بروكسل وميناء انتويرب الكبير ، ولم يحن ١١ سبتمبر حتى كان الجيش الأمريكى قد حرر لوكسمبورج ، ونفذ إلى داخل ألمانيا عند آخِن . وفى تلك الأثناء كانت قوة أخرى للغزو قد هبطت على الساحل الجنوبى لفرنسا ، وتغلبت على مقاومة ألمانية واهنة ، واستولت بمساعدة الفرنسيين الأحرار على ميناءى طولون ومارسيليا الكبيرين ، ثم اندفعت شمالاً نحو وادى الرون إلى حدود سويسرا . ولم يأت نصف سبتمبر حتى كانت فرنسا بأسرها قد تطهرت من العدو . وكان هذا من أروع الانتصارات فى تاريخ الحروب .

وظل المحور فى تقهقر ، فى كل مكان ، طيلة صيف وخريف ذلك العام . وكان ستالين قد وعد بتنسيق هجومه مع هجوم الحلفاء الغربيين ، وبينما كان الأمريكيون يشقون طريقهم إلى شِربور ، شن هجوماً واسعاً على جبهة عرضها ألف ميل . فتم غزو فنلندا فى أقصى الشمال وأُجبرت على الخروج من الحرب . وفى الوسط شقت الجيوش الروسية طريقها خلال أوكرانيا وبولندا إلى أبواب وارسو . وفى الجنوب ، اجتاحت رومانيا وحاربت مندفعة إلى يوغوسلافيا والمجر . كذلك كان الألمان فى محنة عصيبة فى إيطاليا . إذ كانت جيوش الحلفاء قد زحفت شمالاً ، بعد سقوط روما ، فحو لمباردى ،

مستولية على المدن الكبرى واحدة بعد أخرى ، فلم يحن شهر سبتمبر حتى كانت قد بلغت وادى نهر البو ، الذى نُسِجت حوله القصص . أما فى المحيط الهادى ، فإن ماك آرثر كان قد هبط إلى الفلبين ، وأوقع الأسطول باليابانيين أشنع هزيمة فى تاريخهم . وإذا كانت انتصارات الحلفاء فى شمال أفريقيا هى نهاية البداية ، فإن هذه المجموعة من الانتصارات كانت بداية النهاية .

النصـر فى أوربـا

لم يحل سبتمبر سنة **١٩٤٤** ، حتى كانت جيوش الحلفاء قد أوغلت مسافات طويلة ، وبسرعة جعلتها تستنفد إمداداتها ، فكان عليها أن تتوقف لتعزز مكاسبها ، وتعيد تنظيم قواتها ، وتطهر الموانىء ، وتجمع الإمدادات ، وتنشىء مطارات ، وتعيد إنشاء الطرق والجسور ، وتتأهب للحملة التى تنتقل بها إلى جوف ألمانيا ، عبر نهر الراين . وكان أشد أنواع القتال فى ارتقابهم ، كما دلت الأحداث ، فإن الألمان دافعوا عن وطنهم ببسالة بالغة التـطرف . وكـان خط سيجفريد الشديد المتانة يمتد من هولندا إلى حدود سويسرا ، وخلفـه كان نهر الراين العريض . وقد أجريت محاولة لتطويق خط سيجفريد بعملية إسقـاط للجنود من الجو على نطاق واسع ، عند ارنهيم ونييميجن فى هولندا ، ولكنها أخفقت بفارق ضئيل ، وشرعت الجيوش المضادة فى عمليات عنيفة . فشهد خريف سنة **١٩٤٤** قتالاً فى تلال بلجيكا ولوكسمبورج ، والألزاس ، واللورين وغاباتها شديد الشبه بذلك الذى دار فى بطاح فيرجينيا قبل ثمانين عاماً . فكانت هناك مجموعة متعاقبة من المعـارك المحتـدمة ، لا تقل كل منها ضراوة عن أية معارك اشترك فيها الأمريكيون ، ولم تكبـدهم من الخسـائر أقل مما تكبدوا فى تلك : معركة دلتا نهر شيلد ، التى قام الـبريطانيون والكنـديون بالقسط الأكـبر من القتـال فيهـا ، وفتحت انتـويرب لسفن الحلفـاء . . والمعـركـة التى استهدفت الاستيلاء على آخن وسدود نهر الرور ، والتى انطوت على قتال فى غابة هورتجن البدائية الوعرة ، والتى لم يتم الفوز النهائى فيها قبل فبراير من العام التالى ، والمعركة التى استهدفت مدينة ميتز الحصينة ، وحوض السار ومعـركـة ستراسبورج والألزاس . ولم ينتصف شهر ديسمبر حتى كانت قوات أيزنهاور

قد كسبت كل هذه المعارك بوجه عام ، ووقفت متأهبة لخوض الراين .

ثم حدثت نكسة هددت لفترة وجيزة بعواقب خطيرة . فقد قرر هتلر ، على عكس نصيحة كبار قادته ، أن يستخدم كافة موارده الباقية فى الغرب ، فى مغامرة مستميتة أخيرة . . فى هجوم مضاد واسع النطاق بغية شطر الجيوش المتحالفة شطرين ، وعودة الجيش الألمانى ثانية إلى ساحل القنال الإنجليزى ، أو إلى باريس على الأقل . وحدث الهجوم فى فجر ١٥ ديسمبر ، على جبهة عرضها خمسون ميلاً ، على تلال الآردين المكسوة بالثلوج ، وأسفر عن نجاح أولى مذهل . ففى عشرة أيام ، اكتسح الألمان خطوط دفاع الأمريكيين النحيلة ، وحاصروا الحامية القائمة فى باستونى ، ودفعوا رأس حربة خمسين ميلاً خلال الآردين إلى نهر الموز . وكان الخطر من انهيار خطوط الأمريكيين داهماً للخطة ، بيد أن الأمريكيين جمعوا صفوفهم بسرعة ، وصمد المدافعون على حدود الجيب بقوة ، وعزِّزت الحامية الباسلة فى باستونى على عجل بالفرقة ١٠١ من الجنود المحمولة بالطائرات ، ومع أنها كانت محاصرة ومعزولة ، فإنها أبدت مقاومة أوقعت الارتباك فى الجدول الزمنى للألمان بأكمله ، واكتسبت شهرة باقية . وهكذا أوقف الهجوم الألمانى ، ثم أُجبر على التراجع . وفى حوالى أواسط شهر يناير ، كان الألمان قد فرطوا فى كل مكاسبهم ، وخسروا ١٢٠ ٠٠٠ رجل ومئات الدبابات والطائرات فى مغامراتهم غير الحكيمة .

وبينما شن الروس هجومهم الشتوى الكبير بغية الوصول إلى أبواب فيينا وبرلين ، تأهب الحلفاء للتوغل عبر الراين والانقضاض على هتلر من الغرب . وتقهقر الألمان عبر النهر ، مدمرين الجسور فى طريقهم ، ولكن الرقابة على الراين لم تكن محكمة ، فوجدت قوة أمريكية عاملة ، فى ٧ مارس ، جسر لودندورف القريب من بون سليماً ، واستحوذت عليه . وفى بضعة أيام ، كان الأمريكيون قد أرسلوا خمس فرق عبر النهر ، وبدأوا فى الانتشار شمالاً وجنوباً . وبعد أسبوعين ، عبر جيش الحلفاء بأكمله نهر الراين من كليف إلى مانهايم ، يصاحبهم أكبر قصف جوى عُرف فى الحرب . وبمجرد العبور ، اندفعوا خلال الخطوط الألمانية بسرعة هائلة ، فكانت الفرقة المدرعة الواحدة تقطع تسعين ميلاً فى اليوم الواحد . وضرب الجيشان الأمريكيان الأول والتاسع حلقة كبيرة حول الرور ، موقعين فى قبضتهما ما يزيد على ٣٠٠ ٠٠٠ ألمانى . وأسرع الجيش الثالث بقيادة باتون نحو كاسيل ونهر الإلب . واندفع الجيش السابع بقيادة باتش جنوباً ، مخترقاً

بافاريا إلى حدود تشيكوسلوفاكيا ، كما اندفع جنود مونتجمرى البريطانيون والكنديون شمالاً إلى ساحل البلطيق عبر بريمن وهامبورج .

تلك كانت النهاية . فإزاء إطباق الروس من الشرق والجنوب ، والأمريكيين والبريطانيين من الغرب ، واضطرار الألمان فى إيطاليا لإلقاء سلاحهم ، بدأ الجيش الألمانى فى التفتّت . وفى ٢٥ أبريل تقابل الروس والأمريكيون عند نهر الإلب ، فشطر الجيشان اللذان بدأ أحدهما على شواطىء نورماندى والآخر على ضفاف الدنيبر ــ تفصل بينهما ٢٠٠٠ ميل ــ ألمانيا إلى قسمين . وخاض المدافعون المتشبثون آخر قتال عنيف دفاعاً عن برلين ، حتى إذا تجلى أن المدينة مقضى عليها بالضياع ، انتحر هتلر . وكان موسولينى قد قتل بأيدى الإيطاليين الساخطين . وفى ٧ مايو ، استسلم ما كان قد بقى من الجيش الألمانى بدون شرط . وهكذا انهارت دولة الرايخ التى كان مقدراً لها أن تعيش ألف عام .

وكان أحد الذين صاغوا النصر قد فارق الحياة ، فلم يشهد تنفيذ خططه ، أو انتصار قضيته . إذ توفى « فرانكلين دى . روزفلت » فى ١٢ أبريل .

وكان الحزبان السياسيان الكبيران فى أمريكا قد حددا مرشحيهما لانتخابات الرئاسة فى الخريف ، بينما كانت جيوش الحلفاء تشق بعد طريقها إلى نورماندى فى صيف سنة ١٩٤٤ . ولم يكد يكون ثمة مناص للديمقراطيين من أن يولوا وجوههم شطر الرجل الذى قادهم ثلاث مرات إلى الفوز ، والذى كان إذ ذاك يقود الأمم المتحدة إلى النصر ، فأعادوا ترشيح روزفلت فى الإقتراع الأول . أما الجمهوريون ، فأشاحوا عن ويندل ويلكى إذ كان فى آرائه الداخلية شديد الاقتراب من النظام الجديد ، وفى آرائه الخارجية مسرفاً فى النزعة الدولية ، وكان فى أى مناسبة شديد الخروج على سياسة حزبه ، فتحول الحزب نحو توماس إى . ديوى حاكم نيويورك ، إذ كان من أعضاء الحزب المعروفين بالاعتدال الليبرالى فى المسائل الداخلية ، وممن تحولوا تحت ضغط الأحداث إلى الفلسفة الدولية ، كما بدا واضحاً . ومع أن المعركة الانتخابية كانت حامية ، فإن نتيجتها النهائية لم تكن موضع شك جدى قط . إذ ظفر الرئيس روزفلت بتأييد ٣٦ ولاية ، وأحرز ٤٣٢ من أصوات المجمع الانتخابى . وكسب ديوى ١٢ ولاية و ٩٩ صوتاً فى المجمع الانتخابى . وفى التصويت الشعبى فاز روزفلت بأصوات مجموعها ثلاثة ملايين ونصف المليون .

وفى خطابه الاستهلالى الرابع ، لم يقطع روزفلت على نفسه عهداً بالانتصار فحسب ، بل تعهد بأن ينشىء نظاماً دولياً بعد تحقيق النصر . وقد قال :

إننا تعلمنا . . . أنه ليس بوسعنا أن نعيش فى سلام وحدنا ، وأن خيرنا يعتمد على خير دول أخرى نائية . لقد تعلمنا أن علينا أن نعيش كبشر وليس كنَعَام ولا ككلاب فى مذود . تعلمنا أن نكون مواطنين منتمين للعالم ، أعضاء فى الجماعة البشرية .

وكانت أفكار روزفلت ، كلما ازداد النصر اقتراباً ، تزداد اتجاهاً إلى هذه المشكلة الكبرى ، مشكلة السلام والقانون الدولى ، وكانت طاقاته تزداد انصرافاً إلى حلها . وفى فبراير سنة ١٩٤٥ ، قام بالرحلة الطويلة إلى يالتا فى شبه جزيرة القرم ، ليتباحث مع ستالين وتشيرشل والمستشارين العسكريين والمدنيين بصدد الحرب وتسويات ما بعد الحرب . كان قد اتضح بجلاء أن الحرب فى أوربا كانت تقترب من نهايتها ، ومع أنه كان من المرتقب أن تتطلب هزيمة اليابان عاماً آخر أو اثنين ، فقد تبدى أن الهزيمة محتومة . وهكذا ، فمع أن قسطاً كبيراً من مهمة مؤتمر القرم أويالتا كانت موجهة إلى المسائل العسكرية الخالصة ، مثل دخول روسيا حرب المحيط الهادى ، فإن قسطاً كبيراً منها كان موجهاً كذلك إلى تخطيط عالم ما بعد الحرب . وهكذا ، كان روزفلت ومستشاروه العسكريون يؤمنون ، عندما عادوا من يالتا ، بما وصفه هارى هوبكنز بأنه . .

كان هذا فجر اليوم الجديد الذى كنا نصلى من أجله ، ونتكلم عنه أعواماً كثيرة . كنا موقنين يقيناً جازماً بأننا قد كسبنا أول انتصار عظيم من أجل السلام . . وكسبه كل الجنس البشرى المتحضر ، بوساطتنا . . أعنى على أيدينا جميعاً .

ولقد انتقدت المعارضة روزفلت ، حتى أثناء الحملة الانتخابية للرئاسة ، بأنه « شيخ مُتعَب » . وكان الوصف صائباً ، إذ أن الحرب استنفدت طاقاته ، وأرهقت روحه المنشرحة المستبشرة . وكان من الواضح أنه عاد من يالتا معلولاً ، وقدم تقريره إلى الكونجرس وهو ــ لأول مرة ــ جالس فى مقعده ذى العجلتين . ثم مضى إلى بيته

الشتوى فى وورم سبرينجز بولاية جورجيا ، ليستجم ويستعد لافتتاح أول مؤتمر للأمم المتحدة فى سان فرانسيسكو . وبينما كان يكتب ـ يوم ١٢ أبريل ـ مسودة خطاب للاحتفال بذكرى جيفرسون ، أصيب بنزيف مخى ومات . وكانت الكلمات الأخيرة التى كتبها ، تصلح لأن تكون مرثية توجز حياته : « ستكون شكوك يومنا هى الحد الوحيد لإدراكنا فى الغد . ولنمض قدماً إلى الأمام بإيمان شديد نشيط » .

الانتصار فى المحيط الهادى

كانت إعادة فتح جوادالكنال بمثابة عملية إيقاف ترمى إلى سد الطريق أمام الزحف اليابانى ، والحصول على قواعد لتكثيف قصف راباول ، وتطهير السبيل إلى الهجوم الكبير الذى كان محدداً لبدايته شهر نوفمبر سنة ١٩٤٣ . وكان مقرراً أن يتخذ هذا الهجوم شكلين : هجوماً يقوم به ماك آرثر على طول ساحل غينيا الجديدة إلى هالماهيرا وجزر الفليبين الوسطى ، وزحفاً يقوم به الاميرال نيميتز على الجزر تباعاً حتى يصل إلى مسافة تمكن من قصف جزر الوطن اليابانى . وكانت كل من العمليتين برية مائية ، بيد أن الجيش قام بأكبر دور فى أولاهما ، بينما قام الأسطول وفيالق مشاة الأسطول بعبء ثانيتهما . وكان ثمة طريق ثالث للاقتراب من اليابان ، وذلك عبر بورما ، ثم على طريق بورما إلى الصين . بيد أن مشكلة النقل والإمدادات كانت متعذرة الحل هنا ، وكانت المعونة المرتقبة من الصينيين الوطنيين ضئيلة ، ومع أن بورما لم تلبث أن طُهِّرت من العدو ، فإن تلك الحملة لم تكن ذات أثر على نتيجة الحرب .

وانطلق الهجوم ، وفقاً للخطة الموضوعة ، بانقضاض برى مائى على جزيرة بوجينفيل فى شمال جزر سولومون ، فى أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ . وفطن اليابانيون إلى خطر هذا الهجوم على راباول ، فردوا عليه بمثله ، بيد أنهم هُزموا هزيمة قاسية فى معركة خليج الإمبراطورة أوغستا . وزحف الأمريكيون من بوجينفيل إلى الجزر التى إلى شرق وغرب راباول ، وأفقدوا هذه المنطقة الحصينة فاعليتها بالغارات الجوية دون توقف . وإذ اطمأن ماك آرثر إلى مؤخرته على هذا النحو ، انطلق على ساحل غينيا الجديد فى وثبات ، وكان على الأميرال نيميتز أن ينطلق لفتح المسالك المائية الطويلة المؤدية إلى أوكيناوا .

كان الأســاس فى الزحف إلى اليابان هو النمو الرائع للأسطول الأمريكى وللقوة الجـوية التـابعة للأسطول إلى الدرجة التى لم تكفل له تفوقاً على اليابان وحدها ، بل أصبح أقدر من أساطيل الدول المتحاربة مجتمعة . والواقع أن « الحملة ٥٨ » الشهيرة ، بقيادة الاميرال هالسى (وكانت تسمى ٣٨ بالتناوب) كانت وحدها أقوى من الأسطول اليابانى بأكمله . ولم يحل أواسط صيف سنة ١٩٤٤ ، حتى كان الأسطول الأمريكى يضم ما يزيد على أربعة آلاف سفينة ، منها ٦١٣ سفينة حربية . وكانت سبع بوارج كبيرة جديدة الصنع قد ضمت إلى أسطول المحيط الهادى بعد بيرل هاربور ، وكذلك مائة حاملة طائـرات تقـريباً ، عليهـا آلاف من الـطائرات ، من طراز جرَمّان وايلدكات وهيلكات وكيرتيس هيلدايفر ودوجلاس دونتليس وأنواع أخرى كثيرة .

هذه القوة الجبارة كانت قد أصبحت مستعدة لإيقاع مجموعة متتابعة من الضربات الهائلة . ولم يكن الإميرال نيمتيز ينتوى أن يحاول الاستيلاء على كل واحدة من عشرات الجـزر المـرجـانية التى كانت فى أيدى العدو ، والمتناثرة فى كافة أرجاء المحيط الهادى الجنوبى والأوسط . بل كانت خطته العسكرية هى الاستيلاء على الجزر الرئيسية فى كل مجموعة من المجموعات الكبرى ، وإقامة قواعد جوية عليها ، ثم يقوم بوثبة واسعة إلى جزيرة أخـرى أكثر قرباً من اليابان بمئات الأميال ، تاركاً الحاميات اليابانية فى الجزر الخارجية عن نطاق مسيرته ، لتذبل حيث هى . وما لبث أن تبين أن من الممكن التجاوز عن جزر كبيرة مثل ميندناو فى جنوب الفلبيين ، وفورموزا القريبة من ساحل الصين . أما اليابانيون الذين ارتكبوا فى البداية خطأ التوسع أكثر مما ينبغى ، فقد ضاعفوا هذا الخطأ بأن شتّتوا قواهم .

ولقد وجُهِّت الضـربة الأولى إلى تاراوا فى جـزر جيلبرت . كانت فى هـذه الجزيرة المرجانية الضئيلة حامية من حوالى ٣٠٠٠ من مشـاة الأسطول اليابانيين . وكـانت فى أدق شبكـة دفـاعية صـادفهـا الأمريكيون حتى ذلك الحين ، فكان الاستحواذ عليها عمـلية دمـوية ، كبـدت الأمـريكيين ما يقـرب من ألف قتيل وألفى جريح . وبعـد شـهرين ، زحف الأسطول على جزر مارشال ، على مئات الأميال إلى الشمـال . وكانت الهـدف الأول جزيرة كواجـاليين المرجانية ، التى كانت تؤوى حامية من ٨٠٠٠ مـن اليابانيين المتطرفين . ونزل مشـاة الأسطول بالجزيرة فى ٣١ يناير سنة ١٩٤٤ ، وإن هى إلا أيام ثلاثـة حتى كانوا قد استولـوا على الجزيرة وقضوا على العدو . ثم واصـلوا الزحف

واستولـوا على « إنيويتوك » ، على مسـافة ٣٥٠ ميـلاً إلى الغـرب .

وبعـزل رابـاول وتْـرَك ، وانتقال جزر جيلبرت ومارشال إلى أيدى الأمريكيين ، انطلقت القوة البرية المائية الخامسة إلى جزر ماريانا ، على ١٢٠٠ ميل إلى الغرب ، وعلى ١٥٠٠ ميل فقط من طوكيو . وكان الهدفان الرئيسيان فى هذه المجموعة هما : سايبان ، التى كان اليابانيون قد حولوها إلى قاعدة جوية بحرية قوية . . وجوام ، التى انتُزعت من الأمريكيين فى هجوم ديسمبر سنة ١٩٤١ . وإزاء اقتراب حملة الأميرال سبروانس من المياه التى كانت مياهاً إقليمية لليابان حقاً ، خرج الأسطول اليابانى إلى القتال . وقامت بمعـركـة بحـر الفلبين التى أعقبت ذلك (١٩ - ٢٠ يونيو سنة ١٩٤٤) الطائرات المنطلقة من الحاملات وحدها ، فدمرت أسطول حاملات طائرات العدو ، وأعطبت بوارجه وطراداته . ثم تم الاستيلاء على جزر ماريانا بدقة مرسومة ، وإن تطلب هذا قسـطاً من أقسى ما دار فى حرب المحيط الهـادى من قتال . واستغرقت سايبان ثلاثة أسـابيع ، كبـدت خلالها الأمريكيين خسائر فى الأرواح بلغت ١٥٠٠٠ . أما جوام فكانت صعبة المراس ، بيد أنه لم يحل شهر أغسطس حتى كانت جزر ماريانا فى أيدى الأمـريكيين . وسرعـان ما أخذت قاذفات القنابل العملاقة « ب ـ ٢٩ » تنطلق من مدارجها لتقصف جزر الوطن اليابانى .

فتحت هذه الانتصـارات فى جنوب ووسط المحيط الهادى الطريق إلى انقضاض مباشر على جزر الفلبين . وكان أسلوب الوثب بين الجزر الذى انتهجه الأمريكيون قد أثبت من النجاح ما جعل الجنرال ماك آرثر يقرر التجاوز عن ميندناو وأن يوجه ضرباته إلى قلب الجزر . ففى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، أبحر أسطول هائل من ٦٠٠ سفينة ، بينها سفن لنقل الجنود حملت ما يزيد على مائة ألف منهم ، إلى خليج « ليت » Leyte . وهبط ماك آرثـر إلى الشـاطىء ، وقـال : « لقـد رجعت يا أهل الفلبين . . فتجمّعوا حولى » . وخفوا مستجيبين لندائه . وفى وقت قصير ، كان لديه فى الفلبين مائتا ألف رجـل ، انضـم إليهم الموالون من الفليبينيين الذين كانوا يشنون حرب عصابات ضد الغزاة اليابانيين المبغوضين .

كان هذا تحدياً لا يملك اليابـانيون أن يتجـاهلوه ، فألقوا بكل ما كان لديهم فى وجه الأمريكيين ، فى مجهود مستيئس . وكانت معركة خليج ليت (٢٣ - ٢٥ أكتوبر) آخر وأكـبر معـركـة بحـرية فى الحـرب كانت فى الـواقـع ثلاثة اشتباكات منفصلة ، خرج

الأمريكيون من كل منها منتصرين . ولم يقدّر للأسطول اليابانى أن يفيق ــ قط ــ مما وقع به فى هذه المعركة ، فلم يثر فى سبيل الزحف الأمريكى بعد ذلك مقاومة تذكر . واجتاح ماك آرثر ليت بسرعة خاطفة ، وانتقل إلى لوزون وسقطت مانيلا فى فبراير سنة ١٩٤٥ ، ولم يحن شهر أبريل حتى كانت الجزر جميعاً قد تحررت .

وقبل أن يستكمل ماك آرثر إعادة فتح الفليبين ، كان الأسطول قد قام بالطفرة الطويلة التالية نحو اليابان . ولم تكن جزيرة أيووا جيما الضئيلة تبعد عن طوكيو بأكثر من ٨٠٠ ميل ، فظلت الطائرات تصليها قصفاً يومياً مدة شهر ، وظلت حملة مؤلفة من ست بوارج ، وطرادات ، ومدمرات تدك استحكاماتها الدفاعية أسبوعاً . ثم تدفق مشاة الأسطول على الشواطىء فى ١٩ فبراير ، وتطلب القضاء على المدافعين اليابانيين شهراً من الزمن و ٥٠٠٠ من الأرواح على أنه لم ينتصف شهر مارس حتى كانت قاذفات القنابل الأمريكية تقلع من مدارجها إلى طوكيو ، فى سلسلة من الغارات بالقنابل الحارقة ، وأوقعت بها من الضرر ما أوقعته الغارات البريطانية الكبرى بهامبورج . ثم زحف الجيش والأسطول على أولى جزر الوطن اليابانى ، وهى أوكيناوا فى مجموعة ريوكيو . وفى يأس لجأ اليابانيون إلى الكاميكازى وشنوا هجمات جوية انتحارية ، إلا أنها لم تقو على إيقاف الغزو ، وإن أوقعت بالأسطول الأمريكى ضرراً بليغاً . وظل المدافعون يقاومون زهاء ثلاثة أشهر ، وهم يقاتلون من كهف إلى كهف . فلم تُهزَم أوكيناوا نهائياً قبل نهاية شهر يونيو .

وفى ذلك الوقت كانت الحرب الأوربية قد انتهت ، وكان اليابانيون ينهارون يوماً بعد يوم . فقضت الغواصات الأمريكية على الأسطول اليابانى التجارى عن آخره ، وتضعضع الاقتصاد اليابانى . وأخذت طائرات الأسطول تحلق فوق المرافىء فتغرق فلول السفن المعادية . وراحت حملة الأميرال هالسى تغير على طول الساحل دون ما عائق . وأصبحت طوكيو خراباً متفحماً ، وتحولت معظم المدن الصناعية الكبيرة إلى خرائب بفضل الغارات الحارقة . وكان القادة اليابانيون يدركون أنهم قد انكسروا ، بيد أنهم كانوا فى خوف من أن يطلعوا شعبهم على الحقيقة ، وكانوا يأملون أن يتوصلوا إلى أحسن شروط صلح من الحلفاء ، إذا ما هددوا باستمرار القتال إلى أقصى النهاية .

غير أن الحلفاء لم يكونوا ميالين إلى التفاوض ، إذ كان قد أصبح فى وسعهم أن يحشدوا جميع قواتهم المسلحة ضد اليابان ، كما كانوا يعلمون أن روسيا باتت على وشك

دخول حرب المحيط الهادى . ثم فُجِّرت القنبلة الذرية الأولى فى صحراء المكسيك فى شهر يوليو ، وأصبح هذا السلاح الأخير معدًّا ليُستخدَم ضد اليابان . أما هل كان ينبغى استعماله ، أو هل كان ينبغى استعماله أولاً فى تجربة للإرهاب ، فمسألة ستظل موضوع جدال أمداً طويلاً . فإن سبعة من العلماء الذين عُنوا بصنع القنبلة أشاروا بعدم استعمالها ، ولكن الوزير ستيمسون ، الذى كان رئيس الجمهورية يركن إلى رأيه كل الركون ، وكثيرين من مستشاريه العسكريين ، أخذوا يهيبون بأن الاستعمال المباغت للقنبلة ، هو الكفيل وحده بأن يضع للحرب نهاية دون خسائر فادحة تنزل بالقوات الأمريكية . كل هذه الاعتبارات كانت وراء الإنذار الذى وجهه زعماء الحلفاء ـــ إذ التقوا فى بوتسدام بألمانيا ـــ إلى اليابان بالاستسلام أو الدمار ، ولقد تجاهلت الحكومة اليابانية الإنذار ثم ، حلقت فى يوم ٦ أغسطس قاذفة قنابل وحيدة من طراز « ب ـــ ٩ » فوق مدينة هيروشيما الصناعية ، وألقت قنبلة ذرية . وبعد ثلاثة أيام ، أُسقطت قنبلة أخرى على ناجازاكى . ومُحِيَت المدينتان من الوجود ، وزادت الخسائر فى الأرواح على مائة ألف بكثير . وفى مواجهة الوعيد بالدمار الشامل ، كفَّت اليابان عن المقاومة فى ١٤ أغسطس . ثم وقعت فى ٢ سبتمبر تسليماً غير مشروط ، على سطح السفينة الأمريكية ميسورى . وهكذا اختتمت أفظع الحروب جميعاً .

اختتمت بنهاية ملائمة تماماً ، بإبادة كانت كافية لأن توضح أن البشرية لن يقدَّر لها بقاء إذا هى خاضت حرباً أخرى . وكان المتحضرون فى كل مكان ، قد خالجهم الأمل بأن تكون الحرب العالمية الأولى خاتمة الحروب جميعاً ، ولكنهم صُدموا فى هذا الأمل على نحو مُفجع . فبعد عشرين سنة حافلة بالمتاعب ، تجاسر من جديد رجال تملكهم الشر والطموح على الظفر بغاياتهم بالعنف والإرهاب . ولقد كادوا يفلحون . بيد أنهم فى نهاية الأمر أخفقوا إخفاقاً صاحبته الكوارث ، فكانوا برهاناً آخر على أن كل من يشهر السيف لا يلبث أن يهلك بالسيف . ومهما تكن الأسباب العسكرية لهذا الفشل ، فإن السبب الأصلى الكامن له واضح كل الوضوح . لقد هُزمت دول المحور لأنها نبذت القِيَم الإنسانية والإيمان البشرى فأثارت بذلك على نفسها كافة ما فى العالم من قوى ظلت تعتز بالإنسانية . وكان النصر فى النهاية لأولئك الذين كانوا يؤمنون بفضيلة الإنسان وذكائه وكرامته .

ولم تستنفد لوعة الحرب الخلال التى جلبت الانتصار فى آخر الأمر لشعوب العالم الحرة . وكما قال الرئيس روزفلت فى رسالة الحرب التى رفعها إلى الكونجرس : « إن

الهدف الحق الذى نسعى إليه ، أسمى وأبعد من ميدان المعركة البشع . فنحن حين نلجأ إلى القوة . . . إنما نعقد العزم على أن تكون هذه القوة موجهة إلى الخير النهائى ، كما هى موجهة ضد الشر المبادِر » .

أما أن الحرب العالمية الثانية أحبطت « الشرّ المبادِر » فأمر جلى يعلو على كل نزاع . وأما أنها جلبت « الخير النهائى » فأمر لا يزال الجزم به متروكاً للمستقبل . ومن المحقق أنها خلقت ظروفاً قد يتسنى للبشر فيها أن يسعوا إلى الخير ، إذا شاءوا . وأما بالنسبة للشعب الأمريكى ، فقد جلبت الحرب عليه مسئولية لا عهد له ، ولا عهد لأى شعب آخر بها من قبل . فعلى عاتقه استقر إلى حد كبير عبء تعمير العالم الذى خربته الحرب ، وإعادة بناء حضارة العالم المسيحى الغربى ، وتدعيم الديمقراطية ، وإعالة الشعوب الحرة فى كل صقع على وجه الأرض ، وإنشاء تنظيم دولى من المتانة بحيث يكفل السلام . ولقد حقق الأمريكيون كثيراً من هذه المسئوليات فى السنوات الخمس التى أعقبت الحرب . فأسهموا بسخاء فى إعادة تعمير وتنظيم العالم الغربى ، وأيدوا الديمقراطية والحرية فى أقطار العالم النائية ، وتصدروا الدول فى إنشاء منظمة الأمم المتحدة لحفظ السلام وفى الإنفاق عليها . ومع ذلك فقد ظل العالم فى همّ من الحرب وشائعات الحرب ، وظلت الآفاق قاتمة مظلمة .

الفصـــل ٢٥

الحـــــرب البــــاردة

هارى ترومان

ارتبك خليفة روزفلت فى « البيت الأبيض » للحظة أمام فداحة مسئولياته ، على أن ارتباكه لم يتعد فترة وجيزة . فلقد أوتى هارى إس . ترومان من صفات البتّ ، والثقة بالنفس ، والعزم ما كان يناقض مظهره الشخصى الذى لم يكن ينمّ عن طابع معين . كان ثانى رئيس لنا من غرب المسيسيبى ، فقد نشأ فى ميسورى الغربية ، فى وسط ريفى ، ودرس فى المدرسة الثانوية . وكانت تجاربه متنوعة : من مستخدم كتابى فى مصرف ، إلى مزارع ، إلى ضابط فى المدفعية بفرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى ، إلى بائع السلع البسيطة (كالخيط والأزرار) ، إلى سياسى فى مدينة كنساس ، إلى قاض (مسئول إدارى فى مقاطعة ، فى الواقع) ، إلى عضو بمجلس شيوخ الولايات المتحدة آخر الأمر . وفى مجلس الشيوخ ، كان يؤيد « النظام الجديد » ، وقد بذل اهتماماً خاصاً لتشريعات الزراعة والعمال ، واكتسب فى مدة عضويته الثانية بالمجلس سمعة قومية بوصفه الرئيس الكفء للجنة الخاصة التى تولت التحقيق فى نفقات الدفاع . ولقد ساء ترشيحه لمنصب نائب الرئيس عدداً من الديمقراطيين الذين كانوا يرون أنهم أحق به ،

ومنهم هنرى ولاس ، وجيمس إف . بيرنز . وقد خفف ترومان من استياء الأول نوعاً ما ، إذ عينه وزيراً للتجارة ، وكذلك واسى الثانى إذ لم يلبث أن عينه وزيراً للخارجية .

وسرعان ما اثبتت الأحداث أن ترومان أوتى مؤهلات رائعة ، لا للزعامة القومية وحدها ، بل للزعامة الدولية . وما من شك فى أنه أخطأ فى مسائل صغيرة ، إذ عيّن بعض أشخاص عن غير جدارة ، وساند أصدقاءه الحميمين بعد أن غدروا بثقته ، وصرح بعدة بيانات مرتجلة دون تقدير للمسئولية . وكانت خطبه تفتقر إلى البلاغة ، ومذكراته المكتوبة تفتقد الرشاقة والتناسق . كانت أشبه بالأحاديث غير المصقولة ولا المعدة ، التى تلقى من المنصة الخلفية فى الاجتماعات السياسية ، والتى كان مبرزاً فيها . وكان يميل إلى تبسيط المواقف الجارية ، وكثيراً ما كان التحزّب يغلب على أحكامه . غير أنه أوتى عقلاً صافياً ، حاسم البتّ . وكان أفضل تعلُّماً من كثيرين من الرؤساء ، إذ كان واسع الاطلاع ، لاسيما فى التاريخ الأمريكى . كذلك كان على شغف متحمس بالديمقراطية ، وعلى اقتناع لا يقل عمقاً عما كان لويلسون أو فرانكلين دى . روزفلت ، بأن واجب الولايات المتحدة أن تكون الحارس النشيط للديمقراطية فى الشؤون العالمية . وقليل من الرؤساء كانوا فى مثل دأبه على العمل ، فظل فترات طويلة يعمل ست عشرة ساعة فى اليوم . وكان شديد الإيمان بالعمل والقيادة . وعند حدوث أزمات ، كان هذا الرجل الوادع المظهر يهب للتصدّى لها بقرار فورى وقدرة ضارية .

وكان القتال قد انتهى فى أوربا تقريباً ، عندما تولى الحكم فى أبريل سنة ١٩٤٥ ، ولم يكن قد بقى دون السلام فى آسيا سوى أربعة أشهر . على أن مجموعة واسعة من مشكلات ما بعد الحرب كانت تتأهب للانقضاض . واتضح أنها كانت أشد صعوبة ، لاسيما أنها لم تقدّر حق قدرها لفترة من الزمن . وكما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، أخذ الأمريكيون يتحدثون بتحمس أكثر مما ينبغى عن عصر جديد فى الشؤون العالمية ، ويعوّلون بإيمان أكثر مما ينبغى على إجراءات وتدابير الأمن الجماعى ، وأبدوا نشاطاً متهوّراً فى إعادة الجنود إلى الوطن ، وفى تخفيف القيود الاقتصادية . وخيل لمعظم الناس أن « العم سام » لن يلبث فى القريب أن يعكف على الشؤون الداخلية وحدها . وكان مقدّراً لخيالهم أن يُصدم فى قسوة .

ولقد اشترك ترومان نفسه في التفاؤل الأهوج لفترة وجيزة . فانصاع لضغط « الوضع السوىّ » بأن وقّع في غير ترو قراراً أوقف شحنات « الإعارة والتأجير » بمباغتة أضرت ببعض حلفائنا وآذت مشاعرهم . واستجاب لمطالب المحافظين من رجال الأعمال بأن أنهى معظم القيود المفروضة على الأسعار . ولقد ندم على الفور تقريباً لاتخاذه هاتين الخطوتين . وشرعت حكومته في تسريح الجنود بتعجل متحمس ، وسحبت من بعض المناطق الأوربية قوات كان الواجب أن تمكث هناك . كما أنه ساعد ، بمزيد من السعادة ، على إتمام جهود إنشاء الأمم المتحدة كأداة دائمة للتعاون الدولي . وإذا كانت أمريكا قد ارتقبت من الأمم المتحدة أكثر مما ينبغي ، فإنها قد ساعدت على الأقل في منح هذه الهيئة مقدرة ــ أبت أن تمنحها عصبة الأمم ــ على البقاء سليمة نافعة . فلقد اكتسبت البلاد خبرة ودراية منذ عهد ويلسون .

الأمم المتحدة

كانت الأمم المتحدة قد بدأت كتحالف ضد ألمانيا وإيطاليا واليابان ، لم يلبث أن ضم ستين دولة . ففي غمرة الحرب (أكتوبر سنة ١٩٤٣) أبرم وزراء خارجية الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا اتفاقاً (انضمت إليه الصين الوطنية فيما بعد) لتحويل هذا التحالف إلى هيئة دائمة . وأيد الكونجرس هذا المشروع بقوة ، وساعد على الوصول إلى هذا آرثر إتش . فاندنبرج عضو الشيوخ عن متشيجان ، وكان من قبل من أنصار العزلة . وما لبث أن اجتمع ، في أواخر صيف سنة ١٩٤٤ ، فريق من الخبراء في دَمْبرتون أوكس بولاية واشنطن ، ووضعوا الهيكل الرئيسي للميثاق المرجو للأمم المتحدة . فكانت في أغلب النواحي صورة مبسطة ومدعمة من « عصبة الأمم » فهناك مجلس للأمن يحمل العبء الرئيسي للحفاظ على الوفاق العالمي ، وجمعية عامة تتيح ندوة واسعة للشكوى والنقاش ، ومحكمة عالمية تقضي في المسائل التي تحال إليها ، وسكرتير عام وجهاز من العاملين يعملون في نواح عديدة متباينة . وتقرر أن يكون للمجلس خمسة أعضاء دائمون : أمريكا وبريطانيا وروسيا والصين . . وستة آخرون تختارهم الجمعية

العامة للعضوية لمدة سنتين . ولأى عضو دائم فى المجلس حق نقض إجراءاته (الفيتو) .

وكـان أول حدث عظيم لحكـومة ترومان هو انعقاد « مؤتمر الأمم المتحدة بصدد التنـظيم الـدولى » فى سان فرانسيسكو ، ابتداء من ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٥ ، لمناقشة مشروع دمـبرتـون أوكس . وكـانت الثمان والأربعون دولة الممثلة ، تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية : روسيا ، والدول الكبرى الغربية ، وعدد من الدول الغربية الصغيرة تتزعمها استراليا . وقامت روسيا بدور معرّقل بوجه عام ، محاولة أن توسع نطاق الفيتو ، وأن تستبقى الأمم المتحدة أضعف من أن تتدخل تدخلاً جدياً مع أى معتد . كان أملها أن تشيع الارتباك واللبس فى العالم وأن تفرّقه . كذلك عارض وزير الخارجية الروسى مولـوتوف ، بعناد ولكن بدون توفيق ، انضمام الأرجنتين عضواً . وفى اجتهاد صادق أخـذت الـدول الكبرى الغربية تعمل لجعل الأمم المتحدة أداة قوية وأمينة للسلام ، فاشـترك فى ذلـك أنتونى إيدن بوصفه المتكلم الرئيسى بلسان بريطانيا ، وإى . آر . ستتينيوس وهارولد ستاسن ، وفاندنبرج ممثلين رئيسيين لأمريكا . وكان هربرت إيفات ، وزير خارجية أستراليا ، منافحاً باسلاً عن الدول الصغرى التى كانت تتمنى أن تكون المنظمة أقوى مما صارت عند تحقيقها . وقرر المؤتمر أخيراً أنه إذا كان للأعضاء الدائمين فى المجـلس حق النقض فى المسائل الأسـاسية أو العويصة بين الدول ، فليس لها أن تستخـدم الفيتـو فى منـاقشـة الإجراءات المتعلقة بوسـائل معالجة هذه المسائل . وقد سـاعد هذا القرار على تدعيم الأمم المتحدة كندوة يتكوّن فيها الرأى العام العالمى ويتشكل .

وكان قرار مجلس الشيوخ بصدد الأمم المتحدة سريعاً وحاسماً . فتم التصديق على الميثـاق بأغلبية ٨٩ صوتـاً ضد ٢ . وكـان هذا يعكس بدقـة شعور الرأى العام بهذا الصـدد . وازداد الاهتـمام والتحبيذ الأمـريكيان عن ذى قبل ، عندما اختارت الأمم المتحدة مقرها فى مدينة نيويورك ، مشرفاً على نهر إيست . والواقع أن بعض المراقبين أبدوا تذمراً من أن كثيرين من الأمريكيين كانوا يرون الأمم المتحدة أداة أمريكية أكثر منها هيئة عالمية . . وما ماتت فلسفة العزلة (الانعزالية) البتة ، ولكنها كانت تلقى هجوماً فى كل مكان . فقد فهمت البلاد أخيراً أن قيام الحرب فى أى مكان يهدد الدول فى كل مكان ، وأن السلام لا يتجزأ .

النظام العادل

عقد ترومان العزم ، وهو يحاول فى صيف عام ١٩٤٥ توجيه اهتمامه للجبهة الداخلية ، على أن يستبقى البلاد فى الطريق التقدمية . كانت البلاد تخرج من الحرب بدين هائل ، ولكن بزيادة هائلة كذلك فى طاقتها الإنتاجية . فقد أخذت أساليب الإنتاج الكبير ، بمعاونة الاكتشاف العلمى والتقدم الهندسى ، تحقق معجزات كبيرة عاماً بعد عام . وفى ذروة الحرب (١٩٤٤ - ١٩٤٥) ، تخطت البلاد جميع الأرقام القياسية فى الصناعة والزراعة والنقل بفارق كبير . فقُدِّر الإنتاج بأنه بلغ مثلى ونصف المثل مما كان عليه فى سنة ١٩٢٩ . وإزاء مطالبة العالم الجائع والمفتقر إلى كل ما كان بوسع أمريكا أن تقدمه ، بدا أن المخاوف من حدوث بطالة حادة نتيجة لتسريح الجنود ، مخاوف لم تستند إلى أساس . ولكن ، هل تقسم الزيادة فى الإنتاج بالتساوى ، وهل تسود العدالة الاجتماعية مع استمرار هذه الزيادة (كان الدخل القومى ٢٧٥ بليوناً من الدولارات فى سنة ١٩٥٠ ، فى مقابل ٤٠ بليوناً فى غمرة الكساد الاقتصادى) ؟

كان من الطبيعى أن يتمنى ترومان ــ بوصفه تلميذاً لروزفلت ــ أن يبقى على فعالية النظام الجديد . ففى سبتمبر سنة ١٩٤٥ ، أصدر رداً متحدياً أولئك الذين كانوا قد جاهروا بأن الوقت قد حان للعودة إلى نظام الحماية وإلى التجمع والاندماج . وفى خطاب أمام الكونجرس عرض برنامجاً سماه « النظام العادل » . وقد تضمن أن تتدخل الحكومة ، إذا دعت الحاجة ، لتوفير العمالة الكاملة ، ورفع المعدلات الدنيا للأجور ، وتوسيع نظام الضمان الاجتماعى ، واعتمادات الميزانية الاتحادية لإزالة الأحياء الفقيرة ، وتحسين الإسكان ، وإعانات لرفع أسعار المحصولات الزراعية ، وإنشاء مشروعات مثل هيئة وادى تنيسى على نهرى ميسورى وكولمبيا وغيرهما من الأنهار . كان يبغى بجلاء الحفاظ على ما كفله « النظام الجديد » القديم من تحالف العمال والمزارعين لإتاحة ديمقراطية اجتماعية واقتصادية متدفقة النشاط للبلاد . بيد أنه صادف عقبات . فإن طوائف المزارعين والعمال ، التى لم تكن متجانسة فى أى وقت فى الواقع ، تباعدت وانفصلت إذ بدأت الأسعار الزراعية فى الانخفاض ، بينما استمرت الأجور فى الارتفاع . وكانت العناصر المحافظة فى مجالات التجارة والصناعة والمهن تبغى الإقلال من الرقابات الحكومية وتخفيض الضرائب ، بينما جزء كثير من البيض فى الجنوب من

مطالبة ترومان بتشريعات اتحادية ضد ضريبة الرءوس والإعدام بقرار من الأهالى دون محاكمة قانونية ، وباستمرار « لجنة إجراءات العمالة العادلة » لمنح الزنوج نصيباً كاملاً من الأعمال . فسرعان ما واجه ترومان فى الكونجرس جداراً فولاذياً من المحافظين الجمهوريين وغلاة المحافظين من الديمقراطيين الجنوبيين .

ولعل أهم نتيجة عاجلة لبرنامج « النظام العادل » هى أنه صان المكاسب التى ظفر بها النظام الجديد من قبل ، وقد أتاح للتقدميين نقطة تجمع ، وكان بمثابة إنذار بأن الحكومة متأهبة لمكافحة أية خطوة للتخلف . وعلى مر الزمن أدرجت مُعظم مشروعات ترومان التشريعية فى مجموعات القوانين . بيد أنه لم يكن ثمة بد من تسجيل نضال استغرق عشر سنوات ، وكثير من التقلبات ، وزعامة كثيرين من الرجال الآخرين ــ سواء من الجمهوريين أو الديمقراطيين ــ قبل أن يحدث هذا . والحقيقة الجوهرية هى أن البلاد لم تتعرض بعد الحرب لرد فعل كالذى حدث عقب الحرب الأهلية أو الحرب العالمية الأولى .

جهود لإقامة السلام

كان كبار المسئولين الحكوميين أسرع من عامة الجمهور إدراكاً لأن إقامة عالم يسوده السلام مهمة شاقة ، وقد تكون مستحيلة . إذ كان الرئيس روزفلت قد بدأ قبل وفاته يدرك النوايا العدوانية لدى حكومة ستالين . وبادر السفير آفريل هاريمان وغيره من المعيَّنين فى روسيا إلى تنبيه ترومان . فحضر الرئيس المؤتمر الثلاثى فى بوتسدام (٧ يوليو ــ ٢ أغسطس سنة ١٩٤٥) فى حالة تيقظ وانتباه . وسرعان ما تعذر الاتفاق بين الشرق والغرب بصدد مسائل مهمة ، فانفض المؤتمر بعد أن عهد بمواصلة العمل بشأن إقامة السلام إلى مجلس وزراء الخارجية ، الذى كانت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وروسيا والصين ممثلة فيه . وكانت القوات الأمريكية تحتل منطقة تناهز مساحتها ٤٠٠٠٠ ميل مربع ، فى جنوب غربى ألمانيا ، والقوات البريطانية تحتل حوالى ٤٢٧٠٠ ميل مربع ، والفرنسية ١٦٧٠٠ ميل مربع ، فى حين استولى الروس على ٤٦٦٠٠ ميل مربع فى ألمانيا الشرقية . وكانت مدينة برلين داخل القطاع الروسى وتحتلها

الدول الأربع . كذلك كانت النمسا مقسمة إلى أربعة قطاعات . ووُضعت اليابان تحت قبضة الجنرال دوجلاس ماك آرثر الشديدة بوصفه قائداً أعلى للدول المتحالفة . أما كوريا التى وُعِدت بالاستقلال فكانت مقسمة ، تسيطر روسيا على نصفها الشمالى ، والولايات المتحدة على الجنوبى .

وسرعـان ما اتضـح أن روسيا كانت تعتـزم إقامة نطاق عريض حولها من الدول التابعة ، والوصول إلى الدردنيل والبحر المتوسط ، والحصول على نصيب فى إدارة شؤون الـرور ومـرافقه الصناعية الضخمة ، واستخدام الأحزاب الشيوعية فى فرنسا وإيطاليا وغـيرهمـا من الدول التى أضعفتها الحرب لتشل حكوماتها إن لم تسيطر عليها . ولقد أضنى الوزير بيرنز نفسه ، كما فعل إيرنست بيفن وزير الخارجية فى بريطانيا ، للوصول إلى حالـة من التعايش مع الحكومة السوفييتية . وكان بيرنز مفعماً بالأمل فى الواقع . ولم يكن مصطلح « الحل الوسط » مألوفاً فى معاجم اللغة الروسية ، فكانت موسكو تأخذ كل ما تستطيع الوصول إليه ، ولا تنزل فى مقابله إلا عن القليل . وكان تسلط الاتحاد السوفييتى واضحاً بوجه خاص فى بولندا ، التى كانت الدول الغربية ترجو أن تجعلها دولـة ديمقـراطية ذات حكم ذاتى حقـاً . أمـا روسيا ، فلم تقنـع بأن ضمت حوالى ٧٨٠٠٠ ميل مربع من بولندا القديمة ، بل استغلت احتلالها العسكرى لإسقاط ممثلى « حكومة بولندا فى المنفى » ، التى كانت تستقر فى لندن ، وإنشاء دستور على النمط السـوفييتى ، وإقـامة نظام حكم شيوعى خاضع لها برئاسة بوليسلاف بـيروت . وفى الوقت الذى خفضت فيه الدول الغربية الأسلحة بمعدل كبير ، زادت روسيا من قدراتها الضاربة ، وعزّزت قواتها فى أوائل سنة ١٩٤٦ تحت قيادة الجنرال نيكولاى بولجانين .

• وللتصدى للخطر الذى كان المسلك الروسى ينذر به ، أخذت الولايات المتحدة تتشـدد فى مسلكهـا باطـراد . فأبـدى منـدوبو أمريكا عناداً متزايداً فى المؤتمرات التى عقدت : فى لندن ، فى خريف سنة ١٩٤٥ ، وفى موسكو فى ديسـمبر من ذلك العام ، وفى باريس من مايو حتى أكتوبر سنة ١٩٤٦ . ولقد أُبرمت معاهدات متعلقة بالمجر وبلغاريا ورومانيا ، فأساء ستالين استغلالها على الفور (وهنا أيضاً توالت احتجاجات أمـريكـا وبريطانيا) ليظفر بالسيطرة على تلك الدول . ولقد حُرِّرت فنلندا ، ولكنها سرعان ما أُجبرت على توقيع معاهدة للمعونة المتبادلة مع روسيا مداها عشر سنوات . ولم تبق للفـريق الغـربى سوى إيطاليا ، التى أصبحت جمهورية فى سنة ١٩٤٦ ، وقبلت

بعد ذلك معاهدة صلح جردتها من مستعمراتها جميعاً . ووُضعت فى المنطقة الحرة من تِرْيستا حاميتان أمريكية وبريطانيا بتخويل من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة . كذلك أبعد التصرف الأنجلو أمريكى الروس عن أن يكون لهم أى صوت فى إدارة شؤون الرور فى القطاع البريطانى . ولقد رفضت روسيا الموافقة على أية معاهدة لتحرير النمسا ، التى كانت موسكو تبغى استغلالها لتستخلص الثروة من منطقة احتلالها ، ولتتخذها حُجة للاحتفاظ بجنود على طول خطوط الإمدادات فى أوربا الشرقية وفى البلقان .

ومن المسائل التى اتفقت روسيا والغرب بصددها ، معاقبة أعلى الزعماء النازيين . فأُعدت الاتهامات ، وقُدم اثنان وعشرون من زعماء الحرب إلى المحاكمة فى نورمبرج ، فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ . وظلت القضية تناقش أكمل نقاش من الجانبين ، حتى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٦ . فقضى على أحد عشرة رجلاً بالشنق فى أول أكتوبر . وانتحر هيرمان جورينج بالسم فى سجنه ، بينما مات العشرة الآخرون ـ ومنهم وزير الخارجية جواشيم فون ريبنتروب ـ على المشانق . وانقسم الرأى العام فى الولايات المتحدة بدرجة كبيرة بصدد عدالة وسرعة إنجاز هذا التصرف الدولى الذى لم يسبقه مثيل . ولا نزاع فى أن جرائم النازيين كانت شنيعة ، بيد أنه كان من الممكن ترك القصاص لمحكمة ألمانية . وفضلاً عن هذا ، فإن كثيراً من الجرائم الألمانية كانت شبيهة بانتهاكات روسية تعادلها شناعة ، كما أن ألمانيا وروسيا أطلقتا نذير الحرب العالمية الثانية بتوقيع ميثاق ريبنتروب ـ مولوتوف فى سنة ١٩٣٩ ، واشتركتا فى غزو بولندا وتخريبها . ويكاد يكون من المحقق أن ما عزاه الروس إلى هتلر من قتل ٧٠٠٠ ضابط بولندى أسير عمداً ، إنما تم بأمر من ستالين .

أمـريكا تتخـذ موقفـاً حازمـاً

تغير الشعور الأمريكى نحو روسيا فى تؤدة بادىء الأمر ، ثم بسرعة . فقد تلكأت البلاد فترة عن التمشى مع ترومان الذى أهاجه نفاق ستالين ، فصاح فى سنة ١٩٤٥ : « لقد آن الكف عن تدليل السوفييت ! » . ولقد زار وينستون تشيرشل مدينة فولتون ، بولاية ميسورى ، فى مارس سنة ١٩٤٦ ، يلقى خطاباً شجب فيه العدوان الروسى ، ودعا

الغرب إلى المقاومة . وصدم خطابه كثيراً من مشاعر الأمريكيين ، بيد أن ترومان استحسنه من فوق المنصة ، كما حبذه كثير من الزعماء فى كل مكان . ورد ستالين على تشيرشل فى ٣٠ أبريل بأن « الرجعية الدولية » تخطط لحرب جديدة . بيد أنه كشف مزيداً من سياسته ، عندما أرسل إلى تركيا مذكرة فى ١٢ أغسطس ، مطالباً بنصيب من الإشراف على الدردنيل . وفى باريس ، ظل بيرنز طيلة الصيف يناضل الروس فى مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى الأربع ، ثم استهجن علانية فى ١٥ أغسطس « تكرر النيل من السياسة الأمريكية وتحريفها » .

وأذكى الموقف المتغير حدث مؤثر . فبينما كان بيرنز ينازل مولوتوف ، وكانت حكومتنا تحتد فى مناقشة يوغوسلافيا ذات القيادة الشيوعية من أجل إسقاطها ثلاث طائرات أمريكية غير مسلحة ، أخذ الوزير ولاس يعد خطاباً ألقاه يوم ١٢ سبتمبر فى حديقة ماديسون سكوير وحمل فيه بعنف على « سياسة الدعوة للتشدد مع روسيا » . وكان ترومان قد أخطأ إذ أقر النص المكتوب للخطاب دون أن يقرأه بدقة . وإذ غضب الوزير بيرنز لما اعتبره طعنة غادرة ، قدم مذكرة بأنه يستقيل إذا لم يستقل ولاس من منصبه . فبادر ترومان إلى فصل ولاس بحجة « تضارب جوهرى » فى الآراء بصدد السياسة الخارجية . وساند الشعور العام ترومان ، ولكن المشاعر بين بيرنز والرئيس ظلت متوترة ، وعلاقاتهما أقل لطفاً مما كان ينبغى . وفى أوائل سنة ١٩٤٧ ، استقال بيرنز بحجة سوء صحته ، مفسحاً المجال لإحدى الشخصيات العظيمة حقاً ، فى تلك الفترة ـ للجنرال جورج مارشال .

ولما كان مؤتمر باريس قد انتهى إلى غير اتفاق بشأن ألمانيا والنمسا ، فقد بقيت لروسيا قوات ضخمة تستحوذ على أوربا الشرقية بأسرها ، وتهدد الغرب . وفى خريف ذلك العام ، اتخذت فرنسا دستوراً جديداً ، حتى إذا استولى الشيوعيون ، فى نوفمبر ، على أكبر كتلة من المقاعد فى الجمعية الوطنية الجديدة ، سرت فى الدول الحرة قشعريرة . بيد أن ألمانيا أصبحت بؤرة القلق ، فقد كانت سياسة روسيا هى أن تمتص من ألمانيا كميات كبيرة من السلع المصنوعة كتعويضات ، وأن تحول دون انتعاش ألمانيا أو أن ترجئه ، وأن تدفع الشعب إلى التحول إلى شيوعيين ، عن طريق توليد الفقر والفوضى بأساليب مرسومة . أما السياسة الأنجلو أمريكية فكانت على النقيض ، كانت ترمى إلى إعادة ألمانيا إلى العافية الصناعية ، وإعادة إرساء الرخاء ، وصون النظام ، وتدريب

الشعب على الديمقراطية السياسية . كانت ألمانيا الغربية تضم من السكان حوالى ٤٥ مليوناً ، وألمانيا الشرقية حوالى ١٧ مليوناً . وقد أخذ يتدفق على ألمانيا الغربية سيل كبير مستمـر من الـلاجئين ، فزاد من تضخم سكانها . وكانت ألمانيا الشرقية فى الأوضاع الطبيعية كفيلة بأن ترسل المواد الغذائية إلى بقية البلاد ، بيد أن الروس أوقفوا الشحنات التى من هذا النوع . ومن ثم اضطرت الدول الغربية الكبرى إلى استيراد ، كميات كبيرة من الأطعمة لمختلف القطاعات التابعة لها ، واضطلع الأمريكيون والبريطانيون بالعبء الأكـبر . وكانت النتيجة المحتومة أنه بينما راح الغربُ يغدق الأموال والموارد على ثلثى الدول اللذين تحت إشرافه ، أخذ الروس يمتصون من ثلثهم قدر ما كان الغرب يقدم .

وكان هذا الموقف غير محتمل . فأصبح مجلس الإشراف المتحالف فى برلين مسرحاً للمشاحنات بين المندوبين الأنجلو أمريكيين والروس . فبالنسبة للأمريكيين أقام الجنرال لوشيوس دى . كلاى جهـازاً إدارياً قريب الشبـه بالحكـومـة ، مكتسباً بذلك احترام الشعب الألمـانى وإعجاب زملائه البريطانيين . وفى ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، أبرمت الولايات المتحدة وبريطانيا اتفاقية لإدماج قطاعيهما اقتصادياً ، وإذا المنطقة الثنائية التى ناهزت مساحتها ٨٠٠٠٠ ميل مربع تصبح أكثر حيوية ونماء من ذى قبل بكثير . وكان هذا تطوراً شغـل بال الروس ، وكذلك كان التخفيف المطرد من الأنجلو الأمريكيين للقيود على الصناعة الألمانية ، وحظر الشحنات إلى الدول الخاضعة للسيطرة الشيوعية ، والتنشيط العام للإنعاش الألمانى . وأجريت تحت الرعاية الأمريكية والبريطانية فى سنة ١٩٤٦ أول انتخابات حرة لمجلس البلدية منذ قيام هتلر .

وأصبـح الانقسـام بصدد ألمانيا كاملاً ومكشوفاً فى أوائل سنة ١٩٤٧ . وفى ١٠ مارس ، عقد مجلس وزراء الخارجية مؤتمراً فى موسكو بشأن شروط الصلح مع النمسا وألمانيا . وعقب مناقشات صاخبة ، انفض المؤتمر بعد ستة أسابيع دون ما اتفاق على موضـوع واحـد ذى أهمية . وصمـد مارشـال ، وبيفن ، وبيدول فى موقفهم دون أن يتـزحزحوا ، كما تشبث مولوتوف بموقفه . وعندما أبلغ مارشال الشعب الأمريكى أن ستالين أخبره بأن من الممكن تسوية كل الخلافات بالتفاوض ، سرت فى طول البلاد وعرضها رنة ابتهاج ، إذ تقبل الرأى العام الإجراء الذى اقترحه ستالين . وأزيحت المسألة الألمانية جانباً إلى أجل . ولقى تجمد الموقف فى هذه الناحية قبولاً ، فانتقل مركز الاهتمام فوراً إلى اليونان وتركيا .

مشـكلات الدفـاع

أظهرت الحرب الباردة أنه لابد من زيادة التسلح الأمريكى . بل إن الأمريكيين كانوا قد بدأوا قبـل ذلـك بتـوجيه كثـير من العنـاية إلى تحسين كفاءة تخطيط الدفاع وإدارة مخططاتـه . فلقد كشفت الحرب عن حاجة ماسة إلى توحيد القوات وأركان الحرب . وأيدت حكومة ترومان الدعوة إلى هذه الغاية ، فوافق الكونجرس عليها أخيراً .

وفى ٢٦ يوليو سنة ١٩٤٧ ، وقع ترومان مرسوم ضم الجيش والأسطول والسلاح الجوى إلى وزارة دفاع جديدة ، أقام على رأسها جيمس فورستال . ولقد رسم الإدماج بعناية وتفصيلات واسعة . فكان لكل من الأسلحة الثلاثة وزير مساعد ، دون أن يكون له مقعـد فى مجلس الـوزراء . وأنشىء « مجلس أمن قومى » لدراسة الموقف الخارجى والتوصية بالسياسات (مؤلف من رئيس الجمهورية ووزيرى الخارجية والدفاع والأسلحة الثلاثة ورئيس مجلس موارد الأمن القومى) . وكان على مجلس موارد الأمن القومى أن يدرس وينظم الموارد والإنتاج والقوى البشرية ، فلم يكن له دور يذكر فى زمن السلم ، بيد أنـه كان ذا أهمية حيوية فى الحـرب . وأقيم مجلس للذخائر يتولى المهام التى كان يمارسها من قبل مجلسا الجيش والأسطول اللذان كانا يحملان الاسم ذاته ، وعُيِّن مجلس للبحث والتنمية ليتـولى البحث العلمى . وأخـيراً ، أنشئت وكالة المخابرات المركزية CIA ، التى تتيح للأمـة لأول مرة فى تاريخهـا مركـزاً لتجميع المعلومات عن التسلح والأنشطة المسلحة للدول الأخرى . وعلى مر الزمن ، أصبحت هذه الوكالة هيئة قوية النفوذ ، تحاط أنشطتها بالسرية ، بل وتعمل مستقلة .

وشـاء سوء الحظ أن يكـون رسم المخـططات للتوحيد على الورق أسهل منه فى التنفيذ . وكـان فورسـتـال الذى أدار شطراً كبيراً من المعركة قد تطلع إلى إنشاء وزارة للدفاع صغيرة ، تشرف على التعاون الودى بين الفروع الثلاثة للقوات المسلحة ، فإذا الوزارة الجديدة تصبح كبيرة بدرجة مرهقة ، وإذا الأسلحة الثلاثة تتنازع الاعتمادات والسلطان فى غيرة . واشتد اختلاف الخبراء بصدد أدوار الأسلحة الذرية ، والبوارج ، والطائرات إذا قامت حرب جديدة . وعندما طارت طائرة من طراز « ب ــ ٢٩ » ، فى خريف سنة ١٩٤٦ ، من هونولولو إلى القاهرة دون توقف ، فى رحلة طولها ٩٤٢٥ ميلاً ، فوق القطب الشمالى ، تقبل الكثيرون هذا الحدث كدليل على أن زمن الوحدات البحرية

الثقيلة قد ولّى . بيد أن البحرية أصرت على أن القتال فى اشتباكات المستقبل سيكون فى الغالب بطائرات نفاثة كبيرة الحجم والسرعة والتعقد ، وأنه لابد لها من حاملات هائلة ، باهظة التكاليف ، لتؤويها ولتطلقها إلى الجو . أما أعضاء الكونجرس الذين كانوا يميلون إلى تصّور أن القنبلة الذرية قد افتتحت عهداً جديداً فى الحروب ، فقد تشبثوا بالاعتقاد بأنه ليس بوسع روسيا أن تصنع قنبلة ذرية قبل سنة ١٩٥٢ ، فكانوا مهيئى الأذهان للتقتير بالنسبة للأسلحة الأخرى .

وانهار فورستال وهو يحاول التصدى لمصاعب تنظيم وزارة الدفاع ، وتسوية المنازعات التافهة بين الأسلحة الثلاثة ، وانتزاع اعتمادات كافية من الكونجرس ، والرد على الحملات السياسية الظالمة . وأعقب اعتزاله بوقت قصير وفاته المحزنة . وما أقل الشخصيات التى ظهرت فى فترة ما بعد الحرب ، وبدت أكثر شهامة ــ نسبياً ــ من هذا الرجل المتفانى ، الذى أوتى تهذيباً وإرهاف حس غير عاديين . ولقد أبدى لويس جونسون ــ من فرجينيا الغربية ــ الذى خلفه ، قوة وطاقة عظيمتين ، ولكنه كان قليل الحصافة وسعة الأفق . وقد استمر بموافقة ترومان فى سياسة تقتير تبين أنها كانت خطيرة إزاء ازدياد حدة الحرب الباردة . وكان يتشاجر مع الكونجرس ، ومع وزارة الخارجية ، ومع فروع القوات المسلحة . وقد أوقف إنشاء حاملات الطائرات الهائلة الحجم التى كان إنشاؤها قد أجيز فى عهد فورستال . وقبل أن ينقضى وقت طويل ، كان لابد من الإغضاء عنه كشخصية سياسية ذات مستقبل . وظلت مسألة السياسة العسكرية الصحيحة للبلاد بدون حل ، حتى اضطرت الحكومة ، عندما اشتد الخطر ، إلى أن تعالجها بزيادات باهظة التكاليف فى مقدرات الفروع الثلاثة جميعاً . . وهى سياسة تحف بحكمتها الشبهات .

كانت الأسلحة الذرية والطاقة الذرية من أعظم المشكلات اقتضاء للاهتمام القومى والدولى . وقد حاولت الأمم المتحدة والكونجرس معالجتها فى وقت واحد تقريباً . فأنشأ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لجنة للطاقة الذرية من عشرة أعضاء ، مثَّل الولايات المتحدة فيها وارين أوستن ، وبريطانيا العظمى سير ألكسندر كادوجان ، وروسيا أندريه جروميكو . ولقد قدم برنارد باروك إلى هذه الهيئة فى سنة ١٩٤٦ مشروعاً مدروساً ومفصلاً للإشراف العالمى على الأسلحة النووية . وبما أنه لم تكن تملكها إذ ذاك سوى الولايات المتحدة وحدها ، فقد نمّ هذا المشروع عن موقف غاية فى الكرم . إذ اقترح

إنشاء هيئة ذرية دولية تتولى السيطرة الكاملة على هذا المجال ، وتمتلك أو تدير سياسة جميع منشآت الطاقة الذرية التى يحتمل أن تنذر بتصرف عدوانى ، وتقوم بالتفتيش على كافة الأنشطة الذرية الأخرى ، وإجازتها وتنظيمها ، وتشرف على البحوث الذرية ، وتشجع الاستعمال النافع والبنَّاء للطاقة الذرية . وقد وافقت على المشروع لجنة الأمم المتحدة بأكملها ، فلم يتخلف عن الموافقة سوى أندريه جروميكو .

وبعد شهر ، أى فى يوليو سنة ١٩٤٦ ، أقر الكونجرس قانون ماكماهون للطاقة الذرية ، الذى قضى بإنشاء لجنة للطاقة الذرية من خمسة رجال ، كهيئة مستقلة لم يلبث عدد مستخدميها أن وصل إلى خمسة آلاف خلال عام واحد . وكان من واجباتها الإشراف على صناعة الأسلحة الذرية ، واستخدام القوة الذرية عملياً فى مجموعة كبيرة من الاستعمالات الأخرى ، كمحركات الغواصات ، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية ، والطب ، والزراعة . وفى صيف ذلك العام ، فجرت الولايات المتحدة قنبلتها الذرية الرابعة فى جزيرة بيكينى المرجانية فى المحيط الهادى ، وقنبلتها الخامسة تحت ماء المحيط . وكانت للسلاحين طاقة تدميرية لم يسبقها مثيل .

ومع ذلك رفضت روسيا بإصرار مشروع باروك ، أو أى تعديل معقول له . وكان من أسباب ذلك أن الحكام السوفييت كانوا يشعرون بأمان تام . كانوا يوقنون من أن الولايات المتحدة ما كانت لتستخدم قنابلها فى عمل عدوانى ، وأنهم كانوا موشكين على إتمام أسلحتهم الذرية الخاصة . ومن الأسباب أن روسيا ما كانت لتطيق اقتراحين مما تضمنه مشروع باروك . فإن التفتيش المطلق على المنشآت فى طول الاتحاد السوفييتى وعرضه كان خليقاً بأن يهدم ما سماه تشيرشل الستار الحديدى وأن يكشف لأنظار العالم غوامض وخبائث كانت روسيا مضطرة لحجبها ، وهذا ما كان يتعارض مع ما كانت تفرضه روسيا من حرمان من الحريات . كذلك لم يقبل الروس اشتراط ألا يجوز لأى عضو بمجلس الأمن للأمم المتحدة استخدام حق النقض « الفيتو » لعرقلة أى تصرف تتخذه هيئة الطاقة الذرية . كان الروس قد اعتنقوا عادة النقض . وعندما عرضت روسيا ، فى ذلك الحين ، مشروعها للإشراف الذرى ، دعت إلى حظر تام لهذه الأسلحة الرهيبة ، بدون أى قيد اللهم إلا تفتيش جزئى ، وعلى فترات متباعدة .

الموازنة مع قوة روسيا

اقترن طلب ستالين من تركيا نصيباً فى الإشراف على الدردنيل بانقضاض مستتر على حرية اليونان . إذ كان ملك تلك البلاد ومجلس وزرائه قد عادا إلى الحكم عندما تم تطهير البلاد من الألمان فى سنة ١٩٤٤ . بيد أن حرباً أهلية ضارية شبت بين عصابات المحاربين الوطنيين ، مما أغرق البلاد فى قلاقل . وأسهم شيوعيو بلغاريا وألبانيا ويوغوسلافيا فى الأحداث ، فكانوا يقاتلون ثم يتراجعون عبر حدودهم على التعاقب ، ويمدون الثائرين على حكومة أثينا ، ويختطفون آلاف الأطفال . ووجد البريطانيون الذين اضطلعوا بمهمة حفظ النظام فى اليونان ، أن العبء المالى والعسكرى فوق إمكاناتهم . فأخطروا الحكومة الأمريكية فى أوائل عام ١٩٤٧ بأنه لابد لهم من أن يسحبوا قواتهم وأن ينهوا مساعداتهم المالية . وكان ثمة خطر كبير من أن تسيطر العصابات الشيوعية على البلاد ، باستخدامها الأساليب الإرهابية . ولما كانت روسيا مستبقية ضغطها على تركيا ، وتهديدها إيران ــ التى كان أقصى أقاليمها فى الشمال ، آذربيجان ، متاخماً للأراضى السوفييتية ــ فإن إنهيار اليونان كان من الممكن أن يُردَف بتوغل سوفييتى عام فى الشرق الأوسط .

وهب ترومان على الفور للتصدى للأزمة . وفى اجتماع مشترك لمجلسى الكونجرس ، أوضح أن اليونان كانت مهددة من عصابات ذات قيادات شيوعية ، وأن بقاء وسلامة أراضى هذه الدولة وتركيا أمر جوهرى للإبقاء على النظام والحرية فى المنطقة بأسرها ، وأن تكاليف المعونة الأمريكية تتضاءل بالقياس إلى نفقات الحرب . وأعلن مبدأ ترومان أن الدول التى تناضل للحفاظ على استقلالها ، والتى تكافح جهوداً موجهة للسيطرة من أقليات استبدادية مسلحة ، جديرة بأن تتلقى معونة عسكرية واقتصادية من أمريكا . وقال : « إن بذور الاستبداد تتغذى على المسغبة والعوز . وهى تبلغ كامل نموّها عندما يموت أمل الشعب فى حياة أفضل ، فعلينا أن نحتفظ بهذا الأمل حياً » . وأجيز فى مايو مشروع قانون باعتماد ٣٠٠ مليون دولار لليونان ، و ١٠٠ مليون لتركيا ، وتفويض الرئيس لإيفاد خبراء عسكريين وبحريين واقتصاديين للدولتين .

ولا جدال فى أن هذا التدخل أنقذ اليونان وساعد تركيا . واضطرت الجماعات اليونانية الحاكمة ، وكانت رجعية وأنانية ، إلى أن تكفل بضغط حازم من أمريكا بعض إصلاحات كانت الحاجة إليها ملحّة . وكانت الحكومة التركية أكثر قابلية وإخلاصاً فى التعاون ، وقد ظلت تركيا من حصون الحرية فى الشرق الأدنى . وفى تلك الأثناء ، ساعدت الولايات المتحدة على خلق معقل آخر فى فلسطين ، حيث أُعلنت جمهورية إسرائيل فى ١٤ - ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، عين تاريخ انسحاب بريطانيا من هناك . وعلى الفور اعترفت حكومة ترومان بالدولة الجديدة ، وأولتها التأييد المعنوى خلال الصراع المستميت الذى تلا ذلك بين الإسرائيليين والدول العربية . وكان من الطبيعى أن يوفر اليهود الأمريكيون الأموال والأسلحة والمعونة العسكرية فى الصراع . فلما وضعت هدنة نهاية للقتال ، كانت إسرائيل قد نشرت لنفسها حدوداً واسعة تكفل لها وجوداً قومياً . ومن العوامل التى أدت لتجميد الموقف فى البلقان والشرق الأدنى ، تمرد يوغوسلافيا على السيطرة السوفييتية . فعندما تخاصم ديكتاتورها المارشال جوزيف بروز (تيتو) مع ستالين ، تضاءل خطر العدوان الشيوعى فى النطاق الكبير الممتد من ألبانيا إلى أفغانستان .

بيد أن مبدأ ترومان ، وقانون المعونة لليونان وتركيا لم يكونا كاملين ، إذ كانا جد محدودين . وكان الانسحاب الذى اضطرت إليه بريطانيا من هذا الصقع من العالم دليلاً على أن أوربا بأسرها كانت فى مأزق محزن . كانت بريطانيا العظمى ، قلب الكومنولث والإمبراطورية الهائلين ، لا تزال دولة كبرى عالمية ، بعد راسخة ، وبعد مالكة لإمكانات صناعية عظيمة . أما إيطاليا وفرنسا فكانت الحرب قد خربتها ، والحزازات الأهلية تمزقها ، وقد حُرمتا من قدر كبير من الكرامة والقدرة الأدبية والمعنوية . وكانت دول أخرى ، كهولندا وبلجيكا والدنمرك والنرويج ، قد خسرت الرجال والآلات والنظم الثقافية والثقة . وكانت عملية إعادة بناء المدن المهدمة والصناعات المهشمة فوق طاقتها . كانت بحاجة إلى المال ، وكان يبدو أن أمريكا أوتيت كل المال : وكانت بحاجة إلى الأمل والشجاعة . وكان لابد من انتشال ألمانيا والنمسا من خرائبها ويأسهما . لم يكن أحد يملك إنقاذ الحضارة الغربية بسرعة ويقين سوى دولة واحدة . . بيد أنه لابد لها من أن تكشف عن بصيرة وسعة خيال وسخاء لا يضارعها مثيل .

مشـروع مارشـال

كانت هذه الصفـات ، وهى ضرورات لا غنى عنها لنهضـة العـالم ، ميسورة لحسن الحظ ، فإن الولايات المتحدة لم تكن قد نسيت الدروس التى تكشفت عن « الإعارة والتأجير » عندما جمعت الدول المتحالفة مواردها فى مجهود مشترك هائل . فكان لابد من إعـادة هذا التجميع فى حرب جديدة ، فى صراع ضد الفقـر والخواء والانهيار . ومن الناحية المثالية ، كان لزاماً أن تقوم الأمم المتحدة أداة لهذا الانبعاث التجديدى ، بيد أن روسيا شلت حراك هذه المـنظمـة فى كل مجهـود لدفـع العـالم نحو السلام والرخاء ، مستخدمة حق النقض لسد الطريق أمام كل عمل ، والخطب الدعائية المتصلة لكى تشوِّش الأفكار .

وفى هذه المرة ، أعلن الوزير مارشال السياسة التى اعتزمتها الولايات المتحدة . ففى خطاب ألقاه فى جامعة هارفارد ، يوم ٥ يونيو سنة ١٩٤٧ ، تعهد بأن تبذل الولايات المتحدة مساهمات ضخمة نحو مشروع لإنهاض أوربا تعاونياً . وكان « برنامج الإنعاش الأوربى » ، كما أصبح معروفاً ، يتضمن تقديم الآلات والمخططات والخامات والخبراء المتمرسين فى التكنولوجيا الأمريكية ، وليس المال وحده . وكان على الدول الأوربية أن تعين كل منها الأخرى بالقروض ، وتبادل التسهيلات الخاصة ، وتعجيل سرعة التجارة الدولية . وكان لابد من إزالة الحواجز الجمركية أو تخفيضها تخفيضاً كبيراً ، على الأقل ، فى كافة أرجاء العالم الحر . فكان المأمول أن يترتب على هذا البرنامج تقدم جديد نحو الحلم الذى لم يتحقق قط ، حلم ولايات متحدة أوربية . وقد أوضح مارشال أن على أوربا أن تتكفل بالمبادرة التمهيدية والطاقة النشيطة .

فهـل تستجيب أوربـا ؟ وهل يفى الكونجرس بتعهد مارشال وهو الحريص على الانفاق الأمريكى ؟

كان الرد عن السؤال الأول سريعاً . فإن وزيرى خارجيتى بريطانيا وفرنسا ، وجها الدعوة إلى جميع الدول الأوربية ، وبينها روسيا ، لحضور مؤتمر فى باريس لمناقشة برنامج موحّد للتعمير وإعادة التنظيم . ولم تكتف روسيا بالامتناع ، بل إنها حرمت على بعثاتها الثمان أن تحضر المؤتمر . غير أن ست عشرة دولة ، من آيسلندا حتى تركيا ، حضرت واتخـذت فى ٢٢ ديسمـبر سنـة ١٩٤٧ مشروعـاً تعـاونياً لإعـادة التعمـير والإنشاء ،

تطلب استخدام ما يقرب من اثنين وعشرين بليوناً من الدولارات فى السنوات الأربع التالية . وكان لابد لقسط من هذه الأموال أن يأتى من البنك الدولى للإنشاء والتعمير ، وقسط من متباين الدول ، ولكن القسط الأكبر كان من الولايات المتحدة . وقام المشروع على تعهد من الدول الست عشرة المشتركة « بقدر واسع النطاق من المساعدة المتبادلة الفعلية والممكنة » . وما كان من الممكن أنْ يكتمل المشروع فى أقل من أربع سنوات . . ولكن أوربا تصبح ، إذا ما اكتمل ، أكثر تقدماً عن مرحلة التنمية الاقتصادية التى كانت فيها قبل الحرب بشوط كبير .

ولم يكن الكونجرس سريعاً فى استجابته بهذه الدرجة . ففى اجتماعه فى أوائل سنة ١٩٤٨ ، قدر الوقت اللازم لدراسة المشروع بشهرين . ثم استحثه استيلاء الشيوعيين على الحكم فى تشيكوسلوفاكيا على العمل . وفى ٤ أبريل سنة ١٩٤٨ ، وقع ترومان قانون التعاون الاقتصادى ، الذى اعتمد للعام الأول ٦٠٩٨٠٠٠٠٠٠ من الدولارات . وقد جاء فيه : « هذا هو الرد على التحدى الذى يواجه العالم الحر » . وبادر بأن أمر بتوفير بليون دولار للبدء فى البرنامج ، وعينّ لرئاسة دائرة التعاون الاقتصادى ، أحد أصحاب مصانع السيارات ومن الجمهوريين ، هو بول جى . هوفمان .

ونما التعاون الاقتصادى فى أوربا على نحو مُرض ، وأخذ الانتعاش يسير باطّراد . وعندما اختتمت دائرة التعاون الاقتصادى العام الرابع لنشاطها ، فى سنة ١٩٥١ ، كانت الولايات المتحدة قد أقرضت أوجادت بمنح لتنفيذ عملها بلغت ١٢ بليوناً من الدولارات ، وكانت القارة الأوربية قد عادت تستوى على أقدامها ، وقد تسنى الوصول إلى مرحلة جديدة فى العلاقات الأمريكية الأوربية ، فكانت ثمة منح مالية ومادية كبيرة أخرى تُقدَّم . وقبل أن يحين منتصف عام ١٩٥٠ ، كانت دول مشروع مارشال قد رفعت الرقم القياسى لإنتاجها الصناعى إلى مستوى فوق مستواه فى الفترة ١٩٣٦ - ١٩٣٨ بمقدار الرُّبع ، وبلغ الارتفاع النصف قبل أن ينتهى عام ١٩٥١ . والواقع أن مصانع ومزارع أوربا الغربية بلغت أعلى معدل للإنتاج فى تاريخها كله . وبدت هذه المنطقة المزدحمة مطمئنة إلى استطاعتها أن تبيع من السلع ما يكفى لرفع مستوى معيشتها باطراد ، وكان بعض الفضل فى ذلك راجعاً إلى إجراءات أكثر تحرراً فيما يتعلق بالرسوم الجمركية فى الولايات المتحدة وبلاد أخرى . كانت معظم دول القارة ترفع إنتاجها الصناعى بما بين سبعة وتسعة فى المائة سنوياً . على أن عاملاً ظهر لسوء الحظ ،

فأخلّ بهذا التقدم بدرجة كبيرة . إذ دعت الضرورة إلى إعادة تسليح الغرب بأسره ، فكانت الضرائب العالية والتضخم نتيجة لنفقات التسلح عائقاً أثقل التقدم المستمر .

وأى برنامج تعاونى يكون فيه معظم العطاء من أحد الطرفين ، ومعظم الأخذ من الطرف الآخر ، لا يخلو من بعض عوامل التوتر . فكان كثير من الأمريكيين يرون أن الأوربيين لم يظهروا قدراً كافياً من العرفان ، كما أن كثيراً من الأوربيين كانوا قد أحسوا بأن الأمريكيين كانوا يتطلعون إلى أكثر مما ينبغى . ولقد كره بعض الأوربيين ضغط الخبراء فى دعوتهم إلى الاصلاح ، والجهد ، والتجديدات . . فقد كانوا يؤثرون أساليبهم القديمة ولو كانت أقل كفاءة . بينما صُدِم بعض الأمريكيين بالتقدم الضئيل الذى أحرزه الأوربيون فى طريق الوحدة . وكان شك فرنسا فى ألمانيا بوجه خاص عميقاً وملحاحاً . وكانت المصالح الطبقية تعوق العدالة الاجتماعية والرخاء الاقتصادى فى بضع دول أوربية قليلة . وقصارى القول ، إن هناك احتكاكات وامتعاضات قد ظهرت . بيد أن الحكومات المتباينة أظهرت صبراً بوجه عام . وكان هوفمان وأعوانه الرئيسيون نماذج للباقة والحصافة ، فلم تتبلور أية أزمة حقيقية تذكر ، فيما عدا ما كانت الطوائف الشيوعية تثيره من متاعب باستمرار . كانت أوربا تتطور لتصطبغ فى مظهرها بالصبغة الأمريكية ، وتأخذ عن الأمريكيين لكنتهم العامية ، وموسيقى « الجاز » ، والمشروبات المرطبة والأغذية والأزياء الأمريكية إلى جانب ما تأخذ من الآلات الثقيلة وأساليب الإنتاج الكبير .

أعمال عدوانية جديدة من روسيا

تحقق ستالين من أن مشروع مارشال قضى بانتهاء الآمال الروسية فى إنهاك أوربا وتمزيقها . وقد كشفت موسكو عن تكدرها وضيقها بشتى الطرق . ففى أكتوبر سنة ١٩٤٧ ، تم تنظيم مكتب الاستعلامات الشيوعى للمساهمة فى إرشاد الدول السائرة فى فلك روسيا ، ولتوفير سيطرة محكمة على الأحزاب الشيوعية فى الخارج ، ولقد كان الاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا بعد بضعة أشهر غطرسة اتسمت باللامبالاة إلى درجة أن بادرت معها كل الدول الغربية الكبرى بالاحتجاج . وحاولت العناصر الشيوعية

بتعليهات سوفييتية أن تشل حراك البلاد فى فرنسا بالاضرابات ، وفى إيطاليا بالشغب والهياج . ثم قام الاتحاد السوفييتى فى أول أبريل سنة ١٩٤٨ بما خيل إليه أنها اللعبة الحاسمة ، إذ فرض قيوداً شديدة على حركة المرور فى الطرق وعلى الخطوط الحديدية بين برلين الغربية والقطاعات الأمريكية والبريطانية والفرنسية فى ألمانيا الغربية . وكان المرتقب من هذا الحصار أن يؤدى إلى تسليم برلين للسيطرة الروسية ، ليتسنى إذا حان الحين جعلها عاصمة دولة ألمانية شيوعية قوية . وكانت حجة السوفييت أن الغرب انتهك بعض الاتفـاقيات ، غير أن السبب الحقيقى هو أن الغرب كان يعمل لبعث ألمانيا اقتصادياً وسياسياً كجزء مهم من أوربا جديدة أعيد تعميرها .

ولم يفكـر الأمـريكيون أو البريطانيون لحظة فى الخنوع . فشرع الجنرال لوشيوش دى . كلاى والجنرال سير بريان روبنسون فى التغلب على سد الطرق بنقل جوى . فأقاما مجموعة من المطارات الجديدة ، وأطلقا أسطولاً ضخماً من طائرات النقل لنجدة برلين ، وهمـا يعلنان أن قواتهما لن تبرح برلين قط . ولم يحن الخريف حتى كان زهاء ألف طائرة أنجلو أمريكية تصل إلى مطارات برلين بمعدل واحدة كل ثلاث دقائق ، حاملة ثلاثة آلاف طن يومياً على الأقل ، ومكدسة مدخرات من الأطعمة والوقود . وعهد بالمجهود فى النهاية إلى حملة عسكرية مشتركة للنقل الجوى ، يرأسها قائد أمريكى ونائب بريطانى للقـائـد . وعندما عمد الروس إلى المناورات الاستفزازية ، اشتد الخوف من أن يقع حادث منكـود يشعـل شرارة الحرب . وقد أذاع البريطانيون إزاء ذلك أنهم سيوفرون لطائراتهم حماية من الطائرات المقاتلة . وقد أبدى أهل برلين إعجابهم بشهامة الحلفاء فى مجهـودهم ، بأن أقبـل ١٣٣٠٠٠٠ منهم على الإدلاء بأصـواتهم ، فى انتخابات أجـريت فى شهـر ديسمبر ، بالرغم من التهديدات الشيوعية ، ومنحوا الديمقراطيين الاشتراكيين المناهضين للشيوعية ٦٥ فى المائة من أصواتهم .

والواقع أن الشعور المناهض للسوفييت اندلع فى كافة أرجاء أوربا الغربية . وانتهى الأمر بأن تخلت الحكومة الروسية عن الحصار ، مطالبة مرة أخرى بنصيب فى الإشراف على إقليم الـرور ، ليقابل طلبها بالرفض من جديد . وأسفرت الانتخابات فى ألمانيا الغـربية ، فى أغسـطس سنـة ١٩٤٩ ، عن اختيار حكـومـة معتدلة ، برئاسة كونراد أدينـاور . وفى العـام ذاته استبدلت الحليفات الغربية بسيطرتها العسكرية بعثة مدنية سامية ، وأوفدت الولايات المتحدة جون جيه . ماكلوى ليحل محل الجنرال كلاى .

انهيار الصين الوطنية

فى سبتمبر سنة ١٩٤٩ ، صدر عن ترومان تصريح هام جداً : « لدينا دليل على أن . . تفجيراً ذرياً حدث فى الاتحاد السوفييتى » . ومع أنه كان لابد من بعض الوقت حتى يجمع الروس كمية مختزنة من القنابل ، فإنهم كانوا فى الطريق إلى التعادل مع الولايات المتحدة . وقد شهد العام ذاته تطوراً كبير الأهمية معادلاً لذلك ، فى الشرق الأقصى ، إذ أن القوات الشيوعية هناك ، اجتاحت الصين بسرعة مذهلة ، وأنهت الحرب الأهلية التى استعرت عشرين عاماً .

ففى بداية العام ، كان الوطنيون من أعضاء حزب « الكومينتانج » بزعامة شيانج كاى - شيك يستحوذون على نصف مساحة وسكان أرض الصين الأصلية . بيد أن حكمهم كان يتخبط فى الفساد ، وكانت قبضتهم ضعيفة . وإذ استولت الجيوش الشيوعية على نانكين عاصمة شيانج ، فى ٢٤ أبريل ، واصلت زحفها للاستيلاء على المدن الرئيسية الأخرى : كانتون ، وتشونكين ، وشنغهاى . ولقد استولت فى تقدمها على كميات كبيرة من الأسلحة الأمريكية التى أُعطيت لشيانج . وكانت قصة العلاقات الأمريكية بذلك الزعيم معقدة غاية التعقد . إذ كانت الحكومة الأمريكية قد حاولت اثناء الحرب توحيد العناصر الأكثر اعتدالاً من الشيوعيين والوطنيين على السواء ، فى حزب وسط يهيمن على البلاد . ولقد واصل ترومان مساندة هذا الهدف بعد هزيمة اليابان . وذهب جورج مارشال إلى الصين ، فدبّر عدة هدنات قصيرة الأجل بين الجانبين ، باذلاً جهده لإقامة حكومة وسط . وما كان لشيانج ، ولا الجماعات المعارضة تحت زعامة ماو تسى - تونج ، رغبة فى التفاهم والصلح لسوء الحظ ، مما خيّب آمال حكومة ترومان فى الزعيمين . كان الشيوعيون يعتقدون أنهم فى طريقهم إلى النصر قطعاً ، سواء انتهت الحرب الأهلية بانتصار كامل أوبفوضى تامة . وكان شيانج من ناحيته يعتقد بأن الولايات المتحدة خليقة بأن تبذل جهداً شاملاً لمصلحته ، فى آخر الأمر ، مهما يكن سوء حكومته أوضعف استراتيجيته . ولم يدرك أن الرأى العام الأمريكى ما كان ليؤيد إلقاء الملايين من الرجال فى الدوامة الصينية ، مهما يكن عداؤه لماو تسى - تونج .

لهذا وقفت الولايات المتحدة عاجزة ترقب قوات ماو الجيدة التدريب والتنظيم وهى

تتم فتح البلاد ، وفلول جيش شيانج وهى تهرب إلى جزيرة تايوان (فورموزا) . وكان على الولايات المتحدة أن تدرج فى قائمة الخسارة النهائية معونات قدرت وزارة الخارجية أنها بلغت فى مجموعها فى الفترة التى أعقبت الحرب بليونى دولار ، ولكن من المحتمل أنها لم تكن فى الواقع بهذه الضخامة . وعقد ماو « مؤتمراً تشاورياً » ، أو جمعية دستورية فى بكين ، أقرت بدون أى نقاش حقيقى ، مشروعاً لإقامة نظام للحكم ، أعده زعماء الشيوعيين . وهكذا برزت الجمهورية الشعبية الصينية للوجود ، ومعها تراث من الازدراء للديمقراطية ، ومن الروح العسكرية ، ومن الكراهية للغرب ، ولأمريكا بوجه خاص . وقبل أن ينتهى عام ١٩٤٨ ، زار ماو موسكو لإبرام اتفاقية سياسية وأخرى اقتصادية ترقيان إلى ما يقرب من التحالف ، وكان لزاماً على العالم أن يسلم بأن ما يزيد على خمسمائة مليون نسمة انضمت إلى الكتلة الشيوعية . وظل الوطنيون يحتفظون بمقعد الصين فى الأمم المتحدة ، بينما أخذ الشيوعيون الصين ذاتها .

وأذهلت هذه النكسة الولايات المتحدة ، فأخذت تستعرض الماضى فى أسى ، دون أن تتمكن من إلقاء الذنب على أية جماعة أمريكية . وقدم « كتاب أبيض » أصدرته وزارة الخارجية ما يزيد على ألف صفحة من الإيضاح والتحليل ، تخلص إلى أن شيانج هو المذنب الأكبر . فبينما كانت القوات الكبيرة من دعاة الإصلاح والتجديد تعزز مكانتها بين الصينيين ، كان الوطنيون غير الأمناء ولا الأكفاء يتجاهلونها ، بينما أخذ الشيوعيون يستغلونها بحذق . واتبعت الحكومة البريطانية سياستها التاريخية فى الاعتراف بحكومات « الأمر الواقع » ، فأوفدت إلى بكين سفيراً عومل بإهمال . وكانت وجهة النظر البريطانية هى أن حكومة الصين ، إذا عوملت بلباقة وحصافة ، قد تحرص على استقلال سليم عن موسكو . بيد أن الولايات المتحدة استمرت فى معاملة حكومة شيانج على أنها الممثلة الوحيدة للشعب الصينى ، وصاحبة الحق الحقيقى فى مقعد الصين فى مجلس الأمن بالأمم المتحدة . وحذرت وزارة الخارجية ماو من أننا سنقاوم أى اعتداء على حرية الدول الصغيرة فى جنوب شرقى آسيا . وراح ماو من ناحيته يرمق أمريكا فى تحدٍّ .

هذه كلها ألّفت فصلاً من أتعس فصول فترة ما بعد الحرب . فلقد كانت الولايات المتحدة أجيالاً عديدة الصديق الغربى الرئيسى للصين . فوقف جون هاى ضد تقسيمها ، وأنشأت المبرات الأمريكية الكليات والمستشفيات ، فعلّمت الطلبة الصينيين ، وقامت بتنفيذ البرامج الصحية . وكان من المحزن أن يُطمس هذا السجل .

والأكثر من هذا أهمية عاجلة ، هو إمكان انضمامها إلى قوة الجانب السوفييتى فى اللحظة التى ظفرت فيهـا روسيا بالقنبلة الذرية . ومن الجلى أن الموقف كان يدعو إلى تدابير جديدة فى المنطقتين الغربية والباسيفيكية .

مـولد منظـمة حـلف شـمال الأطـلنطى

شاء الحظ الحسن أن يكون الغرب قد اتخذ من قبل الخطوات الأولية نحو توحيد القوة والنفـوذ . فقبـل مسيرة ماو المظفرة بوقت طويل ، وقبل توقف مؤتمر الأقطاب الأربعة بباريس فى مايو سنة ١٩٤٩ ، كان إرنست بيفن وبعض قادة البنيلوكس (بلجيكا ، هولندا ، لوكسمبورج) قد ناقشوا مشروعات لإنشاء اتحاد دفاعى وثيق . واستدرجت الولايات المتحدة ، وكندا ودول أخرى إلى المفاوضات . وفى ٤ أبريل سنة ١٩٤٩ ، وقّع وزراء خارجية الـولايات المتحـدة وبريطانيا وفرنسا وتسع دول أخرى الميثاق التاريخى لإنشاء منظمة حلف شمال الأطلنطى وقد جاء فيه : « يوافق الأطراف على أن أى اعتداء مسلح على أحدها . . سيعتبر اعتداء مسلحاً ضد الجميع » . ففى حالة اعتداء كهذا ، ستضم الدول الاثنتا عشرة صفوفها « لاستعادة وصون الأمن فى منطقة شمال الأطلنطى » .

وجمعت منظمة حلف شمال الأطلنطى حوالى ٣٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة معاً ، تشغل أرقى المنـاطق تصنيعـاً فى أوربـا وأمريكا الشمالية ، فى تحالف لإنشاء قوات جديدة ، واختيار أسلحة مشتركة ، وانتقاء قادة مشتركين ، ومقابلة القوة بالقوة . وما قدر للولايات المتحدة من قبل أن تمضى إلى هذا المدى فى نزول عملى واقعى عن جزء من سلطات سيادتها . ولا قدر لها من قبل أن تعترف بمثل هذا الجلاء بأن حدودها تقع ابتداء من ذلك الحين على بعد كبير فيما وراء البحار ، على طول الخطوط التى كانت تفصل الدول الحـرة عن الممتلكـات السـوفييتية . ولم يكن يقـاس بالشعـور العـام الـطاغى المحبذ للمعاهدة ، سوى النشاط الذى صدّق به عليها ـ طارحاً عنه كل التحفظات ـ بأغلبية ٨٢ صوتاً إلى ١٣ . وإذ تم التصديق عليها ، عرضت حكومة ترومان برنامجاً للمعونة العسكـرية ، يخوّلها سلطة إنفاق ١ ٤٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دولار فى أثناء العام التالى ، لتقديم

أسلحة وخبرة إلى الدول الأخرى الموقّعة لحلف شمال الأطلنطى ، ولليونان وتركيا (التى لم تلبث أن انضمت إلى المنظمة) ، ولإيران التى كانت بعدُ مهددة بعدوان روسى على حدودها ، ولكوريا والفليبين . ولقد رأى البعض أن المبلغ أكبر مما ينبغى . واعتقد البعض ، وكان السيناتور روبرت تافت منهم ، أن الواجب يدعو لوقف المِنَح إلى أن يستكمل مجلس دفاع الحلف مخططاته . بيد أن مشروع القانون الذى قدمته الحكومة أصبح قانوناً .

قيادة حلف شمال الأطلنطى

اتخذت هذه التدابير فى آخر لحظة مناسبة . فسرعان ما كشفت الأحداث فى كوريا عن أن خطر قيادة حرب عالمية ثالثة كان حقيقياً ومروعاً . كان الضعف من الدول الغربية خليقاً بأن يغرى باعتداءات ستالينية فى كثير من أرجاء الكرة الأرضية . كان لدى روسيا ما يزيد عن خمسة ملايين من الرجال تحت السلاح ، مع ١٥٠٠٠ طائرة ، و ٣٠٠٠٠ دبابة ، كما كان بوسعها أن تحشد بسرعة ١٧٥ فرقة من أبنائها ، فضلاً عن عشرات أخرى من الدول التابعة لها . وكانت لأسطولها من الغواصات ــ التى تتزود بالأوكسجين دون أن تبرز إلى سطح الماء ــ طاقة كبيرة للتنقل والطواف . وكان من الممكن لصواريخها الموجَّهة أن تصيب كل مدينة غربية ، إذا ما أطلقت من قواعد متقدمة فى ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا . وكانت التصريحات المتعاقبة من القادة الروس تؤكد ما لستالين من عدم اكتراث مطلق بالمسئولية ، وتجرد من الرحمة ، واعتياد الكذب . فلو لم يثنه الخوف من السطوة الذرية الأمريكية ، لكان من المحتمل أن تجتاح فِرَقه أوربا بأسرها حتى القنال الإنجليزى وجبل طارق بسرعة كبيرة .

وشهد عام ١٩٥٠ منظمة حلف شمال الأطلنطى ، وقد أخذت تستجمع كيانها بسرعة ، وتشرع فى إنشاء قوتها المسلحة . ففى أوائل ذلك العام أقر مجلسها مخططات لدفاع متكامل . ووصلت أولى شحنات الأسلحة الأمريكية إلى أوربا فى شهر أبريل . كما وعدت بريطانيا ، وهى تحسّن قوات الجو والدبابات التابعة لها ، بأن يكون لديها زهاء ٧٠٠٠٠٠ رجل تحت السلاح فى الربيع التالى . وشرع الفرنسيون فى برنامج للتسلح

مداه ثلاث سنوات ، وكان المرجو أن يتيح للجمهورية فى القريب عشرين فرقة متأهبة للعمل فوراً . وحدد نصيب الولايات المتحدة فى جيش المنظمة بست فرق ، كانت منها اثنتان فى أوربا فعلاً . وأتاحت بعثة عسكرية من الولايات المتحدة لتركيا مشورة الخبراء فى تدريب وتجهيز قوة عدتها ٦٠٠ ٠٠٠ رجل تقريباً . وفى النهاية ، قبل الجنرال أيزنهاور ، فى شهر ديسمبر ، قيادة جميع العمليات البرية لمنظمة حلف شمال الأطلنطى ، وهبط بعد ذلك بقليل فى شيربور ليحظى باستقبال حماسى صاخب . فأقام مركز قيادة بالقرب من باريس ـ وعكف على العمل بحمية وتمكن وتفاؤل معروفة عنه .

وكانت وزارة الخارجية الأمريكية قد أصبحت فى هذه الأثناء فى يدى دين جى . أتشيسون ، وهو من أقدر الذين تولوها فى الحقبة الحديثة . كان ابناً لأسقف من رجال الكنيسة الأسقفية ، ومحامياً واسع التجارب ، ورجلاً واسع الثقافة ، وقد شغل منصباً هاماً فى الوزارة أثناء الحرب . ولقد أكسبه ذكاؤه اللامع ، وفلسفته العقلية المخيفة نوعاً ما ، بعض الأعداء . بيد أنه أمسك مقاليد منصبه بحزم وحكمة ، فى غمرة العاصفة المتزايدة الهياج من الحملات الحزبية المتجنّية . وكان أتشيسون هو الذى مثل الولايات المتحدة فى اجتماع مجلس منظمة حلف شمال الأطلنطى فى أوتاوا ، فى عام ١٩٥١ ، عندما ضمت تركيا واليونان إلى الحلف . وقد بعث أيزنهاور إلى ذلك الاجتماع برسالة أبرز فيها الأهمية العاجلة للاستعدادات للتصدى لنُذُر الخطر الروسى ، وأهاب بعدد لم يورد أسماءه من الدول أعضاء الحلف أن تجند مزيداً من القوات ، وأن تقيم مزيداً من مصانع الأسلحة ، وأن ترفع إجمالى إنتاج الأسلحة فى العام التالى بمقدار الثُلث . وقد ذكرت هذه المطالب فى مجلس الشيوخ الأمريكى بمزيد من القوة على لسان روبرت تافت ، فأثارت احتجاجات فى بعض الدول الأوربية . إذ أكد وزراء المالية وخبراء الاقتصاد أنه لا سبيل لتلك الدول إلى بذل تضحيات أكبر دون تعريض أنفسها لصدام داخلى . كان عليها أن تضع نصب عينيها خطر الإفلاس ، إلى جانب الخطر السوفييتى .

وكان قد اتضح فى تلك الأثناء أنه لابد من أن تقوم ألمانيا الغربية بدور رئيسى فى رخاء أوربا الغربية ودفاعها معاً . وكان الشعب الألمانى بما عرف عنه من دقة علمية ، ودأب ، وبراعة فى التكنولوجيا الجديدة ، يجتاز انتفاضة اقتصادية رائعة . وكان الغرب بحاجة إلى حديد ألمانيا الغربية وفولاذها وقواها البشرية الماهرة والجنود الذين بوسعها أن تحشدهم . وقد عرف أنه لابد من ثمن يُدفَع فى سبيل ذلك : الحرية السياسية لألمانيا

الغربية ، فقد كانت تشاطر فرنسا الخوف من بعث المزاج العسكرى . بيد أن الموقف العالمى فى سنة ١٩٥١ ، جعل من المستحسن الاقدام على المجازفات . وفى خلال الصيف ، توصلت دول الاحتلال الثلاث إلى قرار بإعادة قدر كبير من السيادة الألمانية ، وبالتفاوض مع جمهورية بون ، برئاسة كونراد أديناور ، لإبرام اتفاقية تمنح الجمهورية حكماً ذاتياً عاماً . بيد أنه كان عليها أن تظل مسيطرة على برلين الغربية ، وأن تستبقى قوات فى الرايخ ، وأن تنفرد بحق التفاوض مع روسيا بصدد توحيد ألمانيا ، وأن يكون لها حق النقض « الفيتو » إزاء التغييرات السياسة الأساسية التى تضر بالغرب ، وأن يكون لها حق التدخل للحيلولة دون أى انقلاب شيوعى أو فاشى . وقد آذت هذه الشروط المقترحة مشاعر كثيرين من الألمان .

وفى الوقت ذاته ، وضعت الحكومات الغربية الثلاث معاهدة أمن متبادَل ، يسمح بمقتضى موادها لألمانيا بإنشاء جيش كبير بدرجة لا بأس بها ، على أن يكون جزءاً من قوة دولية وليست قومية . أى أن يدمج فى جيش متعدد الجنسيات ، مؤلف من جنود فرنسيين وإيطاليين وألمان ومن أبناء دول البنيلوكس . وكان على هذا الجيش أن يخدم بجانب القوات المنفصلة التابعة لدول منظمة حلف شمال الأطلنطى ، بقيادة أيزنهاور ومن يخلفونه . وبهذا يفيد الغرب من القوى البشرية الألمانية دون التعرض لخطر عدوان ألمانى بدرجة أكبر مما ينبغى . هذه الخطة العبقرية انبعثت أول ما انبعثت من الفرنسيين . بيد أنه لم يكن من المحقق ، حين أشرف عام ١٩٥١ على ختامه ، أن تقبل كل من فرنسا وألمانيا المشروع فى مجموعه . غير أنه كان من المقدَّر لألمانيا الغربية أن تظفر بوضع أقرب إلى الاستقلال بعد فترة وجيزة ، وكان من الجلى تماماً العمل على تعجيل تنفيذ الخطط المتعلقة بالفرق الألمانية ، كما كان أيزنهاور يبغى . إذ كانت روسيا قد حُرِمت من كل حق فى الاعتراض .

جبهة آسيوية

كانت بعض الفئات الأمريكية قد أصرت أثناء الحرب على أن جبهة المحيط الهادى كانت أهم من جبهة الأطلنطى فى الواقع . وقد عادت إلى ذلك الرأى بعد انتهاء الحرب . فلما

خسر شيانج الصين الأصلية ، واعترفت الهند مع بريطانيا بماو تسى - تونج ، ثار فى الولايات المتحدة نقاش عنيف ، ووافق كثيرون من الأمريكيين بريطانيا والهند على وجوب إلحاق الصين الشيوعية بالأمم المتحدة . وذهب البعض إلى أن من واجب الولايات المتحدة أن توفد سفيراً إلى بكين ليسعى إلى استعادة بعض صداقة الصين السابقة ، ودق إسفين بين الصين وروسيا وهما عدوتان تاريخيتان . وكان يبدو أن الوزير أتشيسون يحبذ هذا المسلك ، بيد أن أغلبية من الكونجرس ، وقسماً كبيراً من الشعب الأمريكى كانوا متعنتين فى عداوتهم لحكومة ماو .

ولقد اتخذت حكومة ترومان مسلكاً وسطاً لفترة من الزمن . فلم تتخذ خطوة ما نحو الاعتراف بالصين الشيوعية ، ورفضت — من ناحية أخرى — فى يناير سنة ١٩٥٠ أن تتعهد باستخدام ما لأمريكا من سطوة فى البحر والجو لحماية شيانج فى فورموزا من أى هجوم . إذ كان رؤساء أركان الحرب المشتركة قد قرروا أن الجزيرة ليست عنصراً ضرورياً للدفاع الأمريكى . وسعت الحكومة فى تلك الأثناء إلى تدعيم مركز أمريكا فى كل مكان آخر .

ففى الموعد الموعود ، ٤ يوليو سنة ١٩٤٦ ، مُنحت الفلبيين حريتها ، وأمدتها الولايات المتحدة بالمال (أكثر من ٦٠٠ مليون دولار) ، والعتاد والخبراء فى سخاء ، لإعادة التعمير والتنظيم . ووافقت الفلبيين ، فى مقابل ذلك ، على الاتجار الحر مع الولايات المتحدة لمدة ست سنوات ، كما وافقت على تأجير قواعد عسكرية لتسع وتسعين سنة .

ولقد عوملت اليابان المهزومة باعتدال حكيم . فما كانت الولايات المتحدة تبتغى أن تدع هذه الدولة تحبط السيطرة الحازمة ، وإن كانت متلطفة ، التى كان يمارسها القائد الأعلى للدول المتحالفة ، الجنرال دوجلاس ماك آرثر . فمع أن ماك آرثر كان مطالباً بأن يحتفظ بارتباط وثيق بواشنطن ، وأن يرضخ لتوجيهاتها ، فإن مكانته الكبيرة بين اليابانيين ، ومهابة طباعه ، وحكمته الصادقة ، أتاحت له درجة كبيرة من الحرية . وكان اعتداده الذاتى الرصين ، وتحفظه ، وانصرافه بعقلية مستقلة إلى عمله تثير قلق كثير من المراقبين الأمريكيين للموقف ، وإن كانت قد بهرت شعب الجزيرة التى تولى أمرها ، إذ كانوا يحترمون قوة السلطان ، وجلال المنصب ، والتحفظ ، والتفانى فى الواجب .

يضاف إلى هذا أن اليابانيين لم يجدوا عناء يذكر فى ترويض أنفسهم على التدابير التى ابتكرها ماك آرثر وبسطها . وزاد من سهولة ذلك أنه حرص على أن يكون ومعظم أعوانه فى خلفية الصورة تماماً . فظل الميكادو إمبراطوراً ، وإن جُرِّد من أية مزاعم خلقها أتباعه فى أن يكون له وضع شبه إلهى . وبقيت الحكومة اليابانية فى قالبها القديم ، وإن طولبت طبعاً بإطاعة القرارات الأمريكية التى كان القائد الأعلى يتخذها أو ينقلها إليها . وفى حرصه على ألا يعرض سلطانه الأعلى ، رفض أن يسمح للأمريكيين بالإعلان عن وضعهم كمنتصرين . وبالرغم من سخط بعض اليابانيين على ما حدث فى هيروشيما ، فإنهم حمدوا للقوات الأمريكية عدم إقبالها على أى مسلك ذى شبه بتصرفات النازيين الجامحين فى روسيا ، أو تصرفات الروس المقابلة فى ألمانيا ، وأدركوا أن الجنود اليانكى كانوا مكبوحى الجماح بدرجة تدعو إلى الإعجاب ، . بالقياس إلى طريقة تصرف جنودهم هم فى نانكين ، والملايو ، والفليبين .

كذلـك لم يعترض اليابانيون على السياسات الأمريكية . فقد كانت نية واشنطن وماك آرثر إعادة تشكيل نظم الجزيرة فى قالب أكثر ديمقراطية . ونُفِّذ نزع السلاح على أتم وجـه . وجـردت القلاع والحصون من استحكاماتها ، وأُغرقت السفن ، ودُمِّرت المعدات الحربية ، ورجع الجنود إلى الحياة المدنية . ونجم عن محاكمات مجرمى الحرب إعدام عدد بسيط من ذوى المناصب الرفيعة ، بينهم توجو رئيس الوزراء السابق ، وبضع مئـات من الشخصيات الأقـل منـه شأناً ، وتم القضاء إلى حين على أكبر الكارتلات أو الاحتكـارات اليابـانية ، وقسمت أراضى الضياع الكبيرة بين الفلاحين ، وأصلح النـظام التعليمى وجعل من وظائفه الرئيسية تدريس المبادىء الديمقراطية ، ومنحت نقابات العمال فرصة كى تقوّى جذورها ، ورفع وضع المرأة إلى أرقى مما كان فى الدول الشرقية . ذلك لأن ماك آرثر كان فى كثير من هذا على احترام عميق للشخصية الشرقية ، بيد أنه كان يشاطر معظم الأمريكيين رأيهم فى أن اليابانيين كانوا قد انصاعوا فى عبودية أكثر مما ينبغى للنظام العسكرى ، فكانوا بحاجة إلى غرس خصال الفردية فيهم . ومع أن ماك آرثر كان فى دخيلته محافظاً ، فإن سياسته القائمة على إقصاء القادة العسكريين والاستعماريين والاحتكاريين السابقين عن الحكم والنفوذ ، أتاح فرصة لم تكن مرتقبة للعناصر اليسارية كى تتقدم إلى مراكز النفوذ .

وبالرغم من خسائر الحرب ، فقد ظل سكان اليابان فى ازدياد ، حتى بلغوا ٩٠

مليونـاً فى سنة ١٩٥٠ ، وهو عدد هائل بالنسبة إلى ضآلة موارد البلاد بعد أن فقدت كوريا ، ومنشـوريا ، وغيرهما من البلدان التى كانت تستحوذ عليها . ولقد ساعدت الأمـوال التى كانت تنفق على الجنـود الأمـريكيين والتى كانـوا ينفقونها اقتصاد البلاد المترنح . بيد أنه كان لابد من إعادة الرخاء إلى اليابان إذا أريد صونها من الوقوع فى مخالب الشيوعية . فأخذت السلطات الأمريكية تقلل من اهتمامها بالإصلاح ، وتزيد من عنايتها بالإنعاش ، بحكم الضرورة . وأقيم برنامج لتحقيق الاستقرار الاقتصادى فى سنة ١٩٤٩ ، يكاد يكون صنواً لقانون التعاون الاقتصادى ، فأثبت أنه ذو عون كبير حقاً . وسمح للوحدات الصناعية والتجارية الكبيرة بأن تقوم مرة أخرى ، وأن تكبح ألوان المغالاة فى المنافسة . أما مطالب قادة العمال فقد حصرت فى حدود مناسبة ، إذ أنه لم يكن فى وسع اليابان بعد أن تهيىء مستوى معيشة يعادل المستوى الغربى . ولما كان اليابانيون قد وجدوا الكثير من أسواق منسوجاتهم ومصنوعاتهم الخزفية مغلقة دونهم ، فقد ساعدهم المستشارون الأمريكيون على إنشاء صناعات ثقيلة ، فلم يلبثوا أن شرعوا فى تصدير الآلات إلى الأسواق الآسيوية المتلهفة إليها . وإن هى إلا سنوات قلائل حتى كان إنتاجهم قد تجاوز ما كان عليه فى أوائل الثلاثينات ، وأخذ يزداد بسرعة .

كانت الولايات المتحدة مليئة بالأمل فى أن تتمكن من أن تجعل اليابان من معاقل الحرية فى المحيط الهادى وتحتفظ بها بهذا الوضع . وكانت إعادة إقامة الدولة ، وتسليحها إذا حان الحـين ، كما حدث فى ألمـانيا ، تنـطوى على مخاطر . وكانت الدول الصغيرة التى عانت العدوان اليابانى أشد من الأمريكيين إدراكاً لهذه الحقيقة . فماذا يحدث إذا قررت اليابان بمجرد استقلالها أن من الأربح لها أن تنضم إلى الصين الشيوعية وروسيا ؟ ومع أن هذا التخوف لم يتحقق ، فإن اليابانيين كانوا يزدادون فعلاً عزوفاً عن الأخذ بالسياسات الخارجية الأمريكية دون ما انتقاد ، وكانوا يزدادون برماً بحرمانهم من التعامل مع أسواق الصين .

كـوريا

إذا تأملنا التغيرات العاصفة والتفاعل العام الذى كان يسرى فى آسيا ، نجد أن معظم الأمريكيين لم يكونوا يولون المنطقة الضئيلة المسماة كوريا اهتماماً يذكر حتى سنة ١٩٥٠ .

إذ أنهم كانوا منصرفين إلى الأجزاء الأكثر اجتذاباً للأنظار فى الصورة الشاملة للقارة . كانت الهند قد حصلت من حكومة آتلى العمالية فى لندن على حريتها الكاملة ، فوطدت مكانتها كدولة بسرعة ونجاح عجيبين . وهزمت الجمهورية الجديدة بزعامة رئيس الوزراء نهرو معظم متاعبها السياسية وكثيراً من متاعبها الاجتماعية والاقتصادية . أما باكستان وسيلان ، وقد تحررتا كذلك ، فقد بقيتا عضوين فى مجموعة الدول البريطانية (الكومنولث) . وكانت بورما أقل توفيقاً فى استغلال تحررها . أما أندونيسيا الهولندية ، فكانت قد مُنحت وضعاً على قدم المساواة مع هولندا كدولة حرة تحت التاج الهولندى ، ولكنها ظلت تقاتل من أجل الاستقلال التام ولم يلبث أن حققته . وكانت الهند الصينية الفرنسية قد أصبحت تتمتع بالحكم الذاتى فى كافة الشؤون الداخلية ، وتواجه مستقبلاً غير مطمئن ، إذ كانت الحرب الأهلية ــ التى كان الشيوعيون من الموحين بها ــ تعصف به . فكانت القارة الكبيرة بأكملها تبدو فى حالة جيشان لا يبشر بخير . كان بليون نسمة ، فى المساحة من سوريا حتى جزر سليبس ، فى مراحل متباينة من الثورة على الاستعمار ، والفوارق القائمة على اللون ، وعلى فقرهم وبؤسهم .

وكوريا شبه جزيرة جبلية صغيرة ، نصف قاحلة ، فى هذه القارة ، ولكنها كانت فى محنة منكودة بدرجة خاصة . كانت مقسمة بين السيطرتين الروسية والأمريكية ، بخط مصطنع تماماً ، هو خط العرض ٣٨° . وكانت كل الجهود لتوحيد البلاد قد أخفقت ، لأن الروس أبوا الرضاء بانتخابات حرة ، كما أبوها فى ألمانيا . وكان النصف الخاضع لرقابة أمريكا لديه معظم السكان والزراعة . أما النصف الذى تحت رقابة روسيا ، فقد أوتى نصيباً كبيراً من الصناعة . ولقد حاولت الأمم المتحدة فى آخر الأمر معالجة المتاعب ، استجابة لطلب تقدمت به الولايات المتحدة . فأرسلت بعثة لتنظيم حكومة هناك . ولكن الروس منعوا هذه البعثة من دخول منطقتهم . فعمد أعضاؤها إلى فعل كل ما كان ممكناً . إذ أجروا انتخابات فى كوريا الجنوبية ، وأشرفوا على وضع دستور لها ، وساعدوا على إقامة حكومة برئاسة سينجمان رى ، وهو محافظ ، قدير ، مسن ، صلب الإرادة . وفى ١٩٤٨ - ١٩٤٩ سحب الروس والأمريكيون على السواء قواتهم ، بيد أن الفريقين تركا وراءهما عتاداً حربياً ، وخبراء عسكريين . وكان بوسع الموظفين وضباط الجيش السوفييت ، العاملين فى سرية تامة ، من موقعهم الممتاز وراء نهر يالو ، أن يضعوا الخطط لأية تدابير يشاءونها .

ولقد سجل الرئيس ترومان فى مذكراته أن المراقبين فى واشنطن كانوا منذ أوائل سنة ١٩٥٠ فى توجس عميق من حدوث صراع مسلح فجأة . كانوا يدركون أن للروس قوات متحفزة للضرب فى عدد من النقاط : فى ألمانيا ، والنمسا ، والبلقان ، واليونان ، وتركيا ، وإيران ، وهكذا بعرض الخريطة حتى كامتشاتكا . وما من أحد كان يدرى ما يتمخض عنه اليوم التالى . كان من الواضح أن الشيوعيين لم يكونوا راغبين فى أن يتريثوا إلى أن تشتد قوة منظمة حلف شمال الأطلنطى . وكانت مواطن القلق الأكبر فى أوربا والشرق الأقصى . وكان رؤساء أركان الحرب المشتركة قد قالوا بإسهاب أنه ما من نقطة بعد اليابان والفليبين ذات طابع حيوى أو حرج لدفاعنا . ولكن التكهن بالمستقبل كان مستحيلاً . وفى ٢٦ يونيو ، فوجئت البلاد المذهولة بأنباء أن جيش كوريا الشمالية ، قد اندفع عبر خط العرض ٣٨° ، بطائرات روسية ، ودبابات روسية وضباط مدربين على أيدى الروس ، وأنه بات على أبواب سيول .

على أنه من الجدير بنا أن نرجع إلى تأمل الأحداث الداخلية تحت حكم ترومان ، قبل أن نتناول الحرب الكورية .

الفصــل ٢٦

مشـكلات مـا بعـد الحـرب
١٩٤٦ - ١٩٥٢

الرخـاء والتضخـم

انتقلت الأمـة من الحـرب إلى رواج عظيم وطـويل الأجـل . فبلغ الانتـاج ، والعـمالة ، والدخل ، والأرباح مستويات غير عادية فى الثلاث سنوات الأولى بعد النصر . وكان الطلب على السلع ، من الحكومة والمستهلكين فى الداخل ، والدول الأجنبية يفوق العرض باستمرار تقريباً . ولقد ظهر ركود بسيط فى أوائل سنة ١٩٤٩ ، ولكنه لم يستفحل . وكان هنرى والاس قد أصدر قبيل انتهاء الحرب بقليل كتـاب « ستـون مليون فرصة عمل » الذى ظنه الكثيرون تهوراً فى المطالبة بإجراءات حكـومية شديدة لضـمان عمـالـة كاملة ، بيد أن العمالة الكاملة تحققت بدون محفزات خاصة ، ورفعت مجموع الأجراء إلى ما يزيد على ستين مليوناً بكثير .

ولم يكن ثمة مناص تقريباً من أن يكون الرواج مصحوباً بارتفاع الأسعار وبتضخم جرّ الضـائقة على قطاعات كبيرة من السكان . وقد أشار الرئيس ترومان ، فى تقريره

الاقتصادى إلى الكونجرس ، فى بداية سنة ١٩٤٧ ، إلى كثير من العوامل المشجعة : منشآت صناعية موسَّعة ومحسَّنة ، وقوة عمالية أكبر وأرقى تدريباً ، وأموال وفيرة للنمو الصناعى ، وقائمة ضخمة من الطلبات التى لم تتسنَّ تلبيتها . ولكنه أشار فى الجانب المقابل إلى انخفاض فى القوة الشرائية نشأ عن المستويات العالية للأسعار ، وتذمر عناصر عمالية مهمة ، وخطر الإضرابات المترتب على ذلك ، واحتمال هبوط الاستثمارات . وفى خريف سنة ١٩٤٧ ، بيع القمح بسعر تجاوز الثلاثة دولارات للبوشل ، وهو أعلى مستوى بلغه فى جيل واحد ، ولكن مكتب الإحصاءات العمالية نشر فى نوفمبر من ذلك العام ، أن مُعامل السعر للمستهلك تجاوز مستواه فى ١٩٣٥ - ١٩٣٩ بحوالى ١٦٥ فى المائة . وكان السكان فى تكاثر هائل ــ ١٩ مليوناً خلال سنوات الأربعينيات العشر ــ وقد زاد هذا من الضغط على كميات السلع والأسعار .

بين الكونجرس ورئيس الجمهورية

ورث ترومان عن روزفلت كونجرس يسيطر عليه الحزب الديمقراطى ، بيد أنه لم يجن من هذا فائدة كبيرة . فإن ائتلافاً بين الجمهوريين وغلاة المحافظين من الجنوبيين قام كجدار أمام مشروعات « البرنامج العادل » لا سبيل إلى اختراقه . ثم تغير المنظر فى خريف سنة ١٩٤٦ ، إذ أن الجمهوريين بالشعار الذى راحوا يرددونه : « ألم نكتف ؟ » أحرزوا أغلبية ٥١ إلى ٤٥ فى مجلس الشيوخ ، و٢٤٦ إلى ١٨٨ فى مجلس النواب . واستطاع المحافظون فى الكونجرس الثمانين الجديد أن يجيزوا تشريعاً برغم نقض ترومان . وأقروا على الفور تشريعاً حول علاقات إدارة المشروعات والعمال (١٩٤٧) ، اشتهر باسم قانون تافت ــ هارتلى ، الذى جمع ــ إلى جانب بعض معالم ثانوية ــ مواد وصفتها نقابات العمال بأنها لا تطاق : حظراً على الاتفاقيات التى تقصر العمل على النقابيين وحدهم ، وعلى الإضرابات ومحاصرة أبواب المصانع لمنع تشغيلها فى حالات الإضراب . وبادر وليم جرين ، وجون إل . لويس ، وغيرهما من قادة العمال بشن معركة لإبطال القانون أو تعديله تعديلاً كبيراً ، ولكن دون جدوى . كذلك قدم الكونجرس إلى الولايات تعديلاً للدستور يحول دون أن يتولى أى رئيس للجمهورية

الحكم لأكثر من مدتين . وكان هذا تصويتاً بعدم الثقة فى رأى الشعب الأمريكى ، كما كان نيلاً من روزفلت من ناحية ، وجهداً من ناحية أخرى لتوجيه ضغط أدبى على ترومان كى لا يتطلع إلى فترة حكم ثالثة (وإن كان هذا مرتقباً منه إذ ذاك بحكم توليه الرئاسة) . وقد تم التصديق على هذا التعديل ، وأصبح فى عام ١٩٥١ التعديل الثانى والعشرين .

وطلب ترومـان ، فى انزعاجه بالتضخم ، تشريعاً يسمح للحكومة بفرض نظام الحصص على السلع النادرة الوفرة ، وفرض حدود عليا للأسعار والأجور حيث تمس الحاجة ، والحد من الصادرات ، وتنظيم المضاربة على السلع ، وتوزيع مرافق النقل بالحصص ، والحـرص على عدم ارتفـاع الإيجارات ، واتخاذ خطوات أخرى . وأصر الجمهوريون على أن رئيس الجمهورية كان يحاول أن يجنى من الموقف رصيداً سياسياً له ، وأنه لم يكن فى الواقع راغباً فى هذه السلطات البعيدة المدى . والواقع أن كلاً من الجانبين كان ينشد مكاسب سياسية كثيرة . وعندما تم إقرار القانون ، جاء من الميوعة بدرجة جعلتـه غير ذى فعـالية . إذ أنـه حجب عن الـرئيس سلطة السيطرة على الأسعـار أو الأجور ، وسلطة تقنين السلع والحصص ، واقتصر على السماح بالاتفاقات الاختيارية بين المشروعـات التجارية والصناعية ، والعمال ، والمشروعات الزراعية من أجل كبح جماح التضخم . ولقـد وصفـه ترومـان بأنـه « غير واف بدرجة تثير الرثاء » ، وأثبتت الأحداث صواب رأيه ، بالرغم من أنه صدّق عليه ، إذ استمر التضخم مطرداً .

والواقع أن الكونجرس الثمانين رفض معظم الأمور التى طلبها منه ترومان . فقد أحجم عن إقـرار قانـون دائم لإجـراءات عادلة للعمالة ، وقانون لزيادة الحد الأدنى للأجـور من أربعـين إلى خمسة وستين سنتاً فى الساعة ، وبرنامج جرىء للإسكان ، والتوسع فى الضمان الاجتماعى ، وقبول المشردين من أوطانهم من الأوربيين . وقد أجاز قانوناً جديداً لتولى رئاسة الدولة كانت الحكومة ترجوه . وقد نص هذا القانون على أن الـرئـاسـة العليا تنتقل إلى رئيس مجلس النواب ، والرئيس المؤقت لمجلس الشيوخ ، وأعضاء مجلس الوزراء بترتيب إنشاء وزاراتهم ، إذا مات رئيس الجمهورية ونائب الرئيس معاً . ولقد اشتد التشاحن بين الكونجرس وترومان بصدد تخفيض الضرائب ، ذلك أن الكونجرس ، سعياً وراء التقرب إلى الناخبين ، أقر مشروعات قوانين لتخفيض عبء الضرائب بحوالى أربعة بلايين من الدولارات ، فرفض الرئيس التصديق عليها باعتبارها غير ناضجة وسيئة الصياغة .

والواقع أن الإنفاق القومى استمر بمعدل كان كفيلاً بأن يجعل تخفيض الضرائب عملاً غير سليم بدرجة فاحشة ، فإن اعتمادات السنة المالية ١٩٤٨ - ١٩٤٩ زادت عن ثلاثة وأربعين بليوناً من الدولارات ، وهو رقم قياسى فى زمن السلم . وكان من الأمور الشاذة فى تلك الفترة ، ما ثبت من استحالة تخفيض الدين القومى ، بالرغم من الرخاء . بل إنه ازداد فى الواقع فبلغ فى ديسمبر سنة ١٩٤٩ ، رقماً قياسياً هو مائتان وسبعة وخمسون بليوناً من الدولارات . وأوشك العجز فى الميزانيات أن يكون قاعدة . وقد أعلن ترومان ، فى أواخر سنة ١٩٤٩ ، أنه لابد من الكف عن الاقتراض . بيد أن الموقف الدولى لم يدع مفراً من الإنفاق على مستوى مرتفع ، فلم يلبث اقتصاد الدولة أن أصبح على مرور الزمن معتمداً على الإنفاق الحكومى .

ترومان والولاء

أعقب الحرب العالمية الأولى حملة كبيرة تدعو للولاء ، والالتزام ، والتشيّع الكامل لأمريكا . وهى حملة عانى منها كثير من الوطنيين والليبراليين . وقد عادت هذه الظاهرة بشكل أشد وطأة فى هذه الفترة . ومع أن عدد أعضاء الحزب الشيوعى فى الولايات المتحدة لم يكن يتجاوز خمسة وسبعين ألفاً ، وهو عدد كان يتناقص بسرعة ، فقد ثارت ضجة بصدد إلغاء شرعية وجوده ، والمطالبة بتحقيق غير قائم على أساس مشروع حول مزاعم عدم الولاء ، لاسيما فى الحكومة والصحافة والتعليم وصناعة الملاهى . وكانت هذه الحركة تهدد الحقوق المدنية الأساسية ، فحاول الحكماء من قادة الأمة مكافحتها .

ولقد اتخذت « لجنة مجلس النواب للأنشطة غير الأمريكية » فى الكونجرس الثمانين ، مواقف متطرفة برئاسة وكيل المجلس جيه . بارنيل توماس نائب نيو جيرسى . وكذلك فعلت لجنة الحقوق المدنية الخاصة التى كوّنها الرئيس ترومان . وقد رفعت كل منهما تقريراً فى سنة ١٩٤٧ . فأكدت لجنة توماس أنها كشفت عدداً من الجبهات الشيوعية ، مثل جبهة الشباب الأمريكى للدفاع عن الديمقراطية ، ودفعت إلى المحاكمة العلنية عشرة من كتاب السيناريو والمخرجين فى هوليوود ، أدانتهم باحتقار

الكونجرس ، وعملت على إدانة يوجين دنيس سكرتير الحزب الشيوعى ، والحكم عليه بالسجن . كما أنها فضحت عملاء شيوعيين مشبوهى السيرة مثل جيرهارت وهانس أيسلر . ولقد تعرضت أساليب هذه اللجنة لأقذع النقد . أما لجنة الرئيس ، التى كان يرأسها تشارلس إى . ويلسون رئيس جنرال إليكتريك ، فقد أكدت وثيقة كتبت بأسلوب رائع ، أن الحقوق المدنية الأساسية انتهكت واحدة إثر واحد باسم الأمن وقالت أن هذا قد جرى فى أرجاء البلاد كافة . . « ففى أوقات متباينة ، نالت كل منطقة فى الواقع . . . نصيباً من الاعتراض المشين لحقوق بعض الأشخاص » . وفصّلت اللجنة أقذع الإساءات ، وأوصت بإجراءات تصحيحية .

وفى خريف عام ١٩٤٦ ، أصدر ترومان أمراً إدارياً بإنشاء « لجنة الرئيس المؤقتة لتحرى ولاء المستخدمين الحكوميين ، وطلب إليها إعداد مشروع ببرنامج لمهمتها . وفى العام التالى أنشىء جهاز كبير محكم التنظيم . وأقامت لجنة الخدمة المدنية مجالس إقليمية لتحرى الولاء فى طول البلاد وعرضها ، وعقدت جلسات استجواب أمام مجلس للولاء لمن أتُّهموا بعدم الولاء أو بالأنشطة الهدامة ، مع إتاحة المشورة القانونية لهم ، فإذا لم يقتنعوا بحكم المجلس كان لهم أن يستأنفوه أمام مجلس لإعادة النظر فى الولاء ، مؤلف من ثلاثة وعشرين عضواً معيَّنين من قبل ترومان ، وعلى رأسهم سيث ريتشاردسن ، وهو من الجمهوريين المحافظين .

وكان لهذا البرنامج لحماية الوكالات الحكومية ميزات تسد الثغرات التى كانت موجودة ، بيد أنه أوتى عيوباً خطيرة كذلك . فهو قد قام على افتراض التسليم بأن شغل أى منصب حكومى ليس حقاً وإنما هو امتياز تكريمى . وقد قبل مبدأ أن من الممكن رفض استخدام أى شخص أو عزله من الخدمة إذا « كانت توجد أسباب منطقية معقولة للاعتقاد بأن الشخص المقصود عديم الولاء » . وأسرع نفر ممن كانت الشبهات تحوم حولهم إلى الاستقالة من الحكومة ، بينما انتُزع آخرون من مناصبهم . على أن كافة البيانات عن أى شخص كانت ساحته تُبَّرأ ، ظلت باقية فى الأضابير ، كما كتب ترومان فيما بعد ، فكان النظر يعاد فى ملفه كلما انتقل من منصب إلى آخر ، وكان عليه أن يبرىء سيرته مرة أخرى . وفى هذا كتب ترومان : « ليس هذا من تقاليد الإنصاف والعدالة فى أمريكا » . وكان مقدَّراً للموقف أن يزداد سوءاً .

إعـادة انتخـاب ترومـان

أثارت معركة الرئيس مع الكونجرس الثمانين عطفاً عليه فى الدوائر التقدمية ومعسكر العمال . فلما قام بجولة فى ربيع عام ١٩٤٨ ، مستهجناً كونجرس « لا يعمل شيئاً » ، قوبـل باستجـابـة شعبية ليست بالقليلة . ومـع ذلـك ، فإن فرص الديمقراطيين فى انتخابات الرئاسة كانت تعتبر ضعيفة بوجه عام . . وكان من أسباب ذلك أن هنرى إيه . والاس أعلن ترشيحـه على بطاقـة حزب ثالث ، ومـع أنـه هاجم الجمهوريين والديمقراطيين على السواء ، فقد كان المرتقب أن يكون المصدر الرئيسى للأصوات له هم الأخيرين . ومن الأسباب كذلك أن الديمقراطيين الجنوبيين كانوا فى ثورة علنية على برنامج ترومان الذى كفل الحقوق المدنية للزنوج . فتولدت حركة قوية تدعو إلى إيكال الترشيح باسم الحزب إلى دوايت أيزنهاور ، وعلى ترومان أن يتنحى له . وما كان أحد يعلم أى جانب يتخذه أيزنهاور . على أن الديمقراطيين لم يجدوا حيلة سوى العودة إلى ترومان ، عندما كشف أيزنهاور عن إصرار عنيد على عدم خوض الانتخابات مرشحاً عن أى الحزبين .

وفى شهر يوليو ، رشح مؤتمر الحزب الديمقراطى فى فيلادلفيا ترومان دون معارضة تذكـر ، ودون أدنى تحمس . وأبـدى ترومـان روح كفاح لا تهن ، فأصر على برنامج انتخـابى تبنى الحزب فيه « النظام العادل » . ولم يدع الخطاب الذى أعلن فيه قبوله الترشيح أى مجال لأعدائه . ولقد أثار جزع الجمهوريين إذ أعلن أنه سيدعو الكونجرس الثمانين إلى دورة خاصة ، ليتيح له فرصة التحلل من العهود التى كان الجمهوريون يبذلونها فى تلك الآونة . ولو دعت الضرورة فقد كان ترومان على استعداد لخوض المعركة وحده .

ولقد بدا وحيداً إلى درجة كبيرة لفترة من الوقت . كان الجمهوريون ، الذين عقدوا مؤتمرهم هم الآخرون فى فيلادلفيا ، قد أعادوا ترشيح توماس إى . ديوى ، وحشدوا كل عناصر الحزب لمساندته . وكان قد لاح لفترة أن السيناتور روبرت إيه . تافت كفيل بهزيمـة النيويوركى ، فهـو ابن لرئيس سابق ، ورجل قيل عنه أنه « أحسن ذهن فى واشنـطن ، إلى أن يعقـد عزمـه على العمل » . بيد أن الطابع الرئيسى لعقلية تافت وشخصيتـه كان يتسم بالتعنت المحافظ بدرجة أكبر مما يناسب العصر ، بالرغم من أنه

أوتى لمحات من الليبرالية . ولقد ظلت عالقة بالأذهان مناداته بالعزلة فيما قبل الحرب ، وفتوره نحو الأمم المتحدة فيما بعد الحرب . كما أن تذبذباته وتحاملاته جعلته يبدو متقلباً مع الأهواء وغير مستقر ، بالرغم من كل ما عرف عنه من أمانة صادقة وطيدة . ولقد كان ديوى أصغر منه سناً ، وأكثر جاذبية ، وأكثر ليبرالية . . وكان محوطاً بأحسن جهاز دعائى . وفاز بالترشيح فى الاقتراع الثالث ، وكان زميله فى البطاقة إيرل واريـن ، حاكم كاليفورنيا القدير الواسع الشعبية ، والذى كان مرتقباً أن يحمل معه أصوات ولايته . أما برنامج الجمهوريين الانتخابى فكان ينادى بالدولية فى السياسة الخارجية ، بيد أنه كان غير حاسم إزاء المسائل الداخلية الهامة .

ولكى تزداد فرص ترومان عتمة وقتامة ، عقد غلاة المتعنتين من ديمقراطيى الجنوب مؤتمراً إضافياً ورشحوا جيه . ستروم ثيرموند حاكم كارولينا الجنوبية وفيلدينج إل . رايت حاكم المسيسيبى . وكان أصحاب المصالح البترولية فى خليج كاليفورنيا تواقين مثل الولاية ذاتها فى جعل الأراضى التى تغمرها مياه المد أوتنحسر عنها مياه الجزر تحت سيطرة الولاية . وحنقاً منهم على ترومان لنقضه مشروع قانون لهذه الغاية ، فقد ساهموا بأموال للحملة الانتخابية للحزب الديمقراطى الجنوبى . ولقد تشبث معظم المحافظين الجنوبيين بولائهم الحزبى القديم ، غير أنه كان من الممكن أن تصل الانتخابات بثيرموند إلى المنصب لو أنه فاز بأصوات بضع ولايات . وكان والاس فى تلك الأثناء قد رشح من لدن « حزب تقدمى » أنشىء على عجل ، وبدأ جولة خطابية هاجم فيها ترومان متهماً إياه بأنه موشك على الزج بالبلاد فى حرب مع روسيا . وتحول عنه الليبراليون الحقيقيون بالسرعة التى اندفع بها الشيوعيون إلى صفه . وكانت معظم الاستفتاءات التقديرية تشير إلى فوز ساحق للجمهوريين . وكان معظم الناخبين يبدون غير مكترثين ولا مبالين .

ومع ذلك فلم تهن عزيمة الرئيس قط . واستعمل فى مجموعة كثيفة من الرحلات الخطابية لغة الجماهير العامة فى استهجان الكونجرس الثمانين ، والحملة على ديوى ، والدفاع عن سجل أعماله . وأثارت حملته الفردية الإعجاب . وكان ديوى فى تلك الأثناء بالغ الثقة من انتصاره حتى إنه كان يتفادى المشكلات الحقيقية ، ولا يكاد يتحدث إلا عن الوحدة القومية . فلم تلهم أساليبه المائعة أحداً بتأييده ، بل نفّرت منه كثيرين .

واستيقظت الأمة فى اليوم التالى للانتخابات على أكثر المفاجآت إذهالاً فى التاريخ . فقد فاز ترومان بأكثر من ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ صوت شعبى ، وبثلاثمائة وثلاثة من أصوات المجمع الانتخابى . أما ديوى فلم يصل إلى ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠ صوت شعبى ، و١٨٩ من أصوات المجمع . ولقد ظفر ثيرموند بأغلبية أصوات لويزيانا والمسيسيبى وآلاباما وكارولينا الجنوبية ، ولم يحظ ولاس بأغلبية فى ولاية واحدة . ولقد عزا البعض النتيجة إلى أنه لم يذهب إلى اللجان الانتخابية سوى ثلاثة أخماس الناخبين ، وأن كثيرين جداً من الجمهوريين آثروا لعب الجولف . وعزاها بعض آخر إلى ضعف حملة ديوى الذى انتزع الهزيمة من بين أنياب النصر ! ولعل هناك سبباً أكبر ، هو أن الأمريكيين يعجبون بالمحارب الذى لا يلين . ووجدت النظرية القائلة بأن البلاد أصبحت تميل أساساً إلى ذلك الجانب من الحزب الديمقراطى الذى دعمته نتائج انتخابات الكونجرس . فكان مجلس الشيوخ الجديد ديمقراطياً بنسبة ٥٤ إلى ٤٢ ، وكان للديمقراطيين فى مجلس النواب الجديد أغلبية ٢٦٣ إلى ١٦١ . ولم يكن لهذا شأن كبير لدى ترومان . فقد كانت الفرص تسمح بالحد من نتائج أى ائتلاف بين الديمقراطيين الجنوبيين والجمهوريين .

النظام العادل يفقد بريقه

كان بوسع أى رئيس أكثر لباقة وسعة أفق من ترومان ، أن يحظى من الكونجرس الواحد والثمانين ، الذى اجتمع عقب انتخابه مباشرة ، بأكثر مما حظى ترومان . فمع أنه عاد فطرح على الكونجرس برنامجه المسمى النظام العادل ، لمواصلة النظام الجديد وتوسيع نطاقه ، فإنه لم يحرز تقدماً يذكر . إذ أن معظم رؤساء الجمهورية يصادفون فى فترة الحكم الثانية مصاعب تفوق ما صادفوا فى الأولى . ولقد هبط نفوذ ترومان فى الكونجرس فى ١٩٤٩ - ١٩٥٢ إلى أدنى مما هبط إليه نفوذ تافت فى ١٩١١ - ١٩١٢ ، وإن لم ينحدر إلى ما انحدر إليه نفوذ كليفلاند فى ١٨٩٥ - ١٨٩٦ أو هوفر فى ١٩٣١ - ١٩٣٢ .

ولقد ظل الأعضاء الجنوبيون صامدين ضد مشروعاته فى مجال العلاقات

العنصرية . فأجاز مجلس النواب مشروع قانون ضعيفاً بلوائح عادلة (سوية) للعمالة ، ومشروع قانـون بإبطال ضريبة الرءوس ، بيد أنهما خُذلا فى مجلس الشيوخ . وظلت العقبة التى جمدت المعونة الاتحادية للمدارس قائمة . وعجز ترومان عن أن يعدِّل قانون تافت ــ هارتلى ، بله أن يلغيه . ولقد أجاز الكونجرس قانوناً للإسكان (أبريل سنة ١٩٥٠) ، مخوِّلاً الحكومة استخدام مبلغ لا يتجاوز بليون دولار ونصف البليون لإزالة الأحياء الفقيرة وإقامة مساكن زهيدة التكاليف . ولقد أقدم الكونجرس على خطوة مهمة فى إنشـاء « مؤسسة قومية للعلوم » لوضع برنامج قومى للبحوث الأساسية فى الهندسة والعلوم التطبيقية جميعاً . كما رفع الحد الأدنى للأجور من المستوى القديم (٤٠ سنتاً) إلى خمسة وسبعين سنتاً فى الساعة (١٩٤٩) . وأهم من هذا كله أنه وسع نطاق قانون الضمان الاجتماعى لينطبق على حوالى خمسة وأربعين مليوناً من النسمات ، بعد أن كان يشمل خمسة وثلاثين مليوناً (سنة ١٩٥٠) . غير أن الكونجرس رفض أن يتناول مسائل من قبيل طلب ترومان إنشاء مشروعات على غرار هيئة وادى تنيسى فى الوديان الكبيرة الأخرى .

وفى هذه الأثناء قطع التضخم شوطاً طويلاً دون إجراءات تذكر لكبح جماحه . ولقد أنشئت بمقتضى قانـون الإنتـاج الـدفـاعى لسنـة ١٩٥٠ وكـالـة لتحقيق الاستقرار الاقتصادى ، رأسها فى أول الأمر الدكتور آلان فالنتين ، ثم مايكل ديسال . ولقد حاول فالنتين إقامة ضوابط انتقائية ، لحمل الصناع والتجار على الإبقاء على أسعار سلع معينة عند مستويات محددة . أما ديسال فحاول محو قيود تحديد الأسعار . ولم يحرز أى منهما نجاحاً كبيراً . وعاد السباق المألوف ــ حيث تلاحق الأجور الأسعار ، فتلاحق الأسعار الأجـور ــ إلى الـظهـور بعـد بدء الحرب الكورية ، فعانى أقسى الشظف أصحاب الرواتب ، والعمال الذين لا تحميهم نقابات قوية ، والمزارعون وغيرهم من العاجزين عن رفع دخولهم .

وكانت مشكلة التضخم ، بوجه عام ، معقدة أقصى التعقد ، ومع ذلك فلم يكن ثمة بد من بذل مجهود لعلاجها . وفى هذا قال تشارلس إى . ويلسون ، رئيس دائرة التعبئة الدفاعية : « إذا قدِّر للتضخم الجامح الانطلاق أن يستبد بأمريكا ، فإن الأمة ستفلس ، وسيحقق ستـالـين أحـلامـه بالفتـح دون طلقـة واحدة » . وفى يناير سنة ١٩٥١ ، أصـدرت الحكومة أوامر لكبح الأجور والأسعار عند مستويات محددة ، غير أن

الأوامـر تضمنت استثنـاءات كثيرة ، وقد ثبت أنها كانت مؤقتة . كان خير دفاع ضد التضخم هو رفع الضرائب ، على الشركات والأفراد على السواء ، وهو ما بدا فى ذلك العام .

عـودة إلى الشيوعـية والأمـن

وقعت بعد انتخاب ترومان مباشرة سلسلة من الأحداث الضخمة ، التى ردت الاهتمام العـام إلى الأنشـطة الشيوعية فى الداخل ، وساعدت على شعور عام محموم ، خشى البعض أن يؤدى إلى تهور معاد للشيوعية .

ففى سنة ١٩٤٩ ، قدم أحد عشر زعيماً شيوعياً ، كانوا يؤلفون المكتب السياسى للحـزب ، إلى المحـاكمـة ، بتهمـة انتهاك قانون سميث لسنة ١٩٤٠ ، الذى جعل التآمر ــ للدعوة إلى ــ ولتلقين ــ قلب الحكومة بالعنف جريمة . ولقد أثارت المحاكمة عدداً من الأسئلة : هل كان الحزب الشيوعى تآمراً ؟ هل كان يتلقى أوامره من موسكو ؟ هل كان يدعو إلى الإطاحة بالحكومة بالقوة ؟ ولقد أجمل القاضى هارولد مدينا ــ الذى رأس المحاكمة بحياد وكفاءة ــ القضية فى اتهام بارع مؤلف من ستة عشر ألف كلمة ، ودعـا المحلفـين إلى التسليم بدستورية قانون سميث ، الذى تعرض للمساءلة ولكنه لم يلبث أن تُرك قائماً . ووجد المحلفون أن المتهمين الأحد عشر مذنبون جميعاً ، وانتهى أمرهـم إلى السجن .

وفى الوقت ذاته تقريباً ، قدم للمحاكمة آلجر هيس ، وهو رجل كان له بعض الشأن فى وزارة الداخلية من قبل ، ثم ترأس بعد ذلك منحة كارنيجى للسلام الدولى . وقد اتهم بالحنث باليمين إذ أنكر أمام هيئة عليا للمحلفين أنه أعطى يوماً أوراقاً سرية من وثائق وزارة الداخلية إلى هويتيكر تشامبرز ، وكان شيوعياً سابقاً . واتسمت المحاكمة بعناصر غامضة مثيرة . وبعد أن اختلف الرأى فى هيئة للمحلفين ، وجدت هيئة أخرى أن هيس كان مذنبـاً ، وقضى عليه بالسجن خمس سنـوات . وفى العـام التـالى (١٩٥١) ، قضى بالإعدام على اثنين من أهل نيويورك هما جوليوس وإثيل روزنبرج بوصفهما خائنين ، إذ قدما لعملاء من الروس بيانات هامة عن القنبلة الذرية فى سنتى

١٩٤٤ - ١٩٤٥ ، اللتين كانتا تتسمان بظروف حرجة . وكانت القرائن الكاملة لإدانتهما قد قدمت بوساطة شقيق مسز روزنبرج ، الذى قضى عليه بالسجن خمس عشرة سنة . وقد أعدم الزوجان روزنبرج على المقعد الكهربائى فى سنة ١٩٥٣ . وفى الوقت ذاته أبعدت الحكومة عن البلاد عدداً من الأجانب الذين اتهموا بالأنشطة الشيوعية . وأقبلت ولايات عديدة على دراسة ــ وأجاز بعضها ــ مشروعات بقوانين تقتضى أن يؤدى المستخدمين الحكوميين ، ومنهم مدرسو المدارس العامة والجامعات ، يمين الولاء . وفى نيويورك ، أباح قانون فاينبيرج الجارف فصل المدرسين الذين ينتمون إلى منظمات يدمغها مجلس الولاية للأوصياء بأنها هدامة ، بيد أنه أثار عاصفة من الاحتجاج فألغى .

ولقد خشى كثير من الأمريكيين أن يفلت زمام حركة التيقظ للأخطار الداخلية ، تحت وطأة المشاعر المشبوبة التى أذكتها الحرب الكورية ، فيسبب هذا من الضرر أكثر مما يستطيع الجواسيس والمتآمرون الشيوعيون أن يوقعوا بالبلاد . كانوا يعتقدون أن ثمة جواً من الفزع والشك والقمع يلف البلاد ، وأن حرياتنا للقول والنشر والاجتماعات العامة والاختلاف فى الرأى ، كانت تتعرض لانتقاص خطير باسم الأمن . وقد أوضح قادة الرأى العام المنطقيون أن « الإدانة بالمشاركة » أمر غير عادل ولا سبيل للدفاع عنه ، وأنه ما من أحد يملك إعداد قائمة عادلة تشمل « المنظمات الهدّامة » ، وأن أى مجهود لطرد الناس المتهمين بعدم الولاء بالجملة من مناصبهم فى المدارس والجامعات ووسائل الإعلام والحكومة كفيل بأن يقضى على كثيرين من الأبرياء ، وأن يوقع بالنظم التى تتعرض لذلك أضراراً لا سبيل لإصلاحها . ولقد بذلت حكومة ترومان قصارى جهدها بوجه عام لمقاومة التهوس الشعبى ، بيد أن الكونجرس كان أقل منها حرصاً وعناية . فأبدت اللجنة الفرعية للأمن الداخلى برئاسة السيناتور بات ماكّاران تحمساً يفوق ما أبدت من روية وتعقل ، فى حين أن لجنة الأنشطة غير الأمريكية بمجلس النواب استمرت فى نهجها المتهور .

كان ثمة فراغ قد فُتح لزعيم مهيِّج دهمائى ، فتقدم السيناتور جوزيف آر . مكارثى من ويسكونسين ليملأه . كان جعجاعاً ، غير متمسك بالمبادىء الخلقية ، داهية فى مكره . وقد رأى أن من الممكن أن يحرز شهرة ، وربما سلطاناً قومياً بالاتهامات المتهورة ، والأدلة الزائفة ، والحملات الوقحة ، والطعنات غير القانونية ، واستثارة التحامل والأهواء . وسرعان ما ألف جمهور التليفزيون ملامحه الشرسة ، وصوته المزعج المنفِّر ،

واستعمـالـه أسلوب الكـذب الجريء . وكان موهوباً فى الوصول إلى العناوين الرئيسية للصحف . وقد فجر أولى فضائحه المدوية باتهام وزارة الخارجية بأنها كانت تأوى ، فى عهـد أتشيسـون ، أكثر من مائتى شيوعى معروف ، وباتهام أوين لاتيمور ــ الأستاذ بجـامعـة جونـز هوبكنز والمدير السابق لعمليات المحيط الهادى فى دائرة الاستعلامات الحربية ــ بأنه كان عميل روسيا الأكبر فى الولايات المتحدة . ولم يتسن العثور على شيوعى واحد فى وزارة الخارجية . وما لبثت إحدى لجان مجلس الشيوخ الفرعية أن برأت ساحة لاتيمور بعد تحقيق طويل . وما لبثت المحاكم أن شجبت جميع الاتهامات التى كانت قد ألصقتها به حكومة أيزنهاور نقمة وانتقاماً . ولكن الفضائح التى فجرها مكارثى فى مجلس الشيوخ ، فى أعقـاب إدانـة هيس وإمـاطـة اللثام عن عالم بريطانى ، يدعى كلاوس فوكس ، كان قد أعطى روسيا أسراراً ذرية . . هذه الفضائح خدعت الكثيرين . وكان على استعداد لأن يقوم بدور أكبر لو أن الجمهوريين ظفروا بأغلبية فى الكونجرس .

ولقد كان مكارثى فى مناعة من مقاضاته للتشهير طالما كان يستخدم إجراءات النيل من الناس فى داخل مجلس الشيوخ . وكانت بعض تصريحاته من القسوة والبشاعة بحيث إنها انقلبت عليه . ففى عام ١٩٥١ مثلاً ، هاجم جورج مارشال وزير الدفاع متهماً إياه بالتسامح إزاء مؤامرة شيوعية واسعة النطاق فى الولايات المتحدة . ولقد هاجم سفراء ورؤساء تحرير ، بل وزملاء له فى مجلس الشيوخ ذوى نزاهة رفيعة . وكان كلما تكشفت افتراءاته أكد أن خصومه يبرئون الشيوعية ببيانات محرفة ، كما حدث فى سنة ١٩٥٠ عندما أعلنت لجنة فرعية لمجلس الشيوخ أن اتهاماته الرئيسية افتراء وخداع . ولقد أدت حملاته الســاخرة على الحكومة إلى إضعاف مهابة وأثر جهاز الحكم بوجه عام . والأنكى من هذا ، أن الضجيج الذى أثاره أضر بالولايات المتحدة ضرراً يجل عن التقدير فى بقية أرجاء العالم التى اعتقدت أن ثمة حركة فاشية مقبلة .

ومن الشعور بالذعر فى دوائر واسعة ، انبثق مشروع قانون ماكاران ــ نيكسون ، الـذى تم إقراره برغم اعتراض الرئيس فى سنة ١٩٥٠ . وقد استلزم القانون تسجيل أسماء جميع أعضاء منظمات الجبهة الشيوعية ، واستبعد استخدام الشيوعيين فى مؤسسات صناعية ترتبط بالدفاع القومى ، ونص على القبض على الشيوعيين وغيرهم من « العناصر الهدامة » فى زمن الحرب . كما أنه حرم أى شخص اشترك يوماً فى منظمة استبدادية من دخـول الولايات المتحدة . وقد أدى هذا إلى إبعاد الشاعر البريطانى ستيفن سبندر الذى

اعتنق الشيوعية يوماً واحداً ، بنزوة من نزوات الشباب ــ ثم تاب على الفور . كما أدى إلى إبعاد أعداد كبيرة من الألمان والمجريين والإيطاليين ذوى السمعة الطيبة ، وغيرهم ممن كانوا على علاقة بالجماعات الفاشية ، وإبعاد أعداد ممن قاتلوا فى حركات المقاومة ضد الاحتلال النازى . وفى سنة ١٩٥٢ أردف هذا القانون بقانون ماكاران ، الذى أجيز هو الآخر بالرغم من اعتراض ترومان ، وتضمن تنقيح تشريعات الهجرة . ومع أن هذه القوانين تضمنت معالم سليمة ، فإن هذه المعالم كانت محوطة بكتلة من التشريعات كفيلة بأن تطيل بقاء مظالم قديمة وتعرقل الجهود الأمريكية لحشد العالم من أجل قضية الحرية . ولقد اتخذ أيزنهاور هذا الرأى بالذات ، فقال إن أمريكا اعتادت أن تكون دواماً أملاً للأجانب المضطهدين ، « ومع ذلك ، فبالنسبة للتشيكى أو البولندى أو المجرى الذى يحمل حياته على راحته ويعبر الحدود الليلة . . من الممكن أن يكون المثل الأعلى الذى هداه سراباً بسبب قانون ماكاران » .

وقصارى القول ، أنه مع اقتراب حكم ترومان من نهايته ، كان ثمة خطر قائماً من أن توترات وقت الحرب بجانب رد فعل من أيام « النظام الجديد » ، قد تمهد الطريق لفترة من الإسراف فى سياسة المحافظة والرجعية . وكانت الضغوط مما لا يكاد يوجد سبيل إلى مقاومتها : الضيق بأعباء مركز الدولة العالمية الكبرى ، والخوف من الأنشطة الهدامة يكاد يبلغ درجة المرض العقلى ، والاستياء من المطالب المتزايدة من جماعات الأقليات ، ورغبة « فى عودة الأعمال للأوضاع العادية » مع ضرائب أقل وأرباح أكثر . فلو أمكن حماية القيم الليبرالية على النحو الصحيح ، فيما سماه أيزنهاور « عصر الخطر » ، فإن كل الأمور تسير على مايرام . بيد أن احتمالات هذا كانت تتضاءل باطراد .

ولابد لنا من أن ننتقل من الشؤون الداخلية ، عائدين إلى أسود صفحات الشؤون الخارجية .

الفصل ٢٧

الحرب الكورية :
القنبلة الهيدروجينية

ترومان يجمع صفوف العالم الحر

لا ريب فى أن الشيوعيين ــ عندما غزوا كوريا الجنوبية فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٥٠ ، كانوا يعتقدون أن الوقت قد حان ليبينوا أن بوسعهم التسلط على آسيا . إذ كان ماو فى حكم الصين ، وكان الفييت ــ مينه يرجون أن يستولوا بمساعدته على الهند الصينية الفرنسية ، وكان المتآمرون الشيوعيون يوجهون حرب عصابات مريرة فى ماليزيا البريطانية ، وكان الهكس Huks ، الذين يعملون بإيحاء الشيوعيين ، لايزالون عزيزى الجانب فى الفليبين . وكانت حكومة بكين قد قضت الصيف كله فى حشد السفن القديمة وغيرها من المراكب فى فوشو وغيرها من الموانى لمهاجمة فورموزا . فقد كان بوسع الشيوعيين أن يملأوا قلوب جميع الشعوب الآسيوية برهبتهم إذ هم فتحوا كوريا ، وطهروا جنوب شرق آسيا من النفوذ الغربى ، وقضوا على شيانج كاى ــ شيك .

ومن المحتمل أن ستالين كان يعتقد أن الولايات المتحدة لن تحاول التدخل . فإن

أرض الوطن الأمريكى كانت على مسافة سبعة آلاف من الأميال ، ولم تكن هناك سوى بضع فرق فى حالة استعداد ولياقة للقتال ، وكان إرسال جنود إلى آسيا كفيلاً بأن يضعف أوربا الغربية . كما أن الوزير أتشيسون كان قد حذف كوريا من تحديده للمجال الدفاعى لأمريكا ، وكان ماك آرثر قد قال إن أى امرىء يود توريط قواتنا فى آسيا جدير بأن يعرض لفحص عقله .

ومن حسن الحظ أن ترومان وأتشيسون ومستشاريهما كانوا يدركون القيمة المعنوية للتصرف الفورى . فلو أنهم تأخروا لكان من المحتمل أن يستشرى الفزع فى أوربا . ففى خلال ٢٤ ساعة ، أذاع الرئيس أنه شرع فى إرسال قوات جوية وبحرية أمريكية لمساعدة الكوريين الجنوبيين ، وأصدر أوامره إلى الأسطول السابع بحماية فورموزا . وفى وقت لاحق من اليوم ذاته ، أهاب مجلس الأمن بالأمم المتحدة بالدول الأعضاء أن تردع العدوان الشيوعى . وبناء على هذا ، أمر ترومان بإرسال جنود أمريكيين إلى جبهة القتال . ولم يكن الوقت ليتسع كى يطرح الأمر على الكونجرس ، ولا كان هذا ضرورياً . فلقد رأى الشعب الأمريكى أنه لابد من مقاومة الاعتداء على العالم الحر ، وقد أيدت الأمم المتحدة ذلك .

وأقدمت دول ديمقراطية أخرى على التصرف السريع . فبدأت بريطانيا وأستراليا ونيوزيلندا وهولندا بإرسال قوات ، فى أوائل شهر يوليو . وسرعان ما تبعتها كندا ، وقبل أن ينقضى وقت طويل ، لحقت بها فرنسا وتركيا وتايلاند والفلبين والبرازيل . وعندما طلب مجلس الأمن ، فى ٧ يوليو ، إلى الولايات المتحدة إنشاء قيادة موحدة ، بادرت واشنطن بتعيين الجنرال ماك آرثر . وأعلنت التعبئة لملء الصفوف الأمريكية . وقبل مضى وقت طويل كان علم الأمم المتحدة يرفرف على جيش عالمى متعدد العناصر ، هو الأول من نوعه ، وقد شرع يقاوم المعتدين . وكان الكوريون الجنوبيون يؤلفون ، فى بداية الأمر ، أكبر كتلة من المحاربين فيه ، يليهم عدد من الأمريكيين ، وقد كانوا الأفضل تسلحاً والأقوى أثراً ، ولم يلبث أن ألف البريطانيون والكنديون والأستراليون وغيرهم فرقة من قوات الكومنولث ، كما قدمت الدول الباقية خدمات مناسبة ، حتى إن الهند أسهمت بوحدة مستشفى . وساعد غياب روسيا عن مجلس الأمن على هذا الحشد الفورى بدون خوف من حق النقض (الفيتو) . واكتسبت الأمم المتحدة على الفور مكانة لم تصل إليها عصبة الأمم يوماً .

تقهقـر وتقـدم

ظلت الوحدات الكورية الجنوبية والأمريكية وغيرها زهاء ستة أسابيع فى تقهقر مطرد فى شبه الجزيرة ، حتى خشى المراقبون أن يُلقى بهم إلى البحر قبل أن تصمد خطوطهم . وقد أبدى الغزاة شجاعة بالغة . إذ كان كثير منهم قد قاتلوا فى صفوف الصينيين أو اليابانيين أو الروس فى الحرب العالمية الثانية ، فحذقوا استخدام العتاد السوفييتى ، لاسيما الدبابات ، وتعلموا من اليابانيين فن الهجوم الليلى والتسلل ، مما كانت مقاومته عسيرة . وكانوا فوق ذلك متفوقين فى العدد . وكثيراً ما كان الالتحام المباشر يشيع الارتباك بدرجة كبيرة ، حتى لقد قال أحد الضباط الأمريكيين : « لعمرى أننى لا أملك أن أعرف من الذى حاصر الآخر ! » ولقد ساعد وجود أمريكيين ممن حاربوا فى اليابان ، وقطاعات كبيرة من الأسطول حاربت فى مياه الشرق الأقصى ، على سرعة إنزال التعزيزات ، بيد أنهم كانوا أقل مما ينبغى . وأخذ المدافعون يتراجعون إلى أقرب أطراف كوريا إلى اليابان ، فوق جبال وعرة يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف قدم ، وعبر مستنقعات الأرز ذات الروائح الكريهة ، وعبر وهاد متشابكة .

ولكن إرجاء الجنرال والتون ووكر للمعركة حقق غايته . فقد أقبلت أوائل سبتمبر وهو محصور فى مستطيل غير منتظم ، طوله وعرضه ستون فى مائة من الأميال ، والإمدادات تأتيه عن طريق ميناء بوسان . وهنا صمد مقاتلو الجيش الثامن بقيادته ، بينما كان يجرى إنزال مزيد من الجنود ، وبينما أقبلت وحدات جديدة من الأسطول . وقد بلغ إحصاء غير مكتمل لخسائر الأمريكيين فى الأرواح ما يقرب من ٧٠٠٠ ، فى حين كان الكوريون الشماليون قد خسروا عدداً أكبر بكثير . وفى ١٥ سبتمبر ، وقد وصلت أسلحة وقوات كافية ، تحولت قوات الأمم المتحدة فجأة من الدفاع إلى الهجوم . وكان الرئيس سينجمان رى قد أذاع : « أننا على وشك الانطلاق » . وقد انطلقوا بطريقة أذهلت العالم .

كان ماك آرثر قد حدد فى خطته أن تكون ضربته على مسافة بعيدة شمالاً ، عند ميناء إينشون على الساحل الغربى ، بالقرب من سول . ولقد تجمع فى موانىء اليابان أسطول مؤلف من أكثر من ٢٦٠ سفينة . وبدأت الطائرات الأمريكية والبريطانية والأسترالية فى

قصف العدو بالقنابل الشديدة الانفجار والحارقة ، وبصواريخ مليئة ببترول محوَّل إلى شكـل هلامى (نابالم) . وصبت البوارج الأمريكية والبريطانية القذائف على المناطق السـاحلية المكشوفة . واستولت الفرقة الأولى من مشاة الأسطول على جزيرة وولمى فى الفجر ، واندفعت إلى إينشون المخرَّبة ، وانضمت إلى الفرقة السابعة من المشاة فى زحف سريع على سول . وفى الوقت ذاته ، تحرك جنود الجنرال ووكر فى مستطيل بوسان مهاجمة الكوريين الشماليين ، بينما هبطت قوات كوريا الجنوبية على الساحل الشرقى لتزحف إلى العمق . وسلطت البارجة ميسورى ، التى كانت قد قطعت أحد عشر ألف ميل من نورفولك ، مدافعها الثقيلة . وبات العدو فى خطر داهم من قطع خطوط مواصلاته . فلا عجب فى أن جميع جبهات كوريا الشمالية انهارت ، وأن جيوشها لاذت بالفرار .

ولم يحن بعد ظهر ٢٦ سبتمبر حتى كانت سول فى يد الأمم المتحدة ، وتمكن الرئيس رى من إعـادة إقـامة حكومته فى عاصمته القديمة ، بينما كانت قوات كوريا الجنوبية والأمم المتحـدة تطارد الغـزاة إلى ما وراء الحدود . وأذاع ماك آرثر إنذاراً للعدو بإلقاء السلاح « تحت أى إشراف عسكرى أمليه » . ولقد تجاهله العدو ، بيد أنه بات من الجلى للعالم أن العدوان الشيوعى قد أحبط .

وأصبح هناك سؤال حاسم لابد له من جواب : هل تتوقف قوات الأمم المتحدة عند خط العـرض الثامن والثلاثين ، أو تواصل تقدمها حتى تخضع كوريا الشمالية بأسرها وتوحِّد البلاد ؟ انقسم الرأى فى الدول الغربية . كان ماك آرثر موقناً من أنه ما لم يطارد الأعداء حتى نهر يالو ، المؤلف لحدود البلاد مع منشوريا وسيبريا ، فإنهم لن يلبثوا أن يعـودوا للتجمـع فى الجبال ، وأن يضموا مجندين جدداً ، وأن يحصلوا على تجاوز خط العـرض . فتحركت قوات الأمم المتحدة فى زحف سريع ، واستولت على بيونجيانج عاصمـة كوريا الشـمالية ، فلم تأت أواخر أكتوبر حتى كانت موغلة فى حزام الحدود الشـمالية ، وقـد بات خطهـا يمس نهر يالـو فى إحدى النقاط فعلاً . وبعد أن كانت الوحدات الأمريكية قد تحركت ، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً يحبذ هذه الخطوة ، وطالب إرنست بيفن ، وزير الخارجية البريطانية ، بوجوب إتاحة حكومة حرة لكوريا بأكملها .

على أنه يبدو من الواضح أن ماك آرثر ذهب فى تقدمه السريع إلى أبعد مما كانت حكـومـة ترومان أو أية دولة أخرى من الأمم المتحدة تتوقع . وكان من العوامل المحيرة أن

شيانج كاى - شيك اقتنص أملاً فى أن الولايات المتحدة ستساعده على غزو الأراضى الصينية الأصلية . أما هل منحه ماك آرثر أى تشجيع ، وأما ما إذا كان ماك آرثر قد توقع ورغب فى محاربة الصين ، فسؤالان لايزالان بحاجة إلى إيضاح مفصَّل . وعلى أية حال ، فإن شيوعيى الصين كانوا قد بدأوا يتحفزون منذ أوائل عمليات ماك آرثر الجديدة . وأبلغ وزير الخارجية شو إن - لاى سفير الهند بأن الصين سترسل قوات لمساعدة كوريا الشمالية إذا تخطت الحدود القديمة أية قوات عدا القوات الكورية الجنوبية . ووردت من موسكو وستوكهولم أنباء مشابهة .

ولو أن الصين تدخلت فعلاً ، فإن اندفاع ماك آرثر الطويل كان قد وضع قوات الأمم المتحدة فى وضع غير منيع ، إذ كانت خطوطه الوسطى مكشوفة للهجوم . وانزعج الرئيس ترومان لهذا الموقف حتى إنه أمر ماك آرثر بأن يجتمع به فى جزيرة ويك يوم ١٥ أكتوبر ، وهناك تباحثا فى الاستراتيجية العليا . وطمأن ماك آرثر الرئيس إلى أن النصر فى كوريا كان قد أُحرز ، وأن الشيوعيين الصينيين لن يهجموا ، وأنه سيكون من الممكن إعادة فرقة واحدة من كوريا إلى أوربا فى شهر يناير التالى . والواقع أنه كان يتوقع أن يسحب الجيش الثامن إلى اليابان قبل عيد الميلاد . وقال ماك آرثر أن الصين لو تدخلت لن تستطيع أن ترسل إلى كوريا أكثر من ستين ألف رجل ، من الممكن القضاء عليهم إذا لم تحمهم قوة جوية قادرة .

الصين الشيوعية تشن هجوماً

ولقد تدخلت الصين الشيوعية فعلاً ، وتدخلت على نطاق هائل . فسرعان ما كان الجنود الصينيون الجامحو التعصب يتدفقون عبر نهر يالو ، وبات من الواضح أنهم كانوا مستعدين لحرب عامة ، إذا دعت الضرورة . وما كانت الولايات المتحدة ، ولا الأمم المتحدة ، راغبة فى حرب كهذه ، إذ أنها - كما قال الجنرال برادلى - خليقة بأن تكون الحرب غير المناسبة ، فى الوقت غير المناسب ، وفى المكان غير المناسب . ولكن ، هل كان من الممكن تفاديها ؟

تشبث الشيوعيون بزعم أن القوات الصينية الكثيفة إنما كانت من المتطوعين لنجدة

كوريا الشمالية . وقال متحدث روسى مخاطباً الأمم المتحدة بسخرية : « ما أشبه روكامبو بلافاييت ! » ولقد احترم الطرفان هذا الزعم إلى حد أنهما لم يعلنا الحرب ، برغم أن الحرب كانت دائرة فعلاً . فقد كان من الواضح أن الهجوم الصينى حيلة أريد بها إيقاف المعونة الأوربية فى تعمير أوربا . وكان ترومان يعتبر أوربا مفتاح السلام العالمى ، فلم تكن لديه أية نية فى أن يسمح للجهود الأمريكية بأن تتحول عن المجال الأوربى . وتفادت الأمم المتحدة بحذر توقيع أية عقوبات عسكرية ضد بكين .

وأمر ماك آرثر الجيش الثامن بأن يبدأ ما سماه « هجوماً عاماً » ، فى ٢٤ نوفمبر ، رغبة منه فى تبين مدى شدة المجهود الصينى واتجاهه وأهدافه . وسرعان ما تداعى هذا الهجوم ، وإذا القوات الصينية المتدفقة بأعداد هائلة تفصل الجناحين الأمريكيين وتسحق فيالق كوريا الجنوبية حتى كادت تبيدها تماماً . ولم يحن ٣ ديسمبر حتى كانت تقارير ماك آرثر تصف موقف الجيش الثامن بأنه « متزايد الحرج » . فسرعان ما كان يتراجع فى تقهقر كامل نحو منطقة سيول . ودُفعت القوات التركية الاحتياطية بعجلة لمساعدته . ولكنها وجدت نفسها فى خطر من أن تُكتسح . ومع أن وزارة الدفاع أذاعت أن الموقف « لم يكن ينذر بنكبة » ، فإن واشنطن حفلت بمؤتمرات سادها القلق .

وحوالى ختام سنة ١٩٥٠ ، كان لقوات الأمم المتحدة خط محفوف بالخطر ، بين سيول وخط العرض الثامن والثلاثين . ولم تكن أية وحدة قد عُزلت عن سواها ، بالرغم من أن كثيراً منها كانت قد تضاءلت ، وأوشكت بعضها أن تُباد . وكان الليفتنانت جنرال ماثيو بى . ريدجواى ، الذى تولى قيادة الميدان تحت إمرة ماك آرثر بعد مصرع الجنرال ووكر ، يرأس قوات شديدة البأس من المشاة تضم حوالى ٣٢٥٠٠٠ رجل ، منهم ٢٠٠٠٠٠ تقريباً من الأمريكيين ، وإذا أضيف إليهم رجال الجو والبحر بلغوا ٣٥٠٠٠٠ . أما قوات العدو فكانت تقدر بحوالى نصف مليون على وجه التقريب ، فضلاً عن احتياطى هائل شمالى يالو . على أن تفوق المقدرة البحرية والجوية للأمم المتحدة ، مكنت من جعل نسبة الخسائر فى الأرواح إلى خسائر العدو حوالى واحد إلى خمسة ، ومن شل مرافق النقل لدى العدو .

خذلان الهجوم الصينى

اقترن شتاء وربيع عام ١٩٥١ بهجمات شيوعية متتابعة ، ومجهود جبار ناجح من الأمم المتحدة لتخفيف سرعتها ، وإغراقها فى الدماء ، ثم إيقافها فى النهاية . وما لبث ريدجواى أن شن هجوماً مضاداً حمل قوات الأمم المتحدة إلى ما بعد سول شمالاً مرة أخرى ، فلم ينتصف شهر أبريل حتى كان الأمريكيون وحلفاؤهم قد تجاوزوا خط العرض الثامن والثلاثين بأكثر من عشرة أميال ، واحتلوا جزءاً من « المثلث الحديدى » الذى كان مركز السيطرة الشيوعية فى كوريا .

ولعل قتال الشتاء كان أقسى قتال فى التاريخ الأمريكى بأسره ، فقد جمع بين البرد القارس والعواصف العاتية ، والأرض الوعرة على جبال شديدة الانحدار ، والمستنقعات المضللة ، والجداول المائية المستعصية العبور ، وضراوة العدو الذى كان يقاتل دون هوادة وحتى تصبح قواته خلف صفوف من الجثث ، وشدة بأس الدبابات الروسية ومقدرة الطائرات النفاثة الروسية الصنع التى أسقطت كثيراً من قاذفات القنابل « ب - ٢٩ » الأمريكية وهى مشتعلة ، وطبيعة كثير من المعارك المستميتة ـ كتلك التى أبيد فيها لواء بريطانى من جلوسيسترشاير عن آخره ـ والخوف المستند إلى مبررات قوية من أن يلقى الأسرى من رجال الأمم المتحدة معاملة أبعد عن الإنسانية من تلك التى لقيها الأسرى الألمان واليابانيون من الروس . . وقد جعل هذا كله من الصراع محنة رهيبة . بيد أن الطائرات الأمريكية والبريطانية احتفظت بتفوق واضح ، فكانت تنطلق أحياناً فى أكثر من ألف طلعة فى اليوم الواحد ، فتغمر العدو بالقنابل ، وبطلقات المدافع الرشاشة ، وبالنابالم .

وشهد شهرا أبريل ومايو هجومين مضادين شرسين من العدو ، ثم اضطر فى النهاية إلى التوقف بعد أن خسر حوالى ٢٠٠٠٠٠ رجل . ثم جاء الهجوم المضاد الكبير من الأمم المتحدة ، فى شهر يونيو . فأخذ الجيش الثامن يتقدم باطراد ، عابراً خط العرض ، مستولياً على قسم أكبر من « المثلث الحديدى » ، محتلاً مراكز مستعصية على أى مهاجم . وأخذ القتال يفتر تدريجياً .

وعندما حانت الذكرى الأولى لاندلاع الحرب الكورية ، فى ٢٥ يونيو ، كان الشيوعيون قد فقدوا ٢١٠٠ ميل مربع من الأراضى التى كانوا يسيطرون عليها عند بدء

هجومهم . ووصلت حدود قوات الأمم المتحدة ، فى بعض النقاط ، إلى أربعين ميلاً شمال خط العرض الثامن والثلاثين . وكانت مدن كوريا الشمالية أطلالاً ، ومصانع كوريا الشمالية قد توقفت . وكان ثمن ذلك أفدح نسبياً مما تكلفته الحربان العالميتان الأولى والثانية . وقدرت خسائر قوات الأمم المتحدة بأكثر من ٤٠٠٠٠٠ قتيل وجريح ومفقود (٢٦٠٠٠٠ من الكوريين الجنوبيين ، و ١٣٥٠٠٠ من الأمريكيين ، و ١٢٠٠٠ من أبناء الدول الأخرى) ، بينما خسر الشيوعيين أربعة أمثال ذلك . . مليوناً ونصف المليون على الأقل . وموجز القول أن هذه الحرب كانت من أشنع حروب التاريخ . كذلك استشرت الأوبئة فى صفوف الحمر . ولقد أثبت العالم الحر مقدرته التى لا تُغلَب على القتال ، وعززت الأمم المتحدة مركزها كدرع للدول الصغيرة ضد المتعطشين للعدوان .

خلع ماك آرثر

بينما كانت هذه المأساة من الهجوم والهجوم المضاد دائرة ، بلغ صراع محتدم بين ترومان وماك آرثر ذروته . كان صراعاً أعاد إلى الأذهان متاعب لينكولن مع ماكليلان الصعب المراس . . صراعاً بين رئيس دولة مضطر إلى تدبر كثير من الاعتبارات العالمية ، وقائد لم يكن يفكر فى غير الأهداف العسكرية . . بين رئيس جمهورية مصمم على الاحتفاظ بالسيطرة على الموقف ، وقائد كان يستخدم الضغط السياسى ليجبر الحكومة على عدم إعاقته .

ولقد كانت صدمة ماك آرثر شديدة ، عندما صادفت جيوشه الهزيمة . وقد أبلغ رئاسة أركان حرب الجيش بأن ثمة ثلاثة مسالك محتملة : التحرك المستمر ضد الصينيين فى كوريا وحدها ، وقبول خط العرض الثامن والثلاثين كخط هدنة (إذا رضى الصينيون) ، والقيام بهجوم شديد على الصين فى كل مجال ممكن . وكان يحبذ الثالث ، فكان يؤثر محاصرة الساحل الصينى ، وقصف أراضى الصين الأصلية ، واستخدام جيش شيانج كاى ـ شيك لغزو جنوب الصين ، وتعزيز كوريا الجنوبية . وكان من الواضح أن إنزال الولايات المتحدة رجال شيانج فى الصين ، وقصفها المدن الصينية ،

يـؤديان إلى حرب عامة ، إذ كانت روسيا مرتبطة بمعاهدة لمساعدة الصين . ولم يكن ترومان راغباً فى المجازفة بحرب عالمية ثالثة . وأذاع (فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٠) رسالة للشعب الأمريكى قال فيها : « إنما هدفنا السلام ولبس الحرب . إن اسمنا يقوم فى كافة أرجاء العالم رمزاً للعدالة الدولية ، ولعالم يقوم على مبادىء القانون والنظام » . ولقد حظى الرئيس بالتأييد التام من رؤساء هيئة الأركان المشتركة ، إذ نادى بحرب « محدودة » ، وبحرب غير معلنة فيما يتعلق بالصين .

على أن ماك آرثر لم يقبل سياسة الحكومة . وعندما أقبل شهر مارس بتحوّل فى تيار الحرب ، تأهب ترومان لاستقبال الوضع الجديد بإذاعة أن الوقت حان ، وقد طُهِّرت كوريا الجنوبية من الغزاة إلى حد كبير ، لإيقاف القتال والبحث فى تسوية . وأُبلغ ماك آرثر فى الوقت المناسب بأن هذا البيان قد أعدّ تقريباً ، وساعدت ترومان فى اللمسات الأخيرة للبيان وزارة الخارجية ، وهيئة رئاسة الأركان المشتركة ، ووزير الدفاع . وبينما كان الرئيس يتأهب لإصدار البيان إذا كل عنائه يذهب بدداً ، ففى ٢٤ مارس طلع ماك آرثر على العالم ببيان من عنده ، كان متبايناً تمام التباين مع بيان ترومان ، إلى حد أن الناس كانوا سيتعرضون لارتباك أليم لو أن البيانين نشرا معاً . فقد أكد الجنرال أن الصين الحمراء قد هزمت ، وأنها كانت تفتقر إلى موارد لمواصلة الحرب وقتا أطول ، فلو قررت الأمم المتحدة القيام بمجهود جبار جديد ، « بالتوسع فى عملياتنا الحربية حتى مناطقها الساحلية وقواعدها الداخلية » ، فإن الصين قد تتعرض لانهيار داهم . وقصارى القول إنه أردف التهديدات بطلب موافقة الصين مقدماً على عقد هدنة .

وكان ترومان قد عقد العزم على فصل الجنرال ، عندما وقع حدث جديد فى ٥ أبريل . إذ أن جوزيف دبليو . مارتن ، الزعيم الجمهورى فى مجلس النواب ، قرأ على المجلس خطاباً شخصياً ردد فيه ماك آرثر آراءه عن ضرورة التعجيل بمعالجة أمر الصين الشيوعية . وكتب أن الحديث عن الأهمية العظمى لأوربا كان حماقة ، فجدير بالناس أن يتذكروا « أننا نخوض هنا [1] الحرب بالأسلحة من أجل أوربا ، فى حين أن

(١) فى كوريا وآسيا .

الدبلوماسيين لا يزالون يخوضونها هناك [1] بالكلمات ، وأن سقوط أوربا أمر لا مفر منه إذا نحن خسرنا الحرب وكسبتها الشيوعية فى آسيا . أما إذا فزنا فيها ، فأغلب احتمال هو أن أوربا ستتفادى الحرب ، ومع ذلك فإنها ستصون الحرية » . وأردف قائلاً : « ما من بديل يحل محل النصر » .

ولم يكن أمام ترومان سوى مسلك واحد . ففى ١١ أبريل سنة ١٩٥١ ، أعلن بموافقة تامة من مستشاريه العسكريين والمدنيين ، إقصاء الجنرال المشاكس . وضاعف فى ضخامة القرار مكانة الجنرال الهائلة ، وعلاقته بالعناصر الجمهورية المعادية لترومان ، ومطامحه السياسية . وعاد ماك آرثر إلى الوطن لأول مرة منذ أربع عشرة سنة ، فلقى استقبالاً حافلاً صاخباً ، فى سان فرانسيسكو . وفى ١٩ أبريل ، تحدث فى جلسة مشتركة لمجلس الكونجرس ، واستمعت إليه الأمة عن طريق الإذاعة . وفى اليوم التالى ، استقل سيارته فى فيف آفنيو بين هتافات الجميع . وبدا لوهلة أن نجمه السياسى فى ارتفاع .

غير أن التحقيقات المشتركة ، التى أجرتها لجنة تمثل مجلسى الشيوخ والنواب ، فى أوائل مايو ، سلطت ضوء المنطق الخالى من الانفعال على مسألة فصله ، ومع مرور الوقت اتضح بجلاء متزايد أن قرار ترومان كان من إملاء الحكمة والضرورة معاً ، وأنه قد دعم مرة أخرى المبدأ القائل بهيمنة السلطة المدنية على السلطة العسكرية .

الانعزالية الجديدة

لم يهز الجدال الكبير بشأن ماك آرثر سياسة الحكومة ، بل لعله عززها . ومن أسباب ذلك أن الناطقين بلسان الحكومة أوضحوا أنهم لن يتساهلوا إزاء أية حماقة من الشيوعيين ، وإن كانوا راغبين فى تفادى المسالك المحفوفة بالأخطار . كان صبر أمريكا قد امتد إلى أقصى مدى يمكن أن يبلغه . ولقد حبذ الشعور العام هذا الموقف ، بيد أن تحقيقات الكونجرس أماطت اللثام عن طراز جديد من الانعزالية .

(٢) فى الغرب ـــ المترجم .

ولقد كشف ماك آرثر عن أنه أوتى آراء سياسية قوية ، وإن كان قد أنكر أنه أوتى « أية مطامع سياسية » . كان ينشد سياسة تراعى مصالح أمريكا فحسب . فنحن فى رأيه بغير حاجة معينة إلى حلفاء فى الغرب ، بل إن علينا أن نركن بجرأة إلى قوتنا ، وأن نضرب بها بشدة . وأوضح بجلاء أنه كان أكثر ميلاً إلى السيناتور روبرت تافت منه إلى الجنرال أيزنهاور ، ليكون المرشح الجمهورى المقبل للرئاسة ، لأن تافت كان على رأس شبه الإنعزاليين » فى الحزب . وكانت بعض تليمحاته إلى أيزنهاور لاذعة ، وقد ارتاح إلى موقف هربرت هوفر الذى دعا فى أوائل ذلك العام إلى سحب قواتنا من القارة الأوربية ، وإنشاء « جبل طارق لنصف الكرة الأرضية الغربى » فى الأمريكتين ، على أن تكون بريطانيا العظمى مركزاً أمامياً متقدماً . هذا ، فى الوقت الذى كان أيزنهاور يطالب فيه بإيفاد أربع فرق أخرى إلى أوربا .

غير أن الزمن الذى قد تكون فيه العزلة خطرة كان قد ولى . ولقد تحدث أيزنهاور إلى مجلسى الكونجرس بعد نداء هوفر مباشرة ، شارحاً عمله من أجل منظمة حلف شمال الأطلنطى ، مبرهناً على أن شمال الأطلنطى كان منطقة اهتمامنا الأولى . وقال إنه ما كان بوسعنا الاستغناء عن أوربا الغربية كمنطقة تجميع للعمالة الماهرة ، بل إنها أعظم منطقة تجميع فى العالم ، فعلينا أن نحافظ على مقدرتها الصناعية الضخمة . وتحدث عن ارتفاع فى الروح المعنوية الأوربية يبشر بالأمل . وفى أوائل أبريل ، أجاز مجلس الشيوخ بأغلبية ٦٩ صوتاً إلى ٢١ قرارات تحبذ معاهدة شمال الأطلنطى كنقطة تحول فى التاريخ ، وتعلن أن على الأمة أن تودع أوربا « من وحدات قواتنا المسلحة ما تدعو إليه الضرورة وما يكفى للمساهمة بنصيبنا اللائق » فى الدفاع الغربى .

وبادرت الحكومة إلى دفع برنامجها قدماً لإعادة تسليح أمريكا ومساعدة أوربا على إعادة التسليح . وكانت الخطة فى الداخل ترمى إلى زيادة الإنتاج القومى بحوالى الخُمْس خلال ثلاث سنوات (جُعلت أربعاً فيما بعد) . وشُجِّع استثمار الأموال فى منشآت جديدة ذات قيمة جلية فى الحرب ، بالإعفاءات الضريبية ، وبتقديم قروض مالية حكومية عندما تدعو الضرورة . وكان لابد من الاحتفاظ بالاستهلاك المدنى السَّوى (الطبيعى) دون مساس ، وإن لم يكن ثمة بد من إنتاج كميات هائلة من المدافع والطائرات والدبابات . وكان من الواضح أن الحرب الباردة قد تدوم عشرات السنين ، بل أجيالاً ، وعلى الولايات المتحدة أن تكون أفضل من روسيا تجهزاً فى السباق الطويل .

على أن العبء كان ثقيلاً فى ناحيتين : كان لابد من استبقاء حوالى ٣٥٠٠٠٠٠ مجند فى الخدمة وتحت التدريب ، وكان لابد من اعتماد ما بين أربعين وستين بليوناً من الدولارات سنوياً للنفقات . وكان ارتفاع مستوى الإنفاق والضرائب يعنى تضخماً يدعو للقلق .

ومع ذلك ، فإن ما بدا من واقع الترابط بين التسلح والتضخم والرخاء كان بلا شك عاملاً ساعد على إخفاق الانعزالية الجديدة ، التى كان ماك آرثر وهوفر وبعض أعضاء مجلس الشيوخ من ولايات الغرب الأوسط والغرب يدعون إليها . وأهم من ذلك أن الظروف كانت تملى بشدة التشبث بالسياسات التى رسمت برعاية روزفلت ، وترومان ، ومارشال ، وأيزنهاور . فإن أى انفصام بين الولايات المتحدة وأعضاء منظمة حلف شمال الأطلنطى قد يكون مصدر هلاك محتوم للطرفين .

الهدنة الكورية

لم يحن يونيو سنة ١٩٥١ إلا وقد بلغ الصراع الكورى مرحلة حرجة ، فلما أشار المندوب السوفييتى لدى الأمم المتحدة إلى أن الكرملين كان مستعداً لمناقشة إبرام هدنة ، كانت الطريق ممهدة لوقف الحرب المهلكة . وفى أوائل يوليو ، بدأ القادة العسكريون لقوات الأمم المتحدة وللجيوش الشيوعية سلسلة من المناقشات التى أخذت تتلكأ بعد ذلك شهراً إثر شهر . كان الموضوع المعيَّن الذى بدا الوصول إلى اتفاق بصدده متعذراً ، هو مسألة الأسرى . فإن معظم الأسرى من قوات الأمم المتحدة فى أيدى الشيوعيين كانوا قد ماتوا أو قُتلوا ، وكان معظم الأسرى الشيوعيين فى أيدى الأمم المتحدة يأبون العودة إلى كوريا الشمالية أو الصين . على أن العقبة الحقيقية تمثلت فى أن إرجاء السلام كان يناسب مخططات روسيا . إذ أن القتال المتقطع كان يضطر قوات الأمم المتحدة إلى البقاء فى كوريا ، ويؤخر دول حلف شمال الأطلنطى فى مجهودها لتسليح أوربا . كما أنه كان يزيد من اعتماد الصين على روسيا ، ويوفر مجالاً لتدريب الجنود الصينيين والطيارين الروس .

ولم تكن الولايات المتحدة والأمم المتحدة من ناحيتها راغبة فى إبرام سلام جزئى أو زائف فى الشرق الأقصى . وما كان من الممكن دراسة أمر كوريا بمعزل عن الهند

الصينية ومـاليزيا حيث كانت روسيا والصين توفران الأموال والإمدادات والخبراء للمتمردين الشيوعيين . فما كان العالم الحر ليكسب شيئاً إذا سحب ماو جيشه من كوريا الشمالية لمجرد أن يدفع قوات معادلة إلى التحرك فى جنوب شرق آسيا . وكان من الواضح أن غاية روسيا هى استخدام صنائعها من الدول للقيام باشتباكات مزعجة فى الشرق ، بينما كانت موسكو تشن الحرب الباردة فى أوربا . كان المفاوضون باسم الأمم المتحدة ينشدون دليلاً على تغيّر النوايا ، وليس تغير الجبهات . وكان الضيق بالحرب ينمو فى الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرهما من الدول الغربية ، إذ بدا أن القتال الكورى غير ذى جدوى تذكر . بيد أن القرائن كانت تبين أن الضيق بالحرب كان فى الصين أكبر .

وفى غمرة نموه ، أدت وفاة ستالين والصراع الذى ترتب عليها من أجل الحكم فى روسيا ، بين مالينكوف وبيريا ، إلى موقف جديد . ولم تحن الأسابيع الأولى من عام ١٩٥٣ حتى كانت الصين والاتحاد السوفييتى تبديان مزيداً من الميل إلى الصلح . فاستؤنفت المفاوضات التى كانت قد قطعت فى بانمونجوم . وخلق الوطنى الشيخ العنيد ، الرئيس سينجمان رى ، عقبات بإصراره على وجوب توحيد كوريا بأسرها تحت حكومته ، وبتدبير « هرب » حوالى ٢٠٠٠٠ أسير من كوريا الشمالية كانوا راغبين فى البقاء فى الجنوب . بيد أن الشيوعيين تراجعوا فى النهاية إلى درجة قبول مشروع لإعادة الأسرى يقوم على التطوع دون الإجبار . وتم توقيع الهدنة نهائياً فى ٢٧ يونيو سنة ١٩٥٣ . وانتهت الحرب .

لقد كسب الغرب انتصاراً ملموساً بثمن باهظ . إذ سكن القبور عشرات الآلاف من الأمريكيين والبريطانيين والكوريين الجنوبيين وغيرهم من الجنود ، ولقد شُوِّه مئات الآلاف ، أو أُعْجزوا نتيجة الأمراض والمحن ، وبات معظم كوريا خراباً . ولكن الغرب حقق ، ما وصفه ونيستون تشيرشل بأنه « هزيمة تامة » [1] ، فلقد هزم العدوان الشيوعى بأن حصره فى موقف لا حراك له منه . ولو أن الاتحاد السوفييتى نجح فى ضغطه التجريبى فى كوريا ، لأسرع فأردفها بحركات أخرى . إذ كان ستالين قد أعد جدوله الزمنى لغزو ماليزيا ، والهند الصينية ، وفورموزا ، ولو أنه أفلح ، لأعقبها بأوربا الغربية . ولكنه أُحبط ، بينما ازدادت سرعة التسلح الغربى . فباتت الجبهة العالمية ضد

(١) الأصل Checkmate وهى الحركة التى لا يعود بعدها سبيل إلى إنقاذ « شاه » الخصم فى مباراة الشطرنج — المترجم .

الشيوعية أشد مما كانت عندما شنت كوريا الشمالية هجومها بدرجة تفوق أى قياس .

القنبلة الهيدروجينية

لم تقتصر الولايات المتحدة ، فى المراحل الأخيرة للحرب ، على إجراء التجارب على قنابل ذرية أكبر ، بل إنها فجرت فى جزيرة إنيوتوك أول قنبلة هيدروجينية فى التاريخ . كان وهج الانفجار فى ذلك الصباح ، صباح أول نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، أقوى من وهج عشر شموس . وبلغ طول اللهب ميلين ، وارتفاعه ألف قدم ، فأحرق الجزيرة التى فُجِّرت عليها القنبلة تماماً . وكتب دبليو . إل . لورنس فى صحيفة « نيويورك تايمز » ، يقول : « بوسع هذا السلاح ، الذى تفجّر بشدة تعادل شدة تفجر عشرين مليون طن من أقوى المتفجرات ، أن يخرب مساحة تزيد على ٣٠٠ ميل مربع بقوة التفريغ الهوائى ، و١٢٠٠ ميل مربع بنيرانه . ولو أودع قذيفة من الكوبالت لأنتج سحابة من الغبار المشعّ تعادل ما يحدثه خمسة ملايين رطل من الراديوم ، تنشر الموت والدمار على آلاف من الأميال المربعة » .

وموجز القول ، أن بوسع القنبلة الهيدروجينية أن تمحو لندن ، أو موسكو ، أو نيويورك تماماً . ولقد أدرك العالم شيئاً فشيئاً خطر هذا السلاح الجديد . فبالرغم من أنه كان كالقنبلة الذرية شديد الإفناء ، فإن الحرب بقذائف من هذين النوعين ظلت ممكنة . غير أن القنبلة الهيدروجينية ، كتيارات هوائية تحمل السحب الذرية المميتة إلى كل مكان ، كانت لا تقل خطراً على الدولة التى تستخدمها منها على الدولة التى تُستخدم ضدها ، وقد تؤدى حرب بالقنابل الهيدروجينية إلى إبادة سكان الكرة الأرضية بأسرها . وهكذا توصل الإنسان أخيراً إلى سلاح يبلغ من شدة تدميره ، أن أحداً لا يمكن أن يفكر فى حرب غير محدودة إلا إذا كان مجنوناً . وكانت هذه فاتحة عصر جديد .

بين أيزنهاور وستيفنسون

أتاحت حملة انتخابات الرئاسة فى سنة ١٩٥٢ فرصة للجدال حول الحرب والدفاع .

إذ كانت الظواهر توحى بأن كلًا الموضوعين والشخصيات المرتبطة بهما فى تضخم . كان الجمهوريون يعيبون على حكومة الديمقراطيين الفساد والحط من المستويات الحكومية ، والضرائب الباهظة والإنفاق دون اكتراث ، والتضخم والتدخل البيروقراطى فى التجارة والصناعة ، والتهاون إزاء العناصر الهدامة ، وفوق هذا وذاك كانوا يعيبون عليها ترك الحرب الكورية جارية دون داع لذلك . أما خصومهم فكانوا يهاجمون الحزب الجمهورى بسبب عناصره الرجعية والانعزالية . وأخذوا يعيدون للأذهان ما كان للكونجرس الثمانين – الذى كان الجمهوريون يسيطرون عليه – من صفحة سيئة ، ويرددون ما خلفته حكومات هاردينج ، وكوليدج ، وهوفر من ذكريات ممضّة .

وكان كل من الحزبين يعانى من انقسامات داخلية خطيرة . فبالنسبة للحزب الديمقراطى ، كان المحافظون الجنوبيون قد أصبحوا موغرى الصدور ضد ترومان أكثر من ذى قبل ، فى حين أن الناخبين من المزارعين أخذوا يفقدون عواطف الولاء التى نشأت فى عهد فرانكلين دى . روزفلت . وقوبل إعلان ترومان – فى شهر مارس – عزوفه عن خوض الانتخابات مرة أخرى بترحاب من كثير من الديمقراطيين باعتبار أن هذا يخلص الحزب من « ربان » تقادم به العهد . وبالنسبة للجمهوريين ، انتعشت آمال « الحرس القديم » – بقيادة روبرت تافت – بفضل هوفر وماك آرثر ، إذا كان معادياً للعناصر التقدمية التى كانت تؤمن بضرورة تقبل المعالم الرئيسية لسياسة النظام الجديد وتأييد الروح الدولية كما تتمثل فى الأمم المتحدة ، ومنظمة حلف شمال الأطلنطى ، وبرامج المعونة الخارجية . وظهر « حرس من الشباب » ، تزعمه أيزنهاور الذى كان بعيداً عن الشباب ، وتجمع وراء الجنرال سياسيون على شاكلة توماس إى . ديوى .

ولقد هيمن أيزنهاور على الساحة الجمهورية من البداية . وقوبل إعلانه – فى شهر فبراير – بأنه مستعد لتقبل الترشيح إذا عُرض عليه ، واستقالته من قيادة منظمة حلف شمال الأطلنطى لينصرف إلى السياسة بتحمس شعبى . ولامراء فى أنه كان أعظم الرجال شعبية فى البلاد ، وكان يدير أموره بحذق الهواة ، كما أن درايته بالتاريخ والسياسة كانت ضئيلة ، وكان إدراكه لاقتصادياتنا ونظام حكمنا ومشكلاتنا الاجتماعية يفتقر إلى الكثير . ولكن الشعب أوتى ثقة هائلة بمقدرته ، وتمكّنه ، ووعيه ، وخبرته الدولية . فلم يفلح الطامعون من المزاحمين ، أمثال هارولد ستاسن وروبرت تافت وإيرل وارين حاكم كاليفورنيا ، فى أن يؤثروا على الجمهور تأثيراً يذكر .

وعندما اجتمع المؤتمر السياسى للجمهوريين فى شيكاغو ، فى أوائل يوليو ، تولى الحاكم ديوى قيادة أنصار أيزنهاور ، فانضم إليهم المندبون المترددون بقوة الاقتناع بأن أحداً لا يملك أن يوقن من الفوز سوى « آيك » ، فاختير الجنرال فى الاقتراع الأول بأغلبية صاخبة ، واختير السيناتور ريتشارد نيكسون ــ عضو الشيوخ عن كاليفورنيا ــ نائباً للرئيس .

وكانت الشخصية الأولى بين الديمقراطيين آدلاى ستيفنسون حاكم إللينوى ــ تمتاز باسم معروف فى الحزب (إذ كان جده نائباً للرئيس فى فترة الحكم الثانية لكليفلاند) ، وبخبرة بمختلف مناصب واشنطن ، وبالخدمة كمندوب لدى الأمم المتحدة . وكان بحكمه لولايته حكماً كفءاً وتقدمياً . وكان ذا مواهب شخصية نادرة ، إذ كان سريع البديهة ، رفيع الثقافة ، بشوشاً ، متوثب النشاط . ولقد دفع ترومان ديوى ليكون مرشحاً ، وعندما انحاز هاريمان بوفد نيويورك إلى صفه فى الاقتراع الثالث ، تم اختياره . وأسرع ستيفنسون بالنزول إلى الحلبة ، فألقى خطاباً أذيع تليفزيونياً ، فأعلن فيه قبوله الترشيح ، وأحدث أثراً عميقاً بسحر عباراته ، وبلاغته ، ومنطقه .

ولم تكن الحملة الانتخابية التى أعقبت ذلك شديدة الاحتدام ، ولا شديدة الضجيج . وعندما انضم أعداد كبيرة من المثقفين إلى قادة العمال فى تأييد ستيفنسون ، حمل الجمهوريون فى إقذاع على « ذوى الثقافة الرفيعة » ، ووصفوهم بأنهم دعاة اشتراكية وتشريعات للطبقة العاملة . وبعد تلكؤ لفترة من الزمن ، التقى تافت بأيزنهاور ، فى أواسط شهر سبتمبر ، فى منزل رئيس الجامعة بجامعة كولمبيا ، وخرج بتصريح بدا أنه انطوى على أن معظم مطالبه توفرت لدى الجنرال . وقام كل من المرشحين للرئاسة بسلسلة من الجولات الطويلة ، واضطلعا بحملات انتخابية إذاعية وتليفزيونية مضنية ، ووصلا مع الخريف إلى درجة الإرهاق . وبينما لقى آيك عناء من الليبراليين لاستعداده للتعايش مع المهيجين الدهماويين من أمثال مكارثى فى ويسكونسين وو ليم إى . جينر فى إنديانا ، عانى ستيفنسون من المحافظين من الناخبين ، بسبب استخدام ترومان العنف ضد أيزنهاور فى مواجهة للناخبين فى إحدى المحطات الصغيرة ، فى شهر أكتوبر .

وكانت هذه أول حملة فى التاريخ قام فيها التليفزيون بدور مهم ، وأول حملة استؤجرت فيها شركات الإعلان والعلاقات العامة على نطاق واسع لتنظيم الدعاية . وكان الجمهوريون يمتازون بدرجة كبيرة فى سخاء الانفاق على الحملة إذ قدرت نفقاتهم

بخمسة وثلاثين مليوناً ، وفى استخدام الصحافة ، إذ كان ثمانون فى المائة من الصحف والمجلات على الأقل مؤيدة لأيزنهاور . ومع أن خطب ستيفنسون كانت ذات محتوى ثقافى نادر ورواء أدبى ، وأن أيزنهاور كان يتولى مركزاً ذا مهابة كبيرة وقدر رفيع ، فإن المعركة كانت فى مجموعها مخيبة للظنون . إذ لم يؤد المجهود الهائل ، الباهظ النفقات ، إلى تنوير أذهان الجمهور بدرجة تذكر . وكانت أفضل معالم الصراع اثنتين : أن ستيفنسون كان يجمع بين الصراحة والتمسك بالمبادىء ، وقد أثبت أنه من أكمل المرشحين فى تاريخنا نزاهة وأمانة . . وأن أيزنهاور تقبل بشجاعة السياسات الرئيسية لحكومات روزفلت وترومان ، قائلاً : « لن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء » .

وكانت النتيجة فوزاً ساحقاً ، لا للجمهوريين وإنما لأيزنهاور . فقد كسب تأييد تسع وثلاثين ولاية ، محرزاً ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٤ صوت فى الانتخابات الشعبية ، و٤٤٢ صوتاً فى المجمع الانتخابى . أما ستيفنسون فلم يكسب تأييد أكثر من تسع ولايات ، وحصل على ٠٠٠ ٣٠٠ ٢٧ صوت شعبى ، و ٨٠ صوتاً مجمعياً . وفاز أيزنهاور بالأغلبية المطلقة فى ولايات تكساس وفلوريدا وفيرجينيا وتنيسى وأوكلاهوما . وسبق سواه من الجمهوريين ، وبشوط كبير باستمرار ، فى كل مكان . فبدافع من شهرته ، وخدماته الجليلة للأمة ، وصفاته الشخصية الجذابة ، كان الناس فى حال عاطفية عبر عنها الشاعر الشعبى : « آيك يعجبنى » .

الحكومة الجديدة

أما أنه كان انتصاراً شخصياً ، وليس حزبياً ، فقد أوضحه فوز الجمهوريين بأغلبية ضئيلة فى الكونجرس . فكان لهم فى مجلس النواب الجديد ٢٢١ إلى ٢١١ ، وفى مجلس الشيوخ ٤٨ إلى ٤٧ . ولو لم تساعد الأغلبية الكبيرة من الأصوات التى ظفر بها أيزنهاور كثيرين من الأعضاء الجمهوريين الذين كانوا على حافة الهزيمة ، لسيطر الديمقراطيون على المجلسين معاً . ولقد أوضح أيزنهاور أن أمله الكبير هو توحيد الحزب ، وتوحيد الأمة ، وتوحيد الدول الغربية . والواقع أن الكثيرين أيدوه كرمز للوحدة القومية والدولية فى وقت كان أهم ما يحتاج إليه العالم هو : أمريكا

متناسقة تساند حلفاً متناسقاً ، حسن القيادة ، لشمال الأطلنطى .

وكان جميع الذين عينهم لمناصب حكومته من المعتدلين والمحافظين ، وكلهم ما عدا واحداً ممن ينطبق عليهم قوانين التجارة والصناعة ، أو المالية ، أو الشركات . وقد اتخذ وزيراً للخارجية جون فوستر دالز النيويوركى ، الذى كان من غلاة الداعين لتوحيد السياسة الخارجية للحزبين ، وكان ممثلاً للولايات المتحدة فى الجمعية العامة للأمم المتحدة . وقد عزّز هذا العمل الروح الدولية للحكومة الجديدة . أما مركز وزير الدفاع ، فكان من نصيب تشارلز إى . ويلسون ، رئيس مجلس إدارة شركة جنرال موتورز . وتولى وزارة المالية قائد آخر من قادة الصناعة والتجارة هو جورج إم . همفرى من كليفلاند . ولم يكن دوجلاس ماكاى الأوريجونى من الميالين لفلسفة المحافظين ، وقد رأس وزارة الداخلية ، كما عين إيزرا تى . بنسون من يوتاه وزيراً للزراعة . وأهم من هذه التعيينات الوزارية جميعاً ، اختيار أيزنهاور شيرمان بى . آدمز مساعداً شخصياً له ، وهو يانكى قح من نيوهامبشاير . وقد أصبح شيرمان ، على مر الزمن ، أقرب ذوى الحظوة لدي أيزنهاور ، فكان فى معظم المسائل الروتينية أقوى سلطاناً من أى عضو فى المحكمة الجديدة .

وكان من الواضح أن الحكومة الجديدة محافظة ، حكيمة ، بعيدة عن الحزبية السياسية الشديدة . وكان من الجلى كذلك أن الأفق الدولى للحكومة فى مثل استنارة أفق حكومة ترومان ولقد عهد بمنصب مدير الأمن المتبادل إلى هارولد ستاسن ، الذى كان يشارك الرئيس المُنْتَخَب و دالز آراءهما بصدد أهمية الاحتفاظ بتحالف غربى متين . وكانت الأمة ، عندما تولى أيزنهاور مقاليد الحكم ، فى أوج الرخاء والنمو الصناعى ، وقد اعتزم أن يستبقيها فى هذه الحال . فإن استقرار العالم الحر كان يستند إلى حد كبير إلى استقرار الولايات المتحدة اقتصادياً وسياسياً .

الفصــل ٢٨

حكومــة أيـزنهـــاور

اتجاهات السياسة

تولى الجمهوريون الحكم لأول مرة خلال عشرين سنة ، وكان ثمة انقلاب قد طرأ على الشؤون الداخلية والعالمية منذ غادر هوفر البيت الأبيض فى ظروف كئيبة . وقد كان رئيس الجمهورية ــ على الأقل ــ مستعداً لقبول هذا الانقلاب .

وما أقل الأمريكيين الذين كانوا قد رأوا من المشهد الخارجى قدر ما رأى أيزنهاور أو فهموا بقدر الوضوح الذى فهم به ضرورة التحام الدول الحرة ضد الهجوم الشيوعى . وقد أعلن فى خطابه الاستهلالى أن لأمريكا رسالة ، هى « القيادة العالمية » ، وأنها ستضطلع بها « بثقة ، وليس بارتباك » . وبينما أنذر الشعب بألا يرتقب تخفيضاً فى الميزانيات أو الضرائب ، وبأن يستعد لتضحيات أكبر ، عاهد أوربا الغربية على استمرار المعونة ، وجاهر بأن الولايات المتحدة كانت مستعدة لتخفيض الرسوم الجمركية لتدعيم التجارة . وأهاب بالأوربيين أن يحملوا نصيبهم من الأعباء المالية ، وأن يمضوا قدماً فى رفع الإنتاج ، وفى تسليح أنفسهم .

وفى الشؤون الداخلية ، أوضح أيزنهاور الخطوط العريضة لآرائه الأساسية فى أول

رسالة طويلة وجهها إلى الكونجرس . فكان راغباً فى الحد من التدخلات البيروقراطية فى حياة الشعب . وكان يؤثر ترك الصناعة والتجارة لتفاعلات القوانين الاقتصادية الطبيعية ، اللهم إلا فى أوقات الأزمات . فالدور الحقيقى للحكومة هو « توطيد الاستقرار الاقتصادى ، وتشجيع النشاط الحر لعبقرية قومنا فى مجال المبادرة الفردية » . وكان تخفيض الديون القومية أهم من تخفيض الضرائب ، ومن الواجب التصدى للتضخم بوجه عام ، بفرض قيود تحدّ من الائتمان ، وليس بتحديد المستويات العليا للأجور والأسعار . أما فى مجال العمل ، فكان الرئيس يؤثر ابتعاد الحكومة عن الاجتماعات التى تتساوم فيها الإدارة مع النقابات ، ما لم يؤدِّ توقف العمال فى بعض المصانع إلى تهديد الصالح القومى . ولقد رأى فى مجال الزراعة أن من المحتمل إذا ما انتهى سريان قانون الإعانات الحكومية الجامدة من أجل تثبيت الأسعار فى سنة ١٩٥٤ ، أن تُستبدَل بها إعانات مرنة . وكان يحبذ تعديل قانون « ما كّاران » التعس الحظ ، وتحقيق توسعات جديدة فى الضمان الاجتماعى . أما فيما يتعلق بموضوع الولاء الذى أثار الاستياء ، فقد اقتفى أثر ترومان فى الإيمان بأن المسئولية الأولى لإبعاد العناصر الهدامة عن الحكومة ، تقع على عاتق السلطة التنفيذية وليس على الكونجرس .

وعلى وجه الإجمال ، كانت آراء أيزنهاور ومسلكه تنم عن الاعتدال ، أو على حد تعبيره الموجز ، كانت آراء ومسلك رجل يؤمن بـ « الليبرالية الديناميكية » ، أى الدافعة للحركة من الطراز المعتدل . كان يحب أن يصف نفسه بأنه يتحرك فى وسط عرض الطريق ، وإن كان الواضح أنه كان يلتزم الجانب الأيمن للوسط . كان يعتبر نفسه موفِّقاً قومياً أعلى ، على استعداد لأن يبذل كل ما فى وسعه للوحدة الحزبية والوحدة القومية معاً . فكان يؤثر البقاء فوق المشاحنات السياسية على غرار ما كان واشنطن يفعل ، وأن ينأى بنفسه عن نضال غلاة الطامعين فى الحكم ، وأن يكون وسيطاً للحد من التطرف أو حَكَماً . وكان معنى هذا أنه لم يكن يبذل جهداً يذكر لقيادة الكونجرس أو توجيه الرأى العام ، وأنه راح يرفض فى حزم وإصرار أن يتيح لمعظم خصومه مجالاً لمنازلته . كان رئيساً من طراز ماكينلى أو تافت . ومن الواضح أنه نظم مزاج الأمة بدقة وإحكام ، فما أتيح لغير نفر ضئيل ممن شغلوا البيت الأبيض أن يظلوا محتفظين بشعبيتهم بقدر ما احتفظ هو بشعبيته طوال سنى حكمه الثمان .

ولقد حققت الدورة الأولى للكونجرس الثالث والثمانين بعض المهام المعتدلة التى

طلب منه أيزنهاور إنجازها . فأقام وزارة للصحة والتعليم والإصلاح الاجتماعى ، عيّن على رأسها مسز هوبى من تكساس . وألغى هيئة تمويل التعمير والإنعاش وأحل محلها « إدارة للمشروعات الصغيرة » ، لها أن تقدم قروضاً لا يزيد كل منها على مائة وخمسين ألفاً من الدولارات . ولقد بسّط النظام الجمركى ، ومدّ أجل برنامج المساعدات الحكومية لتثبيت أسعار السلع الزراعية ، وأجاز مدّ أجل قانون الاتفاقيات التجارية المتبادلة عاماً ، وكان هذا القانون ــ منذ وضعه كوردل هل ــ قد قام بدور كبير فى تنشيط التجارة الدولية . كذلك أقنع أيزنهاور الكونجرس ــ وإن خاض صراعاً من أجل ذلك ــ بأن يعتمد أربعة بلايين ونصف البليون من الدولارات للمعونة الخارجية ، مما أضيف إليه من الأرصدة التى لم تنفق من الاعتمادات السابقة ، فبلغ مجموع المبالغ المتوفرة ستة بلايين وستمائة مليون دولار .

ولم يجز الكونجرس تدابير أخرى كان الرئيس يبتغيها ، مثل الاعتراف بهاواى كولاية ، وتعديل قانون تافت ــ هارتلى . بيد أن أيزنهاور كان ميالاً إلى المضى وفقاً لخطة مرسومة . كان يعتقد أنه لابد من الدراسة لمدة عام قبل إصدار توصيات نهائية فى بعض المجالات الخطيرة ، كالسياسة الزراعية . ولم يكن ميالاً إلى دفع الكونجرس بحدّة ، كما فعل تيودور روزفلت وويلسون . ومع أن الإعجاب والحب الشعبيين لأيزنهاور ظلا فى نمو مطرد ، فإنه تعرض لانتقاد حاد ، إذ اتهم بالافتقار إلى الكد والمثابرة ، وبالتردد فى صوغ آراء جديدة وفى القيادة .

إنهاء الحرب الكورية

كان أيزنهاور قد وعد أثناء الحملة الانتخابية بأن يوقف الحرب الكورية القاسية الطاحنة . وزاد من تيسير هذه المهمة وفاة ستالين وملل الصينيين من الحرب . بيد أن هناك خطوات إيجابية من الحكومة ساعدت على إعلان قيام هدنة . إذ أن الحكومة أطلعت الشيوعيين ، عن طريق نهرو رئيس وزراء الهند ، على أن قوات الأمم المتحدة ستشرع فى قصف خطوط الإمدادات الصينية ، ما لم ينته الصراع فى القريب . أى أن أيزنهاور ودالز كانا على استعداد لأن يستخدما الأسلحة الذرية فى الصين أكمل استعمال

لتحقيق غاياتها ، ولو جازفا فى ذلك باستدراج روسيا إلى النزاع وإشعال حرب عالمية ثالثة ! وهنا لانت قناة الحكومة الصينية ، إما لأنها كانت تبتغى هدنة حقاً ، وإما لأن الحكومة الجديدة فى موسكو ــ فى أعقاب حكومة ستالين المتحمسة للحروب ــ وجهت إلى بكين ضغطاً ، وإما لأن نفوذ نهرو كان ذا أثر . وبموجب الهدنة التى أعلنت يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٣ ، تخلى الشيوعيون عن إصرارهم المتعنّت بوجوب إعادة الأسرى الذين فى أيدى الأمم المتحدة إلى السيطرة الشيوعية قسراً ، ولو كانوا غير راغبين ، بإصرار متهّوس . وحُدّد خط بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية ، أتاح لهذه الأخيرة كسباً صافياً مقداره حوالى ١٥٠٠ ميل مربع . فضلًا عن هذا ، وضعت تدابير نظام للتفتيش فاز بفضل كوريو الجنوب بنوع من الإنذار المسبّق فى حالة حدوث أى هجوم جديد . وكان المفترض أن يعقب الهدنة فوراً مؤتمر سياسى ، فمعاهدة وصلح دائم . بيد أن الأحداث أثبتت أن هذا كان سراباً . فقد حظى العالم بإنهاء القتال ، ولكنه لم يحظ بتسوية نهائية ، ولم تظفر كوريا بالوحدة .

بيد أن العالم الحر كان قد أحرز كسباً هائلاً يتوازن مع كافة الأرواح التى فقدها . . إذ أنه برهن على أن بوسعه أن يصد العدوان الشيوعى ، وأنه عازم على ذلك .

وعندما عقد مؤتمر فى جنيف من تسع عشرة دولة ، فى سنة ١٩٥٤ ، لمعالجة مشكلتى كوريا والهند الصينية معاً ، انتهى هذا المؤتمر إلى خسائر للعالم الحر تفوق المكاسب . فقد أزيحت المسألة الكورية جانباً لاستحالة الاتفاق بصددها ، إذ أصرّ الغرب على إجراء انتخابات حرة ، وهذا مُنكر يحرّمه الشيوعيون . ولقد قسمت الهند الصينية الساحلية (فييتنام) عند وسطها ، فأُسلم النصف الشمالى الذى لقيت فيه القوات الفرنسية الهزائم تباعاً على أيدى الثوّار الشيوعيين إلى « الفييت مينه » أو الحُمْر . أما النصف الجنوبى فجُعل دولة مستقلة إلى حين . إذ لم يكن لأحد أن يعرف للمنطقة ، أو لجنوب شرق آسيا بأسرها ، مصيراً . وكان الأمر المؤكد الوحيد هو أن اثنى عشر مليوناً من الناس فى فييتنام الشمالية قد نقلوا إلى ربقة الشيوعيين . ولقد أقضّ هذا راحة بال كثيرين من الأمريكيين ، وبادر الوزير دالز إلى اتخاذ خطوات لعقد مؤتمر للدول الحرة فى المنطقة بمانيلا ، حيث أنشأوا منظمة حلف جنوب شرقى آسيا ، التى أريد بها أن تكون الندّ المقابل لمنظمة حلف شمال الأطلنطى ، بيد أنها لم تؤت متانة بنيان هذه الأخيرة .

وأقدم الاتحاد السوفييتى ، تحت رؤسائه الجدد على حملة للسلام كان من الجلى أنها

تفتقر إلى الإخلاص الصادق ، ولكنها بهرت بعض المناطق المحايدة المتذبذبة . ومن المحتمل أن تمرداً قام به عمال ألمانيا الشرقية فى ١٧ يونيو سنة ١٩٥٣ ، وخلافاً دب بين القادة الشيوعيين ، كانا ذوى شأن فى هذه الحملة . وكان الغرب على استعداد لها . ففى أواخر سنة ١٩٥٣ ، عرضت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا على روسيا عقد اجتماع لقادة السياسة الخارجية فى وقت مبكر . فلما رُفض هذا الاقتراح ، لم يفلت أيزنهاور المبادرة ، فعرض فى خطاب قوى ألقاه فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فى ديسمبر ، أول علاج مهم جديد للمشكلة الذرية منذ رفض مشروع باروك (باروخ) . واقترح أن تجمع كل الحكومات المعنية بالدرجة الأولى جميع اليورانيوم والمعادن القابلة للانشطار النووى فى مستودع مشترك كبير تتولى إدارته الأمم المتحدة . وعلى الوكالة التى تتولى ذلك أن تحرص على استخدام هذه المواد فى الطب والزراعة والهندسة ، وفى توفير الطاقة الكافية فى أرجاء من الكرة الأرضية تفتقر إلى الفحم أو إلى الطاقة الكهربائية المتولدة من المياه . ولقد أبدت روسيا فتوراً فى بادىء الأمر ، ومع أنها اشتركت بعد ذلك فى مناقشات للموضوع ، فإنها لم تبد ميلاً لاتخاذ خطوة حقيقية واحدة .

نشاط الكونجرس

استطاعت الحكومة بالصبر ، ولكن دون جهود مضن فى الواقع ، أن تظفر وئيداً بجزء من البرنامج الذى عقد أيزنهاور عليه العزم ، فكان فى وسعه فى نهاية سنة ١٩٥٤ أن يقطع بأنه منح الأمة بعض الإجراءات الطافرة بقوة الدفع (الديناميكية) . وكان أهم تشريعات العام مجموعة كاملة لإصلاح النظام الضريبى الاتحادى بأكمله ، هى الأولى من نوعها منذ عهد رذْرفورد بى . هايز . ووجدت التجارة والصناعة فيها عاملاً مشجعاً ، إذ كانت تكفل إعفاءات أكبر وأكثر مرونة من ذى قبل لاستهلاك أدوات الإنتاج . كما أنها منحت الصناعة معاملة متحررة (ليبرالية) بشأن نفقات البحوث ، وزادت من التعويض عن العبء الضريبى من نواح متعدد ، وإن لم تمس الامتيازات الداخلة فى صلب القانون . كذلك انتصر الرئيس فى سعيه لتقرير إعانات مرنة لتفادى أسعار المنتجات الزراعية الرئيسية . وكانت سياسة الحكومة تهدف إلى تخفيض الإعانات

ببطء واعتدال ، حتى تيسر الانتقال إلى النظام الجديد . وقد حاولت عبثاً أن تخفض الفائضات الضخمة والمبدَّدة من المحصولات المحتَجزَة فى مخازن الحكومة ، بيد أن تذمر الزراعيين أخذ ينمو ، وظلت مشكلة الزراعة فى جوهرها بدون أى حل .

ومن الجلى أن قرار الرئيس بالتخلى عن الحق الاتحادى فى موارد النفط فى البقاع المغمورة تحت المياه الساحلية بتكساس ولويزيانا وكاليفورنيا ، كان متمشياً مع تفضيله رقابة الولاية على الرقابة الاتحادية ، وللنشاط الخاص على النشاط العام فى المجال الاقتصادى . . وهو موقف كان أيزنهاور قد أعلنه فى حملته الانتخابية . ولقد بدا هذا للكثيرين تراجعاً غير موفق عن سياسات صيانة الموارد الطبيعية التى كان الرئيسان روزفلت [1] يعملان من أجلها بنشاط وحمية . وكانت المحكمة العليا قد أعلنت أن الموارد النفطية المائية ملك للأمة ، وقد عهد بها الرئيس ترومان إلى البحرية بوصفها من الاحتياطيات المدّخرة . فإذا أيزنهاور يردّها إلى الولايات . ولقد كشفت الحكومة عن اشتباهها فى وجود « تسلل إشتراكى » وتفضيلها تشجيع الحافز الفرد أو الشركات بتخفيضها الاعتمادات المخصصة لهيئة وادى تنيسى ، وتأييدها نمو الموارد المائية للكهرباء ذات الطابع الخاص على المشروعات العامة ، وبالسماح بتحويل أراضى الرعى إلى أيدى الأفراد ، وبإلحاحها فى استثناء الغاز الطبيعى من اللوائح الاتحادية التنظيمية . وقبل أن يبرح أيزنهاور منصبه مباشرة ، اعترض على مشروع قانون نص على التدخل القومى للحدّ من تلويث الأنهار بفضلات المصانع ، على أساس أن هذا من مسئوليات الولايات والهيئات المحلية فى المقام الأول ، وليس من مسئوليات الحكومة العامة .

ولقد أيّد الحزبان فى الكونجرس برنامج الرئيس لتوسيع نطاق قوانين الضمان الاجتماعى وزيادة منافعها . كذلك ساعداه فى مايو سنة ١٩٥٤ على تنفيذ تدبير طال إرجاؤه للمشاركة مع كندا فى إنشاء الطريق المائى بين بحيرة سانت لورنس والبحيرة الكبرى . وكانت كندا على استعداد لأن تنشىء الطريق المائى وحدها ، فى حين كانت الولايات المتحدة تودّ أن يكون تحت إشراف دولى . وقد تم إنشاء الطريق المائى ، وأقيم عليه ١٥ هويساً جديداً ، وافتتح للملاحة مع مقدم سنة ١٩٥٩ . واستطاع تآلف بين الحزبين ، كان للديمقراطيين فيه حظ يفوق ما للجمهوريين ، أن يخذل تعديل بريكر

(١) تيودور وفرانكلين روزفلت ــ المترجم .

للدستور . وكان مشروع بريكر يقضى بألا تصبح أية معاهدة أو اتفاقية دولية قانوناً سارياً فى الداخل بدون تشريع من الكونجرس (ما لم يقرر مجلس الشيوخ فى المناسبة ، التجاوز عن قاعـدة ثلثى الأصوات) . وكان التعديل خليقاً بأن يشل سلطة الرئيس فى إبرام المعاهدات بدرجة كبيرة ، وأن يعيد الولايات المتحدة إلى الوضع الذى كان سائدا فى فترة الاتحـاد لولايات الجنـوب . وفى اللحظات الأخيرة ، أدى تدخل الرئيس إلى خذلان التعديل بأغلبية ضئيلة .

وبحركة متقطعة ولكنها قوية ، تسنى سحق مكارثى نهائياً فى سنة ١٩٥٤ . وكان قد اكتسب مركزاً ذا نفوذ قوى برئاسته اللجنة الفرعية للتحقيقات فى مجلس الشيوخ . فازداد عجرفة ، مما انزلق به إلى خطأ إهانة شخصية عامة ووطنية ، هى شخصية وزير الجيش ، من أجل مسألة تافهة ، هى ولاء أحد أطباء الأسنان بالجيش . فقد رد الجيش على ذلك بمجموعة من الاتهامات المضادة ، فتقرر إجراء تحقيق على أيدى لجنة أخرى تابعة لمجلس الشيوخ . وظلت الأمة طيلة شهرى أبريل ومايو ، وشطراً من يونيو ، تراقب إجـراءات هذا التحقيق بوسـاطـة التليفـزيون ، فازداد اشمئـزازها من ميول مكارثى الاستعـراضية وتهوره العنيف . ولقد عرض جوزيف ويلش ، كبير محاميى الجيش ، نقاط ضعف قضية السيناتور مكارثى بطريقة تلحق بها أبلغ الضرر . وتدخل أيزنهاور فى إحدى المراحل ، إذ طلب مكارثى أن يمده الرئيس بوثائق معينة كانت تعتبر سرية بحقّ ، فأكد الرئيس بقسوة لاذعة أنه يصوّن حقوق الهيئة التنفيذية « التى لا يمكن لأى فرد يسعى إلى أن يضع نفسه فوق قوانين بلادنا أن يستغلها » . وعندما شن مكارثى هجوماً شخصياً لا سبيل لتبريره ضد شاب من مساعدى ويلش ، تحول الشعور العام عنه نهائياً .

وكـانت النتيجـة تعيين لجنـة خاصـة جديدة فى مجلس الشيوخ برئـاسة آرثر فى . واتكينز ، عضو المجلس عن ولاية يوتاه ، قامت بالتحقيق فى مسلك مكارثى ، فى حدود ضيقـة ، دون أن تتناول الافتراءات الفاضحة التى جعلت منه عدواً خطيراً للحقوق المدنية ولسمعة الأمة دولياً ، وإنما اقتصر التحقيق على انتهاكاته لقواعد اللياقة المأثورة عن مجلس الشيوخ . بيد أنها استطاعت ، بالرغم من ضيق مجال عملها ، أن تغوص فى أعـماق الأدلـة ، وأن تخرج بتقـرير أوصى صراحـة بأن يوجـه المجلس لوماً رسمياً إلى مكــارثى . وأقـر اللوم بأغلبية ٣ إلى ١ من الأصـوات ، فاختفى المـدان عن مسرح

الأحداث العامة تقريباً فى خيبة تامة ، ومات نفوذه بأكمله تقريباً . وكان مقدَّراً له أن يفقد رئاسته للجنة على أى الأحوال ، إذ أن الديمقراطيين استردوا السيطرة على المجلسين فى انتخابات الكونجرس فى خريف ذلك العام

ولقد بدأ سيل التهوس بصدد الخطر الشيوعى المزعوم فى الانحسار فى كل مكان آخر كذلك . إذ أخذت منظمات ــ مثل الاتحاد الأمريكى للحريات المدنية ، وصندوق الجهاد لأجل الجمهورية ــ فى إبراز ما هناك من خطر كامن على الحريات التقليدية فى كثير من الهياج ضد « الراديكالية » . وعادت المحكمة العليا ، فى سلسلة من الآراء المصوغة ببلاغة ، تعزز بحزم صلاحية قانون الحقوق ، وتحد من تطرفات لجان الكونجرس ، كافلة حق المواطنين فى جوازات السفر مطالبة بالإجراءات القانونية الواجبة حتى فى التحقيقات المتعلقة بالأمن ، وقاضية على الرقابة التى تفرض بالتشريع أو بالإرهاب .

أيزنهاور فى جنيف

كان على الولايات المتحدة أن تتصدى بكل جهدها لأزمة إثر أزمة ، إزاء عدم انفراج التوترات العالمية . فإن تفجير قنبلتين هيدروجينيتين فى المحيط الهادى ــ فى سنة ١٩٥٤ ــ لم يمنح البلاد شعوراً بالأمن ، إذ أعلن الروس أنهم هم الآخرين قد امتلكوا القنبلة الهيدروجينية . ولقد بذلت حكومة أيزنهاور قصارى جهدها لتدعيم دفاعات أوربا الغربية . وفى صيف سنة ١٩٥٤ ، اقترب من مرحلة القبول العام مشروع معاهدة لإقامة جماعة الدفاع الأوربى بإدماج القوات العسكرية لدول ست « فرنسا ، وألمانيا الغربية ، وإيطاليا ، وهولندا ، ولكسمبورج ، وبلجيكا) فى جيش واحد . ثم خذلت الجمعية الوطنية الفرنسية المعاهدة بما وصفه أيزنهاور بأنه « نكسة كبرى » لسياستنا . وزاد من أسى أمريكا أن الاتحاد السوفييتى كان يتوق فى استماتة إلى تهشيم « جماعة الدفاع الأوربى » . بيد أن منظمة بديلة ، باسم الاتحاد الأوربى ظهرت إلى الوجود بمبادرة من أنتونى إيدن ، وزير الخارجية البريطانى ، مع تعهد بريطانيا العظمى بأن تبقى قوات كبيرة من قوتها فى القارة الأوربية ، ما لم تنشب حالة طارئة حادة فيها وراء البحار .

إذ ذاك مضت إعادة تسليح ألمانيا الغربية قدماً ، تحت إشراف الاتحاد . فمنحت هذه الدولة حق إنشاء جيش من نصف مليون جندى ، يتولى قيادته القائد الأعلى لحلف شمال الأطلنطى ، مما أثار فزع جاراتها الشرقية ، بل وفرنسا . وكان نصف هذا العدد من الجنود كافياً لأن يؤلف جيشاً قوياً ، إذا ما ضُمّ إلى الفرق الأمريكية والبريطانية الموجودة فى أوربا ، وإلى القوات الإيطالية والفرنسية وقوات « البنيلوكس » . وقد تم هذا التدبير الجديد فى أبريل سنة ١٩٥٥ .

وعقد فى يوليو التالى اجتماع تاريخى فى جنيف ، لقادة الدول الغربية الرئيسية وقادة السوفييت : أيزنهاور ، وإيدن (وقد أصبح رئيساً للوزراء) ، ودالز ، وفور ، ورئيس الوزراء السوفييتى بولجانين ، ورئيس الحزب الشيوعى نيكيتا خروشوف ، ووزير الدفاع يورجى زوكوف . وكان هدفهم استطلاع الفرص للأسس التى يمكن أن يقوم عليها اتفاق بين بلادهم . وكان نزع السلاح وتوحيد ألمانيا هما الموضوعين الرئيسيين . وقد قال أيزنهاور : « سنكون متسامحين واسعى الصدور ، لأن هذه الدولة لا تسعى إلى فرض نهجها فى الحياة على سواها » . وسرعان ما أصبح الرئيس الشخصية المهيمنة على المؤتمر ، وأحدث أثراً مواتياً ممتازاً لدى الرأى العام العالمى ، بصدق عرضه لمشروع « السموات المفتوحة » للتفتيش الذى كان نيلسون روكفلر ومجموعة من الخبراء قد وضعوه ، وهو مشروع يَسمح لأجهزة مفوَّضة بالقيام بجولات استطلاعية تصويرية مستمرة من الجو للدول الكبرى ، على أصول وفى حدود يُتَّفَق عليها . وقد أعلن أيزنهاور أن أمريكا مستعدة لأن تبيح سماء مساحتها بأكملها للتصوير من الجو ، إذا قبلت روسيا أن تفعل المثل ، للتأكد من عدم تجاوز الأسلحة الحدود المتعاهَد عليها . ولقد ولّدت صراحة تبادل الآراء فى المؤتمر بفترة وجيزة جواً مبشِّراً بالأمل ، حتى إن الناس راحوا يحيّون « روح جنيف » . بيد أن عموميات الجلسات لم تتحوّل إلى خطوات عملية قط ، وسرعان ما تبخرت الروح .

انتخابات عام ١٩٥٦

كان الناس قد بدأوا يتحدثون عن الانتخابات الرئيسية المقبلة ، عندما أصيب أيزنهاور فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٥ بأزمة قلبية . ووضعت سرعة تعافيه نهاية للحديث عن أنه

قد لا يُرشح مرة أخرى . فقد رأى قبول إعادة ترشيحه إذ كانت قد بقيت ثمة إجراءات جديرة بالتحقيق . وكان يرجو أن يعزّز سيطرة السياسة الجمهورية الجديدة الليبرالية ، وقد بدا أن مكانته الدولية كانت ذات نفع ، وقد اتفق مع قادة الحزب على أنه « الجمهورى » الوحيد القادر على الفوز الأكيد فى الانتخابات . وزاده ارتياحاً أنه أعد الحسابات الختامية للميزانية لسنة ١٩٥٥ - ١٩٥٦ ، فأثبت فائضاً صغيراً . ولقد ثار بعض المعارضة لإعادة ترشيح نيكسون نائباً للرئيس ، ولكنها انصهرت أمام شمس رضاء أيزنهاور . وسرعان ما ثبت أن شعار : « إننا نؤثر آيك » قد أثار شعوراً واسعاً .

وولى الديمقراطيون وجوههم مرة أخرى صوب زعيمهم المبرز آدلاى ستيفنسون . وقد دعا ستيفنسون ، فى خطاب بليغ أعلن به قبوله الترشيح ، إلى « أمريكا جديدة » تكرس جهودها للسلم العالمى ، ومحو الفقر ، وتحقيق الحرية للجميع دون مراعاة لعنصر أو عقيدة . وشهدت الأيام الأخيرة للحملة أنظار الأمريكيين تتحول فجأة إلى شؤون الشرق الأدنى . فقد استولى حاكم مصر الجديد ، البكباشى جمال عبد الناصر ، على قناة السويس وهدد إسرائيل بالحرب ، ليعزز مركزه المتأرجح . وقبل أن يتمكن عبد الناصر من شن هجوم ، غزا جيش إسرائيلى الأراضى المصرية فى ٢٩ أكتوبر ، وبادرت بريطانيا وفرنسا بتقديم إنذار إلى الحكومة المصرية على الفور ، اردفتاه بعمل عسكرى متعجل . وفى الوقت ذاته ، انفجرت طاقة التذمر المختزَنة فى المجر الخاضعة للسيطرة السوفييتية . هذان الانفجاران فى الخارج أفادا قائمة مرشحى الحزب الجمهورى ، إذ دعماها بالحجة القائمة « لا تغيروا الجياد فى وسط مجرى الماء » . ومع أن ستيفنسون شن حملة امتازت بتحليل قدير للمشكلات القومية ، فإن أيزنهاور فاز بانتصار ضخم . فأحرز تأييد واحدة وأربعين ولاية مقابل سبع لستيفنسون ، واستأثر بأكثر من سبعة وخمسين فى المائة من الأصوات الشعبية ، بل إن قائمة الولايات التى انحازت له ضمت الولايات الجنوبية الخمس : فيرجينيا ، وفلوريدا ، وتكساس ، وتنيسى ، ولويزيانا . ومع ذلك فقد احتفظ الديمقراطيون بسيطرتهم على الكونجرس بأغلبية حاسمة فى مجلس النواب ، وأغلبية ضئيلة فى مجلس الشيوخ . ومن الجلى أن الانتخابات أسفرت عن انتصار شخصى وليس حزبياً .

الشـؤون الخارجـية :
أزمة السويس وما بعدها

كان على الحكـومـة أن تواجـه ، عقب إعـادة انتخـاب أيزنهاور مباشرة ، مضاعفات الاعتداءين الإسرائيلى والأنجلو- فرنسى على مصر . فقد كانت للولايات المتحدة بعض المسئولية عن الاتجـاه المنكود للأحداث . كانت وزارة الخارجية غير راضية عن نظام الحكم شبه الديكتاتورى الذى أقامه جمال عبد الناصر فى مصر ، فكانت ترجو سقوطه . وفى أواسط شهـر يوليو سنـة ١٩٥٦ ، ألغت واشنـطن قرضـاً قدره ٧٠ مليون دولار للمسـاعدة فى الإنفاق على إنشاء سد عالٍ على النيل فى أسوان . وكانت هذه خطوة سببت للقاهرة غماً شديداً . فإن هو إلا أسبوع حتى أذهل عبد الناصر الدول الغربية بتأميم قناة السويس ، التى ظلت زمناً طويلاً خط مواصلات حيوياً بين أوربا وموارد النفط فى الشرق الأوسط ، وبين كل من بريطانيا وفرنسا والدول التابعة لهما فى المحيطين الهادى والهندى .

وفى هذه اللحـظة بالذات ، غزت إسرائيل شبه جزيرة سيناء ، ودفعت بريطانيا وفرنسا بجنود فى منطقة القناة . ولقد غاظ واشنطن أن الحركة الأنجلو- فرنسية اتخذت دون أى إنذار مسبق ، إذ أن العمل المتعجل تجاهل الحاجة إلى اتحاد محكم بين أعضاء منظمة حلف شمال الأطلنطى ، فضلاً عن أنه وهب الشيوعيين مادة جاهزة للدعاية ضد « الإمبرياليين » و« المعتدين » الغربيين ، وهى مادة زاد من نفعها أنها تيسرت بعد الثورة الشعبية فى المجـر ، التى قمعها الجنود السوفييت بوحشية قاسية . فتدفق على النمسا ويوغوسلافيا آلاف من المجريين الهاربين من الإرهاب ، فى حين قامت مظاهرات مهتاجة ضد السـوفييت فى بولندا ، فى الوقت ذاته . ومن الطبيعى أن الروس استغلوا قضية السويس كل استغلال ممكن ، وقدر لمجلس الأمن بالأمم المتحدة أن يشهد فى ٣١ أكتوبر المشهد الغريب : مشهد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى يصوّتان معاً محبذين قراراً لوقف إطلاق النار ، نقضته فرنسا وبريطانيا إذ ذاك .

ورفض أيزنهاور اقتراحاً لرئيس الوزراء بولجانين بتدخل عسكرى مشترك من الروس والأمـريكيين باعتباره « أمراً لا سبيل للتفكير فيه » ، و« محاولة واضحة لتحويل انتباه العـالم عن الفاجعة المجرية » . وعندما تصدت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فى أوائل

نوفمبر ، للموقف بالموافقة على قرار معدّل لوقف إطلاق النار ، بأغلبية ٦٤ صوتاً إلى ٥ ، انصاعت بريطانيا وفرنسا ، وما لبثتا أن سحبتا جنودهما فى صَغَار ليس بالقليل . وقد دبـرت الولايات المتحدة لتيسير ذلك مجمعاً نفطياً لتزيد من إمداد بريطانيا بالبترول ، إذ كانت القناة مغلقة بسفن أغرقها المصريون . ومع أنه كان من العسير حمل القوات الإسرائيلية على مبـارحة شبه جزيرة سيناء ــ إذ أصرت إسرائيل على ضمانات لتمتعها بحق المـلاحـة فى خليج العقبة ــ فإن عام ١٩٥٦ لم ينته حتى كان الموقف فى الشرق الأوسط مستقراً إلى حد كبير . ولقد أثبت عبد الناصر ، الذى تلقى درساً قاسياً ، قدرته على إدارة قناة السويس بكفاءة حملت الدول الأخرى على قبول سيطرته عليها ، مقابل وعود ضمنية بحسن السلوك . بيد أنه تشبث برفضه فتح القناة للسفن الإسرائيلية ، فأخفق دالز فى الوفاء بضماناته لإسرائيل .

وفى هذه الأثناء ، أقام الروس فى المجر حكومة عميلة جديدة ، بعد قتل آلاف من العمال والمثقفين ، واغتيال إيمرى ناجى رئيس الحكومة الديمقراطية القصيرة العمر . كذلـك استعـادت السلطات السـوفييتية تسلطهـا على بولنـدا ، بعـد إخمـاد القلاقل الشديدة ، وإن اضطرت إلى بذل تنازلات هامة للشعب البولندى الأبىّ .

وأدى خذلان هبوط القوات الأنجلو ــ فرنسية فى مصر إلى خلق فراغ فى النفوذ فى الشرق الأوسط ، فرأى أيزنهاور ودالـز أنه لا غنى للولايات المتحدة عن أن تملأ هذا الفراغ . وقد تضمنت رسالة رئاسية خاصة ، فى ٥ يناير سنة ١٩٥٧ ، ما أصبح معروفاً باسم مبـدأ أيزنهاور ؛ ولقـد قال الـرئيس : « نحن لا ننشـد العنف ، بل نسعى للسلام » . ومع ذلك فقد طلب إلى الكونجرس أن يخوله سلطة استخدام القوة فى الشرق الأوسط إذا دعت الضرورة « لتحقيق وحماية وحدة أراضى أية دولة تطلب معونة من هذا القبيل ضد عدوان مسلح صريح من أية دولة تحت سيطرة الشيوعية الدولية . كذلك طلب ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دولار لتقـديم المسـاعـدة العـاجلة لدول المنـطقـة فى التنمية الاقتصادية والدفاع . واستجاب مجلس النواب على الفور ، ومع أن حفنة من أعضاء مجلس الشيوخ أبدوا معارضة شديدة ، فإن هذا المجلس وافق بدوره على مبدأ أيزنهاور فى أوائل سنة ١٩٥٧ ، بأغلبية ٧٢ صوتاً إلى ١٩ . ومع أن الغرب حبّذ المبدأ الجديد ، فإنه أثار عداء فى الشرق الأوسط ، ونقداً حاداً من نهرو ، وعملا مضاداً فورياً من السوفييت .

الزنجي وحقوقه

كان المواطنون الزنوج يبدون ، طيلة هذا العقد من الزمن ، روحاً نضالية جديدة في معركتهم من أجل الحقوق المدنية والعدالة الاجتماعية . ففي سنة ١٩٥٥ ، بدأ الزنوج في مقاطعة الحافلات « الاتوبيسات » العامة في مونتجمرى ، بولاية ألاباما ، لأن خطوط الحافلات كانت تفرّق بين العناصر العِرْقية وفقاً لقانون الولاية ولوائح المدينة . ولكن الخطوط رزحت تحت تناقص الدخل . واستمرت المقاطعة في إصرار طيلة عام ١٩٥٦ ، وإن كانت سلطات البيض قد حاولت إيقافها بالاعتقالات وبأحكام السجن ، كما أن قاضياً واحداً حرّم على الزنوج استخدام السيارات بالمشاركة [١] في الانتقالات . وأخيراً ، قضت المحكمة العليا ، في نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، بعدم صلاحية قوانين التفرقة باعتبارها انتهاكات للتعديل الرابع عشر للدستور ، وبذلك نبذت مرة أخرى مبدأ المساواة مع الفصل بين العناصر في المرافق ، الذى قضت به المحكمة لأول مرة في قضية « بليسى ضد فيرجسن » في سنة ١٨٩٦ . ولقد أحبطت سلسلة من قرارات المحكمة جهود الولايات الجنوبية للقضاء على التدخل في نشاط الجمعية القومية لتحسين أحوال الملوّنين ، إذ دعمت هذه القرارات حق أى مواطن في الانضمام لهذه المنظمة . ولقد ازدهرت الجمعية تحت وطأة الاضطهاد ، وشنت في سنة ١٩٦٠ حركة مقاطعة قوية الأثر ضد متاجر التجزئة التى كانت تمارس التفرقة في أقسام الوجبات الخفيفة بها .

وكان حق الانتخاب مكفولاً بمقتضى التعديل الخامس عشر للدستور ، ولكن الزنوج كانوا يُحرمون منه بإصرار ووقاحة شنيعة ، ثم اقترح أيزنهاور في سنة ١٩٥٦ تشريعاً لحمايته ، فكانت خطوة ساعدت على استرجاع كثيرين من الزنوج إلى الحزب الجمهورى في انتخابات الخريف . وجدّد الرئيس توصيته في العام التالى بعبارات أشد تأكيداً . ومع أن شيوخ الجنوب قاموا بمعارضة غاضبة ، فإنه ظفر بتأييد الحزبين ، وأجاز كل من المجلسين في نهاية الأمر مشروع قانون معتدلاً بأغلبية ساحقة . وبهذا حظى أيزنهاور بالإرضاء إذ وقع في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٧ أول قانون للحقوق المدنية منذ عهد حكومة جرانت . ولقد أقام القانون الجديد لجنة للحقوق المدنية لها سلطة استدعاء الشهود في

(١) اشتراك عدد من الأفراد في استئجار سيارة يتقاسمون أجرها ــ المترجم .

تحقيقاتها بصدد كافة الانتهاكات لحقوق المواطنين فى الانتخابات ، الانتهاكات القائمة على اللون أو العنصر أو الـدين أو الأصل القومى ، على أن ترفع اللجنة تقاريرها إلى الرئيس . كذلك نص القانون على مساعد للمدعى العام يتولى قسماً خاصاً بالحقوق المدنية فى وزارة العدل ، أنيطت به مسئولية اتخاذ الإجراءات القضائية فيما يتعلق بأى خرق للقانون . وسار تنفيذ هذا القانون ببطء وخطوات غير متساوية ، ولم ينقض وقت يذكر حتى تبين أنه لابد من قانون أشد ، إذا أريد للزنجى أن يحظى بحق الانتخاب .

ولا يقل عن هذا أهمية الحق فى المساواة فى التعليم . وكانت المعركة فى هذا المضمار ضارية وطـويلة . ففى ١٧ مايو سنة ١٩٥٤ ، أصدرت المحكمة أهم قرار فى تاريخ العلاقات العنصرية ، فى قضية « براون ضد توبيكا » . وعبّر كبير القضاة وارين عن رأى هيئة المحكمة بالإجماع ، فأعلن أنه لابد من إنهاء التفرقة العنصرية فى المدارس العامة . ونبذ القرار المبدأ القديم : مرافق « منفصلة ولكنها متساوية » ، إيماناً بأن الفصل فى حد ذاته مجافاة للمساواة ، ودعا سلطات التعليم فى الولاية وفى الأوساط المحلية إلى إنهاء التفرقة « بكل سرعة يمكن تدبيرها » . واضطلعت سلطات التعليم على طول الحدود ، من بلتيمور إلى مدينة كنساس فإلى أعماق تكساس ، بتطبيق هذا القرار ، بتدبير وروية أكثر منها بسرعة فى بعض الأحيان . بيد أن خطًّا من المقاومة الحاقدة امتد من فيرجينيا حتى لويزيانا . وفى سنة ١٩٥٦ ، قبلت جامعة ألاباما بأمر من المحكمة فتاة كانت أول طالبة زنجية بها ، بيد أنها انصاعت لعنف غوغائى وفصلتها . ولقد سنت ثمان ولايات جنوبية فى سنة ١٩٥٦ قوانين متباينة الأنواع استهدافاً للإبقاء على التفرقة ، وكانت كلها تقريباً مجافاة صريحة للدستور . ثم حدث انفجار للعنف فى ليتل روك بولاية أركنساس ، فى سنة ١٩٥٧ .

كان لمجلس المـدارس فى تلك المدينة قد عنى باتخاذ استعدادات مدروسة لإلحاق تسعـة من الـزنـوج بمدرستها الثانوية المركزية ، وتوقع معظم الناس أن يجرى إدماج العناصر فى هدوء . ولعل الأمر كان يمضى على هذا النحو ، لولا أن الحاكم أورفال إى . فاوبس ، بث الحـرس القـومى حول المـدرسـة ، فى اليوم السـابق على افتتاح الـدراسة ، ليمنع الصغار الزنوج ، زاعماً أن هذا كان إجراء ضرورياً للحيلولة دون القلاقل الغوغائية . وقد أغرى هذا أنصار التفرقة من خارج المدينة بالتجمع وإحداث الاضـطراب المـرتقَب . وفى ٢٣ سبتمبر ، أمر الرئيس أيزنهاور كل المعرقلين للسلطة

القومية فى ليتل روك بأن تنصرف وتتفرق . فتحدى فاوبس الحكومة الاتحادية . وبهذا أعاد تدعيم مبدأ « اعتراض الولاية » ، الذى كان كالهون قد نادى به ، ولكن الحرب الأهلية طوّحت به إلى نسيان غير رسمى . ولم تكن لدى الرئيس أيزنهاور أية رغبة فى التساهل إزاء مثل هذا التحدى ، فأمر على الفور بضم الحرس القومى بولاية أركنساس للخدمة الاتحادية ، واستخدامه فى تعزيز سلطة المحكمة ، وأتبع هذه الخطوة بإيفاد ألف من جنود المظلات التابعين للولايات المتحدة إلى ليتل روك . وإذ سُدَّت المنافذ فى وجه فاوبس ، حاول اتباع مسلك آخر . ففى عام ١٩٥٨ ، دعا الهيئة التشريعية إلى دورة خاصة ، وحملها على أن تخوّله سلطات فردية على النظام المدرسى ، ثم أغلق مدارس ليتل روك الثانوية الأربع بأكملها فى سبتمبر . وقد أضر هذا بالطلبة البيض إلى درجة جعلت سخط الرأى العام المستنير يضطره إلى التزحزح عن موقفه فى آخر الأمر . ولقد أضر تصرفه الدهماوى بالمدينة والولاية ، وأساء إلى سمعة أمريكا فى الخارج ، وزاد من الحزازات والاحتكاكات العنصرية ، بيد أنه أفضى كذلك إلى إثبات أن السلطة الاتحادية هى العليا ، وأن التفرقة العنصرية فى طريقها إلى زوال .

ولقد عمدت السلطات المحلية فى ولايات أخرى ، لاسيما فيرجينيا ، إلى إغلاق المدارس لمنع إلحاق الطلبة الزنوج بها ، وهى سياسة أضرت بالصغار البيض ضررها بالزنوج ، بل أضرت بالمجتمع كله . ولقد أخفق مجهود فيرجينيا فى « المقاومة الصلبة » للإدماج العنصرى بقطع أموال حكومة الولاية عن المناطق التى ألغت التفرقة ، إذ أعلنت المحكمة العليا للولاية أن هذا العمل خرق لدستور الولاية ، بيد أن مقاطعة واحدة ، هى برينس إدوارد ، قررت إغلاق مدارسها جميعاً . وسار إلغاء التفرقة العنصرية ببطء شديد فى كل مكان فى أعماق الجنوب . ففى سنة ١٩٥٨ لم تأخذ بالإدماج فى مدارسها سوى ٧٩٠ منطقة تعليمية من ١٨٩٠ منطقة فى ولايات الحدود والجنوب ، بيد أنها لم تلحق بالمدارس سوى ٤٠٠٠٠٠ زنجى . ومع ذلك فقد انتخبت فى ذلك العام امرأة زنجية لعضوية مجلس التعليم فى هيوستون بولاية تكساس ، وشرعت فى المساهمة فى خطة لمحو التفرقة فى هذه المدينة الكبيرة . وعندما ألحق طلبة زنوج بالمدارس الثانوية فى أتلانتا ، بولاية جورجيا ، فى سنة ١٩٦٠ ، لم تبق بدون إدماج عنصرى — ولو رمزى — سوى ثلاث ولايات ، هى : المسيسيبى ، وألاباما ، وكارولينا الجنوبية . وفى سنة ١٩٦٢ ، شهدت ولاية المسيسيبى إلحاق أول طالب زنجى بجامعة الولاية

فيها ، وإن عمد حاكم صعب المراس مرة أخرى إلى اضطرار قوة الاتحاد إلى حماية الطالب . وفى أوائل العام التالى ، التحق أول طالب زنجى بكلية كليمسون ، بولاية كارولينا الجنوبية ، دون حادث يذكر .

وفى ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، أدلت أعداد كبيرة من الزنوج بأصواتها فى الانتخابات ، فى مدن جنوبية كبيرة مثل ممفيس وأتلانتا ، وفى كافة أرجاء الشمال . وعينت الحكومة الجديدة ــ حكومة كينيدى ــ عدداً من الزنوج فى مناصب رفيعة ، فعُين منهم روبرت سى . ويفر رئيساً لوكالة الإسكان والتمويل الداخلى ، وجورج إل . بى . ويفر مساعداً لوزير العمل ، وثيرجود مارشال قاضياً فى محكمة الاستئناف بالمنطقة الثانية ، وجون بى . دنكان مفوَّضاً (قوميسير) لمنطقة كولمبيا ، وكارل تى . روان سفيراً لدى فنلندا .

واشتد الصراع من أجل حقوق الزنوج بعد سنة ١٩٦٠ . فسعى الزنوج إلى إجبار الحركة النقابية للعمال فى كافة أرجاء البلاد على منحهم الاعتراف الكامل ، وكافحوا ضد التفرقة العنصرية الواقعية فى المدارس فى مدن شمالية كبيرة ، وطالبوا بإسكان أفضل ، إذ أن الأحياء الفقيرة فى مواقع مثل هارليم وجنوب شيكاغو كانت من اسوأ الأحياء الفقيرة فى العالم . وفى أثناء عام ١٩٦١ ، قام « فرسان الحرية » بحملة ضخمة لضمان المساواة فى المرافق فى السفر بالحافلات بين الولايات . وتعرض « الفرسان » للاعتقال ولأحكام قاسية فى ألاباما والمسيسيبى جزاء إصرارهم على استخدام الاستراحات ، وحجرات الانتظار ، والمطاعم فى محطات الحافلات ، دون تفرقة عنصرية . وقد فازوا بمأربهم عندما طالبت لجنة التجارة المتبادلة بين الولايات ، فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٦١ ، بالمساواة وعدم التفرقة فى أماكن الجلوس بجميع الحافلات المتنقلة بين الولايات ، وبمحو التفرقة فى المرافق بكافة المحطات النهائية . وما لبث موقفهم أن حظى بدعم فى المحاكم .

صعاب داخلية : ١٩٥٧ - ١٩٦٠

اقترنت السنوات الأربع لحكومة أيزنهاور الثانية بالاضطراب ، بل بالتجهم والشقاء . فإن نوبة ركود اقتصادى كانت قد بدأت فى أواخر سنة ١٩٥٧ ، وبلغت تمام أبعادها فى سنة ١٩٥٨ . ومع أنها كانت قصيرة بقدر ما كانت حادة ، فإن عدد المتعطلين تجاوز فى

فترة من الوقت خمسة ملايين ، أو ما يقرب من ثمانية فى المائة من القوى العاملة . وكانت نتيجة هذا من أسباب ارتفاع العجز فى ميزانية الحكومة للسنة المالية ١٩٥٨ - ١٩٥٩ إلى ما فوق اثنى عشر مليوناً ونصف المليون بقليل ــ وهو أكبر عجز حدث فى تاريخ أوقات السلم ــ مع أنه كان دون الثلاثة ملايين فى ١٩٥٧ - ١٩٥٨ . كذلك كان على الأمريكيين فى سنة ١٩٥٧ أن يواجهوا ضرورة القيام بتحسينات بعيدة المدى فى نظمهم العلمية والتعليمية على الفور . إذ أن نجاح الاتحاد السوفييتى فى أواخر ذلك العام فى إطلاق أول أقمار الدنيا الصناعية مجهزاً بكافة الأجهزة ، أظهر أن الولايات المتحدة كانت متلكئة فى ميدان حيوى الأهمية . ولحقت البلاد خلال سنة ١٩٥٨ بركب سباق عصر الفضاء ، إذ أطلقت القمرين الصناعيين « فانجارد » و « اكسبلورر » ، بيد أنه اتضح أن الأمة كانت بحاجة إلى فريق من الباحثين العلميين أكبر عدداً وأكثر خبرة مما كان لديها .

ولقد ظلت الحكومة ، فى مضيها فى إجراءاتها فى الكونجرس ، معتمدة على تحالف الديمقراطيين الليبراليين والجمهوريين ، إلى جانب أن زعيم الديمقراطيين فى مجلس الشيوخ ــ ليندون بى . جونسون اللبق المصقول ــ كان أكثر مساعدة لها من وليم إف . نولاند زعيم الأقلية المحافظ المتعنت ، كما أن رئيس مجلس النواب الديمقراطى صمويل رايبرن كان أكثر تعاوناً معها من جوزيف دبليو . مارتن رئيس الأقلية . ولقد كان الديمقراطيون فى بعض العهود يشكون من افتقارهم إلى شخصيات قيادية للهيئة التنفيذية ، وبادروا بأنفسهم لعلاج ذلك . وامتازت الدورة الثانية للكونجرس الخامس والثمانين ، فى سنة ١٩٥٨ ، بوفرة التشريعات المعتدلة غير ذات الطابع الحزبى . فمد الكونجرس مدى سريان قانون اتفاقيات التبادل التجارى مرة أخرى ، ولأربع سنوات فى هذه المرة ، كما فوّض الحكومة فى ثلاثة بلايين وثُلث البليون من الدولارات للمعونة المشتركة ، وأنشأ وكالة الطيران الاتحادية للإشراف على الخطوط الجوية التى أصبحت مزدحمة ، وإدارة قومية لأبحاث الطيران والفضاء لتوجيه جهود الحكومة فى ارتياد الفضاء الخارجى ، ومنح ألاسكا وضع الولاية . وكانت المزاحمات على السلطة بين أسلحة الجيش والطيران والأسطول مصدر قلق كبير لإيزنهاور ، فطلب إجازة مشروع قانون لإعادة تنظيم الدفاع يكفل إنهاء هذه المزاحمات وإيكال مزيد من السلطة إلى وزير الدفاع وهيئة رؤساء الأركان المشتركة . وقد أجيز القانون بنوع من التراضى بين الحزبين .

ومع أن نجاح القمر الصناعى الروسى « سبوتنيك » أبرز ضخامة أهمية مزيد من الدعم للتعليم ، لاسيما التعليم العلمى ، فإن ما أحرز فى هذا المجال كان ضئيلاً . ولقد حث الرئيس على اعتماد إعانة اتحادية لبناء المدارس ، ولكنه عندما أقر الكونجرس فى آخر الأمر مشروع قانون ينص على هذه الإعانة ، اعترض الرئيس بحجة أنها تدخل غير لازم فى استقلال الحكم المحلى . على أن الكونجرس أصدر فعلاً قانوناً للدفاع القومى فيما يتعلق بالتعليم ، فوّض الحكومة فى استخدام ٨٨٧ مليوناً من الدولارات لإعانة طلبة التعليم العالى الموهوبين ، بقروض ذات فوائد منخفضة فى المقام الأول . ومن المؤكد أن هذا لم يكن وافياً بوجه عام ، بيد أن الكونجرس كان يعكس اقتناع أيزنهاور الشخصى بأن الإعانة الاتحادية المباشرة للتعليم ، فى جميع المستويات ، غير مستحبة ولا هى دستورية .

تنظيم الاقتصاد القومى

كان الحزب الجمهورى قد جاء إلى الحكم بعد عشرين عاماً من الحرمان ، وتعهد بأن يضع نهاية للإشتراكية « المتسللة » ، وأن يعيد « المشروعات الخاصة » (الاقتصاد الحر) . كان الجمهوريون يرون أن « دولة الرفاهية » شىء على الطريق المفضى إلى الشيوعية ، وأن الميزانية غير المتوازنة دعوة إلى الفوضى ، وأن التنظيم العمالى و« المثاليين الخرقاء » كانوا يقودون الشعب معاً إلى الخراب . ولم يكن الرئيس أيزنهاور على استعداد لاعتناق وجهات النظر الرجعية ، ولكنه أعانها وسرى عنها بأن أكد أن « الدور الحق للحكومة هو إقرار وتثبيت الاقتصاد » ، وبإيثاره المضى فيما سماه « وسط عرض الطريق » وبـ « السياسة المحافظة الدافعة » ، التى ثبت أنها كانت « محافظة أكثر مما كانت قوة دافعة » . واتخذت « السياسة المحافظة الجديدة » شكل سلب لجان التنظيم الحكومى المستقلة حريتها ، أو حشدها بأعضاء لا يؤمنون باللوائح الحكومية ، والنزول عن موارد النفط تحت المياه الساحلية إلى الولايات ، وتخويل القطاع الخاص امتياز تشغيل منشآت الطاقة الذرية ، والتخلى عن مشروع إنشاء سدّ عند هيلز كانيون على نهر سنيك تموّله الحكومة الاتحادية وتتولاه لتحل محله مشروعات سدود صغيرة تنشئها وتتولاها الشركات

الخاصة للطاقة والكهرباء ، وتقييد حرية هيئة وداى تنيسى ، وإنهاء الرقابات للسيطرة على الأسعار ومعدلات الإيجار ، وإبطال القانون الاتحادى لمقاومة تلوث المياه .

كان الديمقراطيون قد ظلوا يحابون العمل والعمال عشرين عاماً ، فلم يكن ثمة عجب فى أن رأى الجمهوريون أن الوقت قد حان لتقييد الامتيازات والسلطات التى أصبح العامل يستمتع بها . . . ويسىء استعمالها . فقامت لجنة السيناتور ماكليلان ــ التى شكّلها مجلس الشيوخ للنظر فى الأنشطة العمالية غير اللائقة ــ بإجراء تحقيقات وتحريات بصدد إضراب اتحاد عمال السيارات ضد شركة كوهلر فى راسين بولاية ويسكونسين ، وسلوك جيمس هوفا زعيم اتحاد عمال الشاحنات (سيارات النقل) ، وهو اتحاد عمالى شديد العنف . وقد اتهمت اللجنة هوفا باليمين الكاذبة وبجرائم أخرى ، واتهمت نقابته بقمع الأعضاء الذين كانوا يسعون لطرد زعمائهم الفاسدين بوحشية . وسعياً وراء جعل النقابات العمالية أكثر ديمقراطية فى تنظيمها ، ولمعاقبة من يسيئون استغلال أموال النقابات ، أجاز الكونجرس فى سنة ١٩٥٩ مشروع قانون لندروم ـ جريفين ، الذى وقعه الرئيس على الفور . وقد منح القانون أعضاء النقابات حماية كاملة فى القول والتصويت فى المسائل المتعلقة بالعمل والإدارة ، وفرض على النقابات تقديم تقارير كاملة عن ماليتها ، وقيّد مرابطة العمال أمام أبواب المصانع فى الإضرابات لمنع غير المضربين من العمال ، وحرّم المقاطعة الثانوية . ومع أن هذا القانون كان نافذ المفعول بوجه عام ، فإنه لم يكن ذا أثر يذكر فى علاج المساوىء التى التصقت باتحاد عمال الشاحنات إلى أن تمكنت حكومة كينيدى من سوق الزعيم المتغطرس لهذه النقابة إلى ساحة القضاء ، حيث قضى عليه بالسجن من جراء جرائمه .

أيزنهاور يفقد كبار معاونيه

اعتمد الرئيس أيزنهاور طيلة مدة حكمه اعتماداً كبيراً على رجلين : جون فوستر دالز ، الذى كان يطمئن اطمئناناً تاماً إلى حكمته فى الشؤون الخارجية ، وشيرمان آدمز من نيو هامبشاير ، الذى كان يدعوه « يدى اليمنى » فى إدارة الشؤون الروتينية للبيت الأبيض ، والذى كان يمحصه الرأى بذكاء اليانكى الحريص ، وقد فقدهما معاً فى فترة

لم تتجاوز ثمانية أشهر . ولقد واجه دالز كثيراً من الأزمات العصبية ، ومنها الأزمات التى اكتنفت مباحثات الهدنة الكورية فى سنة ١٩٥٣ ، وهزيمة فرنسا على أيدى القوات الشيوعية فى الهند الصينية فى سنة ١٩٥٤ ، وتهديد فورموزا بهجوم صينى فى ١٩٥٤ - ١٩٥٥ . وكان يتطلع متمنياً إلى وحدة الحليفات الغربية ، وأسهم فى الوصول بمنظمة حلف شمال الأطلنطى إلى مركز قوى مدعم ، وتعاون مع انتونى إيدن فى ضم ألمانيا الغربية إلى النظام الدفاعى للعالم الحر ، كما كان المنشىء الرئيسى لمنظمة حلف جنوب شرق آسيا ، وذلك فى مؤتمر مانيلا فى سبتمبر سنة ١٩٥٤ . وكان داعية راسخ العزم لقيادة أمريكا للعالم الديمقراطى ، ولسخاء أمريكا فى مساعدة الدول الأضعف . وقد ظفر إيمانه بقَدَر الأمة ، وإدراكه الواعى للواجب ، وإخلاصه المتفانى لرئيسه ، باحترام الناس ، حتى أولئك الذين كانوا يرونه عنيداً ومستبداً ، أو الذين لم يكونوا يطمئنون إلى ما سماه أدلاى ستيفنسون « سياسة حافة الهاوية » ــ أى استعداده للمجازفة بحرب عالمية ــ والذين كانوا يكرهون منه مظهر التعالى الذى اعتاد أن يبدو به .

أما شيرمان آدمز فقد عرف ببرود طباعه واقتضابه الكلام وتزمته الصارم إزاء مقابلات الرئيس ، مما أكسبه كراهية معظم أعضاء الكونجرس والمسئولين فى واشنطن . وفى عام ١٩٥٨ تعرض لمساءلة سياسية . فإن لجنة فرعية بمجلس النواب ، للتحرى عن لجان التنظيم الحكومى المستقلة ، نشرت وثائق تبين أن أحد رجال الصناعة فى بوسطن ، ويدعى برنارد جولدفاين ، دفع نفقات كبيرة لفندق ، عن إقامة آدمز وأسرته ، فى فترة كان جولدفاين فيها متورطاً فى تحقيقات كانت لجنة التجارة الاتحادية ، ولجنة الأوراق المالية و« البورصة » ، تجريانها . ولقد أقر آدمز بأنه تقبل هدايا أخرى ، ولكنه أنكر ارتكابه أى ذنب . ولقد طلب كثير من الجمهوريين ــ الذين كانوا يتأهبون لحملات إعادة الانتخابات فى الخريف ــ تنحيته عن منصبه . حتى إذا انحازت أغلبية ولاية مين إلى الديمقراطيين ، استقال . ومن المحتمل أنه كان لهذه المسألة أثر فى الفوز الحاسم للديمقراطيين فى ذلك الخريف ، إذ ظفر الحزب بثلاثة عشر مقعداً ــ فوق ما كان له ــ فى مجلس الشيوخ ، وخمسين فى مجلس النواب . وكان شعور أيزنهاور بالخسارة قاسياً ، إذ كان هو الذى تشبث بآدمز . وكانت وفاة دالز بالسرطان ، فى ٢٤ مايو سنة ١٩٥٩ ، أقسى وطأة على أيزنهاور من فقدانه آدمز . ولقد شغل كريستيان هيرتر ، من ماساشوستس ، مكانه على رأس وزارة الخارجية ، ولكن أيزنهاور احتفظ بالشؤون

الخارجية إلى حد كبير فى يديه . ولقد أبدى الرئيس فى العام ونصف العام الأخيرين من حكمه ، قدراً متزايداً من الاعتماد على النفس ، وأتاح للبلاد قيادة أقدر .

الولاء فى الحكومة

عندما بدأ أيزنهاور الاستيلاء على مقاليد البيت الأبيض ، كان السيناتور مكارثى يثير ضجة حول موضوع الشيوعيين فى الحكومة ، وهو الموضوع الذى كان زائفاً فى مجموعه تقريباً . ولقد واصل حملاته على وزارة الخارجية ، حتى بعد أن تولاها دالز ، واشتط إلى درجة مهاجمة أيزنهاور لضمه بريطانيا فى نظام للأمن المتبادل بعد أن كانت هذه الدولة قد اعترفت بالصين الحمراء . وكان الرئيس يبغضه ولكنه أبى أن ينازله فى نضال صريح . وواصل مكارثى فى هذه الأثناء مضايقة الموظّفين العاميّن ، وقذف الأمناء باتهامات لا أسس لها ، وإرهاب موظفى وزارة الخارجية الأمريكيين فى الخارج ، وذلك فى سلسلة من التصرفات غير المتسمة بالمسئولية ، والتى تحملها دالز فى جبن كان مثار دهشة . ولقد لقى سقوط مكارثى فى سنة ١٩٥٤ قبولاً عاماً باعتباره من الصالح العام . ولقد اطمأن الناس ، حتى أشدهم هلعاً ، إلى الانهيار الفعلى للحزب الشيوعى . ومع ذلك ، وبالرغم من هبوط عدد أعضائه إلى حوالى ١٠٠٠٠ ، فإن جيه . إدجار هوفر ، رئيس مكتب التحقيقات الاتحادى F.B.I. ، ظل يعلن أن هذا الحزب عدو شديد الخطر على الأمن الأمريكى .

وفى سنة ١٩٥٤ ، دعم قانون الأمن الداخلى ، الذى صدر فى سنة ١٩٥٠ لمعاملة الموظفين الحكوميين عديمى الولاء ، بقانون القضاء على الشيوعية ، قضى بإلغاء الحزب الشيوعى باعتباره مجافياً للقانون . ومن المؤكد أن المدعى العام هربرت براونيل بث فى أنشطة وزارة العدل قسوة وصرامة مفرطتين ، كما ظهر فى جهوده المجهضة لإدانة العالم أوين لاتيمور . وهى جهود استحقت اللوم والاستنكار من المحاكم الاتحادية . ولقد ظل الخوف من الغدر من ناحية الهدامين الذين يحتلون بعض المناصب ، ومن الفساد الناجم عن الكتب والآراء والأفلام والمجلات والبرامج التليفزيونية الهدامة . . ظل هذا الخوف حتى نهاية ذلك العقد من القرن يستبد بكثير من الأمريكيين ، وأدى إلى قيام فورات من

الاضطهاد وعدم التسامح . وكانت الحكومة فى عهد ترومان قد تناولت « مخاطر عدم الـولاء » ، ولكنهـا وسعت نطاق عنـايتها فى عهد أيزنهاور ليضم « المخاطر التى تهدد الأمن » . وزاد هذا التغيير من عمق واستفحال فوضى التعبيرات اللفظية . وقد ظلت المحكمـة قلعة للذود عن الحقوق المكفولة بالتعديل الأول للدستور . فقضت فى سنة ١٩٥٦ مثـلاً ، ببطلان برنامج للأمن وضعته ولاية بنسلفانيا على أساس أن الحكومة القومية قد وقّت هذا الميدان حقه . كما أبطلت فى سنة ١٩٥٨ قانوناً لولاية كاليفورنيا كان يقتضى من رجال الدين أن يؤدوا يمين الولاء ليظفروا لكنائسهم بالإعفاء من الضرائب . بيد أن المحكمـة ذاتهـا كانت منقسمة على نفسها . فكان ثمة فريق من الليبراليين ، بزعامة القاضى الجليل « بلاك » ، على استعداد لهدم أى تشريع يبدو أنه انتهاك للتعديل الأول . وكان ثمة فريق آخر بقيادة القاضى المبرز فرانكفورتر رأى أن الليبرالية الحقة تتطلب من السلطات القضائية ضبط النفس ولو فى مواجهة تشريع ضار بشكل واضح .

الولايـة الخمسـون

طلع عام ١٩٦٠ على الأمة وقد أصبحت مؤلفة من خمسين ولاية . إذ صدر فى مارس سنة ١٩٥٩ قانون منح هاواى وضع الولاية ، بأغلبية ساحقة فى مجلس الكونجرس . وكنتيجة لذلك ، لم يلبث مجلس الشيوخ أن رحب بأول عضو به من أصل شرقى ، وهو هاوايى من أصل صينى ، كما شهد مجلس النواب أول عضو به من أصل يابانى يؤدى اليمين الدستورية .

الفصل ٢٩

حدود جديدة : التحدى

أى الحزبين فى الحكم ؟

لم تغلب أية مسألة قومية كبيرة على الحملة الانتخابية للرئاسة فى سنة ١٩٦٠ ، ولا خيمت عليها ظلال مسألة دولية يحتدم بشأنها الجدال . فقد تقادم العهد بالأيام التى كان الناخبون فيها يختلفون بضراوة بصدد مسألة الأرض المباحة أو التعريفة الجمركية أو العملة أو العلاقات مع بريطانيا أو اسبانيا أو ألمانيا . كان التعاون بين الحزبين قد طبع فى العهد الأخير عمل الكونجرس فى معظم المسائل الداخلية ، وكان التعاون بين الحزبين منشوداً بحرص وعناية فى الشؤون الخارجية . كانت ثمة مشكلات مستعصية تواجه الأمة ، ولم يكن القوم على فكر واحد بصدد حلها ، غير أن أهم الخلافات لم تكن بين الديمقراطيين والجمهوريين ؛ وإنما كانت بين الجناحين الليبرالى والمحافظ فى كل من الحزبين . وكان الناخبون فى قلق من متاعب إلغاء التفرقة العنصرية فى المدارس والهيئات العامة ، فكانت المشاعر متأججة بصدد هذه المسألة ، ومع ذلك فإن كلا من الحزبين الكبيرين كان يؤمن بحكم الضرورة بوضع نهاية للتفرقة . كذلك كان القوم منقسمين بفضل الآراء المتباينة بصدد الضرائب ، والإنفاق على الدفاع ،

والأسلوب السليم لعلاج العناصر الهدامة ، والتشريعات العمالية ، بيد أن كلا من الحزبين كان يعالج هذه الأمور بنفس الطريقة المعتدلة . وفى المجال الخارجى ، كان الأمريكيون جميعاً فى الواقع يواجهون روسيا بعزم واحد : السعى إلى تسوية سلمية للأمور التى يدور حولها الجدل ، دون التزحزح عن الدفاع حتى النهاية عن التراث القومى من الحرية ، ومنح حلفائنا الأحرار العون والحماية .

كانت البلاد ، بعد ثمانية أعوام من سلبية أيزنهاور وعرقلة الكونجرس ، متعطشة إلى قيادة ، إلى مزيد من الجرأة ، وسعة الأفق ، والإقدام فى واشنطن . كانت ترجو أن تأتى الانتخابات الرئاسية برجال قادرين على تخفيف التوترات بين واشنطن وموسكو ، وتخفيف عبء التسلح المروع . كانت تصبو إلى قائد يستحث التنمية الاقتصادية للبلاد التى كانت متلكئة بشكل واضح ، ويذود عن الحقوق المدنية بمزيد من الحمية والنشاط ، ويدخل مزيداً من سعة الأفق لحل المشكلة الزراعية المحيرة ، ويتبنى الدفاع عن زيادة الإنفاق على التعليم ، ويتصدى للحاجات الناشئة عن النمو السريع للسكان . كان ثمة جيل جديد يتولى السيطرة على البلاد . كان كثيرون من أبناء هذا الجيل يتوقون إلى زعماء خلقيين يوقظون الشعب من إغفاءته الناشئة عن الانغماس فى الأهواء الذاتية ، ويقودون جهاداً من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة فى الفرص . كانت البلاد تسرف فى الإنفاق على الكماليات الشخصية ، وتقتر فى التوفير العام من أجل المستقبل تقتيراً شديداً . . كانت تنفق أكثر مما ينبغى على الاقتصاد الخاص ، وأقل مما ينبغى على الاقتصاد العام .

كان أى امرىء يتلفت حوله قادراً على أن يبصر التحديات المحتومة . فقد كانت تتجلى فى النمو الخاطف للمدن الكبيرة الذى كان يفرض على أمريكا مجموعة شائكة من المشكلات الحضرية . . وفى سباق الفضاء مع الاتحاد السوفييتى ، وفى المجهود المستميت من الزنوج للحصول على المساواة فى المرافق العامة ، وفى المدارس العامة ، والجامعات ، والعمالة ، والانتخاب ، والإحصاءات التى كانت تبين أن واحداً فى المائة من الشعب كان يستحوذ على نصف الثروة ، وفى الابتذال الذى شوه سمعة التليفزيون والأفلام السينمائية ، وفى النقص الذى ساد معظم الصحافة ، وفى ازدياد انحرافات الأحداث . فكل أمة تحتاج من وقت إلى آخر إلى بعث روحى . وكانتت الولايات المتحدة قد قضت مدة كافية بعد تضحيات الحرب العالمية الثانية فى الراحة والاستجمام ،

وحانت ساعة استئناف مسيرتها إلى الامام . ولكن ، من الذى يحمل الراية ؟

المرشحون والحملة

لم يكن لدى الجمهوريين شىء من الهواجس السابقة على المؤتمر السياسى الحزبى . كان الجمهوريون قد فرطوا فيها يكاد يكون نصراً مؤكداً ، بمناصرة ما وصفه أيزنهاور نفسه بأنه عمل انتقامى مرتد على أصحابه . ذلك هو التعديل الثانى والعشرون للدستور ، الذى حرم أيزنهاور من فترة حكم أخرى . وأخذ نائب الرئيس ريتشارد نيكسون ، وهو سياسى أريب ، يستغل رضاء أيزنهاور ، والشعور بأنه كفيل باستئناف سياسات أيزنهاور ، وتأييد الأجهزة السياسية فى الولايات ، وصداقة المشروعات الكبيرة ، فى تدعيم ترشيحه . ولم يكن يثق فى شخصيته أو مقدرته سوى قلة ، بيد أن تزكية الرئيس له على أساس خبرته كانت ذات وزن كبير . . وإن لم يستطع عندما سئل أن يتذكر قراراً واحداً ذا أهمية ساهم نيكسون فى اتخاذه . وكان نيلسون إيه . روكفلر حاكم نيويورك ، يصبو صراحة إلى أن يحظى بالترشيح ، وقد كان أكثر كفاءة واستقلالاً . ولكنه انسحب فى هدوء عندما كشفت الجولات الاستطلاعية فى البلاد عن أن رجال الأعمال كانوا يرونه ليبرالياً أكثر مما ينبغى ، وأن نيكسون قد جند لمناصرته كل ذوى النفوذ السياسى القوى . ورشح المؤتمر الجمهورى ، الذى عقد فى شيكاغو ، نيكسون بأغلبية ١٣٢١ صوتاً إلى ١٠ ، وسانده بزميل فى الترشيح لمنصب نائب الرئيس هو هنرى كابوت لودج ، حفيد خصم ويلسون فى الماضى .

كانت ساعة انفعال واحدة هى التى أذكت الحياة فى اجتماع الجمهوريين . وذلك عندما أصر روكفلر على أن يساعده نيكسون فى إعادة صياغة أجزاء بالغة الأهمية فى مسودة البرنامج السياسى التى قدمتها لجنة روتينية . هذا التنقيح حوّل بياناً معتدلاً عن الحقوق المدنية إلى مادة رئيسية ، صريحة ، تحررية ، مرضية للزنوج ولكنها مثيرة لسخط كثيرين من الجنوبيين البيض . كذلك أتاح التنقيح للحزب بياناً أقوى بصدد تدعيم الدفاع القومى . ولقد أعلن نيكسون فى خطاب قبول الترشيح أن المشكلة الكبرى أمام الحكومة المقبلة هى تنبيه الشعب إلى الخطر الماحق الكامن فى

دعاية شيوعية ماكرة ، كانت تكيل الوعود الزائفة بالسلام والوفرة والأمل .

وعلى النقيض من ذلك ، كان اختيار الديمقراطيين غير مستقر ، حتى إن معركة المؤتمر السياسى اجتذبت انتباه البلاد بأسرها . كان الطامحون الرئيسيون هم : الداهية ليندون جونسون من تكساس ، المحارب الذى خاض كثيراً من المنازلات السياسية ؛ وستوارت سايمنجتون من ميسورى ، وكان المعتقد أنه خبير فى الدفاع ؛ والسيناتور هيوبرت همفرى من مينيسوتا . وفوق هذه الشخصيات ، تسامقت شخصية أدلاى ستيفنسون ، بمكانته الثقافية التى اكتسبها بجدارة ، وبطول خبرته وتجربته ؛ والشاب المتوثب النشاط ، المتمكن من نفسه جون فيتزجيرالد كينيدى عضو الشيوخ عن مساشوستس ، الذى حاول عبثاً الفوز بالترشيح نائباً للرئيس قبل أربع سنوات . وكان يعترض فرص ستيفنسون عدم فوزه فى الانتخابات القومية مرتين من قبل ، ورفضه أن يعلن ترشيح نفسه . ولقد أوتى كينيدى عقبتين ظاهرتين ، هما أن الأمة لم تختر يوماً رومياً كاثوليكياً رئيساً للجمهورية ، وإنه لم يكن قد حظى بعضوية مجلس الشيوخ سوى مرة واحدة . ولكنه كان قد رسم حملته الانتخابية ببعد نظر وجرأة بارعين . فبعد استعراض دقيق للبلاد ، حشد تنظيماً للعمل الجاد ، واستعان بعدد من القادة الديمقراطيين الأكفاء ، من تشيستر بولز من كونيكتيكت إلى مايك دى سال حاكم أوهايو . وفوق هذا كله ، قام بحملة موفورة النشاط وسعة الأفق ، مستغلاً شبابه ، وأناقته الفكرية ، بل وكاثوليكيته إذ أخذ ينادى بالتسامح الدينى . وبجسارة خاض الاجتماعات الحزبية التمهيدية فى سبع ولايات ، ففاز بها جميعاً ، وأقبل على المؤتمر الحزبى فى طليعة المتزاحمين .

كان الجمهور فى مؤتمر شهر يوليو ، بلوس أنجلس ، مع ستيفنسون . ولكن الوفود على المنصة كانت تحبذ كينيدى . فلما فاز فى الاقتراع الأول ، بادر إلى إثبات فطنته بأن طلب أن يكون مزاحمه ليندون جونسون ، الواسع النفوذ فى الجنوب ، نائباً للرئيس ، وأخذ يقنع جونسون بقبول المنصب . ولقد أثار حماس أتباعه فى خطاب قبول الترشيح ، إذ قال وقد صاغ عباراته على طريقة ستيفنسون : « إننا اليوم نقف على حافة حدود جديدة للعمران . . والاختيار الذى يتحتم على أمتنا الإقدام عليه ، هو الاختيار بين المصلحة العامة والراحة الشخصية . . بين العظمة القومية والتداعى القومى .

نصر كينيدى

لم يكن الفارق بين الفائز ومنافسه بهذه الضآلة فى أية انتخابات منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر . فإن الأغلبية التى ظفر بها كينيدى على مزاحمه فى التصويت الشعبى لم تتجاوز ١١٨٠٠٠ من ٦٨ مليوناً من الأصوات ، ومع أن أغلبيته فى المجمع الانتخابى كانت حاسمة ٣٠٣ إلى ٢١٩ ـ فإن بضعة آلاف قليلة من الأصوات فى إللينوى وتكساس هى التى كونت الفارق بين الهزيمة والنصر . ولقد حقق كينيدى حدثاً لا يكاد يكون له مثيل من قبل ، هو إقصاء الحزب الحاكم عن الحكم فى وقت يسوده السلم والرخاء معاً . فهو لم يتغلب على عقبة الكثلكة الكؤود وحدها ، بل تغلب كذلك على شعبية أيزنهاور الهائلة .

ولقد استحوذ على خيال الشعب كل شىء تعلق بالرئيس الجديد تقريباً ، ولم تشذ عن ذلك مناسبة تنصيبه . فقد أقيمت الحفلات فى الهواء الطلق ، ولقد هبت على المنصة ريح عاصفة بينما كان روبرت فروست ـ أول شاعر دعى للاشتراك فى تنصيب رئيس للجمهورية ـ يقرأ : « كانت الأرض ملكاً لنا ، قبل أن نكون نحن ملكاً لها » . ثم ربط كينيدى الأمة بتراثها الثورى ، فى خطاب مرصع بالمثالية والبلاغة :

> لتنطلق الكلمة من وقتنا هذا ومكاننا هذا ، إلى الصديق والعدو على السواء ، معلنة أن المشعل قد انتقل إلى جيل جديد من الأمريكيين ، ولد فى هذا القرن ، وصقلت عودة الحرب ، وروضه سلام مرير قاس ، وهو فخور بتراثنا التليد ، غير مستعد لأن يشهد أو يسمح بالقضاء البطىء على تلك الحقوق الإنسانية التى التزمت بها هذه الأمة دوماً . . فلتعرف كل أمة ، سواء كانت ترجو لنا خيراً أو كانت ترجو شراً ، إننا سندفع أى ثمن ، وسنحمل أى عبء ، وسنتصدى لأية محنة ، وسنساند أى صديق ، وسنقف فى وجه أى عدو ، لضمان بقاء الحرية ونجاحها .

غير أن الخطاب لم يكن مجرد دعوة إلى المعركة ، بل كان كذلك دعوة إلى السلام . فقد قال الرئيس : « لنحذر أبداً الإقدام على التفاوض بدافع من الخوف ، ولكن لنحذر كذلك أن نخاف يوماً من التفاوض » . فالتعاون خير من النزاع ، ولنحل التعاون إذن محل النزاع :

ليكشف كل من الجانبين المشكلات التى توحد بيننا ، بدلاً من سوق المشكلات التى تفرق بيننا . . ليسع الجانبان معاً إلى استخلاص عجائب العلم بدلاً من أهواله . لنستطلع معاً النجوم ، ولنتغلب على الصحارى ، ولنقض على المرض ، ولنسبر أغوار المحيط ، ولنشجع الفنون والتجارة . ليتحد الجانبان ليعملا . . بوصية إشعياء : « فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحراراً »[1] .

كان كينيدى أول رئيس للجمهورية ولد فى القرن العشرين ، وأصغر شاب انتخب يوماً لرئاسة الجمهورية ، فلم يكن ناطقاً بلسان جيل جديد فحسب ، بل كان رمزاً لهذا الجيل كذلك . ولقد جلب إلى رئاسة الجمهورية ذكاءً يقظاً ، وسحراً شخصياً عارماً (ما أصبح من الشائع تسميته : سحر الزعامة القيادية) ، وروحاً إنسانية دافئة كريمة ، وفهماً رفيعاً مصقولاً للحقائق الواقعية السياسية ، ولكنه جلب إليها كذلك إدراكاً حياً نشيطاً لما للقيادة الرئاسية من إمكانات هائلة . ولقد كادت السلطة الرئاسية تتفكك فى يدى أيزنهاور المضطربتين ، فأعاد كينيدى الطاقة والسلطان القويتين إلى المنصب ، كما جلب إليه التألق : فلم يقدر منذ أيام تيودور روزفلت للبيت الأبيض أن يصبح مركزاً للاهتمام وللانفعال العاطفى القوميين بهذا القدر ، ولا لواشنطن أن تصبح مركزاً للثقل السياسى بهذه الدرجة . إذ أنه أوتى شيئاً من قوة سلطان تيودور روزفلت ، وحظاً من مقدرة فرانكلين روزفلت على الوصول إلى قلوب الشعب بأكمله ، وقد قرن هاتين الميزتين باهتمام بالفنون ، ومناقب اجتماعية فى أصالة ما كان لجيفرسون .

جلب حكم كينيدى عهداً جديداً من حيث الفكر السياسى والشخصيات السياسية ، إذ أن كينيدى كان شاباً فى تفكيره كما كان فى عمره ، ولقد رفض بفطرته الشعارات (الكليشيهات) البالية التى ظلت قرابة عقد من الزمن تفسد شطراً كبيراً من النقاش السياسى الأمريكى : الاتهامات المبتذلة بالشيوعية ، والتركيز المتغطرس على الولاء ، والبحث المتهوس عن النشاط الهدام ، والجعجعة الخطابية المبتسرة حول الاقتصاد الحر والاشتراكية المتسللة ، حول المركزية وحقوق الولايات . فلقد أدرك أن الأمة كانت تواجه مجموعة كبيرة من المشكلات الجديدة ، وأن هناك مشكلات قديمة قد

(١) إشعياء : ٥٦ : ٦ .

قد اتخذت طابعاً جديداً ، فأصبحت تتطلب أفكاراً وأساليب جديدة لحلها .

كانت المهمة كبيرة وجليلة ، وقد أهاب الرئيس برجال من الحزبين معاً ليساعدوه . فتجاوز شخصيات صالحة للاختيار لمنصب وزير الخارجية ، مثل أدلاى ستيفنسون والسناتور فولبرايت ، وعين بدلاً منهما دين راسك الذى كان رئيساً لمؤسسة روكفلر ، والذى جمع بين المواهب القضائية والادارية . وأصبح روبرت إس. مكنمارا وزيراً للدفاع ، وكان رئيساً لمجلس إدارة شركة فورد للسيارات . وتولى الجمهورى دوجلاس ديلون ، الذى عمل تحت إمرة أيزنهاور ، وزارة الخزانة . ومن أطرف الشخصيات التى عينها كينيدى آرثر جولدبيرج ، الخبير المبرز فى العلاقات الصناعية ، فولاه منصب وزير العمل وقد انتقل بعد ذلك إلى مركز ممتاز فى المحكمة العليا ، ثم أصبح سفيراً لدى الأمم المتحدة فى سنة ١٩٦٥ . ولقد ظل أدلاى ستيفنسون الزعيم الفكرى للحزب من عدة اعتبارات ، وعين فى المنصب المتزايد الأهمية ، منصب السفير لدى الأمم المتحدة . وكان أهم التعيينات من عدة نواح ، وأبعدها عن الأصول قطعاً ، هو تعيين روبرت إف . كينيدى شقيق الرئيس لمنصب المدعى العام ، وهو تعيين لم يصدر عن إدراك لأهمية موضوع الحقوق المدنية فحسب ، وإنما عن رغبة الرئيس فى أن يكون إلى جواره دائماً صديق ومستشار كذلك .*إذ كانت ثمة أسرة حاكمة فى طور التكوين ، تضارع فى السلطان أسرتى آدمز وروزفلت ، هى أسرة كينيدى . فإن هو إلا عام آخر ، حتى قدر لشقيق ثالث ، هو إدوارد كينيدى أن ينتخب عضواً بمجلس الشيوخ عن مساشوستس . وكان من البوادر التى نمت عن تداعى الروح المناهضة للعقليات المثقفة ، أن حشد الرئيس هيئة من العقول الخبيرة اختير الشطر الأكبر منها من جامعتى هارفارد وأكسفورد المؤرخ آرثر شليزينجر الابن كمساعد خاص ، والعميد ماكجورج بندى كمستشار فى الشؤون الخارجية ، والاقتصادى جون كنيث جالبرت كسفير لدى الهند ، ومن معهد مساشوستس للتكنولوجيا (وال روستو ، وبول صمويلسون) . وظفرت هذه الهيئة بتحبيذ عام .

الرئيس والكونجرس

ظلت للديمقراطيين قبضة قوية على الكونجرس ، برغم فقدانهم عشرين مقعداً فى

مجلس النواب . ولكن ، أكان بوسع الرئيس أن ينفذ ذلك البرنامج الليبرالى للاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، الذى تعهد به هو وحزبه ، بأغلبية شعبية بلغ من ضآلتها أنها أثارت تساؤلات بصدد شرعية التفويض الانتخابى ؟ أكان بوسعه أن يكون أحسن توفيقاً من الرئيسين ترومان وأيزنهاور فى التعامل مع الائتلاف المعهود بين الديمقراطيين الجنوبيين المحافظين والجمهوريين الرجعيين ، وهو الائتلاف الذى طالت ممارسته للاعتراض والنقض للتشريعات التقدمية ؟ كان هذا الائتلاف نتاج نظام التوزيع النسبى الذى قام على التعصب ضد الأغلبيات الحضرية ، وضرائب الرؤوس التى كانت تحرم زنوج الجنوب من حظ عادل فى الحكومة ، ونظام للأقدمية انطوى على تناقض ، فكان هذا الائتلاف يؤثر المسنين من الديمقراطيين الجنوبيين بالسيطرة على جميع اللجان المهمة بالكونجرس تقريباً . ولقد تعرضت كل هذه الأمور للتغيير قطعاً ، ولكن التغييرات لم يقدر لها أن تكون ذات مفعول عقد آخر من الزمن .

والذى أسفرت عنه الأيام ، هو أن الرئيس لم يصادف سوى نجاح محدود فى إجازة من الكونجرس ، وإن كان بوسعنا الآن أن نرى أن حميته ولباقته كانتا من العوامل التى مهدت الطريق لسن القوانين اللازمة فى آخر الأمر . فلقد سد الائتلاف العنيد الطرق فى وجه مقترحاته واحداً إثر آخر ، ومع ذلك فقد كان الرئيس يحرز شيئاً من النجاح فى كل حالة . إذ طلب كينيدى إقرار برنامج موسع إلى حد كبير للإعانة الاتحادية المخصصة لإنشاء المدارس ولرواتب المدرسين . ولقد أجاز مجلس الشيوخ مشروع قانونه ، ولكن المسألة الدينية سدت الطريق فى وجه التشريع فى مجلس النواب . إذ طالبت كنيسة الروم الكاثوليك بأن تقدم الحكومة نجدة لمدارسها الأبروشية المتخمة بالتلاميذ . وأوضح الكاثوليك أنهم ظلوا زمناً طويلاً يخففون عن دافعى الضرائب قسطاً كبيراً من أعباء التعليم العام ، وقد آن للرأى العام أن يعترف بهذا وإن يخف للنجدة . ولكن الرئيس ساند وجهة النظر التقليدية القائلة بأن إعانة الحكومة الاتحادية للمدارس الأبروشية خرق لما يطلبه الدستور من الفصل بين الكنيسة والدولة . وانضم فريق من النواب الكاثوليك إلى المحافظين الجمهوريين فى اعتراض التشريع الذى كانت الحاجة ماسة إليه .

كذلك صادف الرئيس فى ميدان الاصلاحات الاجتماعية عقبة ، وذلك حين استجاب الكونجرس لحملة الدعاية الكبيرة التى شنتها الجمعية الطبية الأمريكية وللخوف الطاغى من أى شكل من أشكال الاشتراكية فتخاذل عن إقرار مشروع قانون

لتوفير الرعاية الطبية للمسنين فى إطار نظام التأمين الاجتماعى على أن الحكومة أفلحت فى إجازة برنامج طبى صحى تضمن اعتمادات كبيرة للبحوث ولإنشاء مراكز محلية للصحة العقلية ، واعتمادات بلغت مائتى مليون دولار للتعليم الطبى ، الذى كان متخلفاً عن الاحتياجات العامة بدرجة كبيرة . كذلك كان ثمة تقدم فى مجال تجديد المدن . إذ كانت مدناً كثيرة ــ من أبرزها بيتسبيرج ، وفيلادلفيا ، وسانت لويس ، وبوسطن ــ قد حاولت إيقاف المحنة الحضرية التى أخذت تهبط بها بسرعة إلى مصاف أحياء فقيرة شاسعة ومطردة الزحف ، بيد أنه اتضح أن المهمة كانت أكبر من الموارد المحلية بكثير ، وكانت المساوىء التى ابتليت بها معظم المدن تستفحل بسرعة وتستعصى على العلاج . ولقد خذل الكونجرس مشروع الرئيس كينيدى لإنشاء إدارة لشؤون الحضر على مستوى وزارة ، بيد أن الرئيس أقنع الكونجرس بإقرار قانون للإسكان ، يسر لتجديد المدن حوالى خمسة بلايين من الدولارات على مدى أربع سنوات . كانت هذه البرامج باهظة التكاليف حقاً ، بينما كانت عقلية الكونجرس تتجه للاقتصاد فى الإنفاق . ومع ذلك فإن نفقات برامج الإصلاح الاجتماعى الاتحادية لم تكن تقاس بجانب نفقات الدفاع القومى ، التى وصلت إلى حوالى خمسين بليوناً من الدولارات فى العام .

كينيدى والفنون

لم يقدر لأى رئيس ، منذ عهد جيفرسون ، أن يهتم بالفنون والآداب والعلم ، ولا أن يشترك فيها قدر اهتمام واشتراك كينيدى . إذ كان هو نفسه فى عداد أهل العلم ، كمؤرخ . . وقد اكتسب كتابه : « صور فى الشجاعة » رواجاً على نطاق الأمة كلها . وهو لم يقتصر على أن يحيط نفسه بأهل الفكر ، بل اجتذب المتفهمين ، والعلماء ، والفنانين إلى واشنطن التى أصبحت ــ وربما لأول مرة ــ عاصمة ثقافية إلى جانب أنها عاصمة سياسية واجتماعية . وكان من المعالم المميزة أن دعا كينيدى الشاعر الجليل روبرت فروست للاشتراك فى احتفالات تنصيبه ، وإن انتهز فرصة إطلاق اسم روبرت فروست على مكتبة بكلية آمهيرست فنادى بأن أمريكا لا تخاف الفضل والجمال . . وتكافىء

المنجزات فى الفن كما تكافىء المنجزات فى الصناعة والتجارة أو فى فن الحكم ، وتنتزع الاحترام فى كافة أرجاء العالم بحضارتها وليس بقوتها فحسب . وتجسيداً لاحترامه للفنون ، أنشأ ميدالية الحرية الرئاسية ، وهى نوع شبيه بوسام الجدارة الأمريكى ، وكان ممن حظوا بهذه الميدالية فنانون من قبيل : ماريان أندرسون ، وبابلو كاسالز ، ورودلف سيركين ، وأندرو ويث ؛ وكتاب مثل : ثوزنتون وايلدر ، وتى . إس . إيليوت ، وكارل ساندبيرج ، ولويس ممفورد ؛ ورجال تربية ودراسات مثل : جيمس بى . كونانت ، ووُلتر ليبمان ، وصمويل إيليوت موريسون . وفى الوقت الذى ردت فيه مسز كينيدى البيت الأبيض إلى بعض بهائه وجماله القديمين ، وأعادت تصميم حدائق البيت الأبيض ، أيد الرئيس مشروع إنشاء مركز قومى كبير للفنون فى واشنطن ، وإعادة العاصمة ذاتها إلى ما كان ميجور لنفان وجيفرسون ولاتروب يأملون أن تصبح عليه .

ولم تكن هذه مجرد ظواهر ذات دلالات ، بل إنها كانت جزءاً من فلسفة اعترفت بالفنون كجزء جوهرى للحضارة . وفى خطاب بكلية آمهيرست ، قبيل موته بأشهر قلائل ، قال الرئيس الذى كان ذا ميل فطرى عميق للسلطان :

> لقد رأى روبرت فروست فى الشعر وسيلة لإنقاذ القوة من القوة ذاتها . فعندما تفضى القوة بالانسان إلى الغطرسة والغرور ، يذكره الشعر بحدوده . وعندما يضيق السلطان مجالات اهتمام الانسان ، يذكره الشعر بثراء وتنوع وجوده . وعندما يفسد السلطان الانسان ، يطهره الشعر . إذ أن الفنون توطد الحقائق الانسانية الأساسية التى يجب أن تكون المحك لحكمنا .

الكفاح من أجل الحقوق المدنية

أوشكت أن تكتمل مائة عام على الحرب الأهلية وتحرير العبيد ، والزنوج فى الجنوب وفى أصقاع كبيرة من الشمال لا يزالون مواطنين من الدرجة الثانية ، محرومين من الحقوق الأساسية ، ومعرضين لمهانات لا تنقطع . فكان أبناء الزنوج يحالون إلى مدارس لم تكن قائمة على التفرقة العنصرية فحسب ، بل كانت أدنى شأناً من مدارس البيض . وكان

الشباب الزنوج محرومين من دخول جامعات الولاية . وكان على الزنوج أن يجلسوا فى حافلات لا يركبها البيض ، وأن يتناولوا الوجبات الخفيفة على موائد خاصة بالملونين ، وأن يلعبوا فى ملاعب خاصة بهم ، وأن يسبحوا عند شواطىء منفصلة عن شواطىء البيض ، بل أن يعبدوا الله فى كنائس للسود . وكانوا يعينون فى أعمال أقل شأناً من المخصصة للبيض ، وبأجور أدنى ، وكانوا يحصرون فى أحياء فقيرة أو أحياء طائفية للأقليات ، هى مباءات للجريمة والانحراف . وإذا كان الشنق على أيدى الدهماء من البيض بدون محاكمات قد ولى ، فإن الاغتيال لم يول مثله ، فكان بوسع البيض فى أعماق الجنوب أن يقتلوا الزنوج ويفلتوا من العقاب . ولقد وصف عالم الاقتصاد السويسرى جونار ميردال المشكلة الزنجية فى سنة ١٩٤٤ بأنها معضلة أمريكية مستعصية . وقد ظلت بعد عشرين سنة معضلة أمريكية مستعصية ، ولا تزال بلا حل .

غير أن الثورة التى كانت الحرب العالمية الثانية قد بدأتها ، والتى حظيت باعتبار دستورى فى الواقع ، بفضل القرار التاريخى الذى أصدرته المحكمة العليا فى قضية « براون ضد توبيكا » (١٩٥٤) ، أخذت تنمو فى القوة بدرجة تنذر بأن لا سبيل لمقاومتها . ولقد أسهمت فى هذا النذير ثلاثة أمور : أولاً ، مجموعة طويلة من القرارات المتعاقبة للمحكمة العليا ، تزيل آخر أشلاء مبدأ « الفصل مع المساواة » بين العناصر ، وتقضى على أكثر أشكال التفرقة العنصرية علانية ، وتضفى شيئاً من الحقيقة الواقعية على ضمانات المساواة التى طال تجاهلها ، وتنفذ حق الانتخاب على كل مستوى ، وثانياً ، يقظة ضمير فى الشمال ، صحبتها فورة إدراك لما لأصوات الزنوج من نفوذ ممكن ، لا سيما فى المدن الكبيرة ، حيث أصبح الزنوج يؤلفون فئة سياسية غالبية . وثالثاً ، وهذا أهم الأمور الثلاثة ، تقرير قادة الزنوج ــ كالأب مارتن لوثر كينج ، وإيه . فيليب راندولف ، وثيرجود مارشال ، وجيمس بالدوين وسواهم ــ أن يتولوا بأنفسهم قيادة حملة نضال من أجل المساواة فى الحقوق . ولم تحن الستينات من القرن حتى كانت هذه الحملة قد بلغت أبعاد ثورة سلمية . إذ قام الزنوج ، وهم يرددون نشيد معركتهم « لسوف نقهر » ، بحملة شبيهة بانتقاضة الشعبيين فى التسعينات من القرن الماضى ، حركة كانت مستقلة تقريباً عن حملات المساواة التى سبقتها ، والتى قامت تحت تسلط البيض الليبراليين . فقام القادة بدور إيجابى فى الشؤون السياسية فى كل مكان ، وأقبلوا على حملة إعلامية وتعليمية شديدة العنفوان ، ونظموا مظاهرات اعتصام ومسيرات فى ولايات

المسيسيبى وألاباما وجورجيا ، ثم فى العاصمة القومية ذاتها ، واستخدموا أساليب المقاطعة الاقتصادية ، وخاضوا كل قضية تعصب عنصرى أوحرمان من الحقوق فى المحاكم .

كان قانون الحقوق المدنية لسنة ١٩٥٧ غير واف ولا فعال ، كما كانت التكهنات تتنبأ له ، وبات من الواضح أن الحزب الذى أدرج تحرير العبيد وحقوق الزنوج فى الدستور قبل قرن ، قد أخفق فى الإفادة من فرصة هذا النص الدستورى . ولم يكن لأى موضوع لدى الرئيس كينيدى أهمية تفوق ما للحقوق المدنية ، إذ كان كسليل للأيرلنديين على إلمام بطرف من تاريخ الاضطهاد ، وكان كاثوليكى قد صادف وناضل تحاملاً لم يكن يختلف كثيراً عما كان كل زنجى يعانيه فى كل يوم . كذلك كان قد أوتى إدراكاً غير جامد بالتاريخ ، فكان يعرف أن الولايات المتحدة فى خطر من أن تفقد زعامتها الأدبية فى أرجاء شاسعة من الكرة الأرضية بفضل المظالم التى تلحقها بمواطنيها الزنوج . وفى نداء مؤثر ، فى يونيو سنة ١٩٦٣ ، قبيل وفاته ببضعه أشهر ، قال الرئيس محذراً : « إننا نواجه أزمة خلقية ، لا سبيل للتصدى لها بعمل بوليسى ، ولا سبيل لمعالجتها بالمظاهرات المتزايدة فى الشوارع ، ولا سبيل إلى تهدئتها بخطوات رمزية أو بالكلام . لقد حان الوقت للعمل فى الكونجرس ، وفى ولاياتكم وهيئاتكم التشريعية المحلية ، وفى حياتنا اليومية بأكملها » . ولكن الكونجرس لم يشأ أن يعمل ، للأسف . واستمرت الوحشية البوليسية ، والظلم ، والإحباط ، والتعصب العنصرى ، وكذلك استمرت المظاهرات ، والمسيرات ، والاحتجاجات . . احتجاجات بلغت ذروتها فى مسيرة إلى واشنطن هائلة ، ضمت مائتى ألف زنجى تقريباً ، فى أواسط صيف سنة ١٩٦٣ .

وكما ورث الرئيس جونسون الكثير من برنامج كينيدى التشريعى ، فإنه ورث تحمسه المتأجج للمساواة والعدالة الاجتماعية . فقد قال فى خطاب بجامعة واين فى أوائل سنة ١٩٦٤ : « إلى أن تعمى العدالة عن اللون ، وإلى أن يغفل التعليم أمر العنصر ، وإلى أن تكف الفرصة عن أن تزيغ بصرها عن لون الانسان ، فإن تحرير الرق سيظل مجرد إعلان ، ولن يكون واقعاً » . وكان مصمماً على أن يجعله واقعاً ، فإن صدمة اغتيال كينيدى ، واقتران هذا العمل المتهور بالجنوب ــ مصادفة فى الواقع ، وإن لم يخفف هذا التصادف من أثره على المشاعر ــ قاما بالكثير لدفع الرأى العام إلى العمل ، فى حين أن مقدرة الرئيس الجديد البارعة على الظفر ببغيته من الكونجرس كانت مسئولة عن ترجمة

هذا العمل إلى قانون . فكان قانون الحقوق المدنية لسنة ١٩٦٤ أول قانون فعال للحقوق المدنية حقاً ، فى طيلة مائة عام . إذ حرم التمييز العنصرى فى جميع أنواع المرافق العامة ــ من فنادق ، وسيارات (موتيل) ومطاعم ، وملاعب ، ومسارح ، ومكتبات عامة ــ وفى العمالة والتشغيل ، وفى نقابات العمال التى لا تقل عن ذلك أهمية . ولإقصاء « التبصر المتأنى » عن اتخاذ الإجراءات « بكل سرعة مقترنة بالتبصر » لمحو التفرقة العنصرية من المدارس خوّل القانون الحكومة الاتحادية أن تقطع الاعتمادات المالية عن أية مدرسة تستمر فى التمييز العنصرى . وللتغلب على التخريب البشع المرذول الذى كان يمارس فى معظم الولايات الجنوبية ضد التعديل الخامس عشر للدستور ، حظر القانون التمييز العنصرى فى تطبيق قوانين القيد فى الجداول الانتخابية أو ممارسة حق التصويت فى أى انتخاب للاقتراع على شغل منصب اتحادى ، ونص على أن يكون الإلزام فى ستة صفوف فى المدرسة ، مفترضاً أنها كافية لتعليم القراءة والكتابة . وإلى جانب تحريم ضريبة الرؤوس فى الانتخابات الاتحادية بفضل التعديل الرابع والعشرين للدستور ، فإن هذه النصوص قطعت شوطاً كبيراً نحو ضمان تصويت الزنوج فى الانتخابات المقبلة . وكانت انتخابات سنة ١٩٦٤ ، التى أدلى فيها ملايين من الزنوج بأصواتهم ، مثالاً صوّر أكمل تصوير أثر نفوذ الزنوج فى السياسة الأمريكية .

المحاكم والحقوق المدنية

من أروع التطورات فى الخمسينات والستينات من القرن الحالى ، نبذ ممارسة الحجب القضائى ، وعودة بروز المحكمة كقوة حاسمة فى الحكومة والمجتمع الأمريكيين . إذ كانت المحكمة العليا قد ظلت عشرين عاماً ــ منذ معركة حكومة روزفلت مع المحكمة ــ تنأى بنفسها متحاشية التدخل فى حلبة السياسة أو الاقتصاد ، تسليماً منها بأن هذين المجالين يدخلان فى اختصاص الفرعين السياسيين لنظام الحكم التنفيذى والتشريعى . فلما تولى إيرل وارين منصب كبير القضاة فى سنة ١٩٥٣ ، أقبلت المحكمة على دور أكثر إيجابية ونشاطاً ، لاسيما فى مجال الحريات المدنية . وكان القاضى فرانكفورتر قد حث على أن تمارس المحكمة فى هذا المجال عين ما كانت تبديه فى المجال

الاقتصادى من ضبط النفس . ولكن المحكمة أقبلت بازدياد على اتخاذ الموقف الذى نبه إليه القاضى ستون فى حيثيات حكمه المشهور فى قضية منتجات كارولين فى سنة ١٩٣٨ :

> ما من ضرورة تدعو الآن إلى دراسة ما إذا كان التشريع الذى يقيد الدعاوى السياسية التى يرتقب عادة أن تؤدى إلى إبطال التشريع غير المرغوب فيه ــ يجب أن يعرض دون معظم التشريعات الأخرى لبحث قضائى دقيق على ضوء التحريمات الواردة فى التعديل الرابع عشر للدستور . وليست بنا حاجة إلى التحقيق فيما إذا كانت مثل هذه الاعتبارات تدخل فى إعادة النظر فى القوانين الموجهة إلى . . الأقليات العنصرية . وهل من الممكن أن يكون الإجحاف الواقع بالأقليات المنفصلة والمغلقة حالة خاصة ترمى بدرجة خطيرة إلى الحد من عمل تلك الإجراءات السياسية التى يُركن إليها عادة لحماية الأقليات ، والتى قد تدعو إلى مزيد من التحرى والبحث القضائى يتناسب معها .

وكان تهديد المكارثية ، وما تضمنه من ملابسات بعيدة المدى بالنسبة لنزاهة « تلك الإجراءات السياسية التى يركن إليها عادة » ، هو الذى حمل المحكمة على التصديق على هذه الفتوى وإن لم تطبقها فى كل الحالات . ومع استمرارها فى العزوف عن التدخل فى التدابير الاقتصادية التى كانت تصدر عن الفرعين السياسيين للحكم (الهيئتين التنفيذية والتشريعية) ، مع رفض امتداد سلطان الهيئة القضائية إليها فى أغلب الأحيان ، فإنها اتخذت دوراً متزايد الايجابية والنشاط فى الذود عن الحقوق والحريات المدنية . ولم تحن الستينات حتى كانت هذه المشكلة تستغرق حوالى ثلثى مهمة المحكمة . فقد أخذت المحكمة تعمل بثقة متزايدة على حماية المواطنين من حكوماتهم ومن أنفسهم ، وبتعيين القاضيين ، برينان وجولدبيرج انتقل مركز الثقل القضائى من الجناح المحافظ إلى الجناح الأكثر تحرراً (ليبرالية) ، أومن الجناح الأكثر سلبية إلى الجناح الأكثر إيجابية فى المحكمة . وقد بثت المحكمة برئاسة وارين روحاً جوهرية فى ضمانات المساواة الواردة فى التعديل الرابع عشر للدستور ، وفى المادة الخاصة بـ « المساواة فى الحماية » كذلك ، ودعمت حقوق المواطنين فى السفر إلى الخارج ، واجتثت التدخل غير السليم فى الحرية من ناحية البيروقراطيين الذين تسلطت عليهم عقلية الأمن واللجان التشريعية المعنية

بـ « الـولاء » ، وأحرزت بعض التقدم نحو إيضاح الحقوق الحديثة البروز ، والمتعلقة بحـرمـة الأسرار الشخصية والحرية الأكاديمية . ولقد ساندت ضمانات حرية الكلام والصحافة ضد كافة أنواع الرقابة ، لاسيما فى قضية اتهام المسئولين فى مدينة برمنجهام ، بولاية ألاباما لصحيفة « النيويورك تايمز » بالقذف ، إذ زعموا أن نشر الظلم العنصرى فى تلك المدينة تشهير بالموظفين المسئولين . كما أنها حمت حق التجمع وتنظيم الجمعيات من اعتداءات الولايات الجنوبية التى سعت للقضاء على تنظيمات مثل الجمعية القومية لتحسين مستوى الملونين واتحاد الحريات المدنية ، وأصرت على الاجراءات القضائية التى كانت تضفى معنى واقعياً على المفهوم المناسب للدعوى فى المحاكمات الجنائية .

ولم تكن المساهمات القضائية فى الديمقراطية بأقل شأناً من هذه ، ومع أنها كانت غير مباشرة فى الواقع ، فإن ذلك لم يقلل من مفعولها . فلقد كانت المناطق الريفية ، فى كل مكان من الولايات المتحدة تقريباً ، تحظى بأكثر من حقها من التمثيل فى الهيئات التشريعية للولايات ، بينـما كانت المنـاطق الحضرية تحظى بأقـل من حقهـا ، حتى أصبحت المجالس التشريعية فى معظم الولايات خاضعة ــ فى النهاية ــ لسيطرة أقليات كان مركزها وسلطانها يبدوان فوق كل مساس . والواقع أن دوام التمثيل الأكثر والأدنى مما ينبغى جعله وضعاً متجمداً فى الإجراءات الدستورية . وكانت المحكمة العليا قد رفضت فى سنـــة ١٩٤٦ قضية ضد سوء التـوزيع النسبى فى الهيئـة التشريعية لولاية اللينـوى ، لعـدم وجـود قانـون يمنحهـا سلطان البت فيها « قضية كوليجروف ضد جريْن » . ولكنهـا بعـد ستة عشر عاماً أقدمت فى جسارة على التدخل فى الاجراءات السياسية بأن قبلت البت فى قضية ضد سوء التوزيع النسبى فى ولاية تنيسى . فقضى القرار فى قضية « بيكر ضد كار » ١٩٦٢ بأن توزيع المقاعد فى المجلس الأدنى (النواب) بالهيئة التشريعية قائم على التمييز العنصرى ، فهو خرق للمادة الخاصة بالمساواة فى الحماية بالدستور الاتحادى . وبسطت المحكمة هذا الرأى بعد عامين حتى تناول المجالس العليا (الشيوخ) كذلك ، فوطدت بالنسبة لحكومات الولايات مبدأ « صوت واحد ، للمرء الـواحـد » ، لا أكثر ولا أقل ، وكانت هذه القرارات تبشر بإحداث ثورة فى الشؤون السياسية الأمريكية تضارع تلك التى ترتبت فى المجال الاجتماعى على قضية « براون ضد توبيكا » قبل ذلك بعقد من الزمن . وقد مهدت مع قانون الحقوق المدنية الذى دعم الضـمانات الواردة فى التعديلين الرابع عشر والخامس عشر للدستور ، ليوم يكون فيه

لجميع الأمريكيين حق الانتخاب ، وتتساوى فيه الأصوات وزناً . وكان هذا يعنى تحولاً فى مركز الثقل من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية فى أمريكا ، ومن الزراعة إلى العمل ، كما كان يعنى مزيداً من الاعتراف الصادق بالزنوج . واليوم ــ فى الستينات ــ بات من الممكن توقع إمكان تحقيق الوعود بالمساواة والديمقراطية ، بعد انقضاء قرن أو مايقرب من القرن من بذلها .

أمـريكا اللاتينية والتحـالف من أجل التقـدم

إذا كانت السياسة الأمريكية نحو أوربا فى سنوات ما بعد الحرب قد أثبتت نجاحاً واضحاً ، وإذا كانت السياسة الأمريكية نحو آسيا قد أسفرت عن تعادل مخيب للآمال بين النجاح والفشل ، فمن الممكن القول بأن أبرز الأمور بصدد العلاقات مع أمريكا اللاتينية تمثل فى عدم وجود أية سياسة . ومن الصحيح أن فرانكلين روزفلت أقام سياسة « حسن جوار » ، بيد أن حسن الجوار كان ، فيما بدا ، مسألة سلبية أكثر منها إيجابية ، مسألة كف عن التدخل فى الأمور الداخلية لدول أمريكا اللاتينية ، وجعل مبدأ مونرو متعـدد الأطـراف ، شكـلاً على الأقل . ولقد كانت دول أمريكا اللاتينية ــ فيما عدا المكسيك وشيلى إلى حد ما ــ فى غمار أزمة اقتصادية واجتماعية كبرى . إذ كان السكان فى نمو أسرع مما فى أى جزء آخر من الكرة الأرضية ، دون أن يقترن ذلك بزيادة مناسبة فى الثروة أو الطاقة الإنتاجية ، فأخذت الثغرة بين الفقراء والأغنياء فى الاتساع ، وإزاء تحول الأغنياء وذوى النفوذ إلى السلطة العسكرية للحفاظ عن النظام ، اتجه الفقراء إلى الثورة . وفى غمرة تورط الولايات المتحدة فى أرجاء الأرض الأخرى ، فإنها لم تبد اهتماماً يذكر بحظوظ ومحن جاراتها الجنوبية ، حتى إذا ما تدخلت بدا أنها انحازت لصف لنظام والـوضـع القـائم وليس لصف الاصلاح . فلقد بلغ من خوف الولايات المتحدة من الشيوعية فى أمريكا اللاتينية ، أنها آثرت الديكتاتورية العسكرية على المصلحين الذين قد ينسـاقون أكثر مما ينبغى إلى اليسار ، وساندت أمثال باتيستا فى كوبا ، وتروجيلو فى جمهورية الدومينيكان ، وبيرون فى الأرجنتين ، وخمينيز فى فنزويلا .

ولقد حاول الرئيس أيزنهاور إصلاح علاقاته مع أمريكا اللاتينية ، خلال العامين

الأخـيرين من حكمـه . فبالرغم من رفضه اقتراحاً برازيلياً بمشروع مارشال لأمريكا اللاتينية ، فإنه أقدم بمبادرة منه على إقامة بنك تنمية لدول الأمريكتين ، برأسمال قدره بليون دولار ، قدمت الـولايات المتحـدة نصفـه تقـريباً . ووصلت استثمارات أخرى للحكـومـة فى أمـريكـا الـلاتينية إلى أربعـة بلايين من الدولارات ، فى حين تجاوزت الاستثمارات الخـاصـة غير الحكـومية تسعة بلايين . على أن كل هذا وإن بدا لمعظم الأمـريكيين شكلاً من أشكال المعونة الاقتصادية ، فإن الأمريكيين اللاتينيين رأوا فيه إمبريالية اقتصادية . وفى سبتمبر سنة ١٩٦٠ ، ظهرت خطة تعاونية لا يمكن وصفها بغـير أنها صادقـة الغاية ، تمثلت فى قانون بوجوتا ، الذى خوّل الحكومة منحة قدرها نصف بليون من الدولارات لمساعدة التقدم الاجتماعى والتربوى ، وليس الاقتصادى وحده ، فى أمريكا اللاتينية . وقد قال الرئيس أيزنهاور عند زيارته سانتياجو فى شيلى : « لسنا قديسين . فنحن نعرف أننا نرتكب أخطاء ، بيد أن قلبنا فى وضع سليم » .

ولكن ، أكـان ذلـك حقاً ؟ لقد واجه الرئيس كينيدى عين المعضلة التى حيرت الرؤساء السالفين . كان من الواضح أن من الأمور الجوهرية توفير معونة واسعة للدول القائمة جنوب ريو جراندى ، ولكن هل تتجه هذه المعونة إلى تدعيم نظم حكم قائمة وبذلك تسهم فى الابقاء على الوضع الراهن ، أوتستخدم فى تعجيل خطى الاصلاح الاجتماعى ، ولو انطوى هذا على خطر قيام ثورة ؟ كان كينيدى فى سنة ١٩٥٨ ، وهو بعد عضو فى مجلس الشيوخ ، قد أكد « أنه يجب ألا تكون غاية برنامجنا لمعونة أمريكا الـلاتينية هو شراء حلفـاء ، وإنـما تعـزيز نصف الكـرة الأرضية الغـربى كعـالم حر وديمقـراطى ، وتخفيف تلك الأحوال التى قد توفر فرصاً للتسلل الشيوعى ، وتوحيد شعـوبنـا على أسـاس . . مستويات معيشة مطردة الازدياد » . هذا الاقتناع بأن رفع مستويات المعيشة كان خير أسلوب لكبح جماح الشيوعية ، ألهم كينيدى بعد أن صار رئيسـاً مشروعـاً جريئـاً ، هو إنشاء التحالف من أجل التقدم . . وهو مشروع لعشر سنوات يحقق لأمريكا اللاتينية ما فعله مشروع مارشال لأوربا الغربية . مشروع يكون ثورة سلمية على نطاق نصف الكرة الأرضية . . جهداً تعاونياً واسع النطاق ، لا شبيه له فى الضخـامة وسمو الغرض ، لإشباع الحاجات الأساسية لأهل أمريكا فى البيوت والعمل والأرض والصحة والمدارس . ولتحقيق هذا تعهدت الولايات المتحدة بتقديم منحة أولوية قدرها بليون دولار ، مع وعد ببلايين أخرى فى المستقبل .

على أن الرئيس لم يكن يملك ، وهو يعد بالمزيد من المعونة ، سوى أن يلاحظ أنه « ليس بوسع أى قدر من الموارد الخارجية ، ولا أية نظم جديدة تجمع بين الدول الأمريكية ، أن تحقق التقدم لدول لم تؤت استقراراً سياسياً وقيادة مصممة على التقدم » . فهل كان معنى هذا أن الولايات المتحدة ستستخدم التحالف من أجل التقدم لمساندة نظم الحكم القائمة أو لمقاومة تلك التيارات العميقة ، تيارات الثورة الاقتصادية والاجتماعية التى كانت تنذر فى كل مكان بالتفجر عن قلاقل وعنف ، فكثيراً ما كان هذا يحدث فى الماضى . وقدر لكوبا أن تقدم تحدياً جديداً ، تجربة جديدة ، ولكنها للأسف تجربة ألقت الضوء على المشكلة الحقيقية .

لقد ظلت كوبا قرناً ونصف القرن بمثابة رأس الملك تشارلز لأولئك الذين كانوا يديرون دفة السياسة الخارجية الأمريكية . فكان جيفرسون يرى أنها داخل نطاق النفوذ الأمريكى دون مراء . وكان جون كوينسى آدمز يتطلع بثقة إلى دخولها فى عداد الولايات المتحدة فى نهاية الأمر ، ولقد حاول بيان أوستند سنة ١٨٥٤ ــ الذى يذكر بالسوء ــ أن يضغط على إسبانيا ليدفعها إلى بيع الجزيرة للولايات المتحدة ، كما أعلنت لجنة تابعة لمجلس الشيوخ قبيل الحرب الأهلية مباشرة أن « من الممكن اعتبار الاستحواذ النهائى على كوبا غرضاً ثابتاً محدداً » . ومع أن الولايات المتحدة لم تشأ التدخل فى حرب السنوات العشر ١٨٦٨ - ١٨٧٨ ، فإنها تدخلت فعلاً فى الثورة التى عادت إلى الانفجار فى سنة ١٨٩٥ ، بصفة قاطعة فى هذه المرة : فإن الحرب الاسبانية الأمريكية جلبت الاستقلال للجزيرة المضطربة ، ولكنها ظلت مع ذلك داخل نطاق النفوذ الأمريكى ، وقد حجزت الولايات المتحدة لنفسها قاعدة بحرية فى جوانتانامو . ولقد تدخلت الولايات المتحدة بالقوة فى شؤون كوبا ، فى سنة ١٩٠٦ ثم فى سنة ١٩١٧ ، لحماية الممتلكات الأمريكية . بيد أن الولايات المتحدة ظلت حوالى أربعين عاماً ، بعد ذلك الحين ، تتبع سياسة عدم التدخل .

ولقد ظلت الجزيرة طيلة الخمسينات من القرن مصدراً لقلق متزايد للولايات المتحدة ، إذ بدا من الواضح أن الشعب الكوبى سيثور حتماً على الطاغية الجبار فولجنشيو باتيستا الذى تولى الحكم فى سنة ١٩٥٢ . ومن المكسيك ، أبحر فى سنة ١٩٥٦ زعيم للطلبة يدعى فيدل كاسترو إلى كوبا ليحشد أتباعه للعصيان . ولم ينقض عامان حتى كان قد أفلح فى خلع باتيستا وأقام نفسه فى مكانه . ولقد قوبلت ثورة كاسترو

بتحمس فى معظم الجمهوريات الأمريكية فى البداية ، على أنه سرعان ما اتضح أنه كان يعتزم إقامة حكم ظالم يسارى يعادل حكم باتيستا الظالم اليمينى . فرفض إجراء انتخابات ، وكبت الحريات المدنية ، وأعدم مئات من الأسرى بعد محاكمات كانت مسخاً للعدالة وسخرية منها ، وغمر الاقتصاد الكوبى فى الارتباك بفضل إصلاحات متعجلة سيئة الدراسة ، وانتزع ممتلكات الأمريكيين والأجانب من أراض ، ومشروعات تجارية وصناعية ، ومؤسسات للمنافع العامة ، ومصارف . ولقد كان من الممكن التسامح إزاء هذه الأعمال لو لم يوضح كاسترو اعتزامه إقامة دولة شبه شيوعية فى كوبا ، وأن يوثق ارتباطه بالاتحاد السوفييتى ، ويعكف على برنامج لإثارة انقلابات فى دول أمريكا اللاتينية الأخرى .

كان الشعب الأمريكى فى تلك الأثناء قد ازداد حساسية إزاء تطاولات الشيوعية على أمريكا اللاتينية . ففى أوائل الخمسينات من القرن ، اتخذت الحكومة التى أقامها جاكوبو أربينز فى جواتيمالا لوناً شيوعياً ، فصادرت الأراضى ، وغررت بنقابات العمال ، ووضعت الصحافة تحت رقابة شديدة ، واستوردت الأسلحة من بولندا لتقابل التذمر الشعبى بالتخويف . ولقد جعلت متاخمة جواتيمالا لقناة بناما هذا الموقف خطيراً ، وبعد محاولات دون طائل ، عن طريق منظمة الدول الأمريكية ، لكبح التسلل الشيوعى ، عمد الوزير دالز إلى تسليح وتشجيع غزو قام به ثوار من أبناء جواتيمالا لهذه البلاد من ناحية هوندوراس ، مما أدى إلى الاطاحة بحكم آربينز واستبدال حكومة محافظة به . ولقد هدأ هذا الحل الخشن للمشكلة من هواجس الولايات المتحدة ، ولكن بثمن تمثل فى عدم رضاء واسع شاع فى أرجاء أمريكا اللاتينية .

تدفق آلاف من اللاجئين من كوبا على البلاد المجاورة ، بعد سنة **١٩٥٩** . فأما الذين ذهبوا إلى جمهورية الدومينيك فقد حظوا باستقبال ودى من الجنرال تروجيلو ، الذى كان متعاطفاً مع زميله الديكتاتور باتيستا ، وسرعان ما نظموا غزواً لكوبا تجمد على ساحل الدومينيك . ولقد هربت أعداد كبيرة من اللاجئين إلى فلوريدا ، حيث أخذوا يدبرون ويعدون العدة للعودة إلى جزيرتهم والاطاحة بالديكتاتور ، فى حماية وبمساعدة أمريكيتين رسميتين . وفى تلك الأثناء ، كان كاسترو قد ازداد اقتراباً من الشيوعية والاتحاد السوفييتى ، فزار كوبا فى فبراير سنة **١٩٦١** ميكويان نائب رئيس الوزراء السوفييتى ، لتدبير معونة اقتصادية وعسكرية كبيرة النطاق للجزيرة . ومن الجلى

أن الاتحاد السوفييتى كان يأمل فى أن تقوم كوبا بدور المركز لتصدير الأيديولوجية الشيوعية والحركات الهدامة فى كافة أرجاء أمريكا اللاتينية . ولقد بادرت الولايات المتحدة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع كاسترو ، وحذت حذوها اثنتا عشرة دولة من دول أمريكا اللاتينية .

ولقد حدثت خطوة غير متروية أضرت بالمركز الأدبى لأمريكا فى الأزمة الكوبية ، عقب تولى الرئيس كينيدى الحكم بوقت قصير . إذ أن وكالة المخابرات المركزية برئاسة آلن دالز ، كانت قد سلحت خفية أعداداً كبيرة من اللاجئين الكوبيين ودربتهم ، فى عهد حكومة أيزنهاور ، مخالفة فى ذلك قوانين الولايات المتحدة والقانون الدولى معاً . فحاول حوالى ألف وخمسمائة من هؤلاء ، غزو كوبا عند خليج الخنازير ، مبحرين فى ١٧ أبريل سنة ١٩٦١ من أمريكا الوسطى ومن فلوريدا ، بمساعدة سفن أمريكية ، ولكن دون تدخل طائرات أمريكية . ولقد منى الغزو بفشل شنيع ، وصار كاسترو ــ الذى اتهم الأمريكيين فى البداية بـ « عدوان جبان » ــ قادراً على المجاهرة بتفوقه على الأمريكيين . وقد قبل على الفور جائزة لينين للسلام التى منحه الاتحاد السوفييتى إياها ، وعرض تبادل حوالى ١٢٠٠ أسير وقعوا فى يده ، مقابل نقود سائلة وآلات زراعية . وقد اضطرت الولايات المتحدة تحت حكم الظروف إلى أن تدفع حوالى ٥٣ مليون دولار . وكانت طريقة غير كريمة لمنح معونة خارجية .

كانت هذه هى خلفية أحداث خريف عام ١٩٦٢ .

إذ ظلت وزارة الخارجية وقتاً وهى مصرة على الزعم بأن الولايات المتحدة لم تكن مشتركة اشتراكاً مباشراً فى حملة خليج الخنازير الفاشلة . ومع ذلك ، رفض الرئيس كينيدى فى الوقت ذاته أن يسلم بأن الولايات المتحدة لن تقدم ، فى أى موقف ، على عمل عسكرى . وفى أوائل سبتمبر سنة ١٩٦٢ ، أنذر فى خطاب له بأنه :

> إذا قدر فى أى وقت للحشد الشيوعى فى كوبا أن يهدد أو يتعارض مع أمننا بأية طريقة . . أو إذا حاولت كوبا فى أى وقت أن تصدر أغراضها العدوانية بالقوة ، أو أن تهدد أية دولة فى هذا النصف من الكرة الأرضية بالقوة ، أو أن تصبح قاعدة هجومية لأية مقدرة ذات وزن للاتحاد السوفييتى ، فإن هذه البلاد ستقوم بأى عمل لابد منه ، أيا كان ، لحماية أمنها وأمن حليفاتها .

ولقد حانت هذه اللحظة بأسرع مما كان متوقعاً . فقد اكتشفت طائرات استطلاع أمريكية ، فى الأسابيع الأولى من أكتوبر . أن السوفييت قد أقاموا صواريخ قادرة على حمل رؤوس نووية إلى أية بقعة فى نصف الكرة الأرضية الغربى ، من كندا حتى بيرو ، وعلى تدمير جميع المدن الأمريكية الكبرى . ولم يتعرض مبدأ مونرو ، منذ مغامرة مكسيميليان المنكودة فى المكسيك قبل ذلك بقرن تقريباً ، لمثل هذا التحدى الصريح . وكان الرئيس مونرو قد صرح فى سنة ١٨٢٣ بقوله : « إننا بحكم الصراحة الصارمة ، وبحكم العلاقات الودية القائمة بين الولايات المتحدة وتلك الدول الأوربية ، مطالبين بأن نعلن بأننا سنعتبر أية محاولة من ناحيتها لبسط رقعتها إلى أى جزء من نصف الكرة هذا ، عملاً خطراً على سلامتنا وسلامتنا » . وها هى ذى محاولة ينطبق عليها هذا الوصف . وقد رد الرئيس كينيدى على هذا التهديد بحزم وشجاعة . فأعد القوات الجوية والبرية للعمل ، وعزز قاعدة جوانتانامو البحرية ، وأمر الأسطول بالقيام بدوريات فى المياه الكوبية ، وفرض حصار وقائى ضد استيراد الأسلحة وغيرها من المواد الخطرة . وفوق هذا ، طلب فك جميع قواعد الصواريخ فى الحال ، وإزالة الأسلحة والطائرات الروسية من الجزيرة . وقد أنذر الرئيس ــ فى خطاب مؤثر أذيع فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٦٢ ــ الشعب الأمريكى وبقية العالم بالأخطار المرتقبة :

> إن الطريق الذى اخترناه فى الوقت الحاضر ، ملىء بالأخطار ، شأنه فى ذلك شأن كل الطرق ، بيد أنه الوحيد الأنسب لشخصيتنا وشجاعتنا كأمة ، ولالتزاماتنا للعالم بأسره . . وليست غايتنا الظفر بانتصار ينم عن السطوة ، وإنما تدعيم الحق ، ليست غايتنا السلام على حساب الحرية ، وإنما السلام والحرية معاً ، فى هذا النصف من الكرة الأرضية ، وفى العالم كله كما نرجو .

وظل العالم يتأرجح على حافة حرب نووية بضعة أيام . غير أنه كان من الجلى أن خروشوف لم يكن أكثر رغبة فى حرب كهذه من كينيدى . فرأى السوفييت من الحكمة أن يقبلوا طلبات كينيدى ، وحصلوا من الولايات المتحدة مقابل ذلك على تعهد « بإنهاء الحصار الوقائى » وضمانات بألا تغزو كوبا . ولم يحن شهر نوفمبر حتى كان بوسع الرئيس أن يطمئن الشعب الأمريكى إلى حدوث تقدم فى إعادة استتباب السلام فى البحر

الكاريبى . وفى يناير سنة ١٩٦٣ . كان بوسعه أن يذيع أن أزمة الصواريخ الكوبية قد انتهت . وكان ثمة بضعة آلاف من الجنود السوفييت فى الجزيرة ، وقد أوحى هذا لبعض الحزبيين ــ مثل ديركسن وجولدووتر عضوا مجلس الشيوخ ــ بالمطالبة بسياسة أكثر إيذاناً بالحرب ، غير أن الرئيس أتاح للسوفييت الحفاظ على كرامتهم بانسحاب تدريجى منظم .

هذا الموقف الحازم من الرئيس ، لقن الاتحاد السوفييتى احتراماً جديداً لقوة الولايات المتحدة وتصميمها ، كما أنه أدى إلى تصفية الجو وتحسين فرص السلام فى الوقت ذاته . ونتيجة لذلك ، شاب الحرب الباردة شىء من الدفء الذى يصهر جليدها . وكان هارولد ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا العظمى قد أخذ يحض منذ فترة من الزمن على إنهاء تجارب الأسلحة النووية فى الجو ، إذ كانت تلوث الهواء بالغبار الذرى السام . . غبار لم يكن يفرق بين المشتركين فى المنافسات النووية والمتفرجين الأبرياء ، وقد انضم الرئيس كينيدى ، بعد هذه الأحداث ، إلى رئيس الوزراء البريطانى فى الدعوة إلى هذه الخطوة الحكيمة . وبعد مفاوضات طويلة ، وقعت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفييتى ، فى أغسطس سنة ١٩٦٣ ، معاهدة لإنهاء جميع التجارب النووية سوى تلك التى تجرى تحت سطح الأرض . وما لبثت مائة دولة أخرى أن وقعت الاتفاق . وأمسك ديجول عن التوقيع ، كذلك فعلت الصين التى كانت أكثر إنذاراً بالشر ، والتى كانت تسير بسرعة نحو أن تصبح دولة نووية . ولقد أجاز مجلس الشيوخ معاهدة حظر التجارب النووية بأغلبية من الحزبين بلغت ٨٠ صوتاً إلى ١٩ . فلم يحن ١٠ أكتوبر حتى كان بوسع الرئيس كينيدى أن يعلن ما كان ، كما توحى كل المرجحات ، أهم إنجاز لحكومته .

أزمة فى الشرق الأقصى

ارتد الغريمان ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، إلى مسلك أكثر تعقلاً وأقل عدوانية ، بعد أن أطلتا على أغوار الهوة النووية . ولم تكن معاهدة حظر التجارب النووية سوى أبرز ظواهر هذا المسلك . فقد كانت هناك ظواهر أخرى : بيع فائض القمح

إلى روسيا ، ومفاوضات التبادل الثقافى بين الدولتين ، والتعاون فى البحث العلمى والطبى ، واقتراح الرئيس كينيدى للارتياد المشترك للفضاء الخارجى ، وإن لم يسفر هذا عن شيء .

ولقد ساعد على انصهار جليد الحرب الباردة مع السوفييت تطوران كبيران . أولهما أن روسيا برحيل ستالين بدأت تخطو خارج المرحلة الأكثر صخباً وبدائية فى ثورتها وتنتقل إلى الاستقرار والدراية والتجربة . إذ كانت الثورة قد أصبحت حقيقة تم إنجازها ، كما أصبحت روسيا بعد انتصارها على هتلر دولة كبرى معترفاً بها فى العالم . ومع شعورها بمزيد من الاطمئنان ، فقدت شيئاً من تحمسها للحملات العنيفة وأصبحت أكثر استعداداً للاختلاط بجماعة أوربا الغربية . وثانى التطورين ، أن الصين بدأت تتجلى كدولة يحتمل أن تصبح أقوى الدول الشيوعية ، فهى مستعدة لتحدى السيطرة الروسية فى شمالها ، والنفوذ الروسى فى كل مكان فى آسيا . ولقد بدا التحدى من ناحية الصين ، فى نظر الصين ، أدعى للجزع من التحدى من ناحية الغرب .

والواقع أن انصهار الجليد فى العلاقات الروسية ــ الأمريكية لم يذهب بالعداء نحو الشيوعية أو التوجس منها فى الولايات لمتحدة ، بل أنه حوّل أهداف العداء إلى كوبا « كاسترو » وإلى الصين .

كان العداء للصين قد أصبح متغلغلاً ، ومطرد الاستفحال ، وما من شك فى أن هذا كان شعور الصينيين كذلك . ولقد أوشكت الحرب الكورية أن ترقى متطورة إلى حرب كبرى مع الصين . . وهذا ما كان خليقاً بأن يحدث لو نفذ الجنرال ماك آرثر خططه . وبقيام الهدنة المضطربة فى كوريا ، تحولت الأعمال العدائية إلى فورموزا ، حيث أبقى سلطان أمريكا ومواردها على شيانج كاى ـ شيك ، الطاعن السن ، فى الحكم . ومن الطبيعى أن الصين الأصلية ــ القائمة فى القارة الآسيوية ــ كانت مصممة على أن تبسط سلطانها على فورموزا ، فى حين أن الأمريكيين لم يكونوا أقل منها تصميماً على صيانة استقلال فورموزا . هذه المسألة بالذات ، هى التى أذكت الأحقاد بين الدولتين الكبريين .

كانت الدولتان الشيوعيتان الكبريان ــ فى القرن العشرين ــ دولتين توسعتين وإمبرياليتين (استعماريتين) وعسكريتين ، كما كان شأن بريطانيا وفرنسا وألمانيا فى القرن التاسع عشر . كان التوسع الروسى قد وصل إلى نهرى الالب والدانوب فى الغرب ،

وإلى سواحل المحيط الهادى فى الشرق ، فى حين أن نفوذها اشتد فى الشرق الأوسط بأسره . وها هى ذى الصين ، التى يناهز سكانها سبعمائة مليون نسمة ، تتربص ضاغطة على حدودها المباشرة ــ سيبريا ، والتبت ، والهند ، وكوريا ، وبورما ، ولاوس ، وفيتنام ــ وتحاول أن تمد نفوذها وسلطانها إلى الإندونيسيين والهنود واليابانيين . وكان الضغط يتخذ أحياناً شكل عدوان صريح ، كما حدث ضد التبت والهند ، ولكن الأكثر شيوعاً أنه كان يستخدم أساليب التسلل وإثارة الخواطر الهدامة .

وكانت لاوس ، ثم فيتنام ، أرض المعركة التى وجد الأمريكيون أنفسهم يناضلون فيها على غير توقع . كان الفرنسيون فى هذه البلاد ، التى كانت الهند الصينية الفرنسية ، قد سعوا دون ما جدوى للذود عن الحكم الذاتى المحلى وعن مصالحهم . فلما رحل الفرنسيون فى سنة ١٩٥٤ ، دخل الأمريكيون بالرغم من أن مصلحتهم أو طبيعة تعهدهم لم تكن واضحة تماماً . وسرعان ما واجه الأمريكيون كل المشكلات التى كان الفرنسيون قد واجهوها وذاقوا فيها الخزى .

وكانت لاوس هى التى بدت مركز المحنة والخطر فى أثناء الخمسينات وأوائل الستينات . كانت اتفاقية بين أربع عشرة دولة قد أقامت حكومة ائتلافية متأرجحة ، فكان هذا الائتلاف على شفا الانهيار باستمرار ، ولاح أن لاوس لابد أن تدخل فى نطاق النفوذ الصينى . ولتعزيز الائتلاف المتأرجح ، أوفدت الولايات المتحدة حملة عسكرية من الأسطول السابع ، وقوة من مشأة الأسطول ، وتم إقرار نوع من الصلح .

أما فيتنام فكانت تمثل مشكلة أشد صعوبة ، لم يظهر أن من الممكن تطويعها لأى حل . كانت اتفاقية جنيف سنة ١٩٥٤ قد رسمت خطاً بعرض وسط هذه البلاد التى مزقتها الحرب ، تاركة الشمال للفييت كونج الشيوعيين ، والجنوب لأية حكومة غير شيوعية يمكن أن تظل على قيد البقاء . وكان المقرر إجراء انتخابات حرة فى سنة ١٩٥٦ ، ولكن يوم إمكان إجراء هذه الانتخابات لم يحن أبداً . فى حين أن التسلل الشيوعى من الشمال ومن لاوس ، والمشاحنات الدينية بين الأقلية الكاثوليكية والأغلبية البوذية ، والتذمر الاقتصادى ، والفساد والحكومات عديمة الكفاءة ، تكاتفت جميعاً لتقضى على فيتنام الجنوبية بالاضطرابات الدائمة ، وتعرضها للخطر المستمر . وكان من الممكن أن تتقبل الولايات المتحدة هذا كله كجزء من الآلام المتزايدة فى الدول الجديدة ، وأن تقف جانباً . ولكن المسيطرين على السياسة الخارجية كانوا قد اعتنقوا

نظرية الدومينو . . النظرية القائلة بأنه إذا سقطت إحدى دول جنوب شرق آسيا فى أيدى الشيوعيين ، فإن كافة دول المنطقة حتى أقصاها ، أى إندونيسيا وماليزيا ، وحتى الهند كذلك ، ستتهاوى كقطع الدومينو . وهذا ما اقتنع به الرؤساء الأربعة أيزنهاور وكينيدى وجونسون ثم نيكسون . . فقد كانت لدى كل منهم محاذير خاصة ، تحولت إلى يقين لا يلين . وبموجب سلطة اتفاقيات منظمة معاهدة جنوب شرقى آسيا المحفوفة بالشك والتى ألـزمت الموقعين عليها بحماية جنوب شرق آسيا من العدوان الخارجى ، والتى كانت موجهة ضمناً ضد الصين ، أقبلت الولايات المتحدة لتضطلع بالمسئوليات التى عجز الفرنسيون عن تحقيقها . وهكذا وجد الأمريكيون أنفسهم وقد تورطوا باطراد فى نوع من الحرب المتراخية ضد فيتنامى الشمال وضد العصابات فى الجنوب . تلك الحرب التى لم يعلن عنها من قبل ، ولا أيدها الشعب الأمريكى .

وبرغم أن الرئيس أيزنهاور قاوم فى البداية تلك الضغوط التى استهدفت توريط الولايات المتحدة الأمريكية فى محاولة إنقاذ القوات الفرنسية فى فيتنام ، إلا أنه هو الذى دفـع بالأمريكيين إلى التورط فى آسيا حين أعلن تأييده للرئيس ديم . وورث الرئيس كينيدى هذه السياسـة بل ومضى أبعـد من ذلك بإعلانه اقتفاء أثرها أيضاً . ونتيجة لهذا . . كان على هانوى أن تعتمد على الصين والاتحاد السوفييتى .

حاول كينيدى فى البـداية التخلص من أى رغبـة تدفعـه للخـوض فى المستنقـع الآسيوى . . إلا أنــه انــدفــع فى تزويد فيتنـام الجنـوبية بالمســاعـدات العسكـرية والاقتصادية . كما أنه لم يعتمد على القوات البرية التقليدية فى مواجهة القلاقل فى تلك المنطقة ، بل اعتمد على جماعات « الحرب غير التقليدية » بما فيهم من خبراء فى التخريب والإرهاب . وتولت المخابرات المركزية الأمريكية عمليات التنسيق ضماناً « للأمن » . . فتم إرسـال بعثـات فنية أمريكية للمساعدات الفنية ، وقام المستشارون العسكريون بتدريب القوات الفيتنامية الجنوبية ، وقامت وكالة « التنمية الدولية » بإمدادهم بالمال اللازم ، فأصبحت هذه الوكالة بمثابة الكنز لرجال حكومة سايجون . بعد ذلك أصدر كينيدى أوامره السرية بإرسال خمسمائة رجل من ذوى « الباريهات الخضراء » إلى فيتنام ، وهم مجموعة من المقاتلين ذوى الكفاءة العالية المدربين على سحق الثورات . وقام العديد من المستشـاريين العسكـريين ــ نواة القوات التى وافق كينيدى على إرسالها فى فبراير ١٩٦٢ ــ بالـرد على إطلاق النار بحجة الدفاع عن النفس . بعدها تعهد الأمريكيون

بتدريب القوات الفيتنامية الجنوبية فى حالة « نشوب القتال » على حد تعبير روبرت مكنمارا وزير الدفاع الأمريكى آن ذاك ، ومع حلول عام ١٩٦٣ بلغ مجموع القوات الأمريكية فى فيتنام ١٦٠ ألف رجل . كما حلقت فى سمائها طائرات الهليكوبتر تنقل المجموعات دعماً للقتال . . وأخذ الطيارون الأمريكيون يدمرون أهداف العدو فى حين انشغل المستشارون العسكريون فى الإشراف على الغارات على الشمال وكذلك على عمليات التدمير وعمليات إخلاء السكان التى سُميت « الدرع الاستراتيجى » والتى قامت على فرض الهجرة على الفلاحين ليتم القضاء على الحياة الريفية التقليدية . وقد ازداد عدد هؤلاء المستشارين فى عهد الرئيس جونسون ، ومن ثم ازدادت عملياتهم العسكرية السرية . كانت المخابرات المركزية قد مهدت فى عام ١٩٥٨ لقيام ثورة فى لاوس أدت إلى تغيير نظام الحكم المحايد فى هذه الدولة . فتولى الحكم جنرال من الجناح اليمينى مهد لتدافع المستشارين العسكريين والمساعدات العسكرية إلى تلك الدولة المحاصرة .

بدأ ديم إظهار نوايا السلام مع حكومة هانوى . . غير أن هذا المسلك لم يرق لجنرالات فيتنام الجنوبية ، فنجحوا فى مقاومته وذلك بمساعدة السفير الأمريكى فى سايجون . . سراً ، وبمساعدة المخابرات المركزية . . علناً .

أما ليندون جونسون ، مرشح السلام فى حملة ١٩٦٤ الانتخابية ، فقد ورث أيضاً السياسة الفيتنامية من أسلافه . . بل مضى فيها قدماً . . لأنه خشى ــ مثل كينيدى ــ أن يُتهم بالهزيمة العسكرية أمام الشيوعيين . فتورط بذلك تورطاً كاملاً فيما يعرف « بالحرب الشاملة » . وبرغم العديد من التقارير المتفائلة فإن حقيقة الموقف السياسى والعسكرى قد انتقلت من السيىء إلى الأسوأ ، ورد الفعل عند جونسون هو المزيد من التأييد لحكومة سايجون الجديدة . وكلما ازداد التورط . . ازدادت معه عمليات رجال المخابرات المركزية وغارات الكوماندوز لنسف الجسور وتدمير المنشآت بطول الشاطىء . . وقد أدت إحدى هذه العمليات إلى حادث خليج تونكين الشهير فى ٢٤ أغسطس من عام ١٩٦٤ ، والذى بسببه اتخذ الكونجرس قرار « خليج تونكين » الذى يخول لرئيس الجمهورية سلطة اتخاذ قرار الحرب . وقد تمت الموافقة على هذا القرار فى الكونجرس بأغلبية صوتين . . وبدون أى معارضة فى مجلس الشيوخ ، فدفع الرئيس ، طبقاً لهذا القرار ، بقواته المسلحة إلى فيتنام لتقديم يد المساعدة لأى إقليم فى هذه

المنطقة يطلب العون دفاعاً عن حريته . وسرعان ما واصل جونسون قصفه المستمر شمال المنطقة منزوعة السلاح فتم تدمير الأهداف العسكرية والمدنية معاً فى تلك المناطق الصناعية المحاصرة بغير تمييز .

وبهذا يكون الرئيس جونسون قد ضرب عرض الحائط بتقارير المخابرات المركزية التى أفادت بأن هذا القصف ليس له أى تأثير مباشر فى الحد من قدرة هانوى على مواصلة دعمها للعمليات العسكرية . كما أنها أيضاً عديمة الجدوى فى وقف المد الشيوعى . واكتفى جونسون بالالتزام باقتراحات « مجلس الأمن القومى » بزيادة النشاط العسكرى . وأرسل تباعاً الوحدات البحرية للاشتراك فى القتال فى ربيع ١٩٦٥ . . بحجة العمل فى الأغراض الدفاعية فقط . واعتبر هذا القرار نقطة تحول فى السياسة الأمريكية . وبناءً على ذلك ارتفع مجموع القوات المشتركة إلى أن وصل إلى ٥٥٠ ٠٠٠ مقاتل . وارتفع لهيب الحرب بين قصف ومعارك . وبعد أن صرح الرئيس بقوله : « اننا لا نسعى لتوسيع دائرة الحرب » إذا بالغارات الجوية المجنونة تتواصل على مدى ثلاثة أعوام متتالية . وأصبح العديد من المناطق السكانية الضخمة فى فيتنام الجنوبية مناطق « مستباحة » من حق الطيران الأمريكى أن يقصف أى شيء « يتحرك » . وهكذا بدأ أشرس قصف جوى عرفه التاريخ . وقد صرح أحد مساعدى وزير الدفاع الأمريكى بقوله : « كنا نواصل القصف ملتزمين بشعار أنه لكى نقضى على قوات «الفيتكونج » فإنه يلزم دك كل القوى . . وسحق كل الغابات . . ثم يسوى بعد ذلك . . سطح أرض فيتنام كلها بالأسفلت » . وقبل نهاية عام ١٩٦٦ فاق وزن ما ألقى من قنابل على فيتنام الجنوبية بالطن . . كل ما ألقى على الباسيفيك فى مسرح عمليات الحرب العالمية الثانية . وقبل نهاية الحرب بلغ ما ألقته الولايات المتحدة من قنابل فوق جنوب شرقى آسيا . . ثلاثة أضعاف كلى ما ألقى من قنابل فى الحرب العالمية الثانية . وبمقدم عام ١٩٦٨ جاوز تعداد القوات البرية والجوية المشتركة فى القتال النصف مليون مقاتل ، عملوا جميعاً على تدمير القرى مستخدمين الكيماويات فى إزالة منطقة لا تقل مساحتها عن مساحة مساشوستس . . هذا غير الدمار الذى لحق بشطرى فيتنام الجنوبى والشمالى .

ولا عجب من أنه قبل نهاية عام ١٩٦٨ . . بدأت الحركات الداعية للسلام تأخذ شكلاً واضح المعالم فى أمريكا . وغمت أرجاء البلاد الأنشطة المناهضة للحرب . وخابت آمال جونسون فى الفوز بفترة رئاسة ثانية بسبب تزايد هذه الأنشطة المعارضة من ناحية . .

وبسبب هجوم اختبار قوة الحشود المهيبة الذى وقع فى ٣١ يناير ١٩٦٨ من ناحية أخرى . فقد أثبت هجوم « اختبار قوة الحشود » الشامل المذهل الذى قام به الفيتناميون الشماليون إفلاس الاستراتيجية العسكرية الأمريكية . وكان إهانة بالغة موجهة إلى برنامج جونسون فى فيتنام أما الذى أصاب الجميع بالدهشة بعد اختبار قوة الحشود فهو فوز مرشحى الحزب الديمقراطى المناهضين للحرب فى الانتخابات التمهيدية . . وكذلك استدعاء الجنرال وليم وستمورلاند قائد القوات الأمريكية فى فيتنام . . لقوات إضافية بلغت ٢٦٠٠٠٠ مقاتل . . وأصبح جلياً أنه لكى يتحقق النصر فلابد من تجميع رهيب للقوات مع مواصلة القصف ، وهو الأمر الذى يهدد بمواجهة مع الصين والاتحاد السوفييتى وهى مغامرة لم يكن بمقدور جونسون الإقدام عليها . واضطر جونسون إلى إعلان وقف عمليات القصف فى ٣١ مارس ، وذلك بسبب الهزة العنيفة التى أحدثتها عملية « اختبار قوة الحشود » وكذلك بسبب الانتقادات الحادة التى واجهت جونسون من أقرب المستشارين إليه . ليس هذا فحسب ، بل إن جونسون أعقب قراره هذا بتصريح أعلن فيه انسحابه من انتخابات الرئاسة التالية .

خاض نيكسون المعركة الانتخابية رافعاً شعار إنهاء الحرب . غير أن فوزه فى انتخابات ١٩٦٨ لم يحقق أى جديد فى هذا الشأن . بل على العكس من هذا أعلن نيكسون أن اشتراك أمريكا فى الحرب الدائرة جنوب شرقى آسيا يجب أن يكون « مثار فخار » ومضى يبحث عن حكومة قوية تناهض الشيوعية فى سايجون معلقاً كل آمال النصر على القوة الجوية الأمريكية فى فيتنام . وبمجرد توليه منصب الرئاسة أمر نيكسون مجموعة القاذفات ب ـ ٥٢ بقصف كمبوديا المحايدة بلا توقف على مدى أربعة عشر شهراً . وقد أخفيت أخبار هذا القصف على الشعب الأمريكى بل اضطرت الحكومة إلى تزييف نتائج الغارات . كانت هناك أيضاً أسرار أخرى غير معلنة من بينها قيام رجال المخابرات المركزية بتدريب قوات كمبودية فى اليونان ، وكذلك اشتراك قوات كوماندوز من فيتنام الجنوبية مع القوات الخاصة الأمريكية فى عمليات داخل الحدود الكمبودية . وقام أيضاً الرجال ذوو « الباريهات الخضراء » بغارات داخل حدود فيتنام الشمالية . هذا غير الطلعات الجوية الخاطفة التى قام بها الطيران الأمريكى داخل حدود الصين . . ولاوس . وبرغم هذا . . بدأ الرئيس فعلاً فى سحب بعض قواته البرية ببطء برغم أنه حقق نوعاً من التوازن حين دعم جيش فيتنام الجنوبية وكثف عدد الغارات

الجوية . وهذا ما أسماه نيكسون « فتنمة الحرب » . . أى استمرار الاشتراك فى الحرب . . لكن مع نقل الخسائر من الجانب الأمريكى إلى الجانب الفيتنامى .

وفى الثلاثين من أبريل عام ١٩٧٠ دفع الرئيس الأمريكى بقواته لغزو كمبوديا المحايدة . . بحجة أنها منطقة تجمع قوات العدو . ولأن هذا القرار جاء مخالفاً للقوانين الدولية . . وللولايات المتحدة ذاتها فقد اضطر نيكسون للدفاع عنه بقوله : « إننا لن نذل أبداً ولن نُهزم أبداً . . وإذا تحركت الولايات المتحدة على أساس أنها ذلك العملاق العطوف العاجز . . فإن قوى البغى والاستبداد ستهدد كل الحكومات الحرة والأمم المدافعة عن الحرية » . وبرغم هذا فقد أوجد هذا التوسع الاستبدادى فى الحرب حركة انتقادية حادة جداً داخل مجلس الشيوخ الأمريكى فأصدر المجلس فى الخامس من يناير عام ١٩٧١ قراراً يحظر تواجد أى حشود أمريكية داخل حدود كمبوديا بعد الثلاثين من يونية ومنع مساعدة القوات الجوية الأمريكية لقوات الجيش الكمبودى . ومن الأمور التى ساعدت على تفجر الشعور بالاستياء داخل الولايات المتحدة ذاتها عملية الهجوم على كمبوديا والتى سميت « الغزو » . وكذلك فظائع القوات الأمريكية التى كشف عنها ماى لاى والظروف المعيشية السيئة التى تعرض لها المسجونون من فيتنام الشمالية داخل سجن جزيرة كون سون الخاضع للإدارة الأمريكية ، ثم ذلك الهجوم الذى قامت به قوات فيتنام الجنوبية على لاوس وتلك الضربة العسكرية لخطوط الإمداد فى هانوى والتى تمت بمساعدة القوات الجوية الأمريكية . لكن نجح نيكسون فى تهدئة معارضيه داخل الولايات المتحدة بسحبه لقوات الغزو وملئه السماء بالطائرات الأمريكية .

أثناء ذلك وفى عيد الفصح عام ١٩٧٢ وجهت قوات فيتنام الشمالية ضربة أفقدت فيتنام الجنوبية توازنها وقوضت حصار المدفعية . فاستهدفت هانوى بعد ذلك وتم تلغيم ميناء هايفونج وعاد القصف مرة أخرى فبرره نيكسون بقوله : « لكى نكسب الحرب فى فيتنام ونضع نهاية لها » . وقد وقع هذا الاعتداء بعد أن وقع هنرى كيسنجر مستشار رئيس الجمهورية للشؤون الخارجية معاهدة للتسوية مع فيتنام الشمالية فى باريس فى أكتوبر ١٩٧٢ نصت على أن من حق هانوى وضع قوات لها فى فيتنام الجنوبية . ولأن أحداً لم يستشر نيجوين فان ثيو آخر رؤساء فيتنام الجنوبية . . فقد غضب من هذا البند ورفض توقيع معاهدة السلام . فلجأت الولايات المتحدة إلى قصف جوى استمر اثنى عشر يوماً إبان أعياد الميلاد عام ١٩٧٢ بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الحروب . .

من أجل تطييب خاطر الرئيس ثيو . . وحثه لتوقيع معاهدة السلام . وقد نجحوا فى ذلك بالفعل لأن حكومة هانوى وافقت على تقديم بعض التنازلات البسيطة . . ووافق ثيو على التوقيع فى يناير ١٩٧٣ . برغم أنه قد ثبت عدم جديته فى احترامه لبنودها فيما بعد . وطبقاً لهذه المعاهدة فقد تعهدت الحكومة الأمريكية بسحب قواتها من فيتنام على أن تستمر فى سد احتياجات سايجون من السلاح والمعدات . وقد خلفت أمريكا وراءها فى الجنوب عتاداً كان يمكن أن يحيل فيتنام الجنوبية إلى واحدة من أكبر الدول البحرية فى العالم . . ورابع أكبر جيش وسادس قوة جوية فى العالم كله .

وهكذا أصبح من حق الرئيس نيكسون الادعاء بأنه قد حقق « السلام المشرف » بعد حرب العشر السنوات المريرة فى جنوب شرقى آسيا . ولقد أثبتت الأحداث فيما بعد أنه لم يكن هناك ثمة « سلام مشرف » فى تلك الاتفاقيات . وقد بلغ ما أسقط من قنابل فوق فيتنام إبان حكم نيكسون الذى استمر ثلاث سنوات فقط . . كل ما أسقط من قنابل فوق آسيا وأوربا مجتمعين فى الحرب العالمية الثانية . وضحت الحكومة بحياة ١٥ ألف أمريكى . وبلغت الخسائر ١١٠ ألف جريح وخمسين بليون دولار ذهبت كلها أدراج الريح . أما فيتنام الجنوبية فقد فقدت ٦٠٠ ألف مواطن بين قتيل وجريح من أجل أن تمضى الأمور بصورة « مُشرفة » . وبشكل عام أدت هذه الحرب إلى فقد حياة ٥٥ ألفاً أضيف إليها خسائر بلغت ٣٥٠ ألفاً . . وفاقت نفقاتها ١٦٠ بليون دولار . أما الخسائر المعنوية والفكرية فلا يمكن تقديرها بمال . وجاء فى تقرير اللجنة التى شكلها مجلس الشيوخ أن الضريبة التى دفعتها فيتنام الجنوبية بلغت النصف مليون مقاتل بينما بلغت خسائر الأعداء المليون قتيل . هذا غير الخسائر التى بلغت المليون ونصف المليون مواطن . ولاحقت الحرب كمبوديا ولاوس فترة من الزمن وألحقت بها خسائر فى الأرض التى دكتها الغارات والدمار الذى لحق بالحياة فى القرى .

ومع ذلك . . لم تحقق المعاهدة السلام المنشود . . فقد دأبت كل من فيتنام الشمالية والجنوبية على انتهاكها . . وأمريكا أيضاً . ومن حقائق الأمور أنه بغير مساعدة أمريكا الفعلية لما قامت قائمة لحكومة الجنوب . فإن حكومة ثيو لم تحظ بولاء الشعب أو الجيش ولا حظيت بأى سند معنوى أو فكرى . . وقد مارست فيتنام الشمالية فى ذلك العام . . ضغوطاً رهيبة على فيتنام الجنوبية . وما أن حل عام ١٩٧٥ حتى أصبح جلياً أنه لكى يقف نظام ثيو المتداعى الفاسد . . على قدميه فلابد من دعم أمريكى هائل . ولم تأل

الإدارة الأمـريكية جهـداً من أجـل دعم الجنوب . إلا أن الكونجرس الأمريكى منع المسـاعـدات المفتوحة . . كما أن المساعدات المستترة لم تكن كافية ؛ لذا فإن السقوط والانهيار المفاجىء لثيو كان مثيراً للدهشة بالفعل . وفى الفترة ما بين شتاء وربيع عام ١٩٧٥ وبمساعدة عناصر متعددة فى الجنوب . . قامت فيتنام الشمالية باجتياح سايجون فى الوقت الذى خبت فيه قوة الحكومة . وانطلقت الصرخات اليائسة تطلب المساعدة العسكرية فى اللحظة الأخيرة وتنادى بالوساطة . وقد أعلن الرئيس فورد بوضوح لا يخلو من القسوة بأن تجديد المساعدات الأمريكية للجنوب كان كفيلاً بإنقاذ الموقف اليائس وتبديله . ولم يكن للأغلبية داخل الكونجرس ولا للسواد الأعظم من الشعب أى دخل فى صياغة حقيقة أن الأمريكيين والفيتناميين على حد سواء قد أنهكتهم الحرب تماماً . . وسعوا لوضع حد لها بأى وسيلة . وبهدوء زحفت القوات الشيوعية إلى فيتنام وكمبوديا محققـة الآمال المستحيلة فى الجنوب وقامت بوضع اليد على طائرات الدعم الأمريكى والـدبـابـات والمعـدات العسكرية الأخرى . وبعد أن ألحقت الهزيمة النكراء بقوات الجنوب قامت بمطاردة فلولهم المهزومة إلى سايجون وكأنهم شرذمة من الرعاع وليسوا قوات نظامية محاربـة . قبلت الـولايات المتحـدة الأمـر الواقع المحتم « لكن فى وقت متأخر جداً » . فقـامت على الفـور بعملية إجـلاء لقـواتهـا ولأصـدقـائهـا من الفيتنـاميين الجنوبيين . . ونجح حوالى ١٣٠ ألف فيتنامى جنوبى فى الفرار إلى أمريكا . وسقطت كمبوديا فى أيدى قوات الخمير الحمر من الشيوعيين المحايدين . . وكذلك لاوس . وفى ٣٠ أبريل ١٩٧٥ دخل الفيتناميون الشماليون وحلفاؤهم من الجنوبيين . . إلى سايجون . وانتهى بذلك صراع خمسة وعشرين عاماً من أجل قيام دولة فيتنامية مستقلة متحدة . أمـا بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية . فإن العشرين عاماً من التدخل والحرب فى فيتنـام لم تكن فقط بمثـابـة هزيمة عسكرية . . وإنما كانت كارثة سياسية ودبلوماسية ونفسية ومعنوية .

واستـطاعت فيتنـام أن تنزع نفسها وتتحرر من تلك الصورة الذاتية الثابتة التى فرضتها مقتضيات الأخلاق الأمريكية ، بنفس القدرة التى تحررت بها من ربقة تلك الفلسفـة « الجيوبـوليتيك » التى انقضى عليها عقدان دون أى اهتزاز . وبالتالى فقد أثبتت سياسة كل من جونسون ونيكسون فيما وراء البحار . . اختلافها عن سياسة الحرب الباردة لمن سبقوهما من رؤساء . . خاصة فيما يتعلق بالنفقات . فقد كان لديهما يقين

واحد مشترك . . هو نتاج مصدر واحد لا يتغير . . إن هناك التزامات وتعهدات أصبحت لها الصفة العالمية وليست المحلية كما فعل جيفرسون . أو أن يكون لديهم تعهدات للعالم الغربى كما حدث من بولك وكليفلاند وكانت هذه الاعتبارات نظرية بحتة . . أكثر منها عملية . ومنذ نهاية الأربعينات من هذا القرن وبشكل متزايد أصبحت استجابة الرؤساء الأمريكيين للتحديات ــ سواء حقيقية أو وهمية ــ تتم بشكل آلى . . وأحياناً بدون الرجوع إلى الكونجرس . . حيث إنه ما دام هناك تهديد للحرية ومن قِبَل « الشيوعيين » فيجب أن تكون الموافقة فورية وبغير حرج .

ومن المدهش أنه فى بعض البلدان الواقعة تحت التهديد مثل بوليفيا وبيرو وكوبا وسانتو دومينجو ، فقد قامت ــ وعلى الفور ــ قوات الباريهات الخضراء وبعض القوات الأمريكية بتنفيذ عمليات مضادة لحركات التمرد داخل هذه البلاد . وخوفاً من تكرار ما حدث فى ميونيخ وخوفاً من تتابع سقوط قطع الدومينو قامت المخابرات المركزية الأمريكية وبمعاونة مثيرى المظاهرات . . بتدريب قوات خاصة لمقاومة التمرد من داخل هذه البلاد . وبلغ عدد من دربتهم أمريكا فى الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٨ ما يزيد على ٤٠ ألفاً من أمريكا اللاتينية للقيام بما أسماه روبرت مكنمارا وزير الدفاع بتحقيق « الأمن الوطنى » . ووصل الأمر إلى حد تأييد أنظمة حكم قمعية . . سواء أكانت فى السلطة بالفعل أم فى طريقها إلى الاستيلاء على السلطة كما حدث فى إسبانيا واليونان . والدليل على هذا أنه حين أعلن جنرالات البرازيل استيلاءهم على الحكم فى عام ١٩٦٤ . . وأقصوا الرئيس الديمقراطى المنتخب جاواو جولارت بحجة إنقاذ البلاد من خطر الشيوعية أعلن جونسون على الفور اعترافه بالنظام العسكرى الحاكم . . الجديد .

لقد انشغل صانعو السياسة الأمريكية بشؤون جمهورية الدومينكان وتم الإطاحة بجوان بوش رئيس هذه الجزيرة المضطربة . . المنتخب دستورياً ، وذلك إثر ضربة عسكرية . وحين خرجت الحشود الشعبية فى الطرقات تهدد هذه الشرذمة العسكرية التى حكمت لفترة وجيزة . . طلب السفير الأمريكى التدخل العسكرى . وبدون أن يكلف الرئيس جونسون نفسه مشقة اللجوء إلى الكونجرس . . سارع بإرسال ٢٣ ألف رجل من مشاة الأسطول قاموا بسحق قوات الرئيس بوش الدستورية وأنقذوا النظام العسكرى الحاكم . ولتهدئة الموقف أعلن جونسون أنه لجأ إلى هذا لإنقاذ حياة الأمريكيين . . وظهر تفسير آخر يدعى أن الثورة الديمقراطية الشعبية كانت وشيكة السقوط فى أيدى

الشيوعيين المتآمرين ! وحقيقة الأمر أنه لم يكن هناك ثمة وجود لهؤلاء المتآمرين [١] . ولقد أدت تصرفات جونسون التى تمت بمسئوليته فقط فى مواصلة الالتزامات التى تعهد بها لإدارة المناطق المحتلة وفى اغتصابه للقوة التنفيذية . . إلى اهتزاز الهيمنة الأمريكية على العالم . . . أخلاقياً .

لقد أثبتت سياسة أمريكا فى أمريكا اللاتينية . . أن الأمة التى سبق وأن قادت ثورة وتحدت من أجل ذلك « الحلف المقدس » . . أصبحت هى الآن ذلك الحاجز العاتى الجبار ضد تيار الثورات . وللحفاظ على سياسة الوضع الراهن اضطرت أمريكا فى عام ١٩٦٨ إلى حشد ما يزيد على المليون مقاتل خارج حدودها وأكثر من ٣٣ ألف طائرة فى مطارات متناثرة حول العالم كله وعشرات الآلاف من الرجال فوق القطع البحرية ، وعدد مجهول من رجال المخابرات المركزية السريين المنتشرين داخل ما يقرب من ٦٠ دولة وكذلك شبكات مكونة من ألفى قاعدة صواريخ . وبالإضافة إلى كل هذا . . قامت بتسليح ومساندة أكثر من مليونين من المقاتلين فى أماكن متناثرة يعملون جميعاً تحت إمرة الديكتاتورية العسكرية . هذا غير إنفاق ٥٠ بليون دولار فى شكل مساعدات عسكرية لما يزيد عن عشرين دولة . . وقامت بنسج شبكة مكونة من خمسة أقاليم وأكثر من ٤٢ حلف دفاعى ثنائى .

وحين جاء نيكسون . . واصل نفس السياسة بالنسبة لكل أنحاء الأرض . . فقد دعمت إدارته الديكتاتورية العسكرية فى اليونان . . وساعدت فى الإطاحة بالأسقف مكاريوس فى قبرص . وباعت المقاتلات النفاثة إلى جنوب أفريقيا والبرتغال . . ثم خاضت صراعاً مريراً مع القوى المضادة فى المستعمرات الأفريقية وانتهكت قرار الأمم المتحدة الخاص بفرض عقوبات على حكومة جنوب أفريقيا . . بل ومنحتها تسهيلات اقتصادية وهى الدولة التى قاطعها العديد من البلدان الديمقراطية لسياستها العنصرية . أما بالنسبة لشيلى فقد عملت لجنة الأربعين السرية التى كان يرأسها هنرى كيسنجر ، مستشار الرئيس فى ذلك الوقت ، على تقويض النظام الديمقراطى الاشتراكى للرئيس المنتخب سيلفادور ألليندى . وتنصل البنك الدولى من كل التزاماته بالنسبة

(١) احتوت القوائم التى ضمت أسماء هؤلاء الشيوعيين . . أسماء بعض الموتى وآخرين فى السجون وطفلاً فى السادسة من عمره !!!

للقروض لشيلى (كان لأمريكا حق الفيتو فى البنك) ونفس الموقف فعله بنك الولايات المتحدة للاستيراد والتصدير . . وبعدها حصلت المخابرات المركزية على دعم قدره ٨ مليون دولار من أجل فريق « إثارة القلاقل » الذى أوجده هنرى كيسنجر وزير الخارجية آنـذاك . فساعد هذا كله على توجيه الضربة العسكرية التى أحاطت بحكم الرئيس ألليندى فى عام ١٩٧٤ واستبدلت به نظاماً عسكرياً ديكتاتورياً . أما فى آسيا فقد ساهمت المسـاعـدات الأمريكية فى وجود حكومات عميلة مثلما حدث فى جنوب فيتنام وتايوان والفليبين وجنوب كوريا . وحين قررت حكومة نيكسون . . الميل تجاه باكستان قامت بإغراق البلاد بالمساعدات المالية والعسكرية وذلك أثناء عمليات الإبادة الوحشية التى تمت ضد شعب شرقى البنغال . وقطعت فى ذات الوقت مساعدتها للهند . . وبهذا تؤكد الـولايات المتحـدة مساندتها للديكتاتورية العسكرية فى مواجهة ما كان يُعرف بأعظم ديمقراطيات العالم كله .

فى زمن الحرب الباردة شجب نيكسون كل مساوىء الشيوعية ، ومع ذلك نادى بتجميد العداء مع الصين والاعتراف بنظام شيانج كاى ـ شيك فى تايوان وتأييده ، وحث الأمم المتحدة للاعتراف بتايوان على أساس أنها أرض الصين الأصلية . وقد بدت هذه السياسة غير قابلة للتنفيذ . . لكن اتباعاً لما شاع فى ذلك الوقت حين تهادن دى فاليرا مع بريطانيا ، وأنهى أيزنهاور حرب كوريا ، وانسحب ديجـول من الجزائر ، فقد قرر نيكسون التخلص عن تأييده لتايوان وبدأ سياسة التقارب مع الصين . ونحن لا نعلم بالضبط إلى أى مدى اعتمد نيكسون على مستشاره الذكى الداهية المثابر هنرى كيسنجر فيما يتعلق بتغيير سياسته . عُرف عن كيسنجر اتباعه لسياسة الوفاق معتمداً على وضوح الرؤية أمامه وقوة علاقاته . فقد عرف بدءاً أنه لا يمكن بالطبع زحزحة الصين وروسيا عن الخط الشيوعى ، ومن ثم فقـد حان الوقت لتدرك الولايات المتحدة هذه الحقائق وتسعى إلى تسـويات تحقق لها التـوازن الكـلاسيكى لتتبوأ مكانة أفضل . وقد أعلن نيكسون فى خطابه للعالم فى ٢٥ فبراير ١٩٧٣ أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت مهيأة الآن لكى تقوم جمهورية الصين الشعبية بدور بناء فى المجتمع الإنسانى . بعدها تلاحقت الأحداث بسرعة . فقد أوقفت الولايات المتحدة أعمالها التخريبية فى مضيق فورمـوزا ، وطار كيسنجر سراً إلى بكين لتحديد موعد ، ثم يعلن الرئيس أنه سيزور الصين قبل مايو ١٩٧٢ . وفى نوفمبر ١٩٧٢ وبعد أن أصبح جلياً أن هناك أغلبية داخل

الأمم المتحدة تسعى لعزل وفد تايوان وتحويل مقعدها إلى بكين ، أظهرت الولايات المتحدة مقاومة مظهرية لهذا الاتجاه وإن كانت فى حقيقة الأمر قد قبلت هذه الحقيقة المؤلمة .

كان لهذا الانقلاب فى سياسة نيكسون جوانبه المثيرة أيضاً . فقد أنهكت سياسة الدعم المستمر لنظام ثيو الفاسد قوى الحزب الجمهورى ومن ثم فإن رحلة سلام إلى بكين ستكون مفيدة جداً لإصلاح الأوضاع فى الداخل . هذه الرحلة كانت مجرد جزء من مخططات كيسنجر العالمية . فكان يسعى إلى تخفيف حدة التوتر مع روسيا لإنعاش التبادل التجارى مع هذه الدول التى تنمو بسرعة ، مع تخفيف حدة سباق التسليح النووى . وفى سعيه من أجل تحقيق أهداف دولية عامة لإيجاد نوع من الاستقرار الدولى استطاع كيسنجر إقناع الرئيس بأنه يمكن تخفيف حدة التوتر مع الصين وروسيا بإظهار العطف عليهما بالتلويح بالإغراءات التجارية ، ثم التخلص من حصار هايفونج والقصف العنيف لهانوى ومحاولات سحق الخصوم فى آسيا .

وإلى جانب جدية المناورة التى تحققت لأمريكا . فإن هذا الانقلاب فى السياسة كانت له مزايا أخرى . . فقد ساعد إلى حد كبير فى تخفيف حدة التوتر الدولى ، وتم التفاوض بين روسيا والولايات المتحدة بشأن التوسع فى تجارة القمح ، وضمنت كل منهما للأخرى حق عدم الاعتداء النووى طبقاً لاتفاقية سولت المجددة . وتدفق رجال الأعمال الأمريكيون على موسكو بحثاً عن مزيد من اتفاقيات الأعمال . أما الصين ، التى كانت يوماً ، جزءاً من المخطط الشيوعى الشيطانى ، أصبحت الآن ينظر إليها كدولة صالحة لما تحققه من إنجازات اجتماعية واقتصادية .

« ما من درع يقى من القـدر »

إزاء عناد الكونجرس ، ومع العداء الواسع النطاق لبرامج الرئيس كينيدى الخاصة بالحقوق المدنية والإصلاح الاجتماعى فى الجنوب ، اعتزم الرئيس فى نوفمبر سنة ١٩٦٣ ، أن يعرض قضيته على الشعب . واختار فلوريدا وتكساس كولايتين رئيسيتين يبدأ بهما . كانت فلوريدا قد صوتت لصالح الجمهوريين فى انتخابات سنة ١٩٦٠ ، ولم يُبق تكساس فى صف الديمقراطيين سوى ترشيح ليندون جونسون نائباً للرئيس .

وكان لما للرئيس من علو الهمة وعمق الجدية أثر هائل فى فلوريدا . ثم رحل يوم ٢١ نوفمبر إلى تكساس وهو مستبشر . ولقد حظى باستقبال حماسى صاخب فى سان أنتونيو ، وهيوستون ، وفورت ويرث . ثم طار إلى دالاس يوم الجمعة ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٣ . وبينما كان موكبه يمضى من المطار إلى داخل المدينة ، أطلق الرصاص على الرئيس ، فاخترق رأسه وقُتل على يدى شاب مهتز العقل يدعى لى هارفى أوزوالد . وعلى الفور أدى نائب الرئيس ليندون جونسون اليمين ليتولى الرئاسة . وجمدت الأمة ــ والعالم ــ ثلاثة أيام فى ذهول وصمت ، وهى تشاهد وتسمع الجنازة المهيبة لرجل حظى بحب لم يحظ به أى أمريكى آخر ، فى أى عهد .

هكذا راح ضحية لكراهية خرقاء ، سيد عظيم ، ووطنى متفان ، ورجل حكم حكيم ، رجل جمع بين المرح والمهابة ، وبين الصبر والحمية المتأججة ، وبين الشفقة والشجاعة ، وبين الشعر والسطوة .

بدا مقتل الرئيس على يدى أوزوالد التعس مسرفاً فى البعد عن أى هدف ، وفى الانسياق للنزوة ، بدرجة عز معها تصديقه ، فلم يستطع الشعب الأمريكى أن يصدق أن هناك من يرتكب جرماً بهذه الشناعة بدافع بمثل هذه التفاهة . لذلك لم يكن من دواعى العجب إذ ذاك ، أن يتمثل خيال الشعب على الفور مكائد ومؤامرات وراء الاغتيال ، ووراء اغتيال أوزوالد نفسه بعد يومين ، على يدى عامل خسيس فى أحد الملاهى يدعى جاك روبى . ولابد أن هذين الحدثين اللذين هزّا الكون ذاته ، كانا ينطويان على معنى ما ! أكان الاغتيال من تدبير المتطرفين الجنوبيين ؟ أكان جزءاً من مؤامرة شيوعية كاملة ؟ أو لعله كان من توجيه كاسترو . وللتخلص من الشائعات والمخاوف ، كون الرئيس جونسون لجنة برئاسة كبير القضاة وارين للتحقيق فى الاغتيال من كافة نواحيه . وفى الموعد المحدد ، قدمت اللجنة تقريراً تاريخياً استبعد تماماً كافة الشائعات عن وجود مكيدة أو مؤامرة ، وأوضح أن أوزوالد كان يعمل بمفرده ، وكذلك كان جاك روبى ، وأن الأمر كله كان كابوساً ناشئاً عن جنون وعشوائية ، كان قصة من نسج معتوه . على أنه لا سبيل للقول بأنها كانت قصة بدون معنى ، إذ أنها صورت فعلاً ، وبأكثر الصور واقعية وشراً ، الطريقة التى يمكن فيها لجو الكراهية أن يولد العنف .

الرئيس ليندون بى . جونسون

ليس فى السياسة الأمريكية كثير من المفارقات التى تفوق بروزاً تلك التى كانت بين الرئيسين كينيدى وجونسون . فقد كان الأول من أبناء نيو إنجلاند ، وكان كاثوليكياً ، ولد فى أحضان الثراء والجاه ، وتعلم فى المدارس الخاصة وفى هارفارد . بينما كان الآخر محتفظاً فى بعض النواحى بسمات ابن مناطق حدود العمران ، وقد تعلم فى المدارس الريفية وفى كلية المعلمين التابعة لإحدى الولايات ، فهو فى الواقع قد علم نفسه بنفسه ، وصنع نفسه بنفسه . وكان أسلوبا الرجلين مختلفين اختلاف نشأتيهما وتعليمهما . كان كينيدى لامع الذكاء ، ذا حسم قاطع ، وذا سحر يسيطر على الجماهير ، وكان وافر المعرفة والاتصالات ، ذا شخصية عالمية منطلقة . أما جونسون فكان عامياً ، لا يتقيد بشىء ، عزوفاً عن العيش خارج وسطه ، إقليمياً . كان أحدهما على نسق جيفرسون ، والآخر على نسق لينكولن .

بيد أن الأحداث أظهرت أن الأهمية كانت لأوجه الشبه ، وليس لأوجه الاختلاف كان الرجلان يميلان لفلسفة سياسية واحدة إلى حد كبير ، ويلتزمان ببرنامج واحد إلى حد كبير . كانت فاجعة دالاس ، إذ وقعت فى لحظة حرجة فى مجرى توجيه دفة السياسة الخارجية ، تهدد بتغير حاد فى التاريخ الأمريكى ، ولكنها لم تحدث أى تغير ولو من الناحية السياسية ، فكان الاستمرار لا التغير هو الطابع الباهر .

ففى الميدان الداخلى ، سرعان ما كشف الرئيس جونسون عن مقدرة لا يكاد يكون لها مثيل فى كسب « إجماع فى الرأى » وفى إقناع الكونجرس بأداء ما كان يبغى أداءه . كان هذا راجعاً من ناحية إلى الأسلوب ، إذ كان جونسون مستعداً للتفاهم والتوافق ، فى حين كان كينيدى مناضلاً . . وكان راجعاً ، من ناحية أخرى ، إلى البراعة الفنية . . فلقد عاش جونسون ثلاثين عاماً فى الكونجرس ، فكان على دراية بكيفية التعامل مع الكونجرس ، وكان الكونجرس على معرفة بكيفية التعامل معه ، على أية حال . ونجم عن ذلك أن جونسون تمكن خلال شهور قلائل من أن يجيز عن طريق الكونجرس كل البرنامج التشريعى الأصلى لكينيدى تقريباً ، بل وأكثر منه . فإذا مشروع قانون شامل للحقوق المدنية يمر بالكونجرس بأغلبيتين هائلتين ، وإذا لم يكن قد وضع نهاية لتعطيل الجنوب للتعديلين الرابع عشر والخامس عشر للدستور ، فإنه حدد بداية النهاية . كذلك

أجيز مشروع قانون تعليمى بعيد المرامى ، نص على تكفل الاتحاد بدعم التعليم فى كل مستوياته من مرحلة ما قبل المدرسة حتى مدرسة مرحلة التخرج ، بعد عرقلة دامت عقداً من الزمن . ولقد ظفر مشروع قانون الرعاية الطبية للمسنين ، الذى ناضلت الجمعية الطبية الأمريكية من أجله نضالاً مريراً ، بأصوات ذات وزن فى المجلسين . ولقد أعلن الرئيس « الحرب على الفقر » ، ووضع مشروع قانون لمناهضة الفقر ، موجه خاصة إلى المناطق المنكوبة فى إقليم أبلاش وإلى الأحياء الفقيرة فى المدن الكبرى ، ظفر بتأييد الحزبين معاً ، وطبق الكونجرس للمساعدة على تنفيذه نظام « فيالق السلام » — وهى من ابتكارات الرئيس كينيدى النابغة من خيال واسع — فى المناطق . ولم تشهد البلاد منذ « الأيام المائة » فى عهد روزفلت مثل هذه الموجة الدافقة من تشريعات الولايات للإصلاح الاجتماعى .

واستعدت البلاد فى سنة ١٩٦٤ لانتخاب رئيس للجمهورية ، وسط رخاء لم يسبقه مثيل ، وإصلاح اجتماعى لم يسبقه مثيل كذلك .

ولقد درج الحزبان الأمريكيان على التشابه الكبير فى الطابع ، والسياسات ، والعضوية . فلقد ظل كل من الحزبين الديمقراطى والجمهورى مائة عام يمثل ، أو يحاول أن يمثل ، قطاعاً عرضياً للجمهور الأمريكى . وقد اعتاد كل منهما أن يكون معتدلاً ، وأن يتحاشى الموضوعات التى تهدد بالانقسام . وعندما نبذ الحزبان فى مناسبتين ، فى سنتى ١٨٦٠ و١٨٩٦ ، هذه الصفات المميزة ، وتصادما بصدد هذين الأمرين ، وجدت البلاد نفسها ممزقة بالخلافات ، وبالحزازات الطبقية والطائفية . وخرج معظم الأمريكيين من ذلك بأنهم لا يملكون الانغماس فى أحزاب تمثل جماعات ومصالح ومعتقدات وأيديولوجيات متضاربة ، وإن جاز هذا للأوربيين .

على أن الأمريكيين انغمسوا فعلاً فى الخلافات فى سنة ١٩٦٤ ، كما انغمسوا فى المناسبتين السابقتين ، مما أدى إلى عواقب وخيمة لأحد الحزبين . فالواقع أن الرئيس جونسون سعى كعادته إلى « إجماع فى الآراء » . وإذ رُشح وسط التهليل للرئاسة ، تعمد أن يولى وجهه نحو محبوب الليبراليين الشماليين هيوبرت همفرى عضو الشيوخ عن مينيسوتا ، ليكون زميله فى القائمة نائباً للرئيس ، وأقبل على الحملة الانتخابية ببرنامج استهوى كل قطاع من البلاد ، وكل مصلحة ، وكل طبقة تقريباً .

أما الجمهوريون فاختاروا مسلكاً آخر . إذ أن العناصر المتطرفة فى الحزب ، شرعوا

فى حملة سرعــان ما اكتسبت أبعــاد حرب صليبية ، مدفوعـين بالـذعـر من نجـاح الديمقراطيين فى الاستفتاءات ، وبإلغاء فلسفة حرية التجارة ، وبنمو سلطان الحكومة القومية على حساب الولايات ، وباطراد ازدياد الديْن القومى ، وبالانتهازية الأنانية فى السياسة ، وبنبذ الانعزالية ونمو الروح الدولية ، وبما راحوا يصورونه من « شر شيوعى داهم » ، فى الداخل وفى الخارج على السواء .

كان إلــه هذا العنصر القـائم على منـطلق « الحكم أو الخراب » فى الحزب ، هو السينـاتـور بارى جولـدووتـر من أريزونا ، الذى كان مقتنعاً بحق بأن الأمة تسير إلى الخراب . وبرقة حديثه ، ولطفه ، وحسن سمعته ، أصبح يمثل لأتباعه المفتونين فضائل أمريكا التى دالت وولت ، أمريكا حدود العمران (قبل أن تمتد رقعتها لساحل المحيط الهادى) ، وفضائل الرجل العصامى ، البسيط الصفات ، البسيط الأخلاق ، البسيط الحلول لكل المشكلات . كان فى كل شىء تقريباً ، عدا الأمانة والنزاهة ، على نقيض حاد لمزاحمه الأكبر نيلسون روكفلر حاكم نيويورك . ومع الفوز بأصوات الولايات الجنوبية والغربية ، فاز السيناتور جولدووتر فى الانتخابات الأولية ــ البالغة الأهمية ــ فى ولاية كاليفورنيا ، فإذا قوة دفع هذا الفوز تصل به إلى الترشيح فى الاقتراع الأول بمؤتمر الحزب فى سان فرانسيسكـو . وكـان هذا المؤتـر مصـدر أول صدمـة لجمهور أعضاء الحزب الجمهـورى فى كافـة أرجـاء البـلاد ، إذ نظمـه وأداره متـطرفو الحزب ، الذين طغوا بضجيجهم على كل معارضة ، وأهانوا كل مزاحمى جولدووتر على الترشيح ، بل وصوتوا ضد بند خاص بالحقوق المدنية فى البرنامج السياسى ، وبهذا بدأ الانشقاق على الحزب الذى لم يلبث أن اكتسب سرعة القطعان الشاردة .

وسرعان ما أصبحت الحملة أشبه بالكابوس . وفى أرق الطرق وأكثرها حصانة راح السيناتور جولدووتر يدعو إلى سياسات وبرامج بدا أنها مما يقف له شعر الرأس . . ونقول « بدا » لأن الحملة لم تؤت من التفكير المنطقى والتناسق إلا القليل . كان قد خذل فى مجلس الشيوخ معـاهـدة حظر التجـارب النـووية ، ومشروع قانون الحقوق المدنية ، ولم يكن راغباً فى أى منهما أو فيما يمثلانه . وفى تنقله من مكان إلى آخر فى أرجاء البلاد ، بدا كأنه كان يسعى متعمداً إلى الهزيمة ، حتى تساءل بعض المراقبين جهاراً عما إذا كانت لديه أية نية صادقة فى الاهتمام الجدى بترشيحه . ومع أنه كان من الواضح كل الوضوح ، أنـه ما من أمـل لأى مرشـح فى النجـاح بدون تأييد الولايات الصناعية فى الشمال ،

والتنظيمات العمالية ، والزنوج ، فإن جولدووتر سلك مسلكاً أوحى بأنه إما أنه كان يتجاهلها ، أو أنه كان يتعمد اكتساب عدائها . ففى حديثه إلى ناخبى وادى تنيسى عرض بيع هيئة وادى تنيسى للمؤسسات الخاصة للطاقة الكهربائية . وفى حديثه للمتعطلين فى الشمال الصناعى اقترح أن يعودوا إلى العمل وأن يبتعدوا عن التأمين الاجتماعى وتعويض البطالة . وفى حديثه للمنظمات العمالية دعا إلى قوانين « حق العمل » البغيضة . وبينما كان يدعو دون انقطاع إلى تخفيض الإنفاق العام ، راح يدعو فى الوقت ذاته إلى زيادة الإنفاق العسكرى ، وإلى توسيع الحرب فى فيتنام ، وإلى سياسة متشددة إزاء كوبا ، وإلى العودة إلى التجارب النووية فى الفضاء الخارجى . وصُدم الجمهوريون المعتدلون فى كل مكان بهذا التخبط فى دعوته ، وبالعجز المشين عن تكوين أى برنامج واقعى ، وبميله إلى المتطرفين ، والعنصريين ، وأنصار السياسة العسكرية .

واتضح من باكورة الحملة أن الفوز لجونسون ، فكان التساؤل الوحيد هو حجم الفوز ، وفرص البقاء للجمهوريين المعتدلين . وجاء الفوز كاسحاً ، كما أوحت التنبؤات . ظفر جونسون بتأييد شعبى فى البلاد بأغلبية تجاوزت خمسة عشر مليوناً من الأصوات ، وأحرز أصوات جميع الولايات ماعدا ستاً منها فى المجمع الانتخابى ، فإذا الولايات التى اعتادت أن تتخذ موقفاً وسطاً بين الحزبين ــ مثل نيويورك وكاليفورنيا ومتشيجان وأوهايو وبنسلفانيا ــ تنحاز إلى الحزب الديمقراطى بأغلبية مليون صوت ، بينما انحازت لجولدووتر خمس ولايات فى أعماق الجنوب ، هى لويزيانا والمسيسيبى وألاباما وجورجيا وكارولينا الجنوبية ، إلى جانب الولاية التى كان ينتمى إليها ، وهى أريزونا . كان مصيراً بدد كل أوهام الحزب الذى قاتل من قبل للحفاظ على الاتحاد ولتحرير السود ! وأدى الاستسلام الانتحارى من الحزب الجمهورى للعناصر الداعية للعنف والعسكرية كأصحاب شريعة الغاب فى أقدم العصور البدائية . . أدى هذا إلى نوع من الانقلاب فى الكونجرس كذلك . إذ فاز الديمقراطيون بجميع المقاعد التى دارت حولها انتخابات مجلس الشيوخ ــ وعددها ٣٥ ــ ماعدا سبعة ، كما أنهم اجتاحوا مجلس النواب بأغلبية لم يسبقها مثيل (٢٩٥ إلى ١٤٠) . ولم يقدر لمرشح أن يقود حزبه إلى هزيمة كاملة بهذا الشكل منذ تحول الديمقراطيون عن بريان إلى آلتون بى . باركر ، فى سنة ١٩٠٤ . ولكن ، هل كان لديهم زعيم مثل بريان يستطيع أن يقودهم ليخرجهم من فيافى الرجعية ؟

وفى خطاب ليندون جونسون الاستهلالى كرئيس عن جدارة [1] ، دعا الكونجرس والشعب إلى مساعدته على إنشاء « المجتمع العظيم » :

> لا ينبغى فى بلاد واسعة الثراء ، أن تعيش العائلات فى فقر مدقع . وفى بلاد غنية المحصولات ، يجب ألا يجوع الأطفال . فى بلاد المعجزات الشافية ، يجب ألا يعانى الجيران ويموتوا دون ما علاج . فى بلاد العلم العظيم وأهل العلم ، يجب أن يُلقن الشباب القراءة والكتابة .

كانت الخطوط العريضة للمجتمع العظيم قد عُرفت من توصيات الرئيس وتشريعات الكونجرس خلال العام السابق ، وطيلة الجيل السابق فى الواقع . ذلك لأن مجتمع جونسون العظيم لم يكن يختلف عن « النظام الجديد » و« النظام العادل » فى الروح أو الغاية . ولكنه كان يختلف فى الأسلوب والنسق . فأولاً ، كانت فكرة دولة الرفاهية (قيام الدولة بالإصلاح الاجتماعى) قد أصبحت تحظى بقبول عام ، فلم يكن جونسون بحاجة لجدال بصدد الناحية الأيديولوجية . ذلك لأن هذه الناحية كانت قد استقرت على ذلك النحو الغامض الذى تسوّى عليه الخلافات أو التناقضات فى أمريكا . . أى بإزاحتها جانباً . ومن ثم كان للرئيس أن يصرف طاقات نشاطه العارمة نحو التطبيق بدلاً من المحاجة والجدال . وثانياً ، بينما كانت كثير من البرامج السابقة تقوم على التسليم بأن علاج الظلم يتطلب إعادة توزيع الثروة عن طريق الضرائب أو أية قوانين تنظيمية ، إذا جونسون يعتبر من المسلم به أن من الممكن توسيع الثروة والموارد دون ما حدود تقريباً ، ومن ثم ففى وسع المجتمع تمويل برامج للاصلاح الاجتماعى بعيدة المدى من الثروة المتولدة عن العملية ذاتها (عملية الإصلاح) . وفى هذا قال الرئيس : « لم يعد هناك داع لأن يتصارع الرأسمالى والعامل ، المزارع والموظف الكتابى ، المدينة والريف ، من أجل تقسيم نعمنا وخيراتنا . فبالعمل كتفاً إلى كتف ، نستطيع معاً أن نزيد خيرات الجميع » . وكان الرئيس كينيدى قد فكر فى شىء من هذا القبيل ، فقرن توصياته

(١) التعبير الأصلى للمؤلف : كرئيس يتولى المنصب بحكم حقه الشخصى ، أى لأنه فاز بالمنصب فى الانتخابات وكان مرشحاً له ، وليس بحكم أنه كان نائباً للرئيس ــ المترجم .

الخاصة ببرامج الإصلاح الاجتماعى بمشروعات لتخفيض الضرائب ، ولكن بقى على الرئيس جونسون أن يقدم الدليل على أن هذه النظرية عملية فعلاً . ففى غمرة سعيه لكسب التأييد لبرامجه الخاصة بالتعليم والصحة العامة ، أغرى الكونجرس بتخفيض ضرائب الدخل والشركات والأموال . وكانت النتيجة زيادة سريعة فى الرخاء ، لم ترفع دخول الأفراد والشركات فحسب ، بل رفعت دخل الحكومة كذلك . وفى اقتصاد قومى كهذا ، يستلهم آدم سميث وجون مانيارد كينز معاً ، باعتبارهما قمة النبوغ ، فى اقتصاد اتحد فيه الاقتصاد الخاص والاقتصاد العام متكاملين من أجل نفعهما المتبادل ، كان للشعب الأمريكى أن يأمل ، دون إسفاف فى التفاؤل ، فى أن يحقق « المجتمع العظيم » .

لعله عنوان خطابى متضخم ، ومع ذلك فكل برامج هذا المجتمع العظيم كانت راديكالية . فاعتمدت الرعاية الصحية على فرض ضرائب على الدخول بأثر رجعى فلم تحقق العون إلا للمسنين فقط مما جعلها تبدو أضعف من برامج ترومان الصحية . فالحرب على الفقر التى شنها مكتب « الفرص الاقتصادية » تجاهلت ملايين من المسنين والمرضى والمعوقين الأمريكيين . وبشكل عام فإن برامج الإدارة لم تمض كما ينبغى . بعكس ما غنمت به فيتنام . فلم يتم تدعيم برنامج « الحرب على الفقر » تدعيماً كافياً ربما بسبب تزايد الالتزامات العسكرية والمالية لسايجون . . وقد عرفت الأمة أنه لا يمكن خوض حربين على جبهتين فى وقت واحد .

ولم يكن عجز برامج « الرخاء الاجتماعى » هو المسئول وحده عن بعض المساوىء داخل المجتمع . وكرد.فعل للاقتراحات التى تقدمت بها اتحادات الطلاب سافر المئات من المتطوعين البيض لقضاء صيف عام ١٩٦٤ فى منطقة المسيسيبى بغية ضم أسماء الناخبين السود ومنظماتهم إلى ما يسمى « حزب المسيسيبى الديمقراطى الحر » . فكان رد فعل المجتمع الأبيض لهذا العمل مزيداً من الإرهاب والعنف . وفى العام التالى سن الكونجرس قانون « حق الانتخاب » . وقد ساعدت أعمال الشغب التى قامت بها الأقليات على إصدار هذا القانون . . وساعدت عليه كذلك مساعى وجهود الزعماء السياسيين لحركة الحقوق المدنية للعمال والسود أمثال د. مارتن لوثر كنج ، الذى قاد العديد من المسيرات السلمية دفاعاً عن حقوق الناخبين فى سيلما ومونتجمرى بولاية ألاباما . وفى عام ١٩٦٦ فشل صدور قانون الحقوق المدنية . . فبدأ الحماس لها يقل

تدريجياً . وتحدى المسئولون فى مدارس الجنوب أوامر المحكمة العليا بالتضامن ، وبينما قاوم الجنوبيون قوانين « المحلات العامة » ، استمر الكونجرس فى تأييده ودعمه لهذه القوانين العنصرية . وبرغم أن السود حققوا إنجازات طيبة فى المجالات السياسية والتعليمية إلا أن تقدمهم الاقتصادى كان ، وللأسف ، بطيئاً جداً . فكانوا هم آخر من يحصلون على الوظائف وأول من يُطردون منها ! ولم يكن أمامهم غير الوظائف الوضيعة والأجور المنخفضة ؛ ولأن المجتمع الأمريكى لفظهم بقسوة لجأ الكثيرون منهم إلى العنف .

وفى نهاية عام ١٩٦٤ ، كانت هناك بعض المتاعب المنذرة قام بها المناهضون للحرب من شباب الطبقات المتوسطة البيض داخل حرم جامعة كاليفورنيا فى بيركلى ، وقام بها أيضاً من عارضوا سلفاً القوانين العنصرية فى منطقتى الخليج والمسيسيبى . وفى سبتمبر ١٩٦٥ انتشرت المعارضة التلقائية لمسودة القانون خاصة داخل الجامعات وهى أكثر الأماكن هيبة واحتراماً فى الأمة كلها . كما أصبحت المعارضة لنظام تدريب فصائل الضباط الاحتياط والتعبئة العسكرية وأبحاث الدفاع الجامعية ، معارضة عنيدة . وسرعان ما ارتفع عدد الطلبة المنضمين إلى اتحاد طلاب المجتمع الديمقراطى ، وهذا أول تنظيم شبابى راديكالى يُمثل قوة اليسار الجديدة ، التى نظمت أكبر مظاهرة مناهضة للحرب فى تاريخ مدينة واشنطن وذلك فى أبريل ١٩٦٦ . كان ثمن التورط فى حرب فيتنام مزيداً من التفكك بين صفوف الأمة . فساد العنف الراديكالى فى كل مكان ، وحول المتمردون السود حركتهم المناهضة للعنف المعروفة باسم « اللجنة القومية للتسوية بين الطلاب » إلى تنظيم ثورى أو على الأقل إلى منظمة للقوميين السود . وفى أبريل من عام ١٩٦٧ ومن داخل مدينة واشنطن قاد مارتن لوثر كنج مسيرة احتجاج تُعد تجسيداً للتضامن بين المناهضين للحرب وأولئك المدافعين عن الحقوق المدنية . وقد صرح مارتن لوثر كنج الذى لم يهو استخدام الرموز :

> يجب أن يتوقف هذا الجنون . . وإنى أتحدث كأحد أبناء الله وشقيق لكل الإخوة الفقراء الذين يعانون فى فيتنام . . أتحدث إلى من يشعرون بالضياع . . وإلى من تهدمت بيوتهم وتبددت حضاراتهم . أتحدث اليوم كمواطن يعيش فى هذا العالم الذى يشعر الآن بالذهول للمسلك الذى سلكناه . أتحدث الآن بصفتى أمريكياً

إلى قادة هذه الأمة . فإن كنا نحن من وراء هذه الحرب . . فيجب أن نكون نحن من يوقفها أيضاً .

شهد صيف عام ١٩٦٧ المزيد من الاضطرابات العنصرية . . ويُعد ما حدث فى ديترويت ونيوآرك من اضطرابات هو أسوأ ما شهده هذا القرن . وبرغم أن خسائر اضطرابات ديترويت وحدها بلغت ٤٣ قتيلاً وألفى مصاب و٥٠ مليون دولار فى الممتلكات ، فإن هذه الاضطرابات لم تحقق من النتائج غير القليل . بل على العكس من ذلك ، عجلت بضرورة تسليح قوات الأمن بالمزيد من أسلحة الفتك ، وجعلت من حركة القوميين السود هدفاً رئيسياً للحملة التى قادها المرشح نيكسون والتى نادت بضرورة أن يستتب الأمن والنظام داخل البلاد .

وبعيداً عن المناضلين السود ، الذين كانوا يعيشون داخل أحياء فقيرة جداً قريبة من المناطق التى تحيا فيها الأقليات الميالة للعنف . فقد نبتت من أرض هذا الواقع الأمريكى حركة جديدة تماماً ، نادت بضرورة خلق أسلوب جديد للحياة يختلف تماماً عن أسلوب السلف ، وعُرفت باسم حركة الهيبز أو أبناء الزهور . وفى مدن هايت ـ أشبيرى فى سان فرانسيسكو ، وإيست فيلاج من داخل نيويورك ، استمتع هؤلاء الهيبز بموسيقى الروك وبتعاطى العقاقير وبالحرية الجنسية وبالمسرح المفتوح التلقائى ، وتبادلوا بطاقات الورد ومارسوا التنجيم واعتمدوا على ما هو ضرورى جداً للصحة من غذاء . . وتوسدوا فراشاً خشناً . ومن بين المائة ألف الذين اشتركوا فى المسيرة المناهضة للحرب التى اتجهت إلى البنتاجون فى أكتوبر ١٩٦٧ ، كان هناك عدد من أتباع البوذية ، وأبناء الزهور قاموا بوضع الورود داخل فوهات مواسير بنادق الجند الذين تصدوا لهم .

وفى مارس من عام ١٩٦٨ ، فاجأ ليندون جونسون الأمة بقراره الدراماتيكى الخاص بالانسحاب من المعركة الانتخابية التالية . وهنا شدد السيناتور يوجين مكارثى من هجومه على الحرب فالتف حوله الآلاف من الطلاب المتطوعين . وفى ذات الوقت لاقت مسيرة الفقراء فى أبريل ١٩٦٨ استحساناً لدى الجماهير ، وهى المسيرة التى ضمت فقراء المدن والقرى والتى انتهت إلى العاصمة : وفى الرابع من أبريل عام ١٩٦٨ وفى مدينة ممفيس فى تنيسى تم اغتيال مارتن لوثر كنج زعيم حركة الحقوق المدنية . وقد فجر اغتياله الاضطرابات فى العديد من المدن داخل البلاد . وسرعان ما تلت هذه الأحداث

العنيفة ، وفى شهر يونية ، عملية اغتيال روبرت كينيدى مُرشح الحزب الديمقراطى ، ثم عملية التقاء الآلاف من الراديكاليين داخل مدينة شيكاغو فى المؤتمر القومى للحزب الـديمقـراطى . وقد أدى هذا اللقاء إلى سلسلة من الصدامات العنيفة بين الشباب الراديكاليين وقوات البوليس فى شيكاغو وهى التى أطلق عليها فيما بعد « اضطرابات البوليس » . وكانت للمشاهد التى نقلها التليفزيون لأبناء الطبقة المتوسطة من البيض الأمريكيين وهم يتلقون أعنف الضربات من المفروض أنهم حماة المجتمع ، أكبر الأثر فى نفوس الأمريكيين بل وعلى التاريخ أيضاً .

رئاسـة نيكسـون

سادت نوبة استياء بين ليبراليى الحزب الديمقراطى إثر ترشيح هيوبرت همفرى لمنصب نائب الرئيس . فمن غير المعقول أن يؤيد أنصار مكارثى مرشحاً عُرف عنه تأييده لسياسة أمريكا فى فيتنام . ولم يكن الخط الجمهورى فاسداً أو مشوشاً أيديولوجياً . فقد اعتكف نيكسون بعد هزائمه عامى ١٩٦٠ و١٩٦٢ ، ثم عاد وقرر الدخول إلى حلبة الصراع السياسى فنحى جانباً صراعه مع نيلسون روكفلر عمدة نيويورك ونجح فى أن يرشحه الحزب القـديم الكبير . وركز نيكسون فى برنامجه على خطة إحلال السلام فى فيتنام مما جعله يحظى بتأييد الجنوب . . واختار نيكسون سبيرو آجينيو عمدة ماريلاند نائباً له طبقاً لاستراتيجية كسب الجنوب . وقد ساعدت اضطرابات الجامعات وارتفاع معدلات الجريمة حسب الإحصائيات . . نيكسون فى حملته الانتخابية . مما دعاهم إلى القول بأن نيكسـون « إنـما جاء دفـاعاً عن الأمريكيين المنسيين هؤلاء الذين لا يخالفون القانون ويدفعـون الضرائب ويذهبـون لأعـمالهم ويُدخلون أولادهم المـدارس ويذهبـون إلى الكنائس . . هؤلاء الذين يحبون بلادهم » . وقد وجه نيكسون اللوم للمحكمة العليا لتجـاوزاتها وللحالة التى وصل إليها الأمن فى البلاد وللإجراءات القانونية المتعسفة ، وأهم من هذا كله قدم خطة لإنهاء الحرب وإحلال السلام . هذه الأمور أدت إلى فوز الجمهوريين لكن بأغلبية ضئيلة . . ففوز نيكسون تم بنسبة ٤٣ ٪ من الأصوات . . بينـما فاز همفـرى بنسبـة ٤٢,٧ ٪ من الأصوات وفاز جورج والاس ، المرشح الثالث عن

حزب الاستقلال الأمريكى ، بنسبة ١٣,٥ ٪ من الأصوات فقط . وضمن نيكسون أصوات كل ولايات الغرب وأعلى الجنوب والحدود بالإضافة إلى بعض الولايات الصناعية فى وسط الغرب .

وبرغم هذا الانتصار إلا أنه كانت هناك تحفظات قوية على الرئيس الجديد . فبعض النقاد السياسيين المناهضين للحرب شككوا فى مدى صدق مخططات السلام التى طرحها . وسرعان ما تأكد شكهم عندما زادت الغارات على فيتنام . وفى ١٥ أكتوبر ١٩٦٩ بلغ عدد من اشتركوا فى مسيرات وقف حرب فيتنام مليونين هذا غير ربع المليون الذين اشتركوا فى مسيرات واشنطن ، وفى المناطق السكانية الأخرى . وانهارت الحالة المعنوية فى فيتنام وارتفعت معدلات تعاطى العقاقير وزادت نسبة الفارين من التجنيد وانتشرت حوادث اغتيال الضباط ورفضت وحدات بأكملها خوض المعارك . وأشعل غزو كمبوديا فى ٣٠ أبريل ١٩٧٠ جذوة نار الثورة . . لتحقق بذلك أقوى حركات المعارضة وأكثرها انتشاراً فى تاريخ أمريكا . فقد تفجرت المظاهرات بعد أقل من ساعة من إعلان نيكسون دخول القوات الأمريكية إلى كمبوديا . وفى جامعة ولاية كنت احترق مبنى تدريب فصائل الضباط الاحتياط . واستُدعى الحرس القومى لدخول الحرم الجامعى . وفى الرابع من مايو أطلق رجال الحرس النار على اجتماع للطلبة المناهضين للحرب فقتلوا أربعة وأصابوا تسعة .

واستمرت الحرب . . برغم حالة القلق العامة وبرغم رغبة المتظاهرين فى كل مكان فى السلام . وكانت للحرب نتائج اقتصادية لم تقل خطورة عن نتائجها السياسية أو الاجتماعية أو المعنوية . فارتفع الدين القومى بسرعة مذهلة حتى وصل إلى ٣٩٥ بليون دولار . كما زادت ديون المدن والولايات وفسدت الخدمات العامة مثل النقل والصحة وفى الوقت ذاته أحكمت المؤسسات العامة سيطرتها على اقتصاديات الأمة . وفى عام ١٩٧١ سيطر ١ ٪ من الأعمال فى أمريكا على ٨٦ ٪ من أصول المؤسسات الصناعية (وفى عام ١٩٧٣ حصل أقل من ١ ٪ من إجمالى عدد المؤسسات ــ حوالى ٥٠٠ ــ على ٧,٥ ٪ من إجمالى الأرباح) . واتجه العديد من هذه المؤسسات إلى الأعمال الدفاعية ، فارتفعت نفقات الدفاع نوعاً فى هذه السنوات . وبالفعل أصبح الدفاع هو أربح الأعمال فى الولايات المتحدة . وفى ميزانية ١٩٧٣ وصل معدل إجمالى الضرائب الفيدرالية للأسرة الواحدة ١٣٠٠ دولار تحت بنود عسكرية بينها

لم يتجاوز التعليم ١٣٠ دولاراً والإسكان والخدمات الاجتماعية الأخرى ٦٥ دولاراً .

بمعنى آخر . . فقد ظُلم الاقتصاد . . واستمرت الضرائب فى الزيادة . وكان ما يدفعه ١ ٪ من أغنى أغنياء البلد أقل بكثير مما يدفعه الأمريكيين بسبب وجود مخالفات متباينة وثغرات فى قانون الضرائب . وفى عام ١٩٦٩ لم يدفع ٣٠٠ شخص أى ضرائب فيدرالية على الإطلاق برغم أن دخل الواحد منهم تجاوز ٣٠٠ ألف دولار . وضرب الرئيس نيكسون مثلاً على هذا بنفسه فقد حاول التهرب من ضرائب مستحقة عليه بلغت أكثر من ٤٠٠ ألف دولار [1] . وقد ساعد وجود مثل هذه الثغرات والإعفاءات الضريبية والإعانات المالية الأخرى ـ مثل تصاريح تفريغ البترول ـ لشركات الطيران والسفن والسكك الحديدية والبترول ، فى زيادة ثراء المؤسسات وتدعيم نفوذها . وقد تشابك العديد من المؤسسات والشبكات المالية لأول مرة ليس فقط على المستوى القومى وإنما عالمياً أيضاً . وتعددت أسماؤها وأحجامها كما حدث مع العالمية للتليفون والتلغراف . وقد أدى تضخم أحجام الصناعات الزراعية بفضل المعونات الحكومية للإسراع بنهاية مزرعة العائلة وانخفاض عدد الفلاحين إلى حد أنهم وصلوا فى عام ١٩٧٠ إلى ثلاثة ملايين فى الوقت الذى زاد فيه معدل الزيادة فى مساحة المزرعة من ٢١٥ إلى ٣٨٠ فداناً . وبهذا حصل ٧ ٪ من أثرى أصحاب المزارع على ٦٣ ٪ من قيمة المعونات الحكومية عام ١٩٧١ ، بينما حصل النصف الفقير على ٩,١ ٪ من قيمة هذه المعونة . وارتفع دخل الأسرة المتوسطة من ٥٦٠٠ دولار عام ١٩٦٠ إلى ٩٥٩٠ دولاراً عام ١٩٧٠ . لكن حالة التضخم أفسدت جزءاً من هذا الارتفاع فى الدخل . وازدادت الهوة بين الفقراء والأغنياء اتساعاً . وأيدت الإحصائيات وقوع هذا الظلم واكتشفوا بذلك حقبة « ما بعد الفقر » فى الولايات المتحدة (وتم تحديد مبلغ ٣٧٠٠ دولار للأسرة المكونة من أربعة أشخاص) ، وأثبت مكتب الإحصاء أن أكثر من ٢٧ مليوناً يعيشون فى فقر ، وهذا الرقم يشمل أكثر من رُبع عدد الكهول وسُبع عدد الأطفال وثُلث تعداد السود فى أمريكا .

وأكدت هذه الأرقام الشعور السائد بأنه برغم بعض المزايا التى تحصل عليها الأقلية فإن الحياة فى أمريكا بدأت تتفتت . ومن ثم لم يكن تقرير لجنة كيرنر عن حياة المدن مثيراً

(١) بناء على حكم القانون تم استدعاء نيكسون وطُلب منه أن يدفع المبلغ بأثر رجعى .

للدهشة : فالضرائب متصاعدة والإسكان سيء جداً والهواء ملوث ومعدلات الجريمة في الارتفاع . وقد عانت معظم المدن من الفاقة وانتشار إدمان العقاقير في أحيائها السكنية . . ومن حالات الخروج على القانون . وأصبحت الولايات المتحدة هي الثانية عشرة في العالم من حيث حالات الوفيات بين الأمهات ، والرابعة عشرة من حيث وفيات الأطفال والسابعة عشرة من حيث وفيات الذكور .

أدى الخروج على نمطية الحياة في أمريكا بواسطة شباب الأمة ونهجهم أسلوباً جديداً في الحياة إلى خلق نوع من العلاقات الجديدة بين البيض والسود وبين المسنين والشبان وبين رجال البوليس والمواطنين وبين الأساقفة والقساوسة وبين الرجال والنساء . ثم تحدت حركة تحرير المرأة المفهوم التقليدي للأم الزوجة قعيدة البيت . وتحركت المرأة إلى قوة متحركة لدفع حملة حرية الإجهاض ولإصدار قانون المساواة في الحقوق الذي كان يعوزه فقط موافقة خمس ولايات فقط ليصدر في عام ١٩٧٥ . وما الوصول إلى حبوب منع الحمل إلا نتاج التغير في موقف المرأة الاجتماعي وأصبح من حق المرأة أن تقرر متى تحمل طفلاً كما أعطى المرأة غير المتزوجة مزيداً من الحرية الجنسية بعيداً عن مخاطر الحمل . وساهمت أيضاً في خفض نسبة الحمل غير الشرعي وساعدت في تحديد النسل فانخفضت نسبة المواليد من ٢٣,٧ في الألف عام ١٩٦٠ إلى ١٥ في الألف عام ١٩٧٤ ، وهي أقل نسبة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية .

وتباعاً ، هبت رياح التغيير لتشمل مناطق أخرى . فكم تأثر الأمريكيون بالحياة القاسية التي يحياها المسجونون وراء القضبان . . وتأثروا أكثر بأحوال هؤلاء النزلاء . فالمساجين عادة من الفقراء السود الذين استصرخوا لإصلاح الأوضاع داخل السجون . . وكم أدى هذا إلى صدامهم مع إدارات السجون العنيفة . وأصبح الشغب داخل السجون من الأمور المألوفة . إلا أن أعنف حوادث الشغب تلك التي وقعت داخل سجن أتيكا في نيويورك في سبتمبر ١٩٧١ والتي أدت إلى مقتل ٣٣ نزيلاً غير عشرة من حراس السجن .

سبق أن تباهى جيفرسون في خطابه الذي استهل به رئاسته : « ستظل أرضنا كافية لآلاف وآلاف من الأجيال القادمة » إلا أن الأيام أثبتت أنه في الربع الأخير من القرن العشرين لم تكن الأرض وحدها هي التي تبددت وإنما ثروات الأمة أيضاً . ويبدو أن مذهب المحافظين الذي دعمه تيودور روزفلت وجيفورد بينشوت في مطلع هذا القرن ثم

أعاد الشباب إليه فرانكلين روزفلت فى أربعينات القرن . . قد وهن . هذا غير العوامل التى تضافرت لتشكل خطراً يهدد الأمة وبقاءها . . من بينها ما تقوم به شركات تقطيع الأخشاب من أعمال تدميرية ، وكذلك ما يقوم به أصحاب المناجم غير ما يلقى على الشواطىء من نفايات معامل تكرير البترول وتلويث البحيرات والمنابع المائية ببقايا المصانع ، وهذا ما أحال بالفعل البحيرات العظمى إلى بحر ميت وجعل من نهر كليفلاند كاياهوجا ناراً مشتعلة وهددت العوادم صحة سكان المدن وتسبب انتشار استعمال المنظفات الصناعية والمبيدات الحشرية فى قتل الأسماك والطيور وكل مظاهر الحياة الطبيعية بشكل عام . . وتم استنزاف احتياطى البترول بشكل متزايد . واستطاع حماة البيئة تحقيق بعض المكاسب فى زمن إدارتى جونسون ونيكسون حين استصدروا فى عام ١٩٧٠ قانون تحسين جودة المياه الذى أدى إلى فرض حماية مكثفة على تلوث مياه البالوعات ومنع تلوث مياه الشرب والنفايات الحرارية ، ثم صدر أيضاً قانون « نقاء الهواء داخل الوطن » والذى دعا إلى ضرورة خفض نسبة التلوث فى الهواء بسبب عوادم السيارات التى بلغت ٩٠ ٪ ، ثم فرض القيود بشكل تجريبى على المناجم الضيقة وكذلك دعا إلى ضرورة أن تقوم المدن برصف طرق تسمح بانسياب حركة المرور فى حرية ويسر وألزم الولايات بمعاقبة مخالفى اللوحات الإشارية . إلا أن هذه القواعد لم تسهم كثيراً فى منع التعديات على البيئة . فقد أثبتت أزمة الطاقة عامى ٧٤/ ٧٥ أن الأمريكيين وحكوماتهم أصبحوا مستعدين للتضحية بالبيئة من أجل مصالحهم الشخصية ونفعهم ووظائفهم . بل إنهم على استعداد بالتضحية بما ينفع الأجيال القادمة من أجل احتياجاتهم السريعة المؤقتة ويبدو أنهم كانوا يتساءلون : وما الذى نستفيده نحن من الأجيال القادمة هذه ؟ .

ويبدو أن الدين ذاته قد تجاوب مع الغليان الذى تميزت به هذه السنون ، فقد كانت هناك عودة إلى شعار « تمدين المسيحية » فاستطاع البابا جون الثالث والعشرون إحداث حركة تمدين للكنيسة الكاثوليكية كما سبق وحدث عند مطلع هذا القرن . فقد حلت اللغة المعاصرة محل اللاتينية فى القداس . وتمرد بعض القساوسة على حالة العزوبة التى فرضت عليهم فهجروا الدعوة كى يتزوجوا . كما تحدت بعض الراهبات الهيمنة الدينية وأقمن نظاماً دنيوياً . بينما شغل عدد كبير منهن وقته بالنشاط السياسى والاجتماعى . ولم يكن هذا الفوران الدينى من نصيب الكنيسة الكاثوليكية أو البروتستانتية فقط ، فقد

اتجه الكثيرون إلى الديانات الشرقية المتأملة أو إلى التعبير الحسى ــ وليس العقلانى ــ عن الدين وكان من بينهم الكثيرون من الشبان فى سن التعليم الجامعى .

استطاع ١٧ مليون مواطن صالح إقناع نيكسون بالتخلى عن المحظورات السياسية فى فترة رئاسته الثانية . وكان هذا العدد يُشكل حوالى ٦٠,٧ ٪ من عدد أصوات ناخبيه . وبعد شهر نوفمبر بدأ نيكسون احتجاز الأموال التى يجيزها الكونجرس للبرامج الاجتماعية مثل التعليم والخدمات ومشاكل البيئة والسكان ، بعيداً عن الدفاع الذى كان يحصل البنتاجون لأجله على أى شىء يتطلبه ، وكان هذا الأمر يُعد تحدياً لقوة الكونجرس الدستورية .

غير أن أهم ما يميز حكم نيكسون هو ما ابتكره من قواعد للإصلاح مثل خطة مساعدة الأسرة ، والتى كانت تهدف إلى تزويد كل الأسر التى تعول أطفالاً بحد أدنى من الدخل يصل إلى ١٦٠٠ دولار للأسرة المكونة من أربعة أفراد . ثم الخطة الفيدرالية الجديدة التى تهدف إلى المشاركة بمبلغ معين ، وذلك عن طريق توزيع حصة من فائض المال الفيدرالى على كل الولايات والحكومات المحلية التى تواجه مشاكل معينة . وقد رفض الاقتراح الأول من الكونجرس فى عام ١٩٧٢ . أما الثانى فقد خُشى أن تبقى الحكومات المحلية فى حالة أسوأ مما هى عليه خاصة بعد استرجاع ما قد جُمد فيدرالياً . فنحى الرئيس هذه التجارب جانباً ربما محجماً أو لامبالياً وتعاطف مع اتحادات الأعمال وأنس إلى المحافظين من الجنوب ثم أصبح خاضعاً لرغباتهم . وفى أول مارس ١٩٧٠ عارض نيكسون أسلوب فرض مشاريع أتوبيسات المدارس وذلك من أجل تحقيق التوازن العنصرى . ثم أعلن أنه يجب إعطاء حرية التصرف لمجالس المدارس لرسم سياسات لوقف التمييز العنصرى تتفق واحتياجاتهم المحلية ، وفى العام الذى تلا هذا أيدت المحكمة العليا بالإجماع الالتماس الدستورى باعتبار أتوبيسات المدارس هى الأسلوب الأمثل لتحقيق التوازن العنصرى فى مدارس تشارلوت بكارولينا الشمالية . فكان رد فعل نيكسون طلبه من الكونجرس تأجيل قرار المحكمة الخاص بهذه الأتوبيسات . وعارضت الإدارة القضائية التوسع فى قانون حقوق الانتخاب لعام ١٩٦٥ . ثم أنهت ضمانات العنف فى الجنوب وتدخلت لتأجيل منع التمييز العنصرى فى مدارس المسيسيبى .

وعلى جبهة أخرى من الجبهات الداخلية ، قام نيكسون بتصفية مكتب الفرص الاقتصادية الذى كان أحد الخطوط الرئيسية فى بناء المجتمع العظيم وبعد ذلك سحب

المساعدة المقدمة لمشروع المساكن المتساوية واقترح إرجاع بعض البرامج الخاصة بمساعدة الطلبة والفلاحين والجنود والعاطلين والمرضى العقليين . وأنهى المساعدة المقدمة لحماية المستهلك وكل اقتراحات حُماة البيئة . ثم حارب لوائح المناجم الضيقة وألغى تشريعاً مضاداً لتلوث الماء سبق أن التزمت به الإدارة . وعندما تمت الموافقة على هذا القانون برغم عدم موافقة نيكسون . . حجز هو موافقة الكونجرس عليه .

وفى عام ١٩٦٧ طلب وزير الدفاع روبرت مكنمارا أن يتم التحقيق حول ما وقع من أخطاء فى الحرب فى آسيا . وقد قدم تقريراً عن هذا الموضوع عرف باسم « أوراق البنتاجون » يتكون من أربعين مجلداً ، وكان من بين من عملوا فى هذا التقرير دانيال إليزبيرج بوصفه واحداً من العاملين فى مجموعة دانيال وهى المؤسسة التى عهد إليها روبرت مكنمارا القيام بهذه الدراسة . وقد خلص دانيال إليزبيرج إلى أنه لم تكن هناك صورة حقيقية عما جرى فى جنوب فيتنام سواء لدى الحكومة أو الشعب . ولقد أقنعوه بأنه لا مبرر لنشر هذه الأوراق لأهميتها القصوى للأمن القومى . إلا أنه إيماناً منه بضرورة أن يعرف الناس الحقيقة قام بتصوير أوراق البنتاجون هذه ووضعها تحت تصرف جريدتى « نيويورك تايمز » و« الواشنطن بوست » وكانت تضم تقريراً عن القرارات التى اتخذت فى عهد جونسون والتى أثارت شكوك منتقدى هذه الحرب . وأظهرت الأوراق أيضاً كيفية اتخاذ بعض القرارات العسكرية السرية التى تعارضت مع أوضاع الإدارة الرسمية وأوضحت أيضاً حقائق كثيرة عن أكبر عملية خداع لم يسبق لها مثيل فى التاريخ . وقد أفلحت الإدارة فى الحصول على توصية مؤقتة بعدم نشر هذه الأوراق مما يعد ــ وللمرة الأولى فى تاريخنا ــ أكبر حركة تقييد للصحافة . وقد تم التصويت فى المحكمة العليا بنسبة ستة إلى ثلاثة ضد الحكومة . . وتمت الموافقة على استمرار نشر هذه الأوراق . فقامت الإدارة الأمريكية باتهام إليزبيرج بالسرقة والجاسوسية والتآمر . وبعد توفر الأدلة على تلاعب الإدارة ومحاولة إخفاء الأدلة وتهريب الشهود مثل حادث سرقة مكتب طبيب اليزبيرج النفسى ، حفظ القاضى القضية .

أكد قرار نشر « أوراق البنتاجون » الحفاظ على حرية الصحافة . غير أن المحكمة العليا لم تكن دوماً فى جانب هذه الحرية . والدليل على هذا أنها أيدت القرار التحذيرى الذى أصدره أسلافها والخاص بسياسة التكامل داخل المدارس وأتوبيسات المدارس . ومع هذا فقد حطمت بعض القوانين الخاصة بعقوبة الإعدام والإجهاض والقيود التى

تحد من قوة الرئيس التى كانت تجيز المراقبة على المحادثات التليفونية بغير سند قانونى . ولكن أثبتت بعض الآراء الخاصة بالقضاء فى عهد نيكسون أنها بعيدة كل البعد عن ليبرالية لجنة وارين . وهذا يُعد أمراً طبيعياً لأن نيكسون قد شكل القضاء وفقاً لرؤيته هو . وحين استقال إيرل وارين أحل محله وارين بيرجر وهو أحد قضاة محكمة الاستئناف المتشددين وعرف بمعارضته لآراء زملائه قضاة الجرائم العامة . كما قام نيكسون بتعيين ثلاثة قضاة جدد من المحافظين وهم : هارى بلاكمان الذى كانت له آراء مختلفة حول الحقوق المدنية ، ولويس باول من فيرجينيا وهو محام محافظ جدير بالاحترام ، ووليم رينكويست نائب المدعى العام الذى مثل جناح جولدووتر فى الحزب الجمهورى . وكان وجود هؤلاء القضاة يعنى الصياغة الدقيقة لقرارات محكمة وارين الليبرالية المتجددة . وطبقاً لما قاله القاضى دوجلاس « فالآن ، يسود القانون والنظام وأصبح هناك إحساس عام بالقضاء أوما يسمى الشعور القضائى » . وقد حققت القرارات التى أصدرتها هذه المحكمة مكاسب ليبرالية خاصة فى مجال قضاء الجريمة ومن أجل سرعة إتمام قضايا الجرائم تقرر أن تُشكل المحكمة من ستة محلفين من الرجال والأحكام غير جماعية وكذلك تخصيص محاكمات للدعاوى التى يحكم فيها بالسجن ستة شهور أوما دونها .

فى ذات الوقت ازداد التدخل السياسى والحكومى فى الحياة الخاصة بشكل ملحوظ وبعلم القانون . فقد وافقت الإدارة القضائية على مشروع قانون الرقابة على الجرائم ، وقانون الأمن فى الشوارع فى عام ١٩٦٨ وعلى الرقابة السرية على المكالمات التليفونية . وكان الهدف من ذلك على حد قول المدعى العام جون ميتشيل « لكبح جماح العناصر المتمردة داخل المجتمع » . وقد سمحت هذه الإدارة لمدعى قسم الأمن الدولى باستخدام هيئة المحلفين كسلاح سياسى ، وأجبرت الصحيفة على الإرشاد عن مصادر معلوماتهم . وانطلاقاً من هذا تمكنت الإدارة من فتح ملفات لآلاف من الحالات المشتبه فيها من الراديكاليين والمناوئين للحزب ومن اليسار الكاثوليكى . كما زجوا فى السجون بعض المشتبه فيهم لإجبارهم على الشهادة وليس عقاباً على جرائم ارتكبت . وكانت محاكمة المتهمين بالتآمر من مناهضى الحرب تتم بسرعة شديدة فأوضحت هذه المحاكمات أن هناك فارقاً بين استخدام العملاء مثيرى الفتن والقلاقل وبين الذين ينصبون الفخاخ للمواطنين . وقد أثبتت الإدارة فشلها فى مثل هذه المحاكمات التى أثارت الشكوك فى أن المتهمين

يؤخذون بدون إدانة بينما الهدف من ذلك هو إلقاء الخوف فى قلوبهم وإزعاجهم وإنهاكهم مالياً أيضاً .

قضـية ووترجـيت

سبق أن أعلن الرئيس أنه « لا أحد فوق القانون . . حتى ولو كان باسم العدالة » . لكنه هو ذاته الذى أساء استخدام وكالات المخابرات والأمن القومى من أجل أغراضه السياسية . وأنشأ بنفسه قوة استخبارات إضافية تعمل لحسابه شخصياً . فقد قام بعض الرصاصين ـــ وهو الاسم الذى أطلق على بعض عملاء البيت الأبيض ـــ بالتجسس على الملفـات الخـاصة ، وسجلوا المكالمات التليفونية للصحفيين ، ونظموا من أجل القيام بهجـوم مضاد على المتظاهرين لمناهضى الحرب . بينما قام الجناح التنفيذى بشن حملة واسعة النطاق من التجسس السياسى وقاموا بزرع المحرضين ليدفعوا الراديكاليين للقيام بأعمال مضادة للقانون . كما زيفوا الأدلة الجنائية ضد خصومهم السياسيين كما استغلوا مكتب الخدمات المالية الداخلية لإثارة أحقاد السياسيين . وتحت رئاسة المدعى العام السابق جون ميتشيل قامت لجنة إعادة انتخاب الرئيس بجمع احتياطى من المال بلغ ٦٠ مليون دولار . بما فيها مبالغ ضخمة دفعت فى شكل هبات وإعانات غير قانونية من قبل شركات البترول والطيران وغيرها . وقد سميت هذه الإعانات باسم « الغسل » .

لم تكن هناك أى ضرورة على الإطلاق لإعانات الغسل هذه . . ولا إلى ما فى الجعبة من ألاعيب قذرة كالتى استخدمت فى انتخابات الرئاسة التمهيدية عام ١٩٧٢ . فبعد أن فاز السيناتور الأمريكى جورج ماكجفرن فى الاقتراع الأول ، أهمل الحملة التى تتلو هذا الاقتراع . ونادى برنامج الحزب الديمقراطى بإنهاء حرب فيتنام وتحويل الدعم المالى الرهيب للدفاع إلى برامج الرخاء الاجتماعى والقضاء على الثغرات فى نظام الضرائب ، وبعـد إطلاق الرصاص على جورج والاس مرشح الحزب الديمقراطى فى الانتخابات التمهيدية فى ماريلاند تودد نيكسون إلى مؤيدى الحزب الديمقراطى بأن أعلن لهم أنه فى حالة فوزه بالرئاسة فسوف يعمل على إنهاء هذا العصر الذى استبيح فيه كل شىء ، ويعمل على إصدار تشريعات تمنع إجبار الأطفال على الاشتراك فى سيارات المدارس

ثم أعلن بعد ذلك وبذكاء ضرورة إنهاء حرب فيتنام . وبدأ التمهيد لمبادراته الدبلوماسية مع روسيا والصين وكل هذا من أجل الوصول إلى الناخبين ذوى الاتجاهات السياسية المختلفة . تحول الاتجاه السائد فى البلاد ناحية المذهب المحافظ وانتخب نيكسون بأغلبية ١٧ مليون واكتسح كل الولايات عدا مساشوستس ومقاطعة كولمبيا .

وكما هو واضح لم يكن الجمهوريون فى حاجة إلى التجسس السياسى أو أى وسائل غير شرعية للوصول إلى الفوز . ولا كانوا فى حاجة إلى هذه العمليات المستترة التى انتهت بالقضاء على الرئيس ذاته . فالمسألة كلها بدأت بعملية بسيطة جداً عندما تسللت شرذمة من عملاء المخابرات المركزية السابقين إلى مقر الحزب الديمقراطى فى أوتيل ووترجيت بواشنطن وقاموا بتركيب أجهزة تجسس على التليفونات وصوروا الوثائق ، وبعد غارة أخرى على مقر الحزب ذاته فى ليلة ١٧ يوليو ١٩٧٢ تم إلقاء القبض على هذه الشرذمة داخل المكاتب المظلمة . ويبدو هذا الحادث للوهلة الأولى أنه عابر ولا أهمية له كما أعلن رونالد زيجلر السكرتير الصحفى للرئيس . وكان من الممكن الاكتفاء بهذا الوصف لولا أنها جرت معها أعلى كوادر الإدارة الأمريكية وما لم تحاول هذه الإدارة طمس معالم طبيعة هذه الجريمة . إن ووترجيت هى الفتيل الذى اشتعل ثم انفجر بعد عامين من اشتعاله فى أكبر فضيحة سياسية فى تاريخ أمريكا .

بدأت اللجنة المختارة من الشيوخ الأمريكيين فى ربيع عام ١٩٧٣ وعلى مدى شهرين فى تحسس أبعاد قضية ووترجيت لحسم الخلاف حول مدى تورط الرئيس فيها . وظهرت نتائج هذه اللجنة على شاشات التليفزيون فشاهدها الملايين المتطلعة إلى هذه الدراما . فإن نظرنا إلى أى مدى تشابكت خيوط الحدث الرئيسى فيها وإلى الدوافع المعقدة والعلاقات المريبة والسلوك المنحرف ونظرنا أيضاً إلى من فيها من أوغاد متملقين لأدركنا على الفور أنها دراما لكنها من الواقع الحى وليست مجرد دراما تليفزيونية . وبدأت المواكب تزحف إلى غرفة الشيوخ . . مواكب من المسئولين فى مجلس الوزراء وموظفى الحزب القديم الكبير والمساعدين التنفيذيين وعملاء المباحث الفيدرالية والمخابرات المركزية . كانوا يدلون بأقوالهم التى تضاربت وتعارضت . . وكانوا جميعاً يدينون بفلسفة بسيطة للغاية وهى : الولاء لرئيس الجمهورية قبل الولاء للقانون والدستور . والذى تأكد جلياً للعيان هو كيف أصبح من السهل تحريف الديمقراطية وإخضاعها لخدمة الأغراض الشخصية . ووصف جون دين ، مستشار الرئاسة ، تورط نيكسون فى التستر

على هذه القضية وصفاً بليغاً دقيقاً فقال : « كان إخفاؤه للأدلة وإغراؤه بالمال لشرذمة لصوص ووترجيت المسجونين لإسكاتهم ووعده لهم بإصدار عفو عنهم والشهادة التى أدلى بها كلها كانت العوامل التى دمرته » . واعترف ألكسندر باترفيلد أحد المساعدين فى رئاسة الجمهورية للجنة بأن نيكسون أمر بالفعل بتسجيل مناقشات المجلس حول استراتيجية ووترجيت . وكان هذا الاعتراف بمثابة إلقاء الزيت على النار . وحين طلب أرشيبالد كوكس ، الذى رأس المكتب الخاص للمدعى العام الذى أنشىء حديثاً فى ذاك الوقت ، هذه الشرائط طرده الرئيس . وكانت هذه هى بداية النهاية ففى الرابع والعشرين من شهر يوليو أمرت المحكمة العليا بالإجماع أن يقوم الرئيس نيكسون بتسليم ٦٤ شريطاً ووثيقة . عندئذ بدأ الجمهوريون التحرر من قيود ولائهم للرئيس وأصبح الفصل الأخير من هذه الدراما هو الذى بين أيدينا الآن .

أثناء ذلك . . تم استدعاء آجينو نائب الرئيس الذى كان من الرجال الذين يحترمون القانون ولم تشبه شائبة ووترجيت ، لكن تم التحقيق معه فى ولاية ماريلاند لحصوله على عمولات لتعاقدات حكومية عندما كان يشغل منصب المحافظ . وعندما مثل أمام المحكمة اعترف أيضاً بتهربه من الضرائب فأصدرت ضده حكماً مخففاً . . فاستقال من منصبه يشيعه الخزى .

فى ذات الوقت كان محققو مكتب المدعى الخاص ولجنة الشيوخ يواصلون عملهم الشاق فى كشف أغوار القضية التى ارتفع عدد المشتركين فيها . وصاحب هذا استقالة خمسة عشر من الإدارة ، وتم رفع دعوى الاتهام على أربع حالات وثلاث حالات أخرى وعدد لا يحصى من الحالات التى تراجع فيها أصحابها طلباً لحماية « التعديل القانونى الخامس » وكان الذى يدير التحقيقات اثنان من كبار المحلفين وأربعة من لجان الشيوخ وواحد من لجنة بيت القضاة ، وحضر المحاكمة ثلاثة من أصحاب الدعوى القضائية المدنية . كما أعلنت هيئة المحلفين الكبرى الفيدرالية فى لوس أنجلس عدداً من مساعدى البيت الأبيض السابقين بتهمة محاولة اقتحام عيادة طبيب اليزبيرج النفسى . وابتداءً من هذه اللحظة بدأت أحداث غير مفهومة تطفو على السطح ، مما جعل قضية ووترجيت أكثر من مجرد فضيحة سياسية : مثل عملية اقتحام عيادة اليزبيرج ، والتدخل فى المراحل القضائية ، وعمليات « الغسل » لتمويل الحملة الانتخابية ، واستخدام مكتب التحقيقات الفيدرالية ووكالة المخابرات المركزية ومكتب الإعانات الداخلية فى أغراض

سياسية ، وتسجيل المكالمات التليفونية لمرشح الرئاسة إدموند ماسكى بحجة « الأغراض الخاصة بالأمن القومى » . كل هذه الأمور عجلت بما يراه البعض تعويقاً للمسار السياسى والدستورى للديمقراطية .

ومما أضعف من تأييد الشعب والحزب لنيكسون اكتشاف أن الشرائط التى سلمت إلى المدعى الخاص كانت ناقصة وكانت غير دقيقة وكانت أيضاً ممسوحة . كما أن رفض نيكسون الإذعان بالمثول أمام لجنة الشيوخ أو لجنة بيت القضاة أثبت أنه لا مفر إذن من محاكمة برلمانية . وفى ٣١ يوليو عام ١٩٧٣ عرض روبرت درينان عضو الكونجرس عن مساشوستس اقتراحاً رسمياً باتهام الرئيس « بارتكاب بعض الجرائم الفاحشة والعديد من الجنح » . ولم تنصب الاتهامات فقط على ووترجيت وإنما امتدت وشملت عملية قصف كمبوديا السرية واحتجاز الاعتمادات التى أقرها الكونجرس والنفقات الهائلة المشبوهة التى أنفقت من أجل تجديد منزل الرئيس فى فلوريدا وكاليفورنيا كما علم أن نيكسون قد دفع فقط مبلغ ٨٠٠ دولار ضرائب مستحقة لمبلغ ٢٠٠ ألف دولار من دخله . كما حاول أن يستقطع ٥٠٠٠ دولار أنفقتها ابنته ترشيا لتضم كمصاريف رسمية خاصة برئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، كما أنه استقطع ٤٨٠ ألف دولار من أجل هدية اضطر إلى أن يزيف وصفها فى إقراره الضريبى وسجلها بتاريخ قديم . كما ادعى أن هناك من عبث بهذه الشرائط . وبهذا فسدت سلامة الإجراءات القانونية . وقد أثبتت هذه الشرائط بالذات أن نيكسون نصح معاونيه بأن يشهدوا زوراً وأن يشتركوا فى مؤامرة انتهاك حرمة القوانين الفيدرالية . وكان من بين الاتهامات التى وجهت إلى رئيس الجمهورية : اعتراض سير العدالة والتستر على الجرائم والتحريض على الحنث باليمين . وقد استمعت الأمة المكلومة إلى كل هذه الاتهامات فى ذهول . وكان أهم هذه الاتهامات جميعاً أو بمعنى أدق الخطأ الفاحش الذى تولدت عنه كل هذه الجرائم هو إساءة استخدام السلطة .

وخلال ربيع وصيف ١٩٧٤ كانت الأرضية القانونية قد استقرت فى صلابة وحكم القاضى جون سيريكا من المقاطعة على ستة من المتهمين الرئيسيين فى ووترجيت . ولم تتم مقاضاة الرئيس نيكسون بسبب ما أعلنه المدعى الخاص فى هيئة المحلفين الكبرى بأن مثل هذا الإجراء مشكوك فى سلامته دستورياً . لكن . . كان قد وصل إلى القاضى سيريكا تقرير سرى للغاية جاء فيه أن نيكسون ليس متهماً

بالتآمر ، وموضحاً أبعاد تورطه وإلى أى مدى أصبح ملوماً فى نظر المحلفين .

بدت هناك محاولات لإعاقة سير الإجراءات . فحاولت الرئاسة المناورة من أجل عدم تسليم الأشرطة والوثائق . ثم رفض مجلس مستشارى البيت الأبيض مجرد الاكتفاء باعتبار أن إساءة استخدام ثقة الجماهير تعد تهمة لكن فى هذا الوقت كان قد بلغ السيل الزبى لدى الجماهير ولدى الكونجرس . وعندما تأكدت الجماهير ، بعد نشر الشرائط التى فشل نيكسون فى إخفائها ، من أن نيكسون كان على علم بكل خبايا وتفاصيل التستر على ووترجيت وأنه حنث فى يمينه مدعياً جهله بكل شىء وبراءته أجمعت لجنة بيت القضاة فى ٣٠ يوليو ١٩٧٤ على أن هناك تهمتين ثابتتين على نيكسون . وحظى هذا القرار بتأييد مزدوج . فقد بلغ إجماع الأصوات ٢٧ : ١١ كما أن أوفى مساعدى نيكسون بدأوا فى التخلى عنه .

وبعد أن تأكد الرئيس من أن قوته فى البيت الأبيض بدأت تتلاشى لم ينتظر مزيداً من التطورات . . وفى السادس من ديسمبر ١٩٧٣ كان نيكسون قد أحل جيرالد فورد محل آجينو . ومعروف عن جيرالد فورد أنه رجل قانون محنك من ميتشجان وزعيم للأقلية فى البيت . وفى الثامن من أغسطس عام ١٩٧٤ استقال نيكسون من منصبه وغادر البيت الأبيض إلى منزله فى سان كليمنت بكاليفورنيا . وبعد انقضاء شهر من هذه الأحداث تخلى الرئيس الجديد عن تأكيداته السابقة ومنح عفواً غير مشروط للرجل الذى سبق ورشحه للرئاسة .

إدارة الرئيس فورد

لو أن جيرالد فورد دخل انتخابات الرئاسة عام ١٩٧٤ لكان أهم بند فى برنامجه هو إعادة الثقة فى منصب الرئيس . وكان هذا بالفعل هو الهدف الرئيسى الذى واجهه حين تولى مهام منصبه . لكن هذا الهدف لم يتحقق على الوجه الأكمل حتى فاز عليه جيمى كارتر بعد عامين من توليه . ومما لا شك فيه أن فترة رئاسة جيرالد فورد كان لها تأثير شاف للجراح التى أحدثتها قضية ووترجيت فى السياسة الخارجية . إلا أن فترة رئاسته التى استمرت عامين لم تغير من الصدمة العنيفة التى أحدثتها ووترجيت والتى أدت إلى زعزعة

ثقة الجماهير فى الحكومة . بل على العكس فقد تعمق الشعور بهذه الأزمة خلال هذين العامين وساعد فى ذلك تردى الأوضاع الاقتصادية فى الداخل واستمرار اهتزاز هيبة أمريكا فى الخارج ، وربما يعود هذا أيضاً إلى حد ما بسبب عدم استحسان الجماهير لعفو جيرالد فورد عن ريتشارد نيكسون . . السابق لإدارته حيث تم هذا فى الثامن من سبتمبر ١٩٧٤ .

ومع ذلك فقد أجمعت الجماهير على أن زعم الرئيس الجديد بأنه لم تكن هناك ثمة قضية وإنما فقط القوانين الإلهية وهذه المصالحة الوطنية هى التى قادته من أجل اتخاذ قراره هذا بالعفو . . لم تكن كلها إلا أمثلة جديدة على التستر على هذه القضية . وقد حاول فورد إيجاد نوع من التوازن . . فبعد أن أصدر العفو قام أيضاً بالعفو المحدود عن الشبان الذين فروا من التجنيد من أجل فيتنام . إلا أن غموض نقاط برنامج العفو كانت على النقيض من العفو عن نيكسون . ومثل هذه اللفتة التى كان الغرض منها إخراج نيكسون من بؤرة الشعور العام . . حتى يتمكن فورد من مباشرة مهامة لم تكن لفتة مبشرة بالخير بالنسبة للإدارة . كما أن المشاكل التى واجهتها هذه الإدارة كانت مشاكل عديدة ، وملحة .

كانت حرب فيتنام تندفع نحو نهايتها المؤسفة ومع ذلك كانت هناك ضرورة للتخلص منها وتصفيتها ، وهى مهمة شاقة تحتاج لوقت طويل . ولم تكن فيتنام هى القضية الوحيدة التى ورثها فورد . فهناك التضخم اللولبى الذى كان إلى حد كبير نتاج رفض كل من نيكسون وجونسون فرض ضرائب جديدة للإنفاق على الحرب . وهناك أيضا زيادة البطالة ثم تعويم أسعار البترول . وقد شكلت هذه العناصر الثلاثة تهديداً لرخاء الشعب الأمريكى وأكثر من هذا فإن السنوات التى استغلت فيها الثروات الطبيعية وتم تلويث التربة والماء والهواء تحت اسم « التقدم » جعلت الأمريكيين لأول مرة ، يواجهون حقيقة أن ثرواتهم الطبيعية محدودة وليست غير متناهية . ولا عجب من أنه بمقدم عام ١٩٧٤ كان الأمريكيون قد تحرروا من شبح حرب فيتنام ووترجيت وشعروا بالإحباط فى الأمل فى المستقبل . ومن ثم فقد نادوا بالعودة إلى القيم التقليدية وللأيام الخوالى القديمة التى حكم فيها أيزنهاور وانكمشت الحكومة . تلك الحقبة التى كان تفوق الأمريكيين فيها على العالم قضية مسلم بها . وإلى حد ما فقد نجح جيرالد فورد فى تحقيق هذا الإحساس القومى بالوطنية . فإن لم تمكنه فترة رئاسته على العمل من

أجل حل المشاكل الموروثة . . وإن لم يكن قد نجح فى إعادة الثقة فى الرئيس التنفيذى . . فإنه سعى جاهداً لاسترجاع الاحترام . فإن كان نيكسون قد خدع هؤلاء الشغوفين بالعودة إلى التاريخ القديم ، فإن جيرالد فورد لم يفعل . ولقد اقتنع فورد مثل أسلافه الرؤساء كوليدج وأيزنهاور بأن الرئيس التنفيذى يجب أن يكون مجرد حارس للأمة وليس قائداً . وهذا ما فعله بالضبط فقد أثبت أنه مجرد رئيس حارس . . حتى مقدم انتخابات ١٩٧٦ .

وبرغم أن نيكسون كان خارج السلطة فيبدو أن سياسته ومعاونيه استمروا فى السيطرة على الأداة الحكومية . وكانت حلول فورد للمشاكل الاقتصادية ولاهتزاز هيبة أمريكا ، مجرد حلول بسيطة مثل « لا تقضى أوقاتاً طويلة فى الداخل . . وكن قوياً فى الخارج » . وقد جلبت له سياسته هذه الاحترام والتعاطف معه . . ومع ذلك لم تغير أسلوب الحكومة عما كان عليه طوال السنوات الست الماضية . وقد نادى فورد بالتقشف المادى إلا فيما يتعلق بالنواحى العسكرية . اتبع فورد سياسة القانون والنظام . . التى كانت محور إدارة نيكسون . وقد وهنت هذه العبارة داخل أمريكا عندما سعى نيكسون إلى تعيين قضاة المحكمة العليا ؛ لذلك سعى زير خارجية نيكسون ، هنرى كيسنجر لتدعيم فلسفة القانون والنظام فى الساحة الخارجية .

ومن بين المشاكل المستعصية على الحل والتى ورثها فورد من الإدارة السابقة ، وأكثرها إلحاحاً كانت مشكلة تطويق حرب فيتنام . وبرغم أن نيكسون قد انتهى إلى وقف إطلاق النار مع الفيتناميين وبدأ بالفعل فى مارس ١٩٧٣ فى سحب القوات الأمريكية من فيتنام ، فإنه ترك فورد للتفاوض من أجل التسوية النهائية للحرب . وإن كان قد امتد أمد هذه المفاوضات ، ويرجع ذلك إلى أن سياسات الولايات المتحدة الأمريكية كانت تفتقر إلى بعد الرؤية والنخوة كالتى أظهرت من قبل لليابان وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية . ربما لأن الأمريكيين لم يكونوا قد اعتادوا آن ذاك على أن يخسروا أى حرب . وحتى إذا كانت إدارة فورد مهيأة لأن تدفع الكثير حفاظاً على السلام المشرف الذى كانت تتباهى به إلا أن التسليم بالهزيمة واللوم لم يكن يلقى إلا بعض التأييد .

ولم تكن مفاوضات المعاهدة ، المخطوطة ، هى الميراث الوحيد لحرب فيتنام . وإنما ــ والأهم من ذلك ــ ما بقى من جراح عاطفية ومعنوية ونفسية عانت منها البلاد إثر سعيها لأن تصبح قوة آسيوية . ومن بين الأمور التى جعلت من فيتنام أعظم طوفان

مزلزل فى تاريخ أمريكا منذ الحرب الأهلية ، ذلك الدمار الذى حدث فى أساليب الحياة واستنفاد الثروات الطبيعية والتخلص من وهم الحكومة فى الداخل وفقدان الثقة فى الولايات المتحدة كقوة عظمى فى الخارج ، ثم ذلك الشعور المرير بالذنب لحرب لم يكن لها أبداً ما يبررها سواء فى دعواها أومسلكها . وعلى العكس من الحرب الأهلية حين حاول الجنوب المهزوم أن يحول هزيمته العسكرية إلى نصر معنوى ونفسى ، فإن حرب فيتنام لم تحقق هذه الترضية للشعب الأمريكى ، على الرغم من أنه فى عام ١٩٨٠ أعلن رونالد ريجان مرشح الحزب الجمهورى فى انتخابات الرئاسة وفى محاولته كسب تأييد مجموعة من السياسيين القدامى ، أن حرب فيتنام كانت من أجل قضية نبيلة . وقد أيد بعض العامة خارج قاعدة الاجتماع هذه العبارة . وقد أثبتت فيتنام أنها الجرح الدامى للولايات لمتحدة . . عسكرياً ومعنوياً . . ثم عادت لتثبت أنها الجرح الدامى اقتصادياً واجتماعياً أيضاً .

وقد أدى شعور الأمريكيين بفقدان مكانتهم الدولية كالدولة رقم ١ فى العالم . إلى مطاعن البعض بتحويل المجتمع إلى مجتمع عسكرى . فإذا كانت الحرب الباردة قد انحسرت مع الصين بعد انفتاح نيكسون تجاهها . . فإنها قد زادت من حدة مرارتها مع الاتحاد السوفييتى ؛ فقد أثبتت حرب فيتنام أن الولايات المتحدة لم تكن مستعدة . فإذا كانت أمريكا تسعى لاستعادة « تصديق العالم لها » فإن عليها أن تعيد بناء صرحها العسكرى لحماية أغراضها فى مواجهة التهديد السوفييتى فى أى مكان فى العالم .

واعتمد برنامج فورد ــ إن جاز هذا التعبيرــ على المناداة بضرورة التقشف الاقتصادى وتحديد حجم الحكومة . أما الاستثناء الوحيد من القيود المضروبة حول أى اعتمادات مالية فكان للإنفاق العسكرى . . وهو ما كان متبعاً فى عهد نيكسون . وبرغم أن فورد اعترض على قانون المنح التعليمية فى عام ١٩٧٦ ونادى بضرورة الانضباط المالى فإنه طالب فى نفس العام بتخصيص مبلغ إضافى وقدره ١١ بليون دولار من أجل الإنفاق العسكرى . وقد أكد فورد من قبل للجماهير أن هدفه هو « العمل قدر جهده على إبعاد الحكومة الفيدرالية عن أعمالكم وعن حياتكم وعن حافظاتكم وحتى بعيداً عن شعركم » . ولكنه مع ذلك قبل ــ وبغير مناقشة ــ إخضاع الشعب الأمريكى والاقتصاد الأمريكى لخدمة العسكرية الأمريكية . فما أسماه أيزنهاور مجمع الصناعات العسكرية تطور فى عهد نيكسون وفورد ليصبح المجمع الأكاديمى للعمل العسكرى والصناعى

والمالى فإذا كانت هذه السياسية المتعارضة قد فشلت فى استثارة أى معارضة جماهيرية جادة فيرجع ذلك إلى أن غالبية الأمريكيين ــ مثلهم فى ذلك مثل رئيسهم ــ اعتبروا أن الهدف الأسمى للحكومة هو تحقيق الأمن القومى . وكان هذا الأمن القومى ذات مدة الأمن الاجتماعى وفى عام ١٩٧٤ أصبح الأمن العسكرى وبرغم أنه أبدى تأييداً للعسكرية إلا أنـه فى الـوقت ذاتـه قد عارض العديد من التدابير الاجتماعية مثل مشروع قانون الـوظائف الفيدرالية ومشروع قانون الأعمال العامة الشاملة ثم تدبير مساعدة فيدرالية للتعليم وبرنامج للتغذية فى المدارس . وبهذا يكون فورد قد وثق هذا المفهوم الضيق لمعنى كلمة « أمن » .

وبرغم أن أقلية هى التى تحدثت عن الكرم الحقيقى للعسكرية الأمريكية إلا أن إجراءات التقشف فى القطاعات الأخرى لم ترق لهم . وقبل نهاية عام ١٩٧٦ بلغ عدد الذين لا يحصلون على معاشات « البطالة » نصف الثمانية ملايين عامل عاطل . وقد خسر المسنّـون وأصحـاب الـدخـول معركتهم ضدّ التضخم . أما المدن الكبيرة التى رفضت الاعتمادات المالية الفيدرالية مثل نيويورك وكليفلاند وديترويت ، فقد أصبحت تعـانى من الإفـلاس . أما السود والأقليات الهسبانية الى أغروها بالدخول من الباب المفتوح إلى المجتمع العظيم ، فقد وجدوا هذا الباب موصداً فى وجوههم . وارتفعت معـدّلات البطالة بين الشبان السود إلى نسبة تصل إلى ٤٠٪ . فلو تم إصلاح المسار السياسى فى عهـد الرئيس فورد لابتعد شبح انقسام المجتمع الذى بدأ رسميًّا بحرب فيتنـام ، والـذى زاد من حدّتـه تردّى الأوضـاع الاقتصادية والذى عمقه تأييد حركة « المحافظين » الجديدة التى رفضت بشدّة مفهوم « المجتمع العظيم » .

أمـا الـذين استفـادوا بشكـل واضـح من « تحفـظية » فورد المـالية بالإضافة إلى « عسكريته » فهم تكتل اتحادات الصناعات الكبيرة . وقد أذعن الرئيس للضغوط فى ديترويت وأجّـل حتى عام ١٩٧٦ قراره بإجـراء تخفيض ٩٠٪ من « التلويث » الذى اشترطه قانون الهواء النظيف الصادر فى عام ١٩٧٠ وذلك خوفاً من مزيد من النقص فى العمالة . كما عارض فورد الرقابة على الأسعار وحتى على التقّشف . وذلك فى مواجهة السوء المستمر فى أزمة الطاقة نتيجة ارتفاع أسعار البترول وكذلك بسبب عداء الجماهير لنـظم التمـوين أو الضرائب المتزايدة . وقد فشلَت حركة « المحافظين » الجديدة التى بدأت عام ١٩٧٠ فى حماية جماهير الأمة أو البيئة المحيطة بها .

بدأ جيرالد فورد فترة رئاسته تحت سحابات من الشك والسرية نجمت عن سلفه . ولكن ساعدت أمانته وعفته على تبديد هذه السحابة التى خيّمت على البلاد . ومما لا يدع مجالاً للشك أن كل عمليات المخابرات المركزية الأمريكية فى شيلى والتى أدت إلى الإطاحة بالرئيس سلفادور ألليندى فى عام ١٩٧٣ أو محاولات اغتيال فيدل كاسترو السرية . . لم تتم أبداً فى رئاسة فورد . وعندما كشف محققو مجلس الشيوخ مدى زيادة عمليات المخابرات المركزية ، فإن جيرالد فورد فشل فى إلزام نائبه العام إدوارد ليفى فى اتخاذ أى إجراء مضاد للمخابرات المركزية . . ومكتب التحقيقات الفيدرالية وعملائهما ، بل إنه بكل وضوح صدّق على دعم ميزانية المخابرات المركزية فى البرتغال وأنجولا وأكثر من هذا بالنسبة إلى إيطاليا بغية السيطرة على سياستها الداخلية .

أما بالنسبة للشئون الخارجية ، فقد فرضت سياسة هنرى كيسنجر نفسها أيضاً على إدارة فورد كما كان الحال مع نيكسون . وفى سعيه وراء تحقيق « الأمن القومى » من أجل « أمريكا الحرة » فإن كيسنجر لم يكتف فقط بالتودّد إلى حلفائه الموالين أمثال الجنرال بينوتشيت فى شيلى أو الجنرال بارك فى جنوب كوريا وإنما شجع فى عام ١٩٧٥ على إرسال دعم عسكرى إليهم يصل إلى ٤,٧ بليون دولار . كما شجع وزير الدفاع جيمس شلسنجر احتياجات البنتاجون فى زيادة عدد مخازن المنتجات العسكرية الحديدية وذلك لتمكين الولايات المتحدة من توجيه الضربة الأولى دائماً . كما أن كيسنجر قد شجع أيضاً « عسكرية » دول أخرى فى العالم على اعتبار الولايات المتحدة مصدر العتاد الحربى للعالم كله . ومن أجل شراء السلام فى الشرق الأوسط وضمان استمرار تدفق البترول تم بيع كميات كبيرة جداً من الأسلحة إلى إيران والمملكة العربية السعودية . كان ثمن السلام فى الشرق الأوسط باهظاً فقد كان لابدّ من استمرار تدفق السلاح على المنطقة . ومع ذلك تحققت بعض تدابير للسلام فى الشرق الأوسط . فقد نجحت « دبلوماسية الماكوك » إلى حدٍّ ما والتى قام بها هنرى كيسنجر فى استعادة أمريكا لهيبتها فى الشرق الأوسط ، وفى إقامة حوار عربى إسرائيلى لأول مرة . . وفى تجديد أمل الأمريكيين بأن يعودوا مرة أخرى زعماء للعالم الحر .

كانت استعادة السيادة الأمريكية من أهم الأهداف الحيوية بالنسبة لإدارة الرئيس فورد وللأمريكيين أنفسهم . وقد نجح هذا جليًّا فى أسلوب معالجة فورد لإحدى المشاكل التى وقعت فى العامين الدراميين اللذين حكم فيهما فورد ، برغم عدم أهمية تلك

الحادثة ، وهى عملية أسر سفينة الشحن الأمريكية « مايا جيز » من قبل زورق طوربيد كمبودى . فبرغم الخمسة والعشرين ألف طن من القنابل التى أسقطت والأربع بلايين دولار التى أنفقت من قبل الولايات المتحدة من أجل تنظيم رجال عصابات من الخمير الحمر ، فإن التورّط فى كمبوديا لم يكن أكثر من « حدث فرعى » إلى جانب الحدث الرئيسى الحادث فى فيتنام المجاورة . وقد توقف النشاط فى تلك المنطقة عندما تم أسر سفينة الشحن « مايا جيز » فى مايو ١٩٧٥ داخل المياه الإقليمية الكمبودية وقد أثار تبجّح كمبوديا غضب الأمريكيين جميعاً حتى « الحمائم » من رجال الكونجرس مثل شيوخ الكنيسة وفردت أجنحتها مثل الصقور وطلبت أن ترى العملاق الأمريكى وقد تخلّى عن عجزه بعد كل هذا . وقد استخفّ العالم كلّه بادعاء كمبوديا أن السفينة كانت تحمل أجهزةً سريةً للغاية خاصةً بالمخابرات . . كما استخفّ العالم أيضاً بالرسالة التى أفادت بإطلاق سراح طاقم البحارة . . وفى انتهاك صارخ لقانون « قوى الحرب » الصادر فى ١٩٧٣ صدّقت الإدارة الأمريكية على القيام بهجوم يبدأ بعملية إبرار جوى عنيف لإنقاذ السفينة . وبعد انقشاع دخان المعارك وغازاتها وبعد أن بلغ القتلى الأمريكيون ٣٨ قتيلاً اهتز « الصدق » الأمريكى فنرغم الانتصار على الكمبوديين لم يصبح العملاق الأمريكى عاجزاً . . وإنما أصبح هستيريًّا .

وبرغم حادث السفينة مايا جيز فإن سنوات حكم فورد كانت بلا لون . وكرئيس « حارس فقط » لم ينعش فورد أمريكا من حالة الإرهاق القومى التى أصابتها بعد الهزيمة التى منيت بها فى فيتنام . كما أنه لم يقدم أى حلول للمشاكل داخل البلاد مثل مشاكل التضخم والبطالة والتلوث والطاقة وهى المشاكل التى عانى منها الأمريكيون حتى مقدم انتخابات ١٩٧٦ .

انتخابات عام ١٩٧٦

بعد كارثة حرب فيتنام وفضيحة ووترجيت وما فيها من جرم وخداع ، أصبح احتمال فوز الديمقراطيين فى انتخابات ١٩٧٦ مؤكداً . ولم يكن لدى الديمقراطيين أى مرشح يمكنه خلق جوٍّ من الثقة وأن يستأثر بخيالات الجماهير بينما استطاع « جيرى فورد » إثبات أنه

الأقرب إلى شخصية أيزنهاور ، فهو شخص ودود مريح استطاع أن يظهر قدراً من الهدوء واللياقة كانت الأمة فى مسيس الحاجة إليهما وكان منافسه الجمهورى الوحيد والحاكم السابق لكاليفورنيا رونالد ريجان الذى كان يوماً ما نجماً سينمائيًّا يتميز بملامح الأبوة . لكن فى النهاية وبعد مواجهة عنيفة قرر الجمهوريون الالتفاف حول فورد .

أما معركة الرئاسة داخل الحزب الديمقراطى فكانت على العكس من الحزب الجمهورى مفتوحة للجميع بدليل وجود اثنى عشر مرشحاً بعضهم غير معروف نسبيًّا يجاهدون جميعاً من أجل ملء الفراغ السياسى المذهل وانتهى الصراع بوصول أربعة ، هم : سيناتور اسكووب جاكسون من واشنطن وجيرى براون حاكم كاليفورنيا وجورج والاس من ألاباما وهو رجل دائم الترشيح فى الانتخابات وكل مؤهلاته أنه يحمل جراح محاولة اغتياله سابقاً ثم سيناتور هيوبرت همفرى الذى هزمه نيكسون بصعوبة فى انتخابات ١٩٦٨ . وبين هذه الكوكبة من السياسيين اللامعين برز وافد جديد اسمه جيمى كارتر حاكم جورجيا الفلاح مزارع الفول السودانى . ومما أثار دهشة المحترفين السياسيين أن هذا الوافد هو الذى فاز فى النهاية . وما تفسير هذا الانتصار إذن ؟ ربما لأن الرجل بدا كأنه : داود الذى يحارب وحده أكثر من جوليات واحد . أو ربما لأن الأمة قد تعبت من كثرة السياسيين المحترفين الساعين لتقلد الوظائف . وربما لهذا الورع والتدين اللذين التقيا وغرائز الأمريكيين فى سعيهم للتمسك بمبادىء الفضيلة والإيمان فى الحياة العامة ، وعلى أىّ حال فعندما عقد الحزب الديمقراطى اجتماعه فى مدينة نيويورك فاز الحاكم كارتر فى الاقتراع الأول وكان هذا انتصاراً لا يحققه إلا سياسى عتيد . ثم اختار لمنصب نائب الرئيس الذى يكمل معه هذا السباق رجلاً عرف الأمريكيون أمانته وقدراته هو السيناتور ولتر مونديال من مينيسوتا .

وبحصر عدد الأصوات فاز كارتر على منافسه بزيادة ٢٪ فقط فى (إحصاءات المجمع الانتخابى مع العلم أنه إذا حدث وانحرفت أوهايو وهاواى فى طريق بعيد لفاز جيرالد فورد إذ أن المنافسة فيها كانت شديدة جداً) أما التأييد الحقيقى الذى دعم موقف كارتر فجاءه من بقايا ائتلاف فرانكلين وروزفلت ممثلاً فى العمال والسود . وقد بذل جهداً خارقاً للوصول إليهما . ثم الجنوبيون الذى أسعدهم رؤية أوّل رئيس من أقاصى الجنوب منذ زخارى تايلور .

كان يوم الانتخابات بكل المعانى يوم انتصار عظيم للديمقراطيين وكان لهذه

الانتخابات ملمحان أحدهما نذير سوء والآخر بشير خير . أما لماذا نذير سوء ؟ ذلك لأن عدد الذين اشتركوا فى الانتخابات بلغ فقط ٥٣٪ من الناخبين وهى أسوأ نسبة مئوية فى القرن العشرين والتى على العكس منها وبشكل مذهل ما حدث فى الانتخابات فى أوربا الغربيّة التى ارتفعت نسبة الانتخابات فيها من ٧٥٪ إلى ٩٠٪ فكشفت عن انقسام كامن داخل البلاد على مستوى الخطوط الجغرافية . فقد فاز فورد بكل الولايات غرب نهر المسيسبى باستثناء مينيسوتا وتكساس وسوف تثير هذه اللفتة كل من لا يزال يذكر ذلك الانقسام الجغرافى الذى حدث عام ١٨٦٠ والذى انبثق عنه فيما بعد « الجنوب الموحد » . أما بشائر الخير فى هذه الانتخابات فيدل عليها أمران : الأول تدافع الناخبين السود إلى صناديق الانتخاب فى أعداد لم يسبق لها مثيل . والأمر الثانى أن هذه الانتخابات أعادت السود مرةً أخرى إلى المدينة ومكاتب الولايات .

ويعتبر جيمس إيرل كارتر ــ والذى يفضل أن ينادى جيمى ــ فيما يتعلق بأسلوب تفكيره وشخصيته قريب الشبه بالرئيس ويلسون أكثر من أىّ رئيس آخر فى القرن العشرين . فشاركه فى المزج بين الشخصية والتجربة لأنه ولد ونشأ فى قرية صغيرة اسمها بلين فى جورجيا وتخرج فى أكاديمية أنّا بوللى البحرية وعمل فى برنامج الغواصات النووية تحت إمرة الأدميرال هيمان ريكوفر . فهو إذن من حيث المهنة مهندس ، ومن حيث الممارسة فهو فلاح ، ومن حيث الفطرة سياسى ، ثم إنه عمل حاكماً لولايته فترة رئاسية واحدة مثله مثل وودرو ويلسون . وكان أيضاً طريداً فقد لفظته مؤسسات واشنطن . فوعد أن يشكّل حكومة أكثر إيجابية وفعالية من حكومة جيرالد فورد الذى اعتمد فى إدارته القصيرة على قوة الفيتو (حين كان فى السلطة أصدر جيرالد فورد أكثر من خمسين فيتو ضد البرامج الاجتماعية الليبرالية والاقتصادية) فبدا أكثر سلبية .

تعهّد كارتر أثناء الحملة الانتخابية بتوخّى الأمانة فى العمل الحكومى والحدّ من البيروقراطية الحكومية ومن الإنفاق العسكرى ومبيعات السلاح فى الخارج ، ومن الناحية الإيجابية فقد تعهّد بعمل برامج طموحة للرعاية الصحية ولحماية البيئة ولإنقاذ المدن المهدّدة . وفى خطابه الذى استهلّ به رئاسته حذر من انتظار الكثير من الحكومة وركّز كثيراً على العبارات الغامضة البليغة : « علينا أن نجدّد سعينا للرحمة والتواضع والعدالة . علينا أن ندعم روابط العائلة الأمريكية . علينا أن نحقق باسم القانون المعاملة المتساوية بين الضعيف والقوى وأن نجعل الشعب فخوراً بحكومته مرة ثانية »

واستمراراً فى استعراض تواضعه وتبسطه . . فبعد أن فرغ من خطابه الافتتاحى مشى وزوجته روزالين يداً فى يد من الكابيتول إلى البيت الأبيض تماماً كما فعل توماس جيفرسون منذ مائتى عام مضت حين سار من مبنى الكابيتول الذى لم يكن قد انتهى بناؤه بعد إلى مقره الرسمى بعد تنصيبه .

إدارة كارتر

إن كارتر بابيتست يولد من جديد كما أنه أيضاً بوبيوليست وبرغم التصاقه الطويل المدى بأخلاقيات الجنوب العنصرية إلاّ أنه نجح فى اكتساب أصوات السود بما أظهره من إحساس باحتياجاتهم والاحترام الذى أبداه لمن هم فى عداد الأثرياء ، وقد أبدى أسفه على انحرافات وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالية كما وعد بدعم القوانين التى طال التحايل عليها وعدم احترامها ووعد بإيجاد وظائف الخدمة العامة للعاطلين وتحقيق العدالة الضريبية واحترام حقوق المرأة وتوفير الحماية المشروعة لها . وفى كل ما يرمى إليه . . كان يثق فى تأييد الكونجرس له . . . حيث إن الحزب الديمقراطى تسيّد الكونجرس بعد الفوز الحاسم الذى حققه الديمقراطيون داخل الكونجرس . . وأكثر مما حدث على مستوى الرئاسة . . فقد فازوا بواحد وعشرين مقعداً فى مجلس الشيوخ . . فى مقابل أحد عشر مقعداً للجمهوريين ، و**٢٩٢** فى المجلس فى مقابل **١٤٣** للخصوم ــ وشعر الأمريكيون حين رأوا رئيسهم الجديد يمشى إلى البيت الأبيض ــ بأنه سيفى بكل ما وعد به فى حملته الانتخابية . لكن هذا الفلاح من جورجيا . . الذى أصبح رئيساً . . أثبت أنه أكثر تعقيداً مما كان يتصور عنه فى الحملة الانتخابية .

وبصفته عضواً سابقاً فى لجنة دافيد روكفلر الثلاثية . . والتى تمثل أقوى الاهتمامات المشتركة فى العالم الغربى . . أذهل بعض مؤيديه باختياره بعض مستشاريه من هذه اللجنة وتوابعها . وقد أظهر أسلوب اختياره لمجلس وزرائه هذا الجانب الهام من حياته مع مؤسسات العمل ، وبمجموعة « صفوة واشنطن » .

تم تعيين سيروس فانس فى منصب وزير الخارجية . . وهو من مين لين بفيلادلفيا وخريج جامعة ييل وقد عمل كمحام فى وول ستريت ورئيس لاتحاد محامى نيويورك لفترة

رئاسية واحدة ووكيل لمؤسسة روكفلر كما أنه عمل مستشاراً للرئيس جونسون الذى أيد سياسته فى حرب فيتنام لكن بغير حماس . أما هارولد براون وزير الدفاع الجديد فقد كان له نفس أوراق الاعتماد : قائداً للقوات الجوية فى عهد الرئيس جونسون ثم رئيساً فخرياً لمعهد كاليفورنيا التكنولوجى وكان متحمساً أكثر من فانس لضرورة ضرب فيتنام . لكن بغير هذا الاهتمام المريب بضرورة إلحاق خسائر مدنية إضافية محدثة هذه الكوارث . أما رئيس مجلس الأمن القومى الجديد زبيجنيو برزنيسكى وهو خريج جامعة كولومبيا وكان عضواً فى لجنة روكفلر الثلاثية واتحاد السياسة الخارجية . ولم يكن ما يجرى داخل البيت الأبيض مجرد عمل عادى فقد انعكست طبيعة كارتر المعقدة فى اختياره للمناصب العليا التى شغلها مَنْ هم مِن جورجيا . فرئيس مكتب الميزانية هو برت لانس من خبراء البنوك فى أتلانتا ورُشح ريفين بيل لمنصب النائب العام وهو منصب سياسى وقانونى فى ذات الوقت . أما من تولّى مهمة متابعة الشئون السياسية يوميًّا فى البيت الأبيض والحزب الديمقراطى . . فهما هاملتون جوردان . . وجودى باول من خبراء الاستراتيجية السياسية . . كان من الصعب معرفة ما سوف يتم عمله . . بمثل هذه المجموعة من الناس ومن على شاكلتهم والذين يحيط الرئيس نفسه بهم . لكن سرعان ما اتضح الأمر . . فمستشارو الرئيس . . أولئك . . لم يحققوا إلاّ ميلاد ثورة جديدة على كل ما هو فاسد . . وكل ما هو خفى . . ومن أجل الطبقات التى تكاد تفنى من المجتمع .

فإن كانت شخصية كارتر المركبة . . قد أذهلت مؤيديه . . فإن التاريخ أيضاً قد أذهل كارتر . . كان خطاب تتويجه . . . مثله مثل خطاب ويلسون منذ ستين عاماً مضت . . متسق والمسألة الوطنية . . وكانت الحلول المطروحة متسقة تماماً واحتياجات السياسة الداخلية . . غير أن الشؤون الدولية بدأت تفرض نفسها على كارتر كما فعلت مع وودرو ويلسون . فسرعان ما اكتشف كارتر أن أمريكا ليست هى مركز الجاذبية الأرضية . . وإنما العالم كله . وحتى المشاكل التى بدت وكأنها مسألة داخلية بحتة مشكلة نفاد المصادر البترولية ، والتضخم ، والبطالة ، اكتشف أنها جميعاً معقدة ومُتشابكة مع ظروف وأزمات فى أماكن أخرى فوق الكرة الأرضية . وسرعان ما أصبح جلياً حتى لأصحاب النظرة المحدودة أنه يتعذّر حلّ هذه المشاكل داخل الغرف المغلقة والمعزولة فى الولايات المتحدة الأمريكية . لقد أدرك الفلاسفة من قبل أن العلم والفن وحدة واحدة وعلى الساسة إدراك حقيقة أن السياسة والاقتصاد والاجتماعيات والفضيلة

كلّها وحدة واحدة ، ومن ثم فعلى الأمم فى كل مكان أن تحترم هذه البديهية إذا أرادت أن يكتب لها البقاء . فهل كان يصدق أحد فى الجيل الماضى أن يحدث فى منتصف السبعينيات من قبل وتستعبد دول البترول فى الشرق الأوسط الولايات المتحدة الأمريكية ، أو أن الانتفاضات فى كوبا وأنجولا يمكنها دفع أعظم قوتين على الأرض إلى المواجهة الأيديولوجية والعسكرية أحياناً ، أو أن يتضخم الصراع العربى الإسرائيلى ليصبح الشاغل الأكبر للسياسة الخارجية الأمريكية ، أو أن التجارب النووية فى الصين يمكنها أن تهدّد أمريكا الشمالية وأوربا بخطر تساقط الغبار الذرى ، أو أن زيادة معدّل السكان فى المكسيك أو دول الكاريبى يمكنها أن تربك سياسة واقتصاد أمريكا الشمالية كلّها ، أو أن يصعب الحفاظ على الأسرار النووية بعيداً عن متناول الأمم المنافسة أو الإرهابيين ، أو أن تحدّد قيمة الدولار الأمريكى فى لندن وزيورخ وفرانكفورت بعد أن كان الدولار الأمريكى هو القياس العالمى ، أو أن قيام ثورة فى إيران البعيدة جدًّا يمكنها أن تعجل بحدوث أزمات اقتصادية كبيرة وسياسية وعسكرية داخل أمة ظلّت تخدع نفسها بأنها أقوى أمة على الأرض ؟!

كان هذا كلّه مبرراً كافياً لإعادة الصياغة العميقة لفكرنا التقليدى ومسارنا . فلم يكن هناك أى مبّرر لاسترجاع النغم السياسى القديم والمقولات مثل « الأمة رقم واحد فى العالم » و« الاعتماد على القوة العسكرية الأولى فى العالم » ووهم أن مصادرنا الطبيعية لا تنضب أو الادعاء التوكوفيللى بأن الديمقراطية هى موجة المستقبل التى لا تقاوم . كل هذا وغيره من الافتراضات أصبحت عقيمة وغير ذات جدوى . فما نحن فى حاجة إلى ننادى به هو تقوية مصادرنا والجسارة ثم الخيال المصحوب بالقوة لمواجهة المشاكل الجديدة فى الداخل أو فى الخارج . فمنذ عهد روزفلت لم يتحل أىّ من رجال الدولة بمثل هذه الصفات . وبرغم النوايا الطيبة للرئيس الجديد وبرغم معسول عباراته إلّا أنه لم يكن موعِداً فيما يتعلق بتطبيق هذه الصفات ليصبح عهده مميزاً .

ليس كل ما هو حقيقى فى العلاقة الدولية . . حقيقيًّا فى العلاقات الداخلية . فقد ثبت هنا عدم جدوى النغم السياسى القديم . ففى انتخابات ١٩٧٦ تمّ تجديد مفهوم « المحافظة الليبرالية » . وكل من حاول تطبيقهما فى حلّ المشاكل السياسية وجد أنهما على العكس من هذا فقد زادا المشاكل تعقيداً . والجيل الذى أسس الجمهورية ووضع دستورها اكتشف فهماً سفسطائيًّا لطبيعة المشاكل السياسية المفروض حلّها . فقد أدركوا

أن المشكلة الجوهرية لمجال الحكومة وحدودها هى فى الواقع مسألة « المبدأ » . أما مسألة هل هى الحكومة الإقليمية أو الحكومة القومية التى يجب أن تمارس الهيمنة السياسية وفى أى المناطق ، فهى مسألة خاضعة للتجربة العملية . وقليل من الذين ناقشوا هذه المسائل منذ الحرب العالمية الثانية نجحوا فى السيطرة على الاهتمام بهذه الفروق وفهمها . وهكذا فإن الحملات الانتخابية عامى ١٩٧٦ و١٩٨٠ تم إدارتها بأسلوب تكتيك حرب العصابات أكثر من خضوعها لاستراتيجية منضبطة تخضع هى أيضاً للمنطق أو الفلسفة . وكانت الاختلافات الحزبية حول بعض المسائل الهامة مثل دور الحكومة فى الصحة العامة والتوظيف والإسكان والتعليم والبيئة والسيطرة على قانون العقوبات أو بالنسبة لحقوق الأقليات أو المرأة (التى تقيد أغلبية) فإن هذه الفوارق كانت كلها فوارق بلاغية وعرضية ومتميعة وبعيدة عن المنطق أو التماسك . فالحزب الجمهورى الذى هو من المفروض حزب التأمين والمركزية فقد نظر إلى الحكومة بعين الارتياب ، ونظر إلى الحكومة القومية بحذر بينما قد تحمس كثيراً للمشروعات الخاصة . فى الوقت ذاته . . كانوا هم أبطال « العمل التعاونى » والمجتمع العسكرى و« التحقيقات » وما إلى غيرها من مسميات تمركز بشدة المؤسسات . بينما الحزب الديمقراطى المفروض أنه حزب « حقوق الولايات » و« المحليات » و« دعه يعمل » فقد أخذ الآن خطوات إيجابية نحو « الحكومة الكبيرة » والمشروعات العامة ورخاء الولايات ، وفى هذا تفوّق على توماس جيفرسون وخلفائه عبر مساحات زمنية كبيرة من القرن التاسع عشر ؛ فوجد الرئيس نفسه منساقاً بغير مقاومة إلى المعسكرين معاً .

أما حركة « المحافظين » الجديدة التى أسسها ريتشارد نيكسون ورعاها جيرالد فورد فقد وجدت ضيافةً طيبةً فى البيت الأبيض إبان إقامة كارتر . أثبتت سياسة نيكسون ــ فورد ــ الدرامية إلى تقليل اللوائح الحكومية بالنسبة للمشروعات الخاصة ، إنها سياسة غير حزبية . وهذا ما أثبتته أيضاً سياسة رفع المخصصات العسكرية حتى ولو على حساب البرامج الاجتماعية . وقد تأكد عند مجىء عام ١٩٨٠ أن رجل عام ١٩٧٦ ذلك الغريب المبتسم دائماً الذى شنّ الحرب على « نفس الجماعات الداخلية أصحاب الوعود غير المحققة » قد فقد بتسامته وفقد معها إيمانه أنه بوسع أى إنسان خارج الحكومة أن يدير الحكومة . وإذا كان كارتر قد فقد إيمانه بمن هم « غرباء » عنه أثناء سنوات حكمه فإن الكثيرين ممن انتخبوه قد فقدوا الثقة فيه أيضاً . وبينما وصل الأمر بالبعض إلى حدّ

فقدان الثقة فى قدرة كارتر على قيادة البلاد إلى أىّ جهة . . فقد رأى البعض أنه يقود البلاد بالفعل لكن إلى هوّة اقتصادية لا مفرّ من التراجع أمامها . أما المثقفون والأقليات والنساء وعمد معظم المدن الأمريكية ومن عارضوا الرغبات النهمة للبنتاجون فقد عانوا جميعاً بأكثر من حالة فقدان الثقة ، فقد شعروا أنهم قد خدعوا من هذا البوبيوليست الذى عاد من جديد ليعد بالكثير ويعطى القليل .

من عجائب الأمور فى السياسة القومية أن الشعب إما أن يدين رئيسه أو يمتدحه . . وكأنه لا يوجد سواه فى الحكومة . وحين يصل الأمر إلى رئيس الدولة تنقسم الأمور إلى حدّ الشيزوفيرنيا . وتصبح القضية هى : هل من حق البيت الأبيض رسم « السياسات » أم أن عليه فقط تنفيذ ما يمليه عليه الكونجرس من سياسات ؟!! ويبدو أن الإجابة تحتمل منطق الكذب فى وسط الطريق . كما أن الإجابة تعتمد أيضاً على ما إذا كان المواطن الأمريكى سيوافق أو يرفض مقترحات الرئيس . وليس فى وسع أى رئيس أن يؤثر فى السياسة بغير تشريعات . . ما لم يتقن فن مراوغة الكونجرس والتقرب إلى الدستور . فإن كان جيمى كارتر قد عمّق أزمة الزعامة فربما يرجع هذا لفشله شخصيًا فى الوصول إلى هذا اللون من التعاون . فإذا كان جيرالد فورد قضى الجزء الأكبر من عامى رئاسته رافضاً قرارات الكونجرس فإن جيمى كارتر قضى فترة رئاسته كلها . . مرفوضاً من الكونجرس .

بدأ كارتر رئاسته بادعائه « ونحن نتهيأ لمواجهة المشكلة الضخمة بإعادة الأمريكيين إلى العمل مرة أخرى ، ونحن نتهيأ للسيطرة على التضخم ووضع سياسة للطاقة ومواجهة مشاكل الدفاع والإصلاح الضريبى والعمل من أجل الرخاء ، فسوف نعمل بالمشاركة مع الكونجرس للوصول معاً إلى هذه الأهداف » . لكن الكونجرس أثبت رفضه العمل مع السيد كارتر وكل مواليه « الجورجيين » فاقدى الفعالية السياسية . وقد أصبح للكونجرس اليد العليا فى صراعه مع الرئيس وذلك بفضل القيود التى فرضها الكونجرس على سلطاته مثل قانون الميزانية لعام ١٩٧٤ الذى قوّى قبضة الكونجرس على خيوط الميزانية . ونتيجة هذا كله فإنه برغم أن سنواته الأربع داخل البيت الأبيض كانت سنوات نشاط تنفيذى هائل إلاّ أنها فى ذات الوقت كانت سنوات إنجازات ضئيلة جدًّا .

تحفزت إدارة كارتر إلى بداية جيدة جدًّا . ففى الحادى والعشرين من يناير تم توقيع قانون العفو عن المتهربين من التجنيد الذى سبق ووعد به . ثم تتابع ظهور اقتراحات

خاصة بتحسين الوضع الاقتصادى وتجديد شامل لرخاء البلاد وإلغاء « المجمع الانتخابى » وتدعيم انتخابات الرئاسة والكونجرس باعتمادات مالية عامة . وبرغم ما أثارته هذه الخطوات من إعجاب إلّا أن الكونجرس قاومها مقاومة خفيفة برغم إعجابه الظاهرى فقط . . ثم سرعان ما تحول الأمر إلى العداء السافر .

لقد مُنى الرئيس بأسوأ هزيمة له فى مفاوضات الطاقة مع الكونجرس ، وفى مدى التجاوب العام معه . ولأنه كان يعتبر أن هذه هى أهم مسائل العمل الوطنى قام فى مارس ١٩٧٧ بإنشاء وظيفة جديدة داخل مجلس الوزراء هى وظيفة « وزير الطاقة » وعين بها جيمس شيلسنجر الذى كان وزيراً للدفاع إبان حكم نيكسون . وكان ردّ فعل زرع هذه الوزارة ، فاتراً . وفى تحذيره للشعب أكد كارتر على الحاجة إلى زيادة الإنتاج وخفض استهلاك البترول . إلّا أنه لم يكن مهيأً فى ذلك الوقت للتدخل فى عمل الحكومة من أجل سرعة إنجاز هذه الأهداف المطاطة . وبدلاً من سنّ القوانين بدأ يتحايل عليها ، وبهذا يكون قد سرق بعض الامتيازات من خصومه الجمهوريين دون أن يقدّم نفسه قرباناً لهم . وكان له بعض العذر فى هذا ، فلا الكونجرس ولا الشعب كانا مستعدين لقبول ضرائب أووظائف فعلية . وقد أظهر الكونجرس استخفافه بهذه الحقيقة . . فأسقط قانون ضريبة « العشرة سنتات لجالون الجازولين » الذى اقترحه كارتر .

لا شىء يساعد التضخم مثل ارتفاع أسعار البترول . . وبرغم هذه الحقيقة فالشعب أنزل الطاقة إلى المرتبة الثانية واعتبر التضخم مشكلته الأولى . ولا عجب أن نسبة التضخم ارتفعت منذ جاء كارتر من ٧٪ سنة ١٩٧٩ إلى ١٢٪ . وتجاوب الكونجرس مع الرأى العام الذى اعتراه الندم والغضب ، فتحرّك من أجل السيطرة على التضخم وآثر أن يبدأ بالميزانية الفيدرالية من أجل الصالح العام . لكن ميزانية الدفاع « زاغت » من بلطة الكونجرس .

واستمر التضخم برغم محاولات الكونجرس السيطرة عليه . وكان هذا بلا شك أمراً محتماً لأن مسببات التضخم سواء داخل البلاد أوخارجها كانت تفلت من أىّ سيطرة . ففى الداخل اتضح أن السبب كان تلك الزيادة غير المستحبّة فى الميزان التجارى مع الدول المنتجة للبترول . فقد وصل العجز فى الميزانية عام ١٩٧٩ إلى ٩٥ بليون دولار وبلغت الديون القومية ثمانية بلايين دولار . وصاحب هذا . . هبوط فى الإنتاج ربما بسبب الفشل فى تطوير المصانع لاستيعاب التكنولوجيا الحديثة ولأن البحوث

العلمية والكفاءات الهندسية والتكنولوجية كانت بعيدة عن دائرة الإنتاج الاقتصادى ، بعكس البحوث والصناعات العسكرية التى كانت غير إنتاجية .

لقد عكس الكونجرس بأمانة المزاج العام تجاه « حركة المحافظين الجديدة » والاستخفاف بكل الدوافع الحكومية وذلك حين قاوم اقتراحات كارتر ، وعند تناوله لأزمة التضخم ، وبالتالى فإن المشاكل الاقتصادية ساهمت فى تغذية هذا التيار « المحافظ » الجديد ، الذى ارتاب فى « الحكومة الكبيرة » وتحمس « للشركات الكبيرة » سواء قومية أو عالمية . فمجموعة « مرياد » ذات المسئولية المحدودة والتى ظهرت إبان حكم نيكسون . . قد استمدّت قوّتها أثناء حكم كارتر ، وساعدت فى تعميق حركة « المحافظين » ثم قامت اللجان السياسية بشنّ حملة ضدّ الإجهاض والرقابة على السلاح وحركة المطالبة بالمساواة فى الحقوق ، وطالبت بإعادة عقوبة الإعدام والصلاة فى المدارس والتشريعات التى تلزم الناس بالتمسك بالقيم والفضيلة . ولأوّل مرة منذ الحملة « البروتستانتية » ضدّ ألفريد سميث عام ١٩٢٨ ، اقتحمت الجماعات الدينية بشجاعة الحلبة السياسية بهدف هدم الحائط الذى يفصل بين الدولة والكنيسة . ومن ثم فقد ظهرت المكارثية الأخلاقية ضدّ الأفراد أو الجماعات أو السياسات التى تحاول أن تخرج عن تيار الحياة الأمريكية السائدة ثم القيام بانتفاضة عنصرية تدعو إلى تعميق العداء ضد السود والأقليات الهسبانية (المتحدثة بالأسبانية) ومن قال عنهم تيودور باركر . . تلك الطبقات « الفاسدة الخطيرة » .

وفى عام ١٩٨٠ تركز هذا الشعور بالاستياء من الحزب الحاكم خاصة من الرئيس كارتر الذى سبق ووعد بأن يجعل الحكومة ملكاً للشعب حيث كان يتفاخر بسلوكه الأخلاقى . وأثبتت التعهدات التى وعد بها كارتر فى حملته الانتخابية من أجل الرخاء الاجتماعى وإنهاء الحرب الباردة تدريجياً زيادة الميزانية العسكرية كما أثبتت أنها كانت مجرد وهم ؛ ومن ثم فقد خسر الجميع حتى الليبراليين الذى ساعدوا على انتخابه . وقد أغضبت هذه التعهدات « المحافظين » الذين اتهموه بأنه متساهل جداً مع المجرمين والشيوعيين . وكما عجز كارتر عن خلق توازن فى الميزانية أو أن يوقف التضخم فإنه قد فشل أيضاً فى الحصول على تأييد الشعب لبرامج الطاقة . وكان هذا التأييد الشعبى ضرورياً جداً ليتغلب به على مراوغة وتباطؤ الكونجرس . وقد انقشع ضباب الوهم مع ما يؤكده المسلك اليومى لمكتب الرئيس . فقد أجبر مدير الميزانية بيرت لانس على تقديم

استقالته وكانت نزاهته السياسية والمالية موضع تساؤل من قبل الصحافة والرأى العام . ثم السياسات محدودة الأفق التى اتبعها بعض معاونيه « الجيورجيون » أمثال النائب العام جريفين بيل . ثم قرار كارتر الأهوج بطرد المتحدثة باسم « حقوق المرأة » ، وبطلة هذه الحركة بيللا أيزوج . ثم عملية الانتقالات والتبديل التى تمت فى ١٩٧٩ بين مجلس وزرائه مقترباً بذلك من شكل مجلس الوزراء إبان إدارة نيكسون .

أثبتت إحصائيات الرأى قرب انتهاء السنة الأولى لرئاسة كارتر أن أقل من نصف الشعب الأمريكى يعتقدون أن كارتر رئيس كفء ، لكن فى منتصف العام الثالث لرئاسته قفز هذا الرقم ليصل إلى الثلث فقط . ويبدو أن كارتر كان فى احتياج لقوة خارجية أخرى تنقذه من السقوط التام من دائرة التعاطف معه . . مثل أزمة الرهائن الأمريكيين فى إيران .

سياسة كارتر الخارجية

منذ مائة وخمسين سنة كتب أليكسيس توكوفيل أعظم مفسرى الديمقراطية مشيراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية : « أن السياسة الخارجية نادراً ما تتطلب ايًّا من المواصفات المنطقية للديمقراطية . بالعكس فهى تتطلب الاستخدام الجيد لكل نواقصها . إن الديمقراطية تصبح مرغوبة حين تعمل على تنمية المصادر الداخلية للأمة . فهى تقوم بتوزيع الثروات وتهىء سبل الراحة وتزكى الروح المعنوية وتقوى من احترام كل طبقات المجتمع للقانون . وكل هذه المزايا لها تأثيرها غير المباشر على علاقات الناس بعضهم البعض . لكن الديمقراطية تستطيع بجهد كبير أن تنظم دقائق الالتزامات الهامة . ثم إنها تساعد على المثابرة فى عمل خطة ثابتة وتيسّر تنفيذها برغم المعوّقات العنيدة » .

ويبدو أن هذه الملاحظات لم تكن مجدية لمسار السياسة الأمريكية فى معظم سنوات القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . أما فى النصف الثانى فقد بدأت سلسلة طويلة من الأخطاء فى تقدير الحسابات ، والتذبذب والهفوات . . تدفع مسار السياسة الخارجية الأمريكية ناحية الخزى داخل الوطن وخارجه : فهناك التدخل الأهوج فى جواتيمالا وجمهورية الدومينكان وكوبا . . ثم تدخل المخابرات المركزية

الأمريكية فى الشؤون الداخلية لعديد من أمم الأرض . واستخدام المساعدات الخارجية من أجل أغراض سياسية والعداء لجمهورية الصين الشعبية ثم الإصرار العنيد لمدة تزيد عن العشرين عاماً على أن الصين الحقيقية هى تايوان . وإيغار حدة الحرب الباردة مع روسيا . ثم القضية التى فاقت كل القضايا : وهى حرب السنوات العشر المأساوية البشعة على فيتنام وكمبوديا . ومع نهاية السبعينات قرر بعض دارسى السياسة الخارجية الأمريكية بتفهم كامل مثل جورج كينان وهانز مورجينتا أن السياسة الخارجية الأمريكية كانت بمثابة المجزر وأنها فقدت الاحترام فى الداخل والخارج .

هل هذا الانحدار فى هيبة ونفوذ الولايات المتحدة يعكس فشل الزعامة الأمريكية أم أنه تأكيد على أن المنافسة بين العالم الشيوعى وغير الشيوعى قد زادت حدتها ، وأن المنافسة من أجل تكوين حلفاء من دول العالم الثالث قد زادت . أو أن الصراع قد ازداد شراسة من أجل وجود منافذ لنقص المصادر الطبيعية ؟ ! أم أن عالماً مكوناً من ١٥٠ دولة أصبح مضطرباً بدرجة يصعب معها تدبر سياسة خارجية ثابتة راسخة ؟ !

ومهما بلغ أثر التدهور الذى حدث فى الستينات والسبعينات فى زعزعة قوة وهيبة أمريكا فإن الولايات المتحدة لم تتخل عن مسئولياتها بصفتها قوة عالمية ولم تنكرها أيضاً . فقد اتسعت مشاغلها باتساع العالم كله . حتى إدارة نيكسون التى لم تبذل جهداً يزيد من رصيدها فى الداخل ، بذلت أقصى جهد لزيادة رصيدها فى الخارج ، فقد ساهمت بشكل مذهل فى تمهيد الطريق لحل مشكلتين ظهرتا فى الأفق الدولى وهما : مشكلة الحرب الباردة مع الصين ومشكلة سباق التسلح النووى التى كادت تتفاقم إلى حد يصعب السيطرة عليه .

وبرغم المعارضة العنيفة من الجناح الموالى للصين داخل حزبه ، فإن نيكسون تخلى عن موقفه السابق باعتبار أن محاولة للاعتراف بالنظام الشيوعى فى الصين ، هى شكل من أشكال الخيانة . وفى بداية عام ١٩٧٢ بدأ هو أول خطوة درامية بزيارته للصين للقاء قمة مع ماوتسى تونج ، اتفق فيه الزعيمان على إنهاء العداء بينهما وبدء مرحلة وفاق جديدة . وتعهد كل منهما على العمل للوصول إلى هذه الغايات . وفى أول يناير ١٩٧٩ كان كارتر مهيئاً لإعلان الاعتراف الدبلوماسى الكامل بجمهورية الصين الشعبية وإلغاء معاهدة الدفاع المشترك مع تايوان . وقد أثار هذا الإلغاء تساؤلات دستورية هامة عن السلطات الممنوحة للرئيس والتى تخول

له حق إلغاء معاهدة أو إبرامها أساساً بمشورة وقبول مجلس الشيوخ .

وقد ساعدت هذه السياسة تجاه الصين فى رأب الجراح المتقيحة وبالتالى ساهمت فى احتمال انحسار التدخل الصينى فى شؤون كوريا ، كما ساعدت فى زيادة معدلات تصدير الحبوب والميكنة والتكنولوجيا بما يوحى بزيادة معدلات بيعها إلى السوق العالمى . لكنها فى نفس الوقت أنهت حدة توتر العلاقات مع الاتحاد السوفييتى وقضت على خطر أن تلعب الحكومة الأمريكية بورقة الصين وكأن الولايات المتحدة شريك فى لعبة الورق الدولية والصين هى الورقة التى تلعب بها أمريكا .

وبرغم مرض البارانويا االذى عانى نيكسون منه طويلاً تجاه الشيوعية بجناحيها الصينى والروسى ، فإنه هو ــ بمساعدة ومشورة هنرى كيسنجر ــ الذى بدأ أول خطوة فعالة تجاه تخفيف حدة سباق التسلح المدمر مع الاتحاد السوفييتى . وجاءت معاهدة «سولت ١ » عام ١٩٧٢ وهى المعاهدة الأولى للحد من التسلح الاستراتيجى ، وإن لم تكن هذه المعاهدة قد خفضت حدة التسلح بالفعل ، فقد ختمت بالشمع الأحمر على تصنيع بعض أنواع الأسلحة النووية .

ووصول كارتر إلى أبعد من هذا فى خطابه الذى استهل به رئاسته حين ألزم حكومته أن تتحرك تجاه هدفنا الأسمى وهو نزع السلاح النووى من العالم كله . ولم تلق أى أجزاء من الخطاب استحساناً مثلما حققت هذه الكلمات . ومع ذلك فما أن حل شهر يونية ١٩٧٩ ــ وبعد مفاوضات مطولة ــ حتى اجتمع الرئيس كارتر مع الرئيس ليونيد بيرجنيف فى باريس لتوقيع المعاهدة الثانية « سولت ٢ » التى طالبت الاتحاد السوفييتى بخفض الحشد الهائل من الصواريخ وقاذفات القنابل وتحديد عدد الرؤوس النووية التى تضاف إليها . ثم تقييد تطوير شبكات الصواريخ المضادة للقذائف لفترة ما . وكان هذا الاتفاق عادلاً كما كان حساساً للغاية . كما أنه ترك الباب مفتوحاً أمام المزيد من التسويات والاتفاقيات . وقد وصفها كارتر بأنها « تسعى إلى خدمة أهداف الأمن والبقاء . كما أنها تخدم الوضع العسكرى للولايات المتحدة الأمريكية وقضية السلام العالمى » .

وقدم الرئيس عند عودته إلى واشنطن تبريره للتصديق على هذه المعاهدة بقوله : « إن الحقيقة فى هذا العصر النووى أن الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تحيا مع الاتحاد السوفييتى فى سلام . . أو لا تحيا أبداً . ومنذ بدء التاريخ ومصائر الشعوب والأمم تتحدد

بواسطة موجات لا نهائية من الحرب والسلام وهذا الشكل يجب أن ينتهى إلى الأبد . ويجب أن تختفى موجات الحرب والسلام بين الأمم التى تملك الآلاف من الأسلحة النووية الحرارية ، التى يمكن للواحد منها فقط أن يحدث دماراً لا يمكن تخيل مداه !! يجب أن تختفى موجات الحرب والسلام ويحل محلها السلام فقط » .

كان منطق الرئيس هنا لا يمكن دحضه . لكن القوى المؤيدة للحرب الباردة هى التى لم تعد تشعر بأى منظم وراء ما يحدث . وقد حصلت « سولت ١ » على تأييد جماعى ساحق لكن مجموعة من مؤيدى الحرب الباردة المتحدثين باسم اتحاد صناعات الأسلحة والجمهوريَيْن المعنيين المتربصين للفوز فى سباق الرئاسة التالى دون أى اعتبار لاحتياجات الدفاع الحقيقية تزعموا حملة لإقناع الشعب الأمريكى بأن الاتحاد السوفييتى تحقق له التفوق العسكرى الفعلى على الولايات المتحدة الأمريكية . وأنهم يتحركون للعمل منطلقين من هذا التفوق . ومن الأشياء التى أكدت هذه المخاوف فشل الولايات المتحدة فى التدخل من أجل حماية الرهائن فى سفارة أمريكا بإيران فى نفس العام . ثم عملية غزو روسيا لأفغانستان فى العام الذى تلاه . ويأسا من الحصول على الموافقة اعترف الرئيس ــ مؤقتاً ــ بهزيمته وسحب المعاهدة من مجلس الشيوخ . وعلى أى حال لم يتخل الرئيس عن هذه المعاهدة فقد وعد فى حملته الرئاسية عام ١٩٨٠ بإعادة تقديمها إذا أعيد انتخابه . وهذا ما لم يحدث .

فى الوقت ذاته اقتحمت مجموعة من المشاكل اهتمامات الرئيس ، فقد وجدت الإدارة الجديدة نفسها أسيرة أخطاء الماضى فيما يتعلق بالكاريبى وأمريكا اللاتينية . وكان كارتر قادراً على تصحيح بعض هذه الأخطاء . كما كانت لديه القدرة أيضاً على إفساد البعض الآخر .

كان خليج الخنازير هو الذى أساء للعلاقات بين أمريكا وكوبا فى عهد كاسترو . ولم يكن بوسع جونسون أو نيكسون تصحيح هذا العمل الطائش . . أو القيام بمبادرات تمهيدية لإعادة العلاقات الطبيعية بين البلدين . بل على العكس من ذلك فقد أصرت الولايات المتحدة على حظر المبادلات التجارية مع كوبا خلال أربع إدارات . وحين شعر كاسترو أنه مواجه بعداء لا يمكن تهدئته من ناحية الولايات المتحدة . . اتجه تلقائياً إلى الاتحاد السوفييتى الذى أمده بالطبع بالمساعدات الاقتصادية الضرورية فى مقابل إجباره على تأييده لمغامراته فى أفريقيا .

وبـدأ كارتر بعض التلميحات الاختبارية نحو تخفيض حدة العداء لكنه سرعان ما تخلى عن هذه المحاولات عند اكتشافه ٣ آلاف خبير روسى موجودين داخل كوبا منذ عام ١٩٦١ . ولأغراض سياسية داخلية قام الرئيس بإظهار غضبه الهائل باستعراض القـوة العسكـرية فى خليج جوانتانامو الخاضع لأمريكا . ثم وقعت الأحداث المؤسفة الخطيرة فى العام التالى حين قام كاسترو ــ مظهراً كذبه ــ بإطلاق سراح عدة آلاف من المسجـونين الكوبيين والتحفظ عليهم كما سمح لعدة آلاف أخرى باللحاق بعائلاتهم وأصدقائهم فى الولايات المتحدة . وكانت النتيجة تدفق عشرات الآلاف من الكوبيين على شواطىء وموانىء فلوريدا التى لم تكن مهيأة لاستقبالهم .

لم تكن مسئـولية أمـريكـا مؤكدة عن إحداث الشغب فى أمريكا الوسطى . فقد دعمت أمـريكـا لعـدة سنـوات نظام انستـاسيو سومـوزا الفاسد فى نيكاراجوا وزودته بالأسلحة الحديثة وبتدريب ضباطه . بينما فى يوليو ١٩٧٩ بدأت الثورة الجامحة تجتاح البلاد وبعد فترة طويلة انتصرت على سوموزا وأجبرته على الفرار خارج البلاد ، مستولياً على جزء لا يستهان به من السيولة النقدية . لكن فطنت إدارة كارتر لضرورة الاعتراف بالنـظام الجديد . وكان الكونجرس كارها لتقديم أى مساعدات للحكومة الجديدة . وكذلك فقد قوبلت ثورة مماثلة فى سان سلفادور بحماس فاتر من إدارة الولايات .

وعـلى العكس من هذا قامت بنـما بتحقيق انتصـارات دبلوماسية مميزة على إدارة كارتـر . ومنذ أن تباهى تيودور روزفلت بتصريحه فى ١٩٠٢ « أنا أخذت بنما » ، فإن السيطرة على هذه الولاية التى انشقت من كولومبيا وكذلك السيطرة على المنطقة التى شقت فيها أمريكا القناة ، أصبحت هذه السيطرة موضع نزاع بين البلدين . وبديهى طبعاً أن تطلب بنما التحرر من السيطرة الأمريكية وأن تزيد نسبة أرباحها من ريع القناة . فإن زيادة أحجام السفن وأوزانها واستراتيجيات الحرب الحديثة جعل السيطرة على القناة أمراً لا قيمة له . استجاب الرئيس كارتر للمطالب البنمية بالدخول فى مفاوضات من أجل إبرام معاهدة تضمن لهم استعادة السيطرة على منطقة القناة . وإعادة القناة ذاتها إلى بنما بكامل السيطرة حتى عام ٢٠٠٠ . وفى مواجهة المعارضة الشرسة فى الكونجرس وفى أماكن أخرى تم التصديق على المعاهدة فى أبريل ١٩٧٥ بأغلبية صوت واحد .

كانت قضية حقوق الإنسان من بين القضايا التى شغلت اهتمام الرئيس كارتر . ففى خطابـه الذى استهل به رئاسته قال : « ولأننا أحرار لا يمكن أن نتجاهل حرية

الآخرين المقدرة فى أى مكان آخر . ومن ثم فإن التزامنا بحقوق الإنسان ــ يجب أن يكون غير محدود » . ومما لا شك فيه أن الدفاع عن حقوق الإنسان فى العالم كله شغل جهد كارتر . أما التزامه هذا فلم يكن « غير محدود » وإنما كان موجهاً فقط إلى الاتحاد السوفييتى والدول التى تدور فى فلكه مثل كوبا وشيلى والأرجنتين وإلى حد ما جنوب أفريقيا . ولأسباب ربما ترجع إلى منطق الحكمة أو الإحساس باللاجدوى ، لم يشعر الرئيس بالحماس للدفاع عن حقوق الإنسان فى بعض البلاد الصديقة التى كان قمع الحريات فيها بشعاً مثلما حدث فى كوريا الجنوبية والفليبين وإندونيسيا والبرازيل وإيران برغم نفوذ أمريكا فى هذه البلاد . ومن ملامح الاتزان فى دفاع الرئيس عن حقوق الإنسان أنه برغم توقيعه اتفاقيات تلزم الولايات المتحدة بالتمسك بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان وميثاق الأمم المتحدة للحقوق المدنية والسياسية . وميثاق الحقوق الاقتصادية والاجتماعية ، فإنه لم يستطع إقناع الشيوخ بالتصديق على أى من هذه الالتزامات .

كانت قضية الشرق الأوسط هى محور السياسة الأمريكية على مدى ثلاث إدارات . فكما جاء فى طبعة ١٩٧٧ من « السجل السنوى » الذى بدأه إدموند بيرك عام ١٧٥٨ : « فيما يتعلق بالزمن وبالطاقة فقد أثبتت مشاكل الشرق الأوسط عميقة الجذور أنها الشاغل الأعظم للولايات المتحدة الأمريكية . لكن لم تحقق المشورات الهائلة والتحذيرات والنفوذ والايحاء أى تقدم ملموس » . وكما أكدت الأحداث فإن هذا يعد غبناً فى حد ذاته .

فلعدة سنوات أصبح الشرق الأوسط ــ وهو الذى يضم مصر والبلاد العربية شرقاً حتى حدود باكستان ــ البارود المهدد بالانفجار فى كل خطة . . متمثلاً فى حروب دينية أو عنصرية أو أيديولوجية أو اقتصادية . فقد تفجرت الحرب ثلاث مرات بين إسرائيل والدول العربية المجاورة لها . بينما أصر المطالبون بتحرير فلسطين باستعادة جزء من أرض الوطن التى فقدوها . ونهجوا فى سبيل ذلك أسلوب حرب العصابات العنيفة . ولأن الدول العربية ــ بما فى ذلك الدول الواقعة جنوب البحر المتوسط ــ هى المسيطرة بكل المعايير على ما يعد أدبر احتياطى للبترول فى العالم . . فإن كل الدول الصناعية تقريباً فوق الأرض أصبح لها ضلع فى سياستها واقتصادياتها .

وفى هذه المنطقة المضطربة من العالم تحققت أعظم إنجازات كارتر . وفيها أيضاً

تحقق فشله المرير . أما النجاح الذى لم يكتمل بعد فيتمثل فى إنهاء العداوة بين مصر وإسرائيل وقد هددت باشتعال حرب شاملة مرة أخرى . أما الفشل فيتمثل فى ثورة إيران التى ما إن أطاحت بالشاه المكروه حتى انقلب العداء بكل شراسة إلى الولايات المتحدة التى كانت مسئولة عن اعتلاء الشاه عرشه ولأنها ظلت صديقه الوفى ردحاً من الزمن .

وبعد حرب ١٩٧٣ القصيرة احتلت إسرائيل بعض الأراضى المصرية فى شبه جزيرة سيناء وشرعت فى إقامة المستوطنات والدفاعات العسكرية فيها . وكان هذا تهديداً رفضته مصر . كما أن استمرار احتلالها للأرض يهدد بانفجار العداوات وبمجرد أن تشعر الدول العربية باستعادة قوتها فسوف تعاود الهجوم على هذه الدولة التى أقسموا على القضاء عليها . ومن ثم لم ترض الولايات المتحدة أن تقف موقف المتفرج من هذه الأزمة خاصة وهى الدولة التى ساهمت فى إنشاء دولة إسرائيل المستقلة . كما أنها تضم أكبر عدد من اليهود فى العالم . وعندما اتبع وزير الخارجية هنرى كيسنجر دبلوماسية المكوك . . نجح فى إقناع الخصمين على الأقل بضبط النفس انتظاراً لمجىء الوقت المناسب . وبالفعل عندما تولى كارتر كان الوقت قد حان . وفجأة . . وفى نوفمبر ١٩٧٧ وفى مبادرة درامية قام الرئيس السادات بزيارة مذهلة إلى القدس . وفى ١٩٧٨ طار الرئيس كارتر إلى مصر ليناقش مع الرئيس السادات حل المشكلة المستعصية فاشترط الرئيس السادات أنه فى مقابل الاعتراف الكامل بإسرائيل فعلى إسرائيل إعادة كل الأراضى المصرية المحتلة وأن تعترف بالحق الشرعى للفلسطينيين للاشتراك فى تسويات تحدد مصيرهم . وبعد ذلك تم دعوة الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجين لزيارة الرئيس كارتر فى مقره بكامب دافيد ؛ لبذل جهد آخر لتسوية المشاكل المعلقة بين البلدين التى لم تهدد بقاءهما فقط وإنما هددت السلام العالمى كله . وبعد مفاوضات مكثفة على مدى ثلاثة أسابيع خرج الرؤساء الثلاثة على العالم فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ بمجموعة اتفاقيات تبشر بالسلام . وقد استغرق الأمر ستة أشهر أخرى لتتمكن الدولتان من توقيع المعاهدة الفعلية . وتم هذا الحدث فى البيت الأبيض فى ٢٦ مارس . ولم تبارك أى دولة عربية أخرى هذا الحل ؛ لذلك بقى الأمل فى السلام الدائم أمراً غير مؤكد .

أما ثورة إيران التى قامت كرد فعل للسياسة الأمريكية فقد جاءت مفاجأة للجميع ، فالولايات المتحدة كانت المعين الحقيقى لاسترداد الشاه عرشه فى ١٩٥٣ . ومنذ ذلك الحين ظلت هى أخلص معاون للشاه . فاعتمدنا على بترول إيران . واعتبرنا

العربية السعودية وإيران المعادل للنفوذ السوفييتي في الشرق الأوسط . وبالتالي كان من الضروري التغاضي عن الاستبداد والتعذيب اللذين تميز بهما حكم الشاه . ومن ناحية أخرى اعتمد الشاه على الولايات المتحدة فيما يساوي بليون ونصف البليون دولار للتسليح . وعندما أطاحت الثورة التي ألهبها آية الله الخوميني بعرش الشاه أصبح منفياً . وإبان إقامته في المكسيك طلب الشاه من أمريكا الحق في المعالجة من السرطان . وبرغم تحذير سفارة أمريكا في إيران من أن السماح بدخول الشاه إلى الولايات المتحدة قد يثير الرغبة في الانتقام . فإن الإدارة الأمريكية وبإيعاز من هنري كيسنجر ودافيد روكفلر وبعض رجال الحزب الجمهوري ، قبلت السماح له بدخول أمريكا .

ولأن العلاقات كانت هشة جداً احتل الطلبة ــ المسلحون الذين أطلقت الحكومة الإيرانية أيديهم في الأمر ــ سفارة أمريكا وأخذوا حوالي خمسين من أعضائها رهائن . وكرد فعل لهذا قام الرئيس كارتر بتجميد أموال الإيرانيين في أمريكا وطرد الدبلوماسيين الإيرانيين ، وهكذا تم قطع العلاقات بين الدولتين . أدانت الأمم المتحدة عملية الاحتجاز . واعتبرتها محكمة العدل الدولية عملاً غير مشروع . وذهب كل هذا أدراج الرياح . ويوماً بعد يوم ازداد عنف الإيرانيين . وكانت شروطهم لإطلاق سراح الرهائن تتمثل في تقديم أمريكا اعتذارها وإعادة ثروة الشاه إلى إيران واستمرار العون الأمريكي العسكري . وهي كلها ماسة بالشرف . ولأن كارتر كان في مسيس الحاجة إلى أي فعل يقوم به فأرسل في مطلع عام ١٩٨٠ قوة لإنقاذ الرهائن . لكن القوة فشلت في إنقاذهم . . كما فشلت أيضاً في إنقاذ شعبية كارتر المتدهورة .

لقد خلقت الثورة الإيرانية بما تشكله من تهديد لمنابع البترول وللاستقرار في الشرق الأوسط ، نوعاً من الارتباك للاتحاد السوفييتي كما فعلت مع أمريكا . ولم يكن هذا بأمر مفاجيء . فإيران تطل على حدود الدولتين الإسلاميتين أفغانستان وباكستان . الأولى تشارك الصين بعض حدودها . والثانية تقع على الطريق إلى الهند . وللاتحاد السوفييتي اهتمامات في كلا الدولتين . وكانت الفرصة مواتية جداً لقيام حركة إسلامية معادية للشيوعية تنتشر عبر هذه المساحات الشاسعة . كما أنها يمكن أن تنفذ إلى المناطق الاسلامية داخل الاتحاد السوفييتي ذاته ؛ لذلك وفي نهاية عام ١٩٧٩ بادر الاتحاد السوفييتي باحتلال أفغانستان ذاتها بهدف خلق وضع ثابت لا يمكن السيطرة عليه . ولأن الأفغان لم يذعنوا للأمر بل حاربوا فقد أخذ هذا الوضع شكل الاستعمار الشيوعي الارهابي .

شجب الرئيس كارتر هذا الغزو ووصفه بأنه انتهاك صارخ للقانون الدولى ، وتهديد خطير للسلام العالمى . وسارع بمقاطعة الأولمبياد المقرر قيامه فى موسكو . ووصفها كارتر بقوله : « لقد قلبت الموازين أمام عينى » وجعلت الولايات المتحدة الأمريكية مواجهة بأعظم خطر يهدد السلام العالمى منذ الحرب العالمية الثانية . وكان هناك تأييد واسع لوجهة النظر هذه فى الكابيتول . وقد انضم بعض الليبراليين أمثال السيناتور ماسكى والسيناتور تشيرش للمنادين بفضح هذه « البربرية الدولية » . وكانت العواقب بعد ذلك وخيمة . . ومحتمة . فقد وجدت إدارة الرئيس كارتر نفسها مضطرة للخروج من اعتدالها والعودة إلى الحرب الباردة والإسهام فى سباق التسلح بعد أن بذلت جهداً مخلصاً لتخفيف حدة الحرب الباردة فى العالم .

انتخابات ١٩٨٠

الحكومات المستبدة هى التى تخشى الثورات لا الانتخابات . بينما تستطيع الحكومات البرلمانية بشكل عام أن تسيطر على هذه الانتخابات حتى تضمن اتجاهها فى الوجهة التى تريدها هى فى النهاية . وهذا الترف ليس من نصيب الإدارات ولا الحكومات فى الولاية المتحدة الأمريكية . وقد جاءت انتخابات عام ١٩٨٠ فى أسوأ فترات إدارة الرئيس كارتر . فقد ارتفع التضخم إلى أن وصل ١٢٪ وزادت البطالة إلى ما يزيد على ستة ملايين ، وظهرت الميزانية عاجزة ، وارتفع سعر البترول ارتفاعاً جنونياً ينذر بمزيد من الارتفاع . وإدارة دفة الشؤون الخارجية بدت غير فعالة وفى معظم الأحيان عقيمة . وأكبر دليل على ذلك هو دراما احتجاز الرهائن فى إيران . وقد رأى النقاد فى الداخل والخارج أن الولايات المتحدة أصبحت لا يمكن الاعتماد عليها فى تخطيط سياسات ثابتة واضحة . ولم يحظ كارتر بالتعاطف أو التقدير الذى كان يتوقع له منذ سنوات أربع مضت .

بدأت حملة انتخابات ١٩٨٠ مبكرة سنة عن موعدها المتبع . وانزلقت فى طريق ملتو أثناء الانتخابات التمهيدية والاجتماعات وجداول الاقتراع . فتم هذا كله وسط شلالات من الخطب والأحاديث مثل شلالات نياجرا . . ومعظمها إما مغرض أو وليد خوف أكثر منها خطب تضع الأسس وترسم الحلول .

وقد ظن السيناتور إدوارد كينيدى ، بعد انخفاض شعبية الرئيس إلى حد أكثر من انخفاض شعبية نيكسون بعد ووترجيت ، أن المجال مفسوح أمامه لتولى زعامة الحزب والأمة . وكانت الدلائل السياسية مشجعة لهذا . ولم يكن إدوارد كينيدى صاحب اسم له بريق ساحر فحسب وإنما نجح أيضاً فى أن يبنى شهرة جيدة خلال الدورات الثلاث فى مجلس الشيوخ ؛ وذلك لدفاعه عن جماعة روزفلت ـ كينيدى الليبرالية . كما أنه كان خطيباً مفوهاً وسياسياً حاذقاً ، غير أنه لم يضع فى حساباته عاملين أفسدا ترشيحه فى النهاية وهما أولاً ذكرى المأساة التى وقعت له فى تشابا كويديك ومازالت ظلالها تخيم عليه حتى الآن ، وثانياً الخوف من ليبراليته المعلنة . وقد أصبح هذا المصطلح (الليبرالية) ولأول مرة فى تاريخنا موضع تحقير . ومن بين الأمور التى دفعت بالناس للإحساس بالضجر من الإصلاح الليبرالى وزيادة التشريعات الحكومية ، موافقة الولايات على قانون مضاد لحق الإجهاض ولعقوبة الإعدام والعداء الإقليمى لمشروعات أتوبيسات المدارس ثم رد فعل الولايات للقوانين المضادة للتلوث وقوانين البيئة باهظة التكاليف ثم الثورة المتزايدة على قوانين الضرائب . وحتى إذا غفر لكينيدى مأساة تشابا كويديك فقد كان عليه أن يسبح ضد تيار المحافظين . فأثبتت الانتخابات التمهيدية أنه لا يتوقع له الفوز ومن ثم أصبح كارتر هو مرشح الحزب .

بدا الأمل براقاً أمام الجمهوريين . واستعد اثنا عشر مرشحاً من بينهم الحاكم السابق ريجان والحاكم السابق جون كانالى من تكساس . وجورج بوش عضو الكونجرس السابق ومدير وكالة المخابرات المركزية وروبرت دول مرشح منصب نائب الرئيس فى انتخابات ١٩٧٦ ثم الرئيس السابق جيرالد فورد الذى وقف بعيداً فى تواضع داخل الكواليس منتظراً إشارة تدعوه لدخول مسرح الأحداث . وفى النهاية اتجهت الترشيحات كلها إلى نجم السينما والتليفزيون وحاكم كاليفورنيا السابق رونالد ويلسون ريجان .

وفى غمار حملة انتخابية مرهقة تحرك المرشحان الرئيسيان فى خطى وئيدة إلى وسط الدائرة . حتى بدا التفريق بين برامجيهما وسياستيهما أمراً بالغ الصعوبة .

لم يعن تصنيف ديمقراطى وجمهورى أى شىء فى انتخابات ١٩٧٦ . أما فى انتخابات ١٩٨٠ فلم يعن هذا التصنيف الكثير اللهم إلا بالنسبة للمرشح الجمهورى رونالد ريجان الذى انتقد بحدة كلا من الرئيس كارتر لأفكاره المسروقة من برنامج الحزب الجمهورى ، ثم رجل الكونجرس وعضو الحزب الجمهورى جون أندرسون الذى أراد

خوض الانتخابات مستقلاً ، لأنه اندس بين صفوف الحزب الديمقراطى لسرقة أفكاره . وكما أصبح الاقتصاد فى انحدار مستمر وكذا هيبة أمريكا فى الخارج ، فإن أحداً لم يهتم كثيراً بالتحديدات القاطعة بين الحزبين سواء على المستوى السياسى أو غيره .

من المؤكد أن الاختيار الذى فقد معناه بين مرشحين كلاهما مع أو ضد خفض التضخم . . والبطالة وإنقاذ البيئة والسعى للسلام وتحقيق التفوق العسكرى على كل الخصوم فى العالم كله ، جعل المستقلين يتشجعون لتقديم بدائل جديدة . وقد تقدم ثلاثة بالفعل وحصلوا على بعض التأييد من الصحافة والعامة على السواء ، اثنان منهما هما بارى كومونور أحد أبطال الدفاع عن البيئة والحفاظ على المصادر الطبيعية ، ثم إدوارد كلارك الذى اعتبر نفسه « تحررى » وقد فسر هو وأتباعه هذا المصطلح بمعنى « ليبرالى » بمفهوم هربرت سبنسر ووليم جراهام سوند . أكثر من مفهوم توماس جيفرسون ومع ذلك لم يشكلا تهديداً يذكر فى الانتخابات . أما ثالث المرشحين المستقلين فهو جون أندرسون من ولاية إلينوى الذى بدأ وكأنه أكثرهم احتراماً وأعمقهم فكراً وأرشقهم عبارة وأكثرهم أمانة سياسية . وبرغم أنه حظى بالتأييد الحماسى لليبراليين والأكاديميين والشبان فإنهم لم يشكلوا أى دعامة انتخابية . وكان أندرسون هو المرشح الوحيد الذى خط لنفسه برنامجاً ومع ذلك فقد عانى من ثلاثة معوقات قاتلة ، الأول الفشل فى الحصول على تمويل الكونجرس لحملته الانتخابية ، والثانى إحجام الناخبين والذى يرجع إلى عهد قديم ، والثالث خوف عدد كبير من الديمقراطيين والمستقلين من أن أى صوت يذهب إلى أندرسون هو فى الحقيقة لصالح ريجان فى النهاية . حيث بدا أن فترة رئاسة جدبدة يتولى فيها ريجان لن تكون بحال من الأحوال أسوأ من إعادة انتخاب كارتر لسنوات أربع جديدة .

تركزت الحملة على أشخاص المتنافسين الرئيسيين أكثر من تركيزهم على محتوى ومضمون البرامج ذاتها . فلم يكن بأمر غريب أن يتشابه كارتر وريجان عند مناقشتهما مسائل مثل التضخم والدفاع وأى من المشاكل الأخرى التى واجهت أمريكا فى ١٩٨٠ . وقد أثار الرئيس كارتر بعض الإعجاب لذكائه السياسى ولمهارته فى التعامل مع بعض المشاكل الدولية الشائكة . أما ريجان فقد استحوذ على تعاطف الناس لحماسه وبساطته وقدرته على عدم التفريق بين الرجال والنساء بشكل عام . وكما اتضح فيما بعد فإن الذى فاز فى هذه الانتخابات كان التأثير القروى وليست المواصفات العامة الموضوعية .

كانت النتائج مدهشة حتى للجمهوريين أنفسهم . لدرجة أن أغلبية الحاكم السابق لريجان فى المجمع الانتخابى والتى بلغت ٤٨٩ صوتاً فى مقابل ٤٩ صوتاً ، كانت هى من أهم عوامل الحسم فى تاريخ الرئاسة الحديثة . كان كارتر قد حصل على تأييد ست ولايات فقط غير مقاطعة كولومبيا . وكان عزاؤه أن ولايته الأم جورجيا كانت بينهم ثم مينيسوتا ولاية نائبه السابق ولتر مونديل . ولم تكن الأصوات العامة كلها فى جانب واحد إلا أنها كانت فعالة . لقد خسر الرئيس سيىء الحظ بعدد عشرة ملايين صوت . وهو عدد أكبر من العدد الذى صعد به إلى الرئاسة فى انتخابات ١٩٧٦ . وقد أوضحت انتخابات الإعادة أن ريجان حصل على أصوات ٥٢٪ فقط من الناخبين . وفاز كارتر وأندرسون بحوالى ٤٧٪ من الأصوات . . مع العلم بأن عدداً كبيراً من الناخبين لم يعبأ بالذهاب إلى صناديق الانتخاب . أما فوز ريجان الساحق هذا فلم يزد على ٢٦٪ من مجموع أصوات المؤيدين له بالفعل .

وبشكل عام فإن من أهم ملامح هذه الحملة الانتخابية ، أنه لأول مرة منذ رئاسة أيزنهاور يتمكن الجمهوريون من اجتياح مقاعد مجلس الشيوخ ، ويقومون بغارات مكثفة على الأغلبية الديمقراطية فى المجلس . وأكثر من هذا فإن الكثير من الديمقراطيين الذى عانوا مرارة الهزيمة فى الاقتراع كانوا من أبرز أعمدة الحزب . لدرجة أن السيناتور ماجنسون من واشنطن والذى استمر يحكم على مدى أربعين سنة بدون منازع أجبر على التقاعد . كما أن فرانك تشيرش الذى بقى سيناتوراً لمدة أربع وعشرين سنة عن أيووا ورئيس لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ لقى هزيمة مريرة من منافس غير معروف . وهذا ما حدث أيضاً للسيناتور بيرش باسى سيناتور إنديانا ، وجورج ماكجفرن مرشح حزبه فى انتخابات ١٩٧٢ . كل هذا يعنى أن بعض اللجان الهامة التى رأسها بعض الديمقراطيين الليبراليين سوف يرأسها الآن أعضاء أكبر سناً وأكثر محافظة من الحزب الجمهورى . فرجل مثل ستروم ثيرموند من كارولينا الجنوبية رشح ليخلف السيناتور كينيدى رئيساً للجنة العدل ، وجون تاور عن تكساس رئيساً للجنة الخدمات العسكرية .

عند تشريح نتائج الانتخابات فسر الكثيرون انتصار الجمهوريين على أنه يبشر بإنهاء ذلك التعصب الغالى الملح الذى سبق أن قضى عليه روزفلت فى عام ١٩٣٢ مثل ما يقال عن الجنوبيين والسود واليهود والعمال والفقراء والمثقفين . لقد احتفظ

الديمقراطيون فى انتخابات ١٩٨٠ بمساندة السود لهم وكذلك بدعم ثانى أكبر أقلية فى أمريكا وهى « الهسبان » الذين يتكلمون الاسبانية . أما جوهر الائتلافات الأخرى فقد بدأ يتغير بعمق .

كان هناك شيء واحد ، واضح للجميع ، وهو أن هذه الانتخابات كانت فى حد ذاتها ثورة بالمقارنة بالثورة الجديدة التى صعدت بروزفلت إلى الحكم فى ١٩٣٢ فلم يكن لهذه الثورة مجرد سياسات وبرامج وإنما كان لها ما يمكن أن يسمى بالفلسفة . فقد وصفت بأنها فلسفة فى القانون والدستور عنيت بتوفير الرخاء لأول ولاية أمريكية غير ثرية على غرار نظم العالم القديم . وإنما هى تختلف بحدة عن مبادىء وممارسات الماضى . إن الانتصار الجمهورى عام ١٩٨٠ كان بريئاً من « البرامج أو الفلسفة » فبدت قوته الدافعة سلبية ممثلة فى التقليل من حجم الحكومة ، والحد من البيروقراطية . وخفض الخدمات الاجتماعية . وخفض الإنفاق فى كل المجالات عدا المجالات العسكرية ومقاومته أو تأجيل مطالب الفقراء والعاطلين والسود والأقلية الهسبانية . . وحتى . . مطالب المرأة .

وفى تفسير هزيمة كارتر قيل إنه هو وحزبه كانت تنقصهما بصيرة ما يجب أن تكون عليه أمريكا ، وهى البصيرة التى سبق أن ألهمت واشنطن ونيلسون وفرانكلين روزفلت . وهذا حق . والحزب الجمهورى أيضاً تنقصه أى بصيرة من هذا النوع . ربما لأنه بمقدم عام ١٩٨٠ أصبحت هذه البصيرة غير محسوسة ، ربما لأن السحب التى تكاثفت فوق الأفق كله . . كانت شديدة العتامة !

CONTENTS

THE SECOND WORLD WAR

THE COLD WAR

POSTWAR PROBLEMS, 1946-1952

THE KOREAN WAR: THE HYDROGEN BOMB

THE EISENHOWER ADMINISTRATION

NEW FRONTIERS: THE CHALLENGE

رقم الإيداع ٣٦٨٦/١٩٩٠
الترقيم الدولى ISBN 0-394-40892-6

مطابع المكتب المصرى الحديث
MODERN EGYPTIAN PRESS
صندوق بريد ٢٥ شبرا الخيمة - القاهرة ت : ٢٢١١٠٧١ - ٢٢١١٠٧٢ فاكس ٢٢١١٠٧٣

A SHORT HISTORY OF THE UNITED STATES

ALLAN NEVINS
HENRY STEELE COMMAGER

هذا الكتاب

برزت أمريكا على مسرح التاريخ جريئة ناضجة ، مكتملة النمو ، ذلك لأن المستوطنين الأوائل لم يكونوا بدائيين ، وإنما كانوا متحضرين ، فغرسوا فيها ثقافة لها من العمر قرون . .

وتعتبر أمريكا أحدث الأمم الكبرى ، وأكثرها جدة ، وإثارة للاهتمام ، فتاريخها ـ على قصره ـ يوجه تاريخ وتطور النظم الإنسانية فى مجالاتها المختلفة . .

وفى هذا المؤلف الوجيز ، يطوف كاتبه بهذا التاريخ الذى امتد بظله وتأثيره إلى بقاع كثيرة من العالم ، مؤكداً ريادة أمريكا فى الفكر والعلم والنظم السياسية المعاصرة .

INTERNATIONAL PUB. & DIST. HOUSE
CAIRO — KUWAIT — LONDON